

سيرته | مقالاته | محاضراته | بحوثه

جمع وترتيب

الدكتور مبارك بن حمد الحامد الشريف

الجزء الأول

دار كنوز إشبيليا

للنشر والتوزيع

جعفر شيخ إدريس

سيرته - مقالاته – محاضراته - بحوثه

[1]

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشريف، مبارك حمد آل حامد

جعفر شيخ إدريس: مجموعة مقالات ومحاضرات وبحوث.

مبارك آل حامد الشريف - الرياض، ١٤٣٩هـ (٢مج)

٥٢٨ ص ١٧×٢٤؛

ردمك: ٤-٩٤-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

١-٩٥-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

١. المقالات العربية أ. العنوان

ديوي ٨١ ١٤٣٩/٢٢٦٨

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٢٢٦٨هـ

ردمك: ٤-٩٤-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

١-٩٥-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

ص ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٩١٤٧٧٦ ١١ ٩٦٦ +

٤٩٦٨٩٩٤ ١١ ٩٦٦ +

فاكس: ٤٤٥٣٢٠٣ ١١ ٩٦٦+



Dar Kounouz Eshbelia

For Publishing & Distribution

Kingdom of Saudia Arabia

P.O. Box 27261 Riyadh 11417

Tel.: +96611 4914776

+96611 4968994

Fax.: +966114453203

E-mail eshbelia@hotmail.com

جعفر شيخ إدريس

سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه

جمع وترتيب

د. مبارك بن حمد الحامد الشريف

الجزء الأول



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن ما قام به الابن الدكتور مبارك بن حمد الحامد الشريف من جمع وترتيب ونشر مجموعة مقالات وبحوث ودراسات ومحاضرات سبق أن ألقيتها أو كتبتها عمل وجهد يشكر عليه، وكما هو معلوم أن من طبيعة البشر أنه ليس معصوم فيما يقول ويفعل فهو يصيب ويخطئ، وكما قال الإمام مالك رحمه الله: «كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر»، فما كان في هذا المجموع من صواب فبفضل الله وتوفيقه، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، وأسأل الله أن يتجاوز عنا تقصيرنا وخطأنا، كما أسأله أن ينفع بهذا المجموع، وأن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه. وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

جعفر شيخ إدريس

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصبه أجمعين، أما بعد:

فمن أعظم النعم التي أنعم الله بها علي بعد نعمة الإسلام أن وفقني بالاستفادة وتلقي العلم على أيدي أساتذة فضلاء وعلماء أجلاء، ومنهم أستاذنا الدكتور جعفر شيخ إدريس، الذي شابه شيخه عبد العزيز بن باز في حب الدعوة إلى الله والحرص على هداية الناس، وتأثر بابن تيمية في مجادلة أهل الأهواء والضلال من المسلمين، وأهل الكفر والإلحاد من اليهود والنصارى والوثنيين والشيوعيين، فكان - جزاه الله خيرا وأمد في عمره على طاعة - منذ نعومة أظفاره وهو يصول ويجول في مناظرة أهل الضلال والانحراف، سواء في بلده السودان أو خارج السودان، لاسيما في أوربا وأمريكا، ولقد أكرمني الله تعالى بمعرفته قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة حينما كنت طالبا في مرحلة الماجستير في المعهد العالي للدعوة الإسلامية بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، ومنذ ذلك الحين وأنا أستفيد من علمه، سواء بزيارته والحديث معه، أو بقراءة بحوثه ومقالته أو سماع دروسه ومحاضراته، فقد كنت حريصا منذ عرفته أن أجمع كل ما أجده للشيخ حتى أصبح عندي مجموعة قيمة من البحوث والمحاضرات والندوات والمقالات، ولأن كثيرا منها - خاصة المحاضرات التي ألقاها الشيخ في الغرب بعضها له ما يقارب من أربعين سنة - كان مسجلا في أشرطة فيدو ومعرضا للتلف، لذا قمت بتفريغها وكتابتها، وذلك وفاء مني لأستاذي، وقبل هذا حاجة المسلمين الشديدة في هذا الزمن لما كتبه الشيخ من علم في كثير من القضايا المعاصرة المهمة، لاسيما فيما يتعلق بالحضارة الغربية، فقمت بجمع هذا التراث النفيس وسميته بالتشاور مع أبنائه الكرام:

جعفر شيخ إدريس (مجموعة مقالات ومحاضرات وبحوث).

وهذا المجموع يحوي:

١) ترجمة موجزة لشيخنا.

٢) حوارات ومقابلات صحفية وإذاعية وبلغ عددها ثلاثة وعشرين حوارا[١].

---

(١) وهي:

١. حوار مع مجلة الدعوة السعودية في ندوة عن الحوار وأهميته في بناء المجتمع الإسلامي في ١٤١٠/١/٣٠.
٢. حوار مع مجلة البيان حول الفكر الاسلامي والفكر الغربي العدد ٥٥ربيع الاول ١٤١٣الموافق سبتمبر م١٩٩٢ ، والعدد٥٦ربيع الاخر ١٤١٣الموافق اكتوبر ١٩٩٢م.
٣.حوار مع مجلة اليمامة العدد ١٣٧٩ ٨/جمادى الآخرة ١٤١٦الموافق ١/ نوفمبر ١٩٩٥م.
٤.حوار مع مجلة العصر الإلكترونية بعنوان هذه تجربتي وهذه شهادتي عام ١٤٢١ .
٥.حوار مع مجلة الدعوة العدد ١٨٤٠ في ١٩صفر ١٤٢٣الموافق ٢٠٠٢م عن الإرهاب ..لن يفهم إلا بنصوص الكتاب والسنة .
٦. حوار مع مجلة البيان العدد١٩٧محرم ١٤٢٥عن الخوف من الإسلام وأثر في توجه السياسة الأمريكية
٧. حوار مراجعات مع الاستاذ الطاهر حسن التوم في ١٨/٣/ ٢٠١٠م.
٨. حوارات مركز نما للبحوث والدراسات وقد طبعت في كتاب(حوارات ما بعد الثورة)عام ١٤٣٣ الموافق٢٠١٢م ضمن حوارات أخرى عن الثورات العربية .
٩. حوار حول صراع الحضارات مع مجلة الفيصل السعودية العدد ٢٥٧.
١٠. حوار مع صحيفة الشرق الاوسط ا الجمعة ٠٧ ذو الحجة ١٤٢٤ هـ ٣٠ يناير ٢٠٠٤ العدد ٩١٩٤ .
١١. حوار (جريدة المسلمون العدد٣١٢ ، ١٤١١/٧/١٠.) مع الداعية الذي رفض أن يكون فقيه العامة ، أجرى الحوار جمال خاشقجي.
١٢. حوار جريدة الوفاق مع الشيخ الدكتور جعفر شيخ إدريس حاوره الهندي عز الدين.
١٣.حوار حول أحداث الحادي عشر من سبتمبر مع مجلة الإسلام اليوم ٢٦/ ٨ /١٤٢٢الموافق ٢٠٠١/١١/١٢م.
١٤.حوار في جريدة الرياض حاوره على الشثري.
١٥. حوار في قناة المجد حول إشكاليات الديمقراطية والبدائل الإسلامية حاوره فهد السنيدي.
١٦. حوار في قناة المجد حول قرار شيرك والحرية الدينية حاوره فهد السنيدي.
١٧. حوار في قناة طيبة الفضائية السودانية بعنوان ذكرياتي .
١٨. حوار في جريدة الرياض حاوره عبد الحي شاهين في ١٤/ ٦/ ٢٠٠٢م
١٩. حوار جريدة الصحافة السودانية، العدد ٣١٢٤، الأحد ٢١ شوال ١٤٢٢هـ الموافق ٦ يناير ٢٠٠٢.
٢٠. حوار صحيفة الاستجابة السودانية صفر ١٤١٢.
٢١.حوار مجلة منارات العدد٢٢ أجرى الحوار الدكتور محمد الخرعان .
٢٢. حوار مع مجلة الأمل التي تصدرها رابطة الشباب المسلم العربي في امريكا واجرى الحوار الدكتور أحمد سيف الدين تركستاني عام ١٩٨٦م.
٢٣. حوار حول صراع الحضارات وهو مقابلة أجرتها مجلة الفيصل مع الدكتور جعفر شيخ إدريس العدد ٢٥٧.

٣) المقالات وبلغ مجموعها تقريبا ثلاثة وستين مقالا نشرت في صحف ومجلات عربية وإسلامية، وهذه غير المقالات التي كان كتبها الشيخ في مجلة البيان وطبعت في كتاب مستقل وهي تزيد على مائة مقال، وقد اكتفيت بالتعريف بها والإشارة إلى تاريخ نشرها في مجلة البيان[1].

---

(١) وهي كالآتي:

١. أضواء قرآنية على ظاهرة الشذوذ الجنسي(جريدة منار السبيل ذو القعدة ١٤١٣).

٢. إلا رحم الله ناشر السنة (شبكة المشكاة الإسلامية الأربعاء ٠٧شوال ١٤٢٨هـ ١٧أكتوبر ٢٠٠٧ م).

٣. الآخر ،(شبكة المشكاة الإسلامية الاثنين ٢٠ذوالقعدة ١٤٢٥هـ١٠يناير ٢٠٠٥ م

٤. الإسلام عقل وإيمان (جريد المسلمون السعودية).

٥. الإسلاموتحقيقالمجتمعالإنساني (مجلةالمجتمعالكويتية١٦١رجب ١٣٩٣يوليو ١٣٧٣).

٦. الحرية (جريدة الميثاق الاسلامي عدد ١٦ شوال ١٣٨٧ يناير ١٩٦٨م).

٧. الحوار مجادلة لا مداهنه (شبكة المشكاة الإسلامية ٢شعبان ١٤٢٤هـ٢٤أكتوبر ٢٠٠٣ م).

٨ . الخمر والعدوان شبكة (المشكاةالإسلامية ١٩صفر ١٤٢٧هـ١٨مارس ٢٠٠٦).

٩. الصلة بين ظاهر الإنسان وباطنه (منارالسبيل، السنةالثانية. محرم١٤١٤هـيوليو١٣٩٣—).

١٠. الصيام وتفاضل الأزمان(شبكة المشكاة الإسلامية الجمعة ١٩ رمضان ١٤٣١ هـ أغسطس ٢٠١٠م).

١١. إنسانيتنا جوهر ثابت وواقع يتغير (موقع الشيخ جعفر شيخ إدريس ٢٠١٦/٦/١م).

١٢. أهمية العقيدة وأسبقيتها على الأفعال (موقع المختار الإسلامي ٢٠جمادى الآخرة ١٤٣٦.

١٣. أين المرجعية ؟ ا(الشبكة العنكبوتية.

١٤. بشاعة التمثيل بالجثث (موقع الدكتور جعفر شيخ إدريس ١٩ صفر ١ الموافق ٤٢٥ أبريل ٢٠٠٤).

١٥. بل ليس في الإمكان إبداع (مجلة المعرفة السعودية العدد٣٢ذوالقعدة ١٤١٨).

١٦. تحريم الشيوعية (جريدة الميثاق الإسلامي ، العدد ١٦، صفحة ١٢.

١٧. رد شبهات المكذبين بعذاب القبر (شبكة المشكاة الإسلامية الجمعة ٢٩ ربيع الثاني ١٤٢٧الموافق ٢٦مايو ٢٠٠٦م

١٨. عالم النبوة الرحيب (شبكة المشكاة الإسلامية ١٣ ذو القعدة ١٤٢٨الموافق ٢١نوفمبر ٢٠٠٧م

١٩. غلو في فهم التوحيد (مجلة منار السبيل جمادى الآخرة ١٤١٦هـ، الموافق نوفمبر ١٩٩٥م

٢٠. فكيف يهدم الإعلام العقيدة (شبكة المشكاة الإسلامية الجمعة ٢٩شعبان ١٤٢٤هـ ٢٤أكتوبر ٢٠٠٣ م).

٢١. لا تعلق بالأشخاص : معالم في طريق الاستمساك بالمبادئ (جريدة الميثاق الإسلامي، العدد ٦٣٧، ١٠ أكتوبر ١٩٦٧ م).
٢٢. لا مداهنة في دين الله شبكة المشكاة الإسلامية ١٠ رجب ١٤٢٦الموافق ١٣ اغسطس ٢٠٠٥م.
٢٣. من قواعد الدين المحافظة على سمعة المسلمين (جريدة الميثاق الإسلامية ربيع الثاني ١٤٢٥).
٢٤. من مزالق الدعاة (شبكة المشكاة الإسلامية الجمعة ٢٩ شعبان ١٤٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣ م).
٢٥ . مناقشة هادئة مع المفجرين (الشبكة العنكبوتية).
٢٦. مهمة الداعية البلاغ(مجلة التوعية الإسلامية في الحج العدد ١٨ذو الحجة ١٤٠٢).
٢٧. نبي الرحمة الايمانية (شبكة المشكاة الإسلامية ١٢/٤/ ١٤٣١ الموافق ٩ نوفمبر ٢٠١٠.
٢٨. ازدياد حرارة الأرض شبكة المشكاة الإسلامية ٧ذو الحجة ١٤٢٥ الموافق ١٧يناير ٢٠٠٥م.
٢٩. مزايا حقيقية لثورة الاتصالات الشبكة العنكبوتية.
٣٠. إطلالة إسلامية على الحضارة الغربية (جريدة المسلمون السعودية العدد ٤٣٢ تاريخ ١٤١٣/١١/٢٣).
٣١. العقلانية الرشيدة في التعامل مع الحضارة الغربية (ورقة مقدمة للحلقة العلمية بكلية الدعوة والاعلام بجامعة الامام ١٤١٣/١١/٢٧) .
٣٢. العلمانية ليست محايدة وماهي بالقومية (شبكة المشكاة الإسلامية ٧رجب ١٤٣٤الموافق ١٥مايو٢٠١٣م).
٣٣. العلمانية والجاهلية وجهان لعملة واحدة (مجلة منار السبيل ١٩٩٣م).
٣٤. أمريكا المنشقة (شبكة المشكاة الإسلامية ١٤٢٥/١٢/٢١الموافق ٣١يناير ٢٠٠٥م.
٣٥. حرب الكذابين (شبكة المشكاة الإسلامية ١٢محرم ١٤٢٦الموافق ٢١فبراير ٢٠٠٥م.
٣٦. حين تصير الديمقراطية وثنا يعبد (شبكة المشكاة الإسلامية ٢٩رجب ١٤٢٨الموافق ١١اغسطس ٢٠٠٧م).
٣٧. علمانية باسم الإسلام (شبكة المشكاة الإسلامية ١ذو القعدة ١٤٢٥الموافق ١١ديسمبر ٢٠٠٤م.
٣٨. عنز ولو طارت (شبكة المشكاة الإسلامية ١٨ذو القعدة ١٤٢٥الموافق ٢٨ديسمبر ٢٠٠٤م.
٣٩. فشل النظرية الرأسمالية (مقال للأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس بمناسبة الأزمة المالية العالمية سنة ٢٠٠٨م ونُشر هذا المقال في صحيفة الاقتصادية بتاريخ١١/١٠/٢٠٠٨م).
٤٠. فلنحدد ماذا نعني بالديمقراطية (شبكة المشكاة الإسلامية ٢٥ذو القعدة ١٤٣٢الموافق ٢١اكتوبر ٢٠١١م).
٤١. ماذا يعدون لمواجهة المد الاسلامي(شبكة المشكاة الإسلامية ١٠ جمادى الاولى ١٤٢٥الموافق ٢٧يونيو ٢٠٠٤م)
٤٢. ما هؤلاء بمسلمين (شبكة المشكاة الإسلامية ٨شوال ١٤٢٥الموافق ٢٠ نوفمبر ٢٠٠٤م).

٤٣. مجتمع الرذيلة (شبكة المشكاة الإسلامية ٢٩شعبان ١٤٢٤الموافق ٢٤ اكتوبر ٢٠٠٣م).
٤٤. هل تحل العلمانية مشكلة التعددية (شبكة المشكاة الإسلامية ٢٧شوال ١٤٣٢الموافق ٢٤ سبتمبر ٢٠٢٢م).
٤٥. هل يكون الحكم الديمقراطي فاسدا ؟(شبكة المشكاة الإسلامية ٢٩ جمادى الآخرة ١٤٣٢).
٤٦. ودوا لو تكفرون كما كفروا ؟(شبكة المشكاة الإسلامية ٢٠ محرم ١٤٢٦الموافق ٢٨ فبراير ٢٠٠٥م.
٤٧. ارتكاب أخف الضررين موقع الشيخ جعفر ١٤١٨الموافق ٢٩٩٨.
٤٨. فائدة الالتزام بالمنهج العلمي الصحيح (كلمة للشيخ جعفر بمناسبة تكريمه في مجلة البيان يوم الخميس ١٤٣٣/٤/١٢).
٤٩. النقد الشامل مستحيل شبكة المشكاة الإسلامية ١٤٢٥/١١/٢٣الموافق ٣يناير ٢٠٠٥م.
٥٠. الاجوبة الإسلامية عن الأسئلة الفلسفية مجلة منار السبيل السنة الثانية العدد ٨ رمضان ١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٣م.
٥١. مقدمة عن المنهج العلمي والمناهج المخالفة.
٥٢. الصحفيون وتحريف الكلام (جريدة المسلمون السعودية العدد٤٤٣).
٥٣. القيم التي أشعلت الثورة الحلقة الأولى جريدة الميثاق الإسلامي، العدد ٧٩ ، ٢٥ جمادى الثاني ١٣٨٥ هـ الموافق ٢٠ أكتوبر ١٩٦٥م الحلقة الثانية جريدة الميثاق الإسلامي، العدد ٨٠، ٢٨ جمادى الثاني ١٣٨٥ الموافق ٢٤ أكتوبر ١٩٦٥م.
٥٤. بهدوء عن الدستور جريدة الوفاق صفحة، الاربعاء ١٧محرم ١٤١٩هـ الموافق ١٣مايو ١٩٩٨م.
٥٥. دارفور شبكة المشكاة الإسلامية ١٨ذو الحجة ١٤٢٥الموافق ٧فبراير ٢٠٠٥.
٥٦. طالب يذكر طرائف من مناقب شيخه العلامة عبدالله الطيب المختار الاسلامي شعبان ١٤٣٧هـ الموافق ٢٣ مايو ٢٠١٦م.
٥٧. .عبد الناصر دكتاتور جريدة الميثاق الإسلامي ، جمادى الأولى ١٣٨٥هـ الموافق فبراير ١٩٦٥.
٥٨. عدو العدو أصديق دائما هو؟ شبكة المشكاة الإسلاميةالجمعة ٢٩ شعبان ١٤٢٤هـ/٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣م.
٥٩. فليكن اجتماعكم القادم بالمكسيك(الشبكة العنكبوتية) .
٦٠ .لهذا كان اهتمامنا بفكر الشيخ مجلة منار السبيل شعبان ١٤١٤ الموافق يناير ١٩٩٣م.
٦١. نذر الشر تقترب الشبكة العنكبوتية ٩ ذو القعدة ١٤٢٥الموافق ١٩ديسمبر ٢٠٠٤م.
٦٢. نظرات فكرية في السياسة السودانية جريدة الميثاق الإسلامي ٤أبريل ١٩٦٥م.
٦٣. يوميات الميثاق عن الصحافة والصحفيين جريدة الميثاق الإسلامي، العدد ٩٠، ٩ شعبان ١٣٨٥هـ الموافق ٢ ديسمبر.

٤) المحاضرات وعددها تقريبا ثمان وأربعون محاضرة، وقد أخذ هذا العمل مني وقتا طويلا وجهداً كبيراً[١].

---

(١) وهي كالآتي:

١. أزمة الأمة وخطوات نحو الحل (وهي ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا مع الدكتور محمد أبو فارس حول أزمة الأمة في حرب الخليج عام ١٩٩٠م).

٢. استعمال القرآن الكريم للغة التجارة (في برنامج آية وقضية في قناة دليل).

٣. الأقوال والأعمال تدل على ما في القلوب((في برنامج آية وقضية في قناة دليل).

٤. التربية الدينية أو الإرشاد الديني (ندوة عن التربية الدينية أو الإرشاد الديني في الرياض شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس والدكتور أحمد العسال رحمه الله).

٥. التعريف بالإسلام وبيان حقيقته (محاضرة القاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الجامع الكبير في الرياض وعلق عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله باز رحمه الله.

٦. التنظيمات الإسلامية المعاصرة (محاضرة ألقاها الشيخ الدكتور جعفر شيخ إدريس في الخرطوم بالسودان ونشرتها مجلة (الحرس الوطني) الصادرة في شعبان ١٤٢٢الموافق ١٩٩٢م).

٧. الدعوى بأن لله ولدا (في برنامج آية وقضية في قناة دليل).

٨. السؤال عن أصل الخلقة (في برنامج آية وقضية في قناة دليل).

٩. الصحوة الإسلامية بين مفهومين (محاضرة ألقاها الدكتور في منى بمكة المكرمة في موسم الحج

١٠. الطريق إلى المجتمع الإنساني (محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الموسم الثقافي لوزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الكويت بالتعاون مع جامعة الكويت).

١١. العلاقة بين الفرد والمجتمع (في برنامج آية وقضية في قناة دليل).

١٢. العمل الجماعي الإسلامي (محاضر ألقاها الدكتور في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا).

١٣. القرآن الكريم كلام الله تعالى (في برنامج آية وقضية في قناة دليل).

١٤. المسلمون في الغرب (ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الخامس لجمعية القرآن والسنة في أمريكا الشمالية ١٤١٢ مع كل من عبد الله إدريس وعلي التميمي).

١٥. أهمية العقيدة وأثر الإعلام الغربي عليها (محاضرة القاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا).

١٦. أين الخلل؟ (محاضرة القاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا).

١٧. عوامل انحطاط الأمة الإسلامية وسبيل النهوض بها (ندوة شارك فيها الدكتور جعفر في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا بالاشتراك مع إسماعيل راجي الفاروقي رحمه الله).
١٨. فرفرة دجال (محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في الخرطوم يوم السبت ١٤٢٧/٣/١هـ الموافق ٢٠٠٦/٤/٢٥م).
١٩. منهج أهل السنة في التغير السياسي (محاضر ألقاها الدكتور في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا).
٢٠. موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى (محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦).
٢١. موقف المسلم من حكومات العالم الإسلامي (محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في المنتدى الإسلامي بلندن بريطانيا).
٢٢. ندوة التعاون الإسلامي (ندوة في المنتدى الإسلامي لندن).
٢٣. ندوة تجديد الفكر الإسلامي (ندوة عن تجديد الفكر الإسلامي أقامتها جامعة الملك سعود بالرياض وشارك فيها كل من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز والأستاذ محمد قطب والدكتور جعفر شيخ إدريس).
٢٤. نظرات على واقع الأمة منذ سقوط الخلافة (محاضر ألقاها الدكتور في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا).
٢٥. هل الإنسان يولد ومعه علم (في برنامج آية وقضية في قناة دليل) .
٢٦. وجود الخالق سبحانه وتعالى (في برنامج آية وقضية في قناة دليل).
٢٧. تصور إسلامي للتعايش السلمي.
٢٨. أصول إسلامية للعلاقات الدولية (وهذه محاضرة ألقاها الشيخ في ندوة الإسلام في شرق آسيا حضارة ومعاصرة تايبية بتايوان ١٤٢٥الموافق ٢٠٠٤م).
٢٩. وحدة لصد الحرب الغربية على الإسلام (وهذه محاضرة ألقاها الشيخ في مؤتمر وحدة الأمة الإسلامية الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي سنة ١٤٢٥).
٣٠. بعض المسائل العلمية التصورية المتعلقة بقضية الكراهية وصدام الحضارات، وهي ورقة عمل قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس لندوة العالم وثقافة الكراهية حول التعصب والهيمنة وصراع الثقافات والذي شارك فيها مع الدكتور جعفر كل من الدكتور علي النملة والدكتور محمد الجوز ضمن ندوات المهرجان الثاني والعشرين للمهرجان الوطني للتراث والثقافة بالحرس الوطني بالمملكة العربية السعودية عام ١٤٢٩الموافق٢٠٠٨م .
٣١. الانعكاسات الثقافية على المشرق العربي بعد أحداث سبتمبر وما تلاها، وهي ورقة مقدمة لندوة مستقبل المشرق العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها بعنوان الانعكاسات الثقافية على المشرق العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها، وشارك مع الدكتور جعفر الدكتور سامي الدلال والتي عقدت في الدوحة (قطر) من ٢٠- ٢٢ يناير ٢٠٠٣م.

٣٢. أزمة الحرية والتخلف السياسي في العالم الإسلامي (محاضرة ألقاها الدكتور ضمن محاضرات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا).

٣٣. الأصولية والعلمانية والديمقراطية (وجهة نظر إسلامية). محاضرة ألقاها الدكتور ضمن محاضرات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

٣٤. الحضارة المعاصرة في الميزان. (محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة)

٣٥. الغزو الفكري، وهو لقاء مفتوح مع الدكتور جعفر ضمن فعاليات مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا .

٣٦. صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية. قُدم هذا البحث لمؤتمر عقدته مجلة البيان بقاعة الصداقة بالخرطوم ١٧ رجب ١٤٢٣ هـ الموافق ٢٤سبتمبر سنة.

٣٧. مزالق الإيمان بالديمقراطية. محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في الخرطوم في السودان.

٣٨. ما فرص نجاح الإمبريالية الجديدة؟ مؤتمر الإسلام والغرب في عالم متغير، الخرطوم وزارة الإرشاد والأوقاف ٢٠٠٣.

٣٩. علاقة الغرب الاستعمارية بالعالم. مؤتمر العلاقات الدولية بين الإسلام والحضارة المعاصرة. رابطة العالم الاسلامي مكة المكرمة ٢٠٠٣.

٤٠. إسلامية العلوم وموضوعيتها، مجلة المسلم المعاصر السنة الثالثة عشر العدد الخمسون ربيع الثاني، جمادى الأولى ، جمادى الثانية ١٤٠٨هـ ، الموافق ديسمبر، يناير، فبراير ١٩٨٧م.

٤١. علوم الدين والعلوم التجريبية، محاضرة ألقاها الدكتور في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٤٢. مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها ، محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ١٤٠٧/٧/٢٥هـ، الموافق ١٩٨٧/٣/٢٥م .

٤٣. الحجج العقلية، محاضرة ألقاها الدكتور في البوسنة والهرسك.

٤٤. المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي (محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا).

٤٥. علاقة العقل بالشرع، برنامج في قناة الرسالة بعنوان: آية وقضية.

٤٦. منهج التفكير الإسلامي، محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه.

٤٧. وحدة الموضوعات العامة، من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه.

٤٨. قضايا في فلسفة العلوم بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، محاضرة في الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

٥) البحوث والدراسات والندوات وقد بلغت اثنين وعشرين ما بين كتب مطبوعة أو بحوث ودراسات[١].

---

(١) وهي كالآتي:

١. الإسلام دين سلام وليس استسلام، وهذه الدراسة هي بحث شارك به الدكتور جعفر شيخ إدريس في مشروع كتاب: السعوديون والإرهاب (رؤى عالمية)، وأشرف على إخراجه الدكتور محمد البشر، وأصدرته غيناء للنشر عام ١٤٢٦ الموافق ٢٠٠٥م .

٢. الإسلام والإرهاب، (ورقة قدمت لمؤتمر رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة) .

٣. البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية من تلفزات دول الخليج، بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس للندوة التي عقدت في كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عن البرامج الدينية الموجهة لمن لا يتحدثون العربية ٢٩رجب -٣شعبان ١٤٠٧، الموافق ٢٩مارس-٣١مارس ١٩٨٧م .

٤. الردة وحقوق الإنسان، بحث قدمه الشيخ لمشروع مفاهيم في الحريات الدينية رؤية شرعية، الذي نظمته هيئة حقوق الإنسان بالمملكة العربية السعودية في ٨/ ٣/ ١٤٣١هـ، الموافق ٢٢/٢/ ٢٠١٠م.

٥. في سبيل استراتيجية أهدى وأجدى للحركة الإسلامية، ورقة قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الندوة التي نظمتها الندوة العالمية للشباب الإسلامي في الرياض في ٨/١٤ ١٤١٢هـ، الموافق ١٩٩٢/٢/١٧م.

٦. في منهج العمل الإسلامي، بحث نشر في مجلة المسلم المعاصر العدد الثالث عشر محرم -صفر- ربيع الأول ١٣٩٨هـ يناير – فبراير – مارس ١٩٧٨م.

٧. قضية المنهج عند سيد قطب، وهذا البحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس إلى ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر التي نظمها مكتب التربية العربي لدول الخليج، والتي عقدت في البحرين ٣-٦جمادى الثاني ١٤٠٥هـ، الموافق ٢٢-٢٥ فبراير ١٩٨٥م.

٨. قواعد أصولية واقتراحات عملية للتعاون بين العاملين للإسلام، ورقة مقدمة من الدكتور جعفر شيخ إدريس لمؤتمر العمل الإسلامي بين الاتفاق والافتراق في قاعة الصداقة في الخرطوم، السودان في الفترة ٢٣- ٢٦جمادى الأولى ١٤٢٥هـ، الموافق ١٠-١٣يوليو٢٠٠٤م ونشرتها جامعة الخرطوم .

٩. مفهوم الثقافة الإسلامية. هذا البحث من منشورات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا في ٢٧ محرم ١٤٠٩هـ.

١٠. منهج التحول للإسلام. بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الثالث عشر لاتحاد الطلبة المسلمين الذي عقد في جامعة توليدو بولاية أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية في أواخر شهر أغسطس ١٩٧٥م ونشرته مجلة المسلم المعاصر ١٩٧٩م.

١١. البخاري غير معصوم، لكن كل ما في كتابه صحيح. دراسة نشرت في مجلة الدعوة السعودية بتاريخ ٤/١/ ١٤١١هـ. في هذه الدراسة رد الشيخ على من زعم أن في البخاري أحاديث غير صحيحة، وأنه لا يلزم من كون البخاري غير معصوم أن توجد في كتابه الذي بين أيدينا أحاديث غير صحيحة مخالفة لكتاب الله أو صريح العقل أو للحقائق المحسوسة.

١٢. منهج مونتغمري واط في دراسة نبوة محمد ﷺ. وهي دراسة قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس ضمن بحوث عن مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية التي تولتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج بمناسبة احتفائهما بحلول القرن الخامس عشر الهجري، ونشرها مكتب التربية لدول الخليج ١٤٠٥هـ الموافق ١٩٨٥م.

١٣. صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي، وهذا الكتاب قام بإصداره مركز البيان، وهو عبارة عن مجموع مقالات في مجلة البيان وموضوعات أخرى سبق أن نشر بعضها في كتب وبعضها في مجلات عربية وإسلامية.

١٤- صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية. وهو بحث قدم لمؤتمر عقد في قاعة الصداقة بالخرطوم في ١٧رجب ١٤٢٣هـ الموافق ٢٤سبتمبر ٢٠٠٢م.

١٥. نقد الفكر الغربي بمنهج علمي، وهو بحث نشر في التقرير الاستراتيجي للبيان ١٤٣١هـ الموافق ٢٠١٠م.

١٦. عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القيم الغربية، وهي ورقة كتبت لمؤتمر تعظيم حرمات الإسلام الذي عقد في الكويت من ٢٢-٢٤ يناير ٢٠٠٧م.

١٧. الدعوة الإسلامية والغزو الفكري، وهو بحث قدم في المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية الذي عقد في الخرطوم ٢٢-٢٦ جمادى الأولى عام ١٤٠١هـ الموافق ٢٨مارس -١ أبريل ١٩٨١م بمناسبة القرن الخامس الهجري، وقد نشر قبل ذلك في مجلة هذه سبيلي العدد الخامس ١٤٠٣/١٩٨٣م التي تصدر في المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم طبعته رابطة الشباب المسلم العربي (اللجنة الثقافية) سلسلة البحوث والدراسات عام ١٩٨٧م.

١٨. الأسس الفلسفية للمذهب المادي. وهذه الدراسة بحث كتبه الدكتور جعفر شيخ إدريس ونشر في مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن شوال / ذو القعدة ١٣٩٦هـ الموافق أكتوبر / نوفمبر ١٩٧٦م.

١٩. الإسلام وحقوق الإنسان: مناقشة لأفكار غربية. الندوة العالمية لحقوق الإنسان في الإسلام، روما، إيطاليا ١٩ ذو القعدة ١٤٢٠هـ الموافق ٢٥ فبراير ٢٠٠٠م.

٢٠. كتاب: بناء الدولة لفوكوياما عرض كتاب: بناء الدولة: الحكم والنظام العالمي في القرن الواحد والعشرين، تأليف: فرانسيس فوكوياما تلخيص: أد. جعفر شيخ إدريس ١٠نوفمبر٢٠١٣م.

٢١. التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية. بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ – الموافق ٢ أبريل ١٩٧٧م ثم نُشر في مجلة المسلم المعاصر العدد ١٢.صفحة ٦١ – ٨٠.

٢٢. الفيزياء ووجود الخالق، هذا الكتاب ألفه الشيخ من أجل أن يبين أن القول بالاستغناء عن الخالق لم يكن له ما يسوغه حتى في فيزياء نيوتن، ثم فصل القول في مناقشة الحجج التي يتعلل بها بعض الفيزيائيين المعاصرين في إنكارهم لوجود الخالق رغم قولهم بنظرية الانفجار العظيم. وقد طبع هذا الكتاب الطبعة الأولى عام ١٤١٧هـ الموافق ١٩٧٩م وقد طبعه معهد العلوم الإسلامية والعربية في امريكا، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وأما الطبعة الثانية ففي عام١٤٢٢هـ الموافق ٢٠٠٢طبعه المنتدى الإسلامي.

واتماما للفائدة فقد قمت بتقسيم هذا المجموع إلى أقسام:

١- الثقافة الإسلامية والدعوة إلى الله.

٢- الإسلام والفكر الغربي.

٣- علوم الدين والعلوم الطبيعية.

٤- نظرية المعرفة ومناهج التفكير.

٥-موضوعات متنوعة.

وكل قسم يحوي مقالات ومحاضرات وكتبا وبحوثا ودراسات. وقد يجد القارئ الكريم أحيانا تشابها وتداخلا بين هذه الموضوعات في محتوى بعض المقالات والمحاضرات والدراسات ولكنه قليل، علماً أنه قد تم حذف بعض الحوارات، والمقالات والمحاضرات والبحوث والدراسات لعدم ملاءمتها للنشر.

وختاما لا يسعني بعد شكر الله تعالى إلا أن أشكر الأساتذة أبناء الشيخ: عبدالرحمن وعبدالمنعم ويوسف، فقد استفدت منهم في مراجعة وترتيب مواد الكتاب، وصياغة عنوانه، والإضافات على ترجمة الشيخ ومتابعة طباعة الكتاب وإخراجه.

أسأل الله أن يبارك في شيخنا وأن يجزيه على ما قدم للإسلام والمسلمين، وأن يديم عليه الصحة والعافية، وأن يطيل في عمره على طاعته سبحانه، إنه سميع مجيب وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكتبه

د/ مبارك بن حمد الحامد الشريف

* * * * *

ترجمة
الدكتور جعفر شيخ ادريس

نسبه ومولده:

هو الدكتور جعفر شيخ إدريس محمد صالح بابكر عبد الرحمن آل بلل. ولد عام ١٩٣١م بمدينة بورسودان. ترجع أصولهم إلى شمال السودان من بلدة اسمها السقاي وهي تقابل مدينة كريمة من الضفة الأخرى لنهر النيل، وهي مناطق قبائل الشايقية إحدى أكبر القبائل العربية بالسودان، وإليهم ينتسب الشيخ جعفر. أما بورسودان فقد كانت مدينة حديثة نسبياً خططها الإنجليز، وأصبحت الميناء الرئيس للسودان خلفاً للميناء التاريخي بمدينة سواكن التي لا تبعد كثيراً عن مدينة بورسودان، وكان سكان بورسودان خليطاً بين قبائل الهدندوة ذوي الأصول النوبية وبين مهاجرين من داخل السودان وخارجه، فقد كانت تقطن بالمدينة جالية كبيرة من اليمن وحضرموت، وجالية هندية وغيرهم من التجار، وكان والده رحمه الله من المهاجرين للعمل في تلك المدينة.

وفي الفترة التي ولد فيها الشيخ كان السودان تحت الحكم البريطاني الذي استمر إلى الأول من يناير ١٩٥٦م.

ففي تلك المدينة على ضفاف البحر الأحمر نشأ الشيخ جعفر وبقي فيها إلى أن سافر للدراسة الثانوية في مدرسة حنتوب بمنطقة الجزيرة وسط السودان.

ولعلنا نترك الشيخ يحدثنا عن نفسه وعن نشأته، وتعليمه والأحداث التي مرت عليه في حياته وجهوده في العمل الإسلامي والدعوة إلى الله ورحلاته وصلاته وغير ذلك من الجوانب المهمة في حياة الشيخ أمد الله في عمره. وقد استندت في هذه الترجمة إلى بعض الحوارات التي أجريت معه في مناسبات مختلفة، أو ممن ذكر ترجمته في بعض المناسبات، أو مما سمعته منه يحدث به عن نفسه.

نشأته وأثر الوالدين عليه:

يقول الشيخ حفظه الله: أنا من عائلة سودانية كانت تنتمي كمعظم السودانيين آنذاك إلى طريقة صوفية، وكانت الطريقة التي ينتمي إليها الوالدان هي الختمية، وكما هو معلوم أن الطرق الصوفية ولا سيما المنتشرة في بلادنا الآن، مبتلاة بكثير

من المسائل الشركية، لكن ربنا سبحانه أنعم عليّ بوالدين أثرا في حياتي الدينية والخلقية، فالوالدة لم تكن امرأة عالمة ولكنها كانت شديدة التدين وحازمة جداً، وقد أثرت علي تأثيرا كبيراً في موضوع الصلاة أكثر من الوالد، فقد كانت حازمة جداً في هذا الموضوع، وأذكر أنها كانت توقظنا أحياناً لتسألنا هل صلينا العشاء؟ وأنعم الله سبحانه علينا بالوالد وكان رجلا متسامحاً معنا، فكان يعاملنا معاملة الكبار آنذاك، ويستشيرنا في بعض أموره، وهذا لم يكن شائعاً في السودان، ولكنهما كانا ينتميان إلى هذه الطائفة، ومما أثر في حياتي تأثيرا كبيرا ما زلت أحمد الله عليه هو أن أحد أقاربنا كان من أول من نشر الدعوة السلفية في السودان، وكان من جماعة أنصار السنة المحمدية في بلدنا بورسودان، مما أحدث مشكلة بيني وبين الوالدين لاسيما أمي، حيث كانت تظن أن هذا نوع من الانحراف فقاطعتني وصارت لا تتكلم معي، لكن ساعدني أن هؤلاء الذين تأثرت بهم كانوا من الأقارب وكان منهم رجل تحترمه الوالدة احتراماً كبيراً، وهو رجل بسيط يعمل خياطاً لكنه كان رجلاً عالما اسمه سيد أحمد حاج عثمان، فجاء إلى أمي عند حصول هذه المقاطعة وأصلح بيننا، وبعد مدة تغير الوالد- وكان رجلاً يحفظ القرآن- حيث كنت آتي إليه وأقرأ عليه بعض الكتب و كانت كتباً صغيرة مؤلفة في مصر، من ضمنها كتاب غاب عني اسمه الآن كان له أثر عظيم آنذاك، وما زلت أقرأ على الوالد حتى اقتنع، وتغيرت بعده الوالدة أيضا، وأعد ذلك من نعم الله علي أن كنت السبب في إنقاذهما من الخرافات والشركيّات ولله الحمد سبحانه.

مما سبق هل يمكن أن يقال إن الدكتور جعفر كان صوفيا ثم ترك التصوف؟

صاحب كتاب (هؤلاء تركوا التصوف) ذكر أن الدكتور جعفر شيخ إدريس كان صوفيا ثم تحول إلى جماعة أنصار السنة، والذي يسمع مثل هذا الكلام يتصور أن الشيخ كان صوفيا إلى أن بلغ الأربعين أو الخمسين ثم تحول من الصوفية إلى أنصار السنة، ولكن صاحب الكتاب قال إن سبب هدايته أن أحد أقاربه أثر عليه وهو في سن الثانية عشرة حيث ترك انتماءه للطريقة الختمية، و لما سألت الشيخ حفظه الله عن ذلك قال لي: ما كنت ختميا أنا أيامها كنت صغيرا.

حادث في الصغر:

يقول الشيخ حفظه الله: كان الحادث الذي تعرضت له في الصغر أثر في تأثيراً ليس بالضرورة فكرياً، ولكنّي لمست نتائجه فيما بعد، إذ أصبت آنذاك، وكنت ألعب على صناديق كبيرة كانت لبعض السيارات، فقفزت من فوق إحداها على مسمار يبدو أنّه أحدث كسراً في العظم بالداخل، وتألمت لذلك ألماً شديداً وتعقّدت الأمور– وكنت حينئذ في السادسة من عمري - واستمر المرض إلى السنة التاسعة تقريباً، وكان ذلك في زمن الإنجليز، وعندما عرضت على الطبيب قرر أن تُقطع رجلي، فوافق الوالد لكن الوالدة رفضت وبحزم شديد، ثم ذهبت تستشير السيد علي الميرغني– وكانت ما تزال في الطائفة حينئذ - فأجابها قائلاً: نعم اسمعوا كلام الطبيب.

وما كان يظن أحد أن أمي ستخالف رئيس الطائفة، لكنها فعلت ورفضت قوله ذاك فقال لها الطبيب: إما أن تقطع رجله أو يموت. فقالت: خلّيه يموت!!! .يموت برجلين ولا يعيش بواحدة، فكان من نتائج ذلك أن تأخرت في الالتحاق بالدراسة، لكن هذا التأخير أفادني جداً، إذ جئت إلى الدراسة بعد ذلك بنهم شديد، فأنا ما كنت بدأت أصلاً، وعندما بدأت الدراسة كان زملائي في السنة الرابعة، وأنا في السنة الأولى، وكان لي أخ ضمنهم، وكنا قد ذهبنا سويّة إلى المدرسة فقُبل هو ولم أُقبل لصغر سني، فكان أخي هذا يمازحني بعد ذلك فيقول: احمد الله على هذا الحادث فلولاه ما دخلت الجامعة.

وقد كانت المنافسة في الدخول إلى الثانوية كبيرة جداً آنذاك .إذ لم يكن وقتئذ غير ثلاث مدارس ثانوية فقط، فكان الدخول إلى إحداها في غاية الصعوبة، لكني أتيت إلى المدرسة في مرحلة نضج واجتهاد شديد، فكنت أذهب إلى الكتّاب باختياري إذ يوقظني الوالد لصلاة الفجر وأبقى في الكتّاب إلى السادسة، ثم أعود فأستعد للذهاب إلى المدرسة وعند رجوعي منها أذهب إلى الكتّاب مرة أخرى وبعد ذلك أنال شيئاً من الراحة، أعود بعدها إلى الكتّاب عند المغرب.

حلقات المساجد:

يقول الشيخ حفظه الله: بدأت بعد ذلك أحضر دروسا كان يلقيها رجل سني فكنت أذهب إليها، ومن الرسائل التي بدأت أقرأها مبكراً وأمارس حفظ بعض

الأحاديث منها رسالة الأربعين النووية، ثم لما ذهبنا إلى المدرسة المتوسطة كنت أحضر مع الوالد دروساً في السنة كان يلقيه رجل عالم بالسنة اسمه أبو طاهر السواكني، تخرج بالأزهر وكان مشهوراً في بلدنا، يدرّس كتب السنة فقط، وفي هذه الفترة بدأت أقرأ بعض الرسائل الصغيرة لشيخ الإسلام ابن تيمية ربّما يكون منها العبودية، وأظن أن معظمها فصول كانت تستخرج من بعض مؤلفات شيخ الإسلام يسمونها بأسماء لا أذكرها الآن، وكانت معظم هذه الكتب تأتي من مصر.

دراسة الشيخ للمذهب المالكي:

يقول الشيخ حفظه الله : كان الناس لا يدرسون إلا عند الشيوخ آنذاك لكن كان معظم ما يدرسون هو كتب المذهب المالكي، وكان هذا ما بدأت به أنا فدرست بعض متون المذهب المالكي مثل العزية والعشماوية، وكنت معجبا بشخصيتين (أبو الوفا محمد درويش) الذي كتب (صيحة الحق) وكنت أوزعه وأعطيه لبعض إخواننا في المدرسة حتى بعد أن انضممت إلى الإخوان المسلمين، ورجل آخر اسمه (محمد صادق عرنوس)، وكان من الذين يدرّسوننا إخواننا الموريتانيون من الشناقطة، إذ كانوا يأتون إلى الحج عبر بورسودان، فكانوا يمكثون مدة في السودان، وكان وضعه آنذاك أحسن مما هوعليه اليوم، فكنت أدرس على بعضهم، ومن الناس الذين حبّبوا إليّ السنة آنذاك – وكان ذلك بعد المرحلة الثانوية - رجل علامة فاضل من آل شنقيط، وكان يحفظ القرآن الكريم حفظاً ما رأيت مثله، لقد كان معجماً مفهرسا لألفاظ القرآن - إذا صح هذا التعبير - فإذا سألته عن أي كلمة في القرآن أتى لك بكل الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة، وأظنه كان مالكيا متعصّباً ثم تحول فكان عنده رد فعل عنيف على كتب الفقه، إذ كان يقول لنا: إن الأربعين النووية خير من كتب الفقه كلها. فكنت أحضر عنده ...ثم ذهب إلى السعودية وصار هنالك من كبار العلماء وإن لم يشتهر كثيراً ربما لأنه ليس من أهل البلد، فكان مع الشيخ ابن باز في إدارة البحوث والإفتاء وكان يحقق بعض الكتب هذا العالم الفاضل كان الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله.

شيوخه:

مما سبق يمكن ان نقول إن الشيوخ الذين استفاد منهم الدكتور جعفر ودرس عندهم في مرحلة صغره وشبابه:

مصطفي ناجي.

سيد أحمد حاج عثمان.

أبو طاهر السواكني.

علماء من الشناقطة من موريتانيا.

إسماعيل الأنصاري.

سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز لما قدم الدكتور جعفر إلى السعودية وسيأتي تفصيل ذلك.

مرحلة الدراسة الجامعية والتعليم العالي:

التحق الشيخ بكلية الآداب بجامعة الخرطوم وحصل على درجة البكالوريوس مع مرتبة الشرف من جامعة الخرطوم في تخصص الفلسفة، وتخصص ثانوي اقتصاد (١٩٦١م). ثم عُين معيدا بالجامعة وسجل لدراسة الماجستير، لكن الجامعة ابتعثته في العام التالي للدراسة بجامعة لندن.

بعد سنتين سقط نظام عبود فترك الدراسة واستقال من الجامعة ليشارك في العمل السياسي الإسلامي، وكان مرشح جبهة الميثاق بمدينة بورتسودان، ثم عاد للجامعة مرة أخرى عام ١٩٦٧م، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة الخرطوم في تخصص فلسفة العلوم عام ١٩٧٠م، وكانت الدراسة الفعليَّة في جامعة لندن وذلك حسب الاتفاقية بين الجامعتين في ذلك الوقت.

الدكتور جعفر ومحمود محمد طه:

وكان مما أثر في تحصيل الشيخ وثقافته بوقت مبكر تصديه للأفكار الضالة والآراء المنحرفة لبعض السودانيين في بلده أمثال محمود محمد طه، فقد رد عليه في مقالات متعددة ومناسبات مختلفة، الأمر الذي جعل الدكتور جعفر يبحث ويطلع ويراجع كثيرا من القضايا والمسائل التي يثيرها أمثال هؤلاء، حتى أن محمود محمد طه ضاق بالطالب الجامعي ذرعا فطلب مناظرته في الجامعة- كما حدثني هو بذلك- فوافق الدكتور جعفر ولكن محمود محمد طه انسحب في الأخير وقال يناظره نظيره، يعني من هو في مستواه، وحقيقة الأمر هو هروب وانسحاب من محمود محمد طه من مواجهة ومناظرة الشيخ .

مع الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله:

يقول الشيخ حفظه الله: المرحلة الأخرى التي تركت أثراً في حياتي هي التي كانت بعد أن سافرت إلى السعودية، وهناك التقيت بالشيخ العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله، وكانت هذه من نعم الله عليّ، فقد كان الشيخ رجلاً عالماً زاهداً تقياً وأعده في مقدمة علماء العصر الجهابذة، والحق أقول إني لم أر مثل الشيخ لا بين المسلمين ولا غيرهم، ، فالشيخ عبد العزيز بن باز أعتبره شيخي، ما أظن انني تتلمذت على شيخ مثل ما تتلمذت عليه، وإن كان ذلك بعد الخمسين ولا أعرف على وجه الأرض في هذا الزمان رجلا أعلم منه ولا لقيت في كل من عرفت من البشر من العلماء والقادة المفكرين من المسلمين وغير المسلمين رجلا في ورعه وتواضعه، ومن العيوب المنتشرة جدا بين العلماء سواء كانوا من علماء الدين أو علماء الدنيا أنهم لا يعترفون بأقرانهم ويقدحون فيهم وينتقدونهم، ما رأيت رجلا عافاه الله من هذا مثل الشيخ عبدالعزيز بن باز، لا يذكر رجلا من العلماء المعاصرين إلا ويمدحه ويلقبه بأحسن الألقاب ثم إن خالفه يقول لكن أخطأ في الشيء الفلاني وكذا وكذا ثم يعتذر له أن هذه المسائل يخطئ فيها كبار العلماء قبله، وهو رجل كريم وما أعرف على وجه الأرض رجل يعرف من أحوال المسلمين في العالم وجمعياتهم وجماعاتهم وقادتهم ويهتم بهم كأنهم من أبناء بلده مثل الشيخ عبدالعزيز، لذلك حزنت حزنا شديداً عندما كنت أسمع أن بعض الناس يتكلمون عنه ويصورنه كأنه مجرد رجل من (تنابلة) السلطان أو أنه يضغط عليه ليقول كلاما لا يؤمن به، هذا كلام إنسان لا يعرفه، الرجل لا يقول ما لا يؤمن به أبدا، ولا أحد يستطيع أن يضغط عليه. أما أن يخطئ، فهو بشر وكل العلماء يخطئون. ربنا سبحانه وتعالى ما كتب العصمة إلا للرسول ﷺ.

وقد تميز الشيخ ابن باز بعدة خصائص أوجزها كالآتي:

أولاً: التقوى: لقد عرفت علماء عدة من المسلمين عرباً وغير عرب، فكان مما يؤسف له أن تجد الكثير منهم ينتقد رموز المعاصرين إلى درجة تصل به إلى احتقارهم، إلا الشيخ رحمه الله فقد كان ينقد غيره بأدب قل نظيره، لا يحتقر أحداً ولا تجري على لسانه تلك الكلمات الشنيعة التي تسمعها اليوم هنا وهناك في حق الدعاة والعلماء، وكان رحمه الله يمدح الكثير من الدعاة أمثال المودودي والبنّا،

ويجل غيره من العلماء فكان لا يذكر الشيخ الألباني إلا ويصفه بالعلامة، ويثني على زملائنا الموجودين حوله، وأذكر أنه سُئل مرة عن الشيخ المودودي وأنه يؤوّل، فأجاب قائلاً: إنه – أي المودودي –أخطأ، لكن هذه المسألة دقيقة، وإن الإنسان إذا اشتهر فضله ينتقد لكن لا يشنَّع عليه.

ثانيا: الكرم: فقد كان رحمه الله حاتمياً، مشهوراً بالكرم، ولكم تمنيت أن إخواننا الذين أكرمهم الله بالسلفية كانوا مثله، فقد كان عنده من المزايا التي كنا نجدها لدى شيوخ التصوف، فهؤلاء عندهم رقة وعندهم كرم، وكانت كلاهما في الشيخ، فكلّما تناولت عنده الغداء مثلاً أجد لديه جمعاً كبيراً لا يقل عن خمسة عشر شخصاً، من الذين يأتون لسؤاله أو طلب المساعدة منه أو زيارته.

ثالثاً: لقد منَّ الله على الشيخ بذاكرة علمية عجيبة جداً، فلم يكن يتميز بقوة الحفظ فقط، فالحفظ قد يتقنه الكثير، لكنه تميز بقوة الاستحضار وسرعته، وقد تمنيت أني عرفت الشيخ مبكراً واستفدت من نصائحه في طريقة الدراسة، و كنت أحضر دروسه في الجامع الكبير وكانت كتباً كثيرة، أتذكر عندما بدأت الحضور، كانوا يقرأون في فضائل الصحابة من صحيح البخاري، ثم بعد ذلك يقرأ المبتدئون عنده كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد كان من الغريب أن الشيخ في تدريس المبتدئين يفيض في الشرح ويفصّل، بينما كان في درس الكتب الواسعة لا يعلق إلا الشيء اليسير، فاستمعنا إلى كتب كثيرة، وبعض دروس تفسير القرآن الكريم وكان يفضّل تفسير ابن كثير ويحبّه جداً. كان حضوري للدروس بعد عام ١٩٧٥م، حيث كنت أحرص على الاستفادة منه، وقد استفدنا منه رحمه الله سمتاً وعلماً، وكان دائم الذكر لله في كل أحيانه، وما رأيت إنسانا مثله يعتقد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة، ويلمس حاجة العصر لها وكان ذلك إلى آخر حياته رحمه الله.

كيفية قراءة الدكتور جعفر:

يقول الشيخ حفظه الله: أنا بطيء في القراءة، واذكر أني عندما كنت في بريطانيا حضرت دورة في زيادة سرعة القراءة فتعلمت شيئاً من الناحية النظرية، لكن بالرغم من ذلك كنت من البطيئين في القراءة في الفصل، لكن الذي آنسني نوعاً ما أن

المدرس أخبرنا أن هناك مهارات أخرى غير سرعة القراءة، فبدأ يسألنا فكنت الأول، فضحك المدرس قائلاً: لأنك بطيء القراءة طورت المهارات الأخرى وظني أن سرعة القراءة متعلقة بسرعة الكلام وأنا لست سريعاً في أي منهما، ولقد استفدت من الدروس التي حضرتها وقد أقنعني المدرس أن البطء ليس من العقل ولكنه من العينين فالذي يدرب على القراءة كلمة كلمة منذ الصغر، لو أنه وسع المجال تدريجياً لصار يقرأ ربما يقرأ سطراً كاملاً كما يفعل الكثير من سريعي القراءة، وعلى العموم بالرغم من كوني بطيء القراءة لكني أقرا كثيراً، وممّا استفدته من الشيخ ابن باز في هذا المجال– ولو كان متأخراً - أنه رحمه الله بذاكرته القوية وحرصه على فهم كل سطر يسمعه يركز اهتمامه على بعض الكتب ويحرص على سماعها عدة مرات فأنا سمعت أنه قرأ صحيح مسلم أكثر من ستين مرة، ولذلك كانت الأحاديث تسيل لديه كالماء، وقرأ البداية والنهاية سبع مرات، فكان دائماً يتكلم عن المذاكرة قائلاً: إن العلم يضيع بدون مذاكرة، ولم أكن أقرأ الكتاب أكثر من مرة ربما لبطئي في القراءة - إلا نادراً، وأنا في قراءتي واسع الاهتمامات، لا أقتصر على مجال واحد، فأقرأ في الأدب الإنجليزي بمجالاته المتعددة، وأقرأ الكتب الفكرية والفلسفية والسياسية، وعندي اهتمام بالكتب العلمية خصوصاً التي تكتب لعامة المثقفين، وأستفيد منها وقد تحدثت عنها في كتابي عن وجود الخالق، حتى الكتب التي قد تشرح جانباً معيناً في المجال العلمي، كما أحب قراءة كتب الفلك فقرأت كتباً كتبها فيزيائيون عما يسمى بالانفجار العظيمت، وخصوصاً الكتب التي تثير قضايا فلسفية مع كونها علمية، وللأسف أننا تنقصنا أمثال هذه الكتب في اللغة العربية مع أهمية هذا الموضوع، وقد قرأت كتاباً من أحسن الكتب عن الداروينية اسمه: "Darwin's Black Box" (صندوق دارون الأسود) كتبه رجل علامة كاثوليكي، استفدت من هذا كثيراً جداً. من الكتب التي قرأتها أكثر من مرة كتاب "معالم في الطريق" لأنني درّسته وكنت من أوائل من لفت الأنظار إلى هذا الكتاب، ثم لما رأيت بعض آثاره السلبية بين الناس عملت عنه دروساً في السودان في الجامع كان يحضرها عشرات الشباب، وكنت أنتقد بعض المواضع في الكتاب، فكان هذا شيئاً خطيراً في نظر البعض، مع أني أقول لهم إني أُقدر سيد قطب وأقر له

بالفضل لكن لا مانع من نقده في مثل هذه الأمور كما أكرر قراءة الكتب الأساسية أكثر من مرة، و أحب الكتب التي فيها الجوانب الفكرية، لذلك فالكتب التي تمتلئ بالإحصاءات والأسماء لا أميل إليها، ولذلك طالما قلت للناس إن من رحمة الله بنا أن القرآن ليس كذلك، وبالرغم من ضعف ذاكرتي لكني في ذكري الحجج جيد فلا أنساها، سواءً كانت هذه إسلامية أو غير ذلك، وهناك كتاب قليل من الناس الذين يقرأونه لكني استمتعت به جدا وقرأته كاملاً، وهو كتاب "درء تعارض العقل والنقل" وأظن أن الجزء الأول من أصعب ما قرأت وبقية الكتاب سهل، وقد ركزت اهتمامي على كتب ابن تيميه التي لها علاقة بأصول الدين، كـ"درء تعارض العقل والنقل" و"منهاج السنة"، ولم أهتم كثيراً بكتبه الفقهية.

استفادة الشيخ من إقامته في بلاد الغرب وما أضافه خلال مكوثه هناك إلى رصيده الدعوي والمعرفي:

يقول الشيخ حفظه الله : ذهبت إلى الغرب في عام ١٩٦٢م لإكمال الدراسات العليا بعد انتهائي من الدراسة في جامعة الخرطوم، وكنت في بعثة رسمية لنيل الدكتوراه، لكن نحن صلتنا بالغرب لم تبدأ منذ ذهابنا إليه، بل بدأت في الثانوية والجامعة حيث كان التدريس باللغة الإنجليزية، وكانت جامعة الخرطوم تبدأ الدراسة بها في السنة الأولى بأربع مواد ثم الثانية بثلاث ثم الثالثة باثنتين ثم الرابعة بمادة واحدة، يسمونها الدراسة الخاصة، فتعرضنا للفكر الغربي في آخر سنتين حيث درسنا الاقتصاد والفلسفة في الثالثة ثم الفلسفة في الرابعة، وكل هذا فكر غربي، وأرى أنه لا بد أنه قد أثر في فكرنا سلباً أو إيجابا، ومن الأمور التي تحزنني أن معالجة القضايا والأفكار في الكتب الغربية أشمل وأعمق من كتب عالمنا العربي بكثير، فتجد البعض يكتب عن الماركسية كلاماً لو رآه ماركس لضحك، إن الكثير من نقد الماركسية عرفناه من كتب الغربيين، وهذه من الأشياء التي استفدتها من الشيخ ابن تيمية إذ يقول: أنه يستفاد من نقد أهل الأهواء لبعضهم البعض لأن كلا منهم يذكر أخطاء الآخر. لكني أقول إن هذه الكتب هي من وجهة نظر الكاتب، فما كل ما يذكره الرأسمالي عن الشيوعية صحيح، وما كل ما يقوله الشيوعي عن الرأسمالية صحيح أيضاً، فمثلاً: يقول الغربي إنّ الملكية الشخصية شيء فطري يعني إذا أنت لم

تملك شيئاً تعد منحرفاً فطرياً!! وهذا ليس في الإسلام أبداً، وقد راجعت كتاب الله الكريم فلم أجده يمدح الشخص لأنه يملك، بل يمدح الإنفاق مثل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ١-٣]، وبعض نقد الشيوعيين للرأسمالية صحيح جداً، فمثلاً يقولون: نعم هناك انتخابات لكنها شكلية لأن الفرصة فيها للأغنياء أو لمن يسنده الأغنياء، ولا ينجح الفرد غير الغني في ذاته أو غير المسنود من الأغنياء، وهذا عيب كبير في مسألة الديموقراطية لا بد أن يعدَّل إذا أراد الناس الاستفادة من تجربة الغرب. ثم الكتب هذه التي تسمى العلوم العامة، كان أحسن من يهتم بها الاتحاد السوفيتي واستفدنا من كتبهم التي كتبوها في هذا المجال، وهم يخلطونها أحياناً بفلسفتهم، وتوجد بالغرب بعض الكتب المهتمة بهذه الناحية لكنها ليست بمستوى تلك، كما أنني استفدت من إقامتي في الغرب حيث ترى من عيوب الغرب بالمعاينة ما لا يمكنك إدراكه عن طريق الكتب، فأنت هنا تتابع الأخبار والتحليلات فتكسب شيئاً جديداً، ومن أحسن الكتب التي تنقد الديموقراطية بشكل واسع وعميق ما كتبه الغربيون أنفسهم، ولأحد مشاهير الصحفيين وأظن اسمه "ليبمان" قول عجيب فهو يقول: "إن الديموقراطية تصل بالإنسان إلى الحكم، لكن لا تقول له ماذا يفعل بعد أن يصل" وهذا عيب كبير، لذلك قلت لأحد إخواننا إن هذا عكس ما يعتقده أهل السنة، فالديموقراطية يهمها طريقة الوصول إلى الحكم ولا تهتم بما بعد ذلك، أما أهل السنة فبعد الوصول إلى الحكم عندهم أهم من طريقة الوصول إليه، فجوزوا إمارة المتغلِّب ما دام سيطبق الكتاب والسنة ويقيم الشريعة، وهناك كاتب روسي اسمه "سورجنستين" جاء إلى الغرب وإلى أمريكا وانتقد الرأسمالية، وكان من ضمن ما يقوله عن الديموقراطية أنه قال: إن الديموقراطية كانت مفيدة عندما كانت مرتبطة بالدين، فالديموقراطية تعطيك حرية القول والدين يرشدك إلى ما عليك فعله، لكن عندما ذهب الدين صارت الحرية هي حرية "فعل الشر"!! وقد قرأت قريباً في ملحق الكتب التي تنشرها الواشنطن بوست، عن صدور كتاب يتحدث فيه الكاتب عن هذه المشكلة التي تكلم عنها الشيوعيون قديماً لكن بأدلة حديثة، وبيّن عيوب الديموقراطية مضيفاً أن الثروة في هذه المجتمعات تتركز بأيدي جزء بسيط من

أفرادها وضرب مثلا "بيل غيتس" إذ قال أن ثروته تساوي ثروة بضع وأربعين بالمائة من المجتمع الأمريكي، فأمثال هذه العيوب في أنظمة هذه المجتمعات السياسية والاقتصادية وقفنا عليها من خلال المكوث هناك، أضف إلى ذلك المشكلة الخلقية التي يعانيها هذا المجتمع وهي جداً مخيفة، فانتشار المخدرات في المدارس والجامعات وغيرها من صنوف المجتمع الغربي وكذلك ذيوع الانحلال الجنسي وغيرها من المشاكل الخلقية، والتي قد لا يتنبه إليها الكثير من أفراد هذه المجتمعات، إلا عقلاء مثقفيهم، ومن الأشياء التي استفدتها أثناء إقامتي في الغرب هي قراءة البحوث الموثَّقة الموضوعية المبنية على حقائق ملموسة، وقد لا توافق على النتائج التي توصل إليها هذا الكاتب أو ذاك وكثيرا ما أبني على الحقائق التي يذكرونها وأتوصل إلى نتائج مختلفة لما توصلوا هم إليه وعلى سبيل المثال أذكر أني قرأت كتاباً لإحدى رائدات الفكر النسائي في الغرب، حيث تذكر في إحدى فصول كتابها هذا أنّهن لا يقصدن من دعوى المساواة بين الرجل والمرأة أن تكون المرأة رجلاً!! ولكن يقصدن أن تعتز المرأة بأنوثتها، إذ أن ما يحدث الآن أن همّ المرأة الأوّل أن تكون مثل الرجل أو أن ترضي الرجال!! ثم ذكرت تفاصيل ما تصرفه المرأة من المال على مظهرها، وهنا قلت لو كانت المرأة هنا مستترة ما كانت في هذا الوضع المزرى، وهنا تظهر الحكمة من الحجاب فقد قالت إحدى الأمريكيات لأستاذها المسلم: أنها كانت تعمل في مجال تصميم الأزياء وأنهم كانوا لا يصممون إلا ما يرضي الرجال، وأنها تعتقد أن أكثر شيء يعطى المرأة حريتها هو الحجاب، إذ لا علاقة لها حينئذ بالرجال!!.

لذا يجب أن ننظر إلى الغرب كتجربة أعطانا الله إياها، ليرينا ماذا يحل بالمجتمعات التى تبتعد عن أوامر الله سبحانه وتعالى، لذلك ترى هنا بالإحصاءات والدراسات من مظاهر الفساد ما قد يغيب عنك ظاهراً من رؤية المجتمع ولصاحب كتاب"نهاية التاريخ" كتاب ذكر فيه من الإحصاءات ما يدل على مدى التدهور المخيف الذي تعانيه هذه المجتمعات .

الشيخ جعفر و الترابي:

يقول الشيخ جعفر حفظه الله: كنت والترابي في نفس المدرسة التي أدرس فيها وكنا نسكن في نفس الداخلية (سكن الطلاب) ، وكان الترابي أمامي في الدراسة سنتين، ولم يكن معنا في الجماعة آنذاك، وعندما كنت في السنة الأولى بالجامعة

سمعنا أنه انضم إلى الجماعة وفرحنا بذلك، ثم عرفته عن قرب وصحبته في الجامعة، لكني بدأت ألمس فيه عيوباً في الفكر والسلوك، والبعض يظن أن دافع نقدي له هو التنافس، ولكني لاحظت عليه ذلك وأنا مسؤول عن التنظيم ولم يكن هو آنذاك شيئاً يذكر، وانتقدته وقتها ولم تكن بيننا أي منافسة. ورغم تحفظاتي التي في قلبي عليه فقد تعاونت معه بعد أن صار مسؤولاً وكنت أسمع منه فلتات، فمثلاً في وقت مبكر جداً كان يكره أهل السنة، ويشمئز من ذكر البخاري وابن كثير وغيرهما، وليس عنده توقير للصحابة، وقد قلت لبعض إخواننا الذين إذا انتقد أحداً رماه بالاعتزال، قلت لهم لا تظلموا المعتزلة فهؤلاء كانوا عبّاداً ومخلصين، وكان ما يدعون إليه فكراً بالنسبة لهم، وكان دافعهم إليه حسناً وهو اعتقاد تنزيه الله سبحانه فكثير ممن يسمّى اليوم معتزلة لو رآهم المعتزلة لتبرّأوا منهم، أو يقول لك أشعري حتى الأشاعرة لم يكونوا كذلك، لذا أقول إن هؤلاء أقرب إلى ما يسمّى بالزنادقة أو الفلاسفة الذين لم يكونوا متدينين، ولا أقول عقلانيين فقد تتبعت آيات القرآن الكريم التي ورد فيها ذكر العقل فما وجدت الله سبحانه يذم فيها العقل بل يجعل الله العقل مع الإيمان وعدم العقل مع الكفر، وأهل الأهواء يختلفون فمنهم صاحب هوى في الاعتقاد ومنهم في السلوك، ومنهم من جمع بين الأمرين، وقد كانت هناك مجاراة لما يقوله الترابي من البعض، ونحن استطعنا إقناع البعض، لكن لم يكن نقدنا تيّاراً لأنهم أشاعوا أن هذه مسائل شخصية، وأنها من قبيل منافسة الأقران، والناس مهيؤون لقبول أمثال هذه الحجج البسيطة فهم يميلون إلى ما يعرفون، والمشكلة أن الرجل يتنكّر وأنا لا ألوم الناس لأني لا أميل إلى أن يسرع الناس إلى قبول كل اتهام يتهم به شخص من الناس خصوصاً إذا كان هذا الشخص ينكر، وقد كان الترابي رجلاً منافقاً يقول في جلساته الخاصة خلاف ما يعلنه للناس، ولا يزال حتى اليوم وما كان يقوله في جلساته آنذاك أقل بكثير مما يقوله الآن، وليس ذلك فقط فقد صار محبوباً مرغوباً لذلك صارت فيه صفات ما كانت لتظهر فيه قديماً معنا نحن زملاؤه فقد صار يحب القهر، دكتاتورياً متسلّطاً بل حتى لما ظهر لبعض الناس انحرافه لم يجاهروه بالنقد، وبعضهم يرى أنه لا يتكلم في ذلك حفاظاً على غيري من أن يكتب، ومن هؤلاء الشيخ سفر الحوالي وكان مهتماً بذلك في وقت مبكر جداً، وجمع أشياء في هذا الصدد، لكن لعل عذري أن الوقت آنذاك كان

وقت انتخابات وكان الترابي هو زعيم التيار الإسلامي ومنافسوه ليسوا من الإسلاميين، فخشيت أن يؤثر ذلك على الناس، وأظن أن السبب في هذا هو الفكر التنظيمي إذ يرى الكتابة في هذا تشق الصف مع أن بيان الحق أهم من ذلك بالطّبع.

فراسة الشيخ جعفر (زرقاء اليمامة):

وصف أحد السودانيين الدكتور جعفر بأنه مثل زرقاء اليمامة في بعد نظره وذلك بمناسبة الأخطاء التي وقع فيها الترابي ولم يعرفها الكثير من الناس إلا في وقت متأخر، بينما الدكتور جعفر كان مدركاً لهذه الأخطاء والانحرافات في وقت مبكر، وكان يرد على الترابي في ذلك الوقت وينبه الناس عن هذه الأخطاء والانحرافات مما جعل الأخ السوداني يصف الدكتور جعفر بزرقاء اليمامة، ولكن الدكتور جعفر قال له: أنا لست مثل زرقاء اليمامة ولكن كثيرا منكم مثل العميان، وفي الحقيقة أن الدكتور حفظه الله له نظرات بعيدة وثاقبة وتوقعات لأمور وقعت بعد كلامه عنها بزمن طويل فهو كما قال عن نفسه: «وقد حدث كثيرا أن اعترض البعض على آراء لي، ثم تبين فيما بعد أن ما قلت به كان صحيحا»[٥].

فمنها على سبيل المثال:

١- موقفه من الترابي فقد نبه على أخطائه وضلالاته في وقت مبكر وكان يناقشه ويرد عليه في حين أن كثيراً من الناس لم يعرف حقيقة الترابي إلا في وقت متأخر جدا.

٢- موقفه من الاعتداء على الترابي، وذلك لما اعتدي على الترابي في كندا، وكان ذلك قبل وفاته بأكثر من عشر سنين وكان الذي اعتدى عليه ضربه ضربة قاتلة توقع الناس أنه سيموت بسببها ولكن أحد السودانيين (بسطامي سعيد) قال إنه لن يموت وقال كلاما فحواه، ولو أن الأعمار بيد الله ولكن الله أحكم وأعدل أن يموت رجل ضال وهو عند الكثير يعدونه من الدعاة والمصلحين، ولما سمع الدكتور جعفر هذا الكلام أيده ووافقه وتوقع الشيخ حفظه الله أنه لن يموت حتى يعرفه الناس على حقيقته من الزيغ والضلال والزندقة والانحراف، فكان الواقع أن الترابي نجا من هذا الاعتداء وعاش بعدها سنين ثم مات بعد ذلك وقد انكشف للناس زيغه وضلاله.

---

(٥) في حوار له مع جريدة المسلمون العدد٣١٢، ١٠/٧/١٤١١.

٣- موقفه من الحرية الدينية للمسلمين في الغرب وأمريكا؛ وقد سمعته قال في محاضرة له في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا في الثمانينات الميلادية «لا تغرنكم الحرية التي تستمتعون بها في أمريكا، فأنتم تعطونها الآن لأنكم لستم مؤثرين ولا أحد يخاف منكم، أما إذا صار عددكم كبيراً، وصرتم تمثلون جهة تخشى منها الأحزاب، أو الجماعات التي تقوم عليها الحياة هنا، فلن يكونوا مغفلين، ولن يلتزموا بالديمقراطية ولتكن النتيجة ما تكون»، والعجيب أن كثيرا من الحاضرين سخر من هذا الكلام واستغربه لأنه في ظنه لا يمكن أن يحصل في بلد ديمقراطي مثل أمريكا فحصل الآن ما توقعه الشيخ فأصبحت أمريكا بلد الحرية والديمقراطية المزعومة تضيق على المسلمين في داخل أمريكا وتبيد الشعوب المسلمة وتقتلها في البلدان الإسلامية كما فعلت في أفغانستان والعراق وسوريا والصومال وغيرها من بلاد المسلمين.

٤-موقفه من سؤال الفيزيائيين عن وجود الخالق: فقد قال في أحد المؤتمرات في أمريكا وذلك في السبعينات الميلادية لعلماء الطبيعة والفيزياء: «أنه سيأتي اليوم الذي سيسأل فيه علماء الفيزياء عن وجود خالق لهذا الكون، وأن هذا السؤال سيصبح سؤالا مشروعاً وملحاً، لأنه كان في ذلك الوقت كان السؤال عن وجود خالق لهذا الكون سؤالا مستنكرا وغريبا، وحصل ما توقعه الدكتور فأصبح اليوم السؤال عن وجود خالق لهذا الكون في محيط علماء العلوم الطبيعية بسبب النظريات الفيزيائية الحديثة أصبح سؤالا ملحا ومشروعا. قال حفظه الله (والله قلت هذا الكلام في سنة سبعين وبعض الناس استغربوا منه وأجد الآن الكثير من الأمريكيين المتدينين وكأنهم أخذوه مني، وأنا متأكد أن أي أحد منهم لم يقرأ لي شيئاً أو سمع بمقولاتي».

٥- وكما كان شائعا في ذلك الوقت استنكار السؤال عن وجود خالق لهذا الكون فكذلك شاع أن العلوم لاسيما الطبيعية محايدة ولا علاقة لها بالدين، وكان الشيخ قد ألقى محاضرة في أحد المؤتمرات الإسلامية في أمريكا في التسعينات الهجرية من القرن الماضي، فأيد من أيد واعترض من اعترض وسخر من سخر، وكانت أعلى الاعتراضات صوتا من دكتور يحاضر في إحدى الجامعات الأمريكية، وحجته أن العلم

محايد لا يتأثر بدين أو ثقافة. يقول الشيخ وبعد سنة وفي مؤتمر مماثل حضر البروفسور نفسه ومعه بحث طويل يؤيد ما قلته فقلت ماذا حصل يا فلان فقال: " I did my homework" "لقد عملت واجبي المنزلي" وهكذا كثير من العلماء والباحثين لاسيما من المسلمين تغيرت نظرتهم وأصبحت لدى بعضهم أن العلوم ليست محايدة كما يقال.

٦- والشيخ حفظه الله كثيرا ما استمعت إليه وهو يخاطب الطلاب المبتعثين في أمريكا في المؤتمرات والملتقيات الإسلامية قائلا إنني أخشى على أمتكم منكم فربما كنتم سببا في تغريبها وأن تكونوا قنطرة للعلمانية، فلعل بعضكم ينقل سيء الحضارة الغربية إلى أمته ظانا أنه حسن، ومن استمع إليكم ربما أحسن فيكم الظن بسبب مظهركم الإسلامي فصدقه وتأثر به، وقد وقع ما حذر فانتشرت العلمانية عن طريق بعض هؤلاء الفضلاء وصارت العلمانية في المجتمعات الإسلامية كما قال الشيخ علمانية في ثياب إسلامية.

٧- موقفه من فوز الجبهة الإسلامية في الجزائر : وذلك أن الدكتور جعفر يرى أن النظام الديمقراطي لن يسمح للإسلاميين بالوصول للحكم، وأن الغرب مستعد للتضحية بالديمقراطية من أجل العلمانية، ويستشهد بقول أحد الفلاسفة لما سئل إلى أي مدى تتسامح الديمقراطية مع الشيوعية، قال: تتسامح معها مالم تصل للحكم، فلما فازت الجبهة الإسلامية في الجزائر علق البعض بأن نظرية الدكتور جعفر فشلت وفاز الإسلاميون عن طريق الانتخابات الديمقراطية، ولكن لم يستمر الحال فقد أبعد الإسلاميون وحيل بينهم وبين ما وصلوا إليه، وقد سمعته يقول كنت أسعد الناس أن تفشل نظريتي ويستمر فوز الجبهة الإسلامية، ثم جاءت بعدها الانتخابات في غزة وفازت حماس ولكن الغرب لم يرض بذلك وضحى بالديمقراطية، وأخيرا الانتخابات في مصر وفوز "محمد مرسي" بالحكم فكل هذا وأمثاله يؤيد توقع الشيخ جعفر أن الإسلاميين لن يسمح لهم بالوصول للحكم عن طريق الديمقراطية وإذا وصلوا فلن يستمروا.

٨- موقفه من دخول القوات الأمريكية للخليج عام ١٩٩٠م فقد كان كثير من الناس يجزمون بأن القوات الأمريكية لم تأت إلا لاحتلال الخليج والجزيرة بينما الدكتور جعفر يستبعد وقوع ذلك وينفيه فكان الأمر كما ذكر.

٩- موقفة في عدم ترك شمال السودان متحداً مع جنوبه، ولقد سمعته منذ أكثر من عشرين سنة يقول إن الغرب لن يتركوا السودان متحدا مع الجنوب فلا بد من يوم يسعى الغرب لفصل جنوب السودان عن شماله فحصل الذي توقعه.

١٠- خشيته على بعض الأفاضل ممن كان يزوره من الانحراف فقد قال لي الشيخ يوما إنني أشم من فلان رائحة كريهة فظننت أنه يقصد رائحة بسبب الوساخة والقذارة الحسية ولكنه كان يعني القذارة الفكرية فحصل ما توقعه الشيخ، فأصبح هذا المسكين (رده الله إلى جادة الصواب) أصبح حربا على الخير وأهله منافحا عن الأفكار الضالة ومدافعاً عن الزنادقة والملحدين معادياً للدعاة والعلماء والصالحين.

مواقف الدكتور جعفر ورؤيته لقضايا مختلفة:

لست متشدداً ولا أرفض الحوار مع الآخرين:

من حوار مع الدكتور جعفر شيخ إدريس سأله مندوب صحيفة الشرق الأوسط في الرياض: إسماعيل محمد علي يوم الجمعة ٧ ذو الحجة ١٤٢٤ هـ ٣٠ يناير ٢٠٠٤م.

❖ **اتهمت أنك تتعامل مع مؤسسات إسلامية ـ أميركية تدعو إلى نوع متشدد من الفكر الإسلامي ما ردك؟**

فأجاب الدكتور جعفر: التشدد وعدم التشدد أوصاف نسبية تعتمد على تصور الواصف للأمر . إن السائد في الفكر الغربي هو أن كل من يرى دينه هو الحق الذي أوحاه الله تعالى، ويأخذه لذلك مأخذ الجد، نصوصاً، وعبادة وسلوكاً بقدر استطاعته، هذا في رأيهم إنسان متشدد؛ لأنهم يرونه حسب الدين الذي عرفوه، ثم إنه يصدق على سائر الأديان أنه متأثر بثقافة عصره فلا ينبغي أن يفرض على ثقافات عصور جاءت بعده، فالدين صار عندهم تابعاً للثقافة السائدة، وهو عندنا حكم على الثقافات وقائد لا تابع، فأنا لا أعد بالمقاييس الإسلامية متشدداً، ولست من الذين يرفضون الحوار مع الآخرين ومجادلتهم بطريقة عقلانية.

الدكتور جعفر يرفض أن يكون فقيه العامة.

من حوار أجراه جمال خاشقجي في جريدة المسلمون العدد ٣١٢، ١٤١١/٧/١٠هـ.

مع الداعية الدكتور جعفر الذي رفض أن يكون فقيهاً للعامة الكثيرون – علماء وعامة – ربما لا يريدون أن يسمعوا مثل هذه الكلمات منك، ولكنك تصر عليها، فلماذا؟ وهل أنت ممن يرفضون أن يخاطبوا الناس بما يحبون؟

فأجاب الدكتور جعفر: هناك مثل إنجليزي شهير يتهكمون به على هؤلاء الذين يتملقون مشاعر الجماهير . يقول المثل (أنا قائدكم . دلوني على الطريق) والمسلم عندي ليس هو من يقود الجماهير، بل هو من يهديهم إلى الحق . ومن يظل على موقفه هذا حتى لو رفض يكون قائداً لهم. وأحمد الله أنني قادر على أن أقول رأيي دائما . وقد حدث كثيراً أن اعترض البعض على آراء لي، ثم تبين فيما بعد أن ما قلت به كان صحيحاً.

وبعد هذا لنتساءل: من الذي كون آراء الناس؟ إنها أفكار الآخرين، ومعنى أن أسير وراء الناس حيث يريدون أني أتبع آراء وأفكار أشخاص قد يكون بينهم البعثي والعلماني والملحد. ولهذا لابد أن أتمسك بأفكاري ومبدئي الإسلامي، وأن أعاني من نشر ما أعتقد أنه حق.

الديمقراطية ليس لها محتوى:

❖ من حوار في قناة المجد في ساعة حوار مع الدكتور جعفر شيخ إدريس:

س: لكن ما تلاحظ أن هذه من المفارقة بين هذه الدول التي ترفع شعار الحرية شعار الديمقراطية شعار العلمنة وبين التدخل الصريح في صميم العقائد والحريات الشخصية في تباين واضح؟

أنا أرى أننا نحن في العالم الإسلامي والعربي كثيراً ما نتوقع من الديمقراطية ما ليس فيها ، ما الديمقراطية؟ الديمقراطية هي حكم الشعب، الديمقراطية لا تلزم أي شعب بأي مبدأ ولا قيمة ولا ولا ، تقول للشعب أنت الحاكم واختر لنفسك ما تريد هذه الديمقراطية المبدأ ، هذا المبدأ يأخذ شكلاً معيناً في الشعب هذا وفي الشعب هذا وفي الشعب هذا فالديمقراطية ليس لها محتوى، يعني مثلاً عندما تقول مثلاً حكم إسلامي هذا لها محتوى تقول الإسلام هو هذا القرآن والسنة ربما حتى لو قلت حكم نصراني عندهم مرجع حكم شيوعي عندهم مرجع الحكم الديمقراطي ما عندهم مرجع الشعب هو السلطة العليا ، وما يختاره الشعب هو الديمقراطية أنا كنت أقول لأناس في أمريكا يعني الآن يمكن أغلبية الناس تقول كل إنسان يكون عمره في العمر هذا يقتل، هذا قرار ديمقراطي، لو صوتوا عليه ونجح ممكن أن يكون هذا قرار ديمقراطي، فالديمقراطية لا تلزم بخلق ولا تلزم بدين ولا تلزم بأي شيء، أنت

يمكن أن تعترض على هذا القرار وتقول هذا القرار مخالف للدين أو مخالف للخلق لكن لا تستطيع أن تقول إنه مخالف للديمقراطية ما دام الإجراء فيه كان إجراء تصويت.

❖ ما تتلمذت على شيخ مثل تتلمذي على الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله.

من حوار أجرته مجلة الاستجابة السودانية مع الدكتور جعفر شيخ إدريس

الاستجابة: إلى أي حد استفدت من فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز؟

الدكتور جعفر: تأثرت منذ الطفولة بأنصار السنة، وما تتلمذت على شيخ مثل تتلمذي على الشيخ عبد العزيز بن باز، عبد العزيز بن بار أعتبره شيخي ما أظن أنني تتلمذت على شيخ مثل ما تتلمذت عليه، وإن كان ذلك بعد الخمسين ولا أعرف على وجه الأرض في هذا الزمان رجلا أعلم منه ولا لقيت في كل من عرفت من البشر من العلماء والقادة المفكرين من المسلمين وغير المسلمين رجلا في ورعه وتواضعه، ومن العيوب المنتشرة جدا بين العلماء سواء كانوا من علماء الدين أو علماء الدنيا أنهم لا يعترفون بأقرانهم ويقدحون فيهم وينتقدونهم ما رأيت رجلا عافاه الله من هذا مثل الشيخ عبد العزيز بن بار لا يذكر رجلا من العلماء المعاصرين إلا ويمدحه ويلقبه بأحسن الألقاب ثم إن خالفه يقول لكن أخطأ في الشيء الفلاني وكذا وكذا ثم يعتذر له أن هذه المسائل يخطئ فيها كبار العلماء قبله. وهو رجل كريم وما أعرف على وجه الأرض رجلاً يعرف من أحوال المسلمين في العالم وجمعياتهم وجماعاتهم وقادتهم ويهتم بهم كأنهم من أبناء بلده مثل الشيخ عبد العزيز لذلك حزنت حزناً شديداً عندما كنت أسمع أن بعض الناس يتكلمون عنه ويصورونه كأنه مجرد رجل من تنابلة السلطان أو أنه يضغط عليه ليقول كلاما لا يؤمن به، هذا كلام إنسان لا يعرفه، الرجل لا يقول ما لا يؤمن به أبداً، ولا أحد يستطيع أن يضغط عليه. أما أن يخطئ، فهو بشر كل العلماء يخطئون. ربنا سبحانه وتعالى ما كتب العصمة إلا للرسول ﷺ.

س: هل كانت القضايا التي أثيرت عن الترابي جديدة أم كانت قديمة؟

ج: أنا قلت للناس هذه ليست من القضايا المهمة أو الخطيرة بالنسبة له، وسوف أتحدث عن مسؤولية ما يسمى بالحركة الإسلامية عن ضلالات الترابي؛ لأنها كانت

معروفة لكثير من الإخوان والدعاة، رووا عنه أنه قال كذا وقال كذا، وأنا من الناس الذين تكلموا كثيراً، وكنا في حركة واحدة وكان فيه شيء اسمه مجلس الشورى، وأذكر أنه في يوم من الأيام أنا وقفت وهو كان بجانبي، وقلت لهم يا إخواني هذا الرجل ليس عنده دين، ولكن بعد ذلك لم يحصل شيء، والمفروض إما تحاسبوني أو تحاسبوه هو، لكن لم يحدث شيء من ذلك!.

واستكمالا للتعرف على شخصية الدكتور جعفر نورد عدداً من الحوارات التي أجريت معه في مناسبات مختلفة وأماكن متعددة:

❊ ❊ ❊ ❊ ❊



حوارات
مع جعفر شيخ إدريس

مقابلة مع الشيخ جعفر شيخ إدريس

مع مجلة الأمل التي تصدرها رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا وأجرى الحوار الدكتور أحمد سيف الدين تركستاني عام ١٩٨٦م

س/ لو حصلنا على تعريف بالشيخ؟.

الدكتور جعفر: أنا من السودان من مواليد ١٩٣١م درست بالسودان بجامعة الخرطوم، ودرست في بريطانيا، عملت في الحركة الإسلامية، اشتركت في النشاط السياسي مع طلبة الجامعة، ثم لخلاف مع حكومة نميري تركت السودان واستقر بي المقام في مدينة الرياض في جامعة الرياض كانت تسمى آنذاك، في قسم الثقافة الإسلامية، ثم انتقلت الآن إلى كلية الدعوة والإعلام في جامعة الإمام محمد بن سعود.

س/ أنت درست في الغرب ورأيت التجربة الغربية في الجانب الأكاديمي وكثير من شبابنا المسلم اليوم يعيش هذه التجربة يعيش في الغرب، في رأيك ماهي النظرة التي يمكن أن تنظر بها إلى العلوم في الغرب، وكيف يمكن أن نسخر هذه المعرفة التي نتلقاها في بلاد الغرب إلى توظيفها في النهضة الإسلامية في بلاد المسلمين؟

الدكتور جعفر: أقول وبالله العون إنني لم أدرس في بلاد الغرب فقط، بل إنني حتى في السودان درست على أيدي غربيين منذ أن كنت بالمرحلة الثانوية أساتذتنا في العلوم الطبيعية وفي التاريخ والجغرافيا وفي كل العلوم كان معظمهم من الإنجليز، وكذا في جامعة الخرطوم درسنا الجغرافيا والاقتصاد والفلسفة على أيدي غربيين، فالذي أقوله نصيحتي لإخواننا وأقولها عن تجربة ثم عن بعض معرفة سبب تخصصي بالفلسفة لا سيما ما يسمى فلسفة العلوم، أنصحهم بأن ينظروا إلى هذه العلوم نظرة نقدية مع الأسف الذي يحدث الآن في العالم الإسلامي سواءً في المدارس أو الجامعات أن الأمر يعني انقلب، فصار الطلاب ينظرون إلى العلوم الإسلامية نظرة نقدية، فلا يسلمون بما يقوله أستاذ العلوم الدينية في المدارس وكثيراً ما يشكو الأساتذة من كثرة أسئلة الطلبة وكثرة اعتراضاتهم، وأما إذا دخل عليهم أستاذ الجغرافيا أو التاريخ أو الطبيعة أو الفيزياء وكذا فكلما يقوله لهم يسلموا به بل حتى أساتذة ما يسمى العلوم

الاجتماعية ونفس هذا الاتجاه في الجامعات أصبح اتجاهاً تلقينياً يأتي الأستاذ ويقول لهم إن علم النفس الحديث أصبح كذا، وإن الفيزياء يقول كذا، وأضرب لكم مثلاً كنت أدرس في قسم الثقافة الإسلامية مادة لها علاقة بهذا الموضوع فكنت أقول للطلاب بأن القول أن المادة لا تستحدث ولا تفنى هذا قول مخالف للدين، ثم إنه ليس قولاً علمياً؛ فكنت أجد معارضة شديدة مع أن الواقع الذي يقوله العلماء في الغرب أنفسهم أن هذا ليس جزءًا من الفيزياء يعني ليس شيئاً عرف بالتجربة ولا بالمشاهدة ولا هناك دليل عليه رياضي ولا شيء من هذا، لكنه من الفروض التي يفترضها العلماء وكثير من العلماء انتقد هذا وقال الأحسن أن نقول إن كمية المادة ثابته ولا ندخل في مسألة فلسفية هل هي تحدث أو تفنى لكن كان كثير من الطلاب يعترضون على هذا ويظنون أن هذا الكلام معناه رفض الفيزياء، فالناس أصبحوا يخشون جداً من نقد أي جانب من العلوم الطبيعية أو حتى الاجتماعية خوفاً من أن يقال إن هذا يعني إضعاف لموقف المسلمين من العلوم هذه، فرجائي أن ينظر طلابنا سيما أقول للمتدينين منهم أن ينظروا إلى هذه العلوم نظرة نقدية وهذا سيفيدهم حتى في معرفة هذه العلوم و في أن يكونوا أصلاء فيها لأنهم إذا نظروا الآن إلى الغربيين سيجدون أن كثيراً من النظريات التي يقول بها بعض الناس في فترة من الفترات يأتي وينتقدها آخرون فلولا أن هؤلاء كانوا ينظرون نظرة نقدية إلى ما يقوله أصحابهم لما أتوا بشيء أصيل فنحن ما دام الله سبحانه وتعالى قد أعطانا معرفة ليست عندهم، ويمكن أن ننظر إلى هذه الأشياء من زاوية لم يعطوا هم الفرصة لأن ينظروا من خلالها، فلننظر إلى هذه العلوم مهما كانت ننظر إليها من عدة نواحٍ مثلاً إلى أي مدى هذا الكلام فعلاً مطابق للواقع وإلى أي مدى هذا الكلام متناسق في نفسه وليس متناقضاً وإلى أي مدى هذا الكلام متفق مع ما يقوله الشرع الإسلامي وهذا في نظري يعني تدريباً رياضياً لعقل الإنسان ولا يأتي إن شاء الله إلا بخير، فملخص النصيحة أن لا يكونوا متلقين فقط، ويعجبني في هذا المجال أن أذكر كلاماً قاله الشهيد إن شاء الله إسماعيل الفاروقي سمعته يقول في بعض الاجتماعات التي حضرتها أنه يريد للطلاب المسلمين أن لا يكتفوا في علم من العلوم بأن يكونوا مثل أساتذتهم، بل يريدهم أن يكون أحسن منهم في ذلك العلم يعني

أن تعرف ما عرف فلا يتهمك بالجهل، ثم أن تمضي أكثر من هذا فتنظر إلى هذا الذي عرفته من نظرة إسلامية وتنتقده وتأتي بما يفتح الله سبحانه وتعالى عليك من رأي وفكر.

س/ هناك مشكلة أظنها تواجه كثيراً من الشباب المسلم، وهي أنه يريد التفوق العلمي يريد أن ينصرف إلى هذا الجانب ويبرز فيه ولكنه في الوقت نفسه منشغل بالعمل الإسلامي فكيف تظنه حقاً يمكن أن يوفق بين العمل الإسلامي من جهة والذي يطلب منه وقتاً كثيراً لقضائه مع الشباب وقضائه بالأنشطة الإسلامية في المسجد إلى آخره وبين أن يبرز علمياً حيث يكون ملتصقاً بمادته وأستاذه ومدرسته ؟

الدكتور جعفر : هذا موضوع مهم، والذي أراه أنه لابد أولاً من ناحية القاعدة العامة أنه ينبغي لكل طالب أن يحاول التوفيق بين هذين الأمرين فلا يتطرف في ناحية على حساب الناحية الأخرى، يعني هذه قاعدة عامة وهذه كانت تجربة كثيراً من إخوانهم الذين سبقوهم في الدراسة والذين مكنهم الله سبحانه وتعالى أن يكون في قيادة الحركة الإسلامية فلولا أنهم نالوا نصيباً جيداً من هذه العلوم ومن تخصصاتهم وبرزوا فيها لما كانت لهم هذه المكانة التي هي لهم الآن سواءً كانت مكانة في الحركة الإسلامية أو مكانة في بلادهم تمكنهم من المساعدة في أسلمة المؤسسات، هذه القاعدة العامة، لكن الذي «أراه أعرف أن بعض القادة الدعاة يخالفوني هذا الذي أراه» أن الحركة الإسلامية بحاجة إلى علماء أكثر من حاجتها إلى أُناس يتحركون من هنا إلى هناك، ويتكلمون كلاماً عاماً وعندما أقول علماء أعني أُناساً نالوا نصيباً جيداً من العلوم الشرعية مع توسعهم في تخصصاتهم، ولا أعني بهذا أن يكونوا من خريجي الكليات الإسلامية بل أرى أن من واجب كل شاب أعطاه الله سبحانه وتعالى المقدرة على الدرس والتحصيل أن يعتبر أن من واجبه أن يلم إلماماً جيداً عاماً بالعلوم الإسلامية من تفسير وحديث وكذا وأن يركز على ما يتصل بعلمه من هذه العلوم لأننا الآن في العالم الإسلامي نواجه مشكلات كثيرة تحتاج إلى اجتهاد وتحتاج إلى حلول فتحتاج إلى عقول كبيرة فلا يمكن كما تعرفون من شروط الاجتهاد أن يعرف الإنسان طبيعة المشكلة لا يكفي العلم الشرعي بل لا بد أن يعرف المشكلة، وقد

تعقدت الحياة بحيث إنه لم يعد من الممكن لعالم من العلماء مهما كان متبحراً في العلوم الإسلامية أن يلم بكل جوانب الحياة الآن من اقتصادية وقانونية فتعقدت جداً فلابد من تخصص، فالذي أراه أننا محتاجون إلى ما يسمى بالاجتهاد الجزئي، هذا كان يقول به العلماء، ومعظم الاجتهاد كان هكذا يعني أن يختص الإنسان بمسألة من المسائل ويعرف كل ما يتصل بها من الآيات والأحاديث ويقرأ ما قاله العلماء في هذا الموضوع ثم يكون هو أهلاً لأن يجتهد في هذا الجانب الذي تخصص فيه، وعلماؤنا يقولون العلم إمام العمل، فلا يمكن للعمل الإسلامي أن يكون عملاً على هدى ولا يمكن لأسلمة العالم الإسلامي أن تسير على هدى إلا بأن تكون لنا عقول كبيرة وعلماء، فأرجو أن يعتقد الأخ الطالب أو الابن الطالب أن هذا التحصيل العلمي هو أيضاً عمل إسلامي ولا يكون مفهومه للعمل الإسلامي ضيقاً، وهو أن يلقي محاضرة هنا أو حديثاً عاماً هنا أو أن يحضر جلسة هنا أو هنالك، فمن أعطاه الله سبحانه وتعالى هذه المقدرة عليه أن يعطيها نصيباً أكبر من العمل الإسلامي العام ومن كان لا يميل إلى الدراسة الأكاديمية ميلاً كبيراً وإنما يريد أن تكون له الشهادة فقط وأعطاه الله مقدرة أكثر على الاتصال بالناس والتأثير فيهم فليركز على هذا ولكن ينبغي أن لا نقول للناس جميعاً انصرفوا عن العلم أو نعتقد أن هذا نوعاً من التقصير من جانبه هو، هذه مسألة أنا أرى خصوصا عندنا في السودان بجامعة الخرطوم وساءني فعلاً أن أجد من الشباب لا يكادون يحضرون محاضرات حتى بعضهم لا يعرف من الأساتذة في القسم فقلت لهم: نحن ما كنا كذلك وأنتم إذا تخرجتم وصرتم وكبرتم ستلوموننا ستلاحظون أثر هذا ستلوموننا ستقولون نحن شغلناكم بهذه المسائل عن العلم وهذه حالكم الآن لا تسر لا نريد هذا نريد لهم ما أردنا لأنفسنا.

س/ قبل أن نبحث مسألة الإعلامية التطبيقية أو النظرية التي لمحنا إليها في السؤال السابق أود أن تؤكد على هذه الناحية؛ لأنها تهمنا كطلاب مسلمين في هذه البلد يهمنا معرفتها معرفة جيدة أقول هل العلوم التطبيقية أو الطبيعية التي تدرس اليوم في الغرب وفي مناهج التعليم علوم محايدة أي ليس وراءها مُسلمات أوفرضيات فلسفية أو فكرية معينة ؟

الدكتور جعفر: هي ليست محايدة، وهذا الكلام يعني كلاماً أصبح من المسلمات عند المشتغلين بما يسمى بفلسفة العلوم بل هناك كتب في هذا والآن كنت اقرأ في كتاب يقول إن العالم يمكن أن ينتقد مسلماته الميتافيزيقية لكنه لا يمكن أن يتخلى من كل المُسلمات الميتافيزيقية فكل هذه العلوم تقوم على مُسلمات ميتافيزيقية يعني ما وراء الطبيعة؛ أي أشياء لا علاقة لها مباشرة؛ أي أشياء لا يستطيع أن يقيم الدليل عليها من خلال علمه بل يبني عليها العلم، مثلاً كالمسألة التي كنت أقولها إن المادة لا تستحدث ولا تفنى هذه مسألة ما وصل إليها العالم الطبيعي بالمنهج التجريبي لأنه لا يمكن لكن هي فرض يقوم عليه العلم وهم يتحدثون عن فروض كثيرة أخرى لكن أنا في رأيي أن من الفروض التي يقوم عليها الآن كل العلوم سواءً كان من العلوم الطبيعية أو غير الطبيعية، هي أن هذا العالم مكتفي بنفسه معنى ذلك أنك إذا أردت أن تبحث عن علة لأي شيء في هذا العالم فابحث عن هذه العلة من داخل هذا العالم كل كلام عن علة أو سبب أو فاعل خارج هذا العالم يعتبر شيئاً غير علمي فإذا أصبح الإلحاد جزءًا من مفهوم العلم هذا الكلام لا يقال لطالب الفيزياء أو الأحياء ولا يقال في مقدمة الكتاب بل قد لا يشعر فيه الأستاذ نفسه، وهذا مما يقوله علماء فلاسفة العلوم يقولون ذلك و"أينشتاين" له عبارة يحبها فلاسفة العلوم قال: لا تسأل العالم الطبيعي عن منهجه ولكن انظر ماذا يفعل لأنه كثيراً ما يكون تصوره للمنهج غير مطابق لواقع المنهج الذي يسير عليه فمن باب أولى أيضاً وهنالك رجل اسمه "كون" كتب كتاباً عن الأطر وملخص هذا الرأي أنه في كل عصر من العصور تكون هنالك مُسلمات يأتي بها أولاً بعض القادة الرواد، ثم تكون إلى كثير من العلماء الآخرين من المُسلمات ويشتغلون كل عملهم يكون مبنياً عليها ثم بعد قليل تحدث ثورة أخرى فيتغير المُسلم الأولى ويأتي الآخر أصبح هذا شيئاً مُسلماً به عندهم، فالذي نستطيعه نحن كما كان يقول أحد فلاسفة العلوم يقول إن مهمة فيلسوف العلوم هي كمهمة عالم النفس وهي أن يكتشف ما في اللاشعور لأن المريض النفسي حسب النظرية يكون سبب مرضه شيئاً ليس في شعوره الواعي ولكن في اللاشعور وكذلك يقول إن العالم الطبيعي هنالك أشياء لا يشعر بها فمهمة الفيلسوف يبحث عن هذه الأشياء وينقب عنها ويكون علمه مبنياً على هذا فإذا

غيرت هذا يحصل كذا في العلم، إذا كانت هذه مهمة فلاسفة العلوم في الغرب فمهمتنا نحن أيضاً أقول بأننا ننظر من زاوية لا تتهيأ لهم؛ فنستطيع أن نكتشف من هذه المُسلمات ما لا يكتشف فيلسوف العلوم الغربي، وأظن أن أي طالب إذا فكر في علومه بهذه الطريقة ولم يحصر نفسه فقط في الجزئيات التي تلقى عليه في المحاضرات أو في الكتب المدرسية وإنما فكر في علمه بهذه الطريقة أنا لا أقول فقط أن هذه العلوم ستقترب من الإسلام ولكن سيكون هو رجل أصيل في علمه، وسيأتي إن شاء الله بنظريات وكذا يحترمها الغربيون فأنا لا أريد للطلاب ولا أريد للعالم الإسلامي أن تظل حياتنا كلها تلاميذ للغربيين لكن الآن الغربيين تجد الفرنسي يستفيد من الإنجليزي والإنجليزي يستفيد من الأمريكي وكلهم يحترم بعض لأن كل واحد منهم له نظريات وله نقد وله اكتشافات، هذا الذي نريده لإخواننا المختصين بهذه العلوم سواءً كانت طبيعية أو اجتماعية.

س/ لعلنا نحن نقترب من نهاية هذا اللقاء نود أن نتحدث عن قضية نظنها في أهمية لدى الشباب المسلم، وهو أنه توجد الاختلافات دائماً بين الشباب المسلم بحسب نشأته وإتيانهم من بلاد مختلفة خصوصاً في بلاد الغرب وتكون هذه الخلفيات أحياناً سبباً في وجود الاختلاف بينهم، إلى أي حد يمكن أن يقبل الاختلاف بين الشباب المسلم مثلاً أولئك الذي لا يرون بأساً في الصوفية، أولئك الذي لا يرون بأساً بالاحتفال بالمولد النبوي بطريقة أو بأخرى، أولئك الذي يتعاملون مثلا مع المرأة بطريقة فيها كثير من التسامح أو سمه التحرر أكثر من غيرهم وغير ذلك من أوجه الاختلاف، إلى أي حد يمكن أن يقبل هذا في سبيل تجميع كلمة المسلمين والشباب المسلم، وأن يتآلف فيما بينهم دون أن يضحي بشيء من مبادئ الإسلام؟

الدكتور جعفر: القاعدة هي إنما المؤمنون إخوة، هذه الرابطة الأخوية وهي في الأصل رابطة في القلب لابد أن ينتج عنها تعاون بين المسلمين؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعانوا على الإثم والعدوان) وهذا التعاون يقتضي أن يكون المسلمون حيث ما كانوا في جماعة منظمة، ولذلك قال الرسول ﷺ: **(الزم جماعة المسلمين وإمامهم)** فهذه هي القاعدة أن المسلمين ينبغي أن يجتمعوا وأن تكون

العلاقة بينهم علاقة أخوية، وأن يتعاونوا على البر والتقوى، فسواءً كنتم في الولايات المتحدة أو في كندا أو كذا أنا أرى أن كل من يقول لا إله إلا الله ينبغي أن يتعاون مع الذي يقول هذه الكلمة والوضع الأمثل كان هو أن يكون لكل المسلمين في هذا البلد أو في غيره من البلاد قيادة واحدة لكن هذا لم يحدث، إذا كانت هنالك جماعات مثلاً من الطلاب في جامعة واحدة وهنالك أشياء كثيرة يمكن أن يتعاونوا فيها فلابد لهم من أن ينظموا أنفسهم وأن تكون لهم قيادة واحدة وأن يتعاونوا في الأشياء التي يتفقون عليها ولا أقول يعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه لأن ما اختلفوا فيه قد يمكن مما لا يعذر الإنسان الآخر فيه لا أعذر إنساناً في مسألة من مسائل العقيدة أرى أنها تخرجه عن الملة لكن إذا كان جاهلاً نبصره ونكلمه وكذا لكن لا آمره بالخروج من هذه الجماعة إذا كنت أنا في مركز القيادة لا أسمح له بأن يفعل أشياء في المسجد أو في أماكن بعض الاجتماعات أرى أنها بدعة مخالفة للدين إذا كنت أنا أستطيع أن أفعل هذا إذا لم أستطع وكنت أنا في الأقلية فلا أخرج عن هذه الجماعة بسبب ما يرتكبون من بدع لأن بقائي معهم وهم يرتكبون هذه البدع خير من أن أعيش فرداً في مجتمع كافر يعني بعد ما خرج من جماعة المسلمين مهما كانت منحرفة وذهبت إلى جماعة الكفار فلا أفعل هذا، وأكرر إن كنت أنا في موضع الأغلبية والقوة فلا أسمح بأشياء أراها مخالفة للشرع، وإن كنت في موضع الضعف أتعاون معهم فيما أرى أنه الخير ولا أقرهم على ما أرى أنه باطل وهذه المشكلة واجهتها في كثير من بلاد العالم الإسلامي كثيراً وفي بعض الأماكن لا أرى لها من حل لأن الذين يختلفون هم من عوام المسلمين الشخص الذي لا يفرق بين القرآن والحديث وبين مذهبه أو ما كان الناس عليه في بلده فهؤلاء يعني تكاد تكون ميؤوس منهم بل في بعض الأماكن اختلفوا حتى صار لكل جماعة منهم مسجد فالذي يأتي من تركيا يريد أن يصلي بطريقة معينة لا يفرق فيها بين الواجب والمندوب ولا حتى في مذهبه فالذي لا يضع غطاء على رأسه كأن صلاته في رأيه باطلة مع أن هذا شيء لا يوجد له لا في الكتاب ولا في السنة ولا في أي شيء يعني غاية ما يقوله مذهبه أن هذا مندوب، لكن بسبب الثقافة التي عاش فيها يصبح هذا من أركان الدين، لكن أرجو أن لا يكون هذا هو حال الطلاب الذين أعطاهم الله سبحانه وتعالى المقدرة على أن يحلوا هذه

المشكلات بالطريقة التي قالها الله سبحانه وتعالى، الله سبحانه وتعالى ما قال إن المؤمنين لا يمكن أن يختلفوا ولا يمكن أن يتنازعوا وأنهو إذا تنازعوا هذا دليل على أنهم ليسوا مؤمنين، وإنما قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فادعوا إخوانكم إلى هذا وقولوا لهم يا إخوة نحن ملتزمون بدين واحد وهذا الدين مصادره هذه هي الكتاب والسنة فإن تنازعنا فليكن محاولتنا لحل النزاع محاولة علمية وإسلامية بحسب ما وجهنا الله سبحانه وتعالى، وإن شاء الله يكون هذا نفسه يكون نوعاً من التثقيف والتعليم لإخواننا؛ لأني أرى "خصوصاً بالنسبة للطلاب" أن كثيراً منهم يستفيد يعني يكون قد جاء من مكان أصبحت بعض العقائد الفاسدة من المُسَلمَات عندهم ولا ينكرها عالم، ولا يعرف أنها منكر فإذا جاء هنا واتصل ببعض إخوانه كان من حظهم أنهم عاشوا في بلد ينكر هذا فيستفيد منهم.

س/ هل من كلمة أخيرة للشباب المسلم في الغرب عدا ما تعرضنا إليه؟

أنصحهم بما نصح الله للناس قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، والرسول ﷺ يقول: **(اتق الله حيث ما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)**، وأنا كتبت مرة أن هذا الحديث ينبغي أن يكون دستوراً لإخواننا خصوصاً في الغرب، اتق الله حيثما كنت فالتقوى ليست مرتبطة بمكة والمدينة والقاهرة وإنما تتقي الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها لأن الإنسان يتعرض هنا ربما لانحرافات ويقع في بعض المحظورات فليتذكر أن الله سبحانه وتعالى جعل له مخرجاً من هذا اتبع السيئة الحسنة تمحها ولا يأتيك الشيطان فيغريك أولاً بالوقوع فإذا وقعت يحبسك من النهوض فأنت تقاومه فلا تقع وإذا وقعت تخالفه فتنهض، وخالق الناس بخلق حسن ما قال خالق المسلمين فقط وإنما خالق الناس بخُلق حسن فأرجو أيضاً أن تخالقوا كل الناس بخُلق حسن، وأن يكون خُلقكم هذا وسيلة من وسائل دعوة الناس إلى الخير .

* * *

مع الداعية الذي رفض أن يكون فقيه العامة

حوار (جريدة المسلمون العدد٣١٢. ١٤١١/٧/١٠) أجرى الحوار جمال خاشقجي

مخطئون أولئك الذين يشفقون على تحطم قوة صدام:

❖ **المسلون:** وكانت الفتنة القاصمة التي تعيشها الأمة العربية والإسلامية ممثلة في أزمة الخليج هي مدخل هذا الحوار، فكيف وقع ما وقع ولماذا، وكيف تباينت المواقف تجاه الحدث الجليل على نحو لا يكاد يصدق؟

❖ **الدكتور جعفر:** إن فهم ما حدث وتحليله يبدأ بتحديد معاني الكلمات وأولها هذه الكلمة (الفتنة)، وعندي أن الفتنة هي ما يجعل قبول الحق عسيراً، وقد يكون أحدنا على نحو أو آخر سببا للفتنة عندما يكون رمزاً للدين ويعرف الناس الإسلام عن طريقة، يكون هذا الشخص في موقع قيادي. فإذا ما اتخذ مثل هذا الشخص موقفا فيه ميل إلى الظلم، أثر بذلك على العامة، فمالوا معه. إن واجب العلماء أن يكونوا قدوة للناس، ويجب أن يتخذوا مواقفهم بناء على هذا الموقع؛ لأن العامة يتخذونهم نموذجاً وأسوة، ومن المؤلم أن بعض الإسلامين – في هذه الأزمة – قد ضحوا بالمبادئ والمثل العليا من أجل مواقف جزئية ومصالح موقوتة. صحيح أن الإسلام دين عملي، وهو يرتبط بالحياة وواقع الناس، ولكن هذا لا يعني أن نضحي بالمبادئ أو المثل من أجل هذه الجزئيات التي هي أدخل في باب التفاصيل منها إلى الدخول في باب الكليات، إن في الناس جهلا وانفعالا عاطفيا، وغالبا ما تحكمهم سيكولوجية الجماعة، ولهذا فهم دائما بحاجة إلى قائد أو موجه أو نموذج يحتذى به؛ لأنهم غير قادرين بذواتهم على اختيار الموقف الصحيح. وفي هذه الأزمة سار الناس وراء قادتهم أو وراء نماذجهم الإسلامية فضلوا، وهم هنا - أعني العامة – غير ملومين. ولهذا جاءت الفتنة وتباين المواقف. قارن هذا الموقف، بموقف أبي بكر وعمر أمام أزمة المرتدين عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ. لقد حارت عقول كبار الرجال من صحابة رسول الله أمام الموقف الصعب، وقال المؤرخون: إن عمر قد تابع أبا بكر في رأيه، وهذا غير صحيح، والصحيح هو أن عمر قد استبان له الحق برأي أبي بكر فاتبعه. أما في أزمتنا هذه فقد طاشت عقول بعض القيادات أكثر مما طاشت عقول العامة.

❖ **المسلمون**: تلك مشكلة سير العامة وراء قادتهم، فكيف انحرف هؤلاء القادة أنفسهم؟

❖ **الدكتور جعفر**: لأننا – إذا أحسنا الظن – ورغم انتسابنا للإسلام، لانزال متأثرين في سلوكنا العملي بمبادئ غير إسلامية، لقد كشفت هذه الأزمة عن أهمية التربية الإسلامية التي كثيرا ما تحدثنا عنها، والتي قصرناها على أداء الشعائر في العبادة والصلاة وبعض السلوكيات، مع أن هذه التربية يجب إلا تنعزل عن الفكر، بحيث لا يكون هناك تناقض بين العبادة والعقل، أو الفكر والسلوك. والذي يحدث في واقعنا غير هذا. فكثيرا ما نرى الإنسان المسلم صادقا في حياته الخاصة، لا يكذب ولا يسرق ولا يخون، لكنه ما إن يبدأ التعامل مع السياسة حتى تجد نفسك إزاء إنسان آخر، حيث لا يجد حرجا في الكذب والمراوغة معتقدا أن السياسة معايير تختلف عن المعايير الشرعية. نعم فعل هذا ويفعله كثير من الإسلامين، حتى إنني راجعت بعضهم وقلت له في موقف أو آخر إن هذا لا يجوز لأن فيه كذبا أو مخالفة، ولكن هذا البعض كان يقول لي إن العمل في السياسة يحتاج إلى مثل هذا السلوك. وذلك نمط من التفكير الغربي الذي لا نزال متأثرين به للأسف.

❖ **المسلمون**: هل توافق على ضرب العراق عسكريا بقيام الحرب؟

❖ **الدكتور جعفر**: لا. أبداً، فأنا لا أوافق على الحرب ولا أريدها، ولكن لا أصدر في هذا الموقف حرصا على صدام حسين أو قوته، ولكن حرصا على شعب العراق والسعودية والكويت، فليس ثمة سبب واحد معقول لهذه الفتنة كلها، وهذا الدمار، كله وهذا الإزهاق لأرواح الأبرياء. من هنا فأنا أرفض الحرب.

❖ **المسلمون**: **يرد** بعض الشباب على دعوتك برفع الصوت عاليا ضد العراق حتى تنسحب من الكويت بأن في ذلك خدمة لأمريكا والإمبريالية العالمية؟

❖ **الدكتور جعفر**: يعتقد بعض الإسلامين أن للسياسة معايير تختلف عن المعايير الشرعية. وهذا خطأ لأنه نمط غربي في التفكير، الذين يقولون إن أمريكا تريد احتلال الخليج لا يدركون ما يجري في العالم اليوم، ليس من الحكمة أن أتخلى عن مبادئ إذا توافقت في قضية ما مع مواقف عدوي، ثم إن هذا ليس عمليًّا أيضا. فالانتهازي العاقل يقول: «أنا أقف الموقف الذي فيه مصلحتي حتى لو اصطدم بمصلحة غيري» أما المسلم العاقل فيقول: «أنا أقف مع الحق حتى لو كان فيه ضرر بي ومصلحة لعدوي»، إذ إن على المسلم أن ينصر الحق لا أن ينصر شخصا. يقول الله سبحانه

وتعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وفي هذا الصدد يقول كثيرون إن أمريكا تكيل بمكيالين، فهي تقف مع الحق في قضية الكويت، وتقف مع الباطل في قضية فلسطين. حسن جدا. علينا إذن أن ننتهز هذه الفرصة ونمارس عليهم ضغطا، ونقول لهم: لماذا لا تقفون نفس الموقف العادل تجاه الفلسطينيين؟ صححوا موقفكم لتكونوا مع الحق والعدل على نحو ما فعلتم إزاء الكويت. هذا ما ينبغي أن نقوله ونفعله انطلاقا من المبادئ الإسلامية الحقة .

❖ **المسلمون: إنهم** يعودون بالذاكرة إلى تأييد الإسلاميين لعبد الناصر في أزمة السويس رغم أن يديه كان غارقة في دمائهم يومئذ؟

❖ **الدكتور جعفر**: ثمة فرق كبير بين الموقفين، ولأحدثك عن نفسي. كنت يومها طالبا في الجامعة وكان لي نشاط في اتحاد الطلبة وكانت علاقتنا سيئة بعبد الناصر. ورغم هذا وقفنا معه في أزمة السويس؛ لأن مصر كانت تتعرض لعدوان مدبر من ثلاث دول بينها إسرائيل. أما مشكلة اليوم فمختلفة. وبعد أن فشل العدوان على مصر عدنا إلى صراعنا مع عبد الناصر من جديد.

❖ **المسلمون: ثمة** شبهة أخرى، حيث يقول البعض إن احتلال العراق للسعودية هو أقل ضررا من دخول القوات الأمريكية إليها فما رأيك؟

❖ **الدكتور جعفر**: ليس هذا صحيحا؛ لأنني أعتقد جازما أن صدام حسين لو دخل السعودية لفعل بها ما فعله بالكويت. نعم، لو غزا هذه الديار لقتل العلماء وأهل الدعوة وطلاب العلم ولانتهك الأعراض وسلب الثروات. ودليلي هنا هو ما فعله هو نفسه في الكويت، ومعنى هذا أن استدعاء القوات الأمريكية وفق شروط معينة يظل أقل خطرا وضررا من دخول العراق إلى السعودية. ثم ما هذا التفكير القومي الضيق. ما الفرق بين كافر عربي وكافر غربي؟ كلاهما سواء، إن لم يكن الكافر الغربي أقل سوءاً لأنه محكوم بنظام الحكم والرأي العام في بلده، وكلاهما له تأثير. على عكس الكافر العربي الذي يعربد كما يحلو له بلا رادع أو ضابط. وهل هناك ما هو أسوأ من هدم المدن وانتهاك الأعراض وقتل المدنيين بالغازات كما تقتل الحشرات.

❖ **المسلمون: الكثيرون** – علماء وعامة – ربما لا يريدون أن يسمعوا مثل هذه الكلمات منك، ولكنك تصر عليها، فلماذا وهل أنت ممن يرفضون أن يخاطبوا الناس بما يحبون؟

❖ **الدكتور جعفر**: هناك مثل إنجليزي شهير يتهكمون به على هؤلاء الذين يتملقون مشاعر الجماهير. يقول المثل «أنا قائدكم... دلوني على الطريق». والمسلم عندي ليس هو من يقود الجماهير، بل هو من يهديهم إلى الحق. ومن يظل على موقفه هذا حتى لو رفض قائداً لهم. وأحمد الله أنني قادر على أن أقول رأيي دائما. وقد حدث كثيرا أن اعترض البعض على آراء لي، ثم تبين فيما بعد أن ما قلت به كان صحيحاً، وبعد هذا لنتساءل: من الذي كون آراء الناس؟ انها أفكار الآخرين. ومعنى أن أسير وراء الناس حيث يريدون أني أتبع آراء وأفكار أشخاص قد يكون بينهم البعثي والعلماني والملحد. ولهذا لابد أن أتمسك بأفكاري ومبدئي الإسلامي، وأن أعاني من نشر ما أعتقد أنه حق.

❖ **المسلمون**: **أنت** تدعو إلى نوع من الواقعية في التعامل مع الغرب. فكيف يتم هذا مع الإحساس بأن هناك مؤامرة صليبية كبرى ضد الإسلام والمسلمين لا يصلح العمل معها إلا بالجهاد؟

❖ **الدكتور جعفر**: أنا لا أدعو إلى التعاون مع الكافر في كفره، بل أدعو إلى فهم روح العصر؛ لأن رفض التعامل مطلقا مع الغرب أمر مستحيل، على المستوى الاقتصادي على الأقل، فهو يشتري بترولنا ونحن نستخدم منجزاته الصناعية.

إن تجاهل الحقائق خطأ يقع فيه الشباب وبعض الكبار أيضاً. ومن قبيل هذا التجاهل ما يقول به هؤلاء من إعلان الجهاد ضد الغرب الملحد وعدم التعامل معه، ونموذج صدام حسين هو أشهر هذه النماذج. فمن أين له بهذه القوة كلها من الغرب. لقد سمعت حوارا مع مسؤول فرنسي في الإذاعة البريطانية بعد أن سأله المذيع ألستم نادمين على ما قدمتموه من مساعدات لصدام حتى تحول إلى طاغية يهدد الغرب ومصالحه؟ قال المسؤول: نحن نعلم أنه طاغية ولكنه علماني، وهذا يعني أنه يظل أفضل من الإسلاميين بالنسبة لنا. معنى هذا أن أحداً لا يملك أن يرفض التعامل مع الغرب بكل سواءته. وهذا ما أقول به، بل إنني أذهب إلى حد القول إن تعبير "محاربة الغرب" لا ينبغي أن يقال. فهو شعار لا يعني شيئاً، لأن الحركات الإسلامية ليست مستعدة له حالياً. فضلاً عن أن مثل هذه الكلمات الرنانة تدفع الآخرين للنظر إلى الإسلام والحركات المعبرة عنه على أساس أنها حركات غير متحضرة إن لم تكن همجية وبربرية تستهدف القضاء على الحضارة الإنسانية السائدة. وليس هذا هدفاً

للإسلام بالطبع؛ لأننا نأخذ ما في هذه الحضارة من خير ونرفض ما فيها من شر، بل إن الإسلام ينهانا عن استخدام مثل هذا التعبير لأن القرآن يستخدم كلمات الكفر والإيمان، ولم يقل محاربة قريش أو الروم، فهدفنا ليس تدمير حضارة الغرب بل الدعوة إلى الحق. ولو آمنوا بهذا الحق لأصبحوا إخوانا لنا.

إن الصراع موجود، وهو ممتد أيضا ولكن ليس هذا هو الوقت المناسب له؛ لأننا لا نملك مقومات الانتصار في هذه المعركة حتى الآن. فلننتظر إذاً ولنعمل. ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]؛ لأنهم لم يكونوا مستعدين لقتال المشركين.

❖ **المسلمون: لعل** من أخطر سلبيات هذه الأزمة ذلك الجفاء الذي وقع بين الإسلاميين الخليجيين وإخوانهم في الدول الأخرى، والذي كان من أهم أسبابه مقولة أن هناك ظلماً في توزيع الثروة على نحو يزرع الحقد في النفوس، فهل يمكن أن يتأثر شباب الصحوة بمثل هذه الافكار؟

❖ **الدكتور جعفر**: الحق إنني فوجئت بهذا الكم من المرارة ضد أهل الخليج، وهو كم أكبر مما كنت أتوقعه أو أتصوره بكثير. والغريب أن هذه المرارة كانت تعتمل في صدور مسلمين خلص يصلون ويصومون. وثمة عدة تفسيرات لهذا الموقف. السعوديون والخليجيون بشكل عام يقولون إنه الحسد. وأنا أقول إن السبب ربما يعود إلى نوع المعاملة التي عومل بها البعض في تلك البلاد؛ لأن أكثر الناس مرارة كانوا من هؤلاء الذين عملوا في الخليج، أما الذين لم يعملوا في الخليج ولم يزوروه فيحملون تصورات خاطئة عن هذه البلاد وأهلها، إذ يعتقدون أنهم مجرد أناس خاملون مترفون، ولهذا حين وقعت الأزمة لم يتعاطفوا مع الخليجين؛ لأنهم يقارنون بين المعاناة التي يعيشونها في بلادهم من أجل لقمة العيش وبين إخوة لهم عرب ومسلمين يعيشون في بحبوحة تصل إلى حد الرغد. وأما العرب في الغرب بشكل عام - وخصوصا الطلبة - فهم يفهمون الإسلام من خلال النموذج الاسمي - أي حكومة المثل الأعلى كما يجسدها المصطفى عليه الصلاة والسلام وخلفاؤه الراشدون - وهم يريدون إسلام اليوم على هذا النحو ومن هنا نتج ذلك الجفاء الذي يشعرون به تجاه الخليج وأهله.

* * *

صحيفة الاستجابة السودانية
في حوار صريح مع الدكتور جعفر شيخ إدريس

مجلة الاستجابة صفر ١٤١١هـ

الاستجابة: في البدء نريد أن نتعرف على أهداف ونشاطات ومستقبل معهد الدراسات الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية؟

د. جعفر : معهد الدراسات الإسلامية هو كلية تابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود والغرض منها تدريس اللغة العربية والعلوم الإسلامية للمسلمين الأمريكان، وأظن أن الاقتراح كان من بعض المسلمين في أمريكا؛ لأنهم جربوا الدراسة في العالم الإسلامي فللاختلاف بين مجتمعهم والمجتمعات هناك وبعض ما يلاقون من متاعب وعدم استطاعة كثير منهم السفر إلى البلاد الإسلامية، اقترحوا أن تنشأ كلية في أمريكا يتلقون فيها هذه الدراسات، ثم إذا وجد الواحد منهم فرصة للمجيء، إلى بلد عربي كالسودان أو مصر أو السعودية ليجود لغته فرأوا أن هذا أحسن. المعهد لم يبدأ بعد في التدريس وللمعهد أهداف أخرى فهو يقوم الآن، وفي المستقبل بما يسمى بالدورات، فكل مجموعة من المسلمين سواء كانوا من الأمريكان أو المسلمين العرب أو الباكستان أو غيرهم متجمعون في منطقة من مناطق أمريكا ويريدون دورة لمدة أسبوعين أو شهر، فالمعهد يقوم بهذا فيؤجر المكان، ويرسل الأساتذة، ويقوم بكل المصاريف وغالباً ما تكون هذه الدراسات مكثفة، ويراعى فيها مستوى الدارسين، فإذا كانوا عرباً ومسلمين ويحتاجون مثلا إلى دراسة يتوسع بعض الشيء في مسائل العقيدة، أو أصول الفقه، أو التفسير فالمعهد يقوم بهذا، والمعهد ينوي في المستقبل أن يقدم دراسات صيفية باللغة الإنجليزية يؤمها الطلاب من المسلمين وغير المسلمين الذين يدرسون في جامعات أخرى، فنريد أن نتصل بالجامعات الأخرى لتعترف بالمعهد فتقبل الساعات التي يدرسونها، للمعهد أيضا طموح كبير في أن ينشئ مركزاً كبيراً للبحوث تقوم فيه مكتبة يرجى أن تكون أكبر مكتبة إسلامية في العالم الغربي، وفي هذه المرحلة الحاضرة شخصي مسؤول عن جزء من هذا العمل وهو الإشراف على البحوث.

الاستجابة: من خلال تواجدكم في أمريكا ما هو تقييمكم للجماعات الإسلامية وسط الزنوج المسلمين؛ لأننا نسمع عن وجود حركات انحراف كثيرة كالحركة التابعة لمدعي المهدية وحركة "اليجا محمد".

د. جعفر: نعم هذه معروفة وبحمد الله الآن الجماعات السنية والأفراد السنيون في ازدياد. وهم يعرفون هذه الجماعات، وما فيها من انحرافات، الحركة التي تدعي صلتها بمحمد أحمد المهدي هي أكثر هذه الحركات انحرافا الآن، وهي في الحقيقة ليست لها أية علاقة بالمهدية؛ لأن صاحبها يأخذ من القرآن ويأخذ من التوراة ومن الإنجيل وكذا وكذا وفي الحقيقة أنها تسيء إلى المسلمين؛ لأنها تعتمد على التسول فيلبسون ملابس قريبة من الملابس السودانية، ويقفون في الشوارع ويتسولون الناس فهي دعاية سيئة للسودانيين وللإسلام وللمهدية بصفة خاصة أيضا، وإن كان كثير من الناس لا يعرفون المهدية ولكنهم يعرفون أن هؤلاء مسلمون او سودانيون، الحركة الثانية التي فيها انحراف شديد هي الحركة التي يقودها الأستاذ (فرقان) فهو يحتفظ بكثير من مبادئ وأفكار اليجا محمد المنحرفة، أقرب حركة من الحركات الكبيرة والتي حصل فيها كثير من التحصين هي الحركة التي يقودها (وارث الدين محمد) لكن هناك حركات أصغر من هذه منها جماعة انفصلت عن هذه الجماعة يقودها الأخ الشاب (سراج وهاج) إذن فهناك حركات مستقيمة...!!

الاستجابة: ما هي معوقات وإشكالات الدعوة الإسلامية في الغرب؟

د. جعفر: في رأيي أن أكبر مشكلة تواجه الدعوة الإسلامية في العالم الداخلي وفي العالم الخارجي هي قلة الدعاة، أفريقيا هذه تحتاج إلى مئات إن لم أقل إلى آلاف الدعاة ودع عنك أمريكا وإنجلترا، فحتى البلاد الإسلامية الكبيرة إندونيسيا. الهند ماليزيا كل هذه تحتاج إلى دعاة علماء، ومع الأسف نحن حتى الدعاة منا معرفتهم بالإسلام معرفة عامة وهذه من الأشياء التي أرجو أن تعتنوا بها، لابد أن يتخرج من هؤلاء الشباب علماء بالمعنى الحقيقي للكلمة، يكونون قد حفظوا القرآن الكريم ودرسوا تفسيره بدقة، علماء يعرفون السنة ومصطلح الحديث ويحفظون مئات أو آلاف من الأحاديث النبوية ويعرفون معانيها، علماء اطلعوا على تاريخ الإسلام وعلى الفقه الإسلامي والمذاهب وهكذا؛ حتى يستفيد منهم المسلمون بالنسبة للغرب نحتاج بالإضافة إلى هذا إلى علماء يجيدون اللغات ولا سيما اللغة الإنجليزية، الآن اللغة الإنجليزية هي الأساس بالنسبة للدعوة، هناك مسلمون في فرنسا وفي ألمانيا ولكن عدد المسلمين الذين يتكلمون الإنجليزية الآن أكثر من الذين يتكلمون العربية في إنجلترا وأمريكا وأستراليا والهند وباكستان خصوصا من المثقفين من الناس، فلا تفصلوا بين الدين وتعلم هذه اللغات هذه اللغة بالذات شجعوا كثيراً من الشباب ليتعلموها ويتقنوها

حتى يكونوا دعاة بل حتى يكونوا دعاة في بلادهم لكي تطلع أنت الآن على ما يكتب عن الإسلام، وما يحاك ضد المسلمين ينبغي أن لا تعتمد فقط على ما يترجم أو ما تكتبه الصحف بطريقة مبتورة لابد أن يكون لنا بعض الشباب الذين يطلعون على هذه الأشياء يفهمونها بيسر، وهنالك مشاكل أخرى، المال فمعظم المسلمين فقراء في كل بلاد الدنيا بما في ذلك أمريكا لكن ركزت على النقطة الأساسية - الدعاة - ثم تأتي بعد ذلك مشكلة المال، من مزايا البلاد الغربية أن المجال فيها مفتوح الديمقراطية تسمح بأن تدعو وفي رأيي أن هذا شيء مؤقت كثير من إخواننا يفرحون بأن هذه البلاد تعطيهم من الحرية في الدعوة ما لا تعطيها بعض البلاد الإسلامية لكن في رأيي أن هذا لأن المسلمين لا زالوا ضعفاء وليسوا مؤثرين، ولكن إذا أصبحنا قوة يمكن أن تصل إلى الحكم فسيتغير الوضع، فينبغي أن ننتهز هذه الفرصة الآن قبل فوات الأوان.

الاستجابة: كثيراً ما نسمع عن اعتزازك بالتأثير السلفي أو تأثير بعض السلفين على شخصيتك، فإلى أي حد هذا التأثير السلفي؟

د. جعفر: هذا منذ الطفولة: فلقد كان من أوائل الذين بدأوا حركة جماعة أنصار السنة المحمدية بعض أقاربنا ببورتسودان، وتقريبا كنت في سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة وانضممت إليها، وممن عرفت في تلك السن الباكرة الأخ مصطفي ناجي فأحمد الله سبحانه وتعالى منذ ذلك الوقت الباكر في سن الطفولة تخلصت من الخرافات الطائفية، ومسائل الشرك وكذا، واتصلت قبل الثامنة عشرة بكتب ابن القيم وكنت أفضلها على كتب ابن تيمية لأنها أيسر وأسهل، وقرأت بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن كبرت في السن وصارت عندي مقدرة أكثر على الاستيعاب، وأحمد الله أنني قد اهتممت بوالديَّ وكانا ينتميان إلى طائفة الختمية رغم أن الوالد عليه رحمة الله كان يحفظ القرآن الكريم كان يقرأ بعض هذه الأشياء التي فيها شرك فكنت أناقشه حتى هداه الله تعالى والوالدة أيضا كانت إذا جلست أو قامت يا سيدي الحسن و يا سيدي علي فتابت فصارت حتى إذا قالت شيئاً من هذا الكلام استغفرت الله العظيم، فهذه مسألة أحمد الله سبحانه وتعالى عليها.

الاستجابة: إلى أي حد استفدت من فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز؟

د. جعفر : تأثرت منذ الطفولة بأنصار السنة، وما تتلمذت على شيخ مثل تتلمذي على الشيخ عبدالعزيز بن باز، فالشيخ عبد العزيز بن باز أعتبره شيخي، ما أظن أنني

تتلمذت على شيخ مثل ما تتلمذت عليه وإن كان ذلك بعد الخمسين، ولا أعرف على وجه الأرض في هذا الزمان رجلاً أعلم منه ولا لقيت في كل من عرفت من البشر من العلماء والقادة المفكرين من المسلمين وغير المسلمين رجلاً في ورعه وتواضعه، ومن العيوب المنتشرة جدا بين العلماء سواء كانوا من علماء الدين أو علماء الدنيا أنهم لا يعترفون بأقرانهم ويقدحون فيهم وينتقدونهم ما رأيت رجلا عافاه الله من هذا مثل الشيخ عبد العزيز بن باز لا يذكر رجلا من العلماء المعاصرين إلا ويمدحه ويلقبه بأحسن الألقاب، ثم إن خالفه يقول لكن أخطأ في الشيء الفلاني وكذا وكذا ثم يعتذر له أن هذه المسائل يخطئ فيها كبار العلماء قبله. وهو رجل كريم وما أعرف على وجه الأرض رجل يعرف من أحوال المسلمين في العالم وجمعياتهم وجماعاتهم وقادتهم ويهتم بهم كأنهم من أبناء بلده مثل الشيخ عبد العزيز، لذلك حزنت حزنا شديداً عندما كنت أسمع أن بعض الناس يتكلمون عنه ويصورونه كأنه مجرد رجل من (تنابلة) السلطان أو أنه يضغط عليه ليقول كلاماً لا يؤمن به، هذا كلام إنسان لا يعرفه، الرجل لا يقول ما لا يؤمن به أبدا، ولا أحد يستطيع أن يضغط عليه. أما أن يخطئ، فهو بشر كل العلماء يخطئون. ربنا سبحانه وتعالى ما كتب العصمة إلا للرسول ﷺ فهناك فرق بين ان الإنسان يخطئ وبين ان يكون مجرماً.

الاستجابة: فضيلة الدكتور لو سمحتم تتكلم بشيء من الصراحة عما يتعلق بزيارتكم للسودان هنالك كثير من الآراء والتحليلات في الشارع السوداني وسط الإسلاميين لأسباب زيارتكم للسودان في الوقت الراهن بعضهم يقول الزيارة سببها هدم شخصية معينة وتصحيح مسار العمل، بعضهم يقول بأنها باتفاق بين جماعات الإخوان المسلمين بأن يتولى الدكتور جعفر شيخ إدريس قيادة الإخوان المسلمين والخروج بهم من المأزق الذي دخلوا فيه كخيار مقبول بين الإخوان المسلمين، بعضهم يقول هو جاء للوساطة في موضوع المركز الإسلامي الإفريقي وتطوراته وكذا، فما أدرى هل هي أم غيرها؟ أم هي زيارة عادية؟

د. جعفر: أبدا أنا أزور السودان في العام مرتين أو ثلاث كل الذي أدى لهذه التأويلات أنه حدث أن الأخ الدكتور التيجاني عبد القادر قابلني وقال لي إذا ممكن أن تلقي لنا محاضرة وليس بتدبير بيني وبينه، أظنه بالنسبة له كان عملاً روتينيًّا. فقلت له: إن الموضوع الذي يشغلني هو كذا، فاتفقنا على أن يكون هذا الموضوع هذا

الذي أدى لكل هذه التأويلات وإلا لو جلست ولم ألقِ المحاضرة لما عرف بوجودي كثير من الناس ولخرجت كما دخلت. الشخصية المعنية التي يتكلمون عنها عهدي بنقدها ليس بقريب، وما أحتاج إلى أن أجيء في زيارة لبضعة أيام ولأفعل هذا. هذا بالنسبة لي موقف ثابت، وأما أنها اتفاق فهذا ليس بصحيح فليس عندي طمع في زعامة كل الذي أريده إذا رجعت إلى السودان أن أبث هذا الحق الذي أومن به بقدر ما أستطيع، وأن يكون موجهاً إلى كل الشباب من الشباب الذين كانوا ينتمون إلى الجبهة أو الإخوان المسلمين أو أنصار السنة أو جماعة التبليغ وكذا أرجو إن شاء الله أن لا أفرق بينهم.. المهم أن من الأشياء التي تعلمتها من وجودي خارج البلاد أن الذي يجمع الناس حقا ليس هو التنظيمات وإنما الذي يوحد قلوبهم – هذا الشيء في القرآن الكريم وثم عرفنا بالتجربة – في الحقيقة هو استمساكهم بالحق فكلما التقينا وتعاونا على نشر هذا الحق وعلى فهمه وعلى العمل به كلما كان إن شاء الله أجمع للقلوب. بل إن بعضا من الإخوان قبل أن ينفصلوا عرضوا عليّ أن يبايعوني فرفضت وقلت لهم إن المهم ليس هو أن نكوِّن جماعة جديدة ولكن المهم هو أن نكونها على أساس؟ وما زلت أرى الآن هذا الموضوع وأنا متفائل كنت متفائلا وازداد تفاؤلي بعد زيارتي للسودان وأرجو بإذن الله تعالى أن تتطور الحركات التي في السودان إلى حركة سنية جامعة، إن لم تكن تنظيماً واحداً حتى لو كانت تنظيمات مختلفة لكنها تكون حركة سنية بمعنى أنها حركة ملتزمة بالعقيدة السليمة كما هي في القرآن الكريم وكما بينها أهل السنة والجماعة حركة تلتزم بالعبادات الصحيحة التي لا بدع فيها ولا خرافات، حركة أيضا تهتم بالعمل السياسي وبالتصور الصحيح للدولة وموقف المسلمين منها تهتم بشؤون المسلمين بالعالم بل بالعالم كله العلاقات بين المسلمين وبين غيرهم، وتؤسس كل هذا على القرآن الكريم والسنة النبوية في ضوء منهج أهل السنة والجماعة، وأنا أرى في السودان الآن بذور لهذا فأريد بإذن الله تعالى أن أساعد في هذا الاتجاه فقط، فأنا واحد من الناس وليس بأكثرهم علماً ولا بأجدرهم بأن أكون قائداً. فليطمئن زعماء الجماعات فلا أريد أن أنافس أحداً منهم أو أكون جماعة جديدة.

* * *

مقطتفات من حوار مع مجلة البيان

العدد ٥٥ ربيع الأول ١٤١٣ الموافق سبتمبر ١٩٩٢م.
والعدد (٥٦) ربيع الآخر ١٤١٣هـ الموافق أكتوبر ١٩٩٢م

❖ **البيان:** ذكرتم في الحديث عن الغرب أن في الغرب الآن عودة إلى الإيمان بالخالق، كيف هذا، وهل نعتبر هذه نقلة تساعدنا في دعوتهم للإسلام؟

- استقر في أذهان الغربيين في الماضي أن مسألة وجود الخالق هذه مسألة انتهت، عندما كنت طالباً أدرس الفلسفة (الغربية)؛ كان الشيء الشائع بين الفلاسفة أن هذا الموضوع انتهى، لكن الذي فتحه الآن ليس الفلاسفة وليس رجال الدين، بل رجال الفيزياء، الفكرة ببساطة أنه في الماضي كان يقال بحسب النظرية الفيزيائية القديمة أن هذه المادة أزلية لم تخلق ولا تنعدم، فالسؤال من أين جاءت لا يطرأ، وهذه هي التي بني عليها الإلحاد الأوروبي تقريباً ولا سيما الإلحاد الماركسي، النظرية الحديثة التي يسمونها الانفجار الكوني العظيم تقول: إن الكون كله كان في شكل ذرة صغيرة وأن هذه الذرة مسبوقة بالعدم، فصار السؤال: من أين جاءت، - سؤالا مشروعاً - ففتح الباب بهذه الطريقة، لكن مع الأسف من الأشياء التي نحن ملامون عليها أنهم عندما بدأوا بمناقشة هذا الكلام لم يجدوا عندهم شيئاً إلا كتابات فلاسفتهم وفيها الكثير من الخلط الفكري، وأنا حاولت في مقال سينشر في شكل رسالة صغيرة أن أجمع حججهم الحديثة التي يدافعون بها عن الإلحاد بالرغم من حدوث المادة، وجئت بكلام العلماء المسلمين كالغزالي وابن تيمية في رد الحجج العقلية الشائعة بين الفلاسفة، تستغرب أن عقل إنسان يقول لهم أن شيئاً يأتي من العدم، القرآن يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، يعنى إما أحد هذين أو أن له خالقاً، وكل من هذين مستحيل لذلك جاء ذلك في القرآن بصيغة سؤال استنكاري ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ خلقوا أنفسهم؟! هذا مستحيل، الذي يقوله الآن كبار هؤلاء الفيزيائيين والفلاسفة هو أحد هذين: إما أن يقول المادة خلقت نفسها، أو يقول إنها جاءت من العدم، وقليلون هم الذين يقولون ليس هناك مخرج إلا في وجود خالق، فلو أن الفكر الإسلامى كان متصلاً بهذه المسائل، ولو أن المسلمين شاركوا لربما ساعد ذلك على أن يعود هذا العلم الشارد إلى الله، وقد شجعت بعض الإخوان الذين أعرف أنهم متعمقون بعلم الفيزياء ولهم معرفة حسنة بدينهم أن يكتبوا في هذه القضية التي أصبحت الآن مفتوحة.

❖ **البيان:** لا يسمحون، فهم لا يعترفون بعالم عربي أو مسلم فيزيائي أحب أن يكتب بحثاً في هذا الموضوع. لا أظن أن هناك دورية أو مجلة تنشر له هذا البحث.

- ما داموا هم يكتبون تستطيع أن تناقشهم، وبعض الإخوة الآن يكتبون في المجلات الفيزيائية في الاتجاه العادي، أما الموضوع الديني فقد أصبح موضوعاً شائعاً بينهم، والمهتمون بعلم الفلك وأصل الكون يسمحون، ولا يشترط أن أقول لهم هذا إسلام أو غير إسلام، الحجج التي عرفتها من الدين وعلماء المسلمين أذكرها وأبطل بها حججهم.

❖ **البيان:** لكن أنت سوف تتعرض لأشياء إسلامية استقيتها من القرآن الذي نعتقد - نحن المسلمين - أنه وحي من السماء، وهم يرون أنك تتحدث عن أمور هي عندهم غيبية وليست عالمية.

- لا ينبغي أن أطرح هذه المسألة، لأن المناقشة عقلية : هل الكون له خالق؟ ومن المفروض أن أواجهه بما عندي من حجج عقلية أخذتها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أو بحسب ما وسعها علماء المسلمين وشرحوها، طبعاً لا أواجهه بأن القرآن قال كذا أو السنة قالت كذا. لأنه لا يؤمن بالأصل حتى إني قرأت منذ أيام كلاماً لشيخ الإسلام فحواه أن الخطاب في مكة كان: يا أيها الناس، لأن الكلام كان عن أصول الدين، والذي لا يؤمن بالأصول لا يخاطب بالفروع، وما نزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلا في المدينة ومعها أيضاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فنحن الآن في عصر نقول فيه يا أيها الناس ويا أيها الذين آمنوا، فعندما أقول يا أيها الناس نواجههم بأصول الدين وبحججه العقلية والعلمية لا بالاستناد إلى مصدرها.

البيان: قلتم: إن الفكر الإسلامي لا يمثل تحدياً فكرياً، وعنيتم بالتحدي الفكري الذي يحمل سياسة ويتجسد بقوة، أما الفكرة فلا قيمة لها إلا بآثارها، ومثلتم ذلك بالشيوعية التي كانت تحدياً فكرياً للغرب، هذا التحدي الفكري يحمل فكرة ويحمل نظاماً معيناً، نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً.. فهل مثلت الفكرة الشيوعية تحدياً للرأسمالية؟ أم هل تعني أنهم يرون فينا تجمعاً بشرياً مخيفاً فقط؟

يرون فينا - نحن المسلمين - أننا تجمع وأننا أناس رافضون للحضارة الغربية، هذا معروف، حتى فوكوياما هذا الذي كتب كتاب «نهاية التاريخ» كان فحوى كتابه أن كل العالم استسلم للمنهج الأمريكي في السياسة الليبرالية والديمقراطية، وفي الاقتصاد الحر، واستثنى من ذلك العالم الإسلامي، لأنهم ما زالوا يعتقدون أن عندهم بديلاً، لكن

هل فوكوياما قرأ كتباً للمسلمين تشرح له ما البديل الذي يرونه ؟ ! هذا الذي أقصده بالفكرة، هل هنالك كتب يقرأها الغربيون سواء بلغتهم، أو مترجمة عن اللغة العربية وشائعة بينهم كما كان الفكر الماركسي له أنصار ليست لهم علاقة بالدولة الروسية، بل ينتقدون الشيوعية ويميزون بين الفكر الماركسي والشيوعية، ومازال حتى بعد سقوط الشيوعية الكثير من الأفكار الماركسية التي دخلت في الفكر الغربي : في علم الاجتماع، في علم الاقتصاد والسياسة، وحتى في البلاد التي سقطت فيها الماركسية، لا تظنوا أن الفكر الماركسي سيسقط كما سقط النظام الشيوعي، إنه ما زال يعيش في عقول الناس، وهذا الذي تربوا عليه، فسيبقى عندهم وستبقى منه آثار كثيرة، وعندما كنا في البوسنة والهرسك - قبل الحرب - قلت لإخواننا هناك : لا تخدعوا أنفسكم وتظنوا أن سقوط الشيوعية معناه أن هذا الفكر خرج من رؤوس أبنائكم ورؤوسكم، فالماركسية كانت تمثل تحدياً فكرياً لأنه ما من قضية من القضايا التي يناقشها الغرب إلا لها فيها رأي مكتوب بتوسع ومعروف عند كثير من المفكرين الغربيين.

البيان: يعني كأنك ترى أن مشكلتنا أننا لسنا حاضرين حضوراً فكرياً في أذهانهم؟

نعم ولكننا حاضرون سياسياً، أناس يتجمعون، حركات أصولية.. ويخلطون بين الأصولي والقومي، لأن كل هؤلاء آتون من هذا الذي يسمونه "الشرق الأوسط" العجيب والمعقد! إنهم ليسوا معجبين بنا، وأذكر أنه في أيام حرب الخليج كتب أحدهم وقال: لماذا نحن مشغولون بهؤلاء الناس؟! إنهم لا يستحقون منا كل هذه الانشغال، الديموقراطية تسري في العالم كله: الدول الشيوعية، جنوب شرق آسيا، أفريقيا.. إلا هذا العالم الذي ليس فيه حاكم واحد منتخب ! وبعضهم يربط هذا بالإسلام. أنا لا أماري ولا أشكك في أنهم يخافون من العالم الإسلامي من الناحية السياسية؛ ولكن الذي أقوله دائماً، وبعض الإخوة يختلط عليهم الأمر أحيانا فيظنون أنني أقول إن الغرب لا يعادي الإسلام، ولا يعادي المسلمين أو أنه صديق لهم، أنا لا أقصد ذلك، بل أعني أنه لا يعدنا تحدياً فكرياً - وهذه مسألة أحزن لها - وأمثل لكم بمثال عندما أراد المركز الإسلامي في أكسفورد، وقد تعب بعضهم حتى وافقت الجامعة على إنشائه، فمن ضمن الأشياء التي طرحت كاعتراض على فكرة إقامته : هل في العالم الإسلامي من يكتب بحوثاً في مستوى أكسفورد؟! وهذا لو كان في ذهنه أدنى شك ما قال هذا الكلام، والذين أجابوا قالوا : طبعاً، هناك من يكتب، والمقصود بحوث باللغة الإنجليزية.

البيان: بما إنكم عشتم فترة طويلة في الغرب هل تتوقعون أن يسلم عدد كبير منهم وخاصة المثقفين؟

أولاً: كما قلت لكم من الناحية الفكرية بدأت تحصل من العلوم نفسها أشياء تزعزع الأساس الذي قام عليه الإلحاد الغربي.

ثانياً: هذه الأمراض التي انتشرت مثل الإيدز زعزعت بعض المسلّمات عندهم، كان في الغرب شيء يسمى الحرية الجنسية، كانوا يعتقدون أن الإباحية وعدم التقيد بالزواج أمراً إنسانياً، وأنها حررت الإنسان من القيود التي قيده بها الدين ورجاله، وكانوا يعتقدون أن كل ما جاءت به الأديان هي قيود لا داعي لها، وأن الإنسان يمكن أن يتحرر منها دون أن تعود عليه هذه الحرية بالضرر. لكن انتشار الإيدز قضى على هذه الفكرة، حيث بدأ يعتقد كثير منهم أن الإباحية ليست أمراً طبيعياً، وكذلك انتشار المخدرات التي ينظر إليها في أمريكا والغرب على أنها عدوهم الأول، وأنها مع الإباحية والشذوذ الجنسي هي التي ستقضي على حضارتهم، وليس قوى من الخارج، فكل هذا يزعزع ثقة الناس بهذه الحضارة، فإذا جاءهم إنسان عنده بديل يحل هذه المشكلات، ويبقي لهم ما هو نافع، وما يفتخرون به من حضارتهم من تقدم علمي وتكنولوجيا، أظن أن هذا إن شاء الله سيكون سبباً في إسلام عدد كبير منهم. المتعصبون لن يتغيروا (السياسيون)، لكن عامة الناس، عقول الناس ليست ملكاً لأحد، قد «يريد السياسيون شيئاً أما عامة الناس الذين لا يعرفون عن خطر العالم الإسلامي شيئاً هم أفراد عاديون، الإنسان منهم يريد أن ينقذ نفسه، ولو وجد من يدعوه إلى الدين الصحيح بعد أن تزعزعت ثقته سيكون لذلك نتيجة طيبة.

البيان: ما رأيكم بالمراكز الفكرية والدعوية التي قامت في بلاد الغرب؟ وهل سيكون لها أثر في الغرب أو في العالم الإسلامي؟

لا نحب أن نظلم هذه المراكز، لكن ليس لها دور من الناحية الفكرية، لأنها نفسها ليست مشغولة بقضايا فكرية، وكثير من الناس فيها يعيشون هموم بلادهم، وكثير من الجاليات الإسلامية في البلاد الأجنبية غير متمسكين بدينهم وإن كان هناك بعض الأشياء عند المسلمين - مهما كانوا ضعفاء - تبهر الغربيين، أذكر أن تاتشر قالت مرة إنها معجبة بالتماسك الأسري عند المسلمين، وهذا أمر يُعتز به بحمد الله، وعلى الرغم من الانحرافات الكثيرة عندنا فما زالت علاقتنا بالوالدين والأقارب أحسن بكثير مما عندهم، وهذا قد يكون له أثر بينهم.

* * *

هذه تجربتي..
وهذه شهادتي

حوار مع مجلة العصر الإلكترونية
عام ١٤٢١هـ

نتشرف بلقاء شيخ فاضل له أثره في مسيرة العمل الإسلامي ككل والعمل الإسلامي في السودان على وجه الخصوص، فضيلة الشيخ الدكتور جعفر الشيخ إدريس حفظه الله. نلتقي به ونصول ونجول معه في مختلف جوانب الحياة ومجالات الفكر والتجربة والرصيد.

بداية نستأذن فضيلة الشيخ في أن نتعرض لبعض جوانب حياته الفكرية والثقافية. يحدثنا الشيخ عن أبرز الأحداث التي أثرت في مسيرة حياته الدعوية ومن ثم الشخصيات والأفكار والتوجّهات التي أثرت أيضاً في مسيرة الشيخ ورصيده وتجربته.

أثر الوالدين:

الشيخ جعفر: الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين. أنا من عائلة سودانية كانت تنتمي كمعظم السودانيين آنذاك إلى طريقة صوفية، وكانت الطريقة التي ينتمي إليها الوالدان هي الختمية، وكما هو معلوم أن الطرق الصوفية ولا سيما المنتشرة في بلادنا الآن، مبتلاة بكثير من المسائل الشركية لكن ربنا سبحانه أنعم عليّ بوالدين أثرا في حياتي الدينية والخلقية، فالوالدة لم تكن امرأة عالمة ولكنها كانت شديدة التدين وحازمة جداً، وقد أثرت علي تأثيراً كبيراً في موضوع الصلاة أكثر من الوالد، فقد كانت حازمة جداً في هذا الموضوع، وأذكر أنها كانت توقظنا أحياناً لتسألنا هل صلينا العشاء؟ وانعم الله سبحانه علينا بالوالد وكان رجلاً متسامحاً معنا، فكان يعاملنا معاملة الكبار آنذاك، ويستشيرنا في بعض أموره، وهذا لم يكن شائعاً في السودان، ولكنهما كانا ينتميا إلى هذه الطائفة، فأول شيء أثر في حياتي تأثيرا كبيرا مازلت أحمد الله عليه وأن أحد أقاربنا كان من أول من نشر الدعوة السلفية في السودان، وكان من جماعة أنصار السنة المحمدية في بلدنا ببورسودان، وكنت آنذاك في الثانية عشرة حيث

تركت انتمائي إلى طائفة والديّ تحت تأثير هذا القريب، مما أحدث مشكلة بيني وبين الوالدين لاسيما أمي، حيث كانت تظن أن هذا نوع من الانحراف فقاطعتني وصارت لا تتكلم معي.

لكن ساعدني أن هؤلاء الذين تأثرت بهم كانوا من الأقارب وكان منهم رجلاً تحترمه الوالدة احتراماً كبيراً، وهو رجل بسيط يعمل خياطاً لكنه كان رجلاً عالماً، فجاء إلى أمي عند حصول هذه المقاطعة وأصلح بيننا، وبعد مدة تغير الوالد -وكان رجلاً يحفظ القرآن -حيث كنت آتي إليه وأقرأ عليه بعض الكتب.

العصر: هل تتذكر بعض عناوينها؟

الشيخ جعفر: كانت كتباً صغيرة مؤلفة في مصر، وكان ضمنها كتاب غاب عني اسمه الآن كان له أثراً عظيماً آنذاك، ومازلت أقرأ على الوالد حتى اقتنع وتغيرت بعده الوالدة أيضا وأعد ذلك من نعم الله علي أن كنت السبب في إنقاذهما من الخرافات والشركيّات ولله الحمد سبحانه.

حادث في الصغر:

وكان الحادث تعرضت له في الصغر أثر فيَّ تأثيراً ليس بالضرورة فكرياً، ولكنّي لمست نتائجه فيما بعد، إذ أصبت آنذاك، وكنت ألعب على صناديق كبيرة كانت لبعض السيارات، فقفزت من فوق واحد منها على مسمار يبدو أنّه أحدث كسراً في العظم بالداخل، وتألمت لذلك ألماً شديداً وتعقّدت الأمور -وكنت حينئذ في السادسة من عمري- واستمر المرض إلى السنة التاسعة تقريباً، وكان ذلك في زمن الإنجليز، وعند أن عرضت على الطبيب قرر هذا أن تُقطع رجلي، فوافق الوالد لكن الوالدة رفضت وبحزم شديد، ثم ذهبت تستشير السيد علي الميرغني -وكانت ما تزال في الطائفة حينئذ- فأجابها قائلاً: نعم.. اسمعوا كلام الطبيب. وما كان يظن أحد أن أمي ستخالف رئيس الطائفة لكنها فعلت ورفضت قوله ذاك فقال لها الطبيب: إما أن تقطع رجله أو يموت فقالت: خلّيه يموت!!!.. يموت برجلين ولا يعيش بواحدة. فكان من نتائج ذلك أن تأخرت في الالتحاق بالدراسة، لكن هذا التأخير أفادني جداً، إذ جئت إلى الدراسة بعد ذلك بنهم شديد، فأنا ما كنت بدأت أصلاً، وعندما بدأت الدراسة

كان زملائي في السنة الرابعة، وأنا في السنة الأولى، وكان لي أخ ضمنهم، وكنا قد ذهبنا سويّة إلى المدرسة فقُبل هو ولم أُقبل لصغر سني، فكان أخي هذا يمازحني بعد ذلك فيقول: احمد الله على هذا الحادث فلولاه ما دخلت الجامعة. وقد كانت المنافسة في الدخول إلى الثانوية كبيرة جداً آنذاك. إذ لم يكن في السودان وقتئذ غير ثلاث مدارس ثانوية فقط، فكان الدخول إلى أحدها في غاية الصعوبة.لكني أتيت إلى المدرسة في مرحلة نضج واجتهاد شديد، فكنت أذهب إلى الكتّاب باختياري إذ يوقظني الوالد لصلاة الفجر وأبقى في الكتّاب إلى السادسة، ثم أعود فأستعد للذهاب إلى المدرسة وعند رجوعي منها أذهب إلى الكتّاب مرة أخرى وبعد ذلك أنال شيئاً من الراحة، أعود بعدها إلى الكتّاب عند المغرب .

حلقات المساجد:

بدأت بعد ذلك دروس كان يلقيها رجل سنّي، فكنت أذهب إليها، ومن الرسائل التي بدأت أقرأها مبكراً وأمارس حفظ بعض الأحاديث منها رسالة الأربعين النووية، ثم لما ذهبنا المدرسة المتوسطة كنت أحضر مع الوالد دروساً في السنة كان يلقيها رجل عالم بالسنة،تخرج بالأزهر وكان مشهوراً في بلدنا، يدرّس كتب السنة فقط، وفي هذه الفترة بدأت أقرأ بعض الرسائل الصغيرة لشيخ الإسلام ابن تيميه....

العصر: أتتذكرون بعض عناوين تلك الرسائل؟

الشيخ جعفر إدريس: ربّما يكون منها العبودية، وأظن أن معظمها فصول كانت تستخرج من بعض مؤلفات شيخ الإسلام يسمونها بأسماء لا أذكرها الآن، وكانت معظم هذه الكتب تأتي من مصر...

العصر: هل نستطيع أن تقول أن هذا كان شيئاً نادراً في السودان آنذاك. أن يحضر تلميذ عند الشيوخ ويدرس بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وكتب السنة؟ !

الشيخ جعفر إدريس: لا، لم يكن الحضور على المشايخ شيئاً نادراً، بل كان الناس لا يدرسون إلا عند الشيوخ آنذاك، لكن كان معظم ما يدرسون هو كتب المذهب المالكي، وكان هذا ما بدأت به أنا، فدرست بعض متون المذهب المالكي مثل العزية والعشماوية... وكان من الذين يدرّسوننا إخواننا الموريتانيون من الشناقطة، إذ كانوا

يأتون إلى الحج عبر بورتسودان، فكانوا يمكثون مدة في السودان وكان وضعه آنذاك أحسن مما هو عليه اليوم، فكنت أدرس على بعضهم، ومن الناس الذين حبّبوا إليّ السنة آنذاك – وكان ذلك بعد المرحلة الثانوية- رجل علامة فاضل من آل شنقيط، وكان يحفظ القرآن الكريم حفظاً ما رأيت مثله، لقد كان معجماً مفهرساً لألفاظ القرآن -إذا صح هذا التعبير- فإذا سألته عن أي كلمة في القرآن أتى لك بكل الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة!. وأظنه كان مالكيا متعصّباً ثم تحول فكان عنده رد فعل عنيف على كتب الفقه إذ كان يقول لنا: إن الأربعين النووية خير من كتب الفقه كلها.

فكنت أحضر عنده... ثم ذهب إلى السعودية وصار هنالك من كبار العلماء وإن لم يشتهر كثيراً ربما لأنه ليس من أهل البلد، فكان مع الشيخ ابن باز في إدارة البحوث والإفتاء، وكان يحقق بعض الكتب. هذا العالم الفاضل كان الشيخ إسماعيل الأنصاري رحمه الله .

العصر: ومتى كان هذا يا شيخ؟

الشيخ جعفر إدريس: كان ذلك بالنسبة لصحبتي له تقريباً في بداية الخمسينات سنة ١٩٥١- ١٩٥٢م على وجه التقريب.

مع الشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله:

المرحلة الأخرى التي تركت أثراً في حياتي هي تلك التي بعد أن هاجرت إلى السعودية، وهناك التقيت بالشيخ العلامة عبد العزيز ابن باز رحمه الله، وكانت هذه من نعم الله عليَّ، فقد كان الشيخ رجلاً عالماً زاهداً تقياً، وأعده في مقدمة علماء العصر الجهابذة، والحق أقول إني لم أر مثل الشيخ لا بين المسلمين ولا غيرهم، فقد تميز بعده خصائص أوجزها كالآتي:

أولاً: التقوى: لقد عرفت علماء عدة من المسلمين عرباً وغير عرب، فكان مما يؤسف له أن تجد الكثير منهم ينتقد رموز المعاصرين إلى درجة تصل به إلى احتقارهم إلا الشيخ رحمه الله فقد كان ينقد غيره بأدب قل نظيره، لا يحتقر أحداً ولا تجري على لسانه تلك الكلمات الشنيعة التي تسمعها اليوم هنا وهناك في حق الدعاة

والعلماء، وكان رحمه الله يمدح الكثير من الدعاة أمثال المودودي والبنّا، ويجل غيره من العلماء فكان لا يذكر الشيخ الألباني إلا ويصفه بالعلامة، ويثني على زملائنا الموجودين حوله، وأذكر أنه سُئل مرة عن الشيخ المودودي وأنه يؤول فأجاب قائلاً: أنه -أي المودودي- أخطأ- لكن هذه المسالة دقيقة، وأن الإنسان إذا اشتهر فضله ينتقد لكن لا يشنَّع عليه.

ثانيا: الكرم: فقد كان رحمه الله حاتمياً، مشهوراً بالكرم، ولكم تمنيت أن إخواننا الذين أكرمهم الله بالسلفية كانوا مثله، فقد كان عنده من المزايا التي كنا نجدها لدى شيوخ التصوف فهؤلاء عندهم رقة وعندهم كرم، وكانت كلاهما في الشيخ، فكلّما تناولت عنده الغداء مثلاً أجد لديه جمعاً كبيراً لا يقل عن خمسة عشر شخصاً، من الذين يأتون لسؤاله أو طلب المساعدة منه أو زيارته.

ثالثاً: لقد منَّ الله على الشيخ بذاكرة علمية عجيبة جداً، فلم يكن يتميز بقوة الحفظ فقط، فالحفظ قد يتقنه الكثير، لكنه تميز بقوة الاستحضار وسرعته، وقد تمنيت أني عرفت الشيخ مبكراً واستفدت من نصائحه في طريقة الدراسة ..

العصر: هلا ذكرتم لنا بعض ما قرأتم على الشيخ؟

الشيخ جعفر إدريس: لم أقرأ عليه قراءة شخصية، لكني كنت أحضر دروسه في الجامع الكبير وكانت كتباً كثيرة، أتذكر عندما بدأت الحضور، كانوا يقرءون في فضائل الصحابة من صحيح البخاري، ثم بعد ذلك يقرأ المبتدءون عنده كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقد كان من الغريب أنا لشيخ في تدريس المبتدئين يفيض في الشرح ويفصّل، بينما كان في درس الكتب الواسعة لا يعلق إلا الشيء البسيط، فاستمعنا إلى كتب كثيرة، وبعض دروس تفسيرالقرآن الكريم وكان يفضّل تفسير ابن كثير ويحبّه جداً، كان حضوري للدروس بعد عام ١٩٧٥م، حيث كنت أحرص على الاستعادة منه، وقد استفدنا منه رحمه الله سمتاً وعلماً، وكان دائم الذكر لله في كل أحيانه وما رأيت إنسانا مثله يعتقد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة، ويلمس حاجة العصر لها وكان ذلك إلى آخر حياته رحمه الله.

العصر: نعود إلى الكتب، ونسأل الشيخ جعفر عن معدل قراءته اليومية؟

الشيخ جعفر إدريس: أولاً أنا بطيء في القراءة، وأذكر أني عندما كنت في بريطانيا حضرت دورة في زيادة سرعة القراءة، فتعلمت شيئاً من الناحية النظرية، لكن بالرغم من ذلك كنت من البطيئين في القراءة في الفصل، لكن الذي آنسني نوعاً ما أن المدرس أخبرنا أن هناك مهارات أخرى غير سرعة القراءة، فبدأ يسألنا فكنت الأول، فضحك المدرس قائلاً: لأنك بطيء القراءة طورت المهارات الأخرى" وظني أن سرعة القراءة متعلقة بسرعة الكلام وأنا لست سريعاً في أي منهما، ولقد استفدت من الدروس التي حضرتها وقد أقنعني المدرس أن البطء ليس من العقل ولكنه من العينين فالذي يدرب على القراءة كلمة كلمة منذ الصغر لو أنه وسع المجال تدريجياً لصار يقرأ ربما يقرأ سطراً كاملاً كما يفعل الكثير من سريعي القراءة.

وعلى العموم بالرغم من كوني بطيء القراءة لكني أقرأ كثيراً، ومما استفدته من الشيخ ابن باز في هذا المجال –ولو كان متأخراً– أنه رحمه الله بذاكرته القوية وحرصه على فهم كل سطر يسمعه يركز اهتمامه على بعض الكتب ويحرص على سماعها عدة مرات فأنا سمعت أنه قرأ صحيح مسلم أكثر من ستين مرة، ولذلك كانت الأحاديث تسيل لديه كالماء.

وقرأ البداية والنهاية سبع مرات، فكان دائماً يتكلم عن المذاكرة، قائلاً: إن العلم يضيع بدون مذاكرة، ولم أكن أقرأ الكتاب أكثر من مرة ربما لبطئي في القراءة– إلا نادراً.

وأنا في قراءتي واسع الاهتمامات، لا أقتصر على مجال واحد، فأقرأ في الأدب الإنجليزي بمجالاته المتعددة، وأقرأ الكتب الفكرية والفلسفية والسياسية وعندي اهتمام بالكتب العلمية خصوصاً التي تكتب لعامة المثقفين، وأستفيد منها، وقد تحدثت عنها في كتابي عن وجود الخالق، حتى الكتب التي قد تشرح جانباً معيناً في المجال العلمي، فأنا أقرأ الآن –مثلا– كتاباً في الجينات؛ فهذا موضوع مهم، كما أحب قراءة كتب الفلك فقرأت كتباً كتبها فيزيائيون عن ما يسمى بالانفجار

العظيم، وخصوصاً الكتب التي تثير قضايا فلسفية مع كونها علمية، وللأسف أننا تنقصنا أمثال هذه الكتب في اللغة العربية مع أهمية هذا الموضوع.

وقد قرأت كتاباً من أحسن الكتب عن الداروينيه اسمه: "Darwin's Black Box" كتبه رجل علامة كاثوليكي، استفدت من هذا كثيراً جداً.

العصر: هل يفضل الشيخ جعفر كتباً بعينها؟

الشيخ جعفر إدريس: كما أسلفت أنا أحب الكتب التي فيها الجوانب الفكرية، لذلك فالكتب التي تمتلئ بالإحصاءات والأسماء لا أميل إليها، ولذلك طالما قلت للناس أن من رحمة الله بنا أن القرآن ليس كذلك، وبالرغم من ضعف ذاكرتي لكني في ذكري الحجج جيد فلا أنساها، سواءً كانت هذه إسلامية أو غير ذلك، وهناك كتاب قليل من الناس الذين يقرءونه لكني استمتعت به جداً وقرأته كاملاً، وهو كتاب "درء تعارض العقل والنقل" وأظن أن الجزء الأول، من أصعب ما قرأت وبقية الكتاب سهل، وقد ركزت اهتمامي على كتب ابن تيمية التي لها علاقة بأصول الدين، كدرء تعارض العقل والنقل" ومنهاج السنة، ولم اهتم كثيراً بكتبه الفقهية.

العصر: عرفنا الشيخ جعفر في السودان وعرفناه في الجزيرة فماذا عن الشيخ في بلاد الغرب ماذا استفاد الشيخ من إقامته هنا؟

الشيخ جعفر إدريس: أنا ذهبت إلى الغرب في عام ١٩٦٢م لإكمال الدراسات العليا بعد انتهائي من الدراسة في جامعة الخرطوم، وكنت في بعثة رسمية لنيل الدكتوراه، لكن نحن صلتنا بالغرب لم تبدأ منذ ذهابنا إليه، بل بدأت في الثانوية والجامعة حيث كان التدريس باللغة الإنجليزية، وكانت جامعة الخرطوم تبدأ الدراسة بها في السنة الأولى بأربع مواد ثم الثانية بثلاث ثم الثالثة باثنتين ثم الرابعة بمادة واحدة، يسمونها الدراسة الخاصة، فتعرضنا للفكر الغربي في آخر سنتين، حيث درسنا الاقتصاد والفلسفة في الثالثة، ثم الفلسفة في الرابعة، وكل هذا فكر غربي، وأرى أنه لا بد وقد أثر في فكرنا سلباً أو إيجابا.

ومن الأمور التي تحزنني أن معالجة القضايا والأفكار في الكتب الغربية أشمل وأعمق من كتب عالمنا العربي بكثير فتجد البعض يكتب عن الماركسية كلاماً لو رآه

ماركس لضحك، إن الكثير من نقد الماركسية عرفناه من كتب الغربيين، وهذه من الأشياء التي استفدتها من الشيخ ابن تيمية إذ يقول: إنه يستفاد من نقد أهل الأهواء لبعضهم البعض لأن كل منهم يذكر أخطاء الآخر لكني أقول إن هذه الكتب هي من وجهة نظر الكاتب، فما كل ما يذكره الرأسمالي عن الشيوعية صحيح وما كل ما يقوله الشيوعي عن الرأسمالية صحيح أيضاً، فمثلاً: يقول الغربي إنّ الملكية الشخصية شيء فطري، يعني إذا أنت لم تملك شيئاً تعد منحرفاً فطرياً!! وهذا ليس في الإسلام أبداً، وقد راجعت كتاب الله الكريم فلم أجده يمدح الشخص لأنّه يملك بل يمدح الإنفاق مثل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ١-٣]، وبعض نقد الشيوعيين للرأسمالية صحيح جداً فمثلاً الانتخابات يقولون نعم هناك انتخابات لكنها شكلية لأن الفرصة فيها للأغنياء أو لمن يسنده الأغنياء، ولا ينجح الفرد غير الغني في ذاته أو غير المسنود من الأغنياء، وهذا عيب كبير في مسألة الديموقراطية لا بد أن يعدَّل إذا أراد الناس الاستفادة من تجربة الغرب ثم الكتب هذه التي تسمى (Public Science) كان أحسن من يهتم بها الاتحاد السوفيتي واستفدنا من كتبهم التي كتبوها في هذا المجال، وهم يخلطونها أحياناً بفلسفتهم، وتوجد بالغرب بعض الكتب المهتمة بهذه الناحية لكنها ليست بمستوى تلك.

العصر: ماذا أضاف الشيخ جعفر خلال مكوثه في الغرب إلى رصيده الدعوي والمعرفي؟

الشيخ جعفر إدريس: استفدت من إقامتي في الغرب أنّك ترى من عيوب الغرب بالمعاينة مالا يمكنك إدراكه عن طريق الكتب، فأنت هنا تتابع الأخبار والتحليلات فتكسب شيئاً جديداً، لذلك من الأشياء التي أنوي إن شاء الله الحديث عنها في السودان هي الديموقراطية، فقد رأيت الناس يتكلمون عن الديموقراطية كلاماً مثالياً، وكأن آثار الديموقراطية من انتخابات وغيرها هي التي ستحل لهم مشاكلهم، لذا سأقول لهؤلاء إن الناس الذين يطبقون الديموقراطية في مجتمعاتهم هم أكثر الناس نقداً لها، فمن أحسن الكتب التي تنقد الديموقراطية بشكل واسع وعميق ما كتبه الغربيون أنفسهم، ولأحد مشاهير الصحفيين وأظن اسمه "ليبمان" قول عجيب فهو

يقول: إن الديموقراطية تصل بالإنسان إلى الحكم، لكن لا تقول له ماذا يفعل بعد أن يصل" وهذا عيب كبير، لذلك قلت لأحد إخواننا أن هذا عكس ما يعتقده أهل السنة، فالديموقراطية يهمها طريقة الوصول إلى الحكم ولا تهتم بما بعد ذلك، أما أهل السنة فبعد الوصول إلى الحكم عندهم أهم من طريقة الوصول، فجوزوا إمارة المتغلّب ما دام سيطبق الكتاب والسنة ويقيم الشريعة، وهناك كاتب روسي اسمه "سورجنستين" جاء إلى الغرب وإلى أمريكا وانتقد الرأسمالية، وكان من ضمن ما يقوله عن الديموقراطية أنه قال: إن الديموقراطية كانت مفيدة عندما كانت مرتبطة بالدين، فالديموقراطية تعطيك حرية القول والدين يرشدك إلى ما عليك فعله، لكن عندما ذهب الدين صارت الحرية هي حرية" فعل الشر!!" وقد قرأت قريباً في ملحق عن الكتب تنشره الواشنطن بوست، عن صدور كتاب يتحدث فيه الكاتب عن هذه المشكلة التي تكلم عنها الشيوعيون قديماً لكن بأدلة حديثة، وبيّن عيوب الديموقراطية مضيفاً أن الثروة في هذه المجتمعات تتركز بأيدي جزء بسيط من أفرادها وضرب مثلا "بيل غيتس" إذ قال إن ثروته تساوي ثروة بضع وأربعين بالمائة من المجتمع الأمريكي. فأمثال هذه العيوب في أنظمة هذه المجتمعات السياسية والاقتصادية، وقفنا عليها من خلال المكوث هنا، أضف إلى ذلك المشكلة الخلقية التي يعانيها هذا المجتمع وهي جداً مخيفة، فانتشار المخدرات في المدارس والجامعات وغيرها من صفوف المجتمع الغربي وكذلك ذيوع الانحلال الجنسي وغيرها من المشاكل الخلقية، والتي قد لا يتنبه إليها الكثير من أفراد هذه المجتمعات، إلا عقلاء مثقفيهم.

ومن الأشياء التي استفدتها أثناء إقامتي هنا، هي قراءة البحوث الموثّقة الموضوعية المبنية على حقائق ملموسة، وقد لا توافق على النتائج التي توصل إليها هذا الكاتب أو ذاك وكثيرا ما أبني على الحقائق التي يذكرونها وأتوصل إلى نتائج مختلفة لما توصلوا هم إليه وعلى سبيل المثال أذكر أني أقرأ حالياً كتاباً لإحدى رائدات الفكر النسائي في الغرب، حيث تذكر في أحد فصول كتابها هذا أنّهن لا يقصدن من دعوى المساواة بين الرجل والمرأة أن تكون المرأة رجلاً!! ولكن يقصدن أن تعتز المرأة بأنوثتها، إذ إن ما يحدث الآن أن همّ المرأة الأوّل أن تكون مثل الرجل أو أن ترضي الرجال!! ثم ذكرت تفاصيل ما

تصرفه المرأة من المال على مظهرها، وهنا قلت لو كانت المرأة هنا مستترة ما كانت في هذا الوضع المزري، وهنا تظهر الحكمة من الحجاب فقد قالت إحدى الأمريكيات لأستاذها المسلم: إنها كانت تعمل في مجال تصميم الأزياء وأنهم كانوا لا يصممون إلا ما يرضي الرجال، وأنها تعتقد أن أكثر شيء يعطي المرأة حريتها هو الحجاب، إذ لا علاقة لها حينئذ بالرجال!!؛ لذا يجب أن ننظر إلى الغرب كتجربة أعطانا الله إياها، ليرينا ماذا يحل بالمجتمعات التي تبتعد عن أوامر الله سبحانه وتعالى، لذلك ترى هنا بالإحصاءات والدراسات من مظاهر الفساد ما قد يغيب عنك ظاهراً من رؤية المجتمع ولصاحب كتاب "نهاية التاريخ" كتاب ذكر فيه من الإحصاءات ما يدل على مدى التدهور المخيف الذي تعانيه المجتمعات الغربية في مجال الأخلاق والقيم.

العصر: تعرّضتم في معرض حديثكم للعودة إلى السودان، فماذا ينوي الشيخ جعفر فعله هناك عند عودته؟

الشيخ جعفر إدريس: طبعاً أنا مستقر الآن هناك وإتياني إلى هنا إنما هو لتتبع أوضاع الجامعة وحضور اجتماعاتها.

وما أنوي فعله هو نقل ما أكرمني الله به من خبرة وتجربة، للاستفادة من ذلك هناك، وصرت الآن على صلة بالحكومة، بعيداً عن المناصب، حيث أستعد للمشاركة بالنصح والإرشاد، كما أعزم -إن شاء الله- الكتابة في الصحف بحيث يكون لي عمود ثابت في إحداها، كما أنوي إلقاء دروس في المساجد وإقامة علاقات حسنة بالجماعات الإسلامية جميعها هنالك، وأحرص على أن تستمر هذه العلاقة حسنة، وأنا الآن -والحمد لله- على صلة طيبة بهم، فقد جعلنا الله سبحانه، أدوات لنقل التجارب إلى الغير للاستفادة منها.

العصر: كيف ينظر الشيخ جعفر الآن إلى الحكم بعد مسيرة أكثر من إحدى عشرة سنة؟

الشيخ جعفر إدريس: الحكم هناك أول من ينتقده هم أصحابه، وقد صرح البشير أنهم شغلوا عن قضايا الناس، بمشاكلهم في الحكم، وإن كنت أتعجب من قوله أن الخلافات بدأت منذ عام ١٩٩٢م، فربما بعد إبعاد الترابي وحصول هذه القطيعة أن يكون هناك شيء من سير الأحوال إلى الأفضل.

العصر: هل ينوي الشيخ جعفر رأب الصدع أم التقويم الداخلي ولو كان ذلك على حساب قضايا ذات أهمية كبرى في السودان؟

الشيخ جعفر إدريس: لا بالعكس، فهناك أحد الإخوة كان مسؤولاً عن لجنة اسمها لجنة رأب الصدع، فاتصلت به أقول له: ولماذا ترأب الصدع يا أخي فما كل صدع يرأب؟.! فبعض الصدع مفيد فكتبوها في الصحف!!

لذلك أقول: أنا ما أرى ذلك، ثم إني لست في موضع يمكّنني من إصلاح ذات البين بحكم خلافاتي مع الترابي لذلك أتمنّى أن موضوع الترابي انتهى، والمتعلّقون بالرجل الآن هم متعلقون بشخصه وهذا لن يستمر طويلاً، وأغلب هؤلاء طلاب جامعات، ولم أكن أظن أنه سيكون عنده هذا العدد لذلك كان هذا غريباً بالنسبة لي، وقد شرح لي الذين اختلفوا معه أنهم كانوا يعطونه ميزانية بالملايين للتحرك بين الناس، ولم يعرف الطلبة غيره لذلك تعصّبوا له، وهذا كله في العشر سنوات الأخيرة، فلم يكن يذهب إلى الطلبة غيره يتكلم معهم ويؤثر فيهم، ومما قاله لي أخ منهم: أن الناس ينتقدون شباب الحركة الإسلامية في الجامعات بأن ليس عندهم معرفة بالدين، وأنهم متعصبون لقياداتهم فقط، فقال: إن الترابي قصد هذا، وحسب تعبيره: أن الترابي مجتهد في التجهيل، لأنّه وجد أنّ من آثار هذا الجهل الطاعة العمياء له.

العصر: بما أن الشيء بالشيء يذكر نسألكم عن رجل عرفتموه، وعلمتم عيوبه في وقت مبكر، وانتقدتموه مبينين أخطاءه هذا هو الدكتور حسن الترابي ماذا لدى الشيخ جعفر عن هذا الرجل؟

الشيخ جعفر إدريس: ذهبت والترابي إلى نفس المدرسة، وكنا نسكن في نفس الداخلية (سكن الطلاب)، وكان الترابي أمامي في الدراسة سنتين، ولم يكن معنا في الجماعة آنذاك، وعندما كنت في السنة الأولى بالجامعة سمعنا أنه انضم إلى الجماعة وفرحنا بذلك، ثم عرفته عن قرب وصحبته في الجامعة، لكني بدأت ألمس فيه عيوباً في الفكر والسلوك، والبعض يظن أن دافع نقدي له هو التنافس، ولكني لاحظت عليه ذلك وأنا مسؤول عن التنظيم ولم يكن هو آنذاك شيئاً يذكر، وانتقدته وقتها ولم تكن بيننا أي منافسة. ورغم تحفظاتي التي في قلبي عليه فقد تعاونت معه بعد أن صار مسؤولاً وكنت أسمع منه فلتات فمثلاً في وقت مبكر جداً كان يكره أهل السنة ويشمئز من ذكر البخاري وابن كثير وغيرهما، وليس عنده توقير للصحابة، وقد قلت لبعض إخواننا الذين

إذا انتقد أحداً رماه بالاعتزال، قلت لهم لا تظلموا المعتزلة فهؤلاء كانوا عبّاداً ومخلصين، وكان ما يدعون إليه فكراً بالنسبة لهم وكان دافعهم إليه حسناً وهو اعتقاد تنزيه الله سبحانه فكثير ممن يسمّى اليوم معتزلة لو رآهم المعتزلة لتبرّآوا منهم، أو يقول لك أشعري حتى الأشاعرة لم يكونوا كذلك، لذا أقول إن هؤلاء أقرب إلى ما يسمّى بالزنادقة أو الفلاسفة الذين لم يكونوا متدينين ولا أقول عقلانيين فقد تتبعت آيات القرآن الكريم التي ورد فيها ذكر العقل فما وجدت الله سبحانه يذم فيها العقل بل يجعل الله العقل مع الإيمان وعدم العقل مع الكفر، وأهل الأهواء يختلفون فمنهم صاحب هوى في الاعتقاد ومنهم في السلوك، ومنهم من جمع بين الأمرين.

العصر: هل أحدث هذا النقد تأثيراً في الصف بمعنى إيجاد نوع من اليقظة والاستدراك أم كانت هناك مجاراة ومسايرة للترابي؟

الشيخ جعفر إدريس: نعم كانت هناك مجاراة لما يقوله الترابي، نحن استطعنا إقناع البعض، لكن لم يكن نقدنا تيّاراً لأنهم أشاعوا أن هذه مسائل شخصية وأنها من قبيل منافسة الأقران، والناس مهيئون لقبول أمثال هذه الحجج البسيطة فهم يميلون إلى ما يعرفون، والمشكلة أن الرجل يتنكّر وأنا لا ألوم الناس لأني لا أميل إلى أن يسرع الناس إلى قبول كل اتهام يتهم به شخص من الناس خصوصاً إذا كان هذا الشخص ينكر وقد كان الترابي رجلاً منافقاً يقول في جلساته الخاصة خلاف ما يعلنه للناس ولا يزال حتى اليوم وما كان يقوله في جلساته آنذاك أقل بكثير مما يقوله الآن، فهو مسكين عقله يقبل الشبهات (كل ما خالطه أثّر فيه) كما يعبر ابن القيم.
العصر: خاصة في غياب الرادع الداخلي داخل الصف يزداد الترويج لأمثال هؤلاء.
الشيخ جعفر إدريس: نعم، وليس ذلك فقط فقد صار محبوباً مرغوباً لذلك صارت فيه صفات ما كانت لتظهر فيه قديماً معنا نحن زملاؤه فقد صار يحب القهر، دكتاتورياً متسلّطاً بل حتى لما ظهر لبعض الناس انحرافه لم يجاهروه بالنقد وبعضهم يرى أنه لا يتكلم في ذلك حفاظاً على الصف حسب زعمهم.

العصر: ألا ترى أنه كان من الأولى أن تفنّد مثل هذه الشبهات والانحرافات في بداية المسيرة، فهل يتأسف الشيخ جعفر أنه لم يكتب شيئاً عن ذلك؟

الشيخ جعفر إدريس: نعم أتأسّف لذلك وأعتقد أنّ من أخطائي الكبيرة أنني لم أكتب شيئاً في ذلك وظننت أن عندي ثقة بالناس، خاصة أننا انتقدنا وبيّنا لهم وأنه

شخص واحد ولن يؤثر لكن كان ظني خطأ ولم يقتصر خطأي على عدم الكتابة بل ومنعت غيري من أن يكتب، ومن هؤلاء الشيخ سفر الحوالي وكان مهتم بذلك في وقت مبكر جداً، وجمع أشياء في هذا الصدد، لكن لعل عذري أن الوقت آنذاك كان وقت انتخابات، وكان الترابي هو زعيم التيار الإسلامي، ومنافسوه ليسوا من الإسلاميين، فخشيت أن يؤثر ذلك على الناس وأظن أن السبب في هذا هو الفكر التنظيمي إذ يرى الكتابة في هذا تشق الصف مع أن بيان الحق أهم من ذلك بالطّبع.

العصر: لكن كما تعلمون يا شيخ أن للتأثير شروطاً، وأكثر المتصدرين اليوم لهذا الجانب أناس ضعيفو التأصيل قليلو البضاعة الشرعية مما يجعل عملهم هذا تمييعاً للمنهج لا تأثير فيه يذكر.

الشيخ جعفر إدريس: نعم هذا صحيح .

العصر: كما ترون اليوم يخلط الكثير اليوم بين المنهج الشرعي القويم وبين المنهج الحركي، وصار الأخير عندهم ديناً مما سبّب انحرافات كثيرة في الصف الإسلامي فما هو الحل بالنسبة لهذه القضية وما هو الفرق بين المنهجين؟

الشيخ: الحل أن ينشط أصحاب المنهج الشرعي أكثر من قبل، فكثير من أتباع المنهج الصحيح مصاب بالانعزال والانكماش بعيد عن معمعة الواقع وأماكن التأثير، ويذكر لي الأخ عبد الله إدريس أنه عندما كان مسؤولاً في إسنا كان يذهب إلى بعض إخواننا السلفيين يعرض عليهم التعاون فيما بينهم وقد اقتنع البعض، فلا بد من المشاركة والذهاب لهداية الناس، فنحن إذا انتظرنا مجيء الناس متى سنؤثر في المجتمع؟ فما دام الناس مسلمين فلا بد من العطف عليهم عند بيان الحق وهذه مسؤولية الذين يعلمون، ولم يكن أهل السنة هكذا فابن تيمية لم يترك أحداً في عصره إلا وناقشه، وهناك علماء اليوم سلفيون يتمتّعون بسعة الصدر لكن مشكلتهم أنهم من أبناء الجيل الماضي فليس لديهم معرفة بالأمور الحادثة اليوم، وهناك أفراد من الجيل الحالي يعرف عن هذه الأمور فلو ضمت هذه المعرفة إلى سعة الصدر يكون هناك تأثير بإذن الله تعالى.

* * *

الداعية د. جعفر شيخ إدريس في حوار للرياض

الرياض - عبد الحي شاهين
٢٠٠٢/٠٦/١٤

الرياض: يتحدث كثيرون عن صراع بين الإسلام والغرب، ما دوافع هذا الصراع؟

الدكتور جعفر: الصراع بمعنى أن يكون الإسلام مختلفاً عن الغرب في عقائده الأساسية فهذا أمر بدهي، فالعالم الإسلامي مبني على عقائد الدين الإسلامي، وهي ألا يعبد إلا الله سبحانه وتعالى، وأن يشهد أن محمداً رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخاتم النبيين، وأن القرآن حق وهكذا، أما الغرب فتتقاسمه اعتقادات مختلفة، فهناك العقيدة النصرانية باختلاف طوائفها، ثم هناك العقيدة اليهودية، لكن الغالب على الغرب من الناحية العملية، بغض النظر عن الانتماءات الدينية، هو عدم أخذ الدين مأخذ الجد ووضعه في ركن من أركان الحياة، فلا يتدخل في السياسة ولا في الاقتصاد ولا يراعى في القرارات الديمقراطية، مثل القرار الذي أقره البرلمان البريطاني قبل أيام بالسماح للشاذين جنسيا من الرجال بتبني الأطفال، فهم لا يراعون الناحية الدينية التي هي أساس الصراع، وأجد نفسي متفقا مع هنتنغتون في رأيه أن لب الحضارة هو الدين، وإذا كنا مختلفين مع الغرب في لب الحضارة فبيننا خلاف حضاري بجانب ما بيننا من اختلافات في المصالح، وهنالك خلافات سببها الناحية التاريخية، والغربيون والمسلمون لا ينسون الحروب الصليبية، وأن الغرب سيطر على العالم الإسلامي بقوة السلاح، وهنتنغتون نفسه يعترف بذلك في كتابه حيث يقول: «لم نقنع الناس بفكرنا ولا غيره، لكن هزمناهم بقوة السلاح، وإن المسلمين لم ينسوا هذا أبدا»، وكلامه في هذا صحيح، لكن هذا الصراع يمكن أن يحل بغير السلاح، باستخدام الحوار المباشر والفاعل، لكن تقسيم هنتنغتون للحضارات بأنها الحضارة الإسلامية مع الكونفوشية ضد الغرب، هو تقسيم خاطئ، فلو أخذنا في الاعتبار كلامه السابق بأن لب الحضارة هو الدين، فمن المؤكد أن الإسلام والنصرانية أقرب إلى بعضهما من الكونفوشية، فوضع الإسلام مع الكونفوشية من الناحية الدينية خطأ، أما من الناحية السياسية فمرد ذلك أن مشكلة الحضارة الغربية ممثلة في أمريكا خصوصا- مع أنها دولة قوية وذات اقتصاد ضخم - لكنها تعيش حالة هلع

خشية أن تزول سيطرتها وقوتها، ولذلك لا تريد لأي دولة أخرى أن يكون لديها قوة، فربما هذا يجعل الحضارة الإسلامية فعلا تتعاون مع الحضارات الأخرى التي تستهدف الغرب بقيادة الولايات المتحدة ويستهدفهم الغرب كذلك، ويحاول أن يكبتهم بمنعهم من التقدم أو يكبت لديهم أي نوع من القوة.

الرياض: هل ترون أن ذهنية الحروب الصليبية ما تزال تسيطر على الغرب، وكيف يفهم خطاب بوش الأخير بعد أحداث سبتمبر الذي تعرض فيه إلى ذكر كلمة الحرب الصليبية؟

الدكتور جعفر: كلمة "كروسيد" التي استخدمها بوش تستخدم أحيانا مجازا ولا تستعمل بمعنى الدين أو الصليبية، وكل عمل قوي حتى لو كان من الناحية المعنوية يسمونه كروسيد، وأظنه قصد هذا المعنى، لكن ربما كانت زلة منه، ولذلك انتقده فيها بعض الأمريكيين، ومنذ ذلك الوقت لم تتكرر أبدا، لكن الرئيس الأمريكي فعلا ينظر إلى هذا الصراع من الناحية الدينية، ويعتبر أن كل هذه الدول وكل هذه الأشكال من الحكومات الإسلامية والجماعات يجمعها الإسلام، وأنها خطر على الغرب، لكن من ناحية المسلمين فهم حتى لا ينطلقون من ناحية إسلامية، ولا ينظرون إلى الغرب على أنه خصم من الناحية الدينية، الدول الغربية تأثرت في نظرتها بالفكرة الغربية القومية التي ما كانت عند المسلمين أبدا.

الرياض: في ظل هذا الصراع ماذا عن إمكانية الحوار؟

الدكتور جعفر: الحوار بالنسبة للمسلم لا ينقطع، ونحن مستعدون دائمًا لكل من يريد أن يحاورنا حتى لو كان أكبر الأعداء، والله سبحانه وتعالى أمرنا بالدعوة والتي لا بد لها من حوار، والذي يسميه القرآن المجادلة، فعندما تدعو إلى ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، أحيانا تثير هذه الدعوة عند من دعوته أسئلة واعتراضات فيحتاج إلى حوار، لذلك قال الله سبحانه وتعالى: (وجادلهم بالتي هي أحسن) حتى إن بعض العلماء قالوا: إن من الخطأ أن يقال بأن الدعوة هي بالحكمة والموعظة الحسنة والحوار، حيث إن هذين شيئان مختلفان، فيجب أن ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة، وبعد ذلك نجادلهم، أي "جادلهم" معطوفة على "ادع" وهما شيئان مختلفان، فكل من يستمع إلى الدعوة ويعرف شيئًا عن الإسلام ويريد أن يحاورنا فأهلا به، حيث تكمن قوتنا

الحقيقية في أن الحق معنا، فالحوار دائما في مصلحتنا إن شاء الله، وإذا كنا الآن ضعفاء من الناحية الاقتصادية والإعلامية ومن ناحية السلاح المادي، فما نزال أقوياء من ناحية الدين الذي نحمله، وهذا هو السبب في أن الناس في الغرب يسلمون، ولا أحد من العالم الإسلامي يتنصر أو يتحول عن دينه، بسبب امتلاكنا لقوة الحق، وكثير من العقلاء إذا عرفوا الإسلام رأوا فيه أنه الدين الحق، فالله سبحانه وتعالى أمرنا بالدعوة قبل الأمر بالقتال وأمرنا بالجهاد بالقرآن قبل الجهاد بالسنان، وقال: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، حتى بعد أن أذن للمسلمين أن يقاتلوا وبعد أن أمروا بالقتال لم يتوقف الأمر بالدعوة بالتي هي أحسن ولا بالمجادلة، فالحوار واجب، وإذا طلب غير المسلم الحوار فيجب أن نراه واجبا شرعيا.

الرياض: الدين الإسلامي يدعو إلى الحوار والتسامح لكن من نحاوره (الغرب) غير جاد في ذلك وخطابه غالبًا ما يكون استعلائيًا؟

الدكتور جعفر: نعم هناك استعلاء والغربيون مغرورون فعلاً، والأمريكيون يقولون كما قال قوم عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ويقولون: ليس هناك دولة في التاريخ كان لها من القوة ما لنا، ويرون نظامهم السياسي هو النظام الأمثل، وإذا نظرت إلى العالم ورأيت كيف أن الناس في العالم كله معجبون بالديمقراطية، ولا أحد ينتقدها إلا الغربيون أنفسهم، فكأن النظام السياسي الغربي صار حتى بالنسبة لأعداء الغرب هو النظام النموذجي الذي ينبغي أن يحتذى، وهذا يغرهم، ويدعون كذلك أن النظام الرأسمالي هو الذي جعلهم أقوياء من الناحية الاقتصادية، وأن جميع البشر يريدون أن يحتذوا بهم، فهم لديهم الأسباب التي تجعلهم مغرورين، لكن هنالك كثير من العقلاء منهم، ينظرون إلى ما وراء هذا، وإلى الأسئلة الأساسية في هذه الحياة عن الخالق سبحانه وتعالى وعن حقوقه، وكثير ممن يسلمون - إن لم يكونوا جميعهم - فإن سبب انتقالهم من النصرانية إلى الإسلام هو عدم اقتناعهم بأنه يمكن أن يكون للخالق (ولد)، نعم هنالك كثير منهم يتحدث بغير موضوعية كالبيان الذي أخرجه مجموعة من المثقفين الأمريكيين، ورد عليه مجموعة من المثقفين العرب، وهو فعلاً فيه نوع من الاستعلاء، وقد رد عليه أيضا مجموعة من المثقفين الألمان، وقالوا لهم: نحن نوافقكم في القيم الخلقية التي ذكرتموها، لكنكم لم تلتزموا بها في حربكم ضد المسلمين

في أفغانستان، وليس هناك من فرق بين أن يقتل الأبرياء في نيويورك وأن يقتل الأبرياء في أفغانستان.

الرياض: هل تلحظون دورًا للحركة الصهيونية في تعزيز هذا الصراع؟

الدكتور جعفر: بعض اليهود نصبوا أنفسهم متخصصين في كل ما له علاقة بالإسلام، وهم يخيفون الغربيين من المسلمين إخافة شديدة، ويقولون عن الإسلام والحركات الإسلامية كلاما نحن نقول ليته كان صحيحا.

وقد كتب أحدهم، وهو متخصص في شؤون العالم الإسلامي، بحثا قال فيه: إن كل الحركات الإسلامية في الحقيقة حركة واحدة بأسماء مختلفة، وإن قيادتها العليا هي الدكتور حسن الترابي في السودان والشيخ حسن نصر الله في لبنان. وبالإضافة إلى الحركة الصهيونية هنالك جماعات متعصبة من النصارى، وهم وراء تشويه الإسلام، ويعملون على إقناع الكونغرس وغيره من المؤسسات الأمريكية بأن السودان مثلا أكثر بلد لا توجد فيه حرية للأديان، مع أني أظنه من أكثر البلاد تساهلاً في هذا الأمر مع النصارى، فهذه الجماعات هي التي تؤلب القيادات السياسية في أمريكا ضد بلد كالسودان والسبب هو الناحية الدينية.

الرياض: ذكر بحث صدر حديثا أن لليهود نفوذاً كبيراً في المؤسسات الرسمية في أمريكا، وأن غالبية العلماء في الغرب هم من أصل يهودي، وهم يعملون بشتى السبل لتشويه صورة الإسلام والمسلمين؟

الدكتور جعفر: من المبالغ به أن يقال بأن غالبيتهم من اليهود لأن نسبتهم ضئيلة جداً بالنسبة للشعوب الغربية، لكن نسبتهم في العلماء أكثر من نسبة عددهم، واليهود كالآخرين ليسوا على قلب رجل واحد، فهناك جماعة من اليهود ضد دولة إسرائيل نفسها، ويرون أن هذا شيء مخالف للدين، ويعتقدون أن الصهيونية ليست هي حركة دينية، وإنما هي حركة علمانية لبست ثوب الدين، كما أن كثيرا منهم ملحدون لا يؤمنون بأي دين، لأن اليهودية اختلط فيها الانتساب الديني مع الانتساب العرقي فصارت اليهودية كأنها جنس، وهنالك فعلا عدد كبير من المؤثرين في مجالات الإعلام مثل فريدمان أو ويليام سفاريام الكاتب في نيويورك تايمز، وهؤلاء مؤيدون لإسرائيل تأييدا مطلقا، هذا بالنسبة للولايات المتحدة، أما في أوروبا وإن كان

هنالك تأييد لكنه أقل بكثير مما في أمريكا، ومؤخراً قرأت مقالا في صحيفة الإندبنديت يقول كاتبه: إن الأمريكيين يريدون أن يتهموا كل من ينتقد إسرائيل بمعاداة السامية، وهذا خطأ كبير.

الرياض: بعد هجمات سبتمبر هل حدثت لكم كدعاة أي مضايقات من الأمريكيين؟

الدكتور جعفر: لم نلحظ تضييقاً في مجال الدعوة، لكن هناك تضييق بشكل عام على المسلمين وغيرهم، وهذه من المسائل التي تناقش كثيراً في الصحف، وهي قضية الموازنة بين الأمن والحرية، وهذه مشكلة كبيرة عندهم الآن، نعم هناك تضييق بصفة خاصة على المسلمين، لكن ليس في الدعوة بمعنى أن يقال لك: لا تقل هذا الكلام أو لا تخطب هذه الخطبة.

الرياض: إذن ماذا عن التفتيش الذي طال بعض المؤسسات الإسلامية في أمريكا مؤخراً؟

الدكتور جعفر: هذا يدل كما ظهر بعد حوادث ١١-٩ على أن الأجهزة الأمريكية لا تتعاون كثيراً فيما بينها، فيمكن أن تكون هناك مؤسسة ذات صلات قوية بالحكومة الأمريكية لدرجة اتهامها بالعمالة للحكومة، ثم بعد ذلك تأتي جهة أخرى من الأجهزة الحكومية وتعتبرها جماعة إسلامية كالجماعات الأخرى فتتعرض لها بالتفتيش والتضييق، لكن الحكومة الأمريكية أعادت كل ما أخذته من هذه المؤسسات التي تعرضت للتفتيش والمصادرة. والأمريكيون أكثر ما يخافون من المنظمات الإسلامية التي لديها أموال طائلة، فيخشون أن تمول هذه المنظمات الإرهاب في العالم حتى وإن ظهرت بمظهر المؤيد لأمريكا.

الرياض: بعد ١١/سبتمبر دخلت مجموعات كبيرة في الإسلام، ألم تنزعج الحكومة الأمريكية من ذلك؟

الدكتور جعفر: حتى لو كان هناك انزعاج فهي لا تصرح بذلك، وحتى قبل ١١/سبتمبر فقد اعترفت مستشارة البيت الأبيض لشؤون الأمن القومي كوندوليزا رايس بأن الإسلام هو أسرع الأديان انتشاراً في الولايات المتحدة، وهذا صحيح، فلابد

أن يكون مصدر قلق بالنسبة لهم لكن ماذا يفعلون؟ وربما تكون حوادث سبتمبر أعطتهم فرصة للتضييق على المسلمين، وكنت أظن دائما أن التضييق قادم لا محالة، وقلت لبعض الدعاة أن ينتهزوا هذه الفرصة ويعملوا على نشر الدعوة؛ لأنهم يخافون أن تأتي الحضارة الإسلامية وتهاجمهم وتنافسهم من الداخل وهو ما لا يقبلونه أبدا.

الرياض: هلا عقدت لنا مقارنة بين حرية الدعوة في الغرب وبين العالم الإسلامي؟

الدكتور جعفر: في البلاد الغربية معروف أن هناك حرية كلمة للحق وللباطل، وهم يقولون لنا: نحن نسمح لكم بنشر دينكم، فلماذا لا تسمحون لنا بنشر ديننا، فرددنا بأنهم لا يفعلون ذلك تفضلاً منهم على المسلمين، هم يعتقدون أن هذا النظام يصلح لهم ويفيدهم، وكما يسمحون للمسلمين يسمحون للبوذيين والعراة والشواذ والشيوعيين حتى لمن يعبدون الشيطان، فهو ليس تفضلا منهم على المسلمين، هذا نظامهم، وعلينا نحن أن نستغل هذا النظام في الدعوة إلى الحق، أما في العالم الإسلامي، وخاصة في البلاد التي فيها نوع من الاستمساك بالدين فلا يمكن أن تكون حرية الدعوة مفتوحة إلى كل الأديان بهذه الطريقة التي في الغرب، لكن هناك بعض البلاد المنتسبة إلى الإسلام تحارب حتى الدعوة إلى الإسلام الصحيح، ومن المؤكد أنها في هذا أسوأ من الدول الغربية، لأن الغرب يسمح لمن يدعو إلى هذه الدعوة الصحيحة، كما يسمح لغيره أن يدعو إلى دعواه الباطلة لكن هنا السماح للدعوات الباطلة وتضييق على الدعوة الحق.

الرياض: هل هناك عدد كبير من الدعاة في أمريكا ؟

الدكتور جعفر: عدد الدعاة الذين يعرفون دينهم ويتكلمون الإنجليزية بطلاقة فيه ندرة كبيرة، ونحن نعاني من ذلك معاناة شديدة.

الرياض: ألم يسبب ذلك إشكالا، خاصة وأن الإسلام يواجه حملة شديدة لتشويه صورته، الأمر الذي يستدعي الكثير من الجهود؟

الدكتور جعفر: نعم سبب الكثير، و قد لا يتمكن بعض الدعاة الذين كانوا يأتون في المواسم من القدوم، أو يقل عددهم في أحسن تقدير، وعلى العالم الإسلامي أن يعين المسلمين هناك، فلو ركزنا جهودنا على المسلمين الأمريكيين الأصليين، سواء كانوا من البيض أم السود وفتحنا لهم أبواب التعليم في البلاد الإسلامية ودعمنا

مؤسساتهم التعليمية واهتممنا بهم حينها يمكن أن نخرج منهم دعاة، وهناك فعلا بعض الدعاة الممتازين منهم، لكن عددهم قليل جداً، فحبذا لو اهتم الناس بهم في العالم الإسلامي، فهم لا يدخلون في الإسلام فقط، بل سيكونون عونا للمسلمين في قضاياهم السياسية الآن، لأن الجالية المسلمة دائما ما تشتكي من اللوبي الصهيوني، فيمكن أن يصبح هؤلاء قوة ضغط كبيرة توازي اللوبي الصهيوني.

الرياض: في الغرب العديد من الطوائف والجماعات الإسلامية، وكل واحدة منها تعمل على نشر الإسلام بحسب تصورها، ألم يخلق ذلك خلطا في أذهان الغربيين عن الإسلام؟

الدكتور جعفر: طبعا يسبب خلطاً كبيراً، لكن هذه هي أمراض العالم الإسلامي تنقل إلى كل مكان يذهب إليه المسلمون، وفعلا بعض هذه الجهات عرقلت الدعوة إلى الإسلام، فأنت تقول كلاما، ويأتي غيرك فيقول كلاما آخر مناقضا لما قلت، لكني أظن أن التيار العام هو تيار سني.

الرياض :هل نأمل في أن تلقى الدعوة الإسلامية قبولا كبيرا في الغرب؟

الدكتور جعفر: في أمريكا خاصة، فإن معدل انتشار الإسلام يزيد سنويا، وأنا متفائل جدا بمستقبل الإسلام في أمريكا.

الرياض: هل تعتقدون أن الأقليات الإسلامية في الغرب في حاجة إلى فقه جديد؟

الدكتور جعفر: غالبية المسلمين ذهبوا إلى الغرب لتأمين حياة معيشية أفضل وليس للدعوة، ومعظم هؤلاء يضيعون أو يضيع أبناؤهم، حتى إن بعضهم يقول: (لا ندري هل عدد الأطفال الذين نفقدهم أكبر أم عدد الأمريكيين الذين ندخلهم في الإسلام). ولا يوجد فقه أمريكي أو أوروبي أو غيره، لكن هناك ما يسمى بفقه النوازل، بمعنى إذا كان هناك حالات لا يوجد لها مثيل في العالم الإسلامي، على الأقل في الوقت الراهن، وتحتاج إلى نظر، فهذا شيء مستمر بالنسبة للدين الإسلامي، والعلماء قالوا إن النصوص محدودة والحوادث والنوازل غير محدودة، سواء أكان في العالم الإسلامي أم الغربي، لذلك لا بد من الاجتهاد دائما، فلا يجدد الإسلام إلا بالاجتهاد العلمي الصحيح الذي يتحرى الإجابات الأقرب للنصوص.

***

لست متشدداً ولا أرفض الحوار مع الآخرين

جعفر شيخ إدريس: لست متشدداً ولا أرفض الحوار مع الآخرين وإبعادي من أميركا يدخل ضمن الحملة المتشددة ضد السعودية.

صحيفة الشرق الاوسط. إسماعيل محمد علي. الجمعة ٠٧ ذو الحجة ١٤٢٤هـ ٣٠ يناير ٢٠٠٤ العدد ٩١٩٤.
الرياض

❖ **الشرق الاوسط:** بداية لماذا سحبت منك التأشيرة الدبلوماسية في واشنطن؟.

❖ **الدكتور جعفر:** علمت أن وزارة الخارجية الأميركية التي ألغت التأشيرة زعمت أنني قمت بأعمال لا تتناسب مع الوظيفة الدبلوماسية، ولم يذكروا لي من الأعمال سوى كثرة المؤتمرات والندوات التي شهدتها والمحاضرات التي ألقيتها، وكل هذا عمل ظللت أقوم به منذ ذهابي إلى الولايات المتحدة. واسمح لي بهذه المناسبة أن أتقدم بالشكر للأمير بندر بن سلطان سفير السعودية بواشنطن على ما تفضل به من كلمات الثناء والتوضيح التي دلت على ما في نفسه من روح الوفاء والإنصاف، والتي كان لها عظيم الأثر على أهلنا وأصدقائنا ومعارفنا في بلاد الله كلها.

❖ **الشرق الأوسط:** ما طبيعة العمل الذي كنت تقوم به في واشنطن؟

❖ **الدكتور جعفر:** ظللت منذ عام ١٩٧٤ أتردد على الولايات المتحدة مبتعثاً من الجامعات السعودية التي كنت أعمل بها أو من الشيخ عبد العزيز ابن باز للمشاركة في أعمال تتعلق بالدعوة، ومن ثم بدأت صلتي بالسفارة السعودية، وعندما افتتحت جامعة الإمام بالتعاون مع السفارة معهداً للعلوم الإسلامية والعربية كلفت مع غيري من الأساتذة السعوديين وغير السعوديين للعمل به، وأعطينا جميعاً تأشيرات دبلوماسية على جوازات بلادنا التي نحملها، وكنت مختصاً بالبحوث المتعلقة بالإسلام. وكانت وزارة الخارجية الأميركية على علم بكل هذا.

❖ **الشرق الأوسط:** ما نوع الجواز الذي تحمله حالياً وسابقاً؟.

❖ **الدكتور جعفر:** أنا لا احمل جوازاً دبلوماسياً لا سعودياً ولا سودانياً، وليس لي جنسية غير جنسيتي السودانية. وأنا إنما أقول هذا بياناً لحقيقة لا دفعاً لتهمة، بل إنه

ليشرفني أن أنتسب إلى بلد قضيت فيه زمناً طويلاً من عمري، واستفدت منه علماً وخبرة وصداقات ومعارف. والحمد لله لم يجعل حمل الجواز شرطاً في مثل هذه العلاقات.

❖ **الشرق الأوسط**: متى أخطرت بقرار سحب التأشيرة؟.

❖ **الدكتور جعفر**: كان ذلك في بداية شهر رمضان المبارك، وأعطوني مهلة شهر لمغادرة البلاد.

❖ **الشرق الأوسط**: هل صحيح أن واشنطن أوقفت الدعم الذي كانت تقدمه للمعهد الإسلامي في فيرجينيا بسبب ارتباطك به؟

❖ **الدكتور جعفر**: أي دعم؟ المعهد كما قلت لك تابع لجامعة الإمام، وما زال يواصل عمله، ونسأل الله تعالى له الاستمرار والتوفيق لأنه يقوم بعمل عظيم.

❖ **الشرق الأوسط**: هل صحيح أن السلطات السعودية سحبت التأشيرات الدبلوماسية من المدرسين السعوديين في الخارج لإبعاد السفارة عن أية مهام تتعلق بالشؤون الدينية؟.

❖ **الدكتور جعفر**: الذي أعلمه هو أنهم لم يصرحوا أن ذلك تم من أجل قيامهم بنشاطات دينية، ولكنهم قالوا إنها لا تتناسب مع المهام الدبلوماسية ولذلك فإن تأشيراتهم ستتغير إلى تأشيرات أخرى تناسب عملهم.

❖ **الشرق الأوسط**: اتهمت أنك تتعامل مع مؤسسات إسلامية أميركية تدعو إلى نوع متشدد من الفكر الإسلامي ما ردك؟.

❖ **الدكتور جعفر**: التشدد وعدم التشدد أوصاف نسبية تعتمد على تصور الواصف للأمر. إن السائد في الفكر الغربي هو أن كل من يرى دينه هو الحق الذي أوحاه الله تعالى، ويأخذه لذلك مأخذ الجد، نصوصاً وعبادة وسلوكاً بقدر استطاعته، هذا في رأيهم إنسان متشدد لأنهم يرون - حسب الدين الذي عرفوه، ثم إنه يصدق على سائر الأديان - أنه متأثر بثقافة عصره فلا ينبغي أن يفرض على ثقافات عصور جاءت بعده، فالدين صار عندهم تابعاً للثقافة السائدة، وهو عندنا حكم على الثقافات وقائد لا تابع، فأنا لا أعد بالمقاييس الإسلامية متشدداً ولست من الذين يرفضون الحوار مع الآخرين ومجادلتهم بطريقة عقلانية.

❖ **الشرق الأوسط:** ذكرت أنك خضعت لتحقيقات من قبل المباحث الأميركية «اف. بي. سي»، فماذا جرى معك بالضبط؟.

❖ **الدكتور جعفر:** نعم، لكنني خدعت فمعظم من سألوني وحققوا معي كانوا في المطارات، ولم أكن أعرف أنهم من رجال المخابرات، ولما عرفت، وكان ذلك في آخر دخول لي قادماً من بريطانيا، لم أجبهم لأنني علمت أنه لا حق لهم في استجوابي، وأن صلتي إنما هي بوزارة الخارجية، بل علمت من بعض رجال القانون أنه لا حق لهم في استجواب أي أحد إلا إذا جاءوا بوثيقة تبيح لهم ذلك، لكنهم في الغالب يستغلون جهل الناس بالقانون فيسألونهم أسئلة يورطونهم بها. لم تتعد أسئلتهم ما ذكرت لك من محاضرات وندوات، وقد غضبت ذات مرة فقلت لأحدهم إنكم تعلمون إنني كنت من أوائل من انتقدوا ما حدث في ١١ سبتمبر (أيلول) ٢٠٠١ في خطبة جمعة شهدها مراسلو قنوات تلفزيونية مشهورة منها «سي إن إن» ثم قلت له بالمناسبة أنا لست حريصاً على البقاء في بلدكم، وأنا لا أستفيد منكم أي فائدة مادية.

❖ **الشرق الأوسط:** الآن في السعودية، هل لديك نشاط معين أو عمل بعينه يرتبط بعملك السابق في واشنطن؟

❖ **الدكتور جعفر:** لا.

❖ **الشرق الأوسط:** هل يمنعك قرار سحب التأشيرة الدبلوماسية من السفر إلى الولايات المتحدة ولو بتأشيرة عادية، وهل تنوي السفر إلى واشنطن مرة ثانية؟

❖ **الدكتور جعفر:** من الناحية الرسمية لا يمنعني لكنك تعلم أن إعطاء التأشيرة يخضع لشروط أخرى، لا أفكر الآن في الذهاب للولايات المتحدة، وأنا آسف لذلك لأن أميركا هي الآن من أخصب البلاد للدعوة الإسلامية، وربما كان أقرب الشعوب الغربية إلى الفطرة، والإسلام هو دين الفطرة، فكل من احتفظ بها يجد في نفسه راحة به حين يعرفه. وأنا كثيراً ما أذكر إخواننا الدعاة بأن لا يخلطوا بين الموقف السياسي من هذه الإدارة أو تلك وهذه السياسة أو تلك وبين الموقف من الأمة الأميركية أو البريطانية أو اليابانية أو غيرها. إن دعوتنا إلى الناس تقوم على رصيد في نفوسهم لا تخلو منه أمة منهم، ولولا وجود هذا الرصيد من الخير في الأمم لما أسلم منهم أحد. لقد عشت في أميركا مدة واستفدت منها علماً وثقافة وكونت بها صداقات غزيرة، فأنا لا أخرج منها كارهاً لكل ما فيها ولا شاعراً بمرارة نحو كل أهلها.

❖ **الشرق الأوسط**: ما طبيعة المواضيع التي كنت تتناولها في المحاضرات والندوات التي كنت تقيمها في أميركا؟.

❖ **الدكتور جعفر**: أغلبها إسلامية وجزء بسيط يتعلق بالسياسة سواء في الشأن الأميركي أو العربي أو الإسلامي وغيره.

❖ **الشرق الأوسط**: هل كنت تنتقد في هذه المحاضرات والندوات السياسة الأميركية؟

❖ **الدكتور جعفر**: نعم، كنت أوجه بعض الانتقادات للسياسة الأميركية، ولكن ما أقوله ليس أكثر مما يقوله الأميركيون عما يحدث في الساحة الأميركية سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية. وأنا لا أتحدث عن السياسة في كل المحاضرات والندوات.

❖ **الشرق الأوسط**: متى كانت آخر محاضرة ألقيتها هناك؟.

❖ **الدكتور جعفر**: قبل إبعادي بأسبوع.

❖ **الشرق الأوسط**: وهل وجدت أي اعتراض صريح على هذا النشاط الذي تمارسه؟.

❖ **الدكتور جعفر**: نعم، قالوا لي أنت دبلوماسي ويجب ألا تقوم بمثل هذا العمل الذي تخاطب به آلاف الناس. وفي الحقيقة إن العدد الذي يحضر هذه المحاضرات في الغالب يتراوح ما بين ١٠٠و٢٠٠ شخص من العرب والمسلمين.

❖ **الشرق الأوسط**: **وهل** صحيح أن إلغاء تأشيرتك الدبلوماسية كان بسبب التغييرات في القانون الأميركي؟

❖ **الدكتور جعفر**: الأميركيون دائماً لا يفصحون عن السبب، ولا أعتقد أن ذلك يتطلب تغييراً في القانون، ولكن يمكن أن ترجع ذلك إلى التشدد الحاصل مع السعودية.

❖ **الشرق الأوسط**: **هل** تتهم جهات بعينها بأنها وراء إبعادك من أميركا؟.

❖ **الدكتور جعفر**: نعم ولكنني أرفض الإفصاح عنها على الأقل في الوقت الحاضر، وما أحب أن أقوله في هذا الخصوص هو أن الصحافية الأميركية، سوزان سميث، التي أوردت قرار إبعادي في جريدة «واشنطن بوست» طلبت أن تجري معي مقابلة صحافية إلا أنني رفضت، وهي صحافية معروفة بمعاداتها للإسلام والمسلمين، وأعتقد أنها يهودية الديانة.

❊ ❊ ❊

إشكاليات الديمقراطية والبدائل الإسلامية

حوار مع الدكتور جعفر في قناة المجد
في برنامج ساعة حوار

س/دكتور جعفر شيخ إدريس عنده مشكلة كما يقول بعضهم في معنى الديمقراطية؛ فهو لا يرى أن الديمقراطية الحالية هي حكم الشعب، ولا يرى أنها حل، وبالتالي عند الدكتور جعفر شيخ إدريس مفهوم آخر للديمقراطية فما هو مفهومك للديمقراطية؟

الدكتور جعفر : والله الحقيقة ليس مفهومي **أنا، والرأي هذا أنا** معظم ما أعرفه عن الديمقراطية هو مما قرأته لمفكرين غربيين، وأضفت إليه وجهة نظري الإسلامية فمثلاً في الموضوع الذي بدأته الآن سمعت أحد المفكرين الإنجليز يقول إن الديمقراطية بفعل الساسة الدعاية السياسية ولا سيما دعاية بوش يقول صارت كلمة طنانة لا معنى لها، وصار كل إنسان يعجبه شيء في الحكم يسميه ديمقراطية، فأنا في رأيي لمصلحة إخواننا المستمعين من يوافقنا ومن يخالفنا يحسن أن نتفق على ماذا نعني بالديمقراطية، الديمقراطية أولاً هي كلمة يونانية ففي معناها اللغوي معناه حكم الشعب هذا معظم الناس يقولون هذا إلا الرئيس القذافي، والله لولا أنني شاهدته بصورته يقول هذا الكلام ما صدقت قال أصلها كلمة عربية معناها (ديما كرسي) يعني من جلس على الكرسي لا يحب أن يقوم من عليه أبداً، فالديمقراطية هذا معناها اللغوي، ثم هو المعنى الذي يمكن أن أقول يجمع عليه منظروها الكبار المفكرون والفلاسفة أرجو من الإخوان أن لا يغتروا بالكلام الذي يقوله السياسيون؛ لأن هذه مسألة فكرية كبيرة؛ لأن الديمقراطية بهذا المعنى تجيب عن سؤال مهم في السياسة ممكن أكثر من السياسة أيضاً، وهو سؤال دائماً يسأله الناس طوال التاريخ لمن يكون الحكم؟ الحكم بمعنى التشريع ليس الحكم التنفيذي، التنفيذي معروف أنه للبشر، قال المفكر المشهور جان جاك روسو قال ما يمكن للشعب أن يكون حاكماً تنفيذياً ما يمكن أن يكونوا كلهم رؤساء جمهورية أو ملوك أو وزراء أو كذا وكذا فإذاً المقصود بها التشريع، فالسؤال هو لمن تكون السلطة التشريعية العليا؟ لمن هذا سؤال

هذا في غاية الأهمية، الديمقراطية تقول إن هذه السلطة للشعب، هذه إجابتها، الديمقراطية بهذا المعنى يكون واضح جداً لكل إنسان سواءً كان مسلم أو غير مسلم أنها تخالف الإجابة الإسلامية لمن الحكم لله؟ الواحد القهار؛ الحكم التشريع، يعني بهذا المفهوم الديمقراطية كفر بهذا المفهوم كفر لماذا لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]، فالطاغوت جعله في مقابل حكم الله فكل حكم بغير ما أنزل الله هو طاغوت سواءً كان الحاكم دكتاتوراً أو كان حكم حزب من الأحزاب أو كان حكم أغلبية أو كان حكم مجالس نيابية، المهم ما دام أنه ليس بحكم الله فهو حكم الطاغوت. فلذلك لا يمكن للإنسان المسلم أن يقول إنه يؤمن بالديمقراطية بهذا المعنى. لكن إذا قال لي إنسان أنا أريد ديمقراطية في حدود الإسلام سأقول له خلافي معك لم يكن في أصول الدين خلافي معك جزء منه لفظي يعني هناك بعض الناس عندهم حجة معقوله يقول الديمقراطية هذه قيدها الغرب بدساتير، الديمقراطية في حدود هذا الدستور، أنا أريد أن أقيدها بالقرآن والسنة كما أنكم أنتم عندكم دستور يقيد الديمقراطية وأنا أريد أن أقول الديمقراطية التي أريدها هي ديمقراطية في حدود كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

س/ وهذه الدساتير تختلف من مجتمع لمجتمع؟ نعم يعني إذاً هي تناسب مجتمعاتهم أو أنظمتهم؟

لا لا ما كل شيء يختاره الناس يعني أنه يناسبهم، وإلا لكان الكفر والضلال والفسوق يناسب الذين اختاروه، كل الأشياء التي تعجب الناس في الديمقراطية تقريباً يعني كلها لها أصول في الدين فأنا لذلك أقول لإخواننا الكلام الذي قلته، لماذا تعطيها هذا الشرف ما دام هذه عندك، يقول نحن لا نطبقها، طيب إذا كنت لا تطبقها وهي من عند الله فلن تطبقها لأنها ديمقراطية فمشكلتك ليست في النظرية ما دمت كتاب الله عندك وحولت الحكم إلى دكتاتورية وإلى كذا وكذا، يعني ما في مبدأ في الدنيا سواءً كان حقاً أو باطلاً يلزم الناس، الناس هم الذين يختارونه، فالديمقراطية مثلاً حرية التعبير ما في الإسلام حرية تعبير؟! بلى لأن ما في كلمة حرية

لكن الدين قائم على ما يسمى بالبراءة الأصلية يعني كل إنسان له حق أن يتصرف بالبراءة الأصلية إلا إذا قال الدين لا، أنا ما أقول أريد أن أشتري سيارة أذهب أسأل العالم أقول له اشتري مرسيدس أو، ربنا ما قال هذا، أنا أميز بين النظرية والتطبيق أنا معظم كلامي عن الديمقراطية النظرية أنها مبدأ ما طبق أصلاً ولا يمكن أن يطبق ولا في اليونان طبق وهذا أيضاً ليس كلامي أنا، استثنوا من الشعب ولا أدري من الذي استثنى استثنوا كل النساء والمنظمون والأرقاء والأجانب، الذين كان لهم الحق سُدس الشعب هؤلاء يجتمعون أربعين مرة في السنة يجتمعون، أنا حسبت وقلت لنفرض أنهم يجتمعون من الصباح إلى المساء عشر ساعات أنا حسبت وجدت كل واحد نصيبه منهم ثانية قال أحد كبار المنظرين الديمقراطيين دكتور "دال" وأضيف له كلاماً آخر أن الذين يتكلمون كانوا هم في الحقيقة القادة فقط والباقين يستمعون والذين يستمعون ويتابعونهم كانوا في الغالب من أهلهم أو أقربائهم أو أصدقائهم أو كذا، فالصورة هذه المثالية التي في ذهن الناس غير مطبقة، الديمقراطية المثالية هي الديمقراطية من الناحية النظرية هي التي يجتمع الناس كلهم فهذه لا يمكن أن تكون نظام حكم، ولذلك أنا من الأشياء التي تعجبني في كثير من الذين وضعوا الدستور الأمريكي كان كثير منهم أُناس عقلاء عندما جاءوا يضعون دستورهم ما قالوا نريد النموذج الفلاني أو النموذج الفلاني قالوا هذه بلادنا وهذه ظروفنا نريد أن نختار الشيء الذي يناسب معنا، فهذا هو الذي يناسبنا ليس هو الديمقراطية بعضهم قال كذا قال بعضهم الديمقراطية الحكم المباشر وحكمنا ليس حكم مباشر، فإذاً نظامنا جمهوري نيابي وليس ديمقراطياً قالوا لأنه لا يمكن الذي سموا نظامهم نظام ديمقراطي، ديمقراطية غير مباشرة لكن إذا كان غير مباشر إذاً هي ليست ديمقراطية.

س/ لكن هم قالوا "ليدمان" واشنطن وغيرهما قالوا بأنهم يخشون مما أسموه بالدكتاتورية الأغلبية؟

نعم وضعوا قيود كثيرة لذلك أقول إنهم كان كثير منهم كانوا عُقلاء أولاً قالوا لا يمكن أصلاً في بلد عدد سكانها ملايين ما يمكن يطبق إلا عن طريق النواب وحكم النواب ليس حكم الشعب، وقلت لبعض إخواننا في أمريكا إذا كان هذا حكم

الشعب إذا كل واحد من الشعب يكون عارف القوانين وإذا أنا لا أعرف القوانين يكون أنا وضعتها.

س/ الذي يعاب على الإسلاميين ما يأتي إذا انتقدتم أيها الإسلاميون الديمقراطية فأنتم تدعون إلى الدكتاتورية؟

إذا أنا ما رضيت حكم الشعب أرضى بحكم الفرد، أنا أرضى بحكم الله سبحانه وتعالى، نحن الآن نتكلم عن الناحية النظرية كيف نحكم كذا كذا أنا أريد أن أقول لك بعض الأشياء التي يريدها الناس في الديمقراطية هي عندي لا تقول لا نطبقها حتى إذا قلنا نظامنا ديمقراطي ربما لا نطبق نظام الديمقراطية كلها مثلا حرية التعبير، ما يسمونه حكم القانون، بالله يا أخي هل وجدت تطبيقاً لمبدأ حكم القانون أكثر من رسول يقول لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، أي حكم قانون أكثر من هذا حكم القانون هو حكم العدالة، طيب فهذا أنا لا أحتاج إلى أن آخذ حرية التعبير منه، لا أحتاج إلى أن آخذ حكم القانون منه، اليوم كنت أراجع كلاماً قرأته قبل مدة؛ أراجعه من أجل المقابلة عبدالرحمن بن عوف قال إنه كان في الحج وجالس مع عمر وجاء رجل وقال لأمير المؤمنين أكلمك عن فلان قال لو قد مات عمر لقد بايعت فلان مثل ما بايع عمر أبو بكر أنا كمان أبايع فلان نظر من الناحية الشكلية وغضب عمر إني قائم في العشية بالناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم حقهم وإنه إذا بايع رجل رجلاً من غير من مشورة المسلمين فلا يبايع هو ولا يبايع الذي بايعه، فأنا أيضاً لا أحتاج أن آخذ هذا منهم، فبعض الأشياء التي يربطها الناس أيضاً بالديمقراطية هذا الذي اختارته هذه الشعوب تصور أن شعباً يقال له أنت حر، الحكم لك فالديمقراطية ما فيها محتوى، الديمقراطية لا تقول لك أحكم بكذا ولا تحكم بكذا، تقول لك أنت في مكان الله جل وعلا فأنت لا تسأل عما تفعل فماذا يريد هؤلاء قالوا نريد حرية التعبير نريد حكم القانون نريد اختيار الحاكم ما كان عندهم أحزاب في البداية فقالوا نريد أحزاباً وجاء ناس عندنا لا يريدون أن يفكروا لا في الدين ولا في الدنيا لا يريدون التفكير لأن التفكير متعب يريدون شيئاً جاهزاً فالديمقراطية عندهم هي ما اختاره الشعب الأمريكي أو الشعب الإنجليزي أو الشعب كذا حتى لنفرض أن شعب من الشعوب قال الحكم لي، طيب أنا

أريد من الحاكم أن تكون دورته عشر سنوات تقول له أنت حكمك ليس ديمقراطياً فرنسا كانت سبع سنين غيرته إلى أربع سنوات الآن كل الناس يريدون أن يقولوا أربع سنوات، من الذي قال أربع سنوات يعني قانون طبيعي هذا الذي اختاره الناس، فأنا أريد للناس أن يكونوا أُصلاء حتى من الذين غير مسلمين هذه بلدك يا أخي كن إنساناً أصيلاً والله أنا أريد أن أفعل ما فعل الأمريكان أريد أن أختار لبلدي نوع الحكم الذي يتناسب مع قيم الناس ومع ظروفهم ومع عصرهم حتى مثلاً اختيار الحاكم، هل اختيار الحاكم يجب أن يكون بالطريقة التي يختارون بها هم؟ يكون بالمناسبة بهذا هم مختلفون بالطريقة وفي أشياء كثيرة أنت تعرف الديمقراطية الانتخابات التمثيلية والانتخابات كذا بل قالوا في تاريخ وضع الدستور الأمريكي إنهم كانوا في البداية يريدون أن يكون رئيس الجمهورية يختاره الكونجرس؛ لأنهم قالوا الشعب ما أدراه كم مليون يعني هذا صالح وهذا غير صالح.

س/ هناك أيضاً اتهام آخر بأن الذين يرفضون الديمقراطية يرفضون المجالس والانتخابات والتنويع والمؤسسات الحكومية؟

هذا جهل منهم لأنهم ربطوا الديمقراطية بهذه، ولأنه اعتبر أن رفض الديمقراطية رفضاً لهذه، بعض المدافعين عن الديمقراطية من اليساريين قالوا إن الانتخابات هذه غير مناسبة مع الديمقراطية هذا كلام الغرب أنفسهم ورأيه في غاية الوجاهة قال لأن الانتخابات هي تفترض أن في ناس يصلحون للحكم وفيه ناس ما يصلحون والديمقراطية تقول إن الحكم للشعب، طيب ماذا نفعل؟ قال نعمل بالقرعة كما كان الحال في الديمقراطية الاثينية ما كان في انتخابات أنت تريد أن تحكم وأنا أريد أن أحكم نختار والذي يطلع له يصير حاكماً. قال وانظروا إلى البرلمانات هذه لأنها بالانتخابات تجدون أن نسبة أصحاب المال نسبتهم أكبر، المتعلمون من الجامعات وكذا نسبتهم أكبر الرجال نسبتهم أكبر من النساء، لكن إذا صار بالقرعة سيأتي ناس من عامة الشعب، وستأتي النساء وسيأتي غير خريجي الجامعات وكذا، فالانتخابات ليست هي من لوازم الديمقراطية، بل هي ممن يتعارض مع الديمقراطية، لكن المقلدين عندنا يظن أنه لا يمكن أن تكون هناك ديمقراطية من غير انتخابات، فلنفرض أننا نريد انتخابات وقلت هذا الكلام لبعض إخواننا في السودان، الوسائل لها

علاقة بالأهداف، الانتخابات في البلاد الديمقراطية يشترك فيها كل الناس لماذا لأن الحكم لهم هم، أنا إذا جئت قلت الحكم لله ليس للشعب فكيف تكون انتخاباتي أضعها بحيث إن الناس يختارون من يرونه أجدر لتنفيذ حكم الله، فستكون وسيلتي مختلفة عن وسائلهم، وحتى بالنسبة للحكم كثير من إخواننا يحرجهم أن الخلفاء الراشدين ما اختارهم الشعب كله يعني أغلبهم اختارهم الصحابة الذين في المدينة وبعض رؤساء الأجناد وكذا، لكن على أي أساس عندما عمر رشح الستة ماذا قال عنهم ما قال هؤلاء أحسن من يمثل الشعب قال هؤلاء النفر الذي توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فأنا أختار من أرى أنه أجدر الناس من الناحية العلمية ومن ناحية القدرة لأنه ممكن أن يكون الإنسان عالماً ولكن ما عنده القدرة أو كما يقول علماء المسلمين ليس من أهل الشوكة لأن الحكم يحتاج إلى قوة وهذا هو السر أن الرسول ﷺ قال، - والناس يظنون أنها مسألة عنصرية وهي ليست مسالة عنصرية مسألة قريش هذه لأن الرسول حكى شيئا واقعياً- قال الناس تبع لقريش لأن مؤمنهم تبع لمؤمنهم وكافرهم تبع لكافرهم يعني هذه قاعدة فأنت لا تخالف الحقيقة هذه تروح تأتي بواحد ليس من قريش الناس لا يردونه فما يستطيع ينفذ حكم الله، لكن لو كان من بلد لا تعرف قريشاً فما ينطبق عليها هذا .

لا تشغل نفسك بالديمقراطية قل ماذا أريد لبلدي هذا، أريد كذا وكذا وكذا لماذا تسميه ديمقراطية أو تضع لنفسك نموذج تقول أنا اقتربت منه أو بعدت منه.

مسألة الشورى الناس عندما يكونوا مقلدين وتابعين ينظرون إلى ما عندهم بنظارات الآخر هذا يفتش هل نحن عندنا شيء يشبه ما عندهم، نعم عندنا الشورى إذاً نحن عندنا ديمقراطية، لكن الشورى ليست هي الديمقراطية الشورى جزء من الحكم الإسلامي وليست بديلا إسلاميًا هل الحكم بالإسلام كله شورى؟ لا إذاً الحكم ليس شورى لكن الحكم شورى في نطاق معين وبالمناسبة بعض الغربيين يقولون لا أقول إنهم أخذوه من الإسلام إن رفع الأيدي بالتصويت وحده هذا لا يكفي لابد من التشاور، وهذا الذي قاله الدين ويضربون عليه أمثلة علمية يقول لك أحضر خمسين شخصاً وأعرض عليهم قضية ويقال لهم صوتوا فترتفع أيدٍ وبعد المداولات تقل هذه الأيدي وتتضح صور ما كانت واضحة فهذا هو المقصود بالشورى المسألة التي

ليست بكتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ ومسألة جديدة نتشاور فيها وإذا واحد أعطانا دليلاً سواءً من الدين أو من الدنيا دليل فلن يكون هناك تصويت.

س/ كيف نربط بين كلامك إن الديمقراطية ترعرعت في ظل الديمقراطية وبين أن الديمقراطية ما عندها محتوى؟

الديمقراطية ما عندها محتوى يعني الديمقراطية لا تقول لك ينبغي أن يكون كذا وينبغي كذا، كل ما تختاره أنت وأنت حر في اختيارك فأنت مع الديمقراطية، إن في النظم التي كانت تسمى ديمقراطية في العالم العربي وكان هناك حرية تنظيم وحرية تعبير وكذا نعم ترعرعت الحركة الإسلامية، أقول لك شيئاً في أمريكا قلت لهم إن الأمريكان الآن يسمحون بالشذوذ يسمحون بالزنا لكنهم يعترضون اعتراضاً شديداً على مسألة الأطفال هذه: استغلال الأطفال جنسياً. قلت لهم حتى هذه غير مضمونه ممكن يأتي من يصوّت عليها وتلغى، فرفع أحدهم يده وقال الذي قلته نظرياً هو الآن حاصل إن بعض الناس الأن يطالبون بإباحة شذوذ الأطفال ومع أولادهم ويقول هذا ولدي ليس لك أي تدخل به، فالديمقراطية ما فيها محتوى هذا الفرق بينها وبين الإسلام، فعندما أقول حكماً إسلامياً ليس كما يقول بعض الناس ثيوقراطيه يأخذون الكلام من الغرب، الحكم الثيوقراطي ما هو بعض الناس يقولون نحن نتلقى الأوامر من الله هذا ما أستطيع أن أناقشه الناس تعالوا ناقشوا يعني كلام جاءهم من الله أنا ماذا أفعل، لكن أنا عندما أقول الحكم من الله هذا الكتاب وهذه السنة فالإسلام عنده محتوى.

س/ أنت قلت في خطبة جمعة ألقيتها في أمريكا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر والتي كان من تداعياتها أن اتصلت السلطات الأمريكية بالدكتور جعفر وأعطته مهلة شهر بأن يغادر أمريكا قلتم في خطبة الجمعة إن أمريكا ديمقراطية في الداخل ودكتاتورية في الخارج هل طردت بسبب هذا؟

والله ما أدري عن هذا أنا أقول لك شيئا قلته، قلت قبل ثلاثين عاماً لإخواننا في أمريكا لا تظنوا أن هذه الحرية في الكلام عن الإسلام ستستمر قلت لهم لا يمكن أن يرى الأمريكان هذا الإسلام ينتشر في بلادهم ويقولون نحن ناس ديمقراطيين واتركه

ينتشر، لابد أن تقيد، كان إخواننا يستغربون يقولون ماذا سيفعلون قلت لهم والله لا أعلم ماذا سيفعلون لكن ممكن يعملون جمعيات إسلامية كاذبه هم يعملونها وهذه الجمعيات تحرق كنايس وتعمل مشاكل ويجدون فرصة، وجاءت جماعة إسلامية حقيقية وحرقت أكبر من الكنيسة ووجدوا الفرصة .

س/ قلت أمريكا ديمقراطية بالداخل دكتاتورية في الخارج هل تقصد بالممارسات مع أنها تطالب البلدان العربية أن تطبق الديمقراطية في بلدانهم؟

هم يقولون لا بد أن تطبق الديمقراطية على شرط أن تكون تابعه لي وتبعي أليس هذا دكتاتورية؟ هذا كمثل شخص يقول لك أنا أحررك من الرق على شرط أن تكون تابعاً لي، أنت ما حررتني.

أنا عندي سوء ظن بالدعوة إلى الديمقراطية بالعالم الإسلامي، والله أنا في قلبي لا أعتقد أبداً ومنذ أن عرفت الغربيين يا أخي هل تتصور يضحون كل هذه التضحيات في العراق من أجل الشعب العراقي يتخلص من دكتاتور وتكون له حرية تدري ماذا أنا في ظني أنهم يريدون الديمقراطية بالمعنى الذي قلنا إنه كفر، عندما يدعون إلى الديمقراطية ليس المهم عندهم هو الانتخابات المهم عندهم أنك لا تحكم بما أنزل الله هذا هو الذي يهمهم؛ لأنك إذا ما حكمت بما أنزل الله صار ليس هناك فرق بينك وبينهم وانتهت المشكلة، فهم يعرفون أن معظم العالم الإسلامي لا يحكمون بما أنزل الله لكن هناك اعتقاد بأن الحكم بما أنزل الله واجب ولذلك يؤثر في الحكم يعني الحكومات.. في العالم العربي إن الحكومات العلمانية فيه ليست محاربة للدين مئة بالمئة أليس كذلك ؟ يعني ما يتصور الغربيون أن حكومة علمانية وعندها إذاعة للقرآن الكريم لو كانت الإذاعة إذاعة خاصة قلنا لا بأس لكن الدولة ترعى إذاعة للقرآن الكريم وتكون مسؤولة عليها وأيضاً مسائل الزواج والطلاق وكذا فنحن ما صرنا علمانيين بالمعنى هذا، وما صرنا دكتاتوريين. الحكم بما أنزل الله جعل الدكتاتورية في التاريخ الإسلامي محدودة جداً؛ لأن الحاكم لا يستطيع أن يقول للناس أن الربا حلال إلى بعد ما جاءت النظم الحالية، وما يستطيع أن يقول الناس تتزوج بالطريقة

الفلانية والطريقة الفلانية فمعظم القوانين التي يسير عليها الناس لا علاقة لها بالحاكم، فلذلك الدكتاتورية عندنا ما كانت مثل الدكتاتورية عندهم.

س/ أنتم أشرتهم إلى أن مفهوم الشعب نفسه مفهوم غامض؟

نعم الشعب هل يدخل فيه النساء، ولو قلنا إن الشعب هو كل الناس في إطار الدولة الوطنية هل هؤلاء هم الذين يحكمون؟! مستحيل أنهم يحكمون، مثلاً في أمريكا عملت إحصاءات الذين يسجلون لكي ينتخبوا هم أكثر من خمسين بالمئة بقليل، ثم إذا جاءوا للتصويت نقص هذا العدد ثم الشخص الذي يفوز على أكثر تقدير هو أكثر من نصف هذا النصف بقليل ثم تقول للناس إن هذا هو حكمكم وأنتم الذين تحكمون، لكن ينبغي ألا نقول إن الديمقراطية كما هي مطبقة في الدول الغربية ما فيها محاسن، هناك كتاب وأنا شاب قرأته كان عنوانه بيعة الرئيس، مصور الرئيس في علبة كوكا كولا، فالرئيس يباع للناس، القيود على الديمقراطية في الغرب كثيرة جداً جداً أقصد بالديمقراطية بمعنى حكم الشعب، كانوا يخافون ما يسمونهم دكتاتورية الأغلبية لذلك فعلوا شيئاً إلى الآن هو محل نقاش من الناحية النظرية لماذا؟ قالوا ديمقراطيتنا ليست ديمقراطية شعبية، وهذا صحيح وإنما هي ديمقراطية ليبرالية ما معنى ليبرالية أن هناك حقوقا للفرد ما يجوز حتى للأغلبية أن تتغول عليها فقال بعض المفكرين منهم مفكر ألماني مفكر قديم قال هذا تناقض أنت تقول الحكم للشعب وبعد ذلك تقول الشعب لا يجوز أن يفعل كذا من أنت الذي وضعت هذا القيد، هم يقولون إذا تعارضت مصلحة الديمقراطية مع الليبرالية من يقدم؟ يقدم الليبرالية لأن الليبرالية هي قيد على الديمقراطية، مثلاً الأغلبية في أمريكا من البيض لو كانت الديمقراطية بحتة يمكن هؤلاء البيض أن يقولوا بالتصويت والله نحن لا نريد هؤلاء السود أن يشتركوا معنا بالانتخابات، الليبرالية تقول لهم لا هذا حق للأفراد لابد منه، ولذلك قال بعضهم من الذين وضعوا الدستور الأمريكي قال كلمة طريفة قال الديمقراطية هي كمثل ذئبين وحمل يريدون أن يصوتوا على ماذا يأكلون في الغداء أكيد سيأكلون الحمل، والليبرالية هي حمل مسلح فإذا الحمل هذا لن يقبل برأي الأغلبية فالليبرالية قيد على الديمقراطية.

س: هاجم "بوش" قبل أيام الحزب الديمقراطي هجوماً عنيفاً، هل هناك إعادة نظر في التشكيل الديمقراطي؟

لا لا، أنا قرأت كتاباً، الذي كتبه اسمه "بوب" قال فيه "بوش: في حالة إنكار والكتاب تقريبا تسعة وتسعون منه أقوال للذين عملوا مع بوش وكلهم يتكلمون عن بعض وكلهم ينتقدون بعض ولا يكاد يجتمع منهم ثلاثة على رأي خصوصاً في مسألة حرب العراق، فهم الآن لا يدرون ماذا يفعلون أنا حتى لا أدري إذا جاء الديمقراطيون ماذا سيفعلون إذا استمررت فيها فكل يوم يموت بعض الناس فهم لا يريدون هذا لا يمكن أن يستمر الآن سنة كاملة لو مات كل يوم واحد تعتبر خسارة كبيرة بالنسبة لهم هل ينسحبون خسارة كبيرة أيضاً فهم صاروا في ورطة ما أدري ماذا سيفعلون ربما أنا سمعت في الأخبار يقولون للعراقيين الحكومة العراقية أنتم المسؤولون بسرعة يعطوهم المسؤولية ويخرجون من العراق، ويرى بعض الأمريكان أن هذا يؤدي إلى حرب أهلية في أمريكا ما لها علاقة بمسألة الحكم الديمقراطي وكذا وكما قلت لك هم أصلاً حكمهم ما كان يسمى حكما ديمقراطياً حتى قال أحد الأمريكان إن كلمة الديمقراطية لم ترد في أي من الوثائق الثلاث التي تُحكم بها أمريكا ليس موجودة في الدستور ولا موجوده في إعلان حقوق الإنسان ولا في إعلان الاستقلال أبداً، ولذلك كانوا يقولون جمهورية نيابية لا ديمقراطية والحزب الديمقراطي اسم فقط. وهناك شخص من أصل هندي عنده كتاب اسمه مستقبل الحرية وهو يعتبر من كبار المفكرين المحافظين الآن في أمريكا يرى أن الحرية أهم من الديمقراطية وأنه ربما لو أعطي الناس فرصة للديمقراطية سيأتي الإسلاميون في العالم العربي، وبالتالي لا تكون هناك ليبرالية فأحسن لنا حكم غير ديمقراطي وفيه ليبيرالية بالنسبة للنساء وكذا ولا حكم بالانتخابات وليس فيه ليبرالية لأن الليبرالية عند بعضهم أهم من الديمقراطية.

نحن نشغل الغرب بالبديل الذي عندنا ونشغلهم كثيراً وهم مشغولون بنا شغلاً كثيراً لكن ليس في قضية سياسية، وأنا في رأيي الآن مشكلتهم الأساسية معنا هي ما شغلناهم به في مسألة الدين، لأنهم بالرغم من كل الكلام الذي يقال عنا ومن

تخلفنا وهو تخلف من ناحية العلوم الطبيعية والتقدم التقني شيء مزري والشخص يستحي أن نكون بهذا القدر من الضعف، لكن بالرغم من هذا عندها شيء تقدمه للغرب والناس يقبلون عليه. والله أذكر أحد الذين هداهم الله يقول الحمد لله أنني أسلمت في أمريكا وليس في العالم الإسلامي! أنا أرى أن كثيراً من إخواننا الذين يأتون من العالم الإسلامي وهم مندهشين بالعمارات والسيارات والصناعة وأنا عشت في بلدي وهذا شيء طبيعي ليس مبهوراً به، عندي الآن هذا الدين وهو أعز هو هذا الدين وهم هذه المسألة التي تخيفهم وتسبب لهم مشكلة مع هذا الانتشار للإسلام ببلادهم أذكر أيضاً واحدة في حوار كان القشة التي قصمت ظهر البعير كان حوار في إحدى الجامعات وكانوا مؤدبين وناقشوني لمدة ساعة، فواحدة قالت لي أنا أحب الإسلام لكني ما أحب للنساء الأمريكيات أن يلبسن الحجاب. قلت أنتِ أليست ديمقراطية قالت نعم. قلت: فلنفرض أن أغلبية الناس قالوا نرغب بلبس هذا، فضحكت وسكتت لكن أنا متأكد أعتقد اعتقادات الناس أهم وقيمهم هي أهم من الديمقراطية.

س/ ما تعليقكم على تراجع عدد المقترعين في الولايات المتحدة ؟

تراجع المقترعين في الانتخابات هو ضمور في الديمقراطية خصوصاً في أمريكا هذا كلام صحيح حتى كتبت كتاب لماذا لا يصوت الأمريكان حتى سؤال بعضهم لماذا لا تصوت قال أنا لا أرى فرق بين الجمهوريين والديمقراطيين، أمريكا هذه فيها ما يقارب ثلاثمائة مليون ما فيها إلا حزبين هذا معقول المفروض يكون فيها ثلاثمائة حزب وكتبت بالمناسبة كتباً في هذا لماذا لا يصوتون.

س/ وهل طلب الغرب بتطبيق الديمقراطية في العالم الإسلامي ليس جاداً؟

ليس المطلوب في العالم الإسلامي تطبيق الديمقراطية بحد ذاتها وبشكل جاد لخوفهم من ظهور البعبع الإسلامي. أنا في رأيي ليس المقصود منها انتخابات ولا كذا وإنما المقصود محاربة الذين يدعون إلى الحكم بما أنزل الله، لذلك لابد لنا أن نقول لهم نحن نريد أن نحكم بما أنزل الله لكن نريد أن نوضح الصورة هذه؟ لا يكفي أن نقول للناس نريد أن نحكم بما أنزل الله فقط، هل لو حكم بما أنزل الله سيعطى الناس الحرية في إطار القانون؟ هل ستسمح لنا أن ننتخب حكامنا الناس عندهم أسئلة فلا بد أن تكون هناك إجابات واضحة.

س/ تعليقكم على عبارة المشروع الديمقراطي في الوطن العربي إنما هو توسيع للنطاق الأيدلوجي للولايات المتحدة؟

كل إنسان يؤمن بشيء يريد أن يحققه فأنا أجيء وأقول لماذا يدعون إلى الديمقراطية في بلادنا، كما أنت تدعو إلى الإسلام في بلادهم هو أيضاً يدعو إلى هذا في بلدك لكن يصل الأمر أحيانا إلى نوع من الغربيين عندهم عيب كبير، كثير من الناس لا يعرفون الغربيين عندهم نوع من الانغلاق الفكري، يظنون أن كل شيء لا بد أن يكون مثل ما عندهم، يعني إذا نظروا في التاريخ الإسلامي يقولون لك إن المسلمين ما حصل عندهم حركة تنوير مثل ما حصل عندنا، ولذلك قال "فوكوياما" كلمته المشهورة وإن كان قال الآن تنازل عنها : إن العالم كله سائر نحو الطريق الذي نحن انتهينا إليه نهاية التاريخ في هذه المسألة وهي الديمقراطية الليبرالية في الحكم والرأسمالية في الاقتصاد.

س/ هل الديمقراطية الإسلامية ممكنة؟

لا تستعملوا كلمة ديمقراطية إسلامية لماذا تعطونهم هذا الشرف، قولوا نحن نريد كذا نريد كذا ولا تنسبها للديمقراطية..

س/ هل الكلام عن الديمقراطية هل يعني تأييداً للدكتاتورية؟

الكلام عن الديمقراطية بالنسبة للذي نقوله لا يساوي شيئاً بالنسبة للذين يكتبونه يمكن ما يكتب عن الديمقراطية في الغرب أكثر من الذي كتبناه عنها ولا يزال يناقشوننا أنا الذي دعاني للاهتمام بها أن الديمقراطية بغض النظر عن الإسلام والحركات الإسلامية وغيرها إن الديمقراطية نفسها فيها مشكلات الناس لا يعرفونها ليست منتشرة بينهم لكنها منتشرة بين المفكرين، وأرجو أن يكون إذا كتبت هذا الكلام أن يكون مفيداً حتى لغير الإسلاميين، أنا أريد للناس أن يكونوا أحراراً، أن يفكروا أن يقولوا والله لو اختار الأمريكان لأنفسهم هذا فلماذا لا نختار لأنفسنا كذا وكذا وكذا.

س/ وهل الدعوة للديمقراطية صورة من صور الاستعمار؟

أنا لا أقول إن الديمقراطية صورة من صور الاستعمار لكن دعوتهم إلى الديمقراطية دعوة إلى أن يكون الحكم مثل حكمهم بل ليس هذا فقط ولذلك كثيرون منهم يقولون إنه إذا صار حكماً ديمقراطياً حقيقيًا فهذا ليس من مصلحة الغرب؛ لأنه يضر

بمصالحهم عندما فازوا في الجزائر وقفوا كلهم ضد نتائج الانتخابات؛ لأنهم قالوا إذا فاز الإسلاميون ستكون هذه الانتخابات الأخيرة، وعندما فاز نجاتي في إيران كتب أحدهم يحذر الأمريكان، قال لهم الذي حدث في إيران سيحدث أيضاً في البلاد العربية إذا كان فيها انتخابات فلا تقولوا لي إن الانتخابات في إيران كانت مزورة، لم تكن مزورة هذه انتخابات حقيقة وأتت بهذا النوع من الناس، وأذكر قبل سنين طويلة جاءت جماعة من الأمريكان قالوا إنهم قابلوا بعض من تأثر بالفكر الغربي، وكتبوا عن هذا قال العلمانيون السعوديون قالوا نحن لا نريد انتخابات في هذا الوقت؛ لأنه إذا جاءت الانتخابات سيأتي المطوع، المهم بالنسبة لهم ولا ننسى هذا يا إخواني هو ما يسمونه بالمصلحة الوطنية لأمريكا لذلك بوش يتكلم لكم أنتم بصوت للناس، ويتكلم لناس في أمريكا بشيء يقنعهم أن هذا لمصلحتنا، وأن العراق خطر علينا، وأن هناك علاقة بين صدام وبن لادن ويكلمهم على أساس المصلحة الوطنية للولايات المتحدة.

لا تخلطوا يا إخوان بين الوسائل التي اختارتها أمريكا وبريطانيا لتنفيذ الديمقراطية وبين مفهوم الديمقراطية هذه وسائل للديمقراطية، والتقليد لن يعيننا على اختيار البديل، التقليد كسل فينا يقولون نحن أوضاعنا دكتاتورية نريد نظام الغرب، الغرب ما قال هذا ما قال أعطونا من اليونان من السودان هم جلسوا وفكروا وأنت أجلس وفكر؛ لأن بعض الأشياء حتى لو كانت في نفسها حسنة قد لا تناسب الظرف الذي أنت فيه، يعني يكون ضررها أكبر. أنا أذكر بعض إخواننا في العالم العربي مرة كان جاءته فرصة للانتخابات، والبلد فيها قبائل وكذا. قلت لهم أنا والله لو في مكانكم ما أعمل انتخابات بالطريقة الغربية هذه، وبعدها أعمل فتنه بين الناس وهم قبيلة واحدة لأن من الأشياء المهمة في السياسة الاستقرار وهو هدف كبير في السياسة قولوا للقبائل أنتم اختاروا ناسكم كل جماعة قبيلة تختار بالطريقة التي تريدها وكفى فلا يلزم الانتخابات.

* * *

قرار شيرك والحرية الدينية

حوار الدكتور جعفر في قناة المجد

س/ لماذا بين الحين والآخر نلحظ أن قضية الحجاب تترد وبالذات بالمجتمعات الغربية إلى اعتبار الحجاب أمراً عدوانيًّا وهذا عبر به الرئيس الفرنسي في تصريح له ما تفسير هذه المفارقة؟ لماذا تدار هذه القضية باستمرار وبالذات بالدول الغربية؟

الدكتور جعفر: لسببين أو ربما أسباب كثيرة. الذي يخطر ببالي الآن سببان أولاً هي المظهر شيء مهم جداً يقول بعض علماء النفس: إن المجتمع يمكن أن يتحملك إذا خالفته في الرأي، ولكن لا يتحمل أن تخالفه في المظهر، ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية إن الله سبحانه وتعالى ما فرض على المسلمين الهدي الظاهر وهم في المجتمع المكي، لأنه من الصعب على الشخص أن يخالف الناس، سواء كان في مجتمع ديمقراطي أو غير ديمقراطي الناس لا يريدون من يخالفهم ولا يريدون أحد أن يخالفهم، ولذلك أنا أعتقد أن أخواتنا اللاتي يلبسن الحجاب هن في الحقيقة فوارس، هذا شيء يصعب جداً على الإنسان أن يخالفه، يعني جرب أنت في المجتمع السعودي غير شكلك والبس قبعة، الناس لا يتحملون هذا السبب الأول، السبب الثاني قضية المرأة هذه منذ زمن طويل وهم كأنهم يعتقدون أنها المدخل لتغيير العالم الإسلامي قضية المرأة وكل ما يتعلق بها، والمرأة عندهم متعلقة بالجنس والجنس شيء مغري بالنسبة للناس، وما من إنسان إلا وفيه ضعف من الناحية الجنسية هذه، فيريدون أن ينفذوا عن طريق المرأة إلى تغيير الأفكار وهناك تجد بعض المسلمين معهم يعني المفارقات التي حصلت في فرنسا أن بعض اليهود والكاثوليك احتجوا على القرار، وقالوا رأينا أنه لا يصدر قرار مثل هذا طبعاً ربما كانوا يدافعون عن أنفسهم لأنها من مصلحتهم، وأيدته بعض النساء المحسوبات على الإسلام، ومن أسوأ ما قلن الكلام يعتبر كفراً أن هذا رمز لإذلال المرأة، وأذكر بالمناسبة هذه أذكر قيل لي أنا ما رأيت المرأة، امرأه أسلمت وكانت عارضة أزياء في أمريكا أو كندا ثم تحجبت وقالت للناس هذه أول مرة أشعر فيها أنني ألبس لباس يخصني أنا باعتباري أمرأه، قالت في السابق كل ما نفعله عرض لجذب الرجال، أما الآن فأنا ألبس هذا وأقول للرجال لا علاقة لكم بي، فالحجاب ليس أمراً سهلاً وفيه نوع من التحدي.

س/ لكن ما تلاحظ أن هذه من المفارقة بين هذه الدول التي ترفع شعار الحرية شعار الديمقراطية شعار العلمنة، وبين التدخل الصريح في صميم العقائد والحريات الشخصية في تباين واضح إلا إذا كان هناك تفسير لم يظهر؟

الدكتور جعفر: أنا أرى أننا نحن في العالم الإسلامي والعربي كثيراً ما نتوقع من الديمقراطية ما ليس فيها، ما الديمقراطية؟ الديمقراطية هي حكم الشعب الديمقراطية لا تلزم أي شعب بأي مبدأ ولا قيمة ولا ولا تقول للشعب أنت الحاكم واختر لنفسك ما تريد، هذه الديمقراطية المبدأ، هذا المبدأ يأخذ شكلاً معيناً في الشعب هذا وفي الشعب هذا وفي الشعب هذا فالدمقراطية ليس لها محتوى، يعني مثلاً عندما تقول مثلاً حكم إسلامي هذا لها محتوى تقول الإسلام هو هذا القرآن و السنة ربما حتى لو قلت حكما نصرانياً عندهم مرجع حكم شيوعي عندهم مرجع، الحكم الديمقراطي ما عندهم مرجع الشعب هو السلطة العليا، وما يختاره الشعب هو الديمقراطية، أنا كنت أقول لأناس في أمريكا يعني الآن يمكن أغلبية الناس تقول كل إنسان عمره في مثل عمر جعفر هذا يقتل هذا قرار ديمقراطي، لو صوتوا عليه ونجح ممكن أن يكون هذا قرارا ديمقراطياً، فالديمقراطية لا تلزم بخلق ولا تلزم بدين ولا تلزم بأي شيء، أنت يمكن أن تعترض على هذا القرار وتقول هذا القرار مخالف للدين أو مخالف للخلق، لكن لا تستطيع أن تقول أنه مخالف للديمقراطية ما دام الإجراء فيه كان إجراء تصويت.

س/ هل تم إجراء قرار الحجاب بهذه الصورة ؟

الدكتور جعفر: نعم لأن الديمقراطية حسب ما اختارته فرنسا أن الديمقراطية رئاسية كما هي في أمريكا وأن هذا الحاكم يمثل الشعب هو يمثل الشعب، فبحسب نظامهم الديمقراطي هذا فالمبدأ الذي يقول الحكم للشعب صورته في فرنسا هي هذه أن هذا الرئيس والمجالس هي التي تمثل الشعب، فهذه المجالس رأت أنه من مصلحة الشعب الفرنسي أن يحافظ على هذا، وعندهم شيء آخر ليس الديمقراطية فقط نحن نريد ديمقراطية علمانية، ديمقراطية ولكن مبدأه هو العلمانية فنحن الشعب الفرنسي الديمقراطي اخترنا لأنفسنا العلمانية، ولذلك نريد أن نحافظ على هذه العلمانية من كل المخاطر، التناقض أين لو أن أُناسا قالوا نحن الشعب السعودي اخترنا لأنفسنا

الإسلام ونريد أن نحافظ ونحمي الإسلام من كل شيء يشكل خطراً عليه قيل لنا هذا يتناقض مع الحرية، هذا يتناقض مع الديمقراطية، وهذا كذا، فهو كيل بمكيالين، لكن حتى الكيل لا يتناقض مع الديمقراطية هذه المشكلة لأن أنا يمكن أن أقول نحن شعب ديمقراطي ونرى من مصلحتنا أن تكون الديمقراطية في بلدنا، ولكن ليس من مصلحتنا أن تكون ديمقراطية في مصر مثلاً، فلذلك لا ندعو إلى الديمقراطية في مصر الآن إذا كانت ديمقراطية النتيجة ستكون ضدنا فلذلك لا ندعو إليها بل ممكن أن نعرقل سيرها، وهذا لا يعتبر مخالفاً، من الكتب التي قرأتها حديثاً وأتيت ببعض منها أن صاحب الكتاب هذا الكتاب نشرته جامعة عن حقوق الإنسان جامعة كريستون فيقول "رميل روسفل" زوجة روسفل هي كانت رئيس اللجنة التي كتبت حقوق الإنسان، وأن أمريكا ظلت منذ ذلك الوقت تنشر مبدأ حقوق الإنسان في العالم لكن أمريكا لا ترى أن هذا ينطبق على الأمريكان ولا على المؤسسات الأمريكية، وإنما ينطبق على الآخرين خارج المجتمع الأمريكي قالوا مثلاً مبدأ قانون الإعدام قال يمكن إن بعض الأوربيين أو الكنديين أو كذا يقولون لنا إن قانون الإعدام هذا يتناقض مع حق الحياة الوارد في البند الثالث من حقوق الإنسان، قال لكن معظم الشعب الأمريكي سيقول لكن هذه العقوبة هي التي ارتضاها الشعب الأمريكي وعبر عن هذه ديمقراطياً، فإنها مقبولة وأن الكلام عن حقوق الإنسان كلام ما له علاقة بالموضوع وهذا تطفّل و تدخل في شؤوننا ومن الغرائب أيضاً أن الولايات المتحدة قراراتها كلها لا تسري عليها بحسب دستورهم إلا إذا أجازها الكونجرس الأمريكي بينما هي تلزم بها الآخرين لكنها لا تلتزم به، أنا في أحد الاجتماعات حضرنا في بعض الجلسات قلت لهم انظروا نحن بالنسبة للقرآن مثل دستوركم هذا بالضبط فلا ترون في موقفنا شيئاً غريب نحن أيضاً نقول نحن غير ملزمين بأي قرار مالم يوافق القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فأمريكا يعني أنا في رأيي أن الدول الغربية هذه لا يكفي أن نعرف سياستها فقط لا بد أن نعرف نفسياتهم وطريقة التفكير وكذا، يعني صاحب كتاب أخر يقول إن الأمريكان يعتقدون فعلاً أن مصلحة أمريكا هي مصلحة العالم، ويقول إن "روزفلت" قال "لجيفتن" بعد الحرب العالمية الثانية: ما دام أمريكا تسلحت ما يحتاج الدول

الأخرى تتسلح، بل يجب أن ننزع السلاح من كل الدول ما دام أمريكا متسلحة فلا تستغربوا في القرارات، وكثير من إخواننا حتى من غير المتدينين في العالم الإسلامي هم متأثرون بروح الدين فيفكر بالديمقراطية كأنها دين، ويظن أنه إذا كنت أنا ديمقراطي في بلدي فيجب أن أدعو للديمقراطية كما لو كنت مسلماً أحب الناس الآخرين أن يكونوا مسلمين لكن ليس هذا صحيحاً.

س/ أنت تشير الآن إلى النزعة العنصرية وجه آخر للديمقراطية ممكن أن يفهم هذا من كلامك؟

الدكتور جعفر : حسب البلد؛ حسب ثقافة البلد.

س/ دعنا نتحدث عن فرنسا مثلاً باعتبار هذا القرار يعتبر تدخلاً صريحاً في الحريات الشخصية وإن كان مر بالفلترة الديمقراطية كما تذكر؟

الدكتور جعفر: نحن ربما إنصافاً لهم نقول هناك كان حزب عنصري ما فاز بالانتخابات والناس وقفت ضده، هو دفاع عن العلمانية، ولماذا في فرنسا بالذات لأن نسبة المسلمين كبيرة؛ فهم يشعرون بالخطر أكثر مما تشعر به دول أخرى، يعني مثلاً سمعت بالأمس إحدى السيدات في بريطانيا قالت نحن لا يمكن أن نفعل شيئاً كهذا؛ لأننا نحن كذا وكذا، فأنا ضحكت، قلت أبداً غير صحيح إذا كان عدد المسلمين صار كبيراً مثلاً نسبة المسلمين في فرنسا أكبر من بريطانيا و لذلك عمل القرار كلما زادت نسبة المسلمين كان الأولى أن يعمل مثل هذا القرار، وأنا كنت أقول لإخواننا كثير منهم يذكرون الآن منذ عشرين سنة كانوا يقولون نحن الآن في أمريكا وعندنا حرية ولا توجد في أي بلد إسلامي، وأن الإسلام سينطلق من هنا من الولايات المتحدة الأمريكية، فأنا أضحك أقول لهم نعم عندكم حرية الآن لأنكم غير مؤثرين وهكذا أيضاً كانت في كثير من البلاد العربية كانت ديمقراطية وترعرعت الحركة الإسلامية في ظل الديمقراطية، وإذا بدأ التأثير وقفت هذه الديمقراطية، وهناك لا تكونوا مغفلين يعني أنتم تظنون أن الأمريكان أو الإنجليز أو كذا يقولون نحن ديمقراطيون وسنقف وننصر الإسلام ليخطو خطوات واسعة، وبريطانيا تتحول إلى دولة إسلامية أبداً، وكلام شيراك الآن ما كان يدافع عن الديمقراطية، كان يدافع عن العلمانية لأنها هي التي اختارها الشعب الفرنسي.

س/ لكن أنا ما زلت مصراً على أن أثير قضية أن العنصرية وجه صريح في فرنسا ظاهر مثلاً ما تكتبه الصحف الليبرالية المتطرفة جداً باعتبار المسلمين أعداء وتحقير الأجانب وهذا ظاهر بالصحف اليمينية المتطرفة الفرنسية كثيراً..

الدكتور جعفر: نعم إلا أن يربط الإنسان بين الدين والعنصرية؛ لأن المسلمين في فرنسا فيهم عرب، فإذا قلنا عنصرية يكون معناها أنهم ضد العرب وليس ضد الإسلام فقط، الدين كما يرون هم في ثقافة المسلمين وينبغي أيضاً أن نذكر ما كل تصرف أو مظهر يحسب على المسلمين ويكون نابعاً من الدين الإسلامي وإلا تكون كارثه هذه، يعني كثير من اللصوص وتجار المخدرات فيهم مسلمون، الظلم ماذا إذا رأى مسلم يفعل هذا قال الإسلام لكن إذا رأى يهودياً يفعل هذا لا يقول اليهودية أو يرى نصرانياً يفعل هذا لا يقول النصرانية لكن إذا عدد من المسلمين ضربوا مبنى في أمريكا أو البلد كلها الذي جاء هؤلاء منها كلها ارهابيون، أنا لا أقول إنه لا يوجد عنصرية الفارق بين ما يسمى بالمصلحة الوطنية والعنصرية يعني ضئيل، بالنسبة للفرنسي المواطن الحقيقي ليس هذا الذي جاء وأخذ جوازاً فرنسياً أو كذا، المواطن الحقيقي هو الفرنسي الأصل عن أب وجد وكذا هذا هو الفرنسي الأصلي، أما هؤلاء يعنى تحملناه لمصالح لكن ليس هم الفرنسيون الحقيقون، فالفارق بين الوطنية الشديدة والعنصرية فارق بسيط.

س/ لكن إيصال قضية الحجاب للمحاكم الفرنسية هل فيه نزعة ظاهرة بينما لا يتخذ نفس الإجراء في لباس الراهبات فلهن لباس معين وأشبه ما يكون بالحجاب؟

الدكتور جعفر: بحسب القرار الآن أن هذا ينطبق على أي إنسان سواء كان مسلماً أو غير مسلم يظهر بمظهر يدل على دينه في المدارس الحكومية، ما قال لا تلبس الحجاب في الشارع، ما قال لا تلبس الحجاب في مدرسة خاصة أنت مخير، لكن هذه المدرسة التي تصرف عليها الدولة العلمانية، ليس لك الحق، وهذا يتناقض مع المبدأ العلماني ونصرة للدين سواء كان ديننا نصرانياً أو إسلامياً، لذلك لا يشمل هذا الرأي في الكنائس، ولا المسلمين في المراكز الإسلامية، ولا الشوارع حسب مافهمت.

س/ هل يمكن أن يقال إن هذا القرار حد للحريات وليس قراراً ديمقراطيًا ؟

الدكتور جعفر: أنا أستغرب عندما يقول بعض إخواني إن هذا القرار ليس ديمقراطياً لا يكون ديمقراطياً إذا توصل إليه بطريقة غير ديمقراطية، أما كل قرار

يتوصل إليه بطريقة ديمقراطية فهو ديمقراطي، سواءً كان مخالفاً للإسلام أو مخالفاً للمسيحية أو مخالفاً للخلق أو مخالفاً للدين فهو ديمقراطي، لأن كثيراً من إخواننا حتى من الأمريكان أنفسهم يخلطون بين الديمقراطية المبدأ الذي يقول الحكم للشعب والسيادة للشعب، والديمقراطية كما هي مطبقة في مكان وزمان معين، كنت مرة أقول هذا الكلام في أمريكا، وقلت إن الأمريكان الآن يستفظعون الاعتداء على الأطفال، ما عندهم مانع الزنا بين الرجال والنساء ما داموا متراضين لكن يستفظعون الاعتداء، وقلت يأتي وقت من الأوقات ويباح هذا، فوقف أحد الإخوان وقال بالمناسبة هناك جماعات الآن تدعو إلى هذا وتقول ما الفرق بين الكبار والصغار، فمن الناحية النظرية كل شيء مهما كان فظيعاً هو ممكن من الناحية الديمقراطية، ولذلك بالمناسبة الديمقراطية فيها مشاكل كثيره مع الأسف كثير من الناس لا يعرفون، ولذلك الذين وضعوا الدستور الأمريكي أعقل من الذين جاءوا بعدهم ما كانوا يريدون الديمقراطية التي يسمونها الديمقراطية الخالصة، ولذلك قالوا نحن نريد ديمقراطية ليبرالية، ما معنى ليبرالية أي التي تتكلم عن حقوق الإنسان وكذا وكذا، لكن نشأت مشكلة قالوا أنتم الآن تقولون السيادة للشعب ولكن في الوقت نفسه تقولون إنه لا يحق للشعب أن يعتدي على الحريات، من الذي قال لا يحق له كأنكم تفترضون أن هناك قوة أكبر من قوة الشعب وإلا صار الكلام متناقضاً، وأحد الألمان كتب قبل مدة كتاباً عن تناقض الديمقراطية الليبرالية وأثار ضجة وما حلت المشكلة إلى الآن، وأنا في كثير من المؤتمرات عندما يأتي موضوع حقوق الإنسان أقول لهم من الذي أعطى الإنسان هذه الحقوق ؟ قالت واحدة متخصصة: هذا إجماع، طيب أنت قبل قليل قلت إن بعض المسلمين تحفظوا عليه فكيف الآن تقولوا إجماع؟ طيب هو إجماع متى كان الإجماع هذا في وقت من الأوقات يمكن الآن بعض الناس يقولون غيرنا رأينا مشكلتهم الآن رغم الضجيج الكبير عن الديمقراطية مالها أساس كان أساسها الدين قالوا لا نريد الدين كانوا يقولون شيئاً طبيعياً فصارت الحجة واهية هل الطبيعي أن الرجل يتزوج رجلاً. خرجوا عن الطبيعي، فما أصبح لها أي أساس تعتمد عليه غير أن هذا هو الذي اختاره الغرب الآن، ولذلك صاروا يقولون عن كل شيء يدعون إليه يقولون هذا ليس خاصاً في الغرب ليس هذا ثقافة محلية هذه مسألة إنسانية، أنا إنسان ولا أريده.

بالنسبة لكلام الأخ، أمريكا مختلفة عن بعض البلاد الأوروبية بلد أصلاً تكونت من أجناس مختلفة وثقافات مختلفة ومازالت أبوابها مفتوحة، وأصل تكوينها من شعوب مختلفة ولو كان في الغالب اللغة الإنجليزية يعني مثلاً اللغة الإسبانية لغة مهمة جداً في أمريكا هذه واحدة الشيء، الثاني أن أمريكا إذا ما استعلمت القوانين تستعمل سياسيات، وأنا لا أريد في الحرية الدينية أن تفهم فهماً ضيقاً، قال لي أحد النصارى قبل مدة: لا تخدعوا كما خدعنا، نحن كنا نعتقد أن العلمانية محايدة ثم وجدنا أن العلمانية في الحقيقة صارت دينا معادياً للأديان، قلت له شكراً لك لأن هذا في ذهني، لأنه لا يمكن للدولة لا يكون لها دين بالمعنى العربي كلمة دين لأن هذا له دين وهذا له دين (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) يعني قوانينه، وكذا لا يمكن لدولة ما يكون لها منهاج حياة لأنها لابد أن يكون لها رأي في الاقتصاد، لابد لها رأي في العلاقات الخارجية على أي أساس تعمل قوانينها وكذا، فالكلام على أن العلمانية تعطي للأديان حرياتها ليس بصحيح، قال بعض المفكرين المتدينين قال نعم تعطي الحرية للدين بمفهومها هي للدين، لكن العلمانية نفسها ما هو الدين تعطي الحرية على هذا الأساس.

س/ دكتور هو أشار إلى موضوع مهم إلى هذا الجانب هو ما يتعلق بالمسؤولين الأمريكيين باعتبارهم تحدثوا عن هذه القضية بالمفهوم الديمقراطي نفسه في المعارضة، والمسؤولين الأمريكيين حذروا جاك شيراك من هذا الأمر ومن مغبته ومخالفته للديمقراطية.

الدكتور جعفر : لا يمكن أن نقول خالف الديمقراطية، حتى نحن أنا في رأيي عندما نعترض على هذا الكلام معهم على أساس أن هذا ليس ديمقراطية وكذا غير مقنع نحن نقول لهم أنتم تريدون مصلحة بلدكم وعندكم مصالح في العالم الإسلامي هذا هو المنطق الذي يفيد، تريدون مصلحة بلدكم وفي إمكانكم أن تصدروا قرارات ديمقراطية في مصلحة بلدكم، ولا تتعارض مع ما يريده المسلمون، هذه الحجة التي تنفع.

ممكن أيضاً المتشائم أن يقول وهي نجحت في العالم الإسلامي ونحن موقفنا لو كنت فرنسياً لقلت للمسلمين أنتم متناقضون أنتم عندكم بلاد إسلامية سبقتنا إلى هذا

ومنعت الحجاب ليس في المدارس فقط منعت في القنوات الفضائية، ومنعت الموظفات ومنعت أساتذة الجامعات، منعت في بعض البلاد حتى السير بالشارع يعني فرنسا أحسن في مثل هذا ونحن سكتنا لأن هؤلاء عرب، لو كنت فرنسياً لقلت أنتم متناقضون. أيضاً هذا كلام صرنا نقوله منذ سنين سواء فرنسا أخرجت قوانين أم لم تخرج ما دمت أنت مثل الكلام الذي نسب للبابا كلام صحيح إذا كان المسلمون مهما كانوا هم أقلية، وابنك يذهب إلى المدرسة وإذا عاد من المدرسة يلعب مع أطفال غير المسلمين، ويشاهد التلفاز، ولذلك الاستمساك بالدين يكون بالجيل الأول، الجيل الثاني يكون أضعف، الجيل الثالث ربما يذوب، وهذا حدث في كل بلدان العالم، في أستراليا أذكر أننا قابلنا بعض الناس أحفاد المسلمين الذين جاءوا إلى أستراليا، فواحد يقول لي ماي فاذر موم يعني جدي اسمه محمد يعني حتى الكلمة محمد إلى موم، فأنا في رأيي أنها تقريباً معركة خاسرة، ولا يمكن للمسلم أن يعيش في مجتمعات غير مسلمة، كثير من المسلمين الآن المتدينين والله أود أن لو خرجوا من بعض البلدان الغربية، بسبب أن المجتمع غالبيته من المسلمين، الآن في أمريكا مثلا مشكلة كبيرة يعني البنات يأتين إلى المدرسة لا تكاد تلبس شيئاً ومدارس مختلطة وهؤلاء من حسنات هؤلاء المتعصبين دينياً أنهم الآن يقولون إنه يجب أن يسمح بالعزل، إذا كان الناس في منطقة معينة يريدون لأبنائهم أن لا يدرسوا مع البنات لماذا لا نعطيهم هذا الحق، الليبراليون يقولون لا، فهي سواء صدرت قوانين أو لم تصدر معظم المسلمين في الحياة الغربية.

س/ أ.د. زيد العز أشار قبل قليل إلى لغة الأرقام واعتبرها هي مؤشر الخطر في هذه القضية، وصدر حديثه بالمثل الفرنسي ليس هذا ضربة سيف بنا كأنه يشير إلى أن هذا الأمر خطير وأن القرار له أبعاد أخرى، وأنه ربما تكون فرنسا جس نبض لبقية الدول في موقف الإسلامي؟

الدكتور جعفر: الكلام الذي قاله صحيح، أن الإنجاب في هذه المجتمعات صار ضعيفاً جداً، كأنها هي تحكم على نفسها بالإعدام، وهذا كلام كتب، أنا مرة لخصت كتاباً لفوكوياما اسمه الانفراط العظيم، فذكر هذا ليس المجتمعات الأوروبية فقط حتى اليابان كل البلدان المتقدمة صناعياً بدأت تقل نسبة المواليد عندهم، وبعضها في تاريخه وثقافته ما عندهم تقبل الآخرين كاليابان لا يقبلون الناس من الخارج، الأمريكان أحسن وضعاً في هذا لأنهم يقبلون فيحلون الإشكال.

س/هل هذا القرار يجعل الأطفال يتربون على نزع الحجاب ويذوبون ؟

الدكتور جعفر : أنا لا أقول أن ما فعله شيراك صحيح، لكن هو سيعجل بتذويب المسلمين، أما كونهم يذوبون فأنا في رأيي أنهم أصلاً يذوبون، في قضايا أخر تذيب المسلمين، ما مشكلة الحجاب بالنسبة لهم؟ هم يقولون هذه المتحجبة هذا ليس أمر يخصها كأنها تقول للفتيات الأخريات أنتن لستن مسلمات حقيقيات إذا كنتِ مسلمة حقيقية فليكن مظهرك كمظهري، فهم يعتبرون أن هذا كأنه تدخل في شؤون الأخرين وكأنك تفرض الدين، وفعلاً يستجيب معه في الأخير لأن المرأة التي تظهر بالحجاب تستفز النساء اللاتي غير محجبات فيكون كأنه الحجاب ليس مسألة شخصية كما قال الأخ، وليس لباساً فقط، فعلاً ليس لباساً فقط هو نوع من الدعوة، ثم إن القوانين ماذا يا أخي غير القانون، هذا في الدستور غير الدستور.

س/ ما رأيك في تأييد الدول الغربية الأخرى مثل ألمانيا ؟

الدكتور جعفر : ألمانيا إلى الآن حتى لو جلست فيها ثلاثين عاما لا تعطيك الجنسية، وكل إنسان من أصل ألماني حتى لو لم ير ألمانيا أبداً ولا يتكلم لغتها يعطوه الجنسية، يعني بعض الناس من أصل ألماني وهو في روسيا ترحب بهم ألمانيا يأتي اليوم وتعطيه الجنسية.

ويمكن أن لا يحاربك بالقانون لكن يحاربك بالسياسة يعني ما مشكلة الآن في فرنسا مع كثير من المسلمين ليست الإرهاب، ولكن زيادة عدد المسلمين، ولذلك هم يتكلمون، هذه التي كتبت عننا وقالت إنهم يوزعون مصاحف في كل يوم أربعين مصحفاً قلت لهم وهل هذه مشكلة، ومن الأشياء التي أتهمتنا بها أننا نحن نوزع أربعين مصحفاً في اليوم المهم قلت لها هنالك جماعات نصرانيين توزع مئات الإنجيل في كل غرفة في كل فندق من فنادق أمريكا لماذا هذا لا يكون مشكلة وهذا يكون مشكلة، طبعاً هم يقولون هذه بلدنا ونحن نصارى، بعضهم يقول هذا ما وصلوا أن جعلوا هذا قانون لكن من الأشياء التي تزعجهم الآن وسيحاربون، الآن عندما تحارب المؤسسات الخيرية، أصلاً من الذي يبني المساجد في أمريكا المؤسسات الخيرية، ومن أين هذه المؤسسات الخيرية معظمها من السعودية، ثم من دول الخليج الأخرى، فأنت عندما تخيف هؤلاء حتى الأفراد صاروا يخافون.

س/ القرار لم يفرق بين اللباس والرمز هل هذا فعلاً موجود ؟

الدكتور جعفر : أنا في رأيي أن حجتهم و فيها بعض الصواب أن هذا تعبير عن دين وليس لباساً عادياً؛ لأن هنالك مسلمون، من هذه البلاد نفسها التي أتت منها هؤلاء البنات ولا يلبسن الحجاب، بعض إخواننا الأمريكان كانوا في بعض البلدان الإسلامية فقالوا وهم كانوا جنوداً أمريكان في بلد إسلامي قالوا عدنا، قلت لماذا عدتم ؟ لأننا كنا في وقت العطلة يلبس نساؤنا ورجالنا يلبسون ما يعتبر زياً إسلامياً الرجال يلبسون ثوباً وكذا، فهذه الدولة اشتكت من هذا للقيادة الأمريكية، وأن هذا يشجع الأصوليين عندنا خصوصاً وأن هؤلاء أمريكان.

س/ هل يمكن أن هذه الخطوة من فرنسا يمكن تعميمها في أوروبا ؟

الدكتور جعفر : مجرد أن تخطو فرنسا هذه الخطوة هذا يشجع الآخرين، يعني ربما يكون بعض البلاد عندها نفس التفكير، فإذا نجحت فرنسا فهذا يشجعها، أن يكون هنالك معارضون هذا أمر طبيعي في كل بلد من البلاد بعض السياسات لها معارضون يعني في أمريكا الآن هناك معارضة شديدة لموقف أمريكا من حرب العراق أفغانستان كذا وكذا، فهذا ينبغي أن لا يخدعنا، أصلاً البشر عندهم هذا ضعف بشري الناس كما قلت لك لا يريدون المخالف، يريدون أن يكون الإنسان معهم، ولولا الكلام الكثير عن الحرية، وحرية الدين وكذا وكذا لمشى هذا الأمر من غير معارضة.

س/ هل هناك انقسام في أوروبا تجاه الحجاب ؟

الدكتور جعفر : أنا أقول إذا كان هناك في أوروبا انقسام فهذا انقسام طبيعي؛ لأن موقف الإنسان يعتمد على أفكاره، وعلى أنه كيف يرى مصلحة بلده وعلى مدى إيمانه بالدين وبالحرية، المشكلة أن كثيراً من المتسامحين هو متسامح، لأنه لا ينتسب للدين حتى غير نصراني.

س/ هل يمكن يحصل منع لبعض المظاهر الإسلامية كاللحية ؟

الدكتور جعفر : أحب أن أطمئن بالنسبة للحية لن يحصل فيها مشكلة أبداً والسبب أنهم عندهم لحى منذ زمن وهي جزء من ثقافتهم، الملحد عنده لحية، والنصراني عنده لحية، كارل ماركس عنده لحيه.

س/ وهل يخافون من توسع المسلمين في مطالبهم الإسلامية ؟

أنت إذا قلت أنا دولة علمانية وأنا محايد بين الأديان، فيجب أن تعامل الأديان كلها معاملة واحدة، لأن هناك قوانين لا معنى لها إلا أن أصلها من دين نصراني، أنا الحقيقة

كلام الأمير جعلني أسأل سؤالاً هل هنالك مشكلة سياسية؟ لأن السياسي لا يتخذ قراره فقط في معزل؟ وهو لا يمكن أن يكون مجرد مبدأ أو كذا وكذا، يرى أنه ربما أن يكون الجماعات المتطرفة هذه يخشى منها أنها تسلبه بعض الأصوات لأنه لابد أن يفكر تفكيراً سياسياً بالنسبة لحزبه، ثم هل غالبية المسلمين؟ هذا سؤال أيضاً هو لو كان يعلم أن الخمسة ملايين من المسلمين سيعارضون ما أقدم على هذا لا يمكن، بل ربما لو كان يعلم أن نصف هؤلاء سيعترضون ما أقدم عليه.

الغريب أنني الذي لاحظته في السويد أن هنالك عدم تسامح في الشارع، يعني يسخرون من النساء المتحجبات وهذا أمر لا تجده في بريطانيا ولا في أمريكا، والسويد أبعد بلاد الله عن الدين، ربما بالنسبة لهم حجاب أو غير حجاب لا يؤثر عليهم.

س/ ما أشار إليه الكاتب الفرنسي من أن مطالب المسلمين ربما لا تنتهي، ولذلك التوقف ضد هذه المطالب هو المهم في الدول الأوروبية حتى لا يفتح المجال لذلك ليس القضية قضية حجاب المطالب ستستمر أليس محقا فيما يطلبه ؟

الدكتور جعفر : إن هذا هو من أحد الأسباب نعم ممكن، بالمناسبة في أمريكا هنالك كتابات في هذا يعني الكونجرس هذا الذي كان زعيم الأغلبية في الكونجرس عنده كتاب يقول إن الذي يأتينا يجب أن يتحول إلى أمريكي، وهكذا الكلام يقال في كندا وكذا هذا الذي يسمونه يعني الذوبان يعني إذا أتيت لا تكون شاذا وقالوا إن مشكلة المسلمين هذه أن كثيراً من المسلمين يأتي ويجلس عشرات السنين وهو محتفظ بشخصيته، فهم يريدون منك إذا جئت إلى بلادهم هذه أن تتحول إلى فرنسي وتذوب في المجتمع هم ما يستعملون كلمة ذوبان، مثلاً أحد رؤساء بعض المدن قال إن على المسلمين أن يدعوا إلى إسلام فرنسي ليس الحجاب فقط، يعني لا تأتوا وتدعون إلى إسلام العرب نحن نريد إسلاما فرنسياً.

س/ هل الإسلام بشكله الحالي يمكن أن يشكل خطراً على الغرب، وبالتالي الغرب متوجس من الإسلام بشكله الحالي؟

الدكتور جعفر: هذه المشكلة في نظري نعم، وليس فقط بوجود المسلمين في الغرب، كثير منهم يقولون إنه إذا كانت المعركة صارت المعركة فكرية فهي بيننا وبين المسلمين، وأنا قلت في مناسبات كثيرة إن "فوكوياما" لما كتب كتابه نهاية

التاريخ قال إن كل العالم ماشي في طريقنا هذا إلا فئة واحدة المسلمون، تقول إنها ما زالت ترى أن عندها بديلاً، ويقولون أيضا إن هؤلاء المسلمين هم وقفوا ضد الشيوعيين وفي ذلك الوقت طبعاً هم كان يسرهم أن وقفوا، لكن أخافهم طبعاً الذين وقفوا ضد الشيوعيين هؤلاء يقفون أيضاً ضد الحضارة الغربية، فقوة المسلمين ليست قوة اقتصادية ولا قوة عسكرية وإنما هي قوة الدين، هذا خطرهم سواءً كانوا ذهبوا إليها أم لم يذهبوا.

س/ كيف يمكن للمسلمين في الغرب أن يواجهوا مثل هذه القضايا والضغوط؟

الدكتور جعفر: هنالك عدة أشياء يمكن أن تُعمل، أولاً لا تحصر نفسك في القضية الجزئية هذه، بل استغل هذه القضية للكلام عن الإسلام بصفة عامة، هم الآن مهتمون بقضية الحجاب، يأتي المسلمون يقولون لماذا الحجاب هذا، وأنه جزء من حياة متكاملة، وأن السبب فيه كذا وكذا، مثلاً قال لماذا الحجاب قلنا له أولاً أنتم لا تقيسون، أولا يكون معياركم الوحيد هو ثقافتكم، لأنك إذا قلت لماذا تتحجب المرأة وأنا أقول لك ولماذا تسير المرأة عندكم شبه عارية، لا لكن إذا أردت أن تناقشني ناقشني إما بالعقل أو من باب المصلحة آنذاك أنا أناقشك، أنا أقول لك مثلا إن من المعروف أن الناس تجذبهم أجساد النساء في العالم كله، الإسلام يريد من المرأة أنها إذا خرجت من بيتها أن تعامل على اعتبار أنها إنسان وليس على اعتبار أنها جنس فتغطي كل جسدها وحتى إذا تكلمت فلا يخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض فيمكن أن ننتقل من الحجاب إلى الأسر.

س/ رسالة إلى المنظمات الإنسانية في الغرب أو المعنيين أو المجالس الإسلامية في الغرب.

الدكتور جعفر : الرسالة لهم الأولى ذكرناها أن لا يحصروا أنفسهم في القضية الجزئية في الحجاب فقط، عندما تثار قضية فتحت الأذان فتحت الأذان هذه أنا أصب فيها شيئا آخر.

المسألة الثانية أننا نحاول أن نتحد أو نتعاون بقدر الإمكان، أما إذا صرنا متفرقين فلا نستطيع أن نؤثر لا سياسياً ولا دينياً.

* * *

ذكرياتي - جعفر شيخ إدريس

لقاء قناة طيبة الفضائية

البطاقة التعريفية:

أنا جعفر شيخ إدريس محمد صالح، وجدنا الكبير اسمه بلل، وأهلنا مشهورون بالبلال من الشايقية. الوالد هاجر وهو شاب إلى بور تسودان وعمل بالسودان في الشرطة فأنا ولدت في بور تسودان سنة ١٩٣١م ونشأت فيها ودرست الدراسة كلها فيها لكن صلتنا لم تنقطع في كريمة كان الوالد يذهب وكنا أحيانا نذهب معه فمكثت في بور تسودان وتعلمت فيها ثم ذهبت إلى مدرسة حنتوب وبعدها إلى جامعة الخرطوم.

س/ لعلك أنت تنزع أصلاً من الشمال ومولداً نحو الشرق المولد زمان عُلم ما ذكرت لنا لكن عموما العصر الذي ولدت فيه أنت ومنطقة شرق السودان والأحداث التي وجدتها وأنت في بداية حياتك عموم العصر؟

ما أظن كان هناك شيء يميز بورتسودان عن بقية مدن السودان نعم كان هنالك شيء يميزها النظافة كانت مشهورة مع الأسف الأمر تغير قليلا لكن كانت مشهورة جداً بأنها بلد في غاية النظافة، حتى إن أحد أساتذتنا كان إنجليزياً جاء ليسافر عن طريق البحر لبلده فقابلته هنالك فأول ما قاله لي إن هذه مدينة في غاية النظافة، الشيء الثاني أن الناس الذين أحسوا بالحرب العالمية الثانية كان هم أهل بور تسودان فقط من بين السودانيين لأن الطائرات كانت تأتي من شرق إفريقيا من الصومال لأن الصومال كانت تحت الاحتلال الإيطالي كانت الطائرات تأتي من الصومال وتضرب مدينة بورتسودان، وأذكر أن الناس ما كانوا يعرفون كيف يتحركون وأذكر جدا وأنا صغير عندما جاءت أول طائرة وأسقطت بعض القنابل والناس تقول رمت قنبلة وفرضوا علينا أن نحفر خنادق في داخل البيوت أنا أذكر أنه كان عندنا خندق في البيت، وإذا ضربت صفارة الإنذار ندخل داخل الخندق وكذلك كانت هناك خنادق في الشوارع فأظن أن بور تسودان ربما هي البلد الوحيدة ربما بلاد أخرى في شرق السودان هي التي كانت أحست بالحرب العالمية الثانية.

س/ ما السر في هجرة قبائل الشايقية؟

أظن أن هجرة الوالد لأن بلادهم كانت بلاد ضيقة يعني أنا في أيام الشباب ذهبت إلى مصر وجدت أن عدداً كبيراً جداً من الشايقية كانوا في مدينة عين شمس، وأيضاً كانوا يعملون في الشرطة ما السر في أنهم يعملون في الشرطة والله لا أعلم ربما كانت هذه هي المهنة المتاحة، لكن أنا لا أذكر بدقة هذه الفترة التي عمل فيها الوالد. والوالد خرج من الشرطة ولم يتقاعد وفتح الوالد دكاناً صغيراً وندم على الفترة التي قضاها في الشرطة وكانت تجارته صغيرة ليس تجارة كبيرة لكن كانت بالنسبة له أحسن.

س/ كم كان عدد العائلة؟

عددنا نحن -ما شاء الله ستة- إخوان وخمس أخوات كلنا من أم واحدة، وكنا أسرة مترابطة والوالد والوالدة كانا ينتميان إلى طائفة الختمية، وكانوا متدينين جدا محافظين خصوصاً الوالدة كانت شديدة جداً في أمرنا بالصلاة، يعني تقريباً قامت بمهمة كبيرة في تربيتنا على الدين، كانت لا تتلاعب في هذا أبداً فحتى إذا نام أحد كانت توقظه وتقول له: صليت العشاء؟ كان لها أثر كبير جداً على تربيتنا وكنا نخاف من أمنا كنا الأطفال الوحيدين الذين يخافون من أمهم، كان بقية الأطفال لا يخافون من أمهاتهم ما تغيروا، لكن -الحمد لله- ربنا هداهم فتغيروا وصاروا سُنيين.

س/ في فترة الطفولة هل هناك أحداث حصلت لك؟

أكثر شيء حصل في حياتي هو عندما كان الحركة السلفية بدأها في بور تسودان جماعة بعضهم من أقاربنا، وأنا عمري ست سنين الوالد أخذني ليدخلني المدرسة فقالوا له الولد صغير دعه للسنة القادمة في أثناء هذه السنة كنت ألعب في سيارة قديمة فقفزت على مسمار فطعنني ويبدو أنه كسر العظم من الداخل، وكانوا يعالجوني من الخارج فتعبت جداً ومكثت على السرير حوالي ثلاث سنوات، فقرر الطبيب أن يقطع رجلي طبيب سوداني، وإلى الآن أذكر شكله وعنده قلم يضعه فوق أذنه فقال للوالد تنقطع من الساق، الوالدة رفضت وكانت في ذلك الوقت مازالوا على الختمية، فقالوا لها خلاص نسأل السيد علي فقال السيد علي: اسمعوا كلام الطبيب، والوالدة لم تسمع كلام الطبيب ولا كلام السيد علي فقال لها الطبيب سيصاب بالغرغرينه ويموت فقالت أحسن يموت برجليه ولا تقطع ويقعد في السرير، فصارت دائماً تذكرني

بهذا الأمر كلما كلمتها مثلاً ذهبت إلى طبيب، وتعالج في بعض أشياء إحمد الله أنت كنت ستكون برجل واحدة.

كان عندنا أستاذ في جامعة الخرطوم سويدي درسنا فلسفة، فكنت أنا أضرب لهم مثلاً كذا كان عنده تصور أن النسوان السودانيات المتلفلفات كذا أنهن مضطهدات، قلت له يا أخي الكلام هذا غير صحيح، هؤلاء عندهن شخصية وأنا أمي حصل منها كذا وكذا، وهؤلاء ليس مساكين كما أنت متصور أو تفتكر. وبالنسبة لحادثة المسمار أخرني كثير عن الدراسة قالوا لي تأتي وعمره سبع سنوات كما قلت لك وما دخلت المدرسة بعد الحادثة إلا بعد عمر عشر سنوات لكن هل له نتائج حسنة نعم كان له نتائج حسنة، أخي الذي أكبر مني ودخل المدرسة كان يقول لي يا جعفر والله لولا رجلك هذه ما دخلت الجامعة. فكنت عندما دخلت المدرسة شعرت أنه أنا في سنة أولى والناس الذين في عمري كانوا في سنة رابعة فاجتهدت اجتهادا شديد لأني رأيت الفرق كبيراً بيني وبين زملائي، فكنت أصحى الصباح أمشي إلى الخلوة قريبة من البيت فأدرس في الخلوة، وفي الخلوة يعطوننا فسحة لشراب الشاي كل الأطفال، ففي هذه الفترة أذهب للمدرسة، وأرجع من المدرسة، أمشي الخلوة مرة ثانية، وفي المساء أرجع للخلوة واستمريت هكذا إلى أن بعض الجيران فيهم رجل عنده علم وكان رجلا سنياً عمل درساً في الخلوة في المساء، فكنت أذهب وأحضر دروسه وكان يدرس الأربعين النووية وكان يدرس كتب المالكية: كتاب العزية.

س/ ما هو التحليل العقدي لما يحصل للأطفال من ابتلاءات؟

الغريب من الأشياء التي لاحظتها وأنا كبير لا أستطيع أن أقول لك، أنا في ذلك الوقت لم أجد عقدة من الذي أصابني وأنا صغير، ولاحظت هذا في طفل أمريكي نسيت الآن ما كانت مشكلته لكن كان مرتاحاً جداً، الناس الآخرون هم الذين يسألون الأسئلة التشكيكية والرجل المصاب كان مرتاحاً جداً وأظنني كنت من هذا النوع، لا أظن أن هذا له أثر علي من الناحية العقلية، يجب على الإنسان بعد ما يحصل الشيء لا يقول لو لأن لو تفتح عمل الشيطان، لا يقول ياليت لو كنت عملت كذا أو عملت كذا فالقدر هنا شيء مهم جداً في حياة الإنسان وفي دينه، وينفعه في الدنيا

والآخرة بدل ما يضيع وقته في الندم وفي التحسر، بل ينظر إلى الجوانب الإيجابية التي حدثت بسبب هذا البلاء الذي أصابه.

س/ كيف كانت بداية الدعوة السلفية وكيف كان اتصالك بها؟

بالنسبة لظهور الحركة السلفية كانت بيئتنا ختمية قحة، وأذكر من الطرائف أنه حصلت مشكلة سياسية، والشرطة ضربت الناس بالرصاص الحي، وجاء أحد إخواننا مستغرباً في هذا وقال للوالد -والوالد ختمي مثله- العساكر هؤلاء أليس من الطائفة الختمية فكيف يضربون الناس بهذه الطريقة؟ وكان مجيء السيد علي للمدينة حدث كبير جداً يخرج مئات الناس إن لم يكون الآلاف ينتظرون فقط الفاتحة في هذه الفترة الغريبة - أنا لست مؤرخاً للأسف - ما أدري بالضبط متى بدأت الحركة السلفية لكني من المؤكد أنني انضممت إليها قبل دخولي للثانوي في مدينة بور تسودان

س/ من هم رموز الدعوة السلفية؟

كان مصطفى ناجي من مدينة بور تسودان أصله، وكان يأتي شيخ الهدية أذكره رغم أنه ليس من بور تسودان وواحد من أقاربنا اسمه الشيخ سيد أحمد حاج عثمان، وهو خياط لكن كان من الناس الذين عندهم علم بالسنة، وكان عنده قرابة مع الوالدة فهذه أيضاً سهلت علي؛ لأن الوالدة كانت متشددة في البداية وما كانت راضية أبداً أن أنضم إلى السلفية.

س/ ما الذي أعجبك في الدعوة السلفية؟

طبعاً ما قارنت بين السلفية والختمية لكن بعض الذي قالوه والذي كان بعض الناس ينكرونه أنا عرفت بالتجربة أنه كلام صحيح بالتجربة، يعني كان وأنا الوالدة تعالجني في رجلي وأتألم جداً وكانت هناك صورة لواحد من رجال الختمية على الحائط، وكان الناس يقولون هذا مكان استغاثه وكذا، فقلت لهم أنا كنت أستغيث فيه بقلبي؟ وكنت قد قضيت فترة مع جدي وجدتي في مدينة كريمة السقاي وكان يأخذني إلى مسجد اسمه مسجد ود حاج، يعني شيخ مدفون هناك، وكان يدخل رجلي في تراب قبره ليشفيني، فعندما ذكر السلفية أن هذا لا يجوز وكذا اقتنعت بسرعة، ولا زلت أذكر يوم جاءتني هلوسة النوم كأن واحداً يقول لي الشريفة

الشريفة وهذه كانت من نساء الختمية المشهورة محترمة جداً وأنا أقول لا أعبد إلا الله لا أعبد إلا الله، يعني ما كانت مقارنة وكذا إنما دُعيت واستجبت للدعوة.

س/ ماهي بدايتك في دراسة العلوم الشرعية؟

كما قلت لك إننا في الخلوة كان معنا شيخ رجل فاضل، يعني ليس شيخاً بالمعنى التقليدي هو رجل كان كما يقولون جنايني، وكان رجلاً سنيًا يدرسنا في المساء الأربعين النووية وبعض الكتب المالكية هذا الذي بدأت به، لكن استفدت أكثر وكثير جداً من عالم من أهل البحر الأحمر اسمه الشيخ أبو طاهر السواكني، هذا رجل متخرج من الأزهر وكان أيضاً على عكس ما كان يدرس الناس كان ما يدرس إلا كتب السنة في المسجد الكبير، فكان يدرس بالطريقة التي رأيت في النهاية أنها هي الطريقة التي كان يدرس بها العلماء، فاستمعت إلى هذا سنة أو أكثر أنا والوالد كنا نذهب، سمعنا البخاري كله وجزءًا كبيراً منه وأبو داود، وهو نفسه مؤلف كتيبات صغيرة في السنة، عنده كتيب اسمه صحيح السواكني مئة حديث أو كذا كنا نحفظه، قبل ما أذهب إلى الثانوي إخواننا أنصار السنة عرفوني بابن تيمية وابن القيم وابن تيمية كان صعباً عليَّ فكنت أحب ابن القيم أكثر، والأمور تغيرت يعني كبرت وكذا، وعندما أقول ابن القيم أقصد الرسائل الصغيرة ما دخلت في الكتب الكبيرة إلا بعد مدة.

س/ وماهي قصة الشناقيط؟

كان أهل شنقيط يذهبون إلى الحج عن طريق السودان، يتعبون ويستقرون في بور تسودان ومن بور تسودان يركبون البحر فجاء واحد منهم علامة من غرائب الدنيا رجل كبير الآن أظن أنه ما زال حيا الآن في السعودية صار من العلماء الكبار في السعودية أول رجل رأيناه يحفظ آلاف الأحاديث، ويحفظ القرآن كأنه معجم مفهرس نقول له يا شيخ عيسى مذكور في أي الآيات فيذكرها كلها هذا شيء، الشيء الثاني جماعة أقل منه بكثير هؤلاء درسنا عليهم جماعة منهم كانوا يدرسون النحو، وأذكر واحداً فيهم كان دائماً كل شواهده من البردة درسنا عليهم شيئاً من النحو.

س/ ماهي نصيحتك في تعلم العلم الشرعي؟

اليوم كنا في المنتدى كنا نقرأ في كتاب الموافقات للشاطبي، فناقشنا أحدهم وهو نصح قال إن الإنسان لازم يدرس على عالم قال العلم ممكن تقرأ لكن الأساس هو السماع تقرأ على شيخ، ونصح في القراءة نفسها تقرأ كتب الراسخين في العلم من العلماء حتى ذكرنا في الكلام حبذا لو كلمنا الشباب يقرأون كتب مثل الأربعين النووية ورياض الصالحين وبلوغ المرام من أدلة الأحكام، والكتب التي لا تدل على أن الإنسان ينتمي للجماعة هذه أو الجماعة هذه كتب لكل المسلمين يعني، أنا قلت لهم الواحد يحزن عندما يرى كثيراً من الشباب وهم إسلاميون ما عندهم شيوخ أنا أستغرب أنهم يتعلمون العلم كيف أصلاً الإنسان إذا ما تعلم العلم الصحيح يكون عرضة للزلل قال العلماء ممكن أن الإنسان يكون عنده عبادة ويكفر، وأنا أعرف شخصاً كان عنده عبادة سوداني ويمشي كان في السعودية يمشي يعتمر كم مرة ولكن ألحد بالمرة، أصبح ينكر وجود الخالق. فلا بد مع العبادة من العلم قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: ٢٨]، مما يساعد الإنسان على الاستمساك بالدين و البقاء في دائرته أن يكون له من يعينه على هذا.

س/ ماهي ملاحظاتك حول القراءة وكيف يستفاد من الكتب؟

أنا عندما ذهبت إلى بريطانيا في عام ١٩٦٢م الكلية التي أنا فيها كانت تقدم خدمات للطلاب مالها علاقة في دراستهم لكن كان من ضمن الخدمات أنهم أتونا بشخص متخصص في القراءة والقراءة السريعة، فذهب إليه البطيؤون في القراءة وكنت منهم بل كنت أبطأهم ربما لأن اللغة الإنجليزية ليست لغتي لكن قال لي ما دام أنت بطيء في القراءة معناها أنت بطيء حتى في لغتك وتعلمنا منه أشياء وزادت السرعة بعض الشيء لكن عرفت في النهاية أن سرعة القراءة لابد أن يتعلمها الطفل وهو صغير ، ولها قواعد سهلة جداً ممكن أن يتقنها الطفل لأنهم يقولون البطء ليس من عدم الفهم ليس من العقل، البطء من العين لأنه قال الإنسان يشوف الكلمة بعد ما يقف في القراءة يعني البطيء يقرأ واحد اثنين ثلاثة يقف ستة سبع مرات في السطر

يزداد قليلا يزداد سرعة يقف ثلاث مرات يزداد سرعة يقف مرتين يزداد يقرأ السطر كله مرة واحدة يزداد يقرأ ثلاثة أسطر مرة واحدة، وواحد أمريكي هذا كان يقرأ في الدقيقة ألفي كلمة، هناك أشياء أخرى ممكن يتعلمها الإنسان بعدما يكبر.. من الأشياء التي استفدتها مثلاً أنك قبل ما تقرأ الكتاب انظر إليه وقلبه هل تريد أن تقرأ هذا الكتاب أم لا تريد لا تضيع وقتك فتبدأ تقرأ وبعدها تكتشف أن هذا الكتاب لا يستحق القراءة، وتعلم أيضاً أنك تتجاوز بعض الأسطر غير المهمة فليس من المهم قراءة كل سطر تنظر بسرعه للأسطر وهكذا الواحد هناك أشياء يستفيد منها جداً وربما يكون الآن في كتابات باللغة العربية فأنا أنصح إخواننا أن يعتنوا بهذا ويعلموا أولادهم وهذه مسألة مهمة جداً ما تقرأه في ساعة ممكن تتعلم و تقرأه في عشر دقائق.

س/ ما هو تقبل الأسرة للتوجه الجديد مع أنصار السنة؟

بالنسبة لقصتي مع الوالدة والوالد و الختمية وكيف انتهت.. الوالدة ما كانت تقرأ كتباً، والوالد ما كان يطلع على الكتب التي كنت أقرأها ما كان هناك مشكلة، زعلوا مرة زعلا شديداً خصوصاً الوالدة كان في حولية في الحلة فالناس كلهم طلعوا وأنا ما طلعت وكنت أقرأ، وقالت الوالدة لماذا ما تطلع قلت لها أنا مشغول بالدراسة فما رضيت قالت لازم تطلع، فما سمعت كلامها وهذا كبر عليها جداً؛ فما كانت تتصور أن أرفض، فبدأت تتكلم معي وقاطعتني حتى تدخل قريب لها وهو الشيخ سيد أحمد، وجاء وتكلم معها وقال لها أنت تعرفي الدين أكثر أم جعفر؟ قالت له جعفر. قال طيب وتصالحنا، ويمكن كان عمري خمسة عشر أو ستة عشر ما أذكر وعمنا السيد أحمد هذا له قصة طريفة هو عنده علم بالسنة، فمرة محمود محمد طه جاء بورتسودان وألقى محاضرة، ومحمود كانت محاضراته مليئة بالأحاديث الموضوعة والتي لا أصل لها أذكر منها من أحاديثه أن النار تفنى وينبت في مكانها الجرجير، فعمنا وقف وقال له الحديث الفلاني موضوع، والحديث الفلاني ضعيف، والحديث الفلاني كذا فسخر منه وقال يأخذ التصحيح والتضعيف من الكتب أما نحن فعندنا نور نعرف به الحديث الصحيح من الحديث الضعيف، فعمنا السيد أحمد استأذن مرة أخرى وقال: والله إن كان الحكاية بقت أنوار فأنا ذاتي عندي نور، فالوالد كان عنده كتاب

ختمية اسمه "مسبعة" مقسم بالأسبوع أوراد سبع مرات، وأنا كنت أخشى الوالد ومؤدب معه. بعض إخواننا السلفيين عندهم فظاظة الحمد لله أنا لا خصوصاً مع الوالدين، ووالدي عنده سماحه ومرح وحافظ للقرآن، فقلت يا والدي أحسن تقرأ القرآن أم هذه المسبعة، والحمد لله في الآخر ربنا هداهم الاثنين، وحكى لي الشيخ هدية أن الختمية وخصومهم كانوا يسموننا أولاد الكلب، فقال أنا البارحة كنت مع أولاد الكلب، وكانت العلاقة بين الختمية والسلفية حادة أبداً، ومرة أنا سافرت سفرة مع المدرسة رحلة رسمية فلما رجع أبي قال لي والله ربنا نجاك جماعتك كل واحد أخذ علقة ضرب، وكذلك في الخرطوم كانوا يضربونهم وبعدها الأمور تغيرت.

س/ كيف وضعكم في الثانوية؟

أنا كنت طالباً مجتهداً وقبلت بالثانوية بسرعه، وكانت المدارس الثانوية محدودة فقط ثلاث مدارس: خورطقت وحنتوب ووادي سيدنا، وكنت بمدرسة حنتوب وفي مدرسة كمبوني الذي حدث بالنسبة لي بالثانوي التطور الكبير الذي حدث أنه عندما ذهبت إلى الثانوي كنت مزوداً بكتب إخواننا السلفيين وبالعلم الذي تعلمته منهم وفي بعض الكتب وكنت أقرأ في التفسير نحن في ذلك الوقت كان علينا ضغط طوال الوقت لازم نناقش ونجاوب وكذا، وهذا أيضاً أفادنا لأننا كلما نحرج نرجع نقرأ ونبحث، في المرحلة الثانوية أكبر تحدي كان التحدي الشيوعي، وكانت الشيوعية صارخة في ذلك الوقت طبعاً هم ندموا على هذا لأنه أضرهم والزعم بأنه لا يوجد إله، طبعاً مستوى اللغة الإنجليزية كان عالياً بشكل كبير أكثر من الآن بكثير كان الطلبة يقرأون الكتب الإنجليزية المترجمة كتب الشيوعيين وكتب غير الشيوعيين ومن الكتب التي قرأناها بالابتدائية جزء منها من الثقافة الأوروبية يعني نحن بالثانوي درسنا كثيراً القصص الإنجليزية، ولابد أنها أثرت فينا بعض التأثير، وكنا نقارع الشيوعيين لكن ما أظن الآن كان معنا "الجزولي دفع الله" ومعنا عدد كبير مازال من إخواننا أحياء، وكان العدو واحداً وكنا محتاجين نقف مع بعض ليس الكل يقرأ بل بعضهم يقرأون الكتب الشيوعية ويردون على الشيوعيين ويناقشونهم، كان معنا "لقم" وذكرته بالحكاية كان يدعوننا للشيوعية وأول ما دعانا رفعت يدي وناقشته وعمره قريب من عمري، وبحمد لله كثير ممن ما كانوا شيوعيين بالثانوي أو بالجامعة ما

بقي أحد على الشيوعية بعد ما كبروا وكان هناك تأثير بالدعوة وجزء منها التربية الأولى هذه تأثر بالإنسان تأثيراً كبيراً، فالإنسان وهو صغير يرى أمه وأباه يصلون ويذكرون الله فيبقى أثره وربما يزيد عليها الكلام الذي يسمعه من الدعاة فهذه مع هذه، لا يكاد يكون بقي منهم أحد على الإلحاد لكن هذا التحدي الذي كان وربما كان هذا السبب في مسألة الاهتمام بالعقل والردود، وكذا لأنك إذا جادلت إنسانا لا يؤمن بالله ويعتبر أن مذهبه هذا مذهب عقلاني فلا بد أن ترد عليه بالعقل وأكثر ما أفادني في هذا كتب ابن تيمية في مسألة الردود العقلانية، وأذكر في كتاب واحد لكن لا أذكر من المؤلف لازلت اذكر اسم الكتاب لأني كنت مهتماً بهذا الموضوع اسمه الدين من طريق العقل. فالتحدي الذي حصل كما قلت لك إنني كنت مجتهداً ودخلت الثانوي، الآن انشغلت بأشياء أخرى فصرت قليل القراءة والمذاكرة الذي أحفظه بالفصل أحفظه والذي لا أحفظه تأتي القضية أكبر.

س/ ما أثر النقد على علاقاتك؟

بالمناسبة من الأشياء التي ساعدت على هذا أنني ناقد لما أقرأ أيضاً الفكر الغربي كانوا يشجعوننا جداً على النقد. أنت تعرف أن الفكر الغربي كانت فكر سائر على الدين وعلى كل مُسلَمات نحن الحمد لله ما كنا سائرين على المُسلمات، لكن تعلمنا منهم مسألة النقد وكانت الفلسفة إذا في الاختبار سئلت سؤالاً وذكرت المعلومات التي قيلت لك يمكن تمر، لكن إذا انتقدت تأخذ درجة أكبر حتى كلام الأستاذ لو انتقدته تأخذ درجة أكبر، فإنصاف لهم نقول إنهم أسهموا في بناء العقلية النقدية والحمد لله أننا عندما قرأنا كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية وجدنا العقل هذا شيئاً واحداً. كان عندنا أستاذ في جامعة الخرطوم زميلنا في قسم الفلسفة قال وهو يستعد لمغادرة السودان: إن أكثر شيء استفاده من صلته بنا في السودان أنه اقتنع أن العقل البشري هذا عقل واحد ليس هناك شيء اسمه عقل غربي ولا عقل شرقي كما الناس يقولون الآن أن العقلية الغربية ولذلك البشر ممكن أن يتناقشوا مع بعض لو أنت عقل شرقي وأنا عقل غربي كيف نتفاهم لا يمكن أن يكون في تفاهم لابد أن يكون في أسس مشتركة بيننا كي نستطيع أن نتفاهم مع بعض.

س/ كيف مارست نقد الذات؟

نقدي لنفسي لا أذكر، وبالنسبة لنقدي للجماعة الإسلامية سبَّب لي بعض المشكلات، وأنا لست نادماً على هذا لأن مازلت أرى أن موقفي كان صحيحاً، وناقشت فيه عدداً حتى من كبار الدعاة منهم الأستاذ المودودي وقلت له إن هنالك أشياء نحن أخذناها من الشيوعيين تأثرنا بهم وهي الالتزام في الرأي بقول الأغلبية، وقلت له أنا لا أعرف في هذا أصل في الدين الالتزام هو في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكن لو كان أنا في جماعة تسعين بالمئة منهم قالوا كلاماً وعشرة بالمئة قالوا كلاماً وأنا من العشرة بالمئة لا يجوز لي أن أقف وأكذب على نفسي وأقول والله أنا رأيي هو رأي التسعين بالمئة، لكن يمكن أن يقال لي رأيك هذا احتفظ به لا تعمل لنا فتنة طيب ممكن أن أحتفظ به لكن لا أكذب على نفسي وأقول كلاماً غير صحيح وغير مقتنع به لكن هذا في الشيوعية موجود هذا جزء من مبادئ الحزب الشيوعي أن هنالك لجنة مركزية أنت حر في أنك تقول رأيك في داخل اللجنة هذه، وبعد أن يحصل التصويت تلتزم برأي بقول الأغلبية وتدافع عنه لازم، وأنا كنت أقول لإخواننا أنا لا يمكن أدافع عن شيء غير مقتنع به، وهنالك أشياء صغيرة في الكتب التي كنا نقرأوها.

* * *

حوار مجلة منارات

العدد٢٢ اجرى الحوار الدكتور محمد الخرعان

لعلنا نبدأ حقيقة بالحديث في هذا اللقاء حول المحاضرة التي ألقاها فضيلتكم في السودان، ربما كانت مرتبطة ببعض الأحداث والقضايا التي أثيرت في الآونة الأخيرة، لو تكرمت بإعطائنا شيئاً عن عنوان المحاضرة وموضوعها.

س: عنوان المحاضرة (فرفرة دجال) ماذا يعني هذا العنوان؟

ج: عندنا في السودان يستعملون كلمة (فرفرة) يعني اضطرب، ويستعمل أكثر ما يستعمل في البهيمة عندما تذبح وتتحرك وهذه الحركة فرفرة فهي فرفرة مقتول، فأنا قلت: فرفرة الدجال، ثم أردت أن أتأكد أن كلمة (فرفرة) هذه كلمة عربية فرجعت إلى القاموس فوجدت أكثر مما قلت فقال: فرفر يعني تحرك بالمعنى السوداني، وفرفر: سارع إلى الحماقة، وفرفر: أكثر وخلط.

فقلت في المحاضرة إن صاحب القاموس ما كان يظن أن كل هذه الثلاث تجتمع في شخص واحد، فأنا كان قصدي فعلاً أنه فقد كل شيء وهذه فرفرة مقتول أو منتهي.

س: هل كانت القضايا التي أثيرت عن الترابي جديدة أم كانت قديمة؟

ج: أنا قلت للناس هذه ليست القضايا المهمة أو الخطيرة بالنسبة له، وسوف أتحدث عن مسؤولية ما يسمى بالحركة الإسلامية عن ضلالات الترابي لأنها كانت معروفة لكثير من الإخوان والدعاة، رووا عنه أنه قال كذا وقال كذا، وأنا من الناس الذين تكلموا كثيراً، وكنا في حركة واحدة وكان هناك شيء اسمه مجلس الشورى، وأذكر أنه في يوم من الأيام أنا وقفت وهو كان بجانبي وقلت لهم يا إخواني هذا الرجل ليس عنده دين، ولكن بعد ذلك لم يحصل شيء، والمفروض إما تحاسبوني أو تحاسبوه هو، لكن لم يحدث شيء من ذلك!، ثم إنه كلما قال كلاماً فيه ضلال يسمونه اجتهادات. ثم هو رجل مراوغ، كان يقول الكلام في بعض الجلسات الخاصة وسمعوا منه بعض الناس فإذا قيل عنه أنه قال كذا وكذا ينكر، فأهم ضلال له وقاله من زمن بعيد جداً، أنه لا يؤمن بعصمة النبي ﷺ.

س: لكن قبل هذا فضيلة الشيخ، إلى أي شيء ترجع التساهل في هذه الشذوذات أو هذه الانحرافات وهي قديمة كما تقول منذ الستينات الميلادية؟

ج: معظم الناس لا يعرف عنه شيئاً، ويحسنون به الظن، والقيادات أيضاً عدد كبير منهم لا يعرفون عنه ذلك، وينكرون عليك إذا قلت لهم عنه مثل هذا الكلام، والبعض

سمع، لكن عيب الذين لم يسمعوا أنهم لا يريدون أن يسمعوا، أقول لهم يا إخوة نحن قلنا كذا اسألوه، عندهم احترام له لدرجة أنه ليس فيهم واحد يستطيع أن يقول له يا أخي قيل عنك كذا، فهل هذا الكلام صحيح أم لا، استسلام عجيب!!

س: ذكرت أن من أهم الشذوذات أو الأخطاء التي عنده أنه لا يؤمن بعصمة النبي ﷺ، ماذا كان يقول؟

ج: نعم الذي عرفت عنه من زمان أنه لا يؤمن بعصمة النبي ﷺ، ويعتبر أن النبي ﷺ يمكن أن يروى عنه حديث صحيح من ناحية السند، وأن النبي ﷺ قاله فعلا، لكن الكلام خطأ، وكان أكثر ما يتكلم فيه حديث الذبابة، ويقول: أنا في مسائل الطب أقدم رأي الطبيب الكافر على حديث النبي ﷺ، وكان أيضاً من الضلالات المعروفة عنه ولها علاقة بعدم احترامه للسنة النبوية، أنه كان يجيز الردة، أنا قلت في محاضرة من قبل، قلت إن المشكلة الآن أننا لا نتكلم عن حكم المرتد ولكن نتكلم عن حكم الردة، فالترابي يقول في محاضرة له: لا بأس على الإنسان أن يبدل دينه، مع أنه من الثابت عن النبي ﷺ قوله: **(من بدل دينه فاقتلوه)**. ونقلت عنه جريدة اسمها "المستقلة" أنه قال: «إن الحديث هذا كان خاصاً بجماعة من المسلمين ارتدوا، وذهبوا وانضموا إلى الكفار، وجاءوا مع الكفار لقتال المسلمين، فالمسلمون تحرجوا هل يقتلوهم، وهم كانوا بالأمس إخوانهم؟؟.أنا قلت هذه القصة مخترعة، وليس هناك أحد قال من قبل إن هذا هو سبب الحديث، ثم إنها أيضاً قصة سخيفة، فالناس لا يتحرجون من قتل من كان معهم ثم صار ضدهم، بل بالعكس يتحمسون لقتله أكثر من الكافر الأصلي. وأما الموضوع الآخر الذي قاله وقاله ناس قبله، وصار الآن تقريباً رأيا شائعاً، أن المرتد لا يقتل إلا إذا حارب، وأنا أكاد أعرف أول من قال هذا الكلام».

س: لكن هل لهذا الكلام قيمة، فمن حارب المسلمين حتى ولو بقي على إسلامه إلا يقاتل لحمله السلاح عليهم؟

ج : نعم، هذا صحيح، ومعروف.

س: من أول من قال بهذا الكلام؟

ج: نحن كنا طلاب في جامعة الخرطوم، في الخمسينات، وكانت الثقافة الإنجليزية قوية في ذلك الوقت، وكان كثير من إخواننا الذين بدءوا الحركة

الإسلامية في السودان يشرؤون باللغة الإنجليزية، وكان من ضمن ما قرءوا ترجمة محمد علي القادياني للقرآن الكريم، وهي من أوائل الترجمات، محمد علي هذا كان عنده علم، وهو غير يوسف علي، فمن ضمن ما قاله تعليقا على باب في كتاب البخاري عنوانه: قتل المرتدين والمحاربين، فهو رجل عجمي اعتبر المحاربين وصفاً للمرتدين، واستدل بتبويب البخاري هذا، فكأن البخاري قال: قتل المرتدين المحاربين، مع أنه معروف في اللغة العربية أنه ما يفصل بين الشيء وصفته بالواو، فما تقول: محمد والأحمر، إذا كنت تقصد محمد الأحمر، فهو قال هذا وقلده الترابي فيه، والحقيقة أن معظم ضلالاته هو مقلد فيها. ومن الأشياء الكبيرة التي صرح بها أنه ينكر أشياء واضحة جدا في القرآن، مثل موضوع أن آدم أول البشر، فهو ينكر ذلك ويقول أن أول البشر امرأة، وأن الحور العين لسن نساء خاصة بالجنة، وإنما هن نساء الدنيا.

س: بماذا نفسر بعد كل هذا ارتباطه بالحركة الإسلامية، هل لأنه يطلب الزعامة وجعل الدين مطية له؟

ج: أنا أظن ذلك، أنا أعرف ذلك عنه في الستينات وهو في أوج شبابه، وتلبس بالدين لأغراض دنيوية، حتى ولتعرفنهم في لحن القول، مرة كنا في محاضرة في بورتسودان، اشتركت فيها وهو، فقال للناس إن الإنسان إذا أراد أن يجمع السودانيين على شيء لابد أن يأتيهم عن طريق الدين، وبعد المحاضرة قلت له: كأنك تقول للناس نحن نريد أن نستغلكم؟ فهو جاء يريد الدنيا باسم الدين، وربنا سبحانه مكر به، كلما أوشك أن يصل إلى غايته ضربه حتى يسقط.

من الأشياء التي ما ذكرتها في المحاضرة، ولم يصرح بها بشكل علني إلى الآن، لكن رواها عدد من الإخوان عنه وكانوا قريبين منه جداً، قال في جلسة من الجلسات أنا أعلم من النبي ﷺ.

س: بماذا أعلم من النبي ﷺ؟

ج: لما سألوه بعد ذلك قال لهم: أنا قلت لكم أنا أعلم من أبي!، ضحكت من ذلك وقلت: ليس هناك سوداني يقول (أبي)، السوداني يقول: (أبوي). كرر الكلام نفسه مع شخص آخر، عندما أنكر عليه، قال: أقصد في المسائل الدنيوية. قلت: ما أدراه أنه أعلم من النبي ﷺ، كيف تعرف أنك أعلم من النبي ﷺ، قال أنا أعرف اللغات الفرنسية، قلت له: يا أخي النبي ﷺ كان يتكلم مع الجمادات والحيوانات ومع

الجن. من الأشياء التي شاعت عنه، وذكرها لي أحد المقربين منه قال: إنه تستفزه الصلاة على النبي ﷺ، يقول: لماذا عندما نقول (الله) لا نقول سبحانه وتعالى، وعندما نقول النبي نقول ﷺ، قال: قلت له: لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، نحن نضع جبهتنا في الأرض سجوداً وذلا لله عز وجل، هل رأيتنا في يوم من الأيام سجدنا للنبي ﷺ؟ فأنا استغربت من هذا الكلام، وكلمت فيما بعد الصادق عبد الماجد فالصادق قال لي: أنا سمعت هذا الكلام في الستينات، يقول كنا في مسجد ذاهبين للدعوة فجاءت مناسبة، الناس صلوا على النبي ﷺ، فقال لهم هذا الكلام، فكثير من المصلين أخذوا أحذيتهم وخرجوا!

س: يعني هو سبق الدانمارك في الإساءة للنبي ﷺ؟؟

ج: نعم.. ثم هو عنده شك في الأحاديث النبوية، أنا جئت السعودية سنة ١٩٧٤م، جاء وعمل محاضرة هنا، والدكتور أحمد العسال كان أستاذ في قسم الثقافة، قال له: أنت تدعو إلى ماذا؟ إذا كان عندك شك في الأحاديث النبوية فما هي الدعوة التي تدعو إليها، اجلس في الأرض وتأكد من دينك هذا ما هو؟ ثم بعد ذلك ادع.. هذا كان سنة ١٣٩٥هـ، أي قبل ٣٠ سنة، ثم شهد عدد كبير من الناس أنه لا يحافظ على الصلاة..

س: يصلي في غير وقتها؟؟

ج: لا ما يصلي.. يأتي الوقت ولا يصلي. واحد من إخواننا يقول أيام الدعوة إلى الدستور الإسلامي كنا نذهب إلى القرى، وبعض الناس موسرين، يكون عنده أسرة للنوم، فالناس يبيتون عندهم في البيت، فيقول إن واحداً من الجماعة قال: بات عندنا ولم يصل الفجر، وعندما استيقظ أخذ فرشاة الأسنان، ثم جاء يشرب الشاي، فقال له: ياشيخ أنت ما صليت، قال له: خرج الوقت، فقال صاحب البيت: والله ما تشرب الشاي!

س: الشيخ عبدالعزيز بن باز - رحمه الله - هل تعرف له رأي يتعلق بالترابي؟

ج: أنا ما سمعت، لكن أنا بلغت الشيخ رحمه الله بهذا الكلام، ولم أقل له من فعله، لكن الشيخ كان يعرف بعض الأشياء، وما تكلمت معه في هذا الموضوع أبداً.

س: أثار الترابي أخيراً قضية حجاب المرأة، وقال بأن الحجاب هو تغطية الصدر، هل تعد هذه مرحلة من مراحل تطور الفتوى لديه حيث لم يسبق لذلك من قبل؟

ج: هذا أيضاً من الاستكبار والغرور، كيف تعتقد أن الناس ما فهموا حتى أتى هو، أنا أقول بأنه من البلادة أن يعتقد الإنسان أنه ليس هناك أحد يفهم غيره، الإنسان العاقل يعتقد أن للناس عقولا.

س: في مثل هذه القضايا التي تتعلق بمبادئ الدعوة التي تدعو لها الجماعة، من هو الشخص الذي يستطيع أن يحسم مثل هذا الموضوع؟

ج: الناس لأنهم معجبين به لا يهتمون بهذا الأمر كثيراً، أحد إخواننا قال إن الترابي في سفراته للبلاد العربية، يقول للإخوان إن المسألة مسألة شخصية بيني وبين جعفر، وهذه من الأشياء التي غلبني بها، لأننا كلما تناقشنا في موضوع يحوله إلى مسألة يمكن أن يتكلم فيها أي واحد في الشارع، لا تحتاج إلى علم ولا إلى شيء.. حسد، أو تنافس على المناصب، والذين عندهم شيء من العلم يقول هذا حسد الأقران، لكن مع الوقت ظهر للناس أن ما كنت أقوله حقاً، أحدهم قال بأن جعفر كان زرقاء اليمامة، قلت له أنا لست زرقاء اليمامة، لكن أنتم كنتم عميان!!، ثم هو الآن لم يترك فرصة لإنسان يكون معه، ومثل هذه الأمور لا تحصل في الجماعات السلفية التي تجتمع على الكتاب والسنة، لأنها تجتمع على مبادئ واضحة، من وافقها وافق الحق، ومن خالفها خالف الحق، بخلاف غيرها ممن يجمعها التنظيم أكثر من غيره.

س: يظهر أن المعجبين بالترابي قد لا يكونون معجبين بمعنى الإعجاب، الترابي في الفترة الماضية ما كانت تعرف عنه هذه الأقوال خارج السودان، وكان الناس ينظرون إلى الترابي باعتباره زعيماً للحركة الإسلامية، وكانت الحركة الإسلامية في العالم العربي أو في غيره تتبنى الترابي وتعده واحداً منها، وهذا أعطاه دعاية واسعة.أليس كذلك؟

ج: لا.. لكن كان فيه إعجاب به شخصياً، يعني ما كل من كان رئيساً للحركة في بلد ما أنه كان يزين للناس الفكر الغربي.

س: الناس ما كانت تعرف هذا عنه، كانوا يقيسون الترابي بما يعرفونه عنده من العلماء وأنه كان واحداً من هؤلاء؟؟

ج: كيف يا أخي، لا لا، في الأشياء الأخرى، كان هو مثلا يتحدث عن حرية المرأة، من زمان، وحتى كان من المعجبين به وعنده موقف مني أنا القرضاوي، وأنا رأيت بعيني كلاما كتبه لبعض الشباب السودانيين في التعبير عن الإعجاب به.

س: هل للنجاحات السياسية التي حققها أثر في هذا الإعجاب؟

ج: هذي جزء منها، وإن كان كثير من الناس الذين يزورون السودان عرف ما عنده، فيه أشياء أصلها موجودة في حركتنا في السودان قبل ما يكون الترابي، لكن الناس عزوا كل ميزة في الحركة الإسلامية في السودان للترابي، مع أنه في بعض الأشياء كان هو ضدها، لكن عزوها له.

س: محمد أحمد الراشد تكلم عن الترابي، وذكر جانباً من صفات الداعية والزعيم المسلم، واستدل بكتابين، الإيمان وأثره في حياة الإنسان، والصلاة عماد الدين، وذكر الترابي في قضية الإيمان وفي قضية الصلاة، والمحافظة عليها..

ج: أنا ما قرأت الكتابين، ولا أستطيع أن أقرأ له مقالاً، وهو كذلك..

س: هذه قضية شخصية يا شيخ؟..

ج: نعم هو لا يطيقني وأنا لا أطيقه..

س: قضية تاريخية النص من القضايا التي أثارها الترابي في بعض كتبه، ما أبعاد هذه القضية؟ ولا سيما أن هناك من يقول بهذا القول.؟

ج: نعم.. مثل هذه الأشياء الناس يعجبون بها، أن النص قيل في ظرف معين، وتاريخ معين، فلا يمكن أن تعممه..

س: الحق والصواب في هذه القضية، ما هو؟؟

ج: هذه ليست حقيقة إطلاقاً ولا حتى في الأمور الدنيوية، يمكن واحد في ظروف معينة ظروف جغرافية ومناخية تاريخية ثقافية يقول كلاماً حقاً، بغض النظر عن الظرف الذي قاله فيه، ولأنه إذا صارت الحقائق نسبية ما يكون فيه علم لا في الدين ولا في الدنيا، أنا أقول الأرض كرة، قلتها قبل مائة عام، هل يعني أنها الآن يجب أن تكون مكعبة وإلا يكون الكلام فيه خطأ..

س: لكن ما الخطورة في هذا؟؟

ج: قلت لك إنه ما يكون فيه علم أصلاً لا في الدين ولا في الدينا، وأنه لا تكون فيه رسالة، وبالمناسبة هذا الكلام قاله الصادق المهدي على قناة الجزيرة، والصادق في رأيي مفكر أكثر من الترابي، ولكن ليس في الفكر الإسلامي.. قال إن ربنا سبحانه وتعالى الذي أوحى هذا القرآن كان يعلم أن الظروف ستتغير، فلا يمكن أن يكون قصد أن المعاني تظل كما هي رغم تغير الظروف، ولذلك نحن محتاجون إلى أن نحرك هذه النصوص من داخلها!!!! أنا قلت للجماعة: هو عمل مقدمة وانتهى إلى عكسها، مادام أن الله هو الذي أنزل الكتاب، ويعلم أن الدنيا ستتغير، وما قال لنا غيروا المعنى معناه أن هذا المعنى ما يتغير، أو إذا كان يتغير كان يقول لنا إنه سيأتيكم في آخر الزمان واحد اسمه صادق المهدي يعطيكم معاني جديدة اسمعوها منه، وإلا يتركنا كل واحد فينا يعطي النصوص المعنى الذي يريد؟؟

س: البعض يقول نحن نقول نقدس نصوص الكتاب والسنة، لكن فهم العلماء لها مرتبط بظروفهم التاريخية والاجتماعية والسياسية؟؟..

ج: أيضاً هذا يرجع إلى مسألة النسبية، وهذا ليس خاصاً بالدين، لذلك كل ما قيل عن الفلسفة اليونانية، أفلاطون قال وأرسطو قال واليونان قالوا كذا نرفضه، لأن الظروف تختلف، وكلما قيل حتى لو واحد قال كلاماً بالأمس والناس فهموه، أقول لهم هذا الكلام قيل أمس، قبل ٢٤ ساعة، والظروف الآن تغيرت، ثم في كثير من الأحيان الناس يظنون أو يفترضون أن الظروف ما تغيرت من زمن النبي إلا في القرن العشرين.. لماذا؟؟ لم لم تتغير من خمسين سنة بعد موت النبي ﷺ؟؟ وبعد مائة سنة؟. وبالمناسبة هذا الكلام قاله ملحدون مصريون، النص مقدس لكن الفهم متغير، حتى هناك جماعة من الأمريكان قالوا مثل هذا، قلت لهم لا بأس، طبقوا هذا على القوانين، أنا أقف أمام القاضي، ويقول لي حكمنا عليك بكذا وكذا، أقول له والله هذا بحسب فهمك، أنا فهمي للقانون أنني بريء، فلم تحاكمني بفهمك؟؟ ولو كان الأمر كذلك ما يكون فيه قانون، ولا محاكم، لأن أصلا اللغة القصد منها التفاهم بين الناس، فإذا صار كل واحد يفهم اللغة فهماً مختلفاً عن الثاني، فقدت اللغة وظيفتها.

س: ما رأيك بما يثار من الفقه الصحراوي والفقه البدوي؟؟..

ج: نفس الكلام، لأن هذا الذي قال الفقه الصحراوي، إذا كان الناس الآن بدو كان في زمن النبي ﷺ أكثر بداوة، أليس كذلك؟ وإذا كانوا في زمن الشيخ محمد بن عبدالوهاب بدو، فإذاً في زمن النبي ﷺ أكثر بداوة كذلك، فإذا رفضت هذا الكلام لأنه جاء من البدو يلزمك أن ترفض الأحاديث النبوية أيضاً، ثم كل هذا له علاقة بمسألة النسبية هذه، يعني من الأشياء التي ربنا سبحانه وتعالى تفضل بها على الناس أن الإنسان يمكن أن يعرف الحق بغض النظر عن الظروف التي هو فيها، لأن هذا الحق ربنا بناه على شيء لا يتغير.. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، فما دام هذه الفطرة موجودة فالإنسان عنده مقدرة أنه يرى الحق حقاً بغض النظر عن الظروف التي يعيش فيها، وهذا عندنا عليه أدلة من الواقع، ناس يقرءون القرآن في أفريقيا ويؤمنون، أناس يقرءون القرآن في أستراليا ويؤمنون، وهكذا، ويسمعه العامي الذي لا يقرأ ولا يكتب فيؤمن كذلك.. أنا أعرف شابا أسلم، قال بأنه أسلم بسبب ترجمة لسورة الفاتحة، والكتاب الذي اعتمد عليه ترجمه واحد غير مسلم، كان يتكلم عن الأديان، ويأتي من كل دين ببعض النصوص، فهو قرأ هذه الأديان، لما جاء إلى الإسلام ترجم سورة الفاتحة، يقول هذا الشاب: أنا في العادة أتأثر فكرياً بالكلام، أما هذا الكلام أثر في قلبي، وما أحد دعاه، قرر أن يسلم، ثم سأل عن الإسلام .

س: ما يتعلق بنصوص مثل بعض أحكام أهل الذمة، مثل ما ورد من اضطرارهم إلى أضيق الطريق، وما شابهه، كيف يمكن فهم هذا النص في ظل واقعنا اليوم؟

ج: كل نص له شروط في تطبيقه، الدين ما قال إذا ما فيه شارع مثل هذا الشارع تضطروه، أو إذا كنت أنت في بلدهم، واحد قال إذا كنت في (أوكسفورد استريت) كيف أضطره؟ قلت يا أخي: تضطره وهو في بلده؟!! هو يضطرك؟ ثم كيف تضطره إلى أضيق الطريق أو أقصى الطريق؟ قال: أسد على سيارته. قلت: تأتي الشرطة ويجروا سيارتك ويغرموك.

س: ما معنى اضطروهم؟ البعض يظن أن ذلك يعني إيذاءهم، مع أنها وردت نصوص تدعو إلى منع إيذائهم؟

ج: لا، يعني أن تمشي أنت وتتركه، ثم الآن نحن الذين هم يضطروننا حتى خارج الطريق.

س: لو خرجنا يا شيخ إلى قضية دارفور، الجانب السياسي فيها، والحملة الغربية..

أولاً: ما تقييمك لقضية دارفور كقضية سياسية داخلية؟

ج: أنا أقول لك بعض الحقائق، المشكلة أصلا بين الذين يسمون بالعرب والذين يسمون بالأفارقة، المشكلة تاريخياً دائماً أن العرب رحل، أصحاب جمال ومراعي والأفارقة مزارعون، فأحياناً يحصل شح في الأمطار، والعرب لا يجدون مراعي فيهجمون على مزارع الأفارقة، وتكون مناوشات، ويقتل عدد من الناس، حتى عندما جاء الإنجليز كان هذا موجوداً. ثم استغل هذا سياسياً، من الذي زود الأفارقة أو العرب بالسلاح؟؟ الحكومة متهمة بأنها زودت العرب بالسلاح، في مقابل السلاح الذي أعطي للأفارقة، وأعطتهم إياه دول من الخارج، وكلهم مسلمون، وما هناك فرق كبير في الألوان، لأنهم امتزجوا ببعضهم، وتزوجوا من بعض، حتى حكومة السودان لما جاء باول ضحكوا عليه، قال أريد زعيم من العرب، وزعيم من الأفارقة، فأتوا له بزعيم من العرب أسود من الزعيم الأفريقي، فجلسوا، حتى هو قال فيما بعد: يبدو أنني الرجل الوحيد الأبيض فيكم! والأفارقة هؤلاء كانوا متدينين أكثر من العرب، فالعرب هم في الواقع أعراب، بينما الأفارقة فيهم من يحفظ القرآن.. من الأشياء التي قالها الرئيس - وهو كلام كان مؤثراً ومحزنا - قال: نحن الحكومة الوحيدة التي اهتمت بمنطقة دارفور، عندما جئت إلى الحكومة، كانت هناك مدرستان فقط، مثنا مدرسة. لم يكن فيها مطارات، الآن فيها ثلاثة مطارات، ما كان فيها جامعات الآن فيها أكثر من جامعة، وما بدأت المشكلة إلا بعد أن بدأنا نهتم بها.

التفسير الذي يقال: هو أن الغرب يعرف أن السودان هذا بلد كبير، فيه الآن بترول، وفيه كذلك إمكانات زراعية هائلة، وبالتالي لا يمكن أن يترك هذا البلد للمسلمين.

س: البعض يذهب إلى أبعد من هذا، وهو أن أمريكا تريد أن يكون لها وجود عسكري في أفريقيا..

ج: الآن أنا قرأت أن لديها قواعد في أثيوبيا والصومال، لأن أمريكا صار همها الأكبر الآن أنه يوجد شح في البترول، وأن الشح يزداد مع الأيام، فأمريكا عندها سعر الآن لتحافظ على أي قطرة بترول في العالم، وأن تسيطر عليها وتضمن وصولها إليها، تريد أن تضمن آبار البترول، وتضمن تصديره إليها.

س: وتضمن أن يكون بأسعار مناسبة لها؟

ج: الأسعار ليست مهمة الآن، المهم أن البترول بالنسبة لها أصبح حياة أو موت، والسودان صار فيه بترول الآن، وفيه غاز طبيعي في شرق السودان، فلا بد أن تسيطر عليه. أنا لا أريد أن أدافع عن الحكومة، أنه ما فيها أخطاء، أو أنها سلحت الجنجويد هؤلاء، لكن لو كنت أنا في الأفارقة، وبعضهم أيضاً: بالمناسبة الجماعات المسلحة لا تمثل كل الأفارقة، بل هي جماعات أقلية، لكن صارت قوية لأنه لديها سلاح، وإلا الناس هؤلاء يعرفون أنهم لا يمكنهم أن يعتمدوا على إنسان كافر، وأن علاقتهم بإخوانهم في الشمال علاقة دين، ثم إن الأمور تسير نحو الاختلاط، يعني الآن الخرطوم أكثر أفريقية بكثير جداً مما كانت عندما كنت في الجامعة، كثير من إخواننا الذين يسمون بالأفارقة في جنوب السودان وفي غرب السودان يملأون الخرطوم الآن، في الماضي كانت الخرطوم فعلا للقبائل العربية، لكن هذا كله الآن تغير، والتزاوج في تزايد، ففكرة أن هناك منطقة معزولة أو قبيلة، كل هذا ما له مستقبل، مجرد فتنة.

في الختام نشكر فضيلة الشيخ، ونسأل الله أن يبارك فيه وفي وقته، وأن يجعلنا وإياه ممن يهتدون بالحق وبه يعدلون، وأن نلتقي به مرات ومرات.

* * *


الثقافة الإسلامية
والدعوة إلى الله

للدكتور جعفر شيخ إدريس مقالات عديدة ومتنوعة نشرت في عدد من المجلات والصحف العربية والإسلامية تعالج قضايا الإسلام والدعوة إلى الله، وسأذكر المقالات التي تمكنت من الحصول عليها، أما المقالات التي كتبها الشيخ ونشرتها مجلة البيان فسأكتفي بذكر عناوينها والتعريف بكل مقال بشكل موجز.

أولاً: المقالات

أهمية العقيدة وأسبقيتها على الأفعال

موقع المختار الإسلامي جمادى الآخرة ١٤٣٦ ٢٠

عقيدة التوحيد هي جوهر الدين وأساسه، فالتأثير فيها سلباً أو إيجابًا هو أخطر التأثيرات على دين المسلم. ولما كان الإعلام من أقوى المؤثرات - إن لم يكن أقواها - في عصرنا هذا على حياة الناس الفكرية والسلوكية؛ كان البحث في تأثير الإعلام الغربي على عقيدة المسلم المتعرض له، من أهم ما ينبغي أن ينشغل به الباحثون؛ لذلك سرني أن يكون النظر فيه ضمن اهتمامات هذه الورقة المباركة. وإن كنت أعلم أنني لن أستطيع أن أوفيه حقه.

ولما كان البحث في هذا التأثير لا يتم إلا ببيان المكانة العظيمة التي تحتلها العقيدة في الهدي الإسلامي، وبالتالي في حياة المسلم الملتزم به، فقد كان من التوفيق أيضًا أن يطلب من الناظر فيه البدء ببيان هذه المكانة العظيمة.

البعد القلبي في تقييم سلوك المسلم:

أقول إذن مستعينًا بالله ومبتدئًا حديثي هذا بسؤال: لماذا جُعلت العقيدة أساس الدين وركنه الأول؟ ربما تبادر إلى أذهان بعض الناس - ولا سيما أناس في عصرنا هذا الذي يرفع من قدر الظاهر المحسوس - أن الجدير بهذه المكانة هو الأعمال الصالحة الظاهرة، كالإنفاق، وحسن معاملة الناس، والجهاد لرفع راية الدين، فلماذا جعل الله هذه المكانة السامية غاية السمو لشيء باطني غير عملي؟ مع أننا إنما نقوِّم الناس بحركات جوارحهم، لا بحركات قلوبهم وما يكمن في ضمائرهم؟

الجواب الموجز هو أن ما في الباطن مُقدّم على ما في الظاهر؛ لأنه هو أساسه ومصدره. فما من عمل ظاهري حسناً كان أم سيئاً إلا وله أساس باطني، هذه حقيقة يعلمها كل إنسان من نفسه، ولو كان يعلم ما في نفوس الآخرين كما يعلم نفسه؛ لكان تقويمه لأعمالهم بأساسها الباطني هذا لا بشكلها الخارجي. تصوّر لو أن إنساناً أهدى إليك هدية قيمة، لكنك شاهدته في قلبه يقول لك: «ما أحقرك! والله إنك لا تستحقها ولا تستحق أقل منها، ولولا أني أطمع منك في أكثر منها لما أعطيتك إياها». هذا علم غيّبه الله عنا، فلم يبق لنا إلا الحكم بالظاهر، والاستدلال به أحياناً على ما في الباطن. أما الخالق سبحانه فإنه عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ ولهذا كان تقويمه

سبحانه للناس بهذا الباطن الذي هو أساس الظاهر. إن أصل تكريم الباطن هو أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون الإنسان من عنصرين من مخلوقاته: عنصر الطين وعنصر الروح. فجعل اللهُ المكوّنَ من الطين هو صورته المرئية، وجعل العنصر الروحي حقيقته الخفية. لكنه سبحانه جعل بين ظاهر الإنسان وباطنه صلةً ونسبًا. فالروح إنما تسكن في الجسد، وإنما تبدو تصرفاتها وتأثيراتها عليه وبوساطته؛ وربما كان هذا هو السر في أن بعض أعمال الروح تُنسب إلى أعضاء جسدية لصلتها الخاصة بها. إن القلب الجسدي ليس هو الذي يعقل كما يحدثنا شيخ الإسلام ابن تيمية. وعليه فإن السلامة والمرض المنسوبتين إليه في الكتاب والسنة ليستا أحوالا جسدية كما هو المشاهد، وإنما هي أحوال روحية نُسبت إلى ما يلائمها من الأعضاء الجسد، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل الإنسان إنسانا بجوهره الروحي الداخلي الخفي لا بشكله الجسدي الخارجي. فالروح هي محل الإدراك والإيمان والتصورات والإرادات والمشاعر. والإنسان إنما يتحرك ويتصرف بما يعتقد، حقًا كان أو باطلاً، وبما يتصور واقعًا كان أم وهمًا. وإذا كان الأمر كذلك كان ما يظهر لنا من صلاح الإنسان أو فساده السلوكي راجعًا بالضرورة إلى صلاح معتقداته وتصوراته أو فسادها؛ إذن فالجانب الذي نسميه عمليًا في حياة الإنسان والذي قد نخطئ فنظنه أهم جانبيه، إنما هو أثر وناتج عن جانبه الداخلي الذي قد نجنح إلى التقليل من أهميته؛ فنَصِفُه بالنظري أو المثالي. كلا، إنه لهو الجانب الفعال الذي يحدد مصير الإنسان والذي ينبغي لذلك أن تكون العناية به أكبر.

وكما جعل الله تعالى غذاء الجسد وبقاءه في بعض المطاعم والمشارب، وجعل مرضه أو موته في غيرها، فقد جعل غذاء الروح وبقاءها في بعض العلوم، وجعل مرضها وموتها في حرمانها منها، وجعل حياته الروحية هي حياته الحقيقية، وموتها هو موته الحقيقي.، والحقائق التي يمكن للإنسان أن يعلمها كثيرة، والعلوم النافعة كثيرة، لكن أشرف العلوم وأجلها نفعًا هو العلم بالله ربًا لا رب سواه، وإلهًا لا معبود بحق إلا إياه. هذا هو العلم الذي لا تحيا القلوب إلا به، ولا يكون الإنسان مخلوقًا كريمًا إلا بمعرفته، والاعتراف به.

نعم، الاعتراف؛ لأن هذا العلم لا يؤتي ثماره إلا إذا اختار من علمه أن يعترف بما علم ويؤمن به. فالروح لا تحيا بالمعرفة وحدها، بل لا بد أن تنضم إليها الإرادة، إرادة الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]. فتأثير هذا العلم معتمد على قبوله أو رفضه لا على مجرد

اكتسابه. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

فإذا ما عرف الإنسان ربه وآمن به تفجرت ينابيع الخير في قلبه، ثم فاضت على جوارحه بمقدار علمه وقوة إيمانه. لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى كما جعل الروح جوهر الإنسان، فقد جعل الإيمان به منبع كل خير فيه. ولذلك كانت الدعوة إليه والتذكير به مفتاح كل دعوة إلى فكر قويم وسلوك مستقيم، وكانت الدواء الذي لا غناء عنه لكل أنواع الانحرافات السلوكية. ولذلك كانت البداية به في جهود الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لإصلاح المجتمعات التي بُعثوا إليها. يدعو أحدهم قومه إلى إفراد الله تعالى بالعبودية ثم يدعوهم بعد ذلك إلى تفاصيل الشريعة وإلى ترك ما هم عليه من أنواع الانحرافات السلوكية، خلقية كانت أم اقتصادية أم سياسية أم اجتماعية.

فالإيمان هو الذي يهيئ النفوس لعبادة الله وينشط الجوارح لها، وكما يقول الشاعر:

وإذا حلـــت الهدايـــة قلبًـــا نـــشطت للعبـــادة الأعـــضاء

وهو الذي يهيئها لقبول تفاصيل الشريعة، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "لقد نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام. ولو نزل لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً. لقد نزل بمكة على ﷺ، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده. وهو السبب الأساس لحل المشكلات الاقتصادية والسياسية والخلقية. أقول إنه الأساس ولا أقول إنه يغني عن التفاصيل التشريعية المبنية عليه، ولا عن الأسباب الطبيعية والاجتماعية التي جعلها الله أسبابا مؤثرة. وهو السبب الأساس لبقاء النعم المادية وزيادتها. والكفر والإخلال به هو السبب الأساس لنقصانها وزوالها. والمتتبع لنهج القرآن يجد هذه السيرة. فالله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا

تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ [هود: ٢٤-٢٥]. ثم يقول: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠-١٢]. ويقول: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]. ثم يقول: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]. ويقول: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ [هود: ٦١]. ويقول: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ﴾، ثم يقول: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤]، ويقول: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٦٤]. ويقول: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. ويقول: ﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٢-١٧٥]. ويقول تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

وأهم من هذا كله أن عقيدة التوحيد هي سبب السعادة النفسية، يقول تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، بل هي سبب السعادة الأبدية لأنها هي السبب الأساس لدخول الجنة وللنجاة من النار، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ويقول تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فكيف يهدم الإعلام العقيدة؟

شبكة المشكاة الإسلامية
الجمعة ٢٩ شعبان ١٤٢٤هـ/ ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣م

الإعلام والعولمة ضد الهوية والخصوصية:

وسائل الإعلام ليست قاصرة ـ كما هو معروف ـ على الصحف والمجلات والراديو والتلفاز، بل تشمل الكتب العامة والسينما، وربما المسرح، وتشمل الآن الشبكة العالمية (الإنترنت) .لكنني أريد أن أضيف في هذا المقال إليها حتى الكتب المدرسية؛ لعظم تأثيرها على الآلاف المؤلفة من أبناء المسلمين .وإذا استثنينا الإعلام الكنسي بكل وسائله ـ وهو إعلام لا يكاد يتعرض له المسلم ـ فربما استطعنا أن نقول بأن الإعلام الغربي نادرًا ما يتعرض للمسائل الدينية بطريقة مباشرة .فكيف يكون له إذن تأثير إيجابي أو سلبي على الدين؟ نعم إن له تأثيرًا أيما تأثير؛ لأنه ليس من شرط التأثير أن يكون مباشرًا ، بل إن التأثير غير المباشر قد يكون أعظم من التأثير المباشر كما سنرى، وهو في غالبه تأثير سيئ، وإن كان لا يخلو من بعض التأثيرات الحسنة .ونعني بالتأثير غير المباشر هنا تلك المعتقدات العلمانية الإلحادية المادية الشائعة في الغرب، والتي يفترض صحتها، والتي تكمن وراء تفسيراتهم للحوادث الطبيعية والاجتماعية والنفسية، وإن كان لا يُصرَّح بها إلا نادرًا ، وهذه التفسيرات تتسرّب في مقولاتهم وتفسيراتهم التي تصل إلينا عبر الكتاب أو الخبر أو المواد الدرامية، وغيرها الكثير.

المضمون اللاديني للعملية الإعلامية:

تأثيرات الإعلام الغربي السلبية على عقيدة المسلم كثيرة، نذكر منها فيما يلي بعض ما يحضرنا ونراه مهما:

أولاً: من التأثيرات الشديدة الخفاء، البالغة الضرر، الاعتقاد السائد بين كثير من علماء الطبيعة والاجتماع ـ وبالتالي بين عامة المفكرين والصحفيين والمحللين في الغرب ـ أن التفسير العلمي للحوادث، سواء كانت طبيعية أو اجتماعية، هو ذلك التفسير القائم على افتراض أن هذا الكون مكتف بنفسه، وأن تفسير حوادثه ينبغي لذلك أن يكون من داخله، أعني أن الظواهر يجب أن تفسر بظواهر أخرى، وأن كل تفسير لشيء من حوادث الكون بإرجاعها إلى سبب خارج عنه هو تفسير خرافي غير علمي.

هذا هو المبدأ المفترض، لكنه لا يقرر في وسائل الإعلام التي نستوردها بهذه الطريقة الصريحة التي ذكرتها، وإنما يفترض افتراضًا، وقد يفترضه ويلتزم به حتى من لم

يفكر فيه من العلماء الطبيعيين وسائر المفكرين، والصحافيين ومن مظاهر افتراضهم له أنهم يقفون في تفسيرهم للحوادث عند أسبابها الدنيوية، ظاهرة كانت أم خفية، ولا يتجاوزونها. .وما ذلك إلا للاعتقاد بأنها هي الأسباب الحقيقية الكافية.

لكن المسلم مع اعتقاده بفاعلية الأسباب الطبيعية أو الاجتماعية أو النفسية، لا يقف عند حدودها، بل يذكّر نفسه بأنها إنما صارت أسبابًا بجعل الله لها أسبابًا، وأن الفاعل الحقيقي إنما هو الخالق سبحانه .قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله: أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقاة نتقيها، هل تردّ من قدر الله شيئًا؟ قال: **(هي من قدر الله)**.

قلت إن هذا المبدأ الإلحادي قليلاً ما يصرّح به، وأقول إن التزامه في الواقع قد لا يبدو فيه ما يخالف عقيدة المسلم، ما دام المسلم معترفًا بتأثير الأسباب المخلوقة وفاعليتها .لكن الأمر في الحقيقة ليس كذلك .إن المتلقي إذا كان لا يسمع لله ذكرًا أبدًا في كل ما يخبر به من حوادث طبيعية واجتماعية يوشك أن يتأثر بذلك المبدأ فينسى هو الآخر ذكر الله تعالى، وينحو نحو أصحابه في تفسيره للحوادث، فلا تكون له فيها عبرة.

المبدأ الغربي الثاني الذي أراه أيضا ذا أثر سيئ، والذي أراه قد بدأ ينتشر حتى بين المسلمين في العالم الإسلامي بسبب التأثر بالثقافة الغربية التي تنقل عن طريق وسائل الإعلام، هو مبدأ النسبية، أعني نسبية الحقائق والقيم .لقد أصبح من المسلمات عند كثير من الناس في الغرب أنه لا توجد حقيقة مطلقة، ولا قيمة مطلقة، وإنما الحقائق والقيم نسبية، أي: أنها منسوبة وتابعة لزمانها أو مكانها أو الحضارة والثقافة التي ظهرت فيها، وهكذا .فما قاله الناس في عصر معين، أو اعتقدوه في مكان معين، أو رأوه حسنًا في حضارة معينة، كل هذا صحيح أو معقول بالنسبة لهذه الحضارات والأزمنة والأمكنة فقط، وإن كنا نراه نحن في ظروفنا أو زماننا أو حضارتنا على غير ما رأوه .وما دام الأمر كذلك فليس من حق أحد أن يقول: «إن فهمه لنص من النصوص هو الفهم الصحيح، أو إن فهم خصمه خطأ، وإننا ينبغي لذلك أن نكون سلفيين في فهمنا للنصوص، فللسلف زمانهم ولنا زماننا، ولهم ظروفهم ولنا ظروفنا!!» .
بل قد رأيت بعضهم غلا في هذا الأمر حتى قال: إن الرسول ﷺ لا يمكن أن يفسر القرآن لعصرنا لأنه لا يعرفه.

ثالثًا: الاعتقاد في المفهوم السلبي للحرية: وإذا كان الاعتقادان السابقان مما يُفترض ولا يُذكر، فإن هذا مما يكثر ترداده والتصريح به، والدعوة إليه، والتفاخر به، في كل أجهزة الإعلام .وقد أثر لذلك في الناس تأثيرًا بالغًا حتى صار من المسلمات حتى عند كثير من المسلمين.

إن الحرية تعني أن الله تعالى أعطى الإنسان المقدرة على الاختيار كما أعطاه المقدرة على العمل، وهذا أمر لا شك فيه، بل ربما كان هو مما يتميز به الإنسان . وقد شاء الله تعالى أن يجعل الإنسان شائيًا، ومسؤولاً عن مشيئته، حيث قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

فالمنازعة ليست إذن في كون الإنسان ذا إرادة ومشيئة واختيار، وإنما هي في الطريقة التي تُستعمل بها هذه المشيئة أو الحرية التي منحها الله تعالى للإنسان. المفهوم السلبي للحرية يجعلها غاية في ذاتها، بمعنى أن كرامة الإنسان تزداد بازدياد استقلاله في اتخاذ قراره، أياً كان ذلك القرار . أي إن العبرة في الاختيار لا فيما يختار. وعليه؛ فكلما تمكن الإنسان من أن يفعل ما يشاء كان هذا أكرم له وأكثر تحقيقاً لإنسانيته.

هذا المفهوم السلبي للحرية مفهوم قديم وإن ارتدى زيًا حديثًا. إنه المفهوم المرتبط بالاستكبار والكفر. وهو المفهوم الذي لجأ إليه قوم شعيب في احتجاجهم على أمره لهم بعبادة الله وعدم الظلم في المعاملات المالية، حيث قال الله تعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، وهو المفهوم الذي ذمه الله تعالى في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أي لا يُؤمر ولا يُنهى .فالإسلام يعلمنا أن كرامة الإنسان لا تتحقق بمجرد الاختيار؛ لأن هلَكة الإنسان قد تكون فيما يختار، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وإنما تتحقق باختياره للحق وللخير، ولما يختاره له ربه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

رابعًا: في الإعلام الغربي هجوم على المسلمين ولا سيما العرب، هجوم قال عنه الأستاذ "إدوارد سعيد": «إنه من النوع الذي لم يعد مقبولاً في الغرب حين يوجّه لليهود أو السود أو الآسيويين أو الأفارقة .حيث يُتهم العرب بعدم الأصالة وبالمحافظة وبعدم القدرة على التحضر، وبالإرهاب، بل وبالتواكل وبالقذارة، ثم يُقال إن سبب هذا كله هو الإسلام .هذا كلام يبدو لأمثالنا سخيفًا لا يستحق حتى أن يُرد عليه، لكن ينبغي إلا نقلل من تأثيره على شاب في مقتبل عمره، ولد في بلد غربي وترعرع فيه .فعندما ظهر كتاب الآيات الشيطانية لمؤلفه الإيراني طلب مني إخواننا في مجلة Impact أن أكتب نقدًا له .فعندما قرأته قلت لهم كلامًا فحواه أنه كتاب سخيف ثقيل ما أظن أحدًا سيكمل قراءته، فأرى لذلك أن لا تهتموا به، بل اتركوه ليموت .لا زلت أذكر ردهم . قالوا إن الكاتب معروف في أوساط الشباب ذوي الأصول الهندية الباكستانية، وأنهم قارئوه لا محالة».

خامسًا: يكثر في الإعلام الغربي الحديث عن الدين بطريقة هازلة، ولإثارة الضحك، حتى فيما يتعلق بالخالق سبحانه وتعالى .ويكثر فيه وصف الخالق بكلمات لا احترام فيها، كما نرى ذلك مثلاً في عنوان الكتاب الذي دخل ضمن أكثر الكتب بيعًا في أمريكا. إن اسمه: "سيرة الله": تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، إن كثيرًا من المسلمين المعاصرين لا يدرون أن الكلام عن الخالق بمثل هذه الطريقة يخرج صاحبه عن ملة الإسلام .ألم يقل الله تعالى عن بعض أمثال هؤلاء: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

سادسًا: ومما يتصل بهذا أنهم لم يعودوا يأخذون الدين مأخذ الجد، ويصورون هذا بأنه تسامح، وسعة أفق، ويصفون كل من يبدو منه استمساكًا شديدًا بالدين بالتطرف أو ضيق الأفق والتعصب وعدم العقلانية، وهكذا، لذلك تعجَّب كثير من الغربيين من الضجة التي أثارها المسلمون بسبب ما قاله مؤلف الآيات الشيطانية عن الله تعالى .وقد تأثر الإعلام في البلاد العربية والإسلامية بهذا الانحراف، فعاد هو الآخر يطبقه على كل من يبدو منه شدة استمساك بنصوص الكتاب والسنة، وعاد يمدح كل منتسب للعلم يبدو منه هذا النوع من التحلل.

سابعًا: الإعلام الغربي - التلفاز والمجلات والقصص والأفلام والإنترنت - كلها ملأى بما يثير الشهوات الجنسية، ويحفل قدر كبير منها بكل نوع من أنواع الإثارة، بالكلمة والصورة، بالشعر والقصة، بأخبار المنحرفين وبنشر الفضائح . قد يُقال: لكن ما علاقة هذا بالعقيدة التي هي موضوع بحثنا؟ وأقول إن له علاقة وثيقة .إن الإنسان قد يقع في المعاصي الجنسية ويظل مع ذلك محتفظًا بإيمانه وصفاء عقيدته . لكن من هنالك تنبت الصلة بين الشهوات والشبهات كما نبهنا إلى ذلك علماء السلف .فالذي يشتد ضعفه أمام الشهوات يضعف قلبه، فيكون مهيأ للتأثر بالشبهات المتعلقة بالعقيدة، كتلك التي ذكرناها آنفا.

ثامنًا: وهنالك شبهات مباشرة وجدت في الإنترنت مرتعًا خصبًا لها، شبهات يثيرها خصوم الإسلام المختصون بمحاربته على صعيد الفكر، ويثيرها أهل الأهواء من المنتسبين إلى الإسلام من مفكري الفرق الضالة .كلاهما أصبح يتستر وراء هذه الشبكة، ويعلن فيها ما قد يتردد من التصريح به في وسائل الإعلام الأخرى .وقد رأيت بعض الشباب يتابعون ما يُنشر في أمثال هذه الصفحات، ثم يأتون ليسألوا عن كيفية الرد عليها، لأن علمهم بالدين قليل، والشبهات قوية مضلة.

تاسعًا: وربما كان سبب هذا كله أن في الغرب عدم اطمئنان إلى الدينين الشائعين فيه، وعدم ثقة برجالهم، بل وشكاً في إمكانية الاستقامة .وهذا داء في الغرب قديم أكثر ما يظهر في الأدب، حتى لقد قال أحد نقادهم - أظنه ألدوس هكسلي - إنه لا يوجد في أبطال روايات شكسبير رجل خيِّر .وأنت تلاحظ هذا في القصص التي يقرؤها الناس بشغف .إن الشخصية المستقيمة أو المتدينة في القصة كثيرًا ما تصور بأنها شخصية منافقة تفعل في الخفاء ما يخالف مسلكها الظاهري، حتى لقد أصبحت المجاهرة بالسوء نوعًا من الصدق مع النفس والصراحة .وبما أن الغربيين لا يعرفون ديناً غير دينهم فإنهم لا يتحدثون عن اليهودية والنصرانية بخصوصهما، وإنما يتحدثون عن الدين بصفة عامة .ومن هنا يأتي خطر كلامهم على الطفل أو الشاب المسلم الذي يعيش بين ظهرانهم، بل حتى الذي يتعرض في بلده الإسلامي لإعلامهم وثقافتهم.

* * *

تعظيم التوحيد!!!

المصدر: مجلة منار السبيل
السنة الرابعة، العدد الثاني، جمادى الآخرة
١٤١٦هـ الموافق نوفمبر ١٩٩٥م

عبادة الله وحده لا شريك له هي لب لباب رسالة الإسلام من لدن نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ.

فلا نجاة لأحد لا يحقق هذا التوحيد فيأتي اللهَ بقلب سليم من أمراض الشرك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

هذه حقيقة لا شك فيها. والحقيقة الثانية -وهي حقيقة محزنة- هي أن جماهير كبيرة من المنتسبين إلى الإسلام لم تعد تحقق هذا التوحيد، فلا بد من دعوتهم إلى هذا الأصل الأصيل قبل دعوتهم إلى فروع العبادات ومكارم الأخلاق واجتناب المحرمات.

لكن بعض إخواننا -عفا الله عنهم- غلو في تعظيم التوحيد غلواً يكاد يجعلهم يهونون من شأن شرائع الإسلام الأخرى، ويكاد يغري المستمع إليهم بالأمن والنجاة ما دام قد حقق كلمة التوحيد مهما ارتكب بعد ذلك من ذنوب.

وهذا خطأ عظيم. نعم إن أمور الحلال والحرام العملية أقل شأناً من التوحيد، لكنها هي في نفسها عظيمة، وهي كلها مرتبطة بالعقيدة أوثق رباط.

فالإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. والانغماس في شهوات الخمر والميسر والزنا وأكل الربا، واتباع النفس هواها في ظلم العباد وأكل أموال الناس بالباطل وبخسهم أشياءهم، كل هذا ذو تأثير عظيم على التوحيد مهما كان في بداية الأمر قوياً وخالصاً.

وإذا كان الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فكيف يأمن من يظل إيمانه في نقص مستمر؟ والذنوب من شأنها أن تحدث في النفس غفلة يقسو بها القلب قسوة قد

تزيل عنه حقيقة الإيمان. ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

والمعروف أن الشهوات تفتح باب الشبهات فينتقل صاحبها من ارتكاب المحرمات إلى حبها ثم الضيق بالتشريع الذي حرمها، والميل إلى شبهات الذين يكرهون تحريمها من شياطين الإنس والجن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥-٢٨].

وعن عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول على أعواد منبره: **(لينتهين أقوامٌ عن ودعهم الجُمُعات، أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين)**. [أخرجه مسلم].

إن التوحيد ليس مجرد قناعة فكرية، وما هو بمجرد استقامة لغوية، وإنما هو حال وعمل قلبي يحتاج إلى رعاية دائمة وغذاء مستمر وهو إنما يتغذى بالاجتهاد في الطاعات واجتناب المحرمات.

اللهم أدم علينا نعمة الإيمان بك ووفقنا لطاعتك واجتناب مساخطك والغفلة عن ذكرك.

❋ ❋ ❋

لا مداهنة في دين الله

السبت ١٠ رجب ١٤٢٦هـ / ١٣ أغسطس ٢٠٠٥م
شبكة المشكاة الإسلامية

ديننا يحثنا على أن نعامل المسالمين لنا من غير المسلمين معاملة حسنة، بل وأن نتعاون معهم في كل أمر نرى فيه خيرا. لكن الحد الديني الفاصل بيننا وبينهم يظل قائما لا تمحوه مواطنة ولا يمحوه أي إحسان يسدونه إلينا أو نسديه إليهم مهما كان عظيما. فإذا علمنا عن إنسان أنه قد بلغته الرسالة المحمدية ولم يؤمن بها، بل أنكر أن يكون محمد رسول الله، أو أن القرآن كلام الله، فإنه لا يحق لنا أن نعامله وكأنه مؤمن بالله ورسوله. هذا من التناقض الذي لا نقدم عليه في حياتنا الدنيوية فما بال بعضنا يتجاهلونه في حياتهم الدينية؟ إنك لا تعطي كل حقوق السوداني لشخص تعلم أنه ليس سودانيا مهما كان فضله على السودانيين. وأهل الرياضة لا يقبلون في نادي هلالهم شخصا يعرفون أنه من كبار أنصار المريخ حتى لو كان هو المهندس الذي بنى لهم استادهم. .

وكذلك بل أعظم من ذلك ينبغي أن يكون الأمر بالنسبة للدين. إن الدين ينبغي أن يؤخذ مأخذ جد وحزم لا مجاملة فيه ولا مداهنة. لقد كان أبو طالب عما للنبي ﷺ، وكان من أكثر الناس حباً له، ومدحه مدحاً رائعاً في قصائد هي من عيون الشعر العربي، بل كان يحوطه ويدافع عنه ويضحي في سبيل أمنه، لكنه لم يكن يؤمن بأنه رسول الله، ولذلك فإن شيئا من ذلك لم ينقذه من عذاب النار، بل كل ما استفاده من إحسانه للنبي أن كان أقل أهل النار عذابا. إن الذي يموت منكرا لرسالة محمد ﷺ لا يدخل الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط. لا يغير مصيره هذا حتى استغفار النبي ﷺ له. ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

ولا تغيرها صلة قرابة حتى ببعض أولي العزم من الرسل.

- فابن سيدنا نوح غرق فيمن غرق من أهل الكفر، ولم تنقله صلة البنوة إلى سفينة النجاة.

- وامرأة لوط ظلت مع الغابرين الذين قلب الله بهم الأرض.
- وإبراهيم كف عن الاستغفار لوالده لما تبين له أنه من أصحاب الجحيم.
- ونبينا محمد ﷺ قيل له: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤].
- وقيل لسائرنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

لذلك عجبت وعجب الآلاف من المسلمين في العالم من إطلاق بعض الناس صفة الشهيد على جون قرنق. ولسؤال بعضهم له الرحمة، بل قيل لي إن بعضهم بلغت به الوقاحة أن سأل الله تعالى أن يسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أيحسب هؤلاء الجهلة أن الله تعالى يكتب هذا المصير لإنسان لأنه كان رئيس حركة حاربت المسلمين أكثر من عشرين عاما ثم سالمتهم؟ أيحسبون أنه يكتبه لإنسان لأنه عين نائبا أول لرئيس جمهورية السودان؟ أيحسبون أنه يكتبه إرضاء لبعض السياسيين؟ كلا والله. كيف يكون النبيون رفقاء لمن يكفر بخيرهم وخاتمهم؟ وإذا أمكن لرجل ينكر نبوة محمد ﷺ أن يكون مع الأنبياء والشهداء والصديقين فليكن معهم أيضا أبو لهب وفرعون. وليكن معهم ستالين ولينين وأمثال بوش وسائر أئمة الكفر. وليكن الإسلام دينا لا معنى له ولا تمييز فيه بين من كان من أهله أو كان من أعدائه.

هل بلغ جهلنا بالدين واستخفافنا به إلى هذا الحد؟

إننا أمة تأخذ دينها مأخذ الجد فمن ظهر لنا من كلامه وتصرفاته أنه مسلم سألنا له المغفرة ورجونا أن يدخله الله الجنة. لكننا لا نجزم بذلك لأن الشخص ربما كان منافقا يظهر لنا غير ما يبطن. ومن ظهر لنا من أقواله وأفعاله أنه كافر عاملناه معاملة الكافر وحسبناه من أهل النار.

* * *

نبي الرحمة الإيمانية

شبكة المشكاة الإسلامية
الثلاثاء ٤ ذو الحجة ١٤٣١هـ ٩نوفمبر ٢٠١٠م

أرسل الله تعالى رسوله محمداW ﷺ رحمة للعالمين..

رحمته بشخصه:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ورحمتة برسالته:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاس قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

اهتم كثير من إخواننا العلماء والدعاة في هذه الأيام بالرحمة المتعلقة بشخص الرسول ﷺ وما كان عليه من مكارم الأخلاق وكتبوا في ذلك بحوثا وافية قُرِئت في كثير من المؤتمرات في أنحاء العالم الإسلامي ونُشرت .بيد أنني أريد في هذه الورقة المختصرة أن أركز على الجانب الآخر، جانب الرسالة التي أرسل بها رسول الرحمة، بل على جزء واحد من أجزائها هو لبها والأساس الذي تقوم عليه كل أنواع الرحمة التي أرسل بها، إلا وهي رحمة هذه الرسالة بقلوب العباد.

إن كل ما يزيل عن الإنسان أسباب الضيق والعنت والضرر والشقاء وييسر له ما يجعل حياته أطيب هو من رحمة الله تعالى بعباده.

ورحمة الله تعالى بهذا المعنى وسعت كل شيء .وهي نوعان رحمة قدرية ورحمة تشريعية. وفي كتاب الله تعالى عشرات الأمثلة التي تدل على أنواع الرحمة قدرية كانت أم شرعية. من ذلك قوله تعالى على لسان عبده نوح موجها الكلام إلى ابنه: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

عندما أبى أن يركب معه في السفينة وظن أنه سينجو من شقاء الغرق بأن يأوي إلى جبل يعصمه من الماء.

وشفاء أمراض النفوس مما تأمر به من أنواع السوء هو من رحمة الله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

والفوز العظيم يوم القيامة إنما يكون برحمة من الله تقي الإنسان من سيئاتها. ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩].

والنجاة من العذاب رحمة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨].

وكشف الضر رحمة: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥].

من أنواع الرحمة التي يذهل عنها كثير من الناس ما نسميه اليوم بالمنجزات المادية التي تيسر الحياة .فهذا ذو القرنين يقول عن السد الذي وفقه الله تعالى لبنائه. ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

وهذا صاحب موسى يقول عن كشفه لكنز الغلامين بأمر من الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ

رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

جاء هذا الكتاب هادياً إلى كل أنواع الرحمة التي يسعد بها الإنسان في حياته وبعد مماته .جاء بالرحمة النفسية التي هي أصل كل رحمة .ثم جاء بالرحمة العملية التي هي من لوازم تلك الرحمة النفسية ومكملاتها .لكن تركيزنا في هذا المقال إنما هو كما ذكرنا على الرحمة المتعلقة بالقلوب، على الرحمة الإيمانية .فنقول: إن الإنسان يسعد وتطيب نفسه إذا ما كانت حاله النفسية الواقعية من معتقدات وتصورات مناسبة مع الحالة النفسية التي فطره الله عليها .فكلما اقترب حاله الواقعي من حال الفطرة ومقتضياتها كانت حياته النفسية أسعد وأطيب، وكلما ازداد بعده عنها ازداد شقاؤه النفسي مهما عاش في أنواع من النعم الخارجية .

وقد أرسل الله تعالى محمدا ﷺ كما أرسل سائر إخوانه الرسل برسالة مبناها على فطرته التي فطر الناس عليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فالدين الحنيف يأتي مقرا لهذه الفطرة ومبنيا عليها، ومفصلا لمقتضيات الإيمان بحقائقها، ومعطياً الأدلة على صدق تلك الحقائق، والأدلة على زيف ما يخالفها من أنواع الدعاوى والشبهات .وفي هذا كله رحمة واسعة بالمؤمن بما يدعوه إليه رسل الله لأنه يكون حينئذ ذا قلب سليم وعلم وأدلة وحجج يقهر بها الخصوم.

الإنسان مخلوق لله فهو مفطور على الاعتراف بهذه الحقيقة كما هو المشاهد على مر الزمان، وكما تشهد به الدراسات الانثروبولجية الحديثة التي درست ثقافات معظم الشعوب .لكن إذا كان هذا الأصل الإيماني بالاعتراف بوجود الخالق هو الغالب على معظم البشر، فإن أكثر الناس يحيدون عن لوازمه ومقتضياته، فيأتي رسل الله تعالى ليهدوهم إلى هذه المقتضيات ويدعوهم إلى الإيمان بها ليكون إيمانهم كاملاً.

يؤمن الإنسان حتى قبل مجيء الرسول بأن له خالقا، لكنه قد لا يذكر هذا الخالق إلا قليلا وقد لا يعرف من صفاته ما يؤثر في حياته، فتكون حياته في الواقع كحياة الذين ينكرون وجوده سبحانه .كتب أحد الانجليز المعاصرين كتابا يدعو فيه إلى الالحاد، وكان مما ذكره في كتابه أن بعض الدراسات أثبتت أن المؤمنين ليسوا بأكثر استمساكا بمكارم الأخلاق من الملحدين .شاركت بورقة في أحد المؤتمرات كانت ردا على بعض دعاوى هذا الملحد فقلت للناس فيما يتعلق بهذه المسألة إن كلامه قد يكون صحيحا لأن ذلك يعتمد على نوع الذين عدهم من المؤمنين .ثم ذكرت لهم أن مجرد الإيمان بوجود الخالق لم يعصم العرب الذين أرسل إليهم الرسول ﷺ من أن يعبدوا معه غيره من كل أنواع الأصنام والأوثان .بل أقول الآن وإنه لم يعصم الغربيين المتدينين من مثل هذا الشرك.

يأتي الرسول ليقول للناس إنكم على حق في إيمانكم بوجود الخالق وربوبيته، ويهديه إلى حجج تؤيد هذا الإيمان الفطري وترد على منكريه .من ذلك قوله تعالى في كتابه ردا على منكري وجوده سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧].

ثم يقول له إن هذا الإله الذي تؤمن بأنه هو وحده الذي خلقك وهو وحده الذي يرزقك والذي بيده حياتك ومماتك هو أيضا هووحده الذي ينبغي لك أن تعبده، ويعطيه أدلة كثيرة على ذلك منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاس ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]. ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ

ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦-١٧].

في هذه الآيات وغيرها كثير يرشد الله تعالى عباده إلى أنه بما أن العبادة إنما هي في أصلها شكر، فإن هذا الشكر ينبغي أن يكون لصاحب النعمة لا لغيره.

إذا استجاب الإنسان لهذا الأمر الإلهي فعبد الله تعالى وحده ولم يشرك معه شيئا في هذه العبادة يكون قد استحق بفضل الله تعالى أكبر رحمة يرحم بها بشر لأن توحيد الله تعالى هو لب كل خير، ولأن الشرك به هو أساس كل شر .وهي رحمة يشعر بها الإنسان في قلبه ويجد لها حلاوة لا تدانيها حلاوة، وتجعله يعيش حياة لا حياة أطيب منها .لكنه يبين له أن إيمانه بهذا الخالق لا يكتمل إلا بإيمانه بحقائق أخرى هي من لوازم الإيمان بربوبيته وألوهيته.

الحقيقة الأولى من هذه الحقائق: معرفة صفات هذا الخالق وأسمائه الحسنى .وذلك لأن الإنسان كلما ازدادت معرفته بربه ازدادت خشيته له وازداد قربه منه فازدادت بذلك سعادته .وكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت كذلك معرفته بمقتضيات تلك الصفات، فازداد فقهه لكلام الله، وازداد تفكره في آيات الله الكونية والكلامية وعلمه بها وبمقتضياتها .كتاب الرحمة الذي أنزله الله تعالى على عبده محمد صلى الله عليه وسلم مليء بذكر هذه الصفات .فالرب الذي جرد عبادته له هو المتصف بكل صفات الكمال المنزه عن كل صفات النقص .فمن صفات كماله أنه:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

ومنها أنه هو: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا

خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الحقيقة الثانية التي هي من مكملات الإيمان بالله تعالى: الإيقان بأنه سبحانه لا بد أن يرسل إلى عباده رسلا وينزل عليهم كتبا تتضمن هدايته لهم .كيف يمد الله تعالى عباده بكل ما يحتاجون إليه من أنواع الرزق المادي الذي لا تقوم حياتهم الجسدية إلا به، ثم لا يمدهم بما يحتاجون إليه من أنواع الهداية التي هي قوام حياتهم الروحية التي هي الحياة الحقيقية؟ فالإيمان بضرورة إرساله سبحانه للرسل وإنزاله للكتب هو من لوازم معرفة الإنسان بصفات ربه سبحانه. لذلك ذم الله تعالى أقواما أنكروا رسالات السماء ووصفهم بأنهم لا يقدرون الله حق قدره إذ ينكرون بعض ما هو من لوازم صفاته. ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وكما يهديه سبحانه إلى هذه الحقيقة فإنه يهديه إلى مقتضياتها .فمن ذلك أنه يهديه إلى الدليل الذي يدل على أن الرسالة هي حقا من الله تعالى وهو أن لا يكون فيها تناقض واختلاف.. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وأن يكون فيها ما يدل على هدايتها ولا سيما إذا ما قورنت بغيرها من الكتب البشرية: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩].

وإذا كانت الرسالة السماوية أكبر رحمة يرحم الله تعالى بها عباده فلا بد أن تكون موجودة في كل زمان ومكان وأن يكون بإمكان البشر أن يطلعوا عليها ويهتدوا بها كما يوجد الهواء اللازم لحياتهم الحسية في كل زمان ومكان، بل أكثر من ذلك .ينظر الإنسان العاقل حوله باحثا عن هذه الرسالة في عصره هذا فيكتشف أنه لم يبق من رسالات السماء إلا الرسالة التي انزلت على محمد بن عبد الله، ولم يبق

من رسل الله رسول تعرف سيرته ليقتدى به إلا محمد بن عبد الله .فيقول في نفسه هذا والله إذن هو خاتم رسل الله.

إن الإنسان لا يعيش فرداً منبت الصلة بغيره من البشر لا يتأثر بهم في طريقة أكل أو شرب أو لبس أو سلوك أو عبادة، بل إن بعض الناس ليتأثر ببعض في كل ذلك ويحذو حذوهم .فمن رحمة الله تعالى بالإنسان المؤمن أن يدله على رجل شهد له سبحانه بالسير على صراطه المستقيم وجعله قدوة لغيره من الذين يبتغون الوصول إلى الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فمن أراد الوصول إلى الله تعالى بذل جهده في الاقتداء برسوله في عبادته وفي خلقه وفي معاملاته.

فالذين يحاولون التنقص من قدر هذا النبي لا يعادونه أو المسلمين فحسب وإنما يعادون البشرية كلها إذا يحاولون أن يسدوا عليها الطريق الموصل إلى الرحمة التي جاء بها محمد بن عبد الله.

وإذا آمن الإنسان برسول الله وبالرسالة التي أنزلت عليه فإن الله تعالى يرحمه رحمة ثانية بأن يهديه إلى الطريقة التي يتعامل بها مع هذه الرسالة السماوية ومع الرسول الذي أنزلت عليه، فلا يقدم على كلام الله أو كلام رسوله شيئا من رأي أو ظن أو أمر لمخلوق، بل ويتجنب حتى رفع صوته على صوت الرسول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ١-٣].

وإذا كانت رسالة كالرسالة المحمدية موجهة إلى البشر جميعا، بل وحتى إلى الجن، فإنه يلزم من ذلك أن تكون رسالة واحدة تفهم على حقيقتها في كل زمان

ومكان بعد نزولها، لمن أراد فهمها وحقق شروط ذلك الفهم .أعني أنها لا يمكن أن تكون في طبيعتها قابلة لأن تفهم بأوجه مختلفة متناقضة بحسب زمان القارئ ومكانه كما يقول بعض الجهلاء اليوم، لأنها إذا كانت كذلك لم تكن رسالة واحدة، بل كانت رسائل متعددة، وسبحان الله عن مثل هذا العبث.

الحقيقة الثالثة التي لا يكتمل الإيمان إلا بها والتي هي من لوازم صفاته: ومن لوازم طبيعة مخلوقاته لمن تأملها هي أن بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى يلقى فيها المطيع لله جزاء إحسانه ويعاقب فيها الكافر على إساءته .وفي القرآن الكريم أدلة كثيرة على ضرورة وجود هذه الدار وكونها أمر تقتضيه صفات الخالق وطبيعة مخلوقاته . فالله تعالى حكيم لا يمكن أن يفعل شيئا عبثا .وإرسال الرسل ثم عدم التفريق بين من آمن منهم بالرسالة التي أرسل بها رسله ومن كفر بها وأنكرها نوع من العبث الذي يتنزه الله تعالى عنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]، ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٣-٣٦].

بل إن وجود السنوات والأرض وغيرها من أنواع الخلق هو من الأدلة على وجود تلك الدار الآخرة لأن الله تعالى إنما خلق هذه المخلوقات الدنيوية وسخرها لمنافع الناس مسلمهم وكافرهم فكيف يكون مصير النوعين واحداً بعد انقضاء هذه الحياة الدنيا وماقيها؟ ولذلك فكثيراً ما نجد القرآن يقرن بين البعث وخلق السموات والأرض بالحق: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨]، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١-٢٢].

وللإمام ابن كثير كلام نفيس في هذا الصدد قال رحمه الله تعالى: «قَالَ تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] أَيْ لاَ نَفْعَل ذَلِكَ وَلا يَسْتَوُونَ عِنْد اللَّه وَإِذا كَانَ الأمْر كَذَلِكَ فَلا بُدّ مِنْ دَار أُخْرَى يُثَاب فِيهَا هَذَا الْمُطِيع وَيُعَاقَب فِيهَا هَذَا الْفَاجِر وَهَذَا الإرْشَاد يَدُلّ الْعُقُول السَّلِيمَة وَالْفِطَر الْمُسْتَقِيمَة عَلَى أَنَّهُ لا بُدّ مِنْ مَعَاد وَجَزَاء فَإِنَّا نَرَى الظَّالِم الْبَاغِي يَزْدَاد مَاله وَوَلَده وَنَعِيمه وَيَمُوت كَذَلِكَ وَنَرَى الْمُطِيع الْمَظْلُوم يَمُوت بِكَمَدِهِ فَلا بُدّ فِي حِكْمَة الْحَكِيم الْعَلِيم الْعَادِل الَّذِي لا يَظْلِم مِثْقَال ذَرَّة مِنْ إِنْصَاف هَذَا مِنْ هَذَا وَإِذا لَمْ يَقَع هَذَا فِي هَذِهِ الدَّار فَتَعَيَّنَ أَنَّ هُنَاكَ دَارًا أُخْرَى لِهَذَا الْجَزَاء وَالْمُوَاسَاة وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآن يُرْشِد إلى الْمَقَاصِد الصَّحِيحَة وَالْمَآخِذ الْعَقْلِيَّة الصَّرِيحَة».

وكما أن مجرد الإيمان بوجود الخالق، بل حتى بربوبيته من غير معرفة بأسمائه وصفاته سبحانه وما تقتضيه هذه الصفات لا يكفي لإصلاح حال الإنسان وتعرضه لرحمة الله تعالى، فكذلك مجرد الإيمان بوجود دار آخرة لا يؤثر في حياة الإنسان ويصلحها إذا لم تكن له معرفة بتلك الدار وتصور صحيح لها .ولذلك نجد في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وصفاً مفصلاً للجنة التي يجازى بها المتقون والنار التي يعاقب بها الكافرون حتى كأنهما رأي عين.

يبين الله تعالى أن أكبر نعمة ينعم بها على عباده في دار جزائه هي تمكينهم من رؤيته تعالى.

قال النبي ﷺ: **(إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة؟ وتنجينا من النار؟ .قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)**، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

وإذا كانت رؤية الله تعالى هي أرقى أنواع النعم في الجنة فهنالك نعم نفسية أخرى منها كون أهل الجنة إخوة متحابون أزال الله تعالى عن قلوبهم كل أثر لغل .ومع النعيم المادي هنالك رزق يشبه في شكله وأسمائه ما يعرفون من أحسن أرزاق الدنيا

من المآكل والمشارب والمساكن والملابس والمناكح، لكنه مختلف عنه في حقيقته وإن شابهه في اسمه. ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وكما بين سبحانه تفاصيل وصف الجنة وما فيها من أنواع النعيم فقد بين كذلك بين تفاصيل وصف النار وما فيها من أنواع العذاب .بين سبحانه أنه إذا كان أكبر نعيم ينعم به أهل الجنة هو رؤيتهم لربهم، فإن أكبر عذاب يعذب به أهل النار هو حجبهم عن تلك الرؤية. ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥-١٦].

وإذا كان مما ينعم به أهل الجنة كونهم إخوة متحابين فإن من أشد ما يشقى به أهل الجحيم كونهم أعداء متباغضين يلعن بعضهم بعضا .ثم يضاف إلى ذلك أنواع العذاب الأليم من نار وحر وسموم وزمهرير وأكل يقطع البطون ولباس يحرق الجسوم.

يذكر الله تعالى عباده بحقيقة مهمة تتعلق بالدار الآخرة هي كونها دار خلود وأن الحياة الدنيوية دار مؤقتة لا تساوي مدة بقائها شيئا بالنسبة للدار الآخرة ولذلك فإن الإنسان العاقل لا يغتر بنعيمها وإن أخذ بحظ وافر منه ويصبر على أذاها وإن ناله ما ناله شدائدها .بين رسول الله ﷺ الحقيقة التي تدعو إلى ذلك بصورة مؤثرة

فعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: **(يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له: ياابن آدم هل رأيت خيراW قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول لا والله يارب ويؤتى بأشد الناس في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له ياابن آدم هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول لا والله يارب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط)** [رواه أحمد ومسلم].

ومن تمام الإيمان بالله أن يعرف الإنسان شيئا عن ملائكة الله تعالى وما كلفوا به من أعمال تتعلق بصلة العبد بربه .فأعظم رسالة يؤديها هؤلاء العبيد الذين يفعلون ما

يؤمرون هي حملهم لرسالة الله إلى رسله .ثم إنهم هم الموكلون بكل ما يتعلق بحياة الإنسان من أكل وشرب ونعيم وبؤس، وحياة وموت، وغير ذلك.

وكما هو ضروري للإنسان أن يعرف ملائكة الله المطيعين له ويؤمن بهم، فإنه من الضروري له كذلك أن يعرف أعدى أعداء الله ويكفر به، ويحذر من طاعته فيما يأمره به من أنواع الكفر والذنوب، وما يلقيه في قلبه من أنواع الشهوات والشبهات.

وإذا كان هذا الإيمان هو جوهر الرحمة التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه إيمان تلزم عنه أعمال ظاهرة وباطنة يرحم الله تعالى عباده المؤمنين بهدايتهم إليها وإعانتهم عليها فيزدادون بها سعادة وحياة طيبة .فالشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تعبير باللسان عن إيمان استقر في القلب، والصلاة هي أهم العبادات التي تنهى المؤمن عن الفحشاء والمنكر وتجعله دائم الصلة بالله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ثم بقية العبادات من صوم وزكاة وحج كلها مما يقي الإنسان من عذاب الله ويعينه على رضوانه ودخول جنانه.

ثم مكارم الأخلاق التي بعث الرسول بإتمامها والتي هي من لوازم الإيمان وما يتبعه من عبادات .

فالمؤمن بالله تعالى والعامل لتلك الأعمال الصالحة يجد في نفسه ميلاً إلى الاستمساك بمكارم الأخلاق من صدق وأمانة ورحمة بالناس وعدل بينهم.

وإذا ما تهيأ الناس بإيمانهم وعباداتهم ومكارم أخلاقهم ليحسنوا التعامل بينهم جاءهم هذا الدين بكل ما يصلح حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية من أنواع التشريعات التي هي أيضا رحمة بهم.

* * *

الصيام وتفاضل الأزمان

شبكة المشكاة الإسلامية

الجمعة ١٩ رمضان ١٤٣١هـ/ ٢٧ أغسطس ٢٠١٠م

خلق الله سبحانه وتعالى الخلق وجعله متفاضلاً فالمخلوقات الحية متفاضله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، والبشر متفاضلون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، والأنبياء متفاضلون ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، والجمادات متفاضله **(أُحُد جبل يحبنا ونحبه)**، والأماكن متفاضله ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٢]، والأزمان متفاضله، فخير العصور عصر النبي ﷺ، وخير أيام الأسبوع يوم الجمعة، وخير أيام السنة يوم عرفة، وخير لياليها ليلة القدر، وخير الشهور شهر رمضان. والأفضلية كلها كما ترى مرتبطة بأسباب دينية، فالله سبحانه وتعالى يختار الحي أو الجماد أو الزمان أو المكان لفضل جعله فيه، قد نعلمه نحن وربما لا نعلمه، ثم يكرمه بسبب ذلك الفضل فيجعله مكاناً لخير ديني، ثم يجعله بسبب ذلك الخير الديني القدري محلاً أو مناسبة أو أهلاً لخير ديني شرعي.

اختار الله سبحانه وتعالى شهر رمضان لفضل علمه فيه فجعله وقتاً لنزول خاتم رسالاته، ثم دعانا لصيامه وعلل صيامه بأنه الشهر الذي ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ولما كانت ليلة القدر منه خاصة هي الليلة التي نزل فيها القرآن، فقد زادها تشريفاً على سائر لياليه، ثم دعانا لقيامها وجعل ذلك القيام خيراً من عبادة ألف شهر.

وكذلك ما من يوم أو أيام دُعينا لصيامها نفلاً إلا كان تخصيصها بذلك الصيام راجعاً إلى فضل فيها. فعاشوراء يوم نجى الله فيه موسى، وأغرق فرعون، وشعبان شهر

ترفع فيه الأعمال، وتاسع ذي الحجة هو يوم عرفة وخير أيام العام، ويوما الاثنين والخميس يومان ترفع فيهما الأعمال.

وهكذا يعقب على التشريع المدني البحت بهذا التوجيه الوجداني البحت؛ ويربط بين التشريعات للحياة وخالق الحياة، بذلك الرباط الوثيق، المؤلف من الخوف والرجاء في مالك الأرض والسماء. فيضيف إلى ضمانات التشريع القانونية ضمانات القلب الوجدانية.. وهي الضمان الوثيق المميز لشرائع الإسلام في قلوب المسلمين في المجتمع المسلم.. وهي والتشريع في الإسلام متكاملان. فالإسلام يصنع القلوب التي يشرع لها؛ ويصنع المجتمع الذي يقنن له. صنعة إلهية متكاملة متناسقة. تربية وتشريع. وتقوى وسلطان.. ومنهج للإنسان من صنع خالق الإنسان. فأنى تذهب شرائع الأرض. وقوانين الأرض، ومناهج الأرض، أنى تذهب نظرة إنسان قاصر، محدود العمر، محدود المعرفة، محدود الرؤية، يتقلب هواه هنا وهناك، فلا يستقر على حال، ولا يكاد يجتمع اثنان منه على رأي، ولا على رؤية، ولا على إدراك؟ وأنى تذهب البشرية شاردة عن ربها. ربها الذي خلق، والذي يعلم من خلق، والذي يعلم ما يصلح لخلقه، في كل حالة وفي كل آن؟

إلا إنها الشقوة للبشرية في هذا الشرود عن منهج الله وشرعه. الشقوة التي بدأت في الغرب هرباً من الكنيسة الطاغية الباغية هناك؛ ومن إلهها الذي كانت تزعم أنها تنطق باسمه وتحرم على الناس أن يتفكروا وأن يتدبروا؛ وتفرض عليهم باسمه الإتاوات الباهظة والاستبداد المنفر.. فلما هم الناس أن يتخلصوا من هذا الكابوس، تخلصوا من الكنيسة وسلطانها. ولكنهم لم يقفوا عند حد الاعتدال، فتخلصوا كذلك من إله الكنيسة وسلطانه! ثم تخلصوا من كل دين يقودهم في حياتهم الأرضية بمنهج الله.. وكانت الشقوة وكان البلاء!!

فأما نحن - نحن الذين نزعم الإسلام - فما بالنا؟ ما بالنا نشرد عن الله ومنهجه وشريعته وقانونه؟ ما بالنا وديننا السمح القويم لم يفرض علينا إلا كل ما يرفع عنا الأغلال، ويحط عنا الأثقال، ويفيض علينا الرحمة والهدى واليسر والاستقامة على الطريق المؤدي إليه وإلى الرقي والفلاح؟!

* * *

الإسلام عقل وإيمان

(جريد المسلمون السعودية)

فطر الله تعالى الناس على العبودية له، وجعل هذه العبودية جوهر إنسانيتهم. فكلما ارتقى الإنسان في درجاتها كان أكثر اقترابا من جوهره الذي فطره الله عليه وكلما بعد عنها وتردى في حماة الشرك كان كالأنعام بل أضل سبيلا.

وبما أن العبودية هي جوهر الإنسانية فإنها المحور الذي يدور حوله، والمعين الذي يستقى منه كل ما فطر الله تعالى الإنسان عليه من فضائل خلقية وأحاسيس جمالية وقوى عقلية. فكلما كان الإنسان أكثر تحقيقاً للعبودية كان أحسن خلقاً وأرقى ذوقاً وأجود عقلاً. فإذا رأيت ذا دين هابطاً في ذوق أو ضعيفاً في عقل فاعلم أن مرد ذلك إلى خلل في دينه، خلل في تصوره له والتزامه به، وإذا أعجبك من غير ذي دين شيئاً من رفعة في ذوق أو جودة في عقل فاعلم أنه مازال محتفظاً بشيء من فطرته. فلا تقطعن الأمل في هدايته. ثم إن الدين الذي أنزله الله من السماء موافقاً لذلك الدين الفطري الذي يأتي بالهدى الذي يكمل الفطرة فيزيد الإيمان قوة، والذوق رفعة، والعقل جودة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر : ١٨].

أرأيت إلى هذا الجمع البديع بين الهداية والعقلانية بل أرأيت كيف حصرت الآية العقلانية في المهتدين ؟ إن أولي الألباب هم أولو العقول فلا يغرنك بعد ذلك وصف بعض الإسلاميين لبعض الضالين بالعقلانيين فحاشا العقل – وهو نصير الدين – أن يكون سبباً في ضلال الضالين بل الذين لا يعقلون هم الذين لا يهتدون. ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٧٠].

إن الضلال هوى لا عقل. فسم هؤلاء بأهل الأهواء كما كان يسميهم سلفك الصالحون العالمون.

الإيمان نور للعقل تزداد به مقدرته على التمييز بين الحق والباطل والهدى والضلال وتزداد به مقدرته على الاعتبار بل تزداد به كفاءته في رؤية الفروق الدقيقة بين المعاني. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وإن كان الإيمان دعاية للذوق الرفيع والعقل السليم، فإن الكفر مفسد للذوق مضعف لقدرة العقل، بل لقدرات الحواس. ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ليس المقصود – بداهة – أنهم لا يدركون الأشكال والأصوات والألوان، بلى إنهم ليدركون كل هذه الظواهر كما تدركها الحيوانات ويستفيدون منها – بعقولهم – فائدة عظيمة في حياتهم الدنيوية. ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم : ٧].

لكن الغفلة التي يسببها الكفر تحجب عقولهم عن رؤية الدلالات العلوية لهذه الظواهر الأرضية. ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

أفلم يكونوا يرونها بل كانوا يرونها، يرونها الرؤية الحسية التي يراها المؤمنون لكنهم يقفون عند حدود هذه الرؤية فلا يتساءلون : لم حدث لهؤلاء الناس ما حدث. وإن هم تساءلوا لا يهتدون إلى الجواب الصحيح. لأن كفرهم – لا يرجون نشورا – حصرهم في دائرة ضيقة من الوجود، لا يتجاوزونها بل يحاولون أن يفسروا كل شيء في حدودها، وهيهات إن الكافر قد يكون من أذكى الأذكياء لكن مرض الكفر والنفاق يذهب ببركة الذكاء فيكون صاحبه ذكياً غير عاقل.

يدلك على عدم اعتبار الذين مروا على هذه القرية راجع إلى نقص في عقولهم قوله تعالى عن هذه القرية في سورة أخرى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت : ٣٥].

إن الذي لا يؤمن يعيش – على المستوى الروحي – في مستنقع آسن. وكذلك الذي لا يعقل، لأن العقل قرين الدين ورفيقه الذي لا يفارقه. ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[يونس:١٠٠].

هذا الرجس هو الذي يجعل قلب الكافر والمنافق والزنديق مصيدة للشكوك والشبهات وأنواع الضلالات، ومزبلة لا تتجمع فيها إلا أمثال هذه الأوساخ التي يحسبها بعض الجهلاء فكراً عميقاً وعقلاً كبيرا. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

وإذا كان سماع الحق يزيد الإنسان السوي العاقل إيمانا ويزيده استبشاراً فإنه يتحول عند الذين لا يؤمنون ولا يعقلون إلى مزيد من الرجس الذي يناسبهم.

الإسلام وتحقيق المجتمع الإنساني

مجلة المجتمع الكويتية رجب ١٣٩٣ يوليو ١٣٧٣

السؤال الذي تحاول كل النظريات والفلسفات الاجتماعية الإجابة عنه يمكن وضعه بالصيغة التالية: كيف يتخلص الإنسان من المعوقات التي تحط من قدره الإنساني ؟، وما هي الشروط التي يجب توافرها ليصبح الإنسان إنساناً حقيقياً ويصبح المجتمع مجتمعاً إنسانياً؟.

تقول النظرية الفردية في شكلها المتطرف إن الإنسان أساساً فرد، وأن وجوده في المجتمع أمر طارئ عليه، وكان مضطراً إليه، ولذلك فإن أهم ما ينبغي أن يسعى إليه التنظيم الاجتماعي هو تقليل أثر المجتمع على الفرد إلى أقصى حد وتمكين الفرد من أن يمارس حريته إلى أقصى حد، ومن هنا جاءت فكرة (دعه يعمل) التي كانت حلم الرأسمالية في شكلها السياسي والاقتصادي، والذي حققت منه ما تسنى لها فلم تكن النتيجة أن تحرر الفرد، بل أن ظهرت في المجتمع طائفتان فقدت إحداهما إنسانيتها بذل البؤس والاستغلال ,والعبودية وفقدت الأخرى إنسانيتها ببطر الثراء و الترف والانغماس في الشهوات الحيوانية، وبقي بالطبع بين هاتين أفراد كثيرون لم يبلغوا من الثراء أن يكونوا رأسماليين، ولا من البؤس أن يكونوا مسحوقين، فتفرقوا مذاهب واتجاهات كل حزب بما لديهم فرحون .فمنهم الشيوعيون ومنهم الاشتراكيون غير الماركسيين، ومنهم المتدينون، ومنهم الهيبون، ومنهم الرافضون لما أسموه بمجتمع الاستهلاك، الراغبون في مجتمع أكثر إنسانية وأن كانوا لا يدرون الطريق إليه .ومنهم أفراد المفكرين والفلاسفة ذوي الآراء والمذاهب الخاصة ومنهم ومنهم، ذلك ما آل إليه واقع النظرية الفردية .وجاءت بعدها النظرية الماركسية لتقول إن الملكية الفردية لوسائل الإنتاج والتوزيع هي العامل الأساس الحاسم في المصير المؤسف الذي قادت إليه الرأسمالية .فالعلاج إذن سهل ميسور، وهو الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج والتوزيع فإذا ما تحقق هذا الإجراء الاقتصادي حلت تدريجياً كل العقد التي أقعدت الإنسان عن تطوره الإنساني، فحلت الأريحية أو الجماعة محل الأنانية والفردية، وحل الإخاء محل التنافس والبغضاء، وصار عمل العامل – شأنه في ذلك شأن الشعر والموسيقى – عملاً خلاقاً يعبر عن جوهر الإنسان ويعلي من قدره، وزالت أمراض الكذب والخيانة والسرقة والإدمان وغيرها.

لماذا لا يحصل كل هذا؟ لأن الوضع الاقتصادي للمجتمع هو أساسه، وكل ما عداه من آداب وفن وخلق وقانون ودين وعلاقات اجتماعية، إنما هي بنى فوقية تابعة لذلك الأساس، فإذا تغير تغيرت معه، ولا أمل في تغييرها إذا ظل هو ثابتاً.

ووجدت الماركسية الفرصة لتطبيق نظريتها وأزيلت الملكية الفردية، وتحققت الملكية الجماعية، أو بالأحرى الملكية الدولية لوسائل الإنتاج والتوزيع وانتظر الناس أن يتغير البناء الفوقي بعد أن تغير الأساس، وطال الانتظار، وبقي البناء الفوقي شامخاً يتحدى الذين زعموا أن أساسه الوضع الاقتصادي، فقد بقي الكذب وبقيت الخيانة وبقي النفاق بل ازداد، وبقيت السرقة والاختلاس، وازداد الانغماس في الشهوات المادية وتفاقم الإدمان، هذا إلى جانب شرور أخرى صاحبت النظام فبدلاً من أن تكون إزالة الملكية الفردية كسراً لقيد العبودية وتحريراً للإنسان - كما تصورها المفكرون الاشتراكيون، ارتبطت الملكية الجماعية في تجربة الاتحاد السوفيتي بأسوأ أنواع القهر السياسي التي عرفتها البشرية، ولم يكتف هذا النظام بخنق الحريات الداخلية وتسليط المخابرات لحصر أنفاس الناس، ومراقبة ألسنتهم وأقلامهم، وعلاقتهم بل أرسل جنده المسلح لإسكات أي صوت خارج الاتحاد السوفيتي زعم أنه سيجعل للاشتراكية وجهاً إنسانياً .وبدلاً من أن تكون الماركسية علمية تسلم بنتيجة التجربة التي أثبتت كذب الافتراض، راحت تبحث عن المبررات التي حالت دون ظهور النتيجة المرجوة.

فقالوا مرة إن الأساس المزال لم تزل معه كل آثاره الفوقية لأن رواسيها بقيت في الرؤوس وفي الكتب وفي كثير من العادات والتقاليد وظلت لهذا تعمل عملها ولكنها لا شك زائلة بالتدريج.

وقالوا مرة أنه ما دام الأساس الرأسمالي ما زال باقياً بأدواره الفوقية في كل البلاد غير الاشتراكية، وما دامت البلاد الاشتراكية مفتوحة لتلقى آثاره ليس من الغريب أن تتأثر به.

وقال بعض الماركسيين خارج الاتحاد السوفيتي إن النتيجة السوفيتية ليست بالضرورة النتيجة الحتمية لتطبيق الماركسية نعم إن السوفييت طبقوا من الجانب الاقتصادي جانب إزالة الملكية الفردية ولكنهم جعلوها ملكية دولة وملكية الدولة لا تزيل الاغتراب أو الاستلاب، بل الملكية الجماعية هي التي تفعل هذا .إن المهم في

الاشتراكية أن يكون الإنتاج لصالح الجماعة كلها، وهذا يحتم ارتباط الاشتراكية بالديمقراطية الحقيقة، بحرية التعبير ومشاركة الشعب في صنع القرارات، لأنه ما دام المقصود أن يكون الإنتاج لصالح الجماعة فينبغي أن تقرر الجماعة ما تراه صالحاً لها.

وقال بعض هؤلاء إننا والماركسيين داخل البلاد الاشتراكية لم نكن محقين في أن نتوقع ما توقعناه، لقد أخطأنا فهم الماركسية الحقة وتأثرنا بالتفسير الستاليني لها . وذلك أن ستالين هو الذي قال إن العامل الاقتصادي هو الذي لا يؤثر في غيره من البنى الفوقية فحسب، بل هو الذي يحتم شكلها ومصيرها .أما ماركس فلك ما قاله إنه في الفترة التاريخية التي تقوم فيها العلاقات الاقتصادية على أساس الملكية الفردية فإن العامل الاقتصادي يكون أهم العوامل في تحديد سائر العلاقات الاجتماعية، أما حين تزول الملكية الفردية فإن العامل المادي يفقد هذه الأهمية ويبقى الناس أحراراً في اختيار المجتمع الذي يريدون بعد أن كسرت أغلال الملكية الفردية، أي أن العامل الثقافي الفكري يصبح أهم العوامل، لتأكيد هذا الفهم ودعمه رجع أصحابه إلى كتابات ماركس الأولى سيما مخطوطات عام ١٨٤٤م .ذلك ما قيل في الغرب.

ولقد كرر شيء من هذا التاريخ في عالمنا العربي، فحين بدأت التجربة الاشتراكية عندنا، قال المتأثرون بالماركسية منا إن أخلاقنا ستتغير تبعاً لتغيير أوضاعنا الاقتصادية .فقريباً تحل الأخلاق الاشتراكية محل الأخلاق الرعوية الزراعية المرتبطة بالمفاهيم الدينية الغيبية، قريباً تزول الأنانية وتأخذ مكانتها الجماعية، قريباً يحل التفكير العلمي محل التفكير الخرافي .فلما مرت السنون ولم تأت النتيجة المرجوة تحول الشعار، فبعد أن كان تبشيراً بحلول الأخلاق الاشتراكية الناتجة عن الأوضاع الاشتراكية، أصبحنا نسمع نداء مثل (نحو أخلاق اشتراكية لحراسة منجزاتنا الاشتراكية) أي أن المنجزات بدلاً من أن تنتج الأخلاق أصبحت هي المحتاجة إليها لتحرسها.

وإذن فالنتيجة التي خلصت إليها الماركسية واعترف بها كثير من الماركسيين والمتأثرين بالفكر الماركسي هي أن إزالة الملكية الفردية لا تكفي وحدها لتحقيق المجتمع الإنساني .فما هي إذن الشروط اللازمة لتحقيق هذا المجتمع؟ يقولون – كما رأينا – أنه لا بد من أن تحل الملكية الجماعية محل ملكية الدولة، ولا بد – لذلك من توفير الحرية والمشاركة الجماهيرية.

هب أن كل هذا حدث فهل يكفي للوصول بنا إلى النتيجة التي نريدها؟ ولنتذكر أن النتيجة التي نريدها - كما ذكرت في صدر هذا الحديث - هي أن يصبح الإنسان إنساناً حقيقياً، أو بعبارة أخرى أن يصبح المجتمع مجتمعاً إنسانياً.

ولكن هذا يقودنا إلى سؤال آخر: ما هو الإنسان الحقيقي؟ وقد اضطربت الماركسية في الإجابة على هذا السؤال، فماركس يقول لنا تارة ليس هنالك ما يسمى الجوهر الإنساني، فطبيعة الإنسان إن هي إلا مجموعة علاقاته الاجتماعية .وبما أن هذه العلاقات تختلف حسب نظريته من طور إلى طور تبعاً لاختلاف الأساس الاقتصادي للمجتمع، فالطبيعة الإنسانية إذن ليست ثابتة، فلكل مرحلة اقتصادية إنسانها المختلف كيفاً عن المرحلة السابقة والمرحلة اللاحقة، هذا ما يقتضيه القول بأن طبيعة الإنسان إن هي إلا مجموع علاقاته الاجتماعية .

ولكن ماركس يتحدث عن - لاسيما في مخطوطات عام ١٨٤٤م - عن الإنسان (الحقيقي)، وإدانته للرأسمالية مرتكزة أساساً على أنها مسخت هذا الإنسان، وشوهت حقيقته، وجعلته مغترباً عن ذاته، بل جعلته حيواناً، وهو لن يعود إلا من غربته ولن يستعيد حقيقته إلا في المجتمع الشيوعي. وهو يقول في هذا الصدد في كتابه آنف الذكر» وثالثاً هناك الشيوعية التي تزيل الملكية الفردية إزالة ايجابية فتزيل اغتراب الذات الإنسانية، فهي - لذلك - أن يستعيد الإنسان - من أجل الإنسان - جوهره الحقيقي استعادة حقيقية.

هذه هي الشيوعية بما هي عودة الإنسان عوداً تاماً وواعياً محتفظاً بكل ثراء التطور والسابق للإنسان بما هو كائن اجتماعي، أي كائن إنساني .الشيوعية بما هي الطبيعية المكتملة هي الإنسانية، وبما هي الإنسانية المكتملة فهي الطبيعة .إنها الحل الحقيقي للعداوة بين الإنسان والطبيعة وبين الإنسان والإنسان، إنها الحل الحقيقي للصراع بين الوجود والجوهر، بين الفعل الموضوعي وتأكيد الذات، بين الحرية والضرورة، بين الفرد والنوع .إنها حل معضلة التاريخ وأنها لتعرف أنها هذا الحل. «ويقول بعد قليل من هذا» إن الإزالة الإيجابية للملكية الفردية، واكتساب الحياة الإنسانية، هي إذن لإزالة الإيجابية للاغتراب كله فهي لذلك عودة الإنسان من الدين، ومن الأسرة، ومن الدولة إلى كينونته الإنسانية أي الاجتماعية.

ما هو الإنسان؟ لا مجال هنا ولا داعي للدخول في التفاصيل الشائكة للإجابة على هذا السؤال وفي مناقشة الإجابة الماركسية له .ولذلك فسنكتفي بالقدر المشترك بيننا وبينهم في تصور هذا الإنسان الحقيقي غافلين عن نقاط الاختلاف وعن الاضطراب والتناقض الذي وقعوا فيها .ما هي سمات المجتمع الإنساني الذي يتكون من أناس حقيقيين غير مشوهين ولا مغتربين؟

إنه مجتمع تزول عنه الأنانية والأثرة، فيعمل فيه كل إنسان حسب جهده ليكفي حاجات نفسه وحاجات غيره من غير أن يغلب الأولى على الثانية، ومن غير أن يشعر بالتناقض بينهما .فهو مجتمع تقوم علاقات الناس فيه على الإخاء والحب والتعاون، لا التنافس والتباغض، وهو مجتمع يتسم أفراده بالصدق والأمانة، فلا يكذبون ولا يخونون ولا يسرقون ولا يحاولون الهروب من أنفسهم بالإدمان أو البغاء أو غير ذلك من الملهيات القاتلة، ذلك أهم ما قالته الماركسية، في تصورها للمجتمع الإنساني.

والمجتمع الإنساني شيء أعظم من هذا بكثير، ولكن لنقف عند هذا الحد الذي يمثل جزءاً كبيراً من التصور الماركسي وهو حد نتفق معها فيه وإن كنا نراه ضئيلاً.

كيف نصل إلى هذا المجتمع الإنساني؟

لقد عرفنا من قبل أن مجرد إزالة الملكية الفردية لا توصل ولم توصلنا إليه كما بينت التجربة السوفيتية .فهل تأتي الملكية الجماعية بما عجزت تأتي الملكية الفردية؟ لا دليل نظري على ذلك، ولا واقع عملي يصدقه وهذا بالطبع لا ينفي كون الملكية الجماعية خير من الملكية الدولية.

وماذا عن الحرية؟ إن الحرية بمعنى إتاحة الفرصة للناس كي يعبروا عن آرائهم ولكي يقرروا مصيرهم لا تؤتي هي الأخرى بهذه الثمار، بل غاية ما تفعله هو أن تهيئ المناخ للذين يريدون الوصول إلى ذلك المجتمع .وإذن فهي والأوضاع الاقتصادية المناسبة بمثابة الطريق المعد للسيارات فهو وحده لا يكفي لتحريكها، بل لا بد أن تكون السيارة قادرة على الحركة وأن يكون قائدها راغباً في تحريكها عارفاً بالجهة التي يقصدها، فإذا كانت الجهة معروفة وهي المجتمع الإنساني وإذا كانت الرغبة في السير نحو ذلك المجتمع مفروضا توفرها فقد بقي أن تتوفر المقدرة على الحركة

والسير.

يبدو من كلام البعض أنهم يفترضون أن هذه المقدرة أيضاً معطاة متوفرة فلا حاجة للبحث عنها أنهم يرون أن لكل شعب قيماً موروثة قابلة للتطور، وأنه إذا كان النظام الرأسمالي يضاد القيم القومية بإشاعته للأنانية والاستغلال، وإذا كانت الديكتاتورية تفرض على الشعب قيما لا يقبلها فإن - الشعب هو الذي سيصوغ حياته في دولته الديمقراطية - وما دام الشعب هو صاحب الكلمة فإنه سيفرض قيمه في النظام الاشتراكي لا خوف على مصير الشعب ما دام مصيره بيده.

ولكن هذه الإجابة تشير إلى أسئلة كثيرة تكشف عن قصورها أن هذا كلام حسن إذا افترضنا أن لكل شعب قيماً إنسانية كتلك التي قلنا إن المجتمع الإنساني يتطلبها، وأن كل مشكلة الشعوب أن أوضاعها الاقتصادية القائمة على الاستغلال وأوضاعها السياسة القائمة على الديكتاتورية كان تعوقها عن صياغة حياتها وفق تلك القيم، فإذا زالت هذه العوائق بالاشتراكية والديمقراطية تمكن الشعب من إبراز قيمه الحبيسة.

فهل هذه صورة واقعية؟ إذا سلم لنا صاحب هذا الرأي بأن بعض الشعوب ليس لها مثل هذه القيم، فالسؤال هو: كيف نجعلها تلتزم بها؟ أيكفي أن نصدر لهم الأوامر تلو الأوامر قائلين كونوا خيرين احترموا الفرد الإنساني كونوا أريحيين ولا تكونوا أنانيين، كونوا أمناء ولا تكونوا خونة. ..الخ.

بالطبع إن هذا لا يكفي - فماذا تفعل وقد أثبتت التجربة أن تغيير الواقع الاقتصادي أيضاً لا يكفي - لجعل الشعوب تلتزم مثل هذه القيم، بل وقد أثبتت لنا التجربة أن الواقع الاقتصادي أو السياسي هو نفسه بحاجة إلى قيم إنسانية تحرسه فأين تجد مثل هذه القيم؟

إن سؤالنا هذا ليس الجاهل بالقيم فنحن قد اتفقنا على أن المجتمع يكون أكثر إنسانية إذا ما التزم بصدق القول، والأمانة في المعاملة، وإذا ما قامت على أن المجتمع يكون أكثر إنسانية إذا ما التزم بصدق القول، والأمانة في المعاملة، وإذا ما قامت علاقتهم على الحب والأخوة والإيثار إننا نعرف هذا والذي نبحث عنه هو سبب إذا ما

وقرناه كان التزامنا بهذه القيم نتيجة طبيعية له، وقد عرفنا الوضع الاقتصادي ليس هو هذا السبب فما هو إذن؟ تلك هي المشكلة البشرية اليوم، والحل الحاسم الجلي لها إنما في الإسلام لماذا؟

فيما يلي أحاول أن أجيب بإيجاز شديد عن هذا السؤال أن منبع القيم وأساسها المتين إنما هو الفطرة فالإنسان مفطور فطره الله على الاعتراف بحسن الشكر والصدق والأمانة والكرم، وقبح الجحود والكذب والخيانة والبخل.

لكن الفطرة وحدها لا تكفي لأنها قد تنحرف وقد تضعف، وقد تقوى عليها الإغراءات فلا بد من فكرة تؤيد هذه الفطرة وتكملها وتشد من أزرها، فإن اهتدى الإنسان إلى مثل هذه الفكرة قوي على الالتزام بتلك المبادئ الخلقية، وإلا فإن مقتضيات فكرته قد تتصادم مع دواعي فطرته فيحدث الانفصام وتتعقد المشاكل النفسية والخارجية كما هو حادث في عالم اليوم ثم يأتي دور البيئة: التربية، والأوضاع الاقتصادية والنظم السياسية والعلاقات بين الجنسين، والصلات الاجتماعية الخ كل هذه إذا كانت متمشية مع الفطرة سهلت على الإنسان أن يعيش إنساناً متوافق الشخصية، وإلا عاش في فتنة نتيجة التنازع بين دواعي فطرته ومقتضيات فكرته، وواقع بيئته.

في مجال أن الإنسان مفطور على الخير يقول الله تعالى في محكم التنزيل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]، ونفس وما سواها فالنفس أذن أساساً سوية خيرة فلا هي محايدة بين الخير والشر منتظرة لأن تكفيها البيئة والأفكار كيف شاءت ولا هي مريدة للشر بطبيعتها.

فألهمها فجورها وتقواها عرفها ما يفسد تلك الفطرة السوية وما يقيها ويحافظ عليها، قد أفلح فصار إنساناً حقيقياً من نمى هذه الفطرة السوية وأدام تنقيتها مما يعلق بها من شوائب، وقد خاب فصار من الأنعام بل أضل من كبت هذه الفطرة وحرمها من النمو والازدهار.

بالإضافة إلى كلمة (سواها) التي تدل دلالة صريحة على أصالة الخير في الإنسان، فإن لكلمات – الفجور والتقوى والتزكية والدس – أيضاً تستلزم هذه النتيجة. فالفجور هو الإفساد والعدول والميل عن الأمر الطبيعي والتقوى من الوقاية والتزكية

تعني النمو وتعني التنظيف والتنقية، والدس يعني الإخفاء والدفن .فالذي يفجر ويفسد، والذي يحمي ويحافظ عليه، والذي يزكو وينمو والذي يدس فيمنع من النمو إنما هو الشيء الصالح السوي المستقيم .ومعنى هذه الآية يزيده بياناً قول الرسول ﷺ: **(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء).**

فالإنسان يولد سالماً صحيحاً غير مشوه أو منحرف كما تولد البهيمة سليمة من العيوب هي فطرته وهي دين الإسلام أو التوحيد والتشويه والانحراف إنما يأتيه من الخارج من الأفكار والعقائد والتربية المنحرفة.

وفي القرآن والسنة دلائل كثيرة على هذا المعنى الذي أوجزناه لأنه لا مجال هنا للإفاضة فيه، فالإسلام إذن لا يتلجلج تلجلج الماركسية في القول بأن للإنسان فطرة وإن هذه الفطرة خيرة.

لنعد سؤالنا مرة أخرى لتتضح الإجابة عليه: ما هو الشرط أو السبب الذي إذا ما حققناه كان التزاما بالإيثار والصدق والأمانة وسائر القيم نتيجة طبيعية له؟

أول ما قلناه في الإجابة على هذا السؤال هو حسن هذه القيم والميل إليها أمر فطر الله النفوس عليه فهي ليست بحاجة إلى عامل خارجي يغرسه فيها .

ولكننا قلنا إن هذه الفطرة قد تفسد وقد تنحرف فهي محتاجة إلى عامل يقويها وينمي بذرة الخير فيها ويكملها وقلنا إن هذا العامل هو الفكرة، هو معرفة حقائق من شأن العلم بها والإيمان بصحتها أن يفجر الإنسان طاقات الخير .فما هي هذه الحقائق؟ أهي حقائق الفيزياء، أم الأحياء أهي حقائق التاريخ أم الجغرافيا أم الاجتماع أهي الأدب أم الفلسفة؟ إن الذي يتحدثون عن أهمية الثقافة التي تهذب الإنسان يتركون الأمر غامضاً فيوهمون السامع بأن مجرد الاستزادة من هذه العلوم والآداب يرقي الإنسان ويهذبه وهو أمر يكذبه الواقع ولا يدل عليه النظر.

مرة أخرى ما هي هذه الحقائق التي تثمر معرفتها والإيمان بها سلوكاً إنسانياً ولماذا تفعل هذا؟ أنها حقيقة واحدة وإنها لأكبر حقيقة عن الكون والإنسان أنها العلم اليقيني والإيمان بأن الإنسان وسائر الكون مخلوق لإله واحد هو الذي أوجده وهو الذي يرعاه ويحفظه ويصرفه أمره وإليها مصيره.

ما الدليل على هذه الحقيقة؟ ولما يكون لها هذا الأثر؟ أما الدليل بل البرهان المنطقي الجازم على صحتها فهو ميسور وأن كنت لا أستطيع الدخول في تفاصيله هنا، ولكم هذه الآية تكفينا هذا المجال: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥- ٣٦]، فكان هذا الدليل القرآني يقول للإنسان تأمل نفسك - ألست تعرف أنك كفرد حادث وجدت بعد أن لم تكن، وإنك كنوع حادث أيضاً ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. فهل الذي أوجدك هو العدم المحض ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ مستحيل أم أنك أن الذي أوجدت نفسك؟ وهذا مستحيل عقلاً فإن الأثر لا يكون سبباً لنفسه فالشيء لكي يكون مؤثراً لا بد أن يكون موجوداً ولكنه إذا كان موجوداً فهو غير محتاج إلى ما يوجده.

وهناك في الوجود أشياء غيرك يقال عنها ما قيل عنك، فهي حادثة ولم توجد نفسها ولم توجد من غير شيء فهل أنت الذي أوجدتها؟ كلا وإذن فلا بد لك ولها من موجد، فمن هو هذا الموجد؟ أن معظم القرآن الكريم يمكن أن يعتبر تفصيلاً للإجابة على هذا السؤال وكل مفهوم لهذا الموجود يخالف القرآن كان يقال أنه النجوم أو الكواكب أو يقال إنه المادة الأولية ويمكن إقامة الدليل العقلي على قصوره وتناقضه وعدم إيفائه بالمطلوب. إن القرآن الكريم يقدم الأدلة على أن هذا الخالق لا بد أن يكون أزلياً لا بداية له أبدياً لا نهاية له - هو الأول والآخر - ويمكننا أن نثبت أن المادة في أي شكل من أشكالها لا يمكن أن تكون كذلك فهي بالصورة حادثة فإذا كانت حادثة فيستحيل أن تكون موجودة وخالقة، بل هي مفتقرة إلى من يوجدها ويقيمها والقرآن يقيم الأدلة العقلية على أن هذا الخالق لا بد أن يكون واحداً ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ولا بد أن يكون حياً عالماً مريداً حكيماً رحيماً إلى آخر الصفات الإلهية المعروفة، والمادة لا يمكن أن تكون كذلك فيستحيل إذاً أن تكون الخالق الذي نبحث عنه.

يؤسفني أنني هنا إنما أقرر كل هذا مجرد تقرير، وقد حاولت في بحث آخر أعده للنشر أن أقيم الأدلة العقلية القرآنية على كل هذا الذي قررت هنا.

إذا اقتنعنا بالأدلة العقلية على أن الكون – بما فيه الإنسان – لا بد أن يكون له خالق بالصفات التي ذكرها القرآن، فننتقل الآن إلى السؤال الثاني: لماذا يكون للإيمان بهذه الحقيقية تلك النتائج التي ذكرناها؟

إن تأثير الحقيقة التي يدركها الإنسان على سلوكه يعتمد على طبيعة تلك الحقيقة ومدى صلتها بالإنسان فالذي يستيقن أن العمارة التي يسكنها قد اشتعلت فيها النار وأنها سائرة نحو الغرفة التي يسكنها يعلم كل ما في وسعه ليبارح هذه الغرفة والتاجر الذي يسعى وراء الربح، ويعلم أن السلعة الفلانية الغالية في السودان رخيصة في ليبيا يحاول أن يشتريها من هنا، ويوصلها هنالك ولكن علمه بأن في ليبيا مؤتمراً يناقش فيه شيء اسمه النظرية الثالثة قد لا يثير اهتمامه فلا يؤثر في سلوكه . وواضح من طبيعة الحقيقة القائلة إن لا إله إلا الله، إنها أهم حقيقة وأكبرها بالنسبة للإنسان .فلا جرم أن يكون لها أكبر أثر وأحسنه على حياة من يدركها ويقر بصحتها وذلك لسببين:

أولهما: إذا كان للإنسان جوهراً إنسانياً هو الذي يمثل حقيقته الفطرية، وكان الإنسان مخلوقاً لإله واحد هو الذي يحفظه ويرعاه وإليه مصيره فماذا يكون هذا الجوهر الإنساني إن لم تكن هذه الحقيقة؟ فالذي يدرك هذه الحقيقة يكون قد أدرك وعرض أهم شيء يتعلق به وبالكون من حوله والذي يدرك أهم حقيقة تتعلق بذاته لا يمكن أن يكون ضالا ولا مغترباً عن نفسه ولا يكون قلقاً، فالعبودية عبودية الإنسان لله هي التي تمثل جوهره الإنساني، فهي بالتالي أساس كل قيمه الإنسانية من حب وإخاء وإيثار وصدق وأمانة وعفة وعدالة الخ، وهي أساس سعادته النفسية ولهذا فإن القرآن الكريم دائماً يربط بين هذه القيم وبين الإيمان بالله تعالى.

ففي مجال الإخاء يقول: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، وفي مجال الخلق يقول: ﴿نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١-٤]، ويقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧-٨]، وفي مجال الراحة النفسية يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وثانيهما: أن فكرة الإيمان بالله تتناقض مع السلوك المنحرف فإذا كان الملحد لا يجد في فكرته التي تقول: له إنه جاء للوجود مصادفة وأنه سائر إلى غير غاية، وإن حياته هذه هي النهاية إذا كان لا يجد في هذه الفكرة دعماً ولا مبرراً لسلوك خلقي، يكفي عن الانغماس في الشهوات أو يدعوه للإيثار، فإن المؤمن كما قلنا إنسان تتوافر فيه مقتضيات فكره مع دواعي فطرته . فهو يؤمن بإله ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، إله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي - إله حكيم لا يترك الناس، عادل لا يسوي بين المحسن والمسيء بل يجازي كلاً بما يناسب عمله وإذا كان المشاهد أن هذه الدار من دار آخرة يلقى فيها المحسن جزاء إحسانه ويعاقب فيها المسيء على إساءته ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦]، فالإيمان بالدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب أمر يستلزمه الإيمان بالله تعالى ولا يكتمل إلا به.

فإذا حدثت المؤمن نفسه في حالة ضعف بارتكاب إثم من الآثام التي تتناقض مع إنسانيته والتي حذره ربه من الوقوع فيها فإنه يذكر هذه الحقائق فيكف نفسه .فإذا اشتد ضعفه فإنه قد ينساها فيقع في الذنب ولكنه لا يلبث أن يقف فيذكر هذه الحقائق ويندم على ما فعل.. ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

لقد كنا نحاول حتى الآن أن نثبت بالنظر العقلي وحده أن الفكرة الإسلامية حرية بطبعها أن تثمر في المؤمن بها قيماً إنسانية ولكن الدليل النظري ليس هو شاهدنا الوحيد على ما نقول، بل إن الواقع العملي ليصدق هذا الاستنتاج النظري ويؤيده أيما تأييد .فالواقع التاريخي يحدثنا أن الجماعة التي التفت حول الرسول ﷺ بمكة والتي نصرته بالمدينة تحولت بعد إيمانها بالله والدار الآخرة تحولا عجيباً .فالعرب الذين كانوا يعيشون في جاهلية غلاظ الأكباد جفاة الطباع يئدون البنات ويزنون بغير حرج، ويجمعون في الزواج بين الأخوات، ويعاقرون الخمر، ويلعبون الميسر، ويشنون حروب العدوان، هؤلاء ما إن صدقوا في إيمانهم بالله وأيقنوا بالدار الآخرة إلا وتركوا كل هذه الموبقات، وصاروا مثالا للمجتمع الإنساني، مجتمع الأخوة والحب والشجاعة والعفة والرحمة والتوقير والإيثار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل الدائب والقناعة والطمأنينة النفسية .ذلكم واقع الفكرة التاريخ .ولكن واقعها الماثل أمامنا فيه أيضاً الشهادة على ما نقول .ولبيان ذلك يمكن أن نقوم بتجربة نقارن فيها "نوع" الإنسان الذي تصنعه الماركسية والذي تصنعه الأفكار السائدة في العالم الرأسمالي .وذلك بأن نأخذ عدداً من المسلمين الملتزمين بأركان الإسلام الخمسة الواعين بفكرتهم الداعين لها، نأخذهم بعض النظر عن موقعهم الجغرافي، أو واقعهم الاقتصادي، أو نظامهم السياسي، أو مستواهم العلمي، أو رباطهما لقومي، ونأخذ عدداً مماثلاً من قادة الفكر الرأسمالي، وعدداً مماثلاً من أكثر الماركسيين فهما لفكرتهم والتزاماً بها وعيشاً في واقعها ونقارن بين هذه المجموعات، ولئلا نكون مجحفين فليكن مقياس المقارنة هو مدى قربهم أو بعدهم من الإنسان الحقيقي كما تصوره هم .أو كما تصورته الماركسية كما سبق شرحنا لها. إنني واثق من أن نتيجة المقارنة لا بد أن تكشف أن أقرب الناس إلى هذا المثال الإنساني الذي تصوره الماركسيون هم المسلمون .قلنا إن منبع القيم وأساسها هو فطرة الله التي فطر الناس عليها .وأن الأفكار أو فلسفات الحياة تأتي مؤيدة لهذه الفطرة فتقويها وتكلملها أو تضادها وتضعفها .وأن البيئة بما فيها من تربة وأوضاع اقتصادية ونظم سياسية وتشريعات قانونية، وعلاقات اجتماعية إلخ، تأتي مؤيدة للفطرة السوية والفكرة القويمة فتكمل للإنسان العوامل المحققة لإنسانيته، أو تأتي مضادة لفطرته وفكرته، فيعيش في مجتمع الفتنة ويكون رقيه الإنساني بقدر التزامه بفكره ومقاومته لأوضاع الفتنة المضادة لها .أي أن البيئة وإن كانت تساعد

الإنسان في استكمال إنسانيته إن كانت موافقة لها، فإنها لا تسلبه بالضرورة هذه الإنسانية إذا كانت مضادة لها، بل إنه يستطيع أن يحتفظ بإنسانيته رغم وجوده في مجتمع الاغتراب، ولا مجال هنا لإثبات موافقة الهدى الإسلامي في التربية والاقتصاد والسياسة والقانون الخ للفطرة الإنسانية . والتوسع فيه مجال الأخوة المتخصصين في هذه الفروع المدركين لفلسفة الإسلام العامة في الحياة كما حاولنا أن نرسم الخطوط العريضة لمعالمها.

أود أن اختم هذه الكلمة ببعض الملاحظات في المقارنة بين الإسلام والنظريات الأخرى، فالماركسية تعتبر الملكية الفردية السبب الأساسي لاغتراب الإنسان عن ذاته ولكنها تعتبر هذه الملكية الفردية أمراً محتوماً على الإنسان في الفترة ما بين المشاعية البدائية والشيوعية الحقيقية، وأذن فاغتراب الإنسان أم مفروض عليه غير خاضع لإرادته، ولا أمل له في وجدان نفسه إلا حين تتهيأ الظروف التاريخية لذلك.

أما في الإسلام فإن الإنسان يولد حين يولد إنساناً حقيقياً وإن حادت به عن هذه الفطرة أفكار نشأ عليها، أو بيئة نشأ فيها فهو قادر بإرادته على اعتناق الفكرة الصحيحة التي تعيده ذاته، فالاغتراب ليس أمراً مفروضاً على الإنسان.

وبينما تعتبر الماركسية الأوضاع الاقتصادية شرطاً ضرورياً لاكتشاف الإنسان لذاته وعودته من الاغتراب فإن الإسلام يعتبره وسائر المؤسسات الاجتماعية عوامل مساعدة لا شروطاً ضرورية.

وإذا كان الشائع في فلسفات اليوم وفي افتراضات علمائه هو مقابلة الطبيعة بما وراءها أو الفيزية بالميتافيزية فالميتافيزية عندهم إنما يتحدث عنها الناس بمجرد التأمل المجرد المنفصم عن حقائق الطبيعية، والطبيعة ينبغي لكي نتعامل معها تعاملاً علمياً أن نغض النظر عن أصلها وسبب وجودها وأن نأخذها كما هي . فالإسلام كما قلت لا يعرف هذه الانفصام المفتعل ذي النتائج البالغة الضرر .أن حقيقة ما وراء الطبيعة إنما يتوصل إليها بالتأمل في الطبيعة نفسها.

والصفة المشتركة بين كل مظاهر الطبيعة هو كونها حادثة وإذن فإن الطبيعة نفسها تشير إلى ما وراءها، تقول إنها ما دامت حادثة فلا بد لها من موجد أزلي غير حادث، وطبيعتها – كأثر من آثار هذا الخالق- تدل على صفاته، وتجاهل هذه الحقيقة التي تدل عليها الطبيعة نفسها أمر تعسفي لا يقتضيه علم ولا عقل.

ثم إذا كانت الطبيعة تدل على أن لها خالقاً وهو الذي أوجدها وهو الذي بيده أمرها فكيف يمكن أن نفترضها مستقلة عن هذا الخالق؟

ليس صحيحاً إذن ما يقوله الدكتور عصمت سيف الدولة في كتابه آنف الذكر من أن لدى كل إنسان (قوة ما) مهما يكن اسمها، فهو يسند إليها ما لا يعرف سببه. وهو يؤمن بصحة إسناده إيماناً غيبياً لأنه لا يستطيع أن يثبته علمياً. وفي مشكلة الألوهية بالذات، ليس الملحدون أقل إيماناً من غيرهم، غيرهم يؤمن بأن الله موجود وهم مؤمنون (بأن الله غير موجود) وكلهم عاجزون عن إثبات إيمانهم بالاختيار والتجربة العلمية وكلهم فيما يؤمنون متدينون.

هذا كلام غاص بالأخطاء لكنني سأكتفي بالرد على ما يتعلق بموضوعنا هنا.

أولاً: لا تناقض في الإسلام بين عزو الأثر إلى سببه الطبيعي المباشر وعزوه إلى قوة الله تعالى، لا تناقض في قولي إن فلان قتل فلاناً فلا بد أن يعاقب على فعله، وقولي إنه إنما مات لأن أجله قد تم وكان مقدراً له أن يموت، فالله تعالى خالق الأسباب وجاعلها أسباباً لآثارها، والله تعالى إنما يقدر الأشياء حين يقدرها بأسبابها، فنحن المسلمين لا ننسب إلى الله تعالى فقط ما لا نعرف أسبابه كما ظن كثير من المفكرين الغربيين الذين تأثر بهم الدكتور عصمت، بل ننسب إليه ما نعرف أسبابه وما لا نعرف أسبابه.

ثانياً: لا تناقض كما قلت بين الإيمان الغيبي والإثبات العملي إذا كان الحس هو الذي يدل على الحقيقة الغيبية كأثر من آثارها .واستنتاج خصائص الشيء من آثاره منهج علمي معترف به .فالعلماء يتحدثون عن الذرة وعن خصائصها ولم يرها منهم أحد وإنما يستنتجون خصائصها من آثارها.

ثالثاً: الإثبات العلمي ليس محصوراً في الاختبار والتجربة بل إن كثيراً من حقائق العلم إنما تستنبط استنباطاً منطقياً عقلياً من حقائق أخرى .وكذلك الأمر بالنسبة لوجود الخالق .كما قلت لا يعرف هذا الانفصام المفتعل ذي النتائج البالغة الضرر .أن حقيقة ما وراء الطبيعة إنما يتوصل إليها بالتأمل في الطبيعة نفسها.

والصفة المشتركة بين كل مظاهر الطبيعة هو كونها حادثة، وأذن فإن الطبيعة نفسها تشير إلى ما وراءها، تقول إنها مادامت حادثة فلا بد لها من موجد أزلي غير

حادث، وطبيعتها – كاثر من آثار الخالق – تدل على صفاته، وتجاهل هذه الحقيقة التي تدل عليها الطبيعة نفسها أمر تعسفي لا يقتضيه علم ولا عقل.

ثم إذا كانت الطبيعة تدل على أن لها خالقاً أوجدها، وهو الذي بيده أمرها فكيف يمكن أن نفترضها مستقلة عن هذا الخالق؟

رابعاً: التقابل بين العلم والإيمان ليس أمراً ضرورياً فمن الإيمان ما يقوم على علم يقيني وهو الإيمان الصحيح الذي يدعو إليه القرآن، ومنه ما يقوم على مجرد الهوى والخرافة والأباطيل وهو إيمان يذمه القرآن الإيمان علم معه إقرار وهو يستلزم عملاً.

خامساً: وأما قوله: وقد انفصلت الميتافيزية عن العلم عندما قبل الناس أن يتعاملوا مع الوجود - كما هو - وأن يحاولوا اكتشاف قوانين حركته، ووجدوا في هذا ما يكفيهم لتحقيق ما يريدونه في المستقبل بدون حاجة إلى البحث في الماضي عن القوة التي حركت الوجود أولاً، وكان هذا الانفصال مقدمة لانطلاق العلم إلى مزيد من المعرفة فهو أيضاً مليء بالأخطاء أصحيح أن الناس وجدوا في هذا النهج ما يكفيهم لتحقيق ما يريدونه في المستقبل؟ إن هذا كلام غامض فما هو هذا الذي أراده الناس ووجدوه؟ ومن هم هؤلاء الناس الذين وجدوا ما يريدون؟ والعلم بين أيدينا غاص بالمشاكل التي تفتقر إلى حلول والبشر الماثلون أمامنا تكاد أن تقتل الكثيرين منهم الحيرة والاضطراب! هذا إلى أن الله في التصور الإسلامي لا يقتصر عمله على تحريك العالم تلك الحركة الأولى بل هو الذي يحفظه ويرعاه ويصرف أمره وإليه مصيره ما تسقط ورقة إلا يعلمها. ..

وبعد، فإن ما بيناه من ضرورة التلازم النظري والواقعي بين الإيمان بالله وتحقيق المجتمع الإنساني ليدل دلالة قاطعة على عقم الرأي القائل بإمكانية التعامل مع الكون كما لو كان مستقلاً عن القوة التي خلقته.

سادساً: وإذا كان البحث العلمي لا يعني أكثر من البحث عن أسباب الظواهر، والقوانين التي تحكم أفرادها فليت شعري لماذا يستثنى من هذه الأسباب سببها الأول والأكبر، الذي هو علة وجوده، وسبب فعاليتها؟

إنه مجرد التحكم الناتج عن التصور الغربي الخاطئ لطبيعة الصلة بين العلم والدين.

***

الخمر والعدوان

شبكة المشكاة الإسلامية السبت ١٩ صفر ١٤٢٧ هـ ١٨ مارس ٢٠٠٦ م

سأله صاحبه: ما رأيك في القول بأن شرب الخمر ينبغي أن لا يعد جريمة يعاقب عليها القانون إلا إذا ارتبط بعدوان.

فأجابه: هذا كلام من لا عقل له.

سأله: لماذا؟

فأجاب: وهل يعاقب القانون على العدوان إذا لم يكن مرتبطاً بخمر؟

سأله: ماذا تعني؟

فأجاب: إذا ضربك إنسان بعصا فهشم أسنانك هل يعد القانون فعله عدواناً يعاقبه عليه أم أنه يشترط فيه أن يكون مخموراً؟

قال صاحبه: إن تهشيم الأسنان عدوان سواء كان المعتدي مخموراً أو غير مخمور؟

فأجابه: ما دام القانون يعاقب المعتدي مخموراً كان أو غير مخمور، فإنه لا تكون لشرب الخمر علاقة بالعقوبة. فصاحب القول الذي رويته عنه يريد أن يقول للناس إنه لا بأس عليكم من أن تشربوا الخمر، لكن احذروا إذا شربتم أن تسكروا، لأنكم إن سكرتم فربما اعتديتم وإذا اعتديتم فربما عوقبتم.

سأله: لكن بعض البلاد التي لا تحرم شرب الخمر تعاقب السائق السكران إذا ارتكب حادثا ما لا تعاقب غير السكران.

فأجاب: ذلك لأنها وإن لم تحرم شرب الخمر تحرم القيادة والسائق سكران سواء ارتكب حادثا أو لم يرتكب. إذا رآك شرطي الحركة وأنت تقود بطريقة تجعله يظن أنك سكران فإن من حقه أن يوقفك ويختبرك فإذا وجدك ثملا كان من حقه أن يتهمك وأن تعاقب سواء اعتديت أم لم تعتد. أما ما رويته عن صاحبك فإنه يدل على أنه لا يرى بأسا بالسكر نفسه، وإنما البأس بالاعتداء، أي أنه إذا ثمل ولم يعتد فلا يكون قد ارتكب مخالفة قانونية، نعم أرى الفرق، قال صاحبه: ثم إن الله تعالى لم يحرم الخمر لمجرد أنها تقود إلى الاعتداء الحسي، وإنما قال في تعليل تحريمها ومعاقبة شاربها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

إلا رحم الله ناشر السنة

شبكة المشكاة الإسلامية
الأربعاء ٧ شوال ١٤٢٨هـ الموافق ١٧ أكتوبر ٢٠٠٧م

كان نعم الهدية التي أهداها الله تعالى للأمة السودانية .وهل رأيت من هدية لأمة أعظم من أن يشرف الله أحد أبنائها فيجعله داعية لها إلى السنة المحمدية عقيدة وعبادة وسلوكا؟ وكما كرم الله الأمة بأن جعل الهدية من أبنائها الهداة إلى سنة نبيه، فقد أقر عين الشيخ بأن أراه ثمرات جهوده وإخوانه الرواد في انتشار دعوتهم في ربوع السودان وفي مؤسسات البلاد التعليمية وغير التعليمية. كيف لا تقر عينه وهو يذكر كيف كان حالهم قبل أكثر من خمسين عاما حين أسسوا جماعتهم، وحالهم حين وفاته رحمه الله. كانوا قلة من الرجال يضطهدون ويشتمون بل ويضربون وهم الآن يملكون أكثر من أربعين مسجدًا كما قيل لي. وأما المساجد التي ينادى فيها بدعوة التوحيد فتبلغ المئات .وإذا كان الشيطان قد أثار الفتنة في جماعته الخاصة فشقها، فإن عزاء الشيخ أن القائمين بتلك الدعوة لم يعودوا محصورين في تلك الجماعة الخاصة، بل إنه يقوم بها الآن أعداد كبيرة من الرجال والنساء من الأفراد والجماعات التي لا تنتمي رسميًا لجماعة أنصار السنة المحمدية.

ولقد كان لجماعته تأثير حسن حتى على الجماعات الإسلامية السياسية، بل وعلى الجماعات الصوفية.

ولا بد أن عين الشيخ قرت بنعمة أخرى وحمد ربه عليها هي نعمة القبول الذي لقيه شخصيا لا في داخل بلده، بل في كثير من بلاد العالم الإسلامي .لقي في هذه البلاد أكابر العلماء وكثيرا من الوجهاء الذين كانوا يثقون به ويحترمونه ويظنون به خيرا كثيرا، كان الشيخ عبد العزيزبن باز رحمه الله كلما لقيته بعد عودة من سفر إلى السودان يسألني أول ما يسألني عن شيخ الهدية، وكانت تزكياته التي بلغت المئات لطلاب العلم وطلاب المساعدة لا تحتاج عند من يعرفونها إلى تزكية بعدها.

سيعجب البعض ويقولون إنك تكتب عن شيخ الهدية وعن جماعة أنصار السنة كأنك عضو فيها، وأقول نعم إنني والله لعضو فيها إذا كانت العضوية هي عضوية

الانتساب إلى الدعوة السنية لا عضوية التسجيل في وثيقة حزبية .شرفني الله بالانضمام إلى هذه الجماعة في أول نشأتها بمدينة بورتسودان وأنا في مقتبل الشباب، وعرفت الشيخ الهدية منذ ذلك الوقت لأنه كان كثيرا ما يزور إخوانه ببورتسودان .

كان والداي من طائفة الختمية فكنت أناقشهما برفق وأدب حتى هداهما الله، فكانت الوالدة إذا زل لسانها دعت أو استغاثت بغير الله استدركت فاستغفرت .قلت لها ذات يوم بعد أن هداها الله تعالى إنني تكلمت معك كثيرا فما الذي كان سبب إقناعك من كل ما قلت، فذكرت الحديث الصحيح الذي فيه **(يافاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئا)**. وقالت إنها قالت لنفسها: «ديل كلهن نحن متعقلين بيهن عشان فاطني، وفاطني يقولوا ليها كدي؟».

أما الوالد فحكى لي عنه الشيخ الهدية رحمهما الله قصة طريفة ما كنت أعرفها . قال إن خصومهم ببورتسودان كانوا يسمونهم أولاد الكلب، وقال إن بعض هؤلاء كانوا من جلساء شيخ إدريس.

فلما هداه الله تعالى قال لهم ذات يوم وكانت في الوالد كما في شيخ الهدية دعابة: «إنتو عارفين؟ أنا البارح بقيت مع أولاد الكلب».

أما الفائدة الكبرى الثالثة التي استفدتها من صلتي بجماعة أنصار السنة فهي أنني عرفت عن طريقهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم فصحبتهما إلى يومي هذا.

وكنت كثيرا ما أذكر شيخ الإسلام ابن تيمية لزملائي حتي إن أحدهم - صديقنا العزيز محمود برات عليه رحمه الله - قال إنه مر عليه زمان كان يظن فيه أن ابن تيمية شيخ ببورتسودان!

أنتهز هذه العلاقة الشخصية بشيخنا الهدية وبالجماعة لأبدي لهم رأيا أرجو أن يجدوه مفيدا.

بما أن جماعة أنصار السنة المحمدية إنما قامت في الأساس لرد الناس إلى العقيدة الصحيحة، وتخليصهم من كل أنواع الشرك، ثم ردهم ردا عاما إلى الاستمسك بالسنة.

وبما أنها قد نجحت في تحقيق هدفها هذا نجاحا كبيرًا بعون من الله وتوفيق، فكان من رأيي أن لا تقلد الأحزاب السياسية أو الجاعمات الإسلامية السياسية في طريقة عملها.

لا داعي للتوسع في العضوية الرسمية، وما يتبع ذلك من اجتماعات وتصويت يشترك فيه العالم والجاهل، ولا داعي لإلزام برأي ولا سيما في الأمور السياسية التي قد يختلف فيها الناس مع صحة عقائدهم.

أرى للجماعة أن تكون في أساسها جماعة صفوة من العلماء هم الذين يحلون ويعقدون، بعد أن يستشيروا ويستمعوا إلى من يشير .وأرى لها أن تعد كل من قبل دعوتها أخا لها أيا كان موضعه، وأن لا تلزم أحدًا من المنتسبين إليها برأي سياسي.

وهذا يعني أن لا تكون الجماعة باعتبار صفوتها التي ذكرناها جماعة سياسية، وأن لا تحرم على أحد من المنتسبين إليها الخوض في السياسة ما دام لا يتكلم باسمها وما دام لا يخالف في مواقفه قاعدة شرعية ولا سيما ما كان متصلاً منها بأصول الإيمان.

وهــذا لا يمنع أيضا من أن تصدر الجماعة بيانات تعليمية توضح للناس فيهــا حكم الشرع في القضايا التي تتعلق بالحكم ولا سيما ما كان منها خطيراً يمس العقيدة.

الذي أريده للجماعة أن تحذر أشد الحذر من أن تتحول إلى جماعة من العوام، فإن ذلك أضر ببعض الجماعات ضررًا بليغًا.

وبما أنه من مكملات الدعوة أن تكون للجماعة مؤسسات تعبدية وتعليمية وإعلامية فلتفتح باب المشاركة فيها لكل من انتسب إليها انتسابا وكان من المؤمنين بدعوتها.

هذا وفي الأمر تفاصيل لا بد من التعرض لها إذا ما قبل هذا الرأي قبولاً عاماً، قبولا أرجو أن يساعد في لم شمل الجماعة، بل وأن تنضم إليها جماعات أخرى منهجها كمنهجها.

***

الصلة بين ظاهر الإنسان وباطنه

منار السبيل السنة الثانية
محرم ١٤١٤هـ يوليو ١٩٩٣ العدد ١ صفحة ٣

الحمد لله والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وبعد:

جعل الله سبحانه وتعالى لكل إنسان باطناً وظاهراً..

باطنه هو قلبه وعقله، وما في هذا القلب من معتقدات وتصورات، وما تنتجه هذه المعتقدات والتصورات من مشاعر وميول ورغبات.

وظاهره هو هذا الجسم وتصرفاته.

لكن ظاهر الإنسان وباطنه ليسا عالمين مستقلين مفترقين، بل إن بينهما اتصالا وثيقاً، وتأثيراً متبادلاً.

فالباطن هو الأساس، وهو المحرك للظاهر والمتحكم في تصرفاته، وهو الذي يتقرر به صلاح الإنسان وفساده، وجزاؤه عند الله أو عقابه، لأن الباطن هو المقرر.

وأما الظاهر فإنما هو منفذ ومعبر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ [الأنفال: ٧٠].

﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

(إنما الأعمال بالنيات. وإنما لكل امرئ ما نوى).

لكن حكمة الله اقتضت أن لا يكون هذا الظاهر منفعلاً فحسب، بل قد يكون أيضاً فاعلاً. فهو حين ينفذ ويعبر تعود تصرفاته هذه فتؤثر على الباطن، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ولذلك فإذا كان الباطن منطوياً على خير عام لا يعرف تفاصيله.

فلا يفلح في أن يرسل إلى الظاهر رسالة واضحة به، أو يرسل إليه رسالة لا تتناسب مع الخير العام الذي هو مجبول عليه، فإن الظاهر قد يكون على حال تناقض الباطن، ثم تعود فتؤثر فيه تأثيراً سيئاً.

ولهذا فإن صلاح الإنسان لا يكتمل إلا بقلب مريد للخير، متصور له.

فالإرادة وحدها لا تجدي كما أن التصور وحده لا يجدي.

قال تعالى: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ١-٢].

فقال العلماء العارفون: إن حسن العمل لا يتم إلا بشرطي الإخلاص والصواب.

ثم قالوا: الإخلاص أن يكون مبتغى به وجه الله، والصواب أن يكون على سنة رسول الله ﷺ.

وهذا الذي قالوه مأخوذ من عدد من نصوص الكتاب والسنة.

فالله تعالى يقول مثلاً: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

فجعل شرط سعي الآخرة المشكور إرادةً للآخرة وإيماناً.

وهما مسألتان قلبيتان، وسعياً مناسباً للآخرة وهو عمل ظاهر، أو على الأقل لا بد فيه من عمل ظاهر.

* * *

بين الفردية والشورى

مجلة منار السبيل. السنة الأولى. العدد العاشر. شوال ١٤١٣هـ الموافق أبريل ١٩٩٣م.

كان الكاتب الأمريكي هوارد فاست Hoard Fast شيوعياً فترك الشيوعية وكتب في نقدها كتاباً أسماه Naked God أو المعبود العريان. ذكر فيه أن ستالين لم يكن فرداً يحكم روسيا فحسب لكنه كان ظاهرة عالمية في الأحزاب الشيوعية كلها بما ذلك الحزب الشيوعي الأمريكي، وذكر أمثلة غريبة للطريقة المستبدة المذلة التي كان رئيس الحزب الأمريكي يعامل بها الأعضاء بمن فيهم"فاست" نفسه. قرأت هذا الكتاب عندما كنت طالباً بالجامعة وذكرت ما جاء فيه لبعض زملائنا الشيوعيين، وكان ذلك بعد زوال ستالين، فأيد ما قال فاست وأضاف «كنا في ذلك الوقت (نُشلّت الزملاء)». تصوروا طالباً بالجامعة يرضى بأن يركله طالب مثله لأنه رئيسه في فرع الحزب بتلك المؤسسة!

لا أعرف جماعة إسلامية وصل الأمر فيها إلى حد "التشليت" هذا، إلا ما كان من أمر أتباع محمود محمد طه الذين غلوا في طاعة صاحبهم حتى عبدوه من دون الله، وهو حال أسوأ من ذل الركل بالأقدام، لكن عزاءنا أن تلك رغم اسمها لم تكن جماعة مسلمة. وعلى ذكر محمود نذكر أنه كان في مرحلة من مراحل دعواه التي تسلط بها على رقاب بعض الناس زعم أنه "وصل" وأنه لذلك لم يعد مكلفاً بما يكلف به غير الواصلين من أعمال الصلاة والصيام والحج وغيرها، ويبدو أن أحد الأتباع كان طموحاً فقال لهم ذات يوم"أحب أن أزف لكم البشرى بأنني قد وصلت ليلة أمس." فلما اعترض بقية الأتباع على دعواه أفحمهم بقوله"هل وصلتم أنتم؟" قالوا: لا، قال"إذن لا تناقشوني لأن هذه درجة لا تعرفون عنها شيئاً" فتركوا أمر مناقشته للواصل الأول، فكانت النتيجة أن فصله من الحزب؛ لأن الحزب لا يتحمل واصلَين، كما أن الزريبة لا تتحمل ثورين كما يقول المثل السوداني؛ قلت: إنني لا أعرف جماعة إسلامية وصل الأمر فيها إلى حد الرضى بالركل والضرب، لكنني أعرف جماعات رضيت لنفسها -باختيار منها، وبإغراء من زعمائها- أن تنتقل رويداً رويداً من مبدأ المشاركة في اتخاذ القرار، وجعل الأمر شورى بين أعضائها إلى تكريس السلطة في يد القائد، وتفويضه في اتخاذ كل القرارات أو جلها، فكان لابد لها من أن تذوق بعض الثمار المرة لهذا التكريس.

***

الآخـــر

شبكة المشكاة الإسلامية
الاثنين ٣٠ ذو القعدة ١٤٢٥هـ/ ١٠ يناير ٢٠٠٥م

كثر الكلام في أيامنا هذه عما يسمى بالآخر، عن الاعتراف به وعن قبوله .فما المقصود بالآخر؟ يدل اللفظ على أن المقصود به من ليس مثلك، من هو مختلف عنك، فأنت شيء وهو شيء آخر .فإذا كان الواحد أبيض اللون فأسود اللون آخر، أو كان الواحد مسلمًا فالنصراني أو اليهودي بالنسبة له آخر.

ما المقصود بالاعتراف به؟ إن كان المقصود الاعتراف بوجوده فهذا تحصيل حاصل، لأنه لو لم يكن موجودًا لما سمي بآخر، أما إن كان المقصود به حقه في الوجود وعدم تطهير العالم من أمثاله؟ إعطاء هذا الحق يعتمد على نوع العقيدة التي يؤمن بها كل من الأول والآخر .أما صاحب العقيدة الإسلامية، فإنه يعطي الآخر هذا الحق في الوجود والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ما المقصود بقبول الآخر؟ إن كان المقصود به أن تقول مثلي ولا فرق بيننا البتة، فهذه مغالطة، لأنه لولا وجود الفارق لما سُمي آخر .فاليهودي ليس كالنصراني، والملحد ليس كالمؤمن بوجود الخالق، والعربي ليس كالأعجمي .فلا بد أن يكون للقبول معنى آخر إذن .والمعنى المتبادر إلى الذهن هو أن تعده مثلك في أمر هو أهم عندك من الأمر الذي أنتم مختلفون فيه .فإذا كنت مسلمًا فستأخذ بمعيار التقوى الذي قرره الرسول صلى الله عليه وسلم والذي يقتضي أنه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى .فأنت هنا لم تعترف بالوجود الحسي للآخر وبحقه في هذا الوجود فحسب، بل اعترفت بأن فارق اللغة أو اللون لا تأثير له في قيمة الإنسان، فقد يكون الأبيض خيرًا من الأسود أو العكس، وقد يكون العجمي خيرًا من العربي أو العكس. وإذا كنت مسؤولاً عن دولة علمانية فقد تجعل القيمة العليا هي المواطنة فلا تفرق بين المواطنين بسبب لونهم أو دينهم.

فقبول الآخر يعتمد إذن على نوع القيمة أو المعيار الأعلى الذي تؤمن به .لكن هذا معناه أن الآخر إذا كان مختلفًا بذلك المعيار فلن يقبل ولن يعامل معاملة الأول .فالمسؤول في الدولة العلمانية لا يعامل الأجانب معاملة المواطنين، والمسلم الذي يجعل القيمة العليا للتقوى لا يسوي بين المسلم والنصراني أو اليهودي أو الملحد .فالذي يسوي بينهم إذا كان منتسبًا إلى الإسلام مثلاً فكأنه يقول أنا أعتقد أن الله لم يلد ولم يولد، لكنني أعتقد كذلك أنه لا فرق بيني وبين الآخر الذي يقول إن عيسى ابن الله، هذا تناقض. ليس هنالك إذن قبول للآخر بإطلاق وإنما هو أمر نسبي .والذي يقول بغير هذا لا يتصور حقيقة ما يقول.

رد شبهات المكذبين بعذاب القبر

شبكة المشكاة الإسلامية الجمعة
٢٩ ربيع الثاني ١٤٢٧هـ / ٢٦ مايو ٢٠٠٦م

كون بعض الناس يعذبون في قبورهم أمر جاءت به أحاديث متواترة عن النبي ﷺ، والتواتر يدل دلالة قاطعة على نسبة الحديث إلى النبي ﷺ.

فالذي ينكر عذاب القبر مكذب له ﷺ، إلا أن يكون جاهلا بهذا التواتر، أو جاهلا بأمر عقلي وهو أن التواتر يدل دلالة قاطعة على نسبة القول أو الفعل إلى من نسب إليه.. ومن كان مكذبا للنبي في أمر يعلم أنه قاله فلا يكون مؤمنا به، ولا بربه الذي أرسله، وإن كرر النطق بالشهادتين ألف مرة أو زاد.

وكل حجة يتشبث بها من ينكر أمرا جاء به كتاب الله، أو قاله رسول الله لا بد أن تكون باطلة عقلا؛ كما هي باطلة شرعا.. بل إنها لتدل على ضيق أفق صاحبها؛ لأنها كثيرا ما تعتمد على الخلط بين الممكن والمألوف.. أعني أن أحدهم ينكر إمكان حدوث شيء ما لمجرد أنه أمر غير مألوف؛ فهو يخلط بين المستحيل وغير المعهود.. هكذا فعل العرب الجاهليون في إنكارهم للبعث.. كانوا يرون أنه من المستحيل أن تبعث أجسادهم بعد أن يصيروا عظاما نخرة..

فكان الرد القرآني العقلي عليهم: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١]. أي إذا كنتم مؤمنين بأن الله تعالى هو الذي خلقكم أول مرة ولم تكونوا شيئا - وقد كانوا مؤمنين بذلك - فكيف يستحيل عليه أن يعيد خلقكم مرة ثانية؟!.. أليست الإعادة أهون من البداية؟!..

كذلك الأمر بالنسبة لعذاب القبر؛ أنكره بعض الزنادقة في الماضي، ويقلدهم في إنكارهم بعض الزنادقة المحدثين.. لكن الزنادقة الذين أنكروا عذاب القبر قديما

كانوا أذكي من زنادقتنا المحدثين؛ ولذلك أثاروا من الشبهات أعظم مما يثير هؤلاء المقلدون لهم.. ولم ير أهل السنة بأسا في رواية شبهاتهم؛ لأنهم كانوا موقنين بأنها حجج باطلة؛ يسهل محقها.. نذكر في ما يلي مثلا لهذه الردود السنية:

رد ابن القيم على الزنادقة:

ذكر الإمام ابن القيم في كتابه الروح (تحقيق سعيد محمود عقيل، نشر دار النخيل) كثيرا من هذه الشبهات، وفصل فيها، وكان مما ذكر عنهم قولهم: (ونحن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة لا يسأل، ولا يجيب، ولا يتحرك، ولا يتوقد جسمه نارا، ومن افترسته السباع، ونهشته الطيور، وتفرقت أجزاؤه في أجواف السباع، وحواصل الطيور، وبطون الحيتان، ومدارج الرياح كيف تسأل أجزاؤه مع تفرقها؟!.... ثم بدأ رحمه الله في الرد عليهم ردا استغرق أكثر من عشر صفحات (٧٧-٩١)؛ لكننا نلخصه في هذه الكلمات:

– أن الرسل لم يخبروا بما تقطع العقول باستحالته.

– أن يفهم عن الرسول مراده من غير غلو ولا تقصير؛ فلا يُحَمَّل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان.. إن سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد.

– أن الله تعالى جعل الدور ثلاثا: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار.. وجعل لكل دار أحكاما تختص بها.. جعل أحكام دار الدنيا على الأبدان، والأرواح تبعا لها.. وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعا لها.. تجري أحكام البرزخ على الأرواح؛ فتسري إلى أبدانها نعيما أو عذابا، كما تجري أحكام الدنيا على الأبدان فتسري إلى أرواحها نعيما أو عذابا.. فأحِطْ بهذا الموضع علما، واعرفه كما ينبغي يزل عنك كل إشكال يرد عليك.

فإذا كان يوم حشر الأجساد، وقيام الناس من قبورهم صار الحكم، والنعيم، والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهرًا باديًا..

- أن الله تعالى جعل أمر الآخرة وما كان متصلا بها غيبا؛ فأول ذلك أن الملائكة تنزل على المحتضر، وتجلس قريبا منه، ويشاهدهم عيانا، ويتحدثون عنده؛ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥].

- أن النار التي في القبر والخضرة ليست من نار الدنيا؛ وإنما هي من نار الآخرة وخضرتها؛ وهي أشد من نار الدنيا؛ فلا يحس بها أهل الدنيا.. وقدرة الرب تعالى أوسع، وأعجب من ذلك.. وقد أرانا الله من آيات قدرته في هذه الدنيا ما هو أعجب من ذلك بكثير؛ ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما إلا من وفقه الله وعصمه.. فهذا جبريل كان ينزل على النبي ﷺ، ويتمثل له رجلا؛ فيكلمه بكلام يسمعه؛ ومن إلى جانب النبي لا يراه، ولا يسمعه.. وهؤلاء الجن يتحدثون، ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لا نسمعهم.

- ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو (يعني البرزخ) ما بين الدنيا والآخرة، وسمي عذاب القبر ونعيمه باعتبار غالب الخلق؛ فالمصلوب، والمحروق، والغرق، وأكيل السباع والطيور لهم من عذاب القبر ونعيمه قسطهم الذي تقتضيه أعمالهم.

وزيادة من عندنا:

- يقال لمن ينكر عذاب القبر بحجة أن بعض الناس يموتون غرقا أو حرقا: أ أنت من المؤمنين بالبعث؟ إن كنت مؤمنا به فأنت تعتقد أن الله تعالى سيبعث الذين ماتوا حرقا؛ حتى ولو تفتت أجسادهم وذرت في الهواء.. فما الذي يمنعه سبحانه إذا من أن يجمعها، ويجعلها جسدا كما كانت فور تفتتها؟ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

- إن ما قلته عن الذين يحترقون أو يغرقون يقال مثله عن الذين يقبرون؛ ذلك أن المقبور لا يلبث - إن لم يكن نبياً - أن يتفتت، ويصير عظامًا نخرة؛ كما قال

المشركون، بل حتى عظامه ستتفتت وتتحول إلى المواد الأولية التي خلق منها الجسد!؛ فكيف إذاً يسأل أو يعذب؟!.

– إننا نعلم حتى في هذه الحياة الدنيا أن الإنسان إنما هو إنسان بروحه؛ لا بجسده؛ وذلك أننا نرى الجسم يتغير؛ فيزداد وزن الإنسان بضع أرطال أو ينقص، وتبتر بعض أجزاء جسمه، ويصح بعضها أو يمرض، ويظل الإنسان مع ذلك هو الشخص الذي نعرفه..

– بل نزيد على ذلك أمرا ربما لم يكن معروفاً للأقدمين، بل ولكثير من المحدثين؛ وهو أن جسم الإنسان في تغير مستمر؛ حتى إنه لا يبقى من خلاياه شيء كان قبل بضع سنوات ما عدا خلايا الدماغ التي يقال إنها إذا فقدت لا تعوض، وإن كانت بعض الخلايا الباقية تقوم بمهمتها.

والجسم إنما هو وسيلة لعذاب الروح؛ قال تعالى عن المعذبين في النار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

– ثم نضيف إلى ما ذكره الإمام بعض ما نعرف الآن من عجائب خلق الله في هذه الدنيا؛ مما يتصل بهذا الأمر؛ مما لم يكن بعضه معروفا في زمنه رحمه الله.. فنحن نعرف الآن أنه كما أن هنالك حدًا أدني لما يسمعه الإنسان من أصوات؛ فهنالك أيضا حد أعلى!!.. أعني أنه كما أن هنالك أصواتا لا تسمعها الأذن البشرية لخفوتها وقد تسمعها بعض الحيوانات؛ فهنالك أيضا أصوات لا تسمعها هذه الأذن لشدة علوها؛ وقد يسمعها حيوان مثل الكلب!!.. وهذا يعني أنه قد توجد الآن في المكان الذي أنت فيه أصوات أعلى بكثير من أصوات الطائرات التي تصك الآذان لكننا لا نسمعها، بينما تسمعها بعض الحيوانات.

***

الحرية

(جريدة الميثاق الاسلامي عدد ١٦ شوال ١٣٨٧ يناير ١٩٦٨م)

الأصل في التصرفات الطبيعية من كلام وحركة وأكل وشرب وغيرها أن تكون مباحة. والإباحة معناها أن يكون المرء حرًا في فعلها.

لا يمكن أن يوجد مجتمع بشري إلا بتوفر حد أدنى من هذه الحرية الفردية، ولا يمكن أن يبقى مجتمعًا إذا جاوز حدًا أقصى منها.

وإذن فلا يمكن لأي نظام مهما بلغت درجة قهره و دكتاتوريته أن يمنع هذه الحرية منعًا كاملاً، كما لا يمكن لأي نظام مهما بلغت درجة ليبراليته أن يطلقها إطلاقا كاملا.

ولذلك فقد كنت منذ سنين مثلت المجتمع بالنسبة للحرية بالماء بالنسبة لدرجات الحرارة. ففي درجة الصفر يتحول الماء إلى ثلج، وفي درجة المئة يبدأ في التحول إلى بخار. ولا يبقى ماء إلا بين الصفر والمئة. كذلك المجتمع لا يبقى مجتمعًا إلا بحد أدنى وحد أقصى من الحرية.

وعليه فإن التفاضل بين المجتمعات لا يكون بقدر ما فيها من حرية، وإلا لكان أفضلها مجتمع لا قوانين فيه، لأن كل قانون يأمر أو ينهى يمثل قيدًا على الحرية الفردية. التفاضل يكون إذن بنوع ما يبيحه المجتمع وما يحرمه أو يوجبه.

المجتمع الذي يبيح شرب الخمر والزنا والشذوذ يعطي الأفراد حرية أكبر من الذي يمنعها. فهل يكون المبيح لها أفضل من الذي يحرمها لمجرد إباحته؟ إذا قلت نعم فيلزمك أن تقول إن المجتمع الذي يبيح المخدرات، والاغتصاب والتشهير أفضل من الذي يمنعها.

تتفاضل المجتمعات إذن بنوع ما تبيح وما تمنع. ومعيار الأفضلية هو مدى النفع الذي يعود على المجتمع من الإباحة أو المنع أو الإيجاب. فكل أوامر ونواه تساعد على تماسك المجتمع، وأمنه وقوته ورقيه الروحي والمادي أوامر ونواه حسنة، وكل ما أدى إلى عكس ذلك فأمر سيئ.

في المجتمع الذي يريده الإسلام كما في غيره من المجتمعات أوامر ونواه تبيح وتمنع وتوجب، لكن فضله عليها هو في نوعها بالمعايير التي ذكرناها.

المجتمع الذي يريده الإسلام هو مجتمع من أفراد متآخين. فهو يأمر أمر إيجاب أو ندب بكل ما من شأنه أن يرسخ هذه الأخوة، وينهى نهي تحريم أو كراهة عن كل ما من شأنه أن يوهنها.

ولما كان التعبير ــ سواء كان باللسان أو باليد أو بحركات الوجه، وسواء كان كتابة أو رسما أو غير ذلك ــ هو من أكثر تصرفات الناس تأثيرًا في العلاقات بينهم فقد عني به الإسلام عناية خاصة فجعل القاعدة هي الإباحة، ثم نهى عن كل ما هو ضار منه وأوجب كل ما هو ضروري منه. ففي التشريع الإسلامي قواعد عامة لما يقال وما لا يقال، بأي من هذه الوسائل. وفيه أيضا تفصيل للأمر بأشياء معينة والنهي عن أخرى.

من القواعد العامة قوله تعالى في صفة المؤمنين (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) وقال (وأمرهم شورى بينهم) فهذا كله يقتضي تعبيرا. ويقول تعالى (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) ويقول الرسول ﷺ: **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت)** وهذا معناه أن يعتقد أن ما يقوله خير لا أن يكون خيرا في نفس الأمر، لأننا نعلم أن كثيرًا مما قاله الصحابة ولا سيما في أمور الشورى لم يكن صواباً. من أمثلة ذلك تحفظ عمر رضي الله عنه على صلح الحديبية ومنها أنه رضي الله عنه لما قرر بعد مشاورة بعض الصحابة ألا يدخل الشام بالصحابة لما علم أن بها وباء، وأن أبا عبيدة اعترض على القرار قائلا: (أفرارا من قدر الله؟) فبين له عمر خطأه، وأوضح له أن الفرار هو من قدر الله إلى قدر الله.

وكما ذكر التعبير باللسان فقد ذكر التعبير بغيره في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. من ذلك قول تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ونهى الرسول ﷺ عن محاكاة الناس على سبيل التهكم.

إن دينا يأمر بالدعوة وبالإصلاح بين الناس وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبالشورى وبالتعليم لا يمكن أن يكون ديناً لا حرية للأفراد فيه. ولا يمكن أن يكون ديناً يعاقب كل فرد على كل خطأ تعبيري ارتكبه.

إن كل حد لحرية التعبير في الإسلام هو بمثابة الحدود التي توضع على طرف الجسور لتقي السيارات والمشاة من الوقوع في البحار أو الهاويات. إنها (وهي من العليم القدير الرحيم) ليست مجرد تسلط كتسلط الحكام من البشر، وليست مبنية على نظريات باطلة كما هو شأن كثير من النظريات البشرية المسوغة لما يؤمر به وينهى عنه.

لا تعلق بالأشخاص..
معالم في طريق الاستمساك بالمبادئ

(جريدة الميثاق الإسلامي، العدد ٦٣٧، ١٠ أكتوبر ١٩٦٧م)

قبل فترة نشرت الميثاق خبراً صحيحاً عن مرض الرئيس جمال عبدالناصر. وقبل قرون أشاع المشركون خبراً كاذباً عن مقتل الرسول ﷺ في غزوة أحد.

وفي كلا الحالتين ذهل بعض الناس للخبر، واضطربوا ونالهم شيء من اليأس. فماذا كان التعليق على هؤلاء الذين أطَار الخبر لُبَّهم؟

أما في حال المسلمين الأوائل فإن كتب السيرة تروي: (أن أنساً بن النضر مرَّ على بعض الصحابة فوجدهم جالسين محزونين فسألهم فقالوا مات رسول الله. فكان جوابه فما تصنعون بالحياة بعده؟ فقوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ. ثم استقبل المشركين ولقي سعد بن معاذ، فقال: يا سعد واهاً لريح الجنة إني أجدها من دون أحد. فقاتل حتى قُتل ووجد فيه بضع وسبعون ضربة ولم تعرفه إلا أخته، عرفته ببنانه).

وجاءت آيات القرآن الكريم معاتبة بعض أصحاب محمد ﷺ على ما كان منهم من الهلع والجزع كما يقول الطبري. قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وأما في حال العرب الأواخر فإن بعض الذين يعلمون صحة الخبر لم يعاتبوا أولئك الذين استنكروا مرض الرئيس وهلعوا وجزعوا، بل عدوا هذا منهم سلوكاً طبيعياً مرضياً ولكنهم استكثروا على بعض الناس أن يذيعوا هذا الخبر الذي أسموه شائعة رغم علمهم بصحته لأن في إذاعته توهيناً لروح الجماهير المؤمنة بقيادة الرئيس.

حقاً إن الفرق بين الحالين شاسع! ولكن لا عجب، فتلك أمة مدعوة لأن تؤمن برسالة تحرك كل فرد فيها حركة ذاتية نحو النضال المستميت في سبيل إقرار حقائقها. أمة لا يحركها أو يلنها عن الحركة حياة شخص ولا موته، ولو كان هذا الشخص محمداً الذي حمل رسالة الله إليها فما محمد ﷺ إلا رسول يؤدي مهمته ويذهب كما ذهبت الرسل من قبله. إن الرسالة ليست مرتبطة بوجود شخص فكيف إذن يرتد عنها بعد موته من كان يؤمن بها في حياته؟

وهذه جماعة مدعوة لأن تؤمن بشخص يدفعها للحركة من وراء أو يجذبها من أمام فإذا مرض أو مات توقف دفعه وجذبه فسكنت حركة الجماعة المؤمنة بمحركها الأول، فلئلا تسكن حركة المؤمنين به ولئلا يرتدوا على أعقابهم بعد موته – فارتدادهم على أعقابهم بعد موته حتمي- لهذا يلام الذين ينشرون خبر مرضه ويقال للجماهير كذباً إنه لم يمرض وربما قيل لها إنه لن يموت ولكن هيهات فبالأمس مات محمد رسول الله ﷺ. وغداً يموت جمال عبدالناصر والفرق بين نتائج الموتين عظيم.

أما الأمة المستمسكة برسالتها فقد استمعت بعد موت رسول الله ﷺ إلى صوت يقول لها"من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت" ويذكرها بما قال المعبود الذي لا يموت للبشر الرسول الذي مات: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. وكان هذا صوت الرجل الذي عرفت الأمة صدق وده للرسول ﷺ، عرفته من سلوكه هو، ومن قول الرسول ومن كلام رب العالمين. الرجل الذي استخلفه على الصلاة الراحل الكريم، واختارته الأمة لكي يخلفه في إمارة المسلمين ولكن الصداقة شيء وعبادة الأشخاص شيءٌ آخر.

لقد بلَّغ محمد ﷺ رسالته فاستجاب له مؤمنون حملوا الرسالة بعد موته وهذا شأن القادة أصحاب الدعوات، وشأن المؤمنين بالمبادئ والدعوات. إن موت القائد لا يؤثر في رسالته بل إن كلماته لترتوي بدمه وتحيا بموته وتزدهر بعد ذهابه.

وغداً يموت جمال عبدالناصر فتتحطم لموته نفسيات، وييأس من جدوى العمل أفراد وتختفي باختفائه أحزاب وجماعات وصحف ومجلات وشارات وشعارات؛ لأنها كانت تعيش عليه لا على مبدأ تشاركه الإيمان به.

سيحتج أقوام قائلين نحن لا نهاجمه أو ننتقده، كما يفعل الحاقدون أمثالكم، لا لأننا نعبده –كما تدعون- ولكن لإيماننا بأفكاره الاشتراكية وبمواقفه الوطنية، فهو الذي حرر مصر من الملكية وطهرها من الرجعية وهو الذي أمَّم القناة ورفع مستوى العامل والفلاح، وهو الذي رفع في العالم رأس الأمة العربية –قبل الهزيمة-.

أقول وليت شعري وهل تكون العبادة إلا بمثل هذه المبررات؟ إن العبادة لا تبدأ في فراغ فلا بد في باديء الأمر أن يفعل المعبود شيئاً، أو أن يُخيل إلى بعض الناس أنه قد فعل شيئاً، ينال رضى العابدين وإعجابهم حتى إذا تمكن الحب من قلوبهم، وأسلموه

أمرهم، لم يبالوا بعد ذلك ما يفعل بنفسه وبهم، ورأوا من الكبائر أن يجرؤ أحد على الاعتراض عليه فقد حل هو بشخصه محل الفكرة التي عُبد من أجلها، فأصبح هو الفكرة وهو المبدأ الذي تُقاس به الأفكار والأفراد والمواقف بمدى قربها أو بعدها من نيل رضاه.

إن العابد لا يقول أبداً إنني أعبد شيئاً لشخصه، حتى عُباد الأصنام لم يعدموا مبرراً، فقد قالوا عن آلهتهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

إذن فليس المهم أن تجد مبرراً للعبادة، ولكن المهم أن يكون المبرر مقبولاً. ولا سبب مهما كان يبرر عبادة شيء من دون الله حتى لو كان الشيء شخصاً مرسلاً من عند الله.. ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

قلت إن العبادة لا تبدأ في فراغ، وإن المعبود لا بد أن يفعل، أو يتوهم العابد أنه قد فعل شيئاً يستحق الرضى والتقدير، ثم يتطور الأمر من رضى وتقدير وإعجاب إلى تسليم مطلق وانقياد أعمى. إن القرآن يحكي عن اليهود والنصارى أنهم ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، فلماذا عبدوا الأحبار والرهبان والمسيح؟ لابد أنهم في بادئ الأمر قدروهم وأحبوهم لمعرفتهم بتعاليم الدين ولقربهم من الله رب العالمين، ولكن هذا الحب والتقدير ازداد وازداد حتى فات حده وهزم غايته. لقد عبدوهم في بادئ الأمر لقربهم من الله، ولأنهم ظنوا أنهم خير من يقودونهم إلى الله، فإذا بهم في النهاية يعبدونهم من دون الله، ولا يقولن أحد إننا لا نعبد فلاناً كما يعبد النصارى عيسى، أو كما يعبد المشركون أصنامهم، فإن المهم هو مبدأ العبادة لا كيفيتها. والعبادة تكون حيث ما كان التسليم المطلق لشيء من الأشياء، وهذا التسليم المطلق ليس حالة نفسية فحسب ولكن له مظاهر بينة مشهودة، ومن مظاهره عدم النقد وعدم الإنكار وعدم الاعتراض، بل واستنكار الاستفسار. فالإنسان إذا كانت تربطه بآخر آصرة الفكر والعقيدة فإنه مهما أحبه وقدره ووثق فيه واطمأن إلى إخلاصه فلابد أن يزن تصرفاته بميزان الفكرة التي تربطهما ولا بد

أن يسأله لم فعلت هذا، أو أن يقول له لا تفعل ذاك من الأمور التي يبدو له أنها لا تتمشى مع الفكرة التي التقيا على الإيمان بها.

أيشك أحد في تصديق عمر وحبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ولكن انظروا كيف يجادله يوم الحديبية؟

قال عمر مخاطباً رسول الله ﷺ: ألست برسول الله؟

قال: **(بلى)**.

قال: أولسنا بالمسلمين؟

قال: **(بلى)**.

قال: أوليسوا بالمشركين؟

قال: **(بلى)**.

قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

قال: **(أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني)**.

فهذا الذي ظنه عمر دنية وأراد أن يثني الرسول عنه ليس من فعل الرسول وإنما هو أمر الله الذي يعبده عمر كما يعبده الرسول ﷺ. فتصرف الرسول ﷺ إذن له ما يبرره من المبدأ الذي آمن به عمر، وهذا شأن المستمسكين بالمبادئ، وليس كذلك المتعلقون بالأشخاص، إنه يردونهم موارد الهلاك فلا يقوى أحد أن يقول للسيد الرئيس: كيف حدث هذا؟ ولم حدث؟ وينبغي إلا يتكرر، ولابد من أن نزيل الأسباب التي أدت إليه ونحاسب المسؤولين عنه.

لا شيء من هذا فالقاعدة أن الرئيس لا يمكن أن يقع في خطأ كهذا أو يشارك فيه وأن كل من يشير ولو إشارة بعيدة إلى أنه مسؤول عما حدث فهو -شعر أم لم يشعر- خادم للسياسة الاستعمارية واقع في حبائل الإمبريالية العالمية، عامل ضد مصلحة الشعوب العربية.

القاعدة أن الرئيس مخلص لا يرتكب خطأ، وإذن فلابد من البحث عن أسباب الكارثة في كل مكان إلا عند الرئيس فإذا قال الرئيس إنني مسؤول عن الخطأ أضيف هذا إلى حسناته. أليس من النبل أن يخطئ غيره فيتبرع هو بحمل الخطأ؟!! فقد عبد الناس المسيح لأنه في وهمهم جاء ليحمل عن البشر خطاياهم.

ولكن ماذا استفدنا نحن؟ ما هي الأخطاء وكيف حدثت ومن المسؤول عنها أولاً؟ نريد أن نعرف هذا لأننا نستفيد منه في معركتنا القادمة. ولكن ما الفائدة في أن يتحمل الرئيس الأخطاء ويستقيل؟

وبعد أن عاد الرئيس إلى الحكم بعد دقائق حاملاً أخطاءه، وبعد أن اعتقل من اعتقل من كبار القادة العسكريين، قال الرئيس -الذي تحمل الخطأ- أنه بريء مما حدث فهو قد أخبر المسؤولين جميعاً بميقات الهجوم الاسرائيلي. فقال المعجبون العابدون: ألم نقل لكم إن الرئيس لا يخطيء؟ وأنه تحمل الأخطاء نبلاً لا ذنباً؟ ويموت مشير الرئيس وصفيه وخليله فيجرؤ الناس على النيل منه، وعلى تجريمه لأنه جرؤ قبل موته على معارضة الرئيس. إذن فلتنبش أخطاؤه كلها منذ أن استلم مسؤوليته على أن لا يمس الرئيس منها شيء، فتغاضيه عما علم منها كان حلماً ووفاءً، وجهله بما جهل كان عذراً مقبولاً.

ويتحدث لسان الرئيس هيكل فيقول كلاماً مقبولاً فيجرؤ بعض الناس على التعبير عن قلقهم مما يقول فيلتمسون من السيد الرئيس أن يقول بلسانه العضوي كلاماً ينفي ما قاله لسانه الصحفي. يطلبون هذا لا شكاً بعد إيمان ولكن لتطمئن القلوب.

ولكن المؤمنين بالرئيس حقاً يرون حتى في هذا النقد اللطيف المتحرج المتردد خروجاً على اللياقة وتشكيكاً في القيادة. إن ما يقوله هيكل هو رأي الرئيس لا شك في هذا، ولكن الأمور ينبغي إلا نأخذها بظواهرها. فإن لكل كلام ظاهراً يتسرع إلى قبوله العوام الجاهلون، وباطناً لا يدركه إلا الغائصون في بواطن الأمور وعلى الذين لم يتمرسوا في فنون التأويل أن يكفوا عن الاعتراض والتفسير و إلا وقعوا في المحاذير.

يا ليت شعري، أقولها أخيراً بملء فمي: ماذا تكون العبادة إن لم تكن هذه؟! وكيف تخرج من محنتها وكيف تستعيد أرضها أمة لم تستعد رشدها؟ ولكن أستغفر الله فلا داعي للأسى واليأس فإذا كان بعض الناس ما زالوا يسيرون بدفع ما قبل الهزيمة، فإن كثيراً من الناس قد انتبهوا وأعلنوا بحالهم ولسانهم أنهم لا يريدون متابعة السير في الطريق الذي أدى إلى الهزيمة. فإلى هؤلاء نقول تجردوا من عبادة البشر مهما كانوا ومهما منوا ومهما قالوا، واستمسكوا بالحق أنى وجدتموه، فذلك هو طريق الانتصار.

ونرجو أن يأذن الله بمتابعة الحديث حول استكشاف معالم هذا الطريق.

من قواعد الدين.... المحافظة على حسن سمعة المسلمين

جريدة الميثاق الإسلامية ربيع الثاني ١٤٢٥

ما زالت أفئدة الخيرين من البشر في أنحاء الأرض كلها تهوي إلى الإسلام لأنها تجده دين الحق والعدال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، ولذلك كان من حكمة الله تعالى أن يسد في تشريعه كل ثغرة يمكن أن تنفذ منها شبهة تشكك في امتياز دينه بهاتين الخصلتين فتجعله يبدو للناس كأنه دين يتضمن باطلا أو ينصر ظلما.

ولتأكيد الاهتمام بحسن صورة هذا الدين في أذهان الناس، كان من قواعده المهمة أن يمنع كل قول أو عمل يؤدي – في حالة من الأحوال – إلى تشويه هذه الصورة حتى لو كان العمل في نفسه مشروعا!!. لكن أناسا من المنتسبين إلى الإسلام جعلوا التدين ضيقا في العطن وتبلداً في الإحساس وعدم اكتراث بما يقوله أو يشعر به غير المؤمنين من الناس. بل ربما ظنوا هذا التبلد وعدم الاكتراث دلالة على قوة الاستمساك بالدين. مع أنه في حقيقته عدم فقه به، بل وصد للناس عنه.

ماذا يقول أمثال هؤلاء في قول الله تعالى لعبادة المؤمنين من أصحاب رسوله الكريم: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥]. في هذه الآية الكريمة يبين الله لعباده العله في منعهم من دخول المسجد الحرام لمقاتلة أعدائهم المعتدين من المشركين. العلة هي أنه كان بمكة آنذاك أناس قد آمنوا ولم يكن المسلمون يعرفون ذلك عنهم. فلو أنهم دخلوا على الكفار ربما قتلوا بعض إخوانهم هؤلاء ماذا كان سيحدث حينئذ؟ سيعير الكفار المسلمين بأنهم لا يبالون حتى بقتل إخوانهم، وربما شاع هذا بين الناس فصدقة بعضهم ولئلا يحدث هذا الأمر الشنيع منع الله المؤمنين من عمل هو في أصله مشروع لأنه كان سيؤدي في تلك الحال إلى أن تصيب المسلمين بسببه معرة وكيف يفهم أمثال هؤلاء قول الرسول ﷺ: **(لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل اصحابه)**؟ قال ﷺ هذا عندما اقترح عليه بعض اصحابه قتل بعض المنافقين فالرسول ﷺ لم يعلل عدم أخذه برأيهم بأن أولئك المنافقين لا يستحقون القتل وإنما علله بأن قتلهم يشوه صورة الإسلام في أذهان الناس. فالمنافقون في الظاهر للناس هم من أصحاب محمد ﷺ فقتله لهم هو فيما يبدو لهم قتل لأصحابه. لكن قتل الأصحاب ليس مما يتناسب مع دين يقوم على الحق والعدل لو كان الحكم في هذا إلى بعض ضيقي الأفق عديمي الفقه أولئك لقال قائلهم ما دامت الحقيقة أنهم منافقون فسأقتلهم ولا يهمني ما يقول الناس.

فإنه منهم!!

مقال للدكتور جعفر
نشر في الشبكة العنكبوتية ٣/١/٢٠١٥م

في عالمنا الإسلامي - العربي منه وغير العربي - مخلوقات غريبة تريد أن تجمع بين المتناقضات ولا تريد مع ذلك أن يعترض على تناقضها معترض. يريدون أن يقولوا لإخوانهم الذين كفروا من أهل الغرب إنما نحن مثلكم ننتقد الدين كما تنتقدون، ولا نلتزم به كما أنكم لا تلتزمون، ولا نترك فرصة للسخرية منه ومن المستمسكين به إلا اهتبلناها كما تهتبلون. ونرى كما ترون أن من حق الأديب والفنان أن ينتقد قيم المجتمع ومعتقداته ويدعو إلى نبذها، لأنه لا يكون أديبا أو فنانا مبدعا إلا إذا فعل كل هذا بحرية كاملة كما تفعلون.

لكن الفرق بين مخلوقاتنا الغريبة الممسوخة المقلدة هذه، وبين من هم أسوة لهم من إخوانهم الذين كفروا في الغرب، أن أولئك إذا قيل للواحد منهم إنك كافر بالمسيحية أو اليهودية اعترف بهذا وعده من تحصيل الحاصل. لكن مخلوقنا الممسوخ يرتجف ويولول ويطلب النجدة إذا قيل عن كلام كتبه هو أو أحد من شاكلته إنه كفر وخروج عن دين الإسلام. إنه يريد أن يكون كافراً حقاً، لكنه يرتعد حين يوصف بالكفر المعبر عن تلك الحقيقة. يريد أن يكون كافراً لكنه يريد أن يعيش في أمن، وأن يكون ذا سمعة حسنة في المجتمع الذي يتنكر لأحسن ما فيه من معتقدات وقيم، ويريد - شأن كل منافق - أن يتخذ من انتمائه للإسلام حصناً لهدمه، وهيهات.

وهو حين يواجه هذا الخطر على نفسه وعلى سمعته يتحول إلى واعظ يذكر من رموه بتهمة الكفر بقول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥]، وهي الآية التي لا يكاد الواحد منهم يحفظ من كتاب الله تعالى غيرها. يحفظها ليحتمي بها بعد أن يحرف معناها ويؤولها على غير تأويلها. نعم نحن مأمورون بأن ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة، لكن الذي نحن مأمورون بالدعوة إليه هو سبيل ربنا، وهو أمر واضح المعالم، بيّن الحدود. فنحن لا

نفهم من الدعوة بالحكمة وبالتي هي أحسن أن نميع حقائق هذا الدين، أو أن نطمس معالمه، أو نزيل الحدود التي تميزه عن غيره. فيكون شيئا هلامياً لا يعرف أوله من آخره، ولا يعثر فيه على ما يميزه عن غيره، فلا يمكن لذلك أن يُحكَم على إنسان بأنه داخل فيه أو خارج عنه. وما هكذا يكون الدين المنزل من عند الله، بل ما هكذا يكون أي مذهب حقا كان أم باطلا. لا بد لكل مذهب من معالم تحدد هويته، وتميزه عن غيره، حتى يقال عن إنسان إنه منتمٍ إليه أو ليس بمنتمٍ، وأنه مؤمن به أو كافر به. إن المذهب الذي ليس فيه ما يميزه عن غيره ليس بمذهب. والإسلام دين منزل من عند الله مرتكز على مجموعة من الحقائق، من آمن بها كان مسلما، ومن أنكرها أو سخر منها أو استهزأ بها كان كافراً. فإمكانية الحكم على إنسان بالكفر أمر لازم لهوية الدين. فالدين الذي لا إكفار فيه ليس بدين، لأنه لا هوية له. إذا لم تكن للدين هوية ولم تكن له معالم، فإلى أي شيء تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة؟ والآية الكريمة التي يستدل بها هؤلاء المسوخون تبطل دعواهم، وتدل على تحريفهم. وذلك أنها تبدأ كما قلنا بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل : ١٢٥] وسبيل الله هو مجموعة الحقائق والقيم المبيّنة في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ. إنها دعوة إلى توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به، دعوة إلى حبه وتقديره حق قدره، دعوة إلى الإيمان برسوله وتعزيرِه وتوقيرِه، دعوة إلى الإيمان بأن ما قرره الإسلام حق لا ريب فيه، وما أمر به فعدل لا ظلم فيه ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

فكل قول أو فعل يتناقض مع هذا فهو كفر، وكل قائل به وعامل به على بصيرة فهو كافر خارج عن ملة الإسلام، روائيّاً كان أم ممثلا أم فناناً، ناطقاً بالشهادتين أو غير ناطق.

لكن المخلوقات الممسوخة تريد أن تتستر بكفرها وراء الأدب والفن، فتزعم تارة أننا لم نفهم ما قيل على أنه عمل أدبي فني. هكذا قال المدافعون عن سلمان رشدي في آياته الشيطانية في البلاد الغربية، وهكذا يقول المدافعون عن حيدر حيدر في وليمته لأعشاب البحر. وإن المرء ليعجب إذا كان جماهير الناس، بل خاصتهم لا يفهمون

القصص والروايات، فيا ليت شعري ما ذا يفهمون؟ ثم هل يعقل أن يكتب كاتب قصة لا تفهمها الجماهير؟ إذن من الذي سيشتريها، ومن ذا الذي يقرؤها؟

وتزعم أخرى بأن الفنان لا يحاكَم بالمعايير نفسها التي يحاكَم بها سائر عباد الله. أي إنه من حقه - وليس من حق السياسي مثلا - أن يظهر الكفر ويدعو إلى التهتك مادام يعرض علينا كفره وتهتكه في صورة أدبية أو فنية، ومادام الكلام ليس صادرا منه هو مباشرة وإنما يقال على لسان شخصيات روايته أو قصته. فهنيئا إذن لكل فاحش بذيء. إذ ما عليه - لكي ينجو من كل محاسبة - إلا أن يضع شتمه وبذاءته على لسان شخصية يخترعها، في قصة أو رواية أو قصيدة يكتبها.

ماذا يعني هذا؟ أيعني أن الأعمال الفنية إنما هي أشكال لا محتوي لها؟ وأنها إنما يُحكَم عليها لذلك بشكلها لا بمضمونها؟ هل هذا صحيح؟ هل هذا هو الذي يفعله النقاد في تقويمهم للأعمال الفنية؟ وهل الشكل وحده هو الذي يبتغيه متعاطوا هذه الأعمال؟ وهل معنى هذا أنه إذا كان كاتب ذو مواهب فنية رائعة أنه يجوز له أن يكتب قصة فحواها الاستسلام لإسرائيل، وأنه لا يحق للفلسطينيين ولا غيرهم أن يعترضوا على ما فيها لأنها عمل فني؟ أم أن المحتوى الوحيد الذي لا يجوز الاعتراض عليه هو الاستهزاء بدين الله وتنقص أنبياء الله؟

وإذا كان بعض الناس يضعون الجمال الفني فوق الحق وفوق القيم، فما هكذا يرى المسلم المهتدي بكتاب ربه الذي يعلي من قدر الصدق والعدل، ويذم الكذب والجور في شكل جاء هذا أو ذاك.

ولهذا حكم على الشعر بمحتواه لا بمجرد شكله.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٧].

* * *

أين المرجعية ؟

الشبكة العنكبونية

المقصود بالمرجعية الطريقة التي يحسم بها الخلاف في قضية من القضايا. والمرجعية بهذا المعنى أمر ضروري لكل أناس يكونون أمة.

لو أن الناس كانوا أفرادًا لا علاقة بينهم لما احتاجوا إلى مرجعية، بل لاكتفى كل إنسان بقول أو عمل ما يراه مناسباً. أما إذا صاروا أمة فإنهم يحاولون أن يتصرفوا وكأنهم جسد واحد. لكن الأمة تتكون من أفراد، ومن شأن الأفراد أن يختلفوا في ما يرونه صالحًا لأنفسهم أو لأمتهم، وبما أنه من المستحيل عليهم أن يعملوا بكل الآراء الفردية المختلفة، كان من الضروري أن يتفقوا على مرجعية تحسم الخلاف بينهم وتكون هي الممثلة لأمتهم.

المرجعية بهذا المعنى لها جانبان: جانب يسمى بلغة العصر **ثقافيا** هو مجموعة المعتقدات والقيم التي تكون الأمة، وهي معتقدات قد تكون في صورة تقاليد متوارثة، وقد تكون في صورة كتب كما هو الحال بالنسبة لبعض الأديان، وبالنسبة للمجتمعات الحديثة التي تجعلها في شكل دساتير وقوانين.

المرجعية الثقافية هذه هي الأساس. لكن الأفراد قد يختلفون حتى في تفسيرهم لمبادئ ثقافتهم، فهم محتاجون إذن إلى مرجعية بشرية تنوب عنهم في تفسير مبادئ المرجعية الثقافية وتحسم الخلاف فيها بينهم.

المسلمون أمة ذات كتاب هو الذي يمثل مرجعيتها الثقافية الأولى. ولهم كما لغيرهم مرجعية بشرية هي التي يسميها القرآن الكريم أولي الأمر وهم علماء الأمة وأمراؤها. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

العلماء هم الذين يمثلون المرجعية الأولى، مرجعية الكتاب. والأمراء يمثلون المرجعية الثانية، مرجعية التنفيذ.

فأولو الأمر لا يطاعون طاعة مطلقة كما هو الحال في الحكومات الدكتاتورية لأنهم لا يملكون حق التشريع.

فإذا حدث خلاف بينهم وبين المحكومين كان لا بد من رد الأمر إلى المرجعية الأولى، مرجعية الكتاب التي يمثلها العلماء.

قرر الإمام البخاري هذه القاعدة تقريرا موجزا في عنوان أحد أبواب جامعه الصحيح فقال رحمه الله : «باب إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد». - أي إن حكمه مردود غير مقبول - والخلاف له جانبان، جانب عملي القرار النهائي فيه للسلطة السياسية ما دام قرارا لا يخالف ما يراه العلماء شرعا.

وجانب نظري لا يلزم الإنسان فيه بقرار حاكم ولا برأي غيره من العلماء ما دام أمرا يسوغ فيه الاجتهاد. لا إلزام فيه إلا بالإجماع.

هذا هو الوضع الأمثل.

فإذا لم يكن من الممكن تحققه لظرف من الظروف كان الواجب الاقتراب منه بقدر الإمكان.

فإذا لم يكن للناس سلطة سياسية أمرها نافذ، وكان من الممكن لهم أن يكونوا لجانا أو هيئات من العلماء يأتمرون بأمرهم تطوعا في الجوانب العملية، كما كان الحال بالنسبة لمقاطعة البضائع الدنماركية، لجؤوا إلى هذا الخيار الثاني.

لكن هذا لا يمنع - لا شرعاً ولا واقعاً - بعض العلماء من أن يخالفوا ما تراه تلك الهيئة المرجعية.

بيد أن الأقرب إلى الوضع المثالي هو إما أن لا يصرحوا برأيهم المخالف، أو أن يقولوا إنهم مع مخالفتهم ملتزمون برأي الهيئة المرجعية سيما إذا كان التصريح بالخلاف من غير هذا القيد سيؤدي إلى إفساد القرار إذا كان قراراً يحتاج تنفيذه إلى إجماع أو شبه إجماع.

هذا والله الموفق للصواب والهادي إلى سبيل الرشاد.

* * *

من مزالق الدعاة

شبكة المشكاة الإسلامية
الجمعة ٢٩ شعبان ١٤٢٤هـ/ ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣م

الدعوة إلى الله أشرف مهمة يقوم بها إنسان، لذلك اصطفى الله تعالى لها أكرم خلقه فجعلهم رسله إلى الناس، والداعية المسلم داعٍ إلى الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وهو نائب عن الرسول ﷺ في هذه المهمة؛ لذلك كان من الطبيعي أن تكون دعوته على بصيرة، أي عن علم بما يقول الله تعالى، وما يقوله رسوله ﷺ، وكان من الطبيعي أن يكون ملتزماً في دعوته أشد الالتزام بما أوحى الله إلى رسوله ﷺ، لا يحيد عنه قيْد أنملة، وإلا لم تكن دعوته إلى الله، بل كانت إلى ما يراه هو وما يهواه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

لكن ما أصعب أن يلتزم الداعية - حتى لو كان مخلصاً - بمثل هذا الالتزام، في بيئة تكون فيها شرائع الإسلام التي يدعو إليها غريبة غير مألوفة! ما أسهل أن ينزلق الداعية فيحيد عما أوحى الله، وهو يحسب أنه يدعو إلى الله! لقد كان سبب العزلة التي سقط فيها بعض الناس - وهم من الدعاة - أنهم في سبيل جعل الحكم الإسلامي مقبولاً للعقلية الغربية أو المستغربة، بدؤوا يضيقون ذرعاً بكل ما لا تقبله هذه العقلية من تعاليم هذا الدين، وإن كان مما جاءت به النصوص الصريحة، وإن كان محلَّ إجماع بين علماء المسلمين، تراهم لذلك يهرعون إلى تلقُّف كل رأي يخلِّصهم من هذه التعاليم ويسمونه اجتهاداً.

لكنني وجدت في مؤتمر عربي إسلامي نظَّمه المعهد العالمي للفكر الإسلامي هنا بالولايات المتحدة، أن هذا الانحراف أدى عند بعض الناس إلى انحراف آخر أخطر منه، فقد بدا لي من أقوال بعض الذين شاركوا في هذا المؤتمر أنهم - في سبيل قبول بعض التقاليد الغربية السياسية - بدؤوا يقبلون معها ما يرونه لازماً لها من الأفكار والمعتقدات الغربية، ومن ذلك أنهم - في سبيل إيجاد مكان للتعددية السياسية في الدولة الإسلامية - صاروا يذمون كل من يظهر استمساكاً شديداً بما يعتقد أنه الحق ويقولون لا أحد غير الله تعالى - الذي يسميه بعضهم بالمطلق - يمتلك الحقيقة. فكأنهم يقولون إنك لكي تعترف بالآخر لا بد أن تعتقد أنه قد يكون على صواب وتكون أنت على خطأ.

قلت لهؤلاء الإخوة: إن هذا يمكن أن يقال في مجال الأمور الدينية الاجتهادية، والأمور الدنيوية المبنية على الرأي، أما إذا قام الدليل القاطع على أمر ما أنه الحق، فلا مجال للتشكيك فيه سواء كان من الأمور الدين أو من أمور الدنيا. وإلا كان معنى هذا القول الاعتقاد بنسبية الحقيقة، والقول بنسبية الحقيقة - في غير مجال العلوم الطبيعية - هو من أمراض الحضارة الغربية الخطيرة التي تعدُّ كثيرٌ من مشكلاتها الاجتماعية أعراضاً لها. إن القول بنسبية الحقيقة هو الذي يجعل القيم الخلقية قيماً نسبية، فلا يجيز لذلك لإنسان أن يقول عن سلوك إنسان آخر إنه خطأ أو غير خُلُقي أو يذمه بأي نوع من أنواع الذم. ولذلك صاروا الآن يستبدلون بعبارة (الشذوذ الجنسي) عبارة (الميل الجنسي)، أي إن الرجل الذي يكون ميله إلى الرجال أو المرأة التي يكون ميلها إلى النساء هما كالرجال والنساء الذين يكون ميلهم إلى الجنس الآخر، لا فرق بين الميلين، لذلك ينبغي إلا يكون هنالك تفرقة في المعاملة.

وقلت لهم هل معنى ذلك أنني في سبيل قبول ما يسمونه بالآخر ينبغي ألا أجزم بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن القرآن كلام الله، وأن الشرك باطل ومذموم؟ هل يقول بهذا عاقل؟ ولكن هذا هو الذي يؤدي إليه القول بعدم امتلاك الحقيقة. نعم إنه لا أحد غير الله تعالى يعرف كل الحقائق، لكن من نعمة الله علينا أن جعل لنا نحن البشر الناقصين سبيلاً إلى معرفة بعض الحقائق التي تهمنا والتي تعتمد عليها حياتنا، وجعل العلم بها والإيمان اليقيني بصوابها شرطاً في نيل مرضاته سبحانه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، بل جعل اليقين بها شرطاً للدعوة إليه ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢٤].

وقلت إن تحملي للآخر وتسامحي معه لا يلزم أن يكون مبنياً على شكي وارتيابي فيما عندي، بل يمكن أن أتحمل وأُحسِن إلى من يخالفني وأنا موقن أنني على الحق وأنه على باطل. ألم يقل الله تعالى عن بعض الكفار: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

* * *

مهمة الداعية البلاغ

كلمة للدكتور جعفر شيخ إدريس

وتعقيب لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله ابن باز

مجلة التوعية الإسلامية في الحج العدد ١٨ ذو الحجة ١٤٠٢هـ.

قال الدكتور جعفر:

أعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وبعد: فإن الله تعالى قد حصر مهمة الرسول ﷺ في البلاغ فقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وكرر الله هذا المعنى في آيات كثيرة، وكما أنه سبحانه وتعالى بين للرسول ﷺ مهمته فقد بين له أيضاً نتائج هذه المهمة وما لا يتصل بهذه المهمة كي لا يشغل نفسه بها، وأريد أن أتكلم لكم في كلمات موجزة عن بعض هذه المهام التي تتصل بمهمة البلاغ كما ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم

فأولاً: ما دامت مهمة الرسول ﷺ وبالتالي مهمة كل داعية يتتبع خطى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما دامت هذه المهمة محصورة في البلاغ فينبغي على الداعية أن يبلغ الرسالة كما هي وإلا يزيد فيها ولا ينقص منها، وأن يستمسك بها كما أنزلها الله سبحانه وتعالى.

وينبغي عليه ثانياً: أن لا يظن أن من مهمته أن يدخل الإيمان في قلوب الناس فذلك أمر قد تكفل الله سبحانه وتعالى به ولم يتركه لنبي أو لداعية أو لأحد من البشر، ولكن هذا مما يصعب على الإنسان جداً، فالإنسان عجول يريد أن يرى نتائج عمله والناس كما قيل كأسراب القطا مجبولون على حب التقليد والموافقة فالإنسان يحب إذا قال للناس كلاماً أن يقبلوا منه هذا الكلام وأن يعيدوه لكي يكونوا مثله فإذا لم يفعلوا هذا غره شياطين الإنس والجن على أن يغير هو في دعوته كي تناسب ما عندهم هم، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حذر رسوله ﷺ من أمثال هؤلاء فقال: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا

﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥]، قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ هذا كلام في غاية الأهمية، وذلك لأن دعاة الباطل والكفار ليغرون الداعية بأنه إذا غير هنا أو غير هناك أو أول الدين أو فسره بما يناسب أهواءهم فإنهم يحبونه ويعظمونه، وهذا ما يحدث الآن في واقعنا فإن المستشرقين وأمثالهم من الشيوعين وغيرهم كثيراً ما يمدحون الدعاة أو المنتسبين إلى الإسلام الذين يعمدون إلى مثل هذا التغير فيصفونهم بسعة الأفق وفهم العصر ويصفونهم بأنهم يجعلون الدين للناس يسراً ويصفونهم بأنهم أذكياء وبأنهم متحررون وبأنهم كذا وكذا وهذا يغر الإنسان فيتمادى في التحريف وهم لا يريدون لهذا التحريف أن يقف عند حد فكل ما وجدوا إنساناً أكثر تحريفاً عظموه عمن هو أقل منه تحريفاً لأنهم لم يرضوا عنه ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، هذه الغاية التي يريدون للإنسان الداعية أن يصل إليها، وإذا كان هذا قد حدث في زمان الرسول ﷺ فإنه موجود عندما الآن، إن المجتمع وإن المنحرفين فيه كثيراً ما يضغطون على الدعاة بأن يفسروا الدين وأن يؤولوه بما يناسب أهواءهم، والداعية المخلص يظن أنه إذا استجاب لكلامهم فإن هذا مما يدعوهم لأن يقبلوا كلام الله سبحانه وتعالى ويقبلوا دعوته ولكن الله سبحانه وتعالى يحذر الرسول ﷺ ويبين له أن الإنسان الصالح الذي يريد الهدى يكفيه هذا الذي أنزلناه إليه وأما الذي يقترح عليه بأن يغير هنا أو يبدل هناك لكي يستجيب لدعوتك فإنه لن يستجب أبداً ولهذا يقول اله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ولذلك كما قلت في عصرنا هذا رأينا كثيراً من الناس يضيقون صبراً بكثير من أحكام الإسلام التي لا تتمشى مع أهواء العصر فهم يضيقون بتعدد الزوجات وبرجم الزاني المحصن لأن الغربيين يرون أن هذا من القسوة بل كل الحدود يرون أنها من القسوة ويضيقون صدراً

بالربا لأن البنوك كلها تتعامل به ويظنون أن الحياة لا يمكن أن تسير إلا به ويضيقون صدراً بقتل المرتد لأن هذا لا يتناسب مع التسامح الديني كما هو مفهوم في الغرب بل إن هذا الضيق قد يصل إلى بعض العقائد فإن كثيراً من المنتسبين إلى الإسلام أصبحوا يضيقون صدرًا بالمعجزات لما فيها من خوارق العادات وقد قرأت قريباً في كتاب ترجمة لمعاني القرآن باللغة الإنجليزية وتعليقاً عليها لم يكد الكاتب يترك معجزة من المعجزات التي وردت في القرآن الكريم إلا أولها تأويلاً يصرفها عن معناها فقال مثلاً في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧١]، إن هذا كان زلزالا وقال في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، إن هذا كان وباء وهكذا وكما قلت قد يصل الأمر إلى بعض العقائد فيضيق الداعية صدراً بكل ما يجد في القرآن مما يتناسب مع أهواء العصر بل هذا قد يقع فيه بعض الموحدين فيبالغون في التنزيه وفي البعد عن الخرافات حتى إنهم ليضيقون بكل ما ليس مناسباً كما قلت مع أهواء العصر مثل تقبيل الحجر الأسود ومثل رمي الجمرات وهكذا فعلينا أيها الإخوة الكرام ونحن نترسم خطى الأنبياء -عليهم صلوات الله وسلامه- أن نحذر من كل هذا، وأن نستمسك استمساكاً شديداً بما أنزل الله سبحانه وتعالى، وأن لا نلتفت إلى أهواء العصر.

المسألة الثالثة: التي حذر الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ هي الحزن لأنه إذا كانت مهمتك أيها الرسول أن تبلغ فينبغي أن لا تحزن مهما كان رد فعل الناس ومهما أعرضوا قال الله تعالى للرسول ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

المسألة الرابعة: هي أن لا ييأس أبداً لأن الإنسان الذي ييأس هو الذي يظن أن عليه أن يهدي الناس وأن يحملهم على أن يقبلوا دعوة الله سبحانه وتعالى، أما الذي يتذكر أن مهمته هي البلاغ فيستمر في هذا التبليغ حتى ولو أعطاه الله سبحانه عمراً كعمر نوح عليه السلام ولا ييأس أبداً لأنه يعلم أن مهمته إنما هي أن يوصل هذا الحق للناس لا أن يحملهم عليه حملا، والله سبحانه وتعالى يقول للرسول ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ

مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، إن هدى الله ليس من مهمة الرسول وليس من مهمة أي بشر وأي داعية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

أقول قولي هذا وأستغر الله سبحانه وتعالى لي ولكم وأساله عز وجل أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

قال سماحة الشيخ / عبد العزيز بن عبد الله بن باز:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وصلى الله على رسوله الله، أما بعد:

فقد سمعنا جميعاً هذه الكلمة المباركة الطيبة التي تهم كل داعية في كل عصر ولا سيما في هذا العصر من أخينا الشيخ جعفر شيخ إدريس، وفي الحقيقة كلامه في محله وقد أصاب وأجاد وأحسن جزاه الله خيراً وضاعف الله في مثوبته، هذه المسألة التي نبه عليها وهي مهمة الرسول ومهمة الداعية وهي البلاغ والبيان والإيضاح وإرشاد الخلق إلى ما خلقوا له. أما الهداية وقذف النور في القلب وقبول الحق وإيثاره هذا إلى الله عز وجل ليس إلى الداعية وليس إلى الرسول ﷺ هذه في الحقيقة مسألة عظيمة قد أحسن في التنبيه عليها فإن كثيراً من الدعاة يضيقون صدراً إذا لم يستجب له وربما يئسوا فتركوا لضيق الأفق وعدم الصبر وليس هذا شأن الرسل عليهم الصلاة والسلام ولا من أخلاقهم بل أخلاقهم الصبر وعدم اليأس وعدم الحزن. وقد نبه الله نبيه على ذلك عليه الصلاة والسلام فجدير بالداعية أن يتأسى برسوله عليه الصلاة والسلام، وأن يتبع خطاه وأن يحذر التغيير والتحريف من أجل الرغبة في هداية الناس، ومن أجل الرغبة في موافقتهم لما يقول، وهذا باب عظيم وخطير جدا، وقد نبه الله على ذلك في الآيات التي سمعتم ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥]

هذه الآيات فيها العظة العظيمة والتنبيه العظيم لرسولنا عليه الصلاة والسلام وللدعاة بعده، وأن الواجب أن يبلغ رسالات الله جل وعلا ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] ومعلوم ما جرى للرسول ﷺ مع الناس وما فعلت قريش من قولها إن شئت جمعنا لك كذا وكذا، وإن شئت سودناك علينا، وإن شئت زوجناك أحسن امرأة الخ... كل ذلك ليصدوه عما جاء به ويصرفوه عن دعوته ولعله يستجيب لهم فأبى ذلك واستمر في دعوته وإرشاده وتبليغه حتى أصابه ما أصابه من أذاهم الذي لا يخفى على من له علم بالسيرة في مكة، ثم عزموا على قتله فخلصه الله منهم وأنجاه من شرهم وكيدهم وانتقل إلى دار الهجرة وصبر على أذى المنافقين وأذى اليهود وأذى غيرهم من أمثالهم حتى أظهر الله دينه وأعلى كلمته ونصر عبده ونبيه ونصر حرمه، المقصود أن هذا أمر واضح وأن الواجب على الدعاة إلى الله عز وجل أن يكون عندهم من التحمل والصبر على الدعوة ما يمكنهم من الوصول إلى ما أرادوا من التبليغ وايصال الحق إلى الناس وبيان ما جاء به عليه الصلاة والسلام من الهدى ثم ذلك الأمر إلى الله وحده ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد: ٧]، إنما أنت مبلغ إنما أنت مرشد أنما أنت هاد، فمهمتك البلاغ والبيان ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٥-١٢٧]، فالمؤمن لا يحزن ولا يتضايق، وقد نبه الله نبيه ﷺ على هذا فقال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ

ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٤]، فالداعية يتحمل ولا يحزن ولا يهلك نفسه من أجلهم ولكنه يكون واسع البال صبوراً على ما قد يصيبه من الأذى من سخرية وغير ذلك وقد صبر نوح عليه السلام على قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً لم ييأس وهو يدعوهم إلى الله عز وجل حتى أوحى اليه: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]، حينئذ دعا عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]؛ لأنهم لا خير فيهم بعد ذلك فلو عمرت ألف سنة إلا خمسين عاماً كما عمر نوح عليه السلام فلا تيأس فالداعية قد يبتلى إما بالتغيير أو التحريف ليرضيهم لعلهم يتابعونه وإما بالحزن العظيم والضيق الشديد والحرج حتى يشق عليه الكلام وإما باليأس والعياذ بالله حتى يدع الدعوة ويقول هؤلاء لا خير فيهم لا فائدة منهم وهم في هذا العصر قدا انحرفوا ولا يقبلون هداية فييأس عند هذا ويتحسر ويدع الدعوة وكل هذا غلط لأنه مخالف لهدى الرسول عليهم الصلاة والسلام فلا يأس ولا حزن ولا مضايقة ولكنه يتحمل وليصبر قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨-١٩]، فالله جل وعلا ما أبقى شيئاً للرسل ولا لأتباعهم دون بيان فقد أوضح لهم الأمر ثم جعلناك على شريعة من الأمر أي شيء واضح بين فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ليس لنا أن نتبع أهواءهم ولو ظننا أنهم إذا اتبعنا بعض أهوائهم فعلوا وفعلوا وساعدونا إنهم لن يغنوا عنك من أحد شيئا فالأمر بيده سبحانه وتعالى ينصرمن يشاء ويعز من يشاء ويذلك من يشاء ويخذل من يشاء ولو كانوا أقوى من على ظهر الأرض فربك قادر على أن يبطل قواهم ويبطل كيدهم وينصر الحق عليهم مهما كانت قواهم ومهما ضعف أهل الحق فربك على كل شيء قدير ولا يخفي ما جرى يوم الأحزاب اذ تجمعت قريش وتجمع من تجمع من الأحابيش وغيرهم وجمعوا من القوى ما جمعوا حتى بلغت قواهم فيما ذكر أهل السير عشرة الاف، وعشرة آلاف

لها شأن في ذاك الوقت عظيم عشرة آلاف توجهوا إلى المدينة وحاصروا المدنية مدة طويلة، وحصل على المدينة ما حصل من الضيق الشديد، فما حزن المؤمنون بل زادهم إيماناً وتسليماً، وضاق بذلك المنافقون وضعفاء البصائر ثم يسر الله للمسلمين النصر والتأييد من عنده جل وعلا كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ٩-١١]، فالأمر بيده سبحانه وتعالى زلزلهم ورجعوا خائبين ولم يصيبوا شيئا ولم يقتلوا أحدا سوى ما جرى من إصابة سعد بن معاذ من الجرح الذي انفتق عليه بعد وقعه بني قريظة وصار فيها قتيل واحد من المسلمين وقتيل واحد من الكفار ثم انصرف الناس ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتوجه إلى بني قريظة الذين ظاهروا المشركين على حرب المسلمين وخانوا عهدهم وغدروا برسول الله ﷺ وأصحابه وحاصروهم مدة رضوا بعدها بأن يحكموا سعد بن معاذ رضي الله عنه وحكم سعد بأن يقتل الرجال ويسبى الذراري والنساء، وتقسم الأموال، ونزلوا على حكم سعد وقتلوا وقسمت أموالهم وصارت ذريتهم ونساؤهم سبياً للمسلمين. هذه من آيات الله ومن الدلائل العظيمة على نصر الله للمؤمنين التي وقعت أول هذا الأمر وللدعاة وللمجاهدين ولأهل العقل عبرة وعظة في ذلك. ونسأل الله للجميع البصيرة والتوفيق والهدى. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. وجزى الله الشيخ جعفر خيراً وبارك فيه وزاده وإياكم نعيماً وتوفيقاً وهدى.

***

عالم النبوة الرحيب

شبكة المشكاة الإسلامية الأربعاء ١٣ ذو القعدة ١٤٢٨هـ/ ٢١ نوفمبر ٢٠٠٧م

يتسع عالم الإنسان الذي يعيش فيه أو يضيق بحسب سعة علمه وضيقه، فقد يسكن شخصان في بلد واحد، بل قرية واحدة، ثم يكونان عائشين بعلمهما في عالمين مختلفين غاية الاختلاف في نوعهما وسعتهما بسبب ما بينهما من الاختلاف في نوع العلم وسعته.

يولد الإنسان جاهلا ثم ييسر الله تعالى له أسبابا للعلم كلما توفر له قدر منها أكبر كان علمه أكثر. قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. لكن هذا الإنسان: يولد ومعه بذور العلم التي تنمو في داخله بنمو عقله، ولا تحتاج لأن تكتسب من خارجه لأن " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء؛ هل تحسون فيها من جدعاء؟" فكل ما أنزل الله على رسوله من علم له أصل وجذور في هذه الفطرة. ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وهو علم يشمل أصول الدين وأصول المبادئ العقلية والخلقية والذوقية. فكل من احتفظ بفطرته هذه نقية لم تكدرها عوامل خارجية كان حظه من هذا العلم الفطري أكثر وأشد رسوخاً.

ثم إن الإنسان يكتسب العلم بالوسائل المذكورة في هذه الآية، الحواس والعقل. ومن العلم وأشرفه ما هو وحي من الله تعالى، يعلمه الأنبياء علما مباشرا من خالقهم أو بوساطة ملائكته، ويعلمه سائر الناس بتبليغ الأنبياء.

ومنه ما هو مستخرج من ذلك الفطري والمكتسب والمنزل من عند الله تعالى، يستخرجه الإنسان بكثرة التفكر والتأمل.

كان رسل الله أحب خلق الله إلى الله، فلا جرم آتاهم من العلم بنفسه تعالى وبخلقه ما لم يؤت أحداً، وآتاهم من أسباب العلم ووسائله ما لم يؤت أحداً من سائر خلقه. ومحمد ﷺ هو أحب رسل الله إلى الله، فلا جرم كان أعلمهم به وبخلقه، ولا جرم كان عالمه الذي يعيش فيه أرحب عالم.

بل ليس في الإمكان إبداع

مجلة المعرفة السعودية العدد (٣٢) ذو العقدة ١٤١٨هـ

ربما كانت أسباب هذه المحنة متعددة، لكنني لست أشك في أن أهم أسبابها، أو من أهم أسبابها، علة تتعلق بالتصور، فهي لذلك علة يمكن أن تعالج، إنه لا يمكن أن يقال إن العربي المعاصر إنسان مطبوع على الغباء أو الكسل أو عدم المقدرة على مراعاة الظروف ومواكبه المتغيرات. كلا ! فلدينا من الشواهد ما يثبت نقيض ذلك. لكن المشكلة تكمن في التصور، إنها المشكلة التي ذكرتم طرفاً منها بإشارتكم إلى الاعتقاد بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، لكنكم أهملتم طرفها الآخر الذي هو الآن علة عللنا -أعني الاعتقاد بأنه ليس بالإمكان أفضل مما علية الأوربيون والأمريكان.

الجمود والتقليد الناتجان عن هذين التصورين هما إذن علتنا.

إننا نقول إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، لكن أنَّى يكون كذلك في الواقع إذا لم يكن العالمون به عارفين بزمانهم ومكانهم جغرافية وسياسة واقتصاداً، وفكراً ولغة وغير ذلك كما كان أسلافهم بالنسبة لزمانهم ومكانهم؟ وليس المطلوب هنا معرفة المختص، فذلك أمر فوق طاقة البشر، وإنما هو معرفة المثقف الذي يلم من كل شيء مهم بطرف، إلماماً يمكِّنه من التواصل مع أبناء عصره، ويعينه على عرض بضاعته عرضاً مغرياً ومؤثراً، بل ويجعله قادراً كسائر زملائه المختصين بالعلوم الأخرى على معرفة مؤسسات عصره وحسن تسييرها واستغلاها، لماذا يكون بعض الأطباء أو المهندسين -ودعك من علماء الاجتماع والسياسة- قادرين على أن يكونوا وزارة داخلية أو خارجية أو إعلام، ولا يكون كذلك المختصون بالعلوم الإسلامية؟ السبب في ذلك هو المناهج الدراسية الني تجعل دراسة العلوم الدينية منعزلة عن المعارف والأفكار والمؤسسات العصرية فالعلة ليست إذن في طبيعة دين الإسلام، حاشاه، ولكنها في مناهج المؤسسات التعليمية الإسلامية، وهي علة يمكن علاجها، ولي بعض اقتراحات بشأنها، ليس هذا مكان تفصيلها.

إنه لا أمل في أن تكون ثوابت الماضي حاضرة وفعالة وموجهة لمتغيرات المستقبل إذا لم يكن العالمون بها حاضرين وفاعلين في مؤسسات الدولة الحديثة.

أما علة العلل-ليس بالإمكان أفضل مما عليه الأوروبيون والأمريكان-العلة التي قعدت بنا ولا تزال تقعد، فهي التي تحتاج إلى وقت طويل وجهد جهيد، لأن الدعاة إليها كانوا ولا يزالون من كبار الساسة وقادة الرأي والأدباء والصحفيين والأساتذة والمعلمين .لقد تربت عليها ولا تزال تتربى الأجيال في المدارس والجامعات ووسائل الإعلام.

هذه الدعوة إلى تقليد الغرب والجمود على ما هو عليه لا تقدم للأجيال على حقيقتها هذه وإنما تعرض على أنها هي الوسيلة الوحيدة لنا؛ لكي نعيش عصرنا ولأن نتقدم ببلادنا كما تقدم الغربيون .ومَنْ من الناس يرضى بأن يعيش خارج عصره، أو أن يبقى على تخلفه؟!

لكن هذه الدعوة إلى الجمود والتقليد مبنية على أوهام وأباطيل ليس من العسير كشفها، ولكن ليس هذا مكان تحليلها والرد عليها، لكن مما يمكن أن يقال في عجالة إنها دعوة تحمل جرثومة موتها، لأن المقلد للغرب لا يمكن أن يكون حراً وأصيلاً، مع أن الحرية والأصالة من القيم التي يعتز بها الغربيون ويشجعونها، ثم إن من أكبر أباطيلها عدم التمييز بين ما كان من ملابسات ثقافية وعادات وتقاليد غربية صاحبت هذا التقدم، إن دعاة التقليد يدعون بأن الحضارة الغربية كل لا يتجزأ وأنها بكل مكوناتها العلمية والتقنية والفلسفية والأدبية والفنية وبكل تقاليدها الاجتماعية ونظمها السياسية هي حضارة العصر لمن أراد من المجتمعات أن يكون معاصراً .فإما أن تؤخذ جملة فيكون الأخذ بها معاصراً متقدماً، وإما أن تترك جملة فيكون تاركها ضعيفاً متخلفاً، ألم يقل الأستاذ زكي نجيب محمود إنه مر عليه زمان كان يرى مثل هذا الرأي، وكان لذلك يعتقد أننا لكي نتقدم فيجب علينا أن. ...وأن نكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون؟ وقد سبقه إلى قول شبيه بهذا الدكتور طه حسين وسبقهما إليه أتاتورك الذي دعا قومة إلى أن يأخذوا من الغربيين كل شيء حتى الديدان التي في بطونهم ! ثم هذا الاعتقاد ساد وانتشر حتى كاد أن يكون بديهة من بدهيات العقل العربي، فأقعد الناس أو كاد عن التفكير المستقبل، وجعلهم يتحرجون من كل ما له صلة بتاريخهم، اللهم إلا إذا كان من النوع الذي ترضى عنه الحضارة الغربية وتعظمه . وكان من نتائج ذلك أن رضي كثير من المفكرين لأنفسهم -حتى أساتذة الفلسفة منهم، كالدكتور زكي نجيب محمود -عليه رحمه الله- أن يظلوا طوال حياتهم دارسين ومترجمين وشارحين للإنتاج الغربي ومدافعين عنه . وكما دعت

هذه الفئه إلى أخذ الحضارة الغربية كلها من غير تمييز بين مكوناتها فقد رفضوا التراث كله بكل مكوناته، واعتبروا الدعوة إلى الرجوع إلى شيء منه صنو الدعوة إلى التخلف، وكان هذا سبباً في انقسام الأمه انقساماً حاداً حال بينها وبين أن تكون أمة واحدة، والأمة لا تستطيع أن تنهض إذا هي انقسمت إلى أمتين متعارضتين متعاديتين ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال: ٤٤].

ما المخرج؟

إذا كانت الدعوة إلى التقليد الغبي لكل ما هو غربي معتمدة -كما ذكرنا- على دعاوى باطلة عن أسباب التقدم الغربي العلمي التقني، فإن العتبة الأولى في باب المخرج:

- كشف هذه الدعاوى كشفاً مفصلاً بأدلة علمية وحجج منطقية قوية، ويحسن أن يستعان في هذا بما يقوله العلماء والمفكرون الغربيون أنفسهم، فقد كتبوا كثيراً في هذا المجال.

- تقويم الحضارة الغربية تقويماً علمياً منصفاً، يستعان فيه أيضاً بما يقوله الغربيون أنفسهم عن مزايا حضارتهم ومثالبها.

- ثم إشاعة هذه المعرفة بين الناس إشاعة تراعي مختلف المستويات العلمية والعقلية.

- العمل على توطين العلم والتقنية توطيناً يجعلنا من أهل الكشف والاختراع، وينهض بنا عن مستوى التلمذة الدائمة التي أوقعتنا فيها تلك الدعوة إلى التقليد.

- وفي مجال التدريس سواء كان على المستوى الجامعي أو المدرسي:

- تقديم المادة العلمية -أيّا كانت- بطريقة تعتمد على الأدلة والابتعاد قدر المستطاع عن الطرائق التقليدية البحتة.

- في المسائل النظرية يحسن أن يعرض الأستاذ على الدارسين أكثر من رأي أو أكثر من مدرسة، وأن يطلعهم على الخلافات بين المدارس في علم الاجتماع أو علم النفس مثلاً، وعلى نقد المختصين بعضهم لبعض.

-وأن يعبر لهم الأستاذ عن رأيه هو فيما عرض عليهم، ثم يشجعهم على إبداء آرائهم ويعطي درجات أكبر لمن ينتقد منهم حتى لو كان نقده غير مقبول عنده.

- أن يتجنب الأستاذ تمجيد الشخصيات -مهما كان إعجابه بها- تمجيداً يخيف الطلاب من نقدهم أو الاعتراض عليهم.

أضواء قرآنية على ظاهرة الشذوذ الجنسي

جريدة منار السبيل ذو القعدة ١٤١٣

التظاهرة التي أقيمت بواشنطن دفاعاً عن الشذوذ الجنسي أثارت نقاشاً بين الناس عن طبيعة هذه الظاهرة وخطرها لذلك، رأيت أن أقدم للقارئ المسلم الإجابات القرآنية عن بعض الأسئلة والشبهات والدعاوى التي أثارها المدافعون عن هذه الظاهرة.

١- من دعاوى أصحاب هذا الانحراف أن ميلهم هذا أمر ولدوا به فهو في "جيناتهم" وطبعهم، لكن القرآن يُكَذب هذا لأنه يخبرنا بأن قوم لوط كانوا أول من اخترع هذه الفاحشة، قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١]، فلو كانت أمراً طبيعياً لما ذمهم الله تعالى على فعله، حتى لو كان أصل الميل طبيعياً فلا يعفي ضرورة أن المجاهرة بفعله هو أمر طبيعي.

٢- وكما أن هؤلاء الشاذين اليوم يريدون أن ينتقلوا من مرحلة الاستخفاء بهذا الأمر إلى مرحلة المجاهرة به، فكذلك فعل قوم لوط: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، إن كل ما يطالب به أصحاب هذا الميل اليوم هو ألا يضطرهم المجتمع للاستخفاء بأمرهم، وأن يعدهم رغم مجاهرتهم بحالهم أناساً عاديين أسوياء، لهم ما لغيرهم من الناس في المجتمع من حقوق الزواج، والاحترام، والعمل في كل مرافق الدولة العسكرية والسياسية والتعليمية والدبلوماسية.

لماذا -يقول بعضهم- تتدخلون في أمر أفعله في غرفة نومي؟ ما الفرق بين أن يفعل الإنسان هذه الفعلة مع شكله، رجلاً كان أو امرأة، أو أن يفعله مع الشكل الآخر؟ إنه محض تعصب لأمر موروث. لكن الحقيقة أن ما يطالبون به ليس أن يفعلوا ما يفعلونه سراً وفي غرف نومهم، فإن ما يفعلونه سراً أمر لا يحتاج إلى إذن في المجتمعات الغربية المعاصرة، ولا يعد جريمة ما دام برضىً من الطرفين. وإنما ما يطالبون به الآن هو أن يسمح لهم بأن يعلنوا أنهم من هذا الصنف، بل ألا يعترض المجتمع على سلوكهم المعلن الذي يدل على هذا الانحراف. إن المجاهرة بالفواحش أشد نكراً من الاستتار بها لأنه يسيء إلى الأسوياء من الناس، ولأنه يغري الضعفاء منهم بارتكاب ما يرتكبه هؤلاء المجاهرون.

٣-لكن حال قوم لوط -كما قصه علينا ربنا -يدلنا على أنه حتى هذا الاستعلان ليس هو نهاية الطريق، وإنما هو مرحلة أولى، تليها -إذا لم يجدوا من يردعهم -مرحلة الاستعلاء. وإذا صار المنحرفون هم الأعلون في المجتمع ضاقوا بالصالحين من الناس ولم

يسمحوا لهم بأن يشاركوهم السكن في بلد واحد، ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

٤-بل إنهم سيذهبون إلى أبعد من هذا: سيتواطؤون على إذلال بعض هؤلاء الصالحين بارتكاب هذه الفاحشة معهم قسراً، إن هم استطاعوا ذلك .فهذا رسول الله لوط عليه السلام لما جاءته الملائكة في صور رجال حسان الوجوه، اكتأب لمجيئهم، لأنه ظنهم رجالا حقيقيين، ولأنه كان يعلم ما سيحدث لهم من قومه، وقد حدث ما توقع فإنه ما إن تسامع بهم قومه حتى جاؤوا يلهثون مسرعين، فعرض عليهم لوط أن يتزوجوا بناته -إما بناته من صلبه أو بناته بمعنى بنات قومه - وأن لا يحرجوه ويخزوه مع ضيوفه: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؟ لكنهم أجابوه في صفاقة ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي من حاجة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٧٧-٧٨، و٧٩-٨٠].

٥-إن أصحاب الشذوذ الجنسي يطالبون اليوم بأن يعد القانون علاقة أحدهما بالآخر علاقة زواج، وأن يعطيهم كل الحقوق التي يعطيها للمتزوجين، لكن الذي نعرفه من حال قوم لوط أن هذه الفاحشة من طبيعتها الإباحية المطلقة وعدم التقيد بقرين واحد، أو عدد محدود من القرناء، بل إن أحدهم إذا استمكن منه هذا الانحراف لا يعود يعرف لممارسته حد، إنه حين يسمع بما يثير شهوته يصيبه نوع من الجنون، فيندفع لارتكابها مع أي إنسان رضي بذلك أم لم يرض .تأمل قوله تعالى في وصف حالهم وهم مقبلون على أضياف لوط عليه السلام ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ إنها فاحشة من طبيعتها الإسراف ومجاوزة الحد: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، فأصحابها لا يكتفون بممارستها ممارسة فردية، بل إن متعتهم بها لا تتم إلا إذا تعاطوها تعاطياً جماعياً.

٦-وهي فاحشة مرتبطة -على عكس ما يظن معظم الناس -بالعنف والاعتداء على الآخرين اعتداء يتجاوز الاعتداء الجنسي .فقوم لوط كانوا يأتون هذه الفاحشة في ناديهم، كانوا أيضاً قطاع طريق: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

مزايا حقيقية لثورة الاتصالات

الشبكة العنكبوتية

الإعلام كوسيلة اتصالية تخدم الجميع أحياناً، قلنا من قبل بأن وسائل الإعلام ليست قاصرة ـ كما هو معروف ـ على الصحف والمجلات والراديو والتلفاز، بل تشمل الكتب العامة والسينما وربما المسرح، وتشمل الآن الشبكة العالمية (الإنترنت). لكنني أريد أن أضيف في هذا المقال إليها حتى الكتب المدرسية؛ لعظم تأثيرها على الآلاف المؤلفة من أبناء المسلمين. وكما أن لمحتوى المواد الإعلامية المستوردة آثارًا بالغة الضرر على العقيدة، فإن الأدوات الاتصالية كوسيلة لها مزايا لا يمكن حصرها. مزايا ثورة الاتصالات مع كل ما ذكرنا من مثالب الإعلام الغربي فيما يتعلق بالعقيدة، فإن له محاسن تتعلق بها ليس من الإنصاف تجاهلها. من ذلك:

أولاً: أن البلاد الغربية أضحت في زماننا هي موطن الكشوف العلمية والتقدم في العلوم الطبيعية، وأضحى إعلامها هو المختص بإذاعتها على المستوى العالمي حتى لو حدث الاكتشاف في بلد غير غربي.

فهنالك قنوات تلفازية كالقناة الأمريكية المسماة Discovery وقناة وكالة Nasa وهنالك مجلات أسبوعية كمجلة Scientific American ومجلة Discovery الأمريكية، ومجلة New Scientist الإنجليزية.

وهنالك البرامج العلمية التي لا تكاد تخلو منها إذاعة غربية. وقد تطورت هذه الكشوف تطورًا هائلاً، فأظهرت من عجائب صنع الله تعالى في العالم الخارجي وفي المخلوقات الأرضية الدقيقة ما يكاد يجعل من المستحيل على الملحد أن يستمر في الادعاء بأن كل هذا إنما حدث مصادفة وبغير قوة مدبرة.

ولهذا فقد بدأ بعض هؤلاء الملحدين يتراجعون عن إلحادهم وصار بعضهم يشك فيه. أما المؤمنون بوجود الخالق فقد زادتهم هذه الكشوف إيمانًا. وأما المسلمون منهم فإنها لا تكون بالنسبة لهم تأكيدًا لوجود الخالق فحسب، بل زيادة يقين بدينهم وعودة إليه إن كان قد حدث عنه منهم بعد.

* * *

تحريم الشيوعية

جريدة الميثاق الإسلامي، العدد ١٦، صفحة ١٢
الجمعة ١٩ شوال ١٣٨٧ هـ الموافق ١٩ يناير ١٩٦٨

بدأ قبل بضعة أسابيع بعض الناس يهمسون بأنه لاداعي للنص بتحريم الشيوعية في الدستور الدائم، وأنه يكفي النص على تحريم الإلحاد، والآن والمناقشات الجادة للدستور توشك أن تبتدي تحول ذلك الهمس إلى تصريح وإعلان وبدأت تُساق لحذف كلمة "الشيوعية" الحجج والمبررات. وأنا وإن كنت أعلم علم اليقين أن بعض الذين يقودون لواء هذه الحملة لا يفعلون ذلك لحجج ولا لبراهين ولا لمبادئ أو نظريات؛ وإنما نتيجة تآمر وتبرير تم بليل بينهم وبين الشيوعيين، إلا أنني سآخذ حججهم على ظاهرها وأحاول تفنيدها.

❖ **قالوا: إن الشيء الذي يأخذونه على الشيوعية هو الإلحاد ولا شيء غيره.**

ونقول:

١- وهل ثارت ثورة الناس على الشيوعية إلا لدعوتها الإلحادية؟ ولكن الإلحاد بالنسبة للمسلمين مسألة جوهرية لا تقبل المساومة، فكل دعوة تنطوي على الإلحاد فهي مرفوضة منذ البداية مهما كانت موافقتنا أو مسامحتنا لها في بعض تفاصيلها، فالوضع الصحيح أن نقول إننا نرفض الشيوعية لإنها ملحدة ولكننا نتسامح ونعطي الحرية لكل من يدعو لشيء آخر (لا يصطدم مع مسألة جوهرية) أتى به من الشيوعية أو من غيرها. أما أن نقول إن الشيوعية ملحدة، ونحن نحرم الإلحاد، ولكننا نحل الشيوعية فهذا منطق لا أكاد أفهمه.

٢- إن الحركة الشعبية التي جاء تعديل الدستور المؤقت نتيجة لها لم تثر على الإلحاد كمعنىً ذهني مجرد، ولكنها ثارت عليه ورفضته في صورته المشخصة الحية الماثلة أمامنا وهي الحزب الشيوعي السوداني.

فتحويل هذا المطلب الشعبي المحدد إلى معنى ذهني معروف من الدين بالضرورة، تفريغ له من محتواه الواقعي الإيجابي، ولعب على عقول الجماهير

المؤمنة. تصور لو أن أحداً من الزعماء وقف ليقول للجماهير المحيطة بالبرلمان أيام شعبان، مبروك! لقد استجاب البرلمان لمطلبكم فحرم الإلحاد لكن الحزب الشيوعي سيظل باقياً مشروعاً.

٣- ما أظن أن أحداً ذاق حلاوة الإيمان وكره الإلحاد يسمح برؤية شيء اسمه الشيوعية أمام ناظريه ذلك لأن تاريخ العالم لم يَعرف –فيما أظن- حركة كالشيوعية في مثل عدائها لله وسخريتها منه ومن المؤمنين وملاحقتهم ومطاردتهم ومحاولة القضاء عليهم بكل وسيلة سواءً كانوا يهوداً أو نصارى أو مسلمين. ومن شك في هذ فليقرأ تاريخ الحكم الشيوعي بروسيا ليعلم عن عدد الجبهات الإلحادية والجماعات الإلحادية التي كونتها وأعانتها الدولة لتنشر الإلحاد وتقضي على بذور الإيمان.

٤- يقول البعض إن الشيوعيين أنفسهم لم يعودُوا متحمسين للإلحاد، وأنهم بدؤوا يهتمون بالجوانب الأخرى في الشيوعية أكثر من اهتمامهم بالإلحاد. وهذا خبر يسرنا ويثلج صدورنا وسنعمل جهد طاقتنا لتحقيقه، ولكن إذا كان بعض الماركسيين خارج البلاد العربية والبلاد الشيوعية قد بدؤوا يصرحون بشكهم في ضرورة الربط بين الإلحاد والماركسية وإذا كانت هذه الدعوة قد أثرت في بعض أفراد الشيوعيين ممن اطلعوا عليها أو فكروا فيها فإن الموقف الرسمي للأحزاب الشيوعية كلها ومن بينها الحزب الشيوعي السوداني ما زال هو الاستمساك بالماركسية اللينينية التقليدية، ولم تثمر المحاورات التي أجراها بعض الناس معهم إلا في قولهم إنهم يحترمون الأديان، وحتى هذه لم تأت في ظني نتيجة اقتناع وإنما تراجع أمام الضغط الشعبي المؤمن. إنه لا اعتراض لديَّ على استمرار الحوار والجدل مع الشيوعيين ولا مانع لديَّ من الاشتراك فيه، ولكن هذا شيء ومساومة الشيوعية على حساب مبادئنا شيء آخر. فما دام الموقف الرسمي للشيوعية لم يتغير فإن موقفنا منها ينبغي إلا يتغير.

وإذا كان الشيوعيون ليسوا حريصين على الإلحاد فلم الحرص إذن والإصرار على كلمة الشيوعية، التي أصبحت رمزاً لهذا المعنى البغيض؟ لماذا لا يتسمون باسم آخر كالاشتراكية لا إلحاد في مضمونه أو في ظلاله؟

٥-ماذا يعني التعديل المقترح بحذف كلمة"الشيوعية"؟ لو أن هذه المادة جاءت منذ البداية خلواً من كلمة "الشيوعية" ربما استطاع المشرع فيما بعد أن يصدر قوانين تحظر الأحزاب الشيوعية باعتبار أن الدعوة إلى الشيوعية هي بالضرورة دعوة إلى الإلحاد لكن التعديل الجديد قد يؤكد أن روح الدستور تمنع مثل هذا التفسير، وقد يؤكد أن الدعوة للشيوعية ليست -عند واضعي الدستور- محرمة وأنها لا تعني بالضرورة الدعوة إلى الإلحاد.

الحجة الثانية الأساسية التي يرددها بعض أنصار التعديل المقترح هي أن النص على كلمة الشيوعية قد يثير علينا ثائرة الدول الشيوعية، وقد تعتبره موقفاً عدائياً وقد يوهن علاقاتنا معها. إلخ.

ولكن هذه أيضاً حجة واهية، فنحن لا نريد أن ننص على محاربة الدول الشيوعية ولا على محاربة الشيوعية أينما حلت وحيثما حلت، وإنما على الدعوة إلى الشيوعية في بلادنا.

وهذا ليس اعتداء منا على الدول الشيوعية ولكنه تأكيد لخلافنا الأيدُلوجي معها وصد لعدوانها علينا باتخاذ عملاء في بلادنا يروجون لمذهبها وسياستها، ومعاملة لها بأقل من المثل في محاربتها للإسلام والمسلمين.

وهذا كله لا يعني ولم يفهم منه أحد عدم التعامل مع الدول الشيوعية في كل مجال آخر فيه مصلحة لنا ولهم، وشاهدنا على ذلك أن تحريم الشيوعية بتعديل الدستور المؤقت لم يدفعنا إلى قطع العلاقات مع الدول الاشتراكية ولا أوهى من صلتنا بها، بل إن هذه الصلة كما ذكر لنا أحد السياسيين قويت وزادت في غيبة الحزب الشيوعي.

***

بشاعة التمثيل بالجثث

(موقع الدكتور جعفر شيخ إدريس
١٩ صفر ١٤٢٥ الموافق ٩ أبريل ٢٠٠٤)

الإسلام غايات ووسائل. فكما أن الله سبحانه وتعالى يحدد لعباده غايات نبيلة، فإنه يلزمهم بوسائل شريفة لبلوغ تلك الغايات النبيلة. إنه لا يحدد الغايات ثم يترك للعباد محاولة السير إليها بأي طريق شاءوا. إن الوسائل عبادة، كما أن الغايات عبادة لا يجوز أن يتجاوز فيها حدود الشرع.

فمن الغايات النبيلة التي جعلها الله تعالى وصفاً ثابتاً لعباده المؤمنين يعبر عن عزتهم ويحفظ لهم كرامتهم أنهم لا يقبلون الضيم، ولا يرضون بالهوان بل ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

يدخل في هذا الانتصار الدفاع عن الوطن والمال والولد، دفاعاً يصل درجة القتال ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

لكن الله تعالى جعل لقتال الأعداء المعتدين حدوداً يجب الالتزام بها. من هذه الحدود التي يجب أن يقف عندها المسلم عدم التمثيل بجثث المقتولين تشويهاً أو تقطيعاً أو حرقاً. إن قتل المعتدي يكفي لرد شره ولعقابه، فالتمثيل بجثته أمر زائد لا يحقق غرضاً بل يسبب أضراراً.

من أضراره أنه يشبه فعل الحيوانات، والتشبه بالحيوانات في السلوك أمر غير مشروع حتى في المسائل التي تبدو صغيرة. فالمسلم لا يجعل جلوسه في صلاته كإقعاء الكلب، ولا يجعل سجوده كنقر الغراب ولا يلبس جلود النمور، وهكذا. فكيف بالتشبه بالحيوانات في تقطيع الجثث وجرها في الشوارع؟ نعم إن المرء إنما يلجأ إلى مثل هذا السلوك إمعانا في التعبير عن غضبه وكراهيته لعدوه. لكن المسلم مأمور بأن يضبط نفسه ولا يخرج عن حدود العدل حتى في معاملته لعدو يكرهه ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وإن من الغايات النبيلة التي ندب الله المسلمين إليها أن تكون صورتهم حتى عند أعدائهم صورة خلقية جميلة.

ولذلك منعهم من الإقدام على أي عمل يشين هذه الصورة في أذهان الأعداء.

من ذلك أن الله تعالى ذكر من حكمته في عقد الصلح مع كفار مكة وعدم قتالهم أنه لو حدث قتال لقتل المسلمون إخواناً لهم بمكة لا يعلمون أنهم أسلموا، لكن الذين يعلمون ذلك كانوا سيعيرونهم بفعلهم، ويشيعون الدعايات عنهم ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥].

وقد حدث شيء من هذه المعرة لنا عند مشاهدة الناس لصور تلك الجثث تقطع وتحرق. إن كثيرا من الناس – حتى في الولايات المتحدة – يرون أن جنودهم هم المعتدين، وأن من حق العراقيين اللجوء إلى حمل السلاح دفاعا عن وطنهم، لكنهم جميعا يستبشعون بفطرتهم ذلك المنظر، وهذا من شأنه أن يقلل من تعاطفهم معنا ومن نقدهم لحكوماتهم المعتدية.

وأكبر ضرر ينتج عن مثل هذا العمل أنه يؤخر نصر الله تعالى إذ إن الله تعالى إنما ينصر من ينصره، وإنما ينصره الناس بطاعتهم له سبحانه، فكلما قلّت الطاعة وكثرت التجاوزات قلّت فرص النصر.

وإذا كان الذين ارتكبوا تلك الافعال أناساً من عوام المسلمين لا علم لهم بهذا الذي نتحدث عنه، فإن من حق من يعلمون أن يرفعوا أصواتهم بإنكاره رفعاً يسمعه غير المسلمين.

إن الدفاع عن الوطن واجب، وهو من الجهاد في سبيل الله، لكنه لا يكون بالإساءة إلى دين الله وصد الناس عنه.

* * *

مناقشة شبهات المفجرين

بما أن أعمال الناس حسنة كانت أم سيئة إنما تنتج عن تصوراتهم، فإن أنجع وسيلة لعلاج ميولهم إلى الأعمال الشريرة هو إقناعهم بخطأ التصورات التي أدت إليها. لكن هذا الأمر لا يتيسر دائما لأسباب كثيرة:

- منها أن العمل الذي نراه شراً ويراه فاعله خيراً قد يكون من النوع الذي يحتاج إلى سرية شديدة كأعمال التفجير.

- ومنها أن المستعد للإقدام على مثل هذا العمل يكون قد سجن نفسه في جماعة ضيقة صارت تمثل بالنسبة له العالم كله، فما رأته خيراً فهو خير وما رأته شراً فهو شر رغم أنف المعترضين من خارجها.

- ومنها أن الذي ينضم إلى مثل هذه الجماعة، ويأتمر بأوامرها أمراً مطلقاً يكون في العادة من شبان فيهم إخلاص وإقدام لكن يغلب عليهم الجهل وقلة التجربة.

فما العمل إذن؟

عدم معرفة أعيانهم لا تمنع من مخاطبتهم مخاطبة عامة تصلح لكل إنسان عاقل ولا سيما إذا كان مسلماً وهذا ما يقوم به الآن كثير من السياسيين والكتاب الفقهاء.

لكن هذه المخاطبة العامة لا تغني عن مخاطبتهم مخاطبة خاصة تتناول الحجج التي يعتمدون عليها في تسويغهم لعملهم.

أين نجد هذه الحجج؟

نجدها أحياناً عند بعض من يرون رأيهم، ويدافعون عنهم ممن قد يكونون أو لا يكونون معهم. وقد قُدر لي أن أعرف بعض هذه الحجج بسبب الأسئلة التي تعقب المحاضرات العامة، أقول بعضها ولا أقول كلها ولا أهمها.

سألني أحد الشباب الصغار عقب محاضرة ألقيتها بمسجد بالخرطوم عن رأيي في حوادث لندن، فلم يعجبه جوابي فرد عليّ قائلاً: إن هؤلاء الغربيين فعلوا كذا وكذا وقتلوا الآلاف من الأبرياء في أفغانستان والعراق.

قلت نعم وهم في هذا مجرمون وظالمون، فنحن لا ندافع عنهم ولا نبحث عن مسوغات لجرمهم.

قال فماذا نفعل إذن؟ هل نظل ساكتين وهم يفعلون ما يفعلون.

قلت: لا.

قال لكن ليس لنا وسيلة غير هذه التفجيرات نرد بها عليهم.

أقول أولاً: إن هذا ليس بصحيح. فالناس في أفغانستان والعراق ما زالوا يقاتلون المحتلين. وهذا من حقهم.

وثانياً: إنك لا تنصر دين الله بعمل يبغضه الله. والله تعالى نهانا عن قتل الأبرياء، إن إقدام عدوك على جرائم يحرمها عليك دينك لا يحل لك هذه الجرائم. هل ترى أن نفعل بأسراهم ما فعلوا هم بأسرانا في أبي غريب؟ هل ترى أن ترتكب الفواحش مع رجالهم إذا ارتكبوها هم مع الأسرى من رجالنا؟

يستدل بعضهم بمشروعية هذه الأعمال بما يراه من نتائج حسنة أدت إليها. لكن اعتبار النتائج الحسنة دون النظر إلى السيئة، أو السيئة دون النظر إلى الحسنة ليس من شأن العقلاء، لأنك تستطيع بمثل هذا المنطق أن تسوغ كثيراً من أنواع الظلم، أو تعترض على كثير من وسائل الخير.

إن المنهج الصحيح هو أن توازن بين آثار الشيء الحسنة والسيئة فما غلب حسنه على سوئه كان في جملته حسناً، وما غلب سوؤه على حسنه كان ممنوعاً. كما قال الله تعالى في تعليله لتحريم الخمر والميسر: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، وكما قال في نهيه عن سب آلهة المشركين: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

لو أن حكومة ما ضاقت ذرعاً بالكذابين فقررت أن تقطع لسان كل من ثبت عليه كذب لأدى ذلك إلى تقليل عدد الكذابين ما في ذلك شك. لكن الأضرار الناتجة عنه ستكون أكبر.

يتصل بهذه المسألة مسألة أخرى تتعلق بسمعة الإسلام والمسلمين. إن أعظم مهمة يقوم بها إنسان هي الدعوة إلى الله. وهذه الدعوة تقتضي أن تبلغ دين الله إلى الناس كما هو فلا تحرفه بقول أو عمل. وإلا كنا من الذين يصدون عن سبيل الله بدلا من أن نكون من الداعين إليه. إن الإساءة إلى سمعة المسلمين هي من نوع الصد عن سبيل الله، ولذلك فإن الله تعالى علل منعه للمسلمين من مهاجمة عدوهم بمكة بقوله سبحانه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

هذا الذي فعله كفار مكة كان عملاً عدوانياً حتى بمقاييس التقاليد العربية التي لم تكن تبيح صد إنسان يريد زيارة بيت الله الحرام. فكان من حق المؤمنين إذن أن يهاجموهم دفاعاً عن حقهم هذا. لكن الله تعالى منعهم وعلل منعه لهم بأن العرب ستعيّرهم بقولهم إنهم قتلوا إخوانهم مع أنهم لو قتلوهم في من قتلوا لكانوا معذورين لعدم علمهم بوجودهم.

فكيف يُقدم مسلم على قتل أناس يعلم أنه قد يكون فيهم بعض إخوانه المسلمين، ويعلم أن أغلبهم بل ربما كانوا جميعاً من الأبرياء الذين لا مشاركة لهم في قتل المسلمين بقول أو فعل، بل ربما كان بعضهم من الذين اعترضوا على ذلك؟

إن أكثر الناس فرحا بهذه الأعمال هم أعداء الإسلام الحقيقيون الذين يغيظهم سرعة انتشاره بين ذويهم. إنهم يعلمون أن مثل هذا العمل هو أحسن وسيلة لصد الناس عن الإسلام. من ذا الذي يقدم على اعتناق دين يرى أن أهله لا يبالون بقتل الأبرياء حتى لو كانوا من إخوانهم في الدين؟

* * *

إنسانيتنا جوهر ثابت وواقع يتغير

موقع الشيخ جعفر شيخ إدريس
١ يناير ٢٠٠٦م

لقد كان من حسنات التطورات التي حدثت في علم الجينات أن أثارت اهتمام العلماء، بل وسائرنا، في قضايا أصولية تتعلق بحياتنا .

ما جوهر إنسانيتنا؟ هل لنا من طبيعة ثابتة هي التي بمقتضاها نكون بشراً؟ أم أن طبيعتنا لوح فارغ تكتب عليه الثقافة والبيئة والهندسة الوراثية ما تريد؟ هل لنا من روح؟ وإن كانت لنا فما الفرق بينها وبين جلودنا؟

لقد كان من الطبيعي أن يكون المؤمنون بوجود الخالق من أوائل المهتمين بهذه الأسئلة وأن يجيبوا عنها إجابات مبنية على تعاليم أديانهم. فيسرني لذلك أن يكون لي شرف المشاركة في هذه المناقشة المهمة، وأن أعطى الفرصة لأقدم ما أراه نظرة إسلامية أصيلة إلى هذه المسائل المهمة.

أنا مهتم هنا أساساً بمسألة الطبيعة. إذا كان ما نسميه طبيعة الشيء هو مجموع الخصال التي تكون هويته، فيلزم ضرورة أن يكون لكل شيء طبيعة. قد نختلف فيما إذا كانت بعض الخواص هي من مكونات طبيعة شيء ما، لكن لا يمكن أن نقول عن شيء نعرفه ونتعامل معه أن ليس له من طبيعة ألبته، أو أن طبيعته في تغير مستمر. هذه قضية منطقية. وإذن فيجب أن لا يكون هنالك خلاف في أن للبشر طبيعة محددة يكونون بمقتضاها بشراً. ويجب أن لا يكون هنالك خلاف في ثبات هذه الطبيعة واستمرارها، لأنها إذا تغيرت فإن الشيء ذا الطبيعة الجديدة لا يكون إنسانا بل شيئا آخر غير البشر الذين عرفناهم وتعاملنا معهم.

وعليه فإن السؤال ينبغي أن لا يكون عما إذا كانت للناس طبيعة، أو عما إذا كانت تلك الطبيعة ثابتة أم متغيرة، وإنما يكون عن الخصائص التي تتكون منها هذه الطبيعة.

إننا جميعاً متفقون على أن لنا أجساماً، وأن لهذه الأجساد طبيعة تقتضي حاجتها إلى أشياء معينة لبقائها. ونحن متفقون كذلك على أن لنا خصائص عقلية لا نكون بغيرها أناساً. إن كائنا لا يستطيع بطبيعته أن يفكر أو يريد أو يعلم لا يمكن أن يكون إنساناً حتى لو كان له جسم مشابه لأجسام البشر، وحتى لو كانت له بعض

الخصائص الإنسانية الأخرى. وعليه فإذا استطاعت الهندسة الجينية أن تنتج كائنات كهذه فإنها لا تكون قد غيرت الطبيعة البشرية، وإنما تكون قد أنتجت كائنات جديدة لا علاقة لها بنا. إذا افترضنا حدوث شيء كهذا، فإنه لن يكون إنهاء لوجود الكائنات البشرية. إن البشر العاديين سيستمرون في الوجود وسيتوالدون بالطريقة الطبيعية التي ما زالوا يتوالدون بها حتى الآن.

السؤال سيكون إذن: هل من مصلحتنا نحن البشر العاديين أن نسمح لشيء كهذا أن يحدث؟

إن إجابة المؤمن بالله ستكون كلا. لماذا؟ لأنه يعتقد أنه لا يمكن أن يستحدث كائن ذو طبيعة أفضل من طبيعة البشر أو حتى مساوية لها. هذا على كل حال ينبغي أن يكون موقف المسلم.

إن لبني آدم في حكم الإسلام خصائص كثيرة يفضلون بها سائر المخلوقات. لكن هذه الخصائص تختلف في أهميتها.

فلنبدأ بالخصائص التي يقول الإسلام إنها مشتركة بين كل المخلوقات، ثم نعرج على ذكر ما يميز الإنسان باعتباره مخلوقا خاصاً.

كل المخلوقات مسلمة: المخلوقات جميعها تعبد الله تعالى، كل بحسب طبيعته الخاصة. القرآن الكريم بيان لنوع هذه العبادة المشتركة بين المخلوقات.

الإسلام: المخلوقات مسلمة لله بمعنى أنها تخضع وتستسلم له ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾ [آل عمران: ٨٣].

التسبيح: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**﴾ [الحشر: ١].

السجود: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ**﴾ [الحج: ١٨].

القنوت: ﴿**وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ**﴾ [الروم: ٢٦].

إن البشر مخلوقات خاصة لكنهم لا يختلفون عن سائر المخلوقات في أن جوهرهم يتمثل في كونهم عبيدا لله تعالى. بيد أن الله تعالى حباهم بخصائص تجعلهم أعلى درجة من سائر المخلوقات.

فأولا: إن أباهم آدم خلق بطريقة خاصة. فالله تعالى يخبرنا أنه سبحانه خلقه بيديه. (٣٨ : ٥٧)

ثانيا: ويخبرنا أنه أمر ملائكته بأن تسجد له، [البقرة: ٣٤].

ثالثا: أنه تعالى خصه من بين سائر الحيوانات بأن نفخ فيه روحا شرفها الله بأن نسبها إلى نفسه، [السجدة: ٩].

رابعا: سخر له كل ما في الأرض، [البقرة: ٢٩].

خامسا: جعله مخلوقا كريما: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

سادسا: أعطاه علما لم يعطه الملائكة، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

الجسم والروح:

الجسم والروح كائنان مختلفان لكل منهما خصائص ووظائف غير خصائص الآخر ووظائفه. لكنهما متصلان ومتعاضدان من عدة وجوه.

أما اختلافهما فتدل عليه نصوص كثيرة منها:

أولاً: أنه في خلق آدم كان النفخ بالروح في جسم قد سبق أن خلق. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].

ثانياً: عندما يموت الإنسان فإن روحه تفارق جسده.

ثالثاً: إذا سعد الإنسان بدخول الجنة فإنه يمنح جسداً جديداً يتناسب مع نعيمها، وكذلك إذا شقي بدخول النار.

الروح الإنسانية:

يقول الإسلام إن الإنسان يولد خيراً، وخيريته هذه صفة لروحه، وهي تتمثل فيما يلي:

(أ) أنه يولد بقدرة طبيعية على أنه عبد لله، الخالق الأحد الذي يجب لذلك أن يعبد وحده. كل خواص الإنسان الخيرة الأخرى مرتبطة بهذا الخير الأساس. أعني خاصيات المعرفة والإرادة، وحسن الخلق والتدبير، والعقلانية والذوق الرفيع، وغيرها. إنها مرتبطة بها من حيث كونها تتقوى بها، ومن حيث كونها تسوغ بها، ومن حيث كونها قنوات تؤدي إليها. ولذلك فإنها تستعمل في القرآن الكريم معايير يبنى عليها حججه في دعوة الناس إلى عبادة الله تعالى.

(ب) أن الروح تخلق سالمة من العيوب.

(جـ) أن الإنسان يستطيع لذلك أن يميز بفطرته بين ما هو من مكارم الأخلاق وما هو من مساوئها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

(د) كل ما في كتاب الله من الأوامر والنواهي له أصل في هذه الفطرة. ولذلك فإن الدين الحق الذي جاء به الأنبياء يسمى دين الفطرة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ولذلك فإن الأوامر والنواهي الإلهية تسوغ بكونها موافقة لهذه الفطرة. فالخمر والميسر منهي عنهما؛ لأن الشيطان عدو الإنسان الأول يستغلهما لإيقاع العداوة والبغضاء بين عباد الله الذين تقتضي فطرتهم الخيرة أن يكونوا إخوة متحابين، وليصدهم عن الصلاة التي هي عماد فطرتهم وغذاؤها. والقصاص يسوغ بكونه يحفظ الحياة. وحق أقرباء المقتول في العفو أو أخذ الدية أدعى لحفظ الحياة. والصلاة مأمور بها لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن ما فيها من ذكر الله يمنح القلوب اطمئنانا وسلامة.

(هـ) لكن الله تعالى منح الإنسان إرادة يخير بها بين أن تكون حياته الواقعية تعبيراً عن حقيقته الإنسانية الفطرية الخيرة، أو خروجاً عليها واختياراً لحياة غريبة عنها.

إن الله تعالى يرضى لهم أن يختاروا حياة الفطرة المتمثلة في عبادته ويعينهم بوسائل شتى ليكون هذا خيارهم:

١- فهو لا يخلقهم محايدين بين هذين الخيارين، بل يجعل هذا هو الخيار الطبيعي الذي تميل إليه فطرتهم، و الذي يجعلهم لذلك يعيشون في سلام مع أنفسهم.

٢- ويجعل مخلوقاته كلها آيات (علامات ودلائل) على وجوده سبحانه وعلى صفاته الحسنى، ويجعل فيها أدلة على صدق من يرسل من رسله، وصدق الرسالات التي يأتون بها.

٣- يجعل الإيمان بالله العقيدة الوحيدة التي تتوافق مع كل ما فطر عليه الإنسان من صفات الكمال: العقل، ومكارم الأخلاق، والعدل، والرحمة، والحكمة وغيرها.

٤- يرسل لهم رسلاً يبينون لهم تفاصيل الحياة التي تلائم تلك الفطرة، ويعطيهم أدلة على ذلك، ويزودهم بحجج تبين زيف حياة الاغتراب عن الفطرة، وعن الخالق سبحانه.

٥- وإذا ما اختاروا الخيار الخطأ، فإن فطرتهم الجوهرية لا تتغير مهما كانت حياتهم الواقعية ضالة منحرفة. وعليه فإنهم مهما بعدوا في حياتهم الواقعية عن إنسانيتهم الجوهرية فإنهم يستطيعون الرجوع إليها في أي وقت يختارون ما داموا على قيد الحياة. وإذا ما عادوا وآبوا فسيجدون ربا يحب التوابين

يبدو من هذا أنه لا شيء خارجي يستطيع أن يغير الروح الإنسانية أو يفسدها ويحرمها من خواصها الحسنة كلها أو بعضها (لا تبديل لخلق الله). بل الإنسان وحده لا مخلوق غيره هو الذي يستطيع باختياره أن يفسد نفسه.

الجسم البشري:

قلنا إن طبيعة الروح تختلف عن طبيعة الجسم، لكن الروح بحاجة إلى جسم لتجعل حياة الإنسان الواقعية تعبيرا عن إنسانيته الروحية. لكن الجسم الذي تحتاج إليه ليؤدي هذه الوظيفة ليس أي جسم كان، وإنما هو جسم خاص مصمم ليتناسب مع هذه المهمة.

١) إن جسم الإنسان يشبه إلى حد كبير أجسام سائر الحيوانات لكنه أحسنها تقويما كما يخبرنا القرآن الكريم.

٢) ولأنه جسم خاص فإنه يجب أن يعامل باحترام حتى عندما يصير ميتا. فالرسول صلى الله عليه وسلم يخبرنا ان قطع جزء من إنسان ميت كقطعه من جسم إنسان حي.

٣) عندما يموت الإنسان ويصبح جسما بلا روح، فإن هذا الجسم الميت يجب أن يغسل وينقى، ويلف في ثوب نظيف، ثم يجب أن يدفن. والمؤمنون مأمورون بأن يقفوا للجنازة إذا مرت بهم.

٤) يحرم التمثيل بالأجسام البشرية حتى في حالة الحرب.

٥) ولأن الروح تستعمل الجسم فإن كثيرا من أعمالها تنسب إلى أجزاء منه ولا سيما القلب. لكن اللغة المستعملة للتعبير عن هذه النسبة تجعلنا نقطع بأن المقصود ليس هو الجسم الحسي.

٦) الناس مأمورون بأن لا يحطوا من أقدارهم البشرية بأن يتصرفوا تصرف الحيوان ولا سيما في أدائهم للعبادة. فنحن مأمورون بأن نغض من أصواتنا ولا نجعلها منكرة كأصوات الحمير. رأي النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقود آخر بحبل، فقطع الحبل وأمره أن يقوده بيده. وهو يأمرنا بأن لا نتشبه بأي حيوان في أدائنا لحركات الصلاة، فلا نهوي إلى الأرض هوي البعير، ولا يكون سجودنا كنقر الغراب، ولا يكون جلوسنا كجلسة الكلاب. بل نحن مأمورون بأن لا نلبس جلود الوحوش حتى لا نشبهها.

ليس المقصود من هذا ازدراء الحيوان وإنما المقصود منه أن يتصرف الإنسان التصرف اللائق به المناسب مع فطرته الإنسانية. لأن الإنسان مأمور مع هذا أن يعامل الحيوانات معاملة حسنة ويرحمها، فالرسول صلى الله عليه وسلم يخبرنا عن امرأة بغي أدخلها الله الجنة لأنها نزلت بئرا وحملت منها ماء في خفها لتسقي كلبا كاد يموت ظمأ. ويخبرنا في المقابل بامرأة دخلت النار بسبب هرة حبستها حتى ماتت جوعاً، فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض. ونحن مأمورون بأن لا نمثل بأجساد الحيوانات، ولا أن نسمها ولا سيما في وجوهها، فقد رأى ﷺ حمارًا على وجهه وسم فلعن من وسمه.

الهندسة الجينية:

في الإسلام موجهات عامة تهدينا إلى الطريقة التي نتعامل بها مع مخلوقات الله تعالى، والتي تصلح لذلك أن تكون هادية لنا في الموقف الذي نتخذه من قضية الهندسة الجينية. من هذه الموجهات:

(أ) أن الله تعالى أحسن كل شيء خلقه.

(ب) أن المخلوقات مسخرة للإنسان.

(جـ) وعليه فإن هذا الخلق يجب أن لا يغير.

(د) هنالك علاقات وروابط ليس بين مكونات المخلوق الواحد وأجزائه وإنما بين المخلوقات كلها.

(هـ) التجربة تشهد بأن مثل هذه التغييرات لا ينتج عنها إلا الضرر.

قد تقول إنه لا مفر لنا من أن نحرث الأرض، ونبذر الحب، ونذبح الحيوان، ونحفر الآبار ونشق القنوات. أجل إننا نفعل هذا كله لكن فعلنا له هو تصرف في إطار النظام الطبيعي لا خروجا عليه. إننا نفعل الشيء نفسه عندما نصلح شيئا قد فسد. إننا نبحث عن دواء لأمراضنا وأمراض حيواناتنا. وقد نحتاج حتى لبتر أجزاء من أجسامنا. هذا لأن إتقان الخلق لا يعنى أن له كمإلا ككمال خالقه.

فالجينات يجب أن تعامل بالطريقة نفسها. لا ضرر من أن يبدل بجين قد فسد جينا صالحا. إن الهندسة الوراثية ينبغي أن لا تهدف إلي تحسين خلق الله لأنها إن غيرته فلا محالة تفسده. لهذا فإن إن الهندسة الوزاثية يجب أن لا يلجأ إليها للعلاج إلا لأغراض علاجية.

أما استنساخ البشر فلا أرى له مسوغا. إن الطريقة الطبيعية المعهود التي يأتي بها الإنسان إلى الوجود طريقة ذات ارتباط وثيق بالطبيعة؛ إن لها ارتباطا بالشهوة الجنسية، وعلاقة بتقارب الأجسام، نموا في رحم لإمرأة طبيعية، حب، رضاعة، إخوة وأخوات. لكن الكائن المستنسخ يفقد كثيرا من هذه الصفات والعلاقات. فأي كائن سيكون؟ وما الحاجة إليه؟ أليس من الغريب أنه في الوقت الذي يسعى الناس فيه للحد من الإنجاب الطبيعي، يسعون لانجاب كائنات أقل ما يقال عنها إنها تفقد كثيراً من الخصائص البشرية؟

ازدياد حرارة الأرض

شبكة المشكاة الاسلامية
الاثنين ٠٧ ذو الحجة ١٤٢٥ هـ /١٧ يناير ٢٠٠٥ م

الفساد المشار إليه في قوله تعالى: (ظهر الفساد في البر والبحر)، هو فساد في الطبيعة برها وبحرها سببه فساد في سلوك الناس.. (بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا). ليس من شرط ذلك الفساد الحسي المترتب على هذا الفساد السلوكي أن يحدث بطريقة خارقة لسنن الطبيعة المعروفة. بل قد يحدث بأسباب كثيرة وسيطة بينه وبين السلوك الفاسد: يؤدي السلوك الفاسد إلى نتيجة، وتؤدي تلك النتيجة إلى أخرى، إلى أن تؤدي الأخيرة إلى الفساد.

من أعظم أمثلة هذا الفساد في الطبيعة في عصرنا، فساد صار اليوم موضع اهتمام كبير بين العلماء تعقد له المؤتمرات وتبرم بشأنه الاتفاقات، إنه الفساد المتعلق بزيادة درجة الحرارة في الكرة الأرضية.

ملخص ما يقوله العلماء المختصون في تفسيرهم لهذه الظاهرة هو أن أشعة الشمس التي تصل إلى أرضنا تتحول إلى حرارة، وأن الأرض تعكس هذه الحرارة إلى خارجها، لكنها لا تعكسها كلها، بل تحبس جزءًا منها، وأنها لو عكستها كلها لتجمدت كل البحار ولم تعد الأرض صالحة للحياة، وأنها تحبس ما تحبسه من حرارة بفعل الغازات المتصاعدة منها، وأهمها بخار الماء وثاني أكسيد الكربون والميثان. تكون هذه الغازات طبقة حول الأرض فتكون شبيهة بذلك البيت الزجاجي الذي تزرع بداخله بعض النباتات، ولهذا تسمى بغازات البيت الأخضر.

مشكلتنا الآن هي أن كمية هذه الغازات بدأت تزداد بازدياد ما يتصاعد من الماكينات التي تحرق الوقود الحيوي كالفحم والبترول والأخشاب.

كانت حرارة الأرض ١٥ درجة مئوية لكنها الآن ازدادت قليلاً (اقل من درجة). لكن المختصين يقولون إنها مع قلتها قد تسببت في إثارة العواصف العنيفة وارتفاع مستوى البحار واضمحلال البيئات الحيوانية. وأن من شأن هذه الزيادة إذا ما استمرت

أن تؤدي إلى ذوبان الجليد، وبالتالي إلى ارتفاع مستوى البحار التي ستفيض حينئذ على الشواطئ وتغمر بعض الجزر.

لا حل لهذه المشكلة إلا بالتقليل من استهلاك ذلك النوع من الوقود، ولكن مع أن الولايات المتحدة هي المسؤولة عن ربع ما يتصاعد من تلك الغازات فهي التي تتباطأ في التقليل من ذلك الاستهلاك.

اجتمع في السابع من شهر ديسمبر في "بوناس آيرس" كبريات المنظمات العالمية المعنية بحماية البيئة لمناقشة هذه المشكلة والضغط على الحكومات للحد من ذلك الاستهلاك. ولكي تلفت النظر إلى خطورة الأمر فقد صنعت فلكًا ضخمًا يشبه سفينة نوح حسب ما جاء وصفها في كتبهم، وأسموها بذلك الاسم. لكنهم نسوا أن الذي أنجا نوحاً ومن معه لم يكن الفلك وإنما كان الفلك وسيلة أمر الله نوحًا أن يصنعها لكي ينجيه ومن معه من المؤمنين. ثم إنه بعد أن أغرق الله من يستحق الإغراق من الكافرين أمر السماء بأن تقلع وأمر الأرض بأن تبلع ماءها فاستقر الفلك على أرض يابسة.

فما الذي سيحدث لأرضنا يا ترى؟ إنهم يبحثون عن بدائل نظيفة لذلك النوع من الوقود منها البديل النووي الذي لا ندري ما ذا ستكون نتائجه هو الآخر. وماذا إذا لم يوجد هذا البديل أو لم يكن كافيًا؟ إما أن تقلل الدول من استعمالها لذلك الوقود، وبالتالي يقل انتاجها المادي والخدمي، وإما أن تصر على الاستمرار في استعماله فيحدث ما يخشى منه حماة البيئة: تفيض البحار، وتثور الأعاصير العنيفة، وتموت البيئات التي تعيش فيها الحيوانات الآن، ويزداد معدل الأمطار في البلاد ذات الأمطار القليلة الآن ويزداد معه تصحرها لأن شدة الحرارة تقضي على النباتات .فالله المستعان، وعليه التكلان في فترات الجفاف.

* * *

المقالات التي نشرت في مجلة البيان حسب تاريخ نشرها

١) الإسلام لعصرنا.. لماذا وكيف؟:

مجلة البيان ١٣٧محرم ١٤٢٠ مايو ١٩٩٩م

وهذا المقال هو عنوان للمقالات التي كتبها الشيخ في مجلة البيان، فالإسلام كما أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ومن غير تحريف ولا تبديل هو الذي رضيه سبحانه للناس أجمعين في كل مكان وكل عصر منذ مبعث رسوله الأمين، وإلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

٢) السلام وانتشار الإسلام:

مجلة البيان العدد ١٣٨ — صفر ١٤٢٠ الموافق يونيو ١٩٩٩

وهو مقال يذكر الشيخ فيه أثر السلام في انتشار الإسلام، وهذا المقال كان قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ولاحظ بُعد نظر الشيخ، حفظه الله، حين دعا للمحافظة على الحالة السلمية، وتوقعه بأن لا تدوم تلك الحال طالما كان الإسلام في انتشار. وقد سمعته قال أيضا في محاضرة له في مؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم في أمريكا في الثمانينات الميلادية: إن الأمريكان إذا شعروا بأن مثل اجتماعاتكم هذه يشكل خطرًا عليهم فإنهم لن يسمحوا لكم بها.

٣) دعاة يستحقون المساعدة:

مجلة البيان ١٤٠ربيع الآخر ١٤٢٠ أغسطس ١٩٩٩م

وهو مقال يدعو فيه الشيخ المسلمين أن يوسعوا مساعدتهم لكل داعية يدعو إلى الله على منهج أهل السنة، ولو لم يكن من المتخصصين في العلوم الشرعية.

٤) آيات الصيام والدعوة إلى الإسلام:

مجلة البيان ١٤٥ رمضان ١٤٢٠ ديسمبر / يناير ١٩٩٩/٢٠٠٠م

وفي هذا المقال يبين الشيخ أن الآيات التي أمر الله بها عباده بصيام شهر رمضان هي منهج في الدعوة إلى الإسلام ويسره، فلم يأمر بالصيام أمراً مجرداً بل يسوق كل الحقائق التي من شأنها أن تعطف القلوب إلى الخير الذي يأمر به سبحانه.

٥) الدعوة.. ووسائل الاتصال الحديثة:

مجلة البيان العدد ١٤٦ -شوال ١٤٢٠ الموافق فبراير ٢٠٠٠

يشير الشيخ -حفظه الله- إلى أن وسائل الاتصال الحديثة فرصة كبيرة لنشر رسالة الإسلام، لكنها أيضا أكبر تحد يواجه الدعاة في نشر هذه الرسالة.

٦) وسائل الاتصال وعلاقتنا بالثقافات الأخرى:

مجلة البيان ١٤٨ذو الحجة ١٤٢٠مارس ٢٠٠٠

في هذا المقال يشير الشيخ إلى أن وسائل الاتصال تساعد على وصول الثقافات الأخرى للمسلمين وانتشارها بينهم، ومع ما فيها من شرور، ولكن ذلك قد ينطوي على بعض الخير؛ لأن معرفة ثقافة غير المسلمين أمر ضروري لحسن إبلاغ الدعوة إليهم ومجادلتهم .

٧) دين الحق والخير والجمال:

مجلة البيان ١٥٠ صفر ١٤٢١ مايو / يونيو ٢٠٠٠م

يبين الشيخ في هذا المقال كيف أن دين الإسلام هو دين الحق والخير والجمال لأنه حق كله وخير كله وجمال كله فلا باطل فيه ولا قبح فيه، وأما ما عداه فيختلط فيه الحق بالباطل والخير بالشر والجميل بالقبيح.

٨) دين لا تكفير فيه ليس بدين:

مجلة البيان ١٥٢ ربيع الثاني ١٤٢١ يوليو ٢٠٠٠م

يبين الشيخ أن الإسلام دين منزل من عند الله مرتكز على مجموعة من الحقائق من آمن بها كان مسلماً، ومن أنكرها أو سخر منها أو استهزأ بها كان كافرًا فإمكانية الحكم على إنسان بالكفر أمر لازم لهوية الدين، فالدين الذي لا إكفار فيه ليس بدين؛ لأنه لا هوية له، وإذا لم يكن للدين هوية ولم تكن له معالم فإلى أي شيء تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ؟

٩) ماذا وراء كسر الحكومة الأفغانية للأوثان:

مجلة البيان ١٦٢ صفر ١٤٢٢مايو ٢٠٠١م

يشير الشيخ في هذا المقال أن الحجر الذي أقدمت على تكسيره الحكومة الأفغانية ليس مجرد حجر في صورة إنسان ولوكان كذلك لما حرص على تكسير ه الأفغان وإنما لأن الناس رأوه إلهاً وما هو بإله ورأوا أنهم يضاهون به خلق الله فكان كسره كسراً لهذا التصور المفسد لقلب الإنسان، فالكسر وسيلة لإقامة الدليل القاطع على بطلان ذلك التصور الفاسد.

١٠) لا تحسبوه شراً لكم:

مجلة البيان ١٦٨ شعبان ١٤٢٢ نوفمبر ٢٠٠١م

بين الشيخ في هذا المقال أن الله -سبحانه وتعالى- قد يجعل من المصائب أبواباً يأتي منها خير كثير، وقد كتب هذا المقال بمناسبة أحداث الحادي عشر من سبتمبر وقال

إنني أرى في هذه المصيبة فرصة كبيرة للدعوة إلى الله وتصحيح الصورة المشوهة للإسلام في أذهان الأمريكان.

١١- الحرية والعبودية:

مجلة البيان ١٨٣ ذو القعدة ١٤٢٣ يناير ٢٠٠٢م

في هذا المقال يبين الشيخ بأن القول إن الإنسان حر، أو أنه ينبغي أن يكون حراً بالمعنى الغربي الشائع كلام يكذبه الواقع، ثم إنه مخالف للإيمان بأن الإنسان عبد لله يأتمر بأوامره، وقد أدرك هذا بعض الكتاب النصارى، منهم كاتبهم الإنجليزي المشهور لويس الذي قال كلاماً فحواه : إنني لم أولد لأكون حراً ، وإنما ولدت لأسمع وأطيع.

١٢) الإنصاف في معاملة غير المسلمين:

(مجلة البيان ١٧٥ ربيع أول ١٤٢٣ مايو -يونيو ٢٠٠٢)

بين الشيخ في هذا المقال أن معاملة المسلمين لغيرهم يجب أن تؤسس على الحقائق، حقائق الدين المتلوة وحقائق الواقع المشهودة، فغير المسلمين وإن كانوا غير مسلمين فهم ليسوا سواء في قربهم وبعدهم من حقائق الدين، وليسوا سواء في معاملتهم للمسلمين وهذا يحتم علينا أن لا نغفلها في تعاملنا معهم، وهذا ليس إنصافاً لهم فحسب بل هو أمر ضروري لتحصيل كثير من المصالح ودفع كثير من المفاسد.

١٣) الاعتبار بمآلات معاصي الكفار:

مجلة البيان العدد , 177 جمادى الأولى 1423هـ يوليو/ أغسطس

يؤكد الشيخ في هذا المقال أن الآثار العظيمة للمعاصي إنما تظهر في المجتمعات الكافرة، وكلما كثرت هذه المعاصي وكلما طال أمد مقارفتها والجهر بها كان ظهور آثارها السيئة أبين وأكثر.

١٤) الحوار مجادلة جادة.. لا مداهنة

مجلة البيان العدد ١٩٠. جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ الموافق أغسطس ٢٠٠٣

يقرر الشيخ في هذا المقال أن الحوار لا يكون ناجحاً إلا إذا توفرت فيه بعض الشروط، وخلا من بعض المفسدات، فمن الشروط صدق المتحاورين وإخلاصهما في الوصول إلى ما أعلنوه من أهداف، ومنها أن يستند الحوار إلى معايير يؤمن بها الطرفان.

١٥) الاعتقاد في حفظ السنة:

(مجلة البيان العدد ١٩٤ . شوال ١٤٢٤ ديسمبر ٢٠٠٢)

يبين الشيخ في هذا المقال أن من لوازم الإيمان الاعتقاد في حفظ السنة النبوية؛ لأن الله تعالى يقول: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" فالسنة محفوظة لأنها من الذكر كما يقوله بعض العلماء، أو أن السنة تستلزم كلمة الذكر وهو ما شرح ذلك وبينه الشيخ في هذه المقالة.

١٦) الإسلام السياسي:

مجلة البيان ٢٠٢ جمادى الآخرة ١٤٢٥ يوليو أغسطس ٢٠٠٤م

بين الشيخ في هذه المقالة المقصود بالإسلام السياسي عند الغربيين هو وصف للدعاة الذين يدعون إلى أن تكون دولهم إسلامية تحكم بما أنزل الله سبحانه، وكذلك بين الشيخ في هذا المقال ما الذي يأخذه خصوم الإسلام السياسي عليه ؟

١٧) الدين دينان: منزلٌ من السماء.. ومتخذٌ في الأرض:

مجلة البيان ٢٠٣ رجب ١٤٢٥ أغسطس / سبتمبر ٢٠٠٤م

يفرق الشيخ في هذه المقالة بين دين الله الحق المنزل وبين دين البشر الذي هو خليط بين الدين الحق والدين الباطل، أو هو دين لا علاقة له بالدين المنزل إنما هو من اختراع الناس، ويقرر الشيخ نتيجة وهي أن الدين الذي يجدد هو دين الناس الذي يمارسون، وذلك بجعله موافقاً للدين الحق، وليس الدين الذي يجدد هو دين الله المنزل.

١٨) الإسلام الهَيولاني:

(مجلة البيان ٢٠٦ شوال ١٤٢٥ نوفمبر /ديسمبر ٢٠٠٤)

يعبر الشيخ بالإسلام الهيولاني عن إسلام الأهواء الذي ليس إسلاما لله إنما هو إسلام لأهواء كل من يدعي الانتساب إليه، فهو إسلام لا صورة له ولا محتوى ولا يمكن أن يعرف أو يوصف؛ لأنه دائم التغير والتشكل بأشكال تلك الأهواء التي لا تستقر على حال فهو هيولاني نسبة لهيولى؛ وهي في فلسفة أرسطاريس مادة ليس لها شكل ولا صورة ثابتة، إنما هي قابلة لأن تأخذ صورا وأشكالا مختلفة.

١٩) الأخلاق والنظم:

مجلة البيان -٢١٥ رجب ١٤٢٦هـ أغسطس 2005م

يؤكد الشيخ في هذه المقالة علاقة النظم بالأخلاق، حيث لا يمكن قيام نظام سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي أو حتى أسري إلا بقدر من الأخلاق والفضائل .

٢٠) الاعتراف بالآخر:

مجلة البيان. العدد ٢٢٤. ربيع الآخر ١٤٢٧هـ الموافق مايو ٢٠٠٦م

هذا المقال عبارة عن حوار تمثله الشيخ بين علماني يسأل صاحبه الإسلامي عن الاعتراف بالآخر من أصحاب الديانات الأخرى من المواطنين وغير المواطنين، ويصل إلى نتيجة مقدار الحرية التي يمنحها كل منهما للآخر حسب تصور كل منهما للحرية التي يراها تتناسب مع مبدئه، سواء العلماني أو الإسلامي.

٢١) من الحرية الدينية إلى الدولة العلمانية:

مجلة البيان ٢٢٥ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ يونيو ٢٠٠٦م

في هذا المقال يرد الشيخ على من يحرف الاستدلال بالآية الكريمة " لا إكراه في الدين " بحيث تصبح دليلاً على الحرية الدينية بالمعنى الغربي للحرية الدينية بحث من حق الشخص يدخل في الدين ويخرج منه متى شاء وتكون الردة أمرا مباحا لا جريمة يعاقب مرتكبها مخالفاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم "من بدل دينه فاقتلوه ".

٢٢) الوسطية لا التميعية:

البيان العدد ٢٢٦. جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ الموافق يونيو ٢٠٠٦

في هذا المقال يتحدث الشيخ عن الاستخدام الخاطئ لمعنى الوسطية وقياسها على مفهوم المودريت عند الغربيين الذي لا يأخذ دينه بقوة بل يجامل فيه ويداهن ويغير ويبدل بحسب ما تقتضيه أهواء الثقافة الغربية، بل ومصالحها السياسية والاقتصادية ثم يبين الشيخ المعنى الشرعي الصحيح لمفهوم الوسطية .

٢٣) الممكن والمعهود:

مجلة البيان ٢٢٧ رجب ١٤٢٧ اغسطس ٢٠٠٦

يبين الشيخ في هذا المقال أن الممكن أوسع دائرة من المعهود فالذين لا يدركون ذلك يسارعون في إنكار ما لم يعهدوا ويسارعوا إلى إنكار ما لا تفسير له في حدود ما عندنا من علم، بل إن بعضهم يظن أن غير المعهود أو غير ما يمكن تفسيره في حدود العلم المعهود مستحيل عقلا ، ويزداد الأمر عجباً حين ترى أن ضيقي الأفق هؤلاء كثيراً ما يدعون العقلانية أو العلمية .

٢٤) الاتباع العلمي والتبعية الجاهلية:

مجلة البيان ٢٣٣محرم ١٤٢٨يناير ٢٠٠٧

يبين الشيخ في هذا المقال أن الاتباع في حقيقته إنما هو اتباع العلم ثم يدخل فيه اتباع من قام عندنا دليل علمي على أن له علماً وهذا المقصود بالاتباع العلمي وأما إذا لم

يكن الاتباع مؤسساً على علم بأن المتبع ذو علم وكان مبنياً على غير ذلك من الأسباب الداخلة في مفهوم الهوى فهو بالضرورة تبعية جاهلية.

٢٥) مفهوم اليسر في الإسلام:

مجلة البيان ٢٣٥ربيع الاول ١٤٢٨مارس ٢٠٠٧م

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن مفهوم اليسر في الإسلام، وأنه فعل ما يحقق الغاية بأدنى قدر من المشقة وليس معنى التيسير أن لا يؤمر الناس بشيء فيه أدنى مشقة؛ لأنه لوكان كذلك لما كان هناك تكليف بصلاة ولا صيام ولاحج ولا زكاة ولا جهاد.

٢٦) المستقبل لنا:

مجلة البيان ٢٣٩ رجب ١٤٢٨ يوليو ٢٠٠٧م

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن أن المستقبل لقيم الإسلام وتعاليمه لأنها قيم الحق والخير التي جاءت بها الرسل، ودعا إليها خاتمهم فهي قيم ستغزو القيم الباطلة وتزهقها في عقر دارها، وتضيء لأهلها أنوار الحق فتجعلهم يفيئون بإذن الله إلى دين الله أفواجا.

٢٧) معجزة الاتساق التشريعي:

مجلة البيان ٢٤١رمضان ١٤٢٨ سبتمبر ٢٠٠٧م

وفي هذه المقالة يتحدث الشيخ عن الاتساق التشريعي، وهو أن في القرآن تشريعات تشمل كل ما يحتاجه الإنسان من عقائد وعبادات وسلوك وعلاقات اقتصادية وسياسية واجتماعية وغيرها ومع ذلك لا تجد منها تشريعاً يخالف الآخر أو ينافيه أو يعوق تحقيقه لهدفه، بل تجد التشريعات كلها متعاضدة متساندة يشد بعضها بعضا.

٢٨) دين يتسع به الأفق:

مجلة البيان ٢٤٣ذو القعدة ١٤٢٨ نوفمبر ٢٠٠٧م

وفي هذه المقالة يبين الشيخ لماذا يتسع الأفق بالتدين بدين الإسلام، وأنه كلما كان التدين أعمق كان الأفق أرحب ؟

٢٩) الإيمان الشامل:

مجلة البيان ٢٥٤شوال ١٤٢٩ أكتوبر ٢٠٠٨م

يبين الشيخ في هذه المقالة أن الايمان بالله يختلف عن التصديق بالله، فليس كل مصدق بوجود الخالق مؤمن به لأن الإيمان بالله يقتضي عبادته وحده، والإيمان برسالاته وملائكته وكتبه واليوم الآخر وهكذا، ولذا يتعين علينا أن نبين هذا

التصور الإسلامي للإيمان. لأن ما يسمونه اليوم في الغرب إيمانا بالله لا يكاد يوجد فرق عملي بينه وبين الإلحاد.

٣٠) الأزمة المالية.. ومبادئ الاقتصاد الإسلامي:

(مجلة البيان ٢٥٥ ذو القعدة ١٤٢٩ نوفمبر ٢٠٠٨)

يبين الشيخ في هذه المقالة كيف أن الأزمة المالية التي بدأت في الولايات المتحدة الأمريكية ثم أخذت تجتاح أوروبا والعالم من ورائها لفتت أنظار كثير من رجال الاقتصاد والسياسيين في أوروبا إلى مبادئ الاقتصاد الاسلامي وإمكانية أن يكون بديلاً للنظام السائد وعلاجاً لما تسبب فيه من مشكلات.

٣١) نسبية الزمان في القرآن:

مجلة البيان ٢٥٩ ربيع الاول ١٤٣٠ مارس ٢٠٠٩م

يبين الشيخ في هذه المقالة أنه كما يتغير مقدار كل زمان بالنسبة لزمان آخر، فكذلك يتغير إدراك الناس له أو شعورهم به بحسب الحال التي هم فيها، ثم يذكر الشيخ أمثلة من القرآن على ذلك كتقدير أصحاب الكهف نومهم بأنهم لبثوا يوما أو بعض يوم، والناس في الآخرة يقولون إنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا يوما أو بعض يوم، وبعضهم يقسم بأن لبثهم كان ساعة.

٣٢) الأمر بالمعروف يقتضي النهي عن المنكر:

البيان ٢٦١ جمادى الأولى ١٤٣٠ مايو ٢٠٠٩م

وفي هذه المقالة يرد الشيخ على شبهة من يقول أنه يكفي للإنسان أن يأمر بالمعروف ويعرف به أنه إذا عرف المعروف أنكر المنكر من غير تعرض للمنكر؛ لأن مجرد الدعوة إلى المعروف هي نهي عن المنكر الذي يضاده، فالشيخ يرد على هذا المفهوم لأن النهي عن المنكر هو من مقتضيات الأمر بالمعروف، فإذا أمرت بمعروف ولم تنه عن المنكر الذي يضاده ويقابله لا تكون قد أعطيت الأمر بالمعروف حقَّه، ولا تكون حصنت من أمرته بالمعروف تحصيناً كاملاً.

٣٣) القراءة والثقافة:

(مجلة البيان ٢٦٢ جمادى الآخرة ١٤٣٠ يونيو ٢٠٠٩م)

وفي هذه المقالة يصحح الشيخ الاستنتاج الغالط؛ وهو الارتباط بين أن الأمة الأكثر قراءة هي بالضرورة الأكثر ثقافة، ووجه الغلط هو عدم التمييز بين المعاني المختلفة للثقافة وصلة كل منها بالقراءة، وكذلك عدم التمييز بين أنواع القراءات وأنواع القراء.

٣٤) عندما تؤيد الدراسات العلمية الحقائق الإسلامية:

مجلة البيان ٢٦٤ شعبان ١٤٣٠ أغسطس ٢٠٠٩م

في هذه المقالة أورد الشيخ عدداً من الدراسات العلمية التي تؤيد الحقائق الإسلامية، وهو ما يسمى الآن بالإعجاز العلمي.

٣٥) شهر للجهاد بالقرآن:

مجلة البيان ٢٦٥ رمضان ١٤٣٠ سبتمبر ٢٠٠٩م

يبين الشيخ في هذه المقالة أن رمضان الكريم هو الشهر الذي أنزل الله فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، والقرآن هو أساس الجهاد الكبير المستمر، الجهاد بالكلمة حيث أمر الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين معه بأن يجاهدوا الكفار بالقرآن الكريم جهاداً كبيراً، وهم مضطهدون بمكة، منهيون عن القتال بالسيف مأمورون بأن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة.

٣٦) خلق الله وشرع الله:

مجلة البيان ٢٦٧ ذو القعدة ١٤٣٠ نوفمبر ٢٠٠٩م

بين الشيخ في هذه المقالة أن الله خلق الخلق وأنزل الشرع وجعل بينهما علاقة وثيقة إذ جعل الخلق مناسباً لتحقيق أهداف الشرع من حيث أن خلق الله هو سبب لعبادته التي هي الغاية من أجلها خلق الإنسان، ثم ذكر أن مناسبة الخلق للعبادة هي أن الخلق يدل على قدرة الخالق، فالقادر هو المستحق للعبادة وكذلك هو المنعم، فالمنعم يستحق أن يشكر بالعبادة وغيرها من الدلائل التي ذكرها الشيخ في ثنايا المقال.

٣٧) لمن الحكم للخالق أم المخلوق:

مجلة البيان ٢٦٨ محرم ١٤٣١ يناير ٢٠١٠م

يبين الشيخ في هذا المقالة أن الحكم لا يكون إلا لله الخالق سبحانه وليس للمخلوق سواء كانوا أفراداً أو حتى الناس جميعاً؛ لأنه لا أحد من البشر يمكن أن يعرف مصالح الناس كلها، وإنما الذي يعرف هذا هو خالقهم سبحانه.

٣٨) يا عباد الله فاثبتوا:

مجلة البيان ٢٧٣ جمادى الأولى ١٤٣١ مايو ٢٠١٠م

في هذه المقالة ينهى الشيخ عن الحزن بسبب إعراض الناس عن دين الله في بعض الأماكن، بل ينبغي أن يثبت على دينه، ثم يذكر الأسباب في عدم حزن المسلم حين يرى الإعراض عن دين الله تعالى.

٣٩) التدين الفردي والتدين الجماعي:

(مجلة البيان ٢٧٤ جمادى الآخرة ١٤٣١ مايو/يونيو ٢٠١٠م

يبين الشيخ في هذا المقال مظاهر التدين الفردي والتدين الجماعي، ونقده لبعض أوضاع المسلمين في الغرب ممن تأثروا بالثقافة الغربية، حيث صاروا يحصرون الدين في الشرائع الفردية ولا يهتمون كثيراً بالشرائع الجماعية.

٤٠) الاتباع العلمي والتبعية الجاهلية:

مجلة البيان ٢٧٦ رجب ١٤٣١ يونيو/يوليو ٢٠١٠

يبين الشيخ في هذه المقالة الفرق بين الاتباع العلمي، وهو أن يتبع الإنسان طريق من علم بالدليل القطعي أن طريقه هو الطريق الموصل إلى الله وهم أنبياء الله ومن سار على نهجهم وطريقهم من العلماء والدعاة، وأما التبعية الجاهلية فهي أن يسلم الإنسان قياده لإنسان يقوده بمجرد هواه، وهو إنما يسلم قياده له لمجرد الهوى كأن يكون معجبا به، أو لكونه من أجداده، أو يكون مقلداً لغيره في قبوله لزعامته والسير خلفه، أو لغير ذلك من الأسباب التي لا علاقة لها بالعلم.

٤١) الانتماء إلى الوطن أم إلى المبدأ:

(مجلة البيان شعبان ٣٠ شعبان ١٤٣٣ يوليو ٢٠١٢م)

في هذه المقولة يرد الشيخ حفظه الله فرضية أن هناك تناقضاً بين الانتماء للوطن أو الانتماء إلى فكرة أو عقيدة معينة أيًا كانت، ويقول إن هذا افتراض غير صحيح ويذكر الأسباب على ذلك.

* * * * *

ثانياً: المحاضرات

أزمة الأمة وخطوات نحو الحل

وهي ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا مع الدكتور محمد أبو فارس حول أزمة الأمة في حرب الخليج عام ١٩٩٠م.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، ثم أما بعد :

أيها الإخوة الأعزاء إنني من المؤمنين بأنه مع السعي للتغير الشامل لابد من معالجة القضايا الجزئية التي تصادفنا في حياتنا اليومية، بل إنني لا أرى تناقضاً بين هذا وذاك؛ فإن كل لبنة خير يسعى الإنسان لوضعها في بناء الإسلام الكبير هي تقدم نحو ما نسمية بالتغيير الشامل، والذي رأيته في معالجة هذه القضية (يعني حرب الخليج) من كثير من إخواننا الإسلاميين أنهم يريدون أن يهربوا عن مواجهة المشكلة التي أمامهم إلى الحديث عن التغيير الشامل، ولكن سبق أن تحدثنا عنها كثيراً. يا أيها الإخوة إنه لا تناقض بين العمل للأهداف الكبيرة ومعالجة القضايا الجزئية. والقضايا الجزئية تصادفها في ظروف كثير منها لا صلة لنا فيه، كل قضية جزئية هي في وضع من الأوضاع جزء كبير منه ليس من صنعنا ولا نستطيع أن نغير فيه شيئاً ولكننا نعمل ما نستطع في ظروفنا المكانية والزمانية، وهذا ما يكلفنا الله سبحانه وتعالى به، قال رسول الله ﷺ: **(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)**. والذي لفت نظري في هذا الحديث هذا اليوم وأنا أعد لهذا الكلام أن الرسول لماذا سمى كلام اللسان تغيراً، التغيير باليد واضح، هذا هنا أغيره وأضعه بيدي هنا، لكن إذا كان هنا وأقول ينبغي أن يكون هنا باللسان وحتى عجزت أن أقول باللسان قلت بقلبي ما ينبغي أن يكون هنا ينبغي أن يكون هنا، لماذا سمى الرسول ﷺ هذا تغييراً لعل من قدر الله تعالى أنه يربط بين البيان بين قول الحق أو إرادة الحق وبين هذا التغيير الظاهر .

أقول هذا لأنني أرجو إلا تصابوا بالإحباط، فلا تقولوا لا حيلة لنا، والأمر كله في يد غيرنا ولا نستطيع ان نفعل شيئاً. إن أقل ما نستطع أن نفعله هو ان نتكلم ونبين

حكم الشرع في القضايا التي تصادفنا في حياتنا اليومية أخذ بها الناس أم لم يأخذوا، وإذا فعلنا هذا نكون قد أدينا واجبنا، ولا نشعر بعقدة من الذنب ولا بشيء من الإحباط، ولا نهرب إلى أن هذه المشكلات من صنع كذا وإلى أن يأتي كذا وكذا فستحل كلها. نسأل الله تعالى الإخلاص، ونسأله -سبحانه وتعالى- أن يلهمنا الرشد والسداد في قضية وفتنة تدع الحليم حيران. أيها الإخوة الأعزاء، المشكلة التي أمامنا وبحسب نقاشنا لها وبحسب نقاش المسلمين لها في العالم كله تتلخص في أمرين:

- اعتداء العراق على الكويت أو دخول القوات العراقية إلى الكويت.
- وجود القوات الأمريكية والغربية في منطقة الخليج.

كل واحد من هاتين القضيتين أثارت مشكلات واختلافات، بحيث صار الناس حائرين حتى عن تقديم حل نظري تطمئن إليه أنفسهم، لأن الإنسان إذا وصل إلى حل نظري فسيقول - على الأقل - لنفسه، ويسأل الله عز وجل أن يجعل هذا الحل هو الحل الذي ينطبق على الواقع، وأما إذا احتار الإنسان فإنه لا يستطيع أن يدعو، إلا أن يقول اللهم أنجنا من هذه القضية.

بالنسبة للقضية الأولى:

أظن أن الناس جميعاً أيضا متفقون على أن هذا اعتداء وظلم ولا ينبغي أن يفعل، لكن حتى هذه القضية ثارت حولها شبهات جعلت مواقف كثير من إخواننا فيه تردد، وأقول من إخواننا المصلين الذين يصومون ويزكون ويدعون إلى الإسلام .

١) بعض من سمع رأيا لي من الشباب مرة قال لي:إنك تستدل بهذه الآية: **﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾** [الحجرات: ٩]، وهاتان الفئتان ليستا مسلمتين، لا العراق ولا الكويت تحكمان بالشريعة، فلا علاقة للآية بهذه الموضوع ! وأريد أن أقول لكم أيها الإخوة : إن أحكام الله سبحانه وتعالى هي الحكم العدل، وهذا الحكم العدل يقال للناس سواء كانوا كفاراً او مسلمين، بل حتى لو كانوا من أسوء أنواع الكفار، وأتلو عليكم قول الله عز وجل: **﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ**

ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤١-٤٢]، ولذلك قال العماء: إذا جاءك كافران واحتكما إليك في قضية، فاحكم بينهما بحكم الله الذي نزل في القرآن الكريم، وإن كان هذا الحكم قد جاء في أصله للحكم بين المسلمين فارجو أن تنتهي هذه الشبهة.

٢) قضية الحدود وأنها من صنع الأجانب، وهي كذلك، وكثير من الحدود من صنع اهلها، وهذا ليس امر خاصاً بالعالم الاسلامي، الحدود بين المانيا وبولندا ليست من صنع ألمانيا، المشاكل بين الصين والاتحاد السوفيتي، بين اليابان والاتحاد السوفيتي، كل الدنيا فيها منازعات حدود، ثم أيها الإخوة ما كل شيء صنعه الاستعمار فلابد أن يغير، وإلا لكسرنا المصانع والشوارع لأن كثيرًا منها وضعها الاستعمار، والرسول ﷺ أقر بعض أشياء عملها الجاهليون وهي خطأ؛ لأنه رأى المصلحة في أن لا تغير، منها هذه الكعبة التي نصلي إليها هذا البناء الذي ترونه ليس هو البناء الذي ينبغي أن يكون ولكن الرسول ﷺ ترك هذا لمصلحة. فالحدود نعم هي من صنع الاستعمار ونحن لا نريدها، ولكن هاتين الدولتين (العراق والكويت) أقرتا بهذه الحدود، العراق عضو في هيئة الأمم ومقر بالحدود، وفي الجامعة العربية ومقر بالحدود، وفي منظمة المؤتمر الإسلامي، وللعراق معاهدة خاصة بينه وبين الكويت فيها إقرار للحدود، فلا يأتي من يفتي له بأن الحدود ليست من الإسلام، ومن قال لك هذا، وكثير من الإخوان الذين يفتون بهذه الفتوى يقولون إن العلماء لم يستفتوا، أو أنهم أفتوا بعدما انتهت المشكلة وهو ما سئل لا بعد ما انتهت ولا قبل أن تنتهي ولكنه تبرع أن يعطي مسوغاً من الشرع لهذه الحدود لا تزال بهذه الطريقة، وتوحيد الأمة لا يكون بهذه الطريقة، ولو أن صداماً أعلن أنه دولة إسلامية، وطبق

الشريعة الإسلامية، ودعا إخوانه في الكويت إلى أن يفعلوا ما فعل حتى لو لم ترض حكومتهم ودخل هو بجيشه لهلل له الناس وكبروا له كما يكبر بعض إخواننا هنا، وقالوا له تدخل، وصدام لم يقل هذ، وإنما قال هذه جزء من العراق، ويعني هذا أنه معترف بحدود العراق، ولكنه غير معترف بحدود الكويت، وهناك مشاكل كثيرة أخرى لا أحب أن أدخل في تفاصيلها. نأتي إلى وجود القوات الكافرة في الجزيرة العربية، هذه القضية أيضا هناك أمر متفق عليه، وهو أنه من حيث المبدأ لا يجوز وجود الكفار – سواء كانوا قوات أو أفراداً عاديين – في الجزيرة العربية كلها وليس في السعودية وحدها، ومرة سمعت الشيخ ابن باز حين سئل عن استقدام الخدم من الكافرات قال: لا يجوز، فقال له بعض الحاضرين: لكن الدولة تسمح بذلك؟ وقال سمحت أو ما سمحت، الدين للأولين والآخرين، لا يجوز، فقال له أحدهم: إذا كنا محتاجين؟ قال : إلا حاجة لا يستطيع ان يسدها مسلم. والشيء الثاني المتفق عليه: أن هؤلاء الناس جاؤوا لمصلحتهم. هم يقولون هذا والسعوديون الرسميون يقولون هذا، والخليجيون كلهم يعرفون هذا، هذه مسألة واضحة. الشيء الثالث: أن وجودهم فيه ضرر، هذا أمر لاشك فيه، ولولا أن فيه ضرراً لما حرمه الله سبحانه وتعالى، اتفقنا على هذا ؟ الشيء الذي اختلفنا فيه بعد ذلك هو:

١) أن بعضنا قال: لا يجوز شيء مثل هذا إطلاقاً، وتحت أي ظرف من الظروف، وقال الآخرون : لا بل حتى الأشياء المحرمة تصبح في ظروف معينة مباحة أهم شيء في الدين هو إعلان: **(لا إله إلا الله)** فإذا أجبرني إنسان وأكرهني على أن أقول لا إله إلا صدام قلتها، والله تعالى قال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقال: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]، إذا الذين يقولون تحت أي ظرف من الظروف هذا خطأ سواء بالنسبة لهذا الأمر أو لأمر آخر حرمه الله سبحانه وتعالى.

٢) المسألة الثانية التي اختلفنا فيها هي: مع التسليم بأنه في الظروف الطارئة يمكن أن يفعل الإنسان الشيء الحرام اختلفنا في تقدير الضرورة. قال بعضنا: هناك ضرورة نحن ضعفاء، ولا نستطيع أن نواجه جيوش صدام، وإذا دخل صدام حصلت شرور

كبيرة ووجود القوات مع أنه شر إلا أنه في تقديرنا أقل من هذا الشر، وقال آخرون : لا، صدام ما كان سيدخل. فقال لهم هنا تقديركم وهذا تقديرنا قالوا : كان ينبغي ان نأخذ بالعزم، فنواجهه بما لدينا من قوة ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فقالوا : هذا موقف عزم لا يجبر عليه الناس من أراد أن يفعل هذا فله ذلك ولكن لا يمكننا أن نقول لإنسان ينبغي أن نقف موقف العزم هذا وإلا فأنت مارق عن الدين. ماذا نفعل بعد هذا الاختلاف ؟

يمكن أن نريح أنفسنا فنقول كما يقول بعض الإخوة: هذا خطأ وهذا خطأ ولكن ثم ماذا؟ واحد قال لي: أريد أن أكون منصفاً، فأقول العراق مخطئ والسعودية مخطئة، قلت له ليس هذا بإنصاف، فلو جاءك وقال لك يا أخي هذا سرق مالي تقول أريد أن أكون منصفاً بأنك ترضي هذا وترضي هذا، لا فإن قلت لهذا أنت سرقت المال فرده فأنت مع هذا وإن قلت لهذا ما سرق مالك فأنت مع هذا لابد أن نفعل شيئاً أو أن نقول شيئا على الأقل أنا في رأيي أننا نقول نطالب بأن يخرج العراق من الكويت، ونقول إنه إذا ما خرج العراق من الكويت نطالب السعودية بأن تخرج القوات الأمريكية والغربية من أراضيها ودول الخليج كلها، يا أخي أنت لا تريد من العلماء أن يكونوا علماء سلطان، فأنا لست عالم العوام ينبغي أن تتعلموا وأنتم في بلد يقول الناس فيه الحق والباطل والبر والفجور تعلموا لأن تسمعوا أنا ما عندي سلاح رجل أعزل وأعرج كمان ولا أمثل قوة، لا أتحدث حكومة السودان ولا الحكومة السعودية، إنما أنا جعفر شيخ إدريس، فنطالب بخروج العراق من الكويت مطالبة قوية ولو أن الجماهير المسلمة في العالم كله، في مساجدها، وفي تجمعاتها، وفي مظاهراتها، وقفت وقالت هذا الكلام لحسب له صدام ألف حساب، ولكن صداماً كان ذكياً فربط بين قضيته وبين قضية فلسطين وتكلم عن الجهاد، واسترخى بعضنا، بعد الخروج، لنفرض أنه خرج ماذا نفعل، قل تخرج القوات الغربية ثم بحسب تلك الآية الكريمة، لابد من صلح لأن الله سبحانه وتعالى يقول (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا) فنكون لجنة مجلساً ويشترك فيه عدد من العلماء هذا اقتراح نقترحه وهذه اللجنة تزيل ما في النفوس من اختلافات، حتى نكون قد وضعنا بذوراً لحل أدوم، يضمن للعراق عدم الاعتداء عليه إذا هو خرج من الكويت، وعدم اعتدائه هو على الكويت أو السعودية مرة ثانية، هذه هي المرحلة

الأولى من الأشياء المباشرة بعد الخروج، أما الأشياء البعيدة والتي تحدث عنها بعض الإخوان هنا وليست بعيدة بعداً كبيراً ولكن أيضا هي مرحلة ثانية، وأعجبني أن الذي تحدث عن الكويت قال هذا الكلام، وكلامه في هذا أهم من كلامي، فأنا أرى:

١) أن الدولة الصغيرة خطأ على نفسها وخطر على غيرها.. دولة سكانها ٢٥٠ - ٤٠٠ ألف هذه دولة لا يمكن أن تدافع عن نفسها مهما أوتيت من مال، فلذلك ستضطر إلى الارتماء في أحضان غيرها، إذا فعلت هذا صارت خطراً على نفسها وعلى غيرها، لذلك أنا مع الأخ الذي طالب أن تصبح دول مجلس التعاون دولة واحدة بشيء من التدرج.

٢) أن يقوم نظام الحكم في هذه الدولة الجديدة على الشورى.

٣) أن تبنى هذه الدولة جيشاً قوياً، بحيث لا تحتاج إلى أن تستنجد بقوات أجنبية، وأرى أيضا مع الأخ ينبغي أن ندرب شبابنا في الجامعات و في المدارس عندما يبلغون سناً معيناً ونستفيد من هذا من تجربة إسرائيل. والله سبحانه وتعالى أعلم .

❊ ❊ ❊

استعمال القرآن الكريم للغة التجارة

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، ثم أما بعد:

آيتنا في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]، وهنالك آيات كثيرة في نفس المعنى القضية هي استعمال القرآن الكريم للغة التجارة هذا شيء خطر في بالي ربما خطر في بالكم هو أننا نجد في القرآن الكريم أنه يستعمل لغة التجارة في الدعوة إلى حقائق الدين في القرآن البيع والشراء والربح والخسارة والعمل والثمن والأجر وغير ذلك، وأيضاً حتى غير الألفاظ المعاني التي يضعها الناس في أذهانهم عندما يتعاملون معاملة تجارية فالإنسان التاجر يضحي في القليل العاجل في سبيل أنه يكسب غداً أكثر منه وهكذا وكل هذه المعاني يستعمله القرآن الكريم في دعوة الناس إلى حقائق الدين فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠- ١١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [النحل: ٤١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا﴾ [الكهف: ١٠٣]، واستعمل كلمة القرض قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١٨]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١]، ما السر في هذا ؟ هذا سؤال سألته نفسي، وأقول الإجابة والله أعلم يعني لم أقرأ هذا في كتاب ولكن سؤالاً سألته نفسي، ثم خطر في بالي إجابة أرجو أن تكون صحيحة، ما السر في هذا لماذا يستعمل القرآن لغة التجارة في دعوة الناس إلى الحق خطر ببالي أن القرآن يدعو الناس إلى أن يكونوا عقلاء أن يستعملوا عقولهم والقرآن دائماً يتكلم عن الذين لا يؤمنون بأنهم لا يعقلون ويتكلم عن الذين يهتدون هم الذين يعقلون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، فالذي خطر في بالي أن الإنسان أكثر ما يكون

عقلاً حين يتعامل معاملة تجارية الإنسان عنده خرافات وعنده خزعبلات وكذا ولكنه إذا جاء ليبيع ويشتري يكون عاقلاً جداً لا يبيع شيئا يملكه هو يجده ثمن أغلى ولا يشتري سلعة بثمن غالٍ وهو يجد لها ثمناً رخيصاً، فالإنسان أكثر ما يكون عقلاً عندما يتعامل هذا المعاملة التجارية، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول للناس هذه الطريقة العقلية التي تستعملونها في أعمالكم التجارية، وهذه المعايير التي تستعملونها استعملوا نفس هذه المعايير حين يأتي الأمر إلى الحقائق الدينية لا تشتروا الدنيا بالآخرة لأن متاع الدنيا قليل والآخرة أجرها كبير، فما في إنسان تاجر عاقل يبيع شيء اليوم بثمن رخيص وهو يعلم أنه غداً سيكسب فيه مكسباً كثيراً فكأن الله سبحانه وتعالى يقول للناس استعملوا هذا المنطق التجاري حين تتعاملون مع الحقائق الدينية فاعتبروا الأعمال الصالحة تجارة رابحة والمعاصي أعمالا خاسرة واعتبروا الأموال التي تنفقونها في سبيل الله قرضاً تقرضونه ربكم سبحانه وتعالى ليجزيكم عليه أكثر مما أقرضتموه، فهذا ربما يكون السر في هذا الاستعمال القرآني لقضية الربح والخسارة، وهنالك في غير مسائل التجارة القرآن الكريم دائماً يقول للناس إن عندكم معايير بعضها معايير صحيحة فلا تنسوا هذه المعايير حين تأتون إلى الدين، كثير من الناس يكون عاقلاً جداً في الأمور الدنيوية ولا سيما في الأمور التجارية ولكنه إذا جاء إلى الدين حتى بعض المتدينين يترك عقله جانباً ويتعامل بطريقة فيها عدم عقلانية أو فيها نوع من الخرافة، والله سبحانه وتعالى يقول للناس كونوا عقلانيين حتى في تقويمكم للدين، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يذكر هذه المعاني لو المعنى الذي قلته لكم، فالإنسان العاقل هو الذي تربح تجارته، والإنسان العاقل هو الذي لا يعرض نفسه للخسارة، والإنسان العاقل هو الذي كما قال سبحانه وتعالى عن بعض الناس إنهم يفضلون العاجل عن الآجل، وهذا شيء لا يفعلونه في حياتهم التجارية لا يفضل العاجل القليل عن الآجل الكثير بل يضحي في هذا في سبيل ذلك، فهذا أكرر لعله هذا هو السبب في أن القرآن الكريم استعمل هذه الألفاظ أو هذه اللغة التجارية، وأرجو ممن يستمع إلى هذا من إخواننا المستمعين إن كانت لهم آراء في هذا أن يكتبوا لي في هذا؛ لعلي أستفيد مما يقولون.تدبرتم الآيات التي استعمل القرآن الكريم فيها هذه المعاني التجارية تجدونها بهذا

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم..

***

الأقوال والأعمال
تدل على ما في القلوب

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، ثم أما بعد:

آيتنا في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]، نحن لا نستطيع أن نطلع اطلاعاً مباشراً على ما في قلوب الناس، ولكن الله سبحانه وتعالى أرانا أن هنالك أقولاً وأعمالا تدل على ما في القلوب، فإذا رأينا هذه الأعمال والأقوال استدللنا بها على ما في قلب الإنسان، من هذه الآيات هذه الآية كأن الله سبحانه وتعالى يقول لنا إنه لا يمكن أن يرينا الإنسان شيئاً إرادة جازمة ثم لا يكون منه هو في الظاهر ما يدل على هذه الإرادة، لا يمكن أن يجلس إنسان كذا ويقول والله أنا أريد أن أفتح الباب والله أنا أريد أن أن أفتح الباب ولا يتحرك من مكانه شبراً، فنحن نستدل بعدم حركته على أن قوله يريد أن يفتح الباب كذب؛ لأن الإرادة إذا كانت إرادة جازمة لابد أن تترجم في صور بعض الأعمال وكما قال الله سبحانه وتعالى عن الإرادة فقال عن النفاق أو على الأقل بعض أنواع النفاق.

قال سبحانه وتعالى عن المنافقين ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [محمد: ٣٠]، فلان وفلان وفلان ولكن الله لم يفعل قالوا إن الله سبحانه وتعالى ستر الناس ولكنه قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، لحن القول هو فلتات اللسان أن الشخص إذا كان منافقاً فلا يستطيع أبداً أن يخفي نفاقه هذا لابد أن تفلت منه كلمات، وكذا تدل على نفاقه الذي في قلبه، وأيضاً من أنواع العلاقة بين ما في القلوب والأعمال والأقوال الظاهرة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾، هؤلاء الكفار في زمن الرسول ﷺ قالوا: أيها الرسول تريدنا أن نقتنع فدع الله يكلمنا أو تأتينا آية يعني غير هذه الآيات التي أتيت بها: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ لماذا؟ ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]،

فتشابه القلوب أدى إلى تشابه في الأقوال وفي التعبيرات، فإذا رأينا إنسانا يقول مثل هـذه الأقوال التي هي أقوال الكفار، واستدللنا بها على أن ما في قلبه مثلما ما في قلوب أولئك الكفار.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، إلا تستغربون هذه الآية أي رسول يأتيني كل هؤلاء الأمم كلما جاءها رسول قالوا ساحر أو مجنون، ثم الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾، طبعاً لا يمكن أن يكونوا تواصوا لأنهم من أمم مختلفة وفي أزمان مختلفة، إذاً ما السبب: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣] فطغيانهم أداهم إلى أن يتهموا الرسول بأنه ساحر أو مجنون. روى ابن كثير عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: (ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه).

ونستفيد من هذه الآية والآيات التي مثلها: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ وقوله: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، أنه إذا راينا إنساناً يسلك مسلك الضالين، أو يقول كلام الضالين لا يشترط أن يكون قد أخذ هذا القول أو هذا الكلام ممن سبقه هذا لا يشترط كثير ما يضيع بعض إخواننا أوقاته في أن يبحثوا عن مصدر هذا الكلام الذي قاله هذا الشخص، فيقول هذا ماسوني أو من بروتوكولات الصهيون هذا كذا لا يشترط الإنسان قد يكون أصيل في الشر لأن الذي يوحي بهذا هو الشيطان والشيطان واحد كما أوحى إلى أولئك بأن يقولوا هذا الكلام الذي فيه ضلال بسبب أنهم كانوا طاغين.

كذلك يمكن أن يوحي لكل من طغى أن يقول كلاماً مثل كلام أولئك الذين طغوا كما أن أحوال القلوب تؤثر في الأعمال الظاهرة، فكذلك العكس الأعمال الظاهرة تؤثر في القلوب، وهذا من الأسرار التي لا يعرفها إلا الله سبحانه وتعالى، يعني لماذا قال الله مثلاً سبحانه وتعالى صلوا هذه الصلوات في هذه الأوقات، ولماذا قال

صلوها بهذه الطريقة؛ لأن الله يعلم أن هنالك علاقة بين حركات الإنسان الظاهرة وأحواله الباطنة، ونحن نعرف بعض هذا؛ يعني لو أن إنسانا وقف في الصلاة ووضع يديه على خصره أو أنه بدلاً من أن يسجد استلقى على ظهره ورفع رجليه هو نفسه يشعر حتى من غير صلاة هو نفسه يشعر بأن حاله التي في قلبه مختلفة عن حاله وهو ساجد، وعن حاله وهو مستلقٍ على ظهره، ورافع رجليه. مرة سمعت رجلا فاضلا — عليه رحمة الله — كان من إخواننا الهنود يعيش في باريس اسمه محمد حميد الله ألقى محاضرة قال فيها إن بعض الراهبات طلبن منه أن يلقي عليهن محاضرة عن الإسلام، فقال ذهبت إليهن وألقيت عليهن محاضرة وكان في أثناء المحاضرة استأذنتهن بأن أصلي قلت لهن إن وقت الصلاة قد جاء، فذهبت لأصلي فقلن لي هل تأذن أن نصلي معك قلت لهن صلن. فقال يعني تابعوه في الحركة الشيء الغريب الذي قاله قال بعدما أنهينا من الصلاة جائه بعضهن أو إحداهن وقالت أنا مؤمنه وكنت أريد أن أتقرب إلى الله وأشعر أني قريبة من الله ما شعرت بهذا إلا اليوم عندما صليت معك، وذكرني هذا بحديث الرسول ﷺ قال: **(أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد).**

فكل هذه الحركات التي يظن بعض الناس أنها ليست مهمه، وأنت تضيع وقتك بشيء غير مهم، أو أن هذه قشور عندما يرى ناسا مهتمين بحركات الصلاة كيف تقف وأين تضع يديك وكيف تسجد، يظن أن هذا لا علاقة له بجوهر الموضوع جوهر الصلاة، والحقيقة بأن له علاقة لأن كما قلت إن هنالك علاقة بين هذه الصورة الظاهرة والأحوال الباطنة.

بل نحن نعلم الآن شيء ما كان يعترف الناس به قبل مدة هو أن الأحوال الباطنة تؤدي حتى إلى أمراض ظاهرة، فكيف بالأشياء التي لها علاقة بالدين والمسائل الروحية وغير ذلك.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

* * *

التربية الدينية أو الإرشاد الديني

ندوة عن التربية الدينية أوالإرشاد الديني في الرياض شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس والدكتور أحمد العسال رحمه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، أما بعد:

فإن الإرشاد الديني بحسب التصور الإسلامي هو في الحقيقة إرشاد لكل نواحي الحياة، فالدين الإسلامي كما تعلمون تصوره للدين لا يقصر الدين على ناحية أو جزء من نواحي الحياة، فماذا نعني عندما نقول التربية الدينة أو الإرشاد الديني أظن أن للتربية غايتين؛ الغاية الأولى غاية داخلية وهي تنمية الفضائل في الإنسان، بحيث يصير إنساناً حقيقياً ولا يتحول إلى حيوان، وغاية ممكن أن نقول إنها خارجية وهي التي تُعد هذا الإنسان ليكون كما يقولون عضواً صالحاً في المجتمع مواطناً صالحاً وهكذا. وكلا الأمرين يمكن أن يحدث فيهما نوع من الغلو فإذا غلونا في الإعداد الخارجي حولنا الإنسان إلى مجرد وسيلة لغاية، وأصبحت الغاية هي المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتصبح الغاية من التعليم كله هي أن يُعد الناس لهذه المؤسسات، فأصبح الفرد وسيلة كسائر الوسائل الطبيعية مثل البترول، فكما أنك تخطط لزيادة في الإنتاج من هنا وزيادة الإنتاج من هناك تخطط أيضاً لزيادة الإنتاج البشري المناسب للإعلام للاقتصاد للسياسة لكذا، فإذا غلونا في هذه الناحية أصبح كما قلت أصبح الإنسان وسيلة ولم يعد غاية، وهذه هي التهمة التي تتهم بها الدول التي يسمونها الجماعية، وإذا غلونا أيضاً من ناحية أخرى ولم نهتم إلا بما يصلح قلب الإنسان ونفسه وروحه يمكن أن يؤدي هذا أيضاً إلى عزل الإنسان عن المجتمع، وإذا ساد هذا التوجيه أو هذا الاتجاه في مجتمع من المجتمعات سيضعف بعد قليل، ستضعف مؤسساته يضعف إنتاجه الاقتصادي تضعف قوته العسكرية، وكذا وفي النهاية تضعف الناحية الروحية أيضاً لأن ضعف هذه يغري الفاسدين بأن يكونوا هم المسيطرين عليها فإذا سيطروا عليها أثروا في تربية الأفراد وضعفت الناحية الروحية فإذاً لابد من توازن بين الأمرين نعد الإنسان ليكون إنساناً حقيقياً ونعده أيضاً ليكون

مواطناً نافعاً مؤثراً في المجتمع، أريد أن أركز بعض الشيء على الناحية الأولى كيف نعد الإنسان ليكون إنساناً صالحاً؟ هذا يعتمد على تصورنا للإنسان. يقولون إن لكل نظرية سياسية أو تربوية تصوراً للإنسان إن قاله الكتاب أو لم يقله، وهناك تصور يفترضه، فالتصورات منها ما يعتبر هذا الإنسان ولداً شريراً، ونحن نريد إذاً أن نزيح هذا الشر ونغرس فيه الفضائل فالفضائل كأنها شيء جديد يأتيه من الخارج أو نقول إن هذا الإنسان محايد لا هو شرير ولا هو خير، لكن عنده استعداد إلى أن يكون شريراً أو يكون خيراً، أو نقول إن الإنسان يولد خيراً وفي رأيي أن هذا هو التصور الإسلامي قال ﷺ: **(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)** فأنتم تلاحظون أن الرسول ﷺ لم يقل يؤسلمانه، قال يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه لأن الفطرة هي الإسلام، والإسلام خير ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فالإنسان إذا بحسب التصور الإنساني يولد خيراً ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، ثم بعد ذلك ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]، لكنها تولد سوية هذا التصور للإنسان هو الذي يحدد لنا الوسائل والطرق التي نسلكها لتربية الشباب والأطفال وإرشادهم، فإذا كنا نعتبر الإنسان خيراً فإذاً كل ما نأتي به من خير فسنعتبر أن له أصلاً في نفسه نحن لا نأتيه بشيء جديد غريب عليه، فإذا كان هذا تصورنا فسنقول إننا إذا كلما عرضنا الإنسان لما يناسب هذه الفطرة إذا احتفظ بفطرته سليمة طبعاً كلما كان هنالك تجاوب بينه وبين هذا الذي رآه أو جربه أعني أننا لن نحتاج إلى أن نقنعه به، لن نحتاج إلى أن نغرسه في نفسه لأن أصله هنالك في النفس البشرية، أعود مرة أخرى كيف نصلح الإنسان؟ كيف نوجهه لكي يكون إنساناً صالحاً؟ الناس متفقون على أن أصل الصلاح هو في تصورات الإنسان؛ لأن كما كان يقول علماؤنا العلم إمام العلم، فالإنسان يتصرف في الحياة بحسب تصوراته، فإذا تغيرت تصورات الإنسان وتغيرت اعتقاداته تغيرت بالتالي تصرفاته وتغير سلوكه، فما هو التصور الذي يصلح الإنسان، تسمعون الناس أحياناً يقولون كيف يفعل فلان كذا وهو إنسان مثقف، هذا العمل لا يليق بإنسان مثقف ماهي الثقافة لنفرض أن إنسان قرأ التاريخ، أو تعمق في الجغرافيا أو

درس الفيزياء، أو درس الفلسفة أيضاً أو علم النفس، هل تظنون أن هذا وحده يدفعه لأن يكون صادقاً لأن يكون أميناً؟ ما أظن. فإذاً يعني مجرد حشو الذهن للمعلومات ليس هذا هو المهم وإنما المهم أن نبحث عن تلك الحقائق التي إذا استقرت في نفس الإنسان أثرت في سلوكه، فما كل حقيقة يعرفها الإنسان تؤثر في سلوكه فتجعله حميداً أو دنيئاً هذه من المشكلات التي واجهت الاشتراكيين كانوا يقولون إن صلاح الإنسان لا يعتمد على التصورات وإنما يعتمد على الظروف الخارجية الرأسمالية هي التي أفسدت الناس، فإذا أردنا أن نصلح الناس فما علينا إلا أن نغير هذا النظام الرأسمالي، ونأتي بنظام اشتراكي، فإذا جاء النظام الاشتراكي صلح الناس، وجاء النظام الاشتراكي واستمرخمسين عاماً والناس يسرقون والناس يكذبون والناس يدمنون، ويزداد إدمانهم وكذا، فقالوا بعد ذلك إذا الناحية الاقتصادية وحدها لا تكفي لابد من ثقافة اشتراكية تتناسب مع المؤسسات الاشتراكية لكن ماهي الثقافة الاشتراكية التي تجعل الإنسان صادقاً وأميناً وكذا، لا شيء فالحقائق التي إذا استقرت في نفس الإنسان غيرت سلوكه وجعلته سلوكاً خيراً هي الحقائق التي يركز عليها القرآن الكريم، الإنسان خلقه الله تعالى موحداً: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فالتوحيد في أصل الإنسان، فإذا جاءه الدين من الخارج من الرسول ﷺ فيقول هذا كما قيل في تفسير الآية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، قال الزيت هنا هو الفطرة، فبعض الناس تكاد فطرتهم تعرف الوحي قبل أن ينزل يكاد زيتها يضيء ولولم تمسسه نار نور على نور، نور الوحي إلى نور الفطرة فإذا جاءه هذا الهدى من الخالق ناسب ما عنده، وهذا الذي يكون إنسانيته، الإنسان مفطور على الخير مفطور على التوحيد مفطور على حب الصدق والأمانة، كراهية الكذب كراهية الظلم، كل إنسان سواءً كان أمريكياً أو روسياً فطره الله هكذا فهذه

الأخلاق لا تأتي للإنسان من الخارج، وإنما بذورها وجذورها في النفس البشرية فطره الله على حب الجمال والنظافة لا تحتاج إلى أن تقنع الطفل أن العفونة شيء سيئ لا تحتاج إلى ذلك، لا تحتاج إذا أخذت إنساناً لحديقة فيها أزهار ومياه لا تحتاج إلى أن تقول له افهم أن هذا شيء جميل، فهذا شيء فطره الله عليه، كذلك إذا رأى المحسن إلى الناس عرف بفطرته أن هذا شيء حسن فيأتي الدين ليقوي هذه الفطرة فاذاً الدين إنما جاء ليجعل الإنسان إنسانا حقيقياً يتناسب واقعه مع فطرته فإذا لم يسلك سبيل الدين تحول إلى حيوان.. ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، تحول إلى حيوان، فإذا الحقائق التي ركز عليها القرآن الكريم هي الحقائق المناسبة مع إصلاح الإنسان أولها التوحيد.

والتوحيد الأن هذه الحقائق الإسلامية تزاحمها جهالات وخرافات، فالتوحيد تزاحمه الآن عقائد خرافية منتشرة في العالم الإسلامي فلا بد من تحصين الشباب من ضد هذه الخرافات يبين له الحق ثم يحصن ضد هذه الأباطيل، وتزاحمها أيضاً الفسفات المادية والإلحادية التي تأتي أحياناً ساخرة في شكل الفكر الشيوعي لكنها تأتي مختفية في كثير من العلوم التي يدرسها الطالب، وقد لا يلتفت إليها حتى الأستاذ لكنها تسري في الطالب سريان السم من غير أن يشعر بذلك، فلابد أيضاً من تحصين الشباب ضد هذه الأفكار التي يسمونها بالأفكار الهدامة والتحصين يكون كما قلت بمعرفة العقيدة الصحيحة، وبمعرفة الردود العقلية الفكرية على هذه الأباطيل قال أحد العلماء المسلمين من لم يجادل أهل الباطل حتى يقمع باطلهم لم يكن أوفى الإسلام حقه، وأن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية إنه عندما بدأ غريباً كانت الدعوة إليه إلى أصوله ودعوة للحجج العقلية والحسية، فكذلك إذا صار غريباً مرة أخرى فينبغي أن يدعى إليه بنفس الطريقة حتى بين المسلمين لا سيما الشباب الذين يتعرضون للفكر والثقافة الغربية، ثم الخُلق كما قلت الخلق الإنسان إذا كانت فطرته سوية يكفي أن يراه في الإنسان يكفي أن يقال له لهذا يأتي في القرآن الكريم كثيراً بصيغة الأسئلة الاستنكارية يعني أن هذا شيء

معروف مثلاً.. ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، شيء معروف.. ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، هذا شيء لا يليق بالله تعالى، فكل هذه الأشياء ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، يعني أن هذه كان يكفي فيها العقل لكن الخلق أيضاً تزاحمه أشياء أخرى تزاحمه أخلاق فاسدة تأتي في صور مغرية تأتي في شكل فنون قصائد قصص مسرحيات مسلسلات وهكذا وتعرض على الإنسان نماذج من الخُلق الهابط والخلق السيئ فهذا يزاحم ذاك كما قال ﷺ: **(فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)**؛ لأن الإنسان إذا كان مولود على الفطرة ليس بمعنى ذلك أن هذه الفطرة ستقاوم كل شيء لا يمكن أن تضعف، ثم العبادة الإنسان إذا تصور تصوراً صحيحاً قاده هذا التصور إلى الخلق الحسن ثم احتاج إلى العبادة لأن العبادة هي بمثابة الغذاء لذلك التصور ولهذا الخُلق، لأن الإيمان كما لابد أن يكون حياً والإيمان لا يكون حياً بمجرد التصديق وبمجرد القراءة ولكن يكون حياً حين يُعبر عنه في العبادة لأن لب العبادة هو الشكر لله تعالى، فالعبادة نفسها هي في الحقيقة نوع من الخُلق الفاضل هي تعبير عن الشكر لله تعالى، وهذه العبادة أيضاً العبادة الصحيحة تزاحمها الآن في العالم الإسلامي بدع وخرافات لابد أيضاً أن يحصن الشباب ضدها، هذا بالنسبة كما قلت للتصورات، لابد للشاب من أن يوثق صلته بالقرآن الكريم؛ لأن القرآن يركز على الأشياء التي تصلح الإنسان يذكره دائماً بالموت كثير من الناس قد لا يتذكرون الموت أبداً بل لا يحبون أن يتذكروه؛ لأن تذكره يظنون أنه ينغص عليهم حياتهم لكن تذكر الموت، الموت حقيقة لكن الإنسان يحتاج إلى أن يتذكرها وكلما تذكرها كلما كان هذا أحسن له ويساعده على أن يكون إنساناً فاضلاً، ثم في المقدمة لابد من أن نعرض الشباب للأشياء التي تتناسب مع فطرتهم، مثلاً تكلم شخص عن القضايا الكبيرة والقضايا السامية وهكذا الإنسان المفطور على الخير يحب الأشياء

السامقة ويكره الأشياء الهابطة لكن إذا لم يجد إلى الهابطة صادفت قلباً خالياً فتمكنت، فأنت إذا أردت أن تنقذه من الأشياء الهابطة فلابد أن تعرض عليه الأشياء السامية إذا لم ترده أن يشتغل بقضايا تافهة فأعرض عليه هذه القضايا التي ثم لابد أيضاً أن نعرضه للفكر القوي في الحجج القوية لأن الإنسان كلما تعرض للفكر القوي والحجج القوية كلما ازدادت ونمت هذه المَلَكة عنده أصلها في الإنسان، الأصول العقلية في الإنسان، لكنها تنمو بأن يعرض الإنسان نفسه للفكر القوي ويفكر فيه ويقرأه، لابد أيضاً من أن يتعرض الإنسان نفسه للفن الرفيع، ولابد أن يتعرض للترويح البريء إذا لم يجد فنا رفيعا ذهب إلى الفن الهابط، إذا لم يجد ترويحا بريئاً ذهب إلى الترويح السيئ لابد له أيضاً من الرياضة، وأن تكون هذه الرياضة في حدود ما ينفعه ولا تتحول هي نفسها إلى أيدلوجية وإلى فكر وإلى شيء مزاحم للدين وإنما يكون الغرض منها محدود الغرض منه صحة بدن الإنسان، وهي نوع أيضاً من الترويح، أهم من هذا كله أن يتعرض الإنسان للقدوة الصالحة، الإنسان قد يقرأ عن قيام الليل ولكنه إذا بات مع إنسان في بيته وراءه يصحو في الليل ويصلي هذا يؤثر أكثر فيه من القراءة وهذه القدوة الصالحة تكون عن طريقين تكون عن طريق الاتصال بالصالحين الموجودين في الحياة، وتكون بالاتصال بالصالحين الماضين عن طريق الكتب، ويقولون إن الإمام أحمد كان يشجع الناس على قراءة سير الصالحين لاسيما سيرة عمر بن عبدالعزيز من الذين جاءوا من بعد أصحاب رسول الله ﷺ فقراءة سيرة الرسول ﷺ وسير الصحابة وسير العلماء يعني كل أنواع المفكرين والصالحين من المسلمين من اشتهر بالعبادة تعرف عنه أنه شيئاً من أشتهر بالفكر من اشتهر بالعلوم ومعرفة وتحليلات الأشياء الدنيوية، وهكذا يعرف الإنسان سيرتهم هذا من أكثر الأشياء التي تؤثر في نفوس الشباب، وكل هذا من الدين، وكل هذا إرشاد ديني فارجو ألا نكون قد خرجنا من موضوعنا. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

التعريف بالإسلام وبيان حقيقته

محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الجامع الكبير في الرياض، وعلق عليها سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإن الموضوع الذي طلب مني أن أتحدث عنه هو كما ترون موضوع مهم؛ لأن الإنسان في الأمور التي تتعلق بحاله في وقت من الأوقات ينبغي له أن تكون في ذهنه صورة متكاملة لهذا الدين وإلا ما عرف بعض تفاصيله، وكل إنسان منا ما من إنسان منا يستطيع أن يعرف تفاصيل الدين كله، إلا إذا استثنينا الرسول الذي أُنزل عليه هذا الدين، فأقول إن الإسلام يأتي بمعان فهو بالمعنى العام جداً بمعنى الخضوع والاستسلام والطاعة والانقياد لمشيئة الله تعالى وقدرته وخلقه هو بهذا المعنى كما تفضل الأخ الذي قدم المحاضرة هو بهذا المعنى دين المخلوقات كلها، فكل مخلوق بهذه الدنيا مسلم لله سبحانه وتعالى قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وأفضل المخلوقات هي تلك التي تؤمن تخضع وتستسلم لله طوعاً بعد أن عرفت أنه لابد لها من الاستسلام لله طوعاً أوكرهاً، وإذا كانت المخلوقات كلها مسلمة لله بهذا المعنى فهي أيضاً قانتة له وساجدة له ومسبحة له، هذه الألفاظ الأربعة الإسلام والقنوت والسجود والتسبيح وصف الله سبحانه وتعالى بها المخلوقات كلها قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، **هذا في السجود**، وقال بالتسبيح: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، فسر بعض الناس التسبيح الوارد في مثل هذه الآيات والقنوت والسجود فسروه بمعنى أنها تسير وفق إرادة الله سبحانه وتعالى وبحسب سننه، وهم يريدون بهذا أن يقولوا إنه ما دامت الأشجار والأنهار

والدواب وكذا لا تعقل فإنها لا تستطيع أن تعبد الله سبحانه وتعالى، أو تستسلم له أو تسبحه، وهذا المعنى ليس بصحيح، هي طبعاً خاضعه لله سبحانه وتعالى كما قلنا الإسلام بالمعنى العام كل مخلوق خاضع لله سبحانه وتعالى شاءَ أم أبى، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمنا أن هذه المخلوقات لها تسبيح لا نفقهه نحن وأما كونها تسير بحسب سنن الله فهذا أمر نعرفه بل إننا نعرف كثيراً من القوانين والسنن التي تسير عليها المخلوقات فليس المقصود إذاً مجرد سيرها بحسب سنن الله تعالى، وإنما المقصود أن لها نوعاً من العبادة والتسبيح، وفي القنوت قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٦-١١٧]، هذا هو الإسلام بأعم المعاني والإسلام بمعنى أخص من هذا بمعنى إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبودية، وبمعنى التحلي بمكارم الأخلاق، الإسلام بهذا المعنى هو دين الأنبياء جميعاً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: **(أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد)**، فكل نبي له شرع يختلف عن شرع النبي الآخر، ولكن الدين أصل الدين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعبادة الله سبحانه وتعالى والصدق والأمانة وسائر محاسن الأخلاق هذه جاء بها الأنبياء كلهم، فهي الدين، وأما الشرائع فتختلف بحسب اختلاف أحوال الناس؛ لأن الله سبحانه وتعالى يشرع لكل أُناس ما يلائمهم، بل إن الشريعة الواحدة كشريعة نبينا ﷺ إن الدين الذي جاء به نبينا ﷺ اختلفت بعض شرائعه ففي البداية كانت الشريعة أن يصلي الناس إلى بيت المقدس ثم نسخ هذا فجعل إلى البيت الحرام فشرائع الأنبياء متعددة ولكن الدين الذي جاؤوا به جميعاً دين واحد، والإسلام بمعنى أخص من هذا هو الدين الذي جاء به نبيا محمد ﷺ، فالدين الذي جاء به نبينا محمد ﷺ يشمل تلك المعاني كلها، ويزيد عليها أنه الدين الكامل في كل شيء في العقائد وفي العبادات وفي الشرائع وفي الأخلاق، هذا الدين هذا الإسلام الذي قلنا إنه دين الكون أو المخلوقات كلها ودين الأنبياء كلهم ودين نبينا محمد ﷺ هذا الدين هو دين الفطرة، هو الدين الذي وضع الله سبحانه وتعالى

أساسه وبذرته في قلب كل إنسان بغض النظر عن الزمان الذي يعيش فيه، والمكان الذي ولد فيه، وبغض النظر عن جنسه ولونه ولغته، فالرسول ﷺ يقول: **(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه)** ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، فإذا سئلنا ما هي حقيقة الإنسان التي إذا حققها صار إنساناً وإذا لم يحققها كان شيئاً منسوخاً كالحيوان أو أقل من الحيوان ماهي؟ نقول إنها العبودية لله سبحانه وتعالى؛ لأن هذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهذا الجواب الذي يستطيعه كل طفل من أطفال المسلمين إذا قيل لها ما حقيقتك أو ماهي فطرتك ما هو أهم شيء ينبغي عليك أن تفعله لقال عبادة الله. هذا الجواب السهل على الإنسان المسلم بفضل رسالة نبينا محمد ﷺ سؤال أتعب الفلاسفة والمفكرين الذين لم يهتدوا بهدى الله سبحانه وتعالى، فما أكثر المقالات والكتب التي كُتبت في محاولة الإجابة عن هذا السؤال ما هي حقيقة الإنسان، فبعضهم قال إن الذي يميز الإنسان هو استعماله للآلات بعضهم قال كونه مخلوقاً ناطقاً بعضهم قال إن له عقلاً بعضهم كالوجوديين وبعض الشيوعيين قال لا حقيقة له هو يولد ومعه عقله وإرادته وكذا، ثم هو الذي يقرر حقيقته، فكل إنسان حقيقته في يده هو الذي يصنع نفسه بحسب ما يريد، لكننا نقول إن الإنسان له حقيقة أو له فطرة له أصل، والمطلوب منه أن يحقق هذه الفطرة وأن يكملها وأن يعترف بها وأن يسير وفق مقتضياتها إذا فعل هذا كان إنساناً، فالإنسان كلما عبد الله سبحانه وتعالى كلما ارتقى في سلم الإنسانية يعني العبودية لله هي رقي بالإنسان وكلما تمرد على الله سبحانه وتعالى ونسي الله سبحانه وتعالى كلما انحط قدره فصار أقل من الحيوان، الله سبحانه وتعالى مَنّ على الناس بنعم كثيرة ولكن أكبر نعمه على الناس هي نعمة الهداية، فالله سبحانه وتعالى تفضل فجعل بذرة هذه الهداية في القلوب هذه الفطرة التي تحدثنا عنها، ولكن الإنسان إذا ترك لفطرته وعقله وتفكيره لا يستطيع أن يصل إلى الدين الحق، فلذلك تفضل الله سبحانه وتعالى فأنعم عليه نعمة أخرى بإرسال الأنبياء لتكميل هذه الفطرة وتوضيح تفاصيل الدين الذي وضع الله سبحانه وتعالى أساسه في هذه الفطرة؛ لأن الإنسان كما قلت إذا ترك لنفسه حتى لو كان

إنساناً مخلصاً حتى لو كان سائراً مع فطرته لا يستطيع أن يعرف كل أسماء الله وصفاته بل ربما أخطأ في ذلك، وربما نسب إلى الله سبحانه وتعالى عن حسن قصد شيئاً لا يليق بالله سبحانه وتعالى، فهذا أول ما جاءت الأنبياء لتوضيحه، الأنبياء يدعون الناس إلى توحيد الله سبحانه وتعالى توحيد الله في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، ثم إن الإنسان مهما كان مخلصاً كما قلنا، ومهما كان سائراً مع فطرته إذا ترك لنفسه لا يعرف حتى إذا أراد أن يعبد الله سبحانه وتعالى، لا يعرف ما هي الوسيلة التي يعبد بها الله سبحانه وتعالى قد يكون خاضعاً في قلبه ولكن الخضوع القلبي وحده لا يكفي، الإنسان يريد أن يعبر عن هذا الخضوع بشيء يعمله ما هو هذا الشيء؟ إذا ترك لنفسه لا يستطيع وعندنا أمثله كثيرة لأناس هداهم الله للإسلام فحكوا لنا حكايات في هذا الموضوع منها ما حكاه الأستاذ حميد الله أحد إخواننا الباكستانيين الذي يعيش الآن في فرنسا قال إن إحدى الراهبات حدثته علمها كيف تصلي أظنها أسلمت علمها كيف تصلي فعندما صلت وسجدت جاءت وقالت له إنها كانت تشعر قبل ذلك بالعبودية لله ولكنها لم تكن تدري كيف تعبر عن هذا الشعور، ولم تشعر طوال حياتها ورغم انقطاعها للعبادة أنها خضعت لله وذلت لله إلا بعد أن سجدت، وكذلك قال لي بعض إخواننا الأمريكان الذين هداهم الله سبحانه وتعالى للإسلام كانوا مسلمين اسما ينتمون إلى جماعة أليجا محمد، فكانوا يصلون ويعبدون عبادات اخترعوها من عند أنفسهم فعندما هداهم الله سبحانه وتعالى وعلمناهم الصلاة جاء أحد أئمتهم كان يأُمهم وكان مقدما فيهم ولكنه لم يكن يصلي ولا يعرف الصلاة، فعندما علمناه الصلاة وكيف يركع وكيف يسجد وكيف كذا جاء من صباح الغد وألقى محاضرة بكى فيها وأبكى الناس عن الصلاة فقط، وقال نفس الكلام التي قالته هذه الراهبة إنه ما شعر أبداً في خضوعه لله سبحانه وتعالى وعبادته له إلا بعد أن سجد، فانتم أيها الإخوة في نعمة كبيرة كلما سجدتم لله سبحانه وتعالى تذكروا أن هذه من أكبر نعم الله سبحانه وتعالى عليكم، وتقرؤون في الدين أن أقرب ما يكون الإنسان من ربه وهو ساجد، فلو تركنا لعقولنا لما فكرنا في هذا السجود ربما فكرنا بأشياء أخرى لا تعبر عن هذا الخضوع الذي فطرنا الله سبحانه وتعالى عليه وكذلك بالنسبة للمآكل والمشارب والتصرفات مهما كان الإنسان مخلصاً ومهما كان سائراً

مع فطرته إذا ترك لعقله وتفكيره لكي يقرر ماذا يأخذ وماذا يدع وكيف يتصرف بحيث يكون أكله وشرابه وتصرفاته مرضية لله سبحانه وتعالى ومتناسبةً مع فطرته التي فطره الله سبحانه وتعالى عليها لما استطاع ربما شرب الخمر، فأبعدته عن الله سبحانه وتعالى ربما أكل الخنزير ربما أسرف في الأكل ربما عامل الناس بطريقة لا تليق، فالله سبحانه وتعالى تفضل فهدانا إلى الإيمان بتفاصيله وإلى العبادة الحقه وإلى التصرفات والمآكل والمشارب التي تتناسب مع فطرتنا هذا كما قلت والذي جاء به الأنبياء جميعاً نخلص الآن أيضا في صورة موجزه هذا الدين الذي جاءنا به الرسول ﷺ فهذا الدين ككل الأديان بذرته في قلوبنا فإذا مثلناه بشجرة نقول إن قلوبنا هي الأرض، وإن الفطرة هي هذه البذرة التي وضعها الله سبحانه وتعالى في هذه الأرض، وإن الجذور التي تخرج من هذه البذرة هي الإيمان بالله سبحانه وتعالى الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، أركان الإيمان هذه هي الأساس فكما أن الشجرة لا تصلح بغير بذرة وبغير أرض وبغير جذور فكذلك لا دين بغير قلب وبغير بذرة من الفطرة وبغير جذور التي هي امتداد لهذه البذرة التي وضعها الله سبحانه وتعالى في القلب، ولكن هذه البذرة لكي تنمو محتاجة إلى ماء محتاجة إلى شيء يغذيها، والغذاء هو العبادات فديننا لا يقول لنا آمنوا بالله فقط كما يقول الناس عن الفلاسفة إن دينهم دين فكري فقط يقول إن الله موجود أو إن الله واحد لكن ليس هذا هو المقصود فقط، وإنما المقصود أن يكون هذا إيماناً أن يكون إيماناً حياً لأن الإيمان الحي هو الإيمان الذي ينفع الإيمان الذي ينتج عنه العمل الصالح كما أن البذرة ينتج عنها الساق والفروع والثمار فلكي يظل إيماننا هذا حياً فلابد من ذكر الله تعالى، وذكر الله سبحانه وتعالى يكون بالذكر باللسان كما نقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ويكون بالعبادة فالعبادة ذكر ويكون بالزكاة والزكاة ذكر لله تعالى ويكون بالحج فكل هذه وسائل أو طرق نعبر بها عن شكرنا لله سبحانه وتعالى فنذكره فيظل إيماننا به سبحانه وتعالى حي وخطورة إهمال العبادات أنها قد تؤدي إلى ذهاب الإيمان لأننا قلنا إن العبادات وذكر الله سبحانه وتعالى هو بمثابة الماء الذي يغذي شجرة الإيمان فإذا طال على الإنسان الأمد ولم يذكر الله سبحانه وتعالى فإن إيمانه نفسه قد يذهب لأن الإيمان لا يكفي مجرد الإقرار أن

يقول الإنسان بلسانه إن الله موجود أو إن الله واحد أو إن الأدلة على وجود الله ووحدانيته هي كذا وكذا وكذا لا هذا الإيمان يحتاج إلى حراسة لأن هنالك شياطين من الإنس والجن تجتال الإنسان عن دينه فلا بد من هذه العبادة لكننا نعيش في مجتمع يعني لو كنا أفراداً لو كان كل واحد منا يعيش فرداً ربما كفاه الإيمان والعبادة حتى الزكاة لا يكون لها مكان لكننا نعيش في المجتمع وإذا لا بد لنا من أن يكون تنظيمنا الاجتماعي متناسباً مع إيماننا ومع عبادتنا هذه أيضاً أهمية التنظيم الاجتماعي ما يسمى الآن بالتنظيم الاجتماعي، يعني ماذا نأخذ من أغنيائنا لنعطي فقراءنا كيف يكون نظامنا السياسي كيف يكون نظامنا الاجتماعي ما هي حقوق جيراننا علينا ماهي حقوق الدول الأخرى علينا كيف ننجب أطفالنا ماهي العلاقة بين الرجل والمرأة وهكذا فالناس عندما يكونون مجتمعاً يحتاجون إلى كل هذا فإذا لم يكن لهم دين اخترعوا شرائع لأنفسهم من عند أنفسهم وتخبطوا فيها مرة يحرمون وأخرى يحللون ما حرموا ثم يعودون فيحرمون كما يفعل الآن الإنجليز ألغوا عقوبة الإعدام عن القاتل ثم ظهر لهم أن هنالك مشاكل كثيرة تنتج عن هذا فهم الآن يفكرون في العودة إلى تقرير هذه العقوبة وهكذا فالله سبحانه وتعالى وضع لنا تشريعاً ننظم به حياتنا الاجتماعية ويمكن أن نقول إن لب هذه التشريع هو أن ينظم حياتنا بحيث تعيننا على ذكر الله وبحيث تقل الفتن والمعوقات عن ذكر الله سبحانه وتعالى، يعني إن المقصود من التنظيم الاجتماعي أن ييسر لنا عبادة الله سبحانه وتعالى، وأنتم كما تعرفون من تجربتكم في هذا البلد أن مجرد إقامة حدود الله سبحانه وتعالى تأتي للناس بالأمن فإذا أمن الناس ساعدهم هذا على عبادة الله سبحانه وتعالى؛ لأن الإنسان إذا كان مشغولا طول الوقت بحراسة نفسه والتفكير في اللصوص والمجرمين وكذا وكذا يكون مشغول البال فهذا هو ما يساعده على عبادة الله، جاءنا في تشريع الزكاة أن الإنسان إذا كان فقيراً أيضاً هذا الفقر قد يشغله عن عبادة الله سبحانه وتعالى، كذلك نظم لنا طريقة الزواج كيف نتزوج وكيف نربي أولادنا وكيف نطلق وكيف وكيف لأننا إذا لم ننظم حياتنا بطريقة تجلب لنا الأمن والسعادة فإن هذا أيضا قد يشغلنا عن ذكر الله سبحانه وتعالى، فإذاً المقصود من هذه التنظيمات كلها يعني بعض المقصود منها أن تساعدنا على عبادة الله، الآن عندنا عقيدة وعندنا عبادات

وعندنا تنظيم اجتماعي بقي لنا أمر آخر وهو أن حولنا أعداء إذا لم ندافع عن هذا الدين ولم ندافع عن هذا المجتمع الذي نظمناه وفق شريعة الله سبحانه وتعالى فإن هؤلاء الأعداء يهجمون علينا ويضيع كل ما كسبنا فلذلك شرع الله سبحانه وتعالى لنا الجهاد فإذا أنتم ترون أن شرائع الإسلام هذه كلها مرتبطة، مرتبط بعضها ببعض ومتناسقة لا يمكن أبدا أن يحل شيء منها محل شيء آخر، ولا يمكن أن نستغني عن شيء منها بشيء نخترعه من أنفسنا، فلابد من عقيدة التوحيد ولابد من الخلق ولا بد من العبادة ولابد من التشريعات الاجتماعية ولابد من الجهاد للدفاع عن هذا الدين، ثم إن المسلمين الملتزمين بهذا الدين أمة واحدة ينبغي أن يكونوا بالتعبير الحديث من الناحية السياسية أمة واحدة أيضا يعني أن يكون لهم حاكم واحد خليفة للمسلمين جميعاً، وأن يكونوا متحدين، يكون لهم جيش واحد، تكون لهم سياسة خارجية واحدة، يكون هنالك تكافل بينهم، فإذا كان عند هؤلاء علماء يتفضلون بهم أو بعضهم على من ليس عندهم علماء إذا كان عند هؤلاء مال يتفضلون به على الدولة التي ليس لها مال، إذا كان عند هؤلاء مهرة مختصون في بعض الصناعات وكذا وأولئك ليس عندهم هكذا المسلون أمة واحدة فهم كالأسرة الواحدة يعين بعضهم بعضا ماذا نفعل ماذا تكون النتيجة؟ إذا حققنا هذا الدين بهذه الطريقة النتائج باهظة وكثيرة جداً، منها أن كل فرد منا يحيا حياة طيبة، كل إنسان إذا آمن بالله سبحانه وتعالى كلما قوي إيمانه وحسنت عبادته وأخلص دينه لله سبحانه وتعالى، كلما كانت حياته طيبة بغض النظر عن الظروف الخارجية التي تحيط به، هذا بالنسبة للأفراد، وأما بالنسبة للأمة فإذا آمنت الأمة كلها وطبقت شرع الله سبحانه وتعالى فإن الله سبحانه وتعالى ينعم عليها بالخير المادي إلى جانب هذا الخير الروحي والقلبي ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ (المائدة: ٦٦)، فالخير المادي أيضاً هو نتيجة الالتزام بهذا الدين، وهذا لا يعني أن كل من أنعم الله سبحانه وتعالى عليهم فقد أنعم عليهم لأنه راضٍ عنهم يعني العكس ليس بصحيح، إذا آمنت الأمة جميعاً أو قل معظمها بقدر استمساكها بالدين إن شاء الله يفيض الله عليها من الخيرات، ولكن العكس ليس صحيحاً يعني ما كل

أمة أفاض الله سبحانه وتعالى عليها من الخيرات المادية فمعنى ذلك راضٍ عنها لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فالنعم قد تكون في بعض الأحيان مجرد امتحان وقد تكون مقدمة للهلاك لأن الأمة التي تكفر بنعم الله سبحانه وتعالى قد يمتحنها الله سبحانه وتعالى أولاً بأن يمسك عنها بعض هذه النعم فإذا هي تذكرت ورجعت رجع إليها النعم وإذا هي تمادت ولم ترجع فإن الله سبحانه وتعالى قد يفتح عليها بنعم جديدة أكبر من النعم التي كانت من قبل، ولكن هذه النعم الأخيرة تكون مقدمةً لهلاكهم فإذاً العكس ليس صحيحاً، وأما الثمرة الكبرى فهي رضى الله سبحانه وتعالى وجزاؤه في الآخرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، هذا هو الجزاء، وهذه هي الثمرة التي ما بعدها ثمرة.

أقول كلمات بسيطة في المقارنة بين هذا الدين وما نعرف الآن من أديان ومذاهب يمكن أن نقسم ما في العالم الآن ما يسمى بالأيدولوجيات يعني المذاهب والملل والنحل التي ينتمي إليها الناس لنقسمها أولاً إلى نوعين، نوع ينكر وجود الخالق ونوع يقر بالخالق، فالإسلام مع النوع الذي يقر بالخالق لأن إنكاره للخالق أمر يأباه العقل. يقول القرآن الكريم: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

يقول الذي ينكر وجود الخالق من أين جئت خلقت من غير شيء خلقك هكذا من فراغ لا يمكن، العقل يقول لا مستحيل أم هم الخالقون أم أنت خلقت نفسك، هذا مستحيل إذاً لا بد لك من خالق فإذاً نترك هؤلاء المنكرين لوجود الخالق كالشيوعيين والملحدين وبعض الأفراد من الغربيين، نأتي للذين يقرون بالخالق نجد هؤلاء أيضا قسمين قسم يخترع ديناً من عنده كالبوذيين وقسم يقول دينه هذا من عند الله فنحن مع الذين يقولون إن دينهم هذا من عند الله؛ لأنه لا فائدة من دين يخترعه الإنسان لأن المقصود أن يعبد الله بحسب ما يرضى الله سبحانه وتعالى فإذا جئنا لهؤلاء الذين يقول إن دينهم من عند الله وجدنا فضلنا بحمد الله وسبحانه علينا فأولاً نجد أن دعواهم

ليس عندهم عليها دليل نجد عندهم كتب يقولون إنها من عند الله، ولكن ليس عندهم دليل على أن كل ما في هذه الكتب هو مما جاء به عيسى رسول الله أو موسى رسول الله ونحن عندنا من الأدلة التاريخية ما يثبت أن ما عندنا من قرآن وسنة هو الذي جاء به محمد ﷺ، ثم إن لب الدين هو الإيمان بالله نجد أن أديانهم فيها من الشرك ما يعرفه الطفل من أطفال المسلمين فهي كتب متناقضة، تقول مرة إن الله على كل شيء قدير، وتقول مرة إنه لا يستطيع أن يفعل كذا وكذا تقول مرة إنه خالق كل شيء وتقول مرة إن فلان ابن الله كيف يكون خالقاً لكل شيء ويكون فلان ابنه لأنه إذا كان فلان ابناً له فهو لم يخلقه؛ يعني الإنسان لا يخلق الشيء لا يخلق ابنه، الإنسان المنصف يكفيه أن يقارن بين القرآن وبين هذه الكتب في أمرين اثنين فقط وهما الكلام عن الله والكلام عن رسل الله. إذا قرأت القرآن الكريم لا تملك إلا أن تشعر بأن هذا الذي يحدثك هو الله سبحانه وتعالى؛ لأنك لا تجد في كتاب غير القرآن من صفات الكمال والجلال لله سبحانه وتعالى ما تجده في القرآن الكريم كل الكتب الأخرى سواء كانت من اختراع الفلاسفة أو مما ينسبه النصارى واليهود إلى أنبيائهم وهم بريؤون منهم كل هذه الكتب لا تصف الله سبحانه وتعالى بصفات الكمال التي نجدها في القرآن الكريم، فيكفي فقط أن نقارن هذه الكتب بالقرآن الكريم في هذه الناحية لنقول إن القرآن كلام الله وإنها ليست كلام الله سبحانه وتعالى، والناحية الثانية أن نقارن بين ما تقول هذه الكتب عن أنبياء الله وبين ما يقوله القرآن عن أنبياء الله فنجد فيها غلواً في ناحية وتفريطاً في ناحية النصارى؛ غلوا فرفعوا نبي الله عيسى إلى مرتبة الألوهية، واليهود فرطوا فنسبوا إلى أنبياء في كتبهم الذي يعتبرونها أنها كتب مقدسة نسبوا إليهم من الجرائم ما لا تنسبه إلا إلى فئة ضالة شاذة من البشر؛ يعني حتى لا ينسب إلى المجرمين العاديين، ولكننا نجد في القرآن الكريم يقول لنا من ناحية إن هؤلاء الأنبياء جميعاً بشر جميعهم عبيد الله، ونجده من الناحية الأخرى يقول لنا إنهم مصطفون وأخيار، وأنهم معصومون وأنهم أحسن البشر وسادة البشر، وهذا هو الذي يليق بالله سبحانه وتعالى. كيف تقول إن الله يعلم كل شيء ثم تقول إنه عجز على أن يختار من هؤلاء البشر رجالا صالحين يحملهم رسالته؟ كيف

يليق بالله سبحانه وتعالى أن يختار أناساً يكذبون ويزنون ويغشون؟ كيف يختار هؤلاء ليكونوا رسله إلى الناس فإذا قارنا ديننا بهذه الأديان في هاتين المسألتين فقط لبرز لنا فضله على هذه الأديان.

موضوعنا الأخير هو أن هذا الدين كما وصفناه وبينا فضله على كل ما عند الناس الآن من مذاهب ونحل وأديان، هذا الدين -مع الأسف- مظلومون الآن من المنتسبين إليه فهم لم يوفوه حقه، ففي ناحية العبادة فرطوا فيه، هذا الدين كما قلنا إن أصله هو توحيد الله سبحانه وتعالى في ذاته وأسمائه وصفاته، لكن المسلمين اليوم وقعوا في أنواع من الشرك عوامهم وقعوا في الشرك المعروف الذي وقع فيه الناس من قبلهم أن يعتقدوا في الأولياء أو في الأموات أو في الأشجار الأنهار أو في السحرة أو في كذا وكذا أو في الأشياء التي جاء هذا الدين بالنهي عنها، وعن أن يشرك الإنسان هذه الأشياء بالله سبحانه وتعالى، وأما حكامهم فقد وقعوا أيضاً في نوع آخر من الشرك وهو أن كثيرين منهم ظنوا أن من حقهم أن يشرعوا للناس ونحن نعلم أن حق التشريع إنما هو لله سبحانه وتعالى فلا ينبغي للناس أن يقولوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام، ولكن الناس الآن أيضا في العالم الإسلامي وقعوا في هذا، فهم إما الحاكم بمفرده أو برلمانه أو مجلس شعبه يجتمع ويقرر أن هذا الأمر كذا، وأن هذا الأمر ليس كذا ولا يلتفت إلى ما جاء في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ فإذا أعطى الناس أنفسهم هذا الحق رأوا أن من حقهم أن يشرعوا فهذا نوع من الشرك وفي العبادات أيضاً ضل الناس عن الطريق القويم؛ فخلطوا عباداتهم بكثير من البدع، والإنسان ليس من شأنه أن يحزن ويبكي على هذه الأمور، ولكن نذكر أنفسنا بهذه لكي نعمل عملاً إيجابياً.

ينبغي على كل منا أن يحاول بقدر ما يستطيع وبقدر ما في وسعه أن يعمل لإعلاء كلمة الله، يعمل لإعلاء كلمة الله يبدأ في نفسه ويصحح عقيدته ويصلح عبادته ويصلح أخلاقه، ويتزود من معرفة هذا الدين بقدر ما يستطيع، ثم يجاهد لإعلاء كلمة الله بدعوة الناس إلى الله سبحانه وتعالى في المجال الذي يستطيعه، بعضنا يستطيع أن يدعو في مجال العقيدة، بعضنا له موهبة على أن يذكر الناس بالله سبحانه وتعالى

ويصحح عباداتهم، بعضنا عنده مقدرة على أن يتكلم في المسائل السياسية، وأن يدعو الناس إلى الحكم بما أنزل الله، وبعضنا يستطيع أن يحمل السلاح ويجاهد في سبيل الله.

المهم أن كل منا أن يعمل كل ما في وسعه، ربما يستطيع واحد منا أن يجمع بين كل هذه الأشياء، فهذا من فضل الله سبحانه وتعالى، ولكن ينبغي أن لا نتنازع، وإلا نفسد أعمال بعضنا، كل إنسان يدعو إلى خير أو يعمل خيراً فهو في مصلحتنا وفي مصلحة ديننا، وهو أخ لنا ينبغي أن نشجعه، وإن كنا لا نستطيع أن نعمل العمل الذي وهب نفسه له، ولكننا نستطيع أن نعمل عملاً آخر هو أيضا عمل خير، إذا فعلنا هذا بإذن الله سبحانه وتعالى فإنا نرى نحن الآن نرى في العالم كله وفي العالم الإسلامي كما قلنا في ندوة تشرفت بأن كنت بها مع شيخنا الشيخ عبدالعزيز بن باز عن الصحوة الإسلامية كما قلنا في تلك الندوة عن أن هنالك الآن مبشرات كثيرة في العالم تجعلنا نأمل في أن الناس سيرجعون إلى هذا الدين، وأن هذا الدين سيظهر بإذن الله سبحانه وتعالى، وسينتشر حتى في البلاد غير الإسلامية، وسيعود في البلاد الإسلامية، ولكن هذه ينبغي أن لا تكون مجرد أمانٍ، بل ينبغي على كل منا أن يعمل ما في وسعه لكي يتحقق هذا الأمر.. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

* * *

الدعوى بأن لله ولدا

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، ثم أما بعد :

آيتنا في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

والقضية مهمة جداً هي الدعوى بأن لله ولداً، كنا ونحن في البلاد الغربية نحتج على النصارى بحجج عقلية نقول لهم إذا كنتم تؤمنون بأن الله خالق كل شيء فيلزمكم أن تقولوا إنه لا يمكن أن يكون له ولد؛ لأنه إذا كان خالقاً لكل شيء فالوالد لا يخلق ولده، فالولد هذا من أين جاء إذا قلتم إنه ولده يعني أن الله يلد كما يلد البشر سبحانه وتعالى، فهذا الولد يجب أن يكون قد خلقه خالق آخر غير الله سبحانه وتعالى، فإذاً إما أن تقولوا إن الله خالق كل شيء فيلزمكم أن تقولوا لا ولد له، وإما أن تقولوا إن له ولداً فيلزمكم أن تقولوا إن هنالك خالقاً غير الله سبحانه وتعالى، هذا ملخص الحجة التي كنا نقولها، ثم إن بعضهم، تعلمون أن بعض النصارى مختصون بالبحث عن الشبهات، وكذا التي يردون بها على المسلمين، وبعضهم متخصصون باللغة العربية ويقرأون القرآن الكريم، فأثاروا على بعض المسلمين شبهة قالوا لهم إنكم تقولون إنه يستحيل على الله أن يتخذ ولداً، لكن هذه الآية تقول: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فكأن الخلاف بيننا وبينكم أيها المسلمون ليس هو في مبدأ اتخاذ الله ولداً، وإنما هو من هو هذا الولد الآية تقول لاصطفى مما يخلق ما يشاء يعني معناها كما ورد في بعض التفاسير ليس يلزم أن يكون عيسى ولا أن يكون كما قالت العرب الملائكة بنات الله، فاحتجوا على المسلمين بهذا ثم رجعنا إلى التفاسير فلم نجد في كثير منها ما يشفي الغليل.

وأضرب لكم مثلاً في بعض التفاسير، التفاسير الكبيرة والعظيمة التي يرجع إليها الناس مثلاً صاحب الجلالين يفسر هذه الآية يقول: «لو أراد الله أن يتخذ ولداً كما قالوا لاتخذ الله ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء واتخذه ولداً غير من قالوا أظنهم

الملائكة أو عُزير أو المسيح تنزيهاً له سبحانه وتعالى عن اتخاذ الولد، فهذه تؤكد شبهة النصارى يعني كأن الجلالين يقول لو أراد أن يتخذ ولداً لكان ولد غير هذا الذي قاله النصارى».

حتى ابن كثير المفسر العظيم الإمام العظيم يقول: «ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعموا جهلة المشركين في الملائكة والمعاندون من اليهود والنصارى في العُزير وعيسى، فقال تعالى لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء أي كان الأمر على خلاف ما يزعمون ثم قال وهذا شرطه لا يلزم وقوعه ولا جوازه».

يعني الآية تقول لو أراد أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء، وابن كثير يقول هذا شرطه لا يلزم وقوعه ولا جوازه بل هو محال، ويجوز عقلاً يعني تعليق الشرط على المستحيل، أما الذي فسر الآية يشفي الغليل فعلاً هو المفسر العظيم ابن عطية فقال: «لو أراد أن يتخذ ولداً معناه اتخاذ التشريف والتبني».

أكرر هذا الكلام ليس لاتخاذ يعني ولداً في الحقيقة لو أراد أن يتخذ ولداً اتخاذ التشريف والتبني، وعلى هذا يستقيم قوله: ﴿لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ لأنه إذا كان ولداً مولوداً فلا مجال للكلام اصطفى مما يخلق لأنه إذا كان مصطفى مما خلق الله فلا يكون ولداً حقيقياً هذا معنى كلام ابن عطية، وأما اتخاذ المعهود للتولد فمستحيل أن يتوهم في جهة الله سبحانه وتعالى، ولا يستقيم عليه معنى قوله لاصطفى لأنه لا يمكن أن تقول إنه ولده، وإنه اصطفاه، لا يستقيم الكلام لا يستقيم مع قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]، لفظ يعم اتخاذ النسل واتخاذ الاصطفاء أكرر هذين اللفظين اتخاذ النسل هو الذي نفاه الله في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، يعني لا يمكن أن يكون له ولد حقيقي، وأما اتخاذ الاصطفاء فهو هكذا:

الأول: مستحيل كما قلنا.

والثاني: ليس مستحيلاً عقلاً أن الله يخلق ثم يصطفي مما خلق بعض مخلوقاته ويقول إن هذا ابن لي.

فكما قال ابن عطية:

«**الأول:** مستحيل عقلاً.

والثاني: معروف بخبر الشرع أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون».

ومما يدل على أن المعنى هنا الاصطفاء والتبني قوله سبحانه وتعالى مما يخلق كما قلته أنا أي من موجوداته ومحدثاته ثم نزه الله سبحانه وتعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما لا يكون مدحاً يعني الله سبحانه وتعالى منزه عن أن يكون له ولد سواءً أن كان ولداً بالاصطفاء كما في هذه الآية، أو كان ولداً بالنسل، ومما يدل على صحة كلام ابن عطية أن عبارة: (اتخذ ولداً) جاءت فعلاً في القرآن الكريم في ولد الاصطفاء مثلاً قوله سبحانه: ﴿**قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا**﴾ [القصص: ٩]، وظاهر هنا أنه ليس ولد النسل؛ لأنه كان موجوداً، وقوله سبحانه وتعالى على لسان الذي اشترى يوسف قوله لأمراته: ﴿**أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا**﴾ [يوسف: ٢١].

ومسألة أن لله ولداً هذه العقيدة هي من أكبر المشكلات حتى الآن عند النصارى، والإنسان يعرف الحكمة في أن الله سبحانه وتعالى جعل هذه هي المسألة الأولى هي التي يتكلم عنها، بالنسبة للنصارى عندهم انحرافات كثيرة لكن المسألة التي ركز عليها كتاب الله سبحانه وتعالى هي هذه المسألة، فكثير من النصارى يتركون دينهم بسبب هذه المسألة، يعني هم يرون بعقولهم أنه لا يمكن أن يكون الله خالقاً وأن يكون له ولد في الوقت نفسه، وكثير من الذين أسلموا قالوا لنا إن من أهم أسباب إسلامهم أنهم عندما وجدوا أن القرآن الكريم ينفي نفياً باتاً أن يكون لله سبحانه وتعالى ولد فهذه العقيدة السليمة الصافية التي تنزه الله سبحانه وتعالى عن اتخاذ الولد هي التي جذبتهم إلى هذا الدين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم..

* * *

السؤال عن أصل الخلقة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، ثم أما بعد :

آيتنا في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[الروم: ٣٠]، هذه الآية في سورة الروم القضية المتعلقة بهذه الآية هي السؤال عن أصل الخِلقة هل الإنسان في أصله شرير، أم أنه خُلق محايداً بين الخير والشر، أو أنه في أصله خيّر، وبكل من هذه الأقوال قال بعض الناس من المسلمين ومن غير المسلمين ففرقة من النصارى تقول إنه يولد شريراً لأنه يولد وارثاً لخطيئة آدم، فالشر جزء من خِلقته وبعض المسلمين أو حتى من بعض علماء المسلمين قالوا إن الإنسان شرير، واستدلوا على ذلك بآيات مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾ [المعارج: ١٩-٢١]، والذين قالوا إن الإنسان يولد محايداً استدلوا بآيات مثل قوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ [الشمس: ٧-٨]، فاعتبروا أن الإنسان يولد وقد أُلهم هذا الطريق وهذا الطريق فإن شاء اختار طريق الفجور وإن شاء اختار طريق التقوى، ولكن الحقيقة هي أن الإنسان يولد خيّراً وهذا هو التي تدل عليه هذه الآية الكريمة؛ لأن الآية تقول إن هذا الدين والدين خير ما في جدل ما في ذلك شك، وأن هذا الدين هو فطرة الله التي فطر الناس عليها من أحسن من رأيته علق على هذه الآية تعليقاً يتناسب مع هذا المعنى الذي قلناه هو الإمام ابن كثير فقال رحمه الله: «ومعناه أنه يعني الله سبحانه وتعالى ساوى بين خلقه جمعياً في الفطرة على الجبلة المستقيمه لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك يعني كل الناس حين يولدون بغض النظر عن كون آبائهم مسلمين أو نصارى أو يهود أو شيوعيين أو كذا هو حين يولد يولد على الفطرة المستقيمة، ولا تفاوت بين الناس في ذلك»، واستدل أيضاً بالحديث الذي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**كل مولود يولد على الفطر فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**) انظر ما قال يجعلانه مسلماً إنما قال فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، فكأن التهويد والتنصير و التمجيس هو انحراف عن هذه الفطرة، وكما جاء في صحيح مسلم كما قال ابن كثير عن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حُنفاء فجاءتهم الشياطين**

فاجتالتهم عن دينهم)، هذا معناه أن الإنسان إذا ترك على فطرته ولم يتدخل فيها شيء من الخارج سواء كان من المجتمع أو من الأبويين أو من الشياطين أنه إذا ترك على فطرته فإنه يكون إنساناً موحداً لا يشرك بالله شيئاً، فكل انحراف يحصل له هو بسبب هذه العوامل الخارجية، وأنا في رأيي أن هذا هو الأمر الذي يتناسب مع حكمة الله سبحانه وتعالى وعدله لأن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يخلق الناس شريرين ثم يقول لهم كونوا خيرين، لا يمكن أن يخلقهم محايدين بين الخير والشر ثم يقول لهم كونوا خيرين؛ لأنه لكي يختار ويميز بين الخير والشر لابد أن يكون له معيار، وهذا المعيار لا بد أن يكون في فطرته، وهذا المعيار لا بد أن يكون هو الخير الذي فطره الله سبحانه وتعالى عليه، لكن هنالك نصوص فهم منها بعض الناس أو حتى بعض العلماء فهماً لا يتناسب مع هذا الذي قلناه منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٢-٣]، فهم بعض الناس من الآية أن الناس منذ أن يخلقهم الله تعالى يخلقهم بعضهم كافر وبعضهم مؤمن، يعني كأن هذا في أصل خلقة الإنسان هؤلاء يولدون كفاراً وهؤلاء يولدون مسلمين، وهذا ليس هو التفسير الصحيح كما ذكر ابن كثير أيضاً وهو يعلق على آية أخرى في كتاب الله، قال: إن هذا في ثاني الحال تدبر العبارة هذه (ثاني الحال) يعني فمنكم كافر ومنكم مؤمن هذا في ثاني الحال، أول الحال أنهم على الفطرة بعد أن يولدوا على الفطرة ينقسمون وبعضهم يستمر على هذه الفطرة التي فطره الله عليها فيكون مؤمناً، وبعضهم ينحرف عنها فيكون كافراً، وأثناء قراءتي للآية في الأيام الأخيرة وأنا أعد لهذا البرنامج لاحظت أن الآية التي بعدها تؤكد هذا المعنى؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فقلت في نفسي إن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يخلق أجسادنا في أحسن صورة، ولكن لا يخلق أرواحنا في مثل هذه الصورة الحسنة، فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق أجسادنا في أحسن صورة فمن باب أولى أن يخلق قلوبنا وأرواحنا أيضا في أحسن صورة. قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، فهذا هنا فسر ابن كثير الآية بالكلمات التي قلتها لكم وهي أن هذا في ثاني الحال..

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

القرآن الكريم كلام الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً..

ثم أما بعد:

الآية التي نتكلم عنها في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فكأن هذه الآية تعطي الناس دليلاً عقلياً على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من عند الله، يعني كأنها تقول لهم إذا أردتم أن تعرفوا بعقولكم أن هذا القرآن هو كلام الله وليس كلام أحد من البشر فتدبروه وستجدون أنه لا اختلاف فيه والاختلاف معروف أن يقول القائل كلاماً في مكان ثم ينقضه أو يقول كلاماً مختلفاً عنه في مكان آخر.

والسبب هذا النوع من الاختلاف والتناقض هو أن البشر ليسوا كاملين؛ الإنسان يقول كلاماً ثم ينسى ما قال فيقول كلاماً مختلفاً عن الذي قاله، أو يقول كلاماً يناقضه ويكون جاهلاً بأن ما قاله الآن يتناقض مع ما قاله بالأمس أو قبل شهر أو كذا وكل هذا لا يتناسب مع الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء، والله سبحانه وتعالى لا ينسى فلا يمكن أن يكون في كلامه نوع من التناقض.

وأنا فكرت في هذه الآية منذ سنين طويلة ووجدت أن مما يجعل الناس يتناقضون ثلاثة أشياء أولها المدة التي يقال فيها الكلام إذا كان الكلام في مدة قصيرة طلب مني أن اتحدث في خمس دقائق أو كذا يمكن أن أنتبه جداً ولا أتناقض فيما أقول إذا قيل لي أن أتحدث لمدة ساعة زاد احتمال الاختلاف والتناقض إذا زاد عن هذا فقيل لي كما في هذه الحلقات الآن تكلم اليوم لمدة نصف ساعة ثم تكلم بعد أسبوع لمدة نصف ساعة ثم تكلم كذا لمدة سنة كاملة، فإذا ما راجعت كلامي سأجد أنني حتى لو لم ينبهني شخص آخر أنا نفسي سأجد أنني قلت كلاماً ناقضت نفسي، والقرآن

الكريم نزل كما هو معلوم في مدة طويلة ثلاث وعشرون سنة ينزل تدريجياً كل مرة تنزل آية أو آيات أو آية أو آيات في مدة ثلاث وعشرين سنة، ومع هذا ليس فيه تناقض وهذا أمر يستحيل على البشر أن يتكلم الإنسان أو يكتب أو كذا لمدة تزيد عن العشرين سنة ثم لا يكون في كلامه تناقض.

المسألة الثانية التي يزيد معها احتمال الاختلاف والتناقض هي تعدد الموضوعات، فإذا ما حصر الإنسان نفسه في فرع من فروع العلم قل الاقتصاد مثلاً رجل مختص في الاقتصاد ولكنه مختص في جزئية من الاقتصاد فهو يحصر نفسه فيها ويتكلم فيها ولا يتعدى هذا إلى موضوع آخر، فاحتمال أن يقع في التناقض أقل مما لو أنه تكلم في مسائل الاقتصاد كلها، أو أنه أضاف إلى الحديث في الاقتصاد حديثاً في السياسة وحديثاً في الاجتماع وحديثاً في التاريخ وكذا كلما زادت الموضوعات زاد احتمال أن يقع في التناقض، والقرآن الكريم متعدد الموضوعات ليس على وجه الأرض كتاب فيه من الموضوعات ما في كتاب الله سبحانه وتعالى؛ فهو كتاب يدعو إلى العقيدة الصحيحة وكتاب عن الأخلاق وكتاب يتحدث عن العبادات كيف تعبد الله سبحانه وتعالى، ويحدث الناس في مسائل التشريع الخاصة والعامة مسائل الزواج والطلاق وكذا، ومسائل الحرب والسلم، ويتحدث عن السنن الاجتماعية ويتحدث عن التاريخ فليس على وجه الأرض كتاب فيه هذا الكم من الموضوعات مثل ما في كتاب الله سبحانه وتعالى، ومع هذا لا تجد فيه تناقضاً وهذا لا يمكن أن يكون كتاب مثل هذا إلا من عند الله سبحانه وتعالى.

و في القرآن الكريم ما يدل على أن القرآن يمتاز بشيء أكثر من هذا ليس فقط أنه لا تناقض فيه بل هو كتاب يشبه بعضه بعضا، كتاب كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

المقصود بالمتشابه هنا أنه كما روى ابن كثير عن ابن عباس يشبه بعضه بعضاً، ويرد بعضه على بعض؛ أي أن الكلام يمكن أن يكون غير متناقض والكلام لا

علاقة له ببعض؛ فيمكن أن أتكلم في موضوع وأتكلم في موضوع آخر لا علاقة له بالموضوع الأول وكذا ولا يكون في كلامي تناقض.

لكن القرآن فيه شيء أكثر من هذا؛ القرآن آياته يشبه بعضها بعضاً؛ بمعنى أنه كله رساله واحدة، فالآيات كلها هي تعبير عن هذه الرسالة الواحدة، فهذا شيء أكبر من كونه ليس فيه تناقض، ودراسات الناس للنظريات البشرية تدل دلالة قاطعة على أن هذا الأمر لا يمكن أن تتصف به نظرية بشرية ولا سيما النظريات التي تسمى بالنظريات العامة التي تحاول أن تضع للناس منهجاً يسيرون عليه في حياتهم كالنظرية الماركسية، فالنظرية الماركسية فيها كلام في الفلسفة، وفيها كلام في الاقتصاد، وفيها كلام في السياسة.

ولكن بعد الدراسة وجد أن كلامها في الاقتصاد -وهو القصد من الاشتراكية- هو أن تؤدي إلى تحرير الناس من العبودية لرأس المال النظام السياسي التي أدت إليه الماركسية كان نظاماً من أكثر النظم التي فيها عبودية.

فإذا حصل هنالك تناقض بمعنى عدم اتساق فيما تدعو إليه الرأسمالية ربما لم يكن هذا قد خطر على بال ماركس أو من بعده من النظار في هذه النظرية، وحتى النظرية الديمقراطية الشائعة الآن والتي تسمى بالنظرية الديمقراطية الليبرالية أيضاً فيها تناقض.

فالديمقراطية تقول إن الحكم للشعب، وتجعل الشعب في المكان التي يضع فيه المؤمن الله سبحانه وتعالى، فالشعب هو الذي يحكم هو الذي يشرع، فالسلطة التشريعية العليا عند الشعب هذه الديمقراطية لكن الليبرالية تقول إن هنالك أشياء هي من حق الناس، ولا يجوز حتى للأغلبية أن تتعدى عليها، فالليبرالية في هذا تتناقض مع الديمقراطية.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم..

* * *

المسلمون في الغرب

ندوة شارك فيها الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الخامس لجمعية القرآن والسنة في أمريكا الشمالية ١٤١٢ مع كل من عبد الله إدريس وعلي التميمي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلام الإخوان لا يشجع الإنسان على أن يتكلم عن الدعوة فيبدو أننا بدل أن ندعو الناس إلى الإسلام نحن الآن نعطيهم بعض المسلمين، فبدلاً من أن يدخل الناس في الإسلام الذي يحدث في أمريكا هو أن يخرج آلاف من أبناء المسلمين من دين الإسلام ولكن المسلم مهما كانت المشكلات لا ييأس ولا ينوح ولا يحزن وإنما يعد كل هذا مجالاً له للعمل لمحاولة إعلاء كلمة الله في هذه البلاد، ولذلك كنت أريد من الأخ المقدم أن يجعل من الاستثناءات المهمة في زيارة بلاد الكفار والمُكث فيها، المجيء للدعوة، فقد قال كثير من العلماء إن هذا من أبواب الجهاد، بل قال أظن شيخ الإسلام ابن تيمية إن الإنسان يعني إذا وفقه الله تعالى هذا معنى كلامه للذهاب إلى بلاد الكفار للدعوة، فليفعل هذا حتى لو كان هذا على حساب بعض الخير الذي كان يفعله في بلاد المسلمين مثلاً في بلاد المسلمين يحضر صلوات الجماعة لا يرى المنكرات هذه، ولكن إذا جاء على الغرب ما وجود هذه الفرصة، وتعرض لرؤية المنكر لكن قال أرجو أن يكون الأجر الذي يناله بسبب المكث في مثل هذه البلاد والدعوة أرجو أن يكون أجره أكبر مما لو مكث في بلد، فحتى الذين جاءوا منا للعيش أو للدراسة ممكن أن يغيروا نيتهم الآن، وأن يجعلوا همهم الأكبر هو العمل لإعلاء كلمة الله فبذلك يتحولون إلى مجاهدين إن شاء الله.

مسألة واحدة فقط أريد أن أركز عليها في مسألة الدعوة وهي مسألة تشغلني من زمن طويل وكلمت فيها كثيراً من إخواننا، وهي أنني أعتقد أننا لم نقوم بواجبنا تماماً في عرض الإسلام عرض علمياً يعني يسجد له إن أمكن أن نقول جبابرة الفكر الغربي ما زالت دعوتنا بين العوام وأشباه العوام من الغربيين بل ما زالت الكتب التي نكتبها هي كتب للمبتدئين والكتب الكبيرة التي تكتب عن الإسلام وفيها تفصيل سواء كانت في تاريخ الإسلام أو في مسائل العقائد أو في كذا هي الكتب التي كتبها

المستشرقون الذي يريد أن يكتب عن الإسلام، ويذهب للمكتبات يجد أن كتب المستشرقين هي المراجع الأساسية وهي من حيث الفن الأكاديمي هي الكتب التي تعتبر كتباً علمية، وأما كتب المسلمين فلم ترق إلى هذه الدرجة، ولذلك لا نخدع أنفسنا؛ الغربيون عندهم الإسلام ليس كما يظن كثير من إخواننا أنهم يعرفون أنه الحق ولكن يأبونه لأنه حق وكذا، وأنهم يخافون من العالم الإسلامي، كثير منهم يخافون من العالم الإسلامي على أساس أنه حركة مثل حركة البربرية يعني همها تحطيم الحضارة و كذا ولا يخافونه على أساس أنه دعوة تقوم على علم يتحداهم بل كثيرون منهم كانوا من الناحية الفكرية يحترمون الماركسية أكثر مما يحترمون الإسلام، ولذلك الماركسية تناقش في مدارسهم وفي جامعاتهم وبين مثقفيهم وكذا، لكن الإسلام ما كان يناقش أنا أرى أن هذا تقصير نحاول أو من كان بإمكانه أن يسد هذا النقص فليحاول هذا لابد أن نكتب كتابات ونخاطب خطاباً موجهاً إلى قادة الفكر لأمر ما كان الرسل عندما يبعثهم الله سبحانه وتعالى لا يخاطبون عوام الناس فقط، بل يذهب إلى فرعون ويكلمه ويذهب إلى الملك النمرود ويكلمه، والذين يجادلون الرسل كانوا هم الملأ ولم يكونوا من عوام الناس، فهذا الخطاب لقادة الفكر الذين يحترمهم أتباعهم، ويظنون أنهم على حق إذا خاطبناهم وتحديناهم وجعلناهم يعتقدون في دخيلة أنفسهم أن هذا الدين هو الحق نكون قد أدينا واجبنا سواء قبلوا أم لم يقبلوا. أحفظ كلمة لشيخ الإسلام ابن تيمية أظنها في بداية كتابه، موافقة صحيح المعقول لصحيح المنقول؛ قال من لم يجادل أهل الباطل حتى يقمع باطلهم لم يكن أوفى الإسلام حقه حتى يقمع باطلهم وهكذا كان الأنبياء. ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: ٣٢]، يعني تعبوا من كلامه وبعد هذا أيضاً جادلهم.. ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]، هذا شيء أراه ناقصاً في دعوتنا في بلاد الغرب بل إلى حدٍّ ما حتى في العالم الإسلامي كثير من العلمانيين في بلادنا لا يحترمون كثيراً من الخطاب الذي نخاطبهم به وأنا أرى أن هناك أمارات في الحضارة الغربية من الناحية الفكرية أمارات تبشر بأنه يمكن أن يقبلوا هذا الدين وأن يقبلوا هذا الحق على هذا المستوى الكبير إذا عُرض عليهم عرضاً يجذبهم ويقنعهم، كان

الغرب من الناحية الفكرية إلى عهد قريب يظن أن التطور العلمي قد قضى على مسألة وجود الخالق، الفيزياء القديمة كانت تعطي بعض المفكرين تعللا بأن هذا الكون قديم ولا يحتاج إلى خالق، الفيزياء الحديثة أبطلت هذا وقالت لهم إن هذا الكون له خالق، وأنا اطلعت على أكثر من عشرة كتب في السنين الأخيرة كتبها فيزيائيون يتكلمون عن وجود الخالق، وكلامهم عن وجود الخالق أحسن من كلام كثير من القساوسة فلو وجدوا كلاما للمسلمين في هذا المجال وحججاً للمسلمين ربما اقتنعوا، وإذا اقتنع بدليلك لا تقلل من شأن مسألة وجود الخالق أنا أعرف أن كثيراً من إخواننا المنتسبين إلى السلفية يقولون هذا توحيد الربوبية وهذه مسألة يعني والناس كلهم موحدون، وهذا ليس بصحيح يعني أن الناس كلهم مُسَلمون بتوحيد الربوبية بعالمنا هذا الآن لا يسلمون كفرهم أسوأ من كفر العرب وتوحيد الربوبية هو أساس لتوحيد الألوهية، فالذي تقنعه ربما بوجود الخالق وفي بعض أسمائه وكذا يقتنع بما تقوله بعد ذلك من توحيد الألوهية فحبذا لو اهتممنا بهذه القضية، عندهم قضية أخرى أن كبارهم الآن اقتنعوا وعلماءهم سواء كانوا من المتدينين أو من غيرهم اقتنعوا أن هذه الكتب التي تسمى مقدسة ليست كلام الله الذي يقول إنها كلام الله هم عوامهم هم الذين أو بعض الذين يسمون أنفسهم بالأصوليين، الأصولية كلمة محتقرة عندهم لأن كتبهم إذا أُخذت يعني إذا فسر الكلام الذي فيها كما تدل عليه اللغة وكما يدل عليه ظاهره ظاهر الكلام فهو كلام باطل ولذلك يحتاجون إلى أن يؤولوه ويقولون ليس ذلك المقصود حتى يكون موافقاً للواقع وللعقل، الأصولية عندهم شيء مذموم. وأيضاً أقول حتى في الأيام الأخيرة قرأت عن كتابين أو ثلاثة كُتبوا في هذا وهذه الكتب ليست كلام الله بل وليست كلام المسيح، فصار السؤال عندهم الآن: هل يعقل إن هذا الخالق لا يرسل للناس رسالة أين هذه الرسالة إذا كان هذا الكلام ليس كلامه لكن لأنهم يعتقدون بأن ليس هناك رسالة حقاً إلا هذه بالكتب التي يسمونها كتباً مقدسة يحتارون هذه الحيرة ويتلفتون فنحن من واجبنا أن ندخل هذه المعامع الفكرية ونوضح لهم، مشكلتهم الثالثة الكبيرة أن العلاقة بين العقل والدين هم يحترمون العقل ولهم حق في ذلك، ويعتقدون أن كل ما عندهم من منجزات علمية كانت بسبب هذا العقل فلا يقبلون أن تأتي نظرية أو أيدلوجية أو كذا أو كذا وتقول لهم كما تقول النصرانية إذا

جئتم إلى مسائل العقائد عطلوا العقل، فلو أننا عرضنا لهم هذا الدين وقلنا لهم إن ديننا بالعكس من ذلك يقول في مسائل العقيدة وأرجو إلا يعتبر كلامي شاذا يعني هذا كلام صحيح أكثر ما في القرآن من حجج عقلية هو في باب العقيدة؛ لأنك بالعقيدة تخاطب إنساناً لم يؤمن بوجود الخالق أو لم يؤمن بأنه هو الذي يستحق العبادة أو لم يؤمن بأن محمد رسول الله أو لم يؤمن بأن القرآن كلام الله، فهذا لا تستطيع أن تخاطبه بمجرد أن القرآن كلام الله وإنما لابد أن تخاطبه بشيء مشترك بينك وبينه، والمشترك بينك وبينه هو العقل، ولذلك القرآن أكثر ما فيه من حجج عقلية هي في مجال العقيدة، فإذا سلم الإنسان بأن هذا كلام الله بعد ذلك ما يحق له أن يجادل أو يماري، لذلك كثير من العلماء كانوا يذكروننا بأن القرآن لا يخاطب فقط من يسلِّم بأنه كلام الله وإنما يخاطب حتى من لا يعتقد أنه كلام الله لكي يقنعه بأنه كلام الله، فالأدلة على وجود الخالق وعلى ربوبيته وعلى ألوهيته أنه يستحق للعبادة وعلى أن محمد رسول الله وعلى أن هناك بعض وكذا وأنا أعرف فتاة عندما كنا طلاباً في بريطانيا أعرف فتاة أسلمت قالت لي إنها كانت تؤمن بالله وتركت النصرانية لكنها ما كانت تؤمن بالدار الآخرة فقرأت القرآن مترجماً وأعجبتها فيه الحجج القرآنية على البعث تذكرون الحجج أعجبتها هذه الحجج واقتنعت بها، فعندما اقتنعت بهذه الحجج آمنت ببقية القرآن وأسلمت وأحسبها الأن من النساء الصالحات وهي أستاذة كبيرة في نيجيريا، فما الواجب علينا نحن خصوصاً المنتسبين إلى منهج أهل السنة أو المنهج السني الواجب علينا أن نفعل ما فعل بعض إخواننا المنتسبين إلى هذا المنهج؛ يظنون أن مهمتهم فقط هي أن يقرؤوا تلك الكتب التي كتبها العلماء السابقون، وأن يشرحوها وأن يبينوا ما فيها للناس لكن هناك خطوة بعد هذا نقرأ كتاب الله، نقرأ سنة رسول الله، نقرأ هذه الكتب ثم نفعل في عصرنا ما فعل هؤلاء العلماء في عصورهم، نسلط كل هذا العلم على المشكلات سواءً كانت مشكلات في العقيدة أو في الاقتصاد أو في السياسة أو في كذا، نسلط هذا العلم على هذه المشكلات، ونخاطب الناس في عصرنا باللغة التي يفهمونها ونخاطبهم على قدر عقولهم، ونضرب لهم الأمثال التي تجذبهم، وبهذا نكون قد اتبعنا منهج أهل السنة والجماعة في الدعوة.

***

أهمية العقيدة وأثر الإعلام الغربي عليها

محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

عقيدة التوحيد هي جوهر الدين وأساسه، فالتأثير فيها سلبا أو إيجابا هو أخطر التأثيرات على دين المسلم. ولما كان الإعلام من أقوي المؤثرات إن لم يكن أقواها في عصرنا هذا على حياة الناس الفكرية والسلوكية، كان البحث في تأثير الإعلام الغربي على عقيدة المسلم المتعرض له، من أهم ما ينبغي أن ينشغل يه الباحثون. لذلك سرني أن يكون النظر فيه ضمن اهتمامات هذه المناسبة المباركة، وإن كنت أعلم أنني لن أستطيع أن أوفيه حقه. ولما كان البحث في هذا التأثير لا يتم إلا ببيان المكانة العظيمة التي تحتلها العقيدة في الهدي الإسلامي، وبالتالي في حياة المسلم الملتزم به، فقد كان من التوفيق أيضا أن يطلب من الناظر فيه البدء ببيان هذه المكانة العظيمة.

أهمية العقيدة:

أقول إذن مستعينا بالله ومبتدئاً حديثي هذا بسؤال: لماذا جعلت العقيدة أساس الدين وركنه الأول؟ ربما تبادر إلى أذهان بعض الناس ولا سيما أناس في عصرنا هذا الذي يرفع من قدر الظاهر المحسوس، أن الجدير بهذه المكانة هو الأعمال الصالحة الظاهرة كالإنفاق وحسن معاملة الناس والجهاد لرفع راية الدين؟ فلماذا جعلت لشيء باطني غير عملي؟ مع أننا إنما نقوم الناس بحركات جوارحهم لا بحركات قلوبهم وما يكمن في ضمائرهم؟

الجواب الموجز هو أن ما في الباطن مقدم على ما في الظاهر؛ لأنه هو أساسه ومصدره. فما من عمل ظاهري حسن كان أم سيئ إلا وله أساس باطني. هذه حقيقة يعلمها كل إنسان من نفسه، ولو كان يعلم ما في نفوس الآخرين كما يعلم نفسه لكان تقويمه لأعمالهم بأساسها الباطني هذا. تصور لو أن إنساناً أهدى إليك هدية قيمة، لكنك شاهدته في قلبه يقول لك: «ما أحقرك؛ والله إنك لا تستحقها ولا أقل منها، ولولا أني أطمع منك في أكثر منها لما أعطيتك إياها».

هذا علم غيبه الله عنا فلم يبق لنا إلا الحكم بالظاهر والاستدلال به أحيانا على ما في الباطن. أما الخالق سبحانه فإنه عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم خائنة الأعين وما

تخفي الصدور. ولهذا كان تقويمه سبحانه للناس بهذا الباطن الذي هو أساس الظاهر، إن أصل تكريم الباطن هو أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون الإنسان من عنصرين من مخلوقاته، عنصر الطين وعنصر الروح، فجعل المكون من الطين هو صورته المرئية، وجعل العنصر الروحي حقيقته الخفية. لكنه سبحانه جعل بين ظاهر الإنسان وباطنه صلة ونسباً. فالروح إنما تسكن في الجسد، وإنما تبدو تصرفاتها وتأثيراتها عليه وبوساطته؛ وربما كان هذا هو السر في أن بعض أعمال الروح تنسب إلى أعضاء جسدية لصلتها الخاصة بها. إن القلب الجسدي ليس هو الذي يعقل كما يحدثنا شيخ الإسلام ابن تيمية، وعليه فإن السلامة والمرض المنسوبتين إليه في الكتاب والسنة ليستا أحوالا جسدية كما هو المشاهد، وإنما هي أحوال روحية نسبت إلى ما يلائمها من الأعضاء الجسدية.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل الإنسان إنسانا بجوهره الروحي الداخلي الخفي لا بشكله الجسدي الخارجي. فالروح هي محل الإدراك والإيمان والتصورات والإرادات والمشاعر. والإنسان إنما يتحرك ويتصرف بما يعتقد، حقا كان أو باطلا، وبما يتصور واقعا كان أم وهما. وإذا كان الأمر كذلك كان ما يظهر لنا من صلاح الإنسان أو فساده السلوكي راجعاً بالضرورة إلى صلاح معتقداته وتصوراته أو فسادها. وإذن فالجانب الذي نسميه عمليا في حياة الإنسان والذي قد نخطئ فنظنه أهم جانبيه، إنما هو أثر وناتج عن جانبه الداخلي الذي قد نجنح إلى التقليل من أهميته فنصفه بالنظري أو المثالي. كلا. إنه لهو الجانب الفعال الذي يحدد مصير الإنسان والذي ينبغي لذلك أن تكون العناية به أكبر.

وكما جعل الله تعالى غذاء الجسد وبقاءه في بعض المطاعم والمشارب، وجعل مرضه أو موته في غيرها، فقد جعل غذاء الروح وبقاءها في بعض العلوم وجعل مرضها وموتها في حرمانها منها، وجعل حياته الروحية هي حياته الحقيقية، وموتها هو موته الحقيقي. والحقائق التي يمكن للإنسان أن يعلمها كثيرة، والعلوم النافعة كثيرة، لكن أشرف العلوم وأجلها نفعا هو العلم بالله ربا لا رب سواه وإلها لا معبود بحق إلا إياه. هذا هو العلم الذي لا تحيا القلوب إلا به، ولا يكون الإنسان مخلوقا كريما إلا بمعرفته، والاعتراف به، نعم الاعتراف، لأن هذا العلم لا يؤتي ثماره إلا إذا اختار من علمه أن

يعترف بما علم ويؤمن به. فالروح لا تحيا بالمعرفة وحدها بل لا بد أن تنضم إليها الإرادة، إرادة الإيمان. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]. فتأثير هذا العلم معتمد على قبوله أو رفضه لا على مجرد اكتسابه: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

فإذا ما عرف الإنسان ربه وآمن به تفجرت ينابيع الخير في قلبه ثم فاضت على جوارحه بمقدار علمه وقوة إيمانه. لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى كما جعل الروح جوهر الإنسان، فقد جعل الإيمان به منبع كل خير فيه. ولذلك كانت الدعوة إليه والتذكير به مفتاح كل دعوة إلى فكر قويم وسلوك مستقيم، وكانت الدواء الذي لا غناء عنه لكل أنواع الانحرافات السلوكية. ولذلك كانت البداية به في جهود الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لإصلاح المجتمعات التي بعثوا إليها. يدعو أحدهم قومه إلى إفراد الله تعالى بالعبودية ثم يدعوهم بعد ذلك إلى تفاصيل الشريعة وإلى ترك ما هم عليه من أنواع الانحرافات السلوكية، خلقية كانت أم اقتصادية أم سياسية أم اجتماعية، فالإيمان هو الذي يهيئ النفوس لعبادة الله وينشط الجوارح لها

وإذا حلت الهداية قلبا نشطت للعبادة الأعضاء

وهو الذي يهيئها لقبول تفاصيل الشريعة. قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: (لقد نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام. ولو نزل لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبدا. ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا. لقد نزل بمكة على محمد ﷺ، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده). [البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن].

وهو السبب الأساس لحل المشكلات الاقتصادية والسياسية والخلقية. أقول إنه الأساس ولا أقول إنه يغني عن التفاصيل التشريعية المبنية عليه، ولا عن الأسباب الطبيعية والاجتماعية التي جعلها الله أسبابا مؤثرة. وهو السبب الأساس لبقاء النعم المادية وزيادتها. والكفر والإخلال به هو السبب الأساس لنقصانها وزوالها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥-٢٦].

ثم: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

ثم: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢].

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

ثم: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٤-٨٦].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ

ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٦٦].

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٢-١٧٥].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [هود: ٩٦].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وأهم من هذا كله أن عقيدة التوحيد هي سبب السعادة النفسية.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، بل هو سبب السعادة الأبدية؛ لأنها هي السبب الأساس لدخول الجنة وللنجاة من النار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

تأثير الإعلام على العقيدة:

وسائل الإعلام ليست قاصرة ـ كما هو معروف ـ على الصحف والمجلات والراديو والتلفاز، بل تشمل الكتب العامة والسينما وربما المسرح، وتشمل الآن الشبكة العالمية (الإنترنت). لكنني أريد أن أضيف في هذا المقال إليها حتى الكتب المدرسية لعظم تأثيرها على الآلاف المؤلفة من أبناء المسلمين.

إذا استثنينا الإعلام الكنسي بكل وسائله ـ وهو إعلام لا يكاد يتعرض له المسلم ـ فربما استطعنا أن نقول إن الإعلام الغربي نادراً ما يتعرض للمسائل الدينية بطريقة مباشرة. فكيف يكون له إذن تأثير إيجابي أو سلبي على الدين؟ نعم إن له تأثيراً أيما

تأثير لأنه ليس من شرط التأثير أن يكون مباشراً، بل إن التأثير غير المباشر قد يكون أعظم من التأثير المباشر كما سنرى، وهو في غالبه تأثير سيئ، وإن كان لا يخلو من بعض التأثيرات الحسنة. ونعني بالتأثير غير المباشر هنا تلك المعتقدات العلمانية الإلحادية المادية الشائعة في الغرب والتي تفترض صحتها والتي تكمن لذلك وراء تفسيراتهم للحوادث الطبيعية والاجتماعية والنفسية، وإن كان لا يصرح بها إلا نادرا.

التأثير السلبي:

تأثيرات الإعلام الغربي السلبية على عقيدة المسلم كثيرة، نذكر منها فيما يلي بعض ما يحضرنا ونراه مهما:

أولا: من التأثيرات الشديدة الخفاء البالغة الضرر الاعتقاد السائد بين كثير من علماء الطبيعة والاجتماع، وبالتالي بين عامة المفكرين والصحفيين والمحللين في الغرب، أن التفسير العلمي للحوادث سواء كانت طبيعية أو اجتماعية هو ذلك التفسير القائم على افتراض أن هذا الكون مكتف بنفسه، وأن تفسير حوادثه ينبغي لذلك أن يكون من داخله، أعني أن الظواهر يجب أن تفسر بظواهر أخرى، وأن كل تفسير لشيء من حوادث الكون بإرجاعها إلي سبب خارج عنه هو تفسير خرافي غير علمي.

هذا هو المبدأ المفترض، لكنه لا يقرر بهذه الطريقة الصريحة التي ذكرتها، وإنما يفترض افتراضا، وقد يفترضه ويلتزم به حتى من لم يفكر فيه من العلماء الطبيعيين وسائر المفكرين، والصحافيين. من مظاهر افتراضهم له أنهم يقفون في تفسيرهم للحوادث عند أسبابها الدنيوية ظاهرة كانت أم خفية، ولا يتجاوزونها. وما ذلك للاعتقاد بأنها هي الأسباب الحقيقية الكافية. لكن المسلم مع اعتقاده بفاعلية الأسباب الطبيعية أو الاجتماعية أو النفسية، لا يقف عند حدودها، بل يذكر نفسه بأنها إنما صارت أسبابا بجعل الله لها أسبابا، وأن الفاعل الحقيقي إنما هو الخالق سبحانه.

قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله : أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: **(هي من قدر الله)**. [سنن الترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى والأدوية].

قلت إن هذا المبدأ الإلحادي قليلا ما يصرح به، وأقول إن التزامه في الواقع قد لا يبدو فيه ما يخالف عقيدة المسلم، ما دام المسلم معترفاً بتأثير الأسباب المخلوقة

وفاعليتها. لكن الأمر في الحقيقة ليس كذلك. إن المتلقي إذا كان لا يسمع لله ذكرا أبدا في كل ما يخبر به من حوادث طبيعية واجتماعية يوشك أن يتأثر بذلك المبدأ فينسى هو الآخر ذكر الله تعالى، وينحو نحو أصحابه في تفسيره للحوادث، فلا تكون له فيها عبرة.

المبدأ الغربي الثاني: الذي أراه أيضا ذا أثر سيئ، والذي أراه قد بدأ ينتشر حتى بين المسلمين في العالم الإسلامي بسبب التأثر بالثقافة الغربية التي تنقل عن طريق وسائل الإعلام، هو مبدأ النسبية. أعني نسبية الحقائق، والقيم. لقد أصبح من المسلمات عند كثير من الناس في الغرب أنه لا توجد حقيقة مطلقة، ولا قيمة مطلقة، وإنما الحقائق والقيم نسبية، أي إنها منسوبة وتابعة لزمانها أو مكانها أو الحضارة والثقافة التي ظهرت فيها، وهكذا. فما قاله الناس في العصر الفلاني، أو اعتقدوه في المكان الفلاني، أو رأوه حسنا في الحضارة الفلانية، كل هذا صحيح أو معقول بالنسبة لهم وإن كنا نراه نحن في ظروفنا أو زماننا أو حضارتنا على غير ما رأوه. وما دام الأمر كذلك فليس من حق أحد أن يقول إن فهمه لنص من النصوص هو الفهم الصحيح أو إن فهم خصمه خطأ. وأننا ينبغي لذلك أن نكون سلفيين في فهمنا للنصوص، فللسلف زمانهم ولنا زماننا، ولهم ظروفهم ولنا ظروفنا. بل قد رأيت بعضهم غلا في هذا الأمر حتى قال إن الرسول ﷺ لا يمكن أن يفسر القرآن لعصرنا لأنه لا يعرفه.

ثالثا : الاعتقاد في المفهوم السلبي للحرية. وإذا كان الاعتقادان السابقان مما يفترض ولا يذكر، فإن هذا مما يكثر ترداده والتصريح به، والدعوة إليه، والتفاخر به، في كل أجهزة الإعلام. وقد أثر لذلك في الناس تأثيراً بالغاً حتى صار من المسلمات حتي عند كثير من المسلمين. إن الحرية بمعنى أن الله تعالى أعطى الإنسان المقدرة على الاختيار كما أعطاه المقدرة على العمل، أمر لا شك فيه، بل ربما كان هو مما يتميز به الإنسان. وقد شاء الله تعالى أن يجعل الإنسان شائياً، ومسؤولا عن مشيئته، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. فالمنازعة ليست إذن في كون الإنسان ذا إرادة ومشيئة واختيار،

وإنما هي في الطريقة التي تستعمل بها هذه المشيئة أو الحرية التي منحها الله تعالى للإنسان. المفهوم السلبي للحرية يجعلها غاية في ذاتها، بمعنى أن كرامة الإنسان تزداد بازدياد استقلاله في اتخاذ قراره، أيا كان ذلك القرار. أي إن العبرة في الاختيار لا فيما يختار. وعليه فكلما مكن الإنسان من أن يفعل ما يشاء كان هذا أكرم له وأكثر تحقيقا لإنسانيته. هذا المفهوم السلبي للحرية مفهوم قديم وإن تزيا بزي حديث. إنه المفهوم المرتبط بالاستكبار والكفر. وهو المفهوم الذي لجأ إليه قوم شعيب في احتجاجهم على أمره لهم بعبادة الله وعدم الظلم في المعاملات المالية. ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هود: ٨٧]، وهو المفهوم الذي ذمه الله تعالى في قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، أي لا يؤمر ولا ينهى. فالإسلام يعلمنا أن كرامة الإنسان لا تتحقق بمجرد الاختيار، لأن هلكة الإنسان قد تكون فيما يختار. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وإنما تتحقق باختياره للحق وللخير، ولما يختار له ربه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

رابعا: في الإعلام الغربي هجوم على المسلمين ولا سيما العرب، هجوم قال عنه الأستاذ إدوارد سعيد إنه من النوع الذي لم يعد مقبولاً في الغرب حين يوجه لليهود أو السود أو الآسيويين أو الأفارقة. يتهم العرب بعدم الأصالة وبالمحافظة وبعدم المقدرة على التحضر، وبالإرهاب، بل وبالتواكل وبالقذارة، ثم يقال إن سبب هذا كله هو الإسلام. هذا كلام يبدو لأمثالنا سخيفاً لا يستحق حتى أن يرد عليه، لكن ينبغي أن لا نقلل من تأثيره على شاب في مقتبل عمره، ولد في بلد غربي وترعرع فيه. عندما ظهر كتاب (الآيات الشيطانية) طلب مني إخواننا في مجلة Impact أن أكتب نقداً له. فعندما قرأته قلت لهم كلاماً فحواه أنه كتاب سخيف ثقيل ما أظن أحداً سيكمل قراءته، فأرى

لذلك أن لا تهتموا به، بل اتركوه ليموت. لا زلت أذكر ردهم. قالوا إن الكاتب معروف في أوساط الشباب ذوي الأصول الهندية الباكستانية، وأنهم قارئوه لا محالة.

خامسا: يكثر في الإعلام الغربي الحديث عن الدين بطريقة هازلة، ولإثارة الضحك، حتى فيما يتعلق بالخالق سبحانه وتعالى. ويكثر فيه وصف الخالق بكلمات لا احترام فيها، كما نرى ذلك مثلا في عنوان الكتاب الذي دخل ضمن أكثر الكتب بيعا في أمريكا. إن اسمه: سيرة الله. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. إن كثيراً من المسلمين المعاصرين لا يدرون أن الكلام عن الخالق بمثل هذه الطريقة يخرج صاحبه عن ملة الإسلام. ألم يقل الله تعالى عن بعض أمثال هؤلاء.

ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب. قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم.

سادسا: ومما يتصل بهذا أنهم لم يعودوا يأخذون الدين مأخذ الجد، لكنهم يصورون هذا بأنه تسامح، وسعة أفق، ويصمون كل من يبدو منه استمساكاً شديداً بالدين بالتطرف، أو ضيق الأفق والتعصب وعدم العقلانية، وهكذا. لذلك تعجب كثير من الغربيين من الضجة التي أثارها المسلمون بسبب ما قاله مؤلف الآيات الشيطانية عن الله تعالى. وقد تأثر الإعلام في البلاد العربية والإسلامية بهذا الانحراف فعاد هو الآخر يطبقه على كل من يبدو منه شدة استمساك بنصوص الكتاب والسنة، وعاد يمدح كل منتسب للعلم يبدو منه هذا النوع من التحلل.

سابعا: الإعلام الغربي ـ التلفاز والمجلات والقصص والأفلام والإنترنت ـ مليء بإثارة الشهوات الجنسية بكل نوع من صور الإثارة، بالكلمة والصورة، بالشعر والقصة، بأخبار المنحرفين وبنشر الفضائح. قد يقال لكن ما علاقة هذا بالعقيدة التي هي موضوع بحثنا؟ وأقول نعم. إن الإنسان قد يقع في المعاصي الجنسية، ويظل مع ذلك محتفظاً بإيمانه وصفاء عقيدته. لكن هنالك صلة بين الشهوات والشبهات كما نبهنا إلى ذلك علماء السلف. فالذي يكثر يشتد ضعفه أمام الشهوات يضعف قلبه، فيكون مهيأ للتأثر بالشبهات المتعلقة بالعقيدة، كتلك التي ذكرناها آنفا.

ثامنا: وهنالك شبهات مباشرة وجدت في الإنترنت مرتعاً خصباً لها، شبهات يثيرها خصوم الإسلام المختصون بمحاربته على صعيد الفكر، ويثيرها أهل الأهواء من

المنتسبين إلى الإسلام من مفكري الفرق الضالة. كلاهما أصبح يتستر وراء هذه الشبكة، ويعلن فيها ما قد يتردد من التصريح به في وسائل الإعلام الأخرى. وقد رأيت بعض الشباب يتابعون ما ينشر في أمثال هذه الصفحات، ثم يأتون ليسألوا عن كيفية الرد عليها؛ لأن علمهم بالدين قليل، والشبهات قوية مضلة.

تاسعا: وربما كان سبب هذا كله أن في الغرب عدم اطمئنان إلى الدينين الشائعين فيه، وعدم ثقة برجالهما، بل وشك في إمكانية الاستقامة. وهذا داء في الغرب قديم أكثر ما يظهر في الأدب، حتى لقد قال أحد نقادهم - أظنه الدوس هكسلي - إنه لا يوجد في أبطال روايات شكسبير رجل خير. وأنت تلاحظ هذا في القصص التي يقرؤها الناس بشغف. إن الشخصية المستقيمة أو المتدينة في القصة كثيراً ما تصور بأنها شخصية منافقة تفعل في الخفاء ما يخالف مسلكها الظاهري، حتى لقد أصبحت المجاهرة بالسوء نوعاً من الصدق مع النفس والصراحة. وبما أن الغربيين لا يعرفون دينا غير دينهم فإنهم لا يتحدثون عن اليهودية والنصرانية بخصوصهما، وإنما يتحدثون عن الدين بصفة عامة. ومن هنا يأتي خطر كلامهم على الطفل أو الشاب المسلم الذي يعيش بين ظهرانيهم، بل حتى الذي يتعرض في بلده الإسلامي لإعلامهم وثقافتهم.

الآثار الحسنة:

مع كل ما ذكرنا من مثالب الإعلام الغربي فيما يتعلق بالعقيدة، فإن له محاسن تتعلق بها ليس من الإنصاف تجاهلها. من ذلك:

أولا: أن البلاد الغربية أضحت في زماننا هي موطن الكشوف العلمية والتقدم في العلوم الطبيعية، وأضحى إعلامها هو المختص بإذاعتها على المستوى العالمي حتى لو حدث الاكتشاف في بلد غير غربي. فهنالك قنوات تلفازية كالقناة الأمريكية المسماة Discovery وقناة وكالة Nasa وهنالك مجلات أسبوعية كمجلة Scientific American ومجلة Discovedry الأمريكية، ومجلة New Scientist الإنجليزية، وهنالك البرامج العلمية التي لا تكاد تخلو منها إذاعة غربية. وقد تطورت هذه الكشوف تطوراً هائلاً، فأظهرت من عجائب صنع الله تعالى في العالم الخارجي، وفي المخلوقات الأرضية الدقيقة ما يكاد يجعل من المستحيل على الملحد أن يستمر في الادعاء بأن كل هذا إنما حدث

مصادفة وبغير قوة مدبرة. ولهذا فقد بدأ بعض هؤلاء الملحدين يتراجعون عن إلحادهم وصار بعضهم يشك فيه. أما المؤمنون بوجود الخالق فقد زادتهم هذه الكشوف إيمانا. وأما المسلمون منهم فإنها لا تكون بالنسبة لهم تأكيداً لوجود الخالق فحسب، بل زيادة يقين بدينهم وعودة إليه إن كان قد حدث عنه منهم بعد.

ثانيا: من الحقائق التي لا يزال العقلاء من المفكرين الغربيين يكررون التذكير بها ويحذرون من مغبتها، والتي يراها المعايش لهم والمتتبع لأخبارهم في إعلانهم، أنه قد صاحب بعدهم عن القيم الدينية تدهور في الحياة الخلقية؛ فالمخدرات والإباحية الجنسية، تزداد انتشارا حتى بين الصغار من طلاب المدارس، ويزداد معها اللجوء إلى العنف والقسوة. وقد اعتبر بعض المسلمين بهذا فرجعوا إلى دينهم بعد أن كانوا قد بعدوا عنه. سئل أحدهم: ما الذي أعادك إلى دينك؟ فأجاب: قلت في نفسي إذا كانت هذه هي نتيجة الطريق الذي أنا سالكه فإنها نهاية لا أريدها. بل إن كثيرا من الآباء والأمهات في أمريكا صاروا يفرحون بإسلام أبنائهم وبناتهم حين يرون التغيير الذي طرأ عليهم. لقد صار الغرب هي هذا المجال عبرة لكل عاقل معتبر. نسأل الله تعالى أن يهديهم للدين الحق ويقيهم من مصائر هذا الطريق الذي هم سالكوه.

ثالثا: بالرغم مما في الشبكة العالمية من العيوب التي ذكرناها، إلا أنها أتاحت للمسلمين فرصة لم تتح لهم من قبل في وسائل الإعلام الأخرى لتعريف الغربيين بالإسلام وللرد على الشبهات التي تثار حوله، ولتكون منبرا مفتوحا للحوار بين المسلمين أنفسهم وللرد على أسئلة السائلين منهم ومن غيرهم. ونحن وإن لم نكن قد استفدنا من هذه الوسيلة الجديدة الفائدة التي تبيحها لنا إلا أن الشباب المتابعين لما ينشر في صفحاتها الإسلامية - وما أكثرهم - قد انتفعوا بها، وشغلوا بها عن المداومة على مشاهدة التلفاز. ولم يقتصر نفعها على المسلمين، بل إن بعض المشاركين من غير المسلمين يطلع عليها ويبدي لأصاحبها ويكتب لهم فيها مستفسراً أو طالباً لمزيد من المعرفة. بل لقد كانت سبباً لهداية بعضهم إلى الإسلام.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

أسباب ضعف الأمة (أين الخلل؟)

محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا..

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا، اللهم صلِّ على عبدك ورسولك محمد ﷺ خاتم النبيين وإمام المرسلين، اللهم أرنا الحق حقا وأرزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطل وأرزقنا اجتنابه.

أيها الإخوة الكرام...

أفراد هذه الأمة التي تنتسب إلى الإسلام يقدر ببليون شخص، لكن هذه الأمة إلا أقلها وقع تحت نير الاستعمار الكفري الرأسمالي أو الشيوعي، وما يزال بعضها يرزح تحت هذا الاستعمار، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، وهذه الأمة كلها، ما استعمر منها وما لا يزال مستعمراً، أمة ضعيفة بالقياس إلى كثير من الأمم الكافرة، والله سبحانه وتعالى يعد من أوصاف المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]، ويقول في وصف أتباع الرسل: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢-١٧٣].

فأين الخلل ؟ ما الذي حدث لهذه الأمة ؟ وما العمل ؟ كيف نصلح هذه الأمة؟

نستطيع أن نقول منذ البداية أن هذا الخلل لابد أن يكون خللاً أساسياً لأن الله سبحانه وتعالى أرحم وأرأف بعباده من أن يعاقبهم كل هذا العقاب الدنيوي بسبب أمر جزئي أو فرعي تركوه من أمور هذا الدين. إنني كثيراً ما أخشى أن تكون جهود كثير من الدعاة كمثل جماعة من الركاب تعطلت سيارتهم فذهب بعضهم يجددون الطلاء، وبعضهم ينفخون في الإطارات الهواء، وبعضهم يجددون الفرش وبعضهم يغيرون الزيت والسيارة قابعة لا تتحرك، لأن مشكلتها في قلبها وفي ماكينتها التي تحركها وليست في هذه المظاهر مع أهميتها. إن هذه المظاهر مهمة، وستستفيد منها السيارة عند ما تتحرك أما قبل ذلك فلا فائدة منها.

فأين الخلل في هذه الأمة ؟

إذا رجعنا إلى الآيات الكريمات التي وعد الله سبحانه وتعالى فيها المؤمنين بتلك الوعود يتبين لنا إن شاء الله السبب.

أولاً: الوصف دائماً هو للمؤمنين: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]، والإيمان ليس مسالة نسبية، ليس انتساباً، وإنما هو أمر يتحقق في القلب، والله سبحانه وتعالى هو الذي يعرف هذا، فمهما قال الفرد أو قالت الأمة أنها مؤمنة، إذا لم تكن مؤمنة حقاً فإن الله سبحانه يعلم هذا ولا يعطي ما يعطي المؤمنين حقا.

بل إن بعض الآيات توضح أن المقصود بالإيمان هو عبادة الله سبحانه وحده كالآية التي تقول: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾، فهم أمة مؤمنة وهم يعملون الصالحات، وهم مؤمنون بمعنى انهم لا يعبدون مع الله سبحانه وتعالى أحدا، إذا تخلف شرط من هذه الشروط، لا ينالون هذا الفضل الذي وعد الله سبحانه وتعالى به المؤمنين.

الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣]، هذه سنة لا تتخلف، أن الكفار إذا التقوا مع المؤمنين فإنهم ينهزمون وهذا لا يحدث الآن، معنى ذلك أن هنالك خللا في الإيمان لم تف بالشرط الذي يستوجب هذا الفصل الذي وعدنا الله سبحانه وتعالى به: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]، فإذا علم شيئاً في القلوب كانت بسببه هذه السكينة وكان هذا النصر. إذا الخلل الذي أصاب هذه الأمة هو خلل في أمر جوهري، هو الذي

يعطي هذه الأمة شخصيتها، ويميزها عن غيرها، إنه خلل في إيمانها والأمة الإسلامية أفراد تربط بينهم رابطة الأخوة الإيمانية فإذا ذهب الإيمان أو ضعف انتفى شرط من شروط وجود هذه الأمة، وإذا ضعف الإيمان أو اختل اختل أيضاً تبعا لذلك شرط الأخوة وإذا لم تكن أخوة لم تكن هنالك أمة، فإذا لم يكن إيمان في القلوب لم تكن أخوة، وإذا لم تكن أخوة لم تكن أمة مؤمنة حقا. أما إن يكون عندها إيمان، قد يكون، لكن لا تكون هي الأمة التي استكملت شروط الإيمان الواجب الذي تترتب عليه هذه الوعود التي وعد الله سبحانه وتعالى بها المؤمنين.

والإيمان ليس أساساً وسبباً لوجود المسلمين فحسب، بل هو الأساس لكل البناء التشريعي الإسلامي، واجبه ومندوبه ومباحه، وما حرم فيه وما أبيح، إنه الأساس العلمي والنفسي لهذا البناء، وأعني يكون أساسه العلمي، أن الإيمان هو بمثابة المقدمات التي تستنتج منها كل شرائع الإسلام الأخرى، فهي تنتج عنه نتاجاً طبيعياً، وأعني بكون أساسها النفسي أنه هو الذي يهيئ القلوب ويعدها لأن تقبل بقية شرائع الإسلام، فإذا اختل الإيمان يكون هنالك خلل في البناء الذي يقوم عليه، ويكون هنالك خلل في الاستعداد النفسي لقبول هذه التشريعات النفسية، وما أصدق من قال:

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاء

هذا معنى معروف في القرآن الكريم:

سأركز في بقية هذا الكلام على بعض مواضع الخلل التي أراها قد حدثت في أركان الإيمان، فأولها الإيمان بالله، والإيمان بالله لا يكتمل إلا بأربعة شروط:

الشرط الأول: وهو متوفر بحمد الله عندنا وعند غيرنا من غير المسلمين، وهو الإيمان بأن الكون له خالق وأنه هو الذي يرزق ويرحم... هذا ما فيه إشكال.

الشرط الثاني: أن يعبد هذا الإله ولا يعبد معه غيره، هنا حدث خلل سببه – والله أعلم – أن الناس اختلط عليهم مفهوم العبودية، فهنالك أشياء هي بحسب القرآن والسنة تعتبر عبادة، فتوجيهها لغير الله هو عبادة لهذا الذي وجهت إليه، فهي بهذا شرك يخرج الإنسان عن الملة، وبعضه شرك لا يخرجه عن الملة، لكن نحن نتحدث الآن عن الخلل الأساسي، الذي من شأنه أو من شأن بعضه أن يخرج عن هذه الملة. العرب

كانوا يعترفون أن ما يفعلونه عبادة، واعتذروا قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، المنتسبون إلى الإسلام الآن يفعلون بعض هذه الأشياء ولا يقولون إنها عبادة لأنهم – وأظن أن معظمهم – يعتقد أنها عبادة، ولكن اعتقادهم أنها ليست بعبادة لا يغير من الواقع شيئاً.

الشرط الثالث: بالنسبة للإيمان بالله سبحانه وتعالى هو أن تؤمن بأن هذا الخالق الذي يرزق ويخلق، والذي لا يعبد سواه هو خالق له صفات كمال لا يشاركه فيها أحد، كما أن ذاته ليست كالذوات الأخرى فله أيضاً صفات لا يتصف بها أحد من مخلوقاته، هنا أيضاً حدث خلل، وحدث خلل منذ وقت طويل في تاريخ الأمة الإسلامية، وأريد أيها الأخوة أن تنتبهوا إلى تفسيري لهذا الخلل، أنا في رأيي أن السبب أن المسلمين تأثروا بالفلسفة اليونانية، والفلسفة اليونانية فلسفة مادية بالنسبة للفلسفة المادية الموجودة حقاً هو المادي المشهور وإذا ما اللغة عندما تستعمل استعمإلا حقيقياً إنما تستعمل لوصف هذا الموجود الحقيقي الأشياء الأخرى، إذا وصفناها بأنها موجودة، فوجودها ليس وجوداً حقيقياً كوجود المادي المشهود، وإنما توصف بأنها موجودة مجازاً، كأن تقول مثلاً للإنسان إن الإنسان له عقل، عقله موجود لكن وجود عقله ليس وجوداً حقيقياً كوجود جسمه، هذه الفلسفة طبعاً هي أم الفلسفة الغربية، فتأثرنا نحن أيضاً بالفلسفة الغربية التي هي أيضاً استمرار للفلسفة اليونانية، فاستمر الخلل الذي وجد في الماضي واستمر معنا إلى يومنا هذا، بل زادت حدته، ماذا كانت نتيجة هذا ؟ كانت نتيجته أن الله سبحانه وتعالى بما أنه ليس موجوداً مادياً مشهوداً وبما أن اللغة إنما تصف في الحقيقة هذا المادي المشهود، فإذا اللغة عندما تصف الله سبحانه وتعالى لا تستعمل استعمالا حقيقياً، فلابد إذا من اللجوء إلى المجازات وإلى كذا، بعض الناس غلوا في هذا الأمر والفرقة التي سميت بالجهمية، والتي أتعبت علماء أهل السنة، ما من إمام من الأئمة إلا وردّ عليهم. الردع على الجهمية، الرد على الجهمية، الرد على الجهمية. ومع ذلك مع الأسف الذي بقى من أفكار الجهمية وانتشر هو أكثر من الذي بقي من – مع الأسف – جهود هؤلاء العلماء الذين ردوا عليهم،

الجهمية فكرة موجودة إلى الآن عند المسلمين وعند غير المسلمين، الذين غلوا فيهم أبوا أن يقولوا حتى – إن الله موجود – لأنه في رأيهم أن الله لا يوصف بهذا الوصف هو هذا، وما دام الله ليس كذلك فلا ينبغي أن يوصف بهذا الوصف، يعني دافعهم هو أن ينزهوا الله سبحانه وتعالى، فإذا ما دام لا يوصف بأنه موجود، لا يوصف بأنه رحمن ولا رحيم على الحقيقة، ودعك أن يوصف أنه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، أو أن له يداً أو له وجه، هذه من باب أولى أن ترفض لأنه لا يفهم منها – في رأيهم – إلا هذه اليد ولا يفهم من الاستواء إلا هذه الطريقة التي يجلس فيها الناس أو يجلس فيها الحيوانات بعض الناس لم يغل هذا الغلو، ولكن بقي أثر منهم، أبوا أن يصفوا الله سبحانه وتعالى ببعض هذه الصفات التي وردت في القرآن، أبوا أن يصفوه بها على حقيقتها، أما أن ينكر الإنسان أنها واردة في القرآن طبعاً لا ينكر هذا، لكن المهم ليس أن يتلوها الإنسان وإنما يؤمن بمعانيها والله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل لكي يعرفونا بالله، فهذه الأوصاف هي تعريف بالله وأنت لا تعرف الشيء إلا إذا عرفت أوصافه، فإذا تحولت الأوصاف بالنسبة لك إلى كلمات فقط لا معنى لها فهذا خلل في الإيمان، ويذكر الإمام أحمد في كتابه له اسمه (الرد على الجهمية) قصة طريفة تبين لكم ما قلت من أن السبب هو التأثر بالفكر المادي، يقول : إنه قابل جماعة يبدو أنهم كانوا من الماديين يسمون "السمنية" فقالوا للجهم هذا، من تعبد؟ هذا الذي تعبده هل رأيته بعينك؟ قال : لا، سمعت صوته؟ قال : لا، لمسته بيدك؟ قال : لا، ذقته؟، لا، شممته؟، لا. قالوا: إذاً أنت لا تعبد شيئاً. فذهب واحتار وجاءهم بعد أربعين يوماً، وقال لهم: هل لكم روح؟ قالوا نعم، قال: رأيتموه؟ لا، شممتموه ؟ لا، لمستموه؟ لا، هكذا إلى كل الأسئلة التي سألوه إياها، قال لهم: إذاً ليست لكم أرواح. ما الخلل الذي وقع فيه؟ بدأ بعد ذلك يشبه الله سبحانه وتعالى بالروح وبالعقل، يعني تحول الله سبحانه وتعالى في تصوره من ذات موجودة في الخارج إلى فكرة، أو إلى ما يسمى في التعبيرات الحديثة، شيء مجرد " ارستدكت " وهذا هو الشيء الذي يشيع الآن بين الناس، تجد مثلاً أوصافاً لا تجد لها ذكراً في القرآن الكريم، لكن الناس أصبحوا يعتقدون أنها هي الأوصاف الحقيقية التي لا يكون الإنسان مؤمناً إلا إذا قال بها. فالله

يقال عنه في بعض تعبيرات الله الإنجليزية: أفري هوير، آند نو هوير" تناقض، هو في كل مكان وليس في مكان، أو حتى عدنا في اللغة العربية التعبيرات الكلامية، هو في كل مكان وبعدين أحياناً: لا يحده مكان، وليس في حيز، وليس له جهة، ولا كذا بل بعضهم قال: إنه لا يوصف إلا بوصف سلبي، فقال لهم علماء أهل السنة، أنتم شبهتموه بالمعدومات لأن الشيء إذا كان ليس موجوداً، فأنا أستطيع أن أقول ليس طويلاً، ليس قصيراً ليس أحمر، ليس أصفر ليس سمينا، ليس ضعيفاً وهكذا، فلابد لمعرفة الشيء من أن تصفه وصفاً إثباتياً، وصفاً إيجابياً فهذا هو السبب. الحل أيها الإخوة : هو أن نعتقد أن نتخلص من هذه الفكرة التي أصبحت كأنها قاعدة عقلية أن من شرط الوجود حقاً أن يكون مادياً، لا. الله سبحانه وتعالى موجود، وصف بأنه ذات وصف بأنه شيء، ووصف في بعض الأحاديث بأنه شخص، فهو ذات موجودة لها صورة وإن كنا لا نعرف هذه الصورة ولا ندركها، أكرر لكم هذا، له صورة، عندما قال الإمام مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول، ما قال : ليس له كيف، له كيف، لكن هذا الكيف لا نعرفه نحن، والله سبحانه وتعالى شيء ويمكن أن يرى، لا نراه الآن لأسباب تختص بنا، أما في الآخرة فإن شاء الله نراه " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " فالله شيء وموجود ولكنه ليس شيئاً مادياً، وكذلك بعض المخلوقات موجودة، ولكنها ليست مادية، فليس من شرط الموجود أن يكون مادياً.

الشرط الرابع: وهو يقودنا إلى الركن الثالث من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالكتب والرسل، فلا يكفي أن يقول الإنسان إنه يعبد الله وحده بل لابد أن يعبد الله سبحانه وتعالى بالطريقة التي شرعها رسوله صلى الله عليه وسلم، أو من أرسل إليه من الرسل السابقين إذا كان في عهدهم.

هنا أيضاً حدث بعض الخلل، بعضه حدث في زمن الصحابة، لم يحدث في الصحابة، وإنما حدث في زمانهم عند بعض الناس، أول خلل حدث في التاريخ الإسلامي هو خلل إنكار السنة، فإذا أنكرت السنة لن تعبد الله سبحانه وتعالى بالطريقة التي وصفها رسول الله ﷺ، ولذلك أيها الإخوة، التعبير الذي تسمعونه: أهل السنة والجماعة فبعض الناس يظنون أن أهل السنة والجماعة يعني فرقة من الناس، يقول لك:

الناس يتقسموا أهل سنة وشيعة، ويظن أن هذا مثل هذا، لا، أهل السنة لماذا سموا أهل السنة؟ سموا بأهل السنة لأن الذين انحرفوا عن الطريق الصحيح الذي هو طريق القرآن وطريق الرسول صلى الله عليه وسلم في عهدهم كان انحرافهم بسبب إنكارهم للسنة، فهؤلاء لكي يؤكدوا أنهم مستمرون على ما تركهم عليه الرسول ﷺ سموا أنفسهم أو سموا بأهل السنة. وليس معنى ذلك أنهم ليسوا أهل القرآن الكريم، وليس معنى ذلك أنهم فرقة معينة لها رئيس معين، ليس هذا، وإنما هي تأكيد لاستمرارهم على ما تركهم عليهم الرسول ﷺ، وسموا بأهل الجماعة لأن تلك الفرقة التي أنكرت السنة خرجت أيضاً على الحاكم الشرعي فكانت منكرة للسنة وداعية إلى الفرقة، فسموا أنفسهم بأهل الجماعة والجماعة: هنا المقصود بها: عدم الفرقة، ليس المقصود بها عدد كبير من الناس، لا. فإذاً هذا كان الخلل الأول.

الخلل الثاني: يختص أيضاً بالسنة هو وما زال أيضاً موجوداً عند بعض الناس كما أن بعض الناس ينكرون السنة، بعضهم يشكك في عصمة الرسول ﷺ وأنت إذا لم تعتقد بعصمة الرسول ﷺ فقد جعلت كلامه ككلام سائر البشر، بعضهم غلا، فلم ينف عصمة الرسول ﷺ ولكن أضاف العصمة إلى غير الرسول ﷺ، فإذا كان أولئك قد ساووا الرسول ببقية الناس، فهؤلاء قد ساووا بعض الناس بالرسول ﷺ، فأصبح أيضاً يعني : حادوا عن أن يعبد الله سبحانه وتعالى بما جاء به رسوله ﷺ.

الحل في رأيي، وهو حل ميسور جداً: أن نقول : إننا نؤمن بكل ما صح عن الرسول ﷺ من أحاديث سواء كانت متواترة أو أحاديث آحاد، نؤمن بأن ما قاله الرسول ﷺ وسجل لنا في هذه الكتب ولم ينسخه الرسول ﷺ بنفسه كتأبير النخل، ولم ينسخه الله سبحانه وتعالى فهو حق سواء كان في أمور العبادات أو العقائد أو في المعاملات، سواء كان عن الدنيا أو الآخرة. سواء كان في الفلك أو الطب أو ما شابه ذلك. الرسول ﷺ لا يقر على خطأ، الرسول يمكن أن يخطئ فهو بشر لكن الله سبحانه وتعالى أرحم بعباده من أن يسمعهم من رسوله ﷺ شيئاً ليس بصحيح ثم يتركهم عليه. أليس مما يعد من السنة إقرارالرسول "السنة التقريرية" أن يرى الرسول

ﷺ شخصاً فعل شيئاً فلا ينكر عليه فنفهم من هذا أن هذا الشيء صحيح ما دام أن الرسول ﷺ لم ينكر عليه، أفلا نظن أن الله سبحانه وتعالى أولى بهذا من رسوله، يرسل إلى الرسول ﷺ ملكاً يأتيه في كل يوم أو في كل عدة أيام فهو على صلة بربه، ويعرف الله سبحانه وتعالى أن هذا الرسول قد قال لنا شيئاً ليس بصحيح، ثم لا يقول له إن هذا ليس بصحيح. فاطمئنوا إلى أن كل ما صح عن الرسول ﷺ فهو حق بغض النظر عن الموضوع الذي تحدث فيه الرسول ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ أكرم من أن يتحدث في شيء ليس له به علم، وإذا تحدث في شيء لا يعرفه، قال : لا أعرفه، كما ورد في حديث تأبير النخل، قال : إنما كنت أظن ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن. أما أن يتحدث الرسول ﷺ في أمر من الأمور بطريقة جازمة، ثم نقول: أنه أخطأ والحديث لم ينسخ فهذا من الخلل، وكما قلت إنه خلل يمكن أن يتخلص منه بسهولة إن شاء الله.

الشيء الثاني : أن لا يقدم بالنسبة للرسول ﷺ، أن لا يقدم رأي إنسان على حديثه، وطبعاً لا يقدم على كتاب الله سبحانه وتعالى، هذه مسألة ما أسهل أن تقال، وما أصعب أن تنفذ، أقول لكم بتجربتي، الآن لو قلت لكم هذا الكلام تقولون نعم طبعاً شيء طبيعي، وثم امتحن بعض إخواننا : أتكلم كذا وكذا ثم أقول إن عمر بن الخطاب أخطأ في هذه المسألة فتمر، وأتكلم كذا وأقول مثلاً إن الإمام مالك أخطأ في هذا كذا وكذا، ثم بعد قليل أقول : إن الشيخ الفلاني، رئيس هذا الشخص الذي أتحدث إليه أو زعيمه أخطأ فيتغير الشخص، كيف؟ متى؟ ماذا قال؟ ويبدأ يبحث عن المبررات، طيب يا أخي في مسألة عمر ما بحثت عن مبررات، والإمام مالك ما بحثت له عن مبررات، ونقف في الميكرفونات: عمر وقامت امرأة وقالت له كذا، قلت لهم: يا إخواننا – وأنا أتكلم لكم عن إخواننا السودانيين هو فقط عمر المسكين تعترض عليه النساء وغير النساء، لماذا لا يعترض علينا نحن؟ مرة تكلمت كلاما، وبعد أن انتهيت جاءني أخ له علم بالحديث قال لي : يا أخي الكلام الذي قلت إنه حديث، هذا ليس بحديث، وإنما هو قول لأحد الصحابة، قلت يا أخي : جزاك اله خيراً، لكن هذا الكلام الذي قلته أنا، كلمتك أنت وحدك، أم كلمت الناس جميعاً، هل تظن أنه يقلل

من قيمتي أن تقف أمام الناس وتصحح لي، ألا تكون غيرتك على حديث الرسول ﷺ أهم من احترامي أنا، هذه مسألة ما أسهل أن تقال كما قلت لكم، وما أصعب أن تنفذ، فلابد من أن نربي أنفسنا على هذا الآن هذا أيضاً مما يتمم الإيمان، ومما يعطي الرسول ﷺ حقه. الإيمان باليوم الآخر وبالملائكة: حدث فيه خلل سببه نفس الخلل الذي تحدثنا عنه في مسائل أن الموجود هو المشهود، فأصبح أيضاً خللاً قديماً كثير من الناس خصوصاً الفلاسفة الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية يتكلمون عن نعيم الجنة، أيضاً كأنه أشياء ليست حقيقية، نعم هو ليس كما عندنا، ولكن لا يعني هذا أنه ليس حقيقياً، هو مختلف، الأنهار واللبن والعسل مختلف عن هذا، لكن ليس معنى هذا أنه ليس عسلاً وليس هناك أي علاقة بينه وبين هذا العسل، وإلا لما سماه الله سبحانه وتعالى عسلاً، حتى عندما نقول للتقريب، لأنه لابد أن يكون هنالك شبه بين هذا وذاك، ليس كله أمور مجازية ومسائل روحية. بالنسبة للملائكة أيضاً وكل الموجودات الأخرى غير المادية، بدأ بعض الناس يقولون هذه المقصود منها قوى الشر وكذا. القدر حدث خلل ما زال في كثير منا، وهو أن بعض الناس تطرفوا فأثبتوا قدرة الله سبحانه وتعالى وإرادته وظنوا أن هذا لا يمكن إلا بأن لا تكون للإنسان إرادة ولا قدرة، فنفوا إرادة الإنسان. وكثير من الناس أيضاً بالتجربة أكلمكم – كثير من الناس الذين يقولون لا نريد أن نتكلم في القدر وكذا هذا شيء حسن، لا يتكلم الإنسان في القدر إلا إذا كان مضطراً عندما أتكلم معهم، أجد أن الذين ينطوون عليه فعلاً هو هذا النوع من الاعتقاد، ويظن أن هذا هو القدر. جماعة غلوا في الطرف الآخر، رأوا أن الله سبحانه وتعالى أعدل من أن يعذب إنساناً وهو ليس مسئولاً، فأثبتوا للإنسان حرية وقدرة، ولكن على حساب نفي عموم مشيئة الله وقدرته، يعني أن الأشياء التي يُسأل عنها الإنسان ويحاسب عليها أو يجزي عليها هي أشياء لا يقدرها الله سبحانه وتعالى، معناه كأن الإنسان يخلق بعض أفعاله وإن لم يقولوا هذا.

أيضاً الحل في غاية اليسر، أن تقول إن الله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل الإنسان – كما قال بعض أهل السنة – شاء أن يجعل الإنسان شائياً، هو شاء بمشيئته وقدرته أن

يجعل هذا المخلوق له مشيئة وله قدرة، نعتقد هذا الاعتقاد، سواء استطعت أن تحل المشكلة، العقلية أو لم تحلها، أنا في رأيي هذا لا تعلق به عقيدتك، وأرجو أن ينظر الواحد منا إلى القرآن الكريم، كما ينظر رجل الطبيعة الذي يدرس الطبيعة إلى الطبيعة، قد يجد أشياء ظواهر لا يستطيع لها تفسيراً فلا يغضب ويحزن ويقول: والله هذه الطبيعة متناقضة، وما كان ينبغي أن يكون هذا، لا، وإنما يعتقد أن الخطأ أو التقصير فيه هو فكذلك إذا وجدت أن الله سبحانه وتعالى يصف نفسه بأنه له قدرة وإرادة، فقل: له قدرة وإرادة، وإذا وجدت أنه يصف الإنسان بأن له قدرة وإرادة فقل: أن له قدرة وإرادة، وإذا قال : إن إرادة الإنسان وقدرته تابعة لإرادة الله سبحانه وتعالى وقدرته فلا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا بإرادة الله وقدرته ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فآمن بهذا، حتى لو لم تستطع أن تحل بعض المشاكل العقلية في هذا الآن هذا يكفيك أنك صدقت بما قال الله سبحانه وتعالى.

أريد أن أختم الكلام ببعض التنبيهات :

أولاً: ينبغي ـ وهذا لإخواننا الذين يهتمون بمسألة العقيدة – يا أيها الإخوة : فرقوا بين صحة العقيدة والتخصص في علم العقيدة، يمكن الشيخ عبد الستار يكون متخصص في علم العقيدة، يعرف عن تفاصيلها وكل ما ورد أو معظم ما ورد في الكتاب والسنة عنها وما قاله علماء الكلام وكذا، ومصطلحاتها وكذا، وشخص آخر لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولا يعبد الله، فهل نقول له أنت لست موحداً لأنك ما عرفت ما عرف الشيخ عبد الستار، فهناك فارق إذا بين أن أكون موحداً وبين أن أكون مختصاً في علم العقيدة، فإذا جئت وامتحنتني في بعض الأشياء قد لا أعرفها يا أخي، كما أن المجاهد لا يشترط فيه أن يقرأ كل أبواب الجهاد في البخاري ومسلم، ويحفظ الأحاديث، يمكن أن يعرفها إنسان ولا يكون مجاهداً، ولا يعرف منها ولا حديث واحداً يحفظه عن ظهر قلب ويذهب ويجاهد ويموت في سبيل الله، فهذا مجاهد، وهذا ليس بمجاهد وإن كان قد تخصص في علم الجهاد.

المسألة الثانية: ينبغي أن نفرق بين علم العقيدة وكتب العقيدة، علم العقيدة في كتاب الله وفي سنة الرسول ﷺ، ما فصل علم فيهما ما فصل هذا العلم، لكن

علماؤنا جزاهم الله خيراً رأوا في بعض الأوقات ورداً على بعض الشبهات ومناقشة لبعض الفلاسفة والمتكلمين، أن يستعملوا مصطلحات وأن يتكلموا في العقيدة بلغة خاصة، هذه اللغة ليست شرطاً في معرفة العقيدة، وأنا تعمدت عندما قلت لكم الإيمان له شروط ثلاثة كان في إمكاني أن أقول لكم: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، والله عن قصد رفضت أن أقول هذا، أفرض أن واحداً سألني قال: ما توحيد الربوبية، ما عرفت، لكن قال لي: هل تعتقد أن هناك خالقاً غير الله؟ أقول، لا. هذا توحيد الربوبية، فأنا عرفت توحيد الربوبية، لكن ما عرفت أنه يسمى بهذا الاسم والله سبحانه وتعالى لا يحاسبنا على الاسم وإنما يحاسبنا على ما استقر في قلبي، وكذلك أن أقول إن الله يوصف بكذا من غير تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل، كم منكم يعرف هذه الألفاظ؟ مرة في اجتماع قلت لإخواننا العلماء، خصوصاً إذا تكلمتم لعامة الناس في التلفزيون أو في الراديو لا تستعملوا هذه الألفاظ، التمثيل – الناس لا يعرفون إلا التمثيليات هذه، ما يعرفوا تمثيل إنه هذه الألفاظ أنا أشهد بأنها ألفاظ دقيقة وعلمية لكنها لا تفيد عند من لا يعرفها، بعض الناس لا يعرفون أشياء أقل من هذا، بعد أن قلت هذا الكلام الذي قلت لكم إنني تكلمت فيه، جاء في بعض الناس يؤيدون ما قلت، قال لي أحدهم: والله أنا سمعت أو سمع عن شخص قرأ أو سمع من الإذاعة الحديث: **(لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)** [أخرجه الترمذي]، قال: كان يظن أن الترمذي أخرج الضب، مع أن هذا قد يظن العالم أن هذا شيء عادي، وقال آخر: إنه سمع شخصاً يقول: إن شخصا سمع عالماً يقول أن رسول الله ﷺ قال: كذا، قال: صححه البخاري قال: أيش يكون البخاري، هو الرسول يتكلم ويصححه البخاري؟ فحتى هذه المصطلحات وهي مصطلحات تظنونها سهلة، لكن بالنسبة لكثير من الناس ليست معروفة، فلا نمزج بنين معرفة الحقائق ومعرفة المصطلحات «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله».

ثالثاً: معرفة هذه العقيدة لا تحتاج إلى وقت طويل، يمكن أن يأتي إنسان وأقول له هذا الكلام بطريقة مختصرة أكثر مما قلتها لكم الآن: يا أخي لا تعبد غير الله، لا

تدع غير الله، لا تذبح لغير الله، ... يقول: نعم خذ سلاحك اذهب لأفغانستان، مش لازم يتخصص في العقيدة حتى يذهب لأفغانستان، لا، قم صل الظهر. انتهينا، فلا تستغرق وقتا، هذا ليس معناه أنها لا تدرس، نعم: بعضنا يدرس ويتخصص لكن لا نعتبر أنه ما لم يعرف كل الناس أو معظم الناس.

رابعاً: أنه ليس من شرط هذه الأشياء التي تحدثنا عنها كشرط من قيام الأمة المسلمة أن يعرفها، وأن يتحقق في كل المنتسبين إلى الإسلام، لا يشترط، ثم أن نذكر أن هذا الذي تحدثنا عنه هو الحد الأدنى الذي ينقذ الإنسان من الخلود في النار ولا يمنعه من دخول النار؛ لأن الإيمان لا يكتمل إلا بأشياء أخرى سماها القرآن الكريم (العمل الصالح) فبعض العمل الصالح هو جزء لا يتجزأ من الإيمان الواجب فالإيمان يمكن أن نقول ثلاثة أشياء : إيمان حد أدنى هو الفيصل بين الكافر الذي يخلد في النار والشخص الذي لا يخلد في النار لكنه لا ينقذه من النار، وإيمان هو الإيمان الواجب وهو أن يفعل الإنسان بقدر ما يستطيع كل ما أمر الله سبحانه وتعالى به، وينتهي عن كل ما نهى عنه، ويقف عند هذا الحد، هذا مقتصد، والأول ظالم. الثالث أن يزيد على هذا، فالأمة التي وعدها الله سبحانه وتعالى بتلك الوعود أقل شروطها أن يتوفر فيها الإيمان الواجب، ولابد من أن يتوفر – إن شاء الله – بعض الزيادات على هذا.

هناك قضية أختم بها الكلام هي لا علاقة لها بالموضوع لكن، وهي أننا بعد أن عرفنا العقيدة كيف ندعو إليها ؟ كيف نعيد بناء هذه الأمة؟ هذا ليس من موضوعي، ولكن أريد أن أذكر أشياء تتعلق بالعقيدة فيه:

هنالك فرق بين منهج العقيدة، ومنهج العمل، هذا من الأشياء التي أخطأنا فيها كثيراً، في العقيدة لا مساومة، إذا عرفت أن هذا الشيء قاله الله تؤمن به، ما فيه مساومة، تعتقد أنه صحيح، مهما كان من المندوبات، مثل ركعتين بعد المغرب، إذا عرفت أن الرسول قال هذا ثم أنكرتها كفرت، ما عملتها شيء آخر، فالعقيدة ما فيها بالنسبة للعمل، المنهج مختلف، فكثير من إخواننا خلطوا بين الأمرين ظن أنه حتى في العمل ينبغي أن يعمل كل شيء كما يعتقد كل شيء، لا العمل تابع للاستطاعة،

والعمل تابع لتقدير الظروف، والعمل فيه تقديم الأهم على المهم، والعمل فيه ارتكاب أخف الضررين، والعمل فيه أحياناً السكوت على بعض الباطل لكي لا ينتج عنه باطل أكثر، والعمل فيه ترتيب الخصوم والعداوات لا تفتح جبهات مختلفة مع كل الناس، هذه مسائل عقلية يعرفها حتى الكفار، فهي كذلك جزء من هذا الدين، فلا نخلط بني منهج الاعتقاد ومنهج العمل. وقد يكون أيضاً من أحسن الوسائل للدعوة إلى العقيدة أحياناً يكون بعض الأعمال الصالحة، طبعاً العمل الصالح لا يكون عملاً صالحاً إلا إذا بني على العقيدة، لكن أعني أنك يمكن أن تدخل الإنسان إلى العقيدة عن طريق دعوته إلى بعض الأعمال الصالحة، هب أن إنساناً يريد أن يجاهد في أفغانستان فجئته فقلت له يا أخي أنا رأيتك تفعل كذا وكذا وهذا من الشرك، إلا تظنون أيها الإخوة أن هذا إنسان ذاهب ليعطي نفسه لله إلا ينتبه أكثر من الشخص العادي؟ لأن هذا يقول: أنا غداً أكون في الدار الآخرة إن شاء الله، فإذا قلت له : هذا شرك يدخلك النار، ما ذهب ليقاتل إلا ليخرج من النار، يقول لك: إذاً اتركه، فيمكن في خمس دقائق أو في عشر دقائق أن تعطيه مبادئ العقيدة تخلص قلبه من أنواع الشرك فيذهب ويجاهد، فالعقيدة أيضاً الدعوة إليها لا تعني تعطيل الأعمال الأخرى.

أيضاً من وسائل العمل أن نتعاون في الأشياء التي نحن متفقون عليها ونتجادل بالتي هي أحسن في الأشياء التي تختلف فيها، ومن طبيعة العمل أيضاً أن نقسم الناس مراتب، حتى لو كانوا كفاراً، فهنالك من هو أقرب، وهنالك من هو أبعد، ولذلك القرآن الكريم أعطى أهل الكتاب مكانة خاصة، بعض الناس يقول لك الكفر ملة واحدة، فيفسر هذا بمعنى يتناقض مع ما جاء في كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

❊ ❊ ❊

عوامل انحطاط الحضارة الإسلامية وسبيل النهوض بها

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، اللهم اجعل كل كلامنا طيباً واجعل كل كلامنا صالحاً، واجعله كله لوجهك خالصاً ولا تجعل لأحد فيه شيئاً، أيها الإخوة : إن الانحطاط بعد الارتفاع عقوبة، إنه زوال نعمة، وقد بين القرآن الكريم السبب الأساسي لزوال النعمة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، - فالسبب الأساسي لانحطاط المسلمين بعد ارتفاعهم وتقدمهم لابد أن يكون كامناً في أنفسهم، وأنا أشكر الأخ الدكتور عبد الحميد أن نبهكم إلى مسألة الأسباب الأساسية والأسباب الثانوية، نحن نتحدث عن الاستعمار، عن الصهيونية العالمية، وعن كذا وعن كذا وعن كذا - لكن كل هذه ليست هي الأسباب الأساسية بحسب النص والتوجيه القرآني، والآية تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وإذن فالسبب الأساسي سبب إرادي، إنه ليس شيئاً مفروضاً على الأمة من خارجها، والسبب الإرادي لا يفسر بأسباب خارجية. إذا كفر الإنسان فلا يفسر هذا بأن هنالك ظروفاً خارجية أجبرته على الكفر، إنه حينئذ يكون مختاراً، ولهذا فنحن لا نسير مع أصحاب ما يسمى بفسيولوجيا الدين أو المعرفة إذا كان المقصود بها أن هناك ظروفاً معينة تفرض على الإنسان أن يكون متدنياً أو أن يكون كافراً - ما هو هذا الفعل الإرادي الذي يجلب زوال النعم، في القرآن الكريم، أمثلة على هذا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا۟ - هذا هو فعل الإرادة - فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٥-١٦]. بل إن هذا هو التفسير القرآني لمثل هذه العقوبة الشديدة التي تثير الحضارة مرة واحدة، بل هو التفسير القرآن حتى لما نسميه النكسات المؤقتة التي وقعت لأصحاب رسول الله ﷺ، فالتفسير القرآني لكل ما أصاب المسلمين من هزائم مؤقتة في زمن الرسول كان لإرجاعه إلى شيء في أنفسهم، ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم

﴿مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وفسر هذا الذي هو من عند أنفسهم في الآية الأخرى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فالذين أرادوا الدنيا حتى من الصحابة كانوا هم السبب في الهزيمة، فإذن هنالك سبب أساسي، هذ السبب الأساسي ينتج عنه أسباب تنتج عنه آثار تكون هي بدورها آثاراً لأسباب أخرى وهكذا وهكذا – لنضرب مثالاً، لنفرض أن عدد الذين يحبون الحياة الدنيا قد ازداد في مجتمع ما، أو أن الذين يحبونها ازداد حبهم لها، لابد أنه ما دامت هذه قد صارت ظاهرة في المجتمع، لابد أن يجد بعض هؤلاء طريقهم إلى القيادة، إما القيادة العلمية، أو القيادة السياسية. إذا وصلوا إلى القيادة السياسية وكانوا يحبون الدنيا فإن هذا سيؤثر في معاملتهم للناس، سينتج عنه ظلم، سينتج عنه استكبار، سينتج عنه كذا وكذا، هذه بدورها تقود إلى آثار أخرى ضارة – إذا وجدوا مكانهم إلى القيادة العلمية كان لابد أن يؤثر هذا في تفكيرهم، في فتاواهم، في مواقفهم، وكان لابد أن يؤدي هذا إلى شرور أخرى – مثلاً لقد عاقبنا الله سبحانه وتعالى بسبب هذا التغيير بأن سلط الأعداء علينا، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، فجعل لهم سبيلاً علينا لأن الشرط لم يكن أساسياً عندنا، أصل الإيمان موجود ولكنه ليس الإيمان الذي ينتج عنه هذا الوعي، فسلط الله سبحانه وتعالى الأعداء علينا – تسليط الأعداء كان لابد أن يؤدي إلى شرور أخرى – أثر في التعليم – التأثير في التعليم أدى إلى آثار أخرى وهكذا، قبل أن أنتقل إلى النقطة الأخرى أريد أن أقول، إذا كانت هذه هي العلة فإذن سبب النهضة أيضاً لابد أن يكون كما عبر عنه الأخ عبد الحميد في ندوته، لابد أن يكون بقرار، لابد أن يكون في الأمة طلائع تعلو على هذه الأوضاع الشريرة وتتغلب عليها وتعزم على أن تعود إلى الحق، ولا نقول أن تغير، لأن العودة لا تسمى تغييراً، سنتحدث بعد قليل عن هذا، ولكن إذا كان هذا هو سبب الانحطاط فلابد أن يكون السبب في الارتفاع هو أيضاً بقرار تتخذه الأمة أو تتخذه طلائع الأمة – أنا أريد أن يكون حديثي تكملة لأحاديث كثيرة دارت حول هذا الموضوع، فلذلك لا أحب أن أعالج الموضوع من كل جوانبه بل اكتفي ببعض النقاط – من المشاكل التي سألني عنها الشباب كثيراً، يقولون : إذا كان السبب في انحطاطنا هو أننا تركنا ديننا، فنحن على الأقل خير من هؤلاء الذين سلطهم الله علينا، نحن مسلمون وهم ليسوا

بمسلمين، نحن مسلمون وهم يهود، والله يقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، نحن لم ننصره كما يجب ولكن هؤلاء تمردوا عليه، فلماذا إذن ينصرهم علينا، والجواب هو، أشير إلى بعض النقاط:

أولاً: إن الله سبحانه وتعالى بحسب هذه القاعدة التي وضعها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. إن العقاب حين يغير ما بالناس هذا التغيير يكون بحسب تغييرهم، هم إذا أعرضوا كقوم سبأ وكفروا وجحدوا فإن الله سبحانه وتعالى يستأصلهم مرة واحدة، ليس بقتلهم جميعاً ولكن يستأصلهم كأمة كما قيل لقوم سبأ- فقد تشتتوا في البلاد وزالت حضارتهم، لكن هذا العقاب قد يكون أقل من هذا، يكون مؤقتاً وهذا الذي أرجو أن يكون قد حدث لنا – فالله سبحانه وتعالى يعاقبنا عقاباً مؤقتاً ينصرنا بعده، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية، إن هذا العقاب، وهذه ليست ألفاظه – إن العقاب هذا المؤقت يكون رحمة بالمؤمنين، لماذا لأننا إذا استمررنا في التفوق المادي ونحن مستمرون في البعد عن الله فإن هذا يغرينا بزيادة الكفر وبمزيد من الابتعاد عن الله سبحانه وتعالى، فإذا ما عاقبنا الله سبحانه وتعالى فعسى أن ننتبه ونصلح من أمرنا – أضرب لهذا مثلاً، في غزوة حنين فسر الله سبحانه وتعالى هزيمة المسلمين بأن قال لهم: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]، لنفرض أن الله سبحانه وتعالى نصرهم رغم أنهم كانوا معجبين بكثرتهم – إن هذا سيؤكد لهم أن سبب النصر هو الكثرة، ولكن الله سبحانه وتعالى هزمهم هزيمة مؤقتة، وجعل النصر على أيدي قلة قليلة جداً، فنبههم إلى أن سبب النصر ليس هو الكثرة، وأظنكم وأظننا نعتقد أنه قد مرت بنا ظروف لو انتصرنا فيها لعبد بعض الناس من دون الله سبحانه وتعالى، ولكن الله تعالى رحمة بالمؤمنين يسبب لهم هذه الهزيمة المؤقتة حتى يكون النصر على أيدي الرجال الذين يستحقون أن ينصروا، وحتى يكون في النصر رحمة بالمؤمنين لا مزيداً من القهر والتعذيب والبعد عن الله سبحانه وتعالى – وإذن فكما إن هزيمتنا قد تكون رحمة بنا – هي رحمة بنا نعم إذا أحسنا الاستفادة منها، فإن غلبة الكفار وبال عليهم – هي وبال عليهم ووبال على البشرية، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، – حسب بعض التفاسير، الظهور هنا معناه العلو والطغيان، فإذا كانت اليد العليا للمفسدين وكانوا

هم الظاهرين، فمعنى هذا أن هذا عقوبة للمقهورين وعقوبة للغالبين – ولعل في حديث الرسول ﷺ – عجب الله لقوم أو لأناس يدخلون الجنة في السلاسل، هؤلاء يحاربون المسلمين فينتصر عليهم المسلمون ويؤخذ منهم أسرى ثم يسلمون فكأنهم قيدوا إلى الإيمان قهراً، هؤلاء طبعاً سيقولون يوم القيامة الحمد لله، وأظن أنهم سيقولون قبل يوم القيامة حتى في هذه الدنيا الحمد لله الذي هزمنا وجعل هذا سبباً لنا في الدخول في الإسلام – إذن وهذا في اعتقادي وأرجو إلا يكون هذا مجرد حماس، في اعتقادي أننا برغم هزيمتنا لا زلنا نملك عوامل البقاء – كأمة – إن فينا من عوامل البقاء ما ليس في الحضارة الغربية. الحضارة الغربية فيها حيوية ولكنها مؤقتة، يمكن أن نشبهها بذبابة تعيش مدة قصيرة، فهي حية ولكنها بعد قليل تموت. ويمكن أن نشبه المسلمين بأنهم في حالة نوم أو إغماء ثم يعودون بعدها إلى الحياة إذا توفرت هذه الشروط – كيف ننهض – أولاً أنا ارجو حين نفكر في النهضة إلا يكون كتفكير كثير من غير المسلمين وهو أننا نريد أن نكون مثل الغربيين، نحن لا نريد هذا، نحن نريد أن ننهض، ولكن غايتنا من النهضة أن نكون من الذين أنعم الله عليهم فجعل تمكين الدين على أيديهم وجعلهم رحمة للبشرية، لا نريد فقط أن تكون لنا مصانع كما لهم مصانع ومدارس كما لهم مدارس وكذا كما لهم كذا – لأن هذه يمكن تستعمل ضدنا وضد البشرية، لكن إذا أردنا هذا فإن الطريقة الأساسية والوحيدة إليه هو القرار بأن نعود إلى الدين عودة صادقة – أصل الدين موجود فينا ولكن هذا الأصل لا يكفي لبناء الحضارة وللتغلب على الأمم الأخرى لابد من تقوية هذا الإيمان وتنقيته والالتزام بلوازمه في حياتنا الخلقية أولاً، ثم في حياتنا الخارجية، لابد أن تؤول القيادة الفكرية والسياسية إلى هذا النوع من الناس، إن الذي نحتاج إليه ليس شطارة سياسية، وإن كانت الشطارة السياسية أحياناً تفيد على قاعدة – إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر، ولكنه لا ينصره بسبب فجوره ولكن ينصر المسلمين به كما ينصرهم بالنعاس وبأي شيء آخر، أريد هنا أيضاً أن أشير إلى بعض النقاط، السبب الذي ينبغي أن نركز عليه هو إنشاء أو تكوين هذه الطليعة المؤقتة التي سيؤول إليها بإذن الله أمر القيادة السياسية والفكرية في العالم، كيف نفعل هذا؟ أشير إلى بعض النقاط، لابد من تعديل المؤسسات التربوية والإعلامية بحيث تساعد على هذا، وقد تكلم كثير من الإخوان في هذا، لابد من إنشاء مراكز لإعداد المفكر المسلم – شعرت من حديث الأخ يوسف العظم بالأمس رغم إعجابي به، ولكن قلت إن هذا

ترقيع إنه يفترض أن الفقيه سيكون كما هو الآن ويريد أن يصلح من حاله، ولكن الذي نحتاج إليه هو مؤسسات تخرج لنا الفقيه الذي يريده الأخ يوسف العظم، لابد أن نفعل هذا. إن الحركة الإسلامية قد وصلت إلى طور لا تكفي معه هذه المنظمات رغم استمرار حاجتنا إليها، بل نحن محتاجون إلى مؤسسات جديدة، وهذا لم تفعله لنا المؤسسات – النقطة الثالثة هي ينبغي أن نكون واقعيين في تفكيرنا، والواقعية أعني بها الصرامة الشديدة في الالتزام بالمبادئ وبالغايات النهائية، والمرونة في تقبل الحلول الجزئية. هذا كلام أنا أعرف أن بعض الشباب لا يحبونه، ولكن إذا لم نفعل هذا فسنظل دائماً نتكلم ولا نستطيع أن نفعل شيئاً، الذي يساوم على الأهداف مخطئ، والذي يقول إنه يريد أن يحقق أهدافه كلها في يوم واحد أو في سنة واحدة، أيضاً مخطئ، فلا بد إذن من قبول الحلول الجزئية ما دام كل حل بإذن الله سيؤدي إلى حل آخر وكل حل سيؤدي إلى حل آخر.

ينبغي إلا نظن أن الطريقة لإعادة الحضارة الإسلامية – هي أن نحطم الحضارة الغربية أو أن يكون لنا من القوة المادية ما لهم حتى نستطيع أن تغلب عليهم، إن الأسباب الفعلية كثيرة جدا فينبغي إلا نحصر أنفسنا في واحدة منها – مثلا من الممكن جداً أن يقبل كثير من هؤلاء الإسلام فيرثنا الله سبحانه وتعالى أرضهم وديارهم، يعني لا ينبغي أن نفكر في الإسلام تفكيراً قومياً فيظن أن المسلمين هم الذين يسكنون ما يسمى الآن بالعالم الإسلامي، يمكن أن ينشأ مسلمون في ديار الغرب نفسه يؤول إليهم أمر هذه الحضارة بإذن الله سبحانه وتعالى – أقول قولي وأستغفر الله العظم لي ولكم–..

الدكتور جعفر شيخ إدريس..

أريد أن أصرف جزءاً من وقتي في مناقشة الدكتور الفاروقي – لقد كان التصوف في رأي رد فعل ضد الاتجاه الذي حصر الدين في المظاهر الخارجية – الدراسة قدمت على التقوى، العمل الخارجي قدم على الأحوال النفسية – إرادة الإنسان نسيت معها ارادة الله – علوم الدين صارت كفنون الحدادة والتجارة لا روح فيها، لهذا أسمى الغزالي كتابه (إحياء علوم الدين). والانطباع الذي خرجت به من كلام الدكتور الفاروقي أنه يريد أن ينتقل من طرف إلى طرف آخر، وأنا أدعو وأعتقد أن التوحيد ليس مع التصوف، وليس مع الطرق الأخرى، إنما وسط بينهما – إنه يجمع بينهما ولا تناقض

بينهما، وكثير من الأشياء التي أخذها على المتصوفة فيها جزء من الحقيقة، المتصوفة أخطأوا فيما أنكروه وأصابوا في كثير ما أثبتوه – المعرفة نور يغدقه الله في القلب نعم – ولكن هذا لا يعني أنه ليس له أسباب خارجية – المعرفة تعتمد على حال العارف نعم – ولكن هذا لا يعني أنها لا تعتمد أيضا على حال الذي يراد معرفته، الخير أساساً في النفس نعم، ولكن هذا لا يعني أنه يبقى في النفس فقط ولا يترجم إلى الخارج، التهذيب النفسي هو الأساس، الأخلاق قائمة على البيئة، كل هذا صحيح، والأحاديث كما ذكر الأخ المناقش توضح هذا، ولكن الخطأ هو إن نقول إن هذا ليس ذاك الصحيح. إن الدين أساس في القلب ولكن العمل هو ترجمة ضرورية لهذا القائم في النفس وإلا لم يكن هناك فرق بين المنافق والمؤمن؛ لأن المنافق يمكن أن يأتي بأعمال خارجية تشابه أعمال المؤمن، وأيضاً إذا قلنا هذا فإن الرجل الذي يعزم على الخير عزماً قوياً ولكنه لا يستطيع أن يترجم عمله هذا إلى أشياء لن يعتبر خيراً، ونحن نعلم أن هذا خير – أنفق ما تبقى من الوقت على ما جاء من الأسئلة – الإيمان ليس شرطاً في بقاء الحضارة، هذا يا أخي ليس صحيحاً، الإيمان ليس شرطاً في وجود الحضارة المادية لأن هذه نعمة، الله سبحانه وتعالى لا يشترط أن يكون المنعم عليه بها مؤمناً، فهو يعطيها فضلاً منه، فالإيمان ليس شرطاً في وجودها ولكنه شرط في استمرارها؛ لأن الذي يعطي هذه النعمة ثم يستمر في كفره بالله وظلمه للناس وكذا وكذا لا بد أن تنهار حضارته وهذا هو أملنا في انهيار الحضارة الغربية من هذه الناحية – قوم يقادون إلى الجنة في سلاسل الحديث، كما أفهمه، كما عرفت من تفسيره يا أخي ليس فيه تبرير لذل المسلم، وانما الحديث معناه أن بعض الناس يكونون كفاراً – فيحاربون المسلمين فيأسرهم فيكون هذا سبباً في إيمانهم فهم عندما أذلوا كانوا كفاراً ولم يكونوا مسلمين. إن كنت قلت ينبغي ألا تكشف عيون الحضارة الغربية فأنا مخطئ بل ينبغي أن نفعل هذا، ولكن أظن أن الذي قلته هو أننا لا ينبغي أن نتصور أن الطريق المادي فيها. ليس من شرط قيام الحضارة الإسلامية أن ينهار هذا الصرح المادي للحضارة الغربية، بل يمكن أن يبقى هو وأن تزول الأسس الثقافية الفلسفية له، ويكون هذا ميراثاً للمؤمنين، فيتحول إلى حضارة إسلامية، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

***

فرفرة دجال

محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في الخرطوم يوم السبت ١٤٢٧/٣/١هـ الموافق ٢٠٠٦/٤/٢٥م

بسم الله إن الحمد لله نحمد ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ثم أما بعد:

يحسن أن ابدأ بشرح عنوان هذه الكلمة وأظن أن كثيراً من الناس استغربوا هذا العنوان، العنوان هو فرفرة دجال خطرت ببالي كلمة فرفرة وهي كلمة سودانية معروفة، فقلت يحسن أن أتأكد من عربيتها فذهبت إلى القاموس فوجدت أكثر مما أريد وجدت المعنى السوداني وكان لها معنى ثاني فرفرة أسرع من الحماقة، والمعنى الثالث قال فرفر في كلامه أكثر وخلط فقلت والله ما أظن صاحب القاموس كان يظن أن هذه المعاني كلها ستجتمع في شخص واحد، وأما الدجال فتعرفون أهم ما يمتاز به الدجال هو الكذب، وصاحبنا هذا مرد على الكذب عنده مقدرة عجيبة عرفته خمسين عاماً تقريباً عنده مقدرة عجيبة على أن يعيش حياتاً غير التي يؤمن بها طوال هذه المدة كان رئيساً لجماعة إسلامية وهو لا يؤمن بشيء منها لا يؤمن بأهدافها ولا برجالها ولا بكتبها وكان كما قال هو في إحدى محاضراته كنت قائد الدعوة إلى الدستور الإسلامي ولحسن الحظ لم يسألني أحد ما معنى الدستور الإسلامي، واعتقاده هذا هو الاعتقاد الصحيح اعتقاده الصحيح بمعنى أن هذا هو الذي يعتقده فعلاً لأنني أذكر جداً أنه قبل أن يصير رئيساً لهذه الجماعة المنكوبة قبل أن يصير رئيساً لها اشترك في ندوة بجامعة الخرطوم تكلم فيها وسخر من فكرة الدستور

الإسلامي سخر منها ثم بعد ذلك، أنا كنت دائماً أستغرب كيف يمكن لإنسان أن يعيش حياة ظاهرية تخالف مخالفةً كاملة ما يبطنه من أفكار ومن أشكال حتى هذا اللحية من أشد الناس كراهيةً لها ولكنه ملتزم بها لأسباب دنيوية ويترأس جماعة وهو يكرهها لأسباب دنيوية، ويتكلم عن الدين وهو لا يؤمن به، ما تخافوا من كلامي هذا ما في أحد يقول لكم لا تكفروا الناس، يا أخي ربك كفر ما نكفر كيف ؟! الكافر حكم شرعي الذي يقول ما في كفر هو نفسه كفر الكفر حكم شرعي الإنسان إذا كفر سواء اعترف بكفره أو لم يعترف لا بد أن يقال يحكم عليه بأنه كفر ماذا تفعل بعد أن تقول له أنك كفرت هذا أمر آخر لكن الآن الإسلامي الأمريكاني إسلام ما فيه كفر إسلام يراد من المسلمين أن يكونوا فيه كالنصارى واليهود المحدثين ما تستطيع أن تقول هذا كفر وهذا لم يكفر وأنا قصصت قصة سمعتها في أمريكا إحدى الكنائس الضالة -كل الكنائس ضالة- ولكن هذه أشد ضلالاً اختارت لها قساً يعلن أنه شاذ معلن وجاء معه صاحبه أيضاً صاحبه الذي هو متزوجه جاء معه يوم الانتخابات وانتخبوه بنسبة ستين في المئة، بعد الانتخاب قال للناس إن الذين اعترضوا على انتخابي كان معهم بعض الحق: لأن هذا الذي فعلناه مخالف لتقاليد الكنيسة، ومخالف لنصوص الكتاب المقدس ومخالف نسيت الكلمة الثالث لكن هذا لا يعني أنه ليس بصحيح إذا كان مخالفاً لتقاليد الكنيسة ومخالفاً لنصوص الكتاب المقدس، ومع ذلك هو صحيح، فقلت لإخواننا في أمريكا يريدون أن يقولوا لكم افعلوا شيئاً وقولوا والله إنه مخالف لنصوص الكتاب والسنة، مخالف لنصوص الكتاب ومخالف للسنة ومخالف للإجماع، لكن هذا لا يعني أنه غير صحيح، هذا هو الدين الأمريكي الدين الأمريكي دين هلامي وهذه نفس الفكرة فكرة حرية الدين من الخبائث أو من أنواع الضلال التي تحدث في عصرنا أن يؤخذ نص إسلامي ويعطى معنى غربيا ثم إذا التزمتم بهذا المعنى الغربي تكاد تكون أضعت الدين كله من هذا قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، لا إكراه في الدين عندنا معنى معروف لكن يقول لك لا إكراه في الدين معناها حرية الدين و حرية الدين بالمعنى الغربي حرية الدين معناها أنه أن الإنسان بإمكانه أن يخرج من الدين ويطلع

مثل ما يقول صاحبنا هذا الدجال الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا هذا الدين الذي هو يريده قلت لهم إذاً أمشي مع هذا المنطق إلى نهايته إذا أنت سمحت لي أن أخرج من الدين كله ما تسمح لي أن أخرج من جزء منه، يا أخي أنا مسلم لكن لا أريد أن أصلي تقول لي أنت لست مسلما ما يمكن هذه حرية دين، يا أخي أنا مسلم لكن ما أريد أدفع زكاة أمشي على كيفي ما هي النتيجة؟ النتيجة أن هذا الدين لا يمكن أن يكون نظام دولة لأن الدولة لا بد أن تقول للناس افعلوا هذا لا تفعلوا هذا إذا فعلتوا هذا جازيناكم، إذا لم تفعلوا هذا عاقبناكم وكذا وكذا لكن إذا صار الدين بهذا المعنى فلا يمكن أن يكون دولة وصاحبكم هذا أو هو صاحبنا والله ما أعرف هذا هو في الحقيقة رأيه ويخرجه لكم بالقطاعي، مثلاً قال لكم في الفتاوى الأخيرة هي بالمناسبة دي ما تظن هذه فتاوى هي تعبير عن كفر ليس من الفتاوى. قال الخمر لا تعتبر جريمة يعاقب عليها القانون إلا إذا ارتبطت بالعدوان بالله!! شخص يقول مثل هذا الكلام وعنده عقل؟ طيب إذا عملت عدوانا بدون خمر ما أعاقب ؟! يقول لك واحد والله إذا لبست قميصاً أخضر واعتديت ما أعاقبك طيب إذا لبست قميصا أحمر واعتديت ما أعاقب إذا اعتديت وما لبست قميص أخضر ما أعاقب، وأظن في المحاضرة الأخيرة أيضا قال كلمة أخرى في هذا المعنى، المهم يريد أن يقول لكم إن هذا الدين هو قال قبل ذلك في بعض المحاضرات قال إذا كان هنالك، أنا قلت هذا في محاضرة قبل عشر سنين، قال إذا هنالك مائة مسألة دستورية في الفقه الإسلامي كله ما فيه ثلاث منها وهذا زعيم الدستور الإسلامي، وقائد الحركة الإسلامية المباركة، أنا أقول لكم هذا إنسان غير مسلم لا تخافوا من كلامي هذا إنسان غير مسلم إلا أن يسلم بعد ذلك ما ندري، لماذا أقول عنه إنه إنسان غير مسلم واحد يقول لك ما تدخل في ضمائر الناس يا أخي ما أدخل في ضمائر الناس هل أنا عندي مقدرة أن أدخل في ضمائر الناس ما عندي لكن الله سبحانه وتعالى علمنا أن هنالك أشياء ظاهرة تدل على أشياء باطنة أليس كذلك؟ قال سبحانه وتعالى لرسوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، عن المنافقين: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، الإنسان المنافق ما يستطيع

أبداً أن يخفي كل ما في قلبه لسانه لابد أن يخونه أو بعض أفعاله أنا دائماً أستغرب في المنافقين في زمن الرسول ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [التوبة: ١٠٧]، زعيم حركة إسلامية أنا أقول في نفسي هؤلاء ناس مغفلون واحد عايش في زمن النبي وبعدين يأتي يعمل مسجداً كفراً وضراراً وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ويظن أن الله لا يخبر رسوله بهذا لكن المنافق على قلبه غشاوة وصاحبكم هذا هو من هذا النوع الكلام الذي يقوله الآن في الأحاديث العامة كان يخفي كثيراً منه، ولا يقوله إلا في إحدى حالتين، إما في جلسات خاصة يطمئن إلى الناس الذي يتحدث إليهم أو عندما ييأس، عندما ييأس يتكلم أحياناً يتكلم وهو في السجن لماذا يتكلم عندما ييأس لأن أصلاً غرضه من الدين مسألة دنيوية، وربنا سبحانه وتعالى مكر به تركه حتى ما مشى ومشى حتى ما قرب من الشيء الذي يريده ربنا ضربه ورماه، فلذلك هو عنده حقد شديد الآن من مسألة الدين هذه، فكان عندما ييأس يتكلم في السجن يقول كذا وكذا الآن هذا الكلام الذي قاله لكم هذا شيء جديد ما كان في الماضي يجمع كل هذه الخزعبلات ويقولها في محاضرة واحدة، وأنا خائف من هذا الأمر ليس خائفاً منه أنا أخشى أن يكون وراء هذه الأمر شيء، صاحبكم هذا لا يتكلم إلا لغرض دنيوي والكلام الذي قاله لكم هو الكلام الذي تريده أمريكا ويريده الغرب. الغربيون مستغربون في هذا الدين قالوا هذا الدين ما عنده دولة قوية تقف وراءه المسلمون كلهم أقوى دولة عندهم يمكن أن تهزمها أي دولة غربية، ولكن دينهم هذا مع هذا هو الذي ينتشر يعني كيف تكون دولة ضعيفة ودينها هو الدين القوي الذي ينتشر؟! وفي آخر وثيقة أخرجتها مجلة مشهوره اسمها "نيوز" وكتب الكلام رجل صحفي مشهور اسمه كافلاند، فكتب في المقال أنه قال هذه أول مرة يكتب فيها في وثيقة رسمية وإن كانت سرية توزع للمسؤولين قال هذه أول مرة يصرح فيها في وثيقة رسمية بأن الدين الإسلامي الدين ليس ابن لادن ولا غيره الدين خطر على أمريكا الدين الإسلامي

ولذلك لابد من أن يكون هنالك جهد كبير لتغيير هذا الدين وكتبوا تفاصيل بعد ذلك بأنه ما الوسائل التي يغير بها هذا الدين من ضمنها، طبعاً صاحبكم كلمكم كثيراً عن أوروبا عملت ماذا، هذا الكلام الذي يقولونه اعملوا مثل ما عملنا مثل ما نحن غيّرنا ديننا وجعلناه مناسباً مع العقل أنتم لابد أن تغيروا دينكم، فأنا كتبت مقالاً باللغة الإنجليزية قلت يا أخي إذا أنتم غيرتم دينكم والناس تركوه ونحن ما غيرنا ديننا والناس مقبلون عليه نغيره لماذا؟! نكون مغفلين، لقد كان هناك قس بريطاني سألوه قالوا له لماذا أسلمت؟ قال لسبب بسيط جداً المسيحية التي تدرس الآن في الكنيسة غير المسيحية التي كانت تدرس عندما كنت أنا شاباً أذهب إلى الكنيسة ثم وجدت أن الإسلام هذا أن الناس يصلون نفس الصلوات التي كانوا يصلونها في زمن نبيهم، ويحجون نفس الحج، ويصومون نفس الصوم ويزكون نفس الزكاة ويشهدون نفس الشهادة؛ أركان الإسلام الخمسة هذه، فقلت لنفسي إذا كان هذا الدين المسيحي تغير في زماني أنا هذا التغيير فكيف به منذ أن نزل عيسى، وإذا كان هذا الدين الإسلامي لم يتغير طوال هذه المدة فلابد أن يكون هو الدين الحق فصاحبكم هذا هو وواحد أخر مثله يريدون أن يقولوا للأمريكان نحن الناس الذين تبحثون عنهم نحن الذين سنغير لكم الدين الإسلامي، وأنا في رأيي أن المحاضرة هذه وإن كان ما سمعتها كلها سمعت جزءاً كبيراً منها، أنا في رأيي هي إعلان حتى لجماعته، لو كانوا يفهمون يقول لهم أنا متوجه لجهة ثانية وهو ترك الإسلاميين الآن بكل أنواعه وبكل أشكاله واتجه إلى جهة ثانية هذه الجهة الثانية أنا خائف منها ما أدري ماذا سيحدث لبلدكم هذه بصاحبنا هذا ومعه صاحبه الثاني وبعض الناس الآخرين، أنا قلت لكم من الصعب على الإنسان أن يكفر إنسان مسلماً لكن الله سبحانه وتعالى أعطانا أدلة نعرف بها (ولتعرفنهم في لحن القول) الدين هذا هو أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إذا قلت بلسانك كلاماً ينقض هذا الذي شهدت به فأنت منافق ويشهد عليك الناس أنك منافق ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وربنا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]،

يعني في قولهم إنا نشهد أنك رسول الله كيف عرفنا أنهم كاذبون بأفعال أخرى يعملونها لو إنسان يقول لك الباب مفتوح، وبعد قليل يقول لإنسان آخر والله أنا في رأيي الباب مقفول هذا تناقض هل يكون كلامه الأول قائم هذا تناقض، وكذلك لو إنسان يقول أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمداً رسول الله وبعد قليل يقول لناس قريبين منه النبي ليس معصوماً، ويعتقد أن النبي يخطئ مثله مثل غيره من البشر يخطئ وهذا الكلام شاع عنه ويلبس به على كثير من الناس، أنا في المحاضرة الأولى التزمت بأني لا أقول عنه إلا كلاماً قد قاله أو نشره لكن في هذه المرة سأحكي لكم قصص لأنها عندما تكثر تدل على أنها حقيقة وهذه كروايات الحديث، كنا في باكستان في مؤتمر الإعجاز العلمي للقرآن والسنة، ولاحظنا أنه لا يقبل السنة أبدا فجاءني أخ فاضل لا أريد أن أذكر اسمه الآن لأني لم أستأذنه وهو على كل حال قريب بينكم موجود قال لي إن الدجال هذا قال له يا أخي ما يمكن كل حاجة تطلع من خشم النبي تكون صحيحة أصله كمبيوتر إلهي؟ قلت والله صاحبك هذا لا عارف ربه ولا عارف الكمبيوتر هو أهم الرسول أم الكمبيوتر هو يريد أن يمثل الرسول بأنه كمبيوتر قلت له يا فلان اسمه عبدالرحمن يا عبدالرحمن قال لي الرسول هذا بشر كيف كل حاجة تطلع من خشمه صحيحة، قلت له يا أخي هذا بشر رسول ربنا أرسله ولذلك عصمه لكي يبلغ الرسالة، لو ابنك على صلة دائماً بك و سمعته يقول كلاماً خطأً ألم تصححه، تصححه.. الرسول ﷺ لو أن إنساناً تكلم أمامه كلاماً خطأً لا يصححه؟ قال يصححه. طيب قلت له يا عبدالرحمن هذا رجل متصل بالله يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه وربنا سبحانه وتعالى يراه فعل شيئا خطأ أو قال شيئا خطأ ما يصححه، هذا عدم ثقة بالله ليس عدم ثقة بالرسول ﷺ فقط، ولذلك كان تمشيا مع هذه القاعدة يقول كلاماً مشهوراً عنه أنا في مسائل الطب أقدم رأي الطبيب الكافر على حديث الرسول ﷺ يا إخوان هذا إنسان مسلم؟! يا إخوان هذا إنسان ليس بمسلم لا تخافوا أبداً الذي يقول هذا ليس مسلماً لا تخافوا، وإلا أبواب الردة في كتب الفقه ما لها معنى وليست لازمة أليس كذلك؟ إذا كان لا يمكن أن تقول على أي إنسان إنه كفر وما في ردة ما في لزوم لهذه الأبواب في كتب الردة، فالإنسان الذي ينكر ما هو

معلوم من الدين بالضرورة هذا كفر، هذا في الأشياء العادية يعني لو إنسان قال الماء حرام كفر؛ لأن هذا معروف بالدين بالضرورة أن الماء حلال طيب فكيف بإنسان يقول إن الرسول ﷺ غير معصوم، وأن كلامه يمكن أن يكون فيه خطأ وكذا.

أنا أحكي لكم كلاما فليكذبه، وإذا كذبه سيشهد عليه الذين سمعوه منه، أنا لن أقول أسماءهم، قال لشخصين كبيرين معروفين أنا أعلم من النبي، طبعاً السودانيين مساكين لو قال هذا الكلام لكانوا اتخذوا معه إجراء آخر، موضوعنا هذا الكلام فيه أهم من الحد؛ لأنه لو قيل لي أن أقدم هذا الكلام لمحكمة أقول ما تقدموه لأنه ستحصل فتنة يأتي العلمانيون المحامون وعلمانيون من الخارج وخواجات وحرية الفكر، نحن سنقتله بالكلام هذا الكلام الذي نبنيه على ديننا، فقال عندما خرجنا سكتنا في كلامنا واحد قال للثاني أنت سمعت ما قال الرجل ؟ قال والله أنا سمعته قال كذا، قال إذاً نرجع له ونسأله، فقال أنت قلت كذا وكذا؟! فقال لا أنا قلت: أنا أعلم من أبي! فقلت هل سمعتم سودانياً يقول أبي، أخ ثاني قال أنا أيضاً سمعته قالي لي أنا أعلم من النبي فلما رآني استنكرت الكلام قال لي في الأمور الدنيوية، فقلت له ومن الذي أدراه أنه أعلم بالأمور الدنيوية وأي أمور دنيوية؟ النبي ﷺ ربنا أطلعه على أخبار تاريخ الماضين، وربنا أطلعه على المستقبل، وربنا أطلعه على كثير من أسرار الناس في زمان النبي ﷺ ربنا مكنه من أن يخاطب الجماد ومن أن يتكلم مع النبات ومن أن يخاطب الحيوان، وأنت تقول أنا أعلم من النبي قال؟! أنا بعرف لغة فرنسية والنبي لا يعرف لغة فرنسية، طيب تعرف اللغة الفرنسية وماذا يعني ذلك حتى لو افترضنا أنك فرنسي، فأنا أريدكم أن تركزوا على هذه القضايا الكبيرة يعني واحدة منها في الحقيقة تكفي ما تنشغلوا بأنه قال إمامة المرأة كل أصل الكلام متناقض. قال واحد من إخواننا أن واحداً من جماعته نفسهم قال أنت كلامك متناقض أنت تقول ما تؤمن بأحاديث الآحاد وأحاديث إمامة المرأة هذا حديث آحاد لماذا أخذت هذه الحديث الآحاد هنا وتركت أحاديث الآحاد هنا وليس حديث آحاد فقط بل حديث فيه غرابة من علامات الضلال أن الإنسان يأخذ نصا واحداً ويهدم به بقية النصوص لازم تضع النصوص مع بعضها، وأنت إذا أخذت كلامه هذا ووضعته مع بعض ماذا يحدث؟ أنا فكرت فيه قلت واحدة تتزوج يهودي ألم يقل جائز الجواز من

يهودي وتكشف شعرها وتلبس حتى نصف الساق، وتأتي لتصلي بالناس.. هل هذا إنسان عنده عقل أو إنسان عنده احترام للدين، وبالمناسبة هذا الكلام قاله لكم أنتم ولكن الكلام الذي يقوله لإخوانه إذا خلى بهم عنده حديث بينه وبين الأمريكان قبل سنين عندما كان متمكناً كانوا ينتقدونه كانوا يقولون أنتم تتدخلون في زي المرأة وفي لبسها قال أبدا نحن ما نتدخل قالوا ما تدخلوا في لبس المرأة قال أبداً إلا إذا مشت عريانه تماما.. وفي أمريكا تمنع إذا مشت عريانة تماما. وقال قبل ذلك لجريدة بريطانية إن كل الحدود هذه ليست من الإسلام وإنما هي حدود أخذها المسلمون من اليهود، وثم الكلام الذي يدلس به على بعض الناس أنا فقط ركزت أولا على المواضيع المهمة يا أخوانا إن هذا الرجل ما دام مصراً على هذا الكلام فهو ليس بمسلم أنا قلت قبل كذا في محاضرة قلت ثلاثة أشياء هو فيها كافر، منها أنه قال إن آدم ليس أول البشر لماذا؟! طبعاً من الهوى لكن دائماً الإنسان إذا كان عنده هوى يحاول أن يوجد له أدلة من الشرع ودائماً الأدلة تكون ضده. قال خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها يعني من المرأة زوجها ليسكن إليها. طيب اقرأ آية القرآن الأخرى ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ زوجه ما هو راجله ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، ولما قال للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، هل هي حواء؟ والعرب قالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا محرم على أزواجنا رجالنا هذا لعب بالدين، ربنا سبحانه وتعالى جعله دينا متناسقا ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

بل مره يقول الكلام في مكان وينقض الكلام في مكان آخر، فكلامه عن إباحة الردة أنا لا أقول لكن إباحة الردة كفر هو يقول: يقوله جماعة ثم لكي يأتوا بآيات من القرآن الكريم يدلسون بها على الناس ولكن تحرجهم الأحاديث النبوية فيبحثون لها عن أسباب وعلل ما لها علاقة بالتاريخ ولا بالحديث النبوي ﷺ قال: **(من بدل دينة فاقتلوه)** وصاحبكم هذا قال في إحدى المحاضرات في الماضي لا بأس على إنسان أن يبدل دينه. النبي ﷺ يقول: **(من بدل دينة فاقتلوه)** وهو يقول خلاف ذلك والدستور الذي وضعه لكن المادة الذي فيها القتل حصرها في القصاص لأنه لا يؤمن

بقتل المرتد ولا يؤمن برجم الزاني، فحرف حديث الرسول ﷺ وجعل في دستوركم أنتم ملزمون به أنه لا تقتلوا إنساناً إلا قصاصاً فدائماً الإنسان تحرجه الأحاديث النبوية. مرة كتب في إحدى الجرائد وأنا رددت عليه في جريدة خارج السودان قال من بدل دينه فاقتلوه أصلا مناسبة الحديث أنه كان هنالك بعض المسلمين وارتدوا وذهبوا ووقفوا مع الكفار، وصاروا يقاتلون المسلمين، فالمسلمون شعروا بحرج كيف يقاتلون أُناسا بالأمس كانوا معهم، فالنبي قال لهم: **(من بدل دينه فاقتلوه)** والقصة هذه والله اخترعها من رأسه والقصة فارغة لأنه إذا كان واحد كان معاك اليوم وغداً جاء ليحاربك تتردد في قتله بل تقتله قبل ما تقتل الثاني، والمناسبة التي قال بها، وفي واحد آخر غير صاحبنا هذا اسمه طه جابر قال كلاماً قريباً من هذا في قناة الجزيرة أن القتل لا يكون إلا مع الخروج إلا إذا خرج على الحكومة، وهذه الفكرة أنا سمعتها يوم كنا طلبة في جامعة الخرطوم وأول من سمعناه قال بها عالماً من علماء القاديانية وهو رجل غير عربي ويبدو أنه فهمها خطأ من عنوان في كتاب البخاري باب كتاب المرتدين والمقاتلين هو فهمهما المرتدين المقاتلين واستنتج منها هذه النتيجة، ما المناسبة التي قال بها ابن عباس هذه الحديث، قيل له إن علي بن أبي طالب جاءه جماعة من الزنادقة قالوا له أنت ربنا وركعوا له فكلمهم ووعظهم ما سمعوا الكلام، فقتلهم وأحرقهم. إذا جئت تقول خرجوا عليه واحد قال أنت ربنا هذا خرج عليه فيه استسلام أكثر من هذا، هذا واحد من المناسبات، المناسبة الثانية اليهودي الذي في اليمن اليهودي الذي قال يهودي راجع دينه رجل واحد ما معه جيش ولا خرج لماذا نقتل المرتد؟ قال حرية الضمير، أصلا الضمير هذا ليس هناك إنسان يدخل فيه. نحن لا نقتله لأن نقول له غير ضميرك الضمير هذا ما حد يعرفه، الآن أخوك الذي جالس بجنبك تحلف بالله أنه مؤمن ما تستطيع؛ الإيمان هذا في القلب، فنحن نشهد للناس بالظاهر فالردة هي قول أو فعل ظاهري يناقض الإيمان فنحن نعاقبه على هذا الفعل الظاهر، وهنالك حكم كثيره في هذا أحياناً الإنسان تخطر بباله شبهات، لابد أن كثيرا من الشباب جربوا هذا الواحد تأتيه شبهات وكذا إذا تكلمت بها وأعلنتها تكون كأنك ملتزم بها تقول فلان قال وفلان قال لكن إذا خفت وكتمتها وجعلتها بينك وبين نفسك وأسررت بها إلى بعض أصدقائك أنا أعرف هناك بعض الشباب في أمريكا لكن

أسروا إلي في بعض الأشياء هي كفر، وتكلمت معهم وربنا هداهم واهتدوا والحمد لله وصاروا من أصلح الناس فيحصل للإنسان كذا هذه واحدة.

الحكمة الثانية أن هذا يؤثر في أطفاله وزوجته وأقاربه وربما في أصدقائه ونحن عندنا الإيمان هذا هو أهم ما يملك الإنسان لا نحب للإنسان أن يموت كافرا ولذلك الدين يسد كل الذرائع التي تؤدي إلى الكفر، ليس هناك إنسان يستطيع أن يدخل الإيمان في قلب الإنسان، ولا يستطيع إنسان أن يدخل الكفر في قلب إنسان، حتى النبي لا يستطيع أن يدخل الإيمان في القلب؛ إنك لا تهدي من أحببت ولن يستطيع الشيطان أن يدخل الكفر في القلب (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) فنحن معاملتنا كلها معاملة مع الناس في الظاهر، أنا أريد أن أقول لكم كونوا مستمسكين بدينكم ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٣]، ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣]، الإنسان لا يكون ضعيفا كلما سمع شبهه أثرت فيه، كلما سمع رأياً أثر فيه. كن إنسانا مؤمناً اعرف أن هذا الكتاب الذي تقرأه هذا كلام الله سبحانه وتعالى الذي يعلم الغيب ويعلم ما في السموات وما في الأرض، هذا الكلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ما يكون في قلبك حرج أو شك أو كذا من القرآن الكريم ولا مما ما صح من حديث النبي ﷺ وإذا خطرت ببالك الشكوك أو أسئلة أو كذا لا تحولها إلى مشكلة نفسية اجعلها فقط في مجال الفكر وأنا أقول لكثير من الشباب عاملوا دينكم كما يعامل الساينتست الطبيعة، الآن لو واحد يدرس طبيعة أي نوع من أنواع الطبيعة ووجد مشكلة يقول والله هذه الطبيعة ما فيها فايدة كلها متناقضة مرة نقلى القانون كذا ومرة نجده كذا، ليس هناك إنسان يعمل كذا دائماً الإنسان الذي يدرس يتهم نفسه يقول أنا الذي لم أفهم ويبحث، وكذلك بالنسبة للدين كثير من الأشياء لا نفهمها والله ثم نبحث ونجتهد ونسأل العلماء ونقرأ في التفسير حتى تطمئن قلوبنا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله.

* * *

موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى

محاضرة ألقاها الدكتور في المهرجان الوطني للتراث والثقافة الحادي عشر لعام ١٤١٦هـ.

بسم الرحمن الرحيم

الصلاة والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أما بعد:

أيها الإخوة الكرام.

رأيت أن أحصر موضوع موقف الإسلام من الحضارات الأخرى في سؤال واحد هو: سلامٌ أم صدام؟ وأجبت عن هذا اجابة قصيرة ثم فسرتها في المحاضرة.

فالموقف الذي أراه هو أن يجنح المسلمون إلى السلام وأن يكونوا من الدعاة المخلصين له لا أعني هنا السلام مع إسرائيل وإنما أعني موقف الإسلام عامة من الحضارات والأديان الأخرى أن يكون موقفهم هو موقف السلم وأن يكون مع ذلك مستعدين استعدادا كاملاً للصدام لأن هذا في رأيي لا يتناقض مع ذلك.

المفكرون في الغرب مشغولون جداً بعلاقة الغرب بالحضارات الأخرى وكتبت مقالا قبل مدة في مجلة أمريكية مشهورة جداً على نطاق العالم اسمها "فورن أفيرس السياسة الخارجية"، كتب الأستاذ هانتغتون مقالا سماه "صدام الحضارات" وتوصل إلى نتيجة هي «أنه سيكون هناك صدام بين الغرب من ناحية والحضارتين الإسلامية والكنفشوسية من الناحية الأخرى»، يعني هاتان الحضارتان تتعاونان ضد الحضارة الغربية، **هذا رأي**.

ورأي آخر: كتبه كاتب غربي آخر أمريكي الجنسية اسمه "فوكاياما" وهو من أصل ياباني يقول فيه إن النظم السياسية والاقتصادية وصلت قمتها في النظامين السياسي والاقتصادي الغربيين؛ يعني الليبرالية في السياسة والرأسمالية في الاقتصاد إن هذا ذروة ما تتمناه البشرية، ولذلك فإن كل دول العالم سائرة نحو هذين النظامين وأسمى كتابه لذلك "نهاية التاريخ" طبعاً نهاية التاريخ في هذا المجال لا يعني أن حوادث التاريخ ستقف كما ظنه بعض الناس في هذا، هذا رأي ثانٍ.

الرأي الثالث: يقول إن الصراع في الحقيقة بدأ في داخل الحضارة الغربية نفسها فالحضارة الغربية لم تعد مكونة من ثقافة واحدة إنما هي مكونة من ثقافات، وأن هناك صراع، وأنها لم تعد بذلك هي الحضارة الغربية التي كانت قبل بضع سنين.

ورأي رابع: يقول إن التعايش السلمي بين الناس ممكن إذا ما آمنوا بالتعددية وبالديمقراطية. فلذلك أردنا أن نقول ما موقف الإسلام؟

وأنا هنا مُختلف عن الكتاب الغربيين؛ لأنني لا أتحدث وكأنني عالم اجتماع يدرس الواقع ويحلله ويتنبأ بالمستقبل، هذه ليست مهمتي في هذه المحاضرة. المطلوب مني في هذه المحاضرة أن أقول: ما الموقف الذي ينبغي لمن يريد أن يلتزم بالإسلام، أن يقفه في ظروفنا هذه وفي عصرنا هذا. فأنا إذن لا أتحدث عن واقع وإن كان الواقع في ذهني، وإنما أتحدث عن الموقف الذي أرى أنه الموقف الذي تهدي إليه آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ، فأكرر أن هذا الموقف هو أن نكون من الدعاة المخلصين للسلام، وأن نعد مع ذلك العدة لرد العدوان، ومن أسبابي لهذا :

أولاً: أن للإسلام خاصة يمكن أن نسميها بالتعبير الحديث خاصة العقلانية. أنا أعرف أن كثيراً من المتدينين لا يحبون كلمة العقلانية، بل كثير من الناس يرون أن هناك تناقضاً بين أن يكون الشيء دينياً وعقلانياً. لأن العقلانية مما يميزها هي اعتبار النتائج، فالأعمال والأقوال تقوم بالنتائج التي تنتج عنها، لذلك يقول الإنسان في موقف قولاً لا يقوله في موقف آخر، يقول ويعمل عملاً اليوم لا يعمله غداً بحسب النتائج المترتبة على هذا (هذه هي العقلانية). لكن كثيرا من الناس يظنون أن الأوامر الدينية أوامر مطلقة غير مقيدة بزمان ولا مكان ولا مصلحة ولا اعتبار لظروف ولا كذا ولا كذا، وهذا ليس بصحيح. الإسلام هو عقلاني بهذا المعنى الذي ذكرناه، ولكن العقلانية يمكن أن تقول إن هناك عقلانية شكلية وعقلانية حقيقية. وبعض الغربيين خلطوا بين الأمرين ظنوا أن العقلانيات كلها عقلانيات شكلية.

العقلانية الشكلية هي عقلانية يمكن أن يلتزم بها حتى الإنسان المفسد - يعني اللص يمكن أن يكون عقلانيا - يقدر هل سرقة الشيء الفلاني تستحق في هذا الظرف الذي هو فيه وفي المخاطر التي تحيط به أم لا؟ فتفكيره هذا تفكير عقلاني. يفكر في النتائج.

اللص أيضاً الذي يقول أسرق هذا الذي هو أقل ثمناً وأقل خطورة وأترك ذلك الذي ثمنه غال ولكن احتمال أن يقبض عليّ فيه أكبر عقلاني، ولولا أن الناس يفكرون

بهذه الطريقة لما كان للعقاب من فائدة، لماذا يقول السارق والسارقة تقطع أيديهما. لأن هذا اللص يفكر. أنا إن سرقت ستقطع يدي فيفكر فهو عقلاني بهذا المعنى أيضاً، الشخص الانتهازي يمكن أن يكون عقلانياً بل كثير من الانتهازيين من أكثر الناس عقلانية. نحن نراه يغير موقفه، ويغير انتماءه اليوم مع هذه الجماعة غدا مع تلك الجماعة، اليوم مع هذه الحكومة غداً مع تلك الحكومة؛ لأن له هدفاً يراه بحسب الواقع أن اليوم يحققه هذا الانتماء، غداً يحققه موقف آخر فهو عقلاني، لكن هذ العقلانيات يمكن أن نقول إنها عقلانيات شريرة. والذي يميز الإسلام أن عقلانيته يمكن أن نصفها بأنها عقلانية خيرة. لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى وضع لنا الأهداف التي نتغياها من أعمالنا وأيضا هدانا إلى الوسائل الأساسية التي نلتزم بها في بلوغنا لتلك الغايات فهي عقلانية لكنها عقلانية خيرة وليست عقلانية شريرة. المصالح التي يتغياها المسلمون حصرها كما تعلمون بعض العلماء في أنها حفظ الدين وحفظ العقل وحفظ المال والنسل والعرض وهكذا. فهذه هي الأشياء التي يتغياها المسلم ويجعلها معياراً للعمل هل يُعمل أولا يعمل؟ ما النتائج التي ستحدث عن العمل اعتباراً باعتبار هذه الأهداف. أما المصالح هذه فقد جعل الله وسائلها، بعضها ثابتة لا تتغير إلا في ظروف شاذة جداً مثلاً قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، ثم قال: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨] ثم الله سبحانه وتعالى لا يرضى للإنسان أن يقول كلمة الكفر ولكن قال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. ومنها ما فيه سعة اختيار، اختيار يراعى فيه حال الاختيار ومدى تحقيق الوسيلة للغاية المعنية في الظرف المعين، ومنها وسائل ترك الشرع تحديدها للناس مراعين تلك الأحوال.

ومن الدلائل على هذه العقلانية أن الله سبحانه وتعالى أمر المسلمين في مرة بأن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة ولا يقاتلوا عدوهم في مرة ثانية أذن لهم بالمقاتلة، وفي مرة ثالثة أمرهم بالقتال، رضي من أقوام بالجزية ولم يرض من آخرين، عاهد الرسول ﷺ أقواماً ولم يعاهد آخرين، هم ﷺ ذات مرة أن يتنازل للكفار عن بعض أموال المسلمين، وهكذا. الذي ينظر في هذه المواقف إذا سردت هكذا سرداً يظنها متناقضة

متضاربة. لكنه إذا نظر في ظروفها وملابساتها علم أن وضع واحد منها موضع الآخر هو التناقض المنافي للعقلانية. نعم بعض العلماء قالوا إن آية القتال نسخت كل هذا، بل بالغ بعضهم فقال نسخت قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، لكن هذا القول ما أخذ به المسلمون بل رأينا بعد موت النبي ﷺ كانت الدعوة بالتي هي أحسن، وكان قتال في مرة وكانت معاهدات في مرة وكانت مسالمة في أخرى، ورضي المسلمون في مرة بالتنازل وهكذا. كل ما حدث في زمن النبي ﷺ حدث أيضاً بعد زمانه ﷺ، فإذا نظرنا إلى أحوالنا هذه بهذه النظرة العقلانية سنقول إن السلام من مصلحة المسلمين وسيتبين هذا إن شاء الله في بقية الأسباب.

الخاصة الثانية: التي تجعل المسلم يميل إلى السلام هي موقف نظرة الإسلام إلى الإنسان بينما ترى بعض النظريات أن الإنسان يولد شريراً ووارثاً للخطيئة، ويرى بعضها أن الإنسان محايد بين الخير والشر، ويرى بعضها أن الإنسان لا فطرة له. بل فطرته إنما تحددها الظروف الاجتماعية والاقتصادية وكذا وكذا، وبينما نرى بعض النظريات صارخة في تعصبها العنصري وبعضها يستخفي وهكذا. نجد ان الإسلام واضح جداً في أن الناس مفطورون على الخير ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]، ويوضح الرسول ﷺ هذا في حديثه المشهور: **(كل مولود يولد على الفطرة)** وفي رواية: **(على هذه الملة)** فنحن نعتقد أن كل مولود هو معنا. كل مولود يولد مسلماً والانحرافات هذه طارئة عليه. فإذا عاش الناس في الإسلام واستطعنا أن نوصل هذه الدعوة إلى الناس فنحن نخاطبهم بهذه الفطرة التي فطرهم الله سبحانه عليها، ولذلك كان من سياسة الإسلام أنك تحاول بقدر الإمكان أن توصل هذا الحق إلى الناس ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، بل إن هذه الفطرة لا تتغير أبداً ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فهي لا تتغير. ينحرف الإنسان – يسير ضدها كذا، لكنها هي في حقيقتها لا تتغير. ويظل الإنسان الذي لا يكون اعتقاده وعمله متمشياً مع فطرته يظل في نزاع، ويعلم أنه على باطل إلا قلة من الناس تصل إلى درجة لا تعرف معروفاً أو تنكر منكراً. إن تأكيد الإسلام على ثبات الفطرة وخيريتها يجعلها هي السابقة على الانتماءات الدينية الطارئة

تلك والثقافية والحضارية، فليست الثقافات والحضارات هي التي تصنع فطرة الإنسان وتحدد سلوكه وطرائق تفكيره كما تقول بذلك بعض النظريات الغربية، وإنما فطرته هي المعيار الذي يمكنه من الحكم على تلك الثقافات والحضارات. فما وافقها كان موافقا للإنسان وسبباً لسعادته وما خالفها كان من أسباب شقائه. ولذلك فإن المسلم لا يضيق بوجود الناس على الأرض مهما كانوا مخالفين له، بل يظل يطمع في أوبتهم إلى الخير الذي يدعوهم اليه.

ثالثاً: ان أقيم ما يقدمه المسلم لغير المسلم هو دعوته إلى هذا الحق الموافق لتلك الفطرة. لذلك كانت الدعوة من أجل الأعمال التي يعملها المسلم، وكان جزاء الله عليها من أوفر جزائه سبحانه، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]، وقال ﷺ: **(فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم)** لكن الهداية أمر قلبي لا يمكن أن يجبر الإنسان عليه، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه واضح دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه. بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة. ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً. لذلك لا يستعمل في الدعوة إليه إلا الأساليب التي فيها احترام للإنسان وافتراض أنه إنسان عاقل ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ والحكمة يدخل فيها كما قال العلماء إقامة الأدلة على الدعاوى الإسلامية ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، يدخل فيها بيان كل ما يترتب على قبول الحق وكل ما يترتب على قبول الباطل، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، والمجادلة بالتي هي أحسن يدخل فيها أن تستمع إلى حججه وإلى اعتراضاته وأن لا تحرجه في النقاش وهكذا إلا من ظلم وهذه في أحوال شاذة».

السبب الرابع: أن الإسلام يميز تمييزاً واضحاً بين الحكم على المعتقدات ومعاملة المعتقدين. ففي المعتقدات ليس هناك أنصاف حلول، ليس هناك مجاملة. كل ما كان

نقيضاً للإسلام فهو باطل، وكل ما جاء به الإسلام أو لزم عنه عقلا فهو حق وكل ما لزم عن باطل فهو باطل، سواء قال به مسلم أو قال به كافر فهذا هو الموقف من المعتقدات، وأهم المعتقدات التي يقسم الإسلام الناس على أساسها هي كما تعلمون المعتقدات المتعلقة بالخالق سبحانه وتعالى هل هو موجود أو غير موجود؟، هل يعبد وحده أم يشرك في عبادته غيره؟، هل هو سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى الصفات؟ أم يشاركه في ذلك أحد غيره؟ هل أرسل رسلاً وأنزل كتباً يجب أن تتبع؟ أم ترك الناس سدى؟ فما كان من الجانب الأول في هذه الاختيارات كلها فهو على الحق منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى الأرض إلى الآن. وما كان على الجانب الثاني فهو من أهل الباطل. أما بالنسبة للناس فيختلفون، مثلاً الذي يدخل النار هو الكافر الذي عرف الحق وأباه ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٧-٨]. فإذن كل من لا ينطبق عليه هذا الكلام، كل من لا يقول يوم القيامة، بلى قد جاءنا نذير. لا يدخل النار ابتداءً وهؤلاء هم أهل الفطرة. فمهما كانوا على ضلال وكما قال أحد العلماء أظنه ابن تيمية قال في الحديث (إن الله نظر إلى أهل الأرض عربهم وعجمهم فمقتهم إلا بقايا من أهل الكتاب. فقال مع مقته لهم قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وربما أضيف قسماً ثالثاً: وهو وجدنا عجبا من الناس في أمريكا بهذه الطريقة. هو إنسان بقي على فطرته حتى بعد أن كبر ورأى هذه الأديان التي دُرسها ما قبلها، وعاد إلى فطرته وآمن بأن الله واحد وأنه وحده الذي ينبغي أن يعبد لكن عبده بالطريقة التي دلته عليها الفطرة. لا يعرف إلا الدعاء إلا أن يعمل بعض أعمال الخير لا يعرف شيئاً عن الإسلام أبداً، لا تظنوا أن الناس يعرفون الكثير عن الإسلام، أناس في داخل واشنطن لا يعرفون الإسلام، شباب أسلموا قالوا لي كنا نعتقد أن الإسلام دين السوء فقط، فهؤلاء أنا في رأيي ناجون لأنهم ماتوا على الفطرة والحديث يقول: **(إني خلقت عبادي حنفاء)** الحديث القدسي وفي بعض الروايات. حنفاء يعني على هذا الملة، فإذا بقي على هذه الملة فهو إن شاء الله من الناجين حتى الكفار معاملتهم في الآخرة تختلف عن معاملتهم في الدنيا، فلذلك ينبغي أن نفرق هذه

التفرقة. بالنسبة للكفار في الدنيا. للإسلام شيء يمتاز به على كل الأديان والأيديولوجيات الأخرى وهو أنه يعترف بما يسمونه الآخر. ويعترف بوجود الآخر الله سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ. ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. ما قال له لذلك مهمتك أن تقتلهم جميعاً. الناس ولو حرصت لن يكونوا مؤمنين، ولذلك فصل الإسلام تفصيلاً لم يفصله دين ولا مذهب آخر في كيفية معاملة هؤلاء المخالفين للمسلمين إذا أردتم أن تعرفوا قيمة هذا الاعتراف بوجود الآخر. قارنوا الإسلام بالمذهب الشيوعي مثلاً، الشيوعية من اعتقاداتها أن الناس في النهاية سائرون حتماً إلى الشيوعية ولذلك كل من يقف ضدها فهو يقف ضد حركة التاريخ، وإذا فكر الإنسان بهذه الطريقة فسيقول إذن أنا عندما أقضي على هؤلاء أساعد حركة التاريخ لأن هؤلاء ضدها، حتى أنا قلت رأي فوكاياما هذا الذي يقول إن الناس سائرون حتما إلى النظامين الليبرالي والرأسمالي فيه رائحة هذه الفكرة الشيوعية. الأديان هذه النصرانية واليهودية المحرفة الآن ليس فيها شيء عن الإسلام مع أنها في أصلها فيها شيء. فالدين الوحيد الذي يتكلم عن الآخر ويعلمنا وكيف وماذا نفعل إزاءه هو الإسلام.

خامساً: السلام من البديهيات، أنه يساعد الناس على أن يحققوا مصالحهم المشتركة وأرضنا هذه كما صار التعبير مشهوداً صارت كالقرية الواحدة وهناك مشكلات يجب أن يتعان الناس على حلها، مشكلات تواجه كل الناس مشكلات التلوث مشكلات المخدرات مشكلات البرامج التليفزيونية هذه التي تذاع على العالم كله وهكذا.

فصارت هنالك مشكلات يجب أن يتعاون الناس على حلها جميعاً مسلمون كانوا وغير مسلمين. وزيادة على ذلك السلام يهيئ للناس أو ييسر عليهم أن يتعاون كل منهم مع من يريد من البشر لكن المشكلة في عصرنا والتي أراها تمنع من هذا الوضع المثالي هو موقف الحضارات الغربية. كثراً من الغربيين خائفون جداً من فقدان سيطرتهم هذه التي ظلت سنين، ولذلك صار همهم أن يمنعوا الآخرين من أن يتطوروا كما تطوروا هم لأنهم صاروا يعتقدون أن الناس إذا تطوروا وصارت لهم قوة فهذا خطر

على الحضارة الغربية. فهذه في رأيي المشكلة. ولذلك أنا تعجبت من كلام الأستاذ هانتغتون وأظنه موجود عندنا هنا. عندما قال إن الصراع سيكون بين الإسلام والكنفوشية من جهة والحضارة الغربية من جهة أخرى مع أنه هو نفسه يقول إن أهم مكون للمدنية أو الحضارة هو الدين فقلت في نفسي هل معنى ذلك أن الدين الإسلامي أقرب إلى الكنفوشية منه إلى اليهودية والنصرانية؟ لا يقول أحد بذلك أبدا يعرف الإسلام ويعرف هذين الدينين ويعرف الديانة الكنفوشية.

الإسلام أقرب إلى اليهودية والنصرانية إلى الكنفوشية اذن السبب سبب التعاون إذا حدث لن يكون هو الدين، وإنما معاملة الغرب لأصحاب الحضارات الأخرى لأنك إذا وقفت مني هذا الموقف فأنا سأضطر لأن أتعاون مع من هو في موقفي نتعاون نحن جميعاً عليه.

سادساً: إنه لا يمكن لإنسان عاقل يعرف ما لا يزال العالم ينتجه ويخزنه من أسلحة الدمار، ويعرف الأضرار البالغة الناتجة عن استعمالها، إلا أن يكون مع الداعين إلى تجنب الحروب، محلية كانت أو عالمية. لكن تجنب الحروب يقتضي تجنب أسبابها من كل أنواع الظلم والعدوان. هذا أمر لا تجدي فيه القرارات السياسية وحدها، بل ينبغي أن تتضافر الجهود لجعله جزءاً من ثقافة الناس وقناعاتهم التي يلتزم بها قادتهم ورؤساؤهم.

سابعاً: والمسلمون مؤهلون لأن يؤدوا للبشرية خدمة كبيرة في هذا المجال لأن دينهم يأمرهم بالصدق والوفاء والعدل حتى مع الأعداء، كما يأمرهم بالوقوف إلى جانب الحق وكف المعتدي ولو كان أخاً مسلماً. إن المسلمين إنما اجتمعوا على الحق فموالاة بعضهم لبعض لا تكون إلا لنصرة الحق، أي إنهم مأمورون بأن لا يتعاونوا على بالطل حتى لو كان ضد عدو لهم يمقتونه أشد المقت: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]. بل إن الموالاة تقتضي ليس فقط عدم التعاون والتناصر على الإثم والعدوان، وإنما تقتضي أن يمنع بعضهم بعضا من ارتكاب الظلم والعدوان، وإن أدى ذلك إلى حمل السلاح على المعتدي المسلم:

قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. وقال ﷺ: **(انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)** قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: **(تأخذ فوق يديه)**.

ثامناً: وهذه فكرة أرجو أن تكون صحيحة، أنا في رأي أن العلم الطبيعي يعطي المسلمين الآن فرصة لقبول دينهم أكثر مما يعطي أي دين آخر. العلم الطبيعي هذا يتمثل في منهج عقلاني وفي حقائق اكتشفها العلم وفي تقنية بنيت على هذا العلم. الناس في الغرب إلى الحرب العالمية الثانية كانوا مولعين جداً بالعلم هذا الطبيعي وكانوا يظنون أنه سيحل محل الدين لكن عندما حصلت الحرب خيبت أملهم. وبدأ الناس يرجعون يفكرون في الأديان مرة أخرى. وفي أيامنا هذه صارت الدعوة صار الرجوع إلى ما يسمى بالأصولية ظاهرة عالمية. فالأصولية كما يكتب عنها المفكرون الغربيون ويبحثونها ليست ظاهرة اسلامية فقط وإنما ظاهرة عالمية. كل الناس بدأوا يرجعون إلى دينهم وذلك لأنه خاب أملهم في أن يحل هذا العلم الطبيعي محل دينهم. لكن هنالك أشياء في هذا العالم الطبيعي لا يمكن أن يتنازل عنها الإنسان المثقف وهي العقلانية هذه، والحقائق التي اكتشفها العلم فلا يمكن أن يؤمن الإنسان بدين يرى فيه مناقضة واضحة لما علم بالضرورة أنه حق. أو يرى فيه تناقضاً وهو صارت العقلانية يعني عقلها هي أصلها في فطرة الإنسان لكن علق هذا العلم في ذهنه. فلا يمكن أن يؤمن ويرتاح إلى دين يقول له كلاماً متناقضاً، ولذلك أنا في رأي إذا كان هنالك سلام واستطعنا أن نوصل كلمة الإسلام إلى المثقفين ونعني كبار المثقفين حتى من الشباب وكذا في الجامعات ولأن كل الناس متأثرون بهذا التفكير العلمي إذا استطعنا أن نوصل الإسلام اليهم. فأرجو أن يكون هذا من أسباب قبولهم للإسلام، وأقول هذا ليس ظناً، وإنما أقوله عن تجربة مع بعض الشباب. فلذلك يقولون الآن إن أسرع الأديان انتشاراً في أمريكا هو الإسلام، وقريباً إن شاء الله ستكون الحضارة

الغربية التي توصف بأنها الحضارة النصرانية اليهودية بل ستضاف إليها كلمة الإسلامية، لذلك أنا أرى أن السلام سيساعد على هذا، لكن مع ذلك واختصر الكلام عن ضرورة إعداد القوة. الإسلام دين واقعي، يعني فرق أن تقول أريد السلام وبين أن تجعل الآخرين مؤيدين للسلام، ونحن نتعلم من كتاب ربنا ومن واقعنا حقائق.

١- قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فالناس كل إنسان مهما كان على باطل يرى أنه ما هو عليه هو الحسن (زين لهم).

٢- وإنه كما كان غيرهم أقرب اليهم كان أحب إليهم: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٣].

٣- وأن بعضهم لا يرضون رضى كاملاً إلا عمّن كان على شاكلتهم ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، أريد أن أقول أيها الإخوة كلمة حاضرة، عندما يقول القرآن اليهود والنصارى هذا لا يعني كل يهودي على وجه الأرض وكل نصراني على وجه الأرض، وإنما اليهود والنصارى المعنيون الذين اعتقدوا اعتقادات معينة يعني عندما يقول القرآن مثلا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ما كل يهودي على وجه الأرض يقول عزير ابن الله ولكن كان هنالك طائفة من اليهود تقول هذا. وعندنا الآن في الغرب أناس كثيرون ينتمون إلى النصرانية ولكن لا تنطبق عليهم بعض هذ الصفات لأنه ليسوا النصارى الذين وصفهم القرآن الكريم.

٤- إن حرص بعض هؤلاء على أن يكون غيرهم معهم يدفعهم للضغط على المخالف – ولا سيما مخالفا يساكنهم – يضغطون عليه بأنواع من الضغوط تصل أحياناً حد الضرب أو السجن أو النفي أو حتى القتل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الانفال: ٣٠]. ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف:٨٨].

٥- إن من أهل الأديان والحضارات من يعد دينه أو حضارته من خصائص قوميته ولا يرى الآخرين جديرين بأن يشاركوه فيها بل لا يرى أن يعاملوا معاملة الناس، بل يرى أنه غير ملزم بأن يلتزم حدود المبادئ الأخلاقية في معاملتهم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

٦- كثير من أهل الحضارات يريدون لحضارتهم أن تكون هي الغالبة وهي المسيطرة وأحسن مثال على هذا الحضارة الغربية الراهنة وقال الأستاذ هانتغتون في مقاله الذي أشرت إليه تكلم بصراحة مذهلة، قال القرارات التي تتخذها الأمم المتحدة - اسمعوا هذا الكلام - أو مجلس الأمن أو صندوق النقد الدولي والتي تعبر عن مصالح الغرب. تبرز في العالم أنها المعبرة عن مصالح المجتمع الدولي، بل إن عبارة المجتمع الدولي سارت هي نفسها الاسم الملطف الذي منح الشرعية لكل الأعمال المعبرة عن مصالح الولايات المتحدة وسائر القوى الغربية. فعن طريق مؤسسة النقد وسائر المؤسسات الاقتصادية الدولية يسعى الغرب لخدمة مصالة ويفرض على الأمم الأخرى السياسات الاقتصادية التي يراها مناسبة. ويقول في نفس المقال: ان الهدف من الحد من انتشار الأسلحة كان لتحقيق توزان عسكري مستقر بين الولايات المتحدة وحلفائها والاتحاد السوفيتي وحلفائه. أما في عالم ما بعد الحرب الباردة فقد صار الهدف الأول من الحد من الأسلحة هو منع الدول غير الغربية من تطوير قدرات عسكرية قادرة على تهديد المصالح الغربية. يحاول الغرب أن يحقق هذا عن طريق الاتفاقات الدولية. والضغوط الاقتصادية والحد من نقل تقنية السلاح والعتاد. هذا ليس كلام والضغط الاقتصادية والحد من نقل تقنية السلاح والعتاد. هذا ليس كلام عدو. هذا كلام من أهل البلد وهو عندنا هو الآن.

٧- فإذا لابد للمسلمين أن تكون لهم قوة رادعة على الأقل.

٨- لقد كان من دعاء إبراهيم عليه السلام وقومه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الممتحنة: ٥]. وكان من دعاء موسى عليه السلام وقومه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ

ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:٨٥]. قال ابن كثير: «أي لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنه على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك. من أكثر ما يصد الناس عن الحق أن يروا أهل الحق ضعفاء وخصوصاً إذا كانوا ضعفاء لدرجة أن يسيطر عليهم أهل الباطل. ومن هنا كان إعداد القوة الرادعة أمراً مكملا للدعوة إلى الحق، لأنه بغير القوة يكون الحال صاداً عما يدعو إليه المقال. إن واقع عالمنا يؤكد لنا أهمية هذا الذي يهدينا إليه كتاب ربنا. إن دول العالم تتسابق الآن كلها على اقتناء السلاح. منها ما يفعل ذلك بغرض الدفاع عن نفسه في حالة الاعتداء عليه، ومنهم من يفعل ذلك لمجرد الردع، وهكذا يقول أحد الكتاب الأمريكان في كتاب له اسمه النهوض إلى العالمية. كيف تغيرت سياسة الولايات المتحدة من سياسة محلية إلى سياسة عالمية؟ يقول إنه بعد نصف قرن من الحرب العالمية الثانية أصبح للولايات المتحدة جيش ضخم من القوات العاملة البرية والبحرية والجوية، وأن ميزانية وزارة الدفاع زادت عن ٣٠٠ بليون دولار، وأنه أصبح للولايات المتحدة تحالفات عسكرية مع أكثر من خمسين أمة. وأن لها أكثر من ميلون جندي من المشاة والطيارين والبحرية في أكثر من مائة قطر هؤلاء مليون ليس في الولايات المتحدة هؤلاء في خارج الولايات المتحدة، وأن لها مقدرة هجومية كفيلة بأن تدمر العالم عدة مرات، وأنها استعملت قوتها العسكرية للتدخل في الهند الصينية ولبنان وجمهورية الدومينيكان، وجرانادا، وأمريكا الوسطى والخليج، وأنها أعانت على غزو لكوبا، وأنها وزعت كميات كبيرة من الأسلحة على دول صديقة في العالم وأنها خاضت حروباً باهظة في كوبا وفيتنام. ولكن على الرغم من كل الأموال التي صرفت على الأسلحة، ومهما كان بعد المدى الذي بسطت عليه أمريكا قوتها، فإن الأمن القومي لأمريكا في خطر دائم».

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

س: يقول نحن نعلم أن الإعلام في الدول العربية والإسلامية قد استطاع إبراز الدور الإسلامي الواضح من الإرهاب والإرهابيين، ولكن لا زالت بعض وسائل الإعلام الغربية تتشبث بالنظرة الخاطئة. أن كل إرهابي يتبع جماعة إسلامية. فماذا تقولون في هذا الصدد؟ وماذا تقترحون لتحسين صورة الإسلام في الغرب؟

ج: لابد أن تكون الكتابة في الإعلام الغربي إن أمكن ذلك، أما ما يكتب من الكلام في الصحف والإذاعة في الإذاعات والتليفزيونات العربية فلا يصلهم. وكثير من المنصفين في الدول الغربية يقولون إن الإعلام الغربي يظلم المسلمين ليس في هذا بحسب بل في أشياء كثيرة مثلاً: كان بعض الناس يسخر من وصف قنبلة باكستان التي مازالت فكرة ربما سماها القنبلة الإسلامية فقيل لهم لماذا لم تسمون قنابلكم بالقنبلة اليهودية والقنبلة النصرانية. فالإعلام فعلاً ليس في صالح المسلمين.

س: ذكرتم كلمة الأصولية وهي مصطلح يعني معاني مختلفة للكثير من الأفراد فأرجو إيضاح معناها عندكم.. وشكراً.

ج: أصلاً الأصولية هي تعبير نصراني حديث بعض النصارى كتبوا كتباً سموها الرجوع إلى الأصول، فلذلك سموا بالأصوليين وهؤلاء مازال لهم تأثير كبير في أمريكا بل بعضهم صار الآن في الانتخابات الأخيرة صار له وجود وتأثير حتى في السياسة فأصبح هو الرجوع إلى الأصول هذا هو معناه. عند الغربيين هي كلمة ذنب لأن عندهم الرجوع إلى الأصول معناها أن يأخذ كلمات الكتاب، يسمونه الكتاب المقدس يأخذها على ظاهرها وهم يعتقدون أن هذه الكلمات إذا أخذت على ظاهرها ففيها أخطاء واضحة لا يمكن أن يقبلها إنسان، واضحة يعني مخالفة للعقل أو مخالفة للواقع أو مخالفة لما اكتشفه العلم، فيرون بذلك أن هذا شؤم ذميم مع أنه أنا قلت لهم في إحدى المحاضرات إن الأصولية إذا عرفتم الأصولية بهذا التعريف فكل المسلمين أصوليون. كل المسلمين يعتقدون أن القرآن الكريم كلام الله من أوله إلى آخره. لكن النصارى يعتقدون -ومعهم حق- أن الإنجيل الذي عندهم من أوله إلى آخره ليس كلام الله؛ لأنهم يقولون نحن نعرف أن فيه كلاماً ليس بصحيح إن العالم سينتهي سنة كذا وما انتهى، أشياء واضحة أنها ليست بصحيحة فيقولون لا يمكن أن يكون كلام الله، فقلت لهم بتعريفكم هذا كل المسلمين أصوليون، صارت تطلق على بعض الإسلاميين، صارت أيضا لها معانٍ زائدة على هذا لكن هذا معناها الأصلي. هذا المعنى الذي قصدته بمعنى عندما قلت إنها صارت ظاهرة عالمية درستها جامعة شيكاغو، وأصدروا ثلاثة مجلدات كبار عن الأصولية في العالم في كل الديانات. لكن التي اشتهرت الأصولية الإسلامية.

س: لماذا الصراع القائم في جميع الحضارات هو صراع الأديان؟ وما هي قصة رد السفير الألماني في المغرب على كتاب نهاية التاريخ؟

لدي طلب من الأخ الدكتور/ مرزوق بن صنيتان فليتفضل:

شكراً لفضيلة المحاضر على الكلمة عن الإسلام والغرب وأظن موضوع المحاضرة كان موقف الإسلام من الغرب موقف الإسلام الشرعي من الغرب. وأنا أشكره على ما قدم وإن كنت أظن أن ما كنت أتوقع في ذهني لن يأتي لأني لم أحدد الموقف وفي ظني أن موقف الإسلام من الغرب معروف للجميع لكن موقف الإسلام نفسه من الغرب هو الذي وجدته أن يتفضل المحاضر ويزيده وضوحاً. فنحن كما تفضل أو كما يقول الناس قرية صغيرة أو العالم تحول إلى قرية صغيرة ونحن من سكان هذه القرية. وأنا إذا سمح لي المحاضر وسمح لي الأخ مدير الجلسة أن أزيد توضيحاً آخر أو تقنينا للقرية وأقول إن العالم أصبح بيت عائلة واحدة ولكن هذه العائلة أنجبت الأولاد بنين وبنات فتربوا مختلفين في أماكن مختلفة فيهم من كان فلاحاً وفيهم مزارعاً وفيهم من كان مصارعاً وفيهم من كان مثقفاً متعلماً ثم جمعوا في هذا البيت مع اختلاف تخصصاتهم وقدراتهم وثقافتهم وطلب منهم أن يعيشوا في هذا المسكن الصغير. العالم الإسلامي فرد في هذه العائلة ومتميز عنها وإذا تحدثنا عن الإسلام وعن المسلمين وعن الغرب تحدثنا عن منطلق نعرفه وهو ما نعرف نحن عن الإسلام وموقفنا من الإسلام وقدرتنا على فهمه. لكن ما فهمنا موقف الغرب منا نحن كمسلمين وبالتالي عجز المسلمين الواضح اليوم عن التعامل مع الغرب وهو في هذا المنزل الضيق. الإسلامي الآن يتعامل مستقلاً بوعيه وثقافته عن بيت يعيش فيه، فما رأي المحاضر الكريم في هذا الموقف؟ شكراً.

أولاً عن الملاحظة الأولى: نعم كان مطلوباً مني أنه رؤية شرعية، ولكن أنا قلت إذا جعلتها كلاماً مجرداً، مجرد نصوص. أن الإسلام يقول عن اليهودية كذا وعن النصرانية كذا ويقول عن كذا، رأيت أن هذا قد لا يكون مناسباً مع الموضوع العام للمهرجان الثقافي وهو موقف الإسلام من الغرب فأردت أن يكون الحديث أولاً محدداً بدلا من أن يكون موقف الإسلام في كل شيء. لأنه إذا تحدثنا عن كل شيء سنتحدث عن الزواج من أهل الكتاب وعدم الزواج من كذا وأخذ الجزية من هؤلاء

وعدم أخذها من هؤلاء وكذا وكذا وأردت أن أحصرها في الموضوع الذي يناقشه الناس الآن وهو موضوع السلام أم الصدام؟ هذا الذي هو جعلني أفكر فيه.

لست أظن يا أخي أني كنت فهمت كلامك فهماً صحيحاً. المشكلة ليست من المسلمين فحسب. كل الناس الآن فهمهم لبعض فيه أخطاء، من المؤكد أن تصوراتنا واكتشفت هذا بعد أن عشت في أمريكا مدة من الزمان وصرت متفائلا جداً من أن يعني الآن أنا كثير التفاؤل بأنه إذا عشنا في سلام إن شاء الله سينتشر هذا الدين في أمريكا وفي سائر البلاد الغربية. والذي أخشاه ليس أن تقوم حروب أو كذا، وإنما أن تحدث فتن باسم المسلمين من بعض المسلمين، أو ممن يُدخل في صفوف المسلمين ويقوم بأعمال أو كذا تنفر الناس من الدين. لكن إذا ساد هذا النظام الديمقراطي الذي يعطي الناس الحرية في الدعوة والتزامنا نحن بالدعوة السليمة وبيان الحُجج إن شاء الله ينتشر الدين.

إذا كنا نحن مخطئين هم أيضاً مخطئون، كثير منهم تصوراتهم للمسلمين تصورات في غاية الجهالة أو بعضها في غاية السذاجة وبعضها في غاية العداوة، فإذا كنا نحن مخطئين فهم أيضاً كثير منهم مخطئون، نحن نقرأ عنهم ونهتم بهم وكثيرون منهم لا يريدون أن يقرأوا شيئاً عن الإسلام.

بعض الشباب الذين أسلموا قالوا ما كنا نعتقد أن هناك كتاباً غير الكتاب المقدس هذا يقال أنه منزل من عند الله يعني ليس صحيحاً أو صواباً ما في كتاب حتى يقال بزعم أهله أنه منزل من عند الله، فهناك جهل عجيب بالإسلام.

س: فهمت من خلال الحديث أن الإسلام ذو ميزة تكتيكية، وأرجو أن أكون مخطئاً. فكما هو معلوم أن العبادات في الإسلام توقيفية، وقد قال الرسول ﷺ سأقرأ ما كتبه وإن كنت أعتقد أنه غير صحيح -: **(كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد)**، أو كما قال كي يستدرك لنفسه. وما جاء في بعض أعمال الصحابة يدخل في باب الاجتهاد الواثب حتى يواكب الإنسان تغيرات الزمان، ويلبي احتياجاته على مر العصور. أما تعاون النقل مع العقل فهذا صحيح، والعقل الصحيح لا يتعارض مع النص الصحيح. أرجو توضيح ذلك؟

ج: ما عرفتم المشكلة، لأنه حتى العبادات يا أخي، أنا قلت إن هناك وسائل ثابتة لا تتغير، لكن حتى هذه يراعى فيها يا أخي النتائج حتى الاعتقاد. تقرأ في القرآن الكريم حتى عن المعتقدات لا يعطيك الأدلة فقط. وإنما يعطيك ما سيترتب على إيمانك بهذه الحقائق، هذه هي العقلانية. يعني إذا آمنت ما النزعة التي سينتج عن هذا الإيمان في هذه الحياة الدنيا، ثم في الآخرة. إذا كفرت ما الذي ينتج عن هذا، حتى الصلاة يتحدث عن نتائجها، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، يعني ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر. وتراعي حتى في هذه العبادات تراعي الظروف. فالصلاة في السفر غيرها في الحضر، الصلاة في الحرب. ما قال أنا أمرتكم بالصلاة فصفوا وأنتم في مواجهة العدو. وقفوا ولا يهمنكم أنا معكم توكلوا وصلوا. فقد فصل تفصيلا. كيف تصلون وأنتم في موقف الحرب بل قال العلماء إنه إذا لم يمكن هذا فكل إنسان يصلي لنفسه فهذه هي التي أريد أن أركز عليها. هذه هي التي أسميها العقلانية، التي تدل عليها النصوص ويدل عليها عمل النبي ﷺ وهي التي يفتي بها عظماء علمائنا وكبار علمائنا ويضيق بها بعض المبتدئين من الشباب المتدينين. يميل الإنسان المتدين الذي لم يتعمق في دينه إلى أن يأخذ النصوص منعزلة تماماً من نتائجها. وتناقش بعضهم فتقول له. يعني مثلا يا أخي لا تعمل العمل الفلاني هذا. لأن نتائجه كذا وكذا. ما حصل منه إلا ضرر يقول لك لا أنا لا يهمني. ربنا قال قاتلوهم وأنا أقاتلهم. ربنا ما قال بغض النظر عن الظروف وبغض النظر عن ما ينتج عن القتال، فكل عمل لابد من النظر إلى نتائجه.

أنا لا أريد أن أذهب -والعياذ بالله- مذهب الذين لا يريدون الدين إطلاقاً والذين يريدون أن يتركوا كل وسائل الدين ويقولون مثلا إن الإسلام جاء بالعدالة وجاء بالمساواة وجاء بكذا وكل ما يحقق هذا فهو من الدين. ولذلك لا نلتزم بزكاة ولا بتحريم ربا لا لا أقول هذا. هذا تطرف والآخر أيضا تطرف، هذا غلو في الدين، وهذا بُعد عن الدين، والأمر الوسط هو الذي تدل عليه النصوص ويدل عليه كلام كبار علمائنا.

الأخ عبد الله بن عودة العطوي. لا أدري هل سؤال هو أم تعقيب؟

يقول ذكرت فيه أن الإسلام يذكر الآخر نقداً على اليهود لا والنصرانية في عدم ذكرها للإسلام هو أمر طبيعي كما كتبها في علاقة السابق باللاحق، وكذا عرفنا أن اليهودية بشرت بالإسلام.

الأخ عبد الله هل هذا سؤال أم تعقيب لأنك أشرت على كلمة تعقيب ؟.

نعم أنا قلت اليهودية والنصرانية الموجودة الآن لا تتحدث عن الإسلام. لكن اليهودية في أصلها. بل كل دين نازل من السماء في أصلها. بل كل دين نازل من السماء في أصله تحدث عن الأديان الأخرى، كل رسول أمر بما أمرنا به النبي ﷺ، نحن من أركان إيماننا أن نؤمن بالرسل جميعاً فهم أيضاً كل رسول أمر من معه من المسلمين، كلهم مسلمون. كل أتباع المسلمين أن يؤمنوا بكل الرسل الذين سبقوه والذين سيأتون بعده ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، هذا نص واضح بالنسبة للرسول ﷺ. لكن الرسل كما قلت أمروا أقوامهم بأن يؤمنوا بكل رسول الذي يؤمن بكل الرسل ما عدا واحداً لا يعتبر مؤمنا بالرسل. فهذا حذف أو صرف أو كذا. المهم أن هاتين الديانتين موجودتان الآن ليس فيهما شيء عن الاسلام. بل الكنيسة الكاثوليكية غيرت لأن عندها الحق حسب دينها أن تصدر أشياء دينية تكلمت عن اليهودية وغيرت بعض المواقف منها ولا أذكر إلا إذا كان بعض الاخوان يعرفون هذا؟

س: وظهرت في ألمانيا في الفترة الأخيرة كتب بأقلام علماء اللاهوت تشكلت بقوة في القول بأن المسيح هو ابن الله. هل هذا هو جزء من اللاعقلانية في الغرب؟ وأن على المسلمين أن يستندوا على هذه الأدلة لاقناع الغربيين بالأدلة الإسلامية العقلانية؟ لا، جزء من العقلانية ليس من اللاعقلانية. لماذا؟

ج: نعم قلت لكم أيها الإخوة أن كثيرا مما عرفناهم لا يعتقدون الآن أن المسيح ابن الله، كثير منهم. بل كان هذا من أسباب إسلام بعضهم. قال لي شاب هداه الله إلى الإسلام أنه منذ أن كان عمره ثلاثة عشر عاماً شك في أن كيف يكون بشر ابن الله؟ وكان من عائلة كاثوليكية متدينة وكان في مدرسة كاثوليكية، وبالإضافة إلى ذلك تلقى عليه دروس خارج المدرسة في الديانة. ويقول فقلت لوالدي أنا لست مقتنعاً وحتى سببت له مشكلة لأنه إذا أراد ان ينتقل من صف كذا إلى صف لا أذكرهم الآن

فلابد أن يجدد إيمانه. فقال لأبيه، أنا لا استطيع أن أكذب. أنا لا أعتقد الآن أن المسيح ابن الله. وهذا هو الشاب الذي يعني تعب، يقول قرأت ما يسمونه بالعهد القديم والعهد الجديد. وقرأ تفاسيره قرأ أكثر من ألف صفحة فيها. وما اقتنع وبقى على فطرته، قال الله واحد قال له يدعوك، يقول وجدت نسخة من ترجمة لآيات من القرآن الكريم. ويقول كانت في غاية الرداءة في اللغة وفي كذا. ورميتها ثم ذهب ليدرس سياسة. شيء له علاقة بالشرق الأوسط فالأستاذ قال له من ضمن المراجع أعطاه القرآن الكريم ترجمه، فعندما قرأه أسلم. فكثير منهم لا يعتقدون أن المسيح ابن الله لكن هذا هو الموقف الرسمي.

بقي من الوقت المخصص خمس دقائق، ولدي طلبات كثيرة للتعقيب لعلي أبداها بالأخ معتصم السدمي، فليتفضل.

معتصم السدمي، تعقيب بسيط على شيخنا الدكتور جعفر شيخ إدريس الواقع أنه نحن كأمة إسلامية أمامنا سلاح خطير لم نستخدمه للأسف الشديد وهو كتاب الله القرآن الكريم، هذا القرآن الذي تحدى به الله سبحانه وتعالى البشر والجن إلى يوم القيامة، هذا القرآن الكريم الذي يوجد فيه لمن أراد أن يتعلم الصناعة فهناك أسس للصناعة، وهناك أسس للزراعة، وهناك أسس للاقتصاد، هناك أسس للتسليح وصناعة الأسلحة، هناك أسس لعلم الفضاء باختصار شديد لكي لا نطيل أعتقد أن الأمة الإسلامية لم تستفد من القرآن الكريم الاستفادة الواجبة، وتقديم القرآن للآخرين من البشر. لأن القرآن الكريم في اعتقادي موجه للبشرية جمعاء. وهو أيضاً ينصف التفكير وعلى أعمال العقل، وأذكر كتاب الأستاذ العقاد التفكير فريضة إسلامية، مأخوذ من عدد من الآيات كثير جداً. دعوة للعقل والدعوة للتفكير بالنسبة لما يوجد في القرآن، فتقديم القرآن للبشرية باعتباره كتاباً من الله الخالق عز وجل للإنسان سيفيد كثيراً وهو كفيل بردم حتى الهوة الإيمانية؛ لأنه عن طريق القرآن نصل للإيمان بالخالق وبالإسلام وبالمبادئ.

النقطة الثانية: علاقتنا بالغرب تنطلق من عدم فهمنا للأسف الشديد للغرب. الغرب ليس مسيحياً وإن كان الغرب الآن ملحداً، الغرب فيه نظريات. ففهمنا للغرب يعني مغلوط، ولهذا يجب أن نفهمه أكثر لكي نتحاور معه أكثر. وشكراً.

-نعم الغرب كله ليس الغرب كله نصرانياً. ولكن الديانة الغالبة والتي يتأثرون بها حتى الذي يترك دينه يبقى متأثراً بهذه الديانة.

هل أقوى البلاد الغربية هي أمريكا؟ وهي أكثر تديناً، يقولون إن عدد المؤمنين بوجود الخالق في أمريكا هو ٩٥٪ نعم. وعدد الذين يذهبون إلى الكنائس فيها أكثر من الدول الأخرى.

بالنسبة للقرآن الكريم. نعم القرآن هو كتاب هداية، ووجدنا أيضاً بالتجربة أن أحسن ما تعطيه لإنسان تريد أن تدعوه إلى الإسلام هو ترجمة القرآن الكريم.

وجدنا أن كثيراً من الناس. هداهم الله سبحانه وتعالى عن طريق هذه الترجمات. ولذلك عزمنا في المعهد إن شاء الله على أن نعطي هذه الترجمات عناية أكبر، يمكن أن تغنينا عن كثير من الكتب التي تترجم وتكتب، أما أن القرآن فيه ما ذكرت أيضاً.

إن كنت تريد بالمعنى العام أنه يدعو الناس إلى هذه الصناعات نعم. أما إن أردت أنه يفصل فها، فليس بصحيح. لأن الله سبحانه وتعالى يترك للناس ما يستطيعون أن يفعلوا إليه بعقولهم، لا يبينها لهم لأنهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك، قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ما قال كيف تصنعون الأسلحة وكيف تفعلون كذا. لأن نحن نستطيع أن نفعل هذا وهؤلاء، إذا قلت هذا. فسيقول لك الغربيون نحن صنعنا كل هذه الأسلحة وما قرأنا قرآناً شيئاً.

فنحن لسنا محتاجين، البشر ليسوا محتاجين إلى القرآن الكريم لكي يدرسوا الطبيعة ولكي تكون لهم تقنية لا في الماضي ولا في الحاضر. ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ٧-١٠]. ما فعلوا هذا عن طريق كتاب سماوي، وإنما باجتهاد البشر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

تجديد الفكر الإسلامي

ندوة عن تجديد الفكر الإسلامي أقامتها جامعة الملك سعود بالرياض، وشارك فيها كل من سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز والدكتور جعفر شيخ إدريس.

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم..

تجديد الفكر الإسلامي، الإسلام هو ديننا، والدين يراد به معنيان يراد به ما أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ من كتاب وسنة والدين بهذا المعنى لا يبلى ولا يحتاج إلى تجديد فهو تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه، ويراد بالدين أيضاً ما يدين به الناس ويعتقدونه ما يدين المنتسبون إلى الإسلام ويعتقدونه وهذا الذي يعتقده الناس قد يبلى وقد تحدث فيه انحرافات وهو الذي يحتاج إلى تجديد وتجديده يكون بجعله موافقاً للدين الذي أنزله الله سبحانه وتعالى وأنواع البلى والتغير التي تصيب الدين بالمعنى الثاني بمعنى ما يدين به الناس كثيرة منها وقد تفضل شيخنا بذكر بعضها وأذكر أيضاً بعضاً منها نقصان العلم بالدين الصحيح إذا نقص العلم بالدين الصحيح كان لهذا آثار سيئة وكان الدين الذي يدين به الناس كأنه قد بلي منها نقصان التطبيق للدين في واقع الحياة يطبق الناس جانباً وينكرون جوانب أخرى ومنها سوء الفهم للدين الصحيح ومنها خلطه ببدع وخرافات وآراء ومعتقدات وأهواء وكل هذا يكون باطلاً ولا يكون جزاءاً من الدين الذي أنزله الله ولكنه يصبح جزاءاً من الدين الذي يدين به بعض المنسبين إلى الإسلام، منها أن يتحول الدين إلى أشكال وهياكل وطقوس لا روح فيها ولا أثر لها على حياة من يزاولها ويتعاطاها لأن الدين الحق هو الذي يؤثر في سلوك الإنسان وفي واقعه فإذا تحول الدين إلى هياكل وأشكال لا روح لها ولا أثر لها فقد بلى هذا الدين فهو يحتاج إلى تجديد ومنها غلبة التقليد وتقديم أراء الرجال والمذاهب على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقد أفاض شيخنا بشرح هذا المعنى أحب أن أضيف إليه نقطة واحدة فقط وهي أن هذا يحدث فتنة يحدث حقيقة فتن كثيرة لكن منها أن التطرف في تقليد الرجال وتقديم آراءهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هذا كثيراً ما يدعوا إلى تطرف أخر وهو الانفلات والتحلل من الدين حتى من المعنى الصحيح لماذا؟ لأن الشخص يرى أن الدين الشخص، الشخص مثلاً طالب في

الجامعة إنسان متدين منتسب إلى الدين ولكنه لا علم له في الدين الحق فهو يرى أن الدين الذي يدين به الناس على أنه الإسلام هو كذا وكذا وكذا ثم يفكر في هذا الكلام الذي قيل فيراه مخالفاً ومناقضاً لبعض ما عرف من الحقائق سواء كانت حقائق علمية من العلم الطبيعي أو من العلوم الاجتماعية حقائق لا يشك فيها فيرى أن هذا الكلام الذي قيل إنه يخالف هذه الحقائق فيحدث له هذا فتنة وهذه الفتنة كما قلت سببها هذا التقليد لذلك، فإن من أهم عوامل التجديد أن يلتزم الناس بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهذا كلام من السهل أن يقوله الإنسان ولكن من الصعب على كثير من الناس أن يلتزموا به لأن الإنسان من طبعه أن يحاول أن يدافع عن الشيء الذي اعتاده و الشيء الذي كان يعتقده ولا سيما إذا كان أعتقده واعتاده لمدة طويلة يصعب عليه أن يغيره سواءً كان ديناً أو غير ذلك.

الفكر الإسلامي أحد معانيه على كل حال وأظن المعنى الذي يراد تجديد الفكر الإسلامي هو فهمنا نحن البشر لدين الله عز وجل لدين الله المنزل هو مجموع تصوراتنا وآرائنا واجتهاداتنا المبنية على ذلك الفهم فهو إذاً الفكر الإسلامي يدخل بالدين بالمعنى الثاني الذي ذكرته بمعنى ما يدين به الناس وتجديد الفكر الإسلامي هو إذا جعله موافقاً للدين المنزل من عند الله وخادماً له، ولكن الفكر الإسلامي بهذا المعنى ليس مطابقاً للدين هو جزء من الدين الذي يدين به الناس وليس مطابقاً له، ولذلك فإن تجديده وحده لا يكون تجديداً للدين فنحن لا نحتاج فقط إلى تجديد الفكر وإنما نريد أن نجدد الدين وتجديد الدين أشمل من تجديد الفكر، وأظن أن الأستاذ محمد قطب ربما يحيط في هذا المعنى.

تجديد الفكر الإسلامي يكون بأشياء كثيرة منها المحاولة المستمرة المخلصة الجادة لجعلها التزاماً مخلصاً حقيقياً لا التزاماً بالألفاظ؛ لأن هذا الدين لم يأتِ ليلتزم الناس بألفاظه ويفرغونها كما يقول المعاصرون من محتواها ومن معانيها و سأذكر إن شاء الله أن هذا هو رأي أو هو اتجاه الذين يفهمون التجديد فهماً خاطئاً.

المسألة الثانية التي نحتاج إليها في تجديد الفكر الإسلامي أن نصوغه بلغة يفهمها أبناء العصر ويتأثرون بها وهذا ليس عيباً لأننا لا نريد أن نصوغ القرآن الكريم مرة أخرى لا نريد أن نصوغ السنة المحمدية مرة أخرى، وإنما نريد أن نشرح هذه المعاني

للناس فينبني أن تصاغ هذه المعاني لكل أناس بحسب لغتهم وبحسب مستواهم وبحسب فهمم لأن المقصود التبليغ وليس المقصود هو تلاوة حروف القرآن الكريم أو السنة المطهرة أو تلاوة وأن نحفظ عن ظهر القلب بعض ما قاله أسلافنا وإنما المهم أن يفهم الناس هذه المعاني، فالكلمات القرآنية وكلمات الرسول ﷺ ستظل باقية ولكن الذي يتجدد هو شرحنا وتوضيحنا ونشرنا لما تضمنته من معان، في هذا أيضاً قد تحدث أنواع من الشطط بعض الناس قد يصرون على إلا يتكلموا ولا يحاضروا ولا يتكلموا إلا بلغة رصينة من التي عرفوها وتمرسوا عليها من بطون الكتب، وبعضهم قد يتطرف تطرفاً آخر فإذا تحدث عن الإسلام لا تدري هل هو يتحدث عن الإسلام أم يتحدث عن البعثية أم يتحدث عن الشيوعية فكلا طرفي قصدي الأمور ذميم، لا مانع أن يتحدث الإنسان بلغة عربية رفيعة ما دام يكتب للعلماء لكن العيب في أن لا يتنازل عن هذا المستوى حتى وهو يخاطب من لا يفهم هذا المعنى الرفيع، وقد ذكر لي أحد العلماء الأفاضل قبل أيام أنه كانت من عادة العلماء ولا سيما الدعاة منهم وذكر لي أمثلة منهم الشيخ محمد بن عبدالوهاب والإمام مالك والإمام الشافعي أنهم كانوا كثيراً ما يتنازلون عن المستوى الرفيع للغة العربية لكي يتحدثوا إلى الناس بلغة يفهمونها، بل كانوا أحياناً يستعملون بعض الكلمات الدارجة.

المسألة الثالثة وهي مسألة مهمة هي أن يتعرض هذا الفكر لمشاكل العصر وأن يحاول أن يوجد الحلول الإسلامية لهذه المشاكل ومشاكل العصر كثير منها مشاكل اعتقادية مشاكل تعبدية مشاكل علمية مشاكل اقتصادية أو سياسية إذا لم يحدث هذا حدثت أيضاً أنواع من الفتن منها أن يغلب على ظن الذي ليس له حظ كبير من العلم أن هذا الدين شيء قديم؛ لأنه لا يرى أنه قديم بمعنى أنه لا يصلح لهذا العصر أنه قديم وأنه يناسب عصوراً مضت ولا يناسب هذا العصر؛ لأنه لا يستطيع هو بمجهوده أن يرى الصلة الوثيقة بين ما يقرأ في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة وبين ما يواجه بالمشاكل هو يحتاج إنسان آخر ليقوم له بهذه المهمة فإذا لم يجد من يقوم بهذه المهمة ظن أن هذا الكلام الذي يقرأه أو على الأقل حدثت في نفسه شبهة أنه هذا الكلام إنما قيل لعصور سابقة، وسيؤكد له هذه الشبه الملحدون والمنحرفون؛ لأن هذا ديدنهم أن هذا الدين وكل دين إنما جاء لمناسبات وظروف معينة فهو ينتهي بانتهائها، نحن

الآن محتاجون إلى تجديد وحاجة شديدة إلى التجديد في هذه الناحية بُذلت محاولات للكتابات في الاقتصاد الإسلامي في الحكم الإسلامي، ولكن هناك مسألة مازلنا محتاجين إلى أن نكتب فيها، وأن نبين الحكم الإسلامي أو الهدي الإسلامي فيها، وهذه المسألة هي العلوم أقول مع الأسف إن مفهوم العلم المفهوم السائد في عصرنا هذا للعلم أصبح مفهوماً مادياً إلحادياً وأقول هذا لا عن العلوم الطبيعة فقط وإنما حتى عن ما يسمى بالعلوم الإنسانية أو الاجتماعية لماذا أقول هذا ؟ لأنه من المعروف حتى عند العلماء الغربيين أن هناك ما يسمى بالفروض التي يقوم عليها العلم الفروض الفلسفية ما يفترضه العالم ولا يذكره صراحة ما هو الافتراض التي تقوم عليه العلوم الآن؟ الافتراض هو أن هذا الكون مكتف بنفسه بحيث إننا إذا أردنا أن نفسر أي ظاهرة من ظواهره سواء كانت في مجال الطبيعة أو في مجال العلوم الاجتماعية ينبغي أن نبحث عن سبب هذه الظاهرة في العالم نفسه، فإذا ما ذكرنا شيئاً خارج هذا العالم إذا ما ذكرنا عن العالم المحسوس يعني إذا ذكرنا شيئاً عن الملائكة أو حتى عن الله سبحانه وتعالى قيل لنا إنكم لا تتحدثون لغةً علمية وإنما تتحدثون بلغة الدين والدين والعلم شيئان مختلفان لماذا؟ طبعاً إذا بنيت العلم منذ الوهلة الأولى على افتراض أو على التسليم بالفلسفة المادية الإلحادية من الطبيعي أن يكون مخالفاً للدين؛ لأنك أنت الذي جعلته مخالفاً للدين، خطر هذا في العلوم الطبيعة قليل لا يكاد يذكر لأنه لا يضر الإنسان كثيراً إلا من ناحية الاعتقاد وكثيرون من المتدينين الذين يمارسون هذه العلوم تظل عقائدهم صحيحة بمعنى أنه يعتقد أن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذه الأسباب وخالق هذه الآثار هذا الذي يعتقده في قلبه ولكنه لا يذكره باعتباره عالماً، أما في مجال العلوم التي تسمى بالعلوم الإنسانية فالخطر عظيم وكبير جداً ، والعلوم الإنسانية أذكر منها علم النفس علم أو فلسفة التربية أوعلم التاريخ علم الاقتصاد أصحاب هذه العلوم في الغرب الآن يحاولون أن يحذو بها حذو العلوم الطبيعية والعلوم الطبيعية كما قلت لكم هي أن تحاول أن تفسر الظاهرة الكونية بأسباب من داخل العالم بل وتفترض أنه لا يوجد في العالم في النهاية إلا مادة متحركة في فراغ، وهذا ما يفترضه كثير من علماء النفس وعلماء الاجتماع من الغربيين، ثم يأتي هذا كله لنا باعتباره علما ويزيد من مصيبتي أن كثيرا من أساتذتنا الذين يدرسون هذه العلوم يدرسونها بطريقة تقليدية أكثر

من واقعها نفسه قد نستمع إلى عالم نفس غربي يتحدث عن بعض النظريات في علم النفس فينتقدها أو يذكرها بشيء من التحفظ ولكن كثيرا من أساتذتنا إذا ما درسوها قالوا للطلاب العلم يقول كذا العلم أثبت كذا، طبعاً إذا قيل إن العلم أثبت كذا فنقيض العلم هو الجهل فالذي يقول غير هذا إنما يتحدث عن جهل فهذا مجال من المجالات التي لابد أن نجدد فيها، ويمكن أن يذكر الإنسان هنا الفضل لأهله أن الجامعات في المملكة العربية السعودية من أكثر الجامعات اهتماماً في هذه المسألة؛ لأنها تحاول أن تأسس علومها على أساس إسلامي، ولكن أقول إنها ما زالت تحبو إن لم أقل إنها في طور ما قبل ذلك، ما زالت تحبو، أما الجامعات الأخرى فهي صور مشوهة للجامعات الغربية كلما يقول هناك يُقال هنا بحماس أكثر وبتشنج أكثر.

المسألة الرابعة في تجديد الفكر الإسلامي هي أن يكون فكراً ملتزماً بالحق والعدل وأن لا يكون مسخراً لأهواء الحكام ولا أهواء العوام لأننا إذا سخرنا الدين لأهواء العوام أو أهواء الحكام حدثت أيضاً فتن لأن أهواء الحكام وأهواء العوام متقلبة فكلما أراد حاكماً من الحكام شيئاً أو كلما سادت بين الجماهير رغبة في شيء معين غيرنا الدين وفسرناه بحيث يتناسب مع ما يطلبون ولكن هذا مع الأسف هو الذي كثير ما حدث في العالم العربي تسود في بلدة من البلاد يسود نظام الرأسمالي فتخرج اجتهادات بأن الربا الذي يتعاطاه الناس في البنوك (ما يسمونه بسعر الفائدة) ليس هو الربا الذي حرم الله سبحانه وتعالى لماذا؛ لأن هذا ما يريده العوام ويريده بعض الحكام ثم يتغير الوضع ويأتي نظام اشتراكي فيكتب أحدهم خديجة أم الاشتراكية بعد أن كانت أم المسلمين أصبحت أم الاشتراكية، وأيضاً تجر النصوص وتفسر بحيث تتناسب مع ما يريده الحاكم، هذا تحدث عنه فتن أيضاً الشخص الذي لم يتبحر في العلم لأن محصوله من العلم بالدين قليلا فإنه لا يستطيع أن يفصل بين ما يقوله هؤلاء الذين يجعلون دينهم وفكرهم تابعا لآراء الحكام لا يستطيع أن يفرق بين الدين الحق وبين ما يقوله هؤلاء؛ فيربط بين الدين وبين أخطاء الحكام فإذا كره حاكماً أو انتقده في شيء انتقد معه الدين وإذا رفضه رفض معه الدين، وهذا يقود أيضاً إلى عدم الثقة بالعلماء وكثير من الذين يقومون بهذا التحريف قد يكونون من العلماء بمعنى أن الشخص يعرف القرآن الكريم ربما يحفظه يعرف التفسير يعرف

كثيراً من السنة فهو عالم فإذا كان بعض العلماء كذلك فقدت الثقة في العلماء، وإذا فقدت الثقة في العلماء ضل الناس و ساء فهمهم للدين وربما انحرفوا عنه،

نسيت أن أقول في مجال الكلام الذي قلته عن ضرورة أن يتعرض الفكر الإسلامي في مجال العصر إذا لم نفعل هذا حدثت بعض الفتن منها أن الناس سيلجؤون للحلول الجاهزة، الإنسان تواجهه مشاكل مثلاً اقتصادية لا ينتظر سنين طويلة حتى يأتي له العلماء المسلمون بحل لهذا المشاكل فيأخذ من الحلول الموجودة أمامه وهي حلول تقوم على فلسفة وفكر غير إسلامي هذا يحدث في المسائل الاقتصادية يحدث في المسائل القانونية وكلما تباطأ العلماء وتأخروا عن إيجاد الحلول الإسلامية كلما انحصرت من البلاد حتى إذا كانت بلاد تنتسب إلى الإسلام، وتريد أن تحكم في الإسلام حتى إذا كانت مخلصة في هذا لكنها إذا لم تجد الحلول لجأت إلى الحلول الجاهزة وفي كل مرة إذاً تنحسر الرقعة التي تُحكم في الإسلام والتي يؤثر فيها الإسلام.

أنتقل إلى الفهم الخاطئ للتجديد الفهم الخاطئ للتجديد هو محاولة تجديد الدين بمعناه الأول، وهذا الاتجاه اتجاه يشبه إن لم يكن قد أخذ عن النصارى واليهود، قامت حركات نصرانية في نهاية القرن التاسع عشر تدعو إلى تجديد الدين بمعنى تفسيره بحسب ما يناسب العصر وما هو العصر؟ العصر هو مجموعة الأفكار السائدة في العصر أفكار فلسفية أفكار علمية أفكار في التاريخ أفكار في علم النفس أفكار في كذا وكذا، بعض الناس الذين ينتسبون إلى الإسلام يريدون التجديد بهذا المعنى يريدون أن يفسروا الإسلام تفسيرا يتناسب مع العصر ولكن العصر الذي يعنونه هو أهواء العصر، ينبغي أن نفرق بين ما يستلزمه العصر وبين ما يسود في العصر، أما ما يستلزمه العصر هو الأمور التي تحدث بسبب التطور الطبيعي مثلاً أن طريقة الانتاج الآن مختلفة ما كانت عليه هذا شيء أستلزمه العصر فلابد أن نجد له حلاً أما الأفكار التي تسود في العصر فهذا بمحض الاتفاق بمحض المصادفة ونحن ليس المطلوب منا لكي نكون معاصرين أن نقلد ونعتنق هذه الأفكار، وأن نجعل ديننا تابعاً لها لكن الذين كما قلت يفهمون التجديد هذا الفهم الخاطئ هذا الذي يريدونه وهذا يقودهم إلى مشاكل كثيرة تتفاوت في خطرها منها أن الفكر السائد في العصر هو الفكر المادي الإلحادي، فبعض هؤلاء المجددين يضيقون بكل شيء في الإسلام لا

يتناسب مع هذا الفكر، فإذا وجد حديث عن الملائكة حاول بأن يفسرها أنها القوى الخيرة في الإنسان الشياطين هي القوى الشريرة في الإنسان بل قد يصل به الأمر إلى الذات الإلهية؛ لأنها لا تتناسب مع المفهوم المادي السائد الآن فيغير من مفهومه لله سبحانه وتعالى، ويحاول أن يفهم ما يقال عن الذات الإلهية فهم أشبه بما كان يقوله الجهمية في الماضي؛ وهو الفهم التعطيلي هو أن يكون الله سبحانه وتعالى مجرد فكرة أو شيء أشبه بالعقل فقط وليس ذاتاً لها صفات، من هذه المشاكل أيضاً أن نقلدهم في طريقة الحكم، ولذلك بعضهم يقول إن الإسلام ليس فيه نظام حكم وكذا وكذا لأنه يريد أن يعطي لنفسه الحرية في أن يحكم بالطريقة التي يحكم بها الغربيون ثم في المسائل الاجتماعية والأسرية وكذا تسود في الغرب تقاليد وتسود فيه آراء في هذه المجالات، فيحاول أن يقصر الإسلام على أن يكون موافقاً لها، ومن الأمثلة المشهورة عندكم لهذا الضيق بمسألة الرجم يريد أن يغير هذا بعقوبة لا تتناسب مع العصر لا تتناسب مع العصر بمعنى أهواء العصر لا تريدها، تعدد الزوجات أهواء العصر لا تريد هذا، وهكذا والشخص الذي يريد التجديد بهذا المعنى لا يمكنه التجديد بهذا المعنى إلا بتحريف الدين، ولكنه لا يستطيع أن يقول هذا الكلام صراحة؛ فلذلك يلجأ إلى المنهج الذي لجأ إليه كل المحرفين على مدى التاريخ الإسلامي، وأجيزه وأختم به، أولاً عدم الالتزام باللغة العربية القرآن نزل بلغة عربية بلسان عربي مبين، فإذا لم تلتزم باللغة فقل فيه بما شئت. المسألة الثانية عدم الالتزام أو اعتبار تفسير الصحابة فيقول إن الصحابة عاشوا في ظروف معينة، وفسروا القرآن بحسب الظروف التي كانوا يعيشون فيها، فنحن أيضاً نفسره بحسب الظروف التي نعيش فيها. عدم الالتزام بالتناسق القرآني أن يفسر بعضه بحيث يتناقض مع آيات أخرى. عدم الالتزام بالسنة النبوية؛ لأن الذي يلتزم بالسنة لابد أن يفسر القرآن الكريم تفسيرات صحيحة، فالشخص الذي يريد التجديد بالمعنى المنحرف لهذه الكلمة لا يمكنه هذا إلا بأن يسلك منهجاً غير علمي؛ لأن الحق لا بد أن يقود إلى الحق أما إذا أراد الإنسان الباطل فلابد أن يسلك إليه منهجاً باطلاً.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

* * *

هل الإنسان يولد ومعه علم ؟

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، ثم أما بعد:

آيتنا في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] القضية المتعلقة بهذه الآية هي مسألة اختلف فيها فلاسفة الغرب، وربما أيضاً بين المسلمين وهي مسألة العلم هل الإنسان يولد ومعه علم أم أن علمه في طبعه وفي فطرته أم أنه يولد جاهلاً تاماً ثم يكتسب هذا العلم.

هما نظريتان مشهورتان في الغرب، ولكن وبعد أن فكرت في الموضوع وجدت أن الإسلام لا يقول بهذا ولا بهذا فنحن قرأنا في أول حلقة في هذه الحلقات أن الله سبحانه وتعالى قال عن الدين أنه فطرة الله، فالدين أصله في الفطرة، ولكنه يقول في هذه الآية والله أخرجكم في بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً فكأن الفطرة حين يولد الإنسان لا يولد عالما إذاً كيف الجمع بين الأمرين؟ يولد وهذا الدين في فطرته لكنه لم يتحول إلى علم وإنما هو كالبذرة التي تنمو مع نمو عقل الإنسان وتكتمل بما يأتيه به رسل الله سبحانه وتعالى، فالإنسان يكتسب العلم المكتسب هذا بواحد من هذه الوسائل الثلاث السمع والبصر والفؤاد أو قل الحس والعقل؛ لأن السمع والبصر ذكرهما الله سبحانه وتعالى لأنهما أهم حاستين وإلا فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الحواس الأخرى أيضا في آيات أخرى:

مثلاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، فلمسوه ذكر اللمس وأنبهم على أنهم لا يعترفون باللمس، وهذا ليس من العقل الإنسان إذا لمس شيئاً بيده فينبغي أن يعترف بأن هذا شيء موجود، فربنا سبحانه وتعالى ذمهم أنهم لو نزل عليهم كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم يقولون لا هذا سحر.

وذكر الله سبحانه وتعالى الشم في قصة يوسف ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤].

وذكر الذوق ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢].

فالحواس الخمسة مذكورة في القرآن الكريم، لكن أهم حاستين هما السمع والبصر؛ ولذلك كان التركيز عليهما في هذه الآية وأمثالها من الآيات.

ولذلك نحن المسلمين لا ننكر الحقائق التي يدل عليها العلم الطبيعي، الحقائق لا أقول النظريات لبعض العلماء وكذا وكذا إذا كان الشيء ثبت بالحس أو ثبت بالعقل، فيكون من واجب المسلم أن يعترف بها، ولذلك أنا كتبت مقالاً بعنوان حقائق العلم حقائق شرعية لا يجوز للإنسان أن يماري فيها إذا ثبت أن الأرض في شكل كرة فلا تقل إن هذا يخالف الآية الفلانية لأن الله لا يمكن أن يخلق الكون بشكل معين ويصفه في كتابه بما يخالف الصفة التي خلقه عليها.

ولذلك إذا حدث هنالك كما يقول العلماء إنه لا يمكن أن يكون هنالك خلاف أو تناقض بين كتاب الله وبين خلق الله لا يمكن، ولكن قد يحدث التناقض بسبب الخطأ في الفهم؛ إما في فهم الكون أو في فهم النصوص يكون النص مثلاً ظن ظنياً ويفسره بعض الناس ويفهمونه فهماً خطاءً ثم يجدون حقيقةً كونية يقينية لا شك فيها، فالصحيح هو أنه إذا ثبتت الحقيقة الكونية التي لا شك فيها أن النص يفسر بهذه الحقيقة الكونية.

ولذلك لا يجوز بعد أن اكتشف مثلاً أن الأرض بشكل كرة لا يجوز أن تذكر بعض الأقوال التي في بعض التفاسير المخالفة لهذه الحقيقة، وهذا يدل أيضاً ما دامت الحقائق الكونية المعروفة بالحس وبالعقل حقائق يسلم بها المسلم فإنه لا يحتاج أن يستدل عليها بأدلة سمعية يعني لا أحتاج إذا كان عرفت في الطب أو في الهندسة أو في الجغرافيا وكذا عرفت أن هذه حقيقة لا شك فيها كونية لا أحتاج أن ابحث عن

دليل لها في كتاب الله وسنة رسول ﷺ لأن هذه حقيقة وما جاء في كتاب الله حقيقة.

لكن كما يقولون إذ تظافرت الأدلة يعني قوي الإيمان إذا وجدت الشيء في الكون ثم وجدته في كتاب الله هذا هذا ما يزيد إيماني بما في كتاب الله سبحانه وتعالى وكما تكلمت الآية التي ذكرناها في البداية الطريقة التي يكتسب الناس بها العلم وهي السمع والعقل فتكلمت آيات اخرى عن مصادر هذا العلم لأن الإنسان لا يستطيع أن يكون عالماً إلا إذا كانت عنده قوى يعلم بها قلنا هي الحس والعقل وإلا إذا كان هنالك مصدر يأخذ منه هذا العلم فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

فكأنه يقول لهم إن هذه مصادر العلم فإذا لم يكن لم يكن على الدعوى دليل من الكون الذي هو السماوات والأرض وليس عليه دليل من كتاب منزل من السماء فإنه كلام باطل وخرافة ومجرد دعوى وتكرر نفس المعنى في آية أخرى قول تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

فنحن الفرق بيننا وبين الذين لا يؤمنون بالوحي أن مصادر المعرفة عندنا اثنان الكون والوحي وهؤلاء يقصرون مصادر المعرفة على الكون ولا يستفيدون مما أنزل الله سبحانه وتعالى في كتبه وما قاله رسول الله سبحانه وتعالى.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم..

* * *

وجود الخالق سبحانه وتعالى

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، ثم أما بعد:

آيتنا في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]، والقضية هي قضية وجود الخالق سبحانه وتعالى فكأن هذه الآية فيها دليل من أقوى الأدلة العقلية لعلها أقوى دليل عقلي على وجود الخالق فكأن الآية تقول للذين لا يؤمنون بوجود الخالق إذا لم يكن هنالك خالق هو الذي خلقكم فكيف جئتم أم خلقوا من غير شيء يعني خلقوا من غير شيء خلقهم كما يقولون في التفسير يعني جئتم من العدم ما فيه شيء خلقكم ما فيه إنسان عاقل يقول مثل هذا لأنه من العدم لا يأتي شيء من العدم لا يكون إلا عدم لا يمكن أن يكون لا شيء لا شيء ثم فجأه يأتي شيء من هذا العدم وكذلك ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ يعني إذا لم تكونوا قد جئتم من العدم هل أنتم الذين خلقتم أنفسكم؟! أيضاً الإنسان العاقل يقول هذا مستحيل بل هذا تناقض لأنني لكي أخلق نفسي لابد أن أكون أولاً موجوداً وإذا كنت موجوداً فأنا لا احتاج لأن أُخلق فالقول بأن الشيء يخلق نفسه كلام متناقض، جاء في التفسير قال ابن كثير روى البخاري عن جُبير بن مطعم قال سمعت الرسول ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، وكان جُبير في ذلك الوقت لم يكن مؤمن قال فلما بلغ هذه الآية كاد قلبي أن يطير تدرون لماذا؟ أظن أن الآية وضعت الأمر أمامه بطريقة واضحة يا جُبير إذا لم تؤمن بوجود الخالق فإما أن تكون جئت من العدم جُبير يقول لنفسه هذا مستحيل أم أنت خلقت نفسك جُبير يقول لنفسه هذا مستحيل فلذلك كاد قلبه أن يطير.

أنا درست الفلسفة الغربية أو بعض الفلسفة الغربية وكان عندي اهتمام بما يسمى فلسفة العلوم وناقشوا مسألة وجود الخالق هذه وتتبعت أقوال الملحدين فيها ووجدت أن أقوالهم كلها لا تخرج عن هذين الأمرين إما أن يقول الواحد منهم أن الأشياء جاءت من العدم تصدقون أنهم يقولون هذا وإما أن يقول إن الكون خلق نفسه وصدقوني أنهم منهم يقولون هذا ولا تغركم الأسماء الرنانة فهنالك علماء كبار في الفلسفة أو في الفيزياء أو في كذا يقولون بأن الكون جاء من العدم أو يقولون بأنه خلق نفسه طبعاً قبل هذا الكلام انحصرت أراءهم في هذين الأمرين بعد أن جاءت النظرية التي تسمى بنظرية بق بانق أو الانفجار الكبير؛ لأنه كان قبل ذلك كان الملحدون يقولون إن الكون هذا لا يحتاج أن يخلق إنه أصلا لا بداية له فهو لا يحتاج إلى أن يُخلق لما جاءت هذه النظرية التي تقول بلى أن

الكون له بداية فصار السؤال عن أنه كيف جاء هذا الكون صار السؤال ملحاً جداً ولذلك كتب كثيراً من الفيزيائيين والفلاسفة وكذا كتابات في هذا الأمر، وأرادوا أن يدافع الملحدون منهم عن موقفهم فلم يخرجوا كما قلت عن هذين الأمرين إلا أن يقول الواحد منهم إن الكون جاء من العدم، أو أن يقول إنه خلق نفسه وكنا نقول لهم إنه حتى لو لم تكن هناك نظرية هذه النظرية التي تتحدث عن بداية الكون، وأن الكون له بداية حتى لو لم تكن هذه النظرية فنحن نشاهد أن الأشياء تحدث وتزول الناس يأتون ويزولون يأتي إنسان ثم يموت، النجوم تحيا ثم تموت الشجر يولد ثم يموت وهكذا، فالسؤال قائم ولذلك الآية وجهت السؤال إلى البشر قالت أم خلقوا من غير شيء أنت تفكر في نفسك وتسأل نفسك هل أنت خُلقت من غير شيء أم أنت الذي خلقت نفسك فلا يحتاج أصلا إلى أن يفكر فيما يسمى في نظرية الانفجار العظيم وهذه الآية الكريمة من أقوى الأدلة على أن القرآن الكريم لا يخاطب كل الناس على أنهم يؤمنون بأنه كتاب من عند الله بل يخاطب الناس أحياناً على أنهم لهم عقول فقط ويدعوهم بهذه الطريقة إلى أن يؤمنوا بالحق الذي جاء به القرآن الكريم فقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦]، يعني إذا أنتم ما خلقتم أنفسكم ولا جئتم من العدم هل أنتم الذين خلقتم السموات والأرض بل لا يوقنون لا يوقنون أي لا يردون أن يؤمنوا ولا يردون أن يقتنعوا، فالعلماء منهم بالمناسبة من اعترف بهذا حتى من علماء الفيزيائيين اعترف بهذا، وقال إن الانفجار العظيم هذا فعلاً مشكلة لأنه لا يمكن أن يأتي هذا الكون من العدم ولا يمكن أن يكون هو الذي خلق نفسه، ثم نسيت أن أقول إن مسالة جبير بن مُطعم تدلنا على شيء مهم وهو أن الحقائق إذا اتضحت تؤثر في الناس فأنت إذا أردت أن تقول كلاماً مقنعاً فقله بطريقة واضحة يراها الإنسان كأنه يراها رأي العين لأن البشر ربنا خلقهم سبحانه وتعالى على أنهم إذا رأوا الحقائق يعترفون بها حتى لو لم يقولوا هذا بألسنتهم إذا اتضحت الحقيقة يعترف بها في نفسه حتى ولو لم يعبر عن هذا الاعتراف بلسانه فمن المهم جداً لإخواننا الدعاة وأقول هذا لنفسي أيضاً أنا لست مثالا لما أقول إنه من أهم ما ينبغي أن نراعيه أن يكون الكلام واضحاً، وأن تكون الحجج واضحة، وهذا من أحسن الوسائل لإقناع الناس.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم..

* * * * *

ثالثاً: البحوث والدراسات والكتب

الإسلام: دين سلام.. وليس استسلام

وهذه الدراسة هي بحث شارك به الدكتور جعفر شيخ إدريس في مشروع كتاب السعوديون والإرهاب (رؤى عالمية) وأشرف على إخراجه الدكتور محمد البشر وأصدرته غيناء للنشر عام ١٤٢٦الموافق ٢٠٠٥م.

أود ابتداءً أن أوضح نقطتين هامتين كمقدمة قبل الولوج في الموضوع.

النقطة الأولى: أنني هنا لا أتحدث عن سياسة دولة أو مجموعة إسلامية معينة فيما يتعلق بالحرب، والسلام، إنما عن التوجهات الإسلامية حول هذه الأمور كما هو موضح في المصادر الإسلامية الأساسية. وآمل أن يخرج القارئ بمعيار واضح يستطيع من خلاله قياس مدى إسلامية التصرفات المتعلقة بهذه الأمور والتي يقوم بها أناس ينتمون إلى الدين الاسلامي والذين هم مأمورون أخلاقيا بالالتزام بتوجيهاته. هذا التفريق بين نصوص الدين والتصرفات التي يقوم بها بعض الذين يزعمون أنهم ينتمون لهذا الدين هو أمر في غاية الأهمية. فإذ لا يمكننا نفي أن هناك علاقة بين الناس ومعتقداتهم، إلا أنه يجب الإقرار أن ممارسات الناس لا تمثل دائماً انعكاساً للمبادئ التي يقولون إنهم يؤمنون بها. وهذا يعود إما إلى الجهل أو ضعف الوازع الأخلاقي أو الخداع المحض والنفاق. والمثال على هذا هو حقيقة أن الكثير من أهل الأديان: فإذا ما حوكم الإسلام بالأفعال التي يرتكبها أولئك المنتمون إليه، فليطبق الشيء نفسه على المسيحية والليبرالية والديمقراطية وغيرها من المعتقدات الدينية والعلمانية.

النقطة الثانية: أن ما ورد هنا يستند بصورة رئيسة إلى آيات القرآن الكريم وهي المصدر الرئيس للمعرفة الإسلامية. وهنا لابد من كلمة حول النهج الصحيح الذي اتبع هنا. فالقرآن الكريم ليس كتاباً مبوباً حسب الموضوعات بالطريقة المألوفة لدينا. فأسماء السور مثل نوح، وإبراهيم، ومريم، ومحمد.. إلخ لا تقتصر فقط على موضوعات تتعلق باسمها ولكن الاسم يدل على إشارة وردت داخل السورة. فموضوع كالحرب والسلام - على سبيل المثال - يمكن أن نجد إشارات له في العديد من السور، وهذا يرجع إلى أن آيات القرآن قد نزلت على النبي ﷺ على مدى ثلاثة وعشرين عاماً.

ولتكوين صورة شاملة ونزيهة عمّا ذكره القرآن حول موضوع معين، فإن على المرء أولاً أن يحصي الآيات المختلفة في السور المختلفة التي أشارت إلى الموضوع، وعليه ثانياً أن يفهم كل آية من هذه الآيات في سياقها النصي والتاريخي، وثالثاً عليه أن ينظر إليها في إطار السياق العام للمبادئ والأهداف الرئيسة للدين الإسلامي. ثم أخيراً ينظر إلى تفسير هذه الآيات من خلال أقوال وأفعال النبي ﷺ.

وبعد هذا الوصف لطبيعة الآيات القرآنية، فإنه من السهل على أي شخص أن يستدل بآية أو بعدد من الآيات لكي يورد دليلاً محرفاً لما نصّ عليه الإسلام حول أمر معين. فعلى سبيل المثال يمكن أن يقول قائل إن الإسلام يأمر المسلمين بقتل أي شخص غير مسلم أينما وجده، ويستدل بالآية: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]. كذلك يمكن لآخر أن يقول إنه لا وجود للحرب في الإسلام ويستدل بالآية: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧].

إن المنهج السليم الذي أشرنا إليه آنفاً هو الذي اتبعه علماء المسلمين الأوائل وهو ذاته الذي سوف نحاول أن نطبقه هنا في سياق الأسئلة المعاصرة المطروحة حول موقف الإسلام من قضية الحرب والسلام. وحيث إن آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ المختلفة هي جزء من الصورة الكبرى من رسالة الإسلام. فإننا سوف نبدأ بعرض تلك الصورة - مع إشارات خاصة للموضوع الذي نحن بصدده - ومن ثم سوف نحاول أن ننظر إلى هذه الآيات والأحاديث في السياقات التي وردت فيها.

المجادلة بالوسائل السليمة:

تتميز طبيعة الدين الإسلامي بخصائص كثيرة تحتاج أن ندعو لها بالوسائل السليمة، ومن هذه الخصائص:

١- الإكراه مستحيل:

الأمر الأول والأكثر أهمية أن الدين الإسلامي قد قرر أنه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقد ذهب بعض المفسرين الأوائل للقرآن الكريم إلى هذه الآية تقرر حقيقة أن الأمر بعدم الإكراه مبني على هذه الحقيقة. والمعنى أنه من المستحيل إكراه شخص

وإجباره على أن يكون مسلماً حقيقياً ولذا فيما الجدوى من محاولة المستحيل. وهذه الحقيقة هي واحدة من تلك التي تستوجبها طبيعة رسالة الإسلام نفسها. فما هي هذه الرسالة؟ الكلمة العربية "إسلام" لا تعني فقط الدين الإسلامي، إنها تعبير في جوهرة يعني الاستسلام لله في العبادة وليس لأحد غيره. وبحسب القرآن فإن هذه هي الرسالة التي جاء بها جميع أنبياء الله من نوح وإبراهيم إلى وموسى وعيسى. وبصفة خاصة فهي الرسالة التي أمر محمد ﷺ، وهو آخر الأنبياء، بإبلاغها لكافة البشرية.

ولهذا نقول إن رسالة هذا النبي هي رسالة عالمية لكل الناس منذ اليوم الذي بعث فيه إلى قيام الساعة. وعلى أساس هذا الاستسلام لله بنيت كل التشريعات التي جاء بها جميع الأنبياء. والتفاوت في نوعية وحدود التشريعات يعتمد على الأحوال الخاصة بالقوم الذين أرسل إليهم كل نبي. ولأن محمداً ﷺ هو آخر الأنبياء وأرسل للبشرية جمعاء، فإن رسالته شاملة وعالمية – فهي لا تقتصر على زمن معين أو ثقافة معينة –.

الإسلام أمر متعلق بالقلب وهو فعل إرادي يختاره الشخص بالإقرار والالتزام به طواعية. ولا يمكن أحداً إجبار أحد ليكون مسلما. ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

٢- الله وحده المسيطر على القلوب:

هذا اعتقاد أساس في الإسلام، فالأنبياء لا يمكنهم إجبار الناس أن يكونوا مؤمنين. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فالله يهدي أولئك الذين يستحقون الهداية ويعلم أنهم يقبلون الهدى. فهو لا يهدي الذين يعلم نيتهم رفض الهدى والإيمان. وهذا يعني أن الله لا يرغم شخصاً ما على قبول الإيمان.

والشيطان ليس في وسعه إرغام الناس على رفض الإيمان والهدى. ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ

إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

٣- دور الأنبياء:

إذن ما هو دور الأنبياء؟ والذين يحملون رسالتهم من بعدهم؟ إبلاغ هذه الرسالة بكل وضوح وإعطاء المدعوين البرهان والحجة على صدق هذه الرسالة وكذلك حثهم على قبولها ومجادلة أولئك الذين يختارون طريق الجدال. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]. إذن لا النبي ولا أي مسلم مسؤول عن إعراض الناس عن الحق فيما دعوا إليه.

٤- التسامح مع المعرضين:

هل هناك مجال لدين مثل هذا لشن الحرب ضد أناس كوسيلة لحملهم على اعتناقه؟ ربما يقول قائل لا: ولكن هناك سبباً قوياً لقتلهم. شخص كالرئيس الأمريكي السابق كلينتون قال: لأنهم رفضوا قبول الحقيقة[1]. هذا الاعتقاد مردود لسببين:

أولاً: أن نهج الإسلام في التعامل مع المعتقدات يختلف عن نهجه في التعامل مع أصحاب هذه المعتقدات. فكل معتقد يتعارض مع أوامر الله هو في الحقيقة باطل.

---

(١) في خطاب ألقاه بجامعة جورج تاون في ٧ نوفمبر ٢٠٠١م أشار الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون إلى بعض المسلمين بقوله: «إنهم يعتقدون أنهم يملكون الحقيقة فإنك إما أن تشاركهم هذه الحقيقة أولاً. فإذا لم تكن مسلماً فإنك كافر، وإن كنت مسلماً ولم توافقهم فأنت مبتدع، وإنك في الحالين هدف مشروع حتى ولو كنت طفلة في السادسة من عمرها ذهبت مع أمها للعمل في مركز التجارة العالمي في ١١ سبتمبر. إنهم يعتقدون أن المجتمع هم أولئك الناس الذين يتشابهون، يتصرفون بنمط واحد ويلبسون زياً واحداً». لا أعرف أي مسلم أصولياً كان أو غيره يفكر بهذه الطريقة.

ولكن أتباع هذه المعتقدات لا يقتلون ولكن يدعون بالحسنى.

ثانياً: ولأن الإسلام قد أخبرنا أن كونك مسلماً فهذا أمر اختياري ولأن الشخص يمكن أن يلجأ لهذا الاختيار في أي وقت من حياته حتى قبيل ساعات من وفاته، فإننا يجب أن لا نيأس من قبول شخص ما لهذا الاختيار. ولذا يجب علينا عدم قتله إذا ما أختار الآن أن يكون غير مسلم. فمجرد رفض الإسلام لم يكن أبدا سبباً لتعذيب أو قتل أي شخص. وأكبر شاهد على هذا حقيقة أن آلاف اليهود والنصارى قد عاشوا بين المسلمين في أماكن مختلفة من أرجاء العالم الإسلامي، ولم يكن تسامح المسلمين معهم بسبب الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولكن لأن دينهم قد أوصاهم بذلك. فكيف لدين يسمح للمسلمين أن يأكلوا من طعام الذين أتوا الكتاب وينكحوا نساءهم، أن يأمرهم في الوقت نفسه بقتلهم أينما وجدوهم؟

ونظراً لأن هذه الحقيقة راسخة في أذهان المسلمين فإنك لن تجد بين أولئك المتورطين في قتل غير المسلمين من يزعم أن سبب قلته لهم يرجع إلى أنهم غير مسلمين. إنهم دائماً يذكرون أسباباً أخرى لتبرير أفعالهم هذه. وهذا يؤكد حقيقة أنهم لا يستهدفون قتل غير المسلمين هكذا خبط عشواء.

٥- دين الأخلاق:

وصف القرآن الكريم الدين الإسلامي بأنه دين الفطرة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. هذا الأمر الفطري عند البشرية يتكون بصورة أساسية من إقرارهم بحقيقة أن الله وحده هو الذي يجب أن يُعبد. وهذا الأمر – أيضاً – مرتبط بكل ما هو حسن عند البشرية كالعقلانية والقيم الأخلاقية والحس الجمالي وهكذا. فكلما كان الشخص أكثر إخلاصاً في عبادته لله، كان أكثر إنسانية ووجد أنه من السهل عليه التصرف بكل عقلانية وأخلاقية. فالقيم الأخلاقية أساس في دين الإسلام، والإسلام يأمر بقيم أخلاقية راقية مثل العدل وقول الحق والوفاء بالعهد ومساعدة المحتاجين والتراحم، وسَهَّل كذلك الطريق للناس لكي يطبقوا هذه المبادئ

بتقوية الوازع القلبي الذي يزيده من التمسك بالسلوك الأخلاقي، فلا عجب – إذن – أن يكون من أُرسل لتبليغ هذا الدين قد وصفه الله عز وجل بأنه رحمة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وإن الانحراف عن المبادئ الأخلاقية هذه – لا سيما العدل – هو الذي يجعل الناس يلجؤون للنزاعات والحروب غير العادلة. ولهذا فإن الإسلام يحض على الالتزام المطلق بهذه المبادئ. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقد علق أحد مفسري القرآن المشهورين على هذه الآية بقوله: «هذا يعني أن العدل واجب على كل أحد مع كل أحد في كل حال»[1].

أسباب اللجوء للحرب:

هل في دين الإسلام مكان للحرب؟ نعم.. ولكن لأسباب ليس من بينها جعل الناس يعتنقون الإسلام. إننا نعيش في عالم غير كامل. فهناك من تجنب محاربتهم ليعيش غيرهم في سلام. هؤلاء الذين ينبغي محاربتهم هم من يلجؤون إلى أفعال تتسم بالظلم والجور، وذلك مسوغ للحرب في الإسلام. وأعمال الظلم والإجحاف التي تبرر شن الحرب على مرتكبي هذه الأعمال تأخذ عدة أشكال مثل:

١) قيام من هم في السلطة باضطهاد أولئك الذين يختارون الإسلام كدين.

٢) طرد هذه الفئة من ديارها.

٣) شن الحرب على فئة (من المسلمين أو غير المسلمين) بهدف احتلال ديارهم أو نهب ثرواتهم أو استعبادهم.

ولا أحد يشكك في عدالة شن الحرب ضد مرتكبي مثل هذه الجرائم، ولكن وحتى في مثل هذه الحالات فإن الأمر الإسلامي باللجوء للحرب لم يكن بأي حال من الأحوال مطلقاً. فهذه الحرب تكون شرعية إذا ما التزمت بأهداف الإسلام – أي نشر

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير للآية [٨] من سورة المائدة.

الخير والحد من الشر في هذا العالم. وإذا ما كانت عواقب شن حرب ما حسنة أم سيئة فهذا أمر يتوقف على الظروف والملابسات في ذلك الوقت. وبسبب هذا المنطق الأخلاقي أمر المسلمون في عهد النبي ﷺ بالتعامل مع أعدائهم بطرق مختلفة وفقاً للظروف المختلفة.

ففي البداية أمروا بأن يقتصروا على الجهاد اللفظي ضد أعدائهم ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وهذا يوضح أنه رغم أن الجهاد يكون بالقوة العسكرية ولكن معناه الأساس هو جهاد الكلمة والحجة والجدال. وهذا ينسجم مع الحقيقة التي ذكرناها آنفاً وهي أنه بالاختيار فقط دون غيره يكون الشخص مسلماً.

أمروا أيضاً أن يكفوا أيديهم حتى عند الدفاع عن النفس ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

والسبب الرئيس وراء هذا أن عددهم كان قليلاً وكانوا يعيشون تحت سلطان أولئك الذين يضطهدونهم. فأي محاولة للمقاومة المسلحة سوف تنتهي بهم إلى الإبادة التامة.

ولتجنب الاضطهاد سمح لهم بالهجرة إلى أماكن آمنة. فهاجر بعضهم – بإشارة من النبي ﷺ– إلى الحبشة حيث هناك – حسب كلمات النبي ﷺ: **(ملك لا يظلم عنده أحد)** وبعدها هاجروا جميعاً – وفيهم النبي ﷺ– إلى المدينة.

وبعد أن استقروا وأصبحت لهم أرضهم سمح لهم بالقتال وأسباب هذا السماح سبق توضيحها من قبل. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

وبعدها لم يسمح لهم فقط بل أمروا أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم ولكن عليهم إلا يعتدوا. ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩١]، ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡ﴾ [التوبة: ١٣]، ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة: ٣٦].

وأخيراً أمروا أن يقاتلوا جميع الذين يرتكبون أفعالاً تنطوي على فتنة. ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وقد فسر أحد أصحاب النبي ﷺ هذه الآية بقوله: إن هذا الأمر كان عندما كان المسلمون قليلي العدد معرضين للفتنة، ولكن عندما أصبح عددهم كبيراً فلا وجود لمثل هذه الفتنة[1].

فالحرب العادلة ينبغي شنها حتى ضد المسلمين البغاة. ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ولكي تكون الحروب ضد المعتدين عادلة تماماً وفعالة فهناك شروط ينبغي تحقيقها:

(أ) أن يكون المسلمون الذين يشنون هذه الحروب يتمتعون بالقوة المادية، إذ إن القوة المعنوية وحدها لا تكفي. وفي إشارة إلى أولئك النفر الذين يرتكبون أعمال الجور

(١) تفسير ابن كثير للآية [٣٩] من سورة الأنفال.

والبغي، أشار القرآن للمسلمين بأن يأخذوا العدة لمواجهتهم ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

(ب) يجب بذل جهود كبيرة ومخلصة لحل المشكلة بالطرق السلمية وذلك بالتفاوض مع المعتدي سواء أكانت حكومة أو جماعة ومحاولة جعلهم يدركون عدم أخلاقية أفعالهم وأن العواقب سوف تكون وخيمة عليهم إذا ما نشبت الحرب.

(ج) استهداف المقاتلين فقط.

(د) عدم الحاق الضرر بالأراضي والمزارع والحيوانات أو أي شيء مفيد لحياة البشر.

(هـ) عدم اللجوء للحرب من أجل مكاسب دنيوية أو لنوازع تحركها اعتبارات عنصرية.

(و) يجب إيقاف الحرب بمجرد أن يجنح العدو للسلم.

(ز) بحسب الأحوال، فإنه ينبغي أن تكون اتفاقيات السلام – حتى من البغاة – هي الخيار الأفضل.

معاهدات السلام:

مواصلة لنهجه في إبلاغ رسالته عقد النبي -صلى الله عليه وسلم- معاهدات مع بعض المجموعات التي لم تستجب وتقبل دعوته. وكان أول ما قام به بصفته رئيس الدولة المدنية – توقيع معاهدة مع اليهود المستوطنين في المدنية آنذاك، وأعقب ذلك بتوقيع عدد من المعاهدات مع قبائل ومجموعات عربية مختلفة.

ولكن أهم هذه المعاهدات السليمة هي التي عرفت بصلح الحديبية بين النبي صلى الله عليه وسلم وأعدائه الألداء من قومه في مكة الذين ناصبوا المسلمين العداء وعذبوهم ودخلوا في حروب شعواء ضدهم. ولعل تناول هذا الصلح هنا يثبت بصورة واضحة ما ذهبنا إليه من أن أفضل السبل لنشر الإسلام هي سبل السلم.

فبينما كان النبي ﷺ في طريق عودته إلى المدينة بعد توقيع هذا الصلح نزل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

وعندما سأل أحدهم: أو فتح هذا يا رسول الله؟ كان رد النبي ﷺ: **(نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح).**

لماذا سأل هذا الرجل؟ وأي نوع من الفتح هذا؟

سأل الرجل لأنه نصوص الصلح تبدو غير عادلة بالنسبة للمسلمين. لقد جاء المسلمون لأداء العمرة وهي حسب التقاليد العربية التي ظلت سائدة منذ عصور سحيقة – حق لكل الناس. ولكن قريشاً رأت في أداء المسلمين لهذه العمرة نوعاً من النصر لهم رغم تأكيدات النبي ﷺ مراراً أن نيتهم دينية خالصة وليس لديهم أي نية للقتال. لكن قريشاً أصرت على إلا يؤدي المسلمون العمرة في ذلك العام وأن عليهم أن يعودوا في العام الذي يليه بشروط معينة. وافق النبي ﷺ ووقع معاهدة عدم اعتداء لمدة عشر سنوات. ولكن المعاهدة تحوي نصاً يقول إنه إذا فر مسلم من مكة إلى المدينة تجب إعادته إلى مكة، أما إذا ذهب مسلم من المدينة إلى قريش فلا يعاد إلى المدينة.

أي نوع من النصر هذا؟

هذه هي الإجابة: فقد عندما تكون هناك حرب يكون هناك كفر وإعراض، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازلة، فلم يكلم أحد بالإسلام بعقل إلا دخل فيه. ولقد كان عدد الذين دخلوا في الإسلام خلال العاملين الأولين من هذه المعاهدة مساوياً أو أكثر من عدد الين اعتنقوا الإسلام من قبل. وهذه حقيقة[1]. وهذه حقيقة ثبت فيما بعد، فعندما جاء النبي ﷺ إلى الحديبية كان معه ألف وأربعمائة من المسلمين، لكنه عندما ذهب لفتح مكة بعد عامين من ذلك التاريخ كان معه عشرة آلاف مسلم[2].

لقد وجد الكثير ممن يرغب في الإسلام ولكنه كان خائفاً من قبوله أو الذهاب إلى المدينة بسبب حالة الحرب[3]. لقد تمثل النصر بصورة رئيسة في دخول الناس في دين الإسلام. إنه لأمر طبيعي يتسق مع تعاليم الإسلام أن يسمى فتحاً أو نصراً، إذ إن الهدف

---

(١) ابن حجر – فتح الباري – كتاب الشروط في الجهاد.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

الرئيس للمسلمين هو دعوة الناس إلى دين الله وليس قتلهم أو تعذيبهم. إننا نلجأ للحرب ليس كوسيلة لجعل الناس يعتنقون الإسلام ولكن عندما تكون هي الطريق الوحيد لإيقاف عدوانهم وجورهم.

ومن المهم أن نذكر أن النبي ﷺ هو من اتخذ المبادرة المتعلقة بهذه المعاهدة أو الصلح. فقد خاطب النبي ﷺ قريش الذي جاء لمقابلته قبل دخول المسلمين إلى مكة محاولاً إقناعه أن السلام من مصلحتهم كان النبي يردد (يا قريش) وطلب من رسول قريش إبلاغها: **(أن الحرب قد أكلتهم، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، إن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة).**

التعايش السلمي:

إننا في زمن يختلف عن الأزمان السابقة. فاليوم نرى الناس من مختلف المعتقدات والجنسيات والألوان والأعراف يجدون أنفسهم ملزمين بالعيش جنباً إلى جنب في قرية كونية حيث ترتبط صالحهم بعضهم مع البعض. لكنه في الوقت نفسه عالم به كميات هائلة مما يعرف بالأسلحة التقليدية التي يمكن أن تحدث خراباً هائلاً للبشر ومقومات الحياة على هذه الأرض. وهو عالم مليء بمخزون من أسلحة الدمار الشامل يكفي ما هو موجود منها في الولايات المتحدة وحدها للقضاء على الإنسانية كلها. ويبدو أنه لا مناص للبشر – لتفادي هذه النتيجة المروعة – غير القبول بالعيش بسلام بعضهم مع البعض مهما كانت الخلافات بينهم. ولا يكفي مجرد رغبة سكان العالم في التعايش السلمي بل عليهم أن يعززوا من الحاجة إلى مؤسسات دولية تقوم بصون هذا السلام. لكن عليهم أكثر من ذلك الالتزام بالمبادئ الاخلاقية التي بدونها لن تعمل هذه المؤسسات بصورة جيدة.

١) ينبغي أن تقوم المنظمات الدولية على العدل. وعلى الدول العظمى أن تعي أن هذا العدل في النهاية هو في مصلحة شعوبها وهي مصلحة يجب الإقرار بها حتى تكون أكثر أهمية بالنسبة لهم من مصالحهم المادية. يمكن لأية دولة عظمى أن تستخدم قوتها الاقتصادية والعسكرية لقهر وإخضاع الدول الضعيفة وأن تبرر ذلك الادعاء أن ذلك حماية لمصالحها القومية. وحقيقة الأمر أنه لا يوجد أدنى فرق أخلاقي بين هذا

المنطق وذاك الذي يقول به شخص قام بسلب ممتلكات شخص آخر بذريعة تحسين وضعه المعيشي.

٢) سوف تفقد المؤسسات الدولية – مثل الأمم المتحدة – وظيفتها كوسيلة لصون السلم العالمي إذا ما أصبحت أداة في أيدي الدول العظمى. لكن وللأسف هذا هو الوضع الآن. وليس هذا هو الوضع الذي ارتضته الدول الضعيفة ولكنه الوضع الذي اراده ممثلو الدول العظمى. بل أكثر من ذلك فهم يتباهون به. إن هيمنة وجهات نظر الدول العظمى فيما يخص هيئة الأمم المتحدة قد عبر عنه في العام ١٩٩٢م فرنسيس فوكوياما – الذي عمل في وزارة الخارجية الأمريكية في فترة إدارة كل من الرئيسين السابقين رونالد ريجان وجورج بوش الأب – عندما ذكر أن الأمم المتحدة هي أداة لخدمة السياسة الأحادية للولايات المتحدة وحقاً ربما يكون تكون الآلية الرئيسة التي يمكن بها تطبيق السياسة الأحادية هذه في المستقبل[1].

الغرب يحاول وسوف يستمر في محاولة الحفاظ على أوضاعه والدفاع عن مصالحة بحجة أنها تمثل مصالح (المجتمع الدولي). لقد أصبحت عبارة (المجتمع الدولي) التي حلت محل عبارة (العالم الحر) في نفسها الاسم الملطف الذي يمنح الشرعية لكل الأعمال المعبرة عن مصالح الولايات المتحدة الأمريكية وسائر القوى الغربية الأخرى[2].

٣) إن الالتزام بالمبادئ الأخلاقية – وعلى وجه الخصوص العدالة – هو الضمان الوحيد ضد انتشار أسلحة الدمار الشامل. إن الدول الضعيفة لن ترى أنها بحاجة إلى امتلاك هذه الأسلحة إذا ما شعرت أن عدم امتلاكها لن يعرض بقاءها وسيادتها للخطر، وسترى أن من الحكمة إنفاق ما يُنفق على هذه الأسلحة على أشياء أكثر أهمية منها.

---

(١) نعوم تشوميسكي – الهيمنة أو البقاء محاولة أمريكا الهيمنة على العالم – هنري هولت وشركاه – نيويورك – ٢٠٠٣ م – ص٣٩.

(٢) صمئويل هينتنجتون –صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي – تشوستون، نيويورك ١٩٩٦ ص١٨٤.

ولكن إذا ما شعرت هذه الدول بتعرضها للإذلال بسبب عدم امتلاكها هذه الأسلحة فسوف تعمل جاهدة لامتلاكها مهما كان ثمنها وبغض النظر عن المعاهدات التي وقعتها في هذا الشأن.

٤) المدفوعون بنزعة الهيمنة عليهم أن يتذكروا أن هناك الكثيرين المدفوعين بغريزة حماية وصون كرامتهم وهي دافع أقوى مما لديه.

فالكثيرون يمكن أن يضحوا بحياتهم من أجل كرامة شعوبهم.

٥) ليست القيم الأخلاقية وحدها التي يمكن أن تكبح أولئك الذين يمتلكون قوة عسكرية هائلة عن عدم استخدامها بصورة جائرة. وبفضل التطور الذي حدث في الأسلحة وصناعتها يمكن أن نرى قريباً أفراداً أو مجموعات صغيرة تمتلك أسلحة صغيرة الحجم ولكنها ذات دمار شامل وليس من الصعوبة الوصول إليها.

٦) لا ينبغي استخدام الأمم المتحدة والمؤسسات الدولية الأخرى كمنار تستغلها الدول العظمى لفرض قيمها – وبخاصة القيم العلمانية – أو غيرها. إن أعضاء منظمة الأمم المتحدة لا ينتمون لمختلف البلدان فحسب، بل لمختلف الثقافات والقيم والمعتقدات، ولكي يجتمع هؤلاء الناس تحت مظلة واحدة ويتعاونوا على مواجهة المشكلات فإنه من الضروري جداً لهم أن يعترفوا بهذه الاختلافات الجوهرية وأن يلجؤوا للوسائل السليمة لحل هذه الخلافات. إن التغيير الثقافي سواء كان للأفضل أو الأسوأ يأتي تدريجياً واختيارياً. وإن استخدم منظمة مثل هيئة الأمم المتحدة لإحداث التغيير الثقافي للشعوب سوف يولد نوعاً من عدم الاحترام لهذه المنظمة، وبالتالي يشجع الدول على عدم الالتفاف إلى قراراتها. وإنه لمن المؤسف أن هناك الكثيرين في الغرب الذين يعتقدون أن أسلوب حياتهم هو الأسلوب الأمثل لكل من ينشد حياة عصرية. إنهم ببساطة يريدون من الآخرين أن يختاروا النظام السياسي الذي اختاروه هم، وأن يفسروا الدين بالطريقة التي يفسرون بها الدين، وأن تكون العلاقات بين الجنسين هي العلاقة السائدة في مجتمعاتهم وأن يمتنعوا عن التصرف بأية طريقة تعتبرها دولة – مثل الولايات المتحدة – لا تخدم مصالحها القومية.

* * *

الإسلام والإرهاب

(ورقة قدمت لمؤتمر رابطة العالم الاسلامي في مكة المكرمة).

لم يكتف بعض الكتاب والمفكرين الغربيين بما تبذله حكوماتهم من جهد للبحث عن من قاموا بعملية ١١سبتمبر وعقابهم، ولم يروي غليلهم ما حدث من هجوم شرس على أفغانستان، بل بدأوا يبحثون عما يسمونه بالأسباب الفكرية الجذرية لذلك الحدث الذي أطلقت عليه صفة الإرهاب، فادعى بعضهم أنها تكمن في التعاليم الإسلامية، ولا سيما ما يسمى بالوهابية.

يدل على بطلان هذا الزعم أمران:

أولهما: كما ذكر بعض المنصفين من الكتاب الغربيين أن كراهية الغرب، والاعتداء عليه ليس قاصرا على بعض الجماعات الإسلامية، بل هو أمر يشاركهم فيه أصحاب حضارات أخري يقول أحدهم في مقال له بجريدة نيويورك تايمز: «إن نوع الاعتداء الجريء العنيف الذي نربطه الآن بالإسلاميين كان - بدلاً عن ذلك - مرتبطا منذ قرون بأماكن مثل اليابان وكوريا والصين" ثم يقول "والمسلمون ليسوا محتكرين للتكتيكات الانتحارية».

ويذكرهم بعضهم بأن جماعات أمريكية نصرانية أصيلة قامت بأول عمل إرهابي كبير على الولايات المتحدة.

وثانيهما: أنه حين يُعرَّف الإرهاب تعريفاً صحيحاً يربطه بالظلم والعدوان والإجرام، فإن الإسلام أبعد شيء عنه كما سنبين.

لكن المشكلة أن كلمة الإرهاب في استعمالها الحديث كلمة غامضة لا يتفق الناس على معنى محدد لها. فلنبدأ إذن باستعراض بعض تعريفات الإرهاب ومناقشتها، وبيان فضل المفهوم الإسلامي عليها.

تعريف الإرهاب:

تقول جماعة أمريكية معنية بدراسة الإرهاب: إن الإرهاب بطبيعته أمر يصعب تعريفه. حتى حكومة الولايات المتحدة لم تستطع أن تتفق على تعريف واحد. فالمثل السائر يقول إن الإرهابي عند شخص هو مناضل من أجل الحرية عند شخص آخر.

تعرف موسوعة Encarta الإلكترونية الأمريكية الإرهاب بأنه: استعمال العنف، أو التهديد باستعمال العنف، من أجل إحداث جو من الذعر بين أناس معينين. يستهدف العنف الإرهابي مجموعات إثنية أو دينية، أو حكومات، أو أحزاب سياسية، أو شركات، أو مؤسسات إعلامية.

أما الكونغرس الأمريكي فيعرف الإرهاب بأنه: "عنف واقع عن قصد وترو وبدوافع سياسية تستهدف به منظمات وطنية، أو عملاء سريون جماعة غير محاربة يقصد منه في الغالب التأثير على مستمعين أو مشاهدين

وأما وكالة التحقيقات الفدرالية .F.B.I فتقول عن الإرهاب إنه: استعمالٌ - أو التهديد باستعمال - غير مشروع للعنف ضد أشخاص أو ممتلكات لتخويف أو إجبار حكومة أو المدنيين كلهم او بعضهم لتحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية.

في هذه التعريفات كلها خلل أساس هو نسيانها أو تناسيها للمعنى اللغوي الأصلي للكلمة وهو معنى تتفق عليه الكلمتان الإنجليزية والعربية.

يقول لنا أحد قواميس اللغة الإنجليزية إن كلمة terror تعني "استعمال العنف لتحقيق أغراض سياسية ثم يعطينا على هذا الاستعمال مثلا بجملة تقول " إن حركة المقاومة بدأت حملة من العنف terror ضد قوات الاحتلال." فالإرهاب إذن قد يكون أمراً مشروعاً ومحموداً. وبهذا المعنى المحمود المشروع استعملت الكلمة في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فكلمة الإرهاب هي إذن ككلمات القتال والحرب قد تدل على معنى محمود كما قد تدل على معنى مذموم بحسب نوع الإرهاب أو القتل أو الحرب. وعليه فلكي تؤدي المعنى المذموم الذي يراد لها أن تؤديه في الاستعمال الذي بدأ يشيع الآن، فلا بد من تقييدها بوصفٍ مثل العدواني أو الظالم. هذا أمر لازم ولا سيما للمسلمين. إنه لا يجوز أبداً أن نحصر كلمة الإرهاب في المعنى المذموم ما دام كتاب ربنا قد دل على أنها يمكن أن تستعمل بمعنى محمود.

لذلك أعود فأقترح أن نقيد المعنى المذموم للإرهاب بأنه الإرهاب العدواني. وآنذاك سيكون معناه الأساس واضحاً. أما الزيادات التي تجعل التعريف اصطلاحياً فيبدو أنه

ليس من الصعب الاتفاق عليها، ولا سيما إذا قلنا كما يقول بعض دارسي الإرهاب في الولايات المتحدة إن التعريفات الاصطلاحية تختلف باختلاف الغاية منها. فتعريف الكونغرس يقصد منه إحصاء العمليات الإرهابية في العالم، وتعريف وكالة الاستخبارات يقصد منه تتبع المعتدين على الولايات المتحدة. نعم سيبقى هنالك اختلاف فيما يعد مشروعاً وما لا يعد. لكن هذا أمر يرجع إلى ثقافات الناس وأديانهم وفلسفاتهم، وهي أمور يمكن أن يدور فيها حوار عقلاني راشد. فمهمتنا إذن باعتبارنا مسلمين أن نبين للعالم ما الذي نعده إرهابا عدوانيا، وكيف نقي الناس شر هذا العدوان.

من العناصر التي لا بد من إضافتها إلى المعنى اللغوي كي يصير اصطلاحاً:

تحديد نوع القائمين بالإرهاب ومع أن الناس يتكلمون أحياناً عن إرهاب الدولة إلا هنالك شبه إجماع على أن المقصود بالإرهاب في المعنى الاصطلاحي هو ما تقوم به منظمات وجماعات لا حكومات.

تحديد من يقصدون بالعنف. وفي هذا اختلاف فبينما يرى البعض أن يحصر معنى الإرهاب في العنف الذي يقصد به إصابة أهداف أو جماعات غير عسكرية يرى بعضهم أن يكون شاملا لهذا كله.

تحديد الغرض منه وهو كونه وسيلة لتحقيق أهداف سياسية أو اجتماعية.

نستطيع الآن وفي ضوء هذا الشرح لمفهوم الإرهاب أن نتبين موقف الإسلام منه

العلاج الإسلامي لمشكلة الإرهاب:

فنقول إذن وبالله التوفيق إن الإسلام هو أبعد شيء عن إرهاب الناس وترويعهم وقتلهم. إنه حين يفعل ذلك ببعضهم إنما يفعله ردا على عدوانهم أو إيقافا له أو عقابا على جرم ارتكبوه. وأن هذا الدين لا يكتفي بإدانة الإرهاب العدواني بل يتعدى ذلك إلى وضع وسائل لعلاجه. فهو يعالجه علاجاً نفسيا علميا، وعلاجا تنظيميا، وعلاجا عقابيا، وعلاجا إصلاحيا.

العلاج النفسي العلمي:

العلاج النفسي هو العلاج الأساس وذلك لأن أعمال الناس خيرها وشرها إنما مبعثه تصوراتهم ومعتقداتهم وقيمهم وعلومهم. فالإسلام يعالج كل أنواع الظلم البشري بهداية الناس إلى الإيمان بالله تعالى الذي هو أساس كل خير فيها، والذي هو أهم

مكون للفطرة التي فطر الله الناس عليها. فإذا ما ذاقت النفس حلاوة الإيمان سهل عليها العمل بالطاعات واجتناب المنهيات.

ثم تأتي العبادات التي هي أقوى داعم للإيمان، وأهمها الصلاة " إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر"

فإذا ما تهيأ القلب هكذا لاستقبال أوامر الله ونواهيه، جاءته الأوامر التي تفصل له أعمال الخير كي يأتيها وتفصل له أعمل الشر كي يجتنبها. الهدى الإلهي المتمثل في هذه الأوامر والنواهي شامل لكل شأن من شؤون الحياة الإنسانية بما في ذلك شأن الإرهاب والقتال فنحن مأمورون بأن يكون جهادنا - الشامل للإرهاب والقتال - خالصا لإعلاء كلمة الله تعالى، وأن يكون لذلك في حدود القيم الرفيعة التي يحبها الله تعالى، وإلا يتجاوزها إلى الوقوع فيما لا يرضي الله عز وجل من الظلم والبغي والكذب والغش والغدر، واتباع أهواء الغضب والانتقام للنفس، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

مما قاله الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: «أي ولا يحملنكم بغض من كانوا صدوكم عن المسجد الحرام وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلما وعدوانا، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد... فإن العدل واجب على كل أحد في كل أحد في كل حال. قال بعض السلف ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. والعدل به قامت السماوات والأرض».

هذ الموقف الإسلامي الداعي إلى العدل وإلى عدم العدوان ليس موقفا تكتيكيا مؤقتا وإنما هو موقف نابع من أصل هذا الدين وطبيعته، وذلك:

أولا: لأن هذا الدين - كغيره من أديان الحق التي بعث بها رسل الله تعالى - إنما هو دعوة إلى تعريف الناس بربهم وهدايتهم إلى عبادته، وأن يعيشوا بهذه العبادة سعداء في هذه الحياة الدنيا، وفي الدار الآخرة.

ثانياً: لكن الاهتداء الحقيقي أمر قلبي لا يجدي معه ترويع أو تهديد بإلحاق أذى أو بقتل، وإنما الذي يجدي معه - لمن كان مستعدا للهداية - أن يعرف الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم معرفة يستقينها قلبه.

ثالثاً: ولذلك كانت المهمة الأولى لرسل الله جميعا - بما فيهم رسولنا الكريم - ومهمة أتباعهم الراشدين من بعدهم هي تبليغ هذا الحق تبليغا بينا، والمجادلة عنه بالحجج والبراهين التي تزهق كل شبهة تثار حوله. وعليه كان الجهاد الأول والدائم هو الجهاد بالقرآن. قال تعالى: وجاهدهم به جهادا كبيرا

رابعاً: ولهذا كان للمتسبب في هداية إنسان إلى هذا الحق أجر عظيم دونه أجر قتله حتى حين يكون القتل مشروعا. روى البخاري ﷺ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ: **(لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)** فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ: **(أَيْنَ عَلِيٌّ؟)** فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ فَقَالَ: أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ: **(انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)**.

قال ابن حجر في الفتح معلقاً على هذا الحديث: « يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله».

خامسا: وبما أن حال السلم حال أدعى إلى الاستماع والنظر والتفكر في الإسلام حين يعرض على من لم يسلم فإنها مفضلة في الإسلام على حال الحرب. قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

وسمى الله تعالى صلح الحديبية فتحا. فأي فتح كان؟ يجيبنا الزهري بقوله

فما فُتِحَ في الإسلام فتح قبله كان أعظم من فتح الحديبية، إنما كان القتال حيث التقى الناس. ولما كانت الهدنة، ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس كلّم بعضهم بعضاً، والتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يُكلّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر

قال ابن حجر مؤيداً الزهري: « فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهم ببعض من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن، وناظروهم على الإسلام، جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية».

وقال ابن هشام أيضاً مؤيداً للزهري: «ويدل عليه أنه صلى الله عليه وسلم خرج في الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج بعد سنتين إلى فتح مكة في عشرة آلاف».

نستخلص من كلام هؤلاء العلماء الثلاثة أن الفتح تمثل أساساً في كثرة عدد من دخلوا في الإسلام بسبب الصلح.

قد يسأل سائل: إذا كان السلم والصلح والموادعة هي خيار الإسلام فلماذا إذن يدعو إلى إعداد القوة الحربية ولماذا إذن يدعو للجهاد القتالي ويجعل للمجاهدين تلك الدرجات العالية التي نعرفها؟ الجواب يسير: إن الله تعالى الذي خلق الخلق يعلم أن بعضهم لا يكتفي بالكفر بالحق، بل إنه ليكرهه ويكره المستمسكين به ويبذل أقصى ما في وسعه لعدم انتشاره. لا بد للحق إذن من قوة مادية تحميه وتحمي المستمسكين به من مثل هذا العدوان. فالجهاد إنما شرع لمحاربة المعتدين، بل وحتى لمحاربة البغاة من مسلمين.

لكن الإسلام يضع حتى لمثل هذا القتال المشروع من الضوابط الخلقية ما لا يضعه الفكر الغربي لما يسميه بالحرب العادلة. من ذلك:

❖ الأمر بالعدل حتى مع الأعداء وعدم العدوان عليهم، وأنهم لا يقاتلون أو يقتلون بسبب كفرهم بل بسبب عدوان المعتدي منهم على الدين الحقِ، أو على المستمسكين به.

❖ تشجيع المقاتلين على قبول السلم والمسارعة إلى قبوله إذا ما عرضوه.

❖ عدم الغدر

العلاج التنظيمي:

إن المسلمين مأمورون بأن يجاهدوا عدو الله وعدوهم، وأن يدفعوا عن دينهم وأنفسهم. لكن الجهاد عمل جماعي لا يستقل به فرد أو بعض أفراد، ولا يؤتي ثماره إذا صار عملا فرديا ولا سيما جهاد عدو قوي يملك من العدد والعدة الشيء الكثير. لذلك كانت أمور الحرب في الإسلام مهمة الدولة المسلمة فهي التي تقرر زمانه ومكانه وهي

التي تزن مضار القتال ومصالحه في كل حال من الحالات، في ضوء إمكاناتها وإمكانات عدوها. تفعل ذلك كله بعد استشارة الناس لأن أمر القتال يهمهم جميعا ويؤثر فيهم جميعا. هكذا كان يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده، ثم كثير ممن أتى بعدهم من ولاة أمور المسلمين. ولا يشترط في التعاون مع ولي الأمر الذي يؤدي هذه المهمة نيابة عن الأمة أن يكون حاكماً عادلاً صالحاً، بل إنه ليقاتل معه وإن كان فاجراً.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لا بد للناس من إمارة برة كانت أو فاجرة). قالوا: هذه البرة قذ عرفناها. فما بال الفاجرة؟ فذكر من فوائد الفاجرة أنه يُجاهد بها العدو، لكن بعض إخواننا صاروا يفتون في السنين الأخيرة بأنه يجوز حتى للأفراد أن يتولوا قتال الأعداء مستقلين عن الحكام. وهم يستدلون على جواز ذلك بقصة أبي بصير. وهذا من عجائب الاستدلال الذي يوشك أن يكون من اتباع المتشابه. إذ كيف تؤخذ حادثة واحدة دليلاً على مخالفة أمر تضافرت على تقريره النصوص القولية والتطبيقات العملية؟ وكيف حين يجعل هذا قاعدة مطلقة لا استثناء مقيداً بشروط؟ على أن المتأمل في قصة أبي بصير رضي الله عنه يرى - بإذن الله تعالى - أنه لا دليل فيها على ما سيقت لتسويغه. فأبو بصير لم يكن - من الناحية الرسمية كما يقال اليوم - تابعا للمجتمع الإسلامي ولا خاضعا لسلطته، وإنما كان تحت سلطة كافرة منعته من حق من حقوقه وهو الانتقال إلى بلاد المسلمين التي هداه الله للدخول في دينهم. فلما منعوه من ذلك تمرد عليهم وأتعبهم حتى أجابوه إلى طلبه. فلما التحق بالمجتمع المسلم وصار تحت قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم كف عن فعله. فالاستدلال الصحيح بقصة أبي بصير يكون على أفراد في مثل حاله تابعين لدول كافرة تمنعهم ظلماً وعدواناً من الهجرة إلى بلاد المسلمين، ويرون أنفسهم قادرين على إلحاق الأذى بدولتهم المعتدية إلحاقا يجبرها على الاستجابة لهم ولا يلحق بالمجتمع المسلم ضرراً. يقول بعضهم لكن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي أشار لأبي بصير أن يفعل ما فعل وإن كانت إشارته بطريقة غير مباشرة. ونقول إنه ليس في هذا أيضا دليلاً على جواز أن يتولى الأفراد أمر القتال مستقلين عن الجماعة المسلمة متمثلة في ولاة أمورها. لأنه إذا كان أبو بصير قد

فعل ما فعل بإشارة من النبي ﷺ لم يعد فعله أمراً فردياً، لأن الذي يؤدي عملاً من أعمال الجهاد بأمر ولي الأمر يكون عمله ضمن خطة عامةٍ فلا يكون إذن عملا فردياً. يقول بعضهم ماذا إذا لم يكن الحكم في بلدنا إسلامياً. نقول انتقل إلى بلد يكون الحكم فيه إسلامياً، وإن لم تستطع فعد نفسك تابعا له حيثما كنت. يقول بعضهم ماذا إذا لم يكن على وجه الأرض كلها حاكم مسلم؟ نقول هذه إن صحت تكون مشكلة أكبر من قتال الكفار، فالعمل على علاجها يكون مقدما على القتال، اللهم إلا إذا كان القتال دفعا لعدو غزا المسلمين في عقر دارهم.

العلاج الحسي:

وأعني به إجبار الإرهابي المعتدي على إيقاف اعتدائه ومعاقبته على الاعتداء. لعل أقرب مثال إلى الإرهاب العدواني بمعناه الاصطلاحي الحديث هو عدوان أهل البغي. فهؤلاء أيضا جماعة تخرج على الحاكم المسلم الشرعي وتقاتله بغرض إزالته، أو تقاتل جماعة أخرى من المسلمين. فالله تعالى يأمرنا بأن لا نقف مكتوفي الأيدي في مثل هذه الحال بل نقاتل الفئة الباغية حتى تكف عن بغيها امتثالا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" وبالطريقة التي فصلها لنا الله تعالى في قوله "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما... "

العلاج الإصلاحي:

وأعني به فتح باب الأمل أمام مرتكب العدوان، وعدم تيئيسه من الكف الطوعي عن عدوانه وهذا يكون بأمرين: أولهما أن يكون العقاب عادلا لا يتجاوز الحد، وإلا كان هو نفسه ظلما وعدوانا، وثانيهما إلا يكون العقاب نهاية المطاف، بل يعقبه استعداد للتفاوض مع المعتدي ومصالحته وقبوله.

إن إغلاق باب التوبة والأوبة على المعتدي من شأنه أن يغريه بالاستمرار في عدوانه إما دفاعا عن نفسه وإما يأسا من وجود مخرج. ولهذا فتح الله تعالى هذا الباب حتى للمفسدين في الأرض المحاربين لله ورسوله، فقال سبحانه "إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم..

***

البخاري غير معصوم.. لكن كل ما في كتابه صحيح

دراسة نشرت في مجلة الدعوة السعودية بتاريخ ١/٤/ ١٤١١هـ.

هل يلزم من كون البخاري غير معصوم أن توجد في كتابه الذي بين أيدينا الآن أحاديث غير صحيحة مخالفة لكتاب الله أو لصريح العقل أو للحقائق الحسية؟ هكذا يظن بعض الناس في أيامنا هذه، ولكنه ظن تكذبه قواطع الأدلة كما سأبين بعدُ بإذن الله تعالى. لو كان ما في البخاري مجموعة آراء لرجل من بخارى اسمه محمد إسماعيل إبراهيم لقلنا يستحيل أن تكون آراؤه أو آراء أي بشر مثله كلها صحيحة لأن الله تعالى يقول عن القرآن العظيم.. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، لكن الكتاب الذي نحن بصدده ليس تسجيلاً لآراء بشر، إنما هو جامع لما يقرب من ثلاثة آلاف حديث من الأحاديث النبوية الصحيحة. فهل من المستحيل عقلاً أو شرعاً على إنسان غير معصوم أن يجمع هذا العدد من الأحاديث النبوية في كتابٍ واحد من غير أن يخطئ فيجعل فيها أحاديث ضعيفة أو موضوعة؟ ولو كان البخاري هو وحده الذي عزا هذه الأحاديث إلى النبي ﷺ فلربما قلنا إنه قد يُستبعد على بشر عادي أن يروي هذا القدر الكبير من الأحاديث من غير أن يخطئ في شيءٍ مما روى. لكن البخاري لم يكن أول من عزا هذه الأحاديث إلى النبي ﷺ، فقد كانت هذه الأحاديث معروفة للعلماء، متداولة بينهم، حتى قبل أن يُولد الإمام البخاري رضي الله عنه. كل ما فعله البخاري أنه جمع قدراً من تلك الأحاديث المشهود لها بالصحة، وبَوبَها تبويباً رائعاً يدل على عمق فقهه وحِدة ذكائه. وهو لم يجمع كل ما ثبت له صحته من الأحاديث ولا أراد ذلك، كل ما حرص عليه إلا يُدخل في كتابه حديثاً غير صحيح، ومن هنا كان الاسم الكامل للكتاب: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه. ولو كان البخاري هو وحده الذي حكم لهذه الأحاديث بالصحة، لأمكن أن يُقال ربما كانت المعايير التي وضعها للحكم على الأحاديث بالصحة أو عدمها غير صائبة كلها أو بعضها. إن بعض من لا فقه لهم يتصورون أن الإمام البخاري جلس على أريكته، ونظر إلى سقف بيته ثم قال –

بمجرد التشهي - إن الحديث الصحيح ينبغي أن يكون كذا وكذا. ثم جاء العلماء من بعده فسلموا له في سذاجة بالغة بهذا الذي قرره، وقلدوه في الحكم على أحاديثه بالصحة.

قد يقول بعض القراء: إذن ما الذي حدث؟ من الذي وضع شروط الصحة والضعف للأحاديث؟ وعلى أي أساس؟ وسواء كان هو البخاري أو غيره فإنما هم بشر يُخطئون ويصيبون، فلماذا نلتزم بما قرروا؟ هذا سؤال مهم، أرجو أن يكون في بيانه ما يُزيل عن القلوب شبه الموسوسين والمرتابين ويرد إليها برد اليقين بصحة ما صحح العلماء - ولاسيما البخاري - من أحاديث الرسول ﷺ. إن ما يُعد حقيقة وما لا يُعد - في أي علم من العلوم الدينية والدنيوية - ليس أمراً متروكاً لأهواء الأفراد وتلذذاتهم مهما كان علمهم و كانت شهرتهم، وإنما هو أمر تقتضيه وتفرضه طبيعة العلم المبحوث فيه. فإذا كان مجال حقائقه مما يمكن أن يُشاهد بالحس المباشر، أو كان مما يمكن أن يُستدعى بالتجربة، جعلنا المشاهدة والتجربة دليلاً أساسياً على صحة دعوى وجود حقيقة من هذا النوع، ولم نقبل - حتى في حياتنا اليومية، ودعك من مجالاتنا العلمية المتقدمة - دعاوى تقوم على مجرد الرأي، أو الرؤى. وإذا كان مما يمكن أن يُشاهد، ولا يُمكن أن تجرى عليه التجارب، كالحقائق الفلكية، اشترطنا المشاهدة وحدها. وإذا كان مما لا يمكن أن يشاهد ولا يمكن أن تجرى عليه التجارب، بحثنا عن منهج آخر مناسب له يوصلنا إلى حقائقه. فإذا كان مجاله حقائق الأحكام الشرعية التي جاء بها الرسول ﷺ، لم نقبل دعوى تتصل بها ما لم تكن مستندة بطريق مباشر أو غير مباشر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. إن علماء الشرع - كعلماء الطبيعة - لا يقبلون الدعاوى القائمة على مجرد الرأي أو الرؤى المنامية ما لم يستند عليها دليل. والدليل بالنسبة لعلماء الطبيعة هو المشاهدة، وبالنسبة لعلماء الشريعة هو نصوص الكتاب والسنة. لكن علماء الطبيعة وعلماء الشريعة يقبلون الأدلة العقلية المستندة إلى أدلتهم الأساسية، وكذلك الأمر بالنسبة للحقائق المتعلقة بالحديث النبوي، إن طبيعتها هي التي تحدد منهج الوصول إليها، ومن ثم الدليل على صحة الدعاوى المتعلقة بها أو زيفها.

فكيف تعرف أجيال المسلمين التي جاءت بعد الرسول ﷺ، ولم تتشرف برؤيته ولا بالاستماع إليه، ولا عاشت أيامه، كيف تعرف ما اتصف به ﷺ من خَلقٍ وخُلق، وما سنّ وشرع؟

لا طريق أبداً إلا طريق الرواية. يشاهد المعاصر للرسول ﷺ حاله ويسمع مقاله، فينقل ذلك إلى من جاء بعده، وينقله هذا بدوره إلى الجيل الذي يليه، وهكذا. إن الرواية هي المنهج العلمي الوحيد المعتمد لمعرفة سنة الرسول ﷺ. حتى لو كان التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل الصوتي أو الفديوي موجوداً في زمن الرسول ﷺ، وحتى لو أذن الرسول بأن تلتقط صورته ويسجل صوته، لما أغنى ذلك عن الرواية! كيف نتأكد من أن الصورة التي نشاهدها هي صورته، وأن الصوت صوته، إلا بشهادة من عاصره وعرفه؟ إن كبار المؤرخين الذين بلوا هذه الأمور يعرفون أن التصوير والنحت المنقوش لا تمثل دائماً الحقيقة الواقعة، بل قد تكون تعبيراً عن رأي أو اعتقاد، أو تسجيلاً لأماني وآمال لم تتحقق. ها هم العرب الجاهليون يصورون إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزلام، حتى قال الرسول ﷺ: **(قاتلهم الله! أما والله قد علموا أنهما لم يستقسما بهما قط)**[1].

هذا المنهج الذي يقتضيه العقل هو الذي جاء به الشرع. فأنت إذا تأملت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر وجدته قد حث أصحابه على الرواية بل وضع كل الشروط التي تجعل منها منهجاً علمياً موصلاً إلى الحقيقة، فقد كان ﷺ كثيراً ما يدعو أصحابه الحاضرين إلى الحرص على تبليغ ما سمعوا إلى إخوانهم الغائبين تبليغاً أميناً لا زيادة فيه ولا نقصان. من ذلك قوله لهم في حجة الوداع: **(ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه)**[2]، فالرواية كانت مهمة، وكانت وسيلة ضرورية من وسائل نشر العلم، حتى في الوقت الذي كان فيه الرسول ﷺ بين ظهراني أصحابه؛ فما من أحد من هؤلاء الأصحاب كان دائماً معه ﷺ يشاهد كل أحواله، ويسمع كل أقواله. لذلك كان الغائب

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الحج باب من كبر في نواحي الكعبة..

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي باب حجة الوداع.

منهم يعتمد على ما يحدثه به الشاهد حتى في ذلك الوقت المبكر. فهذا عمر بن الخطاب وهو من ألصق الناس صلة بالرسول ﷺ يقول: (كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد من عوالي المدينة. وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك)[1].

الرواية إذن طريقة علمية للوصول إلى الحقيقة، وهي الطريقة الوحيدة الموصلة إلى أكثر الحقائق التي لا نستطيع الاطلاع عليها اطلاعا مباشراً، بل إن الرواية هي أهم طرق نشر العلم بين الناس، حتى ما كان منه متعلقاً بالحقائق الحسية. إن عدداً قليلاً جداً من العلماء المختصين هم الذين يعرفون حقائق العلوم الطبيعية هذه معرفة تجريبية مباشرة. أما سائر الناس من عامة عباد الله – علماء كانوا أو غير علماء – فإن وسيلتهم الوحيدة إلى معرفتها إنما هي ما يرويه لهم الذين شاهدوها أول مرة أو ثانيها أو ثالثها، بأن أعادوا تجربة العالِم الأول ليتأكدوا من صحة نتائجها. فلو لم تكن الرواية وسيلة معتمدة للمعرفة – أياً كانت – لما كانت هنالك كتب، ولما كانت مدارس ولا جامعات، ولا غيرها من وسائل الإعلام، ولا نحصر العلم في تلك القلة من الناس التي أمكنها أن تطلع على الحقائق اطلاعا مباشراً. الرواية إذن طريقة معتمدة للوصول إلى الحقيقة. لكن الناس يكذبون والناس ينسون، فكيف نتأكد من أن ما قالوه صحيح ونحن لا نستطيع أن نسمع أو نرى ما ادعوا أنهم سمعوا أو رأوا؟ الطريقة الوحيدة للتأكد من صحة الرواية التي تفرضها علينا هذه الحقيقة، هي إلا نأخذ إلا عمن عرفنا أنه لا يكذب وأنه جيد الحفظ، وهذان هما الشرطان اللذان عبر عنهما علماء الحديث بالعدالة والضبط، وهما أشمل من مجرد الصدق وجودة الحفظ. «فالعدالة تشمل جميع الصفات التي تشترك في تكوين الثقة بصدق الراوي، من حسن العقيدة، والقيام بأوامر الشرع واجتناب ما نهى عنه، وترك كل ما يخل بالمروءة، والاتصاف بالورع والتقوى، ومحاسن الأخلاق. والضبط يعني كمال الملكات العقلية، والنباهة

---

(١) صحيح البخاري :كتاب العلم باب التناوب في العلم.

وعدم الغفلة، واليقظة، وحسن الفهم والحفظ والمعرفة بأحوال الناس»[1]، لكن مقصود الشرطين هو كما ترى التأكد من أن الراوي حكى لنا ما سمعه أو شاهده كما هو فلم يغير فيه عن قصد فيكون كاذباً، ولا عن سوء فهم أو نسيان فيكون غير حافظ. العدالة والضبط هما إذن الشرطان الأساسان اللذان يجب توفرهما فيمن يعتد براويته. فإذا كان كل رواة حديث ما عدولاً ضابطين، وكان كل منهم قد سمع ممن حدث عنه، ولم يكن في الحديث المروي شذوذ ولا علة، كان الحديث صحيحاً لا محالة.

لذلك عرّفوا الحديث الصحيح بمثل قولهم: «ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه، وسلم من الشذوذ والعلة». إن عدم العصمة لا يقتضي حتمية وجود الخطأ في كل ما يروي غير المعصوم، وإنما يقتضي احتمال وجود الخطأ. وإذا كان الأمر كذلك فإن على من يدعي وجود الخطأ، إلا تكون حجته مرتكزة على مجرد عدم عصمة الكاتب أو الراوي، لأن صيغة حجته ستكون عندئذ كما يلي: الكاتب غير معصوم، إذن احتمال الخطأ فيه وارد، إذن هو مخطئ. وهي كما ترى حجة فاسدة، وذلك أن احتمال الخطأ هو بالضرورة العقلية احتمال للصواب. وإذن فعلى من يدعي وجود الخطأ أن يأتي بحجة مستقلة تثبت وجوده، ولا يعتمد على مجرد احتمال وجوده. قد يقول لنا هذا الخصم معترضاً: سلمت لكم بأن احتمال وجود الخطأ لا يعني وجوده فعلاً، فسلموا لي أنتم أيضاً بأن احتمال أن يكون كل ما في البخاري صحيحاً لا يعني تحقق هذه الصحة فعلاً. لكنكم إذا فعلتم ذلك لم يمكنكم الجزم بأن كل ما في البخاري صحيح. نقول لو أننا ادعينا بأن كل ما في البخاري صحيح لمجرد احتمال صحته، للزمنا ما تقول. لكن العلماء الذين جزموا بأن كل ما في البخاري صحيح فعلوا ذلك استناداً إلى حجج مستقلة عن احتمال الصواب. لكن البخاري أمعن في الاحتياط للصحة، فقرر حتى بالنسبة لمن روى عنهم من الثقات -إذا لم يصرح أحدهم بالسماع ممن روى عنه - إلا يكتفي كما اكتفي معظم علماء الحديث

---

(١) الدكتور محمد الصباغ مصطلحه بلاغته علومه منشورات المكتب الاسلامي ١٣٩٢-١٩٧٢ ص١٦٢.

بإمكان لقياه له، بل اشترط وقوع اللقاء فعلاً. كان من رأي بعض العلماء أن هذه مبالغة لا داعي لها، لكن كثيرين منهم رأوا أنها لا تضر بلا تزيدنا إلا ثقة بصحة الحديث.

وهذا أوان بيان بعض هذه الحجج لمن كان يقدر الحجج قدرها، ويبني مواقفه على قوتها.

قال لنا البخاري إنه لم يدخل في كتابه هذا من الأحاديث إلا ما كان صحيحاً، بشروط الصحة الموضوعية المتفق عليها، والتي ذكرناها سابقاً. ثم إن البخاري دفع بكتابه هذا الذي قضى في تأليفه وتنقيحه ست عشر سنة، إلى علماء جهابذة، منهم الإمام أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة، إلا أربعة أحاديث. قال العقيلي: والقول فيها قول البخاري، فهي صحيحة[١]، وسمع هذا الكتاب من فم البخاري تسعون ألفاً من طلاب علم الحديث النبوي[٢]، والذين أثنوا على الكتاب وشهدوا له بإصابة الصواب، ومدحوا مصنفه وعظموه، لم يكونوا كما قد رأيت من عامة الناس، بلا ولا من عامة العلماء، وإنما كان"معظم من أثنى عليه ونشر مناقبه شيوخه الأعلام المبرزون، والحذاق المتقنون»[٣].إن احتمال أن يخطئ البخاري أمر وارد ما في ذلك شك. أما أن يكون في كتابه خطأ لم يكتشفه أحد من تلك الآلاف المؤلفة من العلماء الجهابذة الأتقياء على مر العصور، ثم يعثر عليه شخص في زماننا هذا، فأمر لا يقول به عاقلٌ أمينٌ يعي ما يقول. إن مثل احتمال اكتشاف خطأ جديد في كتاب الجامع الصحيح، كمثل احتمال وجود خطأ في مسألة حسابية، روجعت عدة مرات ووجدت صحيحة. هب أن أستإذا كلف طالباً معروفاً بنجابته في الرياضيات أن يحل مسألة رياضية معقدة، فحلها الطالب، وراجع

---

(١) الإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني هدي الساري مقدمة فتح الباري بشرح صحيح البخاري المكتبة السلفية ص٧ .

(٢) الإمام النووي ما تمس إليه حجة القارئ لصحيح الإمام البخاري تحقيق علي حسن عبد الحميد دار الكتب العلمية بيروت ص ٢١. .

(٣) المرجع السابق ص٣.

حله عدة مرات فلم يجد فيه خطأ، ثم جاء شخص من أمثال هؤلاء الموسوسين فقال للأستاذ كيف تأمن أن يكون هذا الحل صحيحاً؟ إنك وطالبك بشر غير معصومين فكيف تأمنون أن يكون حلكم لهذه المسألة هو الحل الصحيح؟ فشرح له الأستاذ كيف أنه وطالبه راجعا حلهما عدة مرات، ولذلك وثقا من صحته. لكن الرجل ظل مصراً على احتمال وجود الخطأ، فتناول الأستاذ آلة حاسبة، وحل بها المسألة أمامه، فجاءت النتيجة موافقة لحل الطالب. لكن الرجل أصر على احتمال وجود الخطأ حتى على الآلة الحاسبة بحجة أنها من صنع بشر غير معصوم! إن الذي يصر على احتمال وجود الخطأ في كل عمل بشري مهما رُوجع، يلزمه إن كان مسلماً أن لا تكون له ثقة بهذه المصاحف التي بين أيدينا، فهي بالطبع لم تنزل علينا مكتوبة هكذا من السماء، وإنما نسخها بشر من أمثالنا، فما الذي جعلنا نثق بها، ونجزم بأنه لا خطأ فيها؟ وثقنا بها لأننا نعلم أنه لا ينسخ المصحف إلا رجل حافظ للقرآن الكريم، بصير بقواعد الرسم العثماني، وأن المصحف لا يُنشر إلا بعد أن يراجعه مراجعة دقيقة عدد وافر من القراء المتقنين المختصين بمعرفة الرسم القرآني، ويزد ثقتنا أن العالم مليء بحمد الله تعالى بأمثال أولئك الحفاظ المتقنين الغيورين على كتاب الله تعالى. فعدم اعتراضهم عليها دليل على أنهم لم يجدوا فيها خطأ.

على أن خلو كتاب ما من الخطأ ليس قاصراً على كتاب البخاري، أو المصاحف القرآنية، بل لا يتطلب حتى أن يكون المرء مسلماً، ودعك أن يكون معصوماً!، هب أن كاتباً غير مسلم مختصاً بعلم الفيزياء قرر أن يؤلف كتاباً يجمع فيه ما يُعد حقائق أصولية في هذا العلم، ولم يشترط على نفسه استيفاء كل هذه الدقائق، لكنه اشترط إلا يدخل في كتابه هذا إلا ما يعده أرباب هذا العلم حقائق مقطوعاً بصحتها، وإلا يدخل فيه من هذه الحقائق الفيزيائية التجريبية القطعية الأصولية، إلا ما اطلع هو نفسه على أوراقه الأصلية التي كتبها العلماء الذين أثبتوا هذه الحقائق. وهب أنه بعد أن ألف كتابه هذا، دفع به إلى عدد من علماء الفيزياء المختصين في فروعها المتعددة، وأن هؤلاء المختصين وافقوه على أن كل ما أدخله في كتابه هو فعلاً مما يعدونه حقائق فيزيائية أصولية مقطوعاً بصحتها، إلا أن عدداً قليلاً منها قرر أن يخرجه من

كتابه. وهب أنه بعد أن نشره كتابه هذا أثنى عليه عدد كبير من العلماء المختصين بفروع الفيزياء المختلفة، وأجمعوا على أنهم لم يجدوا فيه ما لا يعدونه حقيقة تجريبية قاطعة. فهل يسوغ بعد هذا لإنسان أن يقول إن الكتاب ربما كانت فيه أباطيل ظنها هذا المصنف من علم الفيزياء لأنه رجل غير معصوم؟، وإذا كان هذا أمراً ممكناً في كتاب إنسان غير مسلم، وفي علم دنيوي، فما الذي يمنع تحققه في كتاب إنسان جمع الله تعالى له شرطي العدالة والضبط في أعلى صورتيهما؟ فمن المعروف عن الإمام البخاري أنه كان آية من آيات الله تعالى في جودة الحفظ، فقد قالوا عنه إنه كان يحفظ وهو صبي سبعين ألف حديث سرداً، وقال هو عن نفسه: «كتبت عن ألف وثمانين رجلاً ليس فيهم إلا صاحب حديث» وأنه كان مثإلا للمسلم التقي الزاهد الورع، يكفيك في هذا قوله"خرجت كتاب الصحيح من ستمائة ألف حديث، وما وضعت فيه حديثاً إلا اغتسلت وصليت ركعتين»[1]، ولكن هب أن أولئك العلماء الجبال في علم الحديث كانوا قد أجمعوا على أن البخاري أخطأ في عدة أحاديث، فظنها صحيحة وهي في الواقع ضعيفة، وهب أن عدد هذه الأحاديث كان ثلاثين حديثاً، ثلاثون من زهاء ثلاثة آلاف، أي واحد بالمائة. فهل كان من الإنصاف في شيء أن نشيع القول بأنه ما كل ما في البخاري صحيح بسبب خطئه في واحد بالمائة مما جمع؟

إن الإنصاف حتى على افتراض وجود تلك النسبة من الأحاديث الضعيفة كان يقتضي أن نثني على الكتاب ونقول إن كل ما فيه صحيح إلا أحاديث ذوات عدد هي كذا وكذا. إن الفرق بين هذا القول المنصف وذلك القول الجائر، أن هذا الأخير يشكك في الكتاب كله ويزيل الثقة به، إذ أن سامعه من عامة المتدينين سيظن بكل حديث يُقال له إنه رواه البخاري أنه قد يكون غير صحيح، فمن باب أولى ما يرويه غيره، فتبطل بذلك الثقة بكل الأحاديث النبوية الشريفة، وهذه فتنة عظيمة، نسأل الله تعالى أن يُجنبنا إياها وسائر المسلمين.

* * *

---

(١) انظر في كل هذا كتاب الشعب صحيح البخاري مقدمة الناشر..

البرامج الدينية الموجهة
لمن لا يتحدثون العربية من تلفازات دول الخليج

بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس للندوة التي عقدت في كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عن البرامج الدينية الموجهة لمن لايتحدثون العربية ٢٩رجب -٣شعبان ١٤٠٧الموافق ٢٩مارس-٣١مارس ١٩٨٧م.

الحقائق التي جاءت بها أنبياء الله تعالى، ولا سيما صورتها الكاملة التي أرسل بها محمد ﷺ إلى الناس كافة، هي أهم الحقائق التي يحتاج البشر إليها معرفتها، ثم الايمان بها. وذلك أن الإنسان بوصفة كائنا عاقلاً ذا إرادة إنما يتصرف في حياته بحسب تصوراته، فكلما كانت تصوراته أقرب إلى الواقع، كانت تصرفاته أصح وأنفع، لكن بعض الحقائق أهم من بعض والتصرفات التي تبنى عليها أخطر من سائر التصرفات الأخرى. بيد أن الإنسان لا يستطيع بقواه الذاتية وحدها أن يدرك كل هذه الحقائق الخطيرة، ولهذا تفضل الله سبحانه وتعالى فعرفه بها عن طريق رسله، فكانت نعمة الهداية إلى هذه الحقائق أجل نعمة على عباده؛ لأن حاجتهم إليها تفوق حاجتهم إلى كل ما عداها. «وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسل كحاجتهم إلى الشمس والقمر، والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة، العين إلى ضوئها، والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال»[1]. «والدنيا كلها ملعونة، ملعون ما فيها، إذا ما أشرقت عليه شمس الرسالة، وأسس بنيانه عليها، ولا بقاء لأهل الأرض إلا مادامت آثار الرسل موجودة فيهم، فإذا درست آثار الرسل من الأرض وانمحت الكلية، خرب الله العالم العلويّ والسفليّ، وأقام القيامة»[2].

ولأن حاجة الناس إلى الرسالة بهذه الخطورة، فقد تكرم الله تعالى فأرسل إلى كل قوم رسولاً ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. وكان من حكمته تعالى أن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم، الرياض، ١٣٨٢، ج١٩، ص١٠١.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

اختار أكثر الناس أمانة، وأحسنهم فهما، وأقواهم على اتباع الحق، وأشدهم رحمة بالخلق فجعلهم وسائط بينه وبين خلقه في تبليغ هذه الحقائق وبيانها للناس قولا ومثلا عمليا. كما كان من حكمته – حين صار العالم كله بمثابة الأمة الواحدة في الأزمان الماضية – أن أرسل إليه رسولاً واحداً بأكمل رسالة، وجعل حاملها النبي الخاتم لأنبياء الله، ذلك هو محمد بن عبدالله ﷺ. لكن هذ الرسول المرسل إلى الناس كافة بشر قضى في هذه الحياة عمراً محدوداً، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلغ الرسالة وأدّى الأمانة. أما الرسالة التي جاء بها فإنها لا تموت بموتة؛ كيف، والناس محتاجون إليها تلك الحاجة التي ذكرناها؟ لقد تكفل الله تعالى بحفظ هذه الرسالة وكلف كل من آمن بها ان يبلغ ما علم منها الي غيره من لم يعلم، ولهذا قال ﷺ: **(بلغوا عني ولو اية، فرب مبلغ اوعى من سامع)**[1]. وجعل هذا التبليغ أشرف مهمة يقوم بها الإنسان، ولا غرو، فهو المهمة التي كلف الله بها أكرم خلقه والمصطفين من عباده، فالقائم بها قائم على مهمتهم وتأمل شيئا من فضلهم.قال تعالي: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، وري البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: **(ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحد خير لك من حمر النعم)**[2].

إذا كانت حاجة الناس جميعاً إلى الرسالة المحمدية بهذه الخطورة وكان إعلام الناس بحقها بهذه المكانة العظيمة، فحري بكل من آمن بها أن يبذل ما يستطيع من جهد من إيصالها إلى الناس بكل ما يسر الله له من وسائل التبليغ والإعلام، وحري بنا أن نتعاون في أداء هذه المهمة، انقإذا للبشرية، وإصلاحا لأنفسنا، وطلبنا لمرضاة ربنا. وإذا كانت وسائل الإعلام الحديثة كثيراً ما تستعمل لنشر الأباطيل وإثارة الشهوات، وغرس الشبهات، وإضاعة الأوقات، فحري بنا نحن المسلمين أن نجعلها وسائل لأعلام الناس بالحق، ودعوتهم إلى الخير، وتعليمهم ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم، والترويح

---

(١) صحيح أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، كتاب الأنبياء، الباب الخمسون.

(٢) صحيح البخاري، كتاب مناقب الصحابة، الباب التاسع.

عنهم بما يزيل السآمة والملل ويجدد النشاط لمواصلة العلم والعمل. وان أولى ما ينبغي أن تتصرف اليه هممنا وتبذل فيه جهودنا هو حسن استعمال – لا أقول مجرد استعمال – هذه الوسائل في إيصال الحق الذي جاءت به الرسالة المحمدية إلى الناس ولا سيما الذين لم يتيسر لهم معرفتها من قبل إن كثيراً من عقلاء الغربيين وغير الغربيين قد اقتنعوا بأن العلوم الدنيوية وحدها – مهما تبحر الناس فيها – لا تكفي لإعانة الإنسان على الحياة السعيدة القائمة على رضى النفس وطمأنينة، القلب، وهم يبحثون في كل مكان عن نوع آخر من العلم يوصلهم إلى ما يريدون وقد شاء الله تعالى أن يفد إلى بلادنا الإسلامية هذه عدد كبير من الذين لا يتحدثون العربية من إخواننا المسلمين ومن غير المسلمين من الغربيين والأفارقة والآسيويين فلنستغل فرصة وجودهم بين ظهرانينا، فنقدم لهم عن طريق وسائل إعلامنا برامج إسلامية تلبي حاجاتهم العلمية والشعورية المختلفة.

ولكي نفعل هذا يجب أن تسير على منهج صحيح، وسترى أن هذا المنهج يقتضينا أن نكون على علم بمن نخاطب، حتى يأتي خطابنا له مناسبا لحاله، وأن نحدد في ضوء هذه المعرفة وذلك المنهج نوع المادة التي تناسب من نخاطب ثم نحدد على ضوء هذا طريقة الخطاب.

منهج الدعوة والمجادلة:

القاعدة العامة في منهج الدعوة أيا كانت وسيلتها، وأيا كان المخاطبون بها هي قول الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. فالحكمة تشمل:

(أ) تعريف المخاطب بالحق بأدلته.

(ب) مراعاة حال المخاطب.

(جـ) وتقديم الأهم فالمهم.

وأما الموعظة فهي بيان العواقب الحسنة الدنيوية والأخروية المترتبة على قبول الحق، وبيان العواقب الوخيمة المترتبة على انكاره. أو أقل إنها تقدم الحق بطريقة جذابة تعطف النفوس إليه، وتحببها فيه. وهذا كله يكون بالحكمة بالمعنيين الثاني

والثالث، بعد الدعوة تأتي المجادلة وهي الرد على الشبهات والاعترافات التي يثيرها أو يتعرض لها المخاطب، والتي قد تكون حاجزا بينه وبين قبول الحق. أن المجادلة بالتي هي أحسن قد تكون سبباً في اقناع المجادل وإغرائه بقبول الحق، وأما إذا كان المجادل عنيدا متعنتا، فإن افحامه يفيد المتأثرين به إذ يكسر الحاجز الذي أقامه بينهم وبين الحق. والمجادلة بالتي هي أحسن. أي بالرفق والابتعاد عن الغلظة والمخاشنة مما تقتضيه الحكمة، لأنه – إلا في حال الظالمين – مما يساعد الإنسان على الانصياع للحق حين تستبين له معالمه.

هذا المنج اذن يقتضينا كما ذكرنا آنفاً أن نعرف من نخاطب، وحال هؤلاء المخاطبين كي نعرف ماذا نقول لهم وكيف نقول ما نقول.

أنواع المشاهدين واحوالهم:

الجمهور الذي تخاطبه البرامج الدينية التي نتحدث عنها باللغات غير العربية يتكون من :

١) متحدثين باللغات الغربية الانجليزية أو الفرنسية أو غيرها. وهؤلاء فئات:

(أ) فمنهم الغربيون، وهم أيضاً فئات:

❖ المسلمون، وهم قلة.

❖ غير المسلمين الذين بدأت تساورهم الشكوك في جدوى الحضارة الغربية، وهؤلاء أيضاً قليلون.

❖ وأما الكثرة الكاثرة فهم الغربيون الماديون الذين يشعرون شعوراً يصل درجة الغرور بتفوق حضارتهم، وبكل ما يمت بسبب إلى هذه الحضارة من أديان وفلسفات وعادات وتقاليد، وربما بتفوقهم العقلي العرقي على سائر الشعوب، وإن كان معظمهم لا يصرح بذلك.

(ب) ومنهم غير الغربيين من أبناء العالم الثالث وهم فئات، فمنهم:

❖ المثقفون المسلمون المعتزون بدينهم رغم صلتهم القوية ومعرفتهم الجيدة بالحضارة الغربية وهم قلة.

❖ المثقفون الذين تأثروا بالحضارة الغربية تأثراً بلغ من القوة أن جعلهم من حيث الثقافة من أبناء هذه الحضارة الماديين الذين أشرنا اليهم سابقاً – وأن انتسبوا اسماً إلى

شيء من أديناهم أو ثقافاتهم الوطنية – مع فارق واحد هو أن الغرور والصلف عند أولئك يتحول عند هؤلاء إلى شعور بالضعة والهزيمة يحول دونهم ودون التفكير المستقل.

❖ متوسطو الثقافة من العمال المهرة وغيرهم الذين يستطيعون التفاهم بهذه اللغات وإن كانوا لا يجيدونها، فتأثرهم بحضارتها ليس بعمق تأثر الفئة السابقة.

٢) متحدثين بلغات إسلامية غير عربية كالأردية والتركية والفارسية، والسواحلية والهوساوية لا فرق بينهم وبين عامة المسلمين الناطقين بالعربية إلا فارق اللغة، وبعض العادات والتقاليد المحلية التي اصبح الكثير منها عند كثير من المسلمين جزءا من الدين هذا عن عامتهم، أما المثقفون منهم ثقافة غربية فهم داخلون في فئات المتأثرين بالحضارة الغربية الذين ذكرناهم آنفاً.

٣) متحدثين بلغات أفريقية أو آسيوية غير إسلامية، بعضهم مسلمون وكثير منهم من غير المسلمين، وأكثر مثقفيهم من ذوي الثقافة الغربية.

كيف نقدم الإسلام لهذه الفئات المختلفة؟

يمكن أن نعيد تصنيف هذه الفئات حسب بيناتها الثقافية إلى ما يلي:

(أ) عامة المسلمين: وامر هؤلاء سهل، لأنه لا فرق كبير من حيث الثقافة بينهم وبين المشاهدين المتحدثين بالعربية، واذن فكل ما نحتاج اليه هو ان نقدم لهم بلغتهم ما تقدمه للمشاهد العربي المسلم، مع مراعاة بعض العادات والتقاليد التي يمتازون بها، والتركيز على بعض جوانب الإسلام التي تشتد حاجتهم إلى معرفتها، وسنذكر شيئاً من ذلك في حديثنا عن المادة المقدمة.

(ب) عامة المشاهدين من غير المتأثرين تأثرا كبيرا بالحضارة الغربية: أما هؤلاء فنحن محتاجون إلى دراسة لبيئاتهم الثقافية التي أتوا منها، ولمعرفة العقائد والتقاليد والأعراف السائدة بينهم، ومحتاجون لأن نعرف بصفة خاصة مدى صلتهم بالإسلام والمسلمين وما التصور السائد عندهم للإسلام، وما الحواجز الاساسية التي تحول دونهم ودون اعتناقه. ويؤسفني انني لست أهلا لأن أفعل شيئاً من ذلك خصوما في هذا البحث المقتضب.

(جـ) الغربيون و المتأثرون بالثقافة الغربية من أبناء العالم الثالث: أما هؤلاء فإننا وإن كنا أعلم بطبيعة بيئتهم الثقافية، إلا أننا محتاجون إلى جهد فكري أكبر في تقديم

الإسلام لهم بطريقة تجعلهم يقدرونه قدره، وتشعر غير المؤمن منهم بتفوقه على ما عنده من تصورات، آمن به بعد ذلك أم لم يؤمن.

سنتحدث عن البيئة الثقافية الغربية الخالصة التي تكون عقول بعض الغربيين ومن نحا نحوهم من المستغربين والتي تؤثر في آخرين ممن نشؤوا فيها أو تعرضوا لها حتى لو كان من المسلمين الصادقين – تأثيراً يعظم أو يضعف حسب حال المتأثر ودرجة صلته بها. فنقول إن مما يميز صاحب الفكر الغربي الخالص:

❖ اعتقاده أن ما امتازت به الحضارة الغربية من سبق لغيرهم في ميادين العلوم الطبيعية، وما بني على هذه العلوم من تقنية وتقدم مادي هائل، وما أدى إليه هذا التفوق المادي من سيطرة على العالم غير الغربي، مرده أولاً إلى ما امتازوا به من جوده التفكير التي لا يباريهم فيها أهل حضارة أخرى، وأنهم عريقون في هذا التفوق الفكري لأن حضارتهم امتداد للحضارة اليونانية وما امتازت به من فكر فلسفي وعلمي عميق، حتى إن بعضهم يصل به الغرور بهذا التفوق الفكري درجة تجعله يعتقد أن قوانين الفكر كالقول بأن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، ليس شيئاً مشتركاً بين عامة البشر وإنما هو من خصائص الفكر الأوروبي[1]. ومرده ثانيا إلى ما امتازوا به من نظرة علمانية إلى الحياة.

❖ أن تفوقهم على غيرهم ليس قاصرًا على التفوق المادي والفكري، بل هم متفوقون أيضا في نظمهم السياسية والاقتصادية رأسمالية كانت أم اشتراكية، وأن سبب هذا التفوق راجع أيضا إلى تلك النظرة العلمانية الجديدة إلى الحياة.

❖ أن أديانهم إذا كانت باطلة، وهم بهذه الدرجة من التفوق الفكري، فالأحرى بغيرها من أديان الشعوب المختلفة أن تكون أشد بطلانا.

❖ أن العلوم التجريبية بمناهجها العلمية، وتفسيراتها العقلانية للظواهر الكونية والإنسانية بأسباب من داخل هذا الكون، حلت محل التفسيرات الدينية الماورائية فأبطلت الدين أو أضعفت من موقفه، فأغنتنا بذلك عنه أو قللت من حاجتنا إليه.

---

(١) انظر مقالي: (منهج مونتجومري واط في دراسة نبوة محمد ﷺ) في كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، مكتب التربية العربي لدولة الخليج، ١٤٠٥-١٩٨٥م، ص ٢٤١-٢٤٢.

❖ أن كل أمة تريد أن تتقدم تقدمهم لا مناص من أن تأخذ بنظرتهم هذه بل إن كل أمة تأخذ عنهم العلم الطبيعي، وتستفيد من تقنيتهم لا محيد لها – إن عاجلا أو آجلا – من الأخذ بهذه النظرة العلمانية إلى الحياة، أي أن هذه النظرة أصبحت الآن أمرا حتميا لازما للتقدم العلمي والتقني. وعليه فإن ما نشاهده من مظاهر التدين في البلاد غير الغربية التي بدأت تأخذ بأسباب التطور المادي التي أخذ بها الغرب، إن هو إلا مرحلة زائلة، طالت أم قصرت، وستعقبها كما أعقبتها في البلاد الغربية مراحل العلمانية السائدة اليوم. كنت قبل عدة سنوات أتحدث مع عدد من الشباب الأمريكان كانوا يعملون بمستشفي الملك فيصل التخصصي بالرياض، فقال لي أحدهم – وكان من البيض – أنه معجب جداً بما يرى في السعودية من جمع بين التقدم المادي والاستمساك بالقيم الدينية، ولا سيما إيقاف العمل عدة مرات في اليوم من أجل الصلاة، وأنه سيظل يرقب ما يجري في هذه البلاد، فان استمر الحال على ما يرى لثلاث سنوات أخرى فسيعتنق الاسلام. وأقنعته على أن ما ذكر عن السعودية هو فعلا أمر تمتاز به عن سائر بلاد العالم، وأعجبني هذا الإنصاف منه، وطمعت في إسلامه، فقلت له: أن ما ذكرت عن السعودية صحيح، ونرجو أن يستمر، ولكن لماذا تعلق اعتناقك للإسلام عليه، إن الطريقة الصحيحة أن تنظر في الإسلام نفسه، فإن رأيته حقاً آمنت به من غير اعتبار لما يحدث في البلاد الإسلامية. قلت هذا أو شيئا قريباً منه، لكنني كنت مدركاً أن الشاب قال ما قال لأنه كان يرى أنه من المستحيل على أمة معاصرة أن تتقدم تقدماً مثل الذي رآه في السعودية، وتظل مع ذلك مستمسكة بقيمها الدينية. فهو إذن لا يكاد يصدق ما يرى، ولذلك يريد أن يعطي نفسه فرصة أكبر ليحقق من أن ما رآه ليس بالظاهرة العابرة التي ما تلبث الأمور بعدها أن تعود إلى مجراها (الطبيعي).

إن مما يزين هذه النظرية الحتمية في أعين أصحابها ويزيدهم افتتانا بها ما يبدو من تأييد الواقع لها: إذ إن المشاهد – على وجه العموم – أن التيار العلماني يزداد بازدياد الأخذ بأسباب التقدم المادي في كل الدول غير الغربية الإسلامية منها وغير الإسلامية.

إن ما نحن فيه الآن ليس مجال نقد لمسلمات العقلية الغربية، وإنما هو مجال وصف لها حتى نعرف كيف نتعامل معها تعاملاً مجدياً. لكن أجدني مدفوعاً لأن لا أترك هذه

المسألة تمر من غير إشارة – ولو عابرة – إلى زيفها، لكثرة ما أرى من المتأثرين بها حتى بين المتدينين من المسلمين، الذين يدفعهم تصديقهم لها من أن يتوجسوا خيفة كلما رأوا بلادهم تخطو خطوة جديدة نحو التقدم المادي. فأقول إن مما ينبغي أن نفطن اليه أن ما حدث في البلاد آنفة الذكر لم يحدث على النسق الذي تفترضه النظرية حتى يكون فيه تأييد لها. أعني أنه لم يحدث في أي منها أن بدأ الناس بأخذ العلوم التقنية، ثم نتج عن هذا الأخذ ظهور التيار العلماني. بل الذي حدث ولا يزال يحدث في هذه البلاد أن الناس يأخذون العلوم والتقنية ويأخذون معها – في الوقت ذاته – كل ما عند الغربيين من فلسفات وآداب وفنون وقيم، بل وعادات وتقاليد في مسائل الأكل والشراب واللباس، ظناً منهم أن الحضارة كل لا يتجزأ، وأن ذاك الآخذ للعلوم والتقنية لا يؤتي ثماره إلا بما لابسه في الغرب من هذه (الثقافة).

هذا عن بعض ملامح العقلية الغربية بصفة عامة، لكن هذه العقلية لها موقف خاص من الإسلام تجب مراعاته في مخاطبتها ودعوتها اليه. لقد وقر في أذهان كثير من الغربيين أن الإسلام دين معاد للغرب، وان انتشاره خطر على البشرية. ولكل هذا أسباب لابد ن معالجتها في برامجنا الدينية إذا أردنا لها أن تحقق ثمارها. من هذه الأسباب:

❖ الصورة المشوهة التي تقدمها لهم كتب التاريخ عن المسلمين إبان الحروب الصليبية، وهي كتب ينشأ عليها أحدهم منذ نعومة أظفاره فتستقر صورها المشوهة هذه في فؤاده. وهذا أمر اعرف به كثيرون ممن هداهم الله للحق.

❖ الصورة المشوهة للإسلام التي تصورها به كتب المستشرقين والمبشرين، وهي مراجعهم الأساسية عن هذا الدين.

❖ استعمارهم الطويل لكثير من بلدان العالم الإسلامي جعلهم يشعرون بالتعالي على المسلمين، والاستنكاف عن أن يدينوا بدينهم.

❖ الفزع الذي تغرسه في قلوبهم وسائل اعلامهم الحديثة، وهي لا تمل من تذكيرهم بطرقها المثيرة، أن هذا العدو التاريخي اللدود أخذ يقوي وينهض من جديد، وأنه

اكتسب الآن أهمية سياسية وجغرافية أكثر من ذي قبل، وأنه – وهذا مصدر خطره الحقيقي الجديد – يمسك الآن بالشريان الذي يمد الصناعة الغربية – وبالتالي الحياة الغربية الرغيدة بالدم الذي لا حياة لها بدونه. إن هذا واقع لا يكاد يتصوره الغربي ذوي العقلية التي وصفناها آنفا. لقد كان يعتقد أنه بتفوقه الفكري والعلمي يستطيع أن يفعل ما يريد، وأن سيرة الحثيث نحو النمو الاقتصادي والمستوى الحياتي الرفيع لن يقف في طريقه عائق. فكيف يقال له الآن فجاة أن هناك عائقاً كبيراً وأنه يتمثل في العالم الإسلامي؟ لقد صدمت هذه الحقيقة عدداً كبيراً منهم حتى جعلتهم يهذون بضرورة إعادة السيطرة الاستعمارية على هذه المنطقة!

إن أهمية دراسة ما أسميته بالبيئات الثقافية لهذه الفئات التي نريد مخاطبتها، تأتي من كون حقائق الإسلام لا تقدم للناس في فراغ، وإنما تقدم لهم ليحلوها محل عقائد وتصورات سبقت إلى عقولهم، فلابد إذن من اقناعهم بفساد ما عندهم من تصورات، وببيان تفوق التصورات الإسلامية عليها في الحجج العقلية والعلمية التي تسندها، وفي العواقب المفيدة الناتجة عن الإيمان بها. هكذا فعل الرسول ﷺ مع العرب، وهكذا فعل الدعاة المسلمون من بعده في كل بلد ذهبوا اليه، بل هكذا فعلوا حتى مع المسلمين الذين تأثروا ببعض الثقافات غير الإسلامية كالفلسفة اليونانية، كما تشهد بذلك كتب العقائد وأصول الدين. نعم إن الغرض الأساسي من الدعوة هو إحلال الحق في القلوب، ولكن بما أن تحلية القلوب بالحق لا تتم إلا بتخليتها مما يضاد، كان الاهتمام بإزالة الأباطيل التي استقرت في عقول المخاطبين أمرا لا بد منه في دعوتهم إلى قبول الحق الذي لم تعهده العقول، بل الذي تجد نفوراً منه بسبب ما استقر فيها من التصورات المنافية له. لابد إذن من تقديم الرسالة المحمدية لهؤلاء الأقوام بألسنتهم، ووضعها لهم في بيئتهم الثقافية وضعا لا يحرفها بل يساعدهم على فهمها، ويعيننا على مخاطبتهم بما يعرفون. ألم يقل أمير المؤمنين على رضي الله عنه: (خاطبوا الناس بما يعرفون. أتحبون أن يكذب الله ورسوله)[1]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (ما أنت محدث قوما حديثاً

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، الباب التاسع والأربعون. رواه معلقا.

لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)[1].

لكننا وإن كنا نعطي البيئة الثقافية هذا الاهتمام في مخاطبة الإنسان بحقائق الإسلام، إلا أننا لا نذهب مذهب الغلاة القائلين بأن الإنسان إنما هو ابن بيئته، وأن عقله إنما هو الذي تكيفه وتصنعه هذه الثقافة أيا كان نوعها. لا نذهب هذا المذهب لأننا نعتقد أن الإنسان – أيا كان – له فطرة خيرة سابقة لثقافته، وعليه فإذا كانت هذه الثقافة مخالفة لتلك الفطرة، فإنما تكون بمثابة القشرة التي تغطي جوهره الإنساني المتمثل في تلك الفطرة. لكن هذا الجوهر وإن أمكن تغطيته بقشرة ثقافية سميكة أو رقيقة، لا يمكن إزالته عن الإنسان بالكلية. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، والإسلام كما تدل الآية هو امتداد لهذا الجوهر، فهو يخاطب الإنسان بما هو إنسان، لا بما هو عربي أو عجمي، زراعي أو صناعي، متحضر أو بدوي.

المادة المقدمة:

نراعي في المادة المقدمة التصنيف الثقافي للمشاهدين، وقد سبق أن قسمناهم إلى ثلاثة أصناف:

١) عامة الناس:

❖ نقدم لهؤلاء بلغاتهم كل أنواع البرامج التي نقدمها للمشاهد العربي مهما كان ذلك ممكنا. فتكون لهم برامج في شرح العقيدة، وفي تفسير القرآن وتجويد تلاوته، وفي الفقه، وفي سيرة الرسول ﷺ وتاريخ المسلمين، إلى غير ذلك من برامج معهودة،

---

(١) صحيح مسلم للإمام ابي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الجزء الأول، المقدمة الباب الثالث. لكن قال الأستاذ عبد القدر الأرناووط (وإسناده منقطع، فان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود روايته عن عم أبيه عبد الله بن مسعود مرسلة) (جامع الأصول في أحاديث الرسول، تاليف الأمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الاثير الجزري، تحقيق الأرناؤوط، مطبعة الملاح، لبنان، ج٨، ص١٧.

مع تنبيههم بطريقة رفيقة إلى ما يخالف الحق في كل هذه المسائل مما اعتادوه في بلادهم المختلفة.

❖ نشرح لهم في أثناء البرامج المختلفة المصطلحات الإسلامية العربية المتعلقة بكل علم من العلوم التي نتحدث عنها. ونعلمهم النطق العربي الصحيح لها حتى تزداد حصيلتهم العربية، وحتى تقترب لغاتهم من اللغة العربية.

❖ هناك مسألتان بالغتا الحساسية، تحتاجان إلى عناية خاصة لعظم اهميتها وشدة خطرهما، أما الأولى فهي مسألة العقيدة أن كل من منّ الله عليه بمعرفة العقيدة الصحيحة التي دعا إليها كتاب الله وبينتها سنة رسوله ﷺ، وكان عليها أصحاب رسول الله وسائر أئمة المسلمين الذين يعرفهم ويحترمهم وينتسب إليهم في الفروع الفقهية جماهير المسلمين، وأقول إن كل من منّ الله عليه بهذه النعمة العظيمة، يدرك البون الشاسع المؤسف بين تلك العقيدة الصحيحة وما يعتقده جماهير المسلمين المثقفين منهم وغير المثقفين. لكن إقناع الناس بالعقيدة الصحيحة صار أمراً صعباً، أولاً: لأنها عادت هي المعتقد الغريب الذي لا تقول به إلا فئة قليلة من الناس بالنسبة للكثرة الكاثرة من جماهير المسلمين. وعامة الناس مطبوعون على متابعة الشائع المألوف، خصوصاً وأن كثيراً من علماء السوء عبر عصور الإسلام المتأخرة أشاعوا بينهم أن هذه العقيدة إنما هي عقيدة فئة منحرفة شاذة خارجة على اجماع علماء المسلمين بسبب هذه الدعاية الظالمة أن هذه العقيدة انما هي شيء اخترعه ابن تيمية وتأثر به في اعتقادها تلاميذه ومن جاء بعدهم من أمثال الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولهذا فانهم كثيراً ما يطلقون عليها اسم الوهابية. هذه قضية معضلة، لابد من بذل أكبر الجهود لمعالجتها، وأرى أن مما يساعد على التغلب عليها.

❖ أن نجتهد في تقديمها بعبارات أئمة المذاهب المتبوعة، وسائر علماء هذه المذاهب الذين يجلهم عامة المسلمين، أن هذا مما يساعد على إزالة الرأي المنطبع في أذهان الناس بأنها مذهب شاذ لأفراد من العلماء. كنت مرة أناقش احد إخواننا النيجيريين في هذه القضية في الحرم المكي، فقلت له: ما رأيك لو كتبت لك رسالة في هذه العقيدة السلفية كلها من أقوال علماء المالكية، فضحك بملء فيه، ضحك من يعتقد أن هذا

من المستحيلات، ثم قال بلهجة أحسبه كان صادقاً فيها : إذ والله أومن بها. ومنذ ذلك الوقت وأنا أمني النفس بأن أنفذ هذا المشروع، أو ينفذه غيري ممن هو أقدر مني على ذلك.

❖ أن نشرح مسائل هذه العقيدة بلغة سهلة خالية قدر المستطاع من المصطلحات التي لا يعرفها إلا المختصون.

❖ أن نحولها إلى مجرد مسائل "كلامية" جافة، بل نحرص على تقديمها بلغة فيها كثير من الرقة التي تتحرك القلوب، ونمزج الكلام فيها بالقصص الذي يبين للمخاطب آثار الإيمان بها بطريقة حية مؤثرة، القصص الذي ورد في الكتاب والسنة، وفي سير الصالحين من علماء الأمة.

أما المسألة الثانية فإنها كانت أقل شأنا من الأولى إلا أنها مهمة أيضاً، إنها مسألة التعصب المذموم للمذاهب الفقهية تعصباً يحجب المرء عن أنوار السنة المحمدية، ويكاد يقوده إلى الاستخفاف بها، ويجعل كلّ مذهب منها بمثابة الدين المستقل الذي لا يقبل معتنقه النظر في الأديان الأخرى أو الأخذ منها. وأرى أنه لا بد أن تشارك البرامج الدينية بتلفازات الخليج في التقليل من حدة هذا التعصب بالطريقة التي تناسبها. وأظن أن مما يساعد على ذلك.

❖ تقديم برامج عن سير أئمة المذاهب تبين شدة تمسكهم بالسنة، وحرصهم على نشرها، ودعوتهم إلى عدم التعصب لآرائهم إذا خالفتها.

❖ وتبين كيف أن اللاحق منهم كان يجلّ من سبقه ويحترمه حتى وهو يخالفه، وكيف أن بعضهم تعلم من بعض.

❖ وتبين أسباب الخلاف بينهم، وكيف أن بعضها مما يمكن البتّ فيه بمناهجهم هم أنفسهم.

٢) عامة المشاهدين غير المسلمين:

من أصحاب الثقافات والديانات غير الغربية.

يحسن أن تركز البرامج الموجهة لهؤلاء على المبادئ والتصورات الأساسية لمسائل العقيدة والعبادات والأخلاق من غير دخول في تفاصيلها، على أن يراعى فيه تقديمها

البيئة الدينية والفكرية التي نشؤوا فيها. كما يحسن أن نطلعهم بشيء من التفصيل على سيرة النبي ﷺ، وسير المسلمين الذين لهم صلة تاريخيه بالقارات أو البلدان التي أتوا منها، والذين يعتبرونهم جزءاً من تاريخهم الوطني. هذا بالإضافة إلى كثير من برامج الصنف الثالث التي سأذكرها بعد، ولا سيما الشائق منها.

٣) أصحاب الثقافة الغربية والمتأثرون بهم:

سأتحدث الآن بشيء من التفصيل عن بعض الموضوعات المهمة التي يحسن تقديمها لهذه الفئة، وهي موضوعات صالحة في عمومها لكلّ المثقفين من الفئات الأخرى، وبكل اللغات بما في ذلك اللغة العربية.

❖ وجود الخالق: كثيراً ما يكرر بعض علمائنا المعاصرين ما يجدونه في كتب العلماء السابقين من القول بأن الناس مقرون بتوحيد الربوبية، ولهذا ينبغي أن نذهب مباشرة إلى الكلام عن توحيد الألوهية، لأنه هو التوحيد الذي أرسلت الأنبياء لدعوة الناس اليه. ما من شك في أن توحيد الألوهية هو التوحيد المهم، لكنه لا يتم إلا بتوحيد الربوبية، لكن ما صدق على العصور الماضية بصفة عامة لا يصدق على عصرنا هذا الذي انتشر فيه الإلحاد-بمعنى إنكار وجود الخالق – انتشارا لا نظير له فيما يعرف الناس من تاريخ البشرية، حتى أن كثيرا من الغربيين ليسمونه عصر الالحاد. لذلك أرى أن نولي هذا الموضوع عناية أكبر، وأن نستفيد في تقديمه مما كتبه علماؤنا السابقون، ومن بعض الجهود المعاصرة من المسلمين وغير المسلمين، خصوصا في مجال الرد على الشبهات التي يثيرها الملحدون والمعاصرون استنادا إلى بعض الفلسفات الشائعة في الغرب، واستغلالا لبعض الحقائق أو النظريات العلمية المعاصرة.

❖ توحيد الألوهية: هذا هو لب الدين الإسلامي، لكنه مع الأسف من الأمور التي يجهلها عامة الغربيين المتدينين منهم والمنكرين للدين. فالتركيز عليه، مع بيان كونه أمراً لازما للإقرار بوحدانية الخالق، ومع بيان آثاره الواقعية من نفسية وخلقية وعملية في حياة الفرد والجماعة، وكيف أن شرائع الإسلام كلها منبعثه منه وقائمة عليه، كلّ ذلك أمور مهمة جداً.

❖ توحيد الأسماء والصفات: لقد أصبح التصور الصحيح لهذا الجانب من التوحيد شيئاً نادراً حتى بين عامة المثقفين المسلمين، ودعك من غيرهم، لكننا كثيرا ما نتحدث فيه بعبارات اصطلاحية لا يعرفها إلا عدد قليل من المختصين، كقولنا مثلا (من غير تشبيه ولا تأويل ولا تمثيل)، - هذه عبارات صحيحة ودقيقة، لكن قل لي بربك كم من عامة المشاهدين للتلفاز أو المستمعين للإذاعات يدرك معانيها؟ أن المهم هو تعريف الناس بالحقائق لا الالتزام بقوالب معينة من التعبيرات. فلنشرح للناس إذن هذه المعاني المهمة بلغة يعرفونها. ولعل مما يساعد على عطف قلوب بعض المثقفين إلى عقيدة السلف في هذا المجال أن يبين لهم أن الذي انتهت إليه آراء جمهرة الفلاسفة المحدثين في المسائل التي كانت مثار خلاف بين أئمة أهل السنة وخصومهم من الفلاسفة وبعض الفرق المتأثرة بهم، كمسألة العلاقة بين الذات والصفات، وهل هما شيء واحد أو أن الفصل بينهما ممكن! أقول إنّ آراء الفلاسفة المحدثين في هذه المسائل هو الآن أقرب إلى ما كان يقول به أهل السنة منه إلى ما كان يقول به خصومهم. هذا مع أنّ الفلاسفة الغربيين المحدثين لا يناقشون هذه القضايا على أنها قضايا دينية، بل يناقشونها مناقشة فكرية عامة لكنها كثيرا ما تكون متصلة بقضايا العلوم.

❖ العبارات والمفاهيم: حيث نتحدث عن الإسلام بلغة غير العربية، نجدنا مضطرين لأن نستعمل ما نحسبه أقرب الكلمات إلى الكلمة العربية التي تعبر عن المفهوم الإسلامي، لكن هذا وحده لا يكفئ بل قد يكون مضللا ومشوها للمعنى، وذلك لأن الكلمات العربية نفسها لم تستعمل كلها في القرآن الكريم بمعانيها اللغوية البحتة، وإنما اكتسب بعضها معاني جديدة بسبب الاستعمال الاصطلاحي الجديد، فكيف بالكلمات غير العربية خصوصا إذا كانت آتية من بيئة دينية تختلف عن الإسلام في مفهوماتها الأساسية؟ أن الألفاظ الإنجليزية مثلا التي عادة ما نستعملها في مقابل ألفاظ عربية مثل لفظ الجلالة وألفاظ (النبي) و (الرسول) و (الوحي) و(الدين) و (كلام الله) و(القدر) وأمثالها مما يعبر عن مفهومات أساسية في ديننا، لها دلالات مختلفة عن الدلالات الإسلامية التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من معنى كل كلمة من تلك الكلمات العربية. ظن بعض إخواننا من العرب ومن أهل هذه اللغات أن حلّ هذا الإشكال يكون

في استعمال الكلمات العربية نفسها حتى حين نتحدث بلغة غير عربية. ولكن هذا لا يفيد إلا المسلم من أهل هذه اللغة الذي سبق له أن عرف المعاني الصحيحة لهذه الألفاظ العربية، أما غير المسلم الذي لم يسبق له معرفتها فإنها لا تدل عنده على معنى صحيحا كان أو خطأ، ولذلك فإن مخاطبته بها تكون عبثا لأن مقصود الخطاب إنما هو الإفهام، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، إذاً لا بد من شرح هذه المفهومات الإسلامية الأساسية سواء استخدمنا الكلمات العربية أو ما نحسبه مقابلا لها في لغة من نخاطب. ولكل من الاستخدامين مزية. خصوصا إذا هداه الله إلى الإسلام. وأما استعمال الكلمات المعهودة عند المخاطب فإنه ييسر عليه تذكر المعنى لأنه لا يكون مشغولا بأمرين معا أمر اللفظ الجديد والمعنى الجديد. كما أنه يساعد على جعل لغة المخاطب نفسها لغة إسلامية خصوصا إذا كثر عدد المنتسبين إلى الإسلام من أهلها.

❖ السيرة النبوية: تقدم السيرة النبوية العطرة بصورة شائقة من أكثر ما يساعد الإنسان على الهداية، ويحسن أن تتعرض السيرة على الغربيين بخاصة عرضنا يتضمن تصحيحاً لتصوراتهم الغالطة لها. ولكن حذار من أن يتحول الحديث عن السيرة النبوية إلى جدل مع المستشرقين والمبشرين، يفصل شبهاتهم ويحاول الرد على كل منه. إن هذا الأسلوب الذي رأيت بعض إخواننا يتبعه في بعض وسائل الإعلام، يفقد السيرة جاذبيتها، وقد يدخل في أذهان كثير من المشاهدين حتى المسلمين منهم – شبهات لم تخطر على بالهم من قبل. لنتذكر أن الاستشراق مع تأثيره الذي لا ينكر على كثير من المثقفين الغربيين، بل وعلى كثير من أبناء المسلمين، إلا أنه – رغم كل ذلك يظل فناً تخصصيًّا لا تصل آثاره التفصيلية إلى جماهير المثقفين حتى من الغربيين. فالتعرض لكتابات المستشرقين بصورة مفصلة في وسائل الإعلام العامة كالتلفاز مما يساعد على نشرها ويوسع دائرة الافتتان بها.

❖ الصلات التاريخية: عرض الصلات التاريخية بين المسلمين والغربيين عرضنا يصحح الصور المشوهة التي اعتادها الكثيرون منهم، وينصف المسلمين ويبين كثيرا من أفضالهم الدينية والخلقية والاجتماعية والإنسانية والعلمية على الغربيين عرضنا

يقلل من غرورهم ويشعرهم يمنة غيرهم عليهم، ويجبرهم على الاعتراف بما امتازت به بعض الحضارات على حضاراتهم. لكن هذا كله ينبغي أن يكون باسلوب موضوعي منصف لا تبجح فيه ولا غرور، ولا إخفاء للحقائق حتى حين تكون للغربيين وعلى المسلمين، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟﴾ [المائدة: ٢]، إن الإسلام وحي الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والأمة المسلمة لا تجتمع على خطأ، لكن الأفراد المسلمين يخطئون، والجماعات المسلمة تخطئ، خطؤها لا يحسب على الإسلام خصوصا إذا بادرنا إلى إنكاره.

❖ المفكرون المسلمون: لقد درجنا في محاولتنا لاستجلاب احترام الغربيين لتراثنا الفكري أن نركز على منتجات هذا الفكر في مجال العلوم الطبيعية والفلسفة. فكأننا نريد أن نقول لهم: إذا كنتم تفتخرون بتقدمكم العلمي فاعلموا أننا نحن الذين أعطيناكم المنهج العلمي الذي تقوم عليه هذه العلوم. وإذا كنتم الآن قد سبقتمونا في مجال العلوم الطبيعية التجريبية، فتذكروا أننا كنا سابقين لكن فيها وأنكم إنما بنيتم على ما خلفناه لكم. وإذا كنتم تعدون حضارتكم امتداداً للفكر اليوناني، فتذكروا أننا نحن الذين نقلنا لكم هذا الفكر، بعد أن أضفنا إليه شروحا وتعليقات ومسائل كانت من ابتكارنا. وربما يكون هذا الأسلوب قد حقق شيئا من مقصده. إلا أنني أرى عدم الاستمرار فيه، أعني عدم التركيز على تينك المسألتين.

وذلك أولا لأن في هذا التركيز ظلما لتاريخنا الفكري، إننا وإن نكن قد شاركنا مشاركتنا محترمة في مجالات العلوم والفلسفة، إلا أن الشيء الذي ميز فكرنا هو كونه كان فكرا مهتديا بهدي الوحي، ومركزاً على العلوم والأحوال والأخلاق والمؤسسات التي تساعد الإنسان على أن يحيا في هذه الدنيا حياة نفسية واجتماعية سعيدة ليستقل بعد موته حياة أسعد وأدوم. والرجال الذين كانوا قادة لهذا الفكر المهتدي، وأئمة لجماهير المسلمين في العلم والسلوك ليسوا هم الفلاسفة من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا، وإنما هم فقهاء الأمة من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي كثيرا مما تعرض له علماء الكلام، وعلماء أصول الفقه، وعلماء الحديث،

بل علماء اللغة والمؤرخون، فحصر مشاركتنا الفلسفية في كتابات من سموا بفلاسفة الإسلام ممن تأثر بالفلسفة اليونانية، حصر مجحف.

وثانياً لأن السرعة الهائلة التي تسير لها حركة التقدم في مجال العلوم التجريبية وما يتبع هذه السرعة من تراكم مدهش في كمية الحقائق التي تكتشف يوما بعد يوم، تجعل ما اكتشفه الأقدمون من المسلمين وغيرهم بالنسبة إليه كأنه قطرة في بحر، لكن الغريب أنه كان من نتائج هذا الإنجاز الكبير للعلوم التجريبية أن طأطأ من سورة الافتتان بها، لأنه أوضح أنها مهما عظمت فإن مجالها محدود، وأن هناك قضايا تهم الناس لا تستطيع أن تقول فيها شيئا، أي أنها لا تغني عن الدين كما كان يرجو المفتتنون بها. ثم إن العلوم الإنسانية حين اصطنعت مناهجها لم تأت بثمار مفيدة تساعد في حل تلك القضايا الإنسانية التي لا تدخل في مجال العلوم الطبيعية.

قلت كل هذا لأقول إن كثيراً من الغربيين أصبحوا الآن مفتوحي الأذهان لسماع شيء جديد في هذه المجالات الإنسانية التي هي في الحقيقة مجالات الدين الحق. ومن هنا تأتي دعوتي للتركيز على هذه المجالات، وعلى مفكرينا الذين أدلوا فيها بدلاء عادت بالخير الكثير.

❖ النقد الإسلامي للفكر الغربي: إن من وسائل الدعوة الناجعة جداً أن تقدم الإسلام للناس عن طريق بعض القضايا التي تهمهم، وتستولى على قدر كبير من تفكيرهم. وأنه لما يهم الغربيين وغيرهم في هذه الأيام الحديث عن القضايا والنظريات والأيدولوجيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خصوصا تلك التي عرضت عليهم من قبل وعرفوها. فلتكمن لنا إذا برامج عن النقد الإسلامي لنظريات غربية في الاقتصاد مثل الرأسمالية والاشتراكية، وفي بعض الاتجاهات الإعلامية، وبعض مبادئ العلاقات الدولية الخ.

❖ القضايا الراهنة الساخنة: ومما يتصل بما ذكرت في الفقرة السابقة التعرض للموضوعات اليومية التي تتناقل وسائل الإعلام أخبارها، خصوصا إذا صارت قضية عالمية كقضية مرض (الإيدز) مثلا.

❖ القضايا العلمية البحتة: لكثير من علمائنا المعاصرين تأملات ووجهات نظر إسلامية في العلوم التي تخصصوا فيها سواء كانت من العلوم الطبيعية أو العلوم الإنسانية. فلنعطهم الفرصة لعرضها على أنها وجهات نظر لأناس مسلمين، لا على أنها كلمة الإسلام في الموضوع.

طريقة التقديم:

صاحب هذا المقال ليس من الرجال المختصين بفن الإعلام وعلمه، فحديثه عن طريقة التقديم هو حديث المشاهد المهتم لا حديث المنتج المختص.

المواد التي تحدثت عنها يمكن أن تقدم بطرق مختلفة بحسب مجالات التقديم وبحسب الوسائل الإعلامية المستخدمة فيه. ما دامت ندوتنا الآن عن البرامج التلفازية، فلست أتوقع بالطبع أن تقدم تلك الموضوعات في شكل محاضرات جامعية أو أحاديث منبرية، وإنما أرجو تعرض بطريقة تتناسب مع الوسيلة المستخدمة، بل ومع ما اعتاده المشاهدون من طريقة – في حدود الآداب الإسلامية – لاستعمال هذه الوسيلة. وذلك أنني أخال أنه كلما كان الاستعمال بطريقة يأنسها المشاهد، كان ذلك أرعى لسمعة وأجذب لانتباهه. ولهذا السبب نفسه أرجو أن يكون إخراج هذه البرامج في غاية الإتقان الفني المستطاع، وإلا فإن تخلفها الفني قد يشعر بتخلف المادة المقدمة فيها، فتكون لبعض الناس بهذا سبب فتنة لا عامل هداية كما هو المرجو لها.

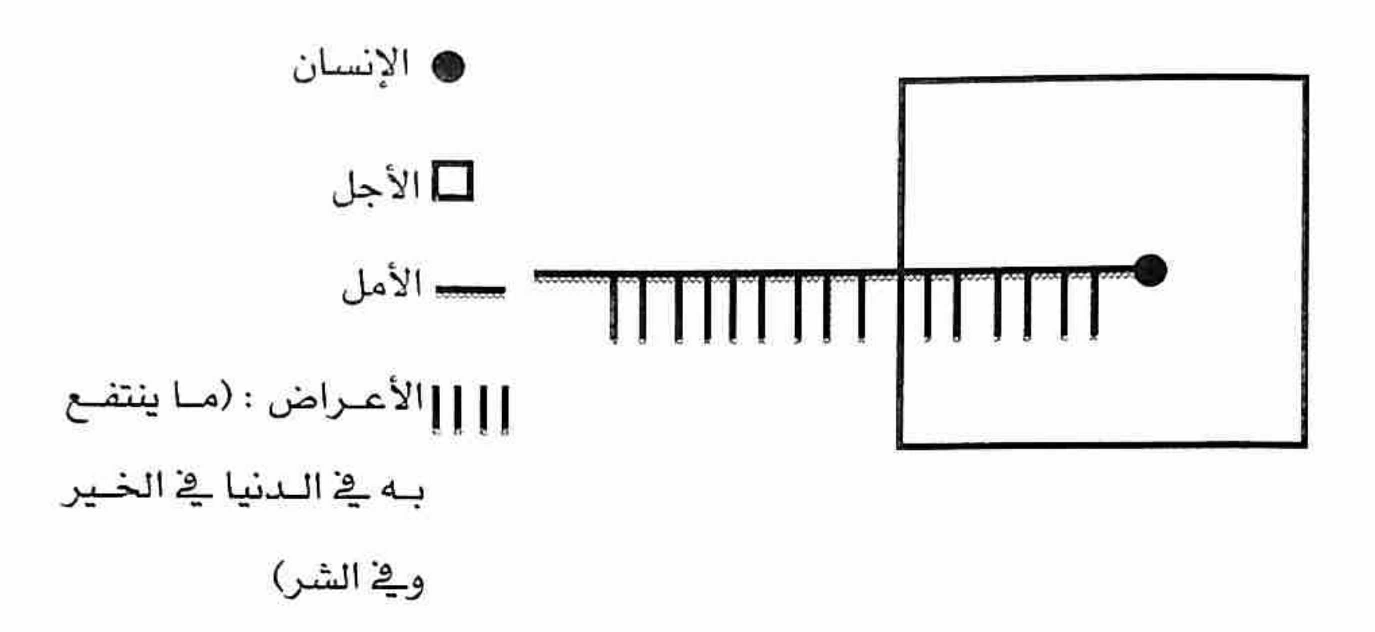
من طرق التقدم التي أراها مفيدة :

❖ الأحاديث القصيرة : إذا أحسن استخدامها، ومن حسن استخدامها أن لا يعرض المتحدث وكأنه صورة جامدة كما يحدث كثيراً، يلقي حديث فتعرضه من زوايا ومسافات مختلفة. بل لماذا لا ندرب المتحدثين أنفسهم على تقديم كلماتهم بطريقة تناسب التلفاز؟ ومن ذلك أن ننصحهم باستعمال الوسائل التعليمية المحسوسة ونساعدهم على ذلك حتى لو كان الحديث في مسألة خطيرة وغير حسية كمسائل العقيدة. لقد كان الرسول ﷺ يستعين أحيانا بما نسميه الآن بالرسوم البيانة ليشرح للناس حقيقة لا يحسونها. ومن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه، وخط خططا صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال : (**هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به – أو قد أحاط به –، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأ هذا نهشة هذا**)[1].

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، للإمام الحافظ بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، ج١١، ص ٢٢٥-٢٢٦.

يرجح الإمام ابن حجر أن تكون صفة هذا الرسم[١]:



❖ المقابلات والندوات: كثير مما ذكرته عن الأحاديث القصيرة يصدق هنا أيضا. لكن أرجو أن نفكر كذلك في جدوى استضافة بعض المنصفين من الغربيين أو بعض من لهم نظرات ناقدة لحضارتهم حتى لو لم يكونوا مسلمين.

❖ الأفلام الإسلامية العامة:

١- عرض بعض الأفلام الإسلامية العربية الجيدة مترجمة على الشاشة أو مدبلجة إن أمكن.

٢-عرض أفلام وثائقية، منها مثلا فلم عن المساجد والمراكز الجديد منها والقديم في شتى البلاد، مع إشارات -لا شرح مفصل- لكيفية الصلاة، ومعاني كلمات الأذن وغير ذلك يصحب الصورة التي يراها.

❖ الأفلام الإسلامية التعليمية: إنتاج أفلام تعليمية يمكن أن يتكرر عرضها كل عام. ومن الأفلام التي أقترحها في هذا المجال.

١- فيلم يشرح الإسلام للمبتدئين سواء كانوا مسلمين جدًا يريدون أن يتعلموا أمور دينهم، أو كانوا غير مسلمين يريدون أن يكونوا صورة صحيحة عن الإسلام. للأخ الدكتور جمال بدوي محاولة جيدة مشكورة في هذا المجال لعلها الأولى من نوعها، وقد رأيت أجزاء من هذا البرنامج التعليمي عندما كنت في زيادة لكندا حيث أنتج، وأجزاء

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، للإمام الحافظ بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، ج١١، ص٢٢٧-٢٢٨.

منه عرضها التلفاز السعودي. لكنني لاحظت أن البرنامج كله يقوم على سؤال قصير من أحد الإخوة الأمريكان وإجابة مفصلة من الدكتور جمال، فالبرنامج لهذا فيه شيء غير قليل من الرتابة. وأظن أن مما يقلل منها أن تتعدد الوجوه السائلة والمجيبة، وأن تصحب الشرح بعض المناظر أو بعض الوسائل البصرية المعينة على الفهم، وأن تتخلله فقرات ترويحية. ولا أظن أن الإخوة الذين انتجوا هذا البرنامج يجهلون قيمة ما ذكرت، وأحسب أن الذي حال بينهم وبينه هو ضيق ذات اليد. لذلك أقترح على تلفزيونات الخليج أن تتعاون مع منتجي هذا البرنامج لإعادة إخراجه بصورة أفضل، شكلاً وموضوعاً في ضوء المبادئ التي ذكرتها آنفا وأمثالها مما يذكره الإخوة الآخرون.

٢- فيلم عن الحج يكون في شكل قصة عائلة مسلمة تنوي الحج من إحدى البلاد الإسلامية البعيدة. يبين فيه طريقة فيها كثير من الحركة والتشويق كل ما يتعلق بهذه الشعيرة من أمور دينية ودنيوية. فتبدأ القصة مثلا والعائلة في بلدها بأن يذهب الرجل إلى مسجد مدينته فيستمع إلى عالم يتحدث عن وجوب الحج وكونه ركناً من أركان الإسلام الخمسة، فينقل ما سمع لزوجته فيعزما على الحج في ذلك العام، ثم يبدآن في السعي لمعرفة تفاصيل أكثر عن الحج، فنشهدهما يتفقان على تجديد توبتهما وتصحيح عقيدتهما، ونراهما يسددان ما عليهما من ديون وهكذا. ثم نراهما وقد شرعا مع طفليهما في السفر، ثم نراهما وقد وصلا الميقات فأحرما. وهنا نتبين أنواع الإحرام المختلفة بسماعنا لما يقول مختلف الحجاج الذين التقت بهم العائلة عند الميقات وهكذا إلى أن يفرغا من حجهما ويعودا إلى بلدهما.

إذا أنتج فيلم كهذا إنتاجاً جيداً وكان شاملاً لكل ما يحتاج الحاج لعرفته، فسيغني عن كثير من البرامج التي تعد كل عام لموسم الحج والتي يتكرر فيها الكلام والشرح. بل إنه إذا أحسنت ترجمته إلى اللغات المختلفة يمكن أن يباع أو يهدى لكثير من الدول الإسلامية لكي تعرضه تلفازاتها كل عام على مشاهديها الراغبين في الحج قبل مغادرتهم لبلادهم. وأتوقع أن يكون لمثل هذا الفيلم أثر كبير على الحجاج، وأن يساعد في التقليل من المشكلات التي تحدث في موسم الحج بسبب الجهل بالمناسك أو الجهل بالإجراءات أو النظم المتعلقة بالحج.

٣- وعلى نفس المنوال يمكن أن تنتج أفلام عن جوانب أخرى من جوانب الإسلام، كمسائل العقيدة والصلاة والزكاة والصوم. والسيرة النبوية.

نسأل الله الهداية والتوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

الردة وحقوق الإنسان

بحث قدمه الشيخ لمشروع مفاهيم في الحريات الدينية رؤية شرعية التي نظمته هيئة حقوق الإنسان بالمملكة العربية السعودية في ٨/ ٣/ ١٤٣١ه الموافق ٢٢/٢/ ٢٠١٠م.

أنزل الله سبحانه وتعالى كتابه بالحق ليكون هو المعيار الذي تقاس به الأمور، فما وافقه كان حقاً وما خالفه كان باطلاً ومخالفاً للعقل أو الحس. لكننا نعيش في أيام طغت فيها الحضارة الغربية وصارت هي المعيار الذي تقوم به أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع، بل وأمور الدين، فما وافق ما شاع فيها من فكر وأوضاع بل وعادات وتقاليد كان مقبولاً وما خالفه كان مرفوضاً أو كان موضع شك وقلق. ولما كان الحكم بقتل المرتد هو من الأحكام التي ينكرها هذا الفكر أشد الإنكار فقد قلدهم في هذا الإنكار بعض المنتسبين إلى الإسلام فبدؤوا يبذلون كل جهد في تبرئة الإسلام من هذا الذي يرونه منكرا. ولما كانت قضية إنكار قتل المرتد مبنية على ما اعتبره الفكر الغربي حقاً إنسانياً فقد رأيت أن أبدأ هذا المقال عن قتل المرتد بمقدمة عن هذه الحقوق.

حقوق الإنسان:

حرية العقيدة بمعنى أن كل إنسان له الحق في أن يعتقد ما شاء من عقائد تعد عند القائلين بها حقا إنسانياً كفله الإعلان الدولي لحقوق الإنسان الذي أجازته الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٩٤٨/١٢/٥. لكن هذا الإعلان نفسه رغم صدوره عن الأمم المتحدة، ورغم الدعاية الكبيرة التي أحاطته بها الدعاية الغربية، ورغم أخذ كثير من الدول به وتضمينها له في دساتيرها هو إعلان تحيط به مشكلات كبيرة تكلم عنها المفكرون في الشرق والغرب نلخص أهم هذه المشكلات في ما يلي :

أولاً: أنه لا يقوم على أساس متين كما أشار إلى ذلك كثير من المفكرين الغربيين وغير الغربيين. شاركت قبل بضع سنين في ندوة أقيمت في روما عن حقوق الإنسان في الأديان الثلاثة وكنت أنا والأخ الدكتور جمال بدوي من الممثلين لوجهة النظر الإسلامية. تحدث الدكتور جمال قبلي فأحسن، لكن المتحدثين الآخرين – بمن فيهم كاتبة متخصصة في حقوق الإنسان لم يتكلموا في الموضوعات التي حددت لهم وإنما

كان كلامهم في جملته نقدا لمواقف المسلمين. فلما جاء دوري ألقيت بكلمتي التي كنت قد أعددتها جانبا وقلت لهم كلاما فحواه أنه لم يطلب منكم أن تتحدثوا عن موقف الإسلام، فهذه مهمتنا نحن، وإنما طلب منكم أن تبينوا موقف أديانكم. ثم دار بيننا جدل قال لي فيه أحدهم إنهم – وهم قساوسة من الكنيسة الكاثولوكية- كانوا هم وراء ذلك الإعلان وأنهم انطلقوا من منطلق ديني لكن لما كان أعضاء الأمم المتحدة ينتمون إلى أديان شتى ولما كان بعضهم ملحدا فقد رأينا أن لا نقيده بمصدر ديني معين. قلت لهم وإذن فما مستنده ؟ قالت الكاتبة المختصة بموضوع حقوق الإنسان إن مستنده هو إجماع الأعضاء في الأمم المتحدة عليه. قلت لها لكنك قلت قبل قليل إن السعودية كانت من بين الدول التي تحفظت على بعض بنوده فكيف يكون مجمعا عليه ؟ ثم قلت لهم إنه حتى إجماع الأعضاء في ذلك الوقت عليه لا يجعله فوق النقد ولا فوق التعديل. إنه لابد من دليل على صحته غير كون أولئك الأعضاء أجازوه. ولكي يكون صحيحا فلابد أن يستند على أصل مجمع عليه بين الناس. وقد تبين أن فكرة حقوق الإنسان كما وردت في الإعلان لا تستند إلى دين يدين به كل الأعضاء.

ثانياً: يقول بعض المعترضين عليه إن الدول التي وافقت عليه في عام ٤٨ هي ثلث الدول الموجودة في العالم الآن. فبأي حق يلزم به من لم يحضره ولم يصوت عليه.

ثالثاً: حاول بعضهم أن يجعل مستند الحقوق الإنسانية فلسفة الطبيعة البشرية، أي أن هذه الحقوق أمر تقتضيه طبيعة البشر. لكن هذه الفلسفة نفسها قد كثرت الاعتراضات عليها في الغرب فلم تعد تصلح قاعدة مشتركة يبنى عليها أمر مهم كحقوق الإنسان.

رابعاً: سخر بعضهم من بعض بنود الميثاق قائلاً إنها حتى لو كانت شيئاً حسنا فلا يمكن أن تعد حقاً إنسانياً. من الأمثلة التي ذكروها على ذلك ما جاء في الفقرة الرابعة من البند الثالث والعشرين من بنود الميثاق أن (لكل شخص الحق في أن ينشئ وينضم إلى نقابات حماية لمصالحه)، وما جاء في البند الرابع منه من أن لكل أحد الحق في الراحة، وفي أوقات الفراغ، ولا سيما في تحديد معقول لساعات العمل، وفي عطلات دورية بأجر.

خامساً: لكن هذا لا يعني أن كل بنود الميثاق باطلة، وإنما يعني فقط أن الميثاق في جملته ليس أمراً مجمعا عليه. ولا حل لهذا الإشكال إلا أن يكتفي فيه بالبنود التي هي موضع إجماع، لأن مجرد التصويت في مثل هذه القضايا الأساسية لا يحل إشكالا.

التصور الإسلامي للحقوق:

ليس غريبا أن يحصر الفكر العلماني السائد الحقوق في حقوق بشرية أو حقوق حيوانية وينسى حق الله تعالى، لكن الغريب أن يجاريهم في مثل هذا الفكر الإلحادي أناس يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

الحقوق في الإسلام ثلاثة: حق الله تعالى وهو أهمها، وحق للعباد على الله تعالى، وحقوق فرضها الله تعالى للناس على الناس. وقد بين الحديث الصحيح الذي رواه معاذ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن حق الله على العباد أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، وأن حقهم على الله تعالى إن فعلوا ذلك أن لا يعذبهم. حق عباد الله الذين لا يشركون به تعالى شيئاً هو أيضاً حق كل فرد منهم على كل عباد الله تعالى. هذا الحق هو الحق الوحيد المطلق غير المقيد بشرط من الشروط غير البراءة من الشرك. قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ [العلق: ٩-١٢].

أي أنه لا يحق لإنسان أن يمنع إنسانا من عبادة الله وحده، فالإسلام لا يتحدث عن الحقوق الدينية بطريقة غامضة ولا يساوي بين حق من يعبد الله تعالى لا يشرك به وحق من يشرك بالله.

الحرية الدينية:

الحرية الدينية التي تكفلها الدساتير الديمقراطية الغربية ليست ولا يمكن أن تكون حرية دينية مطلقة تسوغ لكل معتنق لدين من الأديان أن يمارسه بحسب ما تقتضيه مبادئه، وإنما هي كما نبه إلى ذلك كثير من المفكرين الغربيين المسيحين حرية في إطار المبادئ العلمانية، أي حرية في إطار القوانين التي تسنها أغلبية الأعضاء في الهيئات التشريعية. ولذلك فإن القوانين قد تأتي - بل لابد أن تأتي - بما يخالف بعض التعاليم الدينية لبعض الناس. هذا أمر لا مفر منه ولا سيما في دول تتعدد فيها الأديان. من الأمثلة التي يذكرونها على هذه القيود منع المسيحيين من طائفة المورمون

من الزواج بأكثر من امرأة مع أنه شيء يبيحه دينهم. بل الأهم من ذلك بالنسبة للمسلمين أنه لا يمكن لهم أن يطبقوا شيئاً من القوانين المتعلقة بشؤون الدولة كمنع الربا ومنع شرب الخمر، بل إن الزواج بأكثر من امرأة واحدة يعد في بعض القوانين الغربية جريمة يعاقب عليها القانون، بينما لا يعد الزنا أو حتى إتيان الرجال جريمة إذا كان برضى الطرفين. أنا لا أذكر هذا لأقول إنه لا ينبغي لأهل كل دين في دولة متعددة الأديان والفلسفات والمبادئ أن يفعلوا ما يقتضيه دينهم لأن هذا شيء مستحيل كما قلت، وإنما أريد أن أقول إنه بما أن هذا أمر متعذر في الواقع فإن القول بحرية دينية مطلقة كلام باطل. الحرية الدينية المقصودة عند العلمانيين إنما هي إذن الحرية التي تسمح بها مبادئ الدولة العلمانية التي تجعل الحرية الدينية حرية اعتقاد فردي وممارسات تعبدية لا تتدخل في المجال العام Public Space. لكن حتى هذه الممارسات التعبدية نفسها لابد أن تكون خاضعة لقوانين الدولة العلمانية لأنها هي المسؤولة عن تنظيم الحياة العامة. فلابد من أخذ إذنها مثلا حتى في أماكن بناء دور العبادة. الحرية الدينية التي يتحدث عنها الغرب العلماني هي إذن بالضرورة حرية مقيدة، ولكن الناس صاروا ينسون هذه الحقيقة لأنهم صاروا يفترضون أن الأمر الطبيعي في الدولة أن تكون علمانية، فكل قيود توضع على الحرية الدينية غير قيود العلمانية هي القيود التي يعترض عليها. لكننا نقول إنه إذا كان المستحيل على الدولة العلمانية الديمقراطية أن تعطي مخالفيها من أهل الأديان والفلسفات حريات مطلقة، فكذلك الحال بالنسبة لدولة يكون مبناها على الدين. وهذا هو الشأن في الدولة الإسلامية. إنها هي المسؤولة عن تنظيم الحياة العامة. لكن الدين الذي تدين به يأمرها أن تعطي أصحاب الأديان غير الإسلامية حقوقاً هي في بعض جوانبها أكثر من الحقوق التي تعطيها لهم الدولة العلمانية (الرجاء من إخواننا المختصين أن يفصلوا هذا الأمر). والإسلام في هذا يختلف عن الدول الدينية التي كانت سائدة في أوروبا. لم تكن تلك الدول تكتفي بتنظيم الحياة العامة وتترك لأهل الأديان المخالفة لها حرية التدين في ذلك النطاق، بل كانت تحاول فرض عقيدتها على كل من هو تحت سيطرتها فإما أن يصير كاثولوكيا مثلا وإما أن يقتل، وهذا هو الذي فعلوه بالنسبة لليهود في أسبانيا.

لقد خيروهم بين أن يتحولوا إلى النصرانية أو يهاجروا أو يقتلوا. وقد كانت هذه السياسة هي السبب في اشتعال ما سمي بالحروب الدينية التي استمرت لقرون في أوروبا، وكانت هي السبب كما يقول بعضهم في التحول إلى الدولة العلمانية التي تعطي أهل كل دين تلك الحقوق التي تحدثنا عنها.

وإذا جاز للدولة العلمانية التي يقال إنها دولة ليبرالية أن تقيد حرية التدين، فلماذا لا يجوز ذلك لدولة يقوم مبناها كله على أساس دين منزل من عند الله تعالى ؟

عقوبة المرتد:

هذا يقودنا إلى الحديث عن عقوبة المرتد، فنقول : إن الذين يعترضون على هذه العقوبة منهم من هو كافر بالإسلام، ومنهم من هو منتسب إليه. أما الكافرون به فإنما يعتمدون في اعتراضهم على كون هذه العقوبة مخالفة لمبدأ العقيدة الذي هو حق لكل إنسان. وقد قدمنا الحديث في هذا لكننا نزيد الأمر هنا وضوحا فنقول : إن الخلاف في أمر ما بين المنتسبين إلى أديان ومذاهب حياة مختلفة لا يحسم إلا بالرجوع إلى معايير متفق عليه بينهم. ولا معايير متفق عليها بين العقلاء من البشر إلا المعايير العقلية والحسية. ولا شيء في الحس ولا في العقل يقول إنه لا يجوز عقاب التارك لدين حق إلى دين باطل. نعم إن الخلاف يمكن أن ينتقل بعد ذلك إلى السؤال عما إذا كان الدين المتروك هو دين حق. لكن هذا سؤال آخر إنما يجاب عنه بالمعايير نفسها التي ذكرناها، معايير العقل والحس.

يبني بعض الغربيين اعتراضه على قتل المرتد على اعتبار أن حق الحياة حق مطلق، فلا يجوز لذلك أن تزهق روح مهما ارتكبت من آثام. ولذلك فإن كثيرا من الدول الأوربية ألغت عقوبة الإعدام. لكنه هذه الدول نفسها هي التي ترسل جنودها ليتعاونوا مع الأمريكان في قتل الأبرياء في أفغانستان وفي العراق. كيف تقول إن حق الحياة حق مطلق لا يجوز التغول عليه ثم تقتل الأفغان بحجة أنهم هم الذين كانوا وراء أحداث سبتمبر، وتقتل العراقيين بحجة أن دولتهم تملك أسلحة دمار شامل يهدد المصالح الغربية؟ وكيف إذا كان كثير من هؤلاء الذين يقتلون هم باعتراف الجهات الغربية من الأبرياء ؟ إن التعلل بكونهم قتلوا خطأ لا يجدي لأن الذين يشنون مثل تلك الحروب

يعلمون يقينا أنه ستكون من نتائجها قتل بعض الأبرياء. أما المنتسبون إلى الإسلام فإن اعتراضهم مبني على ثلاث حجج: الأولى عدم ثبوت هذه المسألة من الناحية الشرعية. وهذا أمر يحال الحسم فيه إلى الإخوة المختصين.

أما حجتهم الثانية فهي أن المرتد لا يعاقب إلا إذا كانت ردته مرتبطة بخروجه على الدولة. وهذه حجة واهية :

أولاً: لأن حديث: **(من بدل دينه فاقتلوه)** ذكره ابن عباس رضي الله عنهما بمناسبة تدل غاية الدلالة على نقيض من يقولون. ذكره رضي الله عنه بمناسبة قتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وتحريقه لجماعة ممن غلوا فيه وسجدوا له وقالوا له أنت ربنا. فهل يقال عن أمثال هؤلاء إنهم خرجوا على الحاكم؟ وهل رأيت من خضوع لحاكم هو أشد من مثل هذا الخضوع ؟

وثانياً: لأن الخارج على الإمام العادل يقاتل مرتداً كان أو غير مرتد.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

لكن قتاله لا يلزم عنه قتله كما هو واضح من الآية، ولأن الإمام قد يعفو عنه بعد المقدرة عليه إذا رأى في ذلك مصلحة للمسلمين.

ثالثاً: لكن هذا معناه أن المرتد الخارج عن السلطة قد لا يقتل، مع أن الأحاديث التي يقر بها القائلون بارتباط الردة بالخروج تأمر بقتل المرتد.

أما حجتهم الثالثة فهي أن عقوبة المرتد تتعارض مع مبدأ إسلامي مهم هو مبدأ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. مما لا شك فيه أن هذا مبدأ إسلامي ثابت ومهم. إن الآية تنهى عن محاولة قسر الناس على الدخول في دين الإسلام لكن النهي فيها مبني على أنه لا أحد من البشر يستطيع إدخال الاعتقاد في قلوب الناس. هذا أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى. وفي كتاب الله تعالى أدلة كثيرة على هذه الحقيقة بالإضافة إلى آية عدم

الإكراه المذكوره آنفا. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].

قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. ولهذا قال: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : (لست عليهم بجبار). وقال ابن زيد : لست بالذي تكرههم على الإيمان».

وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وعليه فلا يمكن أن يكون القصد من عقاب المرتد هو إجباره على اعتقاد ما لا يعتقد، لأن هذا أمر مستحيل. ما القصد إذن ؟ لابد أن يكون القصد هو منعه من التصريح بهذا الاعتقاد والدعوة إلى ما يخالفه لما يترتب على ذلك من مضار، إذ إن هناك فرقاً بين من يصرح بالكفر قبل أن يعلن دخوله في دين الإسلام وبين من يصرح به بعد دخوله. إن الذي يعلن دخوله في دين الإسلام لا يدخله فرداً وإنما يعلن انضمامه إلى جماعة المسلمين، وهي جماعة مترابطة متآلفة، وليست مجرد كوم من الأفراد. فالذي ينضم إليها ثم يعلن خروجه منها يعلن نوعا من الحرب عليها. وذلك لأنه :

أولاً: يقول بلسان حاله أو مقاله إنه جرب هذا الدين فوجده دينا باطلاً، أو وجد فيه عيوبا كثيرة، فهو يحذر غيره من أن يكرر تجربته. وإلى هذا الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: «هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصه وعيب في دين المسلمين».

أقول هذه المكيدة مازالت مستمرة لكنها تأخذ صورا مختلفة منها في أيامنا هذه أن بعض الدول المعادية للإسلام ترسل جواسيسها ليعلنوا إسلامهم وينضموا إلى جماعة المسلمين في البلد الذي هم فيه ثم يعلنون خروجهم منه. وقد رأينا بعضهم يفعل هذا ثم يكتب كتابا كاملا عن المسلمين يملؤه بالأكاذيب والتهم التي يرى أنها ستنفر قومه منه.

ثانياً: إن الذي ينضم إلى جماعة المسلمين يصبح جزءا من نسيج ذلك المجتمع فإعلان خروجه منه قد يؤثر تأثيراً كبيراً وسيئاً على من كان قريبا منه من أزواج وأولاد وأصدقاء وجيران ومعارف لا سيما إذا لم يكن لهم من العلم وقوة الاستمساك بالدين ما يحميهم من هذا التأثير. إن الذين يدافعون عن حق الشخص في الردة لا يريدون الاعتراف بأن في الناس ضعفاء يحتاجون إلى حماية بل يفترضون فرضاً باطلاً هو أن كل الناس سواسية في مقدراتهم العلمية وقواهم الإيمانية.

ثالثاً: إن التهديد بقتل المرتد فيه مصلحة وحماية لكثير من الناس من في الردة. وذلك أن الإنسان قد تعرض له شكوك إذا صرح بها كانت تصريحاً بالكفر. فإذا عرفت عنه فربما أصر عليها واستمر فيها. وأما إذا خشي من أن يعرضه التصريح بها للقتل فقد يكتمها ثم يكتشف أنها إنما كانت وساوس شيطانية أنجاه الله تعالى منها. ونحن نعرف أناساً بأعيانهم حدث لهم مثل هذا. والإنسان قد يراجع نفسه حتى بعد أن يعلن ردته، وربما كانت هذه الحكمة في إعطائه ثلاث فرص قبل قتله.

الحقيقة التي ذكرناها عن كون المسلمين جماعة وليسوا مجرد كوم من الأفراد، وبنينا عليها بعض مسوغات قتل المرتد، مسألة مخالفة تماما للفكر الليبرالي الشائع الآن في الغرب، أعني الفكر الذي يقوم على اعتبار أن الناس في الأصل أفراد، وأن وجودهم في المجتمع أمر طارئ، وأنه لذلك ينبغي أن يعطى كل منهم أكبر قدر من الحرية بما في ذلك الحرية الدينية بالمعنى الذي ذكروه.

وما ذكرناه مخالف أيضاً للفكر العلماني الليبرالي السائد الآن في الغرب في كثير من البلاد التي تأثرت به هو فكر لا يرى للدين مكانا في تصريف حياة الناس العامة، وإنما يراه أمرا خاصا بالأفراد لا يجوز للمتجمع أن يتدخل فيه. وكما يرى هذا في الدين يراه في أمور أخرى منها العلاقات الجنسية فهو يبيح للناس أن يختاروا ما شاؤوا من

علاقات جنسية سواء كانت بين رجل وامرأة أو بين رجلين أو بين امرأتين. وإخواننا الذين يرون عدم قتل المرتد استنادا إلى الآية الكريمة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، يلزمهم أن يطردوا هذه الحرية الدينية على كل تفاصيل الدين كما فعل الغربيون، لأنه من التناقض البين أن تعطي الإنسان حرية الخروج عن الدين كله ثم لا تعطيه حرية الخروج عن بعضه، وهذا معناه أن ينكروا كل الحدود وكل أنواع التعزير بحجة تناقضها مع الحرية الدينية. ويلزمهم لهذا القول بأنه يجوز للإنسان أن يقول إنه مسلم لكن ينكر شيئاً من القرآن أو ما علم بالضرورة أنه من دين الإسلام، فلا ينكر عليه ممارسة الزنى أو الشذوذ، ولا لشرب الخمر وهكذا.

لكن نتيجة هذا كله هي أن لا يكون الإسلام نظاما لدولة لأنه لابد للدولة من قانون تنظم به حياة الناس ولابد لهذا القانون من أن يتضمن أنواعا من العقوبات، فإذا كان القانون مبنيا على الدين وكانت عقوباته كلها مبنية على الدين، وكان من حق الإنسان – بحسب مبدأ الحرية الدينية – أن يرتكب المخالفات والجرائم التي تعاقب عليها تلك القوانين، كان من المستحيل أن يكون الدين أساساً لدستور الدولة وقوانينها.

ماذا لو قال قائل إنكم تتناقضون حين تعطون الإنسان حرية الدخول في الدين لكنكم لا تعطونه حرية الخروج منه. نقول إن هناك فرقاً بين حرية الدخول وحرية الخروج. إن منظمين لمحاضرة تلقى في إحدى القاعات قد يقولون إن المحاضرة مفتوحة لا قيد على من يريد حضورها، لكن لا يسمح لمن دخل القاعة أن يخرج منها إلا بعد انتهاء المحاضرة لأن هذا يشوش على المحاضر وعلى المستمعين.

إن الأصل هو دعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلتهم بالتي هي أحسن، ثم ترك الأمر إليهم فمن شاء آمن ومن شاء كفر. وقد كانت هذه الطريقة وما تزال هي التي دخل الناس بسببها في دين الله أفواجا. أما المرتد فحالته حالة شاذة عن هذه القاعدة التي ذكرناها للأسباب التي بيناها ولكنه مع ذلك يعامل في البداية مثل معاملة المدعو إلى الإسلام فيحاور ويجادل ويعطى فرصة لمراجعة نفسه، ولا يعاقب إلا بعد أن يصر على الردة.

* * *

في منهج العمل الإسلامي

القاعدة الأولى: التركيز على العقيدة لا يعني إهمال الجوانب الأخرى:

القاعدة الثانية، التي صحت جوهراً وعلماً. وأخطأ الناس في فهمها وتطبيقها هي: قاعدة التركيز على العقيدة.

أن صحة العقيدة شرط من صحة الإسلام، وصحة العمل الإسلامي. فلا يتقبل الله عملاً إلا إذا كان منبثقاً من عقيدة سليمة خالصة.

هذه قاعدة صحيحة.

لكن أناساً من المسلمين غلوا في دينهم وفي تفسير هذه القاعدة، ومازالوا يتحرون الغلو حتى دعوا إلى هجر كل شيء ابتغاء التركيز على العقيدة وحدها.

هذا هو موقف قليل العلم والفقه، وهو كذلك موقف سلبي بمقياس العمل والجهاد.

ومقولتهم في هذا هي: أن منهج الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، هو الابتداء بدعوة الناس إلى تصحيح العقيدة حتى إذا ما صحت وتركزت في القلوب جاءت تفاصيل التشريع بنياناً معتمداً على أساسها المتين.

هذا كله صحيح، إنما جاء الخطأ من عدة أوجه. فالغلو هنا هو نتيجة الغلو في تفسير القاعدة الأولى. وذلك قول البعض: يجب أن نبدأ بالعقيدة كما بدأ الرسول ﷺ فلا ندعو الناس إلا إليها. لا ندعوهم إلى تفاصيل النظم الاقتصادية أو السياسية أو القانونية، لأن قبول هذه النظم تابع للتصديق بأنها من عند الله، والذي يؤمن بأنها من عند الله لن يتلجلج في قبولها، ولن يحتاج إلى أن نبين له محاسنها أو فرضها على غيرها من النظم.

وهذا التصور يهدم أو ينقض العرى الباقية من عرى الإسلام.

١) فهذا الكلام إذا أخذ بحرفيته، فإنه يؤدي إلى نتائج شنيعة فهو يعني:

إلا نتعرض لتفاصيل الصلاة والصوم والزكاة والحج والأحوال الشخصية ولا ندعو الناس إلى ترك الخمر والميسر والربا والزنا والظلم الاقتصادي والسياسي. ولا نلزم الدعاة أنفسهم بشيء من هذا ولا نقرأ القرآن المدني ولا نتدبره ولا أحاديث الرسول بالمدينة ولا نعرف شيئاً عن سيرته بها. وإذا كان هذا شنيعاً وكان لابد من الحديث عن هذ التفاصيل فما الذي يمنع من الحديث عن تفاصيل الاقتصاد والسياسة؟ ما الفرق بين هذا وذاك؟

٢) الدعوة إلى توحيد الله تعالى لم تكن – حتى في البداية – منفصلة عن الإيمان بالدار الآخرة والإيمان بصدق الرسول والإيمان بأن القرآن وحي من عند الله. بل لم تكن منفصلة عن الدعوة لمكارم الأخلاق وحسن معاملة الناس، وكل هذه أمور يحتاج الذي لا يؤمن بها إلى أدلة و براهين وآيات تبين له أنها حق، فإذا أردنا أن ننهج النهج النبوي بمكة فلابد من أن نحدث الناس في كل هذه القضايا، لكي نبين لهم أن القرآن كلام الله تعالى. لابد أن نريهم إعجازه. وإذا كان العرب الذين نزل عليهم القرآن الكريم قادرين على تبين إعجازه البياني فان أكثر النا س اليوم عاجزون عن رؤية هذا الإعجاز، ولكن حكمة الله تعالى قضت بإلا يكون إعجاز الرسالة الخاتمة مقصوراً على الاعجاز البياني الذي كان مناسباً للأمة التي خوطبت بها أول مرة.

لقد جعل الله إعجاز القرآن أمراً مستمراً تراه كل الأجيال على مدى الزمان وامتداد الأيام. ومن هذا الإعجاز: الهدى الذي جاء به القرآن الكريم وهذا الهدى يشكل: الهدى الاقتصادي والسياسي والأخلاقي النفسي والاجتماعي.. الخ. لقد كان الأنبياء – فيما مضى – يدعون أممهم إلى التوحيد، ويربطون هذه الدعوة بالمسائل التي تهم أممهم. فدعوة شعيب عليه السلام – ارتبطت بمشكلة اقتصادية ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤]. ودعوة موسى عليه السلام ارتبطت بمشكلة سياسية: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء-١٦-١٧]. ولكن دعوة محمد ﷺ جعلت قرآنا محفوظاً وسنة مبينة. دعوة فيها أصول الحلول لكل مشاكل الإنسان والداعية البصير يتخير من هذا الهدى الشامل الذي يجده بين يديه الأمور التي يراها تشغل قومه وزمانه فيربطها بدعوة التوحيد وغرضه من هذا ليس هو – كما يخشى البعض – دعوتهم إلى الالتزام بهذه القضايا مستقلة عن العقيدة، بل غرضه أن يجعلها ذريعة يعطف بها قلوب مخاطبيه إلى الإيمان بالله، وبرهانا على أن القرآن كلام الله.

٣) القول بأن الإنسان حين يؤمن بالله تعالى ويكون مسلماً لا يحتاج لأن نبين له محاسن مما يأمره الله به أو مساوئ مما ينهاه عنه: قول يبدو في ظاهره صحيحاً ولكنه غير صحيح.

أولاً: هناك فرق بين الإيمان المجمل والإيمان المفصل. فرق كبير بين من يؤمن على وجه الإجمال: بأن كل ما أمر الله به خير، وكل ما نهى عنه فهو شر، وبين من يعرف - بالأدلة العقلية، أو التجربة الحسية - الخير الكامن في أمور معينة، أمر الله بها، وأمور معينة نهى الله عنها، إن الإيمان الصحيح هو الإيمان الذي يقوم على العلم. وإذن فكلما علم الإنسان وآمن علم كلما ازداد إيمانه - كما هو معروف - يزيد وينقص.

ثانياً: أن المعرفة نفسها درجات فالمعرفة بمجرد الخبر، غير المعرفة بالدليل والتجربة، حتى لو كان المخبر هو الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. وقال رسول الله ﷺ معلقاً على هذه القصة: (**يرحم الله موسى: ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح**).

وأبو الأنبياء إبراهيم - عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه - قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ويقول الرسول ﷺ معلقاً على موقف إبراهيم هذا: (**نحن أحق بالشك من إبراهيم**) [رواه البخاري عن أبي هريرة]. يقول ابن كثير: «إن الشك المذكور هنا ليس الشك المعهود وان إبراهيم عليه السلام أراد وكما ذكر البعض - أن ينتقل من درجة علم اليقين إلى درجة عين اليقين».

ثالثاً: لو كان الأمر كما يصوره هذا الغلو في تفسير الإيمان لجاءت آيات الأمر والنهي في القرآن الكريم كالأوامر العسكرية غليظة جافة لا تبين حكمة أو سبباً، ولا تعلل أمراً أو نهياً، ولا تسلك الأسلوب الذي تلين له القلوب. ولكن الواقع أنها تفعل كل هذا. انظروا مثلاً في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٤].

ولنحاول فقه هذه الآيات:

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إشعار بأن ما أمرتم به ليس شيئاً جديداً. وإنما هو أمر قد جربه الناس من قبلكم واحتملوه. ولكن لأن هذه المشقة وسيلة لابد منها لنيل التقوى التي هي هدف كل مؤمن بالله تعالى. ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾. فأنتم لستم مطالبين بصيام الدهر كله ولا نصفه وإنما هو شهر واحد. إنها أيام معدودة وتنقضي، ومع هذا ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، ومن كان يتحمله ولكن بمشقة كبيرة فليفطر وليفد، والشهر المطلوب منكم صيامه ليس شهراً كسائر الشهور، إنه ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وفي بقية السياق مزيد من بيان الحكم والتعليل، ولكن لعل فيما ذكرنا كفاية لبيان ما نريد.

رابعاً: إننا إنما نعرف الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته. والذي يدلنا على أسمائه وصفاته هو مخلوقاته وآياته وآلاؤه. إذن فكلما عرفنا الصلة بين شيء بما أمر به أو نهى عنه وبين حكمته تعالى أو رحمته أو عدله أو فضله كلما ازدادت معرفتنا بالله تعالى وازداد إيماننا به وحبنا له، ولهذا فإن القرآن الكريم لا يقتصر على بيان الثواب والعقاب الأخرويين، بل يبين لنا آثار الإيمان ومنافعه في هذه الحياة الدنيا أيضاً، ويحذرنا من الكفر، ويبين لنا أضراره في هذه الحياة الدنيا. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

خامساً: ولو كان هذا الكلام صحيحاً. لما كان هناك مجال لسهم المؤلفة قلوبهم.

فإذا جاز أن تؤلف قلوب الناس بالمال حتى تنعطف إلى الايمان فلماذا لا تؤلف بالحديث عن المال أي عن هدى الإسلام في شئون الاقتصاد وهديه في السياسة.

سادساً: هذا النوع من التفكير أورث بعض الدعاة نوعاً من الجفاء والغلظة في مخاطبة الآخرين مع أن الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. إن هذه الآية توضح أنه لا يجدي مع الفظاظة منطق ولا بيان حق، ولا أي نوع من الإغراء، إنها وحدها كافية لفض الناس الخيرين عن الداعية مهما كانت رسالته، ومهما كانت حجته.

يقول الشيخ أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الوزير في كتابه: "إيثار الحق على الخلق" معلقاً على آية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]: «هذا كله في الحب الذي هو في القلب والمخالطة لأجل الدين». وذلك للمؤمنين المخلصين بالإجماع. وللمسلمين الموحدين إذا كان لأجل إسلامهم من أهل السنة - كما يأتي - وأما المخالطة والمنافعة وبذل المعروف وكظم الغيظ وحسن الخلق وإكرام الضيف ونحو ذلك فيستحب بذله لجميع الخلق إلا ما كان يقتضي مفسدة كالذلة فلا يبذل للعدو في حال الحرب كما أشارت إليه الآية: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة: ٨]. ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، فأمر بالبراءة من عملهم القبيح لا منهم. وهو يرى أن المسلم ليس منهيا عن أن يحب العاصي لخصلة خير فيه ولو كان كافراً. وعصيان المسلم لا ينفي حبه لله ورسوله **(ولا تعينوا الشيطان على أخيكم أما إنه يحب الله ورسوله؟)** [رواه البخاري]. والرسول ﷺ كان شديد الحرص على هداية قومه، كثير الحزن على إعراضهم - بكسر الهمزة - ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]. ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. كنت أمشي مع أحد الإخوة المسلمين السود في أمريكا. فطفق يعبر عن حرصه الشديد على هداية قومه ورغبته في إنقاذهم مما هم فيه. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان، إنها دمعة الرحمة وحب الخير للناس.

القاعدة الثانية: أخذ الإسلام كاملا ١٠٠٪ أو لا شيء:

ومنهم من ينادي أو يخير المسلمين بين أمرين.

إما أن يأخذوا الإسلام كله، وإما أن يدعوه كله، وهذا غلو حمل أصحابه على الضيق بكل بادرة للخير، وإساءة الظن بكل جزئية من جزئيات الحق والإصلاح. إنهم يريدون إلغاء كل عمل إسلامي ليؤسسوا عملاً إسلامياً كاملاً. إن النهج السليم أن نرحب بكل خطوة خير – ولو كانت من كافر – وأن نطالب كل فاعل خير بالمزيد حتى تدخل في شرائع الإسلام جميعاً، فلقد دعا رسول الله ﷺ إلى التوغل في الدين برفق:

والرفق هنا يعني:

١) تناول الدين برفق.

٢) التدرج في السعي نحو الكمال الممكن.

وأنه لمن المشادة الفكرية للدين أن يرفع شعار:

إما الإسلام كله.. وإما تركه كله. وإنه لمن المشادة العملية للدين: أن يحاول أقوام تطبيق هذا الشعار وجعله سلوكاً عملياً. وأنهم لمغلوبون إن هم فعلوا ذلك **(ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه)**. الطريقة الصحيحة هي: أن نعتبر أنفسنا بنائين نشيد صرح الإسلام لبنة لبنة، وأن نعد كل عمل إسلامي: إضافة لبنة لهذا البناء. لئن أريد بشعار أو فكرة **(خذوا الإسلام كله أو دعوه كله)** الإيمان الكامل بكل ما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة فهذا حق. لأننا مكلفون بالإيمان بالكتاب كله. ولعل الخلط بين هذه القضية وبين تطبيق الإسلام – وفق الاستطاعة – وهو الغلو والفهم الخاطئ.

القاعدة الثالثة: الحذر من كيد الأعداء:

هذه قاعدة سليمة اكتنفها الغلو في الفهم والتطبيق.

فالحذر – كيقظة نفسية وعقلية وسياسية – مطلوب في الحرب والسلم. ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]. ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

لكن الاسترسال الوهمي مع الحذر: غلو يحقق أهداف الأعداء من حيث أراد أصحابه أن يحبطوا كيد الأعداء، فالغلو في الحذر يحوله إلى مخاوف تقوض العزيمة. وتربك كل عمل. وتشيع التطير والجزع في صفوف الإسلاميين، وهذه غاية يسعى إليها المناوئون للإسلام.

ومن أمثلة هذا الغلو في فهم وتطبيق هذ القاعدة.

- ❖ كيد الأعداء هو سبب تخلفنا وسبب كل شر أصابنا في ديننا ودنيانا.
- ❖ الشعب طيب خير.
- ❖ الحكومات وحدها هي التي تعيق تقدم الإسلام والمسلمين.
- ❖ والحكومات فريسة للاستعمار والشيوعية.
- ❖ والشيوعية والاستعمار فرائس للصهيونية العالمية.

هذه الوسوسة المعقدة - الناتجة عن غلو في فهم الحذر - أصبحت كالعقيدة المفروغ من صحتها وجدواها. ونستطيع القول : بأن هذا التصور يتناقض مع منهج القرآن في تحليل أسباب الضعف والهزيمة والمصائب. فالقرآن الكريم يرد الكوارث والمصائب التي تحيق بالإنسان إلى أسباب داخلية. نابعة من نفسه ومن انحرافه ومن اخلاله بشروط الاستقامة ومن تجاهله لسنن الله تعالى في المجتمع البشري: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]. ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

نعم هناك أسباب خارجية. وهي أسباب حقيقية ولكنها ثانوية. وهذه الأسباب لن تضرنا شيئا إذا صحت الاستقامة على دين الله، وصح فقهنا للدين، وصح تطبيقنا له،

وصح عزمنا على التفتيش عن أسباب ضعفنا داخل أنفسنا أولاً. ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]. ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]. ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]. ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فإذا فقهنا هذا فقد ترتب على هذا الفقه:

١) أن نصارح الشعوب بأنها هي سبب الهزائم والتخلف.

٢) وأن نكثف العمل في إصلاح الشعوب ذاتها.

٣) أن نسعى لإصلاح الحكم باعتباره صورة من المجتمع أو جزء من واقع الشعوب.

٤) لا نكتفي بمجرد إلقاء الاتهام، بل نبذل جهداً حقيقياً في التحقيق والتثبت. وجهداً إيجابياً في تغيير الواقع.

٥) أن نستفيد من تضارب مصالح الخصوم متخلين عن النظر إليهم باعتبارهم شيئاً واحداً ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

٦) أن نحرر القلب الإسلامي من ضغوط الوساوس والتطير والاستسلام لفكرة القوى الخفية التي تدير العالم.

فهي ضغوط أصابت الكثيرين بالشلل أو التردد والارتباك.

* * *

قواعد أصولية..
واقتراحات عملية للتعاون بين العاملين للإسلام

ورقة مقدمة من الدكتور جعفر شيخ إدريس لمؤتمر العمل الإسلامي بين الاتفاق والافتراق في قاعة الصداقة في الخرطوم _السودان في الفترة ٢٣- ٢٦جمادى الأولى ١٤٢٥الموافق ١٠-١٣يوليو٢٠٠٤م ونشرتها جامعة الخرطوم .

اجتماع المسلمين وتعاونهم فيما بينهم، بل وتعاونهم مع غيرهم على كل ما من شأنه أن يُعلي كلمة الله ويعز دينه، مقصدٌ عظيم من مقاصد الشريعة الذي تقتضيه وتدعو إليه أصولها، والعمل على تحقيق هذا المقصد بالأخذ بالوسائل العلمية والعملية التي بينتها الشريعة أو التي قد تقتضيها نوازل مكانية أو زمانية هو مما لا يتحقق ذلك المقصد إلا به. وفيما يلي من هذه الورقة شيء من تفصيل لهذه الجملة الموجزة.

أسباب الاتفاق والتعاون:

هنالك أسباب ثلاثة بقدر توفرها في الناس وقوتها يكون الاتفاق والتعاون بينهم، وبقدر ضعفها يكون الاختلاف والتنافر والتدابر.

السبب الأول: هو ائتلاف القلوب، لأن ائتلافها يجعل من الأفراد إخوة يحب بعضهم بعضاً، ويثق به ويتجاوز عن سيئاته، فكلما كانت هذه الرابطة القلبية أقوى كان الاتفاق والتعاون أكثر، وكلما كانت أضعف حلّت مشاعر العداوة بين الأفراد، وفقدوا الثقة في بعضهم فصعب عليهم أن يتعاونوا.

ولما كان منهج الإسلام في الإصلاح يبدأ دائماً بإصلاح القلوب، كانت الألفة بينها هي أول ثمرة من ثمار الإيمان المباركة، قال تعالى ممتناً على رسوله وعلى المؤمنين: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]. وقال سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. هذه الأخوة الإيمانية هي الأساس القوي المتين الذي تقوم عليه الرابطة بين المسلمين، لكن المسلمين بشر لا يكونون دائماً على حال من الإيمان الذي

ترتكز عليه هذه الأخوة، بل قد يضعف إيمانهم، وقد يعملون لذلك أعمالا تتناقض مع الأخوة، لكن هذه الأعمال مهما كانت مستنكرة فإنها لا تقوى على إزالة أساس الإيمان ما دامت في دائرة المعاصي التي لا تُخرج صاحبها من الملة، فلا تقوى لذلك على إزالة رابطة الأخوة ومحوها من الصدور، تعليقاً على قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

قال في تفسير الجلالين: «وفي ذكر أخيه تعطُّفٌ داعٍ إلى العفو، وإيذانٌ بأن القتل لا يقطع أخوة الإيمان، وكما أن المؤمنين قد يتصرفون تصرفات تتنافى مع ما تقتضيه أخوة الإيمان من تعاون، فإن أصحاب القلوب المتنافرة قد يتعاونون على فعل الشر، فاجتماعهم ليس اجتماع قلوب، وإنما هو اجتماع أجساد». ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

السبب الثاني: هو العلم بتفاصيل الأعمال الصالحة، التي هي تعبير عن تلك الأخوة ودعم لها، فكلما كان علم الأفراد واسعاً، وكان الالتزام بمقتضياته شديداً؛ كانت رابطة الأخوة بينهم أقوى، ودائرة التعاون أوسع، وذلك أن الله العليم بقلوب عباده يأمرهم بكل ما يقوي رابطة الأخوة بينهم، وينهاهم عن كل ما يضعف تلك الرابطة فيحل الاختلاف والعداوة والبغضاء محلها، وفي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم نصوص كثيرة تعلل فيها الأوامر بأن المأمور به مما يقوي رابطة الأخوة، وأن المنهي عنه مما يتنافى معها: من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]. وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ

ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٠-١٣]. وكلما قلَّ العلم، وكثر بسببه الإنكار لبعض حقائق الدين؛ كان الاختلاف، بل كانت العداوة والبغضاء بين المختلفين. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤]. انظر كيف جعلت الآية العداوة والبغضاء نتيجة لنسيانهم - يعني تركهم أو إنكارهم - لما شرعه الله وذكَّرهم به. لا يقولن أحد إن هذه الآية وأمثالها إنما نزلت في الكفار فلا تطبقوها علينا نحن المسلمين، لا يقولن هذا؛ لأن المسلم قد يتصف ببعض خصال الكفار وإن لم يكن كافراً، وبقدر اتصافه بها تحدث له النتائج التي رتبها الله عليها؛ وذلك لأن كل المعاصي لا تكون أبداً من آثار الإيمان، وإنما هي من نتائج البعد عنه: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)**. كذلك كلما كثر ارتكاب الأفراد لما نهاهم الله عنه من الآثام كثر بينهم الخلاف والتباغض.

السبب الثالث: هو التنظيم الاجتماعي الذي تقتضيه تلك الأخوة الإيمانية. والمقصود بالتنظيم الاجتماعي ما يتعلق بالمسلمين باعتبارهم جماعة، فمما جاءت به الشريعة في هذا:

أولاً: أن المسلمين جماعة وليسوا مجرد أفراد، ولكي يكونوا جماعة فلا بد لهم من قيادة ينتظم بها شملهم وتتوحد بها كلمتهم، وهي القيادة المتمثلة في العلماء والأمراء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

[النساء: ٥٩]. وقال ﷺ فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : **(من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية)**. ولتأكيد أهمية الجماعة وكونها لا تتأتى إلا بوجود إمامة جاءت الأحاديث الكثيرة التي تأمر بالنصح لهم، والسمع والطاعة ما لم يأمروا بمعصية، بل حثت على الصبر على جورهم، وعدم الخروج عليهم بالسيف ما داموا مقيمين للصلاة.

مبادئ تساعد على التعاون :

١) أن الاجتماع أصل من أصول الدين؛ فلا يهدم بحجة الاستمساك بأمر هو من جزئياته، وقد كان ابن مسعود مراعياً لهذا المبدأ لما صلى وراء أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه لمَّا أتم الصلاة في منى مع أن السنة هي قصرها، وعلل متابعته له بقول: (الخلاف شر). سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن رجل أفتى بأنه «لا تجوز الصلاة خلف أئمة المالكية، ومن صلى خلف إمام مالكي المذهب لم تصح صلاته، ويلزمه إعادة ما صلى خلف الإمام المالكي».

فأجاب: «الحمد لله وحده، إطلاق هذا الكلام من أنكر المنكرات وأشنع المقالات؛ يستحق مطلقه التعزير البليغ... ويدخل صاحبه في أهل البدع المضلة، فإن مذهب الإمام الأعظم مالك بن أنس إمام دار الهجرة ودار السنة، المدينة النبوية التي سُنَّت فيها السنن وشرعت فيها الشريعة، وخرج منها العلم والإيمان، هو من أعظم المذاهب قدراً وأجلها مرتبة...... وكان لمالك بن أنس رضي الله عنه من جلالة القدر عند جميع الأمة: أمرائها، وعلمائها، ومشايخها، وملوكها، وعامتها، من القدر ما لم يكن لغيره من نظرائه، ولم يكن في وقته أجلُّ عند الأمة منه.... وكيف يستجيز مسلم أن يطلق مثل هذه العبارة الخبيثة، وقد اتفق سلف الأمة من الصحابة والتابعين على صلاة بعضهم خلف بعض مع تنازعهم في بعض فروع الفقه، وفي بعض واجبات الصلاة ومبطلاتها».

٢) ارتكاب أخف الضررين، هذا مبدأ عقلي يلتزم به معظم الناس في حياتهم الخاصة، فما من عاقل يخير مثلاً بين أن يقتله اللصوص أو يأخذوا ماله إلا فضل الضرر الثاني على الأول، لكن بعض الناس ينساه في مجال الحياة العامة، وذلك أنهم

يظنون خطأ أنه لا مجال في الدين لقبول أنصاف الحلول، فإما الحق كله أو تركه كله، فيخلطون بين منطق العقيدة الذي لا يقبل مساومة ومنطق العمل الذي لا بد فيه من النقص والتقصير. منذ أعوام مضت شاعت بين بعض الشباب عبارة تنسب للأستاذ "سيد قطب" - عليه رحمة الله - يقول فيها: «خذوا الإسلام جملة أو دعوه»، فصاروا يرون أن لا فرق بين دولة تطبق شيئاً من الإسلام ودولة تتركه كله، بل صار بعضهم يعتقد أن الثانية خير من الأولى؛ لأن موقفها صريح لا نفاق فيه، هذا مع أن العبارة لو أُخذت بحرفيتها صار كل مسلم، ما عدا الرسول ﷺ، مقصراً؛ لأنه ما من أحد بعده صلى ﷺ يمكن أن يأخذ الإسلام كله فيفعل كل الواجبات والمندوبات ويترك كل المحرمات والمكروهات، أما في مجال الاعتقاد فنعم لا يكون الإنسان مسلماً إذا هو أنكر شيئاً من الدين يَعلم أنه منه مهما كان ذلك الشيء كبيراً أو صغيراً، ولكن حتى في مجال الاعتقاد فإن الذي يكفر ببعض الدين أقل شراً من الذي يكفر به كله، والذي يكفر به كله أقل شراً من الذي يكفر به ويصد عنه، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

ومن هنا جعل الدين لأهل الكتاب مكانة أخص من التي جعلها لسائر الكفار، ثم إن هذه العبارة ليست دقيقة لأنها تأمر من لا يأخذ بالإسلام كله أن يترك حتى الجزء الذي أخذ به، مع أن النصح لأمثال هؤلاء أن يأخذوا بما تركوه لا أن يتركوا ما أخذوا به. ولذلك قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]: «وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم، لكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، على أصح قولي العلماء من السلف والخلف. والعقاب الذي توعد الله به الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض في الآية التالية، إنما هو عقاب لهم على ما كفروا به لا على ما آمنوا به:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥]».

٣) التعاون مع كل من يريد تحقيق أمر هو خير بمقياس الدين، بغض النظر عن كونه مسلماً أو غير مسلم، براً أو فاجراً، منافقاً أم صادقاً، حاكماً أو محكوماً. وقد عبر عن هذا المبدأ الإمام ابن القيم بما لا مزيد عليه، قال رحمه الله في بيانه للفوائد الفقهية المستفادة من صلح الحديبية، في كتابه العظيم زاد المعاد: "ومنها أن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرم الله تعالى أجيبوا إليه وأعطوه وإن منعوا غيره، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى لا على كفرهم وبغيهم ويمنعون مم سوى ذلك، فكل من التمس على محبوب لله تعالى مرض له أجيب إلى ذلك كائناً من كان، ما لم يترتب على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه، وهذا من أدق المواضع وأصعبها، وأشقها على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق.

٤) أن يبني الموقف من الحكومات المسلمة على النصح، الذي يقصد إلى الإصلاح، ويعين عليه، وينهى عن الفساد ولا يشارك فيه، لا المعارضة الجاهلية التي لا غاية لها إلا إسقاط الحكومة بالتركيز على عيوبها والمشاركة في كل ما من شأنه أن يؤدي إلي ذلك السقوط.

٥) أن لا تكون الأهواء والمصالح الشخصية أو الحزبية أو التعصب للرأي هي القاعدة التي تبنى عليها الموافقة والمخالفة، بل إن المسلم يسمع ويطيع وإن أصابه ظلم في شخصه؛ لأنه يعلم أن طاعته ليست عبودية لفلان أو فلان من الحكام والرؤساء، وإنما هي طاعة لله تتحقق بها وحدة المسلمين وجماعتهم.

٦) الوعي بالمخططات والسياسات التي يدبرها الأعداء في الداخل والخارج، وما أكثرها في زماننا هذا! إن من يرى عظم الشر الذي سيصيب المسلمين جراء هذه المخططات يهون عليه كل خلاف بينه وبين إخوانه المسلمين، ويدرك ضرورة تعاونه معهم لدرء تلك الشرور.

* * *

بعض المسائل العلمية التصورية المتعلقة بقضية الكراهية وصدام الحضارات

وهي ورقة عمل قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس لندوة العالم وثقافية الكراهية حول التعصب والهيمنة وصراع الثقافات، والذي شارك فيها مع الدكتور جعفر كل من الدكتور علي النملة والدكتور محمد الجوز ضمن ندوات المهرجان الثاني والعشرين للمهرجان الوطني للتراث والثقافة بالحرس الوطني بالمملكة العربية السعودية عام ١٤٢٩الموافق ٢٠٠٨م.

بسم الله الرحمن الرحيم، إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا، ثم أما بعد:

سأقصر حديثي على بعض المسائل العلمية التصورية المتعلقة بقضية الكراهية وصدام الحضارات، فأقول:

أولاً: الكراهية ليست شيئا مذموما في نفسه كما يشيع الآن في بعض الأحاديث والكتابات الغربية، فكأن المطلوب من كل إنسان أن يكون محبًا لا يكره شيئًا، وهذه حماقة؛ لأن الكراهية من مقتضيات الحب؛ أعني إذا كنت تحب فلابد لك أن تكره؛ إنك لا تستطيع أن تحب الشيء وضده أو نقيضه.

ولذلك فإن الذين يذمون الكراهية ذمًا مطلقًا يقعون فيما يذمون، فبعض زعمائهم يقول عما يسمى بالقيم الغربية إنها قيم حب وتسامح؛ لأنها لا تدعو إلى كراهية الشاذين مثلاً، ولا ضد الصهيونيين، ويقول لذلك على من كان يريد أن يعيش بيننا أن يقبل قيمنا وإلا فليترك بلادنا، ولكن هذا معناه أننا لا نحب أو أننا نكره من يكره الشاذين أو يتعصب ضد الصهونيين.

فمشكلتهم مع الناس إذن ليست في كون الناس يكرهون وهم لا يكرهون، وإنما هي في كونهم يريدون لكل الناس أن يحبوا ما يحبون ويكرهوا ما يكرهون، ولو كان مايحبون غزوًا لبلادهم وقتلاً لمواطنيهم وإهانة وتعذيبا لهم، وتخريباً لاقتصادهم ونهبًا لخيراتهم. فهم الآن يتساءلون في مئات المقالات وكثير من الكتب: لماذا يكرهوننا؟ كأن كل مايقومون به من اعتداء ليس مسوغًا لمشاعر الكراهية ضدهم.

وكثير منهم يعزو هذه الكراهية إلى كل شيء إلا سببها الحقيقي، فهذا زعيم كبير يشير إلى من أمامه من أعضاء مجلسه التشريعي قائلاً إنهم يكرهون هذا، أي

إن كراهيتهم وسبب اعتدائهم علينا هو بغضهم للحرية التي تستمتع بها شعوبنا، وللديمقراطية التي ننتخب بها حكامنا.

لكن كثيرًا من عقلائهم يتساءلون متشككين: وهل يقتل الإنسان نفسه كراهية أن ينتخب شعب حكامه.

ثانياً: يتبين من هذا أن المشكلة ليست في مطلق الحب والكراهية وإنما هي فيما يحب وما يكره. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. هذا هو المذموم، أما كراهية ما يستحق أن يكره فليست بالشيء المذموم بل هي كحب ما يستحق أن يحب. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات ٧-٨].

ثالثاً: قد تكون لسبب طبيعي مقبول، لكنها ينبغي إلا تؤدي إلي عدم العدل مع من يكره. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ "[المائدة: ٢]. فالعادل لا يقتل كل من يكره. لكنهم يقتلون من يقولون إنهم يحبون، وأنت تفضل من يقول لك إنني أكرهك لكنني لن أقتلك بسبب كراهيتي لك، على ما يقول لك إنني أحبك لكنني سأقتلك «كانوا يقولون من الحب ما قتل، وكانوا يعنون أنه يقتل المحب، لكن حب هؤلاء يقتل المحبوب».

رابعاً: هذا يقودنا إلى المسألة الرابعة وهي التفرقة في المعاملة بين المعتقَد والمعتقد. فكل ما خالف الحق الذي جاء به الوحي أو قامت عليه أدلة عقلية أو حسية فهو باطل. فالحقيقة ليست نسبية، بل الحق واحد. وكل ما خالفة فهو باطل.

- أما من يعتقد الباطل فإننا مأمورون أن ندعوه إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن نجادله بالتي هي أحسن، وإلا نكرهه على التسليم بما نقول، وأن نبرّه ونقسط إليه ما دام لا يحاربنا.

خامسًا: هذا يقودنا إلى قضية الصدام بين الحضارات، إذا كان المقصود بالصدام، الصدام الثقافي، أعني صدام المعتقدات والقيم فهذا أمر لا مفر منه إذا كانت هذه المعتقدات متناقضة.

- وأما إذا كان المقصود أن تناقضها والخلاف بين أهلها يؤدي حتمًا إلى صدام مسلح بينهم أو يحول دون تعاونهم فهذا ليس بصحيح.

تعليق الدكتور جعفر:

أنا قلت في كلمتي وأكرر الآن لابد من كراهية، لكن نقول للناس ماذا يحبون وماذا يكرهون؟ ربنا سبحانه ذكر من أسباب الكراهية ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: ١٤]، إذا كان الناس اختلفوا كما نختلف الآن سنة وشيعة. نسوا حظا مما ذكروا به، هذا يعتقد أن هذا هو الدين وهذا يعتقد أن هذا هو الدين النتيجة الطبيعية لهذا هي البغضاء والكراهية ولكن ليست المشكلة في وجود الكراهية ولكن في أن نبحث عن السبل التي تجعلنا نعيش رغم هذا الاختلاف الذي يدعوا إلى الكراهية يعني لا يمكن أن تزيل الكراهية من قلوب البشر في العالم كله ولكن يمكن أن تقنعهم بأنه بالرغم من هذه الكراهية، وبالرغم من هذا الاختلاف يمكن أن يعيشوا، وخصوصا في هذا العصر أنا قلت في كلمة في الولايات المتحدة لا يوجد إنسان عاقل في العالم يقول ينبغي أن نلجأ إلى الحرب، الحرب لن تحل الاشكال، صار ما يسمى بالتعايش السلمي، مسألة حتمية أمريكا تقول أن عندها من الأسئلة ما يدمر الكرة الأرضية ٧مرات، وإذا كان عندنا ما يدمرها ١٤ مرة، فلا ينبغي أن نلجأ إلى الحرب، وإذا كانوا هم عقلاء فلا ينبغي أن يلجأوا، فالتعايش السلمي بالنسبة لواقعنا في هذا العالم صار ضرورة ومسألة حتمية وهذا الذي ينبغي أن ندعو إليه في رأيي، وأنا أخشى من الكلام الكثير ضد الكراهية أن يرتبط هذا كما هو مرتبط عند بعض المفكرين الغربيين، يريدون أن يقولوا ليس هناك ما فيه حقيقة، ولا سيما في الدين أنت غاضب لماذا ؟ وتكره لماذا؟ هذه يا أخي وجهة نظر، الحقيقة نسبية كما قال كلينتون، وحتى انتقده بعض النصارى فبعضهم يرى خطأ أنه لا يكون أن يكون هناك تسامح إلا إذا اعتقدنا أن الحقيقة نسبية، فأنت ترى هذا، وأنا أرى هذه، ولا توجد مشكلة، ونعيش في وطن واحد، ولكن هذا غير صحيح.

***

الانعكاسات الثقافية على المشرق العربي بعد أحداث سبتمبر وما تلاها

وهي ورقة مقدمة لندوة مستقبل المشرق العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها بعنوان الانعكاسات الثقافية على المشرق العربي بعد أحداث ١١ سبتمبر وما تلاها وشارك مع الدكتور جعفر الدكتور سامي الدلال، والتي عقدت في الدوحة (قطر) من ٢٠-٢٢ يناير ٢٠٠٣م..

بسم الله والصلاة والسلام على رسول إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له وليا مرشداً، ثم أما بعد.

إن علاقة الثقافة بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وثيقة، وإذا كانت أهداف الغرب وأمريكا خاصة قد تتمثل في البترول العراقي أو حماية إسرائيل أو محاربة الإرهاب من أجل تمديد هيمنة الحضارة الغربية على البلاد الإسلامية فإن العقبة الكؤود التي تقف في وجه تحقيق كل هذه الأطماع هي ما يمكن تسميته بالثقافة، ذلك لأن جوهر كل ثقافة كامن في دينها – كما قال بذلك هنتجتون وأنا أوافقه على ذلك – ورغم أن درجة التمسك بالدين يظل أمراً متبايناً وملاحظاً من منطقة إسلامية إلى أخرى، وبين مكونات المجتمع القطري ذاته، إلا أن الدين يظل العنصر الأساسي لجوهر ثقافة الأمة الإسلامية بلا منازع، والمستمر في تشكيل الحاجز الذي يحول دون تحقيق أهداف الغرب.

إن أي أمة إذا ما تعرضت إلى عملية استفراغ مستمر لثقافتها سوف تنتهي تدريجياً بفقدان هويتها الثقافية وشخصيتها الحضارية، فالأمة إنما هي بمعتقداتها وقيمها وتصوراتها، وما يبنى على هذه التصورات من علاقات اجتماعية وسياسية واقتصادية، وبهذا تعمل الثقافة على تحديد هوية الأمة.

إن الأهداف الأمريكية المعلنة بعد أحداث ١١ سبتمبر، وقد تبدت مؤخراً بشكل جلي في وعي كثير من الشعوب الإسلامية وغيرها من الأمم، بل حتى في أوروبا ذاتها، هي في حقيقتها أهداف قديمة، فلقد تخصصت الحضارة الغربية في قتل الحضارات الأخرى وأبدت تاريخياً مزاجاً معادياً في عدم القدرة على التعايش معها.

وللحضارة الغربية ثارات كثيرة مع العالم الإسلامي تكاد تكون دورية، ففي تاريخها المعاصر أعلنت له هدنة نسبية مؤقتة فترة الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي، دون أن تستطيع مجاوزة الانزعاج الذي خلفته عدم قدرة الإيديولوجية الشيوعية على احتواء الشعوب الإسلامية رغم استطاعتها اعتلاء عرش الحكم في بعض البلاد العربية لفترة من الزمن ليست بالوجيزة.

وقد جاء هذا الصمود والصد نتيجة لتمسك هذه الأمة في غالبيتها بدينها، وما فيه من معتقدات وتصورات وخلق، وقد ينبع خوف الغرب من المسلمين من ثقته ودرايته بالعمق الديني لهذه الأمة المتأصل في الوحي الرباني، والذي مكنها من ردع الإيديولوجية الماركسية، وقادر مستقبلاً في تهديد المنابع الفكرية الغربية ذاتها، ناهيك عن الحافظ على مقومات الشخصية الحضارية الإسلامية المستقلة، ولذلك بعد أن انتهت الشيوعية بدأ الكلام عن الإسلام وعن الخطر الذي يواجه الحضارة الغربية.

والسؤال المطروح الآن هو ما الذي يريده الغرب ممثلاً في أمريكا؟

الذي يريده منا هو أن يؤول الإسلام إلى ما آلت إليه اليهودية والنصرانية، هذا يعني أن يكون ديناً مشذباً يقص، بحيث يصبح ملائماً مع القالب العلماني، ويكون بذلك ديناً لا علاقة له بالسياسة، لا علاقة له بالمؤسسات والعلاقات الاجتماعية، ديناً مسكيناً فردياً، لا يتدخل كما أنه لا يؤثر في حياة الشعوب الإسلامية؛ وهذا ما يسميه كثير من الساسة الغربيين الآن بالإسلام المعتدل. وفعلاً فإذا أصبح الإسلام بهذا الفهم فهو مقبول؛ بل حتى الرسول صلى الله عليه وسلم لو عرض مثل هذا الإسلام لما بُعث على العرب، لما اعترضوا عليه.

لكن مشكلة الغرب وأمريكا هي: كيف تتحقق أهدافها؟

تقول أمريكا إن من أسباب غضب الناس عليها في العالم العربي هي الحكومات الاستبدادية، ولذلك ترى أن من واجبها أن تمكن الديمقراطية في العالم العربي!!، الشيء الذي يضعها بهذا الادعاء في ورطة: كونها إذا أرادت أن تحقق هذا الهدف، فلا بد أن تتدخل في برامج التعليم وتكيفها كما تشاء، ولا بد أن تتدخل في نشاط الجماعات الإسلامية وفي صياغة البرامج الإعلامية.... الخ، لكن هذه الإجراءات تتعارض بطبيعتها مع جوهر الديمقراطية، وتضع الولايات المتحدة الأمريكية أمام

معادلة صعبة، فإذا أرادت الديمقراطية للعالم الإسلامي صعب عليها محاربة الإسلام، وإن أرادت الديكتاتورية حصل منها ما تشكو منه الآن، فهي مشكلة قد امتدت إلى داخل الغرب نفسه لأن الغرب لكي يحارب الإسلام حتى في داخله، لا بد أن يتخلى عن كثير من أهم ما يفتخر به، وهو الحريات، فأمريكا بعد هجمة واشنطن أصبحت تحارب المسلمين في الخفاء، وهي محاربة غير قانونية، لكن هذا لن يستمر طويلاً لان الناس خصوصاً إذا كانوا من الأمريكيين أو من أبنا المسلمين الذين ولدوا بأمريكا وشعروا بحقوقهم مثل باقي الأمريكيين، فلن يرضوا بهذه الانتهاكات التي تطال حقوقهم المشروعة، وإذا كثر التدخل أو سُنت قوانين تبيح هذا التدخل في المساجد الجامعات والجماعات، جاء هذا التصرف على حساب الحرية.

ولقد كَتبتُ كتابات كثيرة في الغرب بعد ١١ سبتمبر، تطرقت فيها للعلاقة بين الأمن والحرية؛ وأظهرت أنه دائماً ما تلجأ الحكومات إلى مسألة الأمن لأن تنازل الناس في وعي السلطة السياسية مرتبط بتخويفهم. ولذلك من الله تعالى على الناس قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤]، وهذان أمران مبتغى كل مجتمع، بل أحياناً يمكن التخلي والتنازل عن الطعام من أجل توفير الأمن. لذا فاستمرار الغرب وخاصة أمريكا في انتهاك حريات المسلمين، ومن الذي يتعاطفون معهم، سوف يضعف روحه المعنوية، ولاسيما في أمريكا، لأن الشعوب الغربية لا تعتز فقط بقوتها العسكرية فحسب، ولكن بما تدعي امتلاكه من أخلاق القوة تمنحها قيادة البشرية وتصدير النموذج الليبرالي والديمقراطية لكل العالم بما في ذلك العالم الإسلامي. لذلك تجد أن الساسة في الغرب لا يخاطبون الشعب فقط بأنا دولة قوية، بل يصرحون بأن هدفهم إنساني محض تمثل في رفع علم الحرية وتحرير العراق من الديكتاتورية التي عثت في الأرض فساداً، فإذا كانت محاربة الإسلام ستحدث خللاً في هذه الادعاء، وتجعل روح الناس المعنوية تتردى، وتنتقص من اعتزازهم بحضارتهم. فإذا حدث هذا فإن القوة السياسية ستخسر الكثير من المكاسب ومن ثم حربها ضد الإسلام ويظهر للشعوب زيف الشعارات المعلنة من طرف الحكومات. كثير من الناس في الغرب خانوا بلادهم لمجرد أنهم اقتنعوا بأن الرأسمالية ليست في صالح الإنسانية وأن إنقاذ الناس من شرورها يكمن في الاشتراكية ولذلك قاموا بمحاربتها من الداخل وكانوا جواسيساً للاتحاد السوفيتي.

ثم أن محاولات الغرب في القضاء على مقومات الحضارة الإسلامية والوجود الإسلامي تظل في نهاية الأمر عملية يائسة، لأن هذا الدين الذي يشكل المرجعية العقدية والفكرية الوحيدة لهذه الأمة هو كلام الله تعالى، إنه الدين الحق، وإن الله سبحانه وتعالى وعد بحفظ دينه حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولم يقل سبحانه وتعالى في معرض الآية [نزلنا الكتاب]، وإنما خص كلامه بلفظ الذكر، لأن الذكر معناه أن هذه المحفوظ ليس مجرد كلام في ورق – وهذا ما يؤده حديث رسول الله ﷺ بقوله: **(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون).**

ونحن قد رأينا مصداق ذلك في أحلك الظروف في الاتحاد السوفيتي المنحل، حيث حافظ كثير من الناس على دينهم، فعلموا أبنائهم الدين في الكهوف تحت البيوت في الأقبية، بحيث يأتي الأب بابنه إلى الشيخ ويتركه معه، دون أن يخرج من البيت حتى لا تعرفه الدولة. كذلك هو حال بعض إخواننا في الصين، وجدتهم يتكلمون اللغة العربية التي توارثوها أباً عن جد، ويقرأون في تفسير الجلالين، ولقد حافظوا على دينهم في أحلك الظروف في فترة ما يسمى بالثورة الثقافية.

فهذا الدين محفوظ ومحاولة استئصاله محاولة يائسة وهنالك أدلة عديدة من خارج المنطق الديني التي تدل على أن الإسلام سيكون بإذن الله تعالى دين البشرية، فمثلاً لم تكن دعوة المسلمين للغربيين سبباً في إضعاف تمسكهم بدينهم، وإنما دراستهم في الدين، حتى قال لي أحد الشباب الأمريكيين ممن هداهم الله تعالى: «أخبرنا أستاذ الديانات المقارنة أنه لا وجود لدين ثابت تاريخياً خارج الإسلام». ومن يقرأ عن سيدنا عيسى عليه السلام كما يبشر به النصارى يشك في وجوده، ولولا أن الإنسان مؤمن به عن طريق الإسلام لشك في وجوده، ناهيك عن الشك في الأناجيل وفي ترجماتها والتناقض الذي فيها النابع من دراسات الغربيين أنفسهم.

الإسلام له مزايا بالنسبة لعصرنا بعد أن صار تفكير الناس عقلانياً وعلمياً، حيث لا يسلم بالتناقضات أو الأحاديث المخالفة للحقائق العلمية؛ فالدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لا تناقض في داخله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً

كثيراً ، وهو الدين الذي لا تناقض بينه وبين الحقائق الواقعية فهو الدين الذي يمكن أن يقبل في هذا العصر.

انتقل الآن إلى الحديث عن مفهوم الثقافة – شيء كنت أود أن يكون هو بداية الحديث، لكن رغبت في الكلام في بعض المسائل العملية – فإذا كان متعارفاً أن الثقافة هي مجموع ما عند أمة من الأمم من العقائد والقيم وما يبنى على هذه العقائد من علاقات اجتماعية وسياسية واقتصادية... فأنا في رأيي يمكن أن نقسم الثقافة إلى ثلاثة أنواع:

١) ثقافة أسميها بالثقافة الإنسانية: وهذه لا يقول بها الغربيون، ولا يؤمنون بوجودها. وأعني بالثقافة الإنسانية تلك التي هي ضرورية لكل إنسان، بما هو إنسان، وبغض النظر عن لونه وجنسه ومكانه وزمانه، هي الثقافة التي تقتضيها فطرة الإنسان وجوهره.

٢) الثقافة العصرية: أي الأفكار التي تنتشر في عصر من العصور، وهذه نوعان: نوع هو مجرد أهواء الناس ينتشر في العالم، لكن لا أهمية له، ولو لم يأخذ به الناس ما ضرهم بشيء، مثلاً مطاعم (ماكدونالد McDonald) [تعبر عن حالة عالمية الآن، وكذلك إذا ذهبت إلى أي بلد من البلاد فالمنتج الثقافي الأمريكي يقولون هو المنتج الثاني، فهل هذه عصرية لأن الناس محتاجون إليها !!! الثقافة العصرية التي يحتاج إليها الناس هي الثقافة التي إذا لم تأخذ بها أمة من الأمم في العصر الذي تعيش فيه كان أمة متخلفة وضعيفة، وهذه الثقافة في عصرنا هي الثقافة العلمية، وهذا من أسباب تخلفنا ، لا يمكن لأي أمة من الأمم أن تنهض وأن تكون أمة قوية إلا إذا استوطن العلم الطبيعي في بلدها – وهذا بالمناسبة ما نجح فيه العراق -. ولكي يستوطن العلم يجب أن يكون باللغة العربية وأنه يرتبط بتاريخ الأمة ، وأن يعالج من ثم مشكلات الأمة ، ليعقب هذه المرحلة ظهور علماء كبار يكتشفون، ثم يبنى على هذا العلم تقنية ، ولا بد أن يستفيد الناس مما في العالم ولكن لا بد أن يستوطن العلم في البلاد.

٣) الثقافة المحلية: كيف يلبس الناس الملابس وماذا يأكلون.. لكن أحياناً يكون تغيير هذه الثقافة المحلية دليلاً على الضعف؛ لا بأس إذا كان الإنسان يتأثر بالثقافات الأخرى في ملبسهم، لكن إذا بدأ يقول إن الملابس اللائقة بالعصر هي البذلة

والكرافتة، وأنه إذا لم يلبس هذا لا يكون إنساناً محترماً، هنا يأتي الضعف. لكن حتى من الناحية الإسلامية فلا ضير أن يلبس الإنسان هذا أو هذا.

الثقافة الإنسانية هي الإسلام، ولذلك العالم محتاج إلى المسلمين، الثقافة الإنسانية هي الثقافة التي تمثل جوهر الإنسان، وجوهر الإنسان هو أن يكون عبداً لله سبحانه وتعالى، ثم أنه يدور حول هذا الدور كل ما في الإنسان من خير وشر، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧-٨]، والرسول الكريم ﷺ قال: **(كل مولود يولد على الفطرة)**. والدين قال الله تعالى عنه: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فأصل الدين في فطرة الإنسان، وقد جاء ليؤكد الفطرة ويعطينا التفاصيل التي هي لازمة لتلك الفطرة، ثم يدور حول هذه الفطرة كل ما في الإنسان، من خير. مثلاً الخلق الكريم والذوق الجميل، فالمبادئ الفكرية غير متناقضة، فبإمكان الناس فقدان الجوهر ولكنهم يحتفظون بكثير من هذا الذي يدور حول الجوهر، وهذا الذي يجعلهم يقبلون الإسلام ويعودون إلى الجوهر، لأن الإنسان لو لم يكن فيه خير - وهذا الكلام أكرره لكثير من الناس، أي لا تظنون أن الذي ليس مسلماً فليس فيه خير أبداً - لأنه لو لم يكن فيه خيرا لما رأى هذا الخير، وإذا لم يكن عندهم شيء من النور لا يمكن أن يرى الإسلام حق.

فهذه هي حضارتنا، وبدون تفصيل فالحضارة الغربية منذ القرن الثامن عشر الحضارة الغربية قررت أن تولي ظهرها للدين، وقرأت قريباً في أحد الكتب أن المقصود بعصور الظلام هي الفترات التي سيطر فيها الدين، وغطى على الفكر اليوناني، فهم قرروا في ذلك الوقت بعد العديد من المشكلات الفكرية والفلسفية أن يعودوا إلى ذلك العصر حيث لا دين فيه، أي عصر الشرك وهذا حدث في كل مرافق الفكر حيث أو جد له أساس الحادي.

وأضرب لكم مثلاً بالعلوم الطبيعية كلها قائمة على افتراض أن الكون لا خالق له، وأنك إذا أردت أن تدرس أي ظاهرة من الظواهر يجب أن تفسرها بظاهرة من داخل هذا الكون، وإذا خرجت عن هذا الإطار فكلامك غير علمي، والله قلت هذا الكلام في سنة سبعين وبعض الناس استغربوا منه وأجد الآن الكثير من الأمريكيين

المتدينين وكأنهم أخذوه مني، وأنا متأكد أن أي أحد منهم لم يقرأ لي شيئاً أو سمع بمقولاتي المادة أزلية هذه هي الفكرة التي قام عليها الإلحاد.

فإذا كانت أزلية فهي لا تحتاج إلى خالق، ولذلك أحرجوا عندما جاءت نظرية الانفجار العظيم Bing bang لأنه إذا صحت نظرية الانفجار العظيم فالكون بما فيه من زمان ومكان له بداية، وإذا له بداية سيكون السؤال من أين جاء. وصدقوني أنهم لجئوا - أي الملحدين - إلى الخيارين اللذين ذكرهما القرآن الكريم، وبين أنهما مستحيلان، « أم خلقوا من غير شيء، أم هم الخالقون » الله سبحانه وتعالى يقول: إذا لم يكن هناك خالق فكيف تفسرون حتى وجودكم، تقولون إن كل شيء خلق من العدم، هذا غير مقبول تماماً !!!!، وصدقوني أن هناك الآن من علماء الطبيعة من يقبل بهذا. خلق النفس أكثر استحالة، لأنه كي يخلق لا بد أن يكون هناك موجوداً، وإذا كان هناك موجود فلا يحتاج إلى أن يخلق.

في علم الأحياء قالوا إن داروين كان يبحث عن نظرية لا علاقة لها بالدين يفسر بها؛ في السياسة قالوا بالديمقراطية، ولا تغرنكم كلمة الديمقراطية وما فيها من بعض الأشياء الحسنة النظرية، إذا كانت فيها بعض الجوانب الحسنة ليس هذا أن معناها صحيح، الديمقراطية هي حكم الشعب، وهي في الحقيقة حكم البشر؛ لأن الشعب لا يحكم في النهاية، وهذا يعني أنها في مقابل حكم الله، إن الحكم إلا لله هذا هو حكم الدين، وأن الحكم إلا للبشر هذا هي الديمقراطية. فالاقتصاد الرأسمالي والرأسمالية باعتبارها فكراً وفلسفة قديمة جداً هي قائمة على التعبير الذي يقول دعه يعمل، وهذا هو الذي طالب به قوم شعيب ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ [هود: ٨٧]. هذه الفلسفة التي تقوم عليها الرأسمالية نفعل ما نشاء، نأخذ ربا، نطفف ونحتكر، لا ندفع زكاة... إلخ. فالفرق بيننا وبين الحضارة الغربية والاختلاف بيننا اختلاف أساسي وجذري، لكن ومع هذا نقول إنه من مصلحتنا نحن السلام، لأننا بطريق الحوار وبطريق الإقناع نكون إن شاء الله تعالى نحن المنتصرين أقول قولي هذا. وأستغفر الله لي ولكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

***

مفهوم الثقافة الإسلامية

هذا البحث من منشورات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا في ٢٧محرم ١٤٠٩هـ.

ما الثقافة في مفهومها الشائع الآن؟ وما الثقافة الإسلامية في مفهومها العام؟ وما الثقافة الإسلامية بوصفها مادة دراسية؟ هذه هي الأسئلة التي نحاول الإجابة عنها في هذا المقال.

استعملت كلمة (الثقافة) في لغتنا العربية المحاصرة ترجمة لكلمة الإنجليزية، أو أخواتها في اللغات الغربية، فاكتسبت كما اكتسب كثير غيرها من كلماتنا العربية المعاني المعاصرة لتكلم الكلمات، لذلك رأيت أن أبدأ في هذه الورقة ببيان المفهوم الغربي للثقافة، فأستعرض أهم المعاني الشائعة للكمات الإنجليزية التي أخذت معانيها طريقها إلى لغتنا العربية، ومدى قرب هذه المعاني من المعاني العربية الأصلية، أو بعدها عنها، ثم أهم التعريفات الغربية للثقافة، ثم أناقش ما يمكن أن تعنيه الثقافة الإسلامية إذا عرّفناها بتلك التعريفات الغربية، ثم أنتقل إلى بيان المفهوم الإسلامي للثقافة، فأذكر المعاني العربية الأصلية لكلمة "ثقافة" وكلمتي "حضارة: و"مدنية" اللتين تتداخلان معها في استعمالاتنا العربية المعاصرة، وأبني على هذا تعريفاً لغوياً للثقافة ثم أحاول أن أكتشف الشكل الذي يأخذه هذا التعريف حين يعطي محتوى إسلامياً، ثم أختم البحث بمناقشة للمفهوم الخاص للثقافة الإسلامية بما هي مادة دراسية نرجو لها أن تعمم كل الجامعات في بلادنا الإسلامية.

المفهوم الغربي للثقافة:

المعاني اللغوية الأصلية:

Culture. أصل هذه الكلمة في اللغة اللاتينية وقد أخذتها عنها الإنجليزية والفرنسية والألمانية ولغات أوروبية أخرى[١]، والكلمة في أصلها اللاتيني تعني العبادة أو فلاحة الأرض وزراعتها، وأما في اللغة الإنجليزية فتستعمل في المعاني التالية التي عددها قاموس أكسفورد الموجز[٢].

---

(١) Raymond Williams, Keywords, Fontanam1976,p77.

(٢) The shorter Oxford Dictionary, Clarendon Press, Oxford,1973.

(أ) العبادة وزراعة الأرض وهما معنيان كانا يستعملان في اللغة الإنجليزية القديمة ولم يعد لهما وجود بالنسبة لهذه الكلمة في اللغة الإنجليزية الحديثة، ولذلك لم تتأثر بهما كلمتنا العربية.

(ب) لكن المضي الزراعي مازال يستعمل استعمالا اصطلاحيا خاصا لوصف عملية تربية الكائنات العضوية المجهرية تربية صناعية. وهذا المعنى الاصطلاحي أيضا لم تتأثر به كلمتنا العربية، فنحن نستعمل لهذا كلمات الزراعة أو الاستنبات.

(جـ) تهذيب العقل والذوق والسلوك وترقيتها. وهذا المعنى يطابق أحد معاني الكلمة العربية كما سنرى. وربما كان هذا هو الذي لحظته أول من ترجم الكلمة الغربية بكلمة ثقافة.

(د) الجانب الفكري من المدنية هذا أحد المعاني التي اكتسبها كلمتنا العربية من اللغات الغربية.

Civilization أصل هذه الكلمة في اللغات الأوروبية الحديثة كلمة لاتينية معناها ساكن المدينة[1] فهي مرادفة بهذا المعنى الأصلي لكلمتي حضري ومدني أو مديني.

إن المعاني اللغوية لكلمة من الكلمات لا تكفي وحدها - مع أهميتها - لإعطائنا صورة واضحة عن المفهوم الذي ترمز إليه تلك الكلمة في إطار دين أو مذهب أو حضارة من الحضارات إن اللغة إنما تضع الحدود العامة لتلك المفاهيم، أما الوصف الدقيق لها فهو من شأن الدين أو المذهب أو الحضارة التي يوجد في إطارها ذلك المفهوم. فمن معاني الثقافة في اللغتين العربية والإنجليزية مثلا ان الشخص المثقف هو الإنسان المهذب ذو الذوق الراقي والسلوك المحبب. ولكن متى يوصف الإنسان بهذا الوصف؟ ما الشروط التي يجب توفرها فيه ليكون مثقفاً؟ وما العلوم والآداب والدربة التي تعينه على تحصيل هذه الشروط؟ هذه أمور لا علاقة لها باللغة. وإنما هي شأن مناهج الحياة التي يسلكها الناس. ولذلك فمن الممكن أن يتفق بعض الناس على المعنى اللغوي لكلمة من الكلمات ثم يختلفون بعد ذلك في تصورهم للمفهوم الذي تشير إليه بحسب اختلافاتهم المذهبية والفكرية. لذلك سنناقش المفاهيم الخاصة التي تعطاها الثقافة بمعانيها تلك المتعددة في التصور الغربي ثم تفعل الشيء نفسه بالنسبة للتصور الإسلامي.

---

(١) Raymond Williams , Keywords.

التعريفات الغربية للثقافة:

يختلف المفكرون الغربيون اختلافات واسعة جداً في تعريفهم للثقافة حتى لقد أوصل أحد الكتاب تلك التعريفات إلى ١٦٥ تعريفا[١] ويروي عن أحدهم أنه ضاق ذرعاً بتلك الاختلافات حتى قال: «إنني كلما سمعت كلمة ثقافة هممت بتناول مسدسي»[٢]، لذلك لا يسعنا إلا أن نركز على بعض تلك المفاهيم خصوصاً ما شاع منها في لغتنا العربية.

الثقافة بمعنى أسلوب الحياة:

لعل أوسع مفهوم لـ (كلشر) في الفكر الغربي هو تعريفها في بعض العلوم الاجتماعية بحصيلة الميراث الاجتماعي لمجتمع من المجتمعات البشرية وهذا يشمل كل مصنوعتهم المادية: الأدوات والأسلحة والمنازل؛ وأماكن العمل والعبادة والحكم والترويح؛ والأعمال الفنية كما يشمل كل نتاجهم العقلي والروحي، رموزهم الكتابية وغير الكتابية، آراؤهم عقائدهم، إدراكهم الجمالي، قيمتهم، ..الخ. كما يشمل كل أنواع السلوك المميزة لهم: مؤسساتهم تجمعاتهم، شعائرهم الدينية، أساليبهم التنظيمية الخ[٣].

هذا التعريف للحضارة يثير قضايا منها:

أولاً: أنه يجعل الثقافة أو الحضارة كلها من نتاج البشر:

فيكون بهذا تصورا علمانيا للحضارة أو الثقافة لا يعترف بالدين بوصفه وحياً نازلاً من السماء، وهو بهذا غير مقبول إسلاميًا ولابد من تعديله كي يشكل الثقافة أو الحضارة الوحي النازل للبشر من الله تعالى.

ولكن حتى بعد هذا التعديل تكون الحضارة أو الثقافة بهذا المعنى الواسع وصفاً لكل مجتمع مع المجتمعات البشرية أياً كان. ويصبح كل مجتمع بشري بالضرورة ذا ثقافة أو حضارة، ويكون أفراده مثقفين بتلك الثقافة أو متحضرين بتلك الحضارة.

---

(١) The Encyclopedia Britannica, Helen Hemingway Benton, Chicago etc, Macropaedia ,.vol. 8, pl152

(٢) Alan Bullock and Oliver Stall brass (editors), The Fontana Dictionary of Modern .Thought, Fontana Books, London,1977,p 149

(٣) .ibid,150

وتكون الثقافة الإسلامية بهذا المعنى – بعد تعديله – الميراث الاجتماعي الذي تمتاز به الشعوب الإسلامية بصفة عامة، أو الذي يمتاز به كل شعب منها. وهي بهذا المعنى وصف لواقع بشري أسميناه إسلاميًا؛ لأن أهله يتسمون بالمسلمين أو لأن في ثقافتهم عناصر إسلامية، أو لأن حياتهم مصوغة فعلاً وفق الشريعة الإسلامية. لكن دراسة هذا الواقع البشرى الإسلامي شيء، ودراسة الإسلام كما بينه الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ شيء آخر. ولكن هذا أمر مهم يستحق مزيداً من البيان. إن كثيراً من الكتاب الغربيين ومن تأثر بهم من أبناء المسلمين يخلط بين الإسلام بوصفه ديناً نازلاً من السماء، والإسلام الواقعي الذي هو ثقافة أو حضارة لجماعة منتسبة إلى الإسلام، فيعد كل ثقافة لشعب مسلم شكلاً من أشكال الإسلام، ولذلك تجدهم يقولون إن الإسلام ليس شيئاً واحداً، بل هو دين ذو صور وأشكال متعددة، بحسب تعدد الشعوب التي تنتمي إليه. وتجد بعضهم يستنتج من ذلك أن مسألة الإسلامية نفسها مسألة نسبية، فما يراه كل شعب مسلم إسلاماً فهو إسلام، وإن اختلف عما يراه شعب مسلم آخر، ولا حق لأحد في الزعم بأن إسلامه هو الإسلام الحقيقي وأن إسلام غيره زائف أو فيه عناصر زائفة. بل إن بعضهم ليقول نعم إن هنالك قراناً وسنة هما مصدرا الإسلام، لكنه يرى أن هذه مسألة نظرية لأنه يرى أن فهم هذين المصدرين هو نفسه امر نسبي خاضع لتطورات الزمان وتغيرات المكان؛ أي أنه هو نفسه أمر ثقافي (بالمعنى الذي نناقشه الآن) ويرى لذلك أنه لا جدوى من محاولة فهم الإسلام الصحيح الذي تقاس به إسلامية تلك الشعوب.

وكل هذا خطأ وخلط ناتج عن جهل أو سوء قصد. إذ الحقيقة التي لا يرتاب فيها مسلم ولا كافر له أدنى معرفة بالإسلام، أن محمداً ﷺ هو رسول هذا الدين، وأن القرآن الكريم هو الكتاب الذي قال أنه وحي الله إليه، وأن لهذا الرسول سنة قولية وأخرى عملية تعد تفسيراً وبياناً للرسالة التي تضمنها القرآن الكريم. فإذا اعترفنا بهذه الحقيقة، قادنا الاعتراف بها إلى حقائق أخرى منها: أن هذا القرآن وتلك السنة مصوغتان بلغة معروفة هي تلك اللغة العربية التي كان يتحدّثها الناس في زمان الرسول ﷺ. وهذه الحقيقة وحدها كافية لأن تضع على مبتغى فهم القرآن قيداً موضوعياً هو أن ذلك الفهم ينبغي أن لا يخرج عن حدود تلك اللغة. وهذا يكفي لنفي النسبية المطلقة عن فهم الإسلام لأن كل من كان صادقاً في إرادته لفهمه سيتقيد بقيد هذه

اللغة. كما يتقيد بقيود أية لغة كتب بها أي نص بشري يريد فهمه. فلا يفسر ما كتبه ارسطاليس مثلا بلغته اليونانية القديمة، إلا بتلك اللغة، لا باللغة اليونانية الحديثة، ولا يفسر نصاً لشوسر إلا بعد معرفته للغة الإنجليزية التي كانت سائدة في عصر ذلك الكاتب والتي تختلف كثيراً عن اللغة الإنجليزية الحديثة.

وقد عدد العلماء المسلمون قواعد عملية أخرى تنفي الذاتية والنسبية عن فهم الدين، لأنها تعطينا المعيار الموضوعي الذي نميز به بين الخطأ والصواب في فهم نصوصه وتفسيرها، نذكر منها باختصار شديد ما يلي:

(أ) أن القرآن الكريم - بما أنه كلام الله تعالى - كتاب متسق لا اختلاف فيه ولا تناقض في آياته: فكل تفسير لآية منه يجعلها متناقضة مع آية أو آيات أخرى فهو بالضرورة تفسير غير صائب.

(ب) أن مهمة الرسول ﷺ كما أوضحها القرآن الكريم هي بيان هذا الكتاب بياناً قولياً وعملياً. فهي بهذا تعد المصدر الثاني للإسلام فنبغي التقيد بها في فهم مصدره الأول الذي هو القرآن الكريم.

(جـ) أن الله تعالى كما أنه اختار لرسالته رجلاً هو خير البشر فجعله نبياً مرسلاً، اختار أناساً من الرجال والنساء هم خير الناس بعده، فجعلهم له أصحاباً. فهم أعرف الناس به، بلغته وأحواله وهم الأمناء على نقل رسالته إلى الأجيال بعده، فيجب إذن أن لا يفهم الكتاب أو تفهم السنة فهماً مخالفاً لما أجمع عليه هؤلاء الأصحاب، بل يجب أن لا يقدم قول رجل بعدهم على قول أحد منهم، وإنما الذي يقدم على آرائهم هو الدليل من كتاب أو سنة.

فهنالك إذن فرق يجب أن يراعى بين الثقافة الإسلامية بمعنى نمط الحياة الواقعي لمجتمع من المجتمعات الإسلامية، والثقافة الإسلامية بمعنى الشريعة التي تصف ما ينبغي أن تكون عليه هذه الحياة.

إن الفرق بين هذين المعنيين فرق بينه الإسلام نفسه. فالدين يرد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بمعنيين مختلفين؛ فهو تارة يعني الكلمات التي أنزلها الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله لتكون هادياً ومرشداً للناس في حياتهم، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]،

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ويرد تارة بمعنى ما يدين به الناس فعلاً سواء كان موافقاً لهذا أو مخالفاً له. وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وقوله: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦]، وقول الرسول ﷺ: **(وإن الله يبعث لهذه الامة على راس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)**[١]، فالدين الذي يجدد ليس هو الكلمات التي أنزلها الله تعالى، فهذه محفوظة لا تبلى ولا تتغير فلا تحتاج إلى تجديد. وإنما الذي يجدد هو ما يدين به الناس حين يبلى بالانحراف عن الدين بالمعنى الأول وتجديده يكون بجعله موافقاً له.

وإذن فكما أن الحكم على مدى صحة الدين بالمعنى الثاني، هو مدى مطابقته للدين بالمعنى الأول، فكذلك تقاس ثقافة كل مجتمع من المجتمعات المنتسبة إلى الإسلام، بمدى قربها من الثقافة الإسلامية بمعنى الشريعة التي أنزلها الله تعالى لتكون حاكمة لحياة الناس.

وإذا قسنا ثقافة المجتمعات الإسلامية وحضارتها بهذا المقياس كان أكثرها إسلامية مجتمع الصحابة في عهد الرسول ﷺ وعهود الخلفاء الراشدين بعده، بل لعله يمكن القول بأن ثقافة هذا المجتمع وحضارته كانت صورة واقعية للثقافة الإسلامية بمعنى الشريعة، لأن دينه الواقعي كان في مجمله صورة صادقة للدين الذي أنزله الله تعالى. وبسبب هذه الميزة لهذا المجتمع كانت صورته الواقعية نفسها مثلاً يحتذيه كل مجتمع يريد أن يكون إسلامياً ومعياراً يقاس به ما كان من الإسلام وما لم يكن منه.

لكن يجدر بنا أن ننتبه إلى أننا إنما نتحدث هنا عن مجتمع لا عن كل فرد في ذلك المجتمع؛ وذلك لأن الفرد الوحيد الذي تعد حياته كلها صورة واقعية للإسلام كما يريده الله، إنما هو محمد رسول الله، ﷺ.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الملاحم. وهو حديث صحيح.

ثانياً: الثقافة بمعنى الجانب الفكري والروحي من الميراث الاجتماعي:

لاحظ بعض العلماء الاجتماعيين أنه إذا أعطيت الثقافة أو الحضارة ذلك المفهوم الواسع الشامل الذي بيناه لم يعد هنالك فرق بينها وبين المدنية، لذلك آثروا أن يطبق مفهوم الحضارة أو الثقافة حتى يتسنى التمييز بينها وبين المدنية، وهذا هو المفهوم الذي سنناقشه الآن.

الحضارة أو الثقافة بهذا المعنى هي جزء من المدنية، التي تحتفظ حينئذ بذلك المعنى الواسع الشامل الذي ذكرناه آنفاً. والمقصود بالجانب الفكري عند أصحاب هذا التعريف ما كان مشتركاً بين مجموعة من البشر من طرق التفكير والاعتقاد والإدراك والتقويم. فمجال الحضارة هو الفكر والآمال، القيم والرموز. إنها التخطيط للحياة الذي تنتج عنه طريقة حياة متميزة[1].

في هذا التعريف كذلك مسائل منها:

(أ) أن الثقافة بهذا المعنى هي أيضا وصف لواقع وإن كان واقعاً فكرياً أو روحياً.

(ب) أن الثقافة الإسلامية بها هذا المعنى الذي هو كما قلنا وصف لواقع فكري أو روحي قائم في ذوات الناس وظاهر في حياتهم، تكون ما يدين به فعلاً مجموعة من البشر المنتسبين إلى الإسلام، سواء كان هذا الذي يدينون به موافقاً للدين النازل من السماء أو مخالفاً له في بعض جزئياته.

(جـ) من القضايا المهمة التي يثيرها هذا التعريف، بل والذي سبقه أيضاً كما رأينا، قضية ناقشها كثير من المفكرين الغربيين نقاشاً واسعاً وهي هل من الممكن أن نفضل بعض الحضارات أو الثقافات على بعض، فنقول إن هذه الحضارة أحسن من تلك أو أرقى أو أكثر مناسبة للإنسان وأوفى بحاجاته المادية والروحية؟ وإذا كان ممكنا فما المعيار الذي نصدر به أمثال هذه الأحكام؟ إن كان معياراً مأخوذاً من حضارتنا، فبأي حق نجعل حضارتنا حكماً على حضارات الآخرين؟ ولماذا لا يكون من حقهم هم أن يفعلوا مثل ما فعلناه؟ وإذا لم يكن هذا التفعيل ممكناً لزمنا القول بأن الحضارة أمر نسبي.

---

(1) Leonard Broom/ Philip Selznick, Sociology,A Text With Adapted Readings, Harber And Row, New York etc,1973,p57.

لقد كان القول بنسبية الحضارة أو الثقافة عند كثير من المفكرين الغربيين صادراً عن دوافع إنسانية. وذلك أنه كان رد فعل للغطرسة الأوروبية التي تصف كل ما خالف حضاراتها من حضارات الشعوب الأخرى بالبدائية أو التأخر أو البلى أو القصور؛ بل إن هذه الغطرسة بلغت عند بعضهم حداً جعلهم يعتقدون أن تفوق حضاراتهم أو ثقافتهم أو مدنيتهم راجع إلى تفوق عرقي جعل الجنس الأبيض قادراً على إنجاز ما لا تستطيع الشعوب الأخرى إنجازه. فجاء أصحاب المذهب النسبي ليقولوا إن الناس كلهم سواسية، فحضاراتهم لذلك متساوية لا فضل لواحدة منها على أخرى؛ وأن تقويم أي مكون من مكونات حضارة ما إنما يكون بمعايير من داخل تلك الحضارة لا بمعايير مأخوذة من حضارة أخرى.

القول بنسبية الحضارة فيه شيء من التناقض؛ فهو من ناحية يجعل المعايير كلها معايير حضارية أي نسبية، ومن ناحية أخرى يجعل الحضارات كلها متساوية لتساوي الناس في الإنسانية. فمن أين جاء هذا الحكم بتساوي الناس؟ لا يمكن أن يأتي من داخل حضارة من الحضارات؛ لأن كل إنسان حبيس حضارته، فهو مضطر لأن يحكم على الآخرين بمعاييرها فيجدهم أقل منه؛ وإذا جاء من خارج الحضارات فقد بطل القول بالنسبية، واضطررنا للقول بأن هنالك معايير عامة لا تخضع لحضارة من الحضارات المرتبطة بزمان أو مكان معين وهي التي تقاس بها كل الحضارات.

وهذا القول الأخير هو القول الصواب الذي ترجحه الأدلة والذي يوافق الإسلام. أما الأدلة فقد وجد دارسو الحضارات أنه بالرغم من اختلافها فهناك قيم مشتركة بينها جميعاً مثلاً لا توجد حضارة تبيح الكذب أو السرقة أو العنف بصفة مطلقة. ولا حضارة تعد العذاب في نفسه شيئاً مرغوباً فيه. وفي كل الحضارات يعرف الشخص غير السوي (عقليا) بالشخص الذي لا يمكن بحال مخاطبته أو الذي ليست له سيطرة ما على نزواته[1].

أما في الإسلام فيمكن القول بأن لثقافة الإنسان– وبالتالي لمعاييره – ثلاثة مصادر:

(أ) الفطرة كل مولود يولد على الفطرة.

(ب) البيئة: **(فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)**[2].

---

(١) Ibid. p75.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(جـ) الوحي لمن بلغته الرسالة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

فبالمصدرين الأول والثالث يحكم على المصدر الثاني وذلك لأن المصدر الأول يتضمن المعايير العقلية والخلقية والجمالية الأساسية المشتركة بين كل عباد الله. ولأن المصدر الثالث مصدر رباني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثالثاً: الثقافة بمعنى النتاج الفكري والفني:

إذا كانت الثقافة بالمعنى الثاني وصفاً للإنسان المثقف، فإن الثقافة بهذا المعنى الثالث هي ما ينتجه المثقفون خصوصاً في مجال الموسيقى والأدب والرسم والنحت والسينما والمسرح. فوزارة الثقافة هي الوزارة المختصة بهذا النوع من النشاط، وقد يضاف إليها أحياناً الفلسفة والتاريخ وبعض الدراسات العلمية الأخرى. هذا فيما يبدو هو أكثر الاستعمالات الآن شيوعاً[(١)].

الثقافة الإسلامية بهذا المعنى تشمل كل أنواع الإنتاج هذه باستثناء ما حرمه الإسلام منها كالنحت، وبالقيود التي وضعها على ما أباحه، كتحريمه لتصوير الناس والحيوانات، وعدم إباحته للمعازف إلا الدف، الخ. إن هذا النوع من الإنتاج الفكري والفني لا يعطي في إطار الإسلام – حتى بعد تقييده. بتلك القيود – تلك القيمة الكبيرة التي يعطاها في إطار المدنية الغربية. وذلك إنهم يعدون الموسيقى وما يسمونه الفنون الجميلة غذاء للروح لا تستقيم ولاتكتمل إلا به.

ولذلك فإن وزارة للثقافة في دولة تلتزم بالإسلام لن تحصر نفسها في تلك المسائل التي ذكرناها نقلاً عن الكاتب الغربي، بل لابد أن تضيف إليها أموراً أخرى سنعرض لها، تعد-بالمعيار الإسلامي – الغذاء الحقيقي للروح البشرية.

رابعاً: الثقافة بمعنى الانشغال بالقضايا الفكرية والفنية:

المثقف هنا هو في الأساس منتج الثقافة بالمعنى السابق، لكن المفهوم أحياناً يتسع ليشمل فئات أخرى من المتعلمين. يقول الأستاذ ريمون آرون إن الشعراء والروائيين والرسامين هم الحلقة الصغرى للمثقفين؛ لأنهم يعيشون من مواهبهم وعن طريق

---

(١) Raymond Williams, of cit ,p8.

استخدامها. والفنانون الذين يظلون يجترون أفكار الماضي دون إبداع شيء جديد، وأساتذة الجامعات، ورجال البحث في مختبراتهم، كل هؤلاء يشكلون الهيئة العامة التي تقوم على شؤون المعرفة والثقافة في الوقت الحاضر. وهم من المثقفين ويأتي دونهم في المرتبة الصحفيون وموظفو مختلف أجهزة الإعلام. ولكن وبمجرد أن يصبح الفرد من هؤلاء عبداً للمال أو ذوق الجمهور، أي حين يكف عن الإبداع من عندياته يتجرد عن كونه مثقفاً. ومما أسلفنا يمكن الاستنتاج بأن كلمة مثقف ليست ذات مدلول معين، بل إن مدلولاتها متغيرة حسب المجتمع نفسه، وحسب درجة ازدهاره الاقتصادي أو تأخره على وجه الخصوص[1].

خامسا: الثقافة بمعنى السلوك والذوق المهذب:

هذا التعريف هو أقرب التعريفات إلى المعنى اللغوي الأصلي للكلمة، وهو معنى مشترك بين الكلمتين العربية والإنجليزية كما سنرى. والمثقف بهذا المعنى عند الغربيين هو الإنسان الذي صقله ذلك الإنتاج الثقافي، فصار سلوكه متحضراً وذوقه راقياً. إن الثقافة هنا هي غذاء الروح، وأهم غذاء للروح عند الغربيين هو الفن وربما أضافوا إليه الدين.

نقد الغربيين لثقافتهم وحضارتهم:

إذا كان بعض الغربيين قد تعصب لحضارته تعصباً أعمى عن رؤية ما في الحضارات الأخرى من مزايا لا توجد في حضارته فذهب يحتقر كل حضارة غير الحضارة الغربية، وإذا كان بعضهم قد ذهب إلى الطرف الآخر فجعل كل الحضارات متساوية لا فضل لواحدة منها على أخرى، فقد وجد فيهم من وقف الموقف الصحيح المعتدل فجعل الحضارات قابلة للمفاضلة بينها وجعل معيار المفاضلة بعض القيم الإنسانية التي فطر الله تعالى الناس عليها، فاستطاع أن يرى بعض ما في الحضارة والثقافة الغربية من أوجه النقص والتقصير والانحراف[2].

---

(١) ريمون أرون، افيون المثقفين، دار الكتاب العربي، ص١٧٢-٧٣.

(٢) انظر مثلاً:

EWF tomlin, psyche, Culture,And The New Science,Routledge & Kegan paul, London etc, 1985.

Allan Bloom, The Closing of The American Mind, Simon and Schuster, New York,1987.

التعريف الإسلامي للثقافة:

درج كثير من المتحدثين عن الثقافة الإسلامية على حبس أنفسهم في دائرة التعريفات الغربية للثقافة، ثم محاولة بيان ما تمتاز به الثقافة- بواحد من تلك التعريفات – حين تتصف بالإسلامية. والذي ينكر على هؤلاء هو حصرهم أنفسهم في نطاق تلك التعريفات الغربية: أما مجرد استخدامها أو حتى تبنى بعضها فأمر قد يكون له ما يسوغه. ومن مسوغاته أن الفكر الغربي صار معروفاً لعامة المثقفين من المسلمين بسبب النظم التعليمية الحديثة المعتمدة في معظمها على هذا الفكر في إنتاجه وفي طرقه ووسائله بحيث إن التصور الغربي لكثير من الأمور يكون الذي يسبق إلى ذهن المتعلم من شبابنا، فيكون به بمثابة اللغة التي لا يستطيع التفاهم بغيرها. فلا بأس أن نبدأ معه باستخدام هذه اللغة لتعديل المفهوم الذي سبق إلى ذهنه. وإذا كان هذا المسوغ مقبولا بالنسبة لمخاطبة أبناء المسلمين الذين نشؤوا في بيئات إسلامية عربية أو غير عربية، فأولى به أن يكون مقبولاً في مخاطبة من لا يعرفون غير تلك المفاهيم من أبناء الحضارة الغربية.

لا بأس من هذا إذن ولكن البأس كل البأس أن نجهل أو نتجاهل المعاني العربية الأصلية للثقافة وأن لا نفكر في تعريفات ومفاهيم للثقافة الإسلامية مبنية على تلك المعاني الأصلية. لذلك سنحاول فيما يلي تقديم مفاهيم للثقافة مبنية على ذينك الأصلين العربي والإسلامي.

لعلنا نستطيع بناء على المعاني اللغوية لكلمة ثقافة، والمحتوى الإسلامي الذي يمكن أن تعطاه تلك المعاني، أن نقدم تعريفا واحدا شاملا للثقافة من منظور إسلامي فلنبدأ إذن ببيان المعاني اللغوية.

المعاني اللغوية الأصلية لكمات " الثقافة" و" الحضارة " و"المدنية":

الثقافة:

قال ابن فارس: «الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع، وهو إقامة درء الشيء، ويقال تثقفت القناة إذا أقمت عوجها. وثقفت هذا الكلام من فلان ورجل ثقف

لقف، وذلك أن يصيب علم ما يسمعه على استواء»[١]. وقد بين صاحب اللسان[٢] هذه الفروع التي أشار إليها ابن فارس.

ويمكن إجمالها فيما يلي:

(أ) تقويم الشيء المعوج وتسويته بالمعنيين الحسي والمجرد: الثقاف حديدة تكون مع القواس والرماح يسوى بها الشيء المعوج. وفي حديث عائشة تصف أباها رضي الله عنهما: (أقام أوده بثقافة) تريد أنه سوى عوج المسلمين.

(ب) الحذق: ثقف الشيء ثقفا وثقافا وثقوفة، حذقفه.

(جـ) الذكاء والفطنة: ورجل ثقف وثقِف وثقُف، حذق فهم. وهو غلام لقن ثقف، أي ذو فطنة وذكاء. ويقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم.

(د) معرفة ما يحتاج إليه: والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج اليه وفي حديث أم حكيم بنت عبد المطلب (إني حصان فما أُكلَّم، وثقاف فما أُعلَّم).

(هـ) المعرفة القائمة على حسن التصور والمؤدية إلى حسن العمل: ورجل ثقف لقف، إذا كان ضابطا لما يحويه قائما به.

(و) الظفر بالشيء بحذق ومهارة : وثقفته إذا ظفرت به. قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ﴾ [الأنفال: ٥٧]، هذا ما اكتفى به صاحب اللسان لكن المفسرين بينوا أن الثقف ظفر فيه مهارة، فقال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]، يعني تعالى ذكره بذلك واقتلوا أيها المؤمنون الذين يقاتلونكم من المشركين حيث أصبتم مقاتلهم وامكنكم قتلهم وذلك هو معنى قوله: ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ ومعنى الثقفة بالأمر الحذق به والبصر يقال إنه لثقف لقف إذا كان جيد الحذر في القتال بصيراً بمواقع القتل[٣]، وقال الزمخشري في تفسير هذه

---

(١) معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط عبدالسلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، قم، المجلد الأول، ص ٢٨٢-٢٨٣..

(٢) لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر بيروت.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن، لابي جعفر محمد بن جرير الطبري، طبعة بولاق، ١٣٢٣هـ، المجلد الثاني، ص١١١.

الآية: والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة ومنه رجل ثقف سريع الأخذ لأقرانه»[1].

يلاحظ في هذه المعاني العربية للثقافة:

(أ) أنها صفات فردية حسنة – بعضها فطري وبعضها مكتسب–يمتاز بها أناس دون آخرين.

(ب) وأنها ليست قاصرة على المعلومات بل تشمل المهارات العملية.

(جـ) وأن المثقف إنسان مهذب مستقيم السلوك قال في أساس البلاغة ومن الجاز: أدبه وثقفه: ولولا تثقيفك وتوقيفك لما كنت شيئاً: وهل تهذبت وتثقفت إلا على يدك.

(د) وأن العلم أو المهارة التي يحذقها شيء يحتاج إليه.

حضارة:

قال في اللسان: والحضر خلاف البدو: والحاضر خلاف البادي: وفي الحديث: **(لا يبيع حاضر لباد)**: الحاضر المقيم في المدن والقرى: والبادي المقيم بالبادية؛ ويقال فلان من أهل الحاضرة وفلان من أهل البادية وفلان حضري وفلان بدوي والحضارة الإقامة في الحضر (أو) الحضارة بالفتح. والحضر والحضرة والحاضرة خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار. والحضارة والحاضر الحي العظيم أو القوم؛ وقال ابن سيدة الحي إذا حضروا الدار التي بها مجتمعهم.

مدنية:

قال في اللسان: مدن بالمكان أقام به... ومنه المدينة. ومدن الرجل إذا أتى المدينة.

التعريف العربي للثقافة:

بما أن تلك المعاني اللغوية كانت كما رأينا في أغلبها وصفاً للشخص المثقف لا تعريفا للثقافة فيحسن أن يكون تركيزنا على تعريف المثقف لا تعريف الثقافة. ولعل الخطوة الأولى نحو هذا التعريف هي تلخيص الصفات الواجب توفرها في المثقف على ما توحيه المعاني اللغوية البحتة فنقول: «المثقف إنسان ذكي فطن علم علماً نافعاً وتصوره

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، طهران، ج١، ص٣٤٢.

تصوراً صحيحاً، وحذق العمل به وأتقنه، وضم إليه مهارات عملية فأثمره ذلك فيه سلوكاً قويماً مهذباً وذوقاً رفيعاً».

كيف يكون الإنسان ذكياً فطناً؟ وما العلم النافع الذي يثمر سلوكاً قويماً وذوقاً رفيعاً. وما أهمية أن يتصور صحيحاً أو أن يعمل به؟ وما المهارات التي يجدر بالمثقف أن يحذقها؟ وما معيار السلوك القويم والذوق الرفيع؟ بالإجابة عن هذه الأسئلة تعطي تلك الصفات محتوى معيناً.

والذي يجيب عن هذه الأسئلة فيعطي الثقافة محتوى معيناً هو الثقافة بمعناها الغربي الثاني، وإذن فكما أننا أخذنا بعض التعريفات الغربية للثقافة وحاولنا أن نتصور ماذا تكون الثقافة الإسلامية بواحد منها، فكذلك يستطيع إنسان غير مسلم وغير عربي أن يأخذ هذا التعريف العربي للثقافة، ويعطيه محتوى من حضارته ليقول لنا من المثقف الشيوعي مثلا- بذلك التعريف العربي ولا يستغربن أحد هذا لأن كلمة ثقافة" بمعانيها تلك كلها سابقة على ظهور الإسلام، فلا بد أن يكون المحتوى الذي تضمنته آنذاك مختلفاً على الأقل في بعض جوانبه- عن ذلك الذي جد لها بعد أن صارت مفهوماً إسلامياً.

خصائص المثقف المسلم:

لكن الذي نحن بصدده الآن هو كيف يكون المسلم – بذلك التعريف – مثقفا؟ ولنجيب عن هذا السؤال سنأخذ صفات المثقف تلك واحدة واحدة؛ لنرى ما صلتها بالإسلام، وكيف تكون حين تأخذ شكلاً إسلامياً.

العلم النافع:

أكثر العلوم نفعاً هو ذلك العلم هو ذلك العلم الذي يحتاج إليه الإنسان بما هو إنسان، وبغض النظر عن فترته الزمانية أو بقعته الجغرافية، أنه العلم الذي يعطي الإنسان الإجابات الصحيحة عن تلك الأسئلة الفطرية الكبرى التي يوجهها كل إنسان إلى نفسه حيثما كان مولده، وأيا كانت بيئته من أين جئت؟ ولماذا أنا هنا؟ وإلى أين المصير؟ إنه في ضوء الإجابة عن هذه الأسئلة تحدد الأمم أساليب حياتها ويحدد الأفراد مهامهم في الحياة بل وفي ضوئها تتحدد كثير من قيم الأشياء والعلاقات بينها.

وفي القرآن الكريم والسنة أجوبة واضحة قاطعة عن تلك الأسئلة وهي أجوبة تحمل معها الأدلة على صدقها وعلى زيف نقائها، فالله تعالى هو الحق الأكبر، ومعرفته أهم المعارف وعبادته أجل الأعمال. والحياة التي نحياها الآن فترة اختبار قصيرة لا تكاد تساوي شيئاً بالنسبة لحياة الجزاء والخلود التي ستعقبها، ومهمة الإنسان في هذه الحياة أن يسير في الطريق الذي رسمه له خالقه في كتابة وعلى لسان رسوله لكي تكون حياته العملية موافقة لمهمته الفطرية التي خلق من أجلها، والتي لا تتم سعادته في هذه الحياة وما بعدها إلا بها.

فالإنسان لا يكون مثقفاً حقاً بالمعيار الإسلامي إذا هو لم يعرف هذه الحقائق الأساسية ويؤمن بصدقها؛ لأنه بغير معرفتها والإيمان بها لا يكون الإنسان إنسانا حقيقيا، دعك أن يكون عالما أو مثقفاً لقد كان العرب الذين أرسل إليهم الرسول ﷺ أكثر خلق الله مقدرة على التعبير اللغوي نثراً وشعراً. وأكثرها تذوقاً لهذا التعبير، والتعبير اللغوي نثراً كان أو شعراً هو أرقى أنواع الفنون. وكانت للعرب إلى جانب ذلك بعض الأخلاق الحميدة كالشجاعة والكرم والنجدة وكانت لهم كما لغيرهم حكم ومعارف نافعة في الحياة العملية. ولكنهم كانوا رغم ذلك كله في حكم القرآن أهل جاهلية لجهلهم بتلك الحقائق التي لا تستقيم حياة بغيرها. فلكي يكون الشخص إنساناً لابد له من معرفة محملة بتلك الحقائق؛ وأما إذا أراد أن يكون مثقفاً فلا بد له من أن ينتقل إلى معرفة أكثر تفصيلاً، وأن لم تبلغ درجة التوسع والعمق التي لا تتسنى إلا للقلة ممن أكرمهم الله من العلماء المختصين. يكفيه لكي يفي بشرط الثقافة أن يلم إلماما عاما بالعلوم الإسلامية، فيعرف سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويحسن تلاوة القرآن الكريم. ويعرف مبادئ تفسيره، ويطلع على بعض دواوين السنة، ويلم بالتاريخ العام للإسلام والاتجاهات الفكرية الصحيحة والمنحرفة التي كانت فيه وأن يجيد اللغة العربية إذا كان عربياً أو يكون له إلمام بها إذا لم يكن عربياً. الخ.

ولا يبلغ المسلم أن يكون مثقفاً إذا هو لم يجمع إلى هذه المعرفة بدينه إلماماً بأهم معارف عصره وقضاياه، إلماما يجعله قادراً فهم ما يقال عنها في وسائل الإعلام العامة

ومتابعته، فالمسلم المثقف يكون له إلمام بلغة بلده وآدابها بالمعتقدات التي تحكم بلده سواء كانت دينية أم علمانية، وبتاريخ هذا البلد وجغرافية ونظامه السياسي والاقتصادي والتعليمي، وأهم القضايا والمشكلات التي تواجهه كما يكون له إلمام بالمعارف الحديثة من علوم طبيعية واجتماعية وشيء من تاريخ العالم، وأوضاع الأمم وعلاقاتها، الخ. وقد يكون مع ذلك مختصاً بعلم من العلوم أو بفرع منه يتقنه، ويعرف تفاصيله ويشارك فيه مشاركة المجتهد الأصيل.

إن بعض من يسمون بالمثقفين في بلادنا يريدون أن يكونوا مثقفين بالمعنى الغربي فقط؛ أعنى أن لا يعرفوا إلا ما يتوقع من المثقف في بلد غربي أن يعرفه. فتجد أحدهم يجيد لغة أو أكثر من اللغات الغربية، ويعرف الفلسفة اليونانية ويطلع على تاريخ أوربا ويعرف زعماء الغرب المفكرين والسياسيين، الخ، لكنه يجهل الإسلام جهلا مطبقا فلا يميز بين الآية والحديث.

التصور الصحيح:

إن الإنسان لا يكون عالماً في حكم الإسلام بمجرد نطقه بالعلوم وقراءته لها، وإنما يكون عالما بفهمه لما يسمع ويقرأ ويحفظ وبتصوره له تصوراً صحيحاً؛ لأن العلم النافع غذاء للروح ومقوم للسلوك، فأنى له أن يكون كذلك إذا ظل ألفاظاً يرددها اللسان أو كلمات يسطرها البنان؟ أما مثل العلم الذي لا يتجاوز اللسان أو البنان كمثل غذاء مفيد يشم الإنسان رائحته ولا يأكله، أو يلوكه ثم لا يبتلعه، فهل تراه ينفع الجسم بشيء؟ والمؤمن يزداد يقينا بكل هذا من كتاب ربه. فهو يقرأ فيه أنه إنما أنزل ليعقل. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. بل ليكون موضع تدبر متواصل وتذكر دائم.. ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. وأن عدم تدبره وفهمه دليل على عمى عقلي.. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. وقد نفى القرآن حقيقة العلم عمن لم يتجاوز علمه التلاوة: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

العمل بالعلم:

العمل هو غايته وثمرته، فإذا لم يكن عمل بالقلب أو بالجوارح فذلك الدليل على انتفاء العلم. ولذلك ربط القرآن الكريم بين خشية الله والعلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. فمن لا نصيب له من الخشية لا حظ له من العلم. والعلم الصحيح هو الذي يؤدي إلى الإيمان بالحقيقة التي علمت، ثم يؤدي الإيمان بها إلى إحداث حالة في النفس تناسبها، ثم تكون هذه الحالة دافعاً إلى العمل بمقتضى تلك الحقيقة: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]، وأما الذي يظل علمه بالقرآن قولاً باللسان فقد يكون من أكثر الناس شراً مهما كثرت قراءته له، أو حسن نطقه به؛ فعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: **(أن بعدي من أمتي - أو قال سيكون بعدي من أمتي - قوم يقرؤون القرآن لا يتجاوز حلاقيهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه هم شر الخلق والخليقة)**[1].

الذكاء والفطنة:

هذه بالطبع أمور فطرية سابقة للبينات الثقافية التي يولد فيها الناس، لكن هذا لا يعني أن تكون مبتوتة الصلة بتلك البينات. وذلك أن بعض المعتقدات والتصورات من شأنها إذا استقرت في عقل الإنسان أن تساعده على تنمية ملكاته الفطرية، كما أن من شأن بعضها أن يقتل تلك الملكات أو يضعفها، والإسلام بما أنه دين الفطرة فإنه ينمي الاستعدادات الخيرة في الروح الإنسانية ويقويها. وذلك لأن ملكات الخير في الإنسان متصل بعضها ببعض؛ إذا أدرك الإنسان حقيقة مهمة واعترف بها فإن هذا يساعد على إدراك حقائق أخرى متصلة بها، وإذا أنكرها فقد يعمى عن رؤية تلك الحقائق. وأيضا لأن هناك صلة قوية بين الصفاء القلبي والمقدرة على رؤية الحقائق، فالإنسان الصادق الأمين قد يرى من الحقائق ما لا يرى إنسان خبيث النفس، وإن كان الأخير في الأصل أكثر منه ذكاء. وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى هذه المعاني

---

(١) رواه مسلم في صحيحه الباب٤٩ من كتاب الزكاة.

التي ذكرتها أكتفي بأمثله منها إذ لا مجال هنا لاستقصاء هذا الأمر. يعلمنا القرآن الكريم أن هنالك صلة بين الالتزام بالحق واكتمال العقل؛ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، والايمان يعطي الإنسان مقدرة عقلية على رؤية حقائق لا ترى بغيره: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، ويعطيه علما لا يتم العقل إلا به: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، والتقوى تتضمن قوة للتمييز الدقيق بين الحق والباطل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

الحذق والإتقان:

في الإتقان جمال وهو أمر ترتاح إليه النفوس وتحبه، وقد جاء في السنة النبوية الحث عليه مهما كان نوع العمل مادام عملاً مشروعاً. فعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال ثنتان حفظتهما من رسول الله ﷺ: (**إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح؛ وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**)[1]، وقال ﷺ: (**إن الله يحب إذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه**)[2].

السلوك المهذب والذوق الرفيع:

الصلة وثيقة بين حسن وسمو الذوق وكلاهما ثمرة طبيعية للعلم النافع والإيمان الصادق، فالرسول ﷺ وهو أعرف الناس بالله وأتقاهم له، كان على خلق عظيم، خير الناس لأهله، أحرص الناس على نفع الناس ودفع الشر عنهم، رحيماً بهم، بعيداً عن الفظاظة والجفاء، يبلغ به الحياء أن لا يعترض على الناس حين يفعلون ما يؤذيه،

---

(١) صحيح مسلم، الباب ١١ من كتاب الزكاة.

(٢) المقاصد الحسنة، للزرقاني، تحقيق الدكتور محمد بن لطفي الصباغ، مكتب التربية لدول الخليج، الرياض، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٧٢، قال المحقق: «وقد درست الطرق التي ساقها السخاري في المقاصد فوجدت أن كل واحدة منها ضعيفة: فلعل الحديث بمجموعها يرتفع إلى درجة الحسن؛ والله أعلم».

ينادي الناس بأحب الأسماء إليهم بل يغير ما سموا به من أسماء قبيحة إلى أخرى حسنة جميلة، لا يجرح شعور المؤمنين بالتصريح بأسمائهم حين يريد أن ينتقدهم، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق وحسن المعاملة للناس، ومراعاة مشاعرهم.

لكن ينبغي لنا أن نميز هنا بين هذا النوع من حسن الخلق الذي هو أمر محبب ومطلوب في كل زمان ومكان، وبين الآداب الشكلية التي يتواضع عليها الناس في بيئة من البيئات. لا بأس أن يحاول الإنسان الالتزام بهذه الآداب ما دام يعاشر أهلها ومادام لا يجد فيها مخالفة لدينه، لكن الذي ينبغي أن نحذر منه كل الحذر هو رفعها إلى مصاف الأخلاق الإنسانية التي يلزم الناس الالتزام بها في كل زمان ومكان. كما يفعل الآن كثير من مثقفينا بالنسبة لبعض آداب السلوك التي تواضع عليها الناس في الحضارة الغربية، حتى صار الكثير منهم يحمل التقاليد الغربية في الطعام والشراب واللباس والمخاطبة معياره الذي يقيس به مدى تحضر الناس وتهذبهم ورفعة ذوقهم.

المهارات المفيدة:

لا يبلغ المرء أن يكون مثقفاً حق التثقيف بالمعيار الإسلامي-إذا هو لم يضف إلى علمه بأمور الدين ومعارف العصر علماً ببعض المهارات التي يحتاج إليها الإنسان في كل زمان والتي يحتاج إليها الناس في العصر الذي يعيش فيه أو البيئة التي يسكن فيها. لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يجمعون بين تلك العلوم وتلك المهارات، فكانوا يحسنون الرمي واستعمال السيوف وركوب الخيل والبغال والحمير، وكانوا يجيدون فن الحرب، ويعرفون المهارات التي يحتاج إليها الناس في زمانهم في حياتهم اليومية، وقد حثهم الرسول ﷺ على تعلم الرمي والركوب، فقال معلقاً على قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]: **(ألا أن القوة الرمي. ألا أن القوة الرمي)**[١]، وقال ﷺ: **(ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا)**[٢].

ولكن مما يؤسف له أن أنظمه التعليم عندنا تفصل بين التعليم الأكاديمي وبين التدريب على المهارات حتى ما كان منها متعلقاً بالحياة الأكاديمية أظن أن ثقافة

---

(١) رواه مسلم، الباب ٥٢ من كتاب الأمارة (٣٣).

(٢) المرجع نفسه.

الطالب الأكاديمي لا تتم في عصرنا هذا إذا هو لم يعرف الكتابة على الآلة أو استعمال الحاسوب (الكمبيوتر) الشخصي فكم من طلابنا اليوم يعرف هذا؟ وإذا كان الرسول ﷺ يحثنا على الركوب وعلى الرمي فإن تنفيذ هذا الأمر في عصرنا يمنى أن يكون التدريب العسكري جزءاً لا يتجزأ من برامجنا التعليمية، وأن لا يتعلم الشباب قيادة السيارات فقط، بل أن يلموا بشيء من الميكانيكا. بل لماذا يكون شيء مهم كالإسعافات الأولية قاصراً على الشباب الذين ينضمون إلى فرق الكشافة وما شابهها من الجماعات؟ لقد رأيت بعض أبناء المسلمين الذين تربوا في أمريكا يعرفون من هذه المهارات أكثر بكثير مما يعرف الشباب في العالم العربي. فهم يعرفون عن الكهرباء مايستطيعون به تركيب آلاتها المنزلية، وإصلاح الكثير من عطبها، وعن الزراعة ما يمكنهم من رعاية حدائقهم المنزلية وهم يعرفون شيئاً من مبادئ النجارة وكيفية طلاء الحيطان، بل فن الطبخ إلى غير ذلك من الحاجات المنزلية وغيرها كالمهارة في السباحة. وأنبئت بأن هذا كله وغيره جزء طبيعي من ثقافة الشباب بأمريكا. أنا لست من المعجبين بنظام التعليم الأمريكي، فإن فيه عيوبا كثيرة يشكو منها الأمريكان أنفسهم ولكن ما ذكرت شيئا حميداً ومفيداً حبذا لو استفدنا منهم فيه. ورأيت على التلفاز الإنجليزي برنامجاً استمر عدة أسابيع يعطي المشاهدين دروساً في ترميم المنازل وإصلاح بعض الأثاث، بل كيفية صنع بعضه من مواد رخيصة ورأيت دائرة معارف كاملة تعلم القارئ كيف يقوم بنفسه بصنع بعض الأشياء المنزلية وإصلاح بعضها[1] حبذا لو ترجمتها بعض المؤسسات إلى اللغة العربية، أو ألفت شيئا شبيهاً بها مناسباً للناس في بلادنا.

المفهوم الإسلامي للمثقف:

المثقف إذن إنسان آمن بالله تعالى عن علم وبصيرة، واتبع هدى الله الذي جاء به محمد رسوله، فتفقه في دينه، فزكت نفسه واكتمل عقله، وحسنت للناس معاملته واجتهد في أن يلم بما استطاع من معارف عصره ومهاراته النافعة وأن يكون داعية إلى العلم والخير، بلغة جميلة وبيان قوي وقدوة حسنة.

---

(١) 42- The knack, The Fllustratated Encyc lopaedia of Home Improv Cavenddish, London .& New York,1984.

هذا ليس بالطبع تعريفاً جامعاً مانعاً للمثقف المسلم، وإنما هو أشبه بما يسمى في علم المنطق بالقول الشارح إنه وصف للمثقف المسلم الأنموذج الذي يحاول كل منا الاقتراب منه، لا تعديدًا للشروط التي لا يكون المسلم مثقفاً إلا إذا استوفاها جميعها.

الثقافة الإسلامية.. مادة دراسية:

حاجة الطلاب إلى هذه المادة:

للثقافة الإسلامية بوصفها علماً جديداً نرجو له أن يكون مادة تدرس في جامعات العالم الإسلامي ومعاهده، وبكل أنواعها وتخصصاتها مفهوماً خاصاً تحدده الغاية من دراستها والدافع إليها. لقد جاءت هذه المادة لتسد أنواعاً من النقص في مناهجنا التعليمية أدت لتشويه صورة الإسلام في أذهان الكثير من شبابنا سواء منهم من درس في الجامعات الإسلامية أو ما يسمى بالجامعات المدنية.

تتمثل أنواع النقص هذه في:

(أ) أن الطالب في كثير من الجامعات الإسلامية وإن أتقن دراسة بعض جوانب الإسلام وفروعه إلا أنه لا يتمثل صورته العامة وموقع تلك الأجزاء التي درسها منها.

(ب) وأن بعض هذه الدراسات تقدم للطالب معزولة عن الواقع الذي يعيش فيه سواء كان واقعاً فكرياً أو لغوياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو سياسياً. إنه يستطيع بتلك الدراسة أن يدرك – بصورة مجملة – الفرق بين ما ينبغي أن يكون بحسب ما علم وماهو كائن بحسب ما يرى ويشاهد. لكنه لا يستطيع أن يؤدي عملاً كبيراً مجدياً في تغيير هذا الواقع وإصلاحه لأنه لا يعرف مؤسساته ولا علومه التي قام عليها، بل ولا حتى لغة أهله لكن لابد من الاعتراف بأن خريج هذه المعاهد والجامعات هم الذين حفظوا لنا ميراثنا الإسلامي، فكان لهم الأثر المحمود في حياة الناس الفردية تلك التي لا تتغير بالتطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

(جـ) وأما أصحاب الدراسات "المدنية" فقد ضاعت منهم الصورة العامة كما ضاعت التفاصيل.

(د) بل وقد حلت في أذهان كثير منهم ذلك بسبب النقص، وبسبب التأثير القوي للفكر الغربي تصورات عامة مخالفة للتصور الإسلامي ومنافية له، آمن بها بعضهم

فترك دينه، وحاول بعضهم أن يضع الإسلام في داخل الإطار الغربي الجاهلي، فاضطر لأن ينكر بعض دينه أو لأن يعيد تفسير بعضه وتأويله بحيث يكون مناسباً لذلك الإطار.

وعليه فإن مقصود مادة الثقافة الإسلامية هو في تصوري أن يعيد إلى الأذهان تلك الصورة الإسلامية العامة، مقصودها أن تقدم للطالب خريطة للإسلام يرى فيها كل شيء بحسب حجمه وفي موضعه بالنسبة لغيره، كما يرى الفروق بين معالم هذا الإطار الإسلامي والأطر الأخرى السائدة في عصره من ديمقراطية ليبرالية أو أممية شيوعية أو غير ذلك من التصورات والأطر العلمانية. ليس قصد الثقافة الإسلامية إذن أن يجد الطالب فرعا من فروع العلوم الإسلامية وإنما مقصودها أن ترسم في ذهنه معالم الصورة العامة لدينه وللأسس والأصول التي يقوم عليها هذا الدين، ولكيفية فروعه من تلك الأصول وعلاقتها بها ومكانتها بالنسبة لها.

المرجو أن تكون نتيجة هذه الدراسة إعانة الطالب على أن يعرف لكل أمر من أمور دينه مكانته، فلا يقدم مهما على أهم منه أو يجعله حاكما عليه، وأن يدرك كثيراً من حكم التشريع الفرعي حين يرى هذه الفروع في مواقعها من تلك الصورة الكبيرة. فيعرف مثلا لماذا أمر الإسلام بإيتاء الزكاة وحرم الرباء لماذا نهى عن الخمر والميسر، لماذا شدد عقوبة الزاني لماذا أمر بقتل المرتد؟... الخ.

إن هذه التشريعات تكون مشكلة وتصير غير مفهومة وتسبب لكثير من الناس حرجا لأنهم يضعونها – ربما وهم لا يشعرون – في إطار غير إسلامي يسلمون بصحته. فإذا افترض الإنسان مثلا صحة التصور الديمقراطي الليبرالي فلن يجد فيه مكاناً للتفرقة بين المواطنين بسبب الدين، ولا لقتل مواطن بسبب انتقاله من دين إلى دين، أو إلى لا دين.

والمرجو أيضا أن تعين هذه الصورة العامة الطالب على رؤية الروابط المنطقية بين أجزاء الإسلام فيزداد ثقة بدينه واطمئنانا إليه واعتزازاً به.

خصائص منهج الثقافة الإسلامية:

ولكي تحقق مادة الثقافة الإسلامية هذه الغايات العظمي لابد أن يتميز منهجها بمايلي:

أولاً: لابد في محاولة رسم تلك الصورة العامة من التركيز على الحجج العقلية والحكم التي وردت في الدين نفسه دليلا على حقيقة أو انتصار لتشريع، حتى تزول عن نفس الطالب المقابلة بين العقل والدين، أو الفتن بأن الدين مجرد مزاعم يسلم بصحتها بغير دليل أو مجرد أوامر ونواه لا حكمة وراءها، ولا فائدة لها إلا امتحان المأمور ثم مكافأته في الدار الآخرة.

ثانياً: التركيز على قضية الإيمان : ببيان الأدلة على وجود الخالق واستحقاقه وحده العبادة وتفرده بصفات الكمال، والأدلة التي تخاطب العقل المجرد، والأدلة التي تخاطب العقل الذي آمن وسلم، وبيان أن كلا الدليلين في القرآن الكريم والاستفادة في هذا كله من جهود العلماء السابقين الذين عنوا بجمع تلك الأدلة، وشرحها وبسطها واستخدامها في الرد على خصومهم. وببيان أنواع الشرك التي وقع فيها كثير من عوام المسلمين: ومثقفيهم" وأهم أنواع الاتجاهات المنحرفة عن أصول عقيدة التوحيد الخالصة وببيان ضرورة أن نعرف لهذه العقيدة حقها ومكانتها فلا نقدم أصلا آخر من أصول الدين – بله فروعه- عليها. وأن يرى الطالب كيف أن معرفة الله تعالى بصفات كماله تلك تقتضي الإيمان بكتبه ورسله لأن رحمته تقتضي أن يفيض علينا نعمة الهداية كما أفاض علينا نعم الطعام والشراب واللباس وغيرها من متع الحياة الدنيا. وأن إحسانهم ويعاقب فيها المجرمون على إحرامهم. ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]. وأن عموم علمه وحكمته ومشيئته تقتضى معرفته بما كان وما سيكون وأنه لا يمكن أن يحدث شيء إلا بعمله وتقديره وإرادته وقوته سبحانه وتعالى. ثم يبين للطالب كيف أن هذه الأصول تمثل القاعدة التي تنبثق منها فروع الإسلام الأخرى، كيف أن الإيمان لها ورسوخها في القلب يؤسس القاعدة النفسية لتقبل سائر احكام الإسلام ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]. وكيف أن هذه الأوامر والنواه مع علو شأنها ليست مثالية بمعنى أنها غير قابلة للتطبيق في دنيا الواقع بدليل سيرة الرسول ﷺ. ثم الصالحين بعده من جيل الصحابة ومن سار على نهجهم من أئمة المسلمين.

وهناك لا بد من التعرض لسيرة المصطفى ﷺ، لا لسرد حوادثها التاريخية ولكن لبيان ما انطوت عليه من حكم، وبوصفها برهانا جليا على صدق قوله تعالى عن رسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وصدق وصف زوجة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لسلوكه بقولها: (كان خلقه القرآن)[١].

ثالثاً: بعد دراسة تلك الأصول بالمنهج الذي حاولنا أن نبين شيئا من خصائصه ينتقل الطالب إلى دراسة عامة للعبادات، يكون القصد منها بيان أهميتها للإيمان بوصفها الغذاء الذي يحفظه ويديم حياته ويزيد من قوته وبوصفها مع الاسمان الدرع الذي يقي المؤمن شرور الشبهات والشهوات..

رابعاً: ثم يعطي الطالب صورة مجملة عن أصول الاخلاق التي أقرها ودعا إليها الإسلام وعلاقتها بالإيمان وبالعبادات.

خامسا: ثم يعرف الطالب معالم نظام الحياة الإسلامي السياسي والاقتصادي الاجتماعي يدرس بشيء من التفصيل بعض جوانبها التي تشتد الحاجة إليها بحسب مقتضيات الأحوال.

سادسا: أن تدرس كل هذه القضايا دراسة تصلها بالواقع الذي يعيش فيه الطالب مقارنة لها بدعاوى المذاهب والأيدولوجيات الأخرى في كل هذه المجالات وبيانا لفضلها عليها ونقدا لهذه في ضوئها واستجابة لتحدياتها تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] (٤٧).

سابعاً: أن يتضمن منهج الثقافة الإسلامية مقررات تختص بالقضايا الفكرية والعلمية المعاصرة. فلا بد من دراسة للفكر العلماني بصفة عامة، والرد على الشبهات التي يثيرها أصحابه ضد تطبيق الشريعة الإسلامية، ولابد من دراسة للقضايا التي تثيرها الأيدولوجيات الرأسمالية والشيوعية في مجال الاقتصاد والسياسة ومن دراسة للقضايا التي تثيرها بعض النظريات في العلوم الطبيعية كالنظرية الدارونية، ومن المهم

---

(١) رواه مسلم، كتاب المسافرين الباب ١٨.

بقضايا الأمة الإسلامية السياسية المحلية والدولية وقضاياها الاقتصادية والتعليمية وما إلى ذلك.

إذا رسخت في ذهن الطالب الصورة الكلية للإسلام بالطريقة التي أوجزناها آنفا، يكون قد خطى خطوة كبيرة نحو أن يكون تصوره للأشياء وحكمه عليها إسلاميًا وتكون مادة الثقافة الإسلامية بهذا قد نجحت في تقديم عون كبير للطالب لحل مشكلة من أعقد المشكلات النفسية والفكرية التي تؤدي إليها نظم التعليم " الديني" و" المدني" المعاصرة. إنها نظم تجعل من يكتفي بها ذا شخصية ممزقة.

فهو إما أن يكون من الذين قضوا وقتهم الدراسي مع كتب العلماء السابقين وقضاياهم وطرقهم في التعبير فانعزل بفكرة عن واقعة وعاش في هذا الواقع بجسده فلم يستطع لذلك أن يتعامل معه بشخصيته الإسلامية التي ركزتها تلك الدراسة فصار إما من الذين أعرضوا عن هذا العصر وقضاياه الفكرية فلم يؤثر فيه أو يتأثر به أو من الذين جذبتهم هذه الحياة المعاصرة فنسى ما درس وانغمس فيها كما ينغمس غيره من الذين لم ينعموا بدراسة إسلامية أو تدين فطري.

وإما أن يكون من الذين قضوا وقتهم الدراسي إلا أقله في دراسة علوم طبيعية أو اجتماعية أو رياضية لا يذكر فيها اسم الله قليلا ولا كثيرا بل إن حقائقها- ودعك عن نظرياتها – لتعرض على الطالب بأسلوب غربي، وفي إطار فلسفي غربي ينتقل إلى ذهن الطالب مع انتقال تلك الحقائق والنظريات إليه، بل إن بعض الطلاب لا يميز فيما يدرس بين ماهو حقائق موضوعية صحيحة وما هو من قبيل الآراء والفلسفات والأفكار التي كثيراً ما يجانبها الصواب فيحسب أن هذه كتلك قواطع عملية لا ريب فيها.

وبهذا كله يحدث انفصام في شخصيته بين عمومات الدين التي ورثها عن آبائه وتلقاها من مجتمعه أو لقنها في المرحال الأولى من دراسته وبين هذا التصور العلماني الذي يأتيه في ثوب علمي، فيلجأ إلى العيش بشخصية مزدوجة مسلماً في عبادته وسلوكه ومأكله ومشربه وعلمانياً في فكره وتصوراته أو يلجأ إلى تأويل ما عرف من الدين تأويلاً يجعله موافقاً لهذه التصورات التي صارت جزءاً من فكره أو يصير علمانيًا بحتا فيترك العقدية والعبادة والسلوك الإسلامي، بل قد يكون حرباً عليه.

خريجو الثقافة الإسلامية:

نعم لقد نجا كثيرون منا بفضل الله ورحمته من ويلات نظم التعليم هذه لعدم اكتفائهم بما تعطيهم إياه في قاعاتها الرسمية. لقد بذلوا جهوداً فردية كبيرة فأكملوا ما استطاعوا إكماله من نقص دراستهم " الشرعية" أو نقص دراستهم " المدنية" فصاروا مسلمين مفكرين معاصرين، يجمعون بين الفقه بالدين والاستمساك به وبين المعرفة بعصرهم والاهتمام بقضايا، والقدرة على مخاطبة أهله، فكان أن حملوا هم الإسلام إلى عقول هذا العصر ومؤسساته فكان لهم في كل ذلك الأثر الحميد.

والذي نطمح الآن إليه هو تعديل نظم التعليم وإصلاحها بحيث تعطي معظم طلابها في دراستهم الرسمية ما حصل عليه هؤلاء بجهودهم الفردية، والمرجو أن تكون مادة الثقافة الإسلامية خطوة أولى في هذا الطريق، تتبعها خطوات بإذن الله. وإذا ما عدلت نظم التعليم بحيث تنجح في حل تلك العقدة وفي إعطاء الطالب هذا المنظار الإسلامي الذي يجعله واثقاً من صدق ما جاء به دينه، عالماً بفضله وتفوقه قادراً على الدعوة إلى أصوله وما تخصص فيه من فروعه ببعض الحجج العلمية والبراهين العقلية فإنه سيكون حينئذ مهيأ بإذن الله تعالى لاكتساب المزايا التالية:

أولا: أن تدفعه هذه الثقة والمنهج الذي تسلحه به مادة الثقافة الإسلامية إلى مواصلة دراسته بجهوده الفردية.

ثانيا: أن يكون قد تحصن ضد إغراءات المذاهب العلمانية التي تصور له الإسلام شيئا قد مضى عهده، وانقضى زمانه، فلم يعد يناسب الحياة المعاصرة، بل إنه ليغلّها ويعرقل تطورها، إن مادة الثقافة الإسلامية وما يتبعها أو يصحبها من تعديل في مناهج الدراسات الأخرى ستقدم للطالب الدليل على أن هذا الدين ذو رسالة عالمية إنسانية لا تتقيد بملابسات زمان دون زمان، ولا بخصائص مكان دون مكان، وستبين له أن الأمر على عكس ما يدعي أصحاب هذه المذاهب الإلحادية، إن مذاهبهم بما أنها من صنع البشر واختراعاتهم فإنها لهي المقيدة بتلك الملابسات وبالأهواء السائدة في زمان أولئك المخترعين وبيئتهم المحلية وظروفهم العالمية كما يدل على ذلك ما لايزال يكتشف من جوانب نقصها بعد مدة ليست بالطويلة من تعرض بعضها لمحاولة التطبيق.

ثالثا: أن يكون له القدرة على التمييز بين ما هو أمر فلسفي ورأي بشري أو اقتراح نظري، وماهو حقيقة عينية دل عليها برهان حسي أو عقلي في كل ما يتعرض له من دراسة للعلوم الطبيعية أو الرياضية أو الاجتماعية ولا يأتي إلى هذه العلوم إتيان المنهزم المستسلم المهيأ لا يسلم بكل ما يسطره كتاب أو يتفوه به أستاذ. إلا إنه مالم تتحرر عقول شبابنا من هذه النظرة التبعية المقلدة التي قررت إغلاق باب الاجتهاد بل حتى مجرد التفكير في نتاج الفكر الغربي فلن تكون لهذه العلوم جذور في بلادنا ومجتمعاتنا، ولن تستطيع أن نشارك فيها بشيء أصيل جديد، كما لا يزال أصحابها في الغرب يفعلون. بل سنظل دائما طلاباً ندرسها أو مدرسين لشرحها أو متفرجين مبهورين بها. ولن نكتسب روح التفكير والنقد والاجتهاد والتجديد والأصالة هذه إلا إذا أفاض علينا نظام تعليمنا ثقة بأنفسنا، وإنه لمن أهم وسائل اكتساب هذه الثقة أن نكون على بينة من نظرتنا الخاصة إلى الحياة والإيمان بأنها هي النظرة التي ينبغي أن تعلو على غيرها وتسود. والمرجو من مادة الثقافة الإسلامية إذا ما تصورت تصوراً صحيحاً نستعين عوناً كبيراً في هذا المجال فتساعد الطالب على إدراك ذلل التمييز بين الحقائق القاطعة من جهة، والنظريات والآراء والأهواء من جهة أخرى. فيطرح هذه وينتقدها، ويحاول أن يستبدل بها ما يراه أقرب إلى الحق ويقبل الأخرى لكنه يخرجها عن إطارها الغربي الآنف ليضعها في إطار إسلامي صحيح، فينظر إليها بنور ويرى بينها علاقات لا يراها صاحب الإطار الغربي المادي الإلحادي، ويستنتج منها مالا يستنتجه. ثم يفكر في قضايا ويحاول حل مشكلات تنشئها بيئته الفكرية أو أحواله الاجتماعية إلى آخر ما هناك من مزايا الروح الحرة الأصيلة.

رابعاً: وإذا كان من دارسي العلوم الاجتماعية أو التاريخية أو الأدبية فسيقبل عليها أيضا بتلك الروح الإسلامية المتحررة من أسر الانبهار بالفكر الغربي انبهار جعل كثيرين من " مثقفيها" راضين لأنفسهم بموقف الناقل لفكرهم الشارح له، المبشر به، المعتقد أنه لا يمثل رأياً بشرياً عادياً، وإنما يعده تعبيراً عن روح العصر ومقتضى من مقتضياته بحيث لا يكون الإنسان مثقفاً معاصراً إلا إذا قال به، ولا تكون الأمة متطورة ومتحضرة تعيش عصرها إلا إذا عملت على نشره بين أبنائها نريد لمادة الثقافة

الإسلامية أن تعين في تخليص أبنائنا من شعور العبودية والذلة هذا للفكر العربي سيما في هذا المجال مجال العلوم الاجتماعية والنفسية والفلسفية والأدبية والتاريخية؛ لأن هذه العلوم والمعارف ألصق بتصورات الناس وأكثر بنظراتهم الحياتية فما ينقل عن طريقها من أهواء الفكر الغربي، وتحيزه وانحرافه أكثر بكثير مما يأتي عن طريق ما يسمى بالعلوم البحتة وإن كانت هذه أيضا لا تخلو – كما قدمنا- من ملابسات الثقافة أو الحضارة التي نشأت فيها.

إلا إنه لن تقوم لنا حضارة إسلامية متميزة، ولن نستطيع بناء حياتنا على أسس إسلامية ما لم نبدأ بجعل علومنا الاجتماعية هذه علوما إسلامية. وإسلاميتها لا تعنى أن تكون كل مسألة فيها مستندة إلى نص أو إجماع أو قياس؛ فإن هذه إنما يشترط في مسائل الفقه، أما العلوم الاجتماعية والطبيعية فيكفي في مصدرها مخالفة النصوص؛ لأنه إذا كان بعضها مصدره تلك النفوس فإن بعضها مصدره الواقع ودليله التجربة والمشاهدة أو الخبر الصادق؛ وهي طرق للمعرفة أقرها الشرع.

خامسا: والثقافة الإسلامية بهذا المعنى هي جزء من الثقافة بمعناها العربي الإسلامي الذي أوضحناه وهي بهذا شرط ضروري في ثقافة المسلم لكنها ليست بالشرط الكافي؛ بل لابد أن تضاف إليها الأجزاء الأخرى.

سادسا: وهذه الثقافة التي يتلقاها الطالب في قاعات الدراسة هي التي تعطيه المعيار الذي يقيس به الثقافة الإسلامية بتلك التعريفات الغربية التي ذكرناها والتي قلنا إنها أصبحت الآن جزءاً من مفهوم الثقافة في لغتنا العربية، بل لعله أكثر معانيها شيوعا: الثقافة الإسلامية بمعنى أسلوب الحياة الذي تتبعه الأمة التي نشأ فيها، والثقافة الإسلامية بمعنى الجذب الفكري والروحي والفني من أسلوب الحياة هذا، والثقافة بمعنى ما تخرجه أمته من نتاج في هذه المجالات تصورات غير صحيحة لمادة الثقافة الإسلامية، وإذا كنا قد ابنّا ما نراه التصور الصحيح لمادة الثقافة الإسلامية، فيحسن أن نتناول بإيجاز نقد بعض التصورات التي نراها غير صحيحة.

(أ) فمن ذلك أن بعض الأساتذة المختصين بالعلوم الطبيعية أو الاجتماعية يريدون لمادة الثقافة الإسلامية أن تكون مادة تابعة لتلك التخصصات وخادمة لها: فطالب

الزراعة مثلا يدرس الآيات والأحاديث والأحكام الفقهية المتعلقة بهذا العلم الذي تخصص فيه، وكذلك يفعل طالب الطب البشري أو الحيواني أو طالب علم النفس. أما مثل هذه الدراسة فشيء مهم ما في ذلك شك، وهي مما يعين الطالب على أن ينظر إلى علمه الذي اختص به نظرة إسلامية لكن تحويل مادة الثقافة كلها إلى مادة تابعة للتخصص عليه اعتراضات كثيرة.

منها: أنه من الخطأ أن ينظر إلى مادة التخصص على أنها شيء يستغرق حياة الطالب ويفي بكل متطلباته. إن الاسنان كما أنه طبيب مثلا فهو أيضا أب أو أم أو ابن وهو زوج وجار ومواطن..الخ. وهو بكل هذه الصفات محتاج إلى علوم وقيم ومعايير لا يجرها كلها بل قد لا يجد شيئا منها في مادة تخصصه. وهو قبل ذلك ومعه عبدالله، مهمته في هذه الحياة أن يفي بشرط العبودية فيجعل حياته كلها في هذه الدنيا تعبيرا عن شكره لله وعبادته له. وهو بهذا محتاج إلى هذا النوع بكثير من ذلك الذي يجده في مادة تخصصه حتى بعد ان يضاف إليها ما يناسبها من نصوص الكتاب والسنة.

ومنها: أنه قد ثبت الآن ضرر المبالغة في التخصص ضرره على شخصية الإنسان بصفة عامة، لأنه يضيق أفقه؛ وضرره من ناحية علمية بعد أن بدأت العلوم كلها تتداخل ويؤثر بعضها في بعض تأثيرا كبيرا وبعد أن ثبت اتصال العلوم حتى الطبيعي منها الذي كان يسمى علما بحتا ثبت اتصالها الوثيق بالبينات الفكرية لأصحابها وتأثرها بها.

(ب) لقد نظرت في بعض كتب الثقافة الإسلامية التي تدرس في بعض الكليات الشرعية فوجدت أصحابها قد حولوها إلى مادة فرعية بل مادة طفيلية تكرر ما درسه الطالب من مواد العلوم الإسلامية وتعرضها بصورة أقل علمية وأكثر تعميما لأن أصحابها ليسوا من المختصين بهذه المواد، ولذلك بدأ الطلاب بل بعض هؤلاء المدرسين أنفسهم يشعرون أن الثقافة الإسلامية مادة لا يحتاج إليها طلاب العلوم الشرعية ولا يستفيدون منها، لأنها لا تأتيهم بجديد لم يكونوا يعرفونه.

(جـ) وقد فات بعضهم أن علاج هذا الأمر يكون بالبحث عن مادة لها تعلق بالإسلام لا يدرسها الطلاب ضمن ما يدرسون من علوم شرعية. ولكن هذا وإن كان سيحل

مسألة التكرار ويقدم للطالب شيئاً جديداً قد يكون أيضاً مفيداً إلا إنه لا يحل المشكلة التي أنشئت مادة الثقافة الإسلامية من أجلها إن كل ما يفعله هو تدريس مادة جزئية أو فرعية جديدة تكون في أحسن أحوالها في مستوى المواد الفرعية الأخرى التي يدرسها الطالب.

مراجع المادة ومدرسوها:

من المعلوم أنه لابد لنجاح كل مادة دراسية من جودة المراجع وجودة المدرس، وهذه وإن كانت موضوعات خارجة بعض الشيء عن نطاق هذا البحث إلا إنني رأيت أن أقول فيها كلمة تكملة لتصوري لهذه المادة تاركا لزملاء آخرين إيفاءها حقها.

أن هذه المادة مادة جديدة ليس لها من العراقة ما لمواد مثل أصول الفقه ومصطلح الحديث والنحو واللغة التي ظلت التي تدرس لمئات السنين، والتي خدمت لذلك خدمة كبيرة، وتوفرت لها مئات المراجع الجيدة.

لذلك أرى أنه يجب أن لا يترك أمرها في هذه المرحلة البدائية من مراحلها لاجتهادات الأساتذة وتصوراتهم الشخصية بل يحسن – لكي تفي هذه المادة بالمرجو منها – أن يشترك في وضع تصور لها وكتابة مقرراتها نخبة من الأساتذة الممتازين في عالمنا الإسلامي، ثم توضع هذه الكتابات بين أيدي الطلاب والأساتذة ويترك للأستاذ بعد ذلك حرية محدودة في أن يزيد عليها قليلا أو ينقص منها قليلا، كما يرجى من هؤلاء الأساتذة أن يكتبوا للجنة المؤلفة ملاحظاتهم على المادة قبل تدريسها أو بعده، وأن تخضع هذه المقررات للمراجعة السنوية لعدة أعوام حتى تستوى على سوقها وتحدد معالمها، وتبرز شخصيتها.

كما يحسن أن يراعى في اختيار أساتذتها أن يكونوا ممن تمثلت فيهم النتائج التي نتوخاها فيمن يكمل دراسة هذه المادة من الطلاب، حتى يكونوا لطلابهم مثلا يُحتذى في ثقافتهم، بكل تلك المعاني التي شرحناها.

والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

* * *

عملية التحول إلى الاتجاه الإسلامي بشائرها وتحدياتها

وهذا بحث قدمه الدكتور جعفر شيخ إدريس في المؤتمر السنوي الثالث عشر لاتحاد الطلبة المسلمين الذي عقد في جامعة توليدو بولاية أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية في أواخر شهر أغسطس ١٩٧٥م ونشرته مجلة المسلم المعاصر ١٩٧٩م[1]

كيف يأتي نظام اجتماعي معين إلى الوجود؟:

إن الإجابة عن هذا السؤال تعتمد في تحليلها الأخير على وجهة نظر الإنسان بالنسبة لطبيعة الحقيقة؛ وذلك لأن تحقيق بعض النتائج الاجتماعية المعَيَّنة يعتمد على الأداء السليم لبعض الأفعال التي بدورها تقوم على أساس الاعتقاد في وجود عَلاقة سببية بين تلك الأفعال والنتيجة المرغوبِ في تحقيقها، واختيار تلك الأفعال السببية يعتمد على مفهوم الإنسان للحقيقة ككل. إن الشخص المؤمن بالمذهب المادي – الذي يعتقد بصفة أساسية أنه لا يوجد شيء في الكون سوى المادة وحركتها – لن يُضمِّن تلك الأفعال أشياء مثل الصلاة، أو النِّيات، أو القِيَم الأخلاقية؛ لأن تلك الأشياء في اعتباره ليست بأكثر من مجرد أسماء لا تشير إلى أيَّة حقيقة، ولذلك ليس من الممكن بحال أن تكون ذات أثر.

وإذا كانت الوسائل التي تُتخذ لتحقيق الأهداف ترتبط بتلك الكيفية من وجهة نظر الإنسان بالنسبة للكون؛ فإن عملية التحول إلى الاتجاه الإسلامي يجب أن ترتبط بوِجْهَة النظر الإسلامية تُجاه الحياة. ولقد ثبت ذلك الأمر من خلال حقيقةِ أن الإسلام يعتبر بمثابة رسالة ونظام، إنه يُعتبر كمجموعة من الحقائق التي يجب أن يحولها المؤمن إلى واقع، وإنه يعتبر بمثابة النظام الذي يتم ذلك التحول بمقتضاه. ولقد ورد تلخيص مبادئ ذلك النظام في القرآن، ولكننا لا نستطيع أن نفهمها بطريقة صحيحة إلا في إطار سيرة النبي التي تعد بمثابة ترجمة صحيحة لتلك المبادئ.

إنني فيما يلي أقدم بيانًا مفصَّلا لذلك النظام، ولكنني آمل أن يكون شاملاً، وسأبتدئ من القضايا المتعلقة بالمفاهيم حتى أصل إلى بعض التفاصيل العملية.

---

(١) وقد نشر اتحاد العلماء الاجتماعيين المسلمين سير جلسات اجتماعاته السنوي الرابع في جزأين تحت عنوان (من المسلم إلى الإسلامي) في أغسطس ١٩٧٥، إبريل ١٩٧٦م.

النظرية الحتمية للتاريخ:

إن أسلوبنا للتحول إلى الاتجاه الإسلامي يجب أن يقوم على أساس مفهومنا للعَلاقة الاجتماعية بين السبب والمسبِّب والتفسير التاريخي، أي على أساس وجهة نظرنا تُجاه العملية التي بمقتضاها ترتفع وتسقط الأمم والحضارات. وحتى نتعرف على التفسير الإسلامي لذلك النوع المهم من التغيير الاجتماعي، فمن المفيد أن نضاهِيَه بالفلسفة التاريخية المعاصرة التي تُعد مضلّلة بالرَّغم من سطوتها. وطبقًا لتلك الفلسفة فإن التاريخ يعد بمثابة حركة ذات مسار منفرد ومحدَّد يؤدي بطريقة تدريجية وحتمية إلى الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى أكثرَ تطورًا، ويستطيع الناس أن يؤثروا على تلك الحركة إما من خلال الزيادة أو الحد من درجة سرعتها، ولكنهم ليست لديهم القدرة على إيقافها أو تغيير مسارها، وإن هؤلاء الذين يحاولون إيقافها أو تغيير مسارها ليؤدُّوا إلى إبطائها هم الرجعيون، أما هؤلاء الذين يدفعونها ويعجلون مسارها فهم التقدميون. وإذا كان الإنسان يهدُف إلى تحقيق ثمرات جهوده؛ فإنه يجب أن يستكشف تلك الحركةَ التاريخية، ويرى ما هي المرحلة المستقبلة التي سوف تؤدي إليها، ويرى إلى أي مدى تتماثل أهدافه ومُثُله العليا مع تلك المرحلة، ثم يوجه جميع جهوده إلى الهدف الذي تؤدي إليه تلك الحركة التاريخية بطريقة حتمية، وإلا فإنه سوف يضيع وقته في جهود رجعية لا طائل منها.

ونحن نعلم أن الشيوعيين يقرون بذلك الرأي، ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يفعلون ذلك؛ إذ يوجد الكثير من أعداء الشيوعية الأشداء الذين يفترضون حقيقة ذلك الرأي دون قصد، ونجد من بين هؤلاء الناس الرجال والنساء الغربيين والمتشبهين بالغرب الذين يعتقدون أن المرحلة التي وصل إليها الغرب الآن - وخاصة الولايات المتحدة - تعتبر في مجموعها أكثر تطورًا في كلٍّ من الناحيتين المادية والحضارية، وفوق ذلك فإنها هي المرحلة التي يتحتم أن تنتقل إليها جميع الأمم الراغبة في تحقيق الثورة الصناعية وإحراز المدَنيَّة. وهذا الاتجاه الذي يعتنقه الكثيرون في العالم الإسلامي ممن يعتنقون الشيوعية أو يخفون أنفسهم وراء القناع الغربي يَعتبر أن الموقف الذي يقضي بتحويل المجتمع إلى الوجهة الإسلامية غيرُ ذي جدوى لأنه يتعارض مع الاتجاه التاريخي. وبالنسبة للشيوعيين فإن الاتجاه التاريخي يؤدي إلى الاتحاد السوفيتي وإلى الدولة الشيوعية المثالية، أما بالنسبة لعملاء الغرب والمتشبهين به، فإنه يؤدي إلى الولايات المتحدة، ومن ثم إلى ما سوف تصل إليه الولايات المتحدة.

النظرية الإسلامية للتغيير الاجتماعي:

لعل أفضل طريقة لتقديم الفلسفة الإسلامية للتغيير الاجتماعي - في ضوء ما يجب أن نقيم برنامجنا للتحول إلى الوجهة الإسلامية على أساسه - تتمثل في تعليقنا على تلك الآية القرآنية الشهيرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

إن النقاط الرئيسة التي نجدها في هذه الآية هي:

١- إله لديه قوة مطلقة للعمل.

٢- بشر لديهم حرية محدودة للعمل.

٣- تغيير يحدثه الإنسان داخل ذاته.

٤- تغيير في حالة الإنسان يحدثه الله نتيجة لذلك التغيير الإنساني.

إن تلك النقاط الأربع تُكَوِّن الشرح الإسلامي أو فلسفة التغيير الاجتماعي؛ ولذلك فلندرس ما تتضمنه تلك النقاط بإيجاز.

إن النقطة الأولى تميز مفهومنا للتغيير الاجتماعي عن النظريات المادية والطبيعية التي تفترض عدم وجود الله، ومن ثم تعتنق مبدأ الاكتفاء الذاتي للكون، أي المبدأ القائل: من الممكن تقديمُ تفسير وافٍ للظواهر في هذا الكون، سواء كانت ظواهر اجتماعية أو خلافها بالاستعانة بالقوانين الخاصة بها. إن تلك الفكرة الإلحادية - لسوء الحظ - قد تمت مطابقتها مع الطريقة العلمية بشكل كبير حتى إنه يتم في الحال استبعاد أية إشارة إلى الله في تعليل تلك الظواهر باعتبارها شيئًا يتنافى مع العلم وليس مجرد أنها تتنافى مع الفكر الإلحادي. ومن الواجب أن نحذر من ذلك التشويش الذي لا مبرر له، وأن نُصِرَّ على أهمية وضرورة واستحسان إدراك دور الله في تفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية في عالمنا[1]، وتلك النقطة تميز مفهومنا كذلك عن وجهات النظر الإلحادية التي بمقتضاها يُعَد الخالق مجرد محرك رئيس، دوره الوحيد هو بَدْء الخليقة، ثم تركها بعد ذلك لتعنى بأمرها.

---

(١) لقد حاولت أن ألقي بعض الضوء على تلك المشكلة في مقالتي "العلم الاجتماعي الإسلامي، معناه وملاءمته في (من المسلم إلى الإسلامي)" سير جلسات المؤتمر السنوي الرابع لاتحاد العلماء الاجتماعيين المسلمين، الجزء ٢، اتحاد العلماء الاجتماعيين المسلمين ١٩٧٥، ص١ - ١١..

وإن النقطة الثانية تُظهِر تفوق مفهومنا للتغيير الاجتماعي على النظريات الحتمية التي تفترض أن الإنسان ليست له فاعلية حقيقية أو حرية للاختيار، وأن كل شيء يقوم به يكون مفروضًا عليه بقوة إلهية أو بواسطة مسبِّبات طبيعية أو اجتماعية. والإنسان حقيقةً لا يستطيع أن يفعل أيَّ شيء ضد مشيئة الله، ولكن الله قد شاء أن يمنحه حرية الاختيار، والحرية في تحقيق بعض نياته وإن تعارضت مع الإرشاد الذي قدمه الله له، وإن واحدًا من المجالات المهمة للغاية التي أعطى الله فيها الإنسان حرية العمل هي حالته الداخلية. وبما أن الكثير مما يحدث للإنسان يعتمد على حالته الداخلية؛ فإنه يمكن القول بأن الإنسان يعد مسؤولا إلى حد كبير عن مصيره.

وإن النقطة الثالثة تخبرنا عن تغيير يحدثه الإنسان داخل ذاته. فأي نوع من التغيير هذا؟ هل تغيير من الخير إلى الشر أو العكس، أو إنه من الممكن أن يكون أيا منهما؟ إن التفسير الغالب لتلك الآية الآن هو التفسير الأخير، وإن ما يفهمه معظم الناس الآن من تلك الآية هو أنه عندما يتغير الناس من الخير إلى الشر، يعاقبهم الله بتغيير أحوالهم من الخير إلى الشر والعكس بالعكس. ولكن ذلك يختلف عن التفسير الذي نجده في التعليقات القديمة؛ فإن المعلقين الأقدمين يبدو أنهم يفهمون أن التغيير الذي يشار إليه في الآية هو تغيير من الخير إلى الشر[1] ويبدو لي أن هذا هو التفسير السليم؛ لأنه الوحيد الذي يتوافق مع المبدأ الإسلامي الرئيس ولأنه قد تم تأييده بآيات أخرى كثيرة.

---

(١) هنا بعض الأمثلة:

(أ) الطبري: «إن الله لا يغير حالة القوم، من الصحة والنعمة بأن يحرمهم منها ويهلكم إلا إذا غيروا هم ما بأنفسهم بقيامهم بالأعمال الآثمة تجاه بعضهم البعض واعتدائهم بعضهم على البعض» محمود محمد شاكر (طبعة) تفسير الطبري القاهرة، ١٩٥٧ الجزء ١٦، ص ٣٨٢ - ٣٨٣.

(ب) ويقول ابن كثير في تعليقه على سورة الأنفال ٥٣: «إن الله يخبرنا عن عدالته التامة وإنصافه في الحكم، و أنه لا يغير نعمة منحها لشخص إلا بسبب إثم يكون قد ارتكبه ذلك الشخص»، كما قال..: «ثم اقتبس الآية التي نتحدث عنها. تفسير القرآن العظيم»، بيروت، ١٩٦٩، الجزء ٢، ص ٣٢٠.

(جـ) ويقول ابن الجوزي: «الله... هو الذي لا يحرمهم من نعمة إلا إذا... وارتكبوا ما يحرمه» زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٦٥، الجزء ٤، ص ٣١٢.

(د) وإن القرطبي قد ضرب مثل ذلك التغيير بالهزيمة التي عانى منها المسلمون في غزوة أحد، والتي كانت نتيجة للتغيير الذي حدث في أنفس المحاربين (أي عصيانهم لأوامر النبي) الجامع لأحكام القرآن: القاهرة ١٩٦٥، الجزء ٩ ص٢٩٤..

وإن النقطة الرابعة تقول لنا أنه عندما يتغير قوم، ويعاقبهم الله بأن يحرمهم من بعض النِّعَم الرُّوحية والمادية التي منحها لهم وهكذا يجعلهم يعانون الضِّيق.

النِّعَم فضل من عند الله:

ولكن لماذا أُفَضِّل التفسير القائل بأن التغيير الذي ذكرناه في الآية هو تغيير من الخير إلى الشر؟ إن السبب في ذلك يرجع بصفة رئيسة إلى أن النعم - طبقًا للقرآن - لا تمنح للناس في بادئ الأمر نتيجة لأي عمل خير يقومون به، ولكنها تمنح لهم فضلاً من الله. إن الله هو الرحمن، وذلك يعني أنه سبحانه هو الذي يبادر بالخير ويمنحه دون مقابل ولا ينتظر حتى يبادر الناس بفعل شيء يتسم بالخير ثم يكافئهم من أجله. إن النعم - سواء كانت روحية أم مادية - تمنح للناس من خالقهم وذلك ينبع من رحمته وفضله. ولو أنهم كانوا شاكرين، فسوف تُحفظ لهم تلك النعم، بل إنها سوف تزداد، ولكن لو أنهم ارتكبوا أفعالا تتسم بالجحود، فإن الله يعاقبهم بأن يحرمهم من بعض تلك النعم إن لم يكن منها جميعها، ولكنهم إذا تابوا وعادوا إلى الطريق القويم فإن تلك النعم تعود إليهم. إن المَثَل الذي يدل على ذلك تمامًا هو مَثَل آدم، إن الله قد خلق آدم ووضعه في أفضل الحالات ومنحه الطُّمأنينة ووفر له وسائل الراحة المادية، ولكنه عندما أكل من الشجرة المحرَّمة (التي لم تكن شجرة المعرفة) فإنه فقدَ بعض ذلك. وينطبق نفس المبدأ على المجتمعات والأمم الأخرى التي يُشار إليها في القرآن، كالقرى، أو أهل القرى. فلنبتدئ بالسُّنَن التي تتحكم في سقوط أو هلاك الأمم الجاحدة، ثم ننتقل إلى تلك التي تتحكم في بقاء وسطوة الأمم الشاكرة.

وفيما يلي بعض الأمثلة مما يحدث للأمم الجاحدة: إن أهل سبأ الذين عاشوا بين حديقتين قد أمروا أن يأكلوا مما رزقهم الله، ويكونوا شاكرين لفضله، ولكنهم أعرضوا، ومن ثم أَرْسَلَ عليهم الطوفانَ (سيل العرم) وبدلاً من الحديقتين اللتين أعرضوا عنهما أُعطوا حديقتين بهما فاكهة مُرَّة وأشجار الطرفاء، وقليل من الأشجار الأخرى، يقول الله بصدد ما حدث لهم: **﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾** [سبأ:١٧]. ولقد أخبرنا القرآن أيضًا عن: **﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا**

كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]. وهكذا فإن السقوط والهلاك هو المصير النهائي المحتَّم لكل أُمة جاحدة، أي لأية أُمة تتمرد على الله وتَتَّبع طريق الفسوق.

ولكن ذلك الهلاك النهائي يحدث طبقًا لمبادئ، وفيما يلي بعض منها:

(أ) إن الهلاك أو العقاب لا يقع على أمة إلا بعد أن تُنذَر إنذارًا كافيًا، ومن الممكن أن يأتي إليها هذا الإنذار من خلال وسيط أي رسول من عند الله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]. ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩].

أو أنهم يتم إخبارهم بطريقة أخرى أنهم ظالمون حتى يُعِدُّوا أنفسهم للعقاب. ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤-٥]. إن معنى تلك الآية يبدو أكثر وضوحًا في ضوء حديث النبي الذي يؤكد أنه لا تُهلَك أمةٌ إلا بعد أن تقر أنها هي وحدها الملومة وأنها هي التي جلبت على نفسها الهلاك[1]، وذلك يثبت بالآية: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾[2] [الأنعام: ١٣١].

نستطيع أن نستنتج من ذلك المبدأ الإلهي أو السنن أنه: إذا كان هناك مجتمعان يتساويان في فُسوقهما وجحودهما؛ فإن المجتمع الذي أُنذر سوف يَهلِك قبل المجتمع الذي لم ينذر؛ ومن ثم فإننا نرى من القِصص التي تروى في القرآن حول الأمم المندثرة أن هلاك وسقوط تلك الأمم قد جاء بعد رفضها لرسل الله.

---

(١) ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم.

لقد اقتبس الطبري هذا الحديث في تعليقه على الآية، وهو يقول أنه يوجد دليل واضح في الآية على صحة ذلك الحديث. نفس المرجع الجزء ١٢، ص٣٠٤.

(٢) إن الترجمة الأخرى الجديدة للآية هي:

That is because, the Lord would never destroy for theirworong doing.

(ب) إن الهلاك لا يأتي مباشرة، أي إنه لا يتم إهلاك الأمم أو إسقاطها مباشرة بعد أن تُبْدِيَ ما يدل على الجحود. ومرةً أخرى فإن ذلك يرجع إلى رحمة الله، إن الله يعطي بلا مقابل وبلا حدود ولكنه لا يأخذ ما وهبه دفعةً واحدةً: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]. ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٨-٥٩].

(جـ) إن سقوط كل أمة كما قرأنا في الآية السابقة يكون طبقًا لأجَل محدد ليس من الممكن إرجاؤه أو تعجيله: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٤-٥].

(د) قبل أن تَهلِك الأمة قد تمر بمحن قاسية مما قد يجعلها تتوب وتعود إلى الطريق المستقيم: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

(هـ) لا يتم إنزال العقاب بالنسبة لجميع الآثام في العالم وإلا لهلك جميع الناس: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١].

لقد كانت تلك هي أسباب المحن والبؤس وسقوط الأمم فما هي إذن أسباب ارتفاع الأمم وازدهارها المادي والروحي؟

توجد بصفة رئيسة أحوال إنسانية معتادة يجب أن نكون جميعًا عليها، ويحب الله أن يرانا بها، إن الله يزود كُلاً منا ساعةَ مولده بطباع كريمة، يكون جوهرها الاعترافَ بأننا عباد الخالق الأحد، ويعد ذلك الاعتراف بمثابة جوهر إنسانيتنا ويُعَدّ مَنبعَ وقِوام كل شيء حميد بنا؛ مثل: التفكير المنطقي، والشعور الأخلاقي، الذَّوْق الفني، والمشاعر الأخوية، إلخ... وفوق ذلك، فإن الله خلق كل ما يحيط بنا بغرض منفعتنا؛ ولذلك فإن الحالة المعتادة التي نكون عليها هي حالة من السعادة الداخلية

والطمأنينة التي تجيء نتيجة لشهادتنا الفطرية بعبوديتنا لله، تلك الشهادة التي تجد تجاوبها في الرسالة الإلهية التي تنقل إلينا عن طريق رسل الله، وهي أيضًا تعد حالة من النعيم الخارجي الذي يتحقق نتيجة لأن كل شيء يكون خاضعًا لنا ومقصودًا به إشباع حاجاتنا. إن كل واحد منا يولد تصاحبه تلك الحالة من السعادة الداخلية، ولكن واأسفاه، فإنه ليس هناك أيٌّ منا يجد نفسه في تلك الراحة المادية. إن الكثيرين ممن جاؤوا قبلنا قد غيروا تلك الحالة الداخلية التي خلقهم الله عليها ومن ثم فإنهم تسببوا في أن يمنع الله الكثير من نعمه عن العالم. ولكن الله أكثرُ رحمةً من أن يصيبنا باليأس؛ لذا فإن الباب لا يزال مفتوحًا لجميع الناس ليعودوا إلى هدى الله حتى يتمتعوا بذلك النعيم المادي. وهنا سنقدم بعض أنواع السعادة التي يَعِد بها القرآن هؤلاء الناس:

(أ) الراحة المادية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

(ب) السعادة الروحية: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

(جـ) النصرة على الأعداء: بقدر ما يؤمن الناس بالله ويثقون به، ويطيعونه، يكون الله بجانبهم: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وعندما يكون الله بجانبهم فإنه سوف يدافع عنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج: ٣٨]، وسوف ينصرهم: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]. ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١]. وإذا دافع عنهم الله ونصرهم؛ فلن يستطيع أي شيء أن يتغلب عليهم: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وما داموا

يحفظون عهدهم مع الله، فإنهم لن يقعوا أبدًا تحت سيطرة الكافرين أو يخضعوا لهم: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١]. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

إن جوهر فلسفتنا للتغيير الاجتماعي قد أصبح واضحًا الآن. إن الأمم لا ترتفع وتسقط اعتباطا أو بدون قوانين تنظم نشأتها واندثارها. إن التاريخ ليس بمسار منفرد يجب أن تخطو فيه كل أمة سواء رغبت أم كرهت، فإن عالمنا الاجتماعي يحكمه الخالق الذي يجعل الأمم ترتفع أو تسقط أو تزدهر أو تعاني، وتنتصر أو تخضع طبقًا للقانون الأخلاقي للإقرار بفضل الله.

تطبيق النظرية:

ولكن كيف يستطيع أن يعاوننا ذلك الشرح النظري لارتفاع وسقوط الأمم في إيجاد الطريق للاتجاه بالمجتمع إلى الجهة الإسلامية؟

أولاً: لما كان الاتجاه إلى الوجهة الإسلامية يجب أن يُخطط له، وأن التخطيط يقوم على أساس التنبؤ بأحداث المستقبل؛ فإن ذلك التفسير القرآني للتغيير الاجتماعي يعاوننا في أن ننظر إلى ما وراء المظاهر المتمثلة في القوة المادية لأي أمة حتى نرى العوامل الحقيقية التي تؤدي إلى تماسُكها أو تتسبب في انحلالها. وإننا الآن نعلم أن الطريقة الوحيدة لضمان استمرار نِعَم الله هي اتباعُ الطريق الذي اختاره الله لعباده، وأيةُ أمة تنحرف عن الطريق من المؤكَّد أنها سوف تصاب بالضعف، إن لم تصب بالهلاك التام، ولن تستطيع أي ثروة، أو أي معرفة دنيوية أو قوة مادية - من أي نوع - أن تنقذها من ذلك المصير المحتوم ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: ٩-١٠]. إن واجبنا ليس هو أن نجلس وقلوبُنا مفعمةٌ بالبهجة في انتظار السقوط المحتوم للمجتمعات المنحرفة، كلَّا إن ذلك ليس بموقف أناس يَدينون بالشعور بالمسؤولية، إن واجبنا هو أن نُنذر تلك

المجتمعاتِ بطريقة مخلِصة ورحيمة ومقنِعة؛ حتى نساعدهم في إدراك التماثل بين أساليبهم والأساليب التي أدت إلى سقوط المجتمعات الأخرى، ونشرحَ لهم ببعض التفصيل العملية التي بمقتضاها يؤدِّي الانحراف عن طريق الله إلى الشقاء والمحن، بل ويؤدِّي في نهاية الأمر إلى سقوط المجتمع أو حتى هلاكه التام. إن ذلك الموقف الذي يتضمن تقديم إنذار مخلص ومقنع يجب أن يكون هو موقفَنا تُجاه جميع المجتمعات والأمم سواء كانت تنتمي إلى الإسلام أم لا، إن هدفنا وواجبنا ليس هو تدميرَ المَدَنية الغربية والبناءَ على أنقاضها، ولكنه يتمثل في بذل الجهد لإنقاذها وإرشادها إلى الطريق الصحيح، ولكنها إذا لم تبالِ بإنذارنا أو تستمع إلى نصحنا؛ فإن سقوطها سوف يكون محتومًا، ونكون حينئذ قد أَعفَيْنا أنفسنا من المسؤولية.

ثانيًا: ومما يُعَد أكثر أهمية، أننا بمقتضى معرفتنا أن التقرب إلى الله هو سرُّ النجاح يجب أن نفعل ما في طاقتنا من أجل تحقيق ذلك الهدف، ونرفضَ بحزم كل ما يجعلنا نحيد عنه مما قد يُصاغ إلينا في إطار أساليبَ وحِيَلٍ قد تبدو بمثابة الطريق الممهِّد للنجاح بالنسبة للأشخاص قليلي التبصر الذين تبهرهم الأضواء الوامضة. وإذا كنا نعني بالنجاح مجرد حيازة مجموعة من الناس للسلطة - وذلك ما يحدث كثيرًا - فإننا حينئذ لا نكون في حاجة إلى السعي للحصول على الإرشاد الإسلامي بالنسبة لكيفية تحقيق ذلك، ولكننا إذا كنا نرغب أن تقع تلك السلطة في أيدي أشخاص يستخدمونها لتكوين والحفاظ على مجتمع يتمتع بالتأييد الذي وعد الله بمنحه المجتمعاتِ التقيةَ؛ فإنه حينئذ توجد طريقة واحدة فقط لتحقيق ذلك. وأي جماعة من الناس تحب أن تكون جديرةً بالحظوة التي تضعها في مَصاف أفضل الأمم، يجب أن تُثبت أولاً أنها تسير على هدى الله. إن جوهرَ أن يكون الإنسان على طريق الله هو شيءٌ يكمن في القلب، ومن ثم فهو غير قابل للملاحظة المباشرة بواسطة الأشخاص الآخَرين، ولكنه يكون شيئًا واضحًا لله، وإن الله ينظر في قلوبنا ليرى إذا كنا جديرين بمعاونته لنا أم لا، وبقدر ما نُدين بالإخلاص، بقدر ما نحصل على معاونته وتأييده. إن كل عنصر من عناصر الشرك والنفاق يكون بمثابة عائق كامن في طريقنا، وسببًا كامنًا لهزيمتنا. وهكذا كلما كان المسلمون في وقت النبي يعانون

هزيمةً أو نكسة مؤقتة في معاركهم ضد الكفار، كان الله يوجههم لأن يبحثوا عن سبب ذلك في قلوبهم. فمثلاً فإن سبب هزيمتهم المؤقتة في أُحُد كان يرجع إلى حقيقة أن بعضًا منهم قد رغبوا في متع الحياة الدنيا، وفي حُنين كان يرجع إلى مباهاتهم بأعدادهم الكبيرة. ولذلك فإننا يجب أن نكون منتبهين حتى لا يزحف ذلك الزيف إلى قلوبنا، ولو أنه وجد طريقًا إلى قلوبنا، فإننا يجب أن نبذل كل ما في طاقتنا لنطهر أنفسنا منه بالاستغفار والتوبة، وبإقامة الأعمال الصالحة وغيرها من أعمال العبادة. إن آثامنا هي عدونا الحقيقي، وإن الإخلاص هو سلاحنا الحقيقي الذي لا يمكن تدميره.

إن التأكيد على تلك النقطة من الممكن أن يثير القلقَ ظنا بأن ذلك قد يكون بمثابة دعوة إلى نوع من الصوفية السلبية، وإنكارًا لجميع الأنشطة العامة، وخاصةً السياسية. ومن الممكن أيضًا أن يقودنا إلى الاستنتاج الخاطئ بأن رغبة الجماعة من المسلمين في تولي السلطة تعد شيئًا آثمًا. ولذلك فإنني أود أن أؤكد أن ذلك ليس هو غرضي، وأحب أن أضيف أن ذلك النوع من القلق هو نفسه يعد نتيجة لمفهوم خاطئ للعَلاقة بين حالتنا العقلية وأعمالنا وأنشطتنا. إن جهدنا في تطهير قلوبنا لا يجب تصوره كفعل تَحوُّلي يعوق أو يبطِّئ أنشطتنا العامة، ولا يجب أيضًا أن نتجنب الأنشطة العامة باعتبارها أعمالا دنيوية غير جديرة بالشخص التقي. إن القلب الطاهر الواعي بالله يعد بمثابة قوة دافعة تقودنا إلى الأعمال الدنيوية الصالحة، وإن طبيعة أنشطتنا العامة تعد بمثابة التعبير الظاهري لنوع الإيمان الذي يكمن في قلوبنا. لقد أعلنتُ فيما سبق أن أسلوب الشخص في تحقيق هدف مرغوبٍ فيه يعتمد على ما يعتبره بمثابة مسبِّباته الفعالة وعلى مفهومه للعَلاقة القائمة بين تلك المسبِّبات. إن المُلحدين يَقصُرون أنفسهم على الأسباب الطبيعية والجهد الإنساني، ظانين أن تلك فقط هي الأسبابُ الحقيقية الفعالة لأي تغيير في العالم. ونحن نضيف إلى تلك الأسباب اعتقادنا أنه بما أن كل شيء في العالم هو من خلق الله؛ فإن الله وحده هو المسبِّب النهائي لكل ما يحدث في العالم؛ ولذلك فإنه يكون أمرًا طبيعيًا بالنسبة لنا أن نُضمِّن في نظامنا للأسباب الفعالة أشياءَ مثل الصلاة، والاستغفار، والتوبة، وعمل ما يوصي به الله وتجنب ما يحرمه، ويصل الإنسان إلى مصاف أولياء الله من خلال أفعال العبادة تلك. وعندما نكتسب

محبة الله (المكتوب حب الكائن) الذي يتحكم في العالم لن يستطيع أي شيء أن يقف في طريقنا. إن اتجاهنا هذا سوف يبدو غريبًا عندما تتم مقارنته بالأفكار والفلسفة السائدة الآن في عالمنا. وطبقًا لما قال النبي ﷺ فإن الإسلام قد بدأ غريبًا حينما ظهر، وسوف يعود غريبًا مرةً أخرى، يقول رسول الله ﷺ: **(بَدَأَ الإسلام غَرِيبًا، وسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)**؛ رواه مسلم. ولو أننا رغبنا في أن نكون على طريق الله ونحظى بتأييده، فإن من الضروري - ولكنه ليس من الكافي - أن نكون مخلصين طاهري القلوب، وإلى جانب الرغبة المخلصة في إرضاء الله، فإننا يجب أن نضيف التعرف على الأفعال الصالحة والأساليب التي ترضي الله والتي يَعتبرها أفضل الوسائل لتحقيق الغايات التي وضعناها نصب أعيننا، وأن ذلك ينطبق على رغبتنا في تحقيق الدولة الإسلامية المثالية. ونظرًا لأن هدف النبي ﷺ عندما كان في مكة كان أن يُكَوِّن مثل تلك الدولة؛ فإننا يجب أن ندرس سيرة النبي ﷺ وأحاديثه الموثوقَ بصحتها إلى جانب القرآن.

الأهمية الأساسية للدولة الإسلامية:

بانتقالنا إلى سيرة النبي ﷺ أجد من الضروري أن أبرر العبارة التي طرحتها الآن حول هدف النبي ﷺ بالنسبة لتكوين الدولة الإسلامية. إن هدف النبي ﷺ باعتباره رسولاً لله كان يتمثل في نقل رسالة الله إلى عباده، وتلك حقيقة، ولكن من الحقيقي أيضًا أن المحاولة لتكوين مثل تلك الدولة الإسلامية تعد جزءًا مهما من تلك الرسالة. ولقد قيل: إنه إذا كان أحد أهداف النبي ﷺ يتمثل في تكوين مثل تلك الدولة لَمَا رفض العرض الذي جاءه من مكة لتولي منصب الرئاسة، ومعلوم أن النبي عليه السلام قد رفض ذلك العرض، ولكن السبب في ذلك هو أن قبوله لم يكن: "نجعله رئيسًا لدولة إسلامية"؛ بل كان سيصبح رئيسًا لقوم لم يؤمنوا حتى برسالته، ولكنهم عرضوا عليه ذلك المركز كرشوة لحثه على التوقف عن نشرها، والشخص الذي يقبل مثل ذلك العرض لا يكون نبيا حقيقيا، بل يكون إنسانا تتملكه الرغبة في السلطة، ويكون الادعاء في النبوة بالنسبة له ليس بأكثر من وسيلة لتحقيق تلك الرغبة. إن حقيقة أن النبي ﷺ كان تَوَّاقًا إلى تكوين دولة إسلامية تَظهَر بوضوح

حين ندرك أنه إلى جانب محاولته إقناعَ الناس باعتناق الإيمان الجديد، فإنه كان يبذل أقصى جهده ليظفر بتأييد جماعة منظَّمة ومستقلة تكون بمثابة معقل لذلك الإيمان. ولتحقيق تلك الغاية فإنه اعتاد أن يتصل برؤساء القبائل المختلفة، وخاصةً في وقت عَقْدِ الأسواق السنوية في مكة، ويطلب منهم أن يَقبلوه كنبيٍّ وأن يكونوا حماة الإيمان الجديد، وأخيرًا فإن قبيلتين من المدينة، وهما الأوس والخزرج فعلتا ذلك ومكنتا من قيام أول دولة مسلمة نشأت في أراضيهم.

ولنفترض الآن أن عددًا من المسلمين قرروا العمل لتحقيق تلك الغاية. فبأي وجه يستطيعون أن يَفيدوا من سيرة النبي ﷺ في المرحلة المكية؟

موقفان متطرفان:

اعتنق عدد كبير من الناس موقفين متطرفين: الأول: هو أنه نظرًا لأن رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - قد اكتملت أخيرًا في شكل القرآن ومجموعة الأحاديث الموثوق بها، التي تحت تصرفنا الآن؛ فإن المراحل الأولى التي مرت بها تلك الرسالة لا تتلائم الآن مع نوع النظام الذي يجب أن نتَّبعه في نشرها أو ممارستها، ولكن ديننا كامل ويجب أن تتم ممارسته في مجموعه، وليس من الممكن إيقافُ أو إرجاء تطبيق جزء منه لأي سبب من الأسباب.

أما الموقف الآخر: فهو أن الناس الآن قد ارتدوا إلى نوع من الجاهلية المكية التي كانت سائدة في وقت رسالة النبي ﷺ؛ ولذلك فإنه يجب علينا أن نبتدئ من النقطة التي ابتدأ منها النبي، ونمر بجميع المراحل التي مر بها، حتى نستطيع في نهاية الأمر تكوينَ دولتنا الإسلامية.

وكلٌّ من هذين الموقفين ليس من الممكن الدفاعُ عنه؛ أما الأول فلأنه يتجاهل الحقيقة المهمة التي ذكرناها سابقًا، وهي أن الإسلام يعد بمثابة رسالة ونظام، وأن الأسلوب الذي بمقتضاه يتم نقل الرسالة وممارستها يعد جزءًا لا يتجزأ عن الرسالة ذاتها، ومن ثم ليس من الممكن تجاهله. وإذا قبلنا ذلك الأمر، فإننا نستطيع دائمًا أن نسترشد بالأساليب التي اتبعها النبي ﷺ في أي فترة من حياته.

وكذلك الموقف الثاني؛ لا يمكن الدفاع عنه؛ لأنه من المستحيل أن ننقُل موقفًا تاريخيًا كاملاً من إحدى الفترات الزمنية، ونفرضَه على الفترة الزمنية التالية. وذلك

هو ما يطالب به الموقف الثاني تمامًا. ويمكننا رؤية نتائج مثل تلك المحاولة في المثل الحي لبعض الشباب الذين أعرفهم، والذين حاولوا اتباع ذلك الأسلوب؛ نتيجةً لفهمهم الموضوعي للكاتب المسلم العظيم الشهيد سيد قطب، وهم قد ابتدؤوا بتكوين جماعة وانتخاب قائد، وقد كان من المفترض أن تكون تلك الجماعة متماثلة مع جماعة المسلمين الأوائل، ولكنهم تجاهلوا حقيقة أن هؤلاء الذين تجمعوا حول النبي ﷺ قد كانوا هم المسلمين وحدهم على وجه الأرض، وحتى يضاهوا تمامًا بين تلك الجماعة وجماعة النبي ﷺ فإنهم أطلقوا عليها اسم جماعة المسلمين، وتلك عبارة توحي أنهم هم المسلمون الوحيدون، وهم قد اعتقدوا بالفعل أن من لا ينتمي إلى جماعتهم لا يكون مسلمًا، أو كما يقول المعتدلون منهم يكون مجهول الحال، أي مشكوكًا في أمره، وعندما سألتُ بعضهم ذات يوم: بأي حق ينكرون الإسلام على شخص ينطق بالشهادة، ويقيم الصلاة ويعرف باستقامته الأخلاقية؟ وكان الجواب "ولكن من أجل أن تكون مسلمًا يجب أن تنتمي إلى المجتمع الإسلامي، وهؤلاء الناس يعيشون في مجتمع الجاهلية!" قلتُ: "إذا كنتم تَعنُون بالمجتمع الإسلامي مجتمعًا مثل مجتمعكم، حينئذ فإنه يوجد الكثير من المجتمعات الإسلامية الأخرى" فقالوا: "إنها ليست بإسلامية لأنها تقبل هؤلاء الذين يعيشون في مجتمع الجاهلية كمسلمين وإن أي شخص يَعتبر مِثلَ هؤلاء الناس مسلمين يكون هو نفسه ليس بمسلم!!" وهم اعتقدوا أنهم نظرًا لكونهم في المرحلة المكية؛ فإنهم يجب عليهم أن يَحْذُوا حذو النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يدعوا الناس فقط إلى مبادئ العقيدة، ولا يتحدثوا إطلاقًا عن أشياء مثل الاقتصاد، والأمور السياسية، والعدالة الاجتماعية، إلخ... وقد ظهر سؤال حول ما إذا كانوا هم أنفسهم يجب أن يمارسوا ذلك الجزء من الشريعة الذي أوحي في المدينة؟! وانقسمت الآراء حول تلك المسألة إلى قسمين، وعلى الأقل كان واحد من القسمين يعتبر الآخر غير مسلم!!.والمجموعة التي اعتقدت أنهم لا يجب أن يمارسوا ذلك الجزء من الشريعة الخاص بالمدينة قد وصلت في تطرفها إلى حد إهمال دراسة الآيات القرآنية المدَنيَّة!

أما ذلك الجزء من المجموعة الذي اعتقد بوجوب ممارسة الشريعة في مجموعها ذهب إلى مدى جَلْد أحد الأعضاء الذي اعترف بأنه ارتكب الزنا. إنني أعتقد أن المثل الذي

ضربه هؤلاء الشباب المتحمسون والمخلصون في كثير من النواحي يشكل إنذارًا ملائمًا ضد ذلك النوع من التطرف.

التماثل والاختلاف:

الموقف الصحيح - كما أعتقد - هو أن الإنسان يجب أن يبحث عن التماثل ولكنه يجب أيضًا أن يُقر بالاختلافات بين أي جماعة مسلمة معاصرة في بلدة معينة وبين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في كل من فترتي مكة والمدينة. وعندما تجد مثلُ تلك الجماعة نفسَها في موقف يتماثل مع موقف المسلمين الأوائل فإنها يجب أن تقتدي بسلوك النبي في ذلك الموقف. ونستطيع أن نصور تلك النقطة بقليل من الأمثلة:

١- إن القوم الذين قَبلوا الإسلام في مكة لم يُتركوا ليعيشوا كأفراد منعزلين، بل كَوَّنوا جماعة منظمة، وإنني أعتقد أن الحكمة من وراء ذلك هي:

أولاً: أن المسلمين - طبقا للقرآن - يُعَدون بمثابة أمة، أي إنهم أخوة، ومن ثَمَّ ليس من الممكن أن يكونوا مسلمين تماما لو أنهم عاشوا متفرقين. إن ذلك قد يبدو موهما بالتناقض، ولكنه صحيح، فإننا عندما نعيش منعزلين لن نحقق كِياننا أو نشعر بالرضاء لأنه يوجد بداخل كل منا فراغٌ ليس من الممكن أن يملأه سوى أخوة المسلمين الآخرين.

ثانيًا: إنه إذا كان هدفنا النهائي هو تكوين مجتمع خاص بنا، حينئذ فإنه يجب أن يتم تكوين بَذْرة ذلك المجتمع داخل المجتمع الذي نرغب في تغييره. وبتلك الطريقة فقط نستطيع أن نواجه تحديات المجتمع الذي نعارضه، وحينئذ نستطيع أن نشعر بنعمة العيش في مجتمع مسلم ونعطي الآخرين مَثَلا حيا لذلك المجتمع.

والعبرة في ذلك بالنسبة لأي قوم يرغبون في تكوين مجتمع مسلم صحيح يمكنه التطور حتى يصبح دولة مسلمة، هي:

(أ) أنهم يجب أن ينظموا أنفسهم في جماعة ويكون لهم قائد. وإن الشيء السليم هو أنه يجب أن تكون هناك جماعة واحدة فقط من المسلمين تعمل في مجتمع معين من الجاهلية أو شبه الجاهلية. وكلما كثر عدد الجماعات التي لدينا، كلما انحرفنا عن الاقتداء بالنبي ﷺ ومن ثم تأخرت عملية التوجه بالمجتمع إلى الوجهة الإسلامية.

ولكنه إذا حدث لسبب أو آخَرَ أن وُجِدَ أكثر من جماعة واحدة فإن أفضل موقف هو أن تتعايش تلك الجماعات بطريقة ودية، وتتعاونَ في العمل على تحقيق الغايات المشتركة، وتُنسقَ جهودها من أجل ذلك. ويجب أن تتذكر تلك الجماعات أن الرابطة التي تربطها سويا وهي شهادة أن لا إله إلا الله - تعد أكثر أهمية من الخلافات التافهة التي تَبُثُّ الفُرْقة بينها.

(ب) ويجب أن يتذكروا أن قائدهم ليس بنبي يجب الإيمان بكل كلمة يتفوه بها واتباعُها، فإنه هو نفسه تابعٌ للنبي ﷺ؛ ولذلك يجب اتباعه فقط بقدر ما يَتَّبع هو النبيَّ ﷺ، ويجب أن يقوم الأَتْباع المثقفون لمثل ذلك القائد ببذل ما في طاقتهم ليحصلوا على المقياس الذي بمقتضاه يستطيعون تقويم قائدهم، أي القرآن والسنة. إن مثل ذلك القائد لا يصل إلى مرتبة النبيِّ فحسب؛ بل إنه لا يصل حتى إلى مرتبة أمير المؤمنين مثلما كان أبو بكر وعمر، أو أيٌّ من الخلفاء المسلمين. ومن أجل أن يكون الشخص أميرا بتلك الكيفية، فإنه يجب أن يكون بمثابة القائد الفعلي للمسلمين، أي يكون هو الشخصَ الذي يمسك بزمام السلطة الحقيقية ومن ثم يستطيع تطبيق القانون الإسلامي. إن قادتنا يُعتبرون حقيقة كأمراء، ولكنهم أمراء في مفهوم أضيق؛ ولذلك فإنه يكون من الخطأ من ناحيتهم أن يطالبوا بالسلطات التي منحها النبي للقادة، ومن الخطأ من ناحيتنا أن نزودهم بمثل تلك السلطات.

(جـ) أنهم يجب أن يبذلوا ما في وسعهم ليحافظوا على الأُخُوة التي تعتبر قوام وَحْدَتهم، ويتذكروا أن الشيطان سوف يفعل ما في طاقته ليقضي على تلك الوَحْدَةِ بما يطلق عليه القرآن (النزغ)، وأن يكونوا على ثقة من أن النزاع والصراع لن يجلب لهم سوى الفشل والانحلال.

(د) طبقا لنفس المَثل الأعلى؛ فإنه يجب أن يكون هناك أيضًا تعاوُنٌ بين التنظيمات الإسلامية على النطاق العالمي، وبين تلك التنظيمات وأي دولة مسلمة حالية تكون راغبة في تقديم المساعدة والعون. ونأمل أن يأتي الوقت الذي تَعتبر فيه الدولةُ المسلمة أرضَها مقرًا لجميع المسلمين المخلصين وتَفتح أبوابها لهم، وتقبلهم كمواطنين يتمتعون

بجميع الحقوق، وتُعجل بعملية التوجه إلى الاتجاه الإسلامي في العالم بأجمعه كجزء من واجبها، وهكذا تقدم لها جميع التأييد المعنوي والمادي والمساندة التي تحتاج إليها.

٢- إن النبي ﷺ في مكة، باتباعه إرشادَ القرآن، قد ابتدأ في دعوة الناس إلى المبادئ الرئيسة للإيمان، وإنني أعتقد أنه فعل ذلك لأن الإسلام ليس مجردَ مجموعة من الأوامر والنواهي، إنه نظام يتمشى مع كل من الناحية المنطقية والنفسية. وهكذا فإننا لو لم ندعم الأساس الداخلي لن نستطيع أبدًا أن نقيم أي بنيان خارجي قوي، أي لو لم يتم دعم الإيمان بقوة في قلوب الناس؛ فإنه يكون من غير المجدي أن نطالبهم بفعل ما أمر به الله وتجنُبِ ما نهى عنه. وقد وضح ذلك تمامًا في كلمات عائشة التي قالت - طبقا للبخاري: إنه عندما جاء النبي ابتدأ في إخبار الناس عن الله والآخرة فقط، وبعد أن آمنوا بذلك فإنه ابتدأ في إخبارهم أنهم يجب أن لا يشربوا الخمر أو يرتكبوا الزنا. ولو أنه كان ابتدأ بالأمر الثاني لكانوا قد رفضوا بصلابة أن يلتزموا بأوامره ويكفوا عن تلك الآثام.

القضايا الكبرى:

ولكن هنا نقطتان يجب أن نلاحظهما:

(أ) أن النبي ﷺ لم يَقصُر نفسَه على الحديث عن أمور العقيدة فقط، بل أيضًا - مَثَله مَثَل من جاء من قبله من الأنبياء - قد شرح النتائج الأخلاقية والاجتماعية لتلك العقيدة، وأن ذلك الأمر هو الذي يؤثّر في القلب أكثر من الحديث النظري عن العقيدة، وهو الذي يتسبب - عادة - في جانب معارضة الناس من ذوي المصالح في مجتمعات الجاهلية المتعارضة مع الإسلام، واضطهادِ هؤلاء الناس للأنبياء.

(ب) عند دعوة الناس للإيمان الجديد، فإن النبي ﷺ لم يتحدث إليهم بأسلوب جازم أو عاطفي بحت، ولكنه لجأ إلى المناقشة المنطقية وإلى البراهين المادية. لقد تحداهم عقليا وأنذرهم بإخلاص، وطلب منهم النظر في التاريخ بترو للاعتبار به، وشرح لهم حقيقة أنه كان يدعوهم إلى الطريقة الوحيدة التي تجلب لهم السعادة المادية والروحية في هذه الحياة والحياة الآخرة. إن حقيقة أن تلك الطريقة الحكيمة لتعريف الناس بالإسلام لم تقتصر على الفترة المكية قد تم الإلماح إليها في حديث النبي ﷺ حول غربة الإسلام: (**بَدَأَ الإسلام غَرِيبًا، وسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**). إن

ذلك الحديث يشرح ويثبت ما ذكرته عن التشابه في المواقف؛ فإنه يخبرنا أنه سوف يأتي وقت عندما ينظر الناس إلى الإسلام بنفس الأسلوب الذي نظر به المكيُّون إلى الإسلام عند ظهوره لأول مرة، وإن ابن تيمية بنفاذ بصيرته المعتاد قد استنتج من ذلك الحديث أنه عندما يصبح الإسلام غريبا للمرة الثانية فإنه يجب أن نعتنق نفس الأساليب التي اتُّبعت لنشره عندما بدأ غريبًا في المرة الأولى. ونقصد بذلك أنه يجب أن نركز على القضايا الأساسية الرئيسة، ونستخدم العقل والمناقشات المنطقية لإثبات حقيقة تلك المبادئ، وإثبات زيف المذاهب المضادة. ولذلك يجب علينا - طبقا لسنة النبي ﷺ - أن نبذل ما في وسعنا لأن نشرح النتائج الأخلاقية والاجتماعية لتلك الحقائق الأساسية، وأن نطبق النقد الشامل على مجتمعنا، ونقدم بديلاً مقنعاً. وعند عَمَلِنا ذلك، فإنه سوف يكون من غير العملي ومما يشكل جمودا غير ضروري أن نقصر أنفسنا على تعليمات الإسلام المكية، إنه يكون من غير العملي؛ لأن الأمر يختلف عن حالة المكيين الأوائل، فإن الكثير من الناس الآن - بما فيهم غير المسلمين يعرفون تفاصيل الإسلام التي أوحيت في المدينة. ولذلك لا نستطيع أن نعاملهم كما لو كانوا جهلاء بالسُّور المدَنِيَّة، ولا نستطيع أن نرفض الإجابة عن بعض الأسئلة التي يطرحها مثل هؤلاء الناس بدون أن نضعف من موقفنا. إن مثل ذلك الجمود يعد ضارًا لأنه يحرمنا من مَيْزَةٍ وضعها الله تحت تصرفنا. إن كُلاً من الرسل الذين جاؤوا قبل محمد ﷺ - إلى جانب دعوتهم الناس إلى الحقيقة الأساسية للدين - فإنهم كانوا يُعْنَوْنَ بالمشكلة الاجتماعية المعينة للناس المعينين الذين أُرسلوا إليهم. وهكذا فإن موسى قد اهتم بتحرير قومه من الحكم المستبد لفرعون واستئصال الظلم الاقتصادي، وكان لوطٌ يوجه اهتمامه للقضاء على الفساد الاجتماعي، ولكن الإسلام يَعنى به أن يكون لجميع الناس وجميع الأجيال القادمة، ومن ثَمَّ فإنه يعالج جميع المشاكل الإنسانية الرئيسة. والآن نظرًا لوجود ذلك الكنز تحت تصرفنا، ونظرًا لأن الناس في وقت ما ومكان ما قد يشعرون بإلحاح بأيٍّ من تلك المشاكل؛ فإننا نستطيع أن نكتسبهم إلى الطريق المستقيم بأن نقدم لهم حل المشكلة التي تقلق راحتهم. وإنني لا أجد أي سبب لعدم استغلالنا لتلك الميزة. وحتى نفعل ذلك بطريقة فعالة ونقدم الإسلام لأي مجتمع بطريقة مقنعة، فإنه يجب أن نحترس بالنسبة للمبادئ الإسلامية التي صِيغَتْ في إطار تاريخي مشوش في

فترة ما في الماضي، بما في ذلك الإطار الذي صَوَّرَ فيه النبي عليه السلام أن المبادئ تعد بمثابة الجوهر، وأن تطبيقها في وقت معين هو الشكل الخارجي المتغير، ولكننا يجب أيضا أن نحترس من أن نصوغ تلك المبادئ في شكل غير ملائم لمجرد أنها سوف تُقَدَّمُ إلى مجتمع معاصر ومتقدم من الناحية المادية مثل الولايات المتحدة الأمريكية.

٣- إنني الآن سوف أنظر باختصار - في ضوء السيرة - إلى مجموعة من الأفكار الخاطئة حول عملية التوجه إلى الاتجاه الإسلامي:

(أ) إن بعض الجماعات في حين أنها لا تذهب إلى مدى الاعتقاد الواعي بأنها تتكون من المسلمين الوحيدين، فإنها تقوم بالعمل والتخطيط على أساس ذلك الافتراض، ومن ثَمَّ ترفض الاعتراف بالمساهمات القيمة للجماعات الأخرى، والأفراد والهيئات الرسمية وتحاول أن تعزل نفسها عنهم. وفي الحقيقة لم يكن هناك شيء إسلامي في الفترة المكية سوى أفعال النبي ﷺ والمسلمين القلة الذين اتبعوه، ولكن النبي ﷺ قد شجع كل شيء كان يُعتبر حميداً طبقاً لمقاييسه الإسلامية، وكان يقر به كشيء حميد. وهكذا حينما كان في المدينة فإنه تذكر حلف الفضول وامتدحه، وقد كان هدف ذلك الحلف هو الدفاعَ عن المظلومين ومساعدة الفقراء، وكان النبي ﷺ قد اشترك في تكوينه عندما كان في العشرين من عمره، لماذا يجب حينئذ أن نرفض الاعتراف بالطبيعة الإسلامية لشيء أو عمل لمجرد أن شخصًا آخر هو الذي قام به؟ إنني أعتقد أن الاتجاه السليم هو الاعتراف والتشجيع لكل شيء إسلامي بصرف النظر عمن قام به، واعتباره مصدر قوة لعملية التوجه إلى الوجهة الإسلامية.

(ب) يوجد بعض الذين يعتقدون أننا لا نستطيع أن نُكَوِّنَ دولة إسلامية في بلدة معينة:

١- إلا حينما نجعل جميع من سَيَكُونون بمثابة أعضائها مسلمين حقيقيين ومخلصين، ولكن النبي ﷺ لم يفعل ذلك، ومن المؤكد أنه من الخطأ وغير العملي أن نعتقد أنه ليس من الممكن إقامة مثل تلك الدولة في أية بلدة إلى أن يقتنع معظم أهلها، أو إلى أن نكون قدمنا تعليماً وتدريباً إسلامياً صحيحاً لجميع الموظفين الذين سوف يتولون مؤسساتها.

٢- وإلا حينما نُعِدُّ مُخَطَّطًا لمجتمع المستقبل هذا. ومرة ثانية، فإن النبي ﷺ لم يفعل ذلك ولم يفعله أي مُصلِح أو أي حركة ثورية في أي وقت.

٣- وإلا حينما يكون لدينا قادة يتمثلون في رجال يحوزون على المعرفة والتقوى مثل أبي بكر وعمر. ولكننا لا نقوم بأي عمل من أعمال العبادة في الشكل السامي الذي كان يقوم به أبو بكر أو عمر، وإنهما هما أنفسهما لم يصلا إلى مستوى النبي، ولذلك فلتكن دولتنا ناقصة مثل صلاتنا، وبأية حال فإنها سوف تكون أفضل من الدولة الغير المسلمة، مثلما تعتبر صلاتنا الناقصة أفضل من لو لم نصل على الإطلاق. فلنفترض الآن أن مجموعة من المسلمين الذين يعملون على تكوين دولة إسلامية في جزء ما من العالم هم:

(أ) مخلصون.

(ب) ويَتَّبِعُونَ الأسلوب الصحيح للتحول إلى الوجهة الإسلامية.

إن الجواب هو أن نجاحهم يعتمد على شرط آخر، وهو أن هؤلاء الصادقين منهم عن حق يجب أن يتصفوا بالحكمة بالمقارنة مع هؤلاء الذين يعارضونهم. وإلا فإنهم قد يتعرضون للاغتيال بواسطة أعدائهم، أو قد يُرغَمُون على ترك وطنهم إلى مكان آخر مثل الأنبياء، وكثير من المؤمنين المخلصين مثل أصحاب الأخدود.

أولاً: لأن الله يقول: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]. ونظرًا لأن عون الله في تلك الحالة لم يأت في شكل النصرة على أعدائهم - للسبب الذي ذكرناه - فإنه من المحتم أنه سوف يجيء في شكل عقاب لهؤلاء الأعداء جزاءً لما ارتكبوا. وهكذا، إذا لم تنجح الجماعة الصغيرة للمسلمين المخلصين في أن تحل مَحَلَّ الجماعات الكبرى من غير المؤمنين، فإنها على الأقل سوف تؤدي إلى سقوطهم، وفي أثناء ذلك فإنها سوف تنجح في الحد من الشر في العالم، وهكذا تمنح الخير فرصة جديدة لأن يزدهر.

ثانيًا: لأنهم بالطبع سيحصلون على الأجر الحقيقي في الحياة الحقيقية، الحياة الخالدة بعد الموت، ويتمتعون بالسعادة القصوى بأنهم سيكونون دائماً في حضرة الله سبحانه وتعالى.

* * *

منهج مونتغمرى واط في دراسة نبوة محمد ﷺ

وهذه دراسة قدمها الدكتور جعفر شيخ إدريس ضمن بحوث عن مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية التي تولتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربي لدول الخليج بمناسبة احتفائهما بحلول القرن الخامس عشر الهجري، ونشرها مكتب التربية لدول الخليج ١٤٠٥هـ الموافق ١٩٨٥م.

هل كان محمداً صادقاً في قوله إنه رسول الله؟

وهل القرآن كلام الله حقاً؟

وما طبيعة الوحي المحمدي؟

وما العلاقة بين القرآن وبين وعي محمد؟

وبينه وبين البيئة التي عاش فيها محمد ﷺ.

هذه أهم الأسئلة التي حاول الإجابة عليها المستشرق البريطاني مونتغمرى واط MONTGOMARY WATT فيما يتعلق بنبوة الرسول ﷺ في ثلاثة من كتبه هي التي سنقصر الحديث على جوانب منها في هذا البحث الذي قسمناه ثلاثة أقسام.

نبدأ الحديث في الجزء الأول عن المنهج الذي زعم الكاتب أنه سينتهجه ويلتزم به، ثم نتحدث في القسم الثاني عن مدى التزامه بهذا المنهج في معالجته للقضايا التي أثارها وفي النتائج التي تصل إليها، ثم نبين في القسم الأخير الفرق بين المنهج الذي أدعاه والمنهج الذي سلكه في الواقع.

المنهج المدعى:

يبدأ واط مقدمة كتابه "محمد بمكة" بفقرة عنوانها: " الموقف"، أي الموقف الذي يلتزمه في بحثه فيقل: «إن هذا الكتاب سيهتم به ثلاثة أنواع على الأقل من القراء: أولئك الذين يهتمون بالموضوع باعتبارهم مؤرخين وأولئك الذين يقبلون عليه باعتبارهم مسلمين والذين يقبلون عليه باعتبارهم نصارى، ولكنه على كل حال موجه أساساً إلى المؤرخين. وقد حاولت أن ألتزم الحياد في القضايا المختلف فيها بين الإسلام والمسيحية، مثلا لكي أتجنب الحكم على القرآن بأنه كلام الله أو ليس بكلامه فقد تجنبت

حين الاشارة إلى القرآن استعمال عبارتي قال الله" أو " قال محمد " فلم أقل إلا " قال القرآن" إننى لا أعتقد أن الانصاف التاريخي ينطوي على نظرة مادية وإنما أكتب باعتباري موحداً»[١].

ثم يعترف بأن نظرته الأكاديمية هذه لا تكفي، ويدعو المسحيين لا تخاذ موقف ديني من محمد، ويقول إن كتابه وإن كان ناقصاً من هذا الجانب إلا «أنني أزعم أنه يضع بين أيدي المسحيين المادة التاريخية التي يجب اعتبارها في تحديد الحكم الديني»[٢].

ثم يطمئن قراءة المسلمين بأنه قد حاول مع التزامه بقواعد البحث التاريخي الغربية إلا يقول شيئاً يقتضى «رد أي من مبادئ الإسلام الأساسية». ويؤكد أنه «ليس من الضروري أن تكون هنالك هوة لا يمكن اجتيازها بين هذه البحوث الغربية والعقيدة الإسلامية» وإذا كانت بعض النتائج التي توصل إليها الباحثون الغربيون غير مقبولة للمسلمين فربما كان السبب أن هؤلاء الباحثين لم يلتزموا دائماً بقواعد بحثهم وأن نتائجهم هذه تحتاج إلى مراجعة حتى من الوجهة التاريخية البحته. ولكن ربما كان صحيحاً أيضاً أن هنالك مجالا لإعادة صياغة المبادئ الإسلامية من غير تغيير في جوهرها.

هكذا يوجز لنا واط موقفة أو منهجه في دراسة السيرة النبوية ثم يعود إلى الحديث عنه في ثنايا كتابه هذا وكتابيه الآخرين إما بتكرير ما قال أو تفصيله أو زيادته.

فهو يكرر في احدهما القول بأنه محايد بين القول بأن القرآن كلام الله أ أنه من محمد أو أنه فعل إلهي صادر بوساطة شخصية محمد، لأن هذه الآراء خارجة عن مجال المؤرخ وأنه قد حاول – مجاملة للمسلمين – أن لا يقول شيئاً فيه انكار لشيء من معتقداتهم الأساسية. ولذلك درج على استعمال عبارة " قال القرآن" بدلاً من " قال محمد" ولكنه يحذرنا من أنه إذا قال عن كلام أنه أوحى إلى محمد فإن هذا لا يعنى أنه يعتقد بأن القرآن كلام الله[٣].

---

(١) محمد بمكة ص٣.
Muhammad at Mecca, The Clarendon Press, 1953.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

وأما الكلام عن البحث العلمي وأنه لا يقتضي الالتزام بالنظرية المادية فإنه يفصله في كتابه "الوحي الإسلامي في العالم الحديث"[١]، حيث يقول إن مقصوده بالنظرة العلمية هو العقلية الحديثة القائمة على إنجازات العلم وعلى الاعتقاد بإمكانية تطبيق طرقه في مجالات كثيرة. ولكنه ليس مع الذين يذهبون إلى أبعد مما تقتضي النظرة العلمية ويتخذون العلم ديناً قادراً على إعطاء الإنسان حلولا لكل أسئلته العميقة. ويقول إن الموقف الذي يتخذه في دراسته هو أننا ينبغي أن نقبل نتائج العلم اليقينية، وكثيراً من نظرياته التي تحتمل الصدق، وأن نؤمن بصحة تطبيق المنهج العلمي على معظم مجالات الحياة، مستثنين مجالات أهمها مجال القيم لأن القول بأنه لا منهج إلا المنهج العلمي يؤدي إلى نظرة علمانية للكون لا مجال فيها للقيم الدينية والخلقية[٢].

ويكرر اعتقاده بأن اتجاهات البحث العلمي الغربي لا يلزم أن تتعارض مع الإسلام وأنه من الممكن أن يجمع الإنسان بين الالتزام بمقتضيات هذا المنهج وبين قبول مخلص للإسلام وإن كان قبولاً غيرساذج[٣].

وأما قوله بأن الانصاف التاريخي لا يعني الالتزام بالنظرة المادية فإنه يزيده وضوحاً، ويذكر من مسوغات كتابته عن سيرة الرسول أن اتجاهات المؤرخين منذ نصف قرن تقريباً قد طرأ عليها تغيير، فأصبح المؤرخون أكثر إدراكاً للعوامل المادية الكامنة وراء التاريخ. وهذا يعني أن المؤرخ الذي يعيش في نصف القرن العشرين يريد أن يسأل أسئلة كثيرة عن الجذور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للحركة التي بدأها محمد، من غير أن يهمل أو يقلل من قيمة جوانبها الدينية والأيدلوجية. وأنه وإن كان يعتقد بأن هذه العوامل لا تحتم سير حركة التاريخ إلا أنه يعترف بأهميتها[٤].

فالأستاذ واط يريد إذن أن يكتب باعتباره مؤرخاً منصفاً، مؤمناً بالله الواحد، ملتزماً الحياد في القضايا الدينية التي يختلف فيها الإسلام والمسيحية، ويقرر الحقائق التاريخية كما هي، ويرى أن التزام المنهج العلمي في البحث لا يقتضى الوصول إلى

---

(١) الإسلامي في العالم الحديث ص٥٢
Islamic Revelation in The Modern World, Edinburgh,1969.

(٢) محمد بمكة ص٢.

(٣) المصدر نفسه ص٧١.

(٤) المصدر نفسه.

نتائج مناقضة للمعتقدات الإسلامية، ولا يقول قولا يلزم عنه انكار لشيء من معتقدات المسلمين الأساسية وهو وإن كان مؤمنا بأهمية العوامل المادية وباحثاً عنها، إلا أنه لا يعدّها المسيرة لحركة التاريخ، ولا يؤمن بالنظرة المادية إلى الحياة.

إن المسلم لا يكاد يطلب من باحث غير مسلم الالتزام بأكثر من هذا الذي ألزم واط به نفسه. ولعل بعض القراء يقول مستغرباً: حتى بحثه عن العوامل المادية لظهور الإسلام؟ وأقول نعم، ما دام الباحث لا يلزم نفسه بأكثر من البحث عن هذه العوامل. ففرق بين البحث عنها والاعتقاد بأنها لا بد أن تكون موجودة وراء كل ظاهرة تاريخية. فليبحث المؤرخ غير المسلم عن هذه العوامل ثم ليقل بعد البحث – إن كان منصفاً – إنه لم يجد لها أثراً، ولعل هذا أن يدله على أنه أمام ظاهرة لا كالظواهر التي ألفها.

ولا يكتفي واط ببيان هذا المنهج الذي يراه صحيحاً ومنصفاً بل ينتقد المناهج التي درج على سلوكها الغربيون الذين كتبوا عن الرسول ﷺ فيقول: «منذ محاضرة كارلايل عن محمد في كتابه (الأبطال وعبادة الأبطال) أدرك الغرب أن الاعتقاد في خلاص محمد تسنده حجة قوية، فاستعداده لأن يتحمل الأذى في سبيل معتقداته، والمستوى الأخلاقي الرفيع الذي اتصف به الرجال الذين آمنوا به اتخذوه إماماً، وعظمة المنجزات التي انتهى إليها. كل هذا ينم عن استقامته والافتراض بأن محمداً كان مدعياً يثير مشاكل أكثر مما يحلها. أضف إلى ذلك أنه لا أحد من الشخصيات التاريخية الكبيرة يقدر في الغرب تقديراً أدنى مما يقدر به محمد».

«إن الكتاب الغربين يجنحون في معظم الأحيان إلى تصديق أسوأ ما يقال عن محمد، وحيثما كان التفسير السَّيئ لعمل من أعماله تفسيراً مقبولاً في الظاهر اعتبروه كذلك في الواقع. ولذلك يجب علينا إلا نكتفي بنسبة محمد إلى الأمانة واستقامة الغاية إذا كنا نريد ولو قليلاً من فهمه».

«وإذا كنا نريد تصحيح الأخطاء التي ورثناها من الماضي فينبغي أن نستمسك عند كل قضية بالاعتقاد بإخلاصه حتى يتبين لنا العكس بحجة قاطعة. وينبغي أن نتذكر أن الحجة القاطعة مطلب أصرم من الحجة التي تبدو في الظاهر معقولة، وأنها لا تنال في مثل هذه الأحوال إلا بعسر»[1].

---

(١) محمد بمكة ص٥٢.

المعالجة والنتائج:

إلى أي مدي التزم واط بهذا المنهج في دراسة لنبوة الرسول ﷺ؟

من مجموع ما يقرّ به واط يمكن أن نقول إن منطقه سار على نحو مما يلي:

(أ) أنا مؤمن بالله ولست مادياً ولا مشركاً.

(ب) واعتقد أن محمداً صادقاً فيما يقول وأمين.

(ت) وأنه ظل محتفظاً بقواه العقلية إلى النهاية، فهو لم يكن إذن مريضاً بصرع أو غيره من الأمراض التي تقدح في قوى الإنسان العقلية.

(ث) ومحمد الصادق الأمين الوافر العقل هذا يقول إنه رسول الله.

(جـ) ويقول إن القرآن وحى أوحاه الله إليه، وأنه إذن ليس من اختراعه ولا جاء نتيجة لتفكيره.

(ح) لكن لا يلزم من صدق الإنسان أن يكون مصيباً فيما يقول بل يمكن أن يكون صادقاً ومع ذلك مخطئاً.

(خ) إذن فمحمد مخطئ في ظنه أن القرآن وحي يأتيه من الخارج بوساطة ملك.

(د) وإذن فالقرآن صدر عن جهة من جهات نفسه وتلك الجهة هي (اللاشعور الجماعي).

ما يقوله واط في الفقرة (ح) صحيح، ولكن صحيح أيضاً أن الرجل المعروف بالصدق إذا قال كلاماً فينبغي أن يصدق إلا إذا قامت شواهد قاطعة تدل على أنه أخطأ. ويمكن حصر هذه الشواهد فيما يلي:

- أن يكون ما قاله مخالفاً لصريح المعقول كأن يقول كلاماً متناقضاً.
- أن يكون ما يحكيه مخالفاً لأمر حسي مشاهد. أو لأمر يستنتج استنتاجاً عقلياً صحيحاً من الحقائق المشاهدة.
- أن يكون مخالفاً لما قرره عدد من الناس في مثل أمانته واطلعوا على ما اطلع عليه فتصديقهم أولى من تصديقه، بل إذا وجد واحد من هذا النوع أوجب الوقوف عن تصديق الأول حتى يترجح صدق أحدهما بأسباب أخرى.

لكن واط لا يذكر شيئاً من هذا صراحة.

لو كان واط ملحداً لقلنا إن سبب تخطئته لمحمد هو اعتقاده بعدم وجود الخالق ولكن واط يقول إنه معترف بوجود الخالق.

فما هي إذن أسبابه في عدم تصديق محمد ﷺ؟

- أيقول إن الله موجود لكنه لا يرسل رسلاً ولا ينزل كتباً ولا يوحى إلى مخلوق؟
- أم يقول إن الوحي الذي أدعاه محمد مخالف لوحي الأنبياء قبله؟
- ام يقول إن الرسالة التي جاء بها لا يمكن أن تكون من عند الله؟

إن واط لا يصرح بشيء من هذا بل يقفز من القول بإمكانية الخطأ إلى افتراض الخطأ ثم إلى اعتقاده.

لقد أوقع الكاتب نفسه في ورطة إذ ادعى الالتزام بمنهج يقوده حتماً إلى نتيجة لا يريد الالتزام بها. ولذلك اضطربت حججه وتلجلج كلامه.

وقد كان بإمكانه أن يختار أحد طرق ثلاثة:

- فإما إلا يدعى الالتزام بهذا المنهج الذي ذكره.
- أو يلتزم به ويتحاشى الحديث عن نبوة الرسول ﷺ.
- أو يلتزم به ويقبل نتيجته فيعلن أن محمداً رسول الله حقاً.

ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك بل ناقض نفسه فادعى منهجاً والتزم عكسه.

وإليك أهم النظريات أو التخرصات التي قال بها والنتائج التي استنتجها منها.

ماذا رأى الرسول في بداية الوحي؟

ترجم الكاتب ما راه الطبري بسنده إلى الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة في كيفية بدء الوحي، وقسم هذه الرواية إلى فقرات أعطى كلاً منها حرفاً ثم نقل ما رواه بالسند نفسه عن فترة الوحي وفعل الشيء نفسه. ولكي تسهل مناقشة الكاتب فقد تابعته في هذا التقسيم والترقيم.

(أ) ... سمعت النعمان بن راشد، يحدث عن الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت كان أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، كانت تجيء مثل فلق الصبح.

(ب) ثم حبب إليه الخلاء، فكان بغار حراء يتحدث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق فأتاه فقال يا محمد أنت رسول الله.

(جـ) قال رسول الله ﷺ: «فجثوت لركبتي وأنا قائم، ثم زحفت ترجف فؤادي، ثم دخلت على خديجة فقلت زملوني زملوني حتى ذهب عني الروع، ثم أتاني فقال: يا محمد أنت رسول الله».

(ح) قال فلقد هممت أن أطرح نفسى من حالق جبل فتبدي لي حين هممت بذلك فقال: يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله.

(خ) ثم قال اقرأ قلت ما أقرأ قال فأخذني فغتنى ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] فقرأت.

(د) فأتيت خديجة فقلت: لقد أشفقت على نفسي، فأخبرتها خبري فقالت أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً. والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق.

(ذ) ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد قالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني فأخبرته خبري. فقال هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران، ليتني فيها جذع، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. قلت أمخرجي هم؟ قال نعم أنه لم يجيء رجل قط بما جئت به إلا عودي ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً[(١)].

(ر) ثم كان أول ما نزل من القرآن ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ إلى ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾، و﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

(ز) عن الزهري قال فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة، فحزن حزناً شديداً، جعل يغدو إلى رؤوس شواهق الجبال ليتردى منها فكلما أوفي بذروة جبل تبدى له جبريل فيقول إنك نبي الله فيسكن لذلك جأشه وترجع إليه نفسه.

(س) فكان النبي ﷺ يحدث عن ذلك قال: **(فبينما أنا أمشي يوماً إذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء، على كرسي بين السماء والأرض، فجثوت منه رعباً فذهبت إلى خديجة فقلت زملوني).**

---

(١) تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الرابعة ص٢ ص٢٩٨ إلى ٢٩٩.

(ش) فزملناه – أي دثرناه – فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾.

(ص) قال الزهري فكان أول شيء أنزل عليه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[1].

بدأ الكاتب تعليقاته بقوله: «لا توجد أسباب جيدة للشك في المسألة الأساسية للفقرة (أ) وهي أن تجربة محمد النبوية بدأت بالرؤيا الصادقة" وترجم الرؤيا الصادقة بكلمة VISION» ثم قال: «هذا شيء مختلف جداً عن الرؤيا المنامية». وهذا خطا لا شك فيه لأن الرؤيا الصادقة هي الرؤيا المنامية. ومن الأدلة القاطعة علي ذلك ان حديث الطبري هذا رواه البخاري أيضا في أول صحيحه فقال: (حدثنا يحيي بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا لصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح).

ثم يقول : «إن الرؤي VISIONS ذكرت أيضاً في الفقرات (ب) و(س)» أما الفقرة (ب) فتقول: «حتى فجأه الحق فأتاه فقال يا محمد... الخ» وأما الفقرة (س) ففيها: «إذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراء».

والحديث هنا عن رؤية عين حقيقية ثم يقول إن العبارة المذكورة في الفقرة (أ) تؤيد ما نستفيده من سورة النجم وما يمكن أن نستنتجه من كلمات لمحمد صلى الله عليه وسلم، ثم يذكر آيات النجم التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١-٢، ١٨].

ثم يقول: «إن تفسير المسلمين المعتاد لهذا هو أن الرؤى المذكورة هنا هي رؤية النبي لجبريل. ولكنْ هناك أسباب تدعو للقول بأن محمداً فسر في بداية ما رآه بأنه الله»[2].

---

(١) تاريخ الطبري، مصدر سابق، ص٣٠٥-٣٠٦.

(٢) تاريخ الطبري، مصدر سابق، ص٣٠٥-٣٠٦..

وهذا الأسباب هي:

(أ) أنه لم يرد ذكر لجبريل في القرآن إلا في العهد المدني.

(ب) أنه الذي يدل عليه السياق، إذ بغيره تكون العبارة ركيكة.

(ت) وأن عبارة "فجأه الحق" في الفقرة (ب) تؤيد ذلك إذ إن "الحق" أحد الطرق التي يشار بها إلى الله.

(ث) وأن عبارة " ثم أتاني فقال: في الفقرة (ت) يمكن حملها على هذا المعنى.

(ج) وفي بعض روايات حديث الطبري عن جابر عن سورة المدثر لا يقول محمد أكثر من: (سمعت صوتاً يناديني فنظرت حولي فلم أر أحداً فرفعت رأسي فإذا هو جالس على العرش)[1].

نناقش الكاتب دعاواه هذه فنقول:

أولاً: إنه خلط بين ثلاثة أمور هي الرؤى المنامية التي سبقت الوحي، ورؤيا جبريل وهو ينزل بإقرأ، ورؤيا جبريل على صورته الحقيقية. فزعم أن الرؤيا الصادقة ليست رؤيا منام، ثم فسر هذه الرؤيا بأنها المشار إليها في سورة النجم، ثم زعم أن المقصورد بما رآه محمد هو الله تعالى، ثم ذهب يتمحمل لذلك بعض الأسباب.

فذكر أولاً أن جبريل لم يذكر في السور المكية، وهو يعني بالطبع أن كلمة جبريل لم ترد في هذه السور، وإلا فهو يعلم أنه وردت في هذه السور ضمائر وأوصاف يقول المسلمون إن المقصود بها جبريل، ولكنه لا يريد أن يتابعهم في ذلك بل يتابع كارل آرنز الذي يقول أن عبارة: ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ المذكورة في سورة التكوير كانت في أول الأمر مطابقة لكلمة "الروح" وذلك لأن جبريل لا يذكر في السور المكية دائما تذكر الملائكة بصيغة الجمع فقط كما في الآية: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، والآية: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، ويرى أنّ كلام آرنز هذا يوافق رأيه في أن المقصود بالرؤية رؤية الله.

ولست أدري أسوء فهم هذا أم سوء قصد أم كلاهما!

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٢-٤٣.

نعم إن الرسول هو الروح، والروح ملك، وهو جبريل. وقول الله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ لا يفهم منه أن الروح شيء غير الملائكة بل هو من ذكر الخاص بعد العام وهو أسلوب عربي معروف له أمثلة كثيرة في كتاب الله تعالى.

إن واط وآرنز يريدان من قرائهما أن يفهما من كلمة (الروح) ما تفهم النصارى من هذه الكلمة، يريد أن يقولا عن الروح هو الله ولكن هذا المعنى تأباه اللغة العربية ويأباه سياق الآيات القرآنية. إن المعني اللغوي لكلمة الروح هو ما به تكون الحياة، ولذلك جعل اسما لما تحصل به الحياة البدنية وهو روح الإنسان ولما تحصل به الحياة المعنوية وهو القرآن وسمي عيسى روحاً لأنه كان يحيي الموتى بإذن الله. وسمى جبريل روحاً لأنه كان يأتي بالقرآن أما الآيات القرآنية فلم يرد فيها الروح اسماً من أسماء الله تعالى أو وصفاً له سبحانه وإنما ورد بالمعاني التي ذكرناها آنفاً. ومما يدل على أن المقصود بالروح جبريل أن الله تعالى يقول: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، فالروح الأمين هو الرسول الكريم، والله سبحانه وتعالى ليس رسولاً وإنما هو مرسل، والمرسل إليه محمد فماذا يكون الرسول إذن إن لم يكن ملكا؟ أما قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ فهي كما قدمت من ذكر الخاص بعد العام وهي كقوله تعالى ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، والضمير في (إليه) راجع إلى الله سبحانه وتعالى فهل يقول عاقل إن الله يعرج مع الملائكة إلى نفسه؟

ثم لنفرض أنه لم يرد ذكر لجبريل في السور المكية فكيف يكون هذا دليلاً على أن ما رآه محمد ﷺ في بدء الوحي لم يكن جبريل إذا كان محمد نفسه يقول أن ما رآه كان جبريل؟ إن هذا لا يكون حجة إلا لإنسان لا يعتمد إلا ما جاء في القرآن الكريم وسلوك واط لا يدل على أنه كذلك.

أو إنسان يشك في صحه الرواية من جهة السند وواط يقول إنه لا فائدة من مناقشة السند[1].

---

(١) تاريخ الطبري، مصدر سابق، ص٤٢-٤٣.

أو إنسان يرى أن الرواية تناقض ما جاء في القرآن الكريم وواط لم يعطنا دليلاً على ذلك، وإذا أراد واط أن يساير هذا المنطلق فليقل إن الرجل الذي أوحي إليه بمكة لم يكن محمداً، لأن اسم محمد لم يذكر في السور المكية.

❖ ننتقل الآن إلى حجته الثانية وهي زعمه أن سياق آيات سورة النجم يدل على أن المرئي هو الله تعالى. فهو يقول أن كلمة (عبده) الواردة في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، لابد أن تعني (عبدالله)، والمسلمون متفقون على ذلك. ثم يقول: «ولكن هذا يجعل التركيب ركيكاً إلا إذا جعلنا (الله) هو الفاعل المضمر للأفعال[1]. لعل واط فهم من الرأي الإسلامي الذي ينتقده أن جبريل هو فاعل (أوحى) الأولى و(أوحى) الثانية: وأن المقصود بالعبد هو محمد ﷺ فيكون المعنى على هذا الفهم. «فأوحى جبريل إلى عبده محمد ما أوحى جبريل»، وهو كلام ركيك فعلا بل باطل. ولكن الذي نجده في كتب التفسير هو أن المعنى فأوحى الله تعالى إلى عبده جبريل ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ.

❖ أما حجته الثالثة وهي أن عبارة «حتى فجأه الحق فأتاه فقال...» مشابهة في المعني لآيات النجم لأن كلمة الحق يقصد بها الله فقريب من الصواب لأن الذي فجأ الرسول ﷺ في الغاز هو الملك كما أن الذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى هو ايضا جبريل، غير أنه في حالتي سورة النجم جاء في صورته الحقيقية فسد الأفق. وأما قوله أن الحق يقصد به الله فصحيح أيضاً بمعني أن الحق اسم من أسمائة تعالى ولكن كلمة الحق يوصف بها غيره سبحانه بل إن كل حق يوصف بأنه الحق كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]، وقوله: ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١].

والمقصود بالحق في هذا الحديث الحق الذي جاء به الملك وهو القرآن الكريم أو هو البشارة بأنه رسول الله ويؤيد هذا التفسير رواية البخاري التي تقول «حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك»[2].

---

(١) تاريخ الطبري، مصدر سابق، ص٤٢.

(٢) فتح الباري كتاب بدء الوحي ١: ٣ص٢٢ وفي كتاب التفسير ٦٥: ٩٦ حتى فجأه الحق وهو في غار حراء فجأه الملك، (فرواية الطبري ينبغي أن تفهمه في ضوء هذه الروايات).

قال ابن حجر: (حتى جاءه الحق) أي الأمر الحق»، وقال: « وسمي حقاً لأنه وحي من الله تعالى»[1].

❖ وشبهته الرابعة هي أن الفقرة (ج) يمكن حملها على المعنى نفسه لأن ألفاظها تقول فقط : (ثم أتاني) فقال : يعني أن فاعل "أتاني" هو الله سبحانه وتعالى، والذي حمله على هذا التأويل المستكره للعبارة أنه قسم حديث عائشة وهو سياق واحد إلى فقرات ثم عدّ كل فقرة منها رواية مستقلة عن الأخرى[2].

والحق أن السياق واحد وأن فاعل (أتاني) هو فاعل (أتاه) في الفقرة السابقة فإذا استمسكنا بالفهم الصحيح قلنا إنه الملك، وإذا سايرنا واط قلنا إنه الله وإذن فليس في هذه الفقرة شبهة جديدة يتعلق بها الكاتب.

❖ أما شبهته الخامسة فهي مثال عجيب للبعد عن المنهج العلمي، إن المنهج العلمي يقتضي أن يجمع الإنسان الروايات الخاصة بموضوعه ثم ينظر فيها فيختار أصحها سنداً ومتناً، ثم يجمع بين ما جاء فيها ما أمكنه ذلك لأن الروايات في الغالب يكمل بعضها بعضاً، وتعطي الذي يجمع بينها صورة أكمل مما تعطيه كل واحدة منها منفردة، أما الذي لا يكون مقصده الحق، بل مقصده أن يحرف الحق حتى يوافق هوى في نفسه، فإنه لا يفعل شيئا من هذا، بل ينظر في الروايات المختلفة ويتخير منها ما يراه أقرب إلى موافقة هواه، ولذلك يكون أمره مضطرباً، فمرة يأخذ من الطبري ويدع ابن هشام والبخاري، وأخرى يأخذ من البخاري ويدع الطبري وهو بين يديه، وثالثة يختار من البخاري رواية ويترك أخرى، وهكذا فعل واط فهو لكي يناقش مسألة بدء الوحي أخذ بروايات الطبري وترك ابن هشام، وعلل ذلك بأن روايات الزهري تمتاز بأنها لم تعد كتابتها كما أعيدت كتابة روايات ابن هشام لتعطي سياقاً سلساً وإنما تجمع قطعا من مصادر أولية كما وصلت إلى الزهري[3].

والحقيقة فيما يبدو أنه إنما اختار روايات الزهري التي في الطبري لأنه لا ذكر في أولها للملك، والدليل على ذلك أنه ترك رواياته التي في صحيح البخاري وغيره والتي فيها ذكر الملك، ثم عندما ذهب البخاري أخذ حديثاً رواه عن غير الزهري عن أبي

---

(١) فتح الباري، مصدر سابق، ص١، ص٢٣.

(٢) محمد بمكة، ص٤٠.

(٣) المصدر نفسه.

سلمة عن جابر وترك أحاديث كثيرة رواها بسنده عن الزهري عن أبي سلمة عن جابر، وذلك لأن أحاديث الزهري هناك فيها ذكر الملك فمنها حديث يقول: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض»[1].

وحتى هذا الحديث الذي ليس فيه ذكر الملك أساء ترجمته - إما هو أو شيخه بل Dell الذي أخذ الحديث عنه - فجعله أكثر موافقة لغرضه فقد ترجم الحديث كالآتي:

Iheard a voice calling me, and I looked all around but could see no one, then I looked above my head and there he was sitting upon the throne[2].

وترجمة هذه الترجمة هي: «سمعت صوتاً يناديني فنظرت حولي فلم أرأحداً ثم نظرت فوق رأسي فإذا هو هنالك جالس على العرش».

والمرجع الذي يعطينا إياه لهذا الحديث هو البخاري الكتاب ٦٥ الرقم ٧٤ وبالرجوع إلى فتح الباري نجد الأحاديث الآتية في هذا الكتاب وتحت هذا الرقم: حدثنا رسول الله ﷺ قال: (**جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أرشيئاً ونظرت عن شمالي فلم أرشيئاً ونظرت خلفي فلم أرشيئاً فرفعت رأسي فرأيت شيئاً**)[3].

قال رسول الله ﷺ: (**جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي فنوديت، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض**).

ثم حديث الزهري الذي نقلته آنفاً ثم حديث له آخر وفي كليهما ورد ذكر الملك فترجمته كلها ليست دقيقة، ولكن أهم تحريف فيها هو قوله: «فإذا هو هناك جالس على العرش» فجعل العرش عرشاً معرفاً معهوداً وبذلك جعله أقرب إلى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، بينما الرواية تقول: (على عرش) بالتنكير، وتصف العرش بأنه «بين السماء والأرض» وعرش الله تعالى لا يكون بين السماء

(١) فتح الباري، كتاب بدء الوحي (١)، ٤.

(٢) محمد بمكة، ص٤٣.

(٣) فتح الباري، كتاب بدء الوحي (٦٥)، ٤٩٢٤.

والأرض وإنما هو أعظم مخلوقاته وخارج أرضه وسماواته. والعرش الذي ذكر في هذه الرواية هو الكرسي المذكور في غيرها من الروايات.

وقد يتساءل القارئ الآن لماذا أصر الكاتب المستشرق كل هذا الاصرار على أن محمداً ﷺ فهم أولا أن الذي رآه في بدء الوحي كان الله تعالى ولماذا أطلت في الرد عليه سترى الآن.

يقول الكاتب إنه إذا كان من الممكن جدا أن يكون ما ذكره هو تفسير محمد الأول فإنه لا يمكن أن يكون تفسيره الأخير وأن هذا التفسير يتناقض مع آيه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ثم يقول إن سورة النجم تحتمل تفسيراً آخر هو أن ما رآه محمد إنما كان رمزاً لعظمة الله وجلاله لأن عبارة ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨] لا تنطبق في العادة على رؤيا مباشرة لله وأن الآية ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١] التي ربما أضيفت مؤخراً- هكذا يزعم واط – توحي بتطور آخر لهذه النظرية؛ أي أنه بينما رأت العينان الآية والرمز فإن القلب رأى المرموز. فإذا كان محمد قد فسر أولا ما رآه أنه رؤيا مباشرة لله فهذا يعني على الرغم من أن تفسيره هذا لم يكن عين الصواب، فإنه في جوهره لم يكن خطأ ربما كان من الأفضل إذن أن نترجم الآية: «أن القلب لم يخطئ بالنسبة لما رآه الرجل» بهذه الطريقة نتجنب القول بأن الرؤيا لجبريل وهذا يجعلها غير تاريخية ونتجنب مناقضة الرأي الإسلامي التقليدي بأن محمداً لم ير ربه[1].

فالكاتب لا يريد إذن أن يقول إن محمداً رأى جبريل لأن هذا يجعلها رؤية غير تاريخية، ماذا يعني هذا ؟ أيعني أن واط لا يعدّ من التاريخ إلا ما كان أمراً حسيا؟ ألم يقل لنا في بيان منهجه أنه مؤمن وليس مادياً؟ فما الذي حدث الآن؟ الواقع أن واط ككثير غيره من المستشرقين لا يتحدث عن الإسلام وينتقده إلا وهو ملتحف برداء العلمانية والمادية.

❖ قد تقول فلماذا إذن اختار أن يكون ما رآه محمد هو الله فهذا اكثر بعداً في نظر العلماني؟ وأقول اختاره لسبب جوهري هو التشكيك في أن القرآن وحي من الله وذلك بعدة وسائل منها:

---

(١) محمد بمكة ص٤٣.

أولا: أن كل عاقل يفهم أن الله تعالى لا يرى عياناً في هذه الحياه الدنيا فإذا كان محمد قد ظن أن، ما رآه كان الله فهذا يجعل رؤياه من قبيل "الهلوسة" والوهم والخيال.

ثانيا: أن محمداً يكون متناقضاً في كلامه فهو يقول أولا إنه رأى الله ثم يقول أخيراً ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ثالثا: أن محمداً عندما لا حظ خطأه اعتذار عنه بإضافة آيه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١].

رابعا: أن محمداً لم يكن يعرف أن الله لا يرى وإنما تعلم ذلك من أهل الكتاب فيما بعد ولذلك غير رأيه وقال إنه رأى جبريل(١).

هل ذهب محمد إلى حراء ولماذا؟

هل ذهب الرسول إلى حراء فعلاً؟ يقول واط: «انه ليس من غير المحتمل أن يكون قد ذهب. حسناً».

ولماذا ذهب؟ يقول ربما كانت هذه طريقة لتفادى حر مكة للذين لا يملكون القدرة على الذهب إلى الطائف! ثم يقول في السطر الذى يلى ذلك:

«أن الحاجة إلى العزلة واستحسانها يمكن أن يدل عليه الأثر اليهودي النصراني – كمثل الرهبان – أو أن يكون نتيجة تجربة شخصية قصيرة(٢)».

وقبل أن يبين لنا أي هذين الدافعين المتباينين يرجح فإن واط ينتقل إلى الحديث عن موضوع التحنث، وذلك لأنه لا يكتب ليصل إلى حقيقة وإنما ليثير شكوكاً فحسب. إن كل المصادر التي أمامه وكل ما يعلم من سيرة الرسول يدله على أنه إنما كان يذهب للعبادة، وأن هذا النوع من الانقطاع للعبادة بحراء كان مما تحنث به قريش في الجاهلية، فما الداعي لذكر احتمال الذهاب تفاديًا للحر؟ ولماذا لم يكلف واط نفسه بالسؤال عن الطقس في جبل حراء أمختلف هو عن سائر مكة أم لا ؟ ولماذا لم يسأل نفسه عن مساحة هذا الجبل الذي جعله مصيفا للفقراء الذين لا يستطيعون الذهاب إلى الطائف

---

(١) محمد نبياً ورجل دولة ص١٥.

(٢) محمد بمكة ص٤٤.

وأين يجلس هؤلاء الفقراء المصطافون أتتخذ كل أسرة منهم لنفسها غاراً كما فعل النبي ﷺ أم ينصبون الخيام على سطح الجبل؟ ولماذا هذا الجبل بالذات ومكة كلها جبال؟ ولكنه سوء القصد يجعل الإنسان يرمي الكلام على عواهنه بغير علم ولا رَوِيَّة.

واين الدليل بل أين الشبهة التي تجعل الإنسان يقول إن طلب العزلة كان نتيجة لأثر يهودي نصراني رهباني.

فيم كان يفكر محمد قبل أن يوحى إليه؟

لا يجد الكاتب مادة تاريخية يعتمد عليها فيما يريد أن يقول هنا، إنه يريد أن يقول إن محمدًا ﷺ كان متهيئا نفسياً لأن يكون نبياً لأن هذا سيساعده في نظريته التي سنتعرض لها فيما بعد، وإذا كانت المادة التاريخية لا تسعفه بل تشهد بعكس ما يريد فلا عليه إذن من أن يفترض فروضاً تساير نظريته يقول الكاتب: لا بد أن محمداً كان واعياً منذ وقت مبكر من عمره بمشاكل مكة الاجتماعية والدينية. وكونه يتيماً جعله بلا شك أكثر إدراكاً للعلة الموجودة في المجتمع. أما نظرته الدينية فالمحتمل أنها كانت نوعاً من التوحيد الغامض الموجود بين أكثر المكيين استنارة ولكن لابد أنه كان بالإضافة إلى ذلك يبحث عن نوع من الاصلاح في مكة وكل الأشياء في بيئته ستجتمع لتقترح أن هذا الاصلاح لا بد أن يكون دينياً. بهذه الحالة العقلية تعمد محمد فيما يبدو البحث عن العزلة ليفكر في مسائل الهية ويقوم ببعض العبادات ربما للتكفير عن الذنوب[1]".

محمد إذن كان موحداً يريد القيام بإصلاح وكان يريد لهذا الاصلاح أن يكون دينياً أي مبنياً على التوحيد، وتعمد البحث عن العزلة ليفكر في هذه الأمور. لقد كاد واط أن يقول لنا أن محمداً كان يبحث عن سبب يبرر به رغبة كامنة في نفسه أن يكون نبياً يدعو للتوحيد. والله يقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] وصدق الله العظيم.

من الذي قال لمحمد أنت رسول الله؟

يقول الكاتب إن عبارة" أنت رسول الله" وردت أربع مرات في المقاطع التي رويت عن الزهري هي الفقرات (ب) و (ج) و (د) و (ط) المتحدث في الأخيرتين منها هو جبريل وفي

(١) محمد بمكة ص٤٤.

الأولى (الحق) وفي الثانية (هو) هل هذه روايات مختلفة لحادثة واحدة أخذت لسبب أو آخر سمات مختلفة[١].

لا يجيب واط هذا السؤال الذي ألقاه. والجواب عليه سهل يدل عليه السياق نفسه فالزهري يروي عن عروة عن عائشة قصة واحدة ذات حوادث مختلفة فالرسول ﷺ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ومما رآه في هذا الطور قصته مع جبريل قبل أن تقع[٢]، ثم حدث في الواقع ما رأى في المنام فجاءه جبريل فقال اقرأ.... ثم ذهب إلى خديجة وهنالك رأى جبريل مرة ثانية، ثم إنه كلما هم أن يلقي نفسه من حالق جبل تبدى له جبريل وقال يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله.

بعد أن ألقى سؤاله ذهب ليكررما قاله آنفاً من أن ذكر جبريل في هذا الوقت المبكر أمر مريب لأنه لم يذكر في القرآن إلا بعد مدة طويلة، ثم ذهب ليربط بين ما جاء في الفقرة(ب) وما جاء في آيات سورة النجم، فهو يظن أن سورة النجم تتحدث عن أول مرة رأى فيها محمد من أوحى إليه، ولكن سياق الآيات كما يقول الكاتب: «يدل على أنه قد سبقها وحي، وإذن فهذا الوحي الذي سبقها لم يكن مرتبطاً برؤية، وإذن فالنتيجة العملية للرؤية تكون فيما يبدو شيئاً عاماً كالاعتقاد بأن هذه المقاطع رسائل من الله وأن المطلوب من محمد أن يعلنها. وهذا يفترض أن محمداً كان قد تلقي وحياً قبل هذا ولكن لم يكن متأكداً من الطبيعة الحقيقة للكلمات التي جاءته وأما الآن فقد جاءه يطمئنه عنها. أو يمكن أن نعد الرؤية دعوة لمحمد بأن يتطلب الوحي وربما يكون محمد قد علم شيئاً عن طرق استحداثه»[٣].

أرأيت هذا الهراء؟

يعترف الكاتب بأن سياق الآيات يدل على أنه قد سبقها وحي، وأن النبي ﷺ أعلن ما أوحي به إليه، ولقي معارضة من قومه، ثم يقول إن محمداً لم يكن متأكداً

---

(١) المصدر نفسه ص٤٥.

(٢) وقد جاء مصرحاً بذلك في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري أنه رأى ذلك في المنام ثم جاءه الملك في اليقظة (السيرة النبوية) لابن كثير تحقيق مصطفي عبدالواحد جـ١ ص٣٨٧ عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٣٨٤هـ -١٩٦٤م.

(٣) محمد بمكة، ص٤٥.

من طبيعة الكلمات التي أوحيت إليه. ومن هذه الكلمات بالطبع كلمات سورة اقرأ وسورة المدثر على أقل تقدير، فهل كان النبي جاهلاً أو شاكاً في معاني هذه الكلمات التي بلغها للناس؟ وأعلن بها أنه رسول الله، وآمن بها معه عدد منهم وصدقوا بأنه رسول الله؟

وأما القول بأن الرؤية ربما كانت دعوة لاستدعاء الوحي فهو أكثر من هراء من أين جاءت هذه الدعوة؟ أمن مجرد الرؤية؟ أم من الكلمات التي صاحبتها؟، وأما الرؤية وحدها فلا تكون دعوة لاستدعاء الوحي، وأما الكلمات التي صاحبتها فأين هي؟ أهي آيات سورة النجم ؟ فليس في هذه الآيات من ذلك شيء، أم هي وحي آخر لم يأت في قرآن ولا في حديث للرسول؟ فكيف إذن عرفه المستشرق واط؟

وأما حكاية استدعاء الوحي أو استحداثه Inducing التي كررها الكاتب في أكثر من موضوع من كتبه فسنتحدث عنها فيما بعد.

نرجع الآن إل سؤالنا: من الذي قال لمحمد أنت رسول الله؟

إجابة واط هنا واضحة جداً فهو يقول مستعملاً عبارات أخذها عن كاتب آخر.

من المحتمل أن الكلمات" أنت رسول الله" لم تكن عبارة خارجية Exterior Locution وربما لم تكن حتى عبارة تخيليه Imaginative Locution وإنما كانت عبارة عقلية Intellectual Locution أي إنه لم يسمع بأذنه ولا حتى تخيل نفسه يسمع ولكن هذه الكلمات صياغة لخطاب جاءه من غير كلمات. وربما كانت هذه الصياغة متأخرة جداً عن الرؤيا الحقيقية[1].

يشرح لنا واط معنى هذه المصطلحات نقلا عن الكاتب الذي أخذها عنه فيقول إن الرؤى Visions والعبارات Locutions تنقسم إلى خارجية وداخليه فالعبارات الخارجية هي التي تسمعها الأذن من مصدر غير طبيعي، وكذلك الرؤى الخارجية هي صورة شيء مادي – أو شيء يبدو كذلك – تراه العين العادية فالرؤى في سورة النجم رؤى خارجية. والرؤى الداخلية تنقسم إلى تخيلية وعقلية فالأولى تستقبل مباشرة من غير الاستعانة بالأذن ويمكن القول بأنها تستقبل بالحس التخيلي. وأما الثانية فهي خطاب بلا كلمات – وعليه فبلا لغة معينة – وبمثل ذلك تنقسم الرؤى الداخلية[2].

---

(١) محمد بمكة، ص٤٥-٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٤.

مرة أخرى: من الذي قال لمحمد أنت رسول الله؟ حاصل جواب واط الذي قدمناه أن هذه الكلمات لم تأت محمداً من الخارج فهي إذن ليست من الله ولا من جبريل وأنا جاءته من داخل نفسه. وحتى حين جاءت من نفسه لم تأته في صورة كلمات تخيل انه سمعها وإنما هي فكرة أحس بها من غير كلمات، ثم جاءت الكلمات المعبرة عنها فيها بعد، ومع ذلك يقول لنا الكاتب في أول كتابه إنه سيجامل المسلمين، وإنه لن يقول شيئاً يتعارض مع معتقداتهم الأساسية، وإنه يكتب باعتباره مؤرخاً محايداً بالنسبة للمسائل الدينية!

ثم يزيدنا علماً بطبيعة الوحي الذى عاناه رسول الله ﷺ فيقول: «من الطبيعي أن نفترض أن محمداً كان يتذكر رؤياه الأولى في أوقات اليأس. ربما انقدحت ذكراها في عقله في لحظات حرجة فعزا ذلك إلى عامل علوي»[(١)].

ما معنى ما أنا بقارئ؟

يقول الكاتب عبارة.... (ما أقرأ؟) التي رد بها محمد عل قوله الملك (اقرأ) ينبغي ترجمتها (I can not read (or recite لا أستطيع أن أقرأ (أو أتلو). وهذا توضحه رواية" ما أنا بقارئ (I am not a reader (or reciter أو يوضحه التمييز في ابن هشام بين(ما أقرأ) و (ماذا أقرا) فالعبارة الثانية لا يمكن أن تعني إلا ?What shall I recite وهذا الأخير هو المعنى الطبيعي لـ(ما أقرأ)[(٢)].

هل المقصود بالقراءة شيء مكتوب أم المقصود بها ترديد كلمات وتلاوتها من غير نظر في شيء مكتوب؟

نرجع إلى ابن هشام الذى فرق كما قال الكاتب بين (ما أقرأ) و (ماذا أقرأ) لنرى روايته تقول: «..... قال رسول الله ﷺ: (فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال اقرأ قال: (قلت : ما أقرأ.....).

واضح من الرواية إذن أن المقصود قراءة شيء مكتوب معنى (ما أقرأ) (لا أعرف القراءة) ونستمر مع الرواية: (قال: فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ.

(١) محمد بمكة، ص٤٦.

(٢) المصدر نفسه.

قال: قلت ماذا أقرأ؟ قال: فغتنى به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قال فقلت : ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي. فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ.﴾)[1].

فالرسول ﷺ بحسب هذه الرواية قال للملك أولا بأنه لا يعرف القراءة فلما غته قال له ماذا تريدني أن اقرأ وفسر ذلك ﷺ بأنه إنما قاله افتداء منه أن يعد له بمثل ما صنع به، فإذا كان واط يريد الاعتماد على رواية ابن هشام فلا شك أن القراءة فيها تعني قراءة شيء مكتوب ولا تعنى التلاوة، ويؤيد هذا الرواية الأخرى التي ذكرها وهي: **(ما أنا بقارئ)** إذ لا يمكن أن يكون معناها أنا لا أعرف القراءة بمعنى تلاوة شيء غير مكتوب، لأنه وكل إنسان ليس في لسانه عاهة يعرف ذلك. فإذا قيل للإنسان الذي يعرف القراءة بمعنى التلاوة" اتل" فإنه لا يقول أنا لا أعرف القراءة، وانما يقول ماذا أتلو؟ فيكون السؤال هنا سؤال استفهام عن الشيء المراد تلاوته ولا يكون نفياً للمقدرة على التلاوة.

وقد ناقض الكاتب نفسه فقال أولا إن (ما أقرأ) ينبغي أن تترجم I con not read or recite ثم قال أخيراً أن هذا الثاني (يعني ماذا أقرأ What shall I recite) هو المعني لـ(ما أقرأ) فجعل (ما) في البداية نافية للقراءة وجعلها في النهاية استفهاماً عن القراءة.

وقد قال بعض العلماء استناداً علي رواية: **(ما أنا بقارئ)** وهي رواية صحيحة، إن (ما) ليست استفهاميه، قال ابن كثير " فالصحيح أن قوله: **(ما أنا بقارئ)** نفي، أي لست ممن يحسن القراءة. وممن رجحه النووي وقبله الشيخ أبو شامه. ومن قال إنها استفهاميه فقوله بعيد لأن الباء لا تزيد في الاثبات[2].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفي السقا وآخرين جـ١ ص٢٥٢-٢٥٣ إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٩١هـ-١٩٧١م.

(٢) السيرة النبوية، لابن كثير، ج١، ص٣٩٣.

ثم يقول: «يكاد يكون من المؤكد أن رواة الأحاديث المتأخرين تحاشوا المعنى الطبيعي لهذه الكلمات لكي يجدوا فيها ما يسند الاعتقاد أن محمداً لم يكن قرأ وقد كان ذلك جزءاً هاما من البرهان على إعجاز القرآن»[1].

كيف تحاشوا هذا المعنى الطبيعي؟ هل حرفوا الروايات؟ إن واط لا يقول هذا، لأنه يعترف على الأقل بالنسبة للزهري أنه روى ما وصله كما وصله.

أم يعنى أنهم قالوا إن هذا هو المعنى المستقيم الذي يدل عليه السياق وتدل عليه اللغة؟ فإذا كان واط لا يجيز لرواة الأحاديث والأخبار أن يفعلوا هذا فكيف أجازه لنفسه؟ ثم كيف يكون القول بأمية الرسول من اختراع الرواة المتأخرين والقرآن يقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

لكن الكاتب يكشف لنا عن دافعه الحقيقي في عدم الأخذ بالمعنى الذي ذكره العلماء المسلمون؛ إذ يقول في كتاب آخر: «إن الإسلام التقليدي يقول بأن محمداً لم يكن يقرأ ولا يكتب. ولكن هذا الزعم مما يرتاب فيه الباحث الغربي الحديث، لأنه يقال لتأكيد الاعتقاد بأن إخراجه للقرآن كان معجزاً وبالعكس لقد كان كثير من المكيين يقرؤون ويكتبون، ولذلك يفترض أن تاجراً ناجحاً كمحمد لابد أن يكون قد عرف شيئاً من هذه الفنون»[2].

إن واط يخلط بين الارتياب والرفض. نعم للباحث – غربياً كان أم شرقياً حديثاً أم قديماً – أن يرتاب في ما يدعيه خصمه تأييداً لدعواه. ولكن هذا الارتياب ينبغي أن يكون عند الباحث المنصف خطوات أولى تدعوه للتثبت في الأمر، فإن وجده كما قال خصمه قبله حتى ولو كان فيه تأييد لأمر كان ينكره وإن وجده غير ذلك عده تأييداً لدعواه هو، أما أن يرفض كل ما يدعيه خصمه مما يؤيد زعمه لمجرد أنه يؤيد هذا الزعم فمسلك لا ينتهجه باحث منصف، لأنه إذا كان يتهم خصمه بأنه إنما قال ما قال لأنه يؤيد دعواه، فسيقول له الخصم وأنت إنما رفضته لأن قبوله يضعف دعواك، وقبلت ضده لأنه يؤيدها.

---

(١) محمد بمكة، ص٤٦.

(٢) محمد نبياً ورجل دولة، ص٣٩-٤٠.

أما افتراضه بضرورة عدم أميه التاجر الناجح فكان بإمكانه أن يتثبت من مدى صحته بالسؤال عن حال التجار الناجحين في بعض بلدان العالم في زمننا هذا ودعك من الزمن الذي عاش فيه الرسول ﷺ وإني لأعرف على الأقل تاجراً واحداً ناجحاً بالنسبة لبلده لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنه كان ذا ذاكرة جيدة، ومقدرة حسنه على الحساب فإذا جاز هذا في القرن الرابع عشر الهجري فلماذا لا يجوز قبل الهجرة؟

أما قوله إن أمية محمد ﷺ "جزء هام من البرهان على إعجاز القرآن" فإذا كان يعنى به أن الأمية من مكونات البرهان بحيث أنه لو لم يكن محمد أمياً لكان البرهان على إعجاز القرآن ناقصاً، فقول غير صحيح، وإن كان يعنى به – كما قال في الكتاب الآخر- أنه من الأدلة المؤيدة لإعجازه فهو صحيح. وذلك أن القرآن يقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾. [العنكبوت: ٤٨]، فالقرآن لا يقول (إذن لثبت أن القرآن ليس وحياً) وإنما قال: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي لوجد الجاهلون في ذلك شبهة يتمسكون بها. فالأمية دليل مؤيد وليست دليلا ضرورياً، كعدم التناقض – مثلا – الذي قال الله تعالى عنه "أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا" فقرر أن تناسق القرآن دليل ضروري لأن الاختلاف لو وجد لدل على أنه من عند غير الله.

وبعد هذا كله يقول لنا الكاتب إنه «قد يكون معنى (اقرأ) هنا (أتل من ذاكرتك) أي مما وقع في ذاكرة بطريقة علوية Supernatual[1]، ويقول إن شكل المادة الانجليزية في القرآن يجعلنا نجزم بأن محمداً لم يقرأ الانجيل Bible ومن غير المحتمل أن يكون قد قرأ أي كتب أخرى»[2].

وإذا لم يكن قد قرأ أي كتاب فهل كتب اي كتاب. بالطبع لا فهذا أكثر استبعاداً، إذن لماذا الاصرار على أن محمداً كان يقرأ ويكتب؟ ماذا استفاد الكاتب

---

(١) محمد بمكة، ص٤٧.

(٢) محمد نبياً ورجل دولة، ص٤٠.

من هذه الدعوى إذا كان حاصل كلامه أن محمدا وإن كان يعرف القراءة والكتابة إلا أنه لم يقرأ كتابا قط ولا خطه بيمينه، إلا يري أن هذه النتيجة التي قاده إليها البحث قسراً تؤيد إعجاز القرآن، ذلك الأمر الذي فرّ منه أولا، ورفض على اساسه قول المسلمين إن محمداً ﷺ كان أمياً؟

قلت: «النتيجة التي قاده إليها بحثه قسراً" لأنه لا حظ أنه إذا قال إن محمداً قرأ الإنجيل واخذ منه مادة ضمنها القرآن، لزمه القول بأن تكون المادة التي في الكتابين متطابقة، ولكنه عرف أنها ليست كذلك فاضطر للقول بأنه لم يقرأ الإنجيل وأن «ما حصل عليه من معرفة عن المفاهيم اليهودية والنصرانية لا بد أن يكون قد حصل عليه شفاها»[1] وهذا تفسير بعيد لأنه إذا كان محمد ﷺ مهتما بالتعاليم اليهودية والنصرانية اهتماماً جعله ينقل عنها - بزغم واط واخوانه المستشرقين - كل هذا القدر الذي نجده في القرآن الكريم، وكان يعرف القراءة والكتابة كما يزعمون، فلماذا لا يقرأ هذه الكتب بنفسه؟ إن الأقرب إلى العقل أن نقول إنه لو لم يعرف القراءة لتعلمها ليقرأ هذه الكتب، ولم يتعلمها لما عدم يهودياً أو نصرانياً يقرؤها عليه وهو يستمع. ولو فعل ذلك لاشتهر عنه كما اشتهر عن غيره، بل لاعترف هو به وهو الرجل الصادق الأمين كما يسلم بذلك واط، ولكان إذن ما في القرآن مطابقاً لما في كتب اليهود والنصارى. ثم إذا كان كل ما في القرآن الكريم مما له ذكر في كتب اليهود والنصارى مأخوذا من تلك الكتب مباشرة أو بالرواية عن أهلها تكون معلومات محمد عن اليهودي والنصرانية حتى قبل مبعثه أكثر من معلومات رجل كورقة بن نوفل. فلماذا إذن تأخذه زوجه الكريمة إليه؟ ولماذا يفترض ورقة ان محمداً لا يعرف شيئاً عن الناموس الذي جاء لموسى، وعما حصل للأنبياء قبله؟ ولماذا يتساءل هو مستغرباً: **(أو مخرجي هم؟)** حين قال له ورقة: «ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك" ومع ذلك يقول لنا واط" هنا الأيسر أن نفترض أن محمداً كثيراً ما كان يتصل بورقة في وقت مبكر وأنه يعلم شيئا كثيراً ذا صفة عامه»[2].

---

(١) محمد نبياً ورجل دولة، ص٤٠.

(٢) محمد بمكة، ص٥١.

كيف كان محمد يتلقى الوحي؟

يقول الكاتب: إنها لحقيقة تاريخية لا ريب فيها أن محمداً كان يميز بين القرآن الذي كان يعتقد أنه آتيه من مصدر علوى وبين ما يصدر عن وعيه المعتاد[1]. وإننا إذا كنا نعده أميناً فلا بد أن تميز بينها. ثم يقول: «أما كيف فليس بالأمر الواضح تمام»، والأمر في الحقيقة واضح كل الوضوح. لقد كان يقول أن القرآن كلام يأتيه به جبريل من عند الله تعالى فيسمعه منه ويعيه ثم يأمر كتابه بتسجيله ثم يقرئه الناس، وهذا شيء مختلف عن كلامه العادي. إن كلامنا يستطيع التمييز بين كلام سمعه من غيره أو قرأه في كتاب وبين كلامه المعتاد. والأمر بالنسبة للنبي كان أوضح، لأن كلام الله تعالى مختلف عن كلام البشر، بل إن غير النبي من معاصريه ومن جاء بعدهم ممن يحسنون العربية يرون الفرق واضحاً بين القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، مع أن معاني هذه الأحاديث وحي من الله تعالى لكن صياغتها من الرسول ﷺ.

يقول الكاتب كما قدمنا أنها محمداً كان يميز هذا التمييز. أما تفسير هذه الحقيقة وكيفية فهمها فشيء آخر. وبما أنه يتضمن مسائل دينية فهو لن يناقشه لكنه يقول إن هنالك نظريات ثلاثا:

فالمسلمون التقليديون يعتقدون أن القرآن كله من مصدر علوى، وأنه كلام الله غير مخلوق.

والعلماني الغربي – إذا ما أراد أن يأخذ في الاعتبار التمييز الذي كان يميزه محمد – يرى أن القرآن صادر عن جانب من شخصية محمد غير جانب عقله الواعي.

والرأي الثالث أن القران عمل إلهى لكن صادر بوساطة شخصية محمد بحيث أن بعض ملامح القرآن يمكن عزوها بصفة أساسية إلى بشريته. وهذا الأخير هو فيما يبدو رأي النصارى الذين يسلمون بوجود حقيقة إلهية في القرآن.

ثم يقول إنه محايد بالنسبة لكل هذه الآراء لأنها مسائل دينية وهو يتحدث في كتابه هذا باعتباره مؤرخاً ولا يريد الخوض في القضايا الدينية. لكنه يرى أن من حق المؤرخ بعد هذا أن يعني بتحديد صورة تجربة الوحى هذه في وعى محمد. كيف بدت

---

(١) كلمة (وعي) تستعمل في التعبير الحديث بمعنى كلمة Consciousness وهي مجموع مشاعر الشخص (أو الجماعة) وأفكاره.

له، وكيف وصفها. فهذه وقائع تاريخية وإن كانت تتعلق بوعي محمد، وإن كان من المحتمل أن وصفه إياها قد تلون بتصوره السابق لهذه الأمور[١].

فالذي يهم الكاتب هذا الكلام هو الوقائع التاريخية المتعلقة بكيفية الوحي المحمدي ومصدر هذه الحقائق هو بالطبع الرجل الذي خاض هذه التجربة. وهو رجل – حسب اعتراف واط – صادق أمين. وإذن فإذا أردنا معرفتها فما علينا إلا أن نستمع إلى وصف إياها. لكن واط يضيف – كعادته – عبارة تشكيكيه، هي أنه من المحتمل إلا يكون وصف محمد لتجربته وصفاً موضوعياً، بل ربما تأثر في وصفه إياها بتصوراته السابقة لهذه الأمور. أي أمور؟ الافتراض هنا هو بالطبع أن محمداً قد عرف الكثير من مسائل الدين – ومن بينها الوحي- من اليهود والنصارى فمن المحتمل إذن ألا يصف لنا ما حصل له هو، بل ما تصوره بحسب معرفته السابقة أنه ينبغي أن يحدث.

بعد أن حذرنا هذا التحذير يبدأ في مناقشة موضوعه.

فيستبعد أولا الرؤى الموصوفة في سورة النجم باعتبارها أمراً استثنائياً وهو إنما يبحث عن الأمر المعتاد، ثم يشرح لنا مصطلحات "الرؤى" و"العبارات الداخلية" و"الخارجية" التي أخذها عن الكاتب باولين A. Poulain والتى سبق أن قدمناها للقارئ، ثم يدخل في صلب موضوعة وخلاصة ما وصل إليه بعد نظر في الآيات والأحاديث المتعلقة بالوحي وبعد استعانة بنظرية باولين وآراء شيخة بل Bell يمكن وضعها في الفقرات التالية لتسهل مناقشته فيها:

(أ) أن الوحي قد لا يكون خطاباً شفاهياً.

(ب) أنه طيلة الفترة الملكية كان يعدّ مثل هذا الوحي من عمل " الروح".

(جـ) وأن الحديث عن ملك يحمل رسالة كان متأخراً فيما يبدو.

(د) وأنه لا ذكر في العهد الملكي لسماع الرسول لما نزل إليه.

(هـ) وأننا نستطيع إذن نتصور أن الروح كان يأتي بالرسالة إلى قلب محمد بطريق غير طريق المخاطبة.

(و) وأن هذا النوع من الوحى يكون بلا ريب " تعبيراً داخلياً" وربما " عقلياً " لا " تخيلياً" إنه يكن مصحوبا بأية رؤية ولا حتى الرؤية العقلية.

---

(١) محمد بمكة، ص٥٣.

(ز) وأن ذكر " الروح" كان فيما يبدو نظرية لتفسير التجربة لا وصفا لجانب منها.

(ح) وأن " سماع صلصلة الجرس " التي وصف بها النبي ﷺ حالة من حالات الوحي هي بلا شك تجربة تخليلية.

(ط) وأن العلماء المسلمين المتأخرين هم الذين «تبعوا الرأي القائل بأن الرسول كان جبريل، وأن هذه كانت طريقة الوحي المعتادة منذ البداية. لكن العلماء الغربيين تنبهوا إلى أن اسم جبريل لم يذكر إلا في العهد المدني، وأن كثيراً مما في القرآن والسنه يتناقص مع هذا الرأي الإسلامي الشائع، وأن هذا الرأي الإسلامي يفسر ما حدث في الفترة الأولى بمفاهيم متأخرة عنها».

(ي) وأنه ربما كانت طريقة جبريل هذه هي الطريقة المعتادة في العهد المدني والمفترض في هذه الحالة أن يكون الوحي تعبيراً تخيلياً مصحوباً بلا شك برؤية تخيلية أو عقلية لجبريل وعبارة في صورة رجل توحي بأنها تخيلية.

(ك) وأنه من الجهل أن يقال إن رؤى محمد وعباراته كانت هذيانا أو أنه كان مصروعاً وأن كون الرؤى والعبارات –خارجية أم داخلية أم عقلية– ليس معياراً لصدقها وصحتها.

(ل) وأنه من المحتمل أن الوحي كان في البداية يفاجئ محمداً لكن تعلم بعد ذلك طريقة يستجلبه بها. هل كان يضع الدثار لهذا السبب؟ ربما كان "يتسمع" أثناء تلاوته المتأنية للقرآن وربما كانت هذه طريقة لاكتساب الآيات المفقودة في سياق كان يشعر أنه ناقص. تفاصيل هذه المسألة غير معروفة يقيناً، لكن يبدو من المؤكد أنه كانت لمحمد طريقة لتصحيح القرآن وهذا يعني – بالنسبة له – اكتشاف الصيغة الصحيحة لما أوحى إليه في صيغة ناقصة أو غير صائبة. وعلى كل فإن مسألة ما إذا كانت لمحمد طريقة يستجلب بها تجربة الوعى (بالتسمع أو التنويم المغناطيسي الذاتي أو غير ذلك) أمر لا تعلق له بحكم عالم اللاهوت على صحتها[1].

---

(١) محمد بمكة، ص٥٤-٥٨.

فيما يلى نعلق هذه الدعاوى حسب ترتيبها وترقيمها:

(أ) قوله في هذه الفقرة إن الوحي قد يكون بغير كلمات صحيح، لأن أصل الوحي هو الإعلام الخفي وهذا قد يكون بغير كلمات كما في قوله تعالي: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وقوله تعالى عن النبي يحيى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، أي أشار وأومأ. وأما القرآن الكريم فإنه وحي بكلمات، سواء القاه الله تعالى في قلب نبيه مباشرة أو كلمه به من وراء حجاب، أو أرسل ملكا يبلغه كلام ربه. وسواء جاء هذا الملك على صورته الحقيقية أو جاء في صورة رجل فكل هذا لا يتنافى لا لغة ولا شرعاً مع الوحي بالكلمات. لكن واط يقول لنا إن شيخة بل Bell قد درس استعمالات كلمة وحي وخرج منها" بأن كلمة وحي لم تكن تعني – في الأجزاء الأولى من القرآن على أيه حال – بلاغاً شفهياً لنص وحي، وإنما كانت تعني" الاقتراح أو الإيعاز أو الإلهام المقصود بـ (الأولى) هنا الأولية بحسب ترتيب نستطيع أن نقول بصفة قاطعة إنه حيثما استعملت كلمة الوحي في شأن الرسول ﷺ فإنها إما تدل صراحة أو من السياق على أن الوحي كان كلاماً، أولا يكون فيها ما يتناقض مع هذا المعنى يستوى في ذلك الآيات المكية والمدينة.

وإليك أمثله على ذلك من بعض السور المكية:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣].

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧].

فالآية الأولى تقول أن ما أوحى إلى الرسول هو هذا القرآن الذي بين أيدينا وهو بلا شك كلام.

والآية الثانية أكثر صراحة فهي تأمر الرسول ﷺ أن يتلو ما أوحى إليه، وهل يتلى إلا الكلمات؟ ويسمى هذا الذي أوحى كتاباً وهل يكون الكتاب إلا من كلمات؟ ثم تطلب من الرسول ﷺ أن تكون تلاوته هذه من غير تبديل لكلمات الكتاب وفي الآيات المكية مثل هذا كثير فهل يشك بعد هذا في أن القرآن يدل على أن ما أوحي إلى الرسول كان (كلاماً)؟

(ب) ما قاله في الفقرة صحيح ولكن هذا " الروح " كما بينا من قبل هو جبريل، وهو الذي كان يأتي بالوحي في الفترتين المكية والمدنية.

(جـ) هذا غير صحيح فنحن نقرأ في سورة التكوير وهي مكية ونزلت قبل سورة النجم: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٢] فالرسول الكريم المذكور هنا هو الملك.

(د) إذا كان يعني هنا كلمة "سمع " فإنها لم تسمع في حق الرسول ﷺ لا في السور المكية ولا في السور المدنية. أما إذا كان يعني مقتضاها فإنه موجود في الفترتين. قال تعالى في سورة القيمة وهي مكية: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحى من الملك. فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله عز وجل – إذا جاءه الملك بالوحي – أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه.... ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي بالقرآن كما قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ثم قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي في صدرك: ﴿قَرَأْنَاهُ﴾أي تقرأه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي فإذا تلاه عليك الملك عن الله عز وجل: ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي فاستمع له ثم اقرأه كما أقراك[1]».

(هـ) بينا فيما سبق خطأ هذا القول.

(و) هذا هو الذي يريد واط الوصول إليه من كل تلك المحاولات والتحريفات. إنه يريد أن يقول إن القرآن ليس كلاماً أتي لمحمد من الله أو بوساطة ملك وإنما هو شيء نابع من نفسه وتفكيره وعقله. وقد كان بإمكانه أن يلقي بهذه الدعوى كما ألقى

---

(١) تفسير القرآن العظيم عند تفسير الآيات المذكورة.

بها غيره من غير دراسة لحياة الرسول ﷺ أو اعتماد على القرآن الكريم. ولكن الغريب أنه يريد أن يعتمد على القرآن نفسه لتأييد هذه الدعوى وهيهات.

(ز) أنكر واط الأحاديث التي فيها ذكر لجبريل على أساس أنه لا ذكر لاسم جبريل في القرآن المكي، وإنما الذي يذكر فيه هو الروح. ولكنه الآن يقول لنا إن ذكر الروح يعطي انطباعاً بأنه " نظرية " لتفسير التجربة لا جزء منها. ولم يقل لنا ما سبب هذا الانطباع " والقرآن يقول " نزل به الروح الأمين"، ثم من هو صاحب هذه" النظرية" أهو الرسول ؟ إذن فأين أمانته التي قال واط إنه يعتقدها؟

كيف يكون أميناً من لا يرى ملكا ولا يخيل له أنه رآه ثم يفسر ما حدث له أنه رآه، ثم يفسر ما حدث له على أنه لا بد أن يكون من فعل ملك، ثم يذهب إلى الناس ويقول لهم إنه رأى بالفعل ملكا هو جبريل. أم يقول لنا إنه فعل ذلك وهو يعتقد صادقاً أنه رأى ملك، إذن فرؤية الملك لا تكون" نظرية" لتفسير الوحي وإنما تكون تخيلاً ولكنه ينفي حتى التخيل في هذه الفقرة.

(ح) ذكر هنا حديث البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ : **(أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول)**، قالت عائشة رضي الله عنها : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً)[1].

ونقول:

أولاً: إن واط يتحدث عن الوحي في الفترة المكية ولذلك حصر نفسه في الآيات المكية ولم يأخذ بالآيات المدنية «بل ولم يأخذ بالأحاديث التي تصف الوحي في الفترة المكية لأنها تذكر اسم جبريل. ولكنه الآن يستدل بحديث الحارث بن هشام وهو صحابي جليل أسلم يوم الفتح أي قرب نهاية الفترة المدنية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام».

---

(١) فتح الباري، كتاب بدء الوحي، الحديث رقم (٢).

وثانياً: إن الحديث يقول أحياناً كذا وأحياناً كذا، ولم يقل إنه في البداية كان مثل صلصلة الجرس، ثم صار الملك يتمثل رجلاً.

ثالثاً: إن الحارث رضي الله عنه سأل بصيغة المضارع: (كيف يأتيك) ولم يقل كيف كان يأتيك، فالوصف المذكور إذن هو الطريقة التي كان يأتي بها الوحي حتى وقت السؤال وهو يشمل العهدين المكي والمدني.

رابعاً: إن صورة مثل صلصلة الجرس لا تتنافى مع وجود الملك، بل إن الذي يصفه الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحالات التي يأتيه بها الملك الوحي، فأحياناً يكون وحيه إليه مثل صلصلة الجرس وأحياناً يكلمه كلاماً عادياً، وربما كان الصلصلة مقدمة للوحي لا صورة من صوره. وقد جاء هذا الحديث برواية أخرى في البخاري نفسه تؤيد ما نقول: (....... كيف يأتيك الوحي؟ قال: **(كل ذلك يأتيني الملك، أحياناً مثل صلصلة الجرس.... ويتمثل لي الملك أحياناً رجلاً....)**[1].

(ط) يا للعجب! العلماء المسلمون الذين يتكلمون العربية سليقة، ويجيدون نحوها وصرفها وبلاغتها، ويحفظون القرآن عن ظهر قلب، ويرددونه صباح مساء، ويتدبرون آياته وكلماته ويعظمونها مؤمنين أنها كلام الله تعالى، ويحفظون آلاف الأحاديث النبوية ويتدبرونها ويفسرون بها كلام الله، ويجلونها باعتبارها وحياً ثانياً بعد القرآن، هؤلاء يجمعون على القول بشيء يخالف كثيراً من الآيات الأحاديث لا آية واحدة ولا حديثاً واحداً. ومن الذي يكتشف هذا؟ حفنه من الغربيين المستشرقين الذين يتعلمون العربية من الكتب ويأخذونها عن بعضهم ولا يكاد يستقيم لسان أحدهم بآية أو حديث. ما هذا الغرور؟ ما هذا التعالي على عباد الله؟ ماذا يكون شعور واط لو أن جماعة من الأدباء العرب الذين لا يحسنون الكلام بالإنجليزية قالوا إن جميع من كتب عن شكسبير من الإنجليز والأمريكان وسائر المتحدثين بالإنجليزية يفسرون بعض ما جاء في كتبه تفسيراً يتناقض مع كثير مما نجده في مسرحياته وقصائده؟

(ي) إذا كانت هذه هي الطريقة المعتادة في العهد المدني فما الذي يمنع أن تكون هي ذاتها طريقة العهد المكي؟ لماذا يصر الكاتب على أنه من الضروري أن تكون

---

(١) المصدر نفسه، كتاب بدء الخلق (٥٩)، الحديث رقم (٣٢١٥).

طريقة الوحي المكي مختلفة عن طريقة الوحي المدني؟ ولكنه يقول على كل حال إنه حتى على افتراض أن الوحي المدني كان يأتي عن طريق جبريل فإنه يكون تعبيراً تخيلياً مصحوباً برؤية تخيله لجبريل وأن عبارة (في صورة رجل) تدل على ذلك، كيف؟ هل فهم من (صورة رجل) أنها تعني (خيال رجل)؟ إن كان قد فعل فهو مخطئ لأن الحديث يعني أنه لم يأت في صورته الحقيقية وإنما تشكل بصورة رجل يراه الرسول وغير الرسول من الناس.

(ك) نعم إنه لمن الجهل الفاضح أن يقال ذلك ولكن ما الفرق الحقيقي بين تفسيرك للوحي وبين هذا التفسير الذي لا يقول به إلا جاهل كما ذكرت؟ لا اختلاف إلا في الألفاظ.

أما قوله إن كون العبارات والرؤى داخلية أم خارجية ليس دليلاً على صدقها وصحتها فليس بصحيح على إطلاقه. بل تفصيله أن يقال إذا كان داخلية فنعم لأن صحتها تحتاج إلى دليل آخر. وأما إن كانت خارجية فالأمر يعتمد على نوع المصدر الخارجي فإذا كان الله سبحانه وتعالى فهو دليل على صدقها. وإن كان غيره فالأمر فيه كالأمر في الوحي الذاتي أو الداخلي.

(ل) كرر الكاتب مسألة استدعاء الوحي أو استجلابه Inducing هذه عدة مرات في كتبه. وهي تساير بالطبع نظريته لأنه إن كان الوحي أمراً داخلياً ذاتياً فلا غرابة أن يتعلم صاحبه كيف يستجلبه ويستحدثه سواء بالتنويم الذاتي كما يقول الكاتب أو بغيره من الوسائل. ولكن مشكلة الكاتب كما ذكرت أنه لا يريد أن يلقي بهذه التهم كما يلقي بها الملحدون المنكرون للوحي من غير نظر في سيرة الرسول ﷺ، بل يريد أن يجد لها شواهد من هذه السيرة. فإذا أعوزته الشواهد الحقيقية تمسك بأوهام وعدها شواهد. وإلا فكيف يخطر ببال إنسان أن يكون ((الدثار)) وسيلة لاستجلاب الوحي، والدثار كما تحدثنا الروايات إنما حدث مرة واحدة، وحدث بعد الوحي، وخوفاً منه، وجاء الوحي بعده ليأمره بإلقائه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾، ثم إذا كان محمد قد تعلم طريقة يستجلب بها الوحي ويصحح أخطاءه فلابد أن يكون واعياً بهذه الطريقة، وإلا فكيف (يتعلم) الإنسان طريقة وهو لا يعي أنه يتعلمها؟ وإذا كان واعياً

فهو إذن يعلم أن الوحي ليس أمراً خارجياً وإما هو شيء ذاتي يحدثه هو في نفسه، فكيف يكون إذن صادقاً في قوله إنه من الله؟ وإذا قلنا إنه لم يكن واعياً حتى بهذا، فكيف يفسر واط مثل هذا السلوك من إنسان يعدّه أميناً عاقلاً غير مجنون سليماً غير مريض حوله رجالا عقلاء أقوياء. كيف يعيش رجل كهذا في مثل هذا الوهم طيلة ثلاثة وعشرين سنة؟ وكيف يتابعه في هذا الوهم طيلة هذه المدة هؤلاء الرجال العقلاء الأقوياء؟

ما هو مصدر الوحي المحمدي:

يمكن أن نوجز إجابة واط على هذا السؤال بقولنا إن اللاوعي الجماعي يمكن Collective unconscious هو مصدر كل وحي ديني سواء كان الإسلام أو النصرانية أو اليهودية.

ولشرح هذا الرأي يقول لنا واط إنه في عمومه رأي جونج Junge وهو رأي يقول: «إن ما ينبثق من اللاوعي إلى الوعي في رؤى الأفراد المنامية وأحلام اليقظة وكذلك في الأساطير الدينية لمجتمع كامل تأتي من "اللبيدو" أو طاقة الحياة، وهو ينبوع المناشط في كل الناس. في الشخص الواحد يكون "اللبيدو" في أحد أجزائه شيئاً خاصاً وفي الجزء الآخر شيئاً مشتركاً بينه وبين أفراد جماعته ثم بينه وبين الجنس البشري كله. هذا الجزء المشترك بينه وبين الآخرين هو الذي يسميه جونج "باللاوعي المشترك" وإلى هذا اللاوعي المشترك تعزى كثير من الأساطير وكذلك المعتقدات الدينية، ولا سيما شخصيات مثل "البطل" و"القائد" و"الطفل الإلهي" و"العذراء" التي توجد في كثير من الأديان[1]».

ولتطبيق هذ النظرية العامة على الوحي المحمدي يقول واط ان هذا يعني أن كلمات الوحي (كانت لها صلة بمحمد قبل أن يصير واعياً بها) ثم يقول إنه يمكن الجمع بين هذه المسألة وبين الآراء الإسلامية التقليدية بأن نقول بأن الملك وضع الكلمات في ناحية من نواحي الوجود المحمدي يسمى اللاوعي وأنها برزت من هنا إلى وعيه[2].

---

(١) الوحي الإسلامي في العصر الحديث، ص١٠٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٠٩.

هذا كلام إنسان لا يتصور ما يقول. متى وضع الملك هذه الكلمات؟

هل وضعها قبل حادثة حراء؟ وأية مدة ما الدليل التاريخي على ذلك؟

وإذا كان واط مستعداً للقول بأنها من لملك فما فائدة نظرية «اللاوعي المشترك»؟

لماذا يضعها الملك في اللاوعي أولاً ثم يدعها تبرز إلى الوعي ويجعل محمداً يتخيل أنه يرى ملكاً يحدثه بكلام لم تكن من قبل صلة به؟ إذا كان من المكن أن تكون الكلمات من الملك، وإذا كان من الممكن أن يضعها في

اللاوعي، فما الذي يمنع من وضعها في الوعي منذ البداية؟

وإذا كانت الكلمات من ملك فمعنى ذلك أنها شيء جديد لم يكن يعرفه محمد ولا مجتمعه، ولكن نظرية اللاوعي المشترك كما يشرحها صاحبها جونج، وكما يوافقه عليها واط، تقتضي أن تكون هذه الآراء معبرة بطريقة ما عن المجتمع ومتوافقة مع مشاعره ومصالحه ومصاغة بمقولاته ومبنية على مسلماته.

وقد أشار الكاتب في أماكن كثيرة من كتبه إلى أن كثيراً مما في القرآن مأخوذ من اليهود والنصارى ومن الأفكار السائدة في البيئة العربية فهو يقول إن القرآن لم يكن باللغة العربية فحسب بل صيغ بمفاهيم النظرية العربية والمكية المعاصرة له، وبأشكالها الفكرية، وانه لذلك أعطى الجمل اهتماماً خاصاً، وأنه كذلك لم يتعرض على تعاطي الربا في العهد المكي، وأن تحريمه في العهد المدني كان موجهاً أساساً ضد اليهود، وأن تحريم الخمر ووضع قيود على الزواج ربما لم تكن مسائل إسلامية وإنما استدعاها الفرق بين الحياة البدوية والحياة المستقرة، وأن تصور القرآن لله وحسابه مطابق على وجه العموم للتصور اليهودي والنصراني، وأن القرآن استفاد من هذه الأفكار اليهودية والنصرانية في شكلها المعرب الذي كان معروفاً للمكيين المستنيرين قبل القرآن، وأن أصالة القرآن كانت في أنه حدد هذه المفاهيم وفصلها[1]. ثم يصدر حكماً عاماً بأنه لا شيء من الأفكار الأساسية التي جاءت في القرآن لم يكن في عقل محمد والمستنيرين من معاصريه[2].

---

(١) الوحي الإسلامي في العصر الحديث، ص٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٤.

المنهج المتبع:

لعل فيما قدمته من أمثلة للنتائج التي وصل إليها واط عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ما يكفي للدلالة على أنه ما كان ليصل إلى مثل هذه النتائج وما كان ليقول كثيراً مما قالوا لو أنه التزم المنهج الذي صدر به كتابه وكرره في ثناياه وثنايا كتب أخرى.

فما الذي حدث إذن؟

الذي حدث أن الكاتب ادعى منهجاً والتزم بنقيضه. وفيما يلي أوجز للقارئ أهم دعائم هذا المنهج الذي اتبعه، والذي رأى القارئ له بعض الشواهد أثناء هذا العرض المجمل لآرائه عن النبوة.

العلمانية:

التزم الكاتب في حكمه على ما يمكن أن يقع وما لا يمكن وقوعه بفلسفة علمانية تستبعد إمكان وقوع الظواهر الدينية التي لا تخضع لقوانين الأجسام المادية المعروفة. ولم يلتزم بهذه الفلسفة فحسب بل اعتمد عليها صراحة في بعض تعليلاته. فمن أمثلة ذلك أنه بعد أن لخص حياة النبي ﷺ قبل الزواج بخديجة في نصف صفحة قال «هذه هي الحقائق الأساسية عن حياة محمد قبل الزواج من وجهة نظر المؤرخ العلماني..».

... وهنالك على كل حال عدد كبير من القصص التي يمكن أن يقال إنها ذات طابع ديني ويكاد يكون من المتيقن أنها ليست حقيقية من وجهة نظر المؤرخ العلماني الواقعية[1]. واستبعد رؤية النبي لجبريل على أساس أنها لا يمكن تكون تاريخيه[2].

المادية:

ولا يكتفي واط الفلسفة العلمانية العامة بل يأخذ أحياناً بفلسفة علمانية ضيقة لا يقول بها إلا غلاة الماديين. فبعد أن يتحدث عن أثر العوامل الاقتصادية في تنمية الشعور بالاتجاه الفردي وبعد أن قال إنه نشأت بمكة وحدة أساسها المصالح المادية المشتركة لا الانتماء القبلي، وبعد أن تبرأ من قول الماركسيين إن الدين وسائر الأيدولوجيات تعتمد بصفة مطلقة على العوامل الاقتصادية، بعد هذا كله يختم كلامه بقول: «إن

---

(١) محمد بمكة، ص٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٣.

التوتر الذي كان يشعر به محمد وبعض معاصريه يعزى في النهاية وبلا شك إلى هذا التنافر بين سلوك الناس الواعي والأساس الاقتصادي لحياتهم»(١).

اتباع الظن:

كثيراً ما يترك الكاتب القضايا التي تسندها بعض الشواهد التاريخية التي يجدها في مصادره ويستبدل بها مزاعم لا دليل عليها وليس لها ما يسوغها علمياً اللهم إلا كونها لا تساير تحيزه ضد الوحي. ويبدو أنه لا حظ ذلك فحاول أن يجد له مسوغات "علمية". فبعد أن أتحفنا بإحدى هذه الظنون مضى يقول: «أعترف بأنه لا توجد طريقة للبرهنة على أن هذا هو الذي حدث. إنه مجرد فرض ولكن السير على أساس مثل هذه الفروض هو جزء من النظرية العلمية الحديثة»(٢).

ولكن فلاسفة العلوم يخبروننا بأن من شروط الفرض أو النظرية أو القضية العلمية أن يكون بالإمكان التثبت من صحتها على رأي، أو إمكانية إبطالها على رأي آخر. أما أن يقول لنا إنسان كلاماً لا يعطينا على صحته أو احتمال صحته دليلاً، ولا ندري كيف تثبت صحته أو بطلانه فإن كلامه لا يعدّ من العلم في شيء.

عدم الثقة في علماء المسلمين وعامتهم:

على هذا المنهج سار واط في كل كتاباته عن الإسلام والشواهد عليه لا تكاد تحصى. فهو يورد الحقائق التي ذكروها أو حتى أجمعوا عليها بصيغة التمريض والتشكيك، إن لم يجد في إنكارها ما يخدم غرضاً. وأما إن كان فيها ذلك فإنه لا يتردد في إنكارها وردها. ولو كان هذا منهجاً مطرداً لواط في كل علماء الدنيا لقلنا إنه منصف وإن كان مخطئاً. لكن المؤسف أنه يعامل علماء بلاده بعكس ذلك تماماً فهو يظهر احترامه الشديد لهم ويعتذر عن مخالفتهم إن اضطر لذلك. وإليك بعض الشواهد على ما ذكرت:

يقول عن سورة اقرأ: «لا توجد اعتراضات مقبولة على الرأي الذي يكاد يكون مجمعاً عليه بين العلماء المسلمين وهو أن هذه هي أول سورة أوحي بها».

---

(١) محمد بمكة، ص٢٠.

(٢) الوحي المحمدي في العالم الحديث، ص١٨.

ويقول عن الفرق بين النبوة والرسالة «استناداً إلى ما تجمع عليه الأحاديث وإلى ما ترجحه طبيعة الأمر يمكن أن نفترض أنه كان هنالك فرق بين هذين الطورين من أطوار عمل محمد وأن التواريخ التي تذكر عدة صحيحة تقريباً»[١].

«وليس هنالك ما يدعو لرفض الرواية التي تقول إن خديجة طمأنت محمداً»[٢].

ويقول: «المسلمون في العادة يفسرون معنى السطر الأول: قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤]: (علّم استعمال القلم) ولكن هذا لا وجه له ولا سيما إذا كان محمد لا يقرأ ولا يكتب»[٣].

ويقول «الإسلام التقليدي يقول بأن محمداً لم يكن يقرأ ولا يكتب ولكن هذا القول مريب بالنسبة للعالم الغربي الحديث، لأنه إنما قيل ليؤكد الاعتقاد بأن إنتاجه للقرآن كان أمراً معجزاً»[٤].

ويقول عن قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزمر: ٢٨]، إن يتضمن معاني لم يدركها المسلمون إدراكاً كاملاً ولكنها معان ذات أهمية كبيرة في عالمنا المعاصر عالم الاتصال بين الأديان[٥].

وأما العلماء الغربيون فالأمر معهم مختلف تماماً كما ذكرناه.

وهذه بعض الأمثلة:

«القول بأن رؤى محمد وكلماته كانت هذياناً... يدل على جهل مؤسف بعلم كتاب من أمثال بولين Poulain وحكمتهم...»[٦].

«إن مخالفة جولدزيهر ليست بالأمر السهل»[٧].

---

(١) الوحي المحمدي في العالم الحديث، ص٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٥١.

(٤) محمد نبياً ورجل دولة، ص٤٠.

(٥) الوحي المحمدي في العالم الحديث، ص٢٥.

(٦) محمد بمكة، ص٥٧.

(٧) المصدر نفسه، ص٨٢.

وبلغت ثقته بعلماء بلاده وتحقيره للعلماء المسلمين أن ترك أقوال هؤلاء واعتمد على أقوال أولئك حتى في ترتيب سور القرآن الكريم بحسب نزولها[١]، وإن وصف بعض ما قال إنهم أجمعوا عليه بأنه مخالف لكثير مما في الكتاب والسنة، وإن انتقد تفسيرهم لبعض آيات القرآن الكريم، كل ذلك اعتماداً على آراء اخوانه من المستشرقين.

تعصب ضد العرب والمسلمين:

يقول واط عن العرب كلاماً لا يتفوه به إلا إنسان أخل التعصب بعقله فلم يعد يدري ما يقوله ولا يتصوره.

(أ) فهو يقول لنا إن الربا لم يحرم في مكة ثم يتساءل: كيف كان يمكن أن ينتقد الربا؟ بل كيف كان يمكن أن يفهم المكيون أي نوع من النقد؟ ما كان الإنسان ليستطيع أن يقول إن الربا خطأ، لأن النظرة العربية لم يكن فيها تصور مجرد للخطأ والصواب[٢].

كيف عرف هذا؟ إذا أراد الباحث أن يتحقق من وجود مفهوم معين في تصور أمة من الأمم أو عدم وجوده، فإن المنهج العلمي يقتضيه أن يبحث أولاً في لغتهم فإن وجد فيها ما يدل على هذا المفهوم صراحة أو ضمناً فبها. وإن لم يجد بحث في وسائلهم التعبيرية الأخرى. فإن لم يجده جاز له حينئذ أن يقول إن هذا المفهوم لا وجود له في تصور هذه الأمة.

وكاتبنا بالطبع لم يفعل هذا لان لغة العرب مليئة بالألفاظ الدالة على المفهوم الذي أنكر وجوده عندهم، وإلا فما معنى وجود ألفاظ مثل الخطأ والصواب والحق والباطل والحسنة والسيئة والحرام والحلال والحسن والقبيح وغيرها من الألفاظ التي كان يستعملها العرب ويدركون معانيها قبل نزول القرآن الكريم؟

ثم إن المفهوم الذي أنكر واط وجوده عند العرب هو في حقيقة الأمر من المقولات الأساسية التي فطر الله عليها العقل البشري، والتي لا يمكن أن تخلو منها لغة قوم من البشر. لعل الكاتب يقول لنا إن إنما أنكر المفهوم المجرد للحق والباطل ولم ينكر المفهوم النسبي.

---

(١) المصدر نفسه، ص٦٠-٦١.

(٢) محمد بمكة، ص٨١.

فنقول إن النسبية بالمعنى الذي شرحه[1] هي الصفة الغالبة على استعمالات الناس لمثل هذه المفاهيم التقويمية. ولكن هذه النسبية تتطلب – منطقاً – مفاهيم غير نسبية سمها مجردة او مطلقة أو ما شئت، لأن الذي يقول أن (أ) حسن لأنه (ب) و(ب) حسن لأنه (جـ) وهكذا لا بد أن يصل إلى شيء يقول أنه حسن بلا تعليل، وإن كان قد يغير رأيه فيما بعد إذا اكتشف شيئاً أعلى منه في هذا السلم المنطقي التقويمي.

وهذا هو الذي حدث للعرب. فقد كان من معاييرهم أن الحق لابد أن يكون موافقاً لما عليه الآباء وأن من علامات الباطل أن يكون مخالفاً لهم. ولذلك رفضوا الدين الجديد معللين رفضهم بهذا المعيار الذي كان جزءاً هاماً من مكونات تفكيرهم. ولذلك ركز القرآن الكريم على نقده تركيزاً شديداً، وكرر هذا النقد بأساليب مختلفة، فلفت نظرهم بذلك إلى معيار أرقى من ذلك الذي كانوا يعدونه الحد الأقصى. ولكنهم ما كانوا ليفهموا هذا النقد لولا ان في عقولهم استعداداً لفهمه، وهذا الاستعداد يعتمد على تصور غير نسبي للحق والباطل. أقول (يفهموا) ولا أقول (يقبلوا) لأن بعضهم ظل متعصباً لرأيه القديم. ولكن حتى هؤلاء الذي رفضوا المعيار الجديد إنما فعلوا ذلك بعد أن فهموا معناه. فمشكلة الرسول صلى الله عليه وسلم معهم لم تكن مشكلة عدم فهم منهم لما يقول وإنما كانت رفض لما يقول. ولست أدري لماذا اختار الكاتب مسألة الربا بالذات.

فالمعروف أن الإسلام لم يدخل في تفاصيل الحياة الاجتماعية طيلة العهد المكي، لأن هذا العهد كان عهد وضع الأسس الجديدة ونقد الأسس القديمة وإزالتها، ولأن التفاصيل الجديدة لا يكون لها معنى حقيقي إلا في الإطار الجديد. ولذلك لم يتطرق الإسلام للحديث عن مسائل الطعام والشراب واللباس والزواج وتفاصيل المسائل الاقتصادية والسياسية. بل ولا تفاصيل الشعائر التعبدية، وإنما ركز على العقيدة في الله والإيمان بالدار الآخرة والإستمساك بمكارم الأخلاق. ولعل من سوء حظ الكاتب أننا نملك دليلاً من كلام العرب على أنهم كانوا يعرفون أن الربا خطأ وإن مارسوه. فقد جاء في السيرة أن أبا وهب بن عمرو قال لقريش لما أرادوا أن يعيدوا بناء الكعبة

---

(١) انظر: محمد بمكة، ص٨١.

قبل مبعث النبي ﷺ: **(يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً، لا تدخلوا فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس)**[١].

(ب) ويقول وينبغي أن نتذكر هنا أن التفرقة الغربية بين الحقيقة المجردة ومغزاها لا توجد واضحة في الشرق. ربما عرف محمد الحقائق المجردة.... ولكن ربما لم يقدر مغزى هذه الحقائق المجردة ولذلك طلب أن يوضح له ذلك بعبارة أخرى.

أقول وينبغي أن نتذكر نحن أن هذا الشرق الذي يتحدث عن واط ورفاقه المستشرقون ليس شيئاً واقعياً يشار إليه بالبنان – وإنما هو – كما قال الدكتور ادوارد سعيد – شيء من نسج خيالهم، ينشأ عليه صغارهم ويشيب عليه الكبار.

هل يعني واط أن لغات أهل الشرق كلها لغات وصفية ليس فيها كلمات تقويمية؟ هذا مستحيل عقلاً. لأن اللغة تكون لغة ولا تؤدي وظيفتها في الحياة إذا لم تكن تقويمية. بل إن فلاسفة العلوم يحدثوننا أن هذا يعسر – ويقول بعضهم لا يوجد – حتى في اللغة العلمية البحتة لأن اللغة لا تقتصر على استعمال الكلمات العلمية التي تشير إلى وقائع جزئية وإنما تستعمل كلمات عامة مثل ذرة، طاقة، إنسان، نقود.... الخ وهذه الكلمات العامة – هكذا يقول هؤلاء الفلاسفة – ليست وصفية بحتة وإنما هي مشحونة بأفكار نظرية.

أم يقول واط إن أهل المشرق يصفون ويقوّمون من غير شعور منهم بالحد الفاصل بين هذا وذاك؟ وأقول نعم إن هذا قد يحدث لهم كما يحدث لأهل الغرب فكثير ما يصف الإنسان وهو يظن أنه يقوِّم، وأكثر منه أن يقوِّم الإنسان وهو يحسب أنه يصف. أما أن يعمى فرد من الناس–ودعك عن أهل المشرق قاطبة – عمى كاملاً عن رؤية الفرق بين الوصف والتقويم فهذا لا يحدث إلا لإنسان معتوه.

لنأت الآن إلى العرب. لقد كان كثير منهم يعتقد كما يعتقد كثير من الغربيين الآن أن التاريخ لا معنى له ولا مغزى، وإنما هو شمس تطلع هنا وتغيب هنالك، ويوم يعقبه يوم، وأرحام تقذف وقبور تلقف، ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فأصحاب هذا الاعتقاد كانوا يفرقون إذن بين الحقيقة المجردة ومغزاها أو معناها، فاعترفوا بالحقيقة وأنكروا المغزى في هذه المسألة، وربما في مسائل غيرها، لا في

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٣٠٦.

شيء. فلما جاء الإسلام لم يعلمهم الفرق بين الحقيقة المجردة والمغزى، وإنما لفت أنظارهم إلى المعاني التي تنطوي عليها هذه الحقائق المجردة التي كانوا يعلمونها، فالحقائق الكونية لم تعد مجرد أشياء تشغل زماناً ومكاناً وإنما صارت (آيات)، ودلائل على خالقها، والطعام واللباس وكل ما يستفيد منه الإنسان لم يعد مجرد حقيقة فيزيائية أو بيولوجية وإنما أصبح ((نعمة)) تستوجب شكر المنعم، وتقتضي التصرف فيها بطريقة ترضيه. وفي آية رائعة من آيات القرآن الكريم في هذا المجال يقول تعالى ذاما المشركين على وقوفهم عند معرفة الحقيقة المجردة وعدم النظر إلى مغزاها الحقيقي. ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]. هل يفهم مثل هذا الكلام أناس لا يفهمون الفرق بين الحقيقة المجردة والمغزى.

وإذا كان القرآن قد فرق هذه التفرقة، وإذا كان القرآن نابعاً حسب اعتقاد الكاتب من اللاوعي المشترك للعرب فهذه التفرقة إذن موجودة عندهم في هذا (اللاوعي) على الأقل.

(جـ) وأما ثالثة الأثافي فهي اتهام العرب أن عقليتهم لا ترفض التناقض، ولذلك فإن الحنابلة «تفادوا تصورات الأشاعرة وغيرهم التجريدية واستمسكوا بعبارات القرآن والسنة كما هي. والذي ينتج عن هذا أننا إذا اكتشفنا شيئاً من التناقض في القرآن فإن هذا يكون دليلاً على غناه وتجاوزه المثمر للفكر التجريدي المجدب. يمكن الاحتفاظ بعبارتين متناقضتين لأن كل واحدة منهما لا تعبر عن الحقيقة إذا انفردت. بل إن كل واحدة منهما تكشف جانباً من الحقيقة تهمله الأخرى. وعليه فإن العبارتين وإن لم يكن الجمع بينهما منطقياً تعطياننا معا صورة أكمل للحقيقة»[1].

وأقول:

أولاً: من هم الأشاعرة؟ أهم من الإنجليز أو الأمريكان؟ ألم يكونوا عرباً كالحنابلة؟ إذن لماذا عدّ هؤلاء الممثلين للعقلية العربية وترك أولئك؟

---

(١) الوحي الإسلامي، ص٣٤-٣٥.

وثانياً: هل ما قاله الكاتب هو حكاية وتصوير أمين لقول الحنابلة أم هو تفسير منه وتأويل؟ الذي نعرفه عن الحنابلة أنهم لم يستنتجوا من استمساكهم بالقرآن والسنة هذه النتيجة التي استنتجها الكاتب، وإنما كانوا كغيرهم من عباد الله يعتقدون أن الكلام المتناقض باطل وينزهون – كغيرهم من المسلمين – كتاب الله تعالى عن مثل هذا الباطل. وقد رد إمام الحنابلة، بل إمام أهل السنة، الإمام أحمد على الزنادقة الذين زعموا مثل هذا الزعم في القرآن فكانت ردوده مثلاً رائعاً للعقل المستنير الذي يرفض كل شائبة من شوائب التناقض. ولم يقل لهم: نعم إن هناك تناقضاً وإنه يدل على خصومة القرآن وشمول وصفه لكل نواحي الحياة. بل كان يبدأ كثيراً من ردوده على شبهاتهم بقوله. (فشكوا في القرآن وزعموا أنه متناقض) وإليك مثلاً من هذ الردود:

أما قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨]، و﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، و﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

فشكوا في القرآن وقالوا كيف يكون هذا من الكلام المحكم؟

أما قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ فهذا اليوم الذي يستوي فيه الليل والنهار أقسم الله بمشرقه ومغربه.

وأما قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ فهذا أطول يوم في السنة وأقصر يوم في السنة أقسم الله بمشرقها ومغربها.

وأما قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ فهو مشارق السنة ومغاربها. فهذا ما شكت فيه الزنادقة[1].

تعبر كل من هذه الآيات الثلاث – حسب تفسير الإمام أحمد – عن جانب من جوانب الحقيقة كما قال واط وهي في جملتها تعبر عن الحقيقة كلها في هذا الأمر. ولكن هذا ما كان ليحدث لو أن الآيات كانت متناقضة. ولست أدري كيف يفوت على كاتب مثل هذا أن العبارات المتناقضة لا تفيد شيئاً لأن كل واحدة منها تنقض أو تمحو ما تقرره الأخرى فالجمع بينها لا يؤدي إلى ثراء بل إلى جدب كامل.

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد، تحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة، الرياض ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص٩١.

وثالثاً: كيف يخطر ببال عاقل أن أمة من العقلاء إنساً كانوا أو جناً أو ملائكة تقبل التناقض ولا ترى الفرق بينه وبين الأحكام والاتساق؟ نعم قد يقال ان أمة يوجد في كلامها من التناقض ما لا يوجد في الأمم الأخرى. أما أن يقال إن عقلها لا يميز بين المتناقض والمتسق، بين المستحيل والممكن فهذا غير معقول. إذا قال أحد هؤلاء لآخر: هل كتبت أنت هذا الكتاب؟ فأجابه نعم أنا كتبته غير أنني لم أكتبه؟ فماذا يفهم إذا كان يعلم أن صاحبه يتحدث على سبيل الحقيقة لا المجاز؟ هل يفهم أنه كتبه؟ لكنه يقول إنه يكتبه. هل يفهم أنه لم يكتبه لكنه يقول إنه كتبه. هذا كلام يقال للشاذين في علم المنطق، وما كنت لأثقل به على القراء لولا أن كاتبنا وبعض بني جلدته يحسبون أن معايير العقلانية نسبية وأن عدم قبول التناقض شيء تخص به العقلية الغربية[1].

(د) ويقول معلقاً على قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]. يبدو أن المفروض هنا أن العلم بالأسماء يتضمن العلم بالطبيعة الحقيقية للشيء، وأن العلاقة بين الاسم وطبيعة الشيء أوثق من مجرد (العلاقة) العرفية. والمحتمل أن هذا كان من مسلمات عقلية العرب قبل الإسلام[2].

لقد ناقش العلماء المسلمون طبيعة العلاقة بين الاسم والمسمى نقاشاً عميقاً مستفيضاً واختلفوا كما اختلف غيرهم بين قائل إنها توقيفية وقائل بأنها عرفية. ولكننا لم نسمع أن أحداً من الفريقين زعم أن معرفة الاسم تتضمن المعرفة بطبيعة الشيء. وليس في قصة آدم ما يدل على ذلك أو ما يشير إليه، فالذين يقولون إن الأسماء توقيفية لا يدعون أكثر من وجود علاقة طبيعية بين الاسم والمسمى اقتضت أن يسمى بهذا الاسم بالذات لا بغيره ولكن هذه العلاقة لا تدرك بمعرفة الاسم وحده، بل لا بد من معرفة المسمى أيضاً لاكتشاف العلاقة والذي فهمه المسلمون تعليم آدم الأسماء أنه

---

(١) انظر: الحوار الذي دار في هذا بين فنش P. Winch وماكنتير A. Macintyre وليوكس S. Lukes في كتاب Rationality, Bryan R. Wilson (ed.) Oxtord, 1974.

(٢) الوحي الإسلامي، ص٣٥.

لم يعلمه ألفاظاً فحسب وإنما قرن له بين الأسماء والمسميات لأن الإنسان كما يقولون صاحب المفردات لا يعرف الاسم. «فيكون عارفاً لمسمّاه إذا عرض عليه المسمى، إلا إذا عرف ذاته. إلا ترى أننا لو علمنا أسامي أشياء بالهندية أو بالرومانية ولم نعرف صورة معالم تلك الأشياء لم نعرف المسميات إذا شاهدناها، بمعرفتنا الأسماء المجرّدة، بل كنا عارفين بأصوات مجردة. فثبت أن معرفة الأسماء لا تحصل إلا بمعرفة المسمى وحصول صورته في الضمير»[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهل الحد يفيد تصور الأشياء؟ فيقول المحققون من النظار على أن الحد فائدته التمييز بين المحدود وغيره، كالاسم، ليس فائدته تصوير المحدود، وتعريف حقيقته وإنما يدعي هذا أهل المنطق اليونانيون أتباع أرسطو ومن سلك سبيلهم تقليداً لهم من الإسلاميين وغيرهم»[2].

واضح من هذا الكلام – وهو لعالم عربي مسلم – أن الاسم لا يفيد تصوير حقيقة الشيء، وواضح منه كذلك أن الذين يقولون كلاماً قريباً من هذا هم اليونان، أجداد الكاتب الفكريون الذين كان يرى فيلسوفهم الأكبر أن الحد يفيد تصور ماهية المحدود.

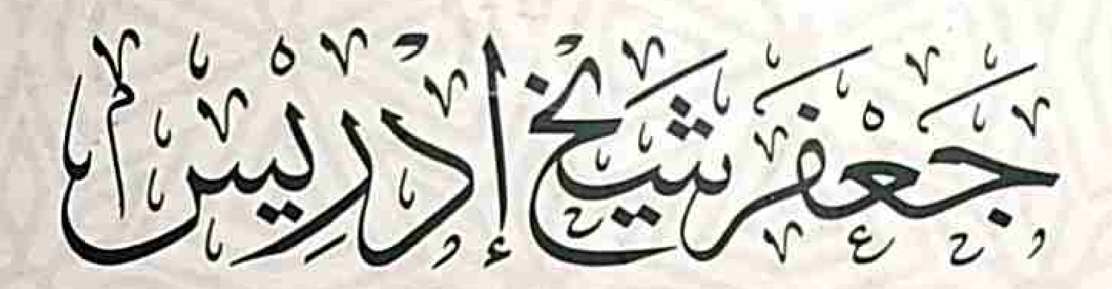
وبعد، فإذا كان الرجل يكتب باعتباره علمانياً، وكان لا يثق بالعلماء المسلمين ويغلو في الثقة بالدراسين الغربيين، وإذا كان هذا الذي ذكرناه أخيراً – وهو قليل من كثير – هو رأيه في الأمة العربية، فلا يستغربن أحد تلك النتائج التي انتهى إليها من دراسته للسيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

* * * * *

---

(١) المفردات في غريب القرآن، تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، بيروت، ص٢٤٤.

(٢) نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان، وهو مجلد واحد مع صور المنطق والكلام للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٠٦.



سيرته | مقالاته | محاضراته | بحوثه

جمع وترتيب

الدكتور مبارك بن حمد الحامد الشريف

الجزء الثاني

دار كنوز إشبيليا
للنشر والتوزيع

جعفر شيخ إدريس

سيرته - مقالاته – محاضراته - بحوثه

[٢]

ح دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٣٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشريف، مبارك حمد آل حامد

جعفر شيخ إدريس: مجموعة مقالات ومحاضرات وبحوث.

مبارك آل حامد الشريف - الرياض، ١٤٣٩هـ (٢مج)

٤٤٤ ص ١٧×٢٤؛

ردمك: ٤-٩٤-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٩٦-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

١- المقالات العربية أ. العنوان

ديوي ٨١ ١٤٣٩/٢٢٦٨

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٢٢٦٨هـ

ردمك: ٤-٩٤-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٩٦-٨١٩٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

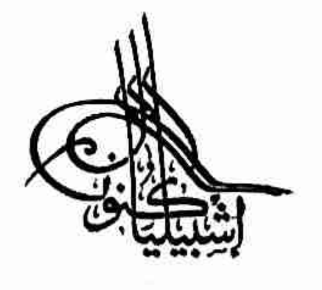
المملكة العربية السعودية

ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٩١٤٧٧٦ ٩٦٦١١ +

٤٩٦٨٩٩٤ ٩٦٦١١ +

فاكس: ٤٤٥٣٢٠٣ ٩٦٦١١ +



Dar Kounouz Eshbelia

For Publishing & Distribution

Kingdom of Saudia Arabia

P.O. Box 27261 Riyadh 11417

Tel.: +96611 4914776

+96611 4968994

Fax.: +966114453203

E-mail eshbelia@hotmail.com

جعفر شيخ إدريس

سيرته - مقالاته - محاضراته - بحوثه

جمع وترتيب

د. مبارك بن حمد الحامد الشريف

الجزء الثاني




بسم الله الرحمن الرحيم



الحضارة الغربية

مقالات عن الحضارة الغربية

للدكتور جعفر شيخ إدريس؛ مقالات عديدة ومتنوعة نشرت في عدد من المجلات والصحف العربية والإسلامية، تحدث فيها الشيخ عن الحضارة الغربية والفكر الغربي، وسأذكر المقالات التي تمكنت من الحصول عليها، أما المقالات التي كتبها الشيخ ونشرتها مجلة البيان فسأكتفي بذكر عناوينها وبالتعريف بكل مقال بشكل موجز.

أولاً: المقالات

إطلالة إسلامية على الحضارة الغربية

جريدة المسلمون السعودية العدد ٤٣٢ في ١٤١٣/١١/٢٣هـ

ننشدكم الله أن تفعلوا شيئاً افعلوا شيئاً ! هكذا سمع صوت المذيع ينادي الناس في العالم مستغيثاً في مدينة سرابرنيتسا البوسنية بعد أن انهارت كل دفاعاتها الإسلامية، وبات اجتياح الصرب لها وشيكاً.

إنها استغاثة ملهوف يعرف ما معنى ذلك الاجتياح، إنه قتل الرجال والتمثيل بالأطفال واغتصاب النساء وتهديم المساجد، وإجلاء الناس عن ديارهم، وفتنة المسلمين في دينهم.

لقد حركت هذه النداءات كما حركت الصور البشعة على التلفاز المشاعر الفطرية في قلوب كثير من الناس في العالم الغربي. فراحوا يطالبون حكوماتهم بأن تتدخل عسكريا لإنقاذ المسلمين فهل تفعل هذه الحكومات شيئاً ؟ وهل نحن فاعلون شيئاً ؟

إن الذي يمنع الدول الغربية من الإقدام على التدخل العسكري أمور:

أولها: أن هذه الدول تبني سياستها في الغالب على ما تعده مصلحة وطنية اقتصادية، أو سياسية أو استراتيجية، أو حزبية انتخابية، او غير ذلك. وهي لا ترى لها مصلحة كهذه في مناصرة المسلمين في البوسنة.

وثانيها: أن كثيراً من الغربيين يعتقدون -في دخيلة أنفسهم -كما يعتقد إخوانهم الصرب -أن وجود المسلمين في أوروبا أمر شاذ، فلا يبالون إذن من غض الطرف عن إخراجهم منها.

ذلك سببان لا يصرح بهما، بل لا يقر بهما، بل قد ينكران إذا ما ذكرا إنكارا شديداً ولا سيما الثاني منهما لكن هنالك سببين أخرين يذكران صراحة.

أولهما: أن الحكومات الغربية تحذر حذرا شديداً من تعريض مواطنيها للموت، خصوصاً بعد التجربة الأمريكية في فيتنام، لذلك تراهم حريصين على الاكتفاء ما استطاعوا باستعمال القوات الجوية، وعدم اللجوء إلى استعمال القوات الأرضية. ويزيد هذا الحرص حين تخشى الحكومات من أن تؤدي كثرة الضحايا إلى سخط شعبي يؤثر عليها في الانتخابات.

وثانيهما: سبب في غاية السخف، وما أراه يذكر إلا كعلة واهية لتسويغ موقف مهين. إنهم يقولون إن تزويد المسلمين بالأسلحة يوسع مدى الحرب ويزيد من عدد الضحايا !أي ضحايا؟ إن تزويد المسلمين بالسلاح، أو السماح لهم باقتناء السلاح، سيمكنهم بلا شك من دفاع أحسن عن أنفسهم، وهو دفاع يقتضي بلا شك قتل العدو المعتدي. فما هذا المنطق الذي يمنع المظلوم من السلاح خشية أن يؤدي ذلك إلى قتل من يقتله ؟ أي منطق هذا الذي ينظر إلى عدد القتلى فحسب ولا يلقي بإلا لنوع المقتولين. ألم يسمع هؤلاء مقالة الخليفة الراشد إذا قتل نفرا تمالؤوا على قتل رجل: (لو أن أهل صنعاء تمالؤوا عليه لقتلتهم). إن المنطق العادل هذا يقول فليقتل الصرب جميعاً غير مأسوف عليهم إذا كانوا مصرين على العدوان غير مصغين لصوت العقل ولا لصوت الخلق.

لكن هذه الأسباب الأربعة يعارضها عندهم سببان آخران:

أولهما: أن الغربيين يعتقدون أن حضارتهم صارت اليوم حضارة إنسانية، تعني بحقوق الإنسان بما هو إنسان، وبغض النظر عن دينه وجنسه ولونه، فيسوؤهم أن يروا هذه الحضارة تتردى إلى همجيتها ووحشيتها التي كانت سائدة في عصور لها ماضية وقد عبرت عن هذا الشعور تعبيراً قوياً المسز تاتشر رئيسية الوزراء البريطانية السابقة حين قالت إن السكوت عن جرائم الصرب أمر لا يليق بأوروبا لا يليق ببريطانيا، لا يليق بالولايات المتحدة. لست أدري إذا كانت المسز تاتشر قد أدركت بحسها السياسي أن ضحية هذا العجز عن رد ظلم فاضح يقع في وسط أوروبا في نهاية القرن العشرين ويشاهده الناس رؤى العين على شاشات التلفاز العالمية، لن يكون بضع الملايين تلك من المسلمين الأوروبيين في البوسنة، بل سيكون الحضارة الغربية، لأن الحضارات إنما يبقيها –فيما يبقيها– اعتزاز أهلها بقيمها الإنسانية. فإذا ما ذهبت تلك الثقة أو تزعزعت فذلك إيذان بزوال الحضارة نفسها.

وسبب آخر ذو صلة بهذا السبب هو خشيتها من أن تفقد مصداقيتها العالمية بل المحلية حين يراها الناس تكيل بمكيالين، تدافع عما تسميه بالحرية والديمقراطية والحقوق الإنسانية حين يكون لها في الأمر مصلحة، وتنسى كل هذا بل قد تساعد

الخارج عليه حين لا تكون لها مصلحة في الدفاع عن تلك المثل، أو حين تكون مصلحتها مع الخارج علها.

قال أحد القساوسة الأمريكان في مقال بجريدة "لوس أنجلس تايمز" "عدد ٢٩ مارس ٩٣م": إن ما يحصل للمسلمين في البوسنة هو «تكرار للشر المظلم في الحضارة النصرانية» وأنه يعيد ذكرى المذبحة التي ارتكبها النصارى في مدينة أخرى هي القدس.

ويقول: إن عبارة "التطهير العرقي" اسم على غير مسمى لأن ما يحدث إنما هو حرب دينية ، فالمسلمون البوسنيون عنصرهم كعنصر الصرب وشعرهم كشعرهم وأعينهم كأعينهم لأنهم جميعاً ينتمون إلى العنصر السلافي «إن شبح البوسنة سيظل يلاحق العالم لسنين عدة ما لم نوقف الفظائع هذه ونتجنب حمام الدم الذي سيسيل إذا ما سقطت سراييفو».

فما الذي يجب علينا نحن أن نفعله ؟

يجب علينا أولا أن نغير هذا المنكر بألسنتنا ، يجب أن ترتفع أصواتنا ارتفاعا تردده الإذاعات والتلفازات العالمية ، فيسمعه الناس في العالم كله ، ولا سيما المستضعفين من إخواننا البوسنيين، بأننا ننكر هذا الظلم أشد الإنكار ، وأننا نرى أن من واجب الأمم المتحدة أن ترد عدوان الصرب ، بل وتؤيدهم ، وإلا لم يعد لوجودها من فائدة ، وأننا نرى من حق المظلومين في البوسنة أن يمدوا بالسلاح أو أن يسمح لهم على الأقل باقتناء السلاح يجب ان نرد بحزم على الحجج الواهية التي يعلل بها عدم تسليحهم أو السماح لهم بالتسليح.

إن الأصوات العالية في العالم اليوم في هذه القضية -موافقة أو معترضة -هي أصوات المسؤولين والسياسيين والكتاب والصحفيين الغربيين وهذا أمر لا يليق -والله -بنا نحن المسلمين. هذه القضية قضيتنا قبل أن تكون قضيتهم إنها قضيتهم بحكم وقوعها لمواطنين أوروبيين، لكنها قضيتنا بحكم وقوعها لإخوان لنا مسلمين، وأخوة الدين الحق فوق كل الروابط الأرضية.

إنني لأعلم أن بعض الدول تقوم بمجهودات دبلوماسية مشكورة ومقدرة لنصرة المسلمين في البوسنة، لكن الدبلوماسية الصامتة من أهميتها وجدواها العملية لا تغني عن الجهر بكلمة الحق ومناصرة المظلوم، فإن لهذه كما لتلك خطرها وجدواها. فليصدع بكلمة الحق قادة حكمنا وقادة رأينا من العلماء والمفكرين والزعماء والصحفيين وليكن كلامهم في هذه القضية دائماً ومتصلاً، دفاعاً عن المسلمين المظلومين ورداً على حجج الأعداء والقاعدين، وتأييدا وشكرا للمؤيدين والمؤازرين.

ثم المال:لقد تبرعت بعض الحكومات وبعض الشعوب تبرعات سخية لإخوانهم في البوسنة، لكن الذي علمناه أن القوم مازالوا محتاجين إلى المال الكثير، فالخلة التي سببتها هذه المحنة أكبر من أن تسدها تلك التبرعات الموسمية المحدودة. لماذا لا تتفاوض منظمة المؤتمر الإسلامي مع حكومة البوسنة لتعرف مقدار حاجتها من المال ثم تقسم هذا المقدار على الدول الإسلامية كل بقدر وسعه ؟ ولماذا لا يلتزم بعض الأثرياء فينا بتبرع شهري يصل إلى المجاهدين عن طريق المؤسسات الموثوق بها ؟ ولماذا لا تكون التبرعات الشعبية في المساجد مسألة أسبوعية حتى تنفرج هذه الأزمة بإذن الله تعالى.

إن بعض المسؤولين في الدولة الغربية يلوحون بأنهم قد يغيروا رأيهم في مسألة السماح بإرسال السلاح إلى البوسنة، وإذن فتغيرهم لموقفهم في هذه القضية أمر محتمل: فلتقم حكوماتنا الإسلامية بمهمة في هذا السبيل فلتشجع ولتضغط ولتهدد، حتى يصير هذا الاحتمال أمرا واقعاً.

ثم ماذا يكلف دولنا الإسلامية أن تقطع كل علاقة لها بدولة الصرب المجرمة المعتدية ؟ كيف يسوغ أن تقوم بيننا وبين هذه الدولة علاقة سياسية أو اقتصادية وهي تقتل الأبرياء من إخواننا المسلمين وتخرجهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ؟ لماذا ننتظر حتى تقرر لنا الدول الغربية متى تقاطع وفي أي شيء تقاطع وإلى متى تقاطع؟

ثم لنقل للغربيين إذا كنتم لا تريدون تعريض أبنائكم للموت دفاعاً عن المسلمين، فإن في بلادنا من هو مستعد للموت في هذا السبيل، لنقل لهم إننا مستعدون أن نقدم لكم جنوداً مشاة، إن شئتم دخلوا البوسنة باسم الأمم المتحدة. وإن شئتم دخلوها باسم المؤتمر الإسلامي، كما دخلت أمريكا الصومال بإسمها قبل أن تدخل جنود الأمم

المتحدة. ونحن موقنون بأن أبنائنا في الجيوش الإسلامية رجالا يشرفهم أن يلبوا هذا النداء ويذهبوا طالبين الشهادة في سبيل الله.

إننا إذ ندافع عن إخواننا في البوسنة إنما ندافع عن أنفسنا.

أولاً: لأن مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

وثانياً: لأننا إذا فرطنا في الدفاع عنهم فإن هذا يوشك أن يجري أعداء أخرين على بلاد أخرى حتى يصل الأمر إلى عقر دارنا حيثما كانت هذه الدار. قال أحد الشيوخ الأمريكيين المتعاطفين مع المسلمين في حفل أقيم تكريما له، كلاما فحواه أن اضطهاد المسلمين أصبح ظاهرة عالمية، وأنه يشك في أن تكون حوادثها منعزلة بعضها عن بعض، وحذر المسلمين من أنهم ما لم يفعلوا شيئاً فإن الاعتداء على المسلمين من أنهم ما لم يفعلوا شيئاً فإن الاعتداء على المسلمين سيصبح أمراً عادياً، لأن كل اعتداء يذهب بغير عقاب يغري باعتداء جديد في جهة أخرى.

وثالثاً: لأننا إذا ما لم نفعل شيئاً فسيتولد عند الكثيرين منا -ولا سيما المتدينين من شبابنا -شعور بالإحباط شعور بأنهم ينتمون إلى أمة عاجزة فاشلة. لكن قوة إيمانهم بدينهم وثقتهم بربهم تعصمهم من رد هذا الضعف وهذا الفشل إلى دينهم. فهم رادوه لا محالة إذن إلى أوضاعهم، إلى نظمهم، إلى زعمائهم، وربما حتى إلى علمائهم. وإذا ما تمكنت هذه المشاعر وتأصلت في القلوب وانتشرت ين الشباب فيوشك أن يكون لشررها ضرام الله أعلم بمداه.

فلنستجب لنداء إخواننا المستغيثين ولنسرع إلى إغاثتهم، وإلى إغاثة سائر إخواننا المستضعفين في البوسنة والهرسك. وإلا فقل لي بربك ما فائدة أموالنا ما فائدة منظماتنا، ما فائدة جيوشنا، ما فائدة دولنا، بل ما مسوغ وجودنا، إذا نحن لم نبذل هذا كله للدفاع عن المظلومين المضطهدين منها، لحماية أعراض أخواتنا، لإنقاذ أطفال إخواننا، للقتال دون أوطاننا، للغيرة على ديننا.

* * *

حين تصير الديمقراطية وثناً يعبد

السبت ٢٩ رجب ١٤٢٨ هـ/ ١١ أغسطس ٢٠٠٧ م
شبكة المشكاة الإسلامية

يؤكد لنا كثير من المفكرين الغربيين أن الديمقراطية إنما هي وسيلة، وأنها مسألة إجرائية، وأنه لا محتوى لها (أي أنها لا تقول إن الحكم في الاقتصاد مثلا أو في المسائل الاجتماعية أو في التعليم يجب أن يكون كذا وكذا) وأن الذي يعطي الديمقراطية شيئاً من مثل هذا المحتوى إنما هو الفلسفة الليبرالية، ولذلك تسمى الديمقراطيات الغربية بالديمقراطيات الليبرالية. فالليبرالية في حقيقتها قيد على الديمقراطية بمعنى أنه لا يجوز حتى للأغلبية سواء كانت أغلبية استفتاء أو أغلبية هيئة تشريعية أن تقضي بشيء يتناقض مع الليبرالية مثل الاعتداء على حق من حقوق الإنسان. والمفكرون الغربيون - ولا سيما المحافظين منهم - يميزون لذلك بين ما يسمونه ديمقراطية العامة populist democracy وبين الديمقراطية المقيدة ببعض القيم. لكن يبدو أن كثيراً من السياسيين وأهل الرأي عندنا - حتى من كان منهم منتسبا إلى الإسلاميين - لا يعرفون من الديمقراطية إلا الديمقراطية المطلقة التي لا قيد ديني ولا خلقي عليها.

أصحاب هذا الفهم الساذج للديمقراطية يظنون أن كل أمر مهما كان خطيرا فهو خاضع للدمقراطية، وأن ما تقرره الأغلبية فيه هو الأمر الذي يجب الالتزام به مهما كان نوعه. أذكر أن أحدهم كتب منذ سنين ينصح الإسلاميين بأن يلتزموا بما تقوله صناديق الاقتراع حتى لو ؛كان الفائز فيها هو الحزب الشيوعي. تذكرت حين قرأت ذلك كلاما للفيلسوف البرياطاني برتراند رسل فحواه أنه ينبغي أن لا يعطى الشيوعيون من الحرية ما يمكنهم الوصول إلى السلطة، لأنهم إذا وصلوا إليها ألغوا الديمقراطية التي جاءت بهم. وإذا كان ذلك قد كان رأيا شاذا كما تصورت آنذاك فإنني أعجب الآن أن صار مثل هذا الراي هو الغالب على تصور كثير من الناس في بلادنا للديمقراطية حتى بعض من كان منهم مسلما يؤمن بأن القرآن كلام الله وأن محمدا رسول الله، ويصلى ويصوم بل ويحج!

كنت أحسب أنه إذا كان لا بد لأمثال هؤلاء من مناداة بالديمقراطية أن يجعلوها ديمقراطية مقيدة بالقيم الإسلامية، كما قيدها الغربيون بالليبرالية. فكان عليهم أن يعلنوا لذلك أن ما يحكم به الله تعالى ليس خاضعا لقرار ديمقراطي، كيف والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات: ١].

والمقصود بالتقديم بين يدي الله ورسوله هو أن تعطى الأسبقية لرأي أو هوى لفرد أو جماعة مهما كان وكانوا. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

وكل من اقترح أمرا مخالفا لما شرع الله فهو من الذين لا يعلمون أقلية كانوا أم أغلبية والالتزام بما شرع الله تعالى يجب أن يكون - من حيث الإيمان - التزاما بها كلها: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

أما العمل فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

إن الذي يهدينا إليه كتاب ربنا وتبينه لنا سنة رسولنا هو أننا أمة، أننا جماعة، وأن جماعتنا لا تتحقق إلا إذا كانت لنا دولة تلتزم بكتاب الله وسنة رسوله مااستطاعت. فكما أننا نصلي جماعة وراء إمام مسلم، فكذلك نكون جماعة وراء حاكم مسلم تسمى إمامته بالإمامة العظمى. هذه إذن مسألة لا تقبل المساومة، وليست خاضعة لقرار ديمقراطي أو غير دمقراطي.

سيقول بعض الجهلاء إنه ما دام المسلمون أغلبية فلن يختاروا شخصاً غير مسلم. وأقول إنه لا يجوز من حيث الإيمان أن يجعل المسلم رأي الأغلبية مبدأ يلتزم به التزاما مطلقا بغض النظر عن النتائج الواقعية. فكما أنه لا يجوز لك أن تقول لإنسان إنه يجوز

لك أن ترتد وأنت على يقين من أنه لن يرتد، فكذلك لا يجوز لك أن تعلن موافقتك لرأي الأغلبية في أمر تعلم أن الله تعالى قد حكم فيه.

ثم إن الأرض التي يسكنها المسلمون يجب أن يحكمها المسلمون وأن يحكموها بكتاب الله تعالى بقدر استطاعتهم. إن المرء ليعجب كيف يرى كثير من الناس في بلادنا أنه من حق أناس كالمواطنين الجنوبيين أن تكون لهم حكومتهم غير الإسلامية لأنهم ليسوا بمسلمين، وينكرون أن تكون للمسلمين في الشمال حكومتهم الإسلامية وهم مسلمون.

والدولة لا تكون مسلمة إلا إذا كان حاكمها مسلما. لكن كثيرا من المنتسبين إلى الإسلام صدقا أو نفاقا صاروا يصرحون بأنهم لا يبالون بأن يكون رئيس دولتنا رجلا غير مسلم، بل إن بعض من يصلي ويصوم ويحج كان يصرح بأنه كان سيعطي صوته لجون قرنج إذا ما رشح نفسه لرئاسة الجمهورية!! هذا مع أن علماء المسلمين لم يختلفوا في الخروج المسلح على الحاكم الكافر ما دام ذلك ممكنا لقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح في الخروج على الحاكم: **(إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان)**.

فياليت شعري إذا كان ديننا يأمرنا بالخروج على حاكم كان يبدو مسلما ثم طرأ عليه الكفر، فكيف يبيح للمسلمين أن ينصبوا على أنفسهم وباختيارهم حاكما مستعلنا بكفره؟ لماذا نرضى بهذا الإذلال لأنفسنا ونحن أمة أعزها الله تعالى حتى إن عيسى ابن مريم وهو رسول من رسل الله عندما يجيء لا يرضى بأن يؤم المسلمين بل يعطي هذا الحق لإمامهم يومذاك. فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **(لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة)**.

إن الإيمان بالدمقراطية بمعنى التسليم المطلق لقرار الأغلبية معناه جواز الخروج على أوامر الله. هل يبقى من يؤمن بمثل هذا مسلما؟ لقد أكفر الله سبحانه وتعالى قوما من اليهود فعلوا أقل من هذا فقال لهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا

جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

هؤلاء قوم كان قد أخذ الله تعالى عليهم الميثاق أن لا يسفك بعضهم دماء بعض، وأن لا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم فأقروا بهذا لكنهم خالفوه في الواقع فكان بعضهم يتحزب ضد بعض ويقاتلونهم متحالفين مع بعض المشركين. لكنه كانوا إذا أسر العدو بعض من قاتلوهم من إخوانهم فادوهم وأخرجوهم من الأسر اتباعاً لأمر الله تعالى. فلم يقبل الله تعالى منهم هذا الإيمان الجزئي بأحكامه فقال لهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

قلنا إن الإيمان المطلق بالعمل بقرار الأغلبية أمر مخالف للشرع، بل وللعقل أيضا. ونقول الآن إنه لا يكون في الواقع ممكناً. ولذلك قال منظرو الديمقراطية إن العمل بقرار الأغلبية إنما يكون ممكناً في المجتمع المتناسق، أي المجتمع الذي يجمعه - في غالبه الأعم - ثقافة واحدة وقيم أكثرها مشتركة وهكذا. في مثل هذا المجتمع لا يشعر الناس بأن أمراً خطيراً قد حدث إذا ما فاز حزب وخسر آخر؛ لأن الفرق بينهما ليس فرقاً جذرياً. وأما حين يكون المجتمع منقسماً انقساماً حاداً في مسائل يعدها المختلفون قضايا جذرية فإنهم لن ينصاعوا لرأي الأغلبية. عبر عن هذه الفكرة بوضوح كاتب أمريكي يدل عنوان كتابه على مقصده: قبل أن يبدأ التراشق... من الأمثلة التي ذكرها لمثل هذه القضايا التي لا مساومة فيها والتي تؤدي إلى التراشق بالسلاح قضية الإجهاض التي حملت بعض المواطنين الأمريكان على قتل طبيب مارسه لأنه اعتبروه قتلا لنفس بريئة وهو أمر لا مساومة فيه. فكيف إذا كان الخلاف في أمور أخطر، إذا كان بين مؤمنين وكافرين، أو بين فرق دينية كالسنة والشيعة كما هو الحال في العراق، أو بين قوم مع الاحتلال وآخرين يعدونهم خونة كما هو الحال في أفغانستان. لقد أجرى الأمريكان في كل من هذين البلدين انتخابات، وافتخروا بأنهم جعلوا هذه البلاد ديمقراطية، وظن بعضهم في سذاجة أن الانتخابات ستحل مشكلتهم. لكن الواقع أن الصراع استمر، وأن القتل ازداد استعاراً. وما كان لهذا إلا أن يحدث حتى لو كانت الانتخابات نزيهة مئة بالمئة..

***

هل يكون الحكم الديمقراطي فاسداً؟

شبكة المشكاة الإسلامية
الثلاثاء ٢٩ جمادى الثانية ١٤٣٢هـ

صلاح المجتمع يعتمد على دعامتين، دعامة داخلية هي الأساس، ودعامة خارجية هي المساعدة. فالمجتمع الصالح هو الذي يتكون من أفراد صالحين كلما كان عددهم أكثر كان مجتمعهم إلى الصلاح أقرب. لكن الصلاح الداخلي يحتاج إلى ترتيبات خارجية تناسبه وتعين على العمل بمقتضاه.

من عيوب الفكر الغربي السائد أنه يفترض أن صلاح المجتمع إنما يكون بصلاح الترتيبات الخارجية اقتصادية كانت أم سياسية أم اجتماعية ورأسمالية كانت أم اشتراكية.

وعليه فإن كثيراً من الناس في زماننا بل وفي بلادنا ممن تأثر بهذا الفكر صاروا يعلقون آمالاً كبيرة على النظام السياسي الديمقراطي ويرجون منه ما لا يمكن أن يحققه به . ذلك أنه لما كثرت معاناة الناس من الفساد المرتبط بالنظم الاستبدادية الدكتاتورية صاروا يعتقدون أن النظام السياسي الديمقراطي الحق هو الإكسير الذي سيداوي هذا الدّاء، ويجعل المواطنين يعيشون في أمن من ذلك الفساد .لكن هذا وهم مرده إلى عدم النظر في النظرية الديمقراطية وتطبيقاتها.

هل يكون النظام ديمقراطياً حقاً ويكون مع ذلك فاسداً حقاً؟

نعم. والفساد المتعلق به نوعان، نوع يتعارض مع الديمقراطية، وهذا ليس محل بحثنا لأن الديمقراطية ليست مسؤولة عنه مادام يتعارض معها .إنما بحثنا في الفساد الذي لا يتعارض معها، بل الذي ينتج عنها حتى حين تطبق تطبيقاً صحيحاً . إن كون القرار قد يكون ديمقراطياً لا ريب في ديمقراطيته، ويكون مع ذلك فاسداً لا ريب في فساده أمر يقر به كبار منظري الديمقراطية من الغربيين.

فهذا فوكوياما يقول: إن القرارات التي تتخذها ديمقراطيات ليبرالية ذات سيادة والتي تكون صحيحة إجرائياً، لا ضمان أن تكون عادلة أو متناسبة مع هذه المبادئ العليا. إن الأغلبيات الديمقراطية يمكن أن تقرر فعل أشياء فظيعة لأقطار أخرى، ويمكن أن تتغول على الحقوق والقيم الإنسانية التي بني عليها نظامها الديمقراطي

نفسه . وقال كاتبهم الشهير هنتجتون Huntington يقول: إن الانتخابات المفتوحة الحرة العادلة هي جوهر الديمقراطية، هي شرطها الضروري الذي لا مفر منه .لكن الحكومات التي تأتي بها الانتخابات قد تكون عاجزة وفاسدة و قصيرة النظر وغير مسؤولة، وتغلب عليها مصالح خاصة وتعجز عن اتخاذ سياسات يطلبها الشعب .هذه الخصال تجعل الحكومة غير مرغوب فيها، لكنها لا تجعلها غير ديمقراطية. وهذا صحفي كندي كبير يكتب مقالا بعنوان مثير هو «على كندا أن تلغي الديمقراطية» لماذا؟ يدعي الكاتب أن النظام الحالي هو أفسد نظام مر على كندا في تاريخها كله «إن حجم السرقة، والاحتيال والتزوير وغسيل الأموال يتجاوز أن يكون بسبب عدد من السياسيين المنحرفين أو مجموعة صغيرة من المستخدمين المارقين .إن الحزب الليبرالي وبالتالي الحكومة فاسدة .إن الفساد ليس في مجرد عدد من الحوادث المعزولة لكنه في الجهاز نفسه».

ثم يقول: «إن من الفضائل المفترضة في الديمقراطية أن الناس بإمكانهم أن يغيروا حكومتهم إذا لم يكونوا راضين عنها .ولكن حتى مع علمنا بأن هذه الحكومة فاسدة وملتوية فإن ٦١٪ من الكنديين لا يرغبون في إجراء انتخابات».

وهذا ليبمان الذي قال عنه مقدمو الكتاب الذي نشروا فيه مجموعة من مقالاته، «إنه ربما كان أعظم مفكر سياسي أمريكي في القرن العشرين»، يقول فيما نحن بصدده: «يجب في رأيي أن نرفض القول بأن مبادئ الحرية والعدالة والحكم الصالح إنما تتمثل في حكم الأغلبية. هنا يكمن أصل المسألة .لقد كان واشنطن يعتقد أن الشعب يجب أن يحكم، لكنه لم يكن يعتقد أنه بسبب حكم الشعب تتحقق الحرية ويتحقق العدل والحكم الصالح .كان يعتقد أن الشعب ذا السيادة لا يؤتمن ـ كما لم يؤتمن الملك ذو السيادة الذي كان هو "أيّ الشعب" خلفاً له ـ على السلطة المطلقة. إنه لم يخدع نفسه. ..إنه لم يكن يؤمن بما صار الآن الأيدولوجية الديمقراطية السائدة: أن كل ما رأت جماهير الناس أنها تريده فيجب أن يقبل على أنه الحقيقة .لقد كان يعلم أنه لا ضمان من أن يتحول حكم الشعب إلى حكم قهري، تعسفي، فاسد، ظالم وغير حكيم .إن الشعب أيضا يجب أن يكبح جماحه .

إنه كغيره يجب أن يحاسب .إنهم كغيرهم يجب أن يعلموا .إنهم كغيرهم يجب أن يرفعوا فوق مستوى سلوكهم المعتاد. وإذا كان أولئك قد تكلموا عن الفساد السياسي فإن الكاردينال الأسترالي جورج بل George Pell يتحدث عن فساد يخشى أن يكون استشراؤه في الديمقراطيات الغربية سببا لإقبال الناس على الإسلام الذي يرى أنه من حيث خطره على الحضارة الغربية هو شيوعية القرن الواحد والعشرين .يقول هذا الكاردينال: «إن الديمقراطية الغربية الليبرالية فارغة وأنانية وأن الإسلام بدأ يظهر نظرة عالمية بديلة»، إن الإسلام قد يكون في القرن العشرين «جاذباً للمغتربين alienated والغاضبين من جانب، وأولئك الذين ينشدون النظام والعدل في الجانب الآخر»، ثم يتساءل «هل تحتاج الديمقراطية إلى صناعة فحش ببلايين الدولارات، صناعة نامية بسرعة؟ هل تحتاج إلى معدل إجهاض يصل عشرات الملايين لتتصف بالديمقراطية؟»

في كلام هؤلاء المفكرين الغربيين حقيقة مهمة يغفل عنها كثير من الناس فيخلطون بين كون القرار أو التصرف ديمقراطياً وكونه حسناً قائماً على مكارم الأخلاق، فيشككون في ديمقراطية كل قرار لا يرونه حسناً ويصفونه بأنه لا يتناسب مع الديمقراطية الحقة .

والحقيقة أنه لا علاقة بين الأمرين .فالقرار أو التصرف قد يكون خطأ وقد يكون إجراماً وقد يكون ضاراً، ولكنه يكون مع ذلك ديمقراطياً لا قدح في ديمقراطيته . لماذا؟ لأن الديمقراطية إنما هي حكم الشعب، أو هي في الواقع حكم أفراد من الشعب حكمهم الشعب في نفسه، أو حكمتهم فيه قلة منهم، عن طريق الانتخابات .لكن حكم الحاكم إنما هو ثمرة علمه أو جهله، ومعاييره الخلقية حسنة كانت أو سيئة . لماذا ننسى أن قرارات الدول الغربية بغزو شعوب العالم الضعيفة واحتلال أراضيها واستغلال خيراتها كانت كلها قراراً ديمقراطياً؟ وأن خطف أمريكا للأبرياء من الأفارقة واسترقاقهم ومعاملتهم بأسوأ مما تعامل به الحيوانات كان قراراً ديمقراطياً؟ وأن قرار تحريرهم لم يكن قراراً ديمقراطياً، وإنما جاء نتيجة حرب بين من رأوا أنه يتعارض مع المبادئ الإنسانية، وبين الذين كانوا يرون الالتزام برأي الأغلبية مهما

كان .كما أن قرار استحلال الزنا بين المتراضين أيا كان جنسهما هو قرار ديمقراطي؟ وأن قرار فرنسا بمنع الحجاب كان قراراً ديمقراطياً؟ وأن غزو أفغانستان ثم العراق كان قراراً ديمقراطياً.

قد يقال: إلا يكون الحكم الإسلامي أيضا فاسد؟ كلا .لا يكون إسلاميا حقا وفاسدا .لماذا؟ لأن صلاحه شرط في إسلاميته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨].

فهو إسلامي بقدر قربه من الصلاح وغير إسلامي بقدر قربه من الفساد .إذن فالفرق بين النظام الإسلامي والنظام الديمقراطي أن فساد النظام الديمقراطي راجع كثير منه إلى النظرية الديمقراطية.

أما فساد النظام المنتسب إلى الإسلام فلا يرجع إلى الدين الإسلامي وإنما يرجع إلى التطبيق .السبب في هذا هو أنه بينما النظام الإسلامي هو حكم بنصوص أنزلها الله تعالى، أو باجتهادات بشرية مبنية على معايير أنزلها الله تعالى، فإن الديمقراطية هي حكم شعب من الشعوب.

ولما كانت الشعوب متعددة ومختلفة، فإن قراراتها الديمقراطية لا بد أن تتعدد وتختلف .بل إن قرارات الشعب الواحد تختلف بحسب ما يحدث فيه من تغيير على مر الأيام.

قد يقال إن المؤمنين بالديمقراطية يستطيعون إصلاح هذا الخلل في نظريتهم فيضيفون إليها مبادئ تشترط في القرار الديمقراطي أن لا يتعارض مع القيم الخلقية المتفق عليها بين الناس كالصدق والأمانة والعدل.

لكن مثل هذا التعديل الذي نادى به فعلاً بعض ذوي الرأي منهم يقضي على النظرية نفسها؛ لأن السؤال سيكون: من الذي يحق له أن يقول للناس إن قراركم ليس ديمقراطياً إذا كان قراراً اتخذوه بأغلبيتهم؟

***

فلنحدد ما نعني بالديمقراطية؟

الجمعة ٢٥ ذو القعدة ١٤٣٢هـ/ ٢١ أكتوبر ٢٠١١م
شبكة المشكاة الإسلامية

يوافق بعضنا على القول بأن الديمقراطية أحسن نظام توصلت إليه البشرية، ويقول آخرون إن الديمقراطية كفر، ويقف فريق ثالث بين أولئك وهؤلاء.

وكل القائلين مسلمون لا يطعن بعضهم في إيمان بعض، ولكل منهم حظ من العلم بالدين وبالديمقراطية .فهل يمكن أن يحدث خلاف عظيم مثل هذا في قضية من القضايا بين أناس ينتمون إلى دين واحد هو الدين الحق إذا كانوا يشيرون إلى شيء واحد متفق عليه بينهم؟ كلا .وإذن فلا بد أن يكون كل واحد من هؤلاء المختلفين مشيرا إلى شيء غير الذي يشير إليه الآخرون وإن كانوا جميعاً يسمون ما يشيرون إليه بالديمقراطية .وهذه المسألة ليست خاصة بالمسلمين .فقد قرأت لبعض منظري الديمقراطية من الغربيين كلاما مفاده أن انتشار الإعجاب بالديمقراطية كان على حساب معناها .وقرأت لآخر قوله إن الديمقراطية صارت كلمة رنانة لا معنى لها .ولثالث قوله إن الديمقراطية صارت تعني عند كثير من المعجبين بها كل شيء يرونه حسنا .وعليه فلكي نضيق من دائرة الخلاف بيننا يحسن أن يبين كل منا ما الذي تعنيه الديمقراطية بالنسبة له، ثم يحكم بعضنا على بعض بما قصد بالديمقراطية لا بالمعنى الذي يراه هو المعنى الحقيقي لها .وقديماً قال علماؤنا إذا اتضحت المعاني فلا مشاحة في الألفاظ.

إذا قال أحدنا إن الذي يعنيه بالديمقراطية هو المعنى الذي يدل عليه لفظها اليوناني، والمعنى الذي أجده في القواميس والموسوعات السياسية، والمعنى الذي يكاد يتفق عليه كل منظريها الأكاديميين .هذا المعنى هو أن الديمقراطية إنما هي حكم الشعب. والمقصود بالحكم هنا هو كون الشعب هو السلطة التشريعية العليا التي لا معقب لحكمها .فإذا حكمت على الديمقراطية بهذا المعنى قلت إنها تتناقض مع الإسلام الذي يجعل الحكم لله وحده، بمعنى أنه هو وحده الذي يملك حق التشريع، وأنه ليس لمشرع غيره أن يشرع إلا في حدود ما شرع هو سبحانه.

أما إذا قال آخر إن الديمقراطية إنما تعني بالنسبة له أن يختار الشعب حكامه والممثلين له في الهيئات التشريعية في انتخابات دورية حرة ونزيهة؟ هل يصح أن يقال لمثل هذا إن ديمقراطيتك هذه تتناقض مع الإسلام؟ كلا .لا تستطيع أن تحكم على ديمقراطيته هذا الحكم العام وإن اختلفت معه في تفاصيل بعض ما ذكر .لكن من حقك أن تقول له إنك تجاهلت أعظم مسألة جاءت الديمقراطية لحلها، ولم تذكر لنا بديلا عنها مع أنها هي

المسألة التي تهمنا الآن .إن الديمقراطية إنما بعثت في أوروبا بعد ألفي عام من موتها في أثينا لتجيب عن السؤال المهم: لمن الحكم؟ وكانت الإجابة أنه ليس للملوك ولا لرجال الدين ولا لدكتاتور أو فئة قليلة متسلطة، وإنما هو للشعب، بمعنى أغلبية ممثليه.

إذا كانت الديمقراطية إنما تعني الانتخابات فإن السؤال الذي يلي هذا هو بم يحكم هؤلاء المنتخبون؟ هل سيتقيدون فيما يصدرون من أحكام وقوانين بحكم الله تعالى، أم سيكونون أحرارا يشرعون بما شاءوا بحسب أهواء أغلبيتهم كما هو الحال في واقع الديمقراطيات الغربية؟ إذا قلت بالأول كان الحكم الذي تريده حكما إسلاميا، فلماذا تسميه ديمقراطيا؟ وربما قال لك أهل الديمقراطية كيف تقيد حرية ممثلي الشعب وتمنعهم من أن يشرعوا بما يرونه مناسبا لأمتهم؟ وإذا قلت بالثاني كان الحكم في الحقيقة لأغلبية ممثلي الشعب، وهذه هي الديمقراطية المعمول بها في البلاد الغربية الديمقراطية. وهي الديمقراطية التي يسعون لنشرها وتعميمها في العالم كما يقولون .

ماذا إذا قال ثالث إن الديمقراطية لا تعني بالنسبة له الانتخابات فقط وإنما تعني أيضا حرية تكوين الأحزاب، والتداول السلمي للسلطة، وحكم القانون، وحقوق الإنسان وغير ذلك من المبادئ التي ارتبطت بالديمقراطية في الواقع الغربي؟ قد نخالف هذا القائل في بعض تفاصيل ما ذكر لكنك لا تستطيع أيضا أن تقول له إنك تقول شيئا يتناقض مبدئيا مع الإسلام .لكن يمكن أن نقول له ما قلنا للثاني: من الذي يحدد محتوى هذه المبادئ ولا سيّما القانون وحقوق الإنسان؟ هل سيكون الأمر فيها متروكا لأهواء الأغلبية البرلمانية فنكون قد رجعنا إلى المعنى الأول للديمقراطية؟ أم أنهم سيتقيدون بما أنزل الله في كتابه وسنة نبيه فيكون حكمهم إسلاميا فلا داعي لأن يوصف بالديمقراطية ؟

هل يلزم عن هذا عدم الاستفادة من أي شيء في التجربة الديمقراطية الواقعية؟ كلا. بل قد نستفيد من بعض جزئياتها العملية، كما نستفيد من جزئيات غيرها من النظم، ما دامت جزئيات يمكن وضعها في الإطار الإسلامي .والاستفادة من جزئيات الديمقراطية لا تجعل الدستور ديمقراطياً، ومن باب أولى أن لا تجعل البلد ديمقراطياً . كيف والبلاد التي تأخذ بالأيدولوجية الديمقراطية بمعنى حكم الشعب لا ترى من الضروري أن تصف دستورها ولا بلدها بالديمقراطي؟ فلماذا يصرّ بعضنا على وصف بلادنا بهذا الوصف؟ أقول بهذه المناسبة إن بعض القراء قد يعجبون كما عجبت حين علمت أن كلمة الديمقراطية لم يرد لها ذكر في الدستور الأمريكي، ولا في وثيقة إعلان الاستقلال الأمريكية!!

هل تحل العلمانية مشكلة التعددية؟

السبت ٢٧ شوال ١٤٣٢هـ/ ٢٤ سبتمبر ٢٠١١م
شبكة المشكاة الإسلامية

على أي أساس يضع المواطنون في بلد ما دستورهم ويصدرون قوانينهم إذا كانوا منقسمين إلى أديان مختلفة؟

يثير هذا السؤال عدة مسائل:

المسألة الأولى: أن دعاة العلمانية ولا سيما في بلادنا العربية في هذه الأيام، يقولون إن الحل الأمثل هو الحل الذي لجأت إليه أوروبا وأمريكا وسائر الدول التي قلدتها، وهو أن تكون الدولة علمانية لا تلتزم بدين لكنها لا تمنع أحداً من ممارسة دينه في حياته الخاصة .بهذا يكون المجال العام، مجال التشريع والتنفيذ والقضاء، مجالا مفتوحاً لكل أفراد المجتمع يشاركون فيه باعتبارهم مواطنين لا باعتبارهم منتمين إلى هذا الدين أو ذاك، ويكونون بهذا متساوين في حقوقهم السياسية. نقول نعم إن هذا قد يحدث إذا تنازل كل المنتمين إلى الأديان أو معظمهم عن أديانهم، أو على الأقل عن جانب المجال العام منها، ورضوا بأن يحصروها في الجانب الخاص كما فعل الغربيون . وقد صار كثير من المسلمين المتأثرين تأثراً شديداً بالفكر الغربي يعدون هذا أمراً طبيعياً، بل يعدونه أمراً لازماً للدولة الحديثة .رأيت ذات مرة في التلفاز أحد هؤلاء وهو يدافع دفاعاً مستميتاً عن الدولة العلمانية، ثم تبين في المقابلة معه أنه من حرصه على أداء الحج بطريقة كاملة لم يكن يكتفي بالسؤال عن أركانه وواجباته بل كان يحرص حتى على مستحباته !فهذا إذن رجل يرى أنه يمكن أن ينكر جزءاً من الإسلام ويدعو إلى هذا الإنكار ويظل مع ذلك مسلما ربما لأنه لا يعلم أن من شرط الإيمان بالإسلام أن يؤمن الإنسان به كله ثم يجتهد في أن يطبق منه ما استطاع، وأن من أنكر بعض الدين كمن أنكره كله .

قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ

عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٥-٨٦].

هذا إذا تبنت الأغلبية المسلمة الموقف العلماني .ولكن ماذا يحدث إذا ظلّ عدد كبير منهم مستمسكاً بدينه كله؟ هل يمكن أن يقال عن أمثال هؤلاء إن لهم حقوقاً سياسية متساوية مع غيرهم من العلمانيين الذين يشرعون لهم قوانين يخالف بعضها أوامر أديانهم؟ كلا .قد يقال لماذا لا يقبلون رأي الأغلبية ويعيشون تحت قوانين يعلمون أنها مخالفة لدينهم؟ نقول هب أنهم فعلوا ذلك، فالسؤال ما يزال قائما .هل يقال عن مثلهم إن لهم حقوقا سياسية متساوية مع العلمانيين الذين يتولون التشريع له؟ كلا .إذن فالعلمانية لا تحل مشكلة التعددية.

المسألة الثانية: أن الخلافات بين الناس ليست محصورة في الخلافات الدينية، بل هنالك خلافات أخرى كثيرة وعميقة كالخلافات الاقتصادية السياسية بين دعاة الرأسمالية ودعاة الاشتراكية .فهل يشعر الاشتراكي في الغرب أنه مساو سياسيا للرأسمالي الذي يشرع للمجتمع تشريعات اقتصادية مبنية على الرأسمالية؟ وقل مثل ذلك عن بعض الاختلافات الاجتماعية والفلسفية والخلقية التي لا علاقة لها بالدين.

كيف تحل هذه المشكلة إذن؟ هذا يقودنا إلى:

المسألة الثالث: وهي أن جون رولز الأمريكي الذي كان يعد أكبر فلاسفة السياسة والأخلاق المعاصرين، زعم في كتابه الشهير اللبرالية السياسية political liberalismأنه توصل إلى إجابة عن هذا السؤال لأنه توصل كما يقول إلى مبدأ يمكن أن تتفق عليه كل الأديان والفلسفات والمبادئ الخلقية المتناقضة تناقضات عميقة لأن كلا منها سيجد له مكانا في دينه أو فلسفته أو معتقده الخلقي بشرط أن يكون ذلك الدين أو تلك الفلسفة أو ذلك المبدأ الخلقي معقولاً. «لكن تبين أن مربط الفرس كما يقولون إنما هو في كلمة معقول هذه».

تساءل ناقدوه عن معيار المعقولية هذه عند رولز فوجدوه يرجع إلى الموافقة على مبادئ فلسفته اللبرالية السياسية .فقالوا له إنك لم تفعل شيئاً. قلت إنك توصلت إلى

مبدأ يوافق عليه كل أولئك المختلفين ويجعلونه معياراً، ويكونون بهذا متساوين سياسيا في الدولة الليبرالية الديمقراطية، ثم جعلت شرط موافقتهم عليه أن يكونوا موافقين على فلسفتك السياسية الليبرالية .ولعل من الطريف الذي يبين صدق هذا النقد للقارئ السوداني أن من بين التصورات الدينية التي رآها رولز معقولة كلاماً لمحمود محمد طه نقله إليه أحد الأساتذة، كلاما يفسر فيه محمود الإسلام تفسيراً جديداً لا يكاد يختلف في شيء عن الديمقراطية الليبرالية!

لقد تعجبت كيف ظن هذا الفيلسوف الكبير أنه سيجد حلاً لمشكلة يستحيل عقلاً أن تحل؟ أعني أنه يستحيل عقلاً أن توجد دولة لها دستور وقوانين ترضى عنها كل فئات المجتمع المختلفة لأنها تجد لها مسوغا في دينها أو فلسفتها أو مبدئها الخلقي.

المسألة الرابعة: أن الحل الممكن عملياً كما هو الواقع في البلاد الغربية مثلاً هو أولاً: أن تبنى الحياة في المجال العام على أحد المبادئ التي لا يشترط أن توافق عليها كل فئات المجتمع المختلفة ذلك الاختلاف الذي ذكره رولز، لكنها ترضى بها لكي تعيش مع غيرها في سلام في وطن واحد. لكن هذا يعني بالضرورة أن لا يكون المواطنون متساوين في الحقوق السياسية .وثانياً أن تكون لهؤلاء المواطنين جميعا حقوق إنسانية متساوية باعتبارهم مواطنين وبغض النظر عن الحكم الذي يخضعون له.

المسألة الخامسة: يتبين من هذا أن مثل العلمانية في هذا كمثل الحكم الإسلامي في كونها ليست محايدة بين الأديان أو المعتقدات الأخرى كما يصورها لنا القائمون بالدعاية لها، لأنها يمكن أن تشرع تشريعات تجيز بعض ما تمنعه بعض تلك الأديان والمذاهب أو تمنع ما تجيزه .وهي ليست بمحايدة بالنسبة للإسلام بالذات بل محادة له لأنها يمكن أن تحل ما حرم الله وتحرم ما أحل .وفي التجربة الأمريكية أدلة كثيرة على أن الدولة العلمانية قد تصدر حتى في مجال الممارسات الخاصة قوانين مخالفة لتعاليم بعض الأديان. ومن الأمثلة الطريفة التي يذكرونها أن تعاليم طائفة المورمون، وهي طائفة تنتمي إلى المسيحية، تبيح تعدد الزوجات تعددا لا حد له فيما يبدو .لكن المحكمة العليا منعتهم من ذلك وألزمتهم بعدم التزوج بأكثر من واحدة .كما أن

القوانين في البلاد العلمانية الأوربية تبيح كثيرا من الممارسات الجنسية التي لا يوافق عليها كثير من اليهود والنصارى المستمسكين بدينهم.

المسألة السادسة: بعض الناس - حتى من المنتمين إلى بعض الأديان - ما زالوا يفضلون أن يكون الحكم في بلادهم علمانيا لا إسلاميا لأن بعضهم ما يزال مخدوعا يظن أن العلمانية محايدة، وأن دولتها دولة مدنية يجد فيها كل المواطنين حقوقا سياسية متساوية .إن هؤلاء يغفلون عن كون العلمانية هي أيضا دين إذا أخذنا الدين بمعناه العربي الواسع، أو هي على الأقل مذهب من مذاهب الحياة لأنها تتضمن مبادئ وتشريعات وأوامر ونواه .فهي إذن ليست ضد الإسلام وحده وإنما هي ضد كل دين له تشريعات ومبادئ مختلفة عن تشريعاتها ومبادئها.

المسألة السابعة: من الدعايات التي يلجأ إليها بعض دعاة العلمانية في تنفير غير المسلمين من الحكم الإسلامي زعمهم بأنه ما دامت القوانين التي تصدرها هيئة تشريعية إسلامية هي بالضرورة قوانين دينية، فإن الدولة التي تصدرها تكون قد فرضت عليهم دينا لا يدينون به .لست أدري لماذا لا يقولون الشيء نفسه عن القوانين التي تصدرها الهيئات التشريعية العلمانية؟ لماذا لا يقولون إن كل قانون تصدره هيئة تشريعية علمانية هو بالضرورة علماني مخالف لدينهم؟ لماذا لا ينظرون إلى القوانين الإسلامية نظرتهم إلى القوانين العلمانية فيلتزمون بها ?لأنها قوانين أصدرتها دولتهم ولا ينظرون إلى عقائد من أصدروها ولا إلى دوافعهم كما أنهم لا يفعلون ذلك بالنسبة إلى القوانين التي تصدرها الدولة العلمانية؟ إن الدولة العلمانية بإمكانها نظريا ان تصدر قوانين متوافقة توافقا كاملا مع الإسلام، كأن تمنع الخمر أو الربا، فهل سيقول أمثال هؤلاء إنها لم تعد دولة علمانية بل صارت إسلامية تفرض عليهم دينا لا يدينون به.

المسألة الثامنة: أليس من التناقض أن يكون الإنسان من المنادين بالديمقراطية ثم يعترض اعتراضا مبدئيا على إسلامية دولته مهما كان عدد المطالبين بذلك من مواطنيها؟ كيف توفق بين الديمقراطية التي تعطي المواطنين الحق في اختيار نوع الحكم الذي يريدون وتكون مع ذلك مناديا بمنع طائفة منهم من هذا الحق؟ إن منع فئة

من المواطنين من المناداة بأن تكون دولته إسلامية لا يتأتى إلا باللجوء إلى قوة قمعية تحول بينهم وبين ذلك كما كان الحال في بعض البلاد العربية.

المسألة التاسعة: لقد قال كثير من المنادين بالحكم الإسلامي ونقول معهم إن الحكم الإسلامي ليس حكما دينيا بالمعنى الغربي للكلمة، أي أنه ليس حكماً ثيوقراطيا يتولى الأمر فيه أناس يزعمون أنهم يتلقون أوامرهم بوحي مباشر من الله تعالى كما كان بوش يزعم أن الله تعالى أخبره بأن يفعل كذا ويفعل كذا وهو قائم على رأس دولة تعتبر علمانية .إن الحكم الإسلامي يختلف عن الحكم الثيوقراطي في ثلاثة أمور مهمة .أولها أنه قائم في النهاية على دستور مكتوب مفتوح لكل الناس هو نصوص الكتاب والسنة .وثانيهما أنه لا يجبر أحداً على الدخول فيه كما كانت الطوائف الدينية النصرانية في الغرب تفعل حين تؤول السلطة إلى واحدة منها.

كان النصارى يخيرون اليهود في الأندلس بين الدخول في النصرانية أو الموت أو مغادرة البلاد .وكانت الطائفة التي تؤول إليها السلطة تجبر الطوائف الأخرى على اعتناق معتقداتها .وهذا هو الذي تسبب فيما أسموه في التاريخ الغربي بالحروب الدينية التي كانت كما يرى بعضهم هي السبب في نبذ الناس للحكم الديني واللجوء إلى الحكم العلماني .ثالثا إن الحكم الإسلامي يعطي غير المسلمين حقوقا مثل ما يعطيهم إياها الحكم العلماني أو أكثر .قد يقول بعضهم كيف تقول هذا والدولة العلمانية تساوي بين المواطنين ـ من الناحية النظرية على الأقل ـ في حقهم في أن يتولوا رئاسة الدولة مثلا، بينما الإسلام يشترط في من يتولى هذا المنصب أن يكون مسلماً .أقول والعلمانية تشترط فيه أن يكون علمانياً !نعم إنه لا يهمها ـ من الناحية النظرية ـ أن يكون مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً أو بوذياً ما دام انتسابه إلى دينه انتساباً ترضى عنه العلمانية، أي أن يكون تدينه تدينا محصوراً في الجانب الشخصي .أما في المجال العام فهو ملزم بالدستور والقوانين العلمانية .وبما أن الإسلام لا يفصل هذا الفصل الحاسم بين جانب الدين الخاص وجانبه العام، بل يعد رأس الدولة إماماً للمسلمين في دينهم كما أنه إمام لهم ولغيرهم في دنياهم كان من الطبيعي أن يشترط في رأس الدولة أن يكون مسلما.

* * *

ودوا لو تكفرون كما كفروا

الاثنين ٢٠ محرم ١٤٢٦هـ/٢٨ فبراير 2005 م
شبكة المشكاة الإسلامية

كتبت جريدة الواشنطن بوست افتتاحية في عدد الخميس أول يوليو بعنوان "فرصة سعودية" تقول فيها إن القضاء على الإرهاب لا يكون إلا بمعالجة جذوره، وأن هذه الجذور هي الوهابية !وأن هذه الوهابية المتطرفة هي التي تربى عليها الإسلاميون الراديكاليون، وأن على السعودية أن تبحث عن بديل لهذه الوهابية.

قلنا لهم مئات المرات إنه ليس في الإسلام طائفة اسمها الوهابية، وأن الدولة السعودية ليست وهابية. ولكننا نعلم أنهم لا يعنون الوهابية بمعنى دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، وإنما يعنون بها أخذ الإسلام بجد وجعله دينًا للدولة، ومحاولة تطبيق شرائعه من غير تحريف ولا تبديل .هذه هي الوهابية في نظرهم .فلنسايرهم على هذا المفهوم ونقول إن المتطرفين والإرهابيين والراديكاليين كلهم تربوا على الوهابية.

هل يعني هذا بالضرورة أن الوهابية هي سبب تطرفهم أو إرهابهم؟ إذا كانت هي السبب فلماذا لم يكن تأثيرها على أكثر الناس علمًا بها وتربية عليها وهم العلماء وطلبة العلم؟ ولماذا لا تطبقون هذا المعيار نفسه على فكركم الذي يدرسه أبناؤكم؟ فتقولون مثلاً إنه هو الفكر الذي أنتج استعمارنا للشعوب، واسترقاقنا للأبرياء من السود، وسائر ما نعانيه من مشكلات وانحرافات؟ ولو قلتم هذا عن بعض أفكاركم لكنتم محقين. وهب أن السعودية وسائر البلاد الإسلامية استمعت لكم وقلدتكم وصارت علمانية مثلكم فهل تضمنون أن يجعلها هذا مناصرة لكم ومحافظة على مصالحكم؟ أليس في كثير من دول العالم العلمانية اليوم من يكره بعضهم بعضًا؟

لكن السبب الحقيقي لهذا العداء للإسلام باسم الوهابية هو داء قديم في قلوب الكافرين .إنهم من فرط كراهيتهم للحق يجعلونه السبب الأساس لكل ما يصيب الناس من سوء في حياتهم، فهؤلاء قوم موسى إذا أنعم الله عليهم ببعض النعم عزوا ذلك إلى أنفسهم، وإذا حلت بهم مصائب عزوها إلى شؤم ما دعاهم إليه نبيهم: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١]. وسبب آخر هو أن كثيرًا من الكافرين يسوؤهم أن يروا الناس مؤمنين مستقيمين ولا يقر لهم قرار حتى يروهم قد صاروا مثلهم في الكفر وارتكاب المعاصي: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ [النساء: ٨٩].

ماذا يعدون لمواجهة المد الإسلامي

الأحد ١٠ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٧ يونيو ٢٠٠٤م
شبكة المشكاة الإسلامية

الدول الغربية ـ ولا سيما الولايات المتحدة ـ حريصة كل الحرص على أن يدوم لها تفوقها المادي (الاقتصادي والعسكري) وتفوقها الثقافي. وهي لا تكتفي لتحقيق هذا باتخاذ برامج داخلية تضمن لها استمرار التفوق، لكنها تلجأ أيضاً إلى سياسات خارجية تحاول بها عرقلة تقدم أي بلد ترى فيه خطراً على تفوقها في هذين المجالين أو أحدهما. وإذا كانت ترى في الصين واليابان أمارات لمثل هذا التقدم الذي قد يمثل خطراً على تفوقها الاقتصادي؛ فإنها لا ترى شيئاً كهذا في البلاد الإسلامية ولا سيما العربية منها. إنهم يقولون إن الدخل القومي للبلاد العربية مجتمعة لا يساوي دخل إسبانيا. وقال أحدهم: إذا استثنينا البترول فإن صادرات هذه البلاد لن تساوي صادرات بلد أوروبي صغير كفنلندا. ولكن إذا كانوا يأمنون الآن جانب هذه البلاد من ناحية القوة المادية، فإنهم لا يضمنون دوامه بغير تدخل منهم، ولذلك تجدهم يخططون لاستمرار هذا التخلف بوسائل كثيرة ليست هي موضوع حديثنا في هذا المقال.

موضوعنا اليوم هو مخططاتهم لمواجهة الخطر الديني الإسلامي؛ وذلك أنه بالرغم من تخلف البلاد الإسلامية اقتصادياً وعسكرياً، فإن الدين الإسلامي هو الذي يمثل التحدي الأكبر للثقافة الغربية ولا سيما بعد سقوط الشيوعية. إن الدين الإسلامي هو باعترافهم الآن أكثر الأديان انتشاراً حتى في البلاد الغربية. بل أقول إنه أكثر انتشاراً لا بالنسبة للأديان فحسب بل بالنسبة لكل الأيديولوجيات وفلسفات الحياة الأخرى، وليس في البلاد الغربية فحسب بل في سائر بلدان العالم. هذا بالنسبة لهم خطر كبير لا بد من إعداد الخطط للمكر به. إن تفاصيل مكرهم هذا أمر يطول وصفه؛ لكننا سنركز حديثنا اليوم على تقرير لمركز البحوث الأمريكي المسمى راندRand لم أكتف بقراءة هذا الملخص بل اطلعت على التقرير كله في أصله الإنجليزي، فخطرت ببالي خواطر كثيرة عنه، منها:

أولاً: أن الخطط التي يوصي بها هي خطط ظل الغرب يتبعها منذ زمن؛ فالدراسة لم تأت في رأيي بشيء جديد لكنها صرحت بما كان متبعاً وعبرت عنه تعبيراً مفصلاً. إن

الإسلام الذي يراه الغرب خطراً عليه هو الإسلام الحق الذي يستمسك به بعض المسلمين بصدق وجد ويحاولون الدعوة إليه، وهو الإسلام الذي يحبه ويؤمن به إذا عرفه كثير من الناس في الغرب، إنه إسلام القرآن والسنة. ولذلك تجد أن أكثر من دخل في الإسلام - في الولايات المتحدة على الأقل - إنما دخلوا فيه بعد قراءتهم لترجمة من ترجمات هذا الكتاب العزيز.

ثانياً: ولأن التقرير كان صريحاً؛ فإنه لا يحاول مخادعة المسلمين، كما يفعل السياسيون من أمثال بوش او بلير حين يقولون إن مشكلتنا ليست مع الإسلام؛ فهو دين سلام ومحبة وتسامح، وإنما هي مع أقلية من المنتسبين إليه من الإرهابيين أو المتطرفين.

ثالثاً: واضح من الدراسة أن المسلمين مدعوون لا إلى فصل الدين عن الدولة كما هو الحال في الغرب، ولكنهم مدعوون إلى فصل الإسلام وإبعاده عن الحياة كلها. والتقرير يعترف بأن هذا أمر صعب، لكنه امر لا مفر منه فيما يبدو. «إنه ليس بالأمر السهل» يقول التقرير: «أن تبدل ديناً عالمياً كبيراً كالإسلام. إنه إذا كان (بناء الأمة) عملاً مرعباً، فإن (بناء الدين) أشد خطورة وتعقيداً» ومما يدلك على جدهم في محاولة التبديل هذه أن بهذا التقرير فصلاً كاملاً عن الحديث النبوي يقول فيه عن الحديث: «إنه في أحسن أحواله أمر مريب متناقض لا يمكن الاعتماد عليه في فض النزاع في أي قضية؛ لأن كلاً من المتنازعين يمكن ان يجد فيه ما يؤيد وجهة نظره. ولذلك فإن التقرير ينصح بإصدار كتيبات تتضمن أحاديث تؤيد وجهات نظر الحداثيين والعلمانيين، حتى لا يبقى عامة المسلمين ضحية للأحاديث والتفسيرات التي ينشرها بينهم العلماء التقليديون والأصوليون. يعتمد التقرير في هذا على كتابات أقوام معروفين بالزندقة وإنكار السنة.

رابعاً: استغربت حين قرأت هذا التقرير عن أي عالم إسلامي يتحدث؟ أين في العالم الإسلامي أولئك الحداثيون أو العلمانيون الذين لا تتاح لهم فرص النشر، أو الذين ليست لهم منابر عامة يخاطبون منها الجماهير، أو الذين لا تؤثر آراؤهم في المقررات المدرسية؟ أليست هذه الأمور كلها في أيدي العلمانيين في بلدان العالم الإسلامي كله إلا ما ندر؟ أليست انظمة الحكم في كل بلدان العالم الإسلامي - إلا ما ندر - أنظمة لا تخفي

علمانيتها؟ عبرت عن استغرابي هذا لأحد إخواننا السعوديين فابتسم وقال: إن هذا التقرير إنما يتحدث عن السعودية. فكرت في محتويات التقرير مرة اخرى فأيقنت أن سهامه موجهة فعلاً نحو السعودية.

خامساً: قلت في نفسي: أخشى أن يظن بعض من يقرؤون هذا التقرير ممن لا يزالون يحسنون الظن بأمثال هذه المؤسسات الغربية أن الديمقراطية التي يدعو العالم الإسلامي إليها هي الديمقراطية بمعنى الرضى بحكم الشعب. أقول لهؤلاء: هَبُوا أن دولة كالسعودية قالت للغربيين: تريدون ديمقراطية؟ حسناً! فلنفعل كما فعلتم أنتم معاشر الأمريكان. لندع ممثلين للشعب من كافة مناطقهم الجغرافية، ولنقل لهم: صوغوا لبلدكم دستوراً كما فعل الأمريكان؛ ولنفترض أن هؤلاء الممثلين اجتمعوا فكان أول ما ذكّروا به أنفسهم واجتمعت عليه كلمتهم أنهم ليسوا سعوديين فقط لكنهم مسلمون أيضاً، وأن إسلامهم هذا هو جوهر هويتهم، ومعتمد جماعتهم، ومصدر عزهم وكرامتهم، وسبب تقدير الأمة الإسلامية لهم، وأنهم يؤمنون لذلك بأن دستورهم الأعلى الذي يحكم حياتهم ويهيمن على كل ما يصدرون من وثائق هو نصوص الكتاب وصحيح السنة، وأنه ينبغي لذلك أن لا يكون - قرروا - في نظام حكمنا ولا في قوانيننا، ولا في مناهجنا الدراسية، ولا في سياستنا الخارجية، ولا في أي جانب من جوانب حياتنا ما هو مخالف لما في هذين المصدرين. هب أنهم جلسوا بعد ذلك وتداولوا لعدة أسابيع خلصوا في نهايتها إلى صياغة دستور، ثم عرضوه على شعبهم في استفتاء عام، شهد عليه مراقبون محايدون من هيئة الأمم، فكانت النتيجة أن أجازته الأغلبية الساحقة من المواطنين. هل يرتاب أحد بعد هذا في أن هذا الدستور جاء بطريقة ديمقراطية، وأن على من كان يؤمن بالديمقراطية أن يرضى به للشعب السعودي مهما خالفهم الرأي؟. ولكن هل تظنون أن سيرضى الغرب أو ترضى أمريكا بذلك؟ كلاً ثم كلاً. لا تنسوا أنهم لا يتكلمون عن الديمقراطية بهذه الصفة العامة التي ذكرناها، إنهم لا يتحدثون عن ديمقراطية تكون فيها الكلمة للأمة مهما كانت تلك الكلمة. إنهم يريدون نظاماً أشبه ما يكون بنظامهم، وقيماً أشبه ما تكون بقيمهم ولا سيما في الموقف من الدين ومن العلاقة بين الجنسين. هذه في رأيهم

هي الديمقراطية الليبرالية التي لا ديمقراطية حقيقية غيرها. إلا تذكرون ما قال (بريمر) للعراقيين من أن هنالك خطوطاً حمراء يجب أن لا يتخطاها مجلس الحكم في وضعه لمسودة الدستور، وأن من هذه الخطوط فصل الدين عن الدولة. وأن الديمقراطية التي يريدونها للعراق هي ديمقراطية على المنوال الأمريكي او الغربي؟ إن شعارهم هو: كونوا أحراراً، لكنكم لن تكونوا في حكمنا أحراراً إلا إذا اخترتم لأنفسكم ما اخترنا نحن لأنفسنا، إلا إذا كانت طريقة حياتكم كطريقتنا، إلا إذا لم يكن في ما اخترتموه ما نرى فيه مهدداً لقيمنا وثقافتنا ومصالحنا. فيما عدا ذلك فأنتم أحرار جد أحرار.

سادساً: مما يدلك على هذا أنهم ليسوا راضين حتى عن من كان من العلمانيين منا غير معجب بهم. يقول التقرير إنه بما أن العلمانيين يؤمنون مثلنا بفصل الكنيسة عن الدولة «فقد كان المفروض أن يكونوا الحلفاء الطبيعيين لنا في العالم الإسلامي. لكن المشكلة كانت وما تزال أن كثيراً من العلمانيين المهمين في العالم الإسلامي لا يوادوننا، بل قد يكونون شديدي العداوة لنا لأسباب أخرى.«

سابعاً: ما الثقافة التي يدعوننا إليها؟ إنها ليست العلوم التي كانت من أسباب تقدمهم المادي، وإنما هي الكفر والعري والزنا والشذوذ والمخدرات والفردية التي هي من علامات تدهور حضارته لا من أسباب قوتها. لذلك تجد بعضهم يقول إنه لا خوف على حضارتنا من حضارة أخرى معاصرة، وإنما الخوف عليها من الانتحار الذي بدأت تمارسه ويشيرون إلى مثل أنواع السلوك تلك.

ماذا نفعل؟ هل نستجيب ونخنع؟ فوالله لن يزيدهم هذا إلا احتقاراً لنا، وتمادياً في إذلالنا، ودأباً على الوقوف في طريق تقدمنا الاقتصادي والتقني والعسكري.

فلنقل لهم: لقد رضينا بأن نعيش معكم في سلام، وأن من يعتدي على الأبرياء منكم ومنا لا يمثلنا ولا يعبر عن رأينا. لكنا لن نرضى بأن يكون هذا التعايش تعايشاً بين سادة وعبيد، أو محتلين ومواطنين، أو منتجين ومستغلين ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

* * *

العلمانية والجاهلية
وجهان لعملة واحد

مجلة منار السبيل ١٩٩٣م

بما أن الحضارة أو الثقافة العلمانية حضارة تحل الهوى محل الإله الحق، فإن لها في كل أشكالها- القديمة أو الحديثة، اليونانية والأوروبية أو العربية- سمات مشتركة، نابعة من ذلك الأصل الكفري المشترك، لأن قيم الناس وثقافاتهم هي ثمرة معتقداتهم وأحوال قلوبهم، فإذا تشابهت المعتقدات وتشابهت لتشابهها القيم، تشابهت الأقوال والأعمال والتحليلات والتفسيرات:

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

فالثقافات الجاهلية كلها ثقافات تطلق العنان للشهوات الجنسية فتبيح الزنا بكل أشكاله:

عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: (أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع

ممن جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاط به ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم).

هذه الإباحية الجنسية العربية أقل شراً من إباحيات أمم أخرى، لأنها كما ترى تحرص على أن يكون للمولود نسب ينتمي إليه وإن كان نسباً غير حقيقي.

وكما تبيح الحضارة الجاهلية الزنا فإنها تبيح كل مقدماته ومسبباته، فالنساء في المجتمع العربي الجاهلي، كأخواتهن في المجتمع الجاهلي الغربي، كن لا يتحرجن من إظهار محاسنهن الأنثوية لكل الرجال، فكن يكشفن شعورهن ونحورهن بل صدورهن، ولم يكن يدنين عليهن جلابيبهن، بل كن أحياناً لا يتحرجن حتى من التعري الكامل، وكن يختلطن بالرجال ويخلون بغير المحارم، وكن يتعطرن ويخرجن ويخضعن بالقول في خطابهن.

والحضارات الجاهلية حضارات لا تعرف التوسط ولا سيما في معاملة النساء. فهي تذهب من طرف معاملتها معاملة الحيوان والعبيد، قال عمر رضي الله عنه: (كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً) – البخاري، اللباس، ، إلى طرف مساواتها بالرجال في كل شئ بل تقديمها عليهم:

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: ٢٣].

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾ [النحل: ٣٢-٣٣].

وقد تغلو الحضارة الجاهلية في اتباع الشهوات الجنسية فتبيح الشذوذ، كما فعل قوم لوط وكما فعلت الحضارة اليونانية، وكما تفعل اليوم الحضارة الأوربية.

والحضارات الجاهلية كلها تبيح شرب الخمر، ولعب الميسر، وأكل الربا.

وهي حضارات لا ينفك أهلها عن الفخر بالأنساب أو الألـوان أو القوى المـادية أو غير ذلك مما لا تعلق له القيم الفاضلة، ويتخذون مثل هذه الميزات ذريعة إلى الاعتداء على الضعفاء.

هكذا كان العرب في جاهليتهم يفعلون، وهكذا فعلت الحضارة الغربية مع الأمم الضعيفة فاستعمرت بعضاً، واحتلت بعضاً، واسترقت بعضاً ثم عاملتهم أسوأ مما تعامل به الحيوان.

لكن الحضارات الجاهلية قد تفلح رغم كل هذه المثالب في بناء مدنيات باهرة، وتتفوق في العلوم الدنيوية وما يبني عليها من تقنية فتأتي بمنجزات كبيرة في مجال الزراعة والصناعة وسائر أنواع التفوق المدني العمراني.

ولكن لما كان هذا الجانب المدني المادي قائماً على جرف ثقافي هار فإنه لا يلبث أن يتداعى.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

***

علمانية باسم الإسلام

السبت ١٠ ذو القعدة ١٤٢٥هـ/ ١١ ديسمبر ٢٠٠٤م شبكة المشكاة الإسلامية

فوجئ الناس في السودان بمطلب جديد لحركات التمرد في دارفور، إذ نقلت الصحف عن محجوب حسين ممثل حركة تحرير السودان قوله: «سنبدأ بإعلان المبادئ ونحن نريد الفصل بشكل واضح بين الدين والدولة. في الوقت الحالي تفضل الحكومة الإسلام على الديانات الأخرى وهو ما لا يجب أن تكون عليه الحال. وعلى الرغم من كوني مسلما فإننا نريد أن يكون الدين شأنا خاصا، وأن يكون كل مواطن حرا في ممارسة الدين الذي يؤمن به».

ومن الواضح أن محجوبا هذا لا يتحدث باسم أهل دارفور المسلمين، ولا يعبر عن اعتقادهم، وإنما يتحدث باسم الدول التي أعطته المال والسلاح، وأغرته بالتمرد، فكانت له قوة عسكرية أجبرت الحكومة على التفاوض معه، يدعي هذا المتحدث أنه مسلم؛ ثم يقول لكنني، ويذكر كلاما يعلم كل من له أدنى معرفة بالإسلام حتى من الغربيين أنه يتناقض مع الإسلام. بل هو متناقض مع الديمقراطية التي يطالب بها، إذ أن الديمقراطية هي حكم الأغلبية، فهل قالت الأغلبية في دارفور أو في السودان كله إنها تريد أن تنسلخ من دينها وتتحول إلى العلمانية؟

ثم إن مثل محجوب هذا مثل كثير من المقلدين للغرب الذين يكتفون برفع بعض شعاراته، ولا يكلفون أنفسهم دراسة الواقع الغربي الذي نتج عن محاولة تطبيق تلك الشعارات. لقد تبين لكثير من المفكرين الغربيين المتدينين أنهم خدعوا بمبدأ حرية التدين في ظل دولة علمانية، بدأ بعضهم يقول إن العلمانية التي كنا نظنها محايدة بين الأديان؛ قد صارت دينا معاديا للأديان. فالدولة العلمانية هي التي تحدد ما الدين الخاص الذي تباح ممارسته. إنه من البديهي مثلا أن تغطية المرأة رأسها بقطعة من القماش أمر خاص، لكن ما هكذا رأته الدولة العلمانية الفرنسية، بل رأته شعارا دينيا يتناقض مع علمانيتها. إلا يتناقض هذا مع قول صاحبنا محجوب «وأن يكون كل مواطن حرا في ممارسة الدين الذي يؤمن به» ما معنى أن أكون حرا في ممارسة ديني؛ إذا كنت أنت قد قررت بقوة سلاحك أن أحصر ديني فيما أسميته بالشأن الخاص؟ كيف أكون حرا في ممارسة ديني إذا كانت ممارسته تقتضي أن يشمل الشأن العام؟ أمران آخران استغرب لهما الناس: ما علاقة فصل الدين عن الدولة بالمطلب الأساس الذي دعا هؤلاء المتمردين فيما يزعمون إلى حمل السلاح؟ إنهم يطالبون باقتسام السلطة والثروة. فهل وجدوا أن هذا لا يتحقق إلا بإبعاد الإسلام عما أسموه بالشأن العام؟ وإذا كان هؤلاء المتمردون يعلمون أن الحكومة لم تستجب لطلب كهذا من حركة قرنق التي تزعم الحديث باسم أقوام غير مسلمين، فكيف يتوقعون أن تقبله من أناس يزعمون أنهم يتحدثون باسم أهلهم المسلمين؟ أم أنه نوع من التعجيز لعدم الوصول إلى اتفاق ما دامت مصالحهم الخاصة - كما هي الحال مع قرنق - تقتضي استمرار الحرب والتخريب؟

حرب الكذابين

الاثنين ١٣ محرم ١٤٢٦ هـ/ ٢١ فبراير ٢٠٠٥ م شبكة المشكاة الإسلامية

أظهرت نتائج تحقيقات اللجنة التي كونها الكونجرس أن المعلومات التي قدمتها وكالة... الاستخبارات الأمريكية CIA للحكومة عن أسلحة الدمار الشامل لم تكن صحيحة. وكذلك تتوصل لجنة بلير البريطانية إلى النتيجة نفسها بالنسبة للمعلومات التي قدمتها الاستخبارات البريطانية. المعلومات الأمريكية هي التي طار بها باول إلى الأمم المتحدة ليقنع الناس فيها بضرورة غزو العراق. والمعلومات البريطانية هي التي طار بها بلير إلى موسكو ليقنع بوتن بضرورة غزو العراق. كان الزعم بامتلاك صدام لأسلحة دمار شامل هو المسوغ الأساسي والوحيد لذلك الاعتداء الظالم. فإذا كان قد تبين الآن أنه قد بُني على أخبار كاذبة فإن الأمر الطبيعي أن يعتذر كل من بوش وبلير لشعبيهما عن الخسائر في الأموال والأرواح التي كبدوهما إياهما، وأن يعتذرا للشعب العراقي عما لحق به من أضرار بالغة في الأنفس والأموال. وأن يعتذرا لشعوب العالم كله التي جروها إلى حرب ظالمة. لكن شيئًا من هذا لم يحدث. بل إن كل من بوش وبلير استمرا في إصرارهما على أن الحرب كانت مشروعة. ولكن بمسوغ جديد هو تخليص العراق من دكتاتورية صدام ووضعه على طريق الديمقراطية! لكن هذه تعلة باطلة، أولاً: لأنه لا يجوز، ولا سيما في بلاد يفترض في رؤسائها أن يكونوا ناطقين باسم أممهم ومنفذين لرغباتهم، أن يقدموا على عمل خطير من غير استشارتهم وضمان موافقتهم. كيف تقدم على عمل إنما وافقك الشعب عليه لأسباب ذكرتها له قبل الإقدام عليه، فإذا ما انتهيت منه ذكرت لهم أسباب أخرى؟ وثانيًا أليس من حق هذه الشعوب أن تقول لرؤسائها: أمن أجل إزالة حكم مستعبد تراق أرواح الآلاف من أولادنا وأولاد الأمم التي غزت العراق معنا، وتبدد أموالنا وأموالهم، وتزهق الآلاف من أرواح مواطني الدولة المعتدى عليها وتخرب ديارها ويحل جيشها وينفرط عقد الأمن فيها. وتعين لها حكومات من صنع غزاتها؟ ما الذي كان سيفعله صدام أكثر مما فعلنا؟ أمن العقل أن يزال شر بما هو أشر منه؟. لكن كل هذا له ما يسوغه في اعتقاد بوش وبلير لأن السبب الحقيقي لحربهم الظالمة لم يكن ما ذكراه أولاً من وجود أسلحة دمار ولا ما ذكراه لاحقًا من تخليص العراق من حكم دكتاتوري. وإنما كان تأميناً لإسرائيل وهو بداية احتلال جديد للعالم العربي. وإلا فقولوا لنا بربكم لماذا تبني الولايات المتحدة أكبر سفارة لها في العالم في العراق. هل كان هذا أمرًا اقتضاه وجود تلك الأسلحة، وهل هو مما تقتضيه إزالة حاكم دكتاتوري؟ لقد كان بوش وبلير يعلمان أنهما لو ذكرا لشعبيهما الأسباب الحقيقية لغزو العراق لما وجدا لهما من شعوبهما موافقة، فكذبا عليهما. وكذبة الأمير بلقاء لا يمنعه من ارتكابها نظام ديمقراطي أو غير ديمقراطي.

العلمانية ليست محايدة وما هي بالقومية

الأربعاء ٧ رجب ١٤٣٤هـ/ ١٥ مايو ٢٠١٣م
شبكة المشكاة الإسلامية

من الأباطيل التي أشاعها المروجون للفكر الغربي ومؤسساته، والتي انطلت على كثير من المسلمين، ولا سيما السياسيين منهم، أن العلمانية نظام محايد بين الأديان. وعليه فإذا أراد مواطنو دولة متعددة الأديان كالسودان أن يتساووا في الاشتراك في حكم بلادهم، فما عليهم إلا أن يطرحوا أديانهم جانبا؛ كما فعلت الدول الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، ويتبنوا النظام العلماني .ويبدو أن هذا النوع من التفكير كان وراء ما سمي باتفاق القاهرة، ووراء ما دعا إليه قرنق من علمانية العاصمة. لكن الواقع الذي تدل عليه طبيعة أنظمة الحكم، والذي تؤيده التجربة الغربية نفسها، أن العلمانية ليست محايدة بين الأديان، بل إنه لا يوجد على وجه الأرض ـ لأنه لا يمكن عقلا أن يوجد ـ نظام سياسي ـ دينياً كان أو علمانياً ـ محايد حيادا كاملا بين كل المعتقدات الشائعة بين البشر؛ وذلك لأن من مهام النظام السياسي أن يضع قوانين ونظما لحياة الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية .وما من منهج من مناهج الحياة ـ دينا كان أم غير دين ـ إلا وله بعض التصورات المتعلقة بهذه الأمور كلها أو بعضها؛ وهي تصورات مختلفة، بل كثيرا ما تكون متناقضة، فلا يمكن للنظام السياسي أن يقرَّها كلها، بل لا بد له من أن يأخذ بعضها فيضع قوانين تلزم الناس به، وأن ينكر بعضها فيضع قوانين تحظره.

ما الحل إذن؟

إن أديان الناس وتقاليدهم ومناهج حياتهم تتناول مجالين أساسيين، مجال يتعلق بمعتقداتهم وحياتهم الفردية، وهو الذي يسمى في الاصطلاح الغربي اليوم "دينا"، ومجال يتعلق بالحياة العامة؛ فالحل هو أن يختار المواطنون ـ بالأغلبية أو بالتراضي ـ نظاما معينا للحكم، لا يتدخل ـ من حيث المبدأ ـ في المجال الأول، فلا يفرض على مخالفيه معتقدات لا يؤمنون بها، ولا سلوكا فرديا خالصا لا يرونه مناسبا، وإنما يكون تركيزه على المجال الثاني؛ فيسن له من النظم والقوانين والموجهات ما يراه مناسبا، حتى لو كانت مخالفة لأديان بعض المواطنين وأفكارهم وتقاليدهم.

هذا هو الحل الذي تحاول العلمانية في شكلها الغربي الليبرالي الحالي أن تلجأ إليه . فالتعديل الأول من دستور الولايات المتحدة ينص على أنه لا يجوز للكونغرس أن يؤسس دينا أو أن يمنع الممارسة الحرة له.

وهذا النص وراءه تاريخ غربي طويل هو أن الفرق النصرانية كانت إذا تمكنت إحداها من الحكم، حاولت أن تفرض معتقداتها على الفرق الأخرى، فتنشأ بينها حروب واضطرابات، فرأوا تفادياً لهذا أن يصطلحوا على إبعاد هذه المسائل الدينية البحتة عن مجال الدولة، وأن تكون الدولة علمانية: أي مهتمة بأمر الدنيا فحسب؛ فالعلمانية عندهم لم تكن في أصلها معادية للدين، ولا كانت شيئا مفروضا على أهله، بل هم الذين اختاروها إخماداً لنار تلك الحروب بينهم، ودفاعاً عن الأقليات الدينية من أن تعتدي عليها الأغلبيات؛ كما حدث في فرنسا مثلاً حين تمكن الكاثوليك من حكمها فحظروا اعتناق البروتستانتية، بل اعتبروه جريمة يعاقب عليها القانون.

هذه المشكلة التي جاء الغربيون بالعلمانية لحلها، لا وجود لها في نظام الحكم الإسلامي، لأن الإسلام وإن كان ديناً، إلا أنه ليس دينا بالمعنى الغربي، بل هو منهاج حياة متكامل، يشرع للحياة الفردية كما يشرع للحياة الاجتماعية، لكنه يعترف بوجود الآخر المخالف، فلا يَفرض نظامُه السياسي عليه معتقداتٍ لا يؤمن بها، ويعطيه قدراً من الحرية هو في بعض الجوانب أكبر مما يعطيه النظام العلماني، والذي يفرضه الإسلام على المواطنين جميعا ـ كما تفرضه العلمانية ـ إنما هو جانبه الذي يتعلق بتنظيم الحياة الدنيوية.

هل في هذه الأمور الدنيوية ما يخالف معتقدات بعض المواطنين وتقاليدهم؟ لا شك في ذلك، لكن كذلك الأمر في النظام العلماني، ففي قوانينه ما يخالف أديان كثير من المواطنين وتقاليدهم .ولذلك عندما قال أحد رؤساء أمريكا إن الدستور يقيم حائطا بين الدين والدولة، علق على ذلك بعضهم بقوله: لكنه حائط مليء بالثقوب والشقوق؛ ومن الأمثلة التي يضربونها على وجود هذه الثقوب والشقوق أنّ العلمانية هي التي تحدد مفهوم الدين وهي التي تقرر ما كان منه مباحاً وما كان محظوراً، من ذلك مثلاً أنّ

فرقة المورمون المسيحية تبيح تعدد الزوجات، لكن المحكمة الأمريكية العليا وصفته بأنه ممارسة مقيتة، وقضت بحظره عليهم وعلى المسلمين، لكن هذه المحكمة لم تحظر الزنى ولا الممارسات الشاذة بين الرجال أو بين النساء، وقضت هذه المحكمة أيضا بتحريم نوع من المخدرات تتعاطاه إحدى طوائف الهنود الحمر في احتفالاتها، هذا مع أنه ـ كما يقول بعضهم ـ لا فرق من حيث التخدير بينه وبين الخمر الذي يتعاطاه النصارى باعتباره جزءاً من بعض مراسم احتفالاتهم الدينية .والمتدينون من اليهود والنصارى يشكون مر الشكوى من التدهور الخلقي الذي آلت إليه حال البلاد، ويعزون ذلك فيما يعزون إلى خلو المناهج المدرسية من مادة الدين التي يحرم الدستور دراستها في المدارس الحكومية، وكثيرون منهم يشكون الآن من انتشار الأمراض المتعلقة بالجنس انتشارا صار كالوباء، ويعزون ذلك فيما يعزون إلى المدارس المختلطة، حتىّ إنّ بعضهم قاطع هذه المدارس وصاروا يدرِّسون أبناءهم في بيوتهم. إن مشكلة العلاقة بين الدين والدولة ما زالت حيّة في الولايات المتحدة بدليل كثرة الكتب التي تنشر في هذا الموضوع، وكثرة القضايا التي ترفع، وبدليل وجود دوريات مختصة به.

إذا كان هذا حال العلمانية في البلد الذي بناها على كتابات مفكريه وفلسفاتهم، والتي ألجأهم إليها تاريخهم، والتي اختاروها برضاهم، فكيف سيكون حالها في بلد لا جذور لها فيه، بل إنها لتتناقض تناقضا كاملا مع الدين السائد فيه، يجب أن يكون جليا لكل من ينادي بالعلمانية ومن يستمع إليهم أن فرضها على السودان ـ ولا سيما بمفهومها" القرنقي "ـ سيتبعه تغريب فكري كامل له، وذلك أن العلمانية ليست مجرد قوانين تصدرها المجالس التشريعية، وإنما هي أيضا نظام حكم له منظّروه، وفلاسفته، وتاريخه القانوني، وكل هذا إنتاج غربي محض سيكون هو الذي يعتمد عليه طلاب القانون والاقتصاد والعلوم السياسية عندنا .إننا ما زلنا نعاني من بقايا هذا الفكر الذي فرضه الاستعمار البريطاني علينا، فالعجب إذن لمن ينادون بالعلمانية تحقيقا للقومية، مع أن الواقع أنها نبت غريب على كل الأديان والتقاليد والأعراف السودانية شماليها وجنوبيها.

أسئلة عملية:

دعونا بعد هذا التوضيح الفكري نسأل بعض الأسئلة العملية:

ما الطريقة التي سيحول بها اتفاق القاهرة بقومية العاصمة إلى برنامج عملي؟

هل سيفسر بتفسير قرنق ؟

لكن ما معنى العلمانية هنا؟

هل معناها أن لا يفرض الدين الإسلامي على من لا يدين به؟

لكن عدم إكراه الناس على التدين بالإسلام أمر متفق عليه حتى قبل مشاكوس، وقبل اتفاق القاهرة، لأنه أمر يتطلبه الإسلام نفسه.

هل معناها أن يُنص في الدستور على أنه لا يجوز إصدار قانون بإباحة أو تحريم شيء يبيحه أو يحرمه الإسلام؟

لكن هذا شيء مخالف للديمقراطية وللعلمانية حسبما هما معروفان في الديمقراطيات الليبرالية كالولايات المتحدة، وحسبما ينادي بها المتفقون في القاهرة .إن الدعوى في تلك البلاد الغربية هي أن العلمانية محايدة بين الأديان لا معادية للأديان، فهل المطلوب منّا في السودان أن نتبنى علمانية معادية للأديان، بل للإسلام بالذات؟ وإذا قيل: بل هذا حكم ينطبق على كل الأديان، فهل يعنى أن يحظر الدستور إباحة أو تحريم أي شيء يبيحه أو يحرمه دين من الأديان في السودان، ولو كان الذي يدين به شخص واحد؟

كيف إذا كان أحد هذه الأديان يحرم شرب الخمر مثلا والآخر يبيحه، بل يعده في بعض المناسبات أمرا مرغوبا فيه من الناحية الدينية؟ إن تطبيق تلك المادة الدستورية في أمور كهذه، وهي كثيرة، سيكون مستحيلا.

الحل العلماني الغربي:

العلمانية كما هي مطبقة في البلاد "الديمقراطية الولايات" تحل هذا الإشكال بأن لا تلقي بإلا لمصدر القانون ديناً كان آو غير دين، ولا تلقي بإلا للبواعث التي تدفع مقترحيه لاقتراحه، بل كثيرا ما تسمع بعض الأعضاء في الكونغرس الأمريكي مثلا يدعمون حججهم بنصوص من كتاب دينهم، أو بأشعار لشكسبير، والسبب في ذلك

هو اعتقادهم بأن الفصل بين الدين والدولة لا يعنى الفصل بين الدين والسياسة، فالدستور الأمريكي ينص على الأول لا على الثاني .إن الذي يتطلبه هذا الدستور هو أن لا يصاغ القانون بلغة دينية ولا بمسوغات دينية .وهذا يعني أن العلمانية لا تحرم نظريا الاستفادة من أي دين كان حتى لو كان هذا الدين هو الإسلام، بل الواقع أن كثيرا من قوانينها ذات أصول ومصادر دينية، كالقوانين المتعلقة بالأسرة، بل إنه ليقال إن القانون الفرنسي استفاد كثيرا من الفقه المالكي.

فما الحل الذي يقترحه قرنق ومساندوه من المطالبين بقومية العاصمة السودانية وعلمنتها؟ هل يريدون علمانية معادية للدين الإسلامي بالذات، محرمة لأخذ أي شيء منه، مبيحة للأخذ من الأديان والتقاليد الأخرى؟ أم ماذا؟

الحل الإسلامي السوداني:

إذا كان من المتعذر واقعا، بل من المستحيل عقلا كما قدمنا، أن يكون هنالك نظام سياسي لا يُصدر من القوانين ما يكون مخالفا لأفكار بعض المواطنين أو أديانهم أو فلسفاتهم، فأنسب النظم هو الذي يكون الأقرب إلى إرضاء غالبية المواطنين من حيث تشريعاته المتعلقة بتنظيم شؤون الوطن الدنيوية، وأقربها إلى إرضاء سائر المواطنين من حيث التشريعات المتعلقة بمعتقداتهم وحياتهم الخاصة . فما هو هذا النظام؟ لا يمكن أن يكون العلمانية لأنها تتناقض تناقضا أساسيا مع الإسلام الذي هو دين الأغلبية، ولا يمكن أن يكون المسيحية أو أيا من الأديان المحلية لأنها أولاً أديان أقليات، ولأنها ثانياً إنما تحصر نفسها في الأمور المتعلقة بالدين بمعناه الضيق .لم يبق إذن إلا الإسلام.

وعليه فالذي نراه محققاً لتلك الأهداف هو أن يتراضى السودانيون جميعاً على أن يكون الإسلام نظاما لحكمهم، ثم يتراضون بعد ذلك على تقسيم الولايات السودانية - من حيث الدين والأعراف - إلى ولايات إسلامية هي التي تكون غالبية سكانها من المسلمين، وولايات عرفية هي التي يكون غالبية سكانها من غير المسلمين .الولايات الإسلامية تكون ملزمة بكل القوانين الإسلامية العام منها والخاص، وأما الولايات العرفية فمع التزامها بالقوانين العامة، إلا أنها تعطى الحق في أن تستثني نفسها من

بعض القوانين التي تراها شديدة التعلق بمعتقداتها أو تقاليدها الخاصة على أن تقر السلطة التشريعية القومية هذه الاستثناءات.

سيقول البعض إنكم وإن لم تفرضوا العقيدة الإسلامية على المواطنين غير المسلمين، إلا أنكم بهذا تفرضون عليهم أحكام الإسلام المتعلقة بالحياة الدنيوية، وهي أحكام قد تتناقض مع بعض أحكام أديانهم .أليس هذا إلزاما لهم بدين لا يؤمنون به؟ نقول: إنه إلزام لهم بالجانب الدنيوي من الدين الذي لا يدينون به وهو جانب يمكنهم فصله فصلا كاملا عن الجانب الاعتقادي، فإذا كان المسلم سينظر إلى هذا الجانب الدنيوي على أنه أوامر إلهية الالتزام بها عبادة لله، فبإمكان المواطن غير المسلم أن ينظر إليه على أنه النظام الذي ارتضته غالبية المواطنين في بلده .هذا النوع من الفصل ممكن، بل هو لازم لكل جماعة متعددة المعتقدات والفلسفات والتصورات لأنه ما من قانون يصدر إلا ووراءه في أذهان الذين اقترحوه تصورات أو فلسفات أو قيم معينة قد لا يشاركهم فيها بقية المشرعين، لكنهم يلتزمون بالقانون لأن هيئتهم التشريعية أجازته، لا للأسباب التي دعت مقترحيه إلى اقتراحه، لكننا نعود فنقول نعم إن بعض القوانين الإسلامية المتعلقة بتنظيم الحياة الدنيوية قد تتناقض مع بعض الأديان والأعراف الأخرى، لكن كذلك الأمر بالنسبة للعلمانية؛ إنها أيضا تفرض على المسلمين كثيرا من القوانين التي تتناقض مع دينهم.

أُجمل القول في النهاية بأنه من المستحيل أن يوجد نظام حكم يتوافق مع كل ما في السودان من أديان وأعراف، فإما أن تتنازل الأغلبية المسلمة عن دينها فتقر الحكم العلماني، وإما أن تتنازل الأقلية غير المسلمة فتقر الحكم الإسلامي .

ومصلحة السودان واستقراره يقتضيان أن تتنازل الأقلية؛ أولا لأنها أقلية، وثانيا لأن العلمانية إما أن تكون محايدة بالمفهوم الغربي الليبرالي فلن تمنع الأغلبية المسلمة من إصدار قوانين إسلامية، وإما أن تكون معادية للأديان كلها فتكون معادية لأديانهم كما هي معادية للإسلام .وإما أن تكون علمانية معادية للإسلام بالذات فدون قبول المسلمين لها خرط القتاد.

***

أمريكا

الاثنين ٢١ ذو الحجة ١٤٢٥هـ/ ٣١ يناير ٢٠٠٥م
شبكة المشكاة الإسلامية

يصف الأمريكان بلدهم بأنها الآن منقسمة.

قد تقول: الانقسام هو من لوازم التصويت.

ففي كل مرة يحصل تصويت سواء في مسائل السياسة أو غيرها، وسواء كان على مستوى القطر أو في نطاق محدود، فإن المصوتين ينقسمون إلى قسمين أو أكثر.

فما سر قولهم الآن إن أمريكا منقسمة؟ الذي يعنونه هو أن الانقسام بين الناس لم يكن في الانتخابات الماضية انقسامًا في سياسات عابرة تختلف فيها الآراء لكنه كان خلافًا في مسائل جوهرية أهمها قضية الدين وبعض القضايا الخلقية.

يقول بعضهم إن سبب هذا الخلاف الجوهري هو أنه بينما صار الحزب الديمقراطي أكثر علمانية وأكثر لبرالية وبالتالي أبعد عن الدين وأكثر تحررًا في المسائل الخلقية كتأييد أكثر مناصريه للزواج المثلي وللإجهاض.

فقد صار الجمهوريون بقيادة بوش والمحافظين الجدد أكثر تعصبًا للدين وأشد استمساكًا بالقيم الخلقية التقليدية. فبوش يصرح بأن فيلسوفه السياسي هو المسيح، وأن ربه هو الذي كلفه بالمهام الكبيرة التي قام بها كغزو أفغانستان وغزو العراق (نسأل الله تعالى أن لا يكلفه ربه هذا بفظائع أخرى). وكثير من مُنظّريهم صاروا ينتقدون الفهم الشائع لفصل الدين عن الدولة.

ويقولون: إنما هو فصل للكنيسة – لا للدين – عن الدولة. أي أنه لا يحق للدولة أن تتبنى كنيسة معينة تصدر عن رأيها، وتحكم البلاد بتعاليمها. لكن هذا لا يعني أن لا يصرح المسؤول بتدينه وبالإعلان عن دوافعه الدينية فيما يرى من آراء أو يتخذ من قرارات.

لهذا كان تأييد الكنائس وسائر المؤسسات الدينية والأفراد المتدينين للرئيس بوش كبيرًا جدًا.

ولكن ما كل من أيده في هذه القضايا التي يرونها جوهرية يؤيده في سائر سياساته كغزوه للعراق. بيد أن الواحد من هؤلاء ربما سوغ تصويته له رغم هذا الاختلاف بأن مسألة العراق مسألة عارضة وهي من شأن السياسة الخارجية.

أما قضايا الدين والخلق فستؤثر تأثيرًا عظيمًا في طبيعة المجتمع الأمريكي. ولهذا فإنه يضحي بتلك من أجل هذه.

لكن الذين يفكرون مثل هذا التفكير ربما كانوا قلة، أما الغالبية العظمى من المسيحيين المتعصبين فقد ترى أن من لوازم دينها محاربة الإسلام الذي يهدده سواء بنشاطه الدعوي في داخل الولايات المتحدة، أو بنشاطه على المستوى العالمي الذي لا يفصلون بينه وبين الإرهاب الذي يعدونه وسيلة من وسائل المسلمين للقضاء على الحضارة الغربية.

ويزيد من الشعور بالعداء هذا إعلان أغلب المسلمين الأمريكيين تقريبًا - قبل الانتخابات - أنهم سيصوتون لكيري لا لبوش.

وقد كان لبوش مؤيدون كُثر آخرون منهم المؤيدون التقليديون من أصحاب رأس المال، ومنهم العوام الذين لا يدرون ماذا يحدث في العالم.

فإذا قيل لهم إن فيه أماكن تعمل ضد مصالح بلدهم، فهم مع كل وسيلة من وسائل حربها.

لقد اجتمعت لبوش إذن هذه الأنواع الثلاثة من الأنصار وحدث بينها تعاون وتآزر.

فأصحاب المال ساعدوا رجال الدين مساعدة كبيرة في شن حملتهم الدعائية ضد كيري والحزب الديمقراطي، وبثها بين أولئك العوام.

* * *

عنزوان طارت

الثلاثاء ١٨ ذو القعدة ١٤٢٥هـ/ ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٤م

شبكة المشكاة الإسلامية

قال بعض الكبار من واضعي الدستور الأمريكي إن الديمقراطية لا تصلح إذا لم يصلح الشعب. وهو كلام صحيح وبدهي ينطبق على كل نظام سياسي، لأن المؤسسات كما قال أحدهم هي كالقلاع إنما يعمرها الرجال، إن كون الشخص منتخبا لا يعني كونه صالحا، وكون القرار قد اتخذ بطريقة ديمقراطية لا يعني كونه حقا أو صالحا. وقد ظهرت كل هذه الحقائق الآن بجلاء للشعوب الغربية ولا سيما الشعبين الأمريكي والبريطاني.

لقد كان قرار غزو العراق قراراً ديمقراطياً لا شك في ديمقراطيته. لكن الذين أيدوه إنما فعلوا ذلك لأنهم صدقوا ما قيل لهم من أسبابه: إن العراق يملك أسلحة دمار شامل لن يمر أكثر من شهر حتى تبلغ هذه الأسلحة درجة تهدد المصالح القومية للولايات المتحدة ولبريطانيا. وأنه قد ثبت أن النظام العراقي كان على صلة وثيقة بتنظيم القاعدة. فلما حدث الغزو ودمر العراق ولم توجد الأسلحة بدأ بعض الناس يشكون. فكان الرد عليهم أن كوننا لم نجدها إلى الآن لا يعني أنها لم تكن موجودة بل قد تكون الآن موجودة لكنها في أماكن لم نعثر عليها فأعطونا مهلة قبل ان تصلوا إلى هذه النتيجة. وربما كانت الأسلحة موجودة فعلا لكن صداما دمرها قبل الغزو بأيام. لكن الخبراء قالوا حتى لو دمرها لوجدنا لهذا التدمير أثرا. ثم جاء الاعتراف بأن المخابرات هي التي ضللت الحكومة الأمريكية. ثم يثبت الخبراء الأمريكان الآن أنه لم تكن لصدام مثل هذه الأسلحة، وأنه أوقف العمل على تطويرها منذ أكثر من عشر سنوات. وأما الصلة بالقاعدة فقد ثبت بطلان دعواها هي الأخرى. كان الواجب الذي تقتضيه الأمانة والصدق مع المواطنين، ومع العراقيين، ومع سائر سكان المعمورة أن يعلن اولئك القادة الذين تولوا كبر الغزو أنهم كانوا مخطئين وأنهم يعتذرون عما حدث. بل كانت الأمانة تقتضي أن يستقيلوا من مناصبهم لأن التقليد السياسي المتبع عندهم أن يستقيل المسئول إذا تبين أنه ارتكب خطأ جسيما: سواء بحسن نية أو بسوئها، لكن شيئا من هذا لم يحدث بل الذي حدث هو مزيد من الإصرار على أن الحرب كان لها ما يسوّغها حتى بعد أن ظهر بطلان كل الأسباب التي كانت قد سيقت لتسويغها. أليس معنى ذلك أن تلك الأسباب التي قيلت للناس لم تكن هي الأسباب الحقيقية لشن الحرب؟ إنهم يقولون الآن يكفي أننا خلصنا العالم من ديكتاتور. لكن صداما كان ديكتاتورا منذ أعوام، وكنتم أيها الغازون له الآن من مؤيديه. وإذا كان صدام ديكتاتورا فما هو بالديكتاتور الوحيد في عالمنا!! حقا إن الباطل لجلج...

فشل النظرية الرأسمالية

مقال للأستاذ الدكتور جعفر شيخ إدريس بمناسبة الأزمة المالية العالمية سنة ٢٠٠٨م ونشر هذا المقال في صحيفة الاقتصادية بتاريخ ٢٠٠٨/١٠/١١م

النظام الاقتصادي الرأسمالي السائد في العالم اليوم، الذي انهار بعض أعمدته وبدأت أخرى تهتز في الولايات المتحدة وفي أوروبا وغيره، نظام يقوم على نظرية اقتصادية معينة هي موضوع حديثنا في هذا المقال .فحديثنا ليس إذن عن الأسباب الاقتصادية وغير الاقتصادية المباشرة التي أدت إلى الكارثة الاقتصادية الراهنة، فهذا أمر له أهله وخبراؤه الذين أشبعوا الكلام فيه، وإنما هو عن النظرية التي كان العمل بها السبب الحقيقي لما يعانيه النظام الرأسمالي من مشكلات .فنقول إن الكارثة الاقتصادية الراهنة كانت دليلا يضاف إلى أدلة أخرى على فشل النظرية التي قام عليها الاقتصاد الرأسمالي .وهي دليل من ناحيتين: من ناحية أن العمل بالنظرية هو الذي أدى إلى الكارثة، ومن ناحية أن علاج الكارثة يتطلب الخروج على ما تقتضيه النظرية.

تقول النظرية إن الاقتصاد الناجح هو اقتصاد سوق يسمح بالملكية الفردية وبالبيع والشراء والادخار ويترك للسوق تحديد أسعار السلع، وإن هذا كله ينبغي أن يكون في حرية كاملة لا يحد منها أي تدخل من الدولة .كان الفيلسوف والاقتصادي الاسكتلندي آدم سميث الذي عاش في قرنهم الثامن عشر هو أكثر من اشتهر بالقول بهذه الفلسفة الرأسمالية، لكن المؤرخين يقولون إنه هو نفسه تأثر بكتابات ماندافيل الذي كان أكثر منه غلوا في هذا الأمر فهو المشهور بقوله"إن الرذائل الفردية هي فضائل اجتماعية" في مجال الاقتصاد .كان سميث وغيره يقولون إنه لا بأس على الفرد أن يندفع لتحقيق مصالحه بدافع الأنانية، بل قال بعضهم بدافع الطمع ليحقق مصالحه وإن النتيجة ستكون - بفعل تلك اليد الخفية - أمر لم يخطر على بال الفرد، هي المصلحة العامة.

لكن الواقع أن هذه اليد الخفية لم تقم بالمهمة التي عزاها إليها سميث وغيره، وإنما أدى ذلك الطمع الفردي المتروك له الحبل على غاربه إلى تقسيم الثروة تقسيما ظالما بحيث إن قلة قليلة من المواطنين تصل أحيانا إلى ١٠٪ تمتلك ما يصل أحيانا إلى ٩٠٪ من

الثروة، ولا يمتلك ٩٠٪ الباقون إلا ١٠٪ منها، ما جعل بعض الاقتصاديين الأمريكيين يقولون ساخرين إنه يبدو أن شيئا أصاب تلك اليد فشلها .وبدأت الفجوة بين الأغنياء والفقراء تزداد حدتها منذ سنين ما جعل بعض الاقتصاديين يقولون إنه إن استمر التفاوت على تلك الوتيرة فسيؤدي حتما إلى كارثة اجتماعية.

إن الأمر المثالي للنظرية الناجحة أن تكون النتيجة أحسن فأحسن كلما كان واقع العمل بها أقرب إلى مثالها النظري .لكن الغريب في النظرية الرأسمالية أنه لو كان الواقع مطابقا لصورتها المثالية لكانت الكوارث أكثر ما تكون.

الصورة المثالية للنظرية: هي إلا يكون للدولة أدنى تدخل في النشاط الاقتصادي . لكن هذا معناه إلا تفرض الدولة على الناس ضرائب، ولا تضع قوانين تقيد بها النشاط الاقتصادي، كأن تمنع صنع بعض الأشياء الخطرة أو المتاجرة بها، وكأن تحدد الأماكن التي تبنى فيها المصانع، وتضع لها شروطا صحية وبيئية وغير ذلك .لكن كل هذه القيود ما زالت تحدث إلى حد ما في الدول الرأسمالية .الدولة إذن تدخلت لكن تدخلها لم يكن بالقدر الذي يرفع الظلم، بل كانت تميل دائما إلى إعطاء الحرية للأغنياء مهما أدى ذلك إلى التضييق على الفقراء .خذ نظام الضرائب في الولايات المتحدة مثلا .إن الضريبة لا تؤخذ من رأس المال كما هو الحال في الزكاة وإنما تؤخذ فقط مـن دخل الفرد في العام المالي .

وهذا معناه أنه إذا كان هنالك شخصان أحدهما يمتلك مليوني دولار والآخر لا يمتلك شيئا، لكن دخل كل منهما في السنة المالية كان ١٠٠ ألف دولار، فإن نسبة ما يؤخذ منهما متساوية، أي أن الضريبة لا تتعرض لرأس المال الذي كان موجودا قبل السنة المالية .

قال كيفن فلبس في كتابه عن "الديمقراطية والثروة" إنه لو أخذت ضريبة مقدارها ٣٪ في المائة على رؤوس الأموال في أمريكا وحدها لما بقي على وجه الأرض فقير !ولعل القارئ لاحظ أن هذه النسبة قريبة جدا من نسبة الزكاة التي تفرض فعلا على رؤوس الأموال.

لكن دعاة الرأسمالية في الغرب لا يزالون يدافعون عنها رغم كل ما يرون من آثارها الضارة.

أتدرون ما السبب في هذا؟ السبب أنهم ظنوا أن البديل الوحيد للنظام الرأسمالي الذي عهدوه هو النظام الاشتراكي الذي عرفوا صورا منه في الاتحاد السوفياتي وفي الصين قبل التعديلات التي أحدثها الصينيون فيه.

وهم بهذا يخلطون بين كون الرأسمالية اقتصاد سوق وبين كون كل اقتصاد سوق هو بالضرورة اقتصاد رأسمالي.

لكن الحقيقة هي أن هنالك بديلا ثالثا هو الاقتصاد الإسلامي الذي هو اقتصاد سوق لكنها سوق منضبطة بضوابط القيم الإسلامية وهي قيم يغلب عليها مراعاة مصالح الفقراء ما يجنب المجتمعات الآخذة بها ذلك التفاوت الفظيع الذي نتج عن النظرية الرأسمالية .في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

بيان لهذين الأمرين ففي إحلال البيع إقرار باقتصاد السوق، وفي تحريم الربا تقييد له بقيم إسلامية هي في مصلحة الفقراء .ثم تأتي الزكاة التي هي أيضا في مصلحة الفقراء، بل تأتي القاعدة العامة التي تأمر بإلا يكون المال دولة بين الأغنياء .وإذا كان الغربيون لم يعرفوا النظرية الرأسمالية إلا في صورتها التي قال بها سميث وغيره، فإننا نعلم من القرآن الكريم أنها نظرية قديمة كان من بين من قالوا بها قوم شعيب الذين رفضوا دعوة نبيهم لهم إلى العدل في معاملاتهم المالية بحجة أن المال مالهم فلهم الحق أن يفعلوا فيه ماشاؤوا.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ

يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٤-٨٧].

شعار الفلسفة الرأسمالية يكاد يكون ترجمة لقول قوم شعيب هذا .فأهل مدين يريدون أن يفعلوا ما شاؤوا والفلسفة الرأسمالية تقول دعه يعمل laissez fair أي لا تتدخل في نشاطه الاقتصادي.

رفض الإسلام الفلسفة التي احتج بها أهل مدين على أساس أن المال ليس مملوكا ملكية مطلقة للبشر وإنما هو مملوك لله الذي يأمر البشر بأن يتصرفوا فيه وفق أوامره سبحانه.

من الآثار الحسنة التي نتجت عن هذه الكارثة أن كثيرا من المفكرين من اقتصاديين وغير اقتصاديين لم يعودوا يؤمنون بالنظرية الرأسمالية القحة، بل صاروا يدعون إلى تدخل من الدولة لإقرار العدل وصاروا يذمون الأنانية والطمع الذي كان من أسباب هذه الأزمة.

لقد بدأ الاهتمام بتعاليم الإسلام الاقتصادية في المجالات الأكاديمية في الغرب، بل إن الأمثلة العملية للمؤسسات الاقتصادية الإسلامية بدأت تبدي نجاحها بالنسبة لوصيفاتها الغربية كما يحدثنا البروفسور على خان أستاذ القانون في جامعة ووشبيرن في ولاية كنساس الأمريكية في مقال له عن الكارثة الاقتصادية الحالية «لقد بات التمويل الإسلامي يثير قدراً هائلاً من الفضول الأكاديمي. وكثيرون من الخبراء الذين شاركوا في المنتدى الثامن لجامعة هارفارد حول التمويل الإسلامي الذي أقيم في نيسان (أبريل) من هذا العام كانوا يتساءلون حول إذا ما كان بمقدور التمويل الإسلامي أن يمنع حالة الذوبان التي تشهدها الأسواق الأمريكية بسبب ديون الرهن والأوراق المالية المدعومة بالرهن -التي تعرف الآن بالاستثمارات السامة».

المأمول أن يكون في هذا عبرة للمسلمين يعيد إليهم الثقة بتعاليم ربهم ويشجعهم على الاستمساك بها في نشاطهم الاقتصادي لكي يضربوا للناس مثلا عمليا بحسنها وجدواها..

***

العقلانية الرشيدة في التعامل مع الحضارة الغربية

ورقة مقدمة للحلقة العلمية بكلية الدعوة والاعلام
بجامعة الامام ١٤١٣/١١/٢٧هـ

العقل جزء لا يتجزأ من الدين فلا دين بلا عقل كما أنه لا عقل لمن ينكر حقائق الدين لكن العقل لا يقتضي الاعتراف بالحائق التي جاء بها الوحي فحسب بل يقتضي أيضاً التسليم بكل حقيقة قام عليها دليل علمي أعنى دليلاً عقلياً بحتا أو دليلاً حسياً تجريبياً والإنسان العاقل يفرق بين كراهيته لواقع لا يرضاه وبين إنكاره لوجود ذلك الواقع. إن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر لكنه يعلم أنه موجود فيهم فلا يدعونا إلى إنكار وجوده.

هذا المبدأ العقلاني مهم سيما في التعامل مع الأعداء والخصوم أنه من الغفلة المهلكة أن لا تقدر الأمة قوة أعدائها حق قدرها فتستهين بها استهانة خرافية استهانة من يضع الأماني موضع الحقائق.

لذلك أرى أن على الحركة الإسلامية (بالمعنى الواسع الذي يشمل كل جهد يبذله المسلمون لإعلاء كلمة الله).

❖ أن تقدر تأثير الحضارة الغربية الفكرى والمادي حق قدره وأن هذه الحضارة هي الآن أكبر تحد يواجه فكرنا الإسلامي وأكبر تحد يواجه وجودنا الاجتماعي والسياسي فلنقدرها قدرها لا لنخنع ونخضع لها ولكن لكي نعد العدة اللازمة المكافئة لصد عدوانها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

❖ وأن نستفيد من حقيقة مهمة تتعلق بهذه الحضارة وقومها وهي أنهم ليسوا كما واحدا متجانسا متعاونا في خصومته لنا بل هي أفكار شتى ومصالح شتى.. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]، فنستفيد في تعاملنا معهم من هذا التشتت في الفكر وفي المصالح بل إن فيهم طلاب حق إذا عرفوه أقروا به ودافعوا عنه ولولا ذلك لما أسلم منهم أحد لكن الحقيقة التي نشكر الله تعالى عليها أنه لا يمر يوم قط إلا ويدخل في هذا الدين منهم أحد. حدثني أحد الأخوة الذين كانوا يتولون الدعوة إلى الإسلام بين الجنود الأمريكان أبان حرب الخليج أنه أسلم منهم ما يقارب السبعة الآف وقد قرأت

تقارير بالصحف الأمريكية تصف تجربة القوات الأمريكية بالعيش في بيئة إسلامية تمنع الخمر وتمنع الزنا فقالوا إنه لم يحدث قط ان اجتمع عدد من الجنود كالذي اجتمع بالسعودية خلت حياتهم من الشجار والقتال فيما بينهم وبين أنفسهم وفيما بينهم وبين مواطني البلد التي يحلون بها كألمانيا مثلا بل قالوا إن الحرمان من الخمر كان علاجاً لكثيراً من المدمنين منهم.

❖ ونحن، نأمل ونرجو أن نعمل، لأن يأتي وضع عالمي جديد لا يكون فيه الغرب يهودياً نصرانياً علمانياً في مواجهة عالم إسلامي، بل يكون الإسلام حقيقة غربية كما هو الآن حقيقة شرقية لها اعتبارها في وضع السياسات وتحديد المواقف وما ذلك على الله بعزيز.

❖ أن نستغل اهتمام الغرب بنا استغلالا حسنا لمصلحتنا سيما في هذه الأيام التي بدأ فيها هذا الاهتمام يزداد بعد سقوط الشيوعية. أن من منهج الغربيين في اتخاذ مواقفهم بناءها على معلومات عمن يراد اتخاذ الموقف حياله.

❖ لذلك يجب أن نبادر نحن بإعطائهم المعلومات التي نراها مناسبة ونرد على الشبهات التي يثيرونها عمن يسمونهم بالأصوليين. ولا نترك غيرنا من المستشرقين والمنصرين والعلمانيين يحدثونهم عنا حديثا يقصد به تنفيرهم من الدعوة التي نحملها.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

المقالات التي نشرت في مجلة البيان حسب تاريخ نشرها

١) الانفراط العظيم:

مجلة البيان ١٤٢ جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ أكتوبر ١٩٩٩م

في هذه المقالة يستعرض الشيخ كتاب الانفراط العظيم لعالم الاجتماع الأمريكي فرانسيس فوكوياما الذي يتحدث عن ما أسماه الانفراط العظيم في مجال القيم الخلقية والتدهور في العلاقات الاجتماعية في البلدان الغربية الصناعية .

٢) الامم المتحدة ما حدود صلاحيتها ؟:

مجلة البيان ١٥٦ شعبان ١٤٢١هـ ١١ نوفمبر ٢٠٠٠م

يتحدث الشيخ عن قرارات الامم المتحدة في ما يتعلق بحقوق الإنسان وغيرها التي تفرض على الشعوب وهي في الواقع تطاول على السيادة القومية للدول والشعوب وأن هذا يتعارض مع اعتبار الحرية الدينية حقا من الحقوق الإنسانية التي تدافع عنها الامم المتحدة.

٣) الحضارة الغربية ضجة عن الحرية وممارسة للهيمنة الثقافية:

مجلة البيان ١٥٧ رمضان ١٤٢١هـ ديسمبر ٢٠٠٠م

في هذه المقولة يتحدث الشيخ عن التناقضات في الحضارة الغربية وذلك مثل تناقضها بين ضجتها الصوتية العالية عن حرية الافراد والشعوب وسلوكها كل سبيل لفرض قيمها الخلقية وتجربتها السياسية ونظمها الاقتصادية بل ومعتقداتها الدينية على سائر شعوب الأرض ووصم كل من يخالفها بل كل ما يتعارض مع مصالحها بكونه انتهاكا لحقوق الإنسانية أو إضرارا بالمصالح العالمية أو ممارسة الارهاب وغيرها من التهم الجائرة والاقوال الافاكة.

٤) هيئة الأمم:

مجلة البيان ١٥٤ شوال ١٤٢١هـ سبتمبر ٢٠٠٠م

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن أنه ينبغي أن يكون دورهيئة الأمم هو الرقي بالمجتمع الإنساني وفي المشكلات التي تواجه الأمم جميعا سواء كانت طبيعية أو سياسية أو اجتماعية ، ويرى الشيخ أن هذا رهين بإقرارها لثقافات الشعوب المكونة لها وقيمها وخصوصياتها ، وأن تكون وسيلتها للتغيير في المسائل التي تختلف فيها الثقافات والحضارات هي الحوار والتفاهم بالتي هي أحسن، وإلا تتحول إلى أداة تستغلها بعض الدول أو الجماعات لفرض معتقداتها وقيمها ، وقمع المخالفين لها.

٥) فصل الدين عن الدولة:

مجلة البيان ١٥٩ ذو القعدة ١٤٢١هـ فبراير ٢٠٠١م

يناقش الشيخ في هذه المقولة دعوى أن قضية فصل الدين عن الدولة ، أو ما يسميه الغربيون فصل الدولة عن الكنيسة ، أصبحت من القضايا المسلَّم بها في الفكر الغربي السياسي، ومن ثم في الفكر السياسي العالمي الدائر في فلك الحضارة الغربية ، ويقرر الشيخ أن هذ الافتراض لا يكون صحيحاً إلا إذا كان الدين محصوراً بطبعه في بعض المعتقدات وبعض الشعائر التعبدية ، وبعض أنواع السلوك الشخصي الذي لا علاقة له بالجماعة ، ولا يدخل لذلك في مجال الدولة ، لكن الواقع أن هذا الوصف لا ينطبق على أي من الأديان الكبيرة المشهورة: اليهودية والنصرانية والإسلام؛ فما منها إلا وله حكم في العلاقات بين الجنسين وفي العلاقات الأسرية ، والاجتماعية ، وفيما يحل أكله وشربه ، وما يحرم، وهكذا . وكلها أمور تدخل بالضرورة في مجال الدولة.

٦) النسبية:

مجلة البيان ١٦٠ ذو الحجة ١٤٢١هـ مارس ٢٠٠١م

في هذه المقالة يورد نظرية النسبية التي فحواها أنه ليس هنالك معيار ثابت يميز به بين الحق والباطل وبين الخير والشر ، بل إن هذه الأحكام أحكام نسبية ، ولكن نسبة إلى ماذا ؟ هنا يختلف القائلون بهذه النسبية؛ فالغلاة منهم ينسبونها إلى الأفراد ، أي إن ما يراه زيد حقاً أو خيراً فهو حق أو خير بالنسبة له وإن خالفه في ذلك عمرو وغيره من الناس . ويرى بعضهم أنها تنسب إلى ثقافة كل مجتمع . والثقافة culture عندهم هي منهاج حياة مجتمع من المجتمعات في فترة معينة من تاريخه ، وهي تشمل معتقداته ، وأنواع سلوكه ، ولغته ، وتشمل كذلك عاداته وتقاليده وفنونه ومخترعاته وتقنيته وتراثه؛ فما يراه أصحاب كل ثقافة حقاً أو خيراً فهو حق أو خير بالنسبة لثقافتهم هذه ؛ لأنه ليس هنالك معيار عالمي للحق والخير متفق عليه بين الناس، ثم يذكر الشيخ الملاحظات على بطلانها.

٧) ثبت بطلان الجبرية (الجينية):

مجلة البيان ١٦٣ ربيع الاول ١٤٢٢هـ يونيو ٢٠٠١م

وفي هذه المقالة يرد الشيخ على ما يقوله الشواذ بأنهم لا يلامون على ذلك؛ لأنها شيء ولدوا به؛ فهو في جيناتهم الوراثية وهذه الدعوى كما يقول الشيخ لا تكون

صادقة لأسباب ينبغي أن يسلِّم بها كل مؤمن بوجود الخالق معترف بصفتين من صفات كماله هما : العدل ، والحكمة : فالخالق العادل الحكيم لا يمكن أن يغرس في فطرة الإنسان سلوكاً لا مفر له منه ، ثم يجعل ذلك السلوك محرماً عليه ، بل يعاقب عليه أشد العقوبات والخالق العادل الحكيم إذا غرس شيئاً في فطرة الإنسان هداه إلى أحسن السبل لإشباع رغبته منه . فهو لما جعل الحاجة إلى الطعام في خلق الإنسان أمره بأن يأكل ويشرب ولا يسرف ، وأحل له الطيبات وحرم عليه الخبائث . ولما جعل في الناس ميلاً جنسياً هداهم إلى الزواج وحرم عليهم الزنا ، بل فصّل لهم أحسن الطرق للمعاشرة . فلما حرم فاحشة الشذوذ تحريماً مطلقاً ، علمنا أنه ليس لها في الفطرة أصل، ودعك أن يكون الإنسان عليها مجبراً.

٨) حوار عن العلمانية الديمقراطية بين مثقفين عربيين:

مجلة البيان ١٦٦ جمادى الآخرة ١٤٢٢هـ سبتمبر ٢٠٠١م

وفي هذه المقالة يفترض الشيخ حواراً عن العلمانية والديمقراطية بين مثقفين عربيين وينتهي الحوار بقول أحدهم للثاني: الحديث في هذا قد يطول ؛ فسأكتف لك بذكر أحسن ما أراه عندهم، أحسن ما عندهم هو هذا التطور الكبير في العلوم الطبيعية وما بني عليه من تقنية في شتى جوانب الحياة ومنها الجانب العسكري . وقد كنت أتمنى لو أننا ركّزنا على هذا الجانب العلمي التقني فيما نأخذه من الغرب، لكن العلمانيين في بلادنا شغلونا بمثل هذه القضايا التي كنا نتحدث عنها الآن ؛ لأنهم لسذاجتهم ظنوا أن السبب الأساس لتطور الغرب هو فصله للدين عن الدولة . وقد كان هذا التركيز على الجانب الثقافي في التجربة الغربية هو السبب الأساس لضعفنا وعدم تطورنا ؛ لأنه كان السبب الأساس في النزاع بيننا ؛ وأنت تعلم أن الأمم لا تستطيع أن تحقق إنجازاً كبيراً دينياً أو دنيوياً وهي منقسمة على نفسها متنازعة فيما بينها . فأسأل الله تعالى أن يجمعنا على الخير، وأن يوفقنا إلى الأخذ بأسباب النهضة والقوة والرفعة في كل جوانب حياتنا المادية والروحية.

٩) حماة الرذيلة :

مجلة البيان ١٦٧ رجب ١٤٢٢ أكتوبر ٢٠٠١م

وفي هذا المقال يذكر الشيخ بعض النماذج من الرذائل في المجتمعات الغربية.

١٠) العولمة وصراع الحضارات:

مجلة البيان ١٦٩ رمضان ١٤٢٢هـ نوفمبر / ديسمبر ٢٠٠١م

في هذه المقال يتحدث الشيخ عن مفهوم الحضارة والثقافة والعولمة، وأن الحضارة الإسلامية هي المؤهلة بأن تكون الحضارة العالمية.

١١) يافوكوياما نحن مع التحديث وأبعد الله التغريب:

مجلة البيان ١٧٣محرم ١٤٢٣هـ 3مارس / ابريل ٢٠٠٢م

وفي هذه المقالة رد على فوكوكوياما في دعوته إلى تبني القيم الغربية، وإذ يزعم أن دعوته هذه ليست ناتجة عما يسمى بالعمى الثقافي؛ وإنما لأن القيم الغربية هي القيم العصرانية الصالحة لأن تكون عالمية، وأننا إذا لم نأخذ بها فلا أمل لنا في تحديث مجتمعاتنا؟

١٢) هل نداوي بالتي كانت هي الداء:

مجلة البيان ١٨٤ ذو الحجة ١٤٢٣هـ فبراير ٢٠٠٢م

وفي هذه المقالة يرد الشيخ على فكرة سخيفة يدندن الغربيون حولها وهي أنه لن تتقدم أمة تقدمهم المادي إلا إذا سلكت طريقهم الراهن حذو القُذة بالقُذة .أي إلا إذا صار نظامها السياسي مثل نظامهم ، وموقفها من دينها مثل موقفهم من دينهم يحرفونه كما شاءوا ، ويخضعونه لأهواء عصرهم، ويفصلون بينه وبين دولتهم، وإلا إذا صارت حياتهم الجنسية مثل حياتهم اختلاطاً بغير ضابط بين الرجال والنساء، وإباحة لكل علاقة جنسية بين كل بالغين متراضين رجلين كانا أو امرأتين أو رجل وامرأة، بل إلا إذا كانوا مع ذلك موالين للغرب خاضعين له خادمين لمصالحه.

١٣) سياسة التناقضات المستعلنة:

مجلة البيان ١٨٦ صفر ١٤٢٤هـ ابريل ٢٠٠٢م

وفي المقالة يورد الشيخ تساؤل عن سياسة الغرب المتناقضة في اعتدائها على غزو الشعوب والدول كالعراق، ودعوة حكام هذه الدول الغربية وبعض مناصريهم من قادة فكرهم إلى الخروج على هذه القيم التي عاشوا عليها سنين طويلة من حياتهم وهو خوفهم من الإسلام .

١٤) يريدوننا غنما :

مجلة البيان ١٨٧ ربيع الاول ١٤٢٤هـ ٤ مايو ٢٠٠٣م

في هذه المقالة يتحدث الشيخ عن أئمة البغي والاحتلال لشعب العراق، ومن ورائه كل شعب عربي وغير عربي يريدون تسخيره لما يسمونه بمصلحتهم الوطنية، فيذكر

حفظه الله أن أئمة البغي والاحتلال يريدون لشعب العراق، ولكل شعب عربي أن يكون قطيعاً من الغنم يأكل، ويشرب، ويداوى؛ لكنه لا يحمل عصا ولا يصد عدواً . إنما الذي يحمل العصا هو سيده؛ فبها يهش عليه، ويسخِّره، وبها يحد له الحمى الذي لا يتجاوزه.

١٥) أديمقراطية أم أمريطانية ؟:

مجلة البيان ١٨٩ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ يوليو ٢٠٠٣م

يشير الشيخ حفظه الله أن الديمقراطية عند الأمريكان والبريطانيين في تعاملهم مع الشعوب الأخرى كالعراق مثلاً تختلف عن الديمقراطية المعهودة فالإدارةُ الأمريكية، وأحياناً المسؤولون البريطانيون، يُصرحون، وأحياناً يُعبِّرون بلسان الحال عن أنه بعد أن تخلَّص العراقيون من حكم صدَّام الدكتاتوري قد صاروا أحراراً يختارون لبلدهم ما يشاؤون بالطرق الديمقراطية، فلهم أن يختاروا الدستور الذي يرتضونه لبلادهم، لكنه يجب أن يكون دستوراً يفصل الدين عن الدولة كما هو الحال في الدستور الأمريكي، بل يجب أن يكون العراقيون وسائر العرب والمسلمون أكثر تطوراً من الغرب في مجال العلمانية، فدستور الولايات المتحدة مثلاً قد اكتفى بفصل الدين عن الدولة؛ بمعنى أنه ليس للدولة أن تؤسس، أو تتبنى ديناً من الأديان، ولا أن ترعى المؤسسات الدينية، لكنه لا يمنع من أن تكون الدوافع السياسية دينية، كما هو الحال في الموقف من إسرائيل. أما العراقيون وسائر العرب والمسلمين فيجب أن يذهبوا أبعد من ذلك، يجب أن يمنعوا حتى الدوافع الدينية، ويعاقبوا كل مسؤول، أو حزب يُظهر مثل هذه الدوافع في أقواله، أو أعماله، ويجب أن لا يكتفوا كما اكتفت أمريكا بعدم تبني المؤسسات الدينية، وتركها حرة تتصرف كيف شاءت في حدود القانون، بل يجب أن تتأكد من أنها لا تعمل عملاً ينمي مثل تلك الدوافع الدينية التي تقود في النهاية إلى العمليات الإرهابية، ولا سيما ضد إسرائيل .

١٦) المفهوم الغربي للوهابية :

مجلة البيان ١٩١ رجب ١٤٢٤هـ سبتمبر ٢٠٠٣م

يبين الشيخ حفظه الله في هذه المقالة خطأ من يتصور أن المفهوم الغربي للوهابية هو محصور فيما دعا إليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتبه وأحاديثه ودروسه، أو أن الوهابيين هم فقط أولئك الذين وافقوا الشيخ فيما دعا إليه. الوهابية عند هؤلاء هي

وصف لكل أخذ لدين الإسلام مأخذ الجد؛ حتى لو كان الآخذ إنساناً لم يقرأ للشيخ حرفاً واحداً ولم يتسَمَّ باسمه ولا كان موافقاً له في بعض ما قال؛ بل إنها وصف لكل من يأخذ بجد بعض ما أجمع عليه المسلمون حتى لو كان ممارساً لبعض البدع، أو مؤمناً ببعض الخرافات .الوهابية عند هؤلاء مرادفة للأصولية التي هي الإيمان بأن القرآن كله كلام الله تعالى، وأن الالتزام به واجب على كل مسلم . الوهابي هو المسلم الذي يواظب على الصلوات الخمس ويصوم رمضان ويؤدي الزكاة ويحج إن استطاع إلى بيت الله الحرام .إنه المسلم الذي لا يشرب خمراً ولا يتناول ربا ، ولا يرى اختلاط الرجال بالنساء، ولا يؤمن بقيم الحضارة الغربية المخالفة للإسلام .المسلم الوهابي هو الذي يرى أن دينه هو الحق، وأنه يحثه على دعوة الناس إلى الإسلام . الوهابي باختصار هو كل مسلم يحاول الالتزام بتعاليم دينه حتى لو كان يعيش في البلاد الغربية .

١٧) الديمقراطية اسم لا حقيقة له:

مجلة البيان ١٩٦ ذو الحجة ١٤٢٤هـ يناير فبراير ٢٠٠٤م

يشرح الشيخ في هذه المقالة كيف أن الديمقراطية اسم لا حقيقة له بسبب الدعاية الواسعة لها التي أعمت كثيراً من الناس ولا سيما في بلادنا عن عيوبها التي يعرفها منظّروها الغربيون بل إن المفتونين بها المروِّجين لها، صاروا يصوِّرونها كالبلسم الشافي لكل مشكلات المجتمع السياسية وغير السياسية، فأول ما يؤخذ على الديمقراطية كونها اسماً لا حقيقة له؛ أعني أنه إذا وُصف لك نظام سياسي بأنه دكتاتوري أو ديني مثلاً، تصوَّرت ما المقصود بهذا الوصف، ولكن ليس الأمر كذلك بالنسبة للديمقراطية؛ إذ إن الديمقراطية كما يدل عليها اسمها، وكما يعرِّفها كبار منظريها وساستها، هي حكم الشعب، لكن الصورة الواقعية لما يُسمى بالديمقراطية . مهما كانت حسناتها أو سيئاتها . ليست هي حكم الشعب، ثم يذكر الشيخ لماذا أن الديمقراطية ليست هي حكم الشعب.

١٨) سهام بوش ضد الإرهاب:

مجلة البيان ١٩٨ صفر ١٤٢٥هـ مارس / أبريل ٢٠٠٤م

في هذه المقالة يبين الشيخ كيف أن ما قام به الرئيس بوش ضد الإرهاب تبين أنها سهام تصيب في الوقت نفسه المقوم الثاني من مقومات الروح الأمريكية وهي القيم السياسية والقضائية باعتبار أن المقوم الأول هو القوة المادية.

١٩) ماذا يعدون لمواجهة المد الإسلامي:

مجلة البيان ٢٠٠ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ مايو / يونيو ٢٠٠٤م

وفي هذه المقالة يبين الشيخ -حفظه الله- مخططات الدول الغربية لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية لمواجهة الخطر الديني الإسلامي، وذلك أنه بالرغم من تخلف البلاد الإسلامية اقتصادياً وعسكرياً، فإن الدين الإسلامي هو الذي يمثل التحدي الأكبر للثقافة الغربية ولا سيما بعد سقوط الشيوعية .إن الدين الإسلامي هو باعترافهم الآن أكثر الأديان انتشاراً حتى في البلاد الغربية .بل أقول إنه أكثر انتشاراً لا بالنسبة للأديان فحسب، بل بالنسبة لكل الأيديولوجيات وفلسفات الحياة الأخرى، وليس في البلاد الغربية فحسب بل في سائر بلدان العالم .هذا بالنسبة لهم خطر كبير لا بد من إعداد الخطط للمكر به.

٢٠) أمريكا المريضة:

مجلة البيان ٢٠١ جمادى الاولى ١٤٢٥هـ يونيو/ يوليو ٢٠٠٤م

يبين الشيخ في هذه المقالة كيف أن الولايات المتحدة الأمريكية أكبر قوة اقتصادية وأكبر ترسانة حربية وأوسع إمكانات إعلامية لكنها مع ذلك مصابة بداء عضال لا تجدي معه كل هذه القوى، إنه الداء الذي فضحه سجن أبي غريب داء التدهور الأخلاقي الجنسي المتسارع، ثم يفصل الشيخ ذلك.

٢١) قضية العلمانية والدين في البلاد الغربية:

مجلة البيان ذو الحجة ١٤٢٥هـ يناير فبراير ٢٠٠٥م

يبين الشيخ -حفظه الله- في هذه المقالة خطأ زعم ما يقوله بعض العلمانيين في بلادنا من أن العلاقة بين الدين والدولة أو بين الدين والسياسة لم تعد قضية في البلاد الغربية، وأن القوم هناك قد اتفقوا جميعاً المؤمنون منهم بالأديان وغير المؤمنين على أن الدولة يجب أن تكون علمانية، وأن الدين لا دخل له بالشؤون العامة، بل يجب أن يكون محصوراً في الحياة الخاصة . لكنك إذا تتبعت ما يقوله الغربيون أنفسهم، ولا سيما في الولايات المتحدة تبين لك أن الأمر على غير ما صور لك أولئك العلمانيون في بلدك، وتبين لك أن هذه القضية ما زالت تثير عند أولئك القوم معارك حامية الوطيس، وما يزال كثير من الناس فيها يتجادلون، وعنها يكتبون ويخطبون، وبسببها يتحزبون، وعلى أساس منها يصوتون. بل إذا تُرجمت لك معاركهم الكلامية في هذه

المسألة، وأُخفي عنك المكان الذي دارت فيه فلربما تخيلت أنها تدور في بلد إسلامي ثم ذكر الشيخ أمثلة على ذلك.

٢٢) الإسلام فوبيا:

مجلة البيان ٢١٠ صفر ١٤٢٦هـ مارس /ابريل ٢٠٠٥م

يبين الشيخ حفظه الله في هذه المقالة عن ما يسمى بالاسلامفوبيا وأسبابه ففي الغرب يتحدث الناس عن مرض نفسي يسمونه الإسلامفوبيا يحسبونه جديداً وهو قديم قدم الرسالات السماوية .يتمثل المرض في كراهية أو خوف من الإسلام لا مسوغ له . يدفع هذا المرض المصابين به إلى اتخاذ مواقف عدائية من الدين الإسلامي وأهله تتمثل في مظاهر كثيرة يذكرون منها:

الكلام غير اللائق عن النبي صلى الله عليه وسلم والافتراء عليه، الاستشهاد بآيات من القرآن أو نصوص من السنة وبترها على سياقها، تصوير ما يهتم به بعض المسلمين من أعمال إرهابية بأنه ليس عملاً معزولاً يقوم به أفراد وإنما هو واجب ديني يأمرهم به الإسلام، الادعاء بأن الإسلام سبب تخلف المسلمين؛ لأنه مضاد للعلوم الطبيعية والتقنية ولكل ما هو من ضرورات الحياة المعاصرة، اتهام الإسلام بأنه هو السبب في انتشار الحكم الدكتاتوري ولاسيما في البلاد العربية، القول بأن الإسلام لا يحترم المرأة بل يدعو إلى معاملتها معاملة الرقيق. وغير ذلك ثم يذكر الشيخ أثر ذلك في التعامل مع المسلمين، وكذلك الأسباب التي أوجدت هذا التصور الخاطئ .

٢٣) القسطية لا الديمقراطية:

مجلة البيان ٢١٢ ربيع الثاني ١٤٢٦هـ مايو يونيو ٢٠٠٥م

وفي هذه المقالة يحاول الشيخ -حفظه الله- مناقشة صلة الدمقراطية بالإسلام بحسب المعاني المختلفة التي يقصدها أنصارها من المسلمين؛ لأن الإنسان إنما يُسأل عن المعنى الذي قصده من عبارته، حتى لو كان استعماله للعبارة خطأ، وقد مثل الشيخ حواراً في مسائل الديمقراطية هذه بين مسلميْن يدعو أحدهما إلى نظام سياسي إسلامي خالص يسميه القِسْطِيّة، وآخر من دعاة الدمقراطية.

٢٤) يريدون ليطفئوا نور الله:

مجلة البيان ٢١٤ جمادى الثاني ١٤٢٦هـ يوليو/ أغسطس ٢٠٠٥م

وفي هذه المقالة يذكر الشيخ -حفظه الله- بعض المقالات التي يكتبها الغرب ضد الإسلام مثل مقال تحت عنوان "القلوب والعقول والدولارات" وذكر فيه أنه قضى

أربعة أشهر يجمع فيه معلومات عن مشروع جديد سري للدارة الأمريكية اسمه "البلوغ إلى العالم الاسلامي" وهذا المشروع يعبر عن سياسة جديدة هي التصريح بأن هدف الولايات المتحدة الذي تراه محققا لمصلحتها الوطنية هو تغيير وجه الإسلام .

٢٥) خبط عشواء:

مجلة البيان ٢٢١ محرم ١٤٢٧هـ فبراير ٢٠٠٦م

وفي هذه المقالة يذكر الشيخ حفظه قصة منع تدريس نظرية التصميم الذكي في مدارس بنسلفانيا لأنها تعارض نظرية التطور لدارون وهذه النظرية تؤكد ان تصميم الخلق من خبير حكيم وليس خبط عشواء كما تدل عليه كثير من نظريات الخلق.

٢٦) سخافة التعليل بحرية التعبير:

مجلة البيان ٢٢٣ ربيع الاول ١٤٢٧هـ مارس ٢٠٠٦م

وفي هذه المقالة تقب الشيخ -حفظه الله- حجة الغربيين بالتعليل بحرية التعبير في نشر الرسومات المسيئة للنبي ﷺ واعتبر أن هذا التعليل أشبه ما يكون بالسخافة وأفاض في هذا في ثنايا المقال.

٢٧) عندما يكون دين خرافي أساساً لسياسة دولة كبرى:

مجلة البيان ٢٢٨ شعبان ١٤٢٧هـ سبتمبر ٢٠٠٦م

وفي هذا المقال بين الشيخ حفظه الله ما المقصود بالدين الخرافي ؟ فالمقصود بالدين الخرافي الدين غير العلمي؛ بمعنى أنه لا يقوم على حقائق واقعية ، ولا يلتزم بمكارم خلقية .وعليه فليس هنالك من دليل عقلي ولا علمي على دعاواه، بل في العقل والعلم ما يدل على بطلانها .وكلما كثرت مثل هذه الدعاوى في دينٍ ما أو في طائفة تنسب إليه، كان ذلك الدين أو كانت تلك الطائفة أقرب إلى الخرافة .وكلما كان اعتماد من يؤمنون بمثل هذا الدين عليه في تصرفاتهم ومعاملاتهم وسياساتهم، كان ضررهم على أنفسهم وعلى غيرهم أكبر ثم أشار حفظه الله في هذا المقال كيف أن الولايات المتحدة وقعت في ذلك بل هي أكبر مشكلة تعاني منها الولايات المتحدة ، ويعاني منها العالم بسببها ؛ ذلك أن ساكني بيتها الأبيض اليوم يؤمنون بخرافات دينية ويقيمون عليها سياساتهم الداخلية والخارجية. وقد خرج إلى السوق قبل أشهر كتاب اسمه "الثيوقراطية الأمريكية"، بيَّن فيه مؤلفه مدى تأثُّر السياسة الأمريكية الراهنة بمعتقدات دينية خرافية، ومدى خطورة هذه السياسة الدينية على الولايات المتحدة .

٢٨) انتشار النصرانية بالسيف:

مجلة البيان شوال ١٤٢٧هـ نوفمبر ٢٠٠٦م

وفي هذه المقالة رد الشيخ على كلام للبابا زعم فيه أن الإسلام انتشر بالسيف وبين -حفظه الله- الفرق بين الحروب التي خاضها المسلمون مع غيرهم ضد الظلم الذي يقع على المسلمين أو ظلم الصادين الناس عن الدين وظلم الناقضين لعهود أبرموها مع المسلمين ولم تكن لإكراه الناس في الدخول في الإسلام بينما الحروب التي خاضها المسيحيون على مر الزمان هي حروب ظلم وعدو وإكراه الناس على قبول دينهم وثقافتهم.

٢٩) هيام بالغرب يعمي ويصم:

مجلة البيان ٢٣١ ذو القعدة ١٤٢٧هـ ديسمبر ٢٠٠٦م

وفي هذه المقالة قام الشيخ بالرد على مقال فيه تمجيد للغرب وإطراء له وقد حشد جملة من الحُجج الواهية والأفكار المتناقضة ما لو قرأه مثقف غربي لسخر منه وأنهضه دليلاً على انحطاط الفكر العربي ثم أخذ الشيخ -حفظه الله- بتفنيد مقاله والرد عليه.

٣٠) عناصر الشرك الاستكبار والفحش في القيم الغربية:

مجلة البيان ٢٣٤ صفر ١٤٢٨هـ فبراير ٢٠٠٧م

يبين الشيخ -حفظه الله- في هذه المقالة أننا إذا نظرنا إلى الثقافة المعترف بها تاريخيا عند الغرب وجدنا فيها أو في فهمهم وتصورهم لها عناصر مشتركة لعلها هي التي تمثل قيمهم أو عملهم الذي زين لهم. إنها عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القول والسلوك. ثم ذكر الشيخ أمثلة على ذلك .

٣١) المعتقدات والمصالح:

مجلة البيان ٢٣٧ جمادى الاولى ١٤٢٨هـ مايو ٢٠٠٧م

وفي هذه المقالة يرد الشيخ -حفظه الله- على الذين يظنون أن سياسة الغرب والسياسة الخارجية الأمريكية تقوم على المصالح وأنها لذلك لا تتغير، وأن أيديولوجيات الساسة الحكام لا تغير من هذه الحقيقة ..لكن الحقيقة أن هنالك صلة قوية بين الأمرين؛فالمعتقدات والتصورات هي العدسات التي ينظر الناس بها إلى الأمور فيقررون ما هو مصلحة للوطن وما ليس بمصلحة؛ فالشيء الواحد قد يبدو مصلحة بمنظار اعتقادي معين ويبدو مفسدة بمنظار آخر ثم يضرب الشيخ أمثلة على ذلك.

٣٢) البابا يرفض الحوار مع المسلمين:

مجلة البيان ٢٤٤ ذو الحجة ١٤٢٨هـ ديسمبر ٢٠٠٧م

في هذه المقالة يذكر الشيخ -حفظه الله- السبب الذي جعل البابا يرفض الحوار مع المسلمين حيث قال البابا " إن حواراً لاهوتياً حقيقياً مع المسلمين أمر صعب لأنهم ينظرون إلى القرآن أنه كلمة الله بالمعنى الحرفي، إن المسلمين لا يقبلون أن يناقش أحد القرآن بعمق؛ لأنهم يقولون إنه كتب بإملاء من الله يصعب بهذا التفسير المطلق مناقشة محتويات الإيمان " ثم يرد الشيخ على هذا الكلام الذي وصفه بالباطل.

٣٣)لماذا هذا الهلع الغربي من الإسلام:

مجلة البيان ٢٤٦ صفر ١٤٢٩هـ فبراير ٢٠٠٨م

يبين الشيخ سبب هلع الغرب من الإسلام مع أن عدد المنتسبين إلى الإسلام أقل بكثير من عدد غير المسلمين، بل هو كما يقولون أقل من عدد المنتسبين إلى النصرانية. وعدد الملتزمين من هؤلاء بدينهم توحيداً وصلاة وصياماً وحجاً وزكاةً أقل بكثير من المنتسبين إليه، والمهتمون من هؤلاء بأمر الدعوة إلى الإسلام . ولا سيما في البلاد الغربية . إنما هم طائفة قليلة . وقوة المسلمين الاقتصادية والعلمية والقتالية لا تكاد تساوي شيئاً بالنسبة لما عند الغربيين من قوة .وبين المنتسبين إلى الإسلام أعداد كبيرة صارت موالية للغرب فكراً وسياسةً وواقعاً عملياً ، لكن الغرب على الرغم من ذلك يتحدث عن الإسلام وكأنه عدو على الأبواب، ويصفونه بأنه أكبر خطر على الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية. ولذلك تراهم لا يزالون يقومون بالدراسات بعد الدراسات، ويعقدون المؤتمرات عقِب المؤتمرات، ويُصدرون الكتب تِلو الكتب والمجلات تلو المجلات، ويقدمون البرامج المسموعة والمشهودة للدعاية ضد الإسلام وبيان خطر المسلمين، ثم يبين الشيخ حفظه الله سبب هذا الخوف والهلع.

٣٤) ناصرون للإسلام من غير أهله:

مجلة البيان ٢٤٩ جمادى الاولى ١٤٢٩هـ مايو ٢٠٠٨م

ذكر الشيخ في هذه المقالة أن من سنن الله أنه كثيرًا ما يؤيد دين الحق بأناس لا يؤمنون به، ومن ذلك كلام كبير أساقفة كانتربري - وهو لقب يلقّب به رئيس الكنيسة الإنجيلية في العالم - ورئيس الأساقفة هذا هو - بحكم منصبه - عضو في مجلس اللوردات البريطاني، ألقى هذا الأسقف "وليامز" محاضرة أكاديمية نشرتها

بنصها جريدة الجارديان البريطانية، ودعا في نهايتها إلى أن يتضمن القانون البريطاني بعضَ أحكام الشريعة الإسلامية كي يتحاكم إليها المسلمون في محاكم خاصة بهم، وذكر من بين هذه الأحكام أحكام :الزواج، والطلاق، والمواريث والمعاملات، والصلح، لكنه كان قد قدّم لهذه المقترحات بكلام طويل عن طبيعة القانون في الدولة العلمانية، وكان مما قاله في ذلك :إن هنالك تحدّياً متنامياً في المجتمع، هو وجود جماعات من المواطنين ليست بأقل من غيرها التزاماً بالقانون، لكنها تنتمي بحكم معتقداتها إلى شيء آخر غير القانون البريطاني، ثم سأل سؤالا مهماً فقال :ما الذي نفهمه ونتوقعه من القانون في الدولة العلمانية؟ وأجاب بأن هنالك خطراً ينشأ عندما يعتقد المتدين أن انتماءه لا يكون إلا إلى جماعته الدينية) (الأمة أو الكنيسة) وأن كل أنواع الانتماءات الأخرى السياسية والاجتماعية هي نوع من الخيانة لجماعته، لكنه ينشأ أيضاً عندما تحتكر الدولة العلمانية تعريفَ الهويات السياسية والاجتماعية، ولذلك أكّد أن القضية ليست قضية خاصة بالمسلمين، بل هي قضية تهم كل أصحاب الديانات في دولة علمانية.

٣٥) أمدع جنايات هو أم مرتكب جناية ؟:

مجلة البيان ٢٥٣ رمضان ١٤٢٩هـ سبتمبر ٢٠٠٨م

في هذه المقالة يشير الشيخ حفظه الله إلى موضوع الاتهامات التي وجَّهها مدَّعي ما يسمى بـ) محكمة الجنايات الدولية (ومطالبته بإيقاف رئيس البلاد وتسليمه إلى المحكمة لمحاكمته !، إن المدَّعي الذي طالب بتوقيف رئيس بلد إسلامي يدَّعي أنه إنما فعل ذلك لتأخذ العدالة مجراها، ولأن هذا الرئيس متَّهم بارتكاب جرائم فظيعة؛ منها :ما يسمى بالإبادة الجماعية، وما سُمِّي بالتطهير العِرْقي وبجرائم الحرب.ثم يتحدث الشيخ عن عدالة هذه الشكوى ونزاهة المحكمة في دعواها .

٣٦) هل تستعيد أمريكا مركزها:

مجلة البيان ذو الحجة ١٤٢٩ ديسمبر ٢٠٠٨م

وفي هـذه المقالة يستعرض الشيخ أقـوال الكتاب الأمـــريكيين الذين يرون أن عهد القيادة والسيطرة الأمريكية انتهى إلى غير رجعة بعد تولي أوباما الرئاسة في أمريكا.

٣٧) فتنة اجتماع الكفر والقوة المادية:

مجلة البيان ٢٥٧ محرم ١٤٣٠هـ يناير ٢٠٠٩م

في هذه المقالة يشير الشيخ -حفظه الله- إلى ما يحصل للناس من فتنة بسبب اجتماع الكفر مع النعمة والقوة المادية.

٣٨) العدوان أصل أصيل في الحروب الغربية:

مجلة البيان ٢٥٨ صفر ١٤٣٠هـ فبراير ٢٠٠٩م

في هذه المقالة يذكر الشيخ المبدأ الذي يرتكز عليه ويلجأ إليه القادة الغربيون الآن لتوسيع ما يشنون من حروب على غيرهم هو ما صار يعرف بـ (المصلحة القومية) والمقصود بالمصلحة القومية هو مصلحة دولة قومية كالولايات المتحدة الأمريكية أو مجموع الدول التي تسمى بالدول الغربية التي تنتمي إلى حضارة واحدة ثم يورد الشيخ حفظه الله الاعتراضات على هذا المبدأ .

٣٩) هل نشهد نهاية الليبرالية السياسية:

مجلة البيان ٢٦٠ ربيع الاخر ١٤٣٠هـ ابريل ٢٠٠٩م

وفي هذه المقالة يبين الشيخ تحول المجتمعات الغربية من النظام السياسي القائم على النظام الديمقراطي الذي يقبل التعددية ويتيح للمواطنين المختلفين في العقائد الدينية والقيم الخلقية والتصورات الفلسفية فرصاً سياسية متساوية إلى التحول إلى التركيز على المجتمع المتماسك الذي يقتضي التضييق على المخالفين لا سيما المسلمين.

٤٠) لسنا ضد الإسلام ولكن:

مجلة البيان ٢٦٦ شوال ١٤٣٠هـ اكتوبر ٢٠٠٩م

وهذا المقال عبارة عن تمثيل حوار بين سياسي غربي وبين داعية عربي يبين فيه السياسي العربي أن الغرب ليسوا مسلمين، ولكنهم ليسوا ضد الإسلام ولكن الداعية المسلم يبين له أن الإسلام الذي أنتم لستم ضده هو إسلام في حدود نظامكم العلماني، فإذا تجاوزه كنتم ضده ونسيتم ليبراليتكم.

٤١) القرار السويسري بمنع المآذن قرار ديمقراطي:

مجلة البيان ٢٧٠ صفر ١٤٣١هـ فبراير ٢٠١٠م

يشير الشيخ -حفظه الله- في هذا المقال إلى أن نتيجة الاستفتاء الذي أجري في سويسرا لمنع المآذن فوافق ٥٧٪ والقرار الذي يأتي عن طريق الاستفتاء العام، هو أقوى

القرارات ديمقراطية . وقرار منع المآذن في سويسرا جاء بهذه الطريقة؛ فهو إذن قرار ديمقراطي لا ريب في ديمقراطيته؛ فكونه ظالماً أو خاطئاً لا ينفي كونه ديمقراطياً، لكن كثيراً من الناس ولا سيما المعجبين بالديمقراطية في بلادنا يخلِطون بين هذين الأمرين؛ فيصفون كل قرار أو سياسة أو سلوك يرونه جائراً بأنه غير ديمقراطي . وطالما حاولتُ أن أطلب من هؤلاء المعجبين أن يتذكروا بأن غزو أفغانستان جاء نتيجة قرار ديمقراطي، وأن غزو العراق كذلك، بل إن قرارات الدول الأوربية باحتلال كثير من الدول ولا سيما الدول الإسلامية واستعمارها، كانت قرارات ديمقراطية .

٤٢) اضطراب الملحدين (١):

مجلة البيان ٣٧٩ ذو القعدة ١٤٣١هـ أكتوبر/ نوفمبر ٢٠١٠م

يبين الشيخ في هذا المقال والمقالات التي بعده اضطراب الملحدين في دعوى إقامة الحجة على الإلحاد وعدم وجود الله ففي هذا المقال يذكر الشيخ أن أكثر ما يلجأ إليه الملحدون في الاحتجاج لإلحادهم هو أن المؤمنين بوجود الخالق لم يعطوهم على وجوده حجة مقنعة .لكنهم حين يفعلون ذلك يفترضون أن الأمر الطبيعي هو عدم وجود الخالق، وأن الذي يدعي وجوده هو المطالب بإعطاء الدليل على وجوده . لماذا لا يكون العكس؟ لماذا لا يكون الأمر الطبيعي هو الأمر الذي يؤمن به جماهير الناس والذي يجدون له أصلاً في نفوسهم، وأن الذي يشذ عن هذا هو المطالب بالدليل؟ إن المؤمنين بوجود الخالق يعتقدون كما سنرى أنه لا تفسير لوجود الكون إلا بوجود الخالق . فهل يرى الملحد أن مسألة وجود الكون هذه مسألة لا تهمه، وأن المطالبين بتفسيرها هم المؤمنون وحدهم؟ الواقع أن هذه مسألة تهم كل إنسان عاقل، فإذا لم يرَ في وجود الخالق حلاً لها فعليه هو أن يفسرها بشيء آخر يقول للمؤمنين إنه البديل عن وجود الخالق . وقد حاول بعضهم شيئاً من هذا لكنها محاولة بائسة.

٤٣) اضطراب الملحدين (٢):

مجلة البيان ٢٨١محرم ١٤٣٢هـ ديسمبر ٢٠١٠م

وقد ناقشهم الشيخ في هذا المقال في اضطرابهم في نقدهم لأدلة وجود الخالق

٤٤) اضطراب الملحدين (٣):

مجلة البيان ٢٨٢ صفر ١٤٣٢هـ يناير ٢٠١١م

وفي هذه المقالة ناقش الشيخ دعوى الفيزيائي هوكنز بأنه ليس هناك من حاجة لوجود الخالق سبحانه، وأن الدارونية تغني عن وجود الخالق.

٤٥) اضطراب الملحدين (٤):

مجلة البيان ٢٨٣ ربيع الاول ١٤٣٢هـ فبراير ٢٠١١م

وفي هذه المقالة تناول الشيخ اضطرابهم في العلاقة بين الإيمان ومكارم الأخلاق.

٤٦) الانتفاضات التي حيرت الغرب:

مجلة البيان ٢٨٦ جمادى الأخرة ١٤٣٢هـ مايو ٢٠١١م

وفي هذه المقالة يتحدث الشيخ عن سياسة الغرب المتوقعة مع العالم العربي بعد هذه الانتفاضات التي عمت كثيراً من بلاده والتي أيد أهدافها آخرون لم تحدث انتفاضات مثلها في بلادهم .

٤٧)الدولة الدينية والدولة المدنية:

مجلة البيان ٢٨٧ رجب ١٤٣٢هـ يونيو ٢٠١١م

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن طبيعة الدولة الدينية والتي تعتمد على نوع الدين التي هي منسوبة إليه، وعلى هذا تعتمد الإجابة عن كونها يمكن أن تكون إسلامية أو غير إسلامية ثم يذكر الشيخ معاني الدين بمعناه الواسع أو بالمفهوم العلماني أو المعنى الثيوقراطي للدولة الدينية ثم يصل للمعنى الإسلامي للدولة الدينية

٤٨) ألبراليون هؤلاء:

مجلة البيان ٢٨٨ شعبان ١٤٣٢هـ يوليو ٢٠١١م

يتحدث الشيخ في هذا المقال بأن الليبرالية صنفان: صنف أصلي مصنوع في الغرب، وصنف مغشوش يباع في العالم العربي باسم الصنف الأصلي . أصحاب الصنف الأول يبيعون بضاعة هي من صنع أيديهم فتستطيع لذلك أن تتحاور معهم وتدلُّهم على مواطن الخلل في بضاعتهم، وهي كثيرة .وقد يستمعون إليك، وقد يعترفون لك بما في بضاعتهم من عيوب ثم يحاولون تغييرها كما ظلوا يفعلون على مرِّ السنين .لكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك مع مروجي البضاعة المغشوشة؛ لأن بائعيها ليسوا أصلاء؛ وإنما هم مقلدون مزيفون لا يستطيعون ترويج بضاعتهم إلا بتسميتها بالاسم الذي اختاره المصنعون الأصلاء ودافعوا عنه وأعطوا أنفسهم حرية إعادة النظر في بضاعتهم وتعديلها وتبديلها .فالشيخ يتحدث عن هذا الصنف المغشوش الذي يباع في العالم العربي باسم الصنف الاصلي .

٤٩) نظرات نقدية في أسس الأيدلوجية الليبرالية الغربية:

مجلة البيان ٢٨٩ رمضان ١٤٣٢هـ أغسطس ٢٠١١م

وفي هذا المقال ينتقد الشيخ أساساً من الأسس الايدلوجية لليبرالية الغربية، وهو فكرة العقد الاجتماعي.

٥٠) نظرات نقدية في أسس الأيدلوجية الليبرالية الغربية:

مجلة البيان ٢٩٠ شوال ١٤٣٢هـ سبتمبر ٢٠١١م

وهذا المقال هو تكملة للمقال الذي قبله في نقد الأسس الأيدلوجية لليبرالية الغربية وقد تعرض الشيخ هنا إلى نقد الحرية بأنواعها الثلاثة (حرية الاعتقاد، وحرية التعبير، وحرية العمل) ويخلص إلى أنه ليس هنالك شيء اسمه الحرية المطلقة - سواء في التعبير أو في غيره - وأن التعبير يجب أن تكون عليه قيود تبيح ما كان منه في صالح الناس وتمنع ما كان منه في ضررهم، وأن هذه القيود لا يلزم أن تكون كلها قيوداً يعاقب القانون على مخالفتها؛ وإنما هي في أكثرها قيود اجتماعية يقوم بها بعض الناس نيابة عن الآخرين، وكلما كثر عدد هؤلاء وكانوا على الحق والخير كان ذلك في مصلحة المجتمع. ونخلص مما ذكرنا إلى الحقيقة الكبرى التي تقول :إنه لا بد للناس من هدى إلهي يهديهم إلى ما ينفعهم ويحذرهم مما يضرهم.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

ثانياً: المحاضرات

أزمة الحرية والتخلف السياسي في العالم الإسلامي

محاضرة ألقاها الدكتور ضمن محاضرات رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، ثم أما بعد: من الواضح أنه لا يوجد في عالمنا العربي قطر واحد يحكم بما يسمى بالديمقراطية، مع أن بلادنا هذه أخذت عن الغرب، الغرب الرأسمالي تأثرت به قبل أن تتأثر بالشرق الشيوعي، فأخذت عنه العلمانية في معظم البلاد، وجعلت هذه العلمانية نظاماً للحكم. ولكن السؤال: لماذا أخذت العلمانية – بمعنى فصل الدين عن الدولة – ولم تأخذ العلمانية بمعنى الديمقراطية؟

وذلك لما يأتي:

١– الذي عرفته من القرآن الكريم – وأنا أرجو من إخواني العلماء أن يعينوني على هذا ويصلحوا أخطائي، وأنا إن شاء الله مستعد لهذا؛ لأن هذه مسائل جدت علينا ونحاول أن نجتهد فيها وأن نتوخى كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ الذي تأكدت منه من كتاب ربنا ومن سنة نبينا ﷺ الذي تأكدت من كتاب الله سبحانه وتعالى أن الله لم يعط فرداً القوة على أن يحمل الناس على الخير، وكذلك لم يعط فردا القوة على أن يجبرهم على الباطل. لم يعط هذه القوة ولا للأنبياء ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]. والشيطان لما قضي الأمر قال: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وهو صادق في

ذلك. وأكبر دكتاتور حدثنا عنه القرآن هو فرعون، فما قال لنا القرآن الكريم إن فرعون تسلط على أمة مسكينة طيبة، وأن المشكلة كانت فيه، ولكن علمنا أن سبب طغيانه أن هؤلاء الناس أطاعوه، وأنه ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فهم مشتركون في جريمة فرعون، لكن هذا لا يعني – قد يشكل على بعض الإخوان فيقولون هل معنى هذا أن الشعوب هذه تحب الطغاة الذين يحكمونهم وتوافق على سجنها لهم وضربها لهم وإذلالها لهم؟ لا ولكن الحكام يكونون من نوع المحكومين، فيكون في الناس ظلم ويكون فيهم جهل ويكون فيهم بعد عن طريق الله، فيسلط الله سبحانه وتعالى هذا النوع من الحكم على الناس عقاباً لهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. كثير من الناس – حتى من عامة الناس يتمنى لو كان في مكان صدام، فهو لم يوصله الله إلى مكان صدام ولكن يتمنى، بل رأيت بعض الإسلاميين يقول لي والله هذه الشعوب لا تمشي إلا بالقوة ! فقلت له: إذن صدام محق!! كثير من الناس تصوراتهم واعتقاداتهم مثل تصورات حكامهم.

٢ – أن هذا التفسير لا يتناسب مع الإسلام أن الله سبحانه وتعالى رحيم، فلا يمكن أن يسلط على أمة طيبة مؤمنة تريد الإسلام لا يمكن أن يسلط عليها حاكماً بعد حاكم لمدة من الزمان وفي كل بلادها.. حاكماً متمرداً على دين الله، داعياً إلى الجاهلية لا يمكن أن يكون هذا، فهو عدم ثقة بالله، فهو سبحانه أرحم وأحكم من أن يفعل هذا بأمة من الأمم.وإذا كان الله عز وجل يقول: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) فكذلك لا يمكن أن يجعل الله للفجار والفساق على المتقين سبيلا، وإذا حدث ذلك، فإن ثمة خللاً في الأمة. هذه مسألة ينبغي أن نكون شجعاناً في مواجهة الأمة بها، وينبغي إذا تصورناها تصوراً صحيحاً أن نعمل على الإصلاح في أمتنا، ولا أقول لا نعمل على عدم الإصلاح السياسي ولكن لا نتأثر بهذه الفكرة وهي بالمناسبة فكرة غربية، فكرة غربية عند الشيوعيين وعند البلاد الرأسمالية، فتجد كثيراً هنا في أمريكا من السياسيين في أمريكا – سمعتهم بنفسي – يقولون: الأمة

الأمريكية تريد كذا.. يقول كل واحد رأيه، ولكنه ينسبه إلى الأمة كأنما هناك شيء مثل الإله اسمه الأمة الأمريكية، ويجب أن لا تخالف ما تقوله هذه الأمة، فالافتراض دائما أن الأمة دائماً على صواب، وأن الأفراد الذين يحكمون هم المخطئون افتراض خاطئ.

إذا لم يكن هذا هو التفسير الصحيح، فما هو التفسير إذن؟

سأجتهد في ذلك، وهي وجهة نظر أحب أن اسمع رأيكم فيها.

لماذا لم يختاروا الديمقراطية؟ في رأئي أن للديمقراطية – بهذا الشكل الغربي – شروطاً فإذا لم تتحقق هذه الشروط، فلن تتحقق الديمقراطية، وهي:

١– أن تكون الأمة ممثلة في أحزابها متفقة على إطار عام، سواء كان إطاراً فكرياً أو اقتصادياً أو خلقياً، ومهما اختلفت هذه الأحزاب فإنها لا تخرج عن هذا الإطار، ولا يؤثر تغيير هذا الحزب أو ذاك في الإطار العام بحيث أنه إذا جاء هذا الحزب أو ذاك الحزب لا يؤثر مجيء هذا أو زوال ذاك في الإطار العام فهنا يمكن أن يكون هنالك تسامح مثل العمال والمحافظين في بريطانيا والجمهورين والديمقراطيين في امريكا، فالحزبان وجهان لعملة واحدة، ولذا فالانتخابات في أساسها ليست على المبادئ والمواقف وإنما على الشخصيات. إذا لم يتحقق هذا في شعب من الشعوب سواء أكان اسلاميا أو غير إسلامي لا يمكن أن تكون ديمقراطية إذا كان هنالك أمة تحكم بالديمقراطية الغربية ونشأ فيها حزب شيوعي وقوي هذا الحزب الشيوعي بحيث أنه إذا ترك له المجال سيفوز في الانتخابات هل يرضى الباقون ؟ مايرضون وسيكونون مستعدين للتضحية بالديمقراطية لئلا يأتي الشيوعيون وهم محقون في هذا قيل للفيلسوف البريطاني برتراند رسل إلى أي حد تتسام مع الشيوعيين قال: ما لم يصلوا إلى الحكم. فقيل له: لماذا؟ فقال: لأن الديمقراطية حينئذ تكون مغفلة، فهي قد هزمت نفسها بالانتخابات وبالتصويت تهزم الديمقراطية المبنية على التصويت.وأقول لإخواننا المعجبين بالديمقراطية الأمريكية – وفيها ما يعجب بلا شك – إذا قوي الإسلام في هذه البلاد وصار عدد المسلمين بحيث أنه يحتمل أن يكون رئيس أمريكا منهم، فصدقوني أنهم سيضحون بالديمقراطية لئلا يأتي حاكم مسلم.

اضرب لكم مثلاً من بلادي السودان: السودان من أكثر البلاد التي ظلت تحاول ترجع إلى الديمقراطية بعد كل فينة وأخرى، آخر تجربة كانت تجربة الصادق المهدي فهو جاء إلى الحكم والذين ساعدوه في ذلك طلبوا منه أن يلقي القوانين الإسلامية، لكن الرجل جاء بالانتخابات وهو رجل ملتحٍ وجماهيره جماهير متدينة، فلا يمكن أن يذهب ويقول لهم في الانتخابات أنا لا أريد الشرعية الإسلامية، وكذلك سموه قوانين سبتمر وهو الشهر الذي وضعت فيه. فهو ما استطاع أن يفعل هذا لا في أيام الانتخابات ولا بعد الانتخابات، ثم إن الجبهة الإسلامية حظيت بمقاعد لم يحظ بها حزب إسلامي في العالم العربي حوالي خمسين مقعداً، وكان الحزب الحاكم له مائة وقليل والحزب الذي يليه ستون، وبعد مدة من الزمان تكونت حكومة رئيسها الصادق المهدي وفيها الحزب الثاني وفيها الحزب الثالث الذي هو الجبهة الإسلامية يعني لم يبق في البرلمان إلا أعداد قليلة ليس لها صوت في داخل الحكومة. ماذا حدث؟ قائد الجيش أرسل مذكرة إلى رئيس الوزراء ينذره فيها أنه إن لم يوسع دائرة حكومته فإن لهم معه شأن، وحينذاك كنت غائباً عن السودان فقلت: الآن انتهت الديمقراطية في السودان لأنه لا ديمقراطية إذا كان قائد الجيش يهدد رئيس الوزراء وفعلاً انصاع رئيس الوزراء وخفية قيل له: إن المراد بالتوسيع هو أن تخرج الجبهة. وفعلاً خرجت الجبهة وأتي ببعض اليساريين وغيرهم إلى الحكم هذه الواقعة اقتنعت كل إنسان يريد الإسلام في السودان بأن طريق الديمقراطية مغلق أمامه وأقول لكم: إن كثيراً من السودانيين الإسلاميين كانوا فعلاً يريدون أن يصلوا إلى الحكم بالطريقة الديمقراطية -وأنا ما كنت منهم- لكن على كل حال إحقاقاً للحق أن كثيراً منهم كانوا يريدون هذا، وما اقتنعوا إلا بعد هذه الحادثة التي كان فيها في الحقيقة نوع من الإذلال للجبهة الإسلامية، ونوع من الظلم الواضح عليها.

هذا القائد تبين فيما بعد بأنه كان يعد لانقلاب علماني بالمعنى التقليدي، وكان هناك جماعة شيوعية تعد لانقلاب وكان هناك بعثيون يعدون لانقلاب حتى إنهم حاولوا ذلك حتى بعد مجيء الحكومة الحاضرة، ولكن لحسن الحظ كان هناك

إسلاميون فرأوا أن إخوانهم هؤلاء المدنيين حيل بينهم وبين الوصول إلى الحكم ويعرفون في الجيش أن هذه جماعة شيوعية تريد الوصول إلى الحكم وهذه جماعة بعثية تريد الوصول إلى الحكم، فبادروا هم أولاً.

فالانقلاب لا كما يقول الغربيون: أنه كان انقلاباً على الديقمراطية وإنما هو كان انقلاباً على انقلابات أخرى سوف تحدث، بل يقال إن انقلاب قائد الجيش كان سيكون في يوم السبت، وهؤلاء جعلوا انقلابهم في يوم الخميس وقد استفادوا من بعض التحضيرات التي أعدها القائد لأنه كان يثق ببعضهم وأخبره بالانقلاب، إذاً من الأسباب التي ساعدت على هذا وأنا أقول هذا درس لإخواننا. أنا لا أقول لكم لا تحاولوا الديمقراطية ولا كذا، ولكن يقولوا بأن التغيير إلى الإسلام أو غير الإسلام لا يمكن أن يكون تغييراً إلا أن تحدثه القوات المسلحة، أو أن تحرسه القوات المسلحة، فإذا كانت القوات المسلحة ليست معك فأنت في خوف دائم، ويمكن أن ينقضوا عليك مهما كانت الأغلبية التي جئت بها.

ومن الأشياء التي ساعدت السودان، أن النميري جزاه الله كل خير من أهم الأشياء التي عملها أنه أصلح المؤسسة العسكرية، فالمؤسسة العسكرية في كثير من بلادنا هي أكثر المؤسسات علمانية، وفيها من الفجور والبعد في السلوك الشخصي عن الخلق الإسلامي ما فيها، فالنميري هذا هو الذي أصلح المؤسسة العسكرية وبنى فيها المساجد وصار يختار بعض الضباط ويرسلهم إلى بعض المعاهد الإسلامية لكي يمكثوا سنة كاملة، وهؤلاء الذي جاؤوا إلى الحكم بعضهم من هؤلاء الذي رباهم النميري، فهذا هو إذاً السبب الاول.

فالسبب الأول: هو إنه إذا لم يكن هنالك إطار الأمة متفقة عليه والأحزاب كلها تعمل فيه فلا يمكن أن تكون ديمقراطية، وإذا كانت فلا يمكن أن تدوم؛ لأنه سوف تتقلب عليها بعض القوى الأخرى وهذا السبب الأساسي في رأيي.

السبب الثاني: المقدرة على الاستقلال لاسيما الاستقلال الاقتصادي، فالدولة إذا كانت فقيرة فالانتخابات فيها تكون مهزلة فلا يكون الذين يأتون إلى الحكم هم الذين اختارتهم الأمة ولكن هم الذي اختارتهم هذه الدولة المجاورة أو تلك الدولة

المجاورة أو تلك البلد الرأسمالية البعيدة أو تلك البلدة الشيوعية الغريبة لأن الانتخابات كما تعلمون تحتاج إلى تمويل، فالذي يمول هو الذي يأتي إلى الحكم هذا إذا كانت البلد ضعيفة. حتى قال لي بعض الإخوان المصريين مرة وهو يمزح وقد ذهب إلى السودان أيام الانتخابات قال لي: والله لو أردتم أن تصلحوا أحوال السودان الاقتصادية فاعملوا الانتخابات كل سنتين؛ لأني رأيت من الأموال التي جاءت إلى السودان الشيء العظيم وأيضا إذا كانت البلد غنية اقتصادياً لكنها ضعيفة من نواحٍ أخرى أمنية وعسكرية أيضا تؤثر فيه الدول الكبيرة، ولهذا يقولون إن أمريكا تؤثر في بعض الانتخابات حتى في الدول الغربية.

السبب الثالث: هو تأثير الحركة الشيوعية، فالحركة الشيوعية في أيام الحرب الباردة كما تعلمون كانت كل من الدول العظمى تحاول أن تجمع إلى حزبها أو كتلتها أكبر عدد من الدول، وهذه الدول استطاعت عن طريق أحزابها الشيوعية وعن طريق إغراءاتها أن تعين بعض الناس لأن يأتوا إلى الحكم فهي عملت على الحيلولة دون الديمقراطية من ناحيتين:

١) من الناحية الفكرية فقد أعطت الذي يريدون الدكتاتورية مادة فكرية في نقد الغرب والماركسيون اجتهدوا جداً في نقد الغرب الرأسمالي وكثير من نقدهم صحيح فإذا قرأه الإنسان وقيل له ما الديقمراطية؟ لا يمكن أن يأتي إلى الحكم إلا إنسان غني وهذا صحيح ما الديمقراطية؟ هؤلاء الذين يأتون إلى الحكم تمولهم الفئات رجال الأعمال، فلذلك يعملون لمصلحتهم. ما لديمقراطية؟ الديمقراطية ينبغي أن تكون هي الديمقراطية الاقتصادية، فإذا لم تكن ديمقراطية اقتصادية فلا معنى للديمقراطية السياسية، والديمقراطية الاقتصادية هي أن يكون كل هؤلاء الناس يشتركون في هذه الثروة وهكذا أعطوا الحكومات هذه الأنظمة الدكتاتورية مادة فكرية وأعطوهم إلى ذلك مثلاً يحتذى وهذه مشكلتهم الآن، أن المثل قد ذهب فيقول الواحد منهم في نفسه، نعم يمكن أن نكون دولة حديثة، ودولة معاصرة وقوية من غير أن تكون ديمقراطية، فهذه روسيا ليست ديمقراطية وهي دولة ترهب أمريكا وهذه الصين وهذا كذا فهنالك إذًا مثل يحتذى به.

السبب الرابع: وهو سبب أساسي وهو عدم إيمان الناس بالديمقراطية في بلادنا فالديمقراطية بشكلها الغربي لا يؤمن بها الناس لأنه ليس لها جذور في البلاد، لا في التاريخ ولا في فكر المفكرين من العرب، ولا من المسلمين وليس لها جذور في دينهم، فهي ليس مرتبطة ارتباطاً قوياً بمشاعر الناس ثم هي مرتبطة في الغرب بالرأسمالية والناس لا يريدون الرأسمالية وهي كذلك مرتبطة بالإباحية والناس لا يريدون هذا وهي ترتبط بالعلمانية حتى أن كثير من الغربيين أنفسهم لا يتصورون الديمقراطية إلا ومعها العلمانية فهذه الاسباب جعلت الديمقراطية إذا ذهبت لا يبكى عليها وكثير من الناس يتحدثون عن الجوانب السلبية في الأحزاب وتنازعها وتفريقها لأهل البيت الواحد وكذا. لكن إذا لم تكن ديمقراطية بالمفهوم الغربي فهل البديل هو النظام القهري؟ لا يمكن أن نقول أن هذا النظام هو النظام ذو الجذور في العالم الإسلامي، وفي فكر الناس أو في دينهم أو في تجربتهم ونحوه لا يمكن أن نقول هذا لأن النظام القهري إذا لم يكون إسلامياً فهو مرفوض لأنه إذا لم يكن إسلامياً فلا نقبله سواء كان قهرياً أو ليس قهرياً. وهل يمكن أن يكون إسلامياً وقهرياً. حتى إذا افترضنا هذا فنقول إنه بقدر قهريته يفقد شيئاً من إسلاميته، فمشكلتنا إذاً ما النظام الذي نريد؟ ما القيم السياسية التي ندعو إليها ؟

كثيراً ما نقول إن الحل هو الإسلام. ماذا يعني الحل هو الإسلام! مشكلة أمامي ميكرفون خربان الحل الإسلام طيب كيف أحله بالإسلام؟ تقول الحل هو أفعل كذا كذا، فمشكلة العراق والكويت نقول الحل هو الإسلام كيف؟ ماذا أفعل حتى أحل المشكلة، انتظر حتى تأتوا أنتم إلى الحكم وتحكمون ثم تحل المشكلة؟ ما معنى الحل الإسلامي؟ لا بد أن نوضح فإذا قلت لي إذا كنت مؤمناً أعبد بالطريقة الإسلامية، فأقول لك نعم ولكن ما هي الطريقة الإسلامية فلا تقل لي أعبد بالطريقة الإسلامية ثم تسكت، ولكن تقول لي: صل الصلوات الخمس والصلوات الخمس تؤدي في الأوقات الفلانية وركعاتها كذا وكذا وصفتها كذا وكذا وتصوم والصيام هو كذا وكذا فنحن نريد شيئاً من هذا بالنسبة للنظام السياسي، فلا يكفي أن نقول نريد نظاماً إسلامياً فقط، ولا يكفي أن ننتقد الديمقراطية ولا يكفي حتى أن

نقول نريد الشورى لأنه ما الشورى؟ وكيف نريد أن نطبقها. أنا لا أريد أن أسأل أسئلة تعجيزية، كلا وإنما أريد أن نستفيد من هذا فائدة إيجابية نريد أن نجتهد بدلاً أن يكون كلامنا كله منصباً على النقد، ونصور للناس ولأنفسنا أن الحل يسير وهو أن يذهب هذا الحاكم أو ذاك الآخر، وكل الأمور بعد ذلك ستصبح حليباً وعسلاً، لا ينبغي أن نواجه المشكلات كما هي وأقول لكم بأني اشتركت قريباً في ندوة في السودان وهؤلاء الشباب العساكر في السودان الآن يريدون الحكم بالإسلام، فأول ما واجههم هو النظام السياسي. فالنظام السياسي الإسلامي في ظروفنا هذه وكيف يكون؟ وظلوا يتناقشون ويتناقشون وكتبت مذكرات وما زال الناس يتناقشون فينبغي إذاً أن نبذل جهداً في هذا فإذا قلت لي أحكم بالإسلام فسأقول لك ما الحكم بالإسلام؟ تقول لي طبق الحدود فأقول لك هذه واضحة إن شاء الله نجتهد ونطبقها، وبالمناسبة أيضا من الأشياء التي ما أريد أن تكون سمة للحركة الإسلامية وأراها مهمة، أن لا تتصرفوا أيها الإخوة في أي بلد من البلاد وكأنكم حزب معارضة في بلد ديمقراطي لأن حزب المعارضة دائماً ينتقد الحكومة مهما عملت إلا وهو مضطر لماذا؟ لأنه يريد أن يقول أنا الحل، إذا جئت أنا ستحل المشاكل فنحن لا نريد أن نقول هذا، بل نحن نريد أن نقدم للناس حلولاً حتى لو قبلوا منها الآن شيئاً قبل أن نأتي نحن إلى الحكم فهذه خطوة إلى الأمام، ولأننا مأمورون بالإصلاح حتى ولو كنا في بلد كافر، فلو جاءكم الآن بعض الأمريكان وقالوا لكم تعالوا ساعدونا في محاربة المخدرات أو الإيدز ونحوها فساعدوهم إن استطعتم إلى ذلك سبيلا، لأننا مأمورون بالإصلاح وكل خطوة نحو الإصلاح هي خطوة نحو الإسلام نعود إلى ما سبق، فكان إخواننا في السودان يشددون على مسألة الحدود فقلت لهم في إحدى زياراتي: يا أخوان نحن طول حياتنا نقول للناس الحدود ليست هي الإسلام كله، والإسلام فيه كذا وكذا ونحوه فلماذا الآن جعلتم الإسلام في أذهان الناس كأنه الحدود فقط وهذه الحكومة لا تستطيع أن تنفذ الحدود، فقالوا نحن نعرف ولهذا نقول لهم: نفذوا الحدود. قلت لهم: قولوا لهم إذا بأن يدعوا الناس إلى الصلاة وهذه سهلة ومهمة، فالحكومة إذا اهتمت بالصلاة وقالت للناس: أخرجوا في أوقات الصلاة ونحو ذلك كما يفعل في السعودية فإن

هذا فيه خير كثير، والحكومة تستطيع أن تفعل هذا بل ستفرح بأنها نفذت شيئاً من الإسلام، فقالوا: لا، المحك هو الحدود، ونحن نعرف أنها أصعب شيء، ولكن الذي لا يقبل تطبيق أصعب شيء هذا لا يريد الإسلام، وجاءت هذه الحكومة وهي حكومة يؤيدها الإسلاميون، والآن لها أكثر من عام لم تطبق الحدود، لا لأنها لا تريد ذلك ولكن لأنها لا تستطيع، والأحزاب الآن يضحكون ويقولون هاه أين الحدود، وأنا أرجو الله تعالى أن لا يحدث لهذه الحكومة الآن شيء، لأنه إذا حدث لها شيء وعادت العلمانية فإنه لن تطبق الحدود أبداً، وسيكون الحجة دائماً إلى مائة سنة بعد ذلك هاه جاءت الجماعة الإسلامية، وما استطاعوا أن يطبقوها هل تريدوننا نحن أن نطبق الحدود. فالحدود واضحة الزكاة واضحة ومنع الربا واضح وأن كان فيه بعض المشكلات، لكن المشكلة ستأتي في النظام السياسي فما عندنا فيه إلا عمومات، وما عندنا فيه تفاصيل وما عندنا فيه تصور لمؤسسات ونحن لنا بعض العذر في هذا، فنحن عندنا مبادئ وهذه المبادئ طبقت في عصور سابقة فأخذت أشكالا معينة ولا يمكن أن نكتفي بهذه الأشكال في هذا الواقع الذي نراه الآن، فنحن محتاجون أولاً: إلى أن نبين ما معنى الشورى؟ وما الفرق بينها وبين الديمقراطية من حيث المفهوم؛ لأن المؤسسات إنما تأتي لتخدم الأهداف والمفاهيم هذه، فإذا لم تكن الصورة واضحة في أذهاننا وكانت الشورى تساوي الديمقراطية فما نكون قد اقتربنا من الإسلام.

***

الحضارة المعاصرة في الميزان

محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في كلية الدعوة والإعلام بالرياض بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (ضمن برنامج الطلبة المبتعثين للدراسة في خارج المملكة)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. وبعد:

المقصود بالحضارة هنا الحضارة الغربية، وإطلاق كلمة المعاصرة عليها توضح لكم عظم المشكلة؛ لأنه إذا قلنا الحضارة المعاصرة فمعنى ذلك أننا نعني الحضارة الغربية، فنريد أن ننظر إلى هذه الحضارة نظرة ناقدة، ولذلك قلنا إنها في الميزان لكن عندما تريد أن تزن شيئاً فينبغي أن يكون البائع والمشتري متفقين على الميزان وإلا إذا كان البائع يزن بميزان لا يوافق عليه المشتري فلا يصلح الوزن، لذلك سنجعل الميزان شيئاً متفقاً بيننا وبين الغربيين والشيء المتفق بيننا وبين كل إنسان ما دام محتفظاً بإنسانيته وبعقله هي الموازين العقلية مثلا، فالموازين العقلية يتفق عليها كل الناس، وكذلك الأشياء الواقعية الحسية يتفق عليها الناس، وكون الشيء فيه مصلحة أو ضرر للإنسان خصوصا إذا كانت الأضرار أيضا حسية ومعروفة، بمثل هذه الموازين نريد أن نزن الحضارة الغربية لكن قبل أن نزنها نريد أن نبين أو ما هو هذا الشيء الذي نريد أن نزنه وربما نزن محتوياته واحداً تلو الآخر، أو بعد أن نبينها جميعاً نزنها مرة واحدة فما هي مكونات الحضارة الغربية، إذا حللنا الحضارة الغربية إلى مكوناتها فما هي هذه المكونات، حاولت أن أضع بعض المكونات، وربما أكون قد نسيت بعضها في وقت الأسئلة والتعليقات يمكن أن تضيفوا إلى ما ذكرت أو تنتقدوا بعض ما ذكرت.

أولاً: العلوم الطبيعية هذا أكثر ما تفخر به الحضارة الغربية العلوم الطبيعية، وهذه العلوم الطبيعية تتكون من ثلاثة أشياء؛ تتكون من حقائق عينية الشيء الفلاني اكتشف، وهذه الحقائق العينية الجزئية قد تكون حقائق طبيعية، وهي موضوع حديثنا، وقد تكون حقائق اجتماعية، يكتشف الأمريكان أو الفرنسيون أو الألمان شيئاً عن الحياة الاجتماعية للإنسانية أو قد تكون حقيقة رياضية هذه أيضا حقيقة ليست حسية ولكنها مسألة يدل عليها العقل فهذه إذا وزناها بميزان العقل يقول لنا

اقبلوها ماذا تريد؟ كيف تنكر حقيقة ثبتت لك أنها حقيقة واقعية طبيعية أو حقيقة اجتماعية أو حقيقة رياضية هذه لا يرفضها عاقل، ثم هنالك بعد الحقائق الجزئية قوانين اجتماعية تفسر هذه الحقائق هذه القوانين أيضا معيارنا في تقويمها هو معيارهم هم، وهو أنها تعتبر صالحة كلما نجحت فيما طلب منها لأن كل قانون يطلب منه أن يفسر مجموعة من الجزئيات هذه التي اكتشفناها نحن نكتشف جزئيات أو نراها مشاهدة، ولكن نريد أن نفسرها، فكلما نجح القانون في تفسير الظواهر التي طلبنا منه أن يفسرها كلما كان أحسن، وكلما اكتشفنا ظواهر تدخل في هذا النطاق وعجز عن تفسيرها كلما كان أسوأ، وربما نستبدل به قانوناً آخر، فهذا أيضا لا مشكلة فيه، ثم هنالك نظريات والنظريات بتفسير من التفاسير هي درجة بعد القوانين وهي التي تفسر القوانين نفسها، وهذه النظريات ثلاثة أنواع: هناك نظريات ثبت بطلانها مثلا نظرية الأثير وسمعت قريباً أن بعض العلماء الأستراليين عادوا إليها مرة أخرى، لكن كان من الأشياء المشهورة أن نظرية الأثير أو مثلا إذا أخذنا النظريات القديمة جدا التي تجدونها حتى في الكتب الإسلامية، والناس متأثرون بها نظرية العناصر الأربعة، تذكرون ماهي العناصر الأربعة عند القدماء الماء والنار والتراب والهواء، فكانوا يظنون أن كل الأشياء المادية في النهاية تتكون من هذه العناصر الأربعة، وهذا أثر في التفكير جدا حتى في التفكير الإسلامي وبني عليه كثير من التفسيرات الطبية مثلا يقول لك في الطب القديم تأكل تمر مع العجور لأن التمر طبيعته حارة والعجور طبيعته باردة، فهذا ماء وهذا نار، فالتفسير دائماً يبنى على النظريات هذه، فالنظرية الباطلة باطلة، هم يقولون إنها باطلة نحن نقول أيضا إنها باطلة، هنالك نظريات، نعم البطلان سنتدخل فيه قليلاً باعتبارنا مسلمين النظرية هم معيارهم للبطلان بالنسبة للنظرية أن لا تنجح في تفسير القانون الذي طلب منها أن تفسره ومعيارنا نحن نقبل هذا المعيار لكن نضيف إليه معياراً آخر وهو السبب فيه أنهم يعتقدون أن المصدر الوحيد للمعرفة هو هذا الكون أو ما جبل عليه الإنسان في عقله نحن نضيف إليه مصدراً آخر نستقي منه المعرفة وهو الوحي، الآن لابد أن نناقشهم في هذا لأنهم قد يقولون كيف تستدلون على أن الوحي مصدر لابد أن نثبت أولاً أن هنالك

إله، وأن هذا الكلام هو كلام الله حتى نثبت أنه مصدر للمعرفة لكن لا نناقش هذا الآن نحن باعتبارنا مسلمين إذا وجدنا نظرية تناقض أو تختلف مع شيء ثبت لنا قطعاً أنه حق ثبت لنا بحديث صحيح أو بقرآن نعرف معناه، وأقول هذه المحاذير يعني تلاحظون أن كلماتي فيها بعض الحذر وذلك لئلا يعجل الإنسان، ما كل آية في القرآن وكل آية ثابتة وهذا ما فيه إشكال لكن ما كل آية في القرآن نحن قاطعون متأكدون من معناها نحن نقطع بمعاني كثير من الآيات لكن بعضها يظل معناها بالنسبة لنا فيه شك قال شيخ الإسلام ابن تيمية في التوفيق بين العقل والشرع أو العقل والنقل أو يمكن أن نقول الآن العقل والعلوم الطبيعية أو الاجتماعية أو كذا قال إذا كان الأمران قاطعين فلا اختلاف لا يمكن نحن متأكدون أن الله سبحانه قال هذا ومتأكدون أن هذا هو الواقع الذي دل عليه العلم والتجربة والمشاهدة، فهذان لا يمكن أن يختلفا أبداً؛ لأن هذا كلام الله وهذا خلق الله، فالذي خلق هذا هو الذي قال الكلام، فلا يمكن أن يقول خلافه إذا كان هنالك خلاف، فمعنى ذلك أن أحدهما ظني والآخر قطعي أو أن كليهما ظنيان، إذا كان أحدهما قطعياً والآخر ظنياً. قال نقدم القطعي بغض النظر عن كونه هو الوحي، أو كونه هو العقل والحس، مثلا نحن الآن نقطع بأن الأرض كروية؛ شكلها كروي، هذه أصبح لا شك فيها فإذا كانت هنالك آيات في القرآن الكريم كنا نفهم منها أو نظن أن معناها أن الأرض شكلها مسطحة فالآن نقدم هذه الحقيقة القاطعة، ونفسر بها الآيات التي كان تفسيرها بالنسبة لنا ظناً والعكس أيضا إذا كان هنالك أمر نقطع بأنه من القرآن الكريم ونعرف معناه أو من السنة الصحيحة وهنا فيه شك فنقدم اليقيني ماذا نفعل إذا كانا ظنيين قال نقدم أكثرهما رجحاناً يعني وهذه مسألة طبعا سيختلف فيها الناس قد يترجح عند إنسان مالا يترجح عند آخر حسب ما عنده من العلم والتفكر وكذا، فإذا بالنسبة للنظريات لابد أن نقيسها بهذا المقياس وهذا يوضح لكم أننا ينبغي أن لا نطلق الكلام العام تسمعونه عند كثير من الناس يقول لك العلم يتغير والدين لا يتغير فإذاً لا نفسر أي شيء ديني بشيء علمي ما هو العلم الذي تغير إذا نظرنا إلى هذه المكونات الحقائق الجزئية لا تتغير إذا اكتشفنا أن الأرض كرة فهي كرة إذن ما الذي يتغير إلا

أن يغير الله شكلها فيظل أيضا اكتشافنا صحيحاً نقول حتى عام ١٤٠٧هـ، وإلا ٦ كانت الأرض كرة ثم صارت مكعبة، فالاكتشاف العلمي ما تغير وإنما تغير المعلوم فإطلاق الكلام بأن العلم يتغير كلام غير صحيح، النظريات تتغير نعم وتغيرها بطيء ليست تتغير كل عشر أعوام، ولذلك لا محيد من أن نتأثر بهذا العلم الذي نكتشفه لا يمكن لإنسان مثلا عالم فيزياء أو عالم طبيعة أو طبيب أو مهندس أو فيزيائي أو كذا أو كذا أو عالم اجتماع يقرأ القرآن الكريم ويتأمل فيه ويعمل في هذا المجال الذي تخصص فيه، ويكتشف هنا حقائق ويتعامل معها ويقرأ في القرآن الكريم كلاماً له علاقة بهذا، ويقول لا هذا دين وهذا علوم أنا لا أربط لا يمكن أن يفصل دماغه نصفين فيجعل هذا للدين وهذا للعلوم الطبيعية أو للعلوم الاجتماعية، هو بشر هو شيء واحد والقرآن الكريم ما جاء فقط لناحية من نواحي الحياة، نعم إنه كتاب جاء للهدى ولكن الهدي والهدى يقتضي أن يتعرض لبعض المسائل الدنيوية وبعض المسائل الفلكية الكيماوية الطبيعية هكذا فلا يمكن أن نفصل هذا عن ذاك ثم بعد العلوم الطبيعية هنالك علوم اجتماعية تشمل علم الاقتصاد والسياسة وعلم النفس والجغرافيا والإدارة واللغات وما أشبه ذلك، فهذه نسير عليها بنفس الطريقة ما كان حقائق نقبله حقائق مكتشفه يعني هنالك في علم الاقتصاد وعلم الاقتصاد كسائر العلوم الطبيعية يتكون من بعض الحقائق مثلاً العرض والطلب هذه حقيقة أنه إذا كثرت السلعة في السوق قل ثمنها هذه حقيقة ويعرفها الناس منذ القدم حتى هنالك كلام لعمر بن عبد العزيز -رحمه الله- جعلها حتى نظرية سياسية قال الحاكم كالسوق ما راج فيه جلب إليه يعني لا تقل لي إن الحاكم رجل طيب لكن بطانته سيئة، فالحاكم كالسوق لولا أن هذا هو الذي ينفع معه لما جاءه فإذاً هنالك بعض الحائق، أو في السياسة هنالك سياسة وصفية تقول حدث في فرنسا كذا كذا وحدث في إنجلترا كذا كذا حدث بالنسبة لتهريب بيع الأسلحة لإيران كذا حقائق فهذه لا ينكرها عاقل، وكذلك بالنسبة لعلم النفس أيضا هنالك حقائق يكتشفها العلماء لكن كمية النظريات والآراء الفلسفية وكذا في العلوم الاجتماعية هي أكثر منها في العلوم الطبيعية وسنجيء إلى هذا إن شاء الله.

ثم هنالك التقنية والتقنية مبنية على هذين العلمين على مكتشفات العلوم الطبيعية وعلى العلوم الاجتماعية لأن التقنية ليست أشياء جامدة فقط، وإنما يدخل فيها أيضا الوضع الاجتماعي والإدارة ونوع الناس الذين يعملون فيها وكل هذا يقتضي تدخلا من العلوم الاجتماعية، ثم هنالك الآداب والفنون والعادات والتقاليد، ثم هنالك الفلسفات والأديان، ثم هنالك القيم الخلقية وأنا مررت عليها مرورا عابرا وسأتكلم عنها في النهاية. القيم الخلقية أيضا هنالك قيم إنسانية إذا كان الإنجليزي صادقاً لا نقول إنه كاذب لأنه كافر، هنالك قيم جمالية إذا كانت هناك فتاة جميلة لا نقول إنها قبيحة لأنها مشركة نقول جميلة لكنها مع الأسف مشركة، فهذا لا دخل له في هذا، ينبغي أن نعترف بالحقيقة كما هي بعد هذه العلوم والتصورات هنالك واقع هذا الواقع يتمثل في الأوضاع ولا أعني العلوم هنا الأوضاع الاقتصادية الأوضاع السياسية الأوضاع الاجتماعية، مثلا الأوضاع في روسيا تختلف عن الأوضاع في أمريكا بعض الأوضاع في أمريكا تختلف عنها في أوروبا وهكذا، ثم لهم مصالح هؤلاء الغربيون باعتبارهم غربيين لهم مصالح مصالح مادية مصالح استراتيجية لهم أطماع توسعية وهكذا، نأتي الآن إلى السؤال هذه الحضارة المعروضة أمامنا نريد أن نأخذ منها نعتبرها سوبر ماركت فيه هذه الأشياء ماذا نأخذ منها وماذا ندع؟ نحتاج إلى معيار وإلى ميزان يقول لنا هذا خذوه وهذا دعوه. فقلت إذا أردنا أن نزن بميزان موضوعي ونقول للغربيين إن هذا الذي لا يصلح معنا لا يصلح معكم أنتم أيضا فلا بد من أن يكون الميزان متفقا عليه بيننا وبينهم. لكن دعونا الآن في البداية أن نزن لأنفسنا نحن المسلمين دخلنا هذا المتجر هذا محل البيع فنريد أن نأخذ منه ما يصلح معنا، سنقيس بالمقاييس التي ذكرناها بالإضافة إلى ما أرشدنا إليه الوحي في كتاب الله، أو في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، الناس وقفوا من الحضارة الغربية ثلاثة مواقف: موقف كان موقف الارتياب والرد الكامل، هذا لم يعد الآن موجوداً الذين قالوا إن هذا جاءنا من الكفار وكل ما جاء من الكفار فهو كافر وفيه شك فرفضوا كل شيء هذا كما قلت لم يعد موجوداً ولم يعد ممكناً حتى، الإنسان مهما كان منعزلاً الآن في مكان نائي من الأرض لا يمكن إلا أن يأخذ شيئاً من الغرب، ما يستطيع فكروا في الملابس التي

نلبسها نحن الميكرفون الذي نستعمله وغيرها كل هذه الأشياء من الغرب الذين قالوا نأخذ كل شيء والذين قالوا هذا لم يكونوا من عامة الناس بل كان بعضهم ساسة وزعماء كبار وبعضهم مفكرون ومصلحون اجتماعيون، فيروى عن أتاتورك أنه قال وأنتم تعرفون أنه جعل تركيا بلداً غربياً وغير اللبس، فقال: نأخذ من الغربيين كل شيء حتى الديدان التي في بطونهم، ما هو السبب في هذا وهذه حجة مؤثرة جدا حتى ولو لم نقلها بهذه الطريقة كثيرون منا متأثرون بها ما سببها يقول الإنسان لنفسه مادام هؤلاء قد تقدموا هذا التقدم المادي الباهر الذي جعلهم يستعمروننا وجعلهم حتى إذا لم يستعمرونا هم أقوى منا ونحن نحتاج إليهم ونخاف منهم فلابد أن كل ما عندهم أحسن مما عندنا، ولكن هذا -كما قلت في مقال كتبته قبل ذلك- هذا كإنسان مثلا يحب الرياضة ويقول أنا أريد أن أكون كماجد عبد الله ثم ينظر كيف يسرح ماجد شعره فيسرح بطريقته ماهي الألوان التي يلبسها فليبس كما يلبس هل يكون رياضيًا ركز على أشياء لا علاقة لها بالموضوع، فبعض الناس أيضا يريد أن يكون إنساناً متحضراً فينظر ماذا يلبس الغربيون لبسوا جينز نلبس جينز عملوا سلاسل في الرقبة نعمل سلاسل، وأما الأشياء الحقيقية التي ساعدت الغربيين على هذا التقدم ما عندهم منها نصيب، والغربيون ما تقدموا بالسلاسل التي في رقابهم ولا بالجينز الذي يلبسونه ولا بالرقص ولا بالخمر لكن هكذا يكون البشر ضعفاء وهذه حقيقة معروفة منذ القدم، ويعزى الكلام فيها إلى ابن خلدون، فقال إن المغلوب مولع بتقليد الغالب يقلده حتى يعتبر أن لغته أحسن من لغته وأن دينه أحسن من دينه، ونظرته إلى الحياة أحسن من نظرته لا يفكر أبداً التفرقة التي ينبغي أن يفرقها الإنسان العاقل وهي أن يقول ما سر هذا التقدم، ويسأل هذا السؤال لا يمكن أن يكون كل ما عنده من سر تقدمه لأنه إذا درس تاريخ الأمم الغربية سنجد أن بعض الأشياء التي عندهم الآن كانت عندهم من زمان وكانوا متأخرين فإذاً هي ليست سر تقدمهم، دينهم هذا هو نفس الدين ما تغير فإذاً ليس سر تقدمهم، لغتهم هي لغتهم نعم حدثت فيها كلمات اقتضاها العلم لكن ليست هي سر التقدم، طريقتهم في الملابس هي نفسها بعض عاداتهم الاجتماعية أنهم لا يتزوجون بأكثر من واحدة وكذا، والذي يعتبرها بعض الناس من

مظاهر الحضارة كانت عندهم قبل أن يتقدموا هذا التقدم المادي، فإذاً لابد من أن نعرف ماهي الأشياء التي ساعدتهم على هذا التقدم المادي فنقول نعم إن هذا شيء حسن فنأخذه، وإذا الموقف الثالث هو الموقف الصحيح لا نقول لا نريدها إطلاقاً ولا نأخذ منها كل شيء وإنما نأخذ منها وندع ونأخذ وندع بمعيارنا العقلي والعلمي والديني وكل هذه أشياء متناسقة لا خلاف بينها، في مكونات الحضارة ذكرت لكم أن من مكوناتها الأديان والفلسفات، والفلسفة لها معنيان يمكن أن نتكلم عن الفلسفة بمعنى أن هذه فلسفة ديكارت هذه فلسفة كانت هذه فلسفة هيوم هذه فلسفة سارت وهكذا هذه لا يأخذ الغربيون بأي واحدة منها، لا يأخذ الغربيون جميعاً أي فلسفة من هذه الفلسفات وإنما يتأثر بعضهم ببعضها ويتأثر بعضهم بآخر، فما هي الفلسفة الفلسفة بالمعنى الثاني وهي التصور، تصورهم للحياة التصور الغالي على الناس المثقفين والمفكرين والعلماء في أي ناحية من نواحي الحياة سواء كان في العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية ما هو التصور الغالب عليهم ؟ في رأيي أنه يمكن أن نقول إن الفلسفة الغالبة هي الفلسفة التي يمكن أن نصفها بأنها الفلسفة المادية الإلحادية، وهنا لا أفرق أبدا بين الشيوعيين وبين الأوربيين نعم هنالك أديان يهودية هنالك دين مسيحي لكن هذه الأديان لا تمثل تصور الناس للحياة ولا يذكرونها لا في خططهم السياسية ولا الاقتصادية ولا في مجال العلوم الطبيعية وإنما هي غاية يعني ما تؤثر فيه بعض العادات الاجتماعية في الزواج والطلاق وكذا وبعض المجاملات والذهاب إلى الكنيسة هذا عند المتدينين وأما الغالبية العظمى من الناس بل حتى من المتدينين أنفسهم إذا تركوا الكنيسة وجاء إلى المعمل أو المصنع أو كذا فالفلسفة الغالبة عليه وهي بالمناسبة التي أثرت فينا هي الفلسفة التي يمكن أن نقول إنها الفلسفة المادية الإلحادية ماذا أعني بالمادية الإلحادية هذه الفلسفة فحواها أولاً أن الحقيقة الموضوعية التي لا حقيقة غيرها هي الأشياء المادية والأشياء المادية بحسب العلم يتطور مفهوم الناس لها كان الناس في الماضي مثلا الماديون يقولون كانوا غلاظاً بعض الشيء كانوا يقولون الموجود الذي لا موجود غيره هو هذه الأشياء المحسوسة التي تدرك إدراكاً مباشراً بالحواس الخمس، ثم تطور الناس فصار الآن الشيء الغالب هو أن يقولوا إن

الأشياء الموجودة حقيقة هي الذرات وطبعا ثم جاءت مكونات الذرات وكذا لكن الفلسفة الغالبة هي هذه يعني أن هذه المادة لها مكونات، فمكونات المادة هذه سواء أسميناها ذرات أو ما تحت الذرات هذه هي الأشياء الأساسية، والذي يأملونه هو أن يفسروا كل شيء في الوجود بالرجوع إلى أحوال هذه المكونات المادية يعني يأمل ليس الفيزيائي فقط ولا الكيميائي هذا شيء معروف لكن حتى عالم النفس يأمل أن يجيء اليوم الذي يفسر فيه كل الظواهر النفسية بإرجاعها إلى أشياء حسية ولاسيما الدماغ، وأن يستطيع أن يفسر حركات الدماغ وتصرفاته بإرجاعها إلى مكونات المادة الأولى سواء قلنا إنها الذرات أو ما تحت الذرات، فهذا هو الافتراض حتى لو لم يقله الناس بألسنتهم عندما يقولون نفسر الشيء تفسيراً علميًا، ما هو التفسير غير العلمي عندما تقول إن هذه الظاهرة سببها مثلاً أن الله رضي عن هؤلاء الناس فأعطاهم كذا، هذا تفسير غير علمي أو تقول سببها الجن أو تقول سببها الملائكة أو تقول أن المطر نزل بسبب الدعاء كل هذا في اعتقادهم هو تفسير غير علمي لكن تذكروا أن قولهم إنه ليس تفسيراً علميًا راجع إلى هذه الفلسفة لا إلى العلم يعني إذا خرجتم من كلامي هذا بهذه الحقيقة تكفيني، أقولها مرة أخرى هم تصوروا أولاً قبل أن يأتوا إلى العلم قالوا إنه لا موجود إلا هذه الأشياء، وحصروا أنفسهم فيها فإذا تصورهم للعلم هو فرع عن تصورهم للوجود كله، فلماذا نأخذ هذا التصور إلا إذا اقتنعنا فعلاً وقلنا إن تصورهم نفسه تصور صحيح لكن إذا أحببنا أن نقيس هذا التصور بمقياس بالمقاييس التي قلناها والتي يتفقون معنا عليها نستطيع على الأقل أن نشككهم إن لم نقنعهم بما عندنا فنقول لهم أنتم تقولون إنه لا يوجد إلا هذه الأشياء المادية، طيب هذه دعوى ما دليلكم عليها كيف تأكدت من أنه ليس هنالك شيء غير مادي إذا قال أنا بحثت في العالم لم أجد شيئاً غير مادي نقول له إن علمك في أي علم من العلوم الجزئية يقولون لك إن هذا لا يكفي إلا أن يكون النطاق محدوداً جداً، نقول مثلا هذه القاعة لا يوجد فيها إلا كذا من الأشخاص، فأقول أنا نظرت في القاعة كلها فما وجدت هذا يسمونه بالاستقراء الكامل، أما الكون هذا من أدراك ربما يكون فيه شيء أحيانا يقول أنتم الذين تؤمنون ما أعطيتموني الدليل على أن هنالك شيئا غير مادي

نقول لهم لنفرض أن هذا صحيح هذا لا يجعلك تقول إنه لا يوجد شيء غير مادي لكن يجعلك تقول أنا أشك ولست متأكداً من أن هنالك شيئاً غير مادي أما أن تقطع به فهذا ليس بصحيح، ثم نأتي إلى الخطوة الثالثة فنقول له ونحن المسلمين إن لم يستطع النصارى أو لم يستطع اليهود نحن المسلمين نملك الدليل على أن نبرهن على أن هذا الكون له خالق وأن هذا الخالق ليس كمثله شيء، فنرجع مرة أخرى نريد أن نقول إننا بالنسبة للحقائق الجزئية نأخذها بالنسبة للقوانين ما قلت لكم وبالنسبة للنظريات ما قلت لكم في كل العلوم في الأشياء الأخرى نقيسها بمعيارنا بمصلحتنا مثلا حتى مصلحتنا الوقتية فنستفيد من تجاربهم في الاقتصاد في الإدارة نستفيد من تجاربهم نستفيد من فنوتهم لكن لا نتبناها وأما الشيء الذي نرفضه رفضا كاملا ولا نأخذ منه شيء ولا حتى ما ترتب عليه فهو هذه الفلسفة وهذا التصور فالذي نرفضه رفضا كاملا هو كما قلت لكم هذه الفلسفة وهذا التصور، إذا رجعنا مرة أخرى إلى مقاييسنا فنقول له نحن في الإسلام لا نقول إن مسألة الإيمان بالله هي مسألة لا برهان عليها كما يقولون هم في النصرانية، والذي غر كثيرا من الغربيين وجعلهم يستمسكون بالمذهب الإلحادي أنهم اعتبروا كما اعتبر بعضنا لأنهم متقدمون فإذا كل ما عندهم أحسن مما عند غيرهم وإذا حتى هذا الدين وإن كانوا يعتبرون أنه دين باطل لكنهم يقولون مادام ديننا نحن المتقدمين باطلا فما بالك بدين هؤلاء الذين هم من العالم الثالث، البوذية والإسلام وكل هذا يستوي عندهم ففي هذا الدين أشياء مناقضة للعقل ومناقضة للواقع الحسي فلذلك أصبح الكثيرون منهم إما أن يفسروا الدين تفسيرا رمزيا جدا لا يكون له علاقة بكلماته أو أن يرفضوه رفضا كاملا، وفي كلا الحالين فهم قد عطلوه أصبح لا مجال له كبير في الحياة نقول لهم إن هنالك فرق بين ذلك الدين وهذا الدين نحن عكس النصرانية نقول إن الأشياء الأساسية عليها أدلة عقلية وحسية والأشياء الفرعية تقبل بقبول الأشياء الأساسية، يعني إذا قال لي إنسان لماذا نصلي المغرب ثلاثة فلا أستطيع أن أعطيه دليلا عقليا مباشرا، ولكن أستطيع أن أقنعه بأن القرآن كلام الله أو أن الكون له إله خالق واحد وكذا فإذا اقتنع أن القرآن كلام الله أقول له يا أخي إن الذي خلق الكون وخلق الإنسان قالوا

صلوا في هذا الوقت ثلاث ركعات، فلا بد أن تكون هنالك حكمة وإن كنت أنا لا أعرفها فهذا تفسير عقلي لكنه غير مباشر، كما يذهب إنسان مثلا إلى الطبيب فبعطيه بعض الأقراص فيستعملها كما أمره الطبيب فإذا قال له اثنين بعد الغداء وواحدة بعد العشاء لا يعكس الامر، ولا يقول لماذا لأن الطبيب سيقول له يا أخي إذا حاولت أن أفسرها لك لن تفهم فخذ هذه بالثقة فقط والناس يتعاملون في كثير من حياتهم بالثقة فأنت إذا اقتنعت بأن الكون له خالق فأول ما ينبغي عليك بالنسبة لهذا الخالق أن تثق فيه فكثير من الأشياء الجزئية نأخذها بالثقة التي نسميها الإيمان ولكن القواعد الأساسية للدين القرآن والسنة مليئان بالأدلة العقلية والحسية عليها، وتوسع علماء المسلمين في هذا وأعطيكم فقط بعض الأمثلة مثلا بالنسبة لوجود الخالق يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

فكأنه يقول للإنسان الذي لا يؤمن بوجود الخالق إن هنالك ثلاثة فروض فقط بالنسبة لأي شيء حدث بعد أن لم يكن أي شيء يعني إذا كان إذا لم نجد في الوجود إلا هذا الشيء أو قل دعنا يكن تفكيرنا يكون أقرب إلى ما يتناقش فيه العلماء الآن، العلماء الآن النظرية التي يميلون إليها تقريبا معظمهم يميل إليها أو غالبهم يميل إليها هي النظرية نظرية الخلق التي يسمونها باللغة الإنجليزية "ذا بق بانق" أن كل مادة الكون هذا كانت في البداية في ذرة واحدة كل هذه المادة، ثم من هذه المادة الذرة بعد أن تفجرت تكونت فقالوا الآن إذا كان هذا صحيحا أصبحت مشكلة الخلق أو السؤال عن الخلق سؤالا ملحا، فإذا كان هذه المادة التي تكونت منها الكون كله، فنقول من أين جاءت أم خلقوا من غير شيء جاءت من لاشي هذا لا يقبله عاقل ولا يقبله العلماء الآن لأننا إذا قلنا أن بعض الأشياء تأتي من لاشيء فمعنى ذلك أننا لا نحاول أن نفسر كل ظاهرة من الظواهر أو إذا فتشنا عن سببها سنة وسنتين ولم نجد تقول آه هذه من الأشياء التي تأتي من غير شيء فنقول مثلا أن هذا المرض بحثنا عن سببه ولم نجده فإذا هو يأتي بلا سبب، العلماء لا يقولون هذا حتى لو بحثوا عشر أو خمسين سنة

أوستين سنة وما وجدوا يظلون آملين في أن يجدوا السبب لماذا لأن العقل يقول إنه لا يمكن أن تكون هنالك ظاهرة أو حدث وليس لها سبب، وأن تقول إن الشيء يأتي من لا شيء كلام متناقض، كيف يكون لا شيء وفجأة نشاهد ساعه أمامنا هل هذه المادة هي التي خلقت نفسها أيضا مستحيل لأن الشيء لكي يخلق نفسه لابد أن يكون موجودا أليس كذلك؟ ولكن إذا كان موجودا ما يحتاج إلى أن يخلق فالقول بأن الشيء يخلق نفسه منطو على تناقض، لأن الإنسان الذي يقول هذا الكلام يفترضه موجودا مرة ويفترضه غير موجود في نفس الوقت، إذا ما بقي إلا أن نقول إن كل شيء حادث له سبب أو فاعل أو كذا من خارجه والسؤال إذا ما هو هذا الشيء الخارجي القرآن الكريم مليء بالحجج على أن هذا الشيء الذي أوجد الأشياء لابد بمنطق عقلي أن يكون متصفا بكذا ومتصفا بكذا، مثلا ليس كمثله شيء لأنه إذا كان مثل هذه الأشياء فسنسأل عنه نفس السؤال الذي سألناه عنها من أين جاء أما إذا لم يكن مثلها مثلا هذا الخالق لابد أن يكون أزليا وليس حادثا ولابد أن يكون أبديا لا ينتهي هو الأول والآخر وهكذا، ثم جئنا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إذا قال لنا إنسان أنا لا أعتقد أن محمدا هذا رسول عندنا من الأدلة التاريخية في سيرته وكذا وأحواله وكلامه ما يدل على أنه رسول، بل عندنا القرآن الذي يدل على أنه رسول، وأيضا استفدنا كثيرا وكثير من علمائنا استفادوا من العلوم الطبيعية في هذا المجال تذكرون ذلك الطبيب الفلبيني الذي أسلم هنا في الرياض في اجتماع المؤتمر الطبي السعودي أسلم بسبب في غاية المنطق قال إن فلانا الأمريكاني المتخصص في علم الأجنة هو كان تلميذا لهذا الأمريكاني فقال هذا الأمريكاني عن طريق أظن الأخ عبد المجيد الزنداني وذهابه إلى جامعة الملك عبد العزيز بدأ يعرف كثيرا عما قاله القرآن عن تطور الجنين فقال لهذا الرجل إذا درست طلبتك عن تاريخ الأجنة في العادة هم دائما يركزون على تاريخ اليونان فقال لهم القرآن فيه أشياء طريفة فأذكرها أيضا للطلبة فقال أنا بدأت أقرأ والآن استمعت إلى ما قاله هؤلاء الزملاء فأنا مقتنع بأن هذا الكلام الذي في القرآن ما كان يمكن أن يعرفه بشر في زمن محمد لماذا ؟ قال لأن الآلات التي اكتشفناها هذه ما عملت إلا في هذا القرن فإذا كان من المستحيل على

أي بشر سواء كان محمد أوغيره أن يعرف هذه الحقائق وإذا فهذا لا يمكن أن يكون كلام محمد وإذا لابد أن يكون من خالق لهذا الكون يعرف هذه الحقائق بوسيلة غير التي عرفناها بها لأنه هو الذي خلقها فلذلك أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، فعندنا بالنسبة لأصول الدين مثل هذه الأدلة، فإذا سنقول للغربيين بعد أن قلنا لأنفسنا سنقول لهم نحن نرى أن تصوركم للوجود هذا التصور الذي لخصناه مخالف للعقل وهو ضار بالإنسان لأن نتائجه كما يعرفون هم في الأخلاق وفي السلوك سيئة جدا ومازال الناس يسيرون بالرغم من أنهم من ناحية يسيرون في تطور من ناحية العلوم الطبيعية والاجتماعية وكذا فهم يسيرون في تدهور من الناحية الأخرى وهذا معناه أن ما عندهم من الأخلاق كان مرتكزاً على بقايا ما عندهم من دين وما عندهم من فطرة وأنه كلما تأثر الناس بهذا التصور الجديد كلما أضعف هذا من خلقهم ودعاهم إلى شرب الخمر والمخدرات والزنا وما يترتب على هذا من أمراض نفسية وجسمية وكذا وكذا، وكل هذا مرتبط بهذا التصور لأنك إذا قلت للإنسان هذا الكون ليس له خالق وإن هذه الحياة هي الحياة الأولى والآخرة وأنه لا بعث بعدها ولاحساب ولاكذا فكأنك أغريته بأن يجمع أكبر قدر من الثروة أو الملذات وأحدثت في نفسه كثيراً من القلق والشك والتردد، فإذا هذا التصور مخالف للعقل ومخالف للواقع مضر بالإنسان بصحته الجسمية والنفسية وبأحواله الاجتماعية، وهو بعد ذلك ليس ضرورياً للعلوم الطبيعية لأن هذا الذي أغرى الناس به، الناس ظنوا أنه لا يمكن ان تقوم علوم طبيعية إلا على مثل هذا التصور المادي .

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم..

س: كيف نثبت لغير المسلم أن محمداً رسول الله ويوحى إليه القرآن ؟

ج: لا يمكن أن نفصل في هذا الأمر الآن لكن أنا ذكرت لكم إشارات إلى هذا، سيرة الرسول ﷺ كل من يقرأها أولا تثبت له أن هذه سيرته بالأدلة التاريخية فسيرة الرسول ﷺ من حيث ثبوتها لا نجد شيئا تاريخيا أثبت منها بعد القرآن الكريم، فإذا كان هذا الإنسان يقول إنه كان في هذه الحياة شخص اسمه نابليون أو أرسطاريس فنقول له يا أخي عندنا من الأدلة أقوى بعشرات المرات مما عندك بالنسبة

لنابليون أن هناك رجل اسمه محمد، وأن سيرة هذا الرجل كانت كذا كذا هذه الخطوة الأولى إذا آمن أنه كان هنالك رجل اسمه محمد وأن هذه كانت سيرته نقول ننظر في هذه السيرة هل هذه سيرة إنسان كذاب إذا قال إن هذا الرجل كذاب فلا يستطيع أن يقول بعد ذلك عن أي إنسان أنه صادق نقول له ما هو معيارك للصدق والكذب، إذا قال إنه صادق نقول له هذا الرجل الصادق قال أنا مرسل من عند الله وأنا ناقشت بهذه الحجة أحد المستشرقين الصغار فهو مازال شابا قلت له ما رأيك في محمد قال إنه رجل عظيم، قلت له ما اعني هذا هل تعتقد أنه كان نبيا لا قلت له هل تعتقد أنه كان كاذبا قال لا قال أعتقد أن الرجل كان صادقا قلت له تعتقد أنه كان نبيا فما أحب أن يقول أنا أعتقد أنه كان نبيا وكانوا في البداية المستشرقون مما يدلكم على قوة هذه الحجة أن المستشرقين في البداية كانوا يتكلمون عن الرسول كلاما كثيرا فارغا وبعد أن تطورت الدراسات أصبحوا الآن يستحون من ذلك الكلام وكثير منهم من المنصفين منهم يقولون الذي يقول عن رجل هذه سيرته مثل هذا الكلام هذا يدل على أنه نفسه إنسان مغرض أو مهبول أو كذا أو كذا لأنك إذا قلت هذا الكلام عن رجل هذا سيرته فقله عن أي إنسان آخر أيضا ثم نقول بالإضافة إلى صدقه هنالك عنده من الأدلة ما يثبت أنه نبي منها هذا القرآن الكريم فإثبات أن القرآن من عند الله هو إثبات أن محمدا رسول الله لأن محمد جاء بهذا القرآن وقال أنا هذا الذي أرسلني به الله فإذا أثبتنا بحجة واحدة في مسألة واحدة فقط أن هذا الشيء ما كان يمكن أن يعرف في عهد محمد ﷺ ما كان يمكن أن يعرفه بشر يكفي هذا لإثبات أن القرآن كلام الله وأن محمدا رسول الله، فنصيحتي لكم في مناقشتكم للناس أنكم وطبعا الإنسان لا تتصور في هذه المسائل بحجة واحدة يقتنع بها بعض الناس نعم ربنا فتح عليهم يقتنعون لكن لا تيأس كلمه وكلمه وكلمه، وحاول أن تغريه بأن يقرأ سيرة الرسول ﷺ إذا قرأ سيرة الرسول في الغالب يتأثر إذا كان فعلاً طالباً للحق.

س: فضيلة الشيخ ذكر فضيلتكم أنه لا يمكن فصل الدين عن العلم على هذه المقولة لدي عدة أسئلة في العصور الوسطى كانت الكنيسة مسيطرة على الحكومة والأفراد وكان هناك تأخر في جميع العلوم بل في الحياة كلها، وبعد أن تم فصل الدين عن الدولة تطورت بلاد الغرب ما ردكم على ذلك؟

س: نلاحظ أن بعض المشايخ هداهم الله لايزال يعيشون في جهل أو لنقل لازالوا يكابرون فقد سمعت من أحد المشايخ قوله إنه لم يثبت إلى الآن أن الأرض كروية.

ج: على كل حال أنا لا أرى من اللائق أن تقول المشايخ يعيشون في جهل وما أظن أن شيخا معتبرا الآن يقول هذا الكلام لكن ما كل من انتسب إلى الدين وتكلم فيه فهو شيخ كبير ولا تتوقع أن يعرف كل شيء في العلوم الطبيعية كما أنك لا تعرف كثيرا من أمور الدين فإذا كنت أنت مقصر في أمور الدين وهو مقصر في أمور الدنيا فهو خير منك فلماذا تعيب عليه تقصيره ولا تعيب على نفسك أنك مقصر في شيء أهم من الذي قصر فيه، لا يضره كثيرا أنه لا يعرف أن الأرض كروية أو ليست كروية لكن يضرك كثيرا انك لا تعرف بعض الأحكام التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم خصوصا فيما يتعلق في مسائل العقيدة، فأرجو أن لا تتكلموا عن شيوخكم وعلمائكم كلاما غير لائق الناس عندهم ظلم لا تتوقع ولا حتى من الشيخ ابن باز أن يكون عالما بكل شيء يكفيه أنه تخصص في شيء مهم جدا وهو أهم شيء ويرشد الناس ويعلمهم فيه أما أن أتوقع أن يكون محيطا بعلوم الجغرافيا والتاريخ والعلوم النفسية ومواكب للعصر والسياسة والفيزياء لا يمكن هذا نعم كان من علمائنا من له المام بهذه المسائل في الماضي ومازال عندنا فلا تتوقعوا منهم ذلك خصوصا إذا نظرتم إلى الطريقة التي درسوا بها فالإنسان احيانا ضحية بيئته فهو ما درس هذه الأشياء فكيف تتوقع منه أن يعرفها لكن نعم أقول له لا تتكلم في أشياء لا تعرفها.

بالنسبة للكلام الأول يا أخي هذا من الكلام الذي لاكته الألسن كثيرا ورد عليه فلا ترددوا الكلام إيه الكنيسة وانفصلت وتقدموا هذا الكلام سمعناه ألف مرة طيب لأن الكنيسة العلم انفصل عن الكنيسة فتطورت البلاد الغربية معنى ذلك أنه إذا انفصل عن المسجد ستتطور البلاد الإسلامية هذا معناه أن المسجد كالكنيسة ثم الحجة نفسها حجة ليست صحيحة، قالوا إن السفسطائيين كانوا يقولون قال لإنسان هل لك ابن؟ قال له نعم قال: إذاً أنت أب قال نعم قال هذا الكلب له جرو؟ قال له نعم إذاً هو أب؟ قال له نعم، وأنت أب قال نعم إذاً أنت كلب! فهذه سفسطة، فلازم تعرف كيف توازن الأشياء فتقول مثلا هذا إنسان وفعل كذا وهذا صالح إنسان فعل الشيء

الفلاني وعمر إنسان إذا سيفعل الشيء الذي فعله صالح لأن هذا إنسان وهذا إنسان، لا لأن الناس يختلفون إذا برهنت لنا أنه فعله بحكم إنسانيته نقول نعم لكن ما كل ما يفعله إنسان يفعله إنسان آخر وما كل ما يصدق على دين يصدق على دين آخر، وحتى الغربيين الآن يقولون إن الكلام عن أن الدين أن العلم تطور لأنه انفصل عن الدين هذا كلام فيه غلو لأن كثيراً من هؤلاء العلماء كانوا نصارى متدينين. تعرفون نيوتن أليس هو أبا الفيزياء؟ هل نيوتن كان كافراً بالنصرانية؟ كان متديناً وكتب كتباً في النصرانية فالعلماء الكبار الذين أسسوا العلوم الطبيعية والفلاسفة كانوا متدينين بحكم الدين النصراني، لكن هنالك فرق بين أن يكون الإنسان متديناً وبين أن تكون الكنيسة لها سلطة نحن ما عندنا كنيسة لها سلطة ما عندنا لا في الماضي ولا في الحاضر فليس هنالك مسجد له سلطة يقول مثلا إن الكتابة الفلانية ما ينبغي أن تكتب، وأن النظرية الفلانية ما ينبغي ما عندنا هذا فالمقابلة بين الكنيسة أقصد المقارنة حتى بين الكنيسة والمسجد ليست صحيحة، وبين الدين الإسلامي وبين الدين النصراني ليس صحيحاً .

س: بالرغم أن فضيلة الدكتور أبدى نوعا من الشعور بأنه قد أوفى الإجابة على سؤالي إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ وإثبات أن القرآن من عند الله، أحب أن أستزيده بأن يتفضل مشكوراً ويجيبنا بشيء من التفصيل على قضية إثبات وجود الله لرجل ملحد لا يؤمن بذلك، وبرغم أن الدكتور قد شرح بشيء من التفصيل الآية الكريمة التي ذكرت في المحاضرة إلا أننا نحب أن نستزيد في هذا الأمر؛ لأن هذا الأمر يوجه كثيراً من المسلمين خاصة أولئك الذين تغربوا في الخارج؟

ج: قبل الإجابة أحب أن أقول لكم على الأقل من لم يذهب منكم أو يعيش هنالك كثير مما تظنون أنه يعني أسئلة تشغل أذهان الناس هنالك ويناقشونكم فيها ليس هذا بصحيح، ولا تعتقدوا أن الشعوب هذه خصوصاً الأمريكان لا تظنوا ولا تكن لديكم أفكار مهولة عنهم ومثالية أنهم دائما يلجؤون للتفكير المنطقي والعقلي، ويهتمون بالقضايا العلمية هذا ليس بصحيح، الأمريكان العادي سواء كان طالباً أوغير طالب فهو من أكثر خلق الله سذاجة، ومن أكثر الناس ضيق أفق، لا يعرفون ما ذا يدور في

العالم إذا تكلمت معه ربما لو قلت له أنا من السعودية سيقول لك السعودية هذه في أمريكا أو في أستراليا؟! لا يعرف أين السعودية وربما حتى لو قلت له أنا عربي لا يعرف الفرق بين عربي ومسلم وعربي وباكستاني، كثير منهم لا يعرف عن هذا شيئاً لكن هم شعب كبير ولهم مؤسسات ممتازة فخرجت بعض الناس الممتازين هم الذين يحكمون الحياة، أما عامة الناس فليسوا كذلك، وأنت لا تشغل نفسك بما لا تجيد فرحم الله امرءًا عرف قدر نفسه. وقال أحد الكتاب -أظنه الجاحظ- اللهم إنا نعوذ بك من التعرض لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، فلا تناقش إنسانا في أمر أنت لا تحسنه قل والله يا أخي أنا مؤمن وهذا الدليل الذي أنا مؤمن به تفاصيل وكذا أنا لا أعرف، وتكلم معه في أشياء أخرى، أو على الأقل تكلم مع إنسان يؤمن بوجود الخالق، لا تضيع وقتك مع إنسان لا يؤمن بوجود الخالق ويثير الجدل، ومعلوماتك هذه التي تعرفها عن الإسلام، والتي عرفتها منذ المرحلة الابتدائية كافية لهداية كثير من الناس؛ لأنهم لا يعرفون عن الإسلام شيئاً، والحقائق التي تظنها أنت بدهية بالنسبة لك وحقائق بسيطة وكذا بالنسبة له شيء يبهره يعني كثيرون منهم يتعجبون لاسيما النصارى منهم الذي عنده دين منهم إذا قلت له إننا نحترم المسيح ونعتقد أن الذي يسبه ليس مسلما مثلا أو اننا نعتقد أنه نبي والفرق الوحيد بيننا وبينكم، ونعتقد أنه ولد بطريقة معجزة وأن ليس أب هذه تبهره جدا يستغرب كيف أن أناسا من غير النصارى يقدرون المسيح هذا التقدير ثم تقول له لكن الفرق بيننا وبينكم أنكم تعبدونه وأننا لا نعبده كما أننا لانعبد محمدا فسيستغرب أيضا وأنتم أيضا لا تعبدون محمدا، لأنه يظن أن موضع محمد ﷺ موضعه كموضع المسيح بالنسبة لهم فتقول له ولا حتى محمد عندنا نبي كما أن عيسى نبي كل هذه الأشياء تعرفها أنت وهي مفيدة جدا تقول له مثلا نحن عندنا لا يكفي أن الإنسان يقول إنه مؤمن بوجود الله، وإنما ينبغي أن يعبده والعبادة لا تكون عندنا إلا لله فنحن لانعبد محمداً ولا نعبد صنماً أيضا هذا يستغرب هذا فكرة التوحيد هذه التي بدأ بها الأنبياء، فالأنبياء لا يبدؤون مع الناس أن الله موجود أوغير موجود يفترض أنهم يقرون بأن الله موجود، ثم يقول له إن هذا الخالق هو الذي ينبغي أن يعبد إذا بعد ذلك سأله

وقال له الله موجود أوغير موجود بعد هذا يناقشه لكن لا يبدأ معه في هذه القضية؛ لأن كثيراً من الناس بفطرته يعرفون أن الكون له خالق، وإن كان الإلحاد قد انتشر في هذا العصر أكثر مما كان منتشراً فيما مضى، لكن على كل حال أنا قلت لكم إن هذا الموضوع طويل، وأنا كتبت فيه بعض الكتابات وأخشى أن التفصيل فيه لا يكون مثمراً كثيراً الآن في هذه الجلسة لكن لابأس مجاملة للأخ السائل أن أضيف بعض الأشياء، المنطق كله دائر حول هذه الآية، وعندما أقول الآية لا أعني أن الذي تخاطبه يؤمن بأن القرآن كلام الله لا أنا حتى بإمكاني أن لا أذكر الآية؛ لأن القرآن فيه نوعان من الحجج، حجج موجهة لغير المؤمنين بأنه من عند الله وحجج موجهة للمؤمنين ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

هذه من صيغتها لكم أنها تخاطب إنسانا لا يؤمن بوجود خالق فليس صحيحا كما يقول كثير من الناس أنك إذا استدللت بآية من القرآن فهو يظن أن الاستدلال بالقرآن لا يصلح إلا لمن يؤمن بأن القرآن كلام الله وهذا خطأ وقع فيه بعض الناس في الماضي وكثير من علماء الكلام والفلاسفة لذلك ذهبوا يبحثون عن الحجج العقلية في غير القرآن الكريم وقال لهم كثير من أهل السنة أن هذا خطأ لأن الحجج العقلية التي تثبت وجود الخالق ووحدانيته ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن القرآن كلام الله الحجج العقلية أساسها في القرآن الكريم فالقرآن يخاطب المؤمن كما يخاطب غير المؤمن فأنا بإمكاني أن أقول له نحن عندنا حجة عقلية في كتابنا وهذه الحجة العقلية هي كذا كذا وأنا عملي سيكون شرح لهذه الحجة العقلية فبالنسبة لوجود الخالق أيضا لا تستسلموا لما يقوله لكم الملحدون واسألوهم وناقشوهم كما يسألونكم هم، يعني الملحد الآن يظن أن المؤمن هو المطالب بالدليل وأنه يجلس مرتاح حتى يبرهن له يعني كأن المؤمن هو في قفص الاتهام فهو الذي يثبت أو ان المؤمن هو المدعي فعليه أن يثبت الدعوى الناس يفكرون بهذه الطريقة لكن هذا ليس بصحيح فأنا كنت كثيراً ما أقول لهم نحن عندنا مشكلة أنا هذا حلي لها، قل أيضا أنت ما هو حلك لها ماهي المشكلة؟ المشكلة أن عندي هذا الكون أنا وأنت نسأل من أين جاء؟ هذا سؤال

مشروع وإلا غير مشروع بعض العلماء في الماضي كانوا يظنون أن العلم قد جعل هذا السؤال غير مشروع غير ذي بال لماذا؟ قالوا لأن هذا الكون كما قلت لكم في مسألة الذرات أنه مكون من ذرات لا نهاية لعددها، فإذاً السؤال عن من أين جاءت أو أنها هي نفسها أزلية يقول لك كما أنك تقول إن الخالق أزلي ما له بداية ولذلك لا يسأل عنه من أين جاء فكذلك هذه الذرات طيب لكن الآن هذا السؤال وهذا الكلام لا يقال الآن؛ لأن بحسب النظرية التي قلتها لكم مادة الكون محدودة، فالعلماء يعرفون أن هذه المادة ليست أزلية فإذاً السؤال من أين جاءت سؤال مشروع، أنا حلي للإشكال أني قلت خلقها خالق أزلي كذا كذا، ودليلي هذه المادة نفسها الدليل الذي قلته فأنت ما هو دليلك أقصد ما هو حلك لنفرض أن هنالك مشكلة اجتماعية في بلد من البلاد أحد الناس قدم نظرية قال أنا في رأيي أن هذه المشكلة تحل بالطريقة الفلانية هل ينام الآخرون وينتظرون حتى يبرهن هو أن كلامه صحيح أم أن عليهم أن يبحثوا كما بحث هو، فهذه من الأشياء التي تنبههم إليها فقل له يا أخي هذه مشكلة كبيرة لا تظن أنها تخصني أنا تخصك أنت أيضا لأن الإجابة عليها يترتب عليه أشياء كبيرة في الحياة وربما بعد الحياة ربما يكون كلامي صحيحا فما تفعل أنت عندما تموت وتجابه بأن هنالك بعث لابد أن تثيره حتى يأخذ الموضوع مأخذ الجد وإلا إذا كان مجرد مجادلة أحيانا لا هو فقط يعني يكون هدفه أن يسكتك أنت فحتى إذا كان هذا هدفه فحاول أنت أن تسكته، قريبا قبل سنة كنت في السويد في مسألة تتعلق بالدعوة، وفي محاضرة جاء بعدها شاب طبيب يعرفه بعض الإخوة السودانيين هنالك، وجاءني وبدأ يناقشني وبطريقة متعالية يعني مادام أن هذا رجل دين معناه لا يعرف شيئا في العلوم ولا في المنطق فعندما بدأت أجادله وبعض الأسئلة سكت عنها وقال لي لا أنت متمرس على هذه الموضوعات وأنا لست متمرساً عليها، وبدأ يعتذر قلت له هذه قضية مهمة وليست مسألة تخصص في فرع من فروع المعرفة إذا كنت مهتما بها فعلاً فتمرس وحاول أن تعرف كل الإجابات على هذه الأسئلة التي تثيرك، أما أن تظن أن كل الناس سذج ويمكن أن تسكتهم بمثل هذه الأسئلة فأنت تضر نفسك، فلا بد أن تشعره بأن هذا الموضوع مهم، وأن بعض الأفكار التي في ذهنه أفكار ساذجة، وأن بعضها مما أثبت العلم بطلانه فلا تشعره ولا تجعله يشعر أن العلم في صفه هو والعقل في صفه لا فنرجع

مرة ثانية فأقول سأقول له يا أخي نتكلم الآن عن مادة الكون هذه من أين جاءت؟ أنت قل لي أنا أقول لك ليس هناك إلا ثلاثة أشياء أو فروض إذا عندك رابع قل لي وإذا كنت تعتقد أن أحد هذه الاحتمالات أو أحد هذه الفروض أحسن من الذي اخترته فقل لي هل هذا الكلام واضح؟ فما فيه إما أن أقول إنه جاء من لاشيء، وإما أن أقول بأنه أوجد نفسه، وإما أقول إنه أوجده شيء من الخارج أو أقول وطبعا هذا سيكون شيئاً آخر غير الذي نتكلم عنه أو أقول إنه أزلي لا بداية له إذا اتفقنا أن له بداية فلابد من واحد من هذه، أما إذا كان أزلياً لا بداية له لا تنطبق عليه هذه الأشياء لأن الشيء إذا كان موجوداً منذ الأزل لا نسأل كيف جاء هو ما جاء من مكان هو موجود لا نسأل كيف جاء فلا تنطبق عليه هذه الأسئلة فإذا قال جاء من العدم وبعض الناس يقولون هذا لكي يتفادى مسألة الإيمان بالله يفضل أن يقول جاء من العدم، فأقول يا أخي هذا شيء غير معقول كيف يكون عدم محض ثم يأتي منه شيء ثم إذا قال يعني أصر على رأيه أقول له طيب يا أخي لماذا وصلت إلى درجة أن تقبل الشيء جاء من العدم فلماذا تعيب على إنسان يقول إنه خلقه خالق لنفرض أنكم الآن استويتم هذا قال جاء من العدم وهذا قال خلقه خالق ما الذي جعلك أنت أفضل من هذا؟ ما هو العلم أو العقل الذي تظن أنه في صف العدم أكثر من أن يكون في صف الخالق بعضهم أيضا قال خلق نفسه لكن بلف ودوران هنالك حجة لا أريد أن أتعبكم بها لكارل ماركس مؤسس الشيوعية يقول إن الإنسان هو الذي أوجد نفسه لكن فيها مغالطات فأيضا هذه إذا أوضحتها لشخص أن الشيء لا يمكن أن يوجد نفسه لأنه لكي يوجد لابد أن يكون موجوداً أليس كذلك كيف يوجد وهو ليس موجوداً وإذا كان موجوداً فلا يحتاج إلى أن يوجد فهذه فيه تفاصيل لها كما قلت لكم أن بعض العلماء وكذا بل هنالك عالم وهو الآن تراجع عن رأيه قال وكان له نظرية غير النظرية التي كلمتكم عنها النظرية التي يسمونها بق بانق كانت له نظرية أخرى، والنظريتان أساسهما ظاهرة واحدة وهذه الظاهرة غريبة اكتشفها العلماء، وهي أن هذا الكون الذي نعيش فيه يتباعد عن بعضه، فإذا كان عندنا مثلا هذا وهذا وأنا فلاحظوا أن هذه الأشياء تبتعد لكن لاحظوا أيضا شيئا غريبا أنه بالرغم من أن بعضها يبتعد إلا أن كثافة المادة في نطاق محدود ثابته، يعني أنا أضرب لها مثل دائما تصور أنك في دار رياضة هنالك

آلاف من الناس ثم فتحت الأبواب وبدأ الناس يخرجون وبعد ساعة التفتنا فإذا العدد كما هو هذه المسألة حيرتهم كيف أنه يتباعد ثم العدد كما هو، فهذا كانت له نظرية تقول إن الخلق مستمر، هنالك خلق في الوقت الذي هذه تكون هذه قد خرجت وبعدت بالمرة عن النطاق الذي يمكن أن نراها فيه حتى بالآلات المكبرة يكون في هذا الوقت خلق شيء وحل محله لكن قالوا من أين يأتي هذا الشيء نحن عندنا مثلا مساحة كهذه، وعندنا فيها أربعة أو خمسة أشياء، بعد قليل كلها خرجت المفروض أن يكون هناك فراغ لكن مازال عندنا خمسه من أين جاءت هذه قال هنالك ذرات تخلق من العدم، وهو ملحد الآن ما فيه ذرة بعد ثانية فيه ذرة فثار عليه كثير من العلماء، والغريب أن بعضهم ثار عليه لأنه ظن أن حجته هذه ستؤيد الدين حتى أنني ناقشه بعضهم فقلت يا أخي هذه لا تؤيد الدين هم ظنوا أن يقول أن الله يخلق الأشياء من العدم فهم ظنوا أن هذه النظرية سيكون فيها تأييد للدين قلت لهم هذه ما فيها لأنه لوكنا نعتقد أن الأشياء تأتي من العدم المحض بطريقتها هذه لما كان فيه لزوم أن نقول إن الكون له خالق هذه لا تؤيد الدين لكن المهم أنهم ثاروا عليه ثم تراجع عن رأيه، فالقول بأن الأشياء تأتي من العدم المحض شيء لا يقبله عقل وإن كان بعض الناس يقولون به، ومن قراءاتي لهم ما يقولون به إلا لأنهم لا يريدون أن يقولوا إن الكون له خالق مستعدون أن يدفعوا هذا الثمن أن يقولوا إن الشيء يأتي من العدم ولا يقولوا إن له خالقاً فإذا ما بقي أن نقول إن هذا الكون له إن الشيء هذا المادة هذه لها يعني خلقها شيء غيرها ما هو هذا الشيء ؟ يمكن أن نفصل هنا بعض التفصيل الذي لم أذكره في المرة الماضية نقول إن أولاً هذا الشيء الذي خلق لا يمكن أن يكون كهذا الذي خلق بضم الخاء؛ لأنه لو كان مثله وحادثاً سنسأل عنه نفس الأسئلة نفس الثلاثة احتمالات فإذا بالعقل نقول إن الخالق النهائي لابد أن يكون أزلياً، ولذلك علماؤنا كانوا يقولون إن وجود الحادث هو نفسه دليل على وجود خالق غير حادث يعني هي ليست مجرد إيمان واعتقاد لا، ولذلك نسمي هذا الكون آيات الله فالأمر نفسه برهان كأن كل جزء من أجزاء الكون يشير إلى خالقه، فهو نفسه دليل على أن له خالقاً غير حادث أزلي، فنقول إنه إذا عرفنا صفتين من صفاته انه أزلي وإذا كان أزلياً لا بداية له فهو أبدي لا ينتهي؛ لأن الذي لا يبدأ لا ينتهي أيضاً هنالك حجة لهذا، ثم

نقول إنه كان قد خلق فلا بد أن يكون قد خلق بإرادة وإذا كان خلق بإرادة فلابد أن يكون حيًّا وإذا كان خلق بإرادة وحياة فلا بد أن يكون عالماً وهكذا كثير من الصفات التي وردت في القرآن الكريم يمكن أن نصل إليها بالتفكير العقلي وكما قلت لكم إن هذا التفكير العقلي أسسه موجودة في القرآن الكريم يعني مثلا ألا يعلم من خلق إذا قلت إنه خلق فلا بد أنه أن تقول إنه يعلم فإذا كان قد خلق لابد أن يكون عالماً وهكذا في صفات الله سبحانه وتعالى يمكن الاستدلال عليها ، فالتفاصيل ليست في البرهان على وجود الخالق البرهان يسير جداً وهو الذي عندما يقول الناس إيمان العجائز في الحقيقة إن إيمان العجائز هو مرتكز على هذا البرهان من غير هذا التفصيل الذي قلته؛ لأن الإنسان بعقله يعلم أن هذا الكون لا يمكن أن يكون قد جاء من العدم إذاً لابد له من خالق، وهذا يكفي التفاصيل تكون في الرد على الشبهات التي يثيرها الآخرون فإذا كان لأحدكم شبهة مؤثرة فيه أو سمعها من إنسان يمكن أن نجيب عليها إن شاء الله إن استطعنا ، وفيه كتاب أنا قرأته من زمن طويل لا أدري ما رأيي فيه الآن لكن عندما قرأته استفدت منه كتاب اسمه قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر قصة الإيمان بين الدين والفلسفة والقرآن أو هكذا ، وأظنه موجود في الأسواق أنا لي مقال صغير اسمه نقض الأسس الفلسفية للمذهب المادي، وهنالك أيضا رسائل رأيتها في بعض المكتبات وأظنها جيدة لا أحفظ والله الآن المؤلفين لكن في نقض الإلحاد أو نقض المذهب المادي ووحيد الدين خان كتب بعض الكتابات في هذا الموضوع، كتابات الشيخ الزنداني عن الإعجاز العلمي ولها علاقة بهذا الموضوع.

س: في بداية حديثك بدأت نقاشك في أسلوب استخدام المنطق والعقل في إدراك الأشياء فربطت وجود الخالق بالموجود؛ فقلت لكي ندرك الخالق بربطه بالموجود يعني شغلات محسوسة حسية، وبعدين تطرقت إلى أصل الأشياء ومكوناتها من ماء..إلى آخره يعني كل أشياء ملموسة ومحسوسة، ثم انتقلت إلى صفة في المناقشه الذي هو نصل إليها لمناقشة أي إنسان ملحد ألا وهي الوصول إلى الله هو أزلي، عندي تعقيب على هذا الكلام.. نحن في البداية بدأنا النقاش منطقياً.. المنطق أو العقل لا يدرك معنى أزلي يعني ما يصل إلى تفسير أزلي فنحن ندرك مثلا حسب النظريات أن أصل الأرض أو

أصل مكونات الكون كانت عبارة عن ما وصل إلينا عن طرق الكتب هو الغاز الكوني وشرارة تكون الكون وما إلى ذلك، فلما تجيء الآن وتقول لي المنطق وبعدها تقول لي أزلي العقل البشري أضعف من أن يدرك المعنى الكبير والمترامي لكلمة أزلي، يعني عندما تقول لي إن الله خلق الشيء الذي أمامي وطبعا عندما تقول لي أزلي يعني قدرته أوجده من لا شيء فلما أدخل في نقاش منطقي بحت دائما أصل إلى حدود لإدراكي وإحساسي يعني حدود المنطق عندي وحدود العقل وما يتوصل إليه العقل فصعب أني أدخل في نقاش منطقي وبعد ذلك أتوقف عند شيء هو ما يدركه الملحد لأني أنا نفسي ما أقدر أوصله له، الأزلية نفسها ليس هناك أحد يمكن أن يتخيلها بقدرتها باللامتناهية فيها .

ج: نعم يا أخي هنالك فرق بين أن تعرف معنى الشيء أو أن تتخيله كما قلت أنت في البداية التخيل شيء وإدراك المعنى شيء آخر الناس، يدركون معنى أزلي لكن لا أستطيع أن أتصور وأتخيل أضع له صورة يعني لوقلت لي جبل أضع له صورة في ذهني اثنين ثلاثة كلما كثر العدد صعب علي التصور فإذا قلت لي: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

التخيل انتهى ما أستطيع كل هذا الشجر الذي في الأرض أقلام وكل قلم يغمس في البحر ويكتب، وإذا انتهى البحر جاء بعده سبعة أبحر هذا قريب من اللا نهائي لذلك القرآن الكريم وضعها في صورة جزء منها يتخيل لكن الإنسان بعد قليل يعرف أن هذا الخيال لا نهائي لا يمكن، ففرق يا أخي بين أن لا تستطيع أن لا تتصور وتتخيل وبين أن لا تعرف وإلا الناس يعرفون في الرياضيات اللانهائي ويستعملون الكلمة حتى بعض الأشياء التي يستعملها الفيزيائيون لا يتخيلونها وإنما يصلون إليها بالحجة يعني عندما تقول لي إن العالم المكان منحني هو فارغ ومنحني كيف، أو تقول الأبعاد أربعة لا تتصور أن الأبعاد بدل ما تكون طولا وعرضا وارتفاعا ومعه زمان لا تتصور ففرق بين أن لا تستطيع أن تفهم المعنى وبين أن لا تتصوره، فنحن في حدود العقل مادمنا نقول إنه أزلي بالمعنى وعندما نقول نبدأ بالمحسوس ليس معناه أننا نريد أن نقف عند

حدود المحسوس، بل نريد أن نقول إن هذا المحسوس نفسه يدلنا على وجود شيء لا نحسه الآن، وبالمناسبة علماء المسلمين ما كانوا يقولون إن الله غير محسوس ما كانوا يقولون، بل بعضهم يقول هذا التعبير خطأ نقول لا نحسه الآن لا نراه لكن في الجنة إن شاء الله نراه فهو محسوس بهذا المعنى يرى في الجنة (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) فالله يُرى والملائكة في صور من صورها تُرى والجن يرى، فحتى بعض علماء المسلمين كشيخ الإسلام ابن تيمية يقول إنه لا يمكن أن يكون هنالك شيء موجود ولا يمكن أن يحد إطلاقا تحت أي ظرف من الظروف ولأي حي من الأحياء لا يمكن، فنحن لا نقول إن الله غير محسوس ولكن نقول لا نحسه الآن ولكن الأشياء التي نحسها هي نفسها تقول لنا إن هنالك شيئاً إن هنالك هذا الخالق الذي لا تحسونه الآن أو لا ترونه الآن.

س: أرجو من الدكتور الكريم أن يوضح هذه الجملة، وأن يضرب على ذلك أمثلة وهي أن العلم لا يتغير ولكن المعلوم هو الذي يتغير وذلك قد يحدث الالتباس وهو أن يعتقد الإنسان أن القرآن كالعلم أعني بذلك على سبيل المثال لا الحصر الفيزياء والكيمياء وغير ذلك، ولماذا لا نقول إن القرآن يشير إلى إشارات غيبية لحقائق علمية وشكراً.

ج: يا أخي هذا الكلام أيضا خطأ هل القرآن كله عن حقائق غيبية ؟ ليس بصحيح القرآن فيه كلام عن الجاهلية والعرب وعادتهم وفيه كلام عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه كلام عما سيحدث في المستقبل وفيه كلام عن المطر والرعد والبرق والجبال والأنهار هل هذا كله غيبي ؟ ليس غيبيا، والغيبي حتى لا يفصل فيه كثيرا فهذا الكلام أيضا خطأ ؟عندما قلت إن المعلوم يتغير نعم حتى هذا بالنسبة للقرآن لكن يظل العلم صحيحاً يعني إذا قال القرآن عن فلان الفلاني إنه فعل كذا، وأنه سرق أليس معنى أنه سرق أنه موجود ؟ طيب إذا مات نقول الكلام صحيح بحسب هذا الوصف الذي جاء أنه في الوقت الفلاني كان حيا وسرق الآن مات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، هذا الكلام يقال للرسول ﷺ وهو حي الآن أصبح

تاريخا ليس هناك رسول حتى يبلغ ما أنزل إليه من ربه وما قاله القرآن الكريم مئات واللات والعزى هل تقول لي الآن انما في القرآن ليس صحيحا لأنه ما فيه منات ولافيه عزى لا هو قاله في وقت كانت فيه هذه الأشياء موجودة فما قرره صحيح لكن الشيء يتكلم عنه الآن لاوجود له وكذلك على فرض وقلت على فرض لأني لا أعتقد أن الأرض ستكون مكعبة لكن على فرض أن شكل الأرض تغير فصارت مكعبة القول بأن الأرض كرة أو كروية لا يكون باطلا لأننا قلنا أنها كرة حتى عام كذا إذا بعد ذلك تغير الذي علمناه فنحدث علماً جديداً يعني يتمشى مع الأمر الذي جد، وإذا كان الكلام غير واضح أرجو من الأخ الذي سأل أن يستفسر.

س: تكلمتم عن أنواع النظريات وقلتم إن النوع الأول نظريات باطلة فماهي الأنواع الأخرى ؟

ج: ما تكلمت عنها؟ متأسف فيه نظرية باطلة، ونظرية ليس هنالك نظرية يقولون إنها حق بمعنى الحقائق الجزئية، ولكن يقولون إنها ناجحة كما أن القانون يفسر الأشياء الجزئية فالنظرية تفسر القانون فكلما نجحت في التفسير كلما كان هذا أحسن، وهنالك نظريات في موضع التجربة فهي أحسن من الباطلة وأقل من هذه التي نجحت فهي في موضع التجربة، نجحت في أشياء لكن ما زلنا يعني نضعها موضع التجربة حتى تثبت فهي هذه الأنواع التي تحدث عنها العلماء أنا متأسف إذا كنت نسيت ولم أتحدث عن النوعين ونحن في حكمنا عليها كما قلت أن نتبعهم في هذا لأن هذه أحكام عقلية، ولكن نضيف إليه كما قلت لكم من أن عندنا مصدر آخر للمعرفة ليس هو الكون المحسوس فقط، فإذا كان هنالك أشياء قالتها نظرية مثلا في نظرية داروين نقبل أشياء كثيرة لكن الأشياء التي نعلم من القرآن الكريم أنها غير ما قال دارون نقبل كلام دارون يعني فكرة التطور مقبولة، بعض الناس يخلطون بين نظرية دارون في التطور وبين فكرة التطور فكرة التطور مقبولة بل يبدو أنها سنة الله سبحانه وتعالى في الأشياء هل رأيتم شيئا خلقه الله سبحانه كاملا منذ اللحظة الأولى أبدا الشجرة تبدأ بذرة والإنسان يبدأ كذا والقرآن نفسه يتكلم عنها ثم يتطور ويتطور ثم ينتهي وهكذا ففكرة التطور سواء كانت بالنسبة لأفراد المخلوقات أو لجنس من المخلوقات ليس هنالك قي الدين ما يمنع من القول بها، بل هي التي يبدو أن الحقائق

الظاهرة لنا والحقائق التي اكتشفها العلماء تؤيدها، لكن هنالك فرق بين فكرة التطور ونظرية خاصة في التطور، بعض الناس حتى من العلماء لا يقبلون بعض كلام دارون في التطور، وإن كانوا يقبلون فكرة التطور، يعني لماذا انقرضت بعض الحيوانات وبقي بعض، ودارون جاء بنظرية البقاء للأصلح وبعض العلماء لا يقبلون هذا، ويفسرون البقاء أن بعضها يبقى وبعضها يزول بتفاسير أخرى ولا يقبلون كلام دارون.

س: ما هو خطر الشيعة على السنة مع بيان مذهبهم؟

ج: هذه تحتاج محاضرة ارجو من الإخوان أن يهيئوا لكم شيئا من هذا وأنا مع السائل بأن هذه مسألة مهمة بعضكم سيواجه هذا الأمر والشيعة عندهم جرأة وإقدام في الكلام ومغالطة، فلا بد أن يكون لكم بعض العلم بأقوال الشيعة وبالردود عليها، ستجدون أن كثيرا من المسلمين من أهل السنة متحمسون ولا يعرفون شيئا عن الشيعة فمما تفيدون به إخوانكم أن تعرفوا شيئا عن الشيعة ومن كتبهم والأحسن أن يكون من الكتب الحديثة إن وجدت هذه الكتب يعني أول ما تقول لهم يا أخي هم يسمون أنفسهم شيعة بعض الناس لا يريد حتى يعترف بأن هنالك شيعة، قل له يا أخي فيه أولا هذه حقيقة كوجود الأشجار والأنهار فهنالك قوم اسمهم شيعة وهم يقولون أنهم مخالفون لأهل السنة، فاسألهم ماهي الأشياء التي يخالفون فيها أهل السنة ولا نتحدث عن الأشياء التي يختلف فيها الشيعة نركز على الأشياء التي يجمع عليها الشيعة والأشياء الأساسية، لا نتكلم عن المسائل الفرعية فهذه المسائل الأساسية ينبغي أن تعرفوها وتعرف بعض الردود عليها من أخطار الشيعة التي أرها في العصر الحديث أنها شقت وأحدثت فتنة في كثير من الجماعات الإسلامية كنا نذهب إلى البلاد فنجد أن العاملين للإسلام من الشباب كلمتهم واحدة وجماعتهم واحدة ثم جاء الشيعة فأحدثوا بينهم خلافات وبعضهم صاروا متحمسين لإيران فأحدثوا خلافات وأثروا في بعض المسلمين الجدد فتنة أنت تقنعهم وتكلمهم عن الإسلام عن أصول الإسلام والتوحيد فيأتونه ويعطونه كتاب عن الأئمة الاثني عشر، فأحدثوا بعض الفتن فأرجو أن يكون لكم معرفة حتى لو لم تكن محاضرة هنا أنا رأيت في قائمة الكتب كتاباً عن الشيعة والسنة، على الأقل هذا الكتاب اقتنوه وهنالك في المكتبات كتب في هذا

الموضوع، لكن من أراد منكم أن تكون له حجة أقوى فليقرأ في كتبهم الحديثة ويقرأ ما يكتبونه في الصحف ولا تكتفي بما يكتب على سبيل الدعاية، لأن الأشياء التي تكتب باللغة العربية تكتب للدعاية فقط، وهنالك رسالة جيدة جدا قرأتها قريبا للشيخ أبو الحسن الندوي ستجدونها في الغالب في أمريكا فأرجو أن تطلعوا عليها وهو يناقش كتابا للخميني مكتوب باللغة الفارسية.

س: فضيلة الشيخ ما تفسيركم للضعف الظاهر في عالمنا الإسلامي في تطبيق الحضارة الغربية في جوانبها الإيجابية التي لا تتعارض مع الإسلام؟ وماهي الوسائل التي عن طريقها تحقق ذلك في نظركم وشكرا؟

ج: ضعف المسلمين حتى في دينهم ضعفاء ليس في تطبيق الحضارة الغربية فقط، ومن أسباب القوة إن شاء الله ومن أسباب النهضة أنتم هذه الأشياء لها بدايات نحن نرجو منكم أن تكونوا أحسن ممن سبقكم أن تعرفوا دينكم وتلتزموا به فتكون عندكم ثقة به واعتزاز وأنكم على الحق وأن كل من لا يدين بالإسلام على الباطل فلا يكون الواحد منكم شخصية مهتزة كل ما يقوله لك أي إنسان تعتبر كأنه حقيقة وما عندك أنت هو الذي فيه شك، كثير من الناس عندما خرجنا من هنا قال لي أحد الطلاب إنه كان في بريطانيا وناقشت بعض الناس وبعض الكلام الذي قالوه له كلام خرافة، قلت له يا أخي كما أنهم قالوا لك ما دليلك على كذا وكذا قل لهم ما دليلكم أنتم على هذا الكلام الذي قلتوه، لماذا أنت تكون دائما في موقف الدفاع والمطالب بالدليل إذا قال لك كلاماً لا تسلم بأن كلامه هو الكلام العلمي والكلام العقلي وتخاف قل له ما دليلك أنت فنريد أن يتخرج إن شاء الله في العالم الإسلامي شباب يعرفون دينهم ويعتزون به ويلمون بالحضارة الغربية وبواقع العالم ويأخذون حتى في أشخاصهم بالأحسن والمفيد من العلوم فيجتهدون كل في تخصصه يجتهد فيه ويبرز فيه ويحاول أن يكون عالما إن شاء الله، لا نريد أن نبقى دائما تلاميذ للغربيين نقرأ كتبهم ونترجم إلى اللغة العربية ومجلاتهم نريد أن يبرز منا ومن بينكم إن شاء الله بعض العلماء الذين تترجم كتبهم إلى اللغات غير العربية، وهذا ليس بالسهل النهضات دائما يبدأها أفراد إذا نظرتم في تاريخ الغرب هذا ما بدأ بحكومة وإنما بدأ بأفراد، نيوتن هنا وفلان هنا اجتهد وكان هؤلاء العلماء يعيشون عيشة الزهاد، ومازال بعضهم

كذلك وهذه من النواحي الإيجابية في حياتهم علماؤهم هؤلاء لا يفكرون كثيرا في الدنيا من حيث جمع المال والمظاهر وكذا أنا درست مع رجل مكثت معه سنة كاملة ما رأيته غير بدلته ويأتي في الأسبوع مرة كل مرة يأتي بنفس البدلة لأنه مشغول يكتب ويناقش ليس مهتما بالمظهر والزخارف، فلا بد من أن يتخرج إن شاء الله منكم من هذا النوع الذي يكون مستمسكا بدينه ومجتهدا ومبرزا في العلم الذي تخصص فيه ومعتزا ليس بدينه فحسب بل حتى بتقاليده، الأشياء التي هي من باب التقاليد لماذا أترك تقليدي إلى تقليده من السخف مثلا وإن كان هذه مسألة دينية أن يذهب إنسان مثلا إلى بريطانيا فيجد الناس يأكلون بشمالهم فيأكل بشماله لماذا ويجد عسرا في هذا الإنجليزي يأكل بشماله بسهولة لكن هذا ما يستطيع يتعب لكن يظن أنه سيقال له إنك غير متحضر إذا أكل بيمينه، فحتى الأشياء التي هي من باب التقاليد لا تتركها لأن تركها يدل على الضعف ويدل على أنك تحب أن تقلدهم في كل شيء ثم إذا درستم هذه العلوم أيضا ادرسوها بعين ناقدة لا تكون كالإنسان الذي يسلم بكل ما يقال له، هم أنفسهم أؤكد لكم أن المبرزين منهم لا يفعلون هذا أبدا الطلاب الأذكياء منهم والذين يأتون بنظريات جديدة ليسوا هم الطلاب الذين يقبلون كل ما يقال لهم ويحاولوا فقط أن يحفظوه ثم يكتبوه على ورقة الإجابة أبدا الطالب النجيب والذي يرجى منه هو الذي يفكر فيما يقال له ويعلق عليه وينتقده فنريد أيضا أن تكون هذه من مزاياكم فإذا عدتم حاولتم أن تطبقوا على مجتمعكم أحسن الأشياء التي درستموها أورأيتموها وأن تنفوا عنه كل شيء يعني أخذه الناس بمجرد التقليد، أنا في رأيي أن هذه أول خطوة وإن شاء الله تتبعها خطوات أخرى.

س: من خلا ل الضوء الذي ألقيته في بيان التفاسير أن ما كل آية في القرآن نحن قاطعون في فهم معناها كاملا في أن تناقش وتقيم فيما كان أمران قاطعان أو كان قاطعا وظني أو إن كانا ظنيين إلا ترى أيها الأستاذ الفاضل أننا هنا قد فتحنا ثغرة نستعملها في التشكيك والأخذ من عقيدتنا، هلا تكرمت بالرد بالمنطقي الثابت على هذه الثغرة

ج: ما هي هذه الثغرة لست أدري وهذا ليس كلامي هذا كلام عالم كبير جليل من علماء المسلمين وهو شيخ الإسلام ابن تيمية ماهي الثغرة هل تدعي دعوى باطلة تقول

أنا أعرف معنى كل آية أنا ما قلت كل أن الناس لا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم يعرف لكن ما كل الناس يعرفون والعلماء يختلفون في معاني بعض الآيات إذا قرأتم في التفسير تجدون هذا فنحن لا نقول إننا نقطع بأن القرآن كلام الله ونعرف المعنى العام لمعظم القرآن الكريم لكن المعنى الدقيق لبعض الآيات لا نعرفه، قد لا يعرفه إلا قلة منا فهذا ما فيه ثغرة والحفاظ على الدين بمعنى أنك تقول لا نناقشه أبدا ولا نقارن بينه وبين العلم خوفا عليه هذا نفسه يدل على الضعف، وهو شيء مستحيل كما قلته لكم مستحيل عليك إلا أن تعذب نفسك أن تكون مختصا في علم من العلوم وتكون متدينا وتقرأ القرآن الكريم ولا تخطر ببالك بعض الأسئلة وأنت تقرأ القرآن، مستحيل هذا فلا بد من أن تعرف كيف تجيب على هذه الأسئلة التي تخطر ببالك لا تحاول أن تكبتها وتقول هذه مالها علاقة بالقرآن الآن أقرأ القرآن فقط لا يمكن .

س: فضيلة الشيخ من أهم قوانين الفيزياء والتي درسناها خلال المرحلة الثانوية أن المادة لا تفنى ولا تستحدث فهل يعني من اجابتكم الكريمة أن هذا القانون خطأ حيث أن الكون كله ليس أزليا ولفضيلتكم جزيل الشكر؟

ج: نعم أنا قلت لكم كتبت مقالا فيه شيء من التفصيل في هذه المسألة وهذه من الخرافات التي شاعت باسم الفيزياء أولا هي ليست حقيقة ألسنا تحدثنا عن الحقائق ليست حقيقة، ما أحد يقول أنه وجد أن المادة كلها لا تستحدث ولا تفنى ما فيه فهي ليست حقيقة وإنما هذا شيء رابع حتى غير النظريات وغير القوانين إنما هو فرض من الفروض وبعض العلماء من الغربيين كما ذكرت في ذلك المقال انتقدوا هذا الكلام هذه العبارة بشكلها هذا هي فلسفة يونانية ثم لأن الغربيين متأثرون بالفلسفة اليونانية هنالك ظاهرة وجدوها فأرادوا أن يعبروا عنها فعبروا عنها بهذا التعبير غير الصحيح ماهي الظاهرة كما تعرفونها أنتم في المدارس أنا إذا أحرقت هذا ووزنته الآن ووجدته نصف رطل وأحرقته ووزنت الرماد فلا أجده إلا ربما أوقيه أو كذا أوأقل فأين ذهبت في الماضي يقولون أن هذه فنيت انتهت أصبح لاوجود لها العالم الآن يقول لا إن الدخان الذي خرج والغازات إذا جمعناها كلها ووزنها تكون كوزنها الأول، إذا الصندوق هذا بالرغم أنه قد ذهب وصار رمادا لكن هذه المادة تحولت إلى أشكال أخرى من كذا

ومن كذا ولذلك الذي نصل إليه أن كمية المادة ثابته ولذلك بعض الناس في التعبيرات باللغة الإنجليزية كانوا يقولون في الماضي لما كنا طلاب لا تخلق وعندما ترجمناها رأينا أن هذه تسبب مشكلة فقال لا تستحدث فنستعمل كلمة أخف لكنها نفس المعنى لكن لو قال المادة لا تخلق كيف لا تخلق مع أن لا تستحدث لا تخلق أليس كذلك ؟ فلعب علينا المترجم وقال المادة لا تستحدث ولا تفنى فهم الآن يقولون كميتها ثابته، ما نتعرض أنها خلقت أو ما خلقت وقلت لكم كذلك في المقال نقلت كلاما عن أحد العلماء وهو ليس من المتدينين قال يمكن أن تكون كميتها ثابته وأن تخلق وتفنى وضرب مثلا جيدا جدا مثل بحساب جاري في البنك أنا عندي المصرف عشرة آلاف ريال أعطيت واحد شيك بألفين وأدخلت في البنك ألفين حسابي هو هو ثابت لكن أخرجت منه وأدخلت فيه، وبكرة عملت نفس الشيء فيه حساب ما أحب أن أتعامل معه بالكاش لكن ما أحب أن حسابي في المصرف ينقص لأن المصرف يقول لي مثلا أن أقل من عشرة آلاف لا يمكن فأعطيه ألف من هنا وأدخل ألف من هنا فيظل الحساب ثابتا، وضرب مثلا أحسن من هذا قال تصور أن هنالك صهريج ماء نصب فيه ماء من هنا ونخرج ماء من هنا بقدر الذي صببناه هنالك، هل تتغير كمية الماء التي في داخل الصهريج ؟ لا تتغير هل يظل الماء نفس الماء الذي صببناه أول مرة ؟ لا يتغير حتى مثلا لو كان الماء الذي في البداية لونه أخضر وبعد قليل صببنا ماء عاديا وبعد مدة سيكون الماء عاديا ثم صببنا ماء أحمر وبعد قليل سيكون احمر، فالكمية ثابتة لكن المادة متغيره فقال إن الإنسان المتدين يمكن أن يقول هذا يقول إن الله سبحانه وتعالى دائما يخلق ذرات ويفني ذرات وتكون الكمية ثابتة فالكلام الذي درسوكم إياه ليس بصحيح، من ناحية دينية ليس بصحيح، لان الله خالق كل شيء ما قال الله خالق كل شيء إلا المادة وإذا ما خلق المادة ماذا يخلق، وليس صحيحا من الناحية العلمية.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

***

الغزو الفكري

وهو لقاء مفتوح مع الدكتور جعفر ضمن فعاليات مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.

عبارة الغزو فيها بعض التجوز، فكأنه أصبح هذا الفكر هو الشيء الطبيعي فلا يعتبر غزواً فكريًا، فمثلا حينما يقال لماذا يقتل المرتد ؟ هذا السؤال في الماضي ما كان ينشأ، لكن ما الذي جعله ينشأ ؟ الذي جعله ينشأ هو الاعتقاد بأن الديمقراطية هي النظام الطبيعي، في نطاق الديمقراطية ما فيه مجال لقتل الإنسان المرتد فلذلك ينشأ السؤال، أو بعض الأشياء المحرمات مثل تحريم لحم الخنزير لماذا ؟ لأن الغربين لا يأكلون لحم الخنزير، هذا هو السبب فقط، فلهذا يصبح قضية، أذكر مرة كنت أتكلم في جامعة من جامعات بريطانيا لبعض المسلمين، فسألني أحد الإخوان قال لماذا لا نأكل لحم الخنزير؟ فقلت لمَ يسأل هذا السؤال، فقال رئيس الجلسة إذا لا تريد أن تجيبه أنا أجيبه، فسأل الذي سأل الأخ الذي سأل السؤال وقال له لماذا لا نأكل لحم الكلاب؟ فلم يجب، وقال لا نأكله وقال له لماذا لا تسأل لماذا لا نأكل الكلاب؟ لماذا سألت عن الخنزير؟ فلم يب فقال أنا أجيبك ما سألت عن الكلاب لأن الإنجليز لا يأكلونه، فاعتمدت أن ما يفعله الإنجليز هو الأساس هو الشيء الطبيعي وما لا يفعلونه هو الأمر الشاذ، فهناك قضايا فأنا ذكرت منها أشياء أثناء الكلام، منها كالقضية التي ذكرتها بالمحاضرة الأولى وأنا في رأيي أنها أكبر قضية وهي الاعتقاد بأن الموجود هو الموجود المادي، هذه القضية تؤثر في تصورات كثيرة عندنا تؤثر في تصور الإنسان للألوهية، تؤثر في تصوره للملائكة، تؤثر في تصوره في نعيم الآخرة، لأنه إذا اعتقد أن الموجود حقيقة هو هذا وهو مع ذلك يريد أن يؤمن بالله ويؤمن بالملائكة ويؤمن بنعيم الآخرة فلابد أن يتصوره وكأنه شيء ليس بحقيقي، إما في عالم الأفكار أو يدخله في العالم النفسي أوفي كذا لكن لا يكون موجوداً حقيقياً؛ لأن الموجود الحقيقي الخارجي الذي يمكن أن يُرى ويمكن كذا هو الموجود المادي، هذه من الأفكار الغربية التي أثرت في المسلمين، ليس من الفكر الغربي الحديث فقط وإن كان قلته في المحاضرة وإنما هو من الفكر اليوناني؛ لأن الفكر اليوناني كان فكراً مادياً، وبالمناسبة العبارة المشهورة (المادة لا تستحدث ولا تفنى) عبارة يونانية ثم جاءت وأخذت

شكلاً فيزيائياً وصارت تقال لأبناء المسلمين وكأنها جزء من الحقائق الفيزيائية، لا ما كانت حفظ الكتلة حفظ الكتلة تعبير أحسن لكن المادة هذه العبارة المادة لا تستحدث ولا تفنى، حتى أنا أقول للطلاب حتى الذي ترجمها، ترجمها بطريقة تكون ما فيها استفزاز لمشاعر المسلمين وإلا هي في أصلها المادة لا تخلق، ولو قال المادة لا تخلق ما كان الناس قبلوا، ولكن لو قال ما تستحدث ولا تفنى فقبلوا، وهي نفس المعنى أما إذا قلت إن كمية المادة لا تتغير هذا ما فيه شيء ضد الدين، لأن الفكر اليوناني كان فكراً مادياً إلحادياً، فكان يعتقدون أن هذه المادة أزلية لأن الذي يقول بعدم وجود الخالق لا بد له أن يقول أن المادة أزلية وإلا فيكون السؤال من أين جاءت ؟ فيقول ما جاءت من العدم فيعطيها بعض صفات الله تعالى بأنها ليس لها بداية وليس لها نهاية وهذا هو الله سبحانه وتعالى من صفات الله هو الأول والآخر فلا بد له من أن يعطي هذه المادة هاتين الصفتين، واستمر هذا الاعتقاد إلى زمان نيوتن، فقط اختلفوا طوال العصور في ما المادة الأزلية أما أن المادة أزلية فهذا كان عندهم مُسَلّم به فقديماً ما كانوا يعتقدون بأن الأزلي هو المادة الكبيرة الأجرام السماوية وتقرؤون كلاما للغزالي في الرد على بعض الفلاسفة اليونان كان يقول أن الشمس أزليه فالغزالي كان ردوده ذكية جداً فأستعمل كل الحجج العقلية على ما يدل أن الشمس ليست أزلية، هو كان يقول إن هذه الشمس ما رأيناها ولا قال أبآنا ولا سمعنا ولا قرأنا في كتبهم أنها كانت أكبر من هذا فنقصت أو زادت، فالغزالي قال ليس من الشرط الفناء أو الذبول مثل أن يفنى الشخص مرة واحدة هكذا، في الحقيقة أن أكثر ما أضعف المذهب المادي هو تطور العلم، بعكس ما يظن الناس، يعني أن التطور العلمي في الحقيقة هو تطور لصالح الدين، لأن الدعامة الأساسية للماديين كانت أن المادة أزلية، فصاروا كلما قالوا هذه هي الأزلية جاء العلم قال هذه ليست أزلية فبدأوا بالأجرام الكبيرة هذه، طبعاً الآن كل إنسان يعرف أن الشمس مثلا تنقص كل يوم تنقص أطنان بهذه الأشعة التي ترسلها، بدأوا يتنازلون من الأشياء الكبيرة إلى الاشياء الصغيرة فظنوا أولاً بالعناصر، العنصر معناها هي العناصر الأساسية التي يتكون منها المادة الذهب والفضة والحديد والنحاس والأكسجين والهيدروجين ثم بعد قليل تبين أن هذه أيضاً مكونه من جزئيات، والجزئيات متكونه من ذرات قالوا الآن وصلنا إلى

الجزء الذي لا يتجزأ (الأتم)، وهذا هو الذي بنت عليه بالمناسبة الفلسفة في البداية حتى الفلسفة الماركسية بنيت على هذا أن الذرات هي الأزلية ولهم طريقة في تفسير الكون كان الماديون يقولون إن في البداية ما كان هنالك إلا ذرات وأن هذه الذرات عددها غير متناهي وهي أزلية وأبدية وأن الكون يتكون منها بطريقة المصادفه وتطور العلم قليلاً وأثبت أن الذرات مكونه واستمر البحث والاكتشاف أجزاء أصغر وأصغر حتى أني آخر ما قرأت أنه تحت الذرة قريب من مائة، ثم تبين أنه لا حد فاصل بين المادة وبين الضوء من الناحية النظرية يمكن أن المادة نظريا تتحول إلى ضوء كما أن الضوء نظريا ممكن أن يتحول إلى مادة، فإذا أصبح ليس هنالك شيء بحسب ما يعرف العلماء ليس هنالك شيء يمكن أن تشير إليه وتقول هذا هو الأزلي، زمان ممكن كانوا يشيرون إلى الأجرام السماوية أو إلى العناصر او إلى الذرات الآن ما فيه شيء، إذا أشار إلى أي واحدة من هذه أقول له أبداً هذه تفنى، بعض الناس طبعاً نقول له هذه تفنى وهذه تفنى وهذه تفنى يقول المادة لا تفنى لماذا لا تفنى وما هي؟ تصبح المادة التي لا تفنى هي المادة التي لا صفات لها المادة التي لا يتعامل معها العلماء، العالم لا يتعامل إلا مع مادة، حتى ما يسمونه النيترون لها صفات فالعالم لا يتعامل مع مادة ليس لها صفات يمكن أن تتحول إلى شيء آخر فإذا ليس هناك مادة يمكن أن نشير إليها بأيدينا ونقول هذه هي المادة الأزلية، والغريبة أن هذه من الحقائق التي أدركها ماركس، ولكن ما استطاع أن يجمع بينها ما استطاع ان يلاحظ التناقض بين هذا القول وبين القول بأن المادة أزلية، لو لا حظه يمكن تغير تاريخ الماركسية، فهو قال كلاما صحيحا قال بأن المادة التي لا صفات لها لا توجد إلا في أذها الفلاسفة وهذا كلام صحيح جداً، إذا أضفنا إلى هذا حقيقة علمية وهي أنه في الواقع المادة التي ليست في أذان الفلاسفة وإنما المادة الموجودة أمامنا هي ليس منها شيء أزلي، إذا نقول إن المادة ليست أزليه وأنا كتبت مقالة وقلت لنقرب الصورة لنفرض أنه ليس في الوجود إلا ثلاث صور للمادة ثلاث صور فقط نفترض أن منها واحد مثلث وواحد مربع وواحد دائرة ونقول بصحة المبدأ أن الكتلة يعني أن كمية المادة لا تتغير فعندنا هذه المادة وهذه المادة وهذه المادة إذا فنيت هذه ماذا يحدث إذا فني المربع ما عندنا إلا ثلاث صورة هذه وهذه وهذه إذا فنيت الدائرة تتحول إلى مثلث وإذا فني المثلث تتحول إلى مربع وإذا فني المربع

وهكذا، هل نستطيع أن نشير إلى أي واحدة منها ونقول هذه باقية ؟ما نستطيع إذا ما الباقي لا شيء كل واحدة منها يمكن أن تزول ولكن سيكون دائمة الوجود ثلاثة الثلاث مثلثات أو الثلاث مربعات أو موجود منها كلها وهذا لا يتناقض مع الدين لأن الذي يتناقض مع الدين أن نقول إن هنالك شيء أزلي وشيء دائم أزلي لأن هذه صفة من صفات الله تعالى وبما قاله أحد الفلاسفة الغربين وهو فليسوف ليس مؤمناً قال إن التعبير أن المادة لا تستحدث ولا تفنى تعبير أكثر مما يريد العلم، ممكن تقول تفنى وتستحدث وفي نفس الوقت هي كميتها ثابته وضرب مثل قال لو عندك صهريج من الماء تصب فيه ماء من هنا وهو مفتوح لكن كمية المادة التي تصب هي كمية الماء الذي يخرج، هل كمية المادة التي في الصهريج تتغير؟ هل نوعها يتغير؟ ما تتغير نفرض أن نصب وبعد كل فترة تتغير اللون مره يكون أخضر مرة أزرق لكن الكمية ثابته وهو رجل ملحد فكذلك يمكن أن نقول إنه تحدث ذرات وتفنى ذرات ولكن الكمية ثابته، فالقول بأن المادة لا تفنى ولا تستحدث كما قلت لكم هو تعبير يوناني فجيء به والصق في العلم والآن إذا سئلت ما أكبر انحراف فكري يمكن أن يؤثر في عقول المسلمين هو هذا القول بأن المادة هي الشيء الموجود حقيقة لأن هذا يؤثر في تصورك صفات الله وفي تصورك للملائكة وفي تصورك للدار الآخرة، الناس يميلون دائما إلى من يفسر لهم هذه الأشياء تفسيرا يتناسب مع هذا الاعتقاد، وليس كافرا يقول أنه لا يوجد إلا المادة لكن هذا يؤثر فيه تأثيراً كبيرًا، وأنا تعبت مع الطلبة جداً لما كنت أدرسهم مثلا واحد يقول لي، أنا أقول المادة في كل صور من صورها تفنى، أنت تفنى يقول أنا ما أفنى إنما اتحول إلى تراب طيب هل هذا التراب هو أنت إذا أنت مت وإذا وجدنا أمك تبكي نقول لها ما تبكين نعطيها التراب ونقول هذا ابنك لكنه تحول، هذا ليس ابنها الذي تبكي عليه مادة لها صورة معينة ولها خصائص معينة هذه المادة بهذه الصورة بهذه الخصائص تحولت، الآن وأنا ظمآن تعطيني كمية هيدروجين واكسجين ممكن يتكون منها ماء وتقول لي اشرب هذا ليس ماء، لو فيه ماء حللته إلى أكسجين وهيدروجين ما أصبح ماء لا يفيدني بشيء، فالماء انتهى لا بقي هيدروجين وأكسجين، الهيدروجين والأكسجين ينتهي أو لا ينتهي نعم ينتهي يتحول إلى شيء آخر فكل مادة في صورة معينة بخصائص معينة هي قابلة لأن تموت تتحول

إلى شيء آخر كما أن الإنسان يموت، فالإنسان تحول إلى هذه الأملاح وبعض العناصر، هذه تتحول إلى كذا هذه تتحول إلى كذا، ليس هناك مادة يُشار إليها بالبنان ويقال هذه لا تتحول ولا تتغير، وهذا أنا في رأيي لو كان هذا العلم الغربي علم عند المسلمين لكان بالعكس أوضحنا أن العلم يسير في طريق مؤيد للدين ومحرج للماديين؛ لأن الماديين في الماضي ماذا كانوا يقولون؟ يقولون أرنا الله جهرة إذا ما رأى بعينة هل فيه مادي يقول الآن بهذا ثم ليس هذا فحسب العلم الآن من مناهجه المعتبرة جداً أن الشيء حتى لو ما رأيناه حتى لو كان مما لا يمكن أن يرى يمكن أن نستدل عليه، هل الذرات يراها الناس ؟ لا تُرى كيف نعرفها بآثارها فهذا مبدأ منهجي علمي وبنفس المنهج الذي يستعمل في الدين، أن الله سبحانه وتعالى لا يرى الآن لكن يستدل عليه بموجوداته أخرى وهكذا المادة بعض الأشياء يستدل على وجودها بوجود أشياء أخرى بل بعض العلماء الفيزيائيين كانوا قبل أن يكتشف الشيء، بعض الأجرام السماوية كانوا يستنتجون وجودها بعمليات حسابية ثم يأتي التجريبيون فيوجهوا التلسكوب إلى المكان الذي قال الفيزيائيون نظرياً إنه يوجد فيه هذا الكوكب فيجدونه، فالعلم في الحقيقة سار في طريق محرج للماديين هذا من ناحية المادة أزلية أو ليست أزلية، كان أيضاً إلى حين قريب المعهد الذي درست فيه أنا طالب في الفلسفة كان السؤال عن أن الله موجود أو غير موجود وهو يعتبر كأنه من قلة الأدب يعني أن هذه مسألة فرغنا منها لا تسال عنها خلاص وكان بعض الفلاسفة هنا جاءوا من امريكا يقول لك أن السؤال نفسه غير مشروع الآن تغير الوضع، لماذا تغير لأن نظريات الخلق في الماضي كانت تعتمد على أن المادة أزلية وأن هناك ذرات كثيرة لا حصر لها ولا عدد كانوا يسمونها السوب ومن هذه السوب تكونت الأشياء بعد قليل تغير هذا وصار أكبر نظرية أشار عليها العلماء الآن نظرية، وهي (بق بان) وهي تقول أن المادة كلها كانت في كتلة واحدة فانفجرت وتكون منها الكون فأصبح السؤال طبيعي، فصار كثير من الجماعة يقولون والله الآن السؤال عن الخلق سؤال مشروع ولا بد أن يسأل طبعا بعض العلماء سيقولون ومعهم حق يقول أنا بصفتي عالما فيزيائياً يقول لا تسألني من أين جاءت هذه ؟ أسالني ما ذا حدث بعد مجيئها، إذا أنت فيزيائي لست مهتما بهذا الموضوع أنا مهتم به، فإذا كنت لا تستطيع أن تجيب عليه من ناحية

فيزيائية فهذا ليس معناه أن السؤال غير مشروع، فاصبحوا يقولون السؤال مشروع ولذلك عاد الكلام عن وجود الخالق، بدأوا في السنوات الأخيرة رأيت عدة كتب في هذا وأصبح الكلام عن وجود الخالق كلام مشروع لكن مع الأسف أن الخالق الذي يعرفونه هو هذا الخالق الذي يتكلم عنه فلاسفتهم أو النصرانية أنا أحياناً أجد في نفسي بعض العطف مع بعض الملحدين هؤلاء وهذا الخالق الذي أنكروه نحن أيضا ننكره، هو شيء لا يقبله العقل، فلو أن هذ العلم كان عند المسلمين أولو أن المسلمين المعاصرين أصبح لهم صوت مسموع بعضهم أكتشف شيء أو كذا وأصبح معروف الناس يستمعون إليه فيه كتاب الآن كنت اراجع تايمز هذا الأسبوع هو الثاني والثلاثين وهو في قائمة العشرة كتب هذه أسمه (هستري أف تايم) كتبه كاتب يعتبر أكبر فيزيائي معاصر وهو من أعجب مخلوقات الله كواحد انجليزي عنده مرض كل مرة يضعف أعصابه ما بقي له الآن إلا أن يحرك أصبعه فقط لا يتكلم ولا يتحرك وجالس على كرسي وعنده كمبيوتر يضرب عليه وهذه طريقة مخاطبته للناس والمعادلات كلها في رأسه، حتى قال واحد إن هذا أثبت أن العقل هذا ماله علاقه بالجسم لأن الجسم ما فيه فايدة أبداً ما بقي إلا العقل، فيخاطب الناس بأصبعه، الكتابة تتحول إلى صوت بهذه الطريقة فهذا كتب كتاب وهو ملحد، عن كيف الكون بدأ وكيف الخلق بدأ بالنسبة للبشر سهل فلو أن عالما مسلما كتب كتاباً مثل هذا لقال أن الكون مخلوق له خالق له صفات كذا كذا؛ لأن الكلام في الفيزياء عن هذه الأمور فيها كلام من السخف ما لا تجده عند الفلاسفة المهم أنهم يبحثون كيف أن هذا الكون هذا شيء طبيعي عند البشر، وبالمناسبة من الأشياء التي تجعلني دائماً أهتم بمسالة صفات الله تعالى والرد على هذا الفكر الذي كان يسمى الذي بالفكر الإسلامي الجهمية ومازال فكرا وهذه مسالة انتبهوا لها من الأشياء التي يقررها مؤرخو الفكر الغربين أن الذين وضعوا أسس الإلحاد كانوا مؤمنين بالخالق، بالفعل كيف وضعوا أسس الإلحاد وصفوا الله بصفات وتصوروا علاقته بالكون بطريقة جعلت وجوده غير مهم فكانت الخطوة التي تليها ما فيه لزوم لهذا الخاق مادام أنه موجود ولا تأثيرله في الكون لأنه لما خلق الكون ووضع كل القوانين وكذا وكذا ماله علاقة بالله إذا ما دام الكون الآن شغال وغير محتاج فليس هناك لازم لهذا

الافتراض، أو (كانت) يقول لك إن قانون السببية هو قانون يصف العلاقة بين الأشياء التي في هذا الكون، أما علاقة الكون نفسه بشيء خارج الكون فلا ينطبق عليه قانون السببية، فلذلك لا تستطيع أن تقول أن تنتقل من الكون إلى خالق الكون لأن إذا انتقلت ستقول إن هذا الكون لابد ان يكون له سبب وموجد وكذا يقول لك هذا التصور للسببية تصور خطأ، لماذا قال هذا لا أدري، وجاء أناس بعده فقالوا (كانت) نفسه كيف عرف أن فيه خالق ؟ مادام ما يمكن الانتقال ما دام لا يمكن الانتقال من الكون إلى خالق الكون إذا ما فيه خالق، فلنحذر هذا مسألة العقيدة أن الله سبحانه وتعالى تصور صفاته تصوراً صحيحاً هذه مسالة مهمة و هذا القانون الذي قاله الغربيون كان يقول قريبا منه أهل السنة كانوا يقولون للجهمية هذا الذي تعبدونه ما هو، إذا كان لا يوصف بأنه لاحي وفوق ولا تحت ولا طويل ولا قصير ولا رحمان ولا رحيم ولا كذا كانوا يقولون لهم أنتم تعبدون عدماً وفعلاً الفارق بين الإلحاد وبين هذا التصور لأسماء الله وصفاته لا شيء.

س: ما التوجيه العملي لعلاج مثل هذا الأمر ؟

ج: هذا أنا قلته بالنسبة لأشياء أخرى يعني أنا عندي الذي يدرك الخطأ الحمد لله هذا تسعين في المئة لكن لإدراك الخطأ مهم لذلك أن قلته من الناحية العملية سألني شاب سعودي تكلمت مرة عن أسلمة العلوم وأن هذه العلوم ينبغي أن لا تدرس يعني كل العلوم الذي تدرسونها الآن، سواءً كانت علوم اجتماعية أو طبيعية لا تتصورون ماعدا الكمبيوتر ما فيه علم من هذه العلوم يدرس في فراغ، كلها تدرس في إطار فلسفة معينة، هذه الفلسفة لا تذكر ما فيه كتاب في الفيزياء أو كذا يبدأ يقول لك انتبه ما فيه خالق، لكن، ولكن يفترض أنه ما فيه خالق ولذلك كما قلت إن الإلحاد أصبح جزءا من مفهوم العلم أليس كذلك؟ الآن عندما تقول إن فلانا فسر هذه المسألة تفسيراً علمياً ما معناه ؟ معناه أنه وجد لها أسباب من داخل الكون إذا قال أنا والله اكتشفت أن هذه المسألة من تأثير الملائكة يكون تفسير علمي؟ ما يكون تفسير علمي خصوصاً في اللغة العربية شيء مؤسف الشخص الذي ترجم (الساينس) هذه بعلم سبب لنا مشكلات، لأنه في اللغة الإنجليزية الآن هناك فرق بين (نلوج) (وساينس) (ساينس) أخص و(نلوج) أعم هذا ترجم لنا كلمة (ساينس) بعلم فاصبحنا في مشكلة

فاصبح الناس الآن عندما يقولون العلم يقصدون (ساينس) لكن في اللغة العربية خلاص، أصبح العلم، القرآن كله مليء بالعلم، فاصبح هذا ليس علماً وأهم العلم عندنا وأوثق علم وأشرف علم هو العلم بالله تعالى فأصبح هذا ليس علما، وأصبحت التفسيرات التي جاء بها القرآن الكريم كلها ليست تفسيرات علمية بحسب المصطلحات إنما هي تفسيرات دينية فأصبح الإلحاد جزءا من مفهوم العلم إذا أردت أن تفسر الشيء تفسيرا علميا معناه تبحث له عن سبب لا علاقة له بشيء غير مادي، فهذا شره في العلوم الاجتماعية أكبر ثم ليس هذا الإطار فقط نتأثر نحن أحياناً حتى في الآراء العادية التي يقولوها إنسان في الاقتصاد أو في الإعلام أو في علم النفس رأي عادي يعني عادي فيأتي الأستاذ ويقول للطلاب إن علم النفس الحديث أثبت كذا كذا، كان يأتوني الطلاب ويقولون إن الاستاذ يقول إن علم النفس الحديث أثبت كذا فأقول لهم أي واحد في علم النفس، مدارس علم النفس كثيرة وكيف أثبت شوف كيف التشويش على الناس، علم النفس الحديث تتصور أن علم النفس الحديث له أشناب جالس هناك في امريكا ويثبت الأشياء فتخاف منه، ولذلك حدث شيء غريب في كل البلاد حتى في المملكة بعض الأساتذة للدراسات العلياء وأساتذة المدارس، حصل تغير غريب في الماضي كان الناس يسلمون بالمسائل الدينية ويتساءلون عن الآراء البشرية الأن أنعكس الأمر إذا دخل استاذ الدين وقال قصة آدم يقولون يا استاذ لكن يقولون إن الإنسان كان أصله قرد إذا جاء الآخر وقال كان أصله قرد او سمكة أو أي فهذا العلم لا يناقش، فأصبح الشيء الذي ينبغي أن يدرس بطريقة نقدية ويشجع الطلاب على أن يبدو آرائهم أصبح يدرس بطريقة تلقينيه، أنا والله أحمد الله سبحانه وتعالى ما درسني الفلسفة عرب لأن سأقول لكم قصة كنا ندرس في جامعة الخرطوم يدرسنا شخص سويدي وهذا الشخص السويدي يدرسنا فلسفة اسمها الفلسفة الوضعية المنطقية وهو بلغة أهل الحديث سنده في هذه الفلسفة عالي جداً السند، العالي هو أن يكون أقرب إلى صاحب القرار كان يدرسنا هو درس على واحد في أمريكا اسمه راشن باخ راشن باخ هذا شيخ حلقة كانت في فينا هذه الحلقة هم الذين أسسوا هذه الفلسفة، فهذا كان يدرسنا بأن هذه الفلسفة نشأت في كذا، ثم اختلف الجماعة كذا كذا، ثم تطورت وتغير رأيه في كذا، في هذا الوقت أخرج الأستاذ زكي نجيب

محمود وهو يمكن أكبر شخص يعرف الفلسفة الغربية في العالم العربي؛ مصري تعرفونه الآن تجاوز الثمانين أخرج كتابا اسمه الوضعية المنطقية باللغة العربية نحن كنا ندرس الفلسفة باللغة الإنجليزية، نقرأ الكتاب عن الوضعية المنطقية باللغة العربية، إن أول صفحة فيه الوضعية مذهبي ما بقي له إلا أن يقول ألقى الله عليها، وهي كذا وهي كذا كأن ما فيها أبداً شك، وكأن ما حصل فيها تغيير دفاع عن الوضعية المنطقية من أول الكتاب إلى آخره، وزكي نجيب محمود هذا أيضاً في كتابات أخرى يقول لقراء من العرب عن بعض الفلسفات التي يؤمن بها يقول هذه فلسفة العصر، أنت تخاف إذا قلت كلاماً غير فلسفة العصر معناها أنت عايش في القرون الوسطى خصوصاً إذا كان الشاب أو كذا يريد أن يكون إنساناً معاصراً يعيش عصره، في مره ثالثة أذكر أنه قال ثم جاء عصرنا ليقول كذا كذا، وهذا الذي قال جاء عصرنا ليقوله هو رأي أستاذ درسني اسمه (ببر) له رأي وأنا أعرف بعض الناس ينتقدونه فيه، فزكي نجيب يقول جاء عصرنا ليقول كذا كذا، فمن أسوأ الأشياء أن تدرس هذه العلوم سواءً كانت علوم طبيعية أو علوم اجتماعية بطريقة تقريرية، وتقول للطالب هذا كذا وكذا وكأنها حقائق ما فيها شك، فهذا الشاب سعودي عندنا سألني وقال أنا أدرس إعلاماً، لكن لا أدري كيف أدرسهم من وجهة نظري الثانية قلت له هذه المسألة تحتاج إلى بحث وإلى دراسة، ويكون لك فهم أعمق في القرآن وفي السنة لكن أقول لك شيئاً ابدأ به، أولاً ابتعد عن أن تدرس طلابك هذه المسائل بطريقة تقريرية، اقرا في الإعلام حاول أن تبحث عن آراء مختلفة هذا قال كذا وأذكر هذا للطلاب جون كذا قال كذا مستر سميث خالفه في هذا المدرسة الأمريكية تقول كذا ولكن هناك مدرسة ماركسية تقول كذا، اجعل المسألة مضطربة في أذهانهم لا تقول هذا كأنها مجمع عليها خصوصا النظريات، النظريات هي التي تضر أما الحقائق أو الإحصاءات فهذه لا تضر بشيء، ثم عندما تقرأ أنت حاول أن تنتقد بينك وبين نفسك وانقل هذا إلى أبنائكم وطلابك قل لهم سميث قال كذا والماركسية قالت كذا والرأسمالية قالت كذا وأنا في رأيي كذا كذا، ثم قل لهم ما رأيكم أنتم أنا متأكد أن لوكان هذه العلوم تدرس عندنا بمثل هذه الطريقة لنشأ فينا بعض علماء حقيقيون؛ لأنك يمكن أن تظل قرن كامل تدرس علم بالطريقة

هذه التقريرية لا يخرج من طلابك إنسان عنده أصالة أبدا، وسنظل دائما تلاميذ للغربيين وكثير من علمائنا في العالم العربي رضوا لأنفسهم بهذا زكي نجيب محمود دائما أنا أضرب به مثلا، وأقول هذه فلسفة، والفلسفة هي أكثر شيء فيها اختلافات، فإذا كان إنسان في قدرة هذا الرجل وفي ذكائه وفي مقدرته على التعبير أنا أشهد أنه يكتب هذه الفلسفة الغربية بلغة عربية سلسة وكأنها كتبت بهذا في أول الأمر فإذا كان رجلا مثل هذا رضي بنفسه أن يظل في إلى ما بعد الثمانين أن يظل تلميذا للفلاسفة الغربيين لن يأتي بشي جديد.

س: كيف يمكن للمسلم أن يصيغ هذه العلوم إلى العربية بطريقة سليمة ؟

ج: العلوم يا أخي نوعان أنت الأن تتحدث عن العلوم الطبيعية، أكثر العلوم التي تؤثر في عقول الناس ليس العلوم الطبيعية وإنما علم الاجتماع علم النفس والتاريخ هذه تؤثر حتى في عقل صاحب العلم الطبيعي لأنه سيعيش هذا الجو الثقافي ما في إنسان مثقف يعيش في علمه فقط يتأثر ومن المعروف في تاريخ الفكر الغربي أن بعض النظريات في العلوم الطبيعية أساسها أفكار اجتماعية من مشهور ومن معروف جداً أن نظرية دارون مأخوذة من نظريات سبنسر حتى مالثوس، وقد نقد ذلك مفكر ماركسي قال نقداً لطيفاً، فقال إن النظرية كانت في علم الاجتماع نظرية رأس مالية نظرية مالثوس وسبنسر نظرية رأسمالية من أقبح النظريات؛ لأنه بالنسبة له يقول إن الفقير هذا ما فيه فائدة وأن المرض يحل إشكالاً فيقول سبينسر إن الذي لا ينتج عن كذا ولا يكون يعني له أهمية في المجتمع فسيموت ومن الأحسن أن يموت، فهي فكرة أساسية في نظرية دارون فيقول إنجلز إن النظرية نظرية اجتماعية أخذها دارون وجعلها نظرية طبيعية ثم جاء الاجتماعيون وأخذوها مرة ثانية فسموها الدارونية الاجتماعية، وعندما أخذوها للمرة الثانية أصبح كأن لها أساس من العلم ولم تصبح مجرد كلام قاله سبنسر أو كذا لا، إنما كلام قاله دارون يعني له شواهد وكذا وأخذ بمنهج علمي، فالمهم أن كثيراً من النظريات في العلوم الطبيعية متأثرة بالعلوم الاجتماعية، فالجو دائما الثقافي هو جو واحد هذا يؤثر في هذا وهذا يؤثر في هذا، فالذي يؤثر في عقول الناس هو فكر العلوم الإنسانية والاجتماعية هذا الذي يؤثر في أفكار الناس أكثر مما تؤثر العلوم الأخرى، لكن مثل ما تفضل الأخ هذه العلوم أيضاً كما قلت لكم في إطار، مهما كانت فليس هناك شيء اسمه علم بحت ما له علاقة بثقافة الناس إلا

الحقائق العينية هذا كذا وهذا كذا، في القرآن الكريم آيات ملفتة للنظر في مسألة أن كيف التصور يؤثر في إدراك الإنسان بعض الحقائق مثلا قال الله سبحانه وتعالى عن الكفار في مرورهم على قرية قوم لوط: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾، ما كانوا يرون الأشياء الحسية هذه إلى الآن نراها ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]، ولذلك ما استنتجوا منها النتيجة المفروض التي تستنتج، نحن الآن نقرأ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، هذا أولو الألباب هم الذين يستنتجون من هذا أن الكون له خالق، إذا جاء من أول مرة وهم مصمم على أن الكون ليس له خالق وما تغني الآيات والنذر، ولذلك نفس هذه القصة يقولها القرآن الكريم في آية أخرى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، فكأن إنكار الآخرة ينقص من العقل ويجعل الإنسان لا يستنتج النتائج المفروض أن تستنتج، ولذلك يربط القرآن بين كمال الإيمان وكمال العقل ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]، فالإيمان تكملة وتقوية للعقل هذا هو الذي نقول إن العلوم الاجتماعية لا تؤثر في الإنسان في أنه يرى هذا لون أخضر وهذا لون أسود لا تؤثر فيه لكن تؤثر أنه ماذا يستنتج منه وكيف يحكم على الأشياء، هذا مؤكد له تأثير فيه، مؤكد أن الطريقة التي يستنتج بها إنسان ملحد وينظر بها إلى الوجود كأن هذا له حواس غير حواس هذا، يعني ربما نحن أحياناً لا نستطيع أن نضع نفسنا في موضع الكافر، لكن أنا أحياناً فعلا أقول مرة كنا في كابرج كنت في الصبح والصبح في كابرج في بريطانيا شيء لطيف جداً، فصحوت الفجر هذه ساعات ما أنساها أبداً الجو كان جميلاً جداً، ونظرت إلى النافذة فرأيت الزهور والطيور وكذا، فيأتيك شعور طبيعي أن تحمد الله سبحانه وتعالى، فالكافر إذا رأى هذا ماذا يقول؟ فلابد أن يكون حتى استمتاعه بالأشياء الدنيوية ناقصة يعني أنا أعتقد أن الشكر هذا من كمال الاستمتاع، أما أن أنظر إلى الطيور والزهور وأقول شيء جميل فقط فما يكون الاستمتاع الذي قد اكتمل، فالفكر الاجتماعي أو الإنساني الغربي هذا يؤثر على التصور للأشياء.

س: هل جميع مناهج البحث غير سليمة وصالحة ؟

ج: لا يا أخي نتيجة البحث شيء مشترك بين الناس، فمثلا كونك تشاهد الشيء أو تجربه وتستنتج منه، الاستنتاج تدخل فيه التصورات هذه، لكن حتى الاستنتاج في حدود شيء مادي ما فيه اختلاف كثير ربنا ما خلق المؤمن له طبيعة مختلفة عن الكافر، وإنما وسائل المعرفة واحدة، الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، ما عندنا طريقة لإدراك العلوم لا الدينية ولا الدنيوية إلا هذه الثلاث، سمع وأبصار وأفئدة يعني حواس وعقل نعرف بها الدين ونعرف بها الدنيا، ستختلف بعد ذلك في التفاصيل بحسب العلم المدرك فيه بعض الأشياء نطلب فيها الإدراك الحسي المباشر لأنها بطبيعتها هكذا أشياء تحس، فيه أشياء تاريخية لا يمكن أن نطلب منها شيء مباشر فالعلم هو الذي هو يحدد بعض تفاصيل المنهج، فما أظن المناهج ستكون المشكلة كبيرة، لكن المشكلة هي في الفلسفة التي توضع فيها.

س: هل كل ما جاء من الغرب يكون مضراً ؟

ج: أحياناً نحن نفكر أن هذه الأشياء مضرة لنا، وكأنها جاءت من الغرب وغزو أنا عندما جئت لأمريكا منذ أكثر من عشر سنوات أقول للناس في العالم الإسلامي والله أكبر شعب مستذل ومضطهد هو الشعب الأمريكي؛ لأني لما جئت فعلا ما وجدت شيئا اسمه أمريكا، وجدت جماعة رأسماليين يريدون المال على حساب أي شيء آخر، فأكثر شعب مستغل وأفكاره مضللة وقيمهم محطمة هو الشعب الأمريكي بسبب هؤلاء الرأسماليين، في التلفزيون الآن هناك إنسان عاقل يعمل برامج مثل برامج الأمريكيين في التلفاز، الإنسان منذ الصغر كل يوم يسمع في التلفزيون ألف مرة (دلا، دلا) مثل التسبيح، هذا يؤثر، مرة سألني واحد أمريكاني في اجتماع مثل هذا أنتم تعتبرون مجتمعاتنا من ناحية خُلقية متدهورة، قلت له نعم إذا كان المجتمع الأمريكي مثل هذه إذا كان ما أراه في التلفزيون يمثل حياتكم فأنا ما أعطيكم إلا سنين قليلة وتنتهوا، وإذا ما انتهيتوا تكونوا أثبتم أن كل هذه الأديان باطلة، كل الأديان كلها حتى الأرضية منها، قال لي كيف ؟ قلت الأديان كلها حتى الأرضي منها تقول للناس لا تبالغوا في الأكل ولا في الشرب ولا في المتع ولا في الجنس، اعتدلوا أنتم تقولون لا جنس وشراب وإذا كان مع كل هذا استمررتم وعشتم تكونوا قدمتم أن هذه الأديان

كلها باطلة، لا يمكن أن الناس يعيشون بهذه الطريقة التي تبث هذه الأمور، وأنا عرفت بعد ذلك أشياء أخرى كثيرة، يكتشف علاج مثلاً مرض أن الدخان هذا يسبب أمراضاً يقول هذا شيء عرف من زمان جداً، وأول ما عرفه شركات التبغ لكنها تخفي ذلك أو أن واحداً مثلا يقدم بحث لعلاج السرطان، فيقول لك علاج السرطان نكسب منه مبالغ كثيره فيخفي هذا العلاج، يعني تحصل بعض الأمور التي لا يمكن أن يتصور الإنسان أن يعملها بشر فه ووبال عليهم وعلينا.

س: هل يمكن أن يوجد الغرب نظاما بديلا عما هم عليه ؟

ج: الأصل الآن لا يوجد نظام جديد هم الآن بدأوا يراجعون بعض ما هم عليه مثلا مرض الإيدز هذا بالمناسبة هذا ليس مرضا للأجسام فقط، ولكن خلخل بعض المعتقدات الغربية، المعتقد كان الذي ساد في الغرب من مدة أن كل هذه القيود التي وضعتها الأديان أشياء ما لها لزوم يعني أشياء تعسفية، وأن الناس يمكن أن يعيشوا كما يريدون رجالا ونساء رجل لرجل وامرأه لامراة أي وضع تشكيلة يمكن أن تعيش، وكانت مسألة الجنس هذه لا تعتبر متعة فقط وإنما تعتبر تحريراً للإنسان يعني ارتبطت كأنها مسألة روحية، وكثير من القصص التي كانت تكتب كأن الناس كانوا يعتبرون أن كشف الجسم هذا والتعري هذا تخلصاً وليس متعة جنسية فقط وإنما (ربيريشن) هو تخلص من القيود التي وضعتها الأديان كان فكرة، فالإيدز هذا صدمهم صدمة عنيفة، فثبت لهم أن المسالة ليست كما تريدون، فكنت أسمع في بعض البرامج عند استعراض لبعض المشاكل العالمية في التلفاز أن أكثر من ستين بالمائة من المصابين بالإيدز هم (الساكشول) وكل الحجج التي تقال لهم من الدين أو غير الدين ما كانوا مقتنعين بها، ويطالبون بحقوق ومظاهرات فهذا الآن زعزع هذه الاعتقاد أن هذه العلاقة ليست بعلاقة طبيعية، فالأسر لابد أن تكون في أسرة بأنواع هذه العلاقات فسيكتشفون أنه إما الأسرة وإما هذه العادات هل يرجعون إلى الأسر ؟ لا أدري!

س: ما رأيك في كلام أركون في أن التاريخ الإسلامي مجرد شعارات إسلامية فقط؟

ج: هذا كلام سخيف قديم، الغربيون الآن ما عندهم تاريخ ما حدث فيه مثل ما حدث في التاريخ الإسلامي، وأسوأ مما حدث، وهل كل ما حدث في التاريخ هو جزء

من الإسلام، ولابد أن يحدث في كل الناس، وحتى هذا الذي حدث ماذا يساوي بالنسبة لما يحدث الآن، أحياناً يقولون عدد القتلى من اليهود كذا، كل اليهود الذين قتلهم النبي كم ؟ أبداً لا يساوي ما يقتل الأمريكان في يوم واحد، في فيتنام أضعاف أضعاف ما قتله المسلمون في تاريخهم يعني هناك مبالغات، أو يقول لك إن المسلمين اختلفوا منذ السقيفة وبعض المسلمين يرددون هذا، كيف اختلفوا جماعة اجتمعوا في مكان قالوا من نرشح فقالوا أناس منا نحن وهؤلاء قالوا لا والمسألة انتهت في نصف يوم تبقى أبد الأبدين، وهل كان يفترض أن المسلمين يجتمعون ويقولون من ننتخب.. أبو بكر ؟ إذاً لا يمكن هؤلاء بشر كل الاختلافات ما حدث عند المسلمين أقل بكثير مما حدث في البلاد الأخرى، فالناس يبالغون أحياناً.. مرة كنا في مؤتمر في البحرين فوقف رجل فعرفت أنه وزير قال كيف نحكم بالإسلام هناك مشاكل ما حُلت الخليفة لا بد أن يكون من قريش والشورى مُلزمة أو غير مُلزمة، وجاء بكل الاختلافات فقلت له اختر أي واحدة منها اختر واحكم بالإسلام، فقلت له لو أن الديمقراطيين هؤلاء فكروا بطريقتك فلا يحكمون بالديمقراطية يجلسون يتجادلون قبل أن نحكم بالديمقراطية، لا نحدد هل تكون برلمانية أو رئاسية تكون الانتخابات كل خمس سنين أم كل أربع سنين، وماذا يعني افرض المسلمين اختلفوا أو لم يختلفوا الشورى مُلزمة أو غير مُلزمة، فالناس أحياناً يضخمون اختلافات المسلمين، وهل نحن الآن مشكلتنا ماذا نفعل إذا وصلنا إلى الحكم متى سنصل ؟ قبل أن نصل نشغل الناس الآن أننا إذا جئنا إلى الحكم هل ستكون أحزاب أو لا تكون أحزاب، ومعظم هؤلاء الذين يسألون واحد مؤيد لعبدالناصر وواحد مؤيد لحافظ الأسد وواحد مؤيد لصدام حسين وليس هناك واحد من هؤلاء عمل أحزاباً، وكثير لا يذكرون الديمقراطية والحرية إلا إذا كان الكلام عن الإسلام، أبداً نحن أيضاً إذا جئنا لا نعطيكم، إذا ما أعطيتمونا لا نعطيكم أبداً، والله وحتى الأخ الغنوشي مثلا لو صار وزيراً وهذا رأيه المسلمون لا يتركوه، يريد أن يعطي الشيوعيين حرية والله المسلمون يعملون مظاهرات، إذا تكون حزب شيوعي يهجمون على مكانهم ويقتلون الناس الذي فيه، بعدها ماذا يفعل يقتل المسلمين لأنهم قتلوا الشيوعيين ما يستطيع هذا الذي دعا الأستاذ سيد قطب إلى أن يقول استنبات البذور في الهواء يقول نحن الآن بعيدين من الحكم، أذكر مره واحداً قال لي المضيفات ماذا نعمل لهن؟ نعمل مضيفين رجال أم نساء، دع تفكيركم

عملياً، وما يظنوا أنه لابد أن تحل كل مشكلة، أنا جعفر شيخ إدريس لو وجدت فرصة أحكم السودان والله بكرة أحكم، ما لازم أعمل مثل أبيبكر وعمر أقلل من الشر الموجود هذا، وأنا أفكر في الجماعة التي كانت معنا نميري وغيره لا يساوون شيئاً كيف حكموا السودان خمسة عشر سنة، وأنا أبداً من أول يوم أقول لازم أحل كل المعضلات هذه، وأقول وزارة الداخلية ستكون كذا وكذا، ووزارة الإعلام ستكون كذا وكذا، وحرية هذا تفكير غير عملي.

س: ما هي الظروف التي جعلت الشباب في فترة الستينات ينجر وراء هذه الأفكار؟

ج: أنا عشت فترة الشباب في تلك الفترة، أنا أقول لك بعض الأسباب مثلاً في السودان السبب الأول طريقة التعليم الغربي ما كنا نحن ندرس شيئاً عن الدين، والذين درسوا منا مثلاً أنا وكذا ربما كان عندنا بعض علماء وجماعة من أقاربنا وكنت أدرس الدين عندهم، لكن لم تكن هناك دراسة دينية هناك حصة واحدة في آخر اليوم حصة واحدة بالأسبوع اسمها حصة الدين، فالفكر الذي غزى الناس هو كان الفكر الغربي، العلماء المسلمون ما كان عندهم معرفة بالأوضاع الاقتصادية ولا السياسية كانوا علماء فيما يسمى بالأحوال الشخصية، ويعيشون كما يقال خارج التاريخ ما لهم تأثير كبير، من الأشياء الغريبة في السودان أن الذين نشروا الفكر الماركسي كانوا إنجليز هم حاكمين، ثم سألت بأنها كبرت عندنا فما السبب ؟ فقيل إن بعضهم من حزب العمال البريطاني وكان عندهم الأفكار الاشتراكية وكذا كذا، ثم الفكر الغربي دائماً الفكر الغربي الرأسمالي هذا يكون مقدمة للفكر الماركسي، لذلك أنا أقول لكثير من الشباب بالسعودية إذا كان ما فيه شيوعية الآن بعد قليل تأتي وتأتي من الفكر الغربي، وإن كان غورباتشوف أظن خدم المسلمين خدمة كبيرة، وما فيه أحد كسر الماركسية مثل ما كسرها غورباتشوف، أنا أقول لا بد نطلع إشاعة نقول إن غورباتشوف هذا عميل إسلامي مش تقولون عميل صهيوني وكذا ما لنا عملاء، فالفكر الماركسي جزء منه أيضا رد فعل من الاستعمار، وكانت روسيا تمثل يعني حالة الشعوب المضطهدة، فنحن عشنا فيه جو فيه ضغط رهيب ضغط الجو الماركسي رهيب على العقول.

جزاكم الله خيراً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

* * *

صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية

قُدم هذا البحث بقاعة الصداقة بالخرطوم ١٧ رجب ١٤٢٣هـ الموافق ٢٤سبتمبر سنة ٢٠٠٢م.

إذا أردنا للحديث عن صراع الحضارات أن يكون حديثاً تبنى عليه مواقف فكرية وعملية فيحسن ألا يكون حديثا عاماً، بل يحسن أن نشير فيه إلى وقائع وحالات محددة، لذلك نقول ما الحضارات التي تتصارع الآن؟

لكي نجيب عن هذا السؤال يحسن أن نتفق على ما نعنيه بكلمة الحضارة، في بحثنا هذا على الأقل. الحضارة كما نستعملها هنا هي الكلمة العربية المقابلة للكلمة الانجليزية civilization فالحضارة بحسب ما نراه هنا مكونة من جوهر ومظهر. أما الجوهر فهو معتقداتها وقيمها وأنماط السلوك الشائعة فيها، وأما مظهرها فهو انجازاتها المادية من قوة عسكرية واقتصادية، ونظم سياسية وعمران.

الحضارة بهذا المعنى مفهوم محايد، أعني أنه لا يدل بنفسه على مدح أو ذم، شأنه في ذلك شأن عبارات الأمة، والأئمة، والخُلق والدين وغير ذلك. فالأمة قد توصف بالاستقامة أو الزيغ، والأئمة قد يكونون هداة إلى الحق أو موردين لمتبوعهم إلى النار، والخُلق قد يكون حسناً وقد يكون سيئاً، والدين قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً. وكذلك الحضارة قد توصف بالمادية أو الإيمانية، وبالقوة أو الضعف.

فما الحضارات ـ بهذا المعنى ـ التي تتصارع في عصرنا؟

لا نستطيع ـ فيما أرى ـ أن نشير في واقعنا الراهن إلى حضارة ماثلة محددة المعالم إلا حضارة واحدة هي الحضارة الغربية. وذلك أننا حين نتحدث عن الحضارة الغربية نستطيع أن نشير إلى دولٍ قائمة تتمثل فيها هذه الحضارة: فهنالك دول أوروبا الغربية، والولايات المتحدة، وكندا، وأستراليا ونيوزيلاندا. يجمع بين هذه الدول كونها كلها ذات نظام سياسي واحد هو الديمقراطية الليبرالية العلمانية، وأن بينها علاقات وتعاون، وأن لها تاريخاً واحداً مشتركاً، وأن الديانة النصرانية هي أكثر الديانات انتشاراً بين شعوبها. بل إن هذه الدول لتشترك شعوبها حتى في أزياء رجالها ونسائها، وفي كثير من اذواقها الأدبية والفنية. هذه الدول في مجموعها هي أقوى دول العالم اقتصاداً، وسلاحاً، وتأثيراً إعلامياً. حضارتها هذه هي الحضارة الغالبة المهيمنة على العالم.

هل نستطيع أن نقول مثل هذا عن أية حضارة أخري في واقعنا الراهن؟ كلا. نستطيع أن نشير إلى أقطارٍ أخرى إشارات سلبية بأن نقول إن حضارتها ليست غربية بالمعنى الكامل. فاليابان تشبه دول الحضارة الغربية في نظامها السياسي وفي تقدمها الاقتصادي، وتخالفها في تاريخها، وفي الدين السائد بين أهلها. وهي صديقة للغرب ومتعاونة معه لا مصارعة. وقل مثل ذلك عن الهند .أما الصين فإنها تشبه الدول الغربية من حيث نموها الاقتصادي، بيد أنها تخالفها في نظامها السياسي والاقتصادي. لكن حتى هذين النظامين ليسا بنابعين من ثقافة صينية أو تاريخ صيني وإنما هما مستوردان من فكر غربي هو الفكر الماركسي .

مجموعة الدول التي كانت تسمى بالاتحاد السوفيتي كانت متشابهة في نظامها السياسي والاقتصادي، وكانت لها قوة عسكرية ورسالة أيدُلوجية ومطامع توسعية، فكانت هي فعلاً المنافسة للغرب، لكنها حتى في أوج عظمتها لم تكن تمثل حضارة متميزة. أما بعد تفكك اتحادها وسقوط نظامها السياسي والاقتصادي وذهاب بريقها الأيدلوجي، فقد صارت دولاً ضعيفة تحاول أن تتأسى بدول الحضارة الغربية في أنظمتها، كما تحاول تحسين علاقاتها بتلك الدول، ولا سيما الولايات المتحدة، طمعاً في مالها وجاهها.

ماذا بقي؟ بقيت الدول الإسلامية. هل نستطيع أن نقول إنها تمثل اليوم حضارة بالمعنى الذي وصفنا به الحضارة الغربية؟ نقول آسفين: كلا. فإنه ليس لها نظام سياسي واحد إسلامياً كان أو غير إسلامي، وليست ملتزمة كلها بالإسلام في نظمها الاقتصادية أو التعليمية أو الإعلامية أو غيرها. وليس بينها تعاون حقيقي يذكر رغم انضمامها كلها إلى عضوية المؤتمر الإسلامي .فليس هنالك إذن حضارة إسلامية قائمة قياماً مادياً يميزها تمييزاً كاملاً عن الحضارة الغربية، ودعك أن تكون في صراع معها. نعم كانت لنا في الماضي حضارة، بل كانت الحضارة الإسلامية هي الحضارة العالمية الوحيدة إلى بداية القرن السابع عشر الميلادي، حضارة اعترف بوجودها وقوتها معاصروها، ويعترف بوجودها المؤرخون. والمختصون بالدراسات الإسلامية حتى من الغربيين المعادين .وعليه فنستطيع أن نقول إنه ليس هنالك في واقع الأمر صراع بين حضارة غربية وأخرى إسلامية، لأنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية بالمعنى الذي توجد به حضارة غربية، أو بالمعنى الذي كانت توجد به حضارة إسلامية .فما مشكلتنا مع

الحضارة الغربية إذن؟ مشكلتنا أن الحضارة الغربية ليست راضية حتى بهذا القليل الذي تبقى لنا من الحضارة الإسلامية، بل تريد لنا ولغيرنا أن لا نكون عقبة في طريق مصالحها القيمية أو المادية، بل أن نكون تابعين في كل ذلك لها. ومع أنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية، إلا أن الحضارة الغربية ذات حساسية بالغة من أية بادرة بعث لتلك الحضارة لسبب تاريخي. إن قادة الفكر الغربي لا ينسون، كما أن كثيرين منا لا ينسون، أن الحضارة الإسلامية كانت كما قلنا هي الحضارة العالمية حتى القرن السابع عشر الميلادي. استمع إلى المستشرق اليهودي برنارد لويس وهو يقول في شيء من شماتة: ظل الإسلام لقرون طويلة أعظم حضارة على وجه الأرض - أغنى حضارة، وأقواها، وأكثرها إبداعا في كل حقل ذي بال من حقول الجهد البشري. عسكرها، أساتذتها وتجارها كانوا يتقدمون في موقع أمامي في آسيا وأفريقيا وأوروبا، ليحملوا ما رأوه الحضارة والدين للكفار البرابرة الذين كانوا يعيشون خارج حدود العالم الإسلامي.

ثم يمضي ليقول: ثم تغير كل شيء. فالمسلمون بدلا من يغزو الدول المسيحية ويسيطروا عليها، صاروا هم الذين تغزوهم القوى المسيحية وتسيطر عليهم .مشاعر الإحباط والغضب لما عدوه مخالفا للقانون الطبيعي والشرعي ظلت تتنامى لمدة قرون، ووصلا قمتهما في أيامنا[1].

فقادة الحضارة الغربية يخشون على حضارتهم من كل بادرة إحياء لتلك الحضارة التي كانت سائدة. ومما يزيد من خوفهم قول المختصين منهم في التاريخ الإسلامي، إن للإسلام مقدرة عجيبة على العودة كلما هُزم.

ما الإجراءات التي يجب أن تتخذ لضمان عدم عودته؟ اختلفت الإجراءات في تفاصيلها بحسب الظروف العالمية، وبحسب التكتيكات الوقتية، لكن أمرين

---

(١) لويس، برنارد. جريدة الوشنطن بوست ١٠ سبتمبر ٢٠٠٢م.

For many centuries Islam was the greatest civilization on Earth -- the richest, the most powerful, the most creative in every significant field of human endeavor. Its armies, its teachers and its traders were advancing on every front in Asia, in Africa, in Europe, bringing, as they saw it, civilization and religion to the infidel barbarians who lived beyond the Muslim frontier.And then everything changed, and Muslims, instead of invading and dominating Christendom, were invaded and dominated by Christian powers. The resulting frustration and anger at what seemed to them a reversal of both natural and divine law have been growing for centuries, and have reached a climax in our own times (The Washington Post, Tuesday, Sept. 10, 2002, p. A15).

استراتيجيين اثنين لم يتغيرا، هما ضمان عدم رجوع الأمة إلى فهم صحيح للقرآن الكريم، وضمان استمرارها ضعيفة محتاجة إلى الغرب، أي ضمان عدم توفر الشرطين اللازمين لتمكين الأمة وبالتالي لحضارتها، وهما الكتاب الهادي والسيف الناصر[1]. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

في عهد الاحتلال المباشر لبلدان العالم الإسلامي، كان أول ما فعله المستعمرون اقصاء العلم الشرعي عن المدارس والجامعات، وحصره في دوائر ضيقة روعي أن لا يكون لها علاقة بالمجتمع ولا بالعصر. وفي هذا العهد استغلت ثروات البلاد لتغذي مصانع أوربا وتقوي اقتصادها .

بعد انتهاء عصر الاستعمار والدخول في الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي، انشغل الغرب بعدو ماثلٍ أكبر، فلم ير بأساً من التعاون التكتيكي مع بعض حملة هذا الفهم الصحيح كما حدث في أفغانستان. لكن الهدف الاستراتيجي لم يُنس أبدًا؛ فقد ظل الغرب الديمقراطي بقيادة الولايات المتحدة هو -إلى حد كبير- الذي يصنع الحكومات غيرالديمقراطية ويدعمها، مراعاة لمصالحه، وخوفاً من أن تكون الديمقراطية ذريعة لوصول الإسلام إلى السلطة.

أمريكا والنظام العالمي الجديد:

وبسقوط الاتحاد السوفيتي واستتباب الأمر للحضارة الغربية، دخل العالم مرحلة جديدة، مرحلة القوة العالمية الكبرى الواحدة، التي لا تدانيها من حيث إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية والتقنية والإعلامية قوة أخرى. وبدأت تظهر تبعاً لذلك معالمُ نظامٍ عالمي جديد، ما تزال تفاصيله محل نقاش كبير في الولايات المتحدة. لكن

---

(١) لكن هذا لا يعنى أن الحضارة الغربية هي السبب الوحيد لفقدان المسلمين لهذين الشرطين، فمن أسباب ذلك ما قد يكون محليا، بل ما لا بد أن يكون محليا، لأن ضعف الأمة الديني والمادي كان هو السب في هزيمتها. ولما عرف العدو ذلك حرص على استمرار أسباب الضعف وساعدته على ذلك عوامل محلية في الأمة نفسها.

يمكن تلخيص اتجاهات هذا النقاش في اتجاهين كبيرين: الدعوة إلى الانفرادية، وضرورة الاستمرار في العمل ضمن الأطر العالمية السائدة.

الاتجاه الانفرادي:

يرى أصحاب الاتجاه الانفرادي الذي تقوده عصبة ممن يسمون بالمحافظين الجدد، أن تستبد الولايات المتحدة باتخاذ ما تراه من قرارات وسياسات تحقق مصالحها، وتنشر قيمها من غير تقيد بأعراف ولا قوانين دولية، ولا بمؤسسات عالمية كالأمم المتحدة. وهم يعتمدون في تسويغهم لهذا الرأي وتسويقه على أمرين:

أولهما: القوة الاقتصادية والعسكرية الهائلة للولايات المتحدة التي لم تعد تدانيها فيها قوة أخرى، هذه القوة التي جعلت الجميع يعترفون بأنه لم تعد توجد الآن إلا قوة عالمية كبرى واحدة. لكن الأعراف الدولية والقوانين العالمية السائدة حتى الآن هي - في رأي المحافظين الجدد - من مخلفات نظام عالمي قديم، اقتضتها ظروف لم يعد لها الآن وجود. ولذلك فلا جناح على الولايات المتحدة إلا تلتزم بها مادام الأمر قد استتب لها. إن الولايات المتحدة قد بلغت من القوة شأواً لا تدانيها فيه دولة أخرى. فميزانية وزارة الدفاع هي أكبر من مجموع ميزانيات الدول الاثنتين والعشرين التي تأتي بعدها، ويقولون إنها ستكون بحلول عام خمسة بعد الألفين أكبر من مجموع ميزانيات الدفاع في كل أنحاء العالم! وإذا كانت عادٌ قد قالت فيما مضى ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ فإن أمريكا تقول اليوم لا أحد أشد منا قوة في الحاضر، ولم يكن أحد أشد منا قوة في الماضي. ولكن كما قال ربنا لعاد، نقول لمن أطغتهم القوة اليوم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

يقول أصحاب هذا الرأي من المحافظين الجدد: إن على أمريكا أن تكون هي- لا المنظمات العالمية، بل ولا حتى حُلفاؤها من الدول الغربية-، التي تقرر ما هو حسن وما هو سيء بالنسبة للعالم، وأن تتصرف بحسب حكمها من غير التزام بقرارات يفرضها عليها غيرها. فلسان حالهم يقول: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. هذا لا يعني - كما يقولون - إلا تستشير الولايات المتحدة غيرها، وإلا تتعاون مع من يريد التعاون معها، ولكنه يعنى بصورة حاسمة أنه لا أحد له الحق الآن في أن

يلزمها بما لا تلزم به نفسها. ولئن لم تفعل هذا فسيكون مثلها كمثل الذي تقيده أقزامُ للبيوت، كما قال أحدهم. جلفر Gulliver.

وثانيهما: أن عامة الأمريكان يعتقدون أنهم أصحاب رسالة عالمية. رسالتهم هي رسالة الحرية، فهم لا يرون أنفسهم بأقوى الدول فقط، وإنما هم أخيرها، بل هم خير أمة عرفها التاريخ البشري، فهم بزعمهم أكثر الناس تدينا، وأشدهم استمساكا بالأخلاق الفاضلة. نظامهم السياسي كما يرون أحسن نظام، ودستورهم أحسن وثيقة كتبت في التاريخ، ونظامهم الاقتصادي أنجح نظام، وقضاؤهم أعدل قضاء، ونظامهم التعليمي أرشد نظام، ونظامهم الصحي أفيد نظام، بل وسجونهم أكثر السجون إنسانية. أمريكا هي بلد الأحرار وبلد الشجعان وبلد الفرص. وعليه فإن استبدادهم بالأمر سيكون لخير البشرية»؛ لأن الأمريكان كما قال أحد مفكريهم هم «حداة البشرية في سيرها نحو الكمال» لا يملك المرء إلا أن يذكر مرة أخرى مقالة فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ولهذا تجد زعماءهم السياسيين يستغلون فيهم هذه النزعة الرسالية وإن شئت فقل الحمية، حمية الجاهلية، فيحرضون شعبهم - ولا سيما العسكريين منهم - على التضحية من أجل هذه المُثل العليا، لا من أجل المصلحة الوطنية بالمعنى المحدود، لأنهم يعلمون أن الذي يحرك الإنسان هو الاعتقاد في مثل هذه المثل، لا مجرد الدفاع عن أرض أو مصلحة مادية، وقد ظهر هذا جلياً في الخطاب الذي ألقاه الرئيس جورج بوش لخريجي كلية وست بوينت العسكرية. فمن العبارات التي جاءت في ذلك الخطاب، الذي أنصح بقراءته: «أن أمريكا تدافع عن الحرية، وأن العَلَم الأمريكي حيثما رُفع فلن يكون رمزاً لقوتنا فحسب ولكن للحرية. لقد كانت أهدافنا دائماً أكبر من مجرد إننا كلما حاربنا فإنما نحارب من اجل سلام عادل، سلام يختار الحرية الإنسانية. سندافع عن السلام ضد تهديدات الإرهابيين والحكام المستبدين إننا نريد لغيرنا ما نريد لأنفسنا ـ أمن من العنف، خيرات الحرية، والأمل في حياة أحسن. إن محاربة الإرهاب تحتاج إلى صبر، ولكنها تحتاج أيضا إلى هدف خُلقي. إن أعداءنا اليوم كما كانوا أيام الحرب الباردة شموليون، يؤمنون بمبدأ القوة التي لا مكان فيها للعزة الإنسانية. لقد كان الوضوح الخُلقي ضرورياً في انتصارنا في الحرب الباردة. يرى بعضهم أنه ليس من الدبلوماسية، وربما كان من سوء الأدب، أن نتحدث عن الحق

والباطل. لكنني أختلف معهم. نعم إن الظروف المختلفة تقتضي وسائل مختلفة لكنها لا تقتضي أخلاقاً مختلفة. إن الحقيقة الخُلقية واحدة في كل ثقافة وفي كل زمان، وفي كل مكان. إن هنالك صراعاً بين الحق والشر، وستسمى أمريكا الشر باسمه»[١].

لكن الذي يشكو منه كثير من الأمريكان أن هذا الشعور بقيمة أمريكا وتميزها بدأ يضعف جداً في أجيال الشباب الذين هم الآن في المدارس والجامعات. فقد انتشرت بينهم انتشاراً مخيفاً فواحش الإباحية، والشذوذ الجنسي وتعاطي المخدرات، وما استتبعه ذلك من غلبة للاتجاه الفردي والسخرية بالخلق والمثل.

دل استطلاع لبعض المدارس قبل جيل مضى بأن أكبر المشكلات التي يعاني منها الطلاب هي: عدم احترام الممتلكات، والكسل وعدم أداء الواجبات المنزلية، والحديث في الفصل وعدم الانتباه، التراشق بكور الورق المبلول بالبصاق، ترك المنافذ والأبواب مفتوحة. فلما أعيد ذلك الاستطلاع للمدارس نفسها قبل سنوات قليلة، كانت النتيجة أن أكبر المشكلات هي: الخوف من القتل العنيف بالبنادق أو السكاكين في المدرسة، الاغتصاب، المخدرات، الحمل، الإجهاض[٢].

ولهذا صار كثير من الأمريكان لا يرسلون أولادهم إلى المدارس العامة، بل يفضلون لهم التعليم المنزلي

وكثيرا ما يحزن المرء حين يرى مسلما حاز على البطاقة الخضراء فطار بها فرحا إلى أمريكا ليقذف بالبنين والبنات من أطفاله في هذا المستنقع الآسن.

ومع انتشار الثقافة الغربية، وضعف الوازع الديني بدأ هذا الفساد ينتشر في بلدان العالم كله، بما في ذلك بلادنا الإسلامية.

الاتجاه الائتلافي:

أما الاتجاه الائتلافي فلا يجادل أصحابه إخوانهم الانفراديين في كون الولايات المتحدة هي القوة العالمية الكبرى الوحيدة، ولا فيما يتميز به الشعب الأمريكي من صفات، لكنهم يرون أن الانفراد غير ممكن عملياً وإن أمكن فليس في مصلحة بلادهم. ومما يذكرونه في هذا الصدد:

---

(١) نص خطاب الرئيس الأمريكي منشور في موقع البيت الأبيض:
http://www.whitehouse.gov/news/releases/2002/06/20020601-3.html

(٢) Peter Kreeft, Ecumenical Jihad, Ignatius Press, 1966, San Francisco, pp.61-2.

- أن ما صار يوصف الآن بالنظام العالمي القديم كان إلى حد كبير من صنع الولايات المتحدة، وقد كان نظاماً ناجحاً حقق لها ما تريد فما الداعي الآن للانقلاب عليه وتقويضه؟

- أن القوة الحربية للولايات المتحدة ذات علاقة وثيقة باقتصادها، واقتصادها ليس أمراً محلياً تستطيع أن تصنع فيه ما تشاء، بل له ارتباط كبير بالأمم الأخرى. فالأسلحة لا ينتجها البنتاجون وإنما تنتجها شركات تجارية. لكن هذه الشركات تعتمد في استمرار حياتها على السوق العالمي، بل إن منتجاتها العالية التقانة لها الآن نصيب الأسد فيما يبيعه الاقتصاد الأمريكي في السوق العالمي. على سبيل المثال فإن مبيعات هذه الشركات من الحاسوبات الرفيعة في السوق العالمي تمثل نصف دخلها.

- أن هذا سيؤدي إلى فوضى عالمية. فإذا جاز لنا أن نبدأ بشن حرب وقائية على العراق، فلماذا لا تفعل الصين ذلك بالنسبة لتايوان، أو الهند بالنسبة لباكستان؟

- وإذا أعطينا أنفسنا حق تغيير النظم، فهل سنعطيها حق الإتيان بنظم نرضى عنها؟ ماذا إذا لم يختر الناس من نريد؟ هل نعود لعصر الاحتلال؟

كيف يكون التعامل مع المسلمين، ولا سيما العرب منهم؟

حوادث الحادي من سبتمبر أكدت للغرب، وللولايات المتحدة بالذات خطر الإسلام لأنه مهما قيل عن الخطأ الذي ارتكبه من قاموا بتلك العملية إلا أن الحقيقة تبقى أنهم شباب متدينون، وأنهم ابتغوا بعملهم الشهادة، وأنهم فعلوا ما فعلوا انتقاماً للمسلمين من ظلم الحضارة الغربية متمثلة في دولتها الكبرى وقائدتها. لذلك عاد الحديث جذعاً عن المواقف التي ينبغي أن تُتخذ لدرء الخطر الإسلامي.

ومن المسائل التي ذكروها في ذلك: محاربة ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام:

المسألة الأولى: ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام:

هو في رأيهم الذي يغذي عداوة المسلمين للحضارة الغربية. ومن هنا كثر الحديث عن الإسلام الراديكالي، وعن الوهابي وعن السلفية. يقولون إنه لا يمكن أن يقال للمسلمين تنكروا لدينكم، ولكن الذي يقال لهم هو أن يفهموه فهماً لا يجعله في صدام مع مقومات الحضارة الغربية. مشكلة المسلمين المتشددين، بحسب هذا الرأي، هي أنهم التي تتطلب -فيما تتطلب- أن تكون modernity رافضون للحداثة

الدولة دولة علمانية تعددية. فالمطلوب من المسلمين إذن أن يفعلوا ما فعله الغرب ليكتمل لدينهم التصالح مع هذه الحداثة كما تم للمسيحية والنصرانية

كيف يكون ذلك؟ يكون:

أولاً: بأن لا يعتقد المسلمون أن نصوص دينهم صالحة لكل زمان ومكان بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، بل عليهم أن يتذكروا كما فعل الليبراليون من النصارى واليهود، أن هذه النصوص ذكرت في ظروف تاريخية وثقافية معينة، فلا يمكن أن تكون بحرفيتها مناسبة مع ظروف تاريخية وثقافية مختلفة عنها. ما الحل إذن؟ الحل هو أن نعيد تفسير هذه النصوص لتتناسب مع العصر، بأن نقول حتى عما يبدو أنه وصف لواقع كقصة قوم لوط إن هذا إنما كان كلاماً مجازياً. فلم يحدث أن دمر الله تعالى قرى أو عاقب قوما لتوجههم الجنسي قال أوريلي مدللا على أن القصة كانت رمزية لا حقيقية: لماذا لم يدمر الله سان فرانسسكو إذن؟

وثانيا: بأن يفهم المسلمون بأن الحقيقة الدينية حقيقة نسبية، لأنك إذا اعتقدت أن الحق كله معك - كما يعتقد المسلمون اليوم - فستعتقد أن مخالفيك على باطل ويستحقون لذلك أن يقتلوا، هكذا قال الرئيس السابق كلنتون في محاضرة ألقاها في جامعة جورج تاون بواشنطن بعد أحداث الحادي عشر. وهذا يعنى أن يكون الأفراد داخل الدين الواحد متسامحين مع مخالفيهم في فهم دينهم، لأن لكل إنسان الحق في أن يفهم دينه كيف شاء، وأن يرى الحقيقة من منظاره. وعلى المنتمين إلى الأديان المختلفة أن يكونوا أيضا متسامحين مع مخالفيهم معتقدين بأن كل دين يهدي إلى الحقيقة بطريقته.

وثالثا: أن يُمنع بالقانون نشر مثل هذا الفكر وتغلق كل المؤسسات التعليمية التي تنشره، وأن يعاقب الذين يروجون له أو يمولون مؤسساته.

ومما يساعد الغرب على تحقيق هذه الأهداف أن الأفكار التي تعتمد عليها قد شاعت منذ زمان بين المثقفين المسلمين، بل بين بعض الإسلاميين منهم. فقد صار الكثيرون منا جزءاً من الحضارة الغربية في فكرهم وقيمهم وطموحاتهم السياسية وعاداتهم وتقاليدهم بل وأزيائهم الرجالية والنسائية، لأنهم صاروا يعتقدون أن الحضارة الغربية هي حضارة العصر التي لا يكون الناس متحضرين إلا بها.

معالجة الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى معاداة المسلمين للغرب:

يرى بعض المفكرين السياسيين الغربيين أن هنالك أوضاعاً اجتماعية وسياسية بغيضة إلى الناس في العالم العربي بالذات، وأن الغرب - ولا سيما الولايات المتحدة - هو - في نظرهم - الذي يقف وراء هذه الأوضاع الظالمة ويدعمها فمن الطبيعي أن يكرهوه. ماذا نفعل إذن؟

يقول بعضهم: إن الحل واضح هو أن نعمل على تحويل أنظمة العالم العربي إلى انظمة ديمقراطية حقيقية يكون الحكم فيها للأغلبية، وتصان فيها الحريات، ويحارب فيها الفساد المالي. يقول الرئيس بوش في خطابه الشهير في كلية وست بوينت: «عندما يأتي الأمر إلى حقوق الناس رجالا ونساء وحاجاتهم فليس هنالك صدام حضارات. إن متطلبات الحرية تصدق على أفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم الإسلامي كله. إن جماهير الناس في الأمم الإسلامية يريدون ويستحقون أن يعطوا كل الحريات والفرص التي للناس في كل أمة. وعلى حكامهم أن يستجيبوا لطموحاتهم».

يقول آخرون: لكن لا تنسوا أن أغلبية الناس في هذه البلاد كارهون لنا، وعليه فإن الحكومات التي يختارونها في النظام الديمقراطي ستكون معادية لنا، يقول أصحاب الاقتراح:

أولاً: إن هذا الامر ربما يكون كذلك في البداية، ولكن سيظهر لهذه الحكومات أن من مصلحتها ومصلحة شعوبها أن تتعاون مع الغرب وتكون صديقة له.

وثانياً: إنه ليس من الصعب علينا أن نأتي بحكومات أغلبية حقيقية تكون في الوقت نفسه صديقة لنا. هنالك وسائل كثيرة لتحقيق ذلك..

هذا ما يراه بعض الساسة الأمريكان أما نتنياهو - رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق - فله نصيحة أخرى للولايات المتحدة. فهو ينصحها بأن تغزو العراق وتغير نظامها من غير اعتبار للأمم المتحدة، وأما بالنسبة لإيران فإنه يقول: إنه بإمكان الولايات المتحدة أن تُحرض على إحداث ثورة ضد النظام الإسلامي المحافظ في إيران بأن تستغل وجود الآلاف المؤلفة من الأطباق الفضائية فيها لتوجيه برامج أمريكية قذرة كتلك التي تذيعها قناة فوكس يظهر فيها شباب وشابات حسان في حالات مختلفة من حالات العري، يعيشون حياة مادية بهيجة ويمارسون الجنس بطرق إباحية. "هذه مادة

هدامة. إن الأولاد في إيران سيحبون أن تكون لهم مثل تلك الملابس الجميلة التي يرونها في تلك الأفلام. سيحبون أن تكون لهم أحواض سباحة وأساليب تلك الحياة الفاتنة[١][٢].

المسألة الثالثة: القضية الفلسطينية:

قضية العلاقة مع إسرائيل قضية حساسة بالنسبة لغالبية السياسيين الأمريكيين، لكن هذا لم يمنع بعضهم من أن يقول إن موقف الولايات المتحدة المنحاز لإسرائيل هو من الأسباب الرئيسة لعداوة الشعوب الإسلامية ولا سيما العربية للولايات المتحدة. وأنه ما لم تحل هذه القضية حلا يراه العرب والمسلمون منصفا فإن هذه الكراهية ستستمر، وسيستمر باستمرارها الإرهاب.

الفكر الأمريكي المعارض:

ما ركزنا عليه حتى الآن هو الاتجاهات الشائعة او الغالبة في أمريكا، لكن أمريكا بلد شاسع لا يسود فيه اتجاه واحد سيادة كاملة، بل ما من رأي ديني أو سياسي أو اقتصادي شائع، إلا وله معارضون أشداء قلَّ عددهم أو كثر. وكثيراً ما تكون آراء الفئات المعارضة هذه أقرب إلى الهدي الإسلامي من غيرها. وإليك بعض الأمثلة

- فمنهم من يرى كما نرى أن ما يُسمى بالفهم الحرفي للنصوص الدينية هو الفهم الصحيح الأمين لها. فنحن نوافقهم في المنهج ونستطيع لذلك أن نناقشهم في نصوص

---

(١) في كلمة له في مجلس النواب الأمريكي ألقاها أمام لجنة الإصلاح الحكومي. وهذا هو أصل الفقرة التي ترجمناها.

Benjamin Netanyahu House Government Reform Committee that the United States could incite a revolution against the conservative Iranian clerhy through the use of such Fox Broadcasting staples as "Melrose Place" and "Beverly Hills 90210" – both of which feature beautiful young people in varying states of ujdress, living, glamorous, materialistic lives and engaging in promiscuous sex.

"This is pertty subversive stuff," Netanyahu told the committee. "The kids of Iran would want the nice clothes they see on those shows. They would want the swimming pools and fancy lifestyles'.

http://www.upi.com/view.cfm?StoryID=20020912-034109-6371r.

(٢) يرى آخرون غير نتنياهو أن الديمقراطية وجو الحرية الذي بدأ يسود في إيران سيؤدي إلى إنهاء الحكم الإسلامي بطريقة سلمية ديمقراطية.

كتبهم التي نراها مجانبة للصواب، لكننا لا نستطيع أن ندخل في حوار مثمر مع من كلما ناقشته في صحة نص قال إنه مجازي وأعطاه من المعاني ما يوافق هواه.

- بل إن من هؤلاء من يدعو كما ندعو إلى تطبيق الحدود المذكورة في العهد القديم كرجم الزاني المحصن، وقتل المرتد، حتى قال أحد الصحفيين المعارضين إذا طبقنا هذه القوانين فسنقتل الغالبية العظمى من الشعب الأمريكي.

- ومنهم من يرى أن العلمانية هي العدو الأكبر، ومادام المسلمون يوافقوننا على ذلك فيجب أن نعدهم أصدقاء لا أعداء في مواجهة هذا العدو.

- ومن غير المتدينين، بل من العلمانيين من يدرس عيوب المجتمع الأمريكي دراسة علمية ممتازة، ينبغي أن يتعلم منها المسلمون المبهورون بالحياة الغربية، فالعاقل من اتعظ بغيره. من هؤلاء فوكوياما في كتابه الانفراط العظيم.

- وهنالك من ينتقد الممارسة الواقعية للديمقراطية ويرى أنها قد حادت عن المفهوم الصحيح لها، إن الكتب والدراسات في هذا المجال تعد بالمئات إن لم نقل الألوف.

- وهنالك من ينتقد الرأسمالية إما أصلا أو ممارسة

- وهنالك من لا يداهن في نقده للسياسة الأمريكية الخارجية ولا سيما فيما يتعلق بإسرائيل.

- ثم هنالك إخواننا الدعاة المسلمون الذين يهدي الله تعالى بهم ما يقدر بخمسين شخصا في كل يوم! فإذا كانت الحضارة الغربية قد غزت العالم الإسلامي، فإن الإسلام يدخل الآن قلوب الآلاف المؤلفة ممن هم في أرضها، لأن الناس يجدون فيه ما لا يجدون في حضارته رغم قوة سلطانها المادي ورغم سيطرتها وقوة تأثيرها على بقية بلدان العالم.

البعث الإسلامي الحضاري:

إذا لم تكن في الأرض اليوم حضارة إسلامية قائمة فعلاً، فإن فرص بعثها ما زالت متوفرة ومشجعة. إن المسلمين ما زالوا بحمد الله تعالى قادرين على الأوبة إلى الكتاب الهادي، وقادرين على السعي لامتلاك السيف الناصر وذلك:

أولاً: لأن انحراف الأمة عن دينها لم يكن ـ وما كان له أن يكون ـ ردة كاملة عامة عن الدين الحق. فهذا دين تكفل الله تعالى بحفظ كتابه كما تكفل بحفظ

العاملين من علمائه. فإذا كان الله تعالى قد قال، وقوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فإن رسوله ﷺ قد قال - غير ناطق عن هوى -: **(لا تزالُ طائفة من أمتي ظَاهرين على الحقِ لا يَضُرُهم من خالَفهم ولا من خَذَلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون)**.

ثانياً: لأنه إذا كان جوهر الحضارة -أو المدنية- وأساسها الذي يُشيَّدُ عليه بنيانها هو رسالتها، هو المعتقدات والقيم التي تستمسك وتعتز بها، فإن الجوهر والأساس الإسلامي ما يزال أقوى من منافسه العلماني الغربي إن الإسلام لا يزال يبرهن عبر تاريخه الطويل بأنه فعلاً فطرة الله التي فطر الناس عليها. فليس على وجه الأرض دين عبر الحواجز الجغرافية والثقافات المحلية ليبقى بين المستمسكين به -في جملته- الدين الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ. فكتابه هو الكتاب الذي أنزل على رسوله، وصلوات الناس هي الصلوات كانت تقام في زمن النبي ﷺ، وزكاته هي الزكاة، وحجه وصيامه هما كما كانا في أشكالهما ومواقيتهما. وبالرغم مما أضيف إلى هذا الدين من بدع إلا أنه يظل رغم ذلك أكثر الأديان احتفاظاً بحقيقته، وقد كان هذا وحده مما أغرى بعض الباحثين عن الحق بالدخول فيه.

ثالثا: وما يزال هذا الدين يؤكد هذه الحقيقة بسرعة انتشاره المذهلة حتى في موطن الحضارة الغربية. فهم يقولون إن معدل سرعة انتشاره أكبر من معدل سرعة الزيادة في سكان العالم.

رابعا: لأنه باعتباره دين الفطرة، ما يزال هو الدين الذي يجد الناس في آيات كتابه عِلماً بالإله الحق الموصوف بكل صفات الكمال المُنَزَّه عن كل صفات النقص من الولد والوالد التي تطفح بها بعض الأديان، وهدياً بأنه هو وحده المستحق للعبادة الهادي إلى أنواعها وكيفياتها. ويجدون في آيات كتابه وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم عِلماً بحقيقة أنبياء الله، وما كانوا عليه من كمال بشري أهَّلَهُم لأن يكونوا الأسوة التي يتأسى بها كل سالك طريق إلى الله. لكن الأديان المحرفة تجعل من بعضهم آلهة وأنى للبشر أن يتأسى بالإله؟ وتنسب إلى بعضهم جرائم يستنكف عن ارتكابها عامة عباد الله، فأنى يكونون أسوة لغيرهم؟

خامسا: ولأنه دين الفطرة فلا يجد الناس فيه تصادماً بين مقتضيات العقول التي فطرهم الله عليها، ولا مخالفة لحقائق الخلق التي يشاهدونها ويجربونها. فالعقل فيه

نصير الدين لا خصيمه، كما هو حاله في بعض الأديان. والعلم التجريبي يشهد له ولا يشهد عليه كما يفعل مع بعض الأديان.

سادسا: ولأن الناس كما يجدون فيه حاجتهم إلى الإيمان الخالص والعبادة السليمة والأخلاق الحسنة فإنهم يجدون فيه هدياً لتنظيم الحياة الاجتماعية تنظيماً يتوافق مع ذلك الإيمان وتلك العبادة وهاتيك الأخلاق، ويعبر عنها ويؤكدها ويحميها؛ فهو الدين الوحيد الذي لا يحتاج إلى علمانية تكمل نقصه، أو تتصالح معه.

سابعا: وهو الدين الذي ما يزال يشهد لأحقيته سلوك المهتدين من أبنائه. فهؤلاء هم أكثر أهل الأرض ذكراً وعبادةً لله، وأبعدهم عن مساخط الله، وأكثرهم بذلاً لأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وأكثرهم رحمةً بصغير وتوقيراً لكبير وصلةً لرحم.

وقد اعترف بهذه الحقيقة حتى بعض علماءِ النصارى، ومن أعجبهم بيتر كريفت أستاذ الفلسفة بكلية بوستن، الذي يحث إخوانه النصارى على أن يعدوا المسلمين أصدقاء وأعوانا لهم في حربهم ضد العلمانية التي يرى فيها العدو اللدود للدين والخطر الأكبر على الحياة الاجتماعية.

يقول هذا الرجل: «لماذا ينتشر الإسلام بهذه السرعة المذهلة؟ سيسارع علماء الاجتماع وعلماء النفس والمؤرخون والاقتصاديون والديمغرافيون والسياسيون إلى تفسير ذلك النمو تفسيرا دنيويا كل بحسب تخصصه. لكن الإجابة بدهية لكل مسيحي ذي صلة بالكتاب المقدس: إن الله تعالى يفي بوعده، ويبارك أولئك الذين يطيعون أوامره ويخشونه، ويعاقب الذين لا يفعلون ذلك. إن الأمر في غاية من البساطة التي يعسر على الأساتذة الأكاديميين رؤيتها: قارن بين كميات الإجهاض، وزنا المحصنين وغير المحصنين والشذوذ بين المسلمين والنصارى. ثم قارن بين كمية العبادة»[1].

---

(١) تصرفت قليلا في بعض الكلمات التي لم أجد لها في العربية مقابلا يفي بغرض الكاتب. لذلك يحسن أن أضع نص حديثه بين يدي من يريدون الاطلاع عليه في لغته الإنجليزية:

Why is Islam spreading so spectacularly? Sociologists and psychologists and historians and economists and demographers and politicians are quick to explain this growth with"expert" worldly wisdom from each of their specialties; but to any Christian familiar with the Bible, the answer is obvious: because God keeps His promises and blesses those who obey His laws and fear Him and punishes those who do not. Much too simple for scholars to see. Compare the amounts of abortion, adultery, fornication, and sodomy among Muslims and among Christians. Then compare the amounts of prayer. *Ecumenical Jihad*, 1996, Ignatius Press, San Francisco, p.38.

ثامنا: ولأن كثيراً من الناس في الغرب بدؤوا يشعرون بالخطر الذي تسوقهم إليه الحياة العلمانية المجردة عن الدين، خطر تمكينها للاتجاه الفردي في الناس، وإضعافها للوازع الخلقي، وعبادتها للجنس، وتحويلها الحياة إلى جهد لا معنى له ولا غاية. كل هذا يسبب للناس أنواعاً من الشقاء الروحي، فذهب الكثيرون منهم يبحثون عن دين ينقذهم فلم يجد كثير ممن عرف الإسلام منهم أكثر منه إجابة لمطالبهم الروحية والخلقية بالطريقة التي أشرنا إليها سابقاً.

وعليه فإذا كانت الحضارة الغربية قد غزت بلادنا فكرياً وخلقياً وجعلت جزءاً من الصراع بيننا وبينها صراعاً على أرضنا، وبيننا وبين أقوامنا، فإن الإسلام الآن يفعل الشيء نفسه، إنه يغزو أرض الحضارة الغربية ويجعل الصراع بينه وبينها صراعاً على أرضها وبينها وبين من كانوا بالأمس حماتها المدافعين عن حياضها.

تلك بعض فرص الدعوة إلى الإسلام وإلى بعث حضارته، وهنالك وسائل كثيرة لاستغلال هذه الفرص، لكنني لا أريد الآن الدخول في تفاصيلها، ولا في تفاصيل السعي لامتلاك السيف الناصر، فلتفاصيل كل ذلك مجال آخر. وإنما أريد أن أختم هذه المقالة بالتذكير بقواعد للعمل الإسلامي لما أرى من خطورتها ومن عدم الاهتمام الشديد بها. وهي

أولا: أن أمر العودة للإسلام وحضارته ليس بالحمل الخفيف الذي يمكن أن ينهض به أفراد، أو تقوم به جماعة واحدة أو دولة واحدة، وإنما هو عبءٌ ثقيلٌ يجب أن تتضافر على حمله الجهود. لذلك لا بد أن يقتنع كل فرد عامل للإسلام وكل جماعة وكل دولة بأن التعاون بين الساعين لتحقيق هذا الهدف أمر لازم، وأن التشاور فيما بينهم أول خطوات ذلك التعاون، ثم يأتي التنسيق وتوزيع المهام.

ثانيا: وإذا كان التعاون أمراً لازماً فيجب أن يكون السعي لبعث الحضارة الإسلامية أبعد شيء عن الحزبية. إن بعض الناس يخلط بين العمل الجماعي المنظم - وهو أمر لا بد منه - وبين الحزبية التي تحول التنظيم إلى غاية كثيراً ما يُضحى في سبيلها بالغاية التي أُنشئ من أجلها والتي كان في البداية مجرد وسيلة إليها. الحزبية أن

تحصر علاقات الأخوة الإسلامية وواجباتها فيمن دخلوا ضمن إطار التنظيم، وإلا يعان على عمل خير بل ولا يعترف به إلا إذا كان من منجزات الجماعة المنظمة.

ثالثا: الالتزام الصارم الشديد بقيم العدل والصدق والأمانة والوفاء حتى في معاملة الأعداء. لأن هذه القيم قيم مطلقة لا تختص بحال دون حال. قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

قال المفسر الكبير ابن كثير: «إن العدل واجب على كل أحد، مع كل أحد، في كل حال؟».

لكن بعض العاملين للإسلام اليوم يحيدون عن هذه القيم لأوهى الأسباب، ويسلكون سلوك السياسيين الميكيافليين. ناسين أن هذه القيم قيم يحبها الله، وأن الالتزام بها - حتى مع الأعداء - عبادة لله. وأنك لا يمكن أن تنصر دين الله بارتكاب مساخط الله

رابعا: على الأفراد وعلى الجماعات غير الحكومية أن تلتزم التزاماً معلناً وصارماً بالطرق السلمية. هذا هو الذي يدل عليه شرع الله، وهو الذي ينتهي إليه كل من اتعظ بالتجارب المريرة للجماعات التي دخلت في صراعات دموية لم تكن لها بكفء. إنك لا تحمل السلاح على من أنت تحت سلطانه، وإنما الذي يشرع لك هو الدعوة مع كف الأيدي وإقامة الصلاة، فإذا كانت لك أرض مستقلة وقوة مادية فآنذاك.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

اللّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه..

أستغفر الله..

وأصلي وأسلم على خاتم رسل الله..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

* * *

مزالق الإيمان بالديمقراطية

محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في الخرطوم في السودان

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين الهادي إلى الصراط المستقيم والصلاة والسلام على من أرسله سبحانه رحمة للعالمين، ثم أما بعد:

مقدمتان: باسم الله وعونه تعالى نفتتح حديثنا بمقدمتين مهمتين:

أولاهما: أن الديمقراطية التي نتحدث عنها هي الديمقراطية بالمعنى الذي يدل عليه اسمها، وهو معناها المعروف بين كبار المفكرين الغربيين من كان منهم مؤمنا بها أو منكرا لها، منذ عصر اليونان إلى يومنا هذا .الديمقراطية بهذا المعنى هي حكم الشعب.

والديمقراطية بهذا المعنى تجيب عن سؤال مهم لعله أهم سؤال في الفكر السياسي، بل في الحياة عامة، وهو لمن الحكم؟ من ذا الذي يحق له أن يقول هذا مسموح به وهذا محظور، هذا واجب وهذا جائز، هذا حلال وهذا حرام؟ الإجابة عن هذا السؤال المهم واضحة هي أن الشعب هو الذي يملك هذه السلطة التشريعية، فالشعب هو صاحب السيادة التشريعية .لكن هذا المبدأ الديمقراطي ارتبط في الواقع الغربي المعاصر بأفكار ومبادئ منها ما رأوا أنه من لوازمه، ومنها ما رأوه من وسائله، بل منها ما هو من نقائضه .لكن كل هذا صار في أذهان الناس في الشرق والغرب داخلا في معنى الديمقراطية: الليبرالية، الرأسمالية، الانتخابات، تداول السلطة، حكم القانون، الشفافية، الأحزاب، حرية التعبير حقوق الإنسان، إلخ . بل إن الأمر صار أكبر من ذلك كما قال أحد الكتاب الأمريكيين: لقد صارت الديمقراطية هي المنصة التي يضع عليها كل أحد قربانه المفضل .تكاد كل الجوانب المرغوب فيها في الحياة السياسية بل والاجتماعية تمدح بأنها من لوازم الديمقراطية: التمثيل، المحاسبة، المساواة، المشاركة، العدالة، الكرامة، العقلانية، الأمن، الحرية والقائمة تستمر». أكرر أن حديثنا الليلة ليس عن شيء من هذه المبادئ والأفكار التي صارت ملحقة عند كثير من الناس بالديمقراطية، بل صارت عند بعضهم هي الديمقراطية.

وثانيتهما: أن حديثنا عن مزالق الإيمان بالديمقراطية، لا عن العمل بالديمقراطية أو تطبيقها. لماذا؟ لأن الديمقراطية بحسب تعريفها العلمي الذي ذكرناه، نظرية يستحيل

العمل بها أو يتعذر إلا في مجموعات لا تتجاوز بضع عشرات من الآلاف من الناس .ولذلك فإن الأوربيين لما بعثوها بعد ألفي عام من موتها في أثينا أسموا ديمقراطيتهم بالديمقراطية غير المباشرة أو الديمقراطية النيابية .أما الأمريكان فقد كان الكثيرون من واضعي دستورهم يرون أن الديمقراطية إنما هي الديمقراطية المباشرة التي كان معمولا بها في أثينا، ولذلك صرحوا بأن نظامهم ليس نظاما ديمقراطيا وإنما هو نظام جمهوري نيابي .وقد يستغرب بعضكم كما استغربت إذا علموا أن كلمة الديمقراطية لم ترد في أي من الوثائق السياسية الأمريكية الأساسية الثلاث: الدستور، وإعلان الاستقلال، وحقوق الإنسان، كما قال أحد الكتاب الأمريكان.

ندخل بعد هاتين المقدمتين في موضوعنا الأساس: ما مزالق الإيمان بالديمقراطية بمعنى حكم الشعب؟ أول المزالق وأعظمها والأصل الذي تترتب عليه كل المزالق الأخرى هو أن الإيمان بأن الحكم للشعب مناقض لأكبر قاعدة يقوم عليها بنيان الدين الإسلامي كله، إنها القاعدة التي تقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فإذا كانت الإجابة الديمقراطية عن سؤال لمن الحكم هي أنه للشعب، فإن الإجابة الإسلامية هي إن الحكم إلا لله .فالآية لا تقرر فقط أن الحكم لله، وإنما تقول إن الحكم إلا لله، أي إن الحكم لا يكون بحق إلا لله .والمقصود بالحكم هنا وفي النظرية الديمقراطية إنما هو الحكم التشريعي .أما الحكم التنفيذي فإنما يقوم به أفراد من الناس في كل نظام من الأنظمة .فالشعب يشرع والمسؤولون ينفذون، والله تعالى يشرع والناس يحكمون بما شرع.

هذا الحكم التشريعي هو من خصائص الربوبية التي لا يجوز لأحد أن يدعيها أو يشرك مع الله تعالى أحدًا فيها، لا ملك ولا دكتاتور ولا رئيس جمهورية ولا علماء ولا شيوخ . فكل من اعتقد أن أحدًا من هؤلاء له حق التشريع والتحليل والتحريم يكون قد اتخذه ربا من دون الله تعالى .يؤكد هذا قوله تعالى عن بعض اليهود والنصارى في زمن الرسالة المحمدية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، وفسر النبي ﷺ اتخاذهم لهم أربابًا بأنه اتباعهم لهم في تحليلهم لما حرم الله وتحريمهم لما أحل .ولهذا قال تعالى في تمام الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] ، فهم لم يعبدونهم من دون الله تعالى بأنهم سجدوا لهم أو حجوا وإنما عبدوهم بأنهم أعطوهم حق التشريع .وعليه فإن كل من أعطي هذا الحق يكون معبوداً لمن أعطاه إياه حتى لو كان ما يسمى بالشعب أو المواطنين .وإذا أردنا أن نعرف كيف أن هذه الحقيقة، حقيقة إن الحكم إلا لله، هي القاعدة التي يقوم عليها بنيان الدين كله، فلنقرأ الآية بأكملها والتي قبلها: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠]، فالآية الكريمة تدل على أن العبادة، وهي الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، مؤسسة على قاعدة أن الحكم لله .فنحن نعبد الله تعالى لأنه أمرنا بعبادته، ونحن نطيع أمره تعالى لأننا نؤمن بأن الحكم له، والأمر والنهي له .وتدل على أن الدين القيم مبناه على التسليم بأن الحكم لا يكون إلا لله .لماذا لا يكون الحكم إلا لله؟ لأن الله تعالى هو وحده خالق الكون وحاكمه قدراً، فلزم أن يكون هو وحده الذي له حق حكمه شرعاً. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فكل من آمن بأن للكون خالقًا واحدًا ثم أبى أن يحتكم إلى شرعه، أو اعتقد أنه يجوز لأحد غيره أن يشرع لخلقه يكون قد نقض إيمانه به .فكيف إذا كان يدعي الإيمان بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولا؟ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا

لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٠-٧٠].

ذلك هو المزلق والضلال الأكبر المترتب على الاعتقاد بأن الحكم للشعب .لكنه مزلق تنتج عنه وتترتب عليه مزالق وضلالات أخرى عظيمة.نريد قبل الحديث عن هذه المزالق الفرعية أن نقول إن هذا الضلال الأكبر وما ينتج عنه من ضلالات هو الذي يحرص على دعوتنا إليه وتزينه لنا بعض أنصار العلمانية ودعاتها في الغرب والشرق .إنه لمن السذاجة البالغة ما يظنه بعض الناس في العالم الإسلامي أن أمريكا وغيرها من دول الغرب إنما تنفق أموالها وتضحي بأولادها وتشن حروبها وتنشئ وتمول المؤسسات الداعية إلى الديمقراطية من أجل أن ينعم الناس في العالم العربي أو الإسلامي بانتخابات وأحزاب ومجالس تشريعية ، وأجواء من حرية يختار فيها المواطنون ما يرونه صالحاً ومناسباً لبلادهم. فهذا أستاذ كبير بمعهد كاتو Cato بواشنطن يقول عن مهمة أمريكا في العراق في بداية محاولتهم لوضع دستور له: «إن أعظم مهمة للمهتمين بمستقبل العراق هي أن يعملوا على أن يكون المجتمع العراقي أكثر تقديراً لأهمية الحرية اللبرالية في مجتمعه .إن الديمقراطية وسيلة لها قيمتها ، لكنها وسيلة فقط .إن الهدف هو مجتمع حر». ولذلك يرى أنه حتى لو انتهى الأمر إلى أن يكون الدستور وثيقة ليبرالية في مجتمع غير ليبرالي ، فلن يكون عديم الفائدة .إن مخططاً كهذا سيقترح غايات مثالية ، وسيضع أساسًا قانونيًا لأي إصلاح إذا ما تغيرت الثقافة السياسية.

وينقل في هذا الصدد عن جريدة نيو ريبلك New Republic موافقا لها قولها: "إن كون ١٨٠٠ من الجنود الأمريكان فقدوا أرواحهم لكي تستمتع نساء العراق بخيرات القرون الوسطى الدينية أمر ينبغي أن يزعج إدارة بوش والشعب الأمريكي." وكذلك قول كاتبة أخرى كانت أكثر صراحة Nina Shea : «إنه ينبغي أن لا يزهق دم أمريكي في سبيل إقامة حكم الشريعة». هذه هي الأهداف الحقيقية من وراء الاهتمام بنشر الديمقراطية لكنهم قلما يصرحون بها، بل إن بعض مؤسساتهم الداعية إلى الديمقراطية في بلادنا لتظهر بمظهر المؤسسة العلمية الأكاديمية التي تسعى إلى بيان العلاقة الحميمة بين الإسلام والديمقراطية .من هذه المؤسسات واحدة تدعى مركز دراسة الإسلام والديمقراطية يشارك في الإشراف عليها مستشرقون من أمثال جون اسبوزيتو، وعلماء من أمثال الدكتور طه جابر، الذي أصدر فتوى تحث المسلمين على إيتاء الزكاة لهذه المؤسسة، نشرتها على موقعها ثم قرأنا بعد ذلك في تقرير لمؤسسة راند شبه الرسمية أن هذا المركز هو أحد المؤسسات التي تدعمها الحكومة الأمريكية لنشر الديمقراطية في العالم الإسلامي .!!

نعود بعد ذلك إلى موضوعنا فنقول:

المزلق الثاني: هو أن الاعتقاد بأن الحكم للشعب يؤدي لا محالة إلى الإيمان بالعلمانية، لأن العلمانية في كل صورها، وسواء كانت ديمقراطية أو دكتاتورية، إنما تقوم على الاعتقاد بأن التشريع من حق البشر أفرادا كانوا أو جماعات. فالديمقراطية بمعنى حكم الشعب هي نظرية علمانية لا محالة.

المزلق الثالث: وهو لازم عن الثاني وهو أنه ما دام المواطنون كلهم متساوين في حقهم في التشريع، فيجب أن لا يكون هنالك فرق بين مؤمن وملحد، أو مسلم ونصراني، أو بين مستمسك بدينه ومرتد عنه.

المزلق الرابع: وهذا يؤدي بدوره إلى الاعتقاد بأن الرابطة الأساس بين الناس هي رابطة المواطنة لا رابطة الأخوة الإسلامية التي هي أساس كل الهدي الإسلامي الاجتماعي والسياسي والاقتصادي .لكن بعض الناس يحاولون أن يجمعوا بين هذين النقيضين كما الحال في دستور السودان الحالي الذي أفتي بعضهم بأنه دستور إسلامي.

المزلق الخامس: أن يسود الاعتقاد بنسبية المصلح والمفاسد والنافع والضار .ذلك لأن الديمقراطية نظرية لا محتوى لها .إنها إنما تقرر أن الحكم للشعب ثم تترك لكل شعب أن يختار ما يراه مناسباً .لكن الشعوب تتعدد وتختلف مكانا وزمانا: فهذا شعب أمريكي بجانبه شعب مكسيكي ثم هنالك شعب إنجليزي وآخر فرنسي .وهذا الشعب الأمريكي الآن كان شعبًا آخر قبل عدد من السنين وشعبًا ثالثًا قبل عدد آخر، وفي كل مرة تتغير قيمه فيحرم ما كان قد أحل ويحل ما كان قد حرم، ويقدم ما كان قد أخر ويؤخر ما كان قد قدم، وكل هذه الأحكام ديمقراطية ما دام قد توفر فيها شرط الإجراءات الديمقراطية .فاختطاف الأحرار واسترقاقهم، واحتلال البلاد واستعمارها وقتل أحرارها ونهب خيراتها كل هذا جائز ما دام قد جاء نتيجة قرارات توفر فيها شرط الإجراءات الديمقراطية .يعبر عن هذا الاضطراب نكتة عن رجل إنجليزي قيل إنه قرر أن يهاجر من بلده فلما سئل عن سبب قراره قال إن الشذوذ كان ممنوعاً، ثم صار مسموحاً به، فأنا أخشى أن يصير بعد قليل واجبًا. هذا عن الديمقراطية، أما في الإسلام فإننا عندما نقول إن الحكم إلا لله، نشير إلى حكم معين مسجل في مصادر معينة فيها تفصيل لأحكام معينة، وفيها قواعد عامة للحكم، وفيها أمر بالالتزام بمكارم الأخلاق، وحسن معاملة البشر وهكذا.

المزلق السادس: هو أن تصير الثقافة الغربية هي القدوة والمثال الذي يحتذى لا في مجال السياسة وحدها بل في كل مجالات الحياة .لأنك إذا آمنت مع الغربيين بأن الحكم للشعب، ثم اعتقدت بأن شعوبهم هي الشعوب الأكثر حضارة لأنها هي السابقة في مضمار الديمقراطية، كان من الطبيعي أن تعتقد أن ما اختاروه هو المناسب للعصر، وأن تريد لشعبك أن يتشبه بهم ويحذو حذوهم .ولذلك تجد أن كلام الكثيرين حتى ممن ينتسبون إلى الإسلاميين صار مجرد ترديد للعبارات والشعارات الغربية السياسية مترجمة إلى اللغة العربية: الديمقراطية، الشفافية، المرأة، تداول السلطة، حتى صاروا كما قال الشاعر العربي:

ألهت بني تغلب عن كلِّ مكرمة

قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

المزلق السابع: هو أن تصير الديمقراطية هي معيار الشرعية الوحيد .فكل ما لا يأتي عن طريقها فهو غير شرعي وغير قانوني .هذا مع أن الغربيين لم يكونوا يبالون بالخروج عليها إذا ما تبين لهم أن المصلحة في مخالفتها .من ذلك ما ذكره فريد زكريا في كتابه مستقبل الحرية: قال: "كان الاسترقاق والتفرقة العنصرية متأصلتين في الجنوب الأمريكي عن طريق النظام الديمقراطي .ولذلك فإنه منذ قيام الجمهورية واجه الذين يبغضون الاسترقاق مشكلة هي أن غالبية المصوتين في الجنوب كانوا يدافعون عنه بحرارة بالغة .وفي النهاية مات لا لأنه خسر معركة التصويت ولكن لأن قوات الشمال سحقت الجنوب .فالديمقراطية عند الغربيين ليست هي المعيار المطلق كما هو الحال عند المقلدين لهم في بلادنا .أذكر أن أحد الصحفيين عندنا كتب ذات مرة يقول إنه على الإسلاميين أن يقبلوا نتيجة صناديق الاقتراع حتى لو جاءت بالحزب الشيوعي . ذكرني كلامه بكلام للفيلسوف البريطاني برتراند رسل عندما سئل إلى حد هو مستعد لأن يعطي الحرية للحزب الشيوعي، فقال: ما لم يصل عن طريقها إلى الحكم . لأن الديمقراطية تكون حينئذ متناقضة إذ تمكن من الوصول إلى الحكم من يعمل على قتلها .أو كلاماً هذه فحواه.

المزلق الثامن: هو الخضوع للرغبات التي تؤثر في الانتخابات حتى لو كانت رغبات منكرة وحتى لو كان أصحابها أقلية .هذه نتيجة حتمية لكل من يعتقد أن الحكم للشعب، ومن ثم يريد من الشعب أن ينتخبه. لقد رأينا هذا واقعاً في البلاد الغربية، رأينا أناسا المعروف عنهم أنهم محافظون ينكرون أشياء مثل الشذوذ، لكن مرشحهم يخشى إن هو صرح بإنكاره لها أن يفقد بعض الأصوات التي قد تؤثر في نتيجة الانتخابات .إنه لا ينكرها إلا إذا رأى أن عدم الإنكار سيفقده أصواتاً أكثر منها، لكن هذا يتنافى مع المهمة الكبرى للحكومة الإسلامية: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

المزلق التاسع: سيقول بعض الناس ماذا نفعل إذن؟ إننا نعيش في مجتمع تعددي، والتعددية هي سمة المجتمعات الحديثة. ولا يمكن مع التعددية التزام بدين معين لأن

معناه إقصاء الآخر، أو إكراهه على الالتزام بدين لا يؤمن به .إنه لا حل في مثل هذه الأحوال إلا الحل الذي اهتدت إليه البشرية، الحل الديمقراطي الذي لا يفرق بين المواطنين بسبب معتقداتهم وفلسفاتهم وقيمهم، كما لا يفرق بينهم بسبب ألوانهم وعناصرهم .إنه النظام الذي يعطي كل المواطنين ـ بغض النظر عن تلك الفروق بينهم ـ حقوقا سياسية متساوية .صار هذا الكلام عند كثير من الناس كالبدهيات التي لا تقبل نقاشا، مع أنه في حقيقته من أبطل الباطل، فهو باطل نظريا ومستحيل التحقق عمليا .وذلك أن كل نظام سياسي لا بد له من قوانين تحكم علاقات الناس وتصرفاتهم الشخصية والاجتماعية، السياسية والاقتصادية، فتقول إن هذا مباح وهذا محظور .ولا بد لهم من سياسات تنظم علاقاتهم الخارجية ,وفلسفاتهم التعليمية والإعلامية، ومبادئهم القانونية وغير ذلك .فإذا كان المجتمع مكونا من مواطنين مختلفين اختلافات أساسية في نظرتهم إلى الحياة بسب دينهم أو فلسفاتهم وقيمهم، لزم أن يكونوا مختلفين في المبادئ التي تقوم عليها القوانين والسياسات .فكيف يمكن إذن أن تكون لهم جميعاً حريات سياسية متساوية؟ كيف يمكن للاشتراكي أن يعمل باشتراكيته، وللرأسمالي أن ينظم المجتمع على أساس رأسماليته؟

كيف يمكن أن تكون للعلماني ولصاحب الدين حريات متساوية في تنفيذ ما يؤمنون به؟ هذا أمر مستحيل . ولذلك فإن كل محاولات الوصول إلى حل له فشلت فشلاً ذريعاً . وقد كان من أشهرها وأكثرها عمقاً محاولة جون رولز فيلسوف السياسة الأمريكي الذائع الصيت في البلاد الغربية .إنه لا يمكن في الواقع إلا أن تكون هنالك نظرة واحدة من تلك النظرات المتعددة تبنى عليها قوانين البلاد وسياساتها .ثم يعطى الآخرون قدراً من الحرية يختلف باختلاف النظرة الحاكمة إليهم .لا يمكن أن تعطى نظراتهم وأديانهم وفلسفاتهم حقاً مساويًا للنظر أو الفلسفة أو الدين الحاكم .هذا أمر مستحيل. وهذا هو الواقع في المجتمعات الديمقراطية الليبرالية الغربية .إن فلسفة الحكم السائدة فيها فلسفة علمانية ديمقراطية ليبرالية، فهي تعطي غيرها من الفلسفات والنظرات من الحرية ما يتناسب معها ولا يهددها . نعم إنهم يسمحون لمخالفيهم من أصحاب الديانات والفلسفات الأخرى أن يدعو إلى ما يريدون (في حدود

القانون)، وأن ينافسوا في الانتخابات، بل يسمحون لهم أن يشاركوا في الحكم لكن بشرط أن يلتزموا بنظم الدولة العلمانية .فرئيس الدولة المسلم في بلد علماني ليس رئيسا له باعتباره مسلماً، وإنما هو رئيس باعتباره مؤمناً بدين في الحدود التي تفرضها قوانين الدولة العلمانية التي تقرر بأن الدين في أساسه سلوك شخصي لا علاقة له بالحياة العامة التي تتولى الدولة العلمانية شؤونها.

ما الحل إذن وما العمل؟

إذا اخترنا أن ندخل في جحر الضب الذي دخل فيه الغربيون ومن تابعهم، فلا حل لأننا سنفكر عندئذ كما يفكر سكان الجحر من الضببة. وأما إذا أردنا أن نكون أحراراً نفكر لأنفسنا فالحلول كثيرة بحمد الله تعالى.

يمكن مثلا أن نقول لأنفسنا هذه بلادنا وهؤلاء مواطنونا وهذه معتقداتهم وقيمهم المتعددة، وهذه ظروفنا الراهنة فلنفكر بغور في أحسن وضع يناسبنا.

أما نحن المواطنون المسلمون فسنقول لإخواننا المشاركين لنا في الوطن من غير المسلمين:

أولا: إنه إذا كان الغرب قد اختار أن يحل مشكلة التعددية بجعل الدولة علمانية لا علاقة لها بالدين، وبجعل الدين أمرا خاصا لا علاقة له بالدولة، فإن ديننا لا يكون دينا إذا حشر في زاوية ضيقة لأنه ليس دينا بالمعنى الذي تريده العلمانية، وإنما هو منهاج شامل لحياة الناس كلها: معتقداتهم وعباداتهم وقيمهم الخلقية وعلاقاتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهكذا.

ثانيا: ولأن هذا الدين يقتضي منا أن لا نكون مجرد أفراد يذوبون في مجتمع، بل يقتضي منا أن نتصرف باعتبارنا أمة، باعتبارنا جسدا واحدا .فكما أننا نجتمع في المسجد باعتبارنا مسلمين ونصلي وراء إمام مسلم، فكذلك نحن في السياسة نجتمع باعتبارنا مسلمين وراء إمام مسلم تسمى إمامته بالإمامة العظمى، يلتزم في حكمه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ونطيعه ما أطاع الله تعالى، ونتصرف في أمورنا بالشورى بيننا إننا أمة مجتمعة متميزة لا أفراد مشتتة .ونحن نتصرف مع غيرنا من الدول والجماعات بهذا الاعتبار.ولذلك قال رسولنا ﷺ في الوثيقة التي وادع فيها اليهود في المدينة وأقرهم على دينهم: **(والمسلمون أمة واحدة من دون الناس).**

ثالثا: ولذلك فإننا نرى أنه من مصلحتنا ومصلحتكم أن نعيش متسالمين متوادعين في وطن واحد، ونرى أن هذا أمر ممكن وأنه خير لنا ولكم من أن نترك أدياننا وندخل مع الغرب في حجر العلمانية.

رابعا: وإذا كان الغرب قد أبعد أديانه عن الحكم لأنها كانت إذا حكمت تفرض معتقداتها على غيرها، فما هكذا يفعل الإسلام .إننا نريد أن نصالحكم صلحا يكون من شروطه أن لا يفرض واحد منا دينه أو مذهبه في الحياة على الآخرين، أو يطلب منه أن يتبنى معتقدات تخالف دينه.

خامسا: وبكون من شروطه أن يقر كل واحد منا الآخر على أرضه، وأن تكون للأقليات الدينية في كل جماعة حقوق نتفق عليها.

سادسا: يحكم هذه العلاقة بيننا وبينكم وينظمها وينسقها دستور نتفق عليه. أقول في ختام هذه الكلمة إنه إذا كان إخواننا المواطنون في جنوب السودان قد رأوا أنه من حقهم أن يجتمعوا بصفتهم جنوبيين لهم هويتهم ومعتقداتهم غير الإسلامية، وأن تكون لهم حكومتهم التي تمثل هذه الهوية، أفلا يكون من حقنا نحن المواطنين السودانيين من ذوي الهوية الإسلامية أن يكون لنا ما لهم .ألم يقل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه: إنه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة؟ أجل .ولذلك فإنني أدعو كل إخواننا المسلمين في السودان، أفرادا وجماعات وأحزابا، أن نجتمع في جبهة واحدة باعتبارنا مواطنين سودانيين مسلمين، يرون أن من حقهم أن تكون لهم حكومتهم الإسلامية التي تعبر في دستورها وقوانينها وسياساتها، عن هويتهم وتلتزم بمبادئ دينهم. وهذا يعني أن تكون لنا دساتير ثلاثة: دستور للولايات غير الإسلامية، ودستور للولايات الإسلامية، و دستور اتحادي ينظم العلاقة بينهما.

هذا والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد وهو حسبنا ونعم الوكيل[1].

---

(١) Adam Przeworski, (Minimalist Conception of Democracy: A Defence.), in The Democracy Sourcebook, Robert A Dahl, Ian Shapiro, Jose Antono Cheibub (editors), The MIT press, Cambridge Massachusetts. London ngland. P. 12.Doug Bandow, Democracy or Liberty? Bangkok Post.com, 23 Aug 2003.

العلمانية في ثياب إسلامية

محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في الخرطوم.

أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أيها الأعزاء..

إن أسوأ أنواع الضلال أو الإضلال هو الإضلال الذي يأتي عن طريق الدين قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٨]، أي من الجهة التي نأمنكم منها، جهة الدين ولا تظنوا أن هذا شيء مستغرب فإن الإضلال عن طريق الدين شيء مبين في القرآن الكريم، هذا أمر سلكه أهل الكتاب، وحذرنا منه رسول الله ﷺ، والإضلال بالدين قد يكون عن قصد وقد يكون عن غير قصد فالإضلال عن قصد فالله سبحانه وتعالى يقول عن اليهود ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]، وهم أحبار ورهبان يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله وأما الإضلال عن غير قصد فكما قال ﷺ: **(حتى إذا لم يبق عالم أو يُبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)**. وتجربة البلاد الغربية تدلنا كما درسنا في التاريخ الفكري لها أن كثيراً من الأسس التي قام عليها الإلحاد في أوروبا وضعها أُناس كانوا يؤمنون بوجود الخالق ولكنهم جاءوا بفلسفات وأفكار مع أنهم كانوا مؤمنين بوجود الخالق إلا أن هذه الأفكار والفلسفات هي التي أدت إلى الإلحاد فكثيراً ما يقول الإنسان كلاماً ولا يذهب به إلى نتائجه و أبعاده المنطقية فيأتي أناس بعده ويفعلون هذا ولهذا فلا تستهينوا بالإضلال الذي يأتي عن طريق الدين.

أيها الإخوة الأعزاء أحب أن أكد لكم أن هذه المحاضرة فكرية وليست محاضرة سياسية، أنا أتكلم في نقد فكر وفكر شخص واحد ولا أتكلم عن واقع، أنا أنتقد فكراً ولا أنتقد اليوم واقعاً ولا يعني أنني عزمت على أن لا أنتقد واقعاً ولكن في هذه الليلة أنا أتكلم عن فكر ولا أتكلم عن واقع والفكر مهم ولا سيما أفكار الزعماء لأن أفكار الزعماء تؤثر في الناس إما أنها تؤثر في أفكارهم وتصوراتهم أو أنها تتحول إلى واقع، وبعض هذا الذي أنتقده تحول فعلاً إلى واقع ولأنه كما كان يقول علماؤنا إن ضلال الفكر أسوأ من ضلال العمل؛ ذلك لأن الإنسان إذا كان تصوره صحيحًا

وكان له علم ثم أخطأ فسيعلم أنه أخطأ، وأما إذا كان الفكر الذي يقود العمل إذا كان هذا الفكر نفسه ضالا ومنحرفاً فإنه تكون المصيبة أكبر.. أنا قلت إن عنوان هذا الحديث هو العلمانية في ثياب إسلامية، فما العلمانية؟ العلمانية بفتح العين العلمانية علمانيتان علمانية ممكن أن نقول إنها علمانية مضيقة تكتفي بأن تفصل الدين عن الدولة، ثم بعد ذلك تترك للناس الحرية بأن يتدينوا كيف شاءوا، وقد يكون بعض من هم في الدولة متدينين في أشخاصهم كما كان جريجر مثلا في الولايات المتحدة يكون نصرانياً ولكنه يؤمن بالعلمانية التي تفصل الدين عن الدولة، وعلمانية موسعة هذه العلمانية غايتها هي إقصاء الدين لا عن الدولة فحسب وإنما عن الحياة كلها. والفكر الذي أتحدث عنه هو فكر باسم الدين يفصل كثيرا من المبادئ التي تقوم عليها العلمانية، لا أقول إنه فكر يدعو للعلمانية دعوة صريحة ولكنه قصد صاحبه أم لم يقصد هو، قلت إن هناك علمانيتين علمانية مضيقة وعلمانية موسعة، وأن هذ الفكر يفصل العلمانيتين كليهما باسم الدين وبلغة الدين والعلمانية المضيقة علمانيتان أيضاً علمانية ليبرالية تقول إنه مادام الدين قد أقصي عن السياسة فما بقي إلا أن يختار الناس ما يريدون، فالحاكمية تكون للشعب اليوم يبيحوا الخمر وغداً يحرموها، اليوم يمنعوا الشذوذ الجنسي غداً يبيحونه. الأمر للناس، هذه ليبرالية. وهنالك علمانية قهرية تقصي الدين عن السياسة، ولكن يأتي أُناس أو قلة من الناس ويتحكمون في مصالح الناس. وكان أكبر دليل على هذا وأكبر مثال على هذا الماركسية، والماركسية ليست وحدها هي العلمانية القهرية وأنا أزعم أن فكر صاحبنا الذي انتقده هنا هو في بعض أجزائه نصير للعلمانية القهرية باسم الدين، وأنا سأبدأ بأن أعطيكم صورة عامة عن ما أريد ثم ندخل في التفاصيل لأن المادة ستكون كثيرة ربما لا يسعفني الوقت فلذلك أريد أن أعطيكم صورة عامة عن الذي أريد أن أقوله. نبدأ عن العلمانية المضيقة وهي فصل الدين عن الدولة يقول صاحبنا هذا عن الخلافة إنها نظام فاسد فسد منذ عهد عثمان، وعثمان كان ثالث الخلفاء الراشدين ويقول إن الفكر الإسلامي ليس فيه فكر سياسي وأن أوروبا تطورت سياسياً لأنها اعتمدت على جمهورية أفلاطون، وأنا عندما قرأت هذا الكلام ضحكت لأني كما تعلمون طالب فلسفة فأعرف جمهورية أفلاطون، فقلت لعل صاحبنا لم يقرأ هذا الكتاب لأن جمهورية أفلاطون ما فيها من الديمقراطية أثر أبداً، بل إن أستاذا لنا

كان يعتبر من أكبر أساتذة الفلسفة في الغرب ألف كتابا أسماه المجتمع المفتوح وأعداؤه وجعل ماركس وأرسطو وهيجل أكبر أعداء هذا المجتمع المفتوح، وأن كتابات أرسطو هي التي اعتمد عليها كل المستبدين في تاريخ الحكم في أوروبا وصاحبنا هذا يقول إنهم اعتمدوا على جمهورية أفلاطون، ويقول أنه كان قائد حملة الدستور الإسلامي ولكنه لم يكن يعلم ما هو الدستور الإسلامي، وأنه كان من تصريحاته أن أحدًا لم يسأله ما الدستور الإسلامي وأنه لوكانت هنالك مائة مسألة دستورية فالفقه الإسلامي ليس فيه ثلاثة منها ويقول في كلام للأمريكان باللغة الإنجليزية، سألوه عن الحجاب فقال: نحن لا نفرض على الناس الحجاب في السودان كما فعلت بعض الدول التي حولت الناس إلى منافقين، قيل له كيف تفعلون إذًا؟ قال: نحث الناس وكذا وكذا فقيل له متى يتدخل القانون؟ قال إذا سارت المرأة عارية، طبعا حتي في أوروبا يتدخل القانون إذا سارت المرأة عارية، وقال حث الناس على الصلاة قال إن هذا ليس من شأن الدولة .

ثم من المبادئ التي تقوم عليها العلمانية التي تفصل الدين عن الدولة تساوي الأديان، الأديان كلها تكون شيئاً واحداً ليس هناك دين أفضل من دين كل دين عنده حق أمام الدولة وهذه المسألة تحتاج إلى تفصيل وسوف نتكلم عنها إن شاء الله، أيضا الردة في النظام العلماني ليس هناك شيء اسمه ردة؛ لأن الدين مفصول عن الدولة فالدولة لا تتدخل في شؤون الناس هذا آمن أو ارتد وصاحبنا من الذين يقولون بإباحة الردة وصاحبنا أيضا من الذين يقولون -تبعاً للفكر العلماني- إن كل المناصب في الدولة مفتوحة لكل الناس بغض النظر عن دينهم، عندما ظهر هذا الكلام قبل مجيء هذه الحكومة - أنا قلت لكم سأتكلم من الناحية الفكرية- قلت لبعض إخواننا إن هذا لا يجوز كيف تقول إن المناصب كلها مفتوحة لكل الناس بغض النظر عن دينهم يعني هل يمكن أن يأتي مسيحي ويكون رئيساً لدولة إسلامية؟ هل يمكن أن يأتي يهودي ويكون رئيسا لدولة إسلامية، فكانوا يقولون لي ببساطة وسذاجة إن هذا لن يحدث أصلاً قلت لهم يا أخي ومن قال لكم إن الذي تعلم أنه لن يحدث تقول إنه يجوز أن يحدث إذا علمت أن إنساناً لم يشرب الخمر أبداً تقول له إنه يجوز لك أن تشرب الخمر ثم من قال إنه لا يحدث، لا يحدث الآن لأن المسلمين يعتقدون أن هذا من دينهم،

أن من دينهم أنه لا يجوز أن يحكمهم نظام غير مسلم ولكن إذا جئت أنت باسم الدين وقلت لهم ما المانع أو أنه يجوز أن يحكمكم إنسان غير مسلم فهذا الذي قلت اليوم إنه لن يحدث فغداً سيحدث، والأفكار كما قلت لكم تؤثر في الناس تأثيراً بالغاً، وهي التي تتحول إلى واقع.

العلمانية الموسعة تقوم على إنكار الدين صراحة ولكن هذا الفكر الذي أقول إنه ينصر العلمانية لا يدعو طبعا إلى إقصاء الدين لأنه يتكلم باسم الدين ولكنه ينصر العلمانية بأنه أولاً يشكك في الدين هو فكر تشكيكي، الذي يتربى عليه ولذلك أنا أحزن على هؤلاء الشباب الذين يتربون على هذا الفكر لن يقودهم إلا إلى شك في الدين، شك في القرآن الكريم لا في نصه، لأن إنكار الكتب السماوية نوعان إنكار للنص والقرآن تكفل الله بحفظ نصه، فلا يمكن لأحد أن ينكر نصه ولكن هناك إنكار يأتي بتحريف المعنى تبقي النص ولكن تعطيه معنى مخالفاً لما أراد الله سبحانه وتعالى ولما أراد النبي ﷺ تبقي النص وتحفظه عن ظهر قلب وتتلوه على الناسي ولكنك تفسره تفسيراً مخالفاً وهكذا كان يفعله صاحبنا محمود محمد طه مثلاً كان يقول: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، الذين يلونكم من الكفار قال الذين يلونكم من الكفار نفسه، واحد مسكين يقول هذا استدل بآية من آيات الله والتشكيك في السنة النبوية السنة النبوية يمكن أن يكون التشكيك فيها التشكيك في نصوصها، بل وردت بعض أحاديث يعترف صاحبنا بأن الرسول قالها وهو يرفضها، والتشكيك في أهل السنة. أهل السنة هم أهل الإسلام الصحيح منذ عهد النبي ﷺ والتابعون وتابعوهم. وأهل السنة منهم أئمة الإسلام المتبوعون الأربعة المعروفون، وكل من تعرفون من المفسرين والمحدثين والفقهاء هؤلاء جميعاً من أهل السنة، وصاحبنا يقول بالحرف الواحد أنا لست سنياً، ومع ذلك يقود ويتزعم أهل السنة المساكين، ويكون هذا الفكر ينصر العلمانية بأنه يتنقص أئمة الدين يتنقصهم من النبيين والصحابة والفقهاء، والفكر الإسلامي بصفة عامة. ومن نصرة للعلمانية بشكلها الموسع أنه يسفه المعاني السامية وهذه تحتاج إلى تفسير وبحث أقولها لكم الآن «الآلات تابت إلى الله» هل رأيتم آلات تابت إلى الله كانت عاصية كانت كافرة

«كرة القدم صارت جهاداً في سبيل الله!» يعني إذا التقى الهلال والمريخ يكون كل واحد منهما يجاهد في سبيل الله؟! تسفيه للمعاني العظيمة الكبيرة. ما في إنسان قال لأحد لا تلعب الكرة لكن غاية ما تقول عنها إنها لهوى بريء. أما أن تكون جهادا في سبيل الله ما سمعنا بهذا ، والتسفيه أيضا المسلمون ينقسمون إلى سنة وشيعة قال: «يعني عشان حصل خلاف بين علي ومعاوية نشق المسلمين بعد ألف وأربعمائة سنة عشان خلاف بين علي ومعاوية؟ أنا شخصيا لوكنت موجوداً كنت مع علي لكن ما أشق المسلمين». أنا لما قرأت هذا الكلام استغربت قلت هذا الرجل جاهل لا يعرف ما معنى السنة وما معنى الشيعة ، أو متجاهل كما قيل إن كنت لا تدري فتلك مصيبة أو كنت تدري فالمصيبة أعظم، هذا تسفية للسنة وللشيعة يعني الشيعة هؤلاء عاملين دولة وكاتبين كتب كلهم لأنهم صوتوا مع علي والآخرين صوتوا مع معاوية وهل هذا صحيح هل منكم من أحد أنتم الآن لو كان في زمن الصحابة كان سيقف مع معاوية؟ أهل السنة هم مع معاوية ومن أصولهم الفرعية التربيع بعلي يعني تقول أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي هؤلاء أهل السنة ، وهل كل من وقف مع علي كان من الشيعة أم هذا لعب على العقول وتسفية كما قلت لكم لتاريخ المسلمين ولتفكيرهم يعني أن هؤلاء لا عقل لهم بسبب هذا الكلام البسيط هم منشقون هذا الانشقاق الكبير إلى الآن .

أدخل الآن في بعض التفاصيل، أيها الإخوة الكرام إن من أكبر الأمراض الفكرية التي يعاني منها الغرب شيء اسمه النسبية؛ لا النسبية الفيزيائية وإنما النسبية الفكرية أو نسبية الحق، نلخص رأيهم بأنهم لا يكادون يعترفون بشيء اسمه حق إلا ما جاء عن طريق العلوم الطبيعية أي ما كان مشاهداً أو متوصلا إليه بمنهج العلوم الطبيعية فهذا حق، وما عدا ذلك يستوي الدين والفن والأدب والفلسفة كل هذه آراء تأثر فيها الظروف وكذا ، هذه النسبية ، والنسبية حتى في الأخلاق اليوم هذا القيمة حق وغداً ليست بحق اليوم صالحة وغدا ليست صالحة وهكذا ، وفكر صاحبنا هذا فيه هذا المرض فهو يقول عن نصوص الدين إنها تحمل قابلية التجديد في طبيعتها ووقتها هنا أحب أن أذكركم بشيء كثيرا ما يخطئ فيه الناس تجديد الدين ما المقصود بتجديد الدين؟ يعنى عندما يقول الرسول ﷺ : **(إنه على رأس كل مائة سنة يبعث الله لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها)**، ما المقصود بتجديد الدين؟، الدين دينان دين أنزله الله

من السماء هو الكتاب والسنة، هل هذا يجدد؟ هل هذا يجدد يا عباد الله، لا يجدد ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، هذا لا يجدد ما الذي يجدد إذاً؟ الدين بالمعنى الثاني ما يدين به الناس، ما يدين به الناس قد يكون موافقاً لذلك الدين النازل من السماء، وقد يكون مخالفاً له خلافاً كبيراً أو صغيراً فيأتي المجدد ليرد هذا الدين الذي يدين به الناس إلى الدين الذي نزل من السماء فيجعل هذا موافقاً لهذا، فيتجدد هذا الدين، ينفي عنه البدع، ينفي عنه الخرافات، يذكر الناس بأن بعض الأحاديث الي تدور على ألسنتهم أحاديث ضعيفة أو موضوعة أو كذا يصحح للناس تصورهم للدين، يصحح للناس ما يدينون به ولا يصحح ما أنزل الله سبحانه وتعالى، فأنت لا يمكن أن تقول إن الدين يقبل التجديد في نصوصه. قد يقول إنسان إن المقصود بهذا كما جاء في أحاديث لصاحبنا كلام له في محاضرة ثم كتبت في كتاب قضايا التجديد قال كلاماً ألخصه لكم، قال مسألة القياس والتمثيل والاعتبار وكذا وكذا كل ذلك أمور متجددة شرحها أثناء المحاضرة فقال النصوص ثابته ولكن الذي يتجدد هو فهم الناس وأصول الفهم، وزعم أن أصول الفقه ومنها طبعاً علم تفسير النصوص أن هذه كانت متأثرة بالمنطق اليوناني، وأن لنا الآن منطق جديد، فالمهم هو يزعم أن الأصول الذي يبنى عليها الفهم تتغير فقلت له في تلك المحاضرة أمام حشد كبير من الناس: إنك الآن وقعت في ما منه فررت. أنت قلت إنك لا تريد التجديد في نصوص القرآن والسنة، ولكن إذا كانت أصول الفهم تجدد فما فائدة النصوص إذا كان هذا النص اليوم يعني بالنسبة لنا وبحسب أصول فهمنا يعني كذا وكذا، وبعد مائة عام تتغير أصول الفهم فيبقى النص يفهم فهما آخر وبعد مائة عام أخرى يفهم فهما آخر. أيها الإخوة أريد أن أشرح لكم هذه المسألة لأنها كثيرا ما يصيب بعضنا غبش ويخلطون بين تجدد الفهم وبين الاجتهاد ويحسبون أنك إذا قلت إن هذه المعاني ثابتة معنى ذلك أن الأجيال التي جاءت بعد النبي ﷺ ليس لها مجال في الاجتهاد ولا للتفقه في النصوص، أيها الإخوة الأعزاء إن الله سبحانه وتعالى أنزل على الرسول ﷺ كلاماً وكلفه بأن يبين هذا الكلام للناس بأقواله وبأفعاله فالله سبحانه وتعالى، تعالى الله أن يرسل ألفاظاً فقط وإنما ينزل معاني وهذه المعاني كلف بشراً الله أعلم حيث يجعل رسالته كلفه بأن يبين هذه المعاني للناس، ثم هذه المعاني نقلها أصحابه عنه إلينا، فإذا أردت أن تفهم معاني النصوص معنى هذه الآية أو معنى

هذا الحديث هذه الآية فلابد أن ترجع إلى ما قاله الرسول ﷺ وإلى ما قاله أصحابه الذين فهموا هذا القرآن عنه، وإذا لم تجد هذا لابد أن تفهم هذا الدين في حدود اللغة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى به، يعني حتى من دقة العلماء قالوا إنه لو تغير معنى كلمة من الكلمات بعد عهد الرسالة فلا يفهم القرآن بهذا المعنى الجديد؛ لأن هذه ليست اللغة التي نزل بها القرآن، القرآن نزل باللغة التي كان يعرفها من خاطبهم فإذاً نحن مهمتنا الأولى أن نعرف هذه المعاني الأساسية بعد هذا يأتي الاجتهاد بعد هذا يأتي التدبر وأنت تتدبر في ماذا إذا كنت لا تعرف المعنى؟ يعني ليس التدبر أن يأتي كل إنسان بمعنى جديد يضيفه إلى الآية أو إلى الحديث النبوي، بعد أن تفهم المعنى يأتي الاجتهاد، يأتي الاستنباط. القرآن الكريم كتاب لا تنقضي عجائبه، يرى أشياء ما رآها أسلافه ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، ما رآها أصحاب الرسول ﷺ يمكن أن نراها نحن أو تراها الأجيال التي بعدنا يمكن أن ننظر في القرآن الكريم ونحل به مشكله ما كانت موجودة في زمن الصحابة، مشكلة فكرية أو مشكلة واقعية وهكذا، فالاجتهاد لا علاقة له في تغيير المعنى أو إحداث معنى جديد في النصوص، وقال في علم الأصول القديم منسوب إلى البيئة الثقافية التي نشأ فيها أو التي تكاملت فيها أبنيته وصياغاته الأخيرة لذلك تلبس بمفهومات المنطق الصوري التقليدي، وبأشكاله ومصطلحاته وبأدواته في الوضوح والاستقامة، والله أنا أحياناً أستغرب المنطق اليوناني! الشافعي كان متأثراً بالمنطق اليوناني ؟ الشافعي أول من كتب في أصول الفقه، بل إن العلماء كانوا يقولون ويفرقون بين منطق اليونان ومنطق الأصوليين. اليونان ومن تأثر بهم كانوا يعتقدون أن الحجة الصحيحة هي ما يسمى بالاستنتاج كل الناس يموتون؛ فلان إنسان إذاً فلان يموت ويرون أن هذا هو البرهان وأن غيره لا ينتج نتيجة صحيحة، الأصوليون قالوا لا جاءوا بالقياس، وأوضح شيخ الإسلام ابن تيمية أنه في الحقيقة لا فرق بين هذا وهذا، أن هذا يمكن أن يصاغ بهذه الطريقة، وهذا يمكن أن يصاغ بهذه الطريقة، تقول مثلا إن الخمر التي حرمها القرآن الكريم مثلاً خمر عنب، وعندنا الآن شراب آخر فيه نفس الأثر التي تحدثه تلك الخمر هذا كان مسكراً وهذا مسكر والعلة في تحريم الأول كانت هي أنه مسكر فما دام هذه العلة توفرت هنا فيكون هذا أيضاً محرم هذا منطقهم هذا هو الذي دخل نعم دخلت فيه بعض المصطلحات، ولكن مصطلحات

فقط لغة فقط بل حتى المنطق اليوناني وكثير منه قضايا صحيحة، اليونانيون لم يخترعوا منطقاً وإنما كتبوا هذه القواعد الفكرية التي يفكر فيها كل إنسان في الدنيا، ولذلك قال ابن تيمية المنطق علم لا يحتاج إليه الذكي ولا يستفيد منه البليد لأنه إذا يعرف كيف يفكر المنطق لم يعلمه كيف يفكر! أول ما درسنا قيل لنا لا تظن أنك إذا درست المنطق ستكون منطقياً، في هذه النسبية كثير منها جاء في أصول الفقه، وأصول الفقه حتى الجانب الذي تأثر به إن قلنا إنه تأثر بأشكال أو بألفاظ أو بالمصطلحات اليونانية هو جزء بسيط جداً من أصول الفقه هل معنى هذا أنني أقول إن كل كتب أصول الفقه ليس فيها أخطاء ؟ لا وهذا ليس بشيء جديد، وهذا الذي علمه إيانا شيوخنا وهم تعلموه من شيوخهم وكان الإمام مالك رضي الله عنه يقول: (كل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر) ما في إنسان عظم من أئمة المسلمين عظم إنسانا بحيث جعله معصوما كالنبي صلى الله عليه وسلم فهذا الكلام عن أن الناس يعظمون القديم ليس بصحيح. نحن نعظم الحق قديماً كان أو حديثاً فنقول إن العلماء نعم أخطأوا كثير منهم أخطأ ولكنهم لم يجمعوا على خطأ أبداً لأن هذه الأمة لا تجتمع على خطأ، كتب أحد زملائنا يمدح صاحبه بأنه أضاف أصولاً أربعة جديدة إلى أصول الفقه الأربعة القديمة! يا عباد الله تتصورون هذا؟ المسلمون على مدى أربعة عشر قرناً لا يعرفون للفقه إلا أصولا أربعة فيأتي في آخر الزمان رجل من بلاد السودان أو شيخ من بلاد السودان يضيف إليها أصولاً أربعة أخرى! كيف يكون هذا؟ والله لو كان هذا صحيحاً لكان من أكبر الطعن في هذا الدين، لكان الناس يقولون لنا كيف دينكم هذا كنتم طوال هذه المدة تسيرون على نصف الأصول فقط؟ وقال رجل كنت أحسب أنه من طلاب العلم يمدحونه بأن من الأصول التي أضافها قال قرارات أو تصرفات الحكام، وأنا إلى الآن مندهش كيف يكون كيف يمكن لإنسان أن يقول إن هذا أصل من أصول الفقه، الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ما قال وأطيعوا أولي الأمر منكم لأن طاعة ولي الأمر تابعة للكتاب والسنة فإذا أنت قلت إنما يقرره أو يفعله أولو الأمر هو من أصول الفقه فكيف هذا لأن الله سبحانه قال بعد ذلك: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، قال بعض المفسرين تنازعتم

أنتم والحكام تنازعنا في شيء ماذا نفعل؟ نرده إلى الله والرسول. لكن إذا كان هو نفسه من أصول الفقه ماذا نفعل؟ نرده إلى من؟ هذا الذي قلت لكم إنه تأصيل وتسويغ للعلمانية بمعناها القهري. نفس الشيء الإجماع، المسلمون كانوا كلهم يقولون بالإجماع، وفرقوا بين أن الإجماع أصل من أصول الدين وبين معرفة الاجماع، وأما المبدأ فصحيح لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ المفهوم من الآية أنكم إذا لم تتنازعوا أنكم على حق هذا معنى الإجماع إذا لم تتنازعوا فأنتم على حق فإن تنازعتم فردوه إلى الله والرسول. «إن العلماء جعلوا الإجماع خاص بهم» يعني كأن العلماء هؤلاء حزب سياسي يتآمر على بقية المسلمين وأن هذا الذي قال الله أنه للناس كلهم نحن نقول إنه لنا نحن فقط. «وإن الإجماع هو إجماع الأمة وليس إجماع فئة» ولكن ما المقصود بالأمة؟ قال الفقهاء الأمة هذه فيها مجانين بلهاء فيها أطفال فيها جهلاء لا يعرفون شيئاً هؤلاء غير معتبرين، المعتبر بالإجماع هم الذين يعلمون والأمة تابعة لهم لأنها إذا كانت أمة مسلمة فهي تابعة لعلمائها فيكون إجماع الأمة بهذا المعنى، أما أن نقول إن في كل مسألة من مسائل الدين نصوت عليها نعمل استفتاء شعبياً؟ ويقول لك هذا حرام وحلال يجوز أو لا يجوز؟ هذه من قواعد العلمانية أنك ترد الأمور الدينية إلى الناس. أقوال الحكام أو قراراتهم كيف تكون أصلا من أصول الدين؟ ما الدليل على هذا الاستدلال السقيم، الكتاب هو الأصل القرآن الكريم، والكتاب دلنا على أن السنة أصل لأن الله سبحانه قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وهناك آيات كثيرة أكثر من أربعين آية تدل على أن السنة أصل، وجدنا في القرآن أصلا للإجماع، وجدنا في القرآن والسنة أصلاً للقياس بل القياس مسألة عقلية كل الناس يقيسون مسلمون وكفار. أين الدليل على هذا الأصل الجديد الذي اخترعه الشيخ السوداني؟! ولو كان ما يفعله الحكام أصلا من أصول الفقه لما قال الرسول ﷺ: **(إنما الطاعة في المعروف)**، وقيد طاعتهم، وأولئك الذين عين الرسول ﷺ على بعض الصحابة رجلاً منهم، وقال لهم: **(اسمعوا وأطيعوا)**، فغضب في السفر منهم وقال: اجمعوا حطباً فجمعوه، ثم قال: أوقدوا، فأوقدوها، ثم قال: ادخلوا فيها، ألم يقل لكم الرسول أطيعوني، ادخلوا، فقالوا له: إنما اتبعنا الرسول حتى لا ندخل النار أنت تريد أن تدخلنا النار في الدنيا، قال النبي

ﷺ قال: **(لو دخلوها ما خرجوا منها إنما الطاعة في المعروف)**، ولذلك قال أول الخلفاء الراشدين: (أطيعوني ما أطعت الله فيكم). وضع البخاري أصلا دستوريا عكس هذا الأصل في باب من أبواب كتابه الصحيح، قال إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد هذه قاعدة دستورية أن الحاكم إذا قضى بظلم أو قضى بغير قول أهل العلم فكلامه مردود فليس أصلا من أصول الفقة. في الكلام أيضا تسفيه ليس لأصول الفقه فقط بل لكتب التفسير والحديث وكل المراجع التي يعتمد عليها الناس، ويؤكد لكم هذا دستور كتبه بعض الشباب الذين تأثروا بهذا الفكر». تستبعد.الحركة التجديدية من دائرة ثقافتها كل كتب التفسير القديم ولا تتعامل مع مؤلفات الطبري ابن كثير القرطبي الخ يعتمد على الظلال كتفسير ثوري في جوهره ومنفعل بالعصر" وما علموا المساكين أن صاحب التفسير هذا اعتمد على هذه التفاسير التي يستبعدونها فهذا كأن الإنسان يرضى لنفسه بمصدر ثانوي ويترك المصدر الأصلي. واضح جدا في كتاب ظلال القرآن أنه اعتمد خصوصا على ابن كثير وما أنكر هو هذا! ميزته ، وهذه ميزة العلماء الدعاة، أنه كتب هذا الكلام بلغة يفهمها أبناء عصره. وطبق هذه الأحكام والقيم وربطها بمشكلات عصره، وهذه صفة الدعاة العلماء المجاهدين. قال: «يعتمد على صحيح البخاري وصحيح مسلم بالقراءة المباشرة منهما وليس على طريق شراح الحديث»، هذا دستور! قال: «تؤكد الحركة التجديدية أن التفسير يتوصل إليه الإنسان بالإكثار من التلاوة!» هل رأيتم جنونا أكثر من هذا؟ هناك أناس يحفظون هذا القرآن عن ظهر قلب ولا يعرفون من تفسيره شيئاً! قرأوا كل آية خمسمائة مرة، ألف مرة، ولا يعرفون من تفسيره شيئاً. كيف يتوصل إلى التفسير بالتلاوة!؟ لكن اسمعوا، في مقابل هذا، الحركة التجديدية في مصادرها "كل كتابات علماء النفس والاجتماع والسياسة والفلسفة والتاريخ والاقتصاد" هذه ما فيها استثناء! في الفكر الإسلامي استثناء، وفي الفكر الحديث لا يوجد استثناء! ماذا ستكون النتيجة؟

الردة: قلت لكم إن هذه من سمات الفكر العلماني أن الإنسان حر يقبل أي دين أو يرفض أي دين، ففي الردة قضيتان: أولاً حكم الردة نفسه هل هي جائزة؟ حرام؟ ثم حكم المرتد وهما قضيتان متصلتان. هنالك أشياء حرمها الله ولكن لم يرتب عليها عقوبة دنيوية. هنالك أشياء حرام وجعل لها عقوبة دنيوية، فحكم المرتد أنه يقتل. أذكر أنا لا أتكلم عن واقع. قد تأتي ظروف حتى بعض الأشياء التي نعلم أنها واجبة

نقول والله الآن لا نستطيع أن نفعلها. هذا كلام آخر. نحن نتكلم الآن على صعيد الأحكام كما هي في الكتاب والسنة، الردة فيها أحاديث وفيها عمل أن أناساً قتلوا لأنهم ارتدوا وعليها إجماع. هل يجرؤ إنسان ويقول إنه يريد أن يجدد الدين يراجع ما أجمع عليه المسلمون؟ وعندما نقول إجماع معنى ذلك أن كل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ومن تبعهم، ومن تبعهم وأئمة المسلمين جميعا إلى هذا العصر أجمعوا على هذا. فهل يأتي إنسان ليراجع هذا؟ ولا تحقروا أنفسكم، بعض الشباب يقولون لي "نحن ما عندنا علم، ما عندنا حجة" تكفيك هذه الحجة ولا تحتاج أن تدخل في التفاصيل. اسأل هل هذا إجماع أم لا؟ فإن قيل لك إنه إجماع فقل أنا لست مستعد أسمع أي كلام مادام يوجد إجماع لأنه لا يعقل أن يخطئ كل هؤلاء المسلمون جميعا ثم يأتي في آخر الزمان شيخ من بلاد السودان ليقول إنه توصل إلى الصواب. وعندما يتكلم عن أن المرتد لا يقتل يتكلم عنها وكأنها قضية بدهية لا يزيغ عنها إلا بليد أو جاهل وهذا كله طعن في كل أولئك العلماء الجهابذة. حجته ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وأن الحديث لا ينسخ القرآن. «أرأيتم حديثاً ينسخ القرآن؟» قضية النسخ مشهورة، إذا كان هناك تناقض بين نصين. أين التناقض؟ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، قبل أن يدخل الإسلام. الردة بعد أن يدخل في الدين نقول له ما عندك حرية أن تخرج عندك حرية تدخل القاعة أنت مخير تدخل أو لا تدخل، لكن إذا دخلت ما عندك حرية تخرج قبل نهاية المحاضرة، ما في تناقض في الأمر. ثم قال: «الردة التي توجب القتل ليست ردة نظرية وإنما هي الردة المقرونة بمفارقة الجماعة»، ولولا خشية الإطالة لقلت لكم من أين جاء هذا الكلام. والله هذا كلام سمعته وأنا طالب في جامعة الخرطوم في الخمسينات وأعرف مصدره، رجل أعجمي لا يفهم القرآن ولا اللغة العربية فهماً جيداً، توصل إلى هذا الفهم، وكان هذا الفهم شائعاً بين بعض إخواننا في ذلك الوقت، لا أدري هل استقى صاحبنا هذا الفهم منهم أو توصل إليه بالأصالة.

الردة فيها حديث واضح: **(من بدل دينه فاقتلوه)** فقال: «إن الحديث لا ينسخ القرآن»، وقال: «هذا حديث مبتور» والحديث ليس مبتوراً، الحديث قال: «أوتي علي بزنادقة فأحرقهم»، وفي رواية أخرى أنهم عبدوه فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس رضي الله عنه

فقال: (لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ: **(لا تعذبوا بعذاب الله)** ولقتلتهم)، لقول رسول الله ﷺ: **(من بدل دينه فاقتلوه)** هل هؤلاء خرجوا على دولة؟ جماعة ضعفاء خصوصاً في الرواية الأخرى، إنسان جاء يعبدك تقول خرج على الدولة؟ زنادقة هذه ردة فكرية.

الزنديق هو الإنسان المنافق يظهر الإسلام ثم يخونه لسانه، تخرج منه بعض العبارات. فقتلهم، ليس هذا فحسب بل إنه في زمان النبي ﷺ وفي اليمن، ذهب أبو موسى الأشعري على ما أظن ووجد رجلين موثقين فقال للصحابي الآخر الذي كان أميراً ما هؤلاء؟ قال: يهوديان أسلما ثم رجعا عن دينهما فقال له انزل فقال لا أنزل حتى تقتلهما كتاب الله. هل هؤلاء فارقوا أو خرجوا على الدولة؟ واستدلوا على الخروج أن الرسول ﷺ قال: **(فارقوا الجماعة)** الإنسان إذا ارتد عن الدين فارق جماعة المسلمين. فارقها، لم يعد منها. حتى لو كان جالساً في هذه القاعة وقال أنا كافر فهو ليس منها ليس معنى ذلك أنه خرج علينا بالسيف. ثم سخر من الحديث: **(من بدل دينه فاقتلوه)** فقال: «يعني لو واحد نصراني وأسلم، بدل دينه، نقتله؟»، نصراني أسلم نقتله لأن الحديث قال: **(من بدل دينه فاقتلوه!!)**، قلت: طيب قل هذا في القرآن أيضا لأن الله قال: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، إذا يا أيها النصراني إذا ارتددت عن دينك إلى الإسلام فسوف يأتي الله بقوم نصارى آخرين يحبهم الله ويحبونه!! هل هذا كلام؟ من قال هذا؟ ليس فكرا، لعب بالدين المشكلة الطامة الكبرى ليست هذه وإنما هي إباحة الردة. إباحتها. لا يقول فقط إن المرتد لا يقتل قال: «حتى إذا ارتد المسلم تماماً وخرج من الإسلام ويريد أن يبقى حيث هو فليبق حيث هو، لا إكراه في الدين وأنا لا أقول إنه ارتد أو لم يرتد فله حريته في أن يقول ما يشاء شريطة إلا يفسد ما هو متفق بيننا من نظام».

يا أيها الإخوة من أحل ما حرم الله فهو كافر. إذا قال إنسان الخمرحلال فهو كافر شربها أو لم يشربها إذا شربها وقال إنها حرام فهو مسلم عاص. إذا لم يشربها وقال إنها حلال فهو كافر، **فالذي يقول إنه يجوز للإنسان أن يرتد عن دينه هذا كفر. كفر**

صريح. هذه ليست ألاعيب سياسة. الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نقول كلمة الحق نعم لا تكفر مسلماً هذا من الأشياء العظيمة ولكن لا تقل لمن يكفر إنه مسلم إذا كان ذاك خطأ فهذا أيضا خطأ. إن كان صاحبنا جاهلا فعرفوه. وبعد أن يعرف إذا أصر أنه يجوز للإنسان أوكما قال في كلام آخر الإنسان له أن يبدل دينه فهذا كفر بواح مخرج من الملة. «وأردت أن أقول إنه يجوز للمسلم في إطار الدولة الواحدة والعهد الواحد أن يبدل دينه كما يجوز للمسيحي أن يبدل دينه»، الرسول يقول: **(من بدل دينه فاقتلوه)** وهو يقول: «يجوز للإنسان أن يبدل دينه»، ويقول: «إن الردة الفكرية البحتة التي لا تستصحب الثورة على الجماعة ولا الانضمام إلى الصف الذي يقاتل الجماعة كما كان يحدث عندما ورد الحديث الشهير عن الرسول ﷺ فليس بذلك بأس يذكر ولقد كان الناس يؤمنون ثم يكفرون ثم يؤمنون ويكفرون ولم يطبق عليهم الرسول ﷺ حد الردة»، يعني كل علماء المسلمين هؤلاء إما أنهم كانوا بلهاء، بلداء أو جهلاء أو كانوا متآمرين. الرسول ﷺ ما قال اقتلوا المرتد وظل المسلمون منذ عهد الرسالة الأولى إلى قيام الدولة السعودية يقتلون المرتد. كل هذا من غير برهان قاطع من الدين!! هل يمكن أن يحدث هذا؟ ويقول أيضا عن سلمان رشدي: «إنه لو كان في السودان لما حكم عليه بالردة» ويدافع عن أنه لا يقتل! والله أنا بالرغم من سوء ظني بصاحبنا هذا، في هذه المسألة قلت لعل الرجل لم يقرأ الكتاب. لم يقرأ كتاب سلمان رشدي. هذا الكتاب قدر لي أن أقرأه أظن في الأسبوع الأول الذي خرج فيه؛ لأنني كنت في بريطانيا في ذلك الوقت. والله لولا أن الكتاب كلفت أن أقرأه وأكتب عنه، لما استطعت أن أكمله. يا إخوانا هذا كتاب يتهم زوجات الرسول ﷺ بالبغاء. بل يتهم الرسول ﷺ بهذا. وصاحبنا يقول ليس مرتد ولا يقتل[١].

* * *

---

(١) هذه ليست كامل محاضرة العلمانية في ثياب إسلامية، التي قمنا بتفريغها من شريط فيدو وذلك لأن التسجيل في آخر الشريط غير واضح والكلام غير مفهوم وهو قدر قليل، لذا لم نتمكن من تفريغ هذا القدر من آخر المحاضرة.

ثالثاً: البحوث والدراسات

الدعوة الإسلامية والغزو الفكري[١]

أُلقي هذا البحث في المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية الذي عُقد بالخرطوم (٢٢-٢٦ جمادى الأولى عام ١٤٠١هـ الموافق ٢٨ مارس- ١ أبريل ١٩٨١م) بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري. ثم نُشر في مجلة هذه سبيلي، العدد: ٥، ١٤٠٣-١٩٨٣، ثم نشرته رابطة الشباب المسلم العربي في عام ١٩٨٧م على شكل كتيب صغير.

مقدمة:

ما من شك في أن الغرب بشقيه الرأسمالي والشيوعي يرمي العالم الإسلامي كل يوم بوابل من سهامه الفكرية في صورة نشرات خبرية وأحاديث إذاعية، وتمثيليات ومقالات، وصور، وكتب، ومحاضرات جامعية، ودروس مدرسية وغير ذلك من أشكال الفكر والدعاية. وما من شك في أن هذه مصيبة كبيرة ولكن المصيبة الكبرى هي قبولنا نحن لهذا الفكر كله، وعدم التفرقة بين ما كان منه سماً قاتلاً، وما كان بلسماً شافياً ولذلك فإن عبارة (الغزو الفكري) لا تصف الواقع وصفاً دقيقاً.

إذ لو كنا ننظر إلى الفكر الغربي المسلط علينا على أنه غزو لأعددنا لمواجهته ما استطعنا من قوة، ولقاومناه بقدر الوسع والطاقة، ولكن مشكلتنا أننا لا نعتبره غزواً يَستعبد بل قوة تُنقذ وتُحضر وتُحرر، ولها فإننا لا نكتفي بما يوجهه الغرب إلينا من قذائف، بل نسعى للاستزادة من فكره وحضارته..

(أ) بالذهاب إليه في موطنه لنتعلم منه ليس فحسب العلوم النافعة، ولكن التصورات الفلفسية والقيم الخلقية والقوانين والعادات والتقاليد.

(ب) وبأن نكون رسله المخلصين إلى بلادنا نبث بين أبنائنا ما تلقيناه عليه ونترجمه إلى لغاتنا الإسلامية ونشرحه وندعو إليه وندافع عنه فعل المقلد المعجب المشدود الذي لا ينقد ولا يجتهد ولا يُقوّم..

(جـ) وباستجلاب كتبه ودورياته وصحفه ومجلاته.

(د) وبدعوة أبنائه في شكل مدرسين وأساتذة جامعات وخبراء في شتى المجالات.

فإذا صح أن الفكر الغربي يغزونا، فصحيح أيضاً أن أقوى أدواته لغزونا هم أناس من بني جلدتنا، إنهم حكامنا وإداريونا ومدرسونا وكتابنا ومحررو صحفنا وإعلاميونا

---

(١) عنوان البحث حددته لجنة المؤتمر.

بل وضباطنا وأطباؤنا ومهندسونا وسائر أفراد الطبقة القائدة في بلادنا إلا من رحم ربك وقليل ما هم. ومع هذا أقول إن حل مشكلة (الغزو الثقافي) الغربي للعالم الإسلامي لا تكون بقطع الوشائج الفكرية بيننا وبين الغرب، فإن ذلك غير ممكن وغير مفيد. وإنما يكون بدراسة الحضارة الغربية دراسة تحليلية عميقة للتفرقة بين ما كان منها نافعاً يؤخذ أو ضاراً يترك بميزان علمي خلقي يقبله كل عاقل. وبدراسة الأسباب العميقة لتبعيتنا لهذه الحضارة وسيطرتها علينا ثم بالتماس الحلول التي تؤدي إليها تلك الدراسة. ثم بالعزيمة الصادقة القوية على وضع هذه الحلول موضع التنفيذ. وسأحاول في هذا المقال أن أضيف إضافة متواضعة إلى الجهود التي بُذلت في هذا السبيل، ومن الله العون وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

مقتضيات العصر وأهواء العصر:

أنصار الفكر الغربي في بلادنا وكثير من أئمته في بلاده يُصورون الحضارة الغربية على أنها حضارة العصر، لا بمعنى أنها الحضارة السائدة والمسيطرة فيه، فذلك أمر حسي لا ينكره إلا مكابر، ولكن بمعنى أن فكرها وقيمها هي القيم التي يقتضيها العصر.

والإنسان بطبيعه يميل إلى أن يكون ابن عصره، يلبس كما يلبس أبناء العصر، ويسكن كما يسكنون، ويتكلم كما يتكلمون، ويتعلم كما يتعلمون ما يُعينه على أن يعيش كما يعيشون، والأمم تميل مثل هذا الميل فلا تريد التخلف عن ركب الأمم المعاصرة لها في مسكن ولا ملبس ولا قوة ولا علم يسهل الحياة ويوسع الآفاق وينير البصائر، ولكن البون شاسع بين المعاصَرة والإمّعِيّة.

إن المفهوم الصحيح للمعَاصَرة كما أتصوره هو أن تكتسب الأمة تلك العلوم والمهارات والأدوات والأشياء التي يقتضيها العصر، يقتضيها بمعنى أن الأمة التي لا تكتسبها تكون متخلفة بالقياس إلى أمم معاصرة لها في إنتاجها المادي، وقوتها العسكرية، وأثرها الثقافي، وتكون لذلك أمة ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن نفسها، بل أن تنشر فكرها وثقافتها.

فإذا شعرت أمة كالأمة الإسلامية أنها تخلفت عن ركب التاريخ فعزمت على اللحاق به فمن الطبيعي أن تنظر في حال الأمم التي سبقتها لتعرف سر تفوقها فتتعاطاه كي تكون مثلها، ولكن هذا هو الموطن الذي زلت فيه أقدام كثير من القادة

والمفكرين من أبناء الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم التي أرادت أن تحذو حذو الغرب لتلحق به، وسبب الزلة أنهم حسبوا أن كل ما في الغرب فهو من لوازم العصر ومقتضياته ولم ينظروا نظرة الباحث المتروي الذي يحاول جهده أن يفرق بين مقتضيات العصر وأهواء العصر، أو بين أسباب التقدم الحقيقية وملابساته العرضية. فكان مثلهم كمثل رجل سبقه آخر في مباراة الجري فقال لكي: «أكون عداء مثله فلا بد أن اتخذ قميصاً كقميصه وتُباناً كتبانه[1] شكلاً ولوناً وحجماً. لا تستغربوا ما أقول فأنا أصور واقعاً ولا أرسم "كركتيراً". ألم يروِ لنا الفيلسوف والأديب المصري الشهير الدكتور زكي نجيب محمود عن نفسه أنه مر عليه زمان كان يرى فيه: «أنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بتراً، وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علماً وحضارة ووجهة نظرٍ إلى الإنسان والعالم، بل إني تمنيت عندئذ أن نأكل ما يأكلون ونجدُ كما يجدون ونلعب كما يلعبون ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون، على ظن مني آنئذ أن الحضارة وحدة لا تتجزأ، فإما أن نقبلها من أصحابها وأصحابها اليوم هم أبناء أوروبا وأمريكا بلا نزاع وأما أن نرفضها وليس في الأمر خيار بحيث ننتقي جانباً ونترك جانباً كما دعا إلى ذلك الداعون إلى اعتدال»[2].

إن هذا الأستاذ ليس شاذا بين مثقفي العالم الإسلامي، وأقواله هذه ليست فلتات عابرة وإنما هي تعبير عن حال فريق كبير من مثقفي هذه الأمة وعوامّها.

ولكن أصحيح أن كل ما في الغرب من فكر هو من مقتضيات العصر، بحيث يصبح الذي يرفضه متخلفاً عن ركب عصر، أو عائشاً خارج التاريخ كما يقولون ؟ لكي نجيب على هذا السؤال لابد أن نلقى على الفكر الغربي نظرة تحليلية فاحصة لنرى مم يتكون هذا الفكر؟ ولنعرف مكوناته لازم لعصرنا وأيها طارئ عليه.

مكونات الحضارة الغربية:

أن الحضارة الغربية تتكون على وجه الإجمال مما يلي:

أولاً: حقائق رياضية أو طبيعية أو اجتماعية أو نفسية تبثت صحتها بالتجربة الحسية أو البرهان العقل.

---

(١) التبان هو السراويل القصيرة.

(٢) تجديد الفكر العربي دار الشروق، الطبعة السادسة ١٩٨٠م، ص١٣.

ثانياً: نظريات عملية عن الطبيعة أو الإنسان فرداً وجماعة وهي ثلاثة أنواع:

(أ) نوع نجح في تفسير كثير من الظواهر ولم نجد ما يدل على بطلانه وإن كنا لا نقطع بصحته.

(ب) نوع ما زال في طور التجربة

(جـ) نوع ثبت بطلانه.

ثالثاً: تقنية تكاد تشمل كل جوانب الحياة أدى إليها تطور العلوم الطبيعية والرياضية.

رابعاً: مهارات تقنية وإدارية على تلك العلوم.

خامساً: تصورات دينية أو فلفسية للوجود ومكانة الإنسان فيه وللقيم الخلقية والجَمالية ولعلاقة الفرد بالمجتمع.

سادساً: أوضاع سياسية واقتصادية وعلاقات اجتماعية وعادات وتقاليد تسوغها تلك التصورات.

ثامناً: ولكن الفكر الغربي بشقيه الليبرالي الرأسمالي والأممي الشيوعي ليس مجرد خليط من الأفكار والتصورات المتماثلة القوة والفاعلية، بل إن منه ما يمكن اعتباره الفكر المسيطر المهيمن على غيره، والذي يمثل الأصل والإطار التصوري الشامل للفكر الغربي، ويمثل في ذات الوقت معياره التقويمي للحق والباطل، وللخير والشر، لما ينبغي أن يبحث وما ينبغي أن يهمل، ولِما يقبل وما يرفض، بل ويمثل الإطار الذي توضع فيه الحقائق العلمية ومن ثم تفسر تفسيراً يتناسب معه وتستنتج منها نتائج توافقه.

هذا الفكر السائد المهيمن فكر إلحادي مادي فحواه:

(أ) أن الواقع الموضوعي يتكون في النهاية من لبنات مادية متناهية الصغر في حجمها متحركة في فراغ.

(ب) أن كل ما في الوجود فهو إما هذا اللبنات، وإما أشياء مركبة منها، وإما علاقات بينها وما سوى ذلك فلا وجود حقيقي له.

(جـ) إن طبيعة هذه المركبات سواء كانت أجساماً جامدة أو كائنات حية، أو جماعات بشرية تفسرها في النهاية طبيعة اللبنات المكونة لها، هذا على الرأي السائد

بين جمهرة المشتغلين بالعلوم الطبيعية وهنالك رأي لكثير من فلاسفة العلوم يقول أن المركبات تكتسب بحكم تركيبها طبيعة جديدة لا يمكن ردها إلى الأجزاء المكونة.

(د) أنه ينبغي لذلك أن نلتمس تفسير الظواهر النفسية والاجتماعية والحيوية والفيزيائية في أسباب ضمن هذا الكون المادي، أي أن الكون المادي كون مكتف بنفسه، غير محتاج إلى قوة خارجه تخلقه أو ترسم مساره أو تدير أمره.

(هـ) ولذلك فإن كل عبارة تنطوي على دعوى تخالف في ظاهرها هذا التصور، فإما أن نحكم ببطلانها وإما أن نُعيد تفسيرها، بحيث نجد لها مكاناً داخل هذا الإطار الإلحادي المادي.

(و) وكل ظاهرة يُدّعي أنها خارقة لقوانين الطبيعة فهي إما كذب أو وهم لا أساس له.

(ز) وكل تفسير للظواهر النفسية أو الاجتماعية... الخ بأسباب خارج هذا الإطار لا يُعتبر تفسيراً علمياً، أي أن التفسير العلمي هو بالضرورة تفسير إلحادي، حتى أن كلمة العلم أصبحت في العالم كله تقريباً عَلَماً على هذا التصور الإلحادي للعلم، ولهذا أمكنت المقابلة بين العلم والدين.

هذه الفلسفة الإلحادية تمثل كما قلت إطار الفكر الغربي كله، بما في ذلك الحقائق العلمية، فحتى هذه توضع داخل هذا الإطار ومن ثم ينظر إليها من خلاله، وتفسر تفسيراً يتناسب معه، ولا يستنتج منها إلا النتائج التي توافقه، إن كثيراً من الناس يعتقدون أن الحقائق الجزئية المشهودة هي وحدها المهمة وأن لها الغلبة على التصورات الفلسفية، ولكن الحقيقة أن الإطار التصوري الخاطئ يؤثر على نظرة الإنسان إلى الحقائق الجزئية، ويحجب عنه مدلولاتها الحقيقية.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

أفلم يكونوا يرونها؟ بل كانوا يرونها، وكيف لا يرى الإنسان بلداً كاملاً وهو يمر عليه ذاهبا وآيباً؟ ولكنهم لم يستنتجوا من رؤيتهم لها العبرة التي ينبغي أن

تُستخلص لإن تصورهم المُنكِر للبعث يمنعهم من هذا الاستنتاج، ويقف بهم عند حدود الظواهر.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧].

المثقفون في الغرب كله بشطريه – إلا فئة قليلة – متأثرون على درجات متفاوتة بهذه الفلسفة الإلهية، فمنهم من يقبلها قبولاً كاملا ويعلن كفره بالله وبالدين في صراحة، ومنهم من يعتبرها منهجا علميا ينتهجه إذا دخل معمله أو كتب بحثه، أو ناقش زملاءه، ثم يخلعه إذا ذهب لكنيسته أو بيعته، ومنهم من يقبله حقيقة ولكنه ينتمي إلى الدين اسماً لأنه يفسر كل المفاهيم الدينية تفسيراً لا يخرجُ عن هذا الإطار.

أنا لا أُنكِر أن من المفكرين الغربيين من ينكر الفلسفة المادية وينتقدها، ولكني أقول ما كل من ينكر الفسلفة المادية فهو مؤمن بل إن من أشد أعداء الفلسفة المادية قوم ملحدون، والذين ينكرونها على أساس ديني ينتمون إلى أديان شركية خرافية.

هذه هي أهم مكونات الحضارة الغربية... فماذا نأخذ من هذه الحضارة وماذا ندع؟

يرى فريق من المثقفين في العالم الإسلامي – كما رأينا من قبل- أننا ينبغي أن نأخذ هذه الحضارة كلها بما في ذلك إطارها الفلسفي، ونطرح كل ما خالفها من دين وتراث وعادات وتقاليد، لماذا ؟ لأن إطارها الفسلفي هو الذي يمثل فلسفة العصر، لا بمعنى أن التصور السائد بين جمهرة المشتغلين في الغرب بالعلوم الطبيعية أو البشرية وفلسفتها، فذلك أمر هين وقد يكون حقاً، ولكن بمعنى أنها التصور الذي يقتضيه العصر والذي يعتبر متخلفا عن عصره كل من لا يقول به.

ولكن أصحيح أن هذا التصور الإلحادي لازمة العصر ؟

إن هذا التصور ليس جديداً وإذا ثبت أنه ليس جديداً فقد ثبت أنه ليس مما أنتجه عصرنا، وإنما هو مما أخذه بعض أبناء هذا العصر عن أسلافهم الملحدين ثم روجوا له وألبسوه ثوب العلمية والمعاصرة.

ودليلنا على عدم جدته أن الناس منذ قديم العصور منقسمون في تصوراتهم للوجود إلى فريقين: فريق يرى الكون المادي فقيراً غير مُكتَفٍ بنفسه، شاهداً على خالقه،

الذي ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وأن هذا الكون المرئي ليس كل ما خلق هذا الخالق الحكيم، فإن له مخلوقات أخرى منها ملائكة ومنها جن، ومنه جنّة تختلف طبيعة الأشياء فيها عن تلك التي نعرفها في عالمنا هذا وإن اتحدت الأسماء.

وفريق يرى أنه لا حق إلا ما أدرك بالحس المباشر وأن الكون غنيٌّ بذاته، وأنه لا خالق ولا بعث ولا ملائكة ولا جن.

وفريق ثالث يتردد بين هذين الموقفين اللذين لا يمكن الجمع بينهما فيميل هنا تارة وهنالك تارة أخرى فتأتي أقواله متناقضة ومواقفه متعارضة.

لنا على على قِدم هذا التصور الإلحادي أدلة كثيرة، نكتفي ببعض ما رواه لنا القرآن الكريم من أقوال الأمم الكافرة، وببعض ما قاله أصحاب الفلسفة المادية من فلاسفة اليونان وببعض أقوال الذين تأثروا بهؤلاء ممن سُموا بفلاسفة الإسلام.

يروي لنا القرآن الكريم أن الكفار من بني إسرائيل بنوا كفرهم على أساس أنهم لم يروا الله الذي يحدثهم عنه موسى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

وكرر بعض كفار العرب نفس القول فاشترطوا لإيمانهم أن يأتي الرسول بالله والملائكة قبيلاً.. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٢١]. ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء:٩٢].

واشترطوا لإيمانهم بالبعث أن يُبعث من مات من آبائهم كي يروهم عيانا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥].

وفي مجال الزعم بأن الكون مكتف بنفسه غير محتاج إلى قوة من خارجه قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

وكذلك فسروا حوادث التاريخ بأنه مصادفات من فعل الدهر لا أقدار خالق حكيم. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف:٩٤-٩٥].

قال ابن كثير: «وقالوا قد مسنا البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات...»[1].

وأما الفكر اليوناني الذي يمثل أقوى جذور الفكر الغربي المعاصر فقد كان فكراً شركياً إلحادياً وقد وجدت في هذا الفكر جذور الفلسفة المادية الإلحادية في شكل المذهب الذري الذي قال به ليوسيبس في حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، كما قال به من بعده واشتهر به ديمقريطس، خلاصة هذه الفلسفة أن كل الموجودات تتكون من ذرات مادية صلدة لا تنقسم، وأن هذه الذرات أزلية في ذاتها وفي حركاتها وأنه لا خالق لها ومدبر لأمرها. وأرسطو الذي انتقد هذا المذهب كان هو نفسه معتقداً بأزلية الكون وأزلية الحركة وهو اعتقاد يتنافى مع وجود الخالق ويتسق اتساقاً تاماً مع المادية الإلحادية.

وكما أن **بعض من سموا بفلاسفة الإسلام** من أمثال ابن سينا تأثروا بالفلسفة الأرسطية وقالوا كما قال بأزلية العالم، فقد تأثرت بعض الفرق الإسلامية بالمذهب الذرى فقالوا إن الكون مكون من ذرات وأن الخَلْقَ إنما هو جمع وتفريق لهذه الذرات. ولم يقتصر تأثر المسلمين بالفلسفة المادية الإلحادية على هذا فقط بل إن بعض من سموا بفلاسفة الإسلام كانوا يحاولون جهدهم أن يفسروا كل شيء إسلامي في هذا الإطار الإلحادي اليوناني، فقالوا لذلك إن الملائكة هي قوى الخير والجن قوى الشر، والله هو العقل الفعّال والوحي قوى نفسانية إلى غير ذلك من المسائل التي كفّرهم بسببها علماء الإسلام.

الفريق الثاني من المتأثرين بهذا التصور هو فريق **المنتسبين إلى الإسلام صدقاً أو نفاقاً**، والذين يتصورون الوجود، بل ويحاولون تفسير الإسلام ضمن هذا الإطار

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، ط٣، ١٣٩٩هـ، ج٢، ص٣٧.

الإلحادي كما فعل أسلافهم ممن سموا بفلاسفة الإسلام – هؤلاء في نظري أخطر من الفريق الأول، فالفريق الأول عدو سافر، وهذا عدو مستتر. فنقل الإلحاد إلى جماهير المسلمين بوساطتهم أيسر وتلبيسهم عليهم أشد. ولا يستغربن أحد ما أقول، فإن مؤرخي الفكر الغربي يَرُدون جذور الإلحاد إلى فلسفات "ديكارت" و"كانت" رغم أنهما كانا يؤمنان بوجود الله، ولكن العبرة ليست بما يؤمن به الكاتب في داخل نفسه بل بما يدل عليه قوله وما يلزم عن هذا القول.

أنا لا أريد أن أقول إن كل ما يفسر الإسلام ضمن هذا الإطار ملحد حقاً، مظهر للإسلام – إن أظهره – نفاقاً، ذلك لأنني أظن أن الكثيرين منهم يقبلون هذا الإطار على أنه الإطار العلمي وهم حين نحسن الظن بهم يريدون أن يُبينوا أن لا تعارض بين الإسلام والمنهج العلمي والحياة المعاصرة، ولذلك فإنهم يقدمون تفسيراتهم هذه على أنها التفسير الذي يقتضيه العلم وتقتضيه مسايرة الإسلام لظروف العصر لا على أنه التفسير الإلحادي للدين وهم في هذا سالكون منهج كثير من المفكرين المسيحيين مشابهون لهم أو متَشبهون بهم.

هذا الفريق نوعان منهم من قبل هذا الإطار لا في مجال التشريع العملي فحسب بل وفي مجال العقيدة أيضا، ومنهم من قبل لوازمه في مجال التشريع، وإن لم يقبلها في مجال العقيدة أو ظل على الأقل صامتا عنها في هذا المجال.

ولبيان خطر هذا التصور في مجال العقيدة وشناعته أقول:

إن الإيمان بالله واحداً لا شريك له هو لُب الإسلام وعماده، فهو الإطار الذي يحوي كل تفاصيله، وهو الأساس الذي تبنى عليه كل فروعه، وهو المقدمة التي تستخلص منها كل نتائجه. والعلم بالله تعالى هو أشرف العلوم وأنفعها لأنه كلما ازداد علم الإنسان بالله ازداد إيمانه به وثقته فيه توكله عليه وحبه له وخوفه منه، ورجاؤه وشكره وطاعته وسائر الحالات والصفات المعبرة عن إخلاص العبودية له تعالى. وقد تفضل الله تعالى فعرفنا بنفسه في كتابه المنزل، وعلى لسان نبيه المرسل. وقد كان النبي ﷺ أعرف الناس بالله وأشدهم له خشية، وكان أصحابه من بعده أعرَف هذه الأمة بربها وأشدها له خشية. والطريقة التي سار عليها هؤلاء الأصحاب في فهم ما قاله

الله تعالى عن نفسه، وما قاله عنه رسوله أن يُثبتوا له كل صفة أثبتها لنفسه في القرآن أو السنة على أنها صفة حقيقية وأن ينفوا عنه كل ما نفاه عن نفسه. فإذا قال تعالى إنه سميع بصير حي قيوم، أثبتوا له هذه الصفات، وإذا قال إنه تعالى يُحب ويرضى ويكره ويغضب قالوا عنه ما قال عن نفسه، وإذا أثبت لنفسه وجهاً ويداً قالوا إن له وجهاً ويداً، وإن قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، أثبتوا لله صفة الإستواء وآمنوا بأن العرش والكرسي من مخلوقاته، ولم يُمثلوا شيئاً من هذه الصفات الإلهية بصفات المخلوقين لأنهم يعلمون أن الله ليس كمثله شيء، ولم ينفوها عنه أو يؤولوها تأويلاً يُبطل حقيقتها لأنهم يعلمون أن ذاتاً بلا صفات حقيقية هي وهم لا حقيقة له. على منهج هؤلاء الصحابة الكرام سار من جاء بعدهم من كبار التابعين وتابعيهم وسائر أئمة أهل السنة والجماعة. ولكن هذا العلم بالله تعالى الذي هو أشرف العلوم وأهمها لا يكاد اليوم يُوجد إلا عند قلة من الناس وذلك لأسباب تاريخية منها تأثر المسلمين بعقائد ومذاهب جاهلية أهمها الفلسفة اليونانية المادية. لقد أثرت هذه الفلسفة في علم الكلام، وصار علم الكلام – مع الأسف – هو المختص بموضوع العقيدة وصفات الخالق تعالى، ولكن هذا الاتجاه المنحرف يُعضّد اليوم بأسباب جديدة هي تأثر المسلمين المتزايد بالتصورات الغربية المادية.

لقد كانت المعرفة الصحيحة بالخالق تعالى تقول إنه هو الحق، وكانت تقول إن أصدق كلمة قالها الشاعر " إلا كل شيء ما خلا اللهَ باطل " وإذا كان الله تعالى هو الحق، بإطلاق، فإذا أثبت نفسه صفة كانت في حقه صفة حقيقية يتصف بها على وجه الكمال اللائق به سبحانه، وإذا اتصف المخلوق بهذه الصفة كانت في حقه أيضا صفة حقيقية على وجه النقص اللائق بالمخلوق. فالله تعالى عليم حكيم رحيم سميع بصير والمخلوق موصوف بالعلم والحكمة والرحمة والسمع والبصر، فالأوصاف في الحالين أوصاف حقيقية لا مجازية ولكنها في حق الله تعالى أحق لأنه هو الحق بإطلاق، وهي في حقه أوصاف كمال لا يماثلها ولا يدانيها أوصاف المخلوقين.

ثم تغير الحال، فاعتبر الناس -بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال- وجود المخلوقات المشهودة هي الوجود الحقيقي، فصفاتها هي الصفات الحقيقية، وما لم يكن هاديا مشهودا فهو إلى الفكرة الذهنية أقرب منه إلى الحقيقة الواقعية.

ونتج عن هذا التصور اتجاهان منحرفان:

اتجاه يقول بما أن الصفات على الحقيقة إنما هي صفات الأجسام المشهودة فلا بد أن يكون الله جسماً، وإذا نسب لنفسه يداً فلا بد أن تكون كيدنا لحماً ودماً، وإذا قال إنه سميع بصير فلا بد أنه يسمع بأذنين مثل آذاننا ويرى بعينين مثل عيوننا، تعالى الله عن قولهم علوا كبيراً، هؤلاء هم الذين سُموا في تاريخ الإسلام بالمُشَبِهة والمُجَسِمَة.

واتجاه يقول بما أن الصفات على الحقيقة إنما هي صفات الأجسام المشهودة، وبما ان الله تعالى ليس كهذه فإنه لا يتصف بها حقيقة بل مجازاً، ولذلك فقد رفض الغلاة منهم أن يُثبتوا لله تعالى أي صفة من الصفات فرفضوا حتى القول بأنه موجود، لأن هذا بزعمهم تشبيه له بالمخلوقات، وهؤلاء هم الذين عُرفوا في تاريخ الإسلام بالجهمية.

ولذلك فإن أهل السنة حين يبينون عقيدتهم يميزون أنفسهم عن هذين المذهبين الضالين، فيقولون إنهم يثبتون لله ما أثبت لنفسه من غير تشبيه ولا تمثيل (وهو المذهب الأول) ولا تحريف ولا تعطيل (وهو المذهب الثاني).

وقد أثر هذا الاتجاه الأخير في كثير من الفرق الإسلامية حتى تلك التي تنتسب منها إلى أهل السنة والجماعة فلجأوا إلى مثل تأويلهم التعطيلي لبعض الصفات التي ظنوها لا تكون حقيقة إلا في حق المخلوقين، فقالوا مثلاً عن قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) أي استولى فكان رد أئمة أهل السنة عليهم أولا أن الاستواء لا يعني الاستيلاء في اللغة فالتفسير خطأ إذن من حيث اللغة، وثانيا على فرض أنه الاستيلاء فهل تقولون إن الله تعالى استوى كاستيلاء البشر ؟ إن قلتم نعم صرتم مشهبة وإن قلتم استولى استيلاء لا كاستيلاء البشر؟ فلماذا لا تقولون استوى لا كاستواء البشر كما قال سلف الأمة الراشدين.

لكن هذا المذهب التعطيلي يعود إلى الظهور من جديد فينتشر بين كثير من المتدينين من المسلمين وغيرهم، وما ذلك إلا لأنه يجد سنداً من التصور المادي المعاصر، هذا التصور الذي يقول كما رأينا سابقا إن الوجود الحقيقي إنما هو وجود الذارت

المادية ومركباتها، ومن البديهي أنه لا مجال للخالق في نطاق هذا التصور، إذا قلنا إن صفاته صفات حقيقية، لابد إذن من تأويل هذه الصفات واعتبارها مجازاً أو رموزاً ولكن هذا معناه أن الخالق تعالى يكون مجرد فكرة في الأذهان لا وجود حقيقي لها في الأعيان. فلا يوصف لذلك بصفة ثبوتية فيقال إنه كذا وكذا، بل تكون كل صفاته سلوبا فيقال أنه ليس كذا وليس كذا، هكذا قالت الجهمية في الماضي، وهذا يقول رجل كالأستاذ محمد أسد: إنه يقول عن الله تعالى ما ترجمته: «..إننا لا نستطيع أن نتخيله» وهذا صحيح، إذا كان المقصود به أن تكون له صورة كيفية في أذهاننا، ثم يقول: «كل ما نستطيع أن نعرفه عنه أنه ليس كذا وكذا»[1]. ثم يمضي لذلك فيؤول صفاته الثبوتية كالاستواء والسمع والبصر بل ويُؤول السماوات والكرسي.

وما يقال عن الله تعالى يقال عن عالم الغيب كله تقريبا. إن المحاولة دائما هي تأويل هذه الحقائق بحيث تصبح قابلة لأن تكون جزءاً من الأطار المادي. يقول الشيخ محمد عبد ه عن الملائكة في كلام طويل في تفسيره: «فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده فأنما قوامه بروح إلهي سمى في لسان الشرع ملكاً.، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعاني القوى الطبيعية، والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقة أمرا هو مناطها، وبه قوامه ونظامها، لا يمكن لعاقل أن ينكره، وإن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكاً وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموساً طبيعياً، لأن هذه الأسماء لم ترد في الشرع، فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات»[2]، ثم انتقد تعريف الملائكة بأنها أجسام نورانية قابلة للتشكل بأن النور وحده لا قوام له يكون به شخصاً ممتازاً بدون أن يقوم بجرم آخر، وأن الشيء الواحد لا يمكن أن يتقلب في أشكال من الصور مختلفة[3].

---

(١) The Message Qoran, London 1980.P.990.

(٢) تفسير المنار، ج١ ص٢٢٣، القاهرة ١٩٧٢م.

(٣) ج١، ص٢٢٥.

يقول تلميذه الأستاذ رشيد رضا – عليه رحمة الله –: «هذا ما كتبه شيخنا في توضيح كلامه في تقريب ما يفهمه علماء الكائنات من لفظ القوى إلى ما يفهمه علماء الشرع من لفظ الملائكة»[1].

وأقول لا بأس على الداعية إلى الإسلام أن يقرب معاني ألفاظه إلى الناس بالمألوف من ألفاظهم ومعارفهم، ولكن هذا شيء وتفسير حقائق الإسلام بما يوافق أهواء العصر شيء آخر. وما فعله الأستاذ محمد عبده هنا هو من القبيل الثاني لا الأول، والذي يغرى الداعية الحديث بالوقوع في مثل هذا التفسير هو أن كثيرين من معاصرينا يقبلونه ويرتاحون إليه ويعتبرونه التفسير الذي يقتضيه العقل، ولكنهم إنما يقولون هذا لأنهم متأثرون بثقافة عصرهم، لا لأن عقولهم أكبر من الأسلاف الذي قبلوا حقائق الغيب كما وصفها الله تعالى. إن كل ما يخالف العقل باطل لا محالة، ولكن ما العقل؟ إن كثيرا من المفكرين يسلمون بمقدمات باطلة في تصورهم للكون، ثم يعتقدون أن المعقول هو ما كان موافقا لتلك المقدمات فيخلطون بين الممكن عقلاً والممكن في حدود إطارهم التصوري، بل إن من الخطأ الذي نبه عليه كثير من العماء الغربيين أنفسهم الظن بأن الممكن عقلاً يطابق الممكن في حدود العلم التجريبي.

هذا خطأ، لأن دائرة الممكن عقلاً أوسع من دائرة الممكن تفسيره في حدود العلم التجريبي، إذ لو كان الأمر كذلك لصح أن نقول إن كل ما لا يمكننا تفسيره في حدود علمنا التجريبي، فهو وهم لا حقيقة له، ولو آمن العلماء بهذا المبدأ لتوقف العلم عن التقدم منذ زمن طويل، ولكن القحيقة أن ما لم يمكن تفسيره في حدود العلم بالأمس أمكن تفسيره اليوم وما لا يمكن تفسيره اليوم سيمكن غدا بإذن الله، وذلك لأن دائرة العلم في اتساع دائم، ولكن العلم التجريبي مهما اتسعت دائرته فلن يستطيع تفسير بعض الحقائق، لا لأن تفسيرها غير ممكن، ولا لأنها مخالفة للعقل، ولكن لأنها تقع خارج المجال الذي حدده هذا العلم لنفسه، وكونها خارج المجال لا يعني أنها أوهام أو دعاوى لا دليل عليها بل إن عليها لأدلةً تتناسب مع طبيعتها، ولكن هذا ليس مجال الإضافة في هذا الموضوع.

من الخطأ الشائع تسمية أصحاب هذه المدرسة بالعقلانيين إذ ما كل من ادعى الاحتكام إلى العقل بعاقل وكيف يكون عقلانياً من يحد العقل بحدود الفلسفة المادية

---

(١) ج١، ص٢٢٧.

أو بحدود الممكن تفسير في حدو العلم التجريبي الذي بلغه الناس في زمانه؟ لو كان هؤلاء عقلانيين لصح أن نصف بالعقلانية أولئك الذين أنكروا إسراء الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة، لقد أنكروا أمراً لا نعتبره اليوم مستغرباً حتى بوسائلنا المادية، ولكنهم أنكروه لأن علمهم ضاق فحصر الممكن عقلا في المألوف لديهم من وسائل الانتقال، وكذلك يفعل أصحاب هذه المدرسة المدرسة اليوم، فيضيقون بكل أمر جاء به الذين لا يجدون له – إن أخذوه على ظاهره – تفسيرا في حدود معارفهم فيظنون هذا الظاهر مخالفا للعقل فيؤولونه تأويلات تجعله مناسبا لما حسبوه متقضى العقل وإنما هو مقتضى الأُلف والعادة، ولذلك فإنهم يضيقون بكل ما ورد في القرآن والسنة من أحداث خارقة لمعتاد الناس ويؤولونها تأويلا يجعلها أمرا عاديا، فالطير الأبابيل هي الجراثيم[1]، ونتق الجبل فوق بني إسرائيل إنما كان زلزالا وانفلاق البحر لموسى كان جزراً[2].

والنوع الثاني هي الذي لا يهتم بأمثال هذه التصورات الأساسية سواء كانت إسلامية صحيحة أو غربية باطلة، ويعتبرها كلها لقصر نظره من الكلام النظري الذي لا يؤثر في الواقع العملي، ولكنه مع ذلك متأثر بنتائج التصور الإلحادي في تصوراته الفكرية وتصرفاته العملية. فهو لا ينظر إلى الفكر الغربي في مجال الاقتصاد أو السياسة أو القانون ... الخ على أنه تقاليد حضارية معينة قد تخطئ وقد تصيب، ولكنه يعطيه صفة الإطلاق فبحسب أن اقتصادهم هو الاقتصاد وقانونهم هو القانون، وإن لم يقل الاقتصاد المطلق أو القانون المطلق فهو يراه على الأقل الاقتصاد أو القانون الذي يقتضيه العصر وتقتضيه الحضارة الإنسانية، ولذلك فإن كل ما في الإسلام مما يخالف التصور الإلحادي ينبغي أن يعاد تفسيره، بحيث يصبح موافقا لمواصفات الحضارة الغربية، والغريب أنهم يسمون كل هذا اجتهاداً وتجديداً، أغريب هو؟ كلا فإن هذا هو المنهج الذي تسلكه كل الانحرافات فكرية كانت أو حقيقية، إنها تسمى أباطيلها بأسماء براقة لا تعبر عن حقيقيتها ألم يقل الرسول ﷺ: **(ليشربنّ ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها)**[3].

---

(١) محمد عبده.

(٢) محمد أسد.

(٣) حديث صحيح رواه النسائي وابن ماجه وأبوداود.

ألم يقل الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون:٤].

ألم يقل عن أعداء أنبياء الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

هذه هي النظرة التي جعلت بعضهم يتحرجون وبعضهم ينكرون أشياء مثل تعدد الزوجات، ورجم الزاني المحصن، و قتل المرتد، وحجاب المرأة، وإعفاء اللحي، وتحريم المعازف والربا واختلاط النساء بالرجال.

وسيقت للدفاع عن هذا الإنكار حجج وتَعِلاّت من أوهي وأسخف ما يتصوره الإنسان، ولا عجب فإن الداعي إلى الإنكار ليس هو هذه الحجج وإنما معرفة المنكرين بأن هذه الأشياء مما يستبشعه العقل الغربي المعاصر، واقتناعهم بأن كل ما يستبشعه هذا العقل فهو المُستبشَع لأنه إنما يُنكر ويُستبشع ما كان مخالفا للعلم معرقلا للحضارة الإنسانية.

ولم يقتصر أثر الفكر الغربي على التصورات الاعتقادية والآراء التشريعية وإنما تعداه إلى الأذواق والظاهر فالزي القومي في كثير من بلاد ا لعالم الإسلامي أصبح دليل التخلف سيما فيما يتعلق بالنساء، وكل ما يفعله الغربيون رجالا ونساء بشعورهم جميل وكل ما نفعله نحن إن لم نقلدهم قبيح، وإذا احتفلوا برأس السنة الميلادية فينبغي أن نحتفل وأن نحتفل بطريقتهم، وإذا جعلوا لأبنائهم أعياد ميلاد فكذلك ينبغي أن نفعل، إلى آخر ما لايكاد يُحصى من أنواع التشبيه.

إن التقليد في المسائل الشكلية أقل خطراً ما في ذلك شك، ولكنه ربما كان أدل على التبعية العمياء لأنه إن اختلفت للمتابعة في التصورات والتشريعات تأويلات ومسوغات فكرية، فلا يمكن أن يوجد للتقليد في المسائل المظهرية مسوغ غير الافتتان بالمقلَّد، واعتباره المعيار لما ينبغي أن يُفعل وما ينبغي أن يُترك. ولكن التقليد في المظاهر له آثار خطرة قد لا يلتفت إليها كثير من الناس، إذ من الثابت أن هنالك علاقة بين المظهر والمخبر، وعليه فالذي يوافق طائفةً معينة في مظر تمتاز به ويُعد شعاراً لها خليق أن يجد في نفسه ميلاً لموافقتها في مخبرها، ثم أن المظاهر كثيرا ما تكون تعبيراً طبيعياً عن حالات نفسية ومبادئ تصورية، فالتشبه بأصحاب هذه الحالات والتصورات في مظهرهم، يساعد على إحداث تلك الحالات والتصورات في المُقلَّد.

إن كثيرا من مواقفنا السياسية لها جذور فكرية في هذه التبعية للثقافة أو الحضارة الغربية، فاتخاذ الشيوعيين وكثير من اليساريين مواقف مؤيدة لموقف المعسكر الشيوعي في القضايا العالمية حتى ما كان منها خاصا بالعالم الإسلامي هو تعبير عن موقف حضاري قبل أن يكون موقفا سياسياً.

لكن هذه التبعية الحضارية ليست قاصرة على الشيوعيين، فالتبعية الحضارية للمعسكر الغربي نتج عنها نفس الآثار السياسية، فصلح كامب ديفيد مثلا سبقه صلح مع الحضارة الغربية، سبقته كتابات لمفكرين مؤثرين كبار بأن هذه الدول الغربية هي المثل الذي ينبغي أن يحتذي، فكل ما كان أقرب إليها كان أكثر حضارة وأجدر بالاحترام والتوقير، وبما أن إسرائيل هي قطعة من الغرب في البلاد العربية، وبما أن البلاد العربية متخلفة بالقياس إليها فإن معاداتها معاداة للحضارة الغربية ودليل على التخلف.

إن الافتتان بالحضارة الغربية في تصوراتها الاعتقادية وأحكامها التشريعية وقيمها الخُلقية ومظاهرها الذوقية لم ينتج عنه مواقف سياسية موالية للغرب فقط وإنما نتج عنه محاولة لإعادة صياغة المجتمعات الإسلامية كلها في قوالب غربية، في تركيبها الاجتماعي، ونظمها القانونية، وأوضاعها الاقتصادية، وبرامجها التعليمية ووسائلها الإعلامية على اعتقاد بأن هذه الصياغة شرط ضروري لنهضة الأمم الإسلامية وتحويلها من مرحلة التخلف والرجعية إلى مرحلة التقدم والمعاصرة.

ما هي أسباب هذه التبعية:

إن الإنسان بطبعه ميَّال إلى حب الموافقة والتقليد ولذلك قيل إن الناس كأسراب القطا، إن الإنسان مخلوق اجتماعي فأكبر عقاب له أن تعزله عن المجتمع في سجن انفرادي، ولكي يعيش الفرد مع الناس لابد أن يدفع ثمن ذلك موافقة لهم في أفكارهم وعاداتهم ومظاهر حياتهم لأن المجتمع يقسو على من يشذ عنه في هذه الأمور.

والموافقة هذه أمر لا بد منه، وهي ليس شراً في ذاتها وأنما تكون شراً حين تسود في المجتمع عقيدة باطلة أو فكرة خاطئة أو عادة ضارة وبطلب من الفرد أن يتابع المجتمع فيها. هنا يُمتحن الإنسان، فالكثرة من الناس تخشى المفارقة والتميز وترضى بالمتابعة وإن تبين لها الخطأ، والقلة من الرجال والنساء التي تمتاز بقوة العزيمة والشجاعة وحب الحق هي وحدها التي تصمد وتقوى على التميز والمفارقة، وإذا ما تميزت وفارقت تبعها غيرها ممن هو أقل منها جرأة، وتبع هؤلاء غيرهم وهكذا إلى أن يحدث في المجتمع – إن حدث – تيار جديد لا يلبث أن يكون هوالاتجاه الاجتماعي المقبول.

والمجتمع ليس كوماً من الأفراد متماثلي الأهمية والأثر الاجتماعي، ولكنه نظامٌ بعض الطبقات فيه أهم من بعض، وأشد أثرا على غيرها، فإذا تغيرت هذه أو سنت للناس سنة جديدة تبعها غيرها. هذه الطبقات القائدة تشمل طبقة قادة الفكر، وطبقة الحكام، وطبقة الأثرياء، ولذلك فإن النبي ﷺ لم يكن في مبدأ بعثته يوجه الدعوة إلى الأفراد البسطاء فقط وإنما كان يعطي اهتماماً خاصا لرؤساء القبائل، وفي المدينة وجه رسائله إلى الملوك والرؤساء، على أساس أن إسلام هؤلاء يقود إلى إسلام أتباعهم، ولذلك فإن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون نبيه الخاتم من قريش القبيلة التي قال عنها ﷺ: **(الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم)**[1]، وفي رواية: **(الناس تبع لقريش في الخير والشر)**[2].

سألت امرأة الخليفة الأول أبا بكر رضي الله عنه: (ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامت أئمتكم. قالت: وما الأئمة؟ قال: أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى، قال فهم أولئك على الناس)[3].

الطبقة القائدة قد ترى رأياً أو تسن عادة لأنها توافق مصلحتها وهواها، وقد ترى الرأي لأنه حق وتسن العادة لأنها تراها حسنة، ثم يأتي كثير من أفراد الطبقات التابعة فيقلدونها في الرأي أو العادة لمجرد أنها قالت به أو سنته و من غير نظر في صواب الرأي وخطئه وحسن العادة أو سوئها.

ويبدو أن ما يصدق على الأفراد في نطاق المجتمع القطري أو القومي الواحد يصدق على الأقطار في نطاق المجتمع الدولي، سيما في عصر كعصرنا تقاربت فيه المسافات وتوثقت الصلات، وتشابكت المصالح، واشتد لذلك التأثير المتبادل.

---

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب قريش.

(٢) مسلم، كتاب الإمارة.

(٣) البخاري، كتاب المناقب، باب أيام الجاهلية: (عن قيس بن أبي حازم قال: دخل أبوبكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب فرآها لا تكلم؛ فقال: ما لها لا تكلم؟ قالوا: حجت مصمتة. قال لها: تكلمي، فإن هذا لا يحل هذا، هذا من عمل الجاهلية، فتكلمت فقال: من انت؟ قال: امرؤ من المهاجرين، قالت: أي المهاجرين؟ قال: من قريش، قالت: من أي قريش انت؟ قال: إنك لسؤول، أنا أبوبكر.

الدول أيضا منها دول قائدة ودول مقودة، فالدولة الأقوى فكرا في معرفة أمور الدنيا والتصرف فيها، والأكثر ثراء، والأشد قوة وبأسا، وهي الدولة القائدة والرائدة التي يحتاج غيرها إلى فكرها وتجربتها ومالها ومنتجاتها، وما كان أقل منها في هذه الجوانب فهي الدول التابعة.

فإذا رأت الدول القائدة رأياً، أو اتخذت في حياتها طريقة، لأي سبب يخصها، قلدتها الدول التابعة تقليداً أعمى.

هذا على فرض أن قادة الدول القائدة بقوا في بلادهم، فكيف إذا نتقلوا إلى البلاد الضعيفة حكاماً ورؤساء، وقادة فكر، كما حدث في العالم الإسلامي في عهود الاستعمار. أو خبراء في شتى نواحي الحياة أو أساتذة أو رجال أعمال كما هو الحال في عالمنا الإسلامي الآن.

إنه حينئذ تجتمع لهؤلاء القادة الوافدين قوتان، قوة الدولة القائدة التي يمثلونه، وقوة المركز القيادي الذي يحتلونه في داخل الدولة الضعيفة.

وبما أن الإنسان لا ينفق إلا مما يملك فإن هذه الدول الغربية القائدة إنما تنقل إلينا ما عندها، معتقدة أن موقفها هو الموقف الطبيعي الذي تُقاس به الأشياء الأخرى، فدينها هو الدين، واقتصادها هو الاقتصاد، فلسفتها هي الفلسفة، ومصلحتها هي المصلحة، فما عندها يُعرّف بالألف واللام، وأما ما عند غيرها فلا بد من تعريفه بالإضافة، فيقال دين إسلامي أو بوذي واقتصاد إسلامي وفلسفة عربية أو صينية أو هندية وكذلك قل عن لغتهم وزيهم وفنهم المعماري وعاداتهم الاجتماعية.

أعود فأقول إن تبعية الفرد للمجتمع سيما إذا كان فردا من الطبقة الضعيفة وتبعية الأمة لجماعة الأمم سيما إذا كانت أمة ضعيفة أقول إن هذا سنة اجتماعية لا يمكن التغلب عليها بمجرد الأماني.

ما الحل إذن ؟

إذا كان التحليل الذي أوجزناه سابقا صحيحا ومقبولا، فإن الحل النهائي الحاسم هو أن يزول التناقض بين الإنتماء إلى الإسلام والإنتماء لمجموعة الدول الضعيفة، وهذا يكون إما بأن تقوى الدول الإسلامية أو بأن تسلم الدول القوية، وكلا الأمرين ممكن، بل إن كل واحد منهما يساعد على الآخر. فإذا قويت الأمم الإسلامية احترمتها الشعوب الأخرى واحترمت تبعا لذلك دينها، أما الآن فإن حال الأمم الإسلامية يفتن الناس عن الإسلام، وتلك مصيبة علمنا القرآن، الاستعاذة منها: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة:٥].

وإذا أسلمت الدول القوية القائدة شجعنا ذلك على العودة إلى الإسلام.

لكن دعونا الآن نحصر أنفسنا في أنفسنا، ما الحل بالنسبة لنا؟ قلنا أن الحل النهائي الحاسم هو أن نكون أمة قائدة بالوصف الذي ذكرناه آنفا، ولكن كيف نكون أمة قائدة ومسلمة في نفس الوقت إذا كان تحليلنا يدل على أن ضُعفنا الحالي يغرينا بالتخلي عن ديننا وتقليد غيرنا ؟

والحل في سنة اجتماعية أخرى، وهي أن بعض الأفراد في المجتمع – وهم في الغالب من أفراد الطبقات الضعيفة- قد يشذون عن قاعدة التبعية والموافقة إذا ما توفرت لهم الأسباب، إن لديهم الاستعداد للاستمساك بالحق متى لاح لهم، والعمل لإحقاقه مهما كلفهم من جهد وسخرية اجتماعية، حتى لو كلفهم أرواحهم. إذا عرف هؤلاء الحق واستمسكوا به وأعلنوه وصبروا على الأذى الاجتماعي في سبيله، فإنهم يوشك أن يكونوا طبقة قائدة جديدة بفكرها القوى العملي الحركي، وإذا صاروا كذلك أسرع تأثيرهم في بقية العناصر القوية في المجتمع، وهكذا إلى أن يؤول الأمر إليهم، فإذا آل عملت السنة الاجتماعية الأولى عملها فتبعهم الناس أفواجاً بعد أن كانوا ينضمون إليهم أفراداً أفراداً.

هكذا فعل أنبياء الله، وهكذا ينبغي أن نفعل إذا أردنا لحالنا أن ينصلح. لقد بعث الله نبيه محمد ﷺ من قريش القبيلة القائدة، وفي مكة البلدة القائدة – أم القرى – ولكنه لم يكن حاكما ولا كان ثريا، بدأ الدعوة باللسان – بقوة الفكر – فانضم إليه الأفراد الأقوياء، كثير منهم من الطبقة الضعيفة وقليل منهم من الأشراف. ودفع الضعفاء الحركة الإسلامية بصبرهم على الأذى والاضطهاد والقتل لأنهم أثبتوا أنهم يدافعون عن حق، ودفع الأشراف الحركة بصبرهم وببذلهم أموالهم واستغلالهم مكانتهم الاجتماعية في سبيل نشر الحق وتثبيته. ثم كانت بيعة العقبة وكانت الهجرة فصارت للدعوة الجديدة أرض مستقلة، وانضم الحكم إلى النبوة ثم كانت غزوة بدر الكبرى وهزيمة المشركين عسكرياً بعد أن هُزموا فكرياً، ثم توالت الغزوات وتوالت معها الانتصارات حتى فتحت مكة فصارت الدولة الجديدة دولة مهيبة، عندئذ نزل قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١-٣].

وهكذا فعل موسى، توجه بالدعوة إلى الرئيس الكبير لعله أن يسلم ففي إسلامه حقن للدماء وانتشار للحق بغير عناء. ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

ولكن إذا كان فرعون من النوع الذي يعميه العلو في الأرض عن رؤية الحق فما كل أفراد الناس في بلده كذلك، لقد جئ بالسحرة ليهزموا موسى وكان أكبر شرف يطمعون فيه أن يكونوا من المقربين لفرعون ولكنهم رأوا الحق ناصعاً فقالوا لفرعون وهو يهددهم بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ثم بالصلب في جذوع النخل، قالوا له: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وهم لا يرون من حق إنسان أن يمنع إنسانا من إتباع الحق حين يصدق فجره..

بداية الطريق إذن ابتداء حركة من هذا النوع، ولكن هذه الحركة بحمد الله قائمة بل إنها لحركة تكفل الله تعالى للأمة المحمدية بأن لا يخلو منها زمن من الأزمان، فقد قال ﷺ: **(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)**[1] وهذه الطائفة ليست جماعة بعينها واسمها وشعاراتها ولكن يدخل فيها كل إنسان يستمسك بالحق، ويدعو إليه سواء كان من أفراد الطبقة القائدة أو من ضعفاء الناس وسواء كان يعمل مستقلاً أو في جماعة.

وفي العالم اليوم – لا أقول في العالم الإسلامي- بل في العالم كله حركة إسلامية تتمثل في جماعات شتى وأفراد وهيئات رسمية وشعبية كلها تعمل في حدود طاقتها للعودة إلى الإسلام.

فنقطة البداية إذا موجودة ... إنها الحركة أو الدعوة الإسلامية بالمفهوم الشامل الذي ذكرته، والمهم أن تتسع رقعتها ويصلب عودها، بتنمية فكرها وتقويته، وببذل المال، وبمساعدة السلطات الحاكمة ما كان ذلك ممكنا.

إذا حدث كل هذا وهو حادث بإذن الله أمكننا أن نسير خطوات أكثر في مواجهة الحضارة الغربية، لا بإيقاف غزوها لنا فحسب، بل بهداية أصحابها إلى الصراط المستقيم. إن طموحنا ينبغي أن لا يقف عند حدود الدفاع ورد العدوان بل ينبغي أن يتعداه إلى طلب المعتدي ودعوته، كيف ؟

كيف نواجه الحضارة الغربية ؟

كيف نواجهها فنكف أثرها السلبي عنا وكيف نواجهها فنقومها ونصلحها لكي تكون حضارة إنسانية حقا.

---

(١) مسلم، كتاب الإمارة.

لقد قلت إن هذا لا يتأتي إلا إذا صرنا أمة قائدة وتحدثت عن الخطوة الأولى نحو تلك القيادة وفيما يلي نستكمل بقية الخطوات وبإيجاز شديد:

أولاً: الحكم بالإسلام ومن أهم عناصر هذا الحكم:

(أ) **الاستقلال وعدم التبعية للدول الكبرى** سواء كانت تبعية سافرة أو مقنعة، ولعل هذا الاستقلال هو الآن أصعب الأشياء منالا فهو يحتاج مع الأخذ بكل الأسباب المادية اللازمة له إلى إيمان راسخ وتوكل على الله تعالى وتذكر دائم بقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:٥٧].

(ب) **حرية سياسية** تشعر المواطن بأنه عزيز في بلده، بين أفراد مساوين في الحقوق الإنسانية وإن علوه ببعض المناصب الدنيوية، وتمكنه من أن يفكر بحرية ويشارك بفكره وجهده في إصلاح حال بلده، يقول للمصيب أصبت والمخطئ أخطأت مهما كان منصبه ثم يذهب لينام قرير العين لا يدهمه بالليل طارق يقتاده إلى الحبس إرضاءً لنزوة حاكم. إن فقدان الحرية السياسية يفقد المواطنين الشعور بالإنتماء لبلدهم ويولد فيهم الإحساس بأن البلد مُلك الحاكم، من رضى عنه نال الحظوة ومن سخط عليه فلأمه الهبل. ولا يُتصور من إنسان يشعر بهذا الشعور أن يقوم بعمل جليل كالذي نريد.

(جـ) **عدل اجتماعي**، وهو جزء مكمل ولازم للحرية السياسية، كما أنه عامل فعّال في زيادة الإنتاج. إن الجور الاقتصادي كالجور السياسي ينافي علاقة الأخوة التي هي العلاقة الأساسية بين المسلمين في الدولة ويولد فيهم مشاعر سلبية لا اجتماعية تؤثر فيما تؤثر إلى إنتاجهم الاقتصادي.

(د) **أمر بالمعروف ونهي عن المنكر** نسخر له وسائل الإعلام ومناهج التربية والتعليم ومؤسساتها وتُستغل لتحقيقه كل الأساليب التي تحبب المعروف إلى الناس وتُكره المنكر إليهم مع عناية خاصة بالصلاة في جماعة.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج:٤١].

(هـ) **إقامة الحدود** كفاً للمعتدين واستدراراً لرحمة رب العالمين.

ثانياً: تغيير العلوم إسلامياً:

(أ) بتنقيتها من شوائب التصورات المادية الإلحادية وسائر التصورات المخالفة للإسلام والتي تمثل إطارها الفلسفي وإن لم تبرز في مضمونها الحرفي.

(ب) بإطراح كل النظريات التي لم يثبتها واقع والتي تخالف حقائق قررها الإسلام، ولا بأس من دراستها للنقد.

(جـ) باستبدال الإطار الفلسفي الإلحادي بإطار توحيدي.

(د) باعتبار الوحي مصدراً من مصادر الحقيقة وهذا يستتبع إدخال كل ما أثبته القرآن وصحيح السنة في مضمون العلوم، كل حقيقة بحسب العلم المناسب لها.

(هـ) بالسعي نحو الإصالة في كل ما نعالج من مشاكل وما نعطي من أولويات.

(و) بصياغة العلوم كلها طبيعيها وإنسانيها بلغة عربية فصيحة حتى تكون اللغة العربية لغة العلوم، كما هي لغة الدين والأدب.

ثالثاً: دراسة الغرب، تاريخه، وواقعه، مستقبله، تجاربه، من وجهة نظر إسلامية، إننا الآن نقول عن الغرب ما يقوله هو عن نفسه، بل نقول عن الشرق ما يقوله المستشرقون وقد آن لنا أن نعكس الآمر فيكون لنا مختصون بشؤون الغرب يعالجون قضاياه على أساس إسلامي، وأعني بالإسلامية هنا الحقائق التي جاء بها الإسلام كما أعني بها مصالح المسلمين الوضعية.

رابعاً: المرجو من محاولات صياغة العلوم على أساس إسلامي ومن الدراسات الغربية أن تساعدنا في الاستفادة الرشيدة من الحضارة الغربية، ولكن يمكن أن نجمل فيما يلي ما ينبغي أن يؤخذ وما ينبغي أن ينبذ من هذه الحضارة.

١- أما ما نأخذه فهو:

(أ) المنهج العلمي (بعد تنقيته من الشوائب الإلحادية).

(ب) والحقائق الجزئية التي كشفتها العلوم ومعرفتها لا يمكن أن تعزل عن معرفة العلوم التي أدت إليها.

(جـ) وما بنى على هذه العلوم من تقنية في صورة آلات ومهارات وما أدت إليه هذه التقنية من تصنيع.

٢- ثم لابد لنا من الاستفادة من تجربته في كل مجالات الحياة المعاصرة: المؤسسات التعليمية والإعلامية والاقتصادية والعسكرية والفنون الإدارية على أن نكيف ما نأخذه

مع إطارنا الإسلامي ولا نغير هذا الإطار بالنقل الحرفي لكل ما عندهم كما يحدث الآن في العالم الإسلامي.

٣- أما البيانات والفلسفات والآداب والفنون والعادات والتقاليد، فلا علاقة منطقية أو نفسية بينها وبين ما سبق. ولكنني أرى مع ذلك أن لا تقطع صلتنا بها قطعا كاملا بل ينبغي دراستها باعتبارها واقعا ينبغي أن نعرفه باعتبارها هديا نستهدي به، ولذلك أرى أن لا يفتح لها باب الولوج إلى الجماهير الإسلامية بل ينبغي أن تكون موضع دراسة المختصين.

٤- إن أشد اسلحة الغرب الفكرية خطرا علينا وتدميرا لنا بل خطراً على الغربيين أنفسهم وتدميراً لهم، هو التصور الإلحادي للوجود الذي كاد أن يصبح سمة العصر والذي لا يكاد يخلو منه جانب من جوانب الحياة المعاصرة العلمية أو الفنية أو العلاقات الإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وهو أكبر تحد يواجه الدعوة الإسلامية والمفكرين الإسلاميين، فإذا نجحنا في التصدي له بالنقد العقلي العلمي المستنير وإذا استطعنا أن تقدم تصورنا الإيماني بديلا لهذا الإطار الإلحادي وأقمنا الحجج العلمية الشواهد الواقعية على أنه الإطار المناسب للمنهج العلمي ولحقائق العلوم الطبيعية والبشرية وللثقافة الإنسانية وبالتالي للحياة السعيدة تكون قد أسدينا خدمة كبيرة لا لأمتنا الإسلامية فحسب، ولكن للمجتمع الإنساني كله، وذلك أن هذا المجتمع يقترب من الدمار كلما ساد فيه فساد التصور الذي يؤدي إلى فساد السلوك، وكلما خبا فيه نور الرسالة المحمدية.

ولكن هذا عمل عظيم يحتاج إلى صبر ويقين، يحتاج إلى يقين بأنه تصورنا الإيماني هو الحق الذي لا ريب فيه وأن التصور الإلحادي بكل لوازمه وفي كل صوره وأشكاله تصور باطل مفسد.

ويحتاج إلى صبر في مواجهة هذا التصور والتصدي له وعدم مسالمته أو مداهنته بحجة المعاصرة أو الحضارة أو التجيد، مهما طال الزمن وضجت الدعايات وسقط المنهزمون. والصبر واليقين هما الشرطان اللازمان لكل من يريد أن ينال شرف القيادة الفكرية المقتدية بهدي رُسل الله.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

* * *

الأسس الفلسفية للمذهب المادي

وهذه الدراسة نشرت في مجلة المسلم المعاصر العدد الثامن شوال / ذو القعدة ١٣٩٦الموافق أكتوبر / نوفمبر ١٩٧٦م.

في العالم الإسلامي اليوم دعوة إلى التأسي بالغرب لا في تقدمه العلمي أو الصناعي فحسب ولكن في مناهجه الفكرية وأساليب حياته أيضاً. وأصحاب هذه الدعوة لا يريدوننا بالطبع أن نقلد الغرب في مسيحيته أو يهوديته أوخرافاته اليونانية وإنما يريدون لنا أن نأخذ عنه ما يعتبرونه سبب في تقدمه العلمي وتفوقه. ولكن ما كل من يدعو هذه الدعوة بقادر على أن يقدم لنا فكرة متكاملة متناسقة عما يعتبره المنهج الفكري أو المذهب الحياتي الذي أدى إلى التفوق الغربي والذي يريد لنا أن نأخذه عنهم.

ولذلك فإن الكثيرين منهم يكتفون بترديد بعض الشعارات. فالغرب تفوق بزعمهم لأخذه بمبدأ فصل الدين عن الدولة، أو لإطلاقه الحرية للإنسان يفكر ويعبر ويسلك كيف شاء، أو لاتباعه المنهج التحليلي، أو لقدرته على التجربة أو لتركيزه على الواقع المشاهد، بينما نحن لا نزال نعاني من عقابيل المنهج التكاملي، والعجز عن التجريد، والاستغراق في الغيبيات، وتقييد الفكر والتعبير والسلوك بقيود الدين والخلق والاعراف.. الخ.

وأما حين يحاولون تقديم فكرة متكاملة فإنهم إنما يدعون إلى الأخذ بالمذهب المادي في صورة من صوره المتعددة.

فهل يصلح هذا المذهب بديلا عن الدين الإسلامي ؟ وهل يفي بحاجات البشر وهل يحقق لهم السعادة التي ينشدون ؟

لكي نجيب على هذه الأسئلة ينبغي أن نعرف أولا وبشئ من التفصيل ما هي العقائد الأساسية التي يقوم عليها هذا المذهب ثم ننظر فيها لنتساءل أهي حقائق تدركها الحواس أم هي نتائج تستخلصها العقول ؟ أهي متناسقة فيما بينها ؟ أهي موافقة لحقائق العلم ومناهجه ؟ أهي كافية للتدليل على بطلان الدين ؟

أسس المذهب المادي:

فيما يلي نحاول أن نعدد العقائد الأساسية التي يدين بها الماديون ولكن ينبغي أن نذكر أنه إذا كان بعضهم يؤمن بكل هذه العقائد فما كلهم يفعل ذلك، فالبعض منهم يؤمن ببعضها وينكر أو يتوقف في الإيمان بسائرها.

والعقائد هي:

أولاً: لا موجود إلا المادة.

ثانياً: المادة أزلية لم تخلق ولا تفنى.

ثالثاً: كل ما في الوجود من أشياء تكونت بمحض المصادفة من حركات هذه المادة الأزلية.

رابعاً: وإذن فلا إله ولا ملائكة ولا جن وإذن فالأديان كلها باطلة.

خامساً: وإذن فلا بعث ولا نشور ولا حساب ولا جزاء.

سادساً: طبيعة كل شيء وخصائصه إنما هي نتيجة تركيب معين لذرات هذه المادة.

سابعاً: كل ما نسميه عقلا أو نفسا أو روحا أو فكرا إنما هو شكل من أشكال المادة.

ثامناً: تشكيلات المادة وحركاتها خاضعة لقوانين الطبيعة لا تختلف وبها يمكن أن نفسر كل الظواهر الطبيعية، والحالات النفسية، والحوادث التاريخية، من غير حاجة إلى الإيمان بقوة وراء الكون تحفظه وتسيره.

تاسعاً: المادية مذهب علمي وليس مجرد ايديولوجية كسائر الايديولوجيات والفلسفات والأديان.

عاشراً: الإنسان سيد نفسه ومالك مصيره فهو وحده المسؤول عن أن يشرع لنفسه في السياسة والاقتصاد والاجتماع وسائر نواحي حياته. وهذا هو المقصود بعبارة "الانسية" Humanism.

مناقشة هذه الأسس:

الأساس الأول: عبارة (لا موجود إلا المادة) التي تكاد أن تكون المبدأ المشترك بين كل الماديين – ما الدليل عليها ؟

(أ) أهي نتيجة بحث علمي استقرائي للكون أثبت أنه لا يوجد فيه إلا ما هو مادي؟

كلا فان شخصا يلتزم بالمنهج العلمي لا يمكن أن يدعي هذه الدعوى العريضة فما أحد يستطيع أن يستغرق ببحثه وتفتيشه الكون كله ليصل إلى مثل هذه النتيجة.

(ب) قد يقول المادي أن ما ذكرتموه (في الفقرة السابقة) حجج ولكن الذي أعنيه أنا بهذه العبارة هو أنني وغيري من العلماء والماديين فتشنا بقدر طاقتنا ووسعنا فلم نجد

في الكون شيئاً غير مادي. ولكن إذا كان هذا ما يعتقده فكان ينبغي أن يصير دقيقا فيعدل العبارة لتصير (نحن لا نعرف موجودا غير مادي) أما أن يستنتج من عدم علمه بوجود غير المادة أنه غير موجود فهو استنتاج باطل، وقديما قال علماؤنا "عدم العلم ليس علما بالعدم".

(جـ) وأما إذا عدل عبارته كما اقترحنا لتصير «نحن لا نعرف موجودا غير مادي» فإنه يهدم الأساس الذي تقوم عليه المادية إذ أن العبارة الجديدة لا تنفي وجود أشياء غير مادية بل تترك الباب مفتوحا للبحث عنها وفيها.

(د) قد يقول المادي أن من الأسباب القوية لإيماني بالعبارة في شكلها الأصلي أن الذين يؤمنون بموجودات غير مادية لم يفلحوا في التدليل العقلي أو العلمي على وجودها وأنا لا أستطيع أن أؤمن بشيء لا دليل لي على وجوده من عقل أو حواس. ونقول له إذا كان من تعرفه من المؤمنين في بيئتك مؤمنين بغيب لا يملكون وسائل اثباته العقلية أو العلمية فما كل المؤمنين بالغيب كذلك، وما كل الأديان تستوي في ذلك، فنحن ندين بدين يقيم الأدلة العقلية القاطعة على صدق مبادئه الأساسية.

ثم أن هنالك مسألة في غاية الأهمية فالذي يقول عن شيء ما أنه موجود أو غير موجود أو أنه لا موجود غيره ينبغي أن يكون لديه تصور معين له بحيث نستطيع أن نتثبت بالبحث الحسي أو العقلي من صحة دعواه. الماديون يقولون أنه لا موجود إلا المادة ولكن ما هي هذه المادة التي لا موجود غيرها ؟لقد ظل الماديون كما سنرى يتراجعون القهقري في تصورهم أو تعريفهم للمادة. فكلما قالوا أنها كذا وكذا ثبت أن ما وصفوه ليس بالموجود الوحيد. قالوا أولا كما يقول عوامهم اليوم أن المادي هو الذي تدركه الحواس وما لا تدركه فهو غير مادي وبالتالي غير موجود وأرادوا بذلك أن يقولوا أن الله تعالى وملائكته لا يدركون بهذه الصفة فهم غير موجودين ولكن تصورهم هذا لا ينفي وجود الله تعالى فحسب بل ينفي معه وجود الفكر والعقل والمشاعر الخ وهي أشياء يدركها كل منا ويدرك أنها ليست مادية بهذا المعنى، لقد حاول الماديون السابقون أن يجدوا مبررات تخرجهم من هذا المأزق فحاولوا أن يقولوا أن الفكر صورة من صور المادة، ولكن هذا أيضاً لا يجدي لأنه إذا كان الفكر وهو

شيء غير محسوس صورة من صور المادة، وإذن فالمادة يمكن أن تكون غير محسوسة. وقال آخرون أن الفكر أثر من آثارها وليس صورة من صورها ولكن هذا أيضاً لا يجدي لأنه يعني أن في الوجود أشياء غير مادية ولن يغير من الحقيقة شيئا كونها أثرا من آثار المادة. المهم أن في الوجود أشياء غير مادية وهذا متناقض مع الأساس الأول للمذهب المادي الذي يقول بأنه لا موجود إلا المادة، ولكن العلم الحديث زاد من إحراج الماديين. فالعلماء يتعاملون مع أشياء لا يصدق عليها وصف المادة بذلك المفهوم الذي يعتبر المادي هو الذي تدركه الحواس. أن الذرات وجزئياتها لا تدرك بالحواس وبعضها كما سنرى لا كتلة له. فهل نقول أن العلم يتعامل مع كائنات وهمية ؟ هذه نتيجة لا يرتضيها الماديون لأن مذهبهم يعتمد على دعوى التوافق بينه وبين العلم. فكيف الخروج من هذا المأزق إذن؟. اقترح لينين تعريفا جديدة للمادة يواكب في رأيه كل تطور علمي. المادي في رأيه هو كل شيء يوجد وجودا موضوعيا أي أنه الشيء الذي لا يعتمد في وجوده على عقلنا أو على وعينا به، هذا التعريف اللينيني للمادة يخرج الماديين فعلا من مأزق مخالفة العلم ولكنه يوقعهم في مأزق موافقة الدين. أنهم كما رأينا يريدون أن يعرفوا المادة تعريفا تكون نتيجته أن الله تعالى ليس موجودا ولذلك قالوا أولا أن المادي هو المحسوس وبما أن الله غير محسوس فهو غير موجود. ولكن هذا التعريف أخرج – كما رأينا – من دائرة الموجودات أشياء يتعامل معها العلم. ثم جاء تعريف لينين ليدخل هذه الأشياء العلمية ولكنه أدخل معها – من غير أن يشعر – أشياء دينية. كيف ؟ أن الله تعالى لا يعتمد في وجوده على وعينا به. هذه من البدائه الدينية، فالله هو خالق الإنسان وخالق وعيه وكان الله تعالى ولم يكن إنسان. ويبقي وكل من عليها فان، فإذن وجوده لا يعتمد على شيء سواه فضلا عن أن يعتمد على وعينا به. فتعريف لينين للمادي يدخل فيه وجود الله تعالى. لعل السبب في أن لينين لم يلتفت إلى المأزق الذي وقع فيه وهو اعتقاده بأن كل من لا ينتمي إلى المذهب المادي فهو مثالي والمثالي هو الشخص الذي يعتقد بأن الوجود الحقيقي للإنسان إنما هو وجود عقلي وأن وجوده الموضوعي الخارجي تابع لهذا الذهني ومعتمد عليه. ولكن هذا ان كان مذهبا لبعض شذاذ الفلاسفة فهو ليس المذهب السائد عند جماهير المؤمنين. فالمؤمن بالله تعالى ليس مثاليا

بهذا المعنى بل هو واقعي يؤمن بأن الأشياء لا تعتمد كلها في وجودها على كونها مدركة لعقل من العقول.

الأساس الثاني: أزلية المادة: أن تطور – أو بالأحرى تقهقر – فكرة أزلية المادة من أطرف ما يقرأ الإنسان في دحض الادعاء بأن العلم التجريبي يسند قضية الإلحاد إذ الواقع عكس ذلك تماما فتطور هذا العلم يؤازر قضية الإيمان ويضعف بل يقوض أهم الأسس التي يقوم عليها الإلحاد وهو الزعم بأن المادة أزلية لا بداية لها، أبدية لا فناء لها. ولكن ما هي هذه المادة الأزلية ؟

ظل الماديون طوال القرون في أمر مختلف بالنسبة لأزلية المادة، فقد ظنوها بادئ الأمر هذه النجوم والكواكب الضخمة التي يشاهدون والتي يخيل لمخلوق ضعيف معدود الأيام كالإنسان أنها أزلية، لأنها فيما يظن بقيت على حالها التي عرفها آباؤه وأجداده، وكل البشر قبله فما المانع إذن من أن كانت على هذه الحال منذ الأزل؟ وما المانع من أن تظل هكذا إلى الأبد ؟وإذا كانت أزلية فإنها لا تحتاج إلى خالق وهذا ما عناه الفلاسفة القدماء من أمثال أرسطو حين قالوا بقدم العالم. وإذا كان الفلاسفة القدماء من أمثال أرسطو حين قالوا بقدم العالم. وإذا كان الفلاسفة قد قالوا بقدم هذه الأجرام السماوية فإن آخرين – منهم البابليون الذين جادلهم سيدنا إبراهيم – قد قالوا بألوهيتها وعبدوها.

وقد كان المفكرون المتدينون فيما مضى يجهدون أنفسهم في استخراج الأدلة العقلية على بطلان هذه الفكرة من ذلك قول الغزالي في تهافت الفلاسفة (تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م، ص١١٢): «ما تمسك به جالينوس إذ قال لو كانت الشمس مثلا تقبل الانعدام لظهر فيها ذبول في مدة مديدة، والأرصاد الدالة على مقدارها منذ آلاف السنين لا تدل إلا على هذا المقدار، فلما لم تذبل في هذه الآماد الطويلة دل على انها لا تفسد».

الاعتراض عليه من وجوه:

الأول: أن شكل هذا الدليل أن يقال إن كانت الشمس تفسد، فلابد أن يلحقها ذبول، لكن التالي محال – وهذا قياس يسمى عندهم الشرط المتصل – وهذه النتيجة

غير لازمة، لأن المقدم غير صحيح.. ولا نسلم له أنه لا يفسد الشيء إلا بالذبول فالذبول هو أحد وجوه الفساد ولا يبعد أن يفسد الشيء بغتة وهو على حال كماله.

الثاني: أنه لو سلم له هذا، وأنه لا فساد إلا بالذبول، فمن أين عرف أنه لا يعتريها الذبول ؟ أما التفاته إلى الأرصاد فمحال، لأنها لا تعرف مقاديرها إلا بالتقريب، والشمس التي يقال أنها كالأرض مائة وسبعين مرة او ما يقرب منه[1]، لو نقص منها مقدار جبال مثلا، لكان لا يتبين للحس، فلعلها في الذبول وإلى الآن قد نقصت مقدار جبال فأكثر والحس لا يقدر على أن يدرك ذلك لأن تقديره في علم " المناظر " لا يعرف إلا بالتقريب.

وهذا كما أن الياقوت والذهب مركبان من العناصر عندهم وهي قابلة للفساد، ثم لو وضعت ياقوتة مائة سنة، لم يكن نقصانها محسوسا. فلعل نسبة ما ينقص من الشمس في مدة تاريخ الأرصاد كنسبة ما ينقص من الياقوتة في مائة سنة، وذلك لا نظير للحس فدل أن دليله في غاية الفساد.

وهذا الذي ذكره الغزالي احتمالا قد أثبته العلم الآن يقينا، فمن المسلم به الآن أن الاشعاع الصادر عن الشمس من كتلتها وإن كان القدر الذي ينقصه ضئيل جداً «تحويل ١٪ من كتلة الشمس من الهيدروجين إلى الهيليم يمدها بطاقة تكفي لإبقائها مضيئة لمدة ١.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ عاماً» (دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٦٣).

وإذا كانت كل هذه الأجرام الكبيرة من شمس وأرض وسائر النجوم والكواكب ليست أزلية بل أن لها تاريخا – ولها بالضرورة نهاية فما هو الأزلى إذن ؟

أهو العناصر التي تتكون منها هذه الأجسام من ذهب وحديد وهايدروجين وهيلثيوم... الخ ؟ ربما كان هذا هو المظنون بادئ الأمر ولفظة عنصر تشير إلى هذا المعنى. ولكن العلم في تطوره اكتشف أن هذه العناصر هي بدورها مركبة من جزئيات وأن الجزئيات مركبة من ذرات.

---

(١) الذي يقوله العلماء الآن: أن كتلة الشمس قدر كتلة الأرض (٣٣٣.٠٠٠ مرة) وأن قطرها قدر قطر الأرض (١٠٩) مرات.

فهل الأزلي هو هذه الذرات ؟ هكذا ظن العلماء إلى ما بعد زمان نيوتن بسنين، فالذرة كانت تسمى بالجزء الذي لا يتجزأ وكان المظنون أنها جسم صغير مستدير مصمت لا فجوات فيه فلا أجزاء له.

ولكن العلم أبطل هذا الظن أيضاً فقد تبين أن الذرة نفسها مركبة من أجزاء أخرى عرفنا منها أولا الالكترون والنيوترون والبروتون ثم تبين أن ما تحت الذرة من أجزاء أكثر من هذا بكثير فقد وصل تعدادها حتى الآن إلى ما بعد المائة بقليل.

قد يقول قائل وإذن فقد وصلنا أخيراً إلى المادة الأزلية، إلى الجزء الذي لا يتجزأ أنه هذه الأجزاء التي تكون الذرة.

والرد على هذا من ناحيتين:

أولاهما: أنه قول بغير علم إذ ليس في أجزاء الذرة ما يستدل به على أزليتها بل أن بعض العلماء يعتقد أنها هي الأخرى مركبة وهم يبحثون عن مكوناته.

ثانيا: إذا كان الشيء أزليا لا بداية له فهو بالضرورة مستغن عن غيره. أعنى أنه لا يعتمد في وجوده ولا استمرار وجوده على غيره. وإذا كان الشيء قائما بنفسه مستغنيا في وجوده عن غيره فأنه لا يفني ولا يتغير ولا يتبدل.

لماذا ؟

لكني نجيب على هذا السؤال يحسن أن نسأل سؤالا آخر هو متى يفني الشيء وينتهي من الوجود ؟

خذ مثلا عود ثقاب وأشعله. أنه يستمر مشتعلا لمدة ثوان ثم ينتهي. فلماذا أنتهى ؟ انتهى أما لأن العود الذي كان يمده بالوقود قد احترق كله وأما لأن الأكسجين قد انتهى وأما لأن أحدا نفخه نفخا شديدا فأبعد الشعلة عن العود وأما... وأما.

ملخص القول أن الشعلة انقضت حين تخلف شرط من شروط وجودها، فالشعلة لا تستمر متقدة إلا إذا وجدت وقودا فالوقود إذن شروط ضروري لوجودها ولا تستمر إلا إذا وجدت الأكسجين فهو إذن شرط ضروري لوجودها وهكذا.

نعود إلى سؤالنا: متى يفنى الشيء ؟

والجواب الآن واضح أنه يفنى إذا تخلف شرط من شروط وجوده.

ولكن هذا يعني أن الشيء الذي يفني هو بالضرورة شيء يعتمد في وجوده على غيره فهو إذن غير مستغن بنفسه. ولكنا قلنا أن الشيء الأزلي من الضروري أن يكون مستغنيا بنفسه وإذن فكل شيء جاز عليه الفناء استحالت عليه الأزلية. وإذن فإذا أردنا أن نختبر شيئاً ما لنعرف ما إذا كان أزليا أم لا، فما علينا إلا أن نتساءل أهو شيء يمكن ان يفنى وينقضي. فإذا كان الجواب نعم فالنتيجة أنه غير أزلي.

والآن هل نعرف مادة معينة يصدق عليها القول بأنها لا تفنى ؟

لقد رأينا أن المادة في شكل أجسام كبيرة وفي شكل عناصر وفي شكل جزئيات وذرات قابلة للفناء بل إنها لتفني فعلا واستدللنا بذلك على أنها لا يمكن ان تكون أزلية.

ولكن ماذا نقول عن أجزاء الذرة ؟

إن العلم كما قلنا لم يثبت بعد أن لها مكونات ولكنه أثبت ما هو بالنسبة لموضوعنا أهم من ذلك. لقد أثبت أن هذه الأجزاء قابلة لأن تتحول إلى طاقة وأن الطاقة نفسها قابلة لأن تتحول إلى مادة. ولكن قابلية التحول هذه تعني أن بقاءها في هيئتها المعينة كان معتمدا على ظروف خارجة عن ذاتها فلما زالت تلك الظروف زالت تلك الهيئة وإذن فهي ليست معتمدة في وجودها على نفسها وإذن فقد استحال أن تكون أزلية.

وإذن فالمادة في كل شكل من أشكالها المعينة قابلة للفناء فهي إذن حادثة.

وإذن فالمادة تستحدث وتفني...

ولكن هذه النتيجة تخالف تلك الكلمة التي حفظها الطلاب منذ المرحلة الثانوية وصورت لهم على أنها الدعامة التي يقوم عليها البناء العلمي كله، بل على أنها هي نفسها حقيقة علمية لا شك فيها، أعنى قولهم المادة لا تستحدث ولا تفنى.

إن كثيرا من الأساتذة يرددون هذه العبارة تقليدا وعن حسن نية ولا يعرفون أنها إذا صحت تهدم الأساس الذي يقوم عليه الدين كله وتعتبر أكبر نصر للفكر المادي. والطلاب بدورهم يحفظون العبارة ويرددونها ولا يفكرون في نتائجها الخطيرة.

ما معنى هذه العبارة ؟

إذا كانت المادة لا تستحدث فمعنى ذلك أنه لم يحدثها – لم يخلقها – أحد. أي أن الله لم يخلقها. ولكن هذا يتناقض مع إيماننا بأن " الله خالق كل شيء " وإذا كانت لا تفنى فمعنى ذلك أن أحدا لا يستطيع فناءها وهذا يعني أن الله تعالى لا يقدر على إفنائها. فكيف نوفق بين هذا وبين إيماننا بأن الله على كل شيء قدير وأنه لا يعجزه شيء ؟

المسألة إذن واضحة فإما أن تكون هذه العبارة المشهورة صحيحة فيكون الدين باطلا وأما أن يكون الدين صحيحا فتكون هي باطلة ولا يمكن الجمع بين الإيمان بصوابها وبصواب القول بأن للكون خالقا.

ولكن الذي لا شك فيه أن العبارة غير صحيحة وأن العلم لا يحتاج إليها وأنها ليست من نتائجه ولا قواعده وإنما هي عقيدة فلسفية يونانية تزيت بزى العلم وجازت على كثير من الناس وإليك بيان هذا كله:

١- أما أن العبارة غير صحيحة فهو أمر قد فرغنا منه من قبل حيث أثبتنا أن المادة في كل شكل من أشكالها المعينة التي يمكن أن تشير إليها – ليست أزلية بل هي قابلة للتحلل أو التحول إلى مواد أو طاقات أخرى. وكل ما يتحلل أو يتحول فليس بأزلي غير حادث بل هو بالضرورة حادث. وإذن فالمادة المعينة حادثة فانية.

لقد كررت عبارة المعينة لأميز بين المادة التي نشاهدها أو نعرف آثارها ونتعامل معها في حياتنا اليومية أو في مجالاتنا العلمية والمادة الفلسفية الذهنية التي لا وجود واقعيا لها. وكثيرا ما يخلط طلاب العلوم بل وكبار العلماء بين المادتين فيتحدثون عن المادة الذهنية الفلسفية في الوقت الذي يريدون الحديث عن المادة الواقعية.

إذا قلت لإنسان له إلمام بعلم الكيمياء أو الفيزياء أن المادة تفنى وضربت له مثالا على ذلك بموته هو مثلا أجابك على الفور أنني لم أفن وإنما تحولت إلى مواد أخرى، فإذا قلت له ولكن هذه المواد الأخرى أيضاً تفنى قال محتجا ولكنها هي بدورها تتحول إلى مواد أخرى. فإذا استمررت قائلاً وهذه بدورها تفني وما تتحول إليه يفنى ظل مصراً على رأيه بأن هنالك وراء كل هذا مادة لا تفنى، فإذا قلت له وما هي ؟ لم

يستطع أن يجيبك لأنه في الحقيقة لا يتحدث عن مادة واقعية وإنما يتحدث عن مادة ذهنية فلسفية، ولكي يتضح لك هذا أضرب لك مثالين فقط:

أولاً: هب أنه مات لامرأة طفلها العزيز فهل يعزيها أن تقول لها أن ابنك لم ينته ولم يفن وإنما تحول إلى مادة أخرى ؟ بالطبع لا. لماذا ؟ لأن الذي فقدته وأسيت على فقده هو مادة في صورة معينة وخصائص معينة ومما لا شك فيه أن هذه المادة إذا افترضنا جدلا أن الإنسان مادة فحسب قد فنيت وانتهت. وما يقال عن الإنسان يقال عن كل مادة معينة أخرى فكل مادة في شكل معين لها خصائص تعرف بها فإذا تحللت أو تحولت زالت هذه الخصائص فزالت بزوالها تلك المادة التي كنا نعرفها ؟ وإذن فكل مادة ذات خصائص وصفات معروفة فهي قابلة كما تدلنا التجارب العلمية على التحلل أو التحول. فما هي المادة الأزلية إذن ؟ إنها المادة التي لا خصائص ولا صفات لها ولكن هذه مادة موجودة في الأذهان ولا وجود لها في الأعيان ونحن في حياتنا اليومية والعلمية أنما نتعامل مع مادة عينية لا مادة ذهنية.

ولكي يصير الأمر أكثر وضوحاً فهب أنه لا وجود للمادة إلا في ثلاثة أشكال فقط هي م١ ، م٢ ، م٣، وأن كل واحد من هذه قابل لأن يتحول إلى الآخر فإذا انتهى م١ صار م٢ أو م٣ وإذا انتهى م٢ صار م١ الخ فما هي المادة الأزلية ؟ أنها ليست م١ وليست هي م٢ لأن م٢ قابل لأن يصير م١ وليست م٣. وبما أن كل واحد منها قابل للتحول والفناء فكل واحد منها مستحدث.

وإذا افترضنا أن فناء كل واحد منها إنما يعني تحوله إلى أحد الأشكال الأخرى فكل ما نستطيع أن نقوله أنه لن يزال في الوجود م١ أو م٢ أو م٣ وأن هذه الثلاثة لا تفني كلها جميعاً. ولكن هذا نفسه يعني وبالضرورة أنها تعتمد في وجودها على غيرها لأن تحولها من شكل إلى آخر يدل على أنها ليست مستغنية بنفسها بل معتمدة على غيرها.

٢-إذا أحرقت رطلاً من الورق ثم وزنت رماده فوجدته أوقيتين فقط فأين تكون ذهبت العشر أوقيات ؟ إن الرجل الذي لا معرفة له بالكيمياء أو الفيزياء قد يظن أن كمية المادة الموجودة في العالم نقصت بمقدار عشر أوقيات. ولكن آلاف التجارب التي

نجريها تثبت أن هذا الظن غير صحيح لأننا إذا جمعنا كل المواد التي تحلل إليها الورق المحترق ووزناها في نفس المكان الذي وزنا فيه الورق كان الوزن رطلا كاملاً، وإذا حللنا تلك المواد إلى أخرى واستطعنا أن نجمعها ونزنها في نفس المكان كان وزنها أيضاً رطلا كاملاً. وهذا هو الذي دعا العلماء إلى افتراض أن كمية المادة الموجودة في العالم ثابتة.

وعبارة "المادة لا تستحدث ولا تفنى" المقصود منها أنها تعبر عن هذا المبدأ ولكنها كما ترى لا تقتصر على تقريره وإنما تقول أكثر منه بكثير. وهذه الزيادة التي تقررها العبارة لا يحتاج إليها العلم وهي التي تخالف الدين. فهي لا تقتصر على القول بأن كمية المادة ثابتة ولكناه تقول أن هذا الثابت هو مادة أزلية لم تخلق ولا تفني والفرق بين الاثنين كبير كما أن من الواضح أن أولاهما لا تستلزم الثانية.

يقول الأستاذ أنتوني كونتيون ناقدا هذه العبارة " الحقيقة أن مبدأ ثبات كمية المادة لا يتضمن القول بمذهب ذري متكامل لأشياء أزلية. إن حسابا جاريا بالمصرف قد يبقى كما هو لا يتغير إذا كانت كل المسحوبات تعوض حالا بإيداعات، وحجم الماء بالصهريج قد يظل كما هو إذا كان الماء المصبوب فيه من جانب مساويا للماء الخارج عنه من الجانب الآخر. وقد أوضحت هذا بعض التأملات الكونية الحديثة فنظرية الخلق المستمر تقول أنه بالرغم من أن الطاقة تفني بالفعل في عمليات التحولات الذرية تحت درجات الحرارة الهائلة فإن هذا النقص يعوض بخلق طاقة جديدة في مكان آخر ".

الأساس الثالث:

١) هذا الأساس مبني على مفهوم للمادة مضى عليه الزمن وهي كونها مركبة في النهاية من ذرات.

٢) لقد أثبتنا أن المادة يستحيل أن تكون أزلية في أية صورة معينة من صورها.

٣) هذه النظرية هي مجرد افتراض وتخمين لا يسنده علم ولا برهان فكيف يبنى عليها الإنسان تصوره للكون وفلسفة حياته؟ إن كثيراً من الماديين يتبجحون بالعلمية ويتطاولون على المؤمنين مطالبين إياهم بإقامة الدليل على وجود الخالق زاعمين أن الذي يمنعهم من الإيمان به هو عدم هذا البرهان، ولكنهم ينسون أن فلسفتهم المادية كلها

قائمة على افتراضات هي مجرد خيالات وتخمينات لا دليل على صدقها بل كل الدلائل تشير إلى بطلانها.

٤) ولنحاول أن نساير الماديين في افتراضاتهم الخاطئة فنتصور معهم كيف تكونت هذه الأشياء التي نراها ؟ كانت هنالك ذرات سابحة في الفضاء – ذرات أزلية لم يخلقها اله ولم يحركها محرك. ذرة فيها هائمة على وجهها لا تسير إلى غاية مقصودة ولكنها في هيامها هذا تلتقي بذرة أخرى ومن هذا اللقاء تتكون جزئيات Molecules ومن الجزئيات تتكون عناصر وهكذا إلى أن نصل إلى طور هذه الكائنات التي نشاهدها الآن..

من الاعتراضات المعروفة على هذا الرأي أن تكوين كائن كالإنسان من تلك الذرات بالمصادفة أبعد احتمالا من قرد يخبط على آلة كاتبة فيخرج لنا بالمصادفة معلقة امرئ القيس مثلا.

ومن الاعتراضات أيضاً أن المصادفة وحدها ولا سيما في مثل هذه الحال – لا تجدي، بل لابد من أن يكون وراءها تصميم. هب أن لديك عددا كبيرا من اللبن بدأت ترمي به على غير هدى فتكونت منه بالمصادفة حجرة. فالحجرة هنا جاءت من اجتماع اللبن بالمصادفة ولو كان الذي تلقي به بيضا مثلا لما تكونت منه حجرة، وهكذا الحال مع تلك الذرات فإن تكوين الكائنات منها بالمصادفة يقتضي أنها كانت مصممة بحيث إذا اجتمعت بهذه الطريقة تكون منها وإذا اجتمعت بتلك الطريقة يتكون منها ماء وهكذا وإذن فالمصادفة وحدها لا تحل الأشكال لأنها لا تغني عن التصميم.

وإذا كانت هذه النتيجة لازمة لكل من يقول بتكوين الكائنات من ذرات فأنها ألزم ما تكون للذي يقول كما يقول بعض الماديين أن خصائص الكائنات إن هي إلا خصائص مكوناتها الأولية بلا زيادة ولا نقصان.

الأساس الرابع: ما قلناه في نقض الأسس الثلاثة السابقة يكفي لنقض هذا الأساس الرابع وذلك أنه إذا ثبت أن المادة ليست أزلية أو ثبت بالبرهان العقلي القاطع – وهو ثابت – أن للكون خالقا واحدا متصفا بالصفات الواردة في القرآن الكريم، وثبت صدق دعوى الأنبياء في تكليم هذا الخالق لهم ووحيه الرسالات إليهم، وجاء في هذه

الرسالات الخبر عنه تعالى بوجود موجودات ذات طبائع غير التي نعرفها في عالمنا المشهود هذا، فلا مجال لنا إلا الإيمان بوجودها.

وهنا مسألة ينبغي التنبيه إليها فمن المقطوع به أن الله تعالى ليس موجودا ماديا لأنه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولكن عدم المماثلة هذه من خصائصه سبحانه وتعالى وحده، وكل ما عداه فهو يماثل غيره في شيء وإن خالفه في أشياء. ولم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة عبارة أن الملائكة أو الجن مخلوقات غير مادية. فكل ما نعرفه عن ذواتها، أن الملائكة مخلوقة من نور والشياطين من نار كما أن الإنسان من طين فإذا أجرينا ألفاظ النور والنار على ظواهرها، فهي في عرف العلم الحديث أشياء مادية. وليس بكثير على الإله الذي خلق من الطين والماء المهين إنسانا يسمع ويبصر ويريد ويعقل، أن يخلق من النور ملائكة أو من النار جنا فكونها ليست كما المخلوقات التي نشاهدها وكونها لا تدرك في صورها الأصلية بحواسنا العادية، كل هذا لا ينتج عنه بالضرورة أن العنصر الذي تتكون منه شيء مخالف تماما للمادة التي تتكون منها المخلوقات التي ألفناها وإذن فحتى لو كانت الملائكة وكان الجن مخلوقات مادية فإنها مخلوقات غير مرئية ولا تناقض في هذا فقد مضى الوقت الذي كان يقال فيه أن المادي هو الذي تدركه الحواس إدراكا مباشراً.

الأساس الخامس: إن المذهب المادي باختلاف صوره ليس مذهبا أصيلا أدى إليه علم أو أثبته نظر وإنما هو مجرد رد فعل ضد الدين، وتعريفات كثير من الفلاسفة الماديين ومفاهيمهم المقصود الأول منها هو إسقاط الدين من الحساب وبيان أنه لا محل له في مجال العلم. ومما يظهر هذا.. حماسهم الشديد في إنكار البعث وهو إنكار لا تستلزمه – فيما أرى – حتى فلسفتهم المادية نفسها.

وذلك أن هذه الفلسفة لها نظرية في الخلق الأول، والبعث إنما هو خلق ثان.. فلماذا يكون الأول ممكنا والثاني محالا ؟ إذا كان الإنسان قد خلق بزعمهم من تلك الذرات مصادفة فما الذي يمنع أن يخلق مرة ثانية مصادفة ؟ لو كان الماديون أصلاء في تفكيرهم لقادهم منطقهم إلى هذه النتيجة ولقالوا أن البعث ليس محالا وليس أبعد احتمالا من الخلق الأول ولكننا لا ندري أكائن هو أم لا.

الأساس السادس: طبيعة كل شيء وخصائصه إن هي إلا المادة المكونة له.

(أ) هذا القول يفترض أن المادة مكونة من ذرات أزلية لا تتجزأ وهو مفهوم قديم. فالعلم الحديث كما قلنا لا يعرف مادة بهذه الصفة ولا يضع حدا فاصلا بين المادة والطاقة.

(ب) أن "العمارة" مكونة من حجارة ولكن لا يمكن إرجاع خصائص "العمارة" كلها إلى الحجارة المكونة لها فتنظيم هذه الحجارة بطريقة معينة يعطي العمارة خصائص لا نجدها في مجموعة حجارتها. كذلك الأشياء لو افترضناها كلها مكونة من ذرات لا تتجزأ فهي ليست مجرد أكوام – مختلفة الأحجام – من الذرات ولكنها ذرات مختلفة التنظيم والتكوين، وهذا التنظيم لا تقل أهميته في إعطاء الشيء خواصه عن أهمية المادة التي يتكون منها ج-وبالإضافة إلى التنظيم فهنالك العلاقات الناشئة بين الأشياء المكونة وهي بحكم كونها علاقات بين أشياء فلا يمكن أن توجد في الشيء الواحد. وأظهر مثال لذلك هو مثال الساعة، فخصائص الساعة لا يمكن ردها كلها إلى خصائص الأجزاء المكونة لها. وما يقال عن الساعة يقال عن سائر "الماكينات" وعن الأحياء من باب أولى.

نلخص من هذا كله إلى أن الشيء المكون يكتسب صفات جديدة حين ينضم إلى غيره، وإذن فخصائص الكل المكون لا يمكن إرجاعها كلها إلى مجموعة خصائص الأشياء المكونة له في حالة انفرادها.

الأساس السابع: كل ما نسميه عقلا أو نفسا أو روحا أو فكرا إنما هو شكل من أشكال المادة إذا كان المقصود بهذا أن العقل والنفس والروح والفكر أشياء مادية محسوسة أو معلومة القدر والعدد فهو بالطبع غير صحيح.

وإذا كان المقصود أن هذه الظواهر متصلة بأشياء مادية كالكائنات الحية فهو بالطبع صحيح ولكنه لا يخدم للماديين قضية. وإذا كان المقصود أن هذه الأشياء كلها لا توجد إلا متصلة بهذه الكائنات المادية بالطريقة التي نعدها فهو قول بغير علم.

ثم ماذا يعني ان نقول أن العقل مثلا شكل من أشكال المادة مادامت المادة نفسها لم تعد "مادية" بالطريقة الغليظة التي كان يتصورها غلاة الماديين ؟

الأساس الثامن: تشكيلات المادة وحركاتها خاضعة كلها لقوانين طبيعية لا تختلف، وبها يمكن أن نفسر كل الظواهر الطبيعية، والحالات النفسية، والحوادث التاريخية، من غير حاجة إلى افتراض قوة وراء الكون تحفظه وتسيره.

١) لقد أثبتنا من قبل أن الإيمان بالخالق أمر تستلزمه طبيعة المادة نفسها إذا ما دامت المادة حادثة ويستحيل ان تكون أزلية كما أثبتنا فلابد لها من خالق أزلي غير حادث.

٢) وإذا ثبت وجود هذا الخالق فإن ما يسمى بالقوانين الطبيعية التي تحكم سير الكون إنما هو عادة هذا الخالق أو سنته في تصريف شئون خلقه.

٣) وإذا كانت القوانين إنما هن سنن الله تعالى فإن اطرادها إنما يدل على أن الله تعالى لا يغير من عادته هذه، وتخلفها أحيانا إما أن يدل على أن السنة التي عرفناها ليست هي السنة المهيمنة بل فوقها سنن تحكمها، وأما أن يدل على أن أحد شروط تلك السنة قد تختلف وكل هذا يجعل الباب مفتوحا لأن تحدث الحوادث بغير الطريقة التي عهدناها والتي – لذلك – نتوقعها ونستغرب غيرها. ولكن حدوث مثل هذه "الخوارق" إنما هو خرق للعادة التي عرفناها ولا دليل فيه على أن الكون يسير بلا انتظام ولا اتساق.

الأساس التاسع: المادية مذهب علمي: من الحيل المعروفة على مدى التاريخ أن المدافعين عن المذاهب الباطلة والأفعال الفاسدة والسلع الضارة لا يسمون أشياءهم بمسمياتها بل يلبسونها زورا أزياء زاهية جذابة. ولما كان العلم الطبيعي سلعة رائجة في زماننا فإن كل صاحب مذهب باطل يحاول أن يلتجئ إليه ويلوذ بحماه ولكن هيهات. فالمادية كما قدمنا مذهب تقوم قاعدته الأولى على مجرد الدعوى التي لا يسندها دليل بل التي يبطلها الدليل، فأين العلم من هذا؟ والمادية كما أوضحنا مذهب يسير العلم في خط مضاد له، فالعلم هو الذي ما فتئ يبطل تعريفاتهم للمادة حتى ما يستطيعون أن يقولوا ما هي هذه المادة التي يريدون لها الاستغناء عن الخالق الذي جاءت بالدعوة إلى الإيمان به رسل الله تعالى، والعلم هو الذي هدم دعواهم بأزلية الأجرام السماوية ثم بأزلية الجزء الذي لا يتجزأ، والعلم هو الذي اقترب من المنهج الديني حين اتخذ الأثر

دليلا على طبيعة المؤثر، ولم يشترط رؤية الأخير رؤية مباشرة. والعلم هو الذي يتجه الآن لتفسير ظواهر طبيعية وقوي بشرية لا تقع تحت نطاق ما عرف من قوانين الطبيعة الحسية.

الأساس العاشر: الإنسان سيد نفسه ومالك مصيره فهو وحده المسئول عن أن يشرع لنفسه في السياسة والاقتصاد والاجتماع وسائر نواحي حياته:

هذا كلام لا يصح إطلاقه حتى على افتراض أن الإنسان لا خالق له فكيف وقد ثبت أن له خالقا ؟

وهو لا يصح على ذلك الافتراض لأن الواقع الذي يحسه كل فرد منا أنه رغم قوى الإنسان العقلية الفائقة ورغم اطراد تقدمه العلمي واتساع فهمه للكون الذي يعيش فيه فإنه ما زال محكوما في الجزء الأكبر من حياته بعوامل خارجة عن ذاته. فلا أحد منا كان مختار في أن يجئ إلى هذا الكون، ولا أحد منا يدري متى يفارقه، ونحن نجئ إليه بتكوين طبيعي لم نصنعه ولا قدرة لنا على تغييره، وهذا التكوين الطبيعي يفرض علينا نظاما معينا للحياة فلابد من أكل وشرب ونوم ويقظة وعمل الخ.

ونحن لا نجئ إلى الكون مكتفين ذاتيا بل أن متطلبات حياتنا خارجة عن ذواتنا وليست بخاضعة لقوانا وارادتنا، تلك بداهة ما ينكرها عاقل فما ينبغي له إذن أن يقول أنه سيد نفسه ومالك مصيره.

ثم إن تجربة الإنسان الذي افترض أنه سيد نفسه وذهب يضع لنفسه مناهج حياته ويخطط مسار سلوكه تجربة مؤسفة باعتراف أصحابها الذين ذاقوا ويلاتها. أفلا يكفي هذا دليلا على بطلان الافتراضي الذي قامت عليه ؟

المادية مذهب الحادي فماذا يقدم الالحاد للإنسان ؟ أنه يقول له أنك جئت من لا شيء، وإن كنت جئت من شيء فقد جئت مصادفة، فليس لوجودك غاية، ولا لك في الحياة مهمة، وأنك صائر إلى لا شيء، فما بعد الموت من حياة.

والإلحاد بهذه العقائد السلبية يزيح عن قدمي الإنسان الأرضية التي تقوم عليها حياته كلها.

فالإنسان بطبعه مخلوق ذو غـاية وهـدف لا يكـــاد يعمل عملا لا يعرف الغرض منه والغاية مـــن ورائه، والإلحاد يقول له ولكن الواقع أن حياتك في مجملها لا هـدف لها.

والإنسان مفطور على حب الخير وكراهية الشر وعلى جزاء الإحسان بالأحيان، ولكن الإلحاد نقول له أن مصير المحسنين والمسيئين في النهاية واحد، فيخلق في نفسه صراعاً بين نزوعه الطبيعي نحو فعل الخيرات وعبث هذا الفعل الذي يقتضيه استواء مصير المحسنين والمسيئين.

والإنسان بطبعه مخلوق ضعيف لا تكاد حياته تسلم من داء مؤلم أو عدو مؤذ أو عيش ضنك أو فراق صديق عزيز أو قريب حميم وهو في حالات ضعفه هذه كلها بحاجة إلى ملجأ يلوذ به ويعتمد عليه وينشد عنده العزاء والسلوان. ولكن الإلحاد يقول له: الواقع أنك تقف وحدك لا خالق لك تعتمد عليه وتصدق الملجأ إليه.

وحين يسحب الالحاد من تحت أقدام الإنسان هذه الأرضية فإنه يجعل حياته تعيسة ويمزق ذاته شر ممزق، فلا غرو أن يحاول الهروب من نفسه بالمسكرات والمخدرات والملهيات المزعجات، ولا غرو أن يهرب من بني جنسه فيعيش وحده ذرة تائهة بين ذرات، ولا غرو أن تتفاقم لهذا كله مشاكله وأدواؤه النفسية.

إن الارتباط بين فلسفة العبث التي يقتضيها الإلحاد وبين مشاكل الإنسان المعاصر التي أشرنا إلى طرف منها أصبح من المسلمات عند المفكرين الغربيين.

خاتمة:

وبعد.. فإذا كانت تلك هي الأسس التي تقوم عليها الفلسفة المادية وكانت هذه هي نتائجها على معتنقيها فما هو المسوغ لاستجلابها لنا والدعوة إليها بيننا؟ إن إنسانا عاقلا يعرف طبيعة تلك الأسس وآثارها لا يمكن أن يقدم على عمل كهذا، ولكن المشكلة أنه ما كل الناس يعقلون وما كل العقلاء يعلمون، فاللهم عقلاً هادياً وعلماً نافعاً.

* * *

الإسلام وحقوق الإنسان: مناقشة لأفكار غربية

الندوة العالمية لحقوق الإنسان في الإسلام روما، إيطاليا ١٩ ذو القعدة ١٤٢٠هـ الموافق ٢٥ فبراير ٢٠٠٠م

اهتم كثير من الغربيين اهتماماً كبيراً بقضية حقوق الإنسان من الناحية الفكرية والعملية، وكتبوا فيها المئات من الكتب والأوراق والمقالات. وكان من بين الموضوعات التي اهتموا بها موقف الثقافات غير الغربية من هذه القضية. فمنهم من رأى أن لكل أهل ثقافة الحق في أن يتصوروا الحقوق الإنسانية تصوراً مستقلاً ومخالفاً للتصور الغربي المعبر عنه في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. ومنهم من اعتقد أن الحقوق التي جاءت في هذا الإعلان حقوق عالمية تصلح لذلك أن تكون هي المعيار الذي تقوم به الثقافات المحلية. واهتمامنا في هذه الورقة ببعض أصحاب هذا الرأي، وبخاصة أولئك الذين اهتموا بموقف الإسلام والمسلمين من هذه القضية. وبما أن من نخاطبهم أناس لا يشاركونا في الاعتقاد فقد رأيت أن يكون تقويمي لما سأتعرض له من مسائل تقويما عقلانيا، حتى يتسنى لنا أن نتحاور. وأنا حين أقف على أرض عقلانية أؤمن بأنني أقف في الوقت نفسه على أرض إسلامية صلبة، لاعتقادي بأن العقل جزء لا يتجزأ من الدين الحق، وهذه هي المسائل التي رأيت أن أناقشها:

نسبية الثقافة:

تعرف حقوق الإنسان بأنها حقوق للإنسان بما هو إنسان لا بما هو منتم إلى عنصر أو دين أو مكان معين. يلزم عن هذا المفهوم لحقوق الإنسان أن هنالك قيما أخلاقية عالمية مطلقة هي الحاكمة على الثقافات والعادات والتقاليد المحلية. لكن من الكتاب الغربيين أنفسهم من ينكر هذا ويقول إن المعايير الخلقية معايير نسبية. فلكل أهل ثقافة – وهي عبارة تشمل الأديان والقيم والعادات والتقاليد – الحق في أن يقوموا الأمور بمعاييرهم، ولا يحق للآخرين أن يحاكموهم إلى معاييرهم هم أو يفرضوها عليهم، ويعدون هذا نوعا من الاستعمار الثقافي. وعليه فإنهم يرون أن ما يسمى بحقوق الإنسان إنما يعبر عن وجهة نظر حضارة معينة هي الحضارة الغربية، وأنه لا يجوز لذلك أن يفرض على أصحاب الثقافات الأخرى، بما في ذلك الثقافة الإسلامية.

القول بنسبية الثقافة هذا مما ينكره الكتاب الذين أناقش آراءهم، وأنا معهم في هذا الإنكار كما سأبين بعد.

لكنني أعلم أن القول بالنسبية يعجب نوعين من المسلمين:

يعجب بعض الإسلامين المخلصين لدينهم الكارهين للتسلط الغربي لأنهم يرون فيه إنصافا للإسلام، وتعليلا معقولا لمخالفته لبعض ما ورد في الإعلان عن حقوق الإنسان، بل قد يرون فيه المخرج الوحيد للإسلام من تهمة إنكاره لبعض حقوق الإنسان.

لكنه يعجب أيضا بعض الحكام لأنه يعطيهم مسوغا لبعض اعتداءاتهم على هذه الحقوق، مع أنهم لا يرتكبون هذه الاعتداءات في الأصل لأسباب دينية، أو انطلاقاً من قيم محلية، وإنما لتحقيق مآرب شخصية.

لقد ظن كثير من الكتاب، من الإسلاميين ومن الغربيين ممن اهتموا بقضية حقوق الإنسان في الإسلام، أن هنالك موقفين لا ثالث لهما؛ فإما أن تنكر النسبية الثقافية، فتكون نصيراً للإعلان عن حقوق الإنسان الذي أصدرته الأمم المتحدة، وإما أن تقول بالنسبية الثقافية وتجعلها مستندا لك في دعواك بإنكار الإسلام لبعض تلك الحقوق.

لكن الحقيقة المبشرة أن هنالك موقفا ثالثا، هو في اعتقادي الموقف الإسلامي الصحيح. ملخص هذا الموقف هو أنه لا تناقض بين قول الإنسان بوجود قيم خلقية عالمية تعد معيارا لتقويم القيم المحلية، وبين قوله بأن بعض ما يدعى بأنه قيم عالمية ليس في الحقيقة عالميا، بل هو معبر عن ثقافة أو حضارة معينة. إنه لا يلزم من إقراري بوجود قيم عالمية مطلقة، الإقرار بعالمية كل ما ادعي له العالمية.

ثم إن القول بنسبية الحقيقة أو القيم الخلقية يتناقض مع القول بعموم الرسالة المحمدية. إن عموم الرسالة يعنى أن ما جاءت به من حقائق وقيم هي أمور مطلقة صالحة لكل البشر بما هم بشر. إن كثيرا من نصوص الكتاب والسنة تؤكد بأن للبشر جميعاً فطرة واحدة فطرهم الله تعالى عليها، وأن الإسلام هو دين هذه الفطرة. وهذا يعني أن كل ما جاء به من عقائد وعبادات وقيم سلوكية ونظم اجتماعية موافق لهذه الفطرة البشرية. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

عالمية حقوق الإنسان:

للعالمية معنيان ليسا بمتلازمين؛ فهي قد تعني كون الشيء موجوداً أو منتشراً في العالم كله، وقد تعني كون ذلك الشيء متعلقاً بفطرة الناس ومهم لها. فالشيء قد يكون عالمياً بالمعنى الأول ومضراً بالناس. وقد يكون عالمياً بالمعنى الثاني وغير منتشر في العالم.

إذا غضضنا الطرف عن معارضة بعض الدول لبعض ما جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان فيمكن أن نقول إنه عالمي بالمعنى الأول.

لكن عالميته بهذا المعنى، وإن كانت قد تصلح لإلزام الدول الموقعة عليه بتنفيذ ما جاء فيه، فإنها لا تصلح دليلاً على كون كل ما جاء فيه هو عالمي بالمعنى الثاني، أي بكون كل ما جاء فيه هو أمر مرتبط بكرامة الإنسان بما هو إنسان. لكن هذه هي الحجة الأساس التي اعتمد عليها بعض من كتب من الغربيين في الإسلام وحقوق الإنسان، وضرورة أن يلتزم بها المسلمون وغيرهم. وهذه الحجة حجة واهية من عدة نواح:

أولاها: هل هذه الحقوق المعلنة إنسانية لأن الإعلان قال إنها كذلك، أم أن الإعلان قال إنها حقوق لأنها كانت حقوقا قبل الإعلان؟ وبعبارات أخرى: هل الإعلان هو الذي جعل منها حقوقا، أم أنه كان مقراً لكونها حقوقا؟ هل كان الإعلان منشئا ومانحا لها أم كان معبرا عنها؟ لا بد أن يكون الأخير هو الصواب.

ثانيتها: أنه من حق كل إنسان ينكر هذه الحقوق كلها أو بعضها أن يعطى أدلة قوية على كونها حقوقا ينبغي عليه أن يؤمن بها. فإذا ما كانت الأدلة في نفسها من شأنها أن تقنع كل إنسان عاقل، فلا يضر بعد ذلك عدم اقتناع بعض الناس بها. أما أن يقال لدولة تحفظت على بعضها، أو لأشخاص مفكرين مخلصين في تحفظهم عليها إنه يجب عليهم أن يؤمنوا بها فذلك مما ينبغي إلا يقول به عاقل.

ثالثتها: هل هذه الحقوق جامعة مانعة بحيث لا يمكن أن يزاد عليها ولا ينقص منها، أم أن ذلك ممكن؟ لا بد أن يكون ممكنا، فلا أحد يقول عن اجتهاد بشري إنه قد كتب له الكمال. وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن يكون للداعي إلى إضافة او حذف حجة يعتمد عليها. فماذا يمكن أن يقول، إذا لم يكن لهذه الحقوق المعلنة مستند غير كونها مما أعلنته هيئة الأمم المتحدة؟

رابعتها: أن هذه الحجة تقيم الدعوة إلى حقوق الإنسان على أساس واه لو كان هو وحده أساسها لما آمن بها ولا احترمها ولا التزم بها إلا قلة من الناس. إذ ما أكثر القرارات التي تتخذها هيئة الأمم ثم لا تجد من يصغي لها. لكننا نعرف المشكلة التي اضطرت كثيرا من هؤلاء الكتاب والكاتبات إلى هذا الموقف. إنهم إن أرادوا إرساءها على قاعدة فلسفية مشتركة بين جميع الأمم فلن يجدوا إليها سبيلا. وإن أرسوها على فلسفة غربية فقدت صفة العالمية، بل واتهموا بأنهم عملاء للاستعمار الثقافي.

إن الأسس الحقيقية التي يقوم عليها التزام الناس بما يلتزمون به مما جاء في الإعلان هي:

(أ) أن بعضهم -ككثير من الغربيين وكالمسلمين- يجد لكثير منها أساساً في ثقافته الخاصة كما ترون في الأوراق المقدمة من بعض الإخوة المسلمين.

(ب) أن بعضهم يلتزم بها تقليداً للغرب، لأنه يرى أن الحضارة الغربية هي حضارة العصر. فكما أنهم يحاولون أن ينهجوا نهج الغربيين في عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم، فكذلك يحاولون تقليدهم في التزامهم بهذه الحقوق.

(جـ) الضغط السياسي والاقتصادي والفكري الذي تمارسه الدول الغربية على غيرها للالتزام بقيمها، ولا سيما فيما يحقق مصالحها.

حق الأبوة والأمومة:

ولكي أدلل على أن ما جاء في الإعلان ليس جامعاً ولا مانعاً، ولكي أدلل أيضا على أنه يمكن إضافة حقوق أخرى بمسوغات عقلانية مقبولة، أضرب مثلا بحق جعله الإسلام حقا أساسا مطلقا للناس جميعا، لكنه مع ذلك لم يرد في الإعلان، لأنه من الحقوق التي لا تعترف بها الثقافة الغربية، بل تجعل انتهاكها أمرا مشروعا تقره قوانينها. هذا الحق هو حق الإنسان -رجلا كان أو امرأة- في أن ينسب أولاده إليه، وأن لا ينسبوا إلى غيره في أية حال من الأحوال. والله تعالى حين قرر هذا الحق لم يأمر به مجرد أمر، وإنما بين لنا أسبابه، وهي أسباب علمية خلقية يمكن أن يقدرها كل إنسان مهما كان نوع الثقافة التي نشأ فيها. إن عزو الأولاد إلى غيرهم آبائهم وأمهاتهم الطبيعيين لا يجوز للأسباب التالية:

أولا: أنه مبني على دعوى باطلة مخالفة للواقع الحسي. قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

فهذه دعاوى ثلاث كان العرب يدعونها، نهى القرآن الكريم عنها كلها لأنها مخالفة للواقع، وبين أن الدعاوى اللسانية لا تغير الحقيقة الواقعية. فكما أنه ليس للرجل الذكي قلبان كما كان العرب يعتقدون، وكما أن زوجة الرجل لا تكون أما له بقوله لها "أنت على كظهر أمي" كما كانوا يدعون، فإن الولد لا يكون ابنا لمن يدعيه كما كانوا يزعمون.

ثانياً: أن الأم الحقيقية للولد هي أمه الطبيعية، لأنها هي التي تولت حمله وولادته. يقول الله تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة:٢].

ثالثا: أن العدل يقتضي -لذلك- أن ينسب الولد إلى أبيه، لا إلى متبنيه. يقول تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

رابعا: أن الإسلام حريص على حماية الأسرة بوصفها النواة الأساس للمجتمع. لكن التبني قد يؤدي إلى خلط الأنساب، وإلى أن يتزوج الشخص بأحد محارمه، بل وقد يؤدي إلى ارتكاب فواحش في داخل الأسرة.

ما أظن أن هنالك حقاً إنسانيًا يقوم على كونه حقاً طبيعياً دليل حسي أقوى من دليل الأمومة الطبيعية، ثم الأبوة. ولكن مع هذا فإنه لا يعتبر حقاً مطلقاً في بعض البلاد الغربية، بل إن الإنسان قد يحرم منه لأوهي الأسباب. وقد حدثت لرجل عربي مسلم في الولايات المتحدة قصة مفجعة فحواها أن بعض الناس رأوه يقبل ابنته، فشكوه إلى الشرطة بتهمة سوء استغلال الأطفال! فقضى القاضي بحرمانه من ابنته

وابنه وسلمهما لعائلة نصرانية. استأنف الأب القضية بمساعدة منظمة Cair فقضى القاضي فنقض القاضي الأعلى الحكم الأول، وقرر بأن ما فعله الأب أمر معتاد في ثقافة قومه، ولا علاقة له بأمر جنسي. إلى هنا والأمر معقول ومنصف. لكن المفاجأة المفجعة كانت قضاؤه أن التبني لا رجوع عنه بحسب القانون! أي قانون هذا الذي يجيز نقض الأبوة الحقيقية ويحمي الأبوة المدعاة؟ قلت في نفسي حين سمعت هذا: الآن عرفت لماذا يصف بعض الغربيين القانون بأنه جحش. سمعت أن هذه القصة عرضت قبل بضعة أسابيع في إحدى القنوات الأمريكية، وذكر فيها أن البنت شكت لوالدها الذي سمح له بزيارة ابنيه بأن العائلة النصرانية تجبرهما على أكل الخنزير. أما الابن - وربما كان هو الأصغر سنا - فقد طلب من والده إلا يتصل به مرة أخرى، وأنه لا يعرف والدا له إلا الوالد الذي يعيش معه. وذكرت القناة قصة أخرى لامرأة أمريكية غير مسلمة حرمت من طفلها الوحيد الذي أنجبته بعد عدة سنين بسبب آخر أوهى من هذا.

إن بعض الكتاب الغربين يصفون عقوبات القطع والجلد والقتل والرجم بأنها عقوبات قاسية. فهل رأيتم من عقوبة أغلظ من أن يحرم الوالد من ولده ويعطى لشخص غيره؟ إنني أكاد أجزم بأن والد الطفلين هذا لو خير بين أن يجلد أو تقطع يده، بل وأن يقتل، وبين أن يعطى أولاده لعائلة نصرانية، لما تردد في قبول الخيار الأول.

قد يقول قائل: ولكن أليس للطفل أيضا حق؟ ما ذا إذا كان في وجوده بين أبويه أحدهما أو كليهما خطر عليه، أي نوع من الخطر؟ ونقول نعم إن للطفل لحقا في أن يحمى من الخطر، وقد تكون حمايته بأخذه من أبويه ووضعه تحت كفالة عائلة أخرى. لكن الوالدين يظلان رغم ذلك والديه، ولا يجوز لمن يكفله أن ينسبه إليه.

الحداثة والعالمية:

من الكتاب الغربيين من يرى أنه بما أن مفهوم حقوق الإنسان مفهوم جديد فإنه لا يمكن أن يوجد في شيء من الثقافات الما ضية التي يعدون منها ما يسمونه بالإسلام التقليدي. لكنهم مع ذلك يصرون بأن هذه الحقوق حقوق إنسانية لا يكون الإنسان إنسانا كريما إلا بها. وهذا تناقض؛ لأنها إذا كانت بهذه المثابة فيجب أن تكون معلومة للناس منذ أن وجد الناس، إذ كيف تكون للإنسان حقوق بهذا اللزوم لكرامته ثم تغفل عنها كل الثقافات والأديان الماضية ولا تكتشف إلا في القرن العشرين؟ نعم إنه من

البديهي أنها لم تكن لتوجد بأسمائها لحديثة، وبالصياغة التي صاغها بها محام فرنسي في العصر الحديث. أما أصل الكثير منها وحقيقته فلا بد أن قد كان موجودا في الثقافات الماضية. إن بعض الكتاب الذين يرون أنها لا يمكن أن توجد فيما يسمونه بالإسلام التقليدي أو إسلام ما قبل الحداثة، يقترحون على المسلمين طرقا لإعادة تفسير دينهم ليكون دينا حديثا يتمشى مع هذه الحقوق المعاصرة. لكن المسلم الصادق مع نفسه لا يمكن أن يلجأ إلى الأساليب التي يقترحونها كما سنرى بعد.

حقوق الإنسان في الإسلام:

كيف يقرر المسلم ما إذا كانت الحقوق التي في إعلان الأمم المتحدة متوافقة مع دينه أم غير متوافقة؟ إن بعض الكتاب الغربيين يقترحون على المسلمين أن يبدؤوا بالتسليم بأن هذه الحقوق المعلنة هي حقوق يجب الإيمان بها والالتزام بها. ولكن بما أنها لا يمكن أن توجد في دينهم التقليدي فلا بد لهم من إعادة تفسيره ليجعلوه متوافقا مع ما يسمونه بالمعايير العالمية لحقوق الإنسان. لكن هذه الطريقة لا تليق بإنسان أمين مسلما كان أم غير مسلم. إنه من الافتراء أن تنسب إلى بشر ما كلاما لم يقله. فكيف بالله خالق البشر؟ لو أن فيلسوفا ما معجبا بفلسفة أرسطاليس يحاول دائما أن يعيد تفسيرها ليجعلها متوافقة مع بعض ما يشيع عصره، لاعتبر رجلا غير أمين، وغير جدير بأن يعد في زمرة دارسي الفلسفة الأكاديميين. فكيف بالافتراء على الله رب العالمين. كيف؟ والمسلم يقرأ في كتاب ربه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس:٦٩]، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

إن للعالم المسلم منهجا علميا يتبعه لمعرفة ما هو من دينه وما ليس منه. إنه أولا يأخذ كلام ربه مأخذ الجد، فيجتهد ويخلص في معرفة مراد الله تعالى بكلماته التي أنزلها، موقنا بأن كل ما يقول الله تعلى او يقول رسوله ﷺ فهو الحق الذي لا ريب فيه، وأن كل ما يأمر به الله أو رسوله فهو الخير الذي لا ريب فيه، معتقداً اعتقاداً جازماً بأن الله علام الغيوب، وأنه لم يربط هداه بمرحلة زمنية معينة، أو رقعة أرضية معينة، وإنما جعله هدى ورحمة للناس كافة منذ أن بعث رسوله، وإلى قيام الساعة.

ويكون همه بعد سلوك الطريق الصحيح لمعرفة ما أنزل الله تعالى أن يؤمن به ثم يجتهد في العمل به إن كان يقتضي عملا ظاهرا. إنه يأتي إلى كتاب ربه وسنة نبيه ليهتدي بهما لا ليهديهما ولا ليقترح عليهما. إنه لا معنى للإيمان ولا للتدين إلا هذا. وكلما عرضت للعالم المسلم مسألة جديدة فكرية كانت أم عملية، كقضية حقوق الإنسان، فإنه يرجع إلى كتاب ربه وسنة نبيه ليلتمس فيها الهداية. فإن وجد في نصوص الكتاب والسنة ما يؤيد الأمر آمن به، وإن وجد فيهما نصوصا تبطله أنكره، وإن لم يجد لا هذا ولا ذاك اجتهد بحسب قواعد اجتهاد علمية معروفة في علم يسمى أصول الفقه ليصل إلى الحكم الإسلامي في المسألة. فالاجتهاد ليس كما يريدنا أن نفهمه بعض الغربيين من المهتمين بالإسلام وسيلة لتحريف الدين وتبديله ليتناسب مع أهواء العصور المتغيرة. إنه منهج علمي لاكتشاف الحقيقة التي تدل عليها النصص، وهو في هذا أشبه ما يكون بمنهج علماء الطبيعة في اكتشاف الحقائق الكونية. أما إذا اعتقد الإنسان أن في القرآن أو في السنة ما يتناقض مع مسائل عصرية يراها مهمة وضرورية لتحقيق مصالح الناس، فما عليه إلا أن يكون شجاعاً ويعلن عدم إيمانه بأن القرآن كلام الله، وأن محمداً رسول الله، لأنك لا يمكن أن تعتقد بإخلاص أن القرآن كلام الله، وأن محمداً رسول الله ثم تعتقد مع ذلك أن فيهما ما هو باطل أو مضر.

المفاهيم والتصورات:

لقد أمعنت النظر -بحسب هذا المنهج- في إعلان حقوق الإنسان فلم أجد في معانيها العامة ما ينكره المسلم، إلا بنوداً معروفة سبقني الناس إلى التنبيه عليها. لكن هذا لا يعني الموافقة على كل الصيغ التي صاغها بها محام فرنسي قبل أكثر من خمسين عاما.

بيد أن المشكلة الكبرى -كما لا حظ ذلك بعض الكتاب الغربيين- هي أن الناس وإن اتفقوا على بعض المفاهيم إلا أن تصوراتهم لها تختلف بحسب ثقافتهم ومعتقداتهم. لكن كثيرا من الغربيين يفترضون أن تصوراتهم ينبغي أن تكون هي التصورات العالمية التي تتجاوز الثقافات. وأنا لا أريد هنا أن أقرر مسألة نسبية القيم التي أنكرتها في بداية البحث، وإنما أريد أن أؤكد ما قلته هنالك من أن إنكار هذه النسبية لا يلزم المرء باعتقاد أن التصورات الغربية هي التصورات العالمية أو المطلقة.

خذ على ذلك مثالين. إن المعاملة التي عامل بها القاضي ستارك الرئيس كلنتون، والطريقة التي حرص بها على نشر فضائحه هي مما يتقزز منه المسلم، ويعده أسوأ من الفضيحة التي حرص القاضي على إذاعتها. ولا شك أن المسلم يعد هذا أمرا مخالفا للحق الإنساني الذي قرره البند الثاني عشر من الإعلان العالمي. بل إن مبدأ نشر الفضائح هو مما ينكره المسلم ويعده عملا غير أخلاقي. فهذا تصور إسلامي لمفهوم الشرف والسمعة الوارد في هذا البند يختلف اختلافا كبيرا عن المفهوم الأمريكي له، إن كان ما فعله القاضي معبرا عنه. وكذلك مفهوم الحرية الدينية الوارد في البند الثامن عشر والذي يقرر أن من حق كل إنسان أن يظهر دينه أو معتقده تدريسا أو ممارسة أو عبادة أو احتفالاً، هو أيضاً مما يختلف فيه التصور الإسلامي عن التصور الغربي. إن التصور الغربي يفسر الدين تفسيرا يجعله محصورا في إطار النظام العلماني. ولذلك لا يبيح للمسلم أن يمارس أشياء يبيحها له دينه، لأن ممارستها تتصادم مع القانون العلماني للدولة. وبما أن الدولة الإسلامية دولة تقوم على الدين لا على العلمانية فمن حقها أيضا أن تجعل حرية الدين، وحرية الاعتقاد، وحرية الممارسة في نطاق نظامها الديني. لكن شيوع النظام العلماني جعل الناس ينسون هذه الحقيقة، ويفترضون أن النظام العلماني هو النظام الوحيد المناسب للبشرية، فما يبيحه هو المباح وما يحرمه هو المحرم. وهذا أمر ينكره المسلم الملتزم بدينه.

ما الإسلام، ومن الذي يمثله؟

في سبيل الدفاع عن حقوق الإنسان كما وردت في الإعلان العالمي، وفي سبيل تفسيرها تفسيراً يتناسب مع التصور الغربي، يحرص كثير من الكتاب الغربيين على الإصرار على أن الإسلام ليس شيئاً واحداً، وأنه لذلك لا يجوز لمن يسمونهم بالمسلمين التقليديين أن يحتكروا الكلام باسم الإسلام، بل إن من يسمونهم بالمسلمين الليبراليين لهم الحق في التحدث باسم الإسلام كما لأولئك سواء بسواء. ولما كان من يسمونهم بالليبراليين متبنين للموقف الغربي بحذافيره مفهوما وتصورا، ولما كانوا ممن يستمع لنصيحتهم بضرورة إعادة تفسير الإسلام ليماشي التصورات الغربية في حقوق الإنسان وفي غيرها، فإنهم يجدونهم أحب إلى نفوسهم، لأنهم يمثلون حضارتهم مع إصرارهم على التسمي بالمسلمين. تجدهم لذلك يعلون من قدرهم، ويرفعون من

خساستهم، ويشيدون بكتاباتهم حتى وإن كانوا من المغمورين الذين لا تأثير لفكرهم في بلادهم. وصدق الله العظيم: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣].

مما لا شك فيه أن المنتسبين إلى الإسلام كثيرون، وأن تصوراتهم له مختلفة. ولكن هل يدل هذا على أن الإسلام ليس شيئاً واحداً؟ وأن من حق أي أحد ينتسب إلى الإسلام أن يقول فيه ما شاء كيف شاء، ولا يكون هنالك معيار نميز به بين المحق في دعواه والمبطل؟ إن قلنا هذا وقعنا في مسألة نسبية الحق، وهي مسألة اتفقنا مع الكتاب الذين نناقشهم على إنكارها.

إن الإسلام دين مبني على نصوص مكتوبة بلغة معروفة، فلا بد أن يكون له حقيقة تدل عليها هذه النصوص دلالة عامة على الأقل. فعلى من يريد أن يعرف الموقف الإسلامي الحقيقي من قضية ما كقضية حقوق الإنسان أن يطلع على هذه النصوص فيجعلها معيارا يميز به - تمييزا عاما على الأقل - بين المحق والمبطل في ادعائه تمثيل الإسلام. وعليه إذا لم يكن قادرا على ذلك أن يقول إنه غير قادر، وأنه لذلك سيعرض آراء الفرق المختلفة من غير أن يقرر من المحق منها ومن المبطل.

إنها لحقيقة بديهية أن الاختلاف في فهم نصوص ما لا يدل بنفسه على أن تلك النصوص لا تعبر عن حقيقة واحدة، وأنها تقبل التأويلات المتناقضة. ماذا إذا طبقت إحدى الدول هذا المبدأ على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، فقالت إنها تلتزم بها لكنها تملك حق تفسيرها تفسيرا مختلفا عن الآخرين؟

ختاما: لقد بنيت كثيرا مما جاء في هذه الورقة على كتابات غربية اطلعت عليها. وقد فكرت أولا في أن أشير إليها كما هو المعتاد في الأوراق العلمية، ثم أضربت عن ذلك وقلت أجعلها أفكاراً مجردة لا محاكمة لأفراد معينين. وأرجو لذلك أن يجد فيها المطلعون عليها من الكتاب الغربيين المهتمين بموضوع حقوق الإنسان شيئا من العون على تقدير أحسن لموقف الإسلام والمسلمين من هذه القضية، وعلى إمكانية أكثر للحوار المثمر.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

* * *

كتاب: بناء الدولة لفوكوياما

عرض كتاب: بناء الدولة: الحكم والنظام العالمي في القرن الواحد والعشرين، تأليف: فرانسيس فوكوياما، تلخيص: أ. د. جعفر شيخ إدريس، ١٠نوفمبر٢٠١٣م.

مقدمة الملخِص:

كيف تبنى دولة قد تهدمت؟ وكيف تقوى دولة قد ضعفت؟ وكيف تزداد دولة قوية قوة في بعض النواحي التي ضعفت فيها؟ هذا هو موضوع الفصلين الأولين من هذا الكتاب.

يُلخص الكاتب ما توصل إليه المختصون في كل مسألة من مسائل هذه القضية. ويحاول أن يضع ما توصلوا إليه في نظريات عامة يمكن الاستعانة بها على جعل ما توصلوا إليه قابلاً للتعميم. لكنه يعترف بأن هذا ليس ممكناً في كل المجالات (كمجال الإدارة العامة مثلا)، لا لأن هنالك تقصيراً في الدراسة ولكن لأن المادة نفسها ترتكز إلى حد كبير على ظروف محلية وظروف متغيرة لا يمكن الإحاطة بها.

هذه القضية هي كما يبدو لأول وهلة قضية الدول الضعيفة والفقيرة. فلماذا يهتم بها علماء في دول كبيرة؟ الإجابة عن هذا في الفصل الثالث من الكتاب (بعد نهاية الحرب الباردة صارت الدول الفاشية هي أكبر مشكلات النظام العالمي. وذلك لأنها تعتدي على حقوق الإنسان، وتحدث كوارث إنسانية، وتدفع بأمواج ضخمة من المهاجرين، وتهاجم جيرانها، وتؤوي الإرهابيين العالميين الذين يمكن أن يضروا ضرراً بالغا بالولايات المتحدة وغيرها من الدول المتقدمة).

لكن هذه الدراسات ليست مرتبطة ارتباطا لا زماً بالدافع إليها أو القصد منها. بل إن كثيرا منه مما يمكن الانتفاع به بغض النظر عن هذه المقاصد والدوافع.

وقد حاولنا في هذا التلخيص أن نقتصر على ما نراه من وجهة نظرنا المحلية مفيداً في الكتاب، لكنه تلخيص لا يغني عن قراءة الكتاب والاستفادة من مراجعه التي لا تكاد تخلو منها صفحة.

مقدمة المؤلف:

المقصود ببناء الدولة هو: إنشاء مؤسسات حكومية جديدة وتقوية الموجود منها. أريد أن أدلل في هذا الكتاب على أن بناء الدولة هو من أهم أمور المجتمع الدولي لأن

الحكومات الضعيفة أو الفاشية هي من مصدر لكثير من المشكلات العالمية العظمى من الفقر إلى الإيدز إلى المخدرات إلى الإرهاب. وأريد أن أبين كذلك أنه بينما نعلم الكثير عن بناء الدولة إلا أن هنالك الكثير مما لا نعلمه ولا سيما كيفية نقل المؤسسات القوية إلى الدول النامية.

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

حيث يرسم الأول إطارا تحليليا لفهم الأبعاد المتعددة للدولية: مهام الدولة ومقدراتها ومشروعيتها.

ويبحث الثاني في أسباب ضعف الدولة.

ويبين الأخير الأبعاد العالمية لضعف الدولة.

١) الأبعاد المفقودة للدولة:

ازداد حجم الدولة وازدادت مهامها واتسع نطاقها الثلاثة الأرباع الأولى من القرن العشرين. فبينما لم يكن قطاع الدولة يستهلك أكثر من ١٠٪ من الناتج القومي في الولايات المتحدة ومعظم البلاد الأوربية فإن هذا الاستهلاك قفز فيها بحلول عام ١٩٨٠ إلى ٥٠٪ (٧٠٪ في السويد الديمقراطية الاشتراكية)، هذا النمو المتعاظم للقطاع الحكومي أدى إلى أنواع من عدم الكفاءة والنتائج غير المتوقعة، حدث بسببها رد فعل تمثل في ما سمي"بالتا تشرية" و"الريغانية". التي تناقص فيها حجم القطاع الحكومي في كثير من بلدان العالم. لكن حركة تحرير الاقتصاد من التدخل الحكومي صاحبها إضعاف للدولة في الدول النامية وذلك لأن هذا البرنامج خلط بين تقليل وظيفة الدولة الاقتصادية وتقليل كفاءتها وهما أمران مختلفان.

قوة الدولة ومجال عملها:

قد يكون المجال الذي تعمل فيه دولة كالولايات المتحدة ضيقاً من حيث عدم شموله للقطاع الصحي وعدم تشدده في تنظيم السوق، ولكنها مع ذلك تكون قوية إذا ما عرفنا القوة بتعريف مارك فيبر لها (مجموعة بشرية تنجح في دعوى حقها بالاستعمال المشروع للقوة الحسية في نطاق أرضي معين) أي إن جوهر الدولية هو مقدرة الدولة على فرض قرارها بالقوة. هذه القوة هي التي تسمى الآن بـ"القوة المؤسسية". والدول تختلف

في مقدار قوتها أو ضعفها بالنسبة للمؤسسات التي تمثل هذه القوة، فقد يكون بعضها قوياً في نوع من هذه المؤسسات ضعيفاً في نوع آخر، وتكون دولة أخرى عكسها في مجال قوتها وضعفها.

القوة والمجال والنمو الاقتصادي:

كان الرأي السائد في الماضي أن الخصخصة وحدها تكفي للمساعدة على النمو الاقتصادي، لكن تجارب بعض الدول مثل روسيا، وتايلاند، وجنوب أفريقيا، أثبتت أن هذا ليس بصحيح. بل الذي اتضح الآن أنه لا بد للنمو من مؤسسات قوية. قال الأستاذ"فريدمان" أكبر دعاة اقتصاد السوق الحر إن نصيحته لكل دولة تتحول من الاشتراكية " خصخصوا، خصخصوا، خصخصوا" لكن تبين له الآن أنه كان مخطئا. إنه يدرك الآن أن حكم القانون ربما كان أهم للتنمية من الخصخصة.

وقد برهن برنارد دي سوتو Bernando de Soto في كتابه"الطريق الآخر" على أهمية المؤسسات القانونية للتنمية، إذ وجد أن الحصول على رخصة لعمل تجاري صغير يستغرق في مدينة ليما Lima ببيرو Peru يستغرق عشرة أشهر ويمر بأحد عشر مكتبا، ويكلف ١٢٣١ دولارا، بينما لا يستغرق طلبا كهذا أكثر من يومين في الولايات المتحدة وكندا.

التزويد بالمؤسسات:

هناك أربعة نواح متداخلة تحتاج لأن ننظر فيها:

١. تصميم المنظمات **وإدارتها** (organizational design and management):

إن موضوع الإدارة العامة حقل معرفي واسع ومتطور لكن ليس له ولا يمكن أن تكون له نظرية عامة.

٢. تصميم النظام السياسي (Political system design):

هذا حقل يبحث في العلاقة بين نظام الدولة وبين النمو الاقتصادي. فهو يقارن مثلا بين النظام البرلماني والنظام الرئاسي، وبين أنظمة الانتخابات المختلفة؛ الفدرالية، النظام الحزبي وهكذا. **وهنا أيضا لا توجد نظرية عامة تساعد على التعميم. فقد يساعد نظام سياسي في بلد ما على التنمية لكنه لا يساعد عليها في بلد آخر بسبب**

الاختلاف في المؤسسات التي تساعد الأول وتعوق الثاني. ومن ذلك أن بعض الدارسين يقول إن النظام الرئاسي الذي يعطي الفائز كل شيء ويحد الرئيس بفترة زمنية معينة هو من أسباب عدم الاستقرار وعدم الشرعية في أمريكا اللاتينية.

٣. أسس الشرعية (Basis of legitimization)):

إنه لا يكفي للمؤسسات أن تكون عاملة بطريقة صحيحة، بل لا بد من أن يعدها المجتمع شرعية.

٤. العوامل الثقافية والهيكلية (Cultural and structural factors):

أغلب الدراسات في هذا المجال تكون تحت ما يسمى بـ(رأس المال الاجتماعي) إن المعايير والقيم والثقافة تؤثر في الجانب التزويدي للمؤسسات بأن تجعل بعض أشكال المؤسسات ممكنا أو تحد من إمكان وجوده. لكنها قد تؤثر أيضا في جانب الطلب منها. وعليه فإن بعض المؤسسات التي تصلح في بعض البلاد قد لا تصلح في بلاد أخرى مختلفة عنها في بعض هذه الجوانب المعيارية والقيمية والثقافية.

المعارف المؤسساتية القابلة للنقل ومكونات القوة المؤسساتية:

المكون	العلم الذي يدرسه	إمكانية نقله
تصميم النظام وإدارته	الإدارة=الإدارة العامة-الاقتصاد	عالية
تصميم المؤسسات	العلوم السياسية-الاقتصاد-السياسة	متوسطة
أساس الشرعية	العلوم السياسية	متوسطة إلى ضعيفة

المطالبة بالمؤسسات:

لن تكون هنالك مؤسسات جيدة إذا لم يُطالب بها. هنالك تركيز كبير في علم الاقتصاد السياسي على الظروف التي حالت دون إنشاء المؤسسات الناجحة هي تلك التي ولدّها طلب محلي لها، ويضربون مثلاً لذلك بأوروبا الحديثة، والولايات المتحدة بعد الثورة، وألمانيا واليابان وتركيا في القرن التاسع عشر. وكوريا الجنوبية واليابان في الستينات، وشيلي ونيوزيلندا في السبعينات والثمانينات.

إن عدم الطلب للمؤسسات أو ضعفه هو أكبر سبب لعدم تطور المؤسسات في البلاد الفقيرة. ولذلك فإن هذا التطور كثيراً ما يحدث بأسباب خارجية، لكن الدراسات تدل على أنه لا جدوى كبيرة من مؤسسات يحدثها هذا التدخل الخارجي. إنه كثيراً ما يُثنى على الولايات المتحدة بأنها كانت هي السبب في بناء ناجح للأمة nation building في ألمانيا واليابان. لكن الحقيقة أنه كان في هذه البلاد قبل غزوها نظم بيروقراطية كانت هي السبب الحقيقي لتطورها. تنشئ المطالبة المحلية بالمؤسسات الجيدة وبتغيير السياسات.

زيادة الأمر سوءاً:

التدخل ليس فقط لا يحل المشكلة بل كثيرا ما يزيد الأمر سوءاً لأنه حطم كثيراً من قوى المؤسسات في بعض الأقطار. فالدول الإفريقية تدهورت مقدرة المؤسسات فيها تدهورا كبيرا في الثلاثين سنة الماضية بالرغم من مساعدات خارجية لها بلغت عشرة بالمئة من دخلها القومي. والسبب في ذلك أن المتبرعين يريدون أمرين قد يتعارضا: يريدون تطوير المؤسسات التي تساعد على توزيع دواء لمرض الإيدز مثلا، لكنهم يريدون أيضا أن يضمنوا وصول الدواء إلى المستفيدين منه. وبما أنهم لا يثقون بقدرة المؤسسات القائمة على القيام بهذا الأمر فإنهم كثيراً ما يتولونه هم فيأخذون أحسن ما عند المؤسسات المحلية من موظفين بإغرائهم بالمال، فيزيدون بذلك من ضعفها بل قد يحطمونها.

٢) الدول الضعيفة وثقب الإدارة العامة الأسود:

قلنا إن تصميم المنظمات وإدارتها هو أكثر جوانب المؤسسات قابلية لأن يُنقل عبر كل الثقافات. لكننا نقول إنه حتى في هذا المجال الضيق ليس هنالك قاعدة عامة نقول إنها صالحة لكل النظم، وعليه فإن موضوع الإدارة العامة يظل فناً أكثر منه علماً. ولذا فإن قضية تطوير النظام تبقى قضية محلية.

إن التنظيمية مع غناها وتشعبها تدور كلها حول مسألة واحدة هي تفويض سلطة التصرف. هذا التفويض أمر ضروري؛ لأن اتخاذ القرار يحتاج إلى معلومات. ولكن من المتعذر أن تجتمع كل المعلومات اللازمة عند المسؤول الأول، ولذلك لا بد له من أن يُنيب

عنه من يتخذ القرار ممن يعلم أن المعلومات متوفرة لديه. لكن المشكلة هي أن النائب لا يتصرف دائماً باعتباره ممثلاً للمسؤول، بل يدخل في تصرفه مصالحه الشخصية نشأت بسبب ذلك نظرية فرعية عن العلاقات بين الأصل (أو الرئيس أو المسؤول) وبين النائب (أو الوكيل أو العميل).

هنالك نظرية تقول إن الذي يحرك الفرد في عمله داخل المنظمة هو مصلحته الفردية. نشأ فرع من هذه النظرية لفهم العلاقة بين مصلحة الفرد ومصلحة النظام الذي يعمل فيه. من وسائل هذا التوفيق أن يكون عمل الأفراد عملاً تسهل مراقبته، ثم يثاب عليه الفاعل أو يعاقب. لكن مع هذا يصعب أن يقال ما التنظيم الأمثل بالنسبة للمؤسسات وذلك لأسباب ثلاثة:

١. كثيراً ما تكون أهداف المنظمة غير واضحة أو متناقضة.

٢. المراقبة الرسمية لأنشطة العاملين قد تكون متعذرة إما لتكاليفها الباهظة أو لعدم الدقة في تحديد النشاط الذي يراقب. ولذلك فإنه كثيراً ما تلجأ المنظمات إلى وسائل غير رسمية.

٣. درجة التفويض المناسبة تعتمد على عوامل داخلية وخارجية تواجهها المنظمة بعد كل فترة.

العوامل الاقتصادية المؤثرة في نشاط العاملين بالمؤسسة:

«أسمى الكاتب هذا المبحث بإعادة اكتشاف العجلة لأن الأفكار التي فيه كانت شائعة قبل ذلك ثم جاءت أفكار مخالفة لها ثم رُجع إليها».

يبنى الاقتصاديون تفسيرهم لنشاط الأفراد الاقتصادي على افتراض أن هنالك دوافع سلوكية عامة في كل البشر. هذا المنهج يصلح إلى حد ما في تفسير نشاط الأفراد في المنظمات عندما يكونون مدفوعين بالمصلحة الشخصية. لكن تصرفات الناس في المنظمات تختلف عنها في الأسواق. فالمعايير والقيم والتجارب المشتركة والعلاقات الاجتماعية القوية تؤثر في عملهم واختياراتهم أعظم من تأثير المصلحة الشخصية. وبما أن كل هذه عوامل متغيرة وتختلف من حال إلى حال فإنه يتعذر تحويلها إلى نظرية عامة للمنظمات. إن الأمر يعتمد كثيرا على الظروف المحلية.

بناء المقدرة في ظروف الغموض التنظيمي: ما يترتب على السياسات.:

هنالك آثار عملية كبيرة تترتب على القول بأنه ليس هنالك منظمات نموذجية. ليست البرامج الناجحة هي التي تستورد من مكان إلى مكان آخر لأن ما ينجح في ظروف محلية معينة قد لا ينجح في ظروف أخرى. إن البرامج الناجحة هي تلك التي تأخذ في الاعتبار كل الظروف المحلية. إن بعض العادات المحلية قد تكون عائقا لتطوير المؤسسات. مثلا إذا كان الناس في بلد يرون أنه من الواجب عليهم أن يقدموا القريب على البعيد مهما كانت العقود الرسمية أو القانونية، فإنه سيلزم عن ذلك بعض الخلل المؤسسي.

إن القول بأنه لا توجد منظمات نموذجية لا يلزم منه اليأس من إصلاح المؤسسات أو الاعتقاد بأن أي شيء يصلح في الإدارة العامة. كلا لأنه إذا لم تكن هنالك ممارسات نموذجية فهنالك بلا شك ممارسات سيئة يجب تجنبها.

٣) الدول الضعيفة والشرعية الدولية:

ناقش الكاتب في الفصلين السابقين الأسباب الداخلية لضعف الدولة القومية التي تفوق تطور الدول الفقيرة وتنميتها الاقتصادية. لكن ضعف الدولة القومية لم يعد شأنا خاصا بها، ولهذا بدأ يحدث إنقاص للدولة القومية وللسيادة، بل بعضهم يهاجم المفهومين نفسهما. لكن من الذي يملك حق أو شرعية انتهاك سيادة دولة قومية وبأي مسوغ؟ هل هنالك مصدر للشرعية الدولية لا يعتمد هو نفسه على قوة دولة قومية؟ وإذا لم يوجد أفلا يكون مثل هذا التدخل تناقضاً؟ هذه القضايا العالمية هي موضوع هذا الفصل.

بعد نهاية الحرب الباردة صارت الدول الفاشلة هي أكبر مشكلات النظام العالمي. وذلك لأنها تعتدي على حقوق الإنسان، وتحدث كوارث إنسانية، وتدفع بأمواج ضخمة من المهاجرين، وتهاجم جيرانها، وتؤوي الإرهابيين العالميين الذين يمكن أن يضروا ضرراً بالغاً بالولايات المتحدة وغيرها من الدول المتقدمة منذ سقوط حائط برلين في عام ١٩٨٩ وإلى عام ٢٠٠١ كانت معظم الكوارث العالمية ناشئة عن الدول الضعيفة أو الفاشية إن إمكانية الجمع بين الإسلام الراديكالي وأسلحة الدمار الشامل أظهرت

فجأة أن حوادث تقع في أماكن قاصية يمكن أن يكون لها تأثير كبير على الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغنية القوية. ولهذا فقد اقتضت الدواعي الأمنية أن التدخل في مثل هذه الدول وتغيير أنظمتها.

بالإضافة إلى الدول الضعيفة والفاشية كانت هنالك أنواع من الحكم تسببت هي الأخرى في عدم الاستقرار العالمي: عدم الديمقراطية والتعددية والمشاركة الشعبية في البلاد العربية مما أدى إلى ركودها، بل تدهورها الاقتصادي. كل هذا حدث في الوقت الذي بدأت فيه هذه البلاد تعاني من زيادة كبيرة من شباب لا يمكن تشغيلهم. كان السبب الأساس لهذه المعاناة الاقتصادية هو عدم تشجيع المبادرات الاقتصادية والأسواق ذات الكفاءة.

وبالنسبة للنزاع الفلسطيني الإسرائيلي كان الخطأ الذي ارتكب في أوسلو هو عدم المطالبة بالمحاسبة الديمقراطية لقيادات المنظمة وعدم المطالبة بإيقاف أنواع الفساد المالي المستشرية فيها على كل المستويات.

الإمبراطورية الجديدة:

بالرغم من أن الولايات المتحدة تنفي أن تكون طامعة في إمبراطورية إلا أن سياستها التي أوضحها الرئيس في خطابه في West Point وفي إستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة تحتم على الولايات المتحدة أن تتولى الحكم في الدول التي تهددها بالإرهاب. لكن الإرهاب ما زال يجد مكانا في بلاد ذات حكومات ضعيفة. إن الولايات المتحدة لا يمكنها أن ترسل قواتها إلى كل دولة تخشى من وجود الإرهابيين فيها ولذلك يجب أن تعتمد على حكومات تلك الدول لتتولى هي محاربة الإرهاب. لكن عجزها عن القيام بذلك يؤكد ما تعرضنا إليه في الفصلين السابقين من وجود ثغرات في المقدرات المؤسساتية.

النخر في مبدأ السيادة:

الحكم الضعيف يقوض مبدأ السيادة لأنه يعجز عن حل مشكلات لها آثار داخلية وخارجية مما يضطر بعض الدول الأخرى للتدخل في شؤون الدولة الضعيفة (وإن كانت كارهة) لعلاج مثل هذه المشكلات. من الحجج التي يسوغ بها مثل هذا التدخل أن الظروف التي وُضع فيها مبدأ السيادة في صلح"وستفاليا" قد تغيرت، فعندما وُضع المبدأ كان هنالك تردد في مفهوم الشرعية. بعد انتهاء الحرب الباردة صار هنالك اتفاق

أكثر في المجتمع الدولي لمفهوم الشرعية السياسية والحقوق الإنسانية. لم يعد من الممكن إعطاء السيادة والشرعية لكل من صار امتلاكه للسلطة في بلد ما أمرا واقعاً. صار من واجب الدول الخارجية التي تعمل باسم الحقوق الإنسانية والشرعية الديمقراطية أن تتدخل. أدي هذا في الواقع إلى ظهور إمبراطورية جديدة وإن كانت باسم الأمم المتحدة. (ومع أن الواضح من هذا الكلام هو إعطاء الشرعية لما قام به بوش في العراق إلا أن الكاتب يسارع فيقول إنه ينبغي أن لا يُفهم كذلك لأن مسألة غزو العراق مسألة معقدة دخلت فيها عوامل كثيرة).

بناء أمة:

لقد صار بناء الأمم هو المشروع الأول بالنسبة للسياسات العالمية سواء كان القصد منه إعادة بناء مجتمعات طغت عليها النزاعات أو مزقتها الحروب، أو لإزالة أرض يفرخ فيها الإرهاب، أو لمساعدة الدول الفقيرة لتنمو اقتصاديا. إذا كان هنالك علم أو فن أو تقنية لبناء الأمم فإنها ستحقق كل هذه الأهداف وسيكون الطلب عليها كبيرا.

يرى الكاتب أن الأوربيين محقون في تمييزهم بين بناء الدول وبناء الأمم. إن الأمة هي نتاج ثقافة وتاريخ لا يمكن لجهة خارجية أن تحققه. أما الدول فيمكن بناؤها.

هنالك ثلاثة أنواع من الدول تحتاج إلى إعادة بناء:

دول تحطمت تحطيماً شبه كامل كأفغانستان فهي بحاجة إلى ضرورات الاستقرار من ماء وكهرباء وشرطة وغيرها. إذا تحقق الأمن تأتي المرحلة الثانية وهي إنشاء مؤسسات قادرة على الاستمرار بعد خروج القوة الأجنبية. أما النوع الثالث من الدول فهو تلك التي لها مؤسسات لكنها لا تستطيع القيام ببعض المهام مثل حماية الممتلكات والتعليم الأساس.

لقد ارتكبت الولايات المتحدة ومن معها من المجتمع الدولي أخطاء جسيمة في الماضي في محاولتها لبناء الأمة في بنما والصومال وهايتي والبوسنة، لكن إدارة الرئيس بوش لم تستفد منها بل كررتها في أفغانستان والصومال. الذي حدث هو أن الولايات المتحدة والمجتمع الدولي لم ينجحا في مساعدة مثل تلك الدول على أن تكون لها القدرة على الاستمرار بل إنها في كثير من الأحيان جعلتها أضعف مما كانت. لكن هذا لا يعني أن المحاولات لم يكن لها داع لأن التدخل كان في أساسه لأسباب إنسانية.

المشروعية الديمقراطية على المستوى العالمي:

قليلون الآن هم الذين يدافعون عن مبدأ السيادة في شكله الخالص. لكن القضية هي من الذي له أن يقرر انتهاك السيادة وعلى أي أساس. الأوربيون لا يقرون انفراد الولايات المتحدة بمثل هذا القرار ويرون أنه لا بد من إيجاد نظام عالمي قائم على قاعدة ومناسب مع ظروف عالم ما بعد الحرب الباردة. إنه يزعجهم إعلان الرئيس بوش عن مبدأ فضفاض للمبادرة بالهجوم ضد الإرهابيين أو الدول التي تدعم الإرهاب تكون الولايات المتحدة فيه هي وحدها التي تقرر أين ومتى تلجأ إلى استعمال القوة. هذا معناه أن الولايات المتحدة تطلب من المجتمع الدولي أن يفوضها هي وحدها في اتخاذ مثل هذا القرار لأنها لا تقبل أن تمارسه دولة كروسيا مثلا يرى بعض المفكرين الأمريكان أن من أسباب هذا الخلاف أن الأوربيين بما أنهم أضعف من الولايات المتحدة فإنهم يرون أن من مصلحتهم التقيد بمعايير و بقواعد عالمية تكون ملزمة لأمريكا. أما أمريكا فترى أن من مصلحتها الانفراد بالقرار لأنها أقوى من غيرها سلاحا واقتصادا وتقنية.

ما بعد الدولة القومية:

ما مصدر الشرعية على المستوى العالمي؟ يرى الأمريكان أنها في جذر إرادة الدول القومية الدستورية. ويرى الأمريكان أن أساسها هو مبادئ ليبرالية أعلى من قوانين أو قرارات الدولة القومية. يرى الأوربيون أن كون القرار اتخذ بحسب الإجراءات الديمقراطية لا يعنى كونه موافقا لتلك القيم الليبرالية. لكن الاعتقاد في مثل هذه القيم المجردة قد يكون هو نفسه سبباً في سوء استعمال النخب لها لأنه سيعطيها الحق في أن تفسر إرادة المجتمع الدولي بحسب ما يروق لها. المشكلة الثانية بالنسبة للمفهوم الأوروبي هي من الذي يملك قوة التنفيذ. إن (المجتمع الدولي) وهمٌ لا حقيقة له في الواقع فيما يتعلق بقوة التنفيذ لأن هذه إنما تملكها الدولة القومية.

٤) أصغر حجماً ولكنه الأقوى:

على مدى جيل بكامله، كان هنالك اتجاه لإضعاف الدولنة (stateness). وقد طرأت هذه النزعة لاعتبارات قياسية واقتصادية. فالكثير من الدول في القرن العشرين كانت قوية للغاية: حيث كانت تضطهد الشعوب، وتعتدي على الجيران. ولم تكن تلك الدول دكتاتورية، ومع ذلك أعاقت النمو الاقتصادي وعملت على تراكم سلسلة من حالات الاختلال الوظيفي وعدم الكفاءة بسبب الإفراط في تدخل الدولة في كثير

من المجالات. ولذلك أدى هذا الاتجاه إلى تقليص حجم قطاعات الدولة والتوجه نحو السوق أو الاتجاه إلى مهام المجتمع المدني التي خصصت بأسلوب غير ملائم. وفي نفس الوقت، نمو الاقتصاد العالمي بات يؤدي إلى تآكل استقلالية الدول ذات السيادة، وذلك بزيادة وتيرة انتقال المعلومات، ورأس المال، وكذلك العمل بقدر أقل.

وقد كانت هذه التغييرات بشكل عام ذات مردود إيجابي وفي المصلحة، وأجندة تقليص مجال هيمنة الدول القومية لا يزال نموذجاً حياً في أجزاء كثيرة من العالم: فالركود الذي ظهر في اليابان خلال عقد التسعينيات، وأزمات الأمن الاجتماعي التي ستظهر في كثير من دول الرفاهية في أوربا في القرن الحادي والعشرين مرتبطة إلى حد كبير بتدخلات القانون والدولة في اقتصاديات هذه الدول.

وفي فترة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، فإن الموضوع الرئيس للسياسة الدولية ليس هو كيفية تقليص الدولة (stateness)، بل هو كيفية بنائها. فبالنسبة للمجتمعات الفردية والمجتمع العالمي، فإن إضعاف الدولة ليس من مقدمات الدولة المثالية، بل هو من بوادر الكارثة. والقضية الخطيرة التي تواجه الدول الفقيرة والتي تحد من قدرتها على تحقيق التنمية الاقتصادية، هو ذلك المستوى غير المناسب من التنمية المؤسسية. حيث أنها ليست في حاجة إلى دول كثيرة، بقدر حاجتها إلى دول قوية وفاعلة في إطار النطاق المحدود لمهام ووظائف الدولة.

وفي النظام العالمي، تعرضت الدولنة (stateness) إلى الهجوم والتآكل من الناحية الفعلية وذلك لعدة أسباب. حيث أن جميع الدول في العالم الثالث ضعيفة، ونهاية الحرب الباردة أدت إلى ظهور مجموعة من الدول الضعيفة التي تعاني من المشاكل، من أوروبا إلى جنوب آسيا. وقد شكلت هذه الدول الضعيفة تهديداً على النظام العالمي لأنها مصدر للنزاعات، والانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان، ولأنها أيضاً ستصبح مرتعاً محتملاً لنوع جديد من الإرهاب الذي يمكنه الوصول إلى العالم المتقدم. وتقوية هذه الدول بأشكال مختلفة من بناء الدولة، باتت مسألة حيوية للغاية بالنسبة للأمن العالمي، ولكنها تحت هيمنة عدد قليل من الدول المتقدمة. ولذلك، فإن تعلّم كيفية بناء الدولة بطريقة أفضل، مسألة مركزية لمستقبل النظام العالمي.

وبالرغم من أننا لا نريد العودة إلى عالم القوى العظمى المتصادمة، إلا أنه يجب أن نتنبه للحاجة إلى القوة. وإن ما تفعله، وتقدر عليه الدولة دون غيرها هو تجميع وتوزيع

السلطة الشرعية بشكل هادف. وهذه السلطة ضرورية لتقوية حكم القانون على المستوى الداخلي، وهي مهمة أيضاً للمحافظة على النظام على مستوى العالم. والذين طالبوا "بفجر السيادة" سواء كانوا من أنصار نظام الأسواق الحرة على اليمين أو النظام القائم على التعدد من اليسار- يجب تبيان ما سيحل محل سلطة الدولة القومية ذات السيادة في العالم المعاصر (أنظر إيفانز١٩٩٧). غير أن الذي ملأ هذا الفجوة من الناحية الفعلية هو خليط متنافر من المؤسسات متعددة القومية، والمنظمات غير الحكومية، والمنظمات الدولية، وتكتلات الجريمة، والجماعات الإرهابية وما شابهها من التي تملك قدر معين من القوة أو تلك التي تتمتع بشيء من الشرعية، ولكن من النادر أن تجمع بينهما في آن واحد. **وفي غياب إجابة واضحة، فليس أمامنا من خيار آخر إلا العودة مرة أخرى إلى الدولة القومية ذات السيادة، وأن نحاول مرة أخرى فهم الكيفية التي تعيننا على أن نجعلها قوية وفاعلة.**

ومن الناحية الأخرى، فالقوة العسكرية التي نربطها عادة بالدولة القومية، من الواضح أنها ليست كافية لتلبية احتياجاتها. والأوربيون محقون في أن يكون لديهم بعض من أشكال القوة الناعمة، كبناء الدولة التي يمكن الاعتماد عليها. ويجب على الدول أن تكون قادرة على بناء مؤسسات الدولة ليس ضمن حدودها وحسب، بل في الدول الأخرى التي تعاني من المخاطر وعدم النظام. ففي السنوات الماضية كانت بعض الدول تفعل ذلك بشكل متزامن باحتلال الدولة ومن ثم إضافتها إلى إمبراطوريتها إدارياً. والآن نصر على أننا نسعى لنشر الديمقراطية، والحكم الذاتي، وحقوق الإنسان، وأن أي محاولة لحكم الآخرين هي مجرد فعل مؤقت بدلاً من أن يكون طموحاً إمبريالياً. وسنرى ما إذا كان الأوربيون يجيدون رسم هذه الدائرة أفضل من الأمريكيين. وعلى أية حال فإن فن بناء الدولة سيكون المكون الرئيسي للسلطة القومية، وهو مهم تماماً كأهمية القدرة على نشر القوات العسكرية التقليدية من أجل المحافظة على النظام في العالم..

* * * * *



العلوم الطبيعية

أولاً: المقالات

المقالات عن العلوم الطبيعية التي نشرت في مجلة البيان حسب تاريخ نشرها:

١-حقائق العلوم التجريبية ...حقائق شرعية:

مجلة البيان ١٤٩ محرم ١٤٢١ ابريل ٢٠٠٠م

يبين الشيخ -حفظه الله- الخطأ الشائع على ألسنة الكثير من المتدينين القول بأن الحقائق العلمية (ويعنون بذلك حقائق العلوم الطبيعية) حقائق متغيرة، فما يثبته العلم اليوم ينفيه غداً، وما ينفيه اليوم يثبته غداً. لذلك يجب ألا يكون لها اعتبار في فهم الحقائق الدينية الواردة في الكتاب والسنة، وألا تستخدم دليلاً على الإعجاز العلمي. لكن إطلاق القول بتغير الحقائق العلمية إطلاق غير صحيح، بل هو خطأ محض؛ وذلك لأن العلوم الطبيعية كما هو معروف منها ما هو حقائق جزئية تقوم عليها أدلة حسية أو عقلية قاطعة، ومنها ما هو حقائق جزئية، أو قوانين عامة تقوم عليها أدلة راجحة لا قاطعة، ومنها ما هو نظريات هي المعرّضة للتغير، ولا سيما ما كان ذا دليل غير قوي فحقائق العلوم التجريبية كلها الطبيعية أو الاجتماعية أو النفسية التي شهد لها الحس أو العقل شهادة قاطعة هي حقائق شرعية. بل إن ما قام عليه منها دليل راجح وإن كان غير قاطع، هي مما يعد بميزان شرعنا علماً يعمل به ثم يذكر الشيخ حفظه الله الأدلة على ذلك.

٢-علاقة العلم بالدين:

مجلة البيان ٢٣٨ جمادى الآخرة ١٤٢٨ يوليو ٢٠٠٧م

بين الشيخ في هذا المقال أنه بسبب العبث في ترجمة بعض الكلمات المهمة مثل كلمة (العلم) أدى هذا إلى خلط تصوُّري عظيم ولا سيما في العلاقة بين العلم والدين. إن كلمة (العلم) من أهم الكلمات القرآنية وأكثرها وروداً في الكتاب العزيز، لكنها عندما أُعطيت ذلك المعنى الخاص - معنى كلمة سينس - حدث لَبْسٌ عظيم من أمثلته: أننا صرنا نسمع بعض الناس يقولون: هذه مسألة علمية لا دينية. بل سمعنا من يقول: إن القرآن كتاب هداية لا كتاب علم ثم استطرد الشيخ في بيان هذه القضية.

* * * * *

ثانياً: المحاضرات

إسلامية العلوم وموضوعيتها

مجلة المسلم المعاصر السنة الثالثة عشرة، العدد الخمسون ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الآخرة ١٤٠٨هـ، الموافق ديسمبر١٩٨٧م، يناير، فبراير.

النظرة الساذجة الشائعة حتى بين كثير من المثقفين منا، بل ومن المثقفين الغربيين، بل وحتى بين كثير من المشتغلين بالعلوم سواء منها الطبيعي والاجتماعي تقول إنّ للعلم منهجاً واحداً متفقاً عليه بين كل العلماء الذين يدرسون الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية دراسة علمية، وأن هذا المنهج يُمكّن سالكه من الوصول إلى الحقائق الواقعية وتصويرها كما هي تصويراً أميناً، وتفسيرها التفسير الصحيح الذي يتناسب معها، تصويراً وتفسيراً لا علاقة لهما بمعتقدات العالِم الباحث المفسر، ولا بآرائه الفلسفية، أو قيمه الخُلقيّة أو أهدافه الذاتية، أو حقبته التاريخية، أو بيئته الثقافية. ويظن كثير من عامة المثقفين الذين لا يشتغلون بهذه العلوم، ولا يعرفون شيئاً عن تاريخها وفلسفتها أن أصحابها لا يختلفون فيها اختلاف الفقهاء الذين يكثرون من ترديد عبارة (في المسألة قولان) .وهذا يعني أن قضية المنهج العلمي قضية قد بُتّ فيها ولم تعد تحتاج إلى نظرٍ جديد، وأنه ما علينا إذا أردنا أن نكون علماء، إلا أن نعرف هذا المنهج ونلتزم به في المجالات التي نريد دراستها لكي نصل إلى حقائقها وندرك تفسيرها. هذه النظرة الساذجة للموضوعية هي سرٌ من أسرار تلك الصدمة الشديدة، والحسرة البالغة التي شعر بها كثير من المثقفين في عالمنا الإسلامي إثر سماعهم بالدعوة إلى إسلامية العلوم .لقد سوّل لهم شيطان تلك النظرة أن الدعوة إلى إسلاميّة العلوم لا تعدو أحد أمرين:

(أ) أن تكون مظهراً من مظاهر النظرة الدينية الضيقة المتزمتة التي أفسدت علينا - بزعمهم- حياتنا الاجتماعية والسياسية وتريد الآن أن تمد يدها إلى الحقائق الموضوعية العلمية فتزيفها بأن تلوي أعناقها لتتواءم مع دعواها الدينية .فمشروع إسلامية العلوم حسب هذه النظرة هو أشبه ما يكون بفعل عالم الأحياء السوفيتي لايسنكو الذي حاول أن يجعل علم الأحياء موافقاً للأيدلوجية الشيوعية فأنكر بعض الحقائق المتعلقة

بعلم الوراثة واستغل منصبه الإداري ليمنع نشر أي دراسة تخالف نظرياته، فأدّى ذلك إلى تدهور هذا العلم في البلاد الروسية حتى اضطرت الدول الشيوعية فيما بعد إلى تدارك الأمر فأفسحت المجال للعلماء لكي يعبروا عن اعتقادهم بصحة ما أنكر لايسنكو.

(ب)- أن تكون دعوة جوفاء لا حاصل لها إلا تبديل أسماء بأسماء، أي أن الداعي إلى الإسلامية في أي علم من العلوم سيأخذ بما قال الغربيون من حقائق، وبتفسيرهم لتلك الحقائق أو بأخذ منهجهم العلمي في إدراك الحقائق الطبيعية والاجتماعية، ثم يُسمّى ذلك علم نفس أو اقتصاد أو اجتماع إسلامي.

ما جوابنا عن هذا؟ هل نُسلّم بصحة تلك الصورة الشائعة فيلزمنا إذن أن نلتزم نتائجها؟ أم ننكرها كلها فنقول إن هذه العلوم لا تقوم على شيء من الموضوعية، وإنها لا تعدو أن تكون وجهات نظر في العلم كتب لها أن تسود لأسباب اجتماعية تاريخية لا علاقة لها بصلب العلم؟ أم أن هناك مخرجاً ثالثاً؟ هذه هي القضية .

صورة العلم الواقعية:

يحسن قبل أن نصدر حكماً على صحة الصورة الشائعة أو خطئها وقبل أن ندعو إلى بديل لها أن ننظر في واقع هذه العلوم كما يمارسها أصحابها حسبما وضعها مؤرخوها وفلاسفتها وبعض المشتغلين بها من العلماء الغربيين .فأول ما نبدأ به القول بأنه إذا كان المقصود بالتجرد من الاعتقادات والميول والأفكار أن يخلي العالم ذهنه من كل هذا ويُقبل على بحثه بعقل مجرّد، فهذا شرط يستحيل تطبيقه، وعلى فرض إمكانه فإنه لا يكون شرطاً لحصول العلم بل سببًا في عدم حصوله .أقول إنه شرط مستحيل التطبيق لما يعلمه كل إنسان عن نفسه من أنّه لا يستطيع أن يكف لحظة واحدة وهو يقظان عن حديث مع نفسه أو حديث مع غيره وكلا الحديثين صادر عن أفكار واعتقادات، فكيف والقضية التي يبحثها العالم قد تستغرق منه أشهراً بل سنين؟ فهل يستطيع أن يكف طيلة أيام بحثه هذه عن حديث مع نفسه أو مع زوجه وأولاده وأصدقائه وزملائه؟ وهو سبب في عدم حصول العلم، لأنّ العِلم وإن سُمِّيَ تجريبياً إلا أن التجربة والمشاهدة لا تكون -كما يُنبّه إلى ذلك المختصون المناهج العلمية- إلا في ضوء

سؤال أو افتراض. إن العالِم لا يبدأ بحثه بالمشاهدة ولا بالتجربة، ماذا يشاهد؟ وماذا يجرب؟ إنه يبدأ بفكرة ثم يشاهد من الطبيعة أو المجتمع ما يراه متعلقاً بتلك الفكرة أو يجري تجربة معينة ذات علاقة بإثبات تلك الفكرة أو نفيها .ولأن العلم كما يقولون أمر تراكمي أي أن الجديد المكتشف منه يضاف إلى قديم سبقت معرفته. بل إن القضية الجديدة التي يُراد البحث فيها إنما تنشأ عن معرفة سابقة، والتجربة التي تجري تفترض صحة معلومات سابقة، فلو أن كل باحث بدأ تجربته وهو خال الذهن حتى من تلك المعلومات الخاصة بمجال بحثه لما نمى العلم وما تطور .وأما إذا كان المقصود بالتجرد أن يكون الإنسان مستعداً لأن يقبل ما دلت عليه المشاهدة وما كان نتيجة للتجربة أو لازماً عقلياً من لوازمها، وأن يكون أميناً في نقل ما جرّب وشاهد واستنتج وإن خالف ذلك اعتقاداً سابقاً له أو للمجتمع الذي يعيش فيه، وأما إذا كان المقصود به أن يشاهد الإنسان ويجرب بذهن متفتّح غير مقيد باعتقادات في باطنه تحدد له ما يمكن وما لا يمكن أن يكون، وما يصح وما لا يصح من التفسيرات، فهذا أمر ممكن مرغوب فيه بل هو في رأينا المثل الأعلى للمنهج العلمي. ولكن المثل الأعلى شيء وممارسات العلماء الواقعية شيء آخر، كما ثبت ذلك لمؤرخي العلوم وفلسفتها من الغربيين، ولعلنا نستطيع أن نجعل ما تقرّر في هذا المجال في أن العلماء الغربيين كانوا دائما يضعون أنفسهم -عن وعي منهم أو غير وعي- في داخل أطر أيديولوجية ويتأثرون ببيئاتهم الاجتماعية وحقبهم التاريخية.

أطر العلم الأيديولوجية:

تختلف هذه الأُطر في سعتها وشمولها: فهنالك الإطار العام الذي يحدد للإنسان تصوّره العام للوجود، وهناك أُطر مختلفة داخل هذا الإطار الكبير بحيث أن الذين يشملهم هذا الإطار قد يختلفون في انتماءاتهم .في ضوء الإطار الكبير الذي يمثل ما يسمّى في الاصطلاح الحديث بفلسفة الإنسان في الحياة، يتحدد اعتقاد الناس لما هو موجود وما ليس بموجود ثم يتحدد تبعاً لهذا مفهومهم للعلم والمنهج العلمي والتفسير العلمي وما إلى ذلك من مفهومات أساسية. فالعلم هو العلم بنوع الموجودات التي حددها الإطار، والمنهج العلمي هو المنهج الذي يوصلنا إلى معرفة هذا النوع من الموجودات،

والتفسير العلمي هو الذي يعدّ ما يحدث لبعض هذه الموجودات أثراً لموجودات أخرى من نوعها. وعليه فكل كلام عن موجودات غير التي حددها الإطار فهو كلام غير علمي، وكل ما يدّعى أنه حق فلا بد أن يأتي عن طريق هذا المنهج العلمي، وإلا فهو دعوى بغير دليل، وكل تفسير لظاهرة من الظواهر التي حددها الإطار بسبب خارج عن نطاق الموجودات التي اعترف بها فهو تفسير غير علمي .إذا ما ساد إطار ما في بيئة ما أو عصر ما، وتربّى عليه الصغار وشاب عليه الكبار غفل معظم العلماء وطلاّب العلم عن أنهم يعملون داخل إطار حددته لهم نظرة ما وراثية، وأعطَوا مفهومات العلم والمنهج والتفسير العلمي التي درجوا عليها صفة الإطلاق والعموم، وحسبوا أنها دون غيرها هي المفاهيم الصحيحة التي يجب على كل مبتغ للبحث العلمي أن يلتزم بها، وإلا فما هو بعالم. وعليه يصبح من اللازم على كل من يريد الانضمام إلى زمرة العلماء في تلك البيئة أو ذلك العصر، أن يعمل في داخل هذا الإطار، حتى لو لم يكن مؤمناً به، وإلا كان من المبعدين عن زمرة العلماء ولا يكون إبعاده -خصوصاً في المجتمعات الديمقراطية- بقرار سياسي، ولكن بما يسمّى بالإرهاب الفكري، والاستغراب وربما المقاطعة والسخرية، إلى أن يأذن الله بأن يستبدل الإطار الفلسفي إطار جديد.

ما الإطار الفلسفي العام الشائع في عصرنا الآن، والذي يعمل في داخله علماء الطبيعة والإنسان؟

لكي نجيب عن هذا السؤال ينبغي أن نتذكر أن هذه العلوم وإن تكن قد انتشرت اليوم في العالم كله، إلا أنها في منشئها -ومن غير إنكار للجهود التي سبقتها وأهمها جهود العلماء المسلمين- عمل أوروبي وما زالت قيادتها الفكرية عند الغربيين .ينبغي أن نتذكر أن هذه العلوم لم تستوِ على سُوقِها وتُؤتِ أُكُلَها إلا بعد معارك عنيفة مع الدين النصراني ممثلاً في الكنيسة ورجال الدين، وأن هذا الدين كان فيه شيء من الحق المختلط بكثير من الأباطيل، وأن العقائد الدينية فيه كانت ممتزجة بالاعتقاد في **السحر والكهانة**، وأن القائمين على هذا الدين من رجال الكنيسة كانت لهم مصالح دنيوية في أن ينفردوا بالسلطة التي يُرجع إليها في الأمور العلمية، وأنه لما تغلب العلم الجديد في النهاية على النصرانية عُدّت غلبته عليها غلبة على كل تفسير خرافي لظواهر الطبيعة، وعدّ الدين أيّاً كان أحد هذه التفسيرات لا فرق في ذلك بينه وبين

السحر والكهانة والتنجيم وما إليها .جاءت هذه العلوم إذن نتيجة صراع مع الدين، وكانت كلما انتصرت عليه في معركة أمعنت في البعد عنه، حتى أسس بنيانها في النهاية على قواعد مخالفة لقواعده، كأن مؤسسيها كانوا يعتقدون أن كل قرب من الدين هو ابتعاد عن الطريق الصحيح للعلم بحقائق الوجود. ولذلك وصفت هذه العلوم بأنه لا دينية أو دنيوية Secular ، في مقابل علم اللاهوت الذي يهتم بالدين وبأمور الآخرة، وسُمِّيَت بالعلوم أو الفلسفة الطبيعية إشارة إلى أن الطبيعة هي مجالها، بل هي مصدرها الذي تأخذ عنه حقائقها، وذلك في مقابل المصادر الدينية من وحي وعلماء الدين .يرى أحد مؤرخي العلوم أن العلم مرّ في تطوره بمرحلتين: أولاهما مرحلة تطور تقني حدث في القرن السادس عشر، وثانيتهما مرحلة ثورة فلسفيّة حدثت في القرن السابع عشر. لكنه يقول: «إن تصوّر المعرفة الذي كان سائداً (يعني في القرن السادس عشر) كان لا يزال مختلفاً اختلافاً جذريًا عن مفهومها اليوم».

ثم يقول في شرحه لذلك المفهوم: «بما أن العالم المحسوس كان متأثراً تأثراً شديداً بالقوى الفاعلة الإلهية والجنيّة والسحرية، كان الغوص في أسراره كذلك آثار من مهمة دنيوية». ثم يقول معلقاً على هذا الذي قرره وهو موضع استشهادنا: "بما أن بعض جذور المفهوم الحديث للعلم كانت في الصراع ضد هذه النظرة إلى العالم، فمن الصعب أن نتصوّر كيف كان من الممكن وجود نظرة علمية في داخلها. وعلى كل فإن المؤرخ يظل حبيس مقولاته المؤقتة إلى أن يتسنّى له الوصول إلى تفاهم مع هذه النظرة».

أما الثورة التي أشار إليها فهي التي قادها بيكون الإنجليزي، وجاليلي الإيطالي، وديكارت الفرنسي وهي التي جاءت بنظرة جديدة إلى الوجود مخالفة للنظرة المسيحية فحواها أن عالَم الطبيعة عالَم ميّت خالٍ من أي خصائص روحية أو شبه بشرية، وأنه ليس من الممكن لذلك أن يكون بيننا وبين الطبيعة أي نوع من الجوار سواء عن طريق الكشف الروحي أو الوحي الإلهي. واتفق جاليلي وديكارت على أن العالَم مكوّن من أجزاء مادية هي من الصغر بحيث لا يمكن أن ترى، وأن الظواهر الكونية كلها هي نتيجة تفاعل بين هذه الأجزاء التي لا إدراك لها ولا هدف، وأن تفاعلها لذلك هو بمثابة التصادم الذي يحدث بين مجموعة من الكرات.

ولكن حتى في ذلك القرن كانت الصلة ما زالت وثيقة بين العلم الجديد والدين، لأن العلماء والفلاسفة كانوا لا يزالون يصفون القوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية "قوانين خلق الله" ولأن روّاد الثورة الفلسفية الجديدة، ونيوتن الذي جاء بعدهم، والذي وضع علم الفيزياء الحديث، كانوا جميعاً من المؤمنين بالدين المسيحي. لم تكن هذه الفلسفة إذن نتيجة العلم الجديد، كما قد يتبادر إلى أذهان الكثيرين، «وإنما كانت تسليماً مسبقاً بمبدأ ميتافيزيقي" هو الذي وضع -مع نهاية القرن السابع عشر- الثقافة الأوروبية، بما في ذلك العلوم الطبيعية على طريقة **العلمانية** الكاملة».

نعود إلى سؤالنا مرة أخرى: ما الإطار الفلسفي الذي تُوضع فيه العلوم في عصرنا؟ إنه كما رأينا:

١) إطار فلسفة لا دينية، فلسفة ترى أن الظواهر الكونية ينبغي أن تفسّر بأسباب من داخل هذا الكون، أي بأسباب طبيعة لا دخل فيها للإرادة الإلهية، ولا للتجارب الروحية. وإذن فعل العالم الطبيعي أن يبدأ باستبعاد مثل هذا التفسير، أي إن عدم فاعلية القدرة أو الإرادة الإلهية ليس شيئاً استنتجه العالِم من دراسته للطبيعة وإنما هو شيء يبدأ بافتراضه ثم يُحاول أن يبنى عليه مشاهداته ونظرياته. هذا أمر يعرفه ويعترف به كثير من العلماء وفلاسفة العلم الغربيين.

(أ) يرى أحدهم مثلاً أن دارون في محاولته إيجاد نموذج لنظرية يفسّر بها تطور الكائنات الحية «كان يبحث عن عملية طبيعية صرفة لا يتضمن أنموذجها تدخل القدرة الإلهية».

(ب) ويرى آخر أن تفسير دوركا يم للظاهرة الدينية بإرجاعها إلى فكرة التضامن مع النظام الاجتماعي مبنيٌ على حجة إلحادية فحواها أن "الأشياء التي يذكرها المنتمون إلى دين ما، يجب أن لا تؤخذ على أنها إخبار عن الله -لأنه من حيث المبدأ- لا يمكن أن يكون هنالك إخبار كهذا". وعليه فيجب تفسيرها بطريقة أخرى، والتفسير الذي يقترحه دوركا يم هو: «أنها تعبير عن الإخلاص للنظام الاجتماعي»

٢) وهي ليست فلسفة لا دينية بمعنى سلبي، بل هي فلسفة معادية للدين ينتقده أنصارها باسم العلم، ويهاجمونه ويسعون لمحاصرته، ويعملون جاهدين على إبعاده عن مجال العلم، ويحرصون على رفض كل نظرية علمية يخشون أن يكون فيها شيء من التأييد للدين. يقول فرد هويل أن علماء الأحياء التقليديين لن يقبلوا نظريته في التطور المخالفة لنظرية

دارون، والتي فحواها أن تطوّر الأحياء على أرضنا لا يسير بالمصادفة وبلا هدف كما تدّعي تلك النظرية، بل أن سيره محكوم بقوى واعية خارج أرضنا، يقول إن هؤلاء العلماء لن يقبلوا هذه النظرية، رغم وجود جبال من الأدلة على صحتها، لأنها قد تؤدي إلى إيحاءات دينية، «ولأن العلماء التقليديين مهتمون بمنع الرجوع إلى الغلّو الديني الذي حدث في الماضي، أكثر من اهتمامهم بالتطلع إلى الحقيقة. إن النظرة الجهنمية التي وصفناها آنفاً قد سيطرت على التفكير العلمي خلال القرن الماضي كله».

لكن معظم الباحثين في صلة العلوم الطبيعية أو الإنسانية بوجهات النظر الفلسفية والقيم والمعتقدات الغيبية اكتفوا ببيان هذه الصلة في نظريات علمية معينة، إما لمجرد بيان الأصل التاريخي للنظرية، أو لاتخاذ هذا البيان ذريعة إلى نقد النظرية. وإليكم الآن أمثلة مما قالوا أظن أن بعضها سيكون مثار دهشة للقراء: قالوا إن نظرية مالثس المشهورة التي انتهي فيها إلى أن الفقر والعناء أمور حتمية ناتجة عن أن عدد السكان يزداد بمتواليات هندسية، بينما الموارد الغذائية تزداد بمتواليات حسابية، كانت في الحقيقة احتجاجاً على قوانين صدرت لصالح الفقراء. ثم جاء سبنسر فحوّل نظرية مالثس إلى نظرية في التطور الاجتماعي، فحواها أن الطبيعة تنتخب أو تنتقي الأصلح للبقاء، وتتخلص مما سوى الصالحين، قال: "إذا كانوا كاملين بحيث يصلحون للحياة فإنهم سيحيون، ومن الخير أن يحيوا؛ وإذا لم يكونوا كاملين بما يهيئهم للحياة فسيموتون، ومن الخير أن يموتوا". هذا ما في رأيه هو مجرى الأمور الطبيعي الذي ينبغي أن لا نتدخّل فيه.

أظن أن الكثيرين منكم تذكروا قول الله تعالى عن الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٤٧].

ثم جاء فاستفاد من النظرتين، ففسر التطور في عالَم الحيوان بالانتخاب الطبيعي ثم عاد سبنسر وأصحابه فوجدوا في نظرية دارون تأييداً علمياً لنظريتهم الاجتماعية، التي سُمِّيت بعد ذلك بالدّارونية الاجتماعية، وقالوا إن هنالك صلة بين تفسير دارون للصفات المتفقة وبين المذهب الفردي الذي كان سائداً آنذاك في النظريات السياسية البريطانية،

وأن الأصل في هذا التفسير هو الدفاع عن تقسيم العمل الذي دعا إليه آدم سميث، وأنه بهذا التفسير حوّل نظرية سياسية إلى صورة للعالم الطبيعي.

ولذلك قال انجلز: "إن كل ما فعله دارون في قوله بالصراع من أجل البقاء هو أن حوّل من المجتمع إلى الطبيعة مبدأ هوبز القائل بالمبدأ الاقتصادي البرجوزاي في التنافس، ونظرية مالتس في السُكان ثم لما اكتمل أداء عملية الساحر -هذه- حُولت النظريات نفسها مرة أخرى من الطبيعة العضوية إلى التاريخ وادّعى الآن أن البرهان قد قام على صدقها بكونها قوانين خالدة للمجتمعات الإنسانية ."وقريب من قول انجلز هذا رأي الفلكي الفيزيائي المعاصر فرد هويل الذي يقول في كتاب له حديث "بإمكاني أن أبدا ببياني أن أفكار نظرية دارون كان قد سبق أن احتلت لها مكاناً منذ عام ١٨٣٠م، أي قبل ما يقرُب من ثلث قرن قبل نشر كتاب "أصل الأنواع" لدارون في عام ١٨٥٦م، ولكن بينما كانت الأفكار قد وجدت فإن حال المجتمع لم يكن قد تهيّأ لها .كانت هنالك حاجة إلى تغيير مهم قبل أن تستدعي هذه الأفكار، ثم يبين أن هذا التفسير كان في ظهور الشركات التي كانت تتنافس في تجويد منتجاتها، لأن هذا **التجويد** كان وسيلة البقاء بالنسبة لها.ثم يقول "لقد كانت الخطوة قصيرة من تجربة عملية في التجارة إلى مفهوم تحسين النوع عن طريق الانتخاب الطبيعي، ثم يُعلّق على هذا التشابه تعليقاً مهماً فيقول: "إن كل الناس -إلا قلة من العلماء- أغفلوا خطوة خطيرة في قياس الانتخاب الطبيعي على الانتخاب التجاري. إن الانتخاب التجاري إنما يحدث لأن وراءه عقول بشرية تدأب على تحسين نوع منتجاتها ومداها. الانتخاب التجاري بعيد إذن كل البعد عن الانتخاب الطبيعي، ذلك الشيء الذي لا هدف له كما يفترض في علم الأحياء».

اختلافات داخل الأطر:

وإذا كانت الأطر الأيديولوجية تختلف من عصر إلى عصر، فهنالك اختلافات بين العلماء داخل الإطار الواحد وفي نفس العصر الواحد:

(أ) فهنالك اختلافات وطنية، ومما يذكرونه في هذا المجال مقال كتبه الفيزيائي الفرنسي بيير دويم قارن فيه بين طريقة الفيزيائيين النظريين في كل من بريطانيا

وفرنسا في تناول المشكلات المتعلقة بالنظريات الكهربائية. فأوضح فيه أن الفرنسيين يميلون إلى وضع هذه النظريات في قالب رياضي بينما يميل البريطانيون إلى البحث عن نماذج عملية تساعد على فهم الظواهر الطبيعية بطريقة مرئية أو حسية غير رياضية. وقال إن هذين الاتجاهين ليسا قاصرين على علم الفيزياء بل يشملان مجالات فكرية وحياتية أخرى.

(ب) واختلافات في دلالات التجارب، خذ مثلاً لذلك التجربة التي تجري على الفئران فيما يُسمَى بصندوق اسكنر -نسبة إلى العالم السلوكي الشهير-، هذا صندوق مزوّد بجهاز فيه قضيبين كلما ضغط عليه الفأر سقطت إليه قطعة طعام، فلوحظ أن الفأر يظل يردد ضغطه على القضيب ويأكل قطع الطعام الساقطة إليه حتى إذا شبع كف عن الضغط .يستنتج السلوكيون من هذه التجربة وأمثالها ن السلوك الحيواني -بما في ذلك سلوك الإنسان- يقوم على قاعدتين هما: التنبيه "الضغط على القضيب"، والاستجابة "وصول الطعام."ويستنتجون من ذلك أنه لا داعي لافتراض مؤثرات غير مادية كالقرار والإرادة وحتى العقل .لكن خصوم السلوكيين يقولون إن ما استنتجوه من أمثال هذه التجارب ليس هو كل ما تدل عليه المشاهدة وأن هنالك تجارب أخرى تدل على أن دوافع الأفعال ليست محصورة في توقع هذه الجزاءات المادية. فيقول أحدهم:"إن كل من درس حيواناً في صندوق اسكنر يلاحظ أولاً أن الضغط على القضيب يستغرق أقل قدر من وقت الحيوان، فهنالك بالإضافة إلى هذا أنواع أخرى من السلوك المميز للحيوان، كالجري، والانتصاب على الرجلين الخلفيتين، والاستشمام، واستكشاف الصندوق، إن علماء **النفس** السلوكيين يعتبرون كل نوع من هذه الأنواع السلوكية أجنبياً على موضوع التجربة من الناحية العلمية. «إن السلوك الوحيد الجدير بأن يُشار إليه فيما يبدو هو عدد المرات التي يضغط فيها الفأر على القضيب لينال مكافأة هذا العمل. إن الذي يحدث في هذا الوضع المصطنع هو أن المجرّب قد اعتمد على تعريف انتقائي للسلوك».

وأما إذا أخرجنا الفأر من هذا الوضع المصطنع وتركناه على طبيعته بأن وضعناه على منضدة مثلاً فإن هذا التعريف المنتقى لا يصلح لتفسير سلوكه، ثم يذكر أمثلة أخرى تدل على أن السلوك الحيواني لا يمكن أن يفسّر كله في نطاق أنموذج التنبيه والاستجابة، ثم يقول: "منذ أكثر من خمس وعشرين عاماً والسلوك الإنساني يفسّر على أساس فهم خاطئ لمشاهدة الفئران والجرذان.

(جـ) إن العلوم الطبيعية التجريبية أضبط -كما هو معروف- من العلوم الإجتماعية والإنسانية، وأكثر العلوم الطبيعية دقة وأقربها إلى المثال الرياضي وأساسها وقاعدتها هو علم الفيزياء، لكن حتى هذا العلم المثالي بعيد كل البُعد عن تلك الصورة الساذجة الشائعة. والفيزيائيون بشر يخطئون، بل قد يجمعون على الخطأ لفترة من الزمان، فقد كانوا جميعاً إلى قُرب نهاية القرن التاسع عشر يعتقدون بوجود مادة اسمها الأثير تملأ كل مكان بين الكواكب، وكل مكان بين النجوم، وتُمثّل الوسيط الذي ينقل الموجات الكهرومغناطيسية، حتى لقد قال الفيزيائي الاسكتلندي الشهير ماكسول (الذي اكتشف المعادلات الأساسية التي تحكم القوى الكهربائية والمغناطيسية): «مهما كانت الصعاب التي نجدها في إعطاء صورة متسعة لتكوين الأثير فليس هناك من شك في أن المكان بين الكواكب أو بين النجوم ليس فارغاً بل يحتله جوهر مادي أو جسم هو بالتأكيد أكبر وربما كان أكثر الأجسام التي نعرفها تماثلاً واتساقاً».

وهذا شيء طبيعي، فالذي يُميّز العالِم سواء كان عالِم طبيعة أم مجتمع أم شريعة ليس هو العصمة من الخطأ وإنما الإذعان للدليل والرجوع عن الخطأ. وإذا كان الفيزيائيون يخطئون فإنهم أيضاً يختلفون في تفسيرهم لما يشاهدون ويُجربون، وقد تكون أقوالهم في المسألة الواحدة أكثر من أقوال الفقهاء وأشد تناقضاً، فهؤلاء علماء الميكانيكا الكمية يختلفون في الحقيقة التي تدل عليها حقائقها الواقعية إلى أقوال أوصلها بعضهم إلى ثمانية، فمنهم من يقول إنها تدل على أنه ليس وراء الظاهر الشاهد من حقيقة أعمق، ومنهم من يرى أن الحقيقة تحدثها المشاهدة، ومنهم من يرى أن الحقيقة كلٌّ لا يتجزأ، ومنهم من يرى أن هنالك عدداً متزايداً ومتوارياً من العوالم، ومن يرى أن العالَم مبني على منطق غير المنطق البشري المعهود، ومن يرى أن العالَم مكّون من أشياء مثل الأشياء المعهودة في العالم المشاهد، ومن يرى أن الحقيقة ينشئها الوعي، ومن يرى أن العالَم مزدوج فهو مكّون مما هو بالقوة وما هو بالفعل. والذين قالوا بكل هذه الأقوال والذين قالوا أنه قد تكون الحقيقة مخالفة لكل هذه الأقوال ليسوا فلاسفة ولا رجال دين وإنما هم فيزيائيون مختصون بل إن بعضهم من كبار رجال هذا العلم ومؤسسيه.

مسوّغات إسلامية:

بعض إخواننا من دعاة إسلامية العلوم يعجبهم اعتراف الغربيين هذا بعُسْر الموضوعية أو تعذرها، ويرون فيه أكبر مسوّغ لدعوتهم، فكأنهم يقولون للغربيين: إذا كنتم

تنظرون إلى الواقع من خلال أيديولوجيتكم وفلسفاتكم وتفسرونه في ضوئها، فلماذا تعيبون علينا أن نفعل ما تفعلون؟ هذه حجة ضعيفة غايتها أن تفحم الخصم لكنها لا تصلح أن تكون مسوّغاً لإسلامية العلوم لأنه يلزم عنها:

١- أما القول بعدم وجود حقيقة موضوعية نسعى لإدراكها ولذلك يجوز لكل إنسان أن يقول ما شاء حسب دينه ومذهبه وهواه، وهنا يكون الموقف أسوأ من موقف جماهير العلماء والفلاسفة الغربيين، لأنهم وإن اعترفوا بعُسْر الموضوعية لكنهم لا يقولون باستحالتها.

٢- أو القول بأن هناك حقيقة موضوعية لكنه من المتعذر معرفتها كما هي. بل أنها لا تدرك إلا مصطبغة بصبغة المنظار الأيديولوجي الذي يضعه المشاهد على عينيه.

٣- بل يلزم عنها التشكيك في الحقائق الكبرى التي يقوم عليها الدين نفسه، لأننا لا نريد أن نقول أن الإيمان بالله وبالدار الآخرة وبنبوّة محمد ﷺ إنما هو وجهات نظر لجماعة من الناس يُسمون بالمسلمين، وأنها ليست حقائق موضوعية يمكن أن يُقام عليها دليل عقل صحيح.

إن مسوّغ الإسلامية لا يقوم على التسليم بالنسبية أو القول بالذاتية لأن اختلاف الأطر من عصر إلى عصر، ومن بيئة ثقافية إلى بيئة، ومن حضارة إلى أخرى، لا ينهض دليلاً على المساواة بينهما أو على استحالة تقويمها هي نفسها تقويماً عقلانياً .إن مسوّغ الإسلامية يقوم على الاعتقاد بأن الموضوعية ممكنة، وأن بعض الأطر -بالقياس العقلي- خير من بعض، وأن الإسلامي -بالقياس العقلي- هو خير تلك الأطر وأصلحها. لكن صلاحية الإطار الإسلامي لا تعني أن الأُطرَ الأخرى تحول دون إدراك أية حقيقة بموضوعية أو تصبغها بصيغتها، لأن الإنسان مهما بلغت اعتقاداته من الفساد يظل قادراً على إدراك بعض الحقائق واكتساب نوع من العلم، يقول الله تعالى عن منكري الآخرة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧]. فهم إذن يعلمون شيئاً مما يتعلق بالحياة الدنيا رغم حبسهم لأنفسهم في إطار لا يعترف بوجود دار آخرة. لكن هذا الإطار يحول دونهم ودون إدراك حقائق أخرى.. ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠] ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾؛ بلى كانوا يرونها وكيف لا يرى ذو عينين قرية وهو يمر

عليها؟ إنهم يرونها فيعلمون شيئاً هو الذي وصفته الآية الأولى بالعلم الظاهر، لكن إنكارهم للآخرة يحول دونهم ودون تفسير هذا الذي يرونه تفسيراً صحيحاً، يحول دونهم ودون إدراك ما يدل عليه ويشير إليه هذا الواقع المشاهد. وعدم الإدراك هذا نقصان في العقل سببه ذلك الإطار الذي يُنكر الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ﴾ [العنكبوت:٣٥]، أي من تلك القرية، آيَةً - أي دليلاً وشاهداً -﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فرؤية ما بقى من القرية على أنه آية يحتاج إلى كمال في النظرة العقلية لا يتأتى لمن يحبس نفسه في إطار أيديولوجي لا مجال فيه للآخرة .في ضوء هذه الحقيقة يمكن أن نجيب على شبهة كثيراً ما تُذكر لتأييد الإطار الإلحادي أو لإنكار الإطار الإيماني. يقول أصحاب هذه الشبهة: «إن العلوم الطبيعية قد حققت إنجازات كبيرة»، فنقول نعم.

ويقولون: «ولو لم تكن قائمة على حق في تقريرها للواقع وفي تفسيرها له لما نتجت عنها هذه الإنجازات؟" ثم يخلصون إلى القول بأن هذا دليل على صحة الإطار الإلحادي الذي وضعت فيه أو يدل على أقل تقدير على أن هذا الإطار هو الإطار المناسب لمثل هذه العلوم وإن كانت له مشكلاته في مجالات أخرى .هذا الكلام يصح حجة على من يزعم أن الملحد لا يمكن أن يدرك أي نوع من العلم. وقد قلنا بغير ذلك .ويصح لو ثبت أن ما أدرك في حيّز الإطار الإلحادي من علوم لا يمكن أن يدرك في حيز الإطار الإسلامي ولا دليل على ذلك.إن الكافر والمؤمن كليهما يعلمان بوجود الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والأشجار والأنهار، ويعلمان كثيراً من الأسباب الطبيعية ويأخذان بها، فهنالك إذن علم مشترك بين الإطارين.

وإذن فما يعترف به الإطار الإلحادي من حقائق ليس شيئاً خاصاً به أو ناتجاً عنه وحده، وإنما هو أمر مشترك بينه وبين الإطار الإيماني لأنه ليس في الإطار الإيماني ما يمنع من إدراك أية حقيقة تدرك في حيز الإطار الإلحادي .لكن ميزة الإطار الإيماني -وهو إطار العقل الكامل- أنه يساعد على إدراك حقائق ومؤثرات وتفسيرات أخرى لها نتائج نافعة في حياة الناس العلمية والعملية والنفسية لا مجال لها داخل الإطار الإلحادي. والدعوة إلى إسلامية العلوم هي إذن دعوة إلى تأكيد الموضوعية لا إلى التخلّي عنها، لأنها دعوة إلى أن يكون إطارها الفلسفي نفسه قائماً على حقائق موضوعية، إنها دعوة إلى أن يفكر العالِم ويشاهد ويجرب ويستنتج وهو مؤمن بالله، وبأن محمداً رسول الله

صلى الله عليه وسلم، وأن القرآن كلام الله، لأن هذه نفسها حقائق موضوعية عنده دليل عقلي على صحتها، إنها ليست دعاوى اعتقادية بل هي إيمان بقوم على علم ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]. وإذا كان بعض الناس لا يؤمن بهذه الحقائق لجهلهم بها أو لعنادهم، فإن الباحث المسلم لا يرجئ إيمانه بها حتى يذعن الآخرون جميعاً ويسلموا، كما أن أصحاب الإطار الإلحادي لم ينتظروا حتى يصير الناس جميعاً ملحدين. بل أن إيمانه بها وإعلانه لهذا الإيمان وهو يبحث ويفكر ويجرِّب ويكتب ويناقش سيكون من أقوى الأدلة على أنه لا تناقض بين البحث العلمي والاعتقاد الديني الإسلامي، بل إن ما ينتج عن الالتزام بهذا الإطار من ثمار علمية واقعية ونظرية سيكون هو نفسه من أقوى الأدلة على فضله وتفوقه على الإطار الإلحادي المادي.

وإذا كان المسلمون الممارسون للعلم سيفعلون ذلك وهم متفقون على صحة الإطار الإسلامي، فإن إخوانهم المشتغلين بفلسفة العلوم وتنظيرها ومناهجها، أو الجامعيين بين الأمرين جميعاً سيهتمون بالحديث عن هذا الإطار وإثبات حقائقه وبيان فضله على غيره من الأطر، أي أن ما كان يُسمَّى بعلم الكلام أو علم أصول الدين سيكون كثير منه جزءاً مما يُسمَّى اليوم بالفلسفة العلمية. وهذا لم يُعد اليوم أمراً غريباً .لقد تطورت بعض العلوم -سيما الفيزياء والأحياء- إلى حدٍ جعل كثيراً من المشتغلين بها يضيقون بالإطار المادي، ويفتحون باب الحديث مرة أخرى عن دلالتها على وجود الخالق سبحانه وتعالى، وقد كان مجرد الحديث في هذه الأمور يُعد -إلى عهد قريب- نوعاً من الخيانة للعلم، بل كان يقال أن السؤال عن وجود خالق للكون سؤال غير مشروع فضلاً عن أن تكون له إجابة صحيحة أو خاطئة .وحين يُبيِّن المُنظِّر أو الفيلسوف المسلم فضل الإطار الإسلامي على غيره فإنه لا يتحدث لإخوانه المسلمين فحسب، ولا يقول إن الإطار الإسلامي صالح لعلم دون علم، أو لأمة دون أخرى، بل إن هدفه أن يُبيِّن صلاحية هذا الإطار للبحث العلمي أيّاً كان، وللباحث أيّاً كان.

وعليه فمن الخطأ أن ينظر إلى إسلامية العلوم على أنها علوم خاصة بالدين الإسلامي، أو بأحوال المسلمين الراهنة، أو بتاريخهم، فهذا خطأ؛ أولاً لأنه يُسلِّم بصحة

النظرة النسبية، فكأنه يقول للغربيين أن نظرياتكم في العلوم الإنسانية صالحة لمجتمعاتكم ونظرياتنا صالحة لمجتمعاتنا. إن العالم الغربي الذي يؤمن بالموضوعية يعتبر نظريته صالحة لتفسير الظواهر التي يتحدث عنها حينما وُجدت، ولا يعتبر علمه خاصاً بالمجتمعات الغربية، كما أن زميله في العلوم الطبيعية لا يعتبر علمه عِلماً غربياً بمعنى أنه يصلح للغربيين وحدهم، أو يفسّر الظواهر الطبيعية المتعلقة ببلادهم. إن عالِم الاجتماع الغربي يعتبر "القوانين" التي توصّل إليها؛ قوانين للمجتمعات الإنسانية أيّاً كانت، ونحن كذلك نريد أن نضع أنفسنا في الإطار الإسلامي ونحن نبحث في علوم الفيزياء والكيمياء وسائر العلوم الطبيعية، وأن نضعها في هذا الإطار ونحن نبحث في علم النفس الإنسانية وعلم الاجتماع الإنساني وعلم الاقتصاد الإنساني وعلم التاريخ الإنساني، لا نفوس المسلمين ومجتمعات المسلمين واقتصادهم وتاريخهم فحسب.

إن **القرآن الكريم** يتحدث عن الإنسان في أصله الفطري: الإنسان المسلم، وغير المسلم، فحين يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١]، فإنه لا يعني الإنسان المسلم، لأنه يقول بعد ذلك: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:٢٢]. بل إنه لا يتحدث عن الإنسان في أصله الفطري لأنه تعالى يقول في آية أخرى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٧-٨]، والرسول ﷺ يقول: **(كل مولود يولد على الفطرة)** من حديثٍ رواه البخاري. ومن هنا نخرج بتصوّر عام للإنسان فنقول إنه في أصله الفطري، كذا وكذا، وإذا حاد عنه صار كذا وكذا، وإذا أسلم كان إسلامه امتداداً لذلك الأصل فصار كذا وكذا.

وكذلك حين يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، فإنه يعطينا قانوناً اجتماعياً عاماً شاملاً لكل المجتمعات الإنسانية وليس خاص بالمجتمعات الإسلامية. إن ميدان علماء الاجتماع المسلمين لا يقتصر على المجتمعات الإسلامية، بل يشمل المجتمع الإنساني كله، بما في ذلك المجتمعات الغربية، فهم يبحثون في مشكلاتها الإجتماعية والنفسية، ونُظمها السياسية، وعلاقاتها الإجتماعية والدولية، وتاريخها، ومستقبلها، ويطلعون على ما يكتب علماء الاجتماع الغربيون ويناقشونهم، لكنهم يفعلون كل ذلك وهم مستشعرون لإيمانهم بالله وبأن محمداً رسول الله ﷺ وأن القرآن كلام الله، كما أن الباحث الغربي

يدرس تاريخ المسلمين وواقعهم الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي وقد وضع نفسه في إطار غير الإطار الإسلامي .والإطار الإسلامي لن يعصم العالم المسلم من الخطأ، ولن يجعل كل ما يقوله موافقاً للإسلام، ولن يمنع من تعدد الآراء والنظريات واختلاف العلماء المسلمين وتخطئة بعضهم لبعض، لأنه إذا كان كل هذا يحدث في مجال الفقه "والأدلة الشرعية التفصيلية أقرب إليه" فكيف لا يحدث لمن لا يملكون مثل هذه الأدلة التفصيلية ولمن يكتفون -في معظم الأحيان- بمجرد وضع علمهم في داخل الإطار الإسلامي .وإذا كانت الدعوة إلى إسلامية العلوم لا تخالف الموضوعية بل تؤيدها، فإنها تضع للعالم المسلم حلاً لمشكلة نفسية لا يشعر بها العالِم الملحد ولكن يشعر بها كثير من العلماء المؤمنين بالنصرانية أو المعتقدين في وجود الخالق وفاعليته. أعني مشكلة الانفصام بين شخصية الإنسان وهو يبحث في مجاله العلمي ويكتب ويناقش، وشخصيته وهو يتلو كتاب الله تعالى ويصلى ويصوم ويتزوج ويعاشر الناس .والانفصام سببه أن الحالة الأولى تفرض عليه أن ينسى إيمانه أو يعلقه، والحالة الثانية تدعوه إلى أن يذكر هذا الإيمان ويستشعره. والإنسان لا يرتاح إلى الشتات في الأمور الفكرية، فكيف به في الأحوال النفسية؟

فإذا كان العلماء الطبيعيون يبحثون -تخلصاً من الشتات وسعياً إلى الوحدة- عن مبدأ واحد أو نظرية واحدة ترجع إليها سائر النظريات الأساسية حتى تفسّر مظاهر الطبيعة بمبدأ واحد ترجع إليه حقول القوى الطبيعية الأربعة المعروفة حتى الآن، أعنى الجاذبية والكهرومغناطيسية والحقل القوي والحقل الضعيف ."وإذا كانوا يبحثون وراء مظاهر المادة المختلفة الأشكال والألوان والأحجام والخصائص عن اللبنات الأساسية التي ترجع إليها هذه المظاهر، أفلا يسوغ -بل أليس من الأحرى- أن يبحث العالم عن تصور الكون بجمع شتات نظراته الطبيعية والاجتماعية والفردية، بحيث لا يعيش في انفصام بين شخصه وهو باحث علمي، وشخصه وهو رجل اجتماعي، وشخصه وهو ربّ أسرة، وشخصه وهو متأمِّل في ذاته أو متذوق للجمال أو ملتزم بالأخلاق أو مدافع عن الحقوق؟ إنّ المبدأ الذي يجمع هذا الشتات هو مبدأ التوحيد، مبدأ الإيمان بالله واحداً لا معبود بحقٍ سواه، والإيمان بأن طريق محمد صلى الله عليه وسلم هو وحده الطريق الموصل إلى الله.

* * *

علوم الدين والعلوم التجريبية والعقلية

محاضرة ألقاها الدكتور في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، وأسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل كل كلامنا طيبا، وأن يجعل كل عملنا صالحا، وأن يجعله كله لوجهه خالصا، وألا يجعل لأحد له فيه شركا.

أيها الإخوة الأعزاء!

إنني بعد شكر الله - سبحانه وتعالى - على أن أتاح لي هذه الفرصة الثمينة لآتي إلى هذا البلد الحبيب إلى قلب كل مسلم، ولأتحدث في هذه الجامعة العظيمة المنتمية إلى هذا البلد الكريم بعد شكر الله - سبحانه وتعالى -، أشكر القائمين على أمر هذه الجامعة الذين تفضلوا فدعوني للتشرف بالحديث إليكم وأسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعلني وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأرجو أن أستفيد من تعليقات وتوجيهات إخواني الأساتذة وأبنائي الطلاب.

أيها الإخوة الأعزاء!

إن الموضوع الذي نريد أن نتحدث عن بعض جوانبه اليوم هو موضوع خطير، وهو قضية كبيرة لها في تاريخ الإسلام تاريخ طويل، انشغلت بها عقول إسلامية كبيرة، وتحدثت فيها شخصيات إسلامية فاضلة، ولكن هذه القضية وهي قضية العلاقة بين العلم أو بين العلوم التجريبية أو الحسية والعلوم العقلية من ناحية والدين من ناحية أخرى، هذه القضية - كما قلت - شغلت عقول كثير من علمائنا في الماضي ولكنها تعود فتطل علينا مرة أخرى في هذا العصر ربما لنفس الأسباب التي جعلت المسلمين يشتغلون بها في ذلك العصر، الذي جعل المسلمين يهتمون بقضية العلاقة بين العقل والدين هو - من بين الأسباب - ترجمة الفلسفة اليونانية من ناحية، ثم عندما اتصل المسلمون بأصحاب الأفكار والفلسفات الأخرى حتى من غير الفلسفة اليونانية وأرادوا أن يردوا على الكفار -ولا سيما الدهريين منهم- نشأت هذه القضية ونحن اليوم نتصل بالفكر الغربي، والفكر الغربي فكرٌ أيضاً يقوم في مجمله على المادية وعلى الإلحاد، فالقضية تطل علينا مرة أخرى ولكن في ثوب جديد، هذا الثوب وهو ثوب

جذاب جداً، فحوى القضية اليوم: أن كثيراً من المشتغلين أو كثيراً من المفكرين الغربيين ومن تأثر بهم من المسلمين يقولون: إن العلم قد نجح نجاحاً باهراً لا يَشكُّ فيه إلا مكابر -أعني العلم التجريبي-، فها هو قد اكتشف كثيراً من الحقائق، وقامت على هذه الكشوف تقنية دقيقة شملت كل أنواع الحياة. هذه التقنية ساعدت في تيسير الحياة على الناس في كل جانبٍ من جوانبها، وهذا العلم لم يقم إلا على الحس وعلى العقل، وإذن يستنتج بعض أصحاب هذه الفكرة من هذا أن الدين لا مجال له، نحن قد استطعنا أن ننجح هذا النجاح الباهر من غير أن نعتمد على وحي ومن غير أن نهتدي بهدي الأنبياء، وإذا كان نجاحنا اليوم محصوراً في النطاق المادي فإننا غداً نستطيع أن نتوسع فتشمل علومنا هذه كل نواحي الحياة وكل ما يحتاج إليه الإنسان وبذلك لا يكون بحاجة إلى الدين. هذا التصور فيه كما ترون كثير من الغرور، وهذا التصور كان سائداً إلى أواخر القرن الماضي وربما بدايات القرن العشرين ولم يخفف من حدته وغلوائه إلا الحروب، الحربان العالميتان الأولى والثانية. شعر كثير من المفكرين الغربيين أن العلم التجريبي وحده لن يحل كل المشاكل.

لكن المهم أن هذا التحدي ما زال قائماً في صورة أو أخرى يواجه به المنتسبون إلى الملل -سواءً كانت الإسلامية أو النصرانية أو اليهودية-. ثم من مظاهر أو من أشكال هذا الادِّعاء أن يقول أصحاب هذه الفكرة: إذا كنا قد وصلنا إلى هذه النتائج الباهرة بهذا المنهج الذي سلكناه -وهو الذي يسمى الآن بالمنهج العلمي المعتمد على الحس والعقل- يقولون إذا كل دعوى لا تأتي عن هذا الطريق فليست علماً؛ لأن هذا هو المنهج العلمي، كل دعوى لا يقام عليها دليل من النوع الذي يرتضيه العلماء التجريبيون فليست علماً، وإنما هي مجرد دعاوى لا سند لها ولا دليل عليها، ولذلك فإنهم يضعون ما يسمَّى بالعلم في جانب، ويضعون في الجانب الآخر الدين والخرافة والسحر والكهانة، كل هذه يضعونها في حزمة واحدة؛ لأنها كلها في رأيهم ليست علمية ولا يقوم عليها دليل.

كيف نرد على هذا التحدي؟

قبل أن أجيب عن هذا السؤال أريد أن أتعرض لمسألتين:

المسألة الأولى: هل الانشغال بالرد على مثل هذه الدعاوى أمر مشروع، أم أنه تضييع للوقت وانشغال بما لا يفيد؟ كثير من المنتسبين إلى الأديان سواءً كانوا مسلمين أو غير مسلمين يرون رأياً كهذا، يقولون: ينبغي إلا ننشغل بالرد على مثل هذه الدعاوى، وأن الدين ماضٍ في طريقه، وأن حجج الدين واضحة لمن أراد أن يطلع عليها فلا ننشغل بالرد عليها. لكننا نقول: ونحن معشر المسلمين دعاة إلى الخير، والخير أحياناً تحول بينه وبين الإنسان عوائق فكرية -شبهات-، يصعب أن يصل الخير إلى قلب إنسان قامت في ذهنه شبهات، خصوصاً إذا كانت هذه الشبهات متعلقة بالعلم ومتعلقة بالعقل ومتعلقة بالحس، يعني إذا وقر في صدره أن الدين يخالف العقل، يخالف الحس، يخالف العلم، فإذن هو لن يهتدي، ولن يستمع حتى تزول الشبهات، فلذلك لا بد من إزالة الشبهات هذه حتى نستطيع أن نوصل الخير هذا إلى الناس، ولذلك فإن الله - سبحانه وتعالى - عندما أمرنا بالدعوة فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ قال بعد هذا: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، فنحن مأمورون بالدعوة، ومأمورون أيضاً بالمجادلة حين يستدعي الأمر هذه المجادلة، وعلماؤنا كانوا يقولون: إن المجادلة من قبيل الجهاد والدفع عن الإسلام؛ لماذا ؟ لأن صاحب الشبهة أو صاحب البدعة قد يستطيل بها على الناس، وقد يقول: إنه صاحب عقل، وإنه صاحب علم، وأن معارضيه -إن كان هو ملحداً- من المؤمنين أصحاب خرافة أو قومٌ يتبعون عواطفهم وأهواءهم، أما أنا فأتبع المنهج العلمي، وأبحث عن الحقائق، وكذلك إن كان صاحب بدعة اعتبر مخالفيه من أهل السنة أيضاً أصحاب عقولٍ ضعيفةٍ وأناسٌ نصِّيون، لا يفكرون، يحفظون فقط، وهكذا.

فإذا لم تجادله، وإذا لم تبين ضعف حجته، وإذا لم تقهره، استطال على الناس، وهذه الاستطالة تكون حاجزاً ليس بينه هو وبين الدين فقط (بين الدين الصحيح)، ولكن بين كثيرٍ من الناس من غير العلماء، ومن الضعفاء الذين قد يتأثرون بمثل هذه الشبهات، فتكون حائلاً بينهم وبين معرفة الحقيقة، فكما أنك تدافع عن ضعفة المسلمين وتصد عنهم عوادي المعتدين بالقوة المادية، فكذلك يجب أن تدافع عن ضعفة المسلمين وتصد عنهم عوادي الفكر والشبهات المخالفة للدين، ولا تدافع فقط عن

المسلمين، وإنما تدافع أيضاً عن كل إنسان يريد الحق، أو في قلبه ميلٌ إلى الحق، إذا كانت هذه الشبهات تحول بينه وبين الوصول إلى ذلك الحق. إذن لا بد من الرد على أصحاب الشبهات.

المسألة الثانية: هي أننا ينبغي أن نحذر في مجادلتنا لأهل الباطل من أن نأخذ عنهم بعض باطلهم، أو أن نرد بعض حقهم؛ فيضعف موقفنا أمامهم، ليس هذا فحسب، بل إن أخذ ذلك الباطل ورد ذلك الحق يعود فيؤثر في فهمنا للدين أثراً سيئاً جداً. وكلا الأمرين حدثا في تاريخ الإسلام.

أكرر هذه المسألة مرة أخرى، إنك حين تحاول أن ترد على الكفار والمنحرفين تقرأ حججهم؛ لأنك تريد أن ترد عليها، فاحذر من أن تتأثر ببعض القواعد والأصول التي يؤصلونها، فهذا يكون انحرافاً، واحذر أيضاً من أن ترد بعض الحق الذي يقولون به فيسبب لك هذا أيضاً انحرافاً.

كيف يحدث هذا الانحراف؟:

الانحراف الثاني:

يقول الإنسان لنفسه ويعتقد وهو محق في اعتقاده: أن هؤلاء ما داموا كفاراً فهم على باطل. لكنه يستنتج من هذا نتيجة ليست بصحيحة، فيظن أن كل ما قالوا هو إما من أسس باطلهم أو من لوازم باطلهم، وهذا ليس بصحيح، فالإنسان قد يلتزم مذهباً باطلاً ولكنه في داخل هذا المذهب يقول بعض الحق ويقرر بعض الحقائق، فلا تذهب في ردك لباطله وتبالغ حتى ترد بعض الحق الذي قال به.

قلت لكم: إن هذا حدث في تاريخ الإسلام، كلا الانحرافين حدث. مثلاً: الجهمية، يقول الإمام أحمد في كتابه المشهور الرد على الجهمية - مع الأسف نص الحديث ليس معي ولكنه يقول كلاماً فحواه - أن سبب ضلال الجهم أنه التقى جماعة من الملحدين الذين ينكرون وجود الخالق، أظن اسمهم السمنية، فقالوا له: ما هذا الرب الذي تعبده؟ هل رأيته بعينك؟ قال: لا. سمعته بأذنك؟ قال: لا. شممت رائحته؟ قال: لا. ذقته؟ قال: لا. لمسته؟ قال: لا. قالوا: إذاً أنت تتحدث عن لا شيء.

إذا كان الشيء لا يعرف بهذه الحواس الخمس، فإذن هو ليس موجوداً، ولا وجود له، فتحير مدة من الزمان ثم جاءهم وقال لهم: وجدت الرد عليكم. قالوا له: ماذا؟ قال:

هل لكم عقول؟ قالوا: نعم. قال لهم: رأيتموها بأعينكم؟ قالوا: لا. شممتموها؟ لا. سمعتموها؟ لا. وهكذا كل الأسئلة التي سألوه إياها عن الله سألهم إياها عن العقول فأفحمهم، لكنَّ هذا كان بداية شر عظيم عليه وعلى المسلمين. كيف؟ تلاحظون أنه هنا مثل الله - سبحانه وتعالى - بالعقل، والعقل عرض، العقل ليس شيئاً موجوداً في الخارج، وإنما هو عرض، فالتزم إذن أن الله - سبحانه وتعالى - هو شيء كالعقل، فالتزم لوازم كل هذا التصور، ما دام هو شيء كالعقل، إذن لا يمكن أن يكون في جهة، إذن لا بد أن تؤول الآيات التي تقول (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (طه: ٥) وكذا وكذا. ما دام هو كالعقل فلا يمكن أن يوصف بأنه سميعٌ وبصيرٌ وعالمٌ وكذا وكذا؛ لأنه لا يوصف به، أما أن يوصف بأن له يد ووجه وكذا فهذا من باب أولى.

ألم تسمعوا كثيراً هذه الحجة تتردد الآن؟ كثير من الناس إذا أرادوا أن يردُّوا على الماديين، يقولون لهم كلاماً كهذا الذي كان يقوله الجهم! فالله - سبحانه وتعالى - ليس كالعقل، الله - سبحانه وتعالى - ذات موجودة في الخارج، ليس فكرة، ليس شيئاً ذاتياً كما يقال في التعبير اليوم، وإنما هو شيء - كما يقال في التعبير اليوم أيضاً- موضوعي هو موجود في الخارج، وإذا كان موجوداً في الخارج فلا بد له من صفات، لا بد له من كذا.. -كل الكلام الذي قاله أهل السنة-.

لكن هذا كان سبب ضلالهم، وأَخَذَ هذا الكلام كثير، فتأثر بهذا الكلام عقول كبيرة -كما تعرفون-، أبو حامد الغزالي، الفخر الرازي، وقادهم هذا إلى أن يقولوا إن الله ليس داخل العالم ولا خارج العالم ولا كذا وكذا، فقال لهم العلماء من أهل السنة: ليس هناك إلا العالم وخارج العالم، فإذا لم يكن الشيء داخل العالم ولا خارج العالم فإذن لا وجود له. هذه مسألة عقلية فينبغي إذن أن نحذر من هذا.

نعود إلى سؤالنا مرة أخرى كيف نرد على هؤلاء؟

من الأخطاء التي وقعنا فيها نحن أيضاً في الرد على الملحدين والماديين: أننا رددنا بعض الحق الذي يقولونه، وسلمنا لهم ببعض الدعاوى التي يدعونها. هم يظهرون بأنهم يعظمون العقل جداً، فجنح كثير منا إلى التهوين من شأن العقل، يعني كأن الدين لا

يقوم إلا إذا هوَّنّا من شأن العقل، فإذا كانوا هم قد استطالوا بعقولهم فنحن سلمنا -لا أقول نحن جميعاً؛ بعضنا سلم لهم بذلك-. ولذلك يوصف بعض الناس على سبيل الذم بأنهم عقلانيون، أو أنهم يعتمدون على العقل، وأنتم تعرفون أن أهل السنة لم يكونوا يصفون إنساناً ضالا بأنه صاحب عقل أو أنه عقلاني، ولكن كانوا يسمونها الفرق الضالة أو أصحاب الأهواء؛ لأن هنالك فرقاً كبيراً بين العقل وبين الهوى.

فهذه من المسائل التي وقعنا فيها مع أننا نقرأ كتاب الله - سبحانه وتعالى - من أوله إلى آخره لا نجد فيه أبداً أنه ذم إنساناً؛ لأنه استعمل عقله أو اعتمد على عقله أبداً، بل نجد فيه ذماً للذين لم يؤمنوا بأنهم لا يعقلون، فهذا خطأ.

والخطأ الثاني (الذي وقعنا فيه أيضاً): أنهم قالوا إن علمهم كله مبني على الحس والعقل، فأيضاً أردنا أن نهوِّن من شأن الحس، قالوا: إن الموجود لا بد أن يكون محسوساً، فقلنا نحن كلاماً -أو قال بعضنا- كلاماً قريباً من كلام الجهمية.

لا. ليس من شرط الموجود أن يكون محسوساً وأنا واحدٌ من الذين كانوا يقولون هذا الكلام إلى أن تبين لي أنه خطأ من قراءاتي لعلماء المسلمين ولا سيما شيخ الإسلام ابن تيمية -. نعم، إن الموجود لا بد أن يكون محسوساً، محسوساً بمعنى يمكن أن يُحس، ليس معناه أنه يحسه كل إنسان في كل وقت، هذا لا يقوله عاقل حتى عن الأشياء الدنيوية، فنحن -كما قلت- لكي نرد على الماديين أنكر بعضنا هذه القاعدة مع أن علماءنا كانوا يقررونها. شيخ الإسلام ابن تيمية يقول في كتابه نقض التأسيس: إن الموجود لا بد أن يكون محسوساً، وعلماء أهل السنة كانوا في ردهم على الجهمية والمعتزلة الذين ينكرون رؤية الله - سبحانه وتعالى - هم لا ينكرونها على أساس أنه ليست هنالك نصوص أو كذا ولكن يعتبرونها مبدأ مسألة عقلية: أن الله لا يمكن أن يُرى، فقالوا لهم: إذا كان لا يمكن أن يُرى فهو ليس بموجود؛ لأن الشيء إذا كان موجوداً فيمكن أن يُرى، أما إلا يراه بعض الناس في بعض الأحوال أو لا تراه بعض المخلوقات في بعض الأحوال، نعم هذا ممكن، وهذا أيضاً يصدق على كل موجودٍ غير الله - سبحانه وتعالى -، فإذن ينبغي أن نحذر أيضاً من هذا الشطط.

فهذا عن الحس، أيضاً عن العلم:

ادَّعَوا أن العلم يؤيدهم وفسروا العلم تفسيراً خاصاً، فبدلاً من أن نرد على فهمهم للعلم، ونقول: إن هذا التصور للعلم تصورٌ ليس بصحيح، وقع بعضنا أيضاً في الفخ، وبدؤوا يقللون من شأن العلم، ويجعلون كما يجعل الكفار العلم في ناحية والدين في الناحية الأخرى وهكذا.

ما الإجابة الصحيحة؟

الإجابة الصحيحة: أن نقول لهم: نحن متفقون معكم على أن طرق العلم هي الحس والعقل، هذه طرق العلم ونحن معكم في هذا، قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. فإذن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً إطلاقاً، فكل علم عندنا جاءنا عن طريق الحس، أو عن طريق الفؤاد الذي نسميه الآن العقل.

وإذا كانت هذه الآية الكريمة قد ذكرت السمع والبصر وآيات كثيرة تذكر السمع والبصر؛ لأن السمع والبصر هما أهم الحواس، وإلا فالحواس الأخرى أيضاً ذكرت في آيات أخرى مثلاً: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]. ربنا - سبحانه وتعالى - هنا أنكر عليهم أنهم يلمسون شيئاً بأيديهم ثم ينكرونه، أو يقولون: إن هذا سحر أو كذا أو كذا. وأيضاً الذوق جاء في القرآن الكريم وكذلك الشم: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤]، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وهكذا، فكل الحواس مذكورة في القرآن الكريم لكن الحواس المهمة هي السمع والبصر، ولذلك يكون التركيز عليها في القرآن الكريم.

إذن نقول لهم: نحن متفقون.

بعضنا يخطئ هنا، فيقول: هم يقولون الحس والعقل ولكننا نقول: الحس والعقل والوحي. هذا خطأ؛ لأن الحس والعقل طريقان للمعرفة، وأما الوحي فهو مصدر

للمعرفة. هذه مجرد اصطلاحات في الألفاظ وإلا المهم عندي هو المعنى. ينبغي إلا نخلط بين الطرق التي نعرف بها، والمصدر الذي نأخذ منه العلم، فالسمع والبصر والفؤاد طرقٌ للمعرفة، أما الوحي فهو مصدر للمعرفة.

كما أن الكون هذا مصدر للمعرفة، فنحن لا نعرف شيئاً سواءً كان شيئاً محسوساً أو كان وحياً، لا نعرفه إلا بهذه الطرق فقط، وهي الحس والعقل ونضيف إليها ما تركب منهما، فتكون الطرق ثلاثة: حس وعقل وشيءٌ مركبٌ من الحس والعقل.

والآن ما هو الخطأ الذي وقع فيه الغربيون وشايعهم فيه كثير من الذين تأثروا بهم؟ الخطأ الذي وقعوا فيه: أنهم حددوا بطريقة تحكمية، حددوا لأنفسهم منذ البداية، فقالوا إن الموجود هو هذا العالم الذي نراه، هذا العالم المشهود، ولذلك فإذا أردت أن تبحث أية مسألة بحثاً علمياً، فعليك ألا تتجاوز حدود هذا الكون المشهود، عليك إذا أردت أن تفسر ظاهرة ما مهما كانت هذه الظاهرة، أردت أن تفسرها تفسيراً علمياً؛ فابحث عن أسبابها في داخل هذا الكون، إذا بحثت عن سببها في خارج هذا الكون لا يكون تفسيرك تفسيراً علمياً. هذا الكلام هل يقوله العلم، أم أنه تحكم؟ هو تحكم من عندهم، إذن هم خلطوا بين فلسفتهم (وجهة نظرهم) وبين العلم. وتأثر بهذا الفهم - مع الأسف كما قلت لكم- كثيرٌ من الناس؛ لأن هذه الحضارة الغربية هي الحضارة السائدة الآن في العالم، فكل ما يقول به الغربيون يؤثر في الناس، فأريد أن أكرر هذا لطلابي الأعزاء:

مفهوم العلم في التصور الغربي، أصبح مفهوماً مادياً إلحادياً، يعني أدخلوا المادية والإلحاد في مفهوم العلم نفسه. فإذا أردت أن تفسر ظاهرة طبيعية، فابحث عن أسبابها ضمن هذا الكون، بل إذا أردت أن تفسر ظاهرة نفسية، ابحث عن أسبابها في داخل الكون. إذا أردت أن تفسر ظاهرة اجتماعية تفسيراً علمياً، ابحث عن أسبابها داخل هذا الكون. نحن لا نقول هذا، نحن نقول: نعم إن الظواهر الطبيعية والنفسية والاجتماعية تكون لها أسباب في داخل هذا الكون. ولكننا نقول إن هنالك أسباباً خارج هذا الكون، مثلاً: لماذا انتصر المسلمون في غزوة بدر؟ إذا جاء إنسان مستشرقٌ

وقال: إنني أريد أن أدرس غزوة بدرٍ هذه دراسة علمية، ماذا سيقول؟ سيقول إن المسلمين انتصروا؛ لأن الجانب الذي كانوا فيه كان جانباً رملياً فحدث أن نزلت أمطار، وهذه الأمطار ثبتت الأرض، وصادف أن كان الكفار في جانب طيني، فعندما نزل المطر صار المكان زلقاً، ثم إن المسلمين حدث لهم شيء غريب وهو أنهم نعسوا فناموا وهذا أعطاهم راحة نفسية، وهكذا. كل هذه الأسباب وغيرها ذكرها القرآن الكريم، لكنه لم يعتبر أن هذا هو السبب الأساسي، هذه أسباب ثانوية ساقها الله - سبحانه وتعالى - لتأييد المسلمين كما ساق الملائكة. السبب الحقيقي ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]. فالله - سبحانه وتعالى - علم ما في قلوب هؤلاء المسلمين من الصدق والإخلاص وأنهم نصروا الله، فأراد الله - سبحانه وتعالى - أن ينصرهم. هذا تفسيرنا، لكن هذا التفسير بالمفهوم السائد الآن لا يعتبر تفسيراً علمياً، يقول لك هذا تفسير ديني، وهنالك تفسير علمي. وكذلك إذا نظرنا إلى بقية الغزوات. مثلاً غزوة أحد: نحن كثيراً ما نركز على مسألة الرماة، نعم كانت سبباً لكن ما هو السبب الذي ذكره القرآن؟ ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. غزوة حنين: ماذا كان السبب الحقيقي، نعم إذا أراد الإنسان أن يقصر نفسه على الأسباب المشهودة، يمكن أن يقول إن الكفار لعبوا على المسلمين، كانت لهم حيلة وكذا، القصة التي تعرفونها. لكن القرآن قال: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾ [التوبة: ٢٥]، هذا لا يُعتبر في المفهوم الغربي تفسيراً علمياً. فقلت لا يُعتبر لماذا؟ بدأوا فأنكروا وجود الخالق أو أبعدوه، أنا عندما أقول لهم إنكم تنكرون، يقولون لا. لا نحن ما ننكر العلم ما له علاقة بالدين، فأقول لهم: هما أمران فقط، إما أن تقول إنه موجود أو ليس بموجود، فأنت في علمك هذا افترضت أنه ليس بموجود، فحتى لو كنت تعتقد أنه موجود فوجوده هذا لم يصبح له أثر في هذا العلم.

ماذا نقول نحن؟ نقول لهم بهذا المنهج نفسه الذي توصلتم به إلى هذه الحقائق المشهودة، وبنفس الحس وبنفس العقل، نحن نصل إلى وجود الخالق، أنا طبعاً أحبُّ أن أفتِّح فقط أذهانكم إلى بعض القضايا، لا أحب أن أدخل في تفاصيل هذا الأمر.

لكن ما هو منهجنا في التدليل على وجود الخالق؟ منهجنا هو نفس المنهج الذي يسمونه هم بالمنهج العلمي إذا حذفنا منه هذا التحكم وحصر الموجودات في العالم المشهود هذا الذي أمامنا.

كيف نصل إلى وجود الخالق؟ نقول لهم هذه المخلوقات التي حصرتم أنفسكم فيها هي نفسها تشير إلى الخالق، يعني هذا الكون نفسه يقول إن لي خالقاً، فأنتم إذن لم تنظروا إلى الكون نظرة صحيحة بل فرضتم عليه شيئاً ليس من طبيعته الكون نفسه يقول إنه حادث، يقول إنه لا بد لي من خالق ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. كل حادثٍ إما أن تقول: إنه جاء من العدم وهذا مستحيل، وإما أن تقول إنه خلق نفسه وهذا أكثر إحالة؛ لأنه لكي يخلق لا بد أن يكون موجوداً، وإذا كان موجوداً فلا يحتاج أن يخلق. فأن تقول إن شيئاً خلق نفسه تفرضه موجوداً وغير موجود في نفس الوقت. فنحن إذا نقول لهم بالأدلة العقلية وبالمنهج العلمي: إن للكون خالقاً. بعد أن نبرهن أن للكون خالقاً، نستطيع أيضاً أن نبرهن بالأدلة العقلية أن محمداً هذا رسول، وأنه ليس كاذباً وليس مفترياً، وأن هذا القرآن كلام الله - سبحانه وتعالى -. هذا هو الذي يميز الإسلام عن ما يسمى بالأديان الآن في العالم، هذه الأديان لا تستطيع أن تقف في وجه الملحدين ولا في وجه الماديين الذين يقولون: إنهم يعتمدون على العقل وعلى الحس؛ لأن هذه الأديان تقوم على خرافاتٍ فعلاً، وعلى أشياء يبطلها الحس ويبطلها العقل وتطلب من الإنسان أن يبدأ معهم بالتسليم، لكننا لسنا كذلك؛ القرآن علمنا والرسول ﷺ علمنا، أننا إذا دعونا إنساناً، فندعوه أولاً إلى الحق، ثم إذا كانت له شبهة، إذا كان يريد أن يجادلنا جادلناه بالتي هي أحسن، وأوضحنا له بالعقل وبالحس الأصول التي يقوم عليها الدين، فإذا قبل الأصول فقبول الفروع يكون أمراً طبيعياً، فنحن نستطيع بأن ندلل على وجود الخالق وعلى وحدانيته وعلى صدق الرسول ﷺ، وعلى أن القرآن كلام الله، فإذا فعلنا هذا قلنا له إذا العلم له مصدران ليس مصدراً واحداً فقط، ليس هذا الكون فقط هو المصدر، وإنما هنالك مصدرٌ آخر هو هذا الوحي الذي دللنا لك بالأدلة العقلية والحسية على أنه كلام الله - سبحانه وتعالى - والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. لا يمكن أن يكون كلام الله - سبحانه وتعالى - باطلاً.

ننتقل الآن وأختم الكلام بقضيةٍ هي: بعد أن قلنا: إن ما في القرآن علم، ما في القرآن وصحيح السنة علمٌ، وما يأتينا من العالم الخارجي أيضاً علم.

ماذا نفعل إذا تعارض شيءٌ من هذا مع شيء من ذاك؟

هذه أيضاً من القضايا التي شغلت العلماء المسلمين وكثيرون منهم وضعوا قوانين سماها قانون التأويل وكثير من هذه القوانين التي وضعوها ليست صحيحة. لكن شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، وضع قانوناً أحب أن أقرأ عليكم شيئاً منه، وأنا في رأيي أن هذا هو القانون الصحيح. هذا هو المبدأ الصحيح الذي ينبغي أن نسير عليه حين يقال إنه تعارَضَ شيءٌ من الدين يعني من القرآن والسنة مع شيءٍ من العقل أو من الحس. قال: إذا قيل تعارض دليلان سواءٌ كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعياً والآخر عقلياً فالواجب أن يقال: لا يخلو إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين، وإما أن يكون أحدهما قطعياً والآخر ظنياً. فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما (يستحيل)، إذا كنا نقطع بأن هذا قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعني الخبر ثابت وفهمنا له قطعي، القرآن ثابت بالتواتر فثبوته قطعي، لكن إذا كان فهمنا أيضاً قطعياً فلا يمكن أن يتعارض نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة مع حقيقة قطعية عقلية أو حسية. لا يمكن أن يتعارض هذا مع ذاك.

- سأشرح لكم الكلام بدل أن أقرأه-

فإذن لا يمكن أن يتعارضا، إذا تعارضا فلا بد أن يكون هنالك خطأ إما أن أحدهما ليس بقطعي بل هو ظني وإما أن ما ظن أنه عقلي ليس في الحقيقة بعقلي وإنما هو شيءٌ توهمه إنسان وقال هذا عقلي، أو ما نسب إلى الدين وقيل إنه قطعي. ماذا نفعل إذا كان أحدهما قطعياً سواءً كان هو السمع أو العقل؟ قال ابن تيمية: نقدم القطعي بغض النظر عن كونه سمعياً أو عقلياً، القطعي يقدم دائماً. ماذا نفعل إذا كانا ظنيين؟ إذا كانا ظنيين نبحث فنحاول أن نرجح أحدهما بما يمكن ترجيحه من الأدلة وأيهما رجح قدمناه على الآخر. كثير من الناس الآن يخطئون في هذا، بعض الناس يقولون: إن الحقائق العلمية تتغير، ولذلك ينبغي إلا نلقي لها بالاً أو لا نفسر بها

القرآن أو كذا أو كذا، الحقائق إذا كانت قطعية لا تتغير، إذا اكتشفنا أن الأرض كرة فلن نكتشف بعد عشر سنوات أنها مكعبة، هذه حقيقة لا تتغير أبداً، إذا اكتشفنا أن الأرض كرة فلا نكتشف بعد عشر سنوات أنها مكعبة فهذه حقيقة لا تتغير فهذه حقيقة قطعية فإذن كل فهمٍ لآية قرآنية أو لحديث يخالف هذا الأمر القطعي فيقدم هذا الأمر القطعي عليه وتفهم النصوص في ضوء هذا الأمر القطعي، وكذلك إذا كان الأمر بالعكس عندنا شيءٌ قطعي من الدين: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١-٢]، فإذا جاءنا إنسان وقال: أنا عندي دليل وكذا وكذا على أن العالم له خالقان أو كذا. لا يمكن أن نقبل هذا. القطعي هذا لا نقدم عليه شيئاً. إذا كانا ظنيين نبحث في الترجيح. العلوم فيها أشياء قطعية وفيها أشياء ظنية كالنظريات وفيها أشياء ثبت بطلانها، فما كان قطعياً قبلناه، ما كان ظنياً قبلناه ما لم يخالفه شيءٌ قطعي عندنا في الدين أو يخالفه شيءٌ ظني أرجح منه دليلاً، وأما ما ثبت بطلانه فهم يرفضونه ونحن أيضاً لا نقبله. نحن إذاً لا نقابل بين الدين والعلم، ولا نقابل بين الدين والعقل، ولا نقابل بين الدين والحس. هذه المقابلة لا وجود لها في التصور الإسلامي؛ لأن القرآن الكريم فيه الخبر الصادق والخبر الصادق كما يقولون- مركب من السمع والعقل، وفيها الأدلة العقلية، فما كل ما في القرآن مجرد أخبار، بل فيه أدلة عقلية يخاطب بها الإنسان بغض النظر عن كونه مؤمناً بأن هذا القرآن كلام الله، أو ليس بمؤمن، وفيه كلام عن الكون الحسي، كما أن العلوم العقلية فيها ما يتعلق بوجود الخالق - سبحانه وتعالى - وبعض صفاته تفهم بالعقل وبآيات الله - سبحانه وتعالى - وفيها ما يتعلق بالكون وكذلك العلوم العقلية، فإذن نحن لا نقابل، بل نقول: الدين في ناحية والعقل في ناحية، أو: الحس في ناحية، والدين في ناحية أو: العلم في ناحية والدين في الناحية الأخرى.

أيها الإخوة الأعزاء: إن مما سبَّبَ الانحراف في مجادلة الأعداء -كما قلت لكم- أن بعضنا في السابق وفي الحاضر تأثر ببعض أفكارهم أو أنكر بعض الحق الذي قرروه. فما سبب هذا؟

سببه أن كثيراً من الذين يتصدون لمثل هذه الأفكار لا يكون علمهم بالقرآن والسنة وبأقوال السلف لا يكون لهم كبير باعٍ في هذه المسائل، ولكنهم أناس طيبون وفضلاء يريدون أن يدافعوا عن الإسلام بقدر ما يستطيعون، فنحن لا نريد أن يتكرر هذا الأمر، وإن كنت أرى أنه قد تكرر أيضاً، فأريد من إخواننا الطلاب المشتغلين بعلوم القرآن والسنة وأقوال السلف وقراءة كتبهم والتبحر فيها أريد ممن يستطيع منهم أن يلم أيضاً بهذه العلوم المعاصرة وبهذه التحديات العقلية التي تواجه المسلمين، وأن يستعمل ذلك السلاح الذي أعطاه الله إياه -سلاح هذه النصوص وأقوال السلف، وسلاح العقل- في دفع هؤلاء الأعداء الصائلين على المسلمين، أما أن نترك الأمر لأناس طيبين مخلصين لكنَّ علمهم بالكتاب والسنة وبأقوال السلف ضئيل وبضاعتهم فيه مزجاة، فهذا وضع للأمر في غير نصابه. فأنا رجائي-وإن كانت هذه المحاضرة أقنعت بعضكم بهذا أكون قد نجحت وتحقق هدفي- أريد من بعضكم على الأقل أن يهتم بهذه المسائل وإلا يعيش فقط مع كتب هؤلاء السلف، ولأن هؤلاء السلف واجهوا أفكاراً في عصرهم وردوا عليها، فنحن نستفيد من ردودهم. وأنا أقول لكم: أنا درست الفلسفة، وإن كثيراً من نقدي للفلاسفة وردودي عليهم استفدتها من كلام هؤلاء العلماء، ولا سيما شيخ الإسلام ابن تيمية أكثر مما استفدت من مجرد تفكيري، وبمجرد استنباطاتي الخاصة. فأريدكم أن تجمعوا بين هذا وذاك، فما ينبغي أن يصول الفكر الشيوعي ويتطاول على المسلمين ولا يجد من يرد عليه رداً قوياً مفحماً رداً عقلياً ونقلياً، لا يجوز أن يتطاول الماديون من غير الشيوعيين أيضاً ولا يجوز أن يتطاول الغربيون وأن يتطاول الملحدون، هذا العصر سمي بعصر الإلحاد؛ لأنه العصر الذي شاع فيه الإلحاد وراج كما لم يرُجْ في عصرٍ من العصور السابقة، ونحن مسؤولون، نحن الذين حبانا الله - سبحانه وتعالى - بهذه الهداية بالقرآن الكريم الذي هو هدىً للقلوب، وهدىً للعقول، وهدىً للفكر، وهدىً للسلوك. نحن - الذين حبانا الله - سبحانه وتعالى - بهذه الهدية الثمينة -، هذا هو واجبنا هو واجب لن يستطيع القيام به من لم يتصل بهذه العلوم، لن يستطيع القيام به من كان نصرانياً أو كان يهودياً أو كان بوذياً.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها

محاضرة ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ١٤٠٧/٧/٢٥هـ - ١٩٨٧/٣/٢٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

وبعد، فأشكركم على هذا التقديم الكريم، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يريني وإياكم الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

عندما طلب مني أن أتكلم في هذا الموضوع، بدأت أفكر - كما لابد أنكم جميعاً فكرتم - في أن مشكلات العلوم الإنسانية هذه كثيرة جداً بحيث لا يمكن أن تسعها محاضرة واحدة. هذا إذا أردنا فقط أن نعددها ونذكر آراء الغربيين فيها.....إلخ، فكيف إذا كنا نريد أيضاً أن نلقي نظرة إسلامية على هذه المشكلات، كما سنحاول إن شاء الله. لذلك فكرت في أن أركز الكلام كله عن مشكلة واحدة من مشكلات العلوم الإنسانية، هي المشكلة المسماة بمشكلة الموضوعية في العلوم، سواء كانت إنسانية أو كانت طبيعية.

واخترت هذا لأسباب منها:

أولاً: إن هذه المشكلات تكاد تكون أمّ المشكلات في العلوم كلها، ربما نقول إن كثيراً من المشكلات الأخرى هي فرع من هذه المشكلة.

وثانياً: لأن النقاش فيها والجدل عاد جذعاً - كما يقولون - عند الغربيين من المتخصصين في العلوم الطبيعية والإنسانية والمتخصصين في تاريخ العلوم وفلسفة العلوم.

وثالثاً: لأن هذا الموضوع هو ألصق الموضوعات بالدعوة التي ننادي بها، الدعوة إلى تأصيل العلوم ووضعها في إطار إسلامي.

فما الموضوعية؟ الموضوعية ربما يصورها الرأي الشائع للعلم عند الناس. العلوم الطبيعية عند عامة الناس لها منهج، هذا المنهج يمكّن الإنسان من أن يشاهد الواقع كما هو ويصوره تصويراً أميناً ويكتشف القوانين التي تحكم هذه الحقائق

أوالظواهر، ويضع النظريات التي تفسر هذه القوانين وتلك الحقائق وتلك الظواهر، من غير أن يكون هناك هوى أو اعتقادا ديني أو رأي فلسفي أو غرض. هذا هو الرأي الشائع للمنهج العلمي عند الناس. وكثير من الناس يظنون – لذلك – أن العلماء، سواء كانوا طبيعيين أو علماء حتى من العلوم الإنسانية، لا يختلفون اختلاف الفقهاء فيقولون: في المسألة قولان، لأن منهجهم يؤديهم إلى معرفة الحقيقة كما هي وإلى تفسيرها تفسيراً صحيحاً. هذه هي الموضوعية في صورتها المثالية.

ولكن هل واقع العلوم هو كذلك؟ قلت لكن إن الغربيين يتناقشون في هذه الموضوعات نقاشاً طويلاً، وكتبت فيه كتب ومقالات وغير ذلك، ولكنهم جميعاً متفقون على أن هذه الصورة المثالية الشعبية ليست بصحيحة. وأن الموضوعية إذا كان المقصود بها أن الإنسان، كما كان يقال لنا في المنهج العلمي، يتجرد من أفكاره المسبقة ومن كذا وكذا ثم يأتي إلى العلم بذهن خالٍ تقريباً ويشاهد الواقع كما هو ويحاول أن يكتشف قوانينه ويحاول أن يفسره، قالوا الموضوعية بهذا المعنى متعذرة على الناس، سواء كان ذلك في العلوم الطبيعية أوكان في العلوم الإنسانية ودائماً إذا قلنا في العلوم الطبيعية فمن باب أولى في العلوم الإنسانية. ما الذي دعا المهتمين والمختصين من العلماء الغربيين يقولون هذا؟ أسباب كثيرة، يمكن أن نذكر منها:

أولاً: ما يعرفه كل إنسان عن نفسه، فالإنسان إذا كان أميناً مع نفسه يشعر أنه حتى وهو يبحث وهو يفكر وهو ينظر ويفسر لا يتخلى عن كل ما عنده من أفكار.

ثانياً: ما ظهر من نتائج بعض العلوم. وأهم ما يذكرونه في هذا النظرية الفيزيائية المسماة نظرية عدم اليقين – نظرية هايزنبيرج – ويسمونها أيضاً مبدأ عدم اليقين (The Uncertainty Principle). ومبدأ عدم اليقين يقول إنه من غير الممكن للإنسان أن يعرف موضع الجزء الصغير من المادة وأن يعرف معدل سرعته في نفس الوقت، لأنه إذا عرف الطريقة التي يعرف بها الموضع تؤثر على معدل السرعة، وإذا عرف معدل السرعة تؤثر على الموضع، ولكن لا يمكن للإنسان أن يتنبأ بموضع هذا الجزء إلا إذا عرف الأمرين معاً، ومن المستحيل أن يعرف الأمرين معاً.

هذا أمر راجع إلى الباحث إذن. إن طريقتنا في معرفة الحقائق تؤثر في هذه الحقائق. لكن أهم ما دعاهم إلى هذا التفكير هو دراسة تاريخ العلم، وهذا أمر أهملناه جداً مع

الأسف. وباستثناء بعض إخواننا الذين اهتموا بتاريخ العلوم عند المسلمين فإن هذا أمر أهملناه. نحن ظننا أن العلم أهميته فقط في واقعه الآن وفي حاضره. لكن تاريخ العلم، حتى لو كانت النظريات التي قال بها العلماء السابقون أصبحت باطلة، تاريخ العلم نفسه هو دراسة، ودراسة هذا التاريخ أوصلتهم إلى نتائج عجيبة. كان أول من كتب عنها أحد الأمريكان واسمه كُون، وكتابه أحدث ثورة تقريباً. عنوان الكتاب (The Structure Of Scientific Revolution) "بنية الثورات العلمية". هذا الرجل كان دارساً للفيزياء النظرية، ثم تحول فبدأ يدرس تاريخ العلوم، ولاحظ شيئاً عجيباً وكتبه في الكتاب، وهو أن الناس من عهد إلى عهد في التاريخ تتغير نظرتهم لما هو علم، لمفهوم العلم وللمنهج وللتفسير وغير ذلك. لماذا؟ قال: في كل حقبة من حقب التاريخ يكون هناك إطار يضع الناس أنفسهم فيه، في ضوء هذا الإطار يشاهدون، وفي ضوء هذا الإطار يفعلون كذا وكذا.

طبعاً لم يوافق الناس جميعاً على كل ما قال، لكن هذه الحقيقة مما قال أصبحت أمراً مسلماً به. طبعاً هو وبعض الآخرين غلوا في تفسيرها، لكن هذا لا يهمنا الآن. المهم أنه من المتفق عليه الآن أن للعلوم أطراً، وهذه الأطر ليست من العلم. يسمونها فلسفة أو آراء ميتافيزيقية ما ورائية أو قيماً، هي التي تؤثر في العلم. سنتحدث فيما بعد إن شاء الله عن مدى هذا التأثير، لكن هذا تقريباً متفق عليه.

ما هي هذه الأطر؟ الذي سأقوله هو من عندي لكنه مستخلص من هذه الدراسات. يمكن أن نقول إن هذه الأطر أنواع، بعضها واسع جداً وبعضها أضيق، بعضها يدخل في بعضها الآخر. الإطار الكبير الذي يمكن أن نسميه بفلسفة الإنسان في الحياة أو دينه أو كذا، هذا الإطار الكبير في هذا الإطار يحدد الإنسان ما هو موجود. أي ما الذي يعترف بوجوده، وإذا حدد ما هو الموجود، إذا تحدد على ضوء هذا ما هو العلم. العلم سيكون بهذا النوع من الموجودات. كل كلام عن أي نوع آخر لم يعترف به الإطار لا يعتبر علما، يعتبر خرافة. ويتحدد المنهج؛ لأنه سيكون هو المنهج المؤدي إلى العلم بهذا النوع من الموجودات وكذلك التفسير العلمي، وهكذا. هذا الإطار يضع فيه الناس أنفسهم في حقبة من حقب التاريخ، ويربون عليه طلاب العلم ويتربون على هذا. لا

يقال لهم إن هناك إطاراً، ولكن يقال لهم الموجودات هي كذا، العلم هو كذا، المنهج العلمي هو كذا وكذا. لأن المدرس نفسه لا يعرف أن هناك إطاراً في الغالب، وإنما يتقمصه من غير أن يعرفه، يُشربه (على طريقة الذين أُشربوا العجل) من غير أن يكون واعياً به. ومعظم الناس يعملون حسب كلام كون Kuhn فيما سماه العلم العادي الذي يضع الإطار الذي أطلق عليه "الثورة العلمية". بعد أن توضع الأطر يأتي معظم الناس والطلاب والعلماء العاديون ويعملون داخل هذا الإطار إلى أن يأذن الله بتغيير لهذا الإطار ووضع إطار جديد. في داخل هذا الإطار الفلسفي العام تكون هناك أطر أخرى.

ننتقل الآن سؤالنا المهم وهو: ما الإطار العام الشائع لكل العلوم، سواء كانت طبيعية أو إنسانية، وما الذي تحدد في ضوئه نوع الموجودات والعلم والمنهج العلمي وما إلى ذلك؟ أنا كنت أقول دائماً كلاماً لإخواننا، وكثيراً ما ينكره المختصون بهذا العلوم. كنت أقول لهم: أنتم تنكرون لأنكم لم تهتموا بهذه الناحية من العلم، من علمكم. هذه ناحية اهتم بها من يسمون بفلاسفة العلوم. وكانوا يظنون أن هذا كلام من عندي. طبعاً جزء منه من عندي، لكن الحقيقة في أساسها هم متعرفون بها. فالآن في هذه المحاضرة حاولت أن أجد قائلين من الغربيين للكلام الذي كنت أقوله. ملخص ما كنت أقوله دائماً إن الإطار الذي توضع فيه العلوم الآن هو إطار الحادي مادي. قلت هذا الكلام سنة ١٩٧٦ في الولايات المتحدة فانبرى لي حد إخواننا الأساتذة وكان دكتوراً في الإحصاء، قال لي: أهذا كلام؟! الآن إذا ذهبت إلى أحد أساتذة الفيزياء وقلت له إن أحد إخوننا من السودان يقول إن علم الفيزياء مثلاً إطاره إلحادي، سيسخر ويتساءل: ما علاقة الفيزياء بالإلحاد؟ سيسخر لأنه لا يعرف هذا الموضوع. أنا ما قلت إن كتاب الفيزياء يبدأ بأن يقول للناس ليس هناك إله ولا كذا وكذا، ولكنه يفترض أنه لا يوجد إله، يفترض هذا افتراضاً. والعلم الذي يفترضه والتفسير الذي يفترضه، إلا يفرق الناس تفريقاً حاسماً بين التفسير العلمي والتفسير الديني؟ ما السبب؟ التفسير العلمي هو أن تفسر الأشياء بأسباب من داخل الكون. هذا هو الافتراض الإلحادي، أنك لا تعترف بأثر خارج الكون. هذا الكلام سأذكر لكن الآن بعض ما قاله الغربيون: أولاً قالوا إن هذا العلم بالرغم من أنه شاع الآن وأصبح شيئاً عالمياً، إلا أنه في

نشأته هو إنجاز أوروبي. ونحن لا بد أن نعترف بهذا مهما قلنا من مشاركة المسلمين وما إلى ذلك. العلم بمعناه الشائع الآن هو إنجاز أوروبي، وهذا العلم نشأ في ظروف خاصة، كلنا يعرف طرفاً منها. أهم ما نعرفه منها – وهو شيء مهم في حد ذاته – هو أن العلم جاء نتيجة الصراع بين أصحاب هذا العلم وبين رجال الدين، فهو في نشأته نشأ مصارعاً للدين المسيحي. ولذلك كان كلما تغلب هذا العلم على المسيحية في معركة من المعارك ابتعد خطوة عن الدين. ما نشأ من أول أمره ملحداً، لا. وكثير من العلماء – كما سنذكر – كانوا هم من المسيحيين. ثم لما تمت له الغلبة اعتبر غلبته على النصرانية أو على المسيحية غلبة على الأديان كلها. وهذا أيضاً من استكبار الغربيين، أي يظنون أنه حتى دينهم الباطل هو أحسن الأديان. ما دام هو ديننا ونحن متطورون فهو لابد أن يكون أحسن دين. وكان من نتائج هذا أن وُضعَ العلم في جانب، ووضع الدين في زمرة السحر والكهانة والخرافات. لماذا؟ لأن الدين الذي صارعه هذا العلم كان مختلطاً بكل هذه الأمور، فاعتبر إذا هذا في جانب، وكل هذه في جانب آخر. واعتبر الدين خطراً على التطور العلمي، ولذلك كلما ابتعد عنه كان هذا أحسن للعلم. أذكر لكم – كما وعدت – بعض من قال هذا الكلام. يقول أحد مؤرخي العلوم وهو كاتب مقال "تاريخ العلم" في دائرة المعارف البريطانية: «إن تصور المعرفة الذي كان سائداً في القرن السادس عشر كان لا يزال مختلفاً اختلافاً جذرياً عن مفهومنا اليوم». ثم يقول: «بما أن العالم المحسوس - يعني في ذلك الوقت - كان متأثراً تأثراً شديداً بالقوى الفاعلة الإلهية والجنية والسحرية، كان الغوص في أسراره كذلك أكثر من مهمة دنيوية». يقصد إذا أردت أن تعرف الكون لا تكتفي بالمشاهدة، فلابد أن تعرفه بمعرفة دينية، لأن القوى المؤثرة فيه ليست قوى مادية فقط. ثم قال: «بما أن بعض جذور المفهوم الحديث للعلم كانت في الصراع ضد هذه النظرة إلى العالم، فمن الصعب أن نتصور كيف كان من الممكن وجود نظرة علمية في داخلها. وعلى كل فإن المؤرخ سيظل حبيس مقولاته المؤقتة إلى أن يتسنى له الوصول إلى تفاهم مع هذه النظرة». وملخص كلامه: كأنه يجد صعوبة، كيف يمكن أن يكون هناك علم في داخل إطار ديني؟ لأن مفهوم العلم الذي يعرفه الآن إنما نشأ ضد هذه النظرة، فهو لا

يكاد يتصور ذلك بالمرة. لذلك سيظل حبيس إطاره الذي عرف فيه العلم. ثم يذكر صاحب المقالة هذه أن العلم مرَّ بمرحلتين، أي أثّر فيه شيئان: التقنية التي حدثت في القرن السادس عشر – ويقول إن الناس حتى ذلك الوقت ما تزال نظرتهم إلى المعرفة نظرة مختلفة – والثورة الفلسفية التي حصلت في القرن السابع عشر. والثورة الفلسفية – كما تعرفون – هي تلك قادها بيكون في إنجلتزا وديكارت في فرنسا وجاليلي في إيطاليا. الذي بقي من هذه الثورة التي أعطته الفكر الأوروبي هو ما انتهى إليه ديكارت وجاليلي. وهذا الكلام كنت استنبطه مجرد استنباط، ولكن الآن وجدت من يقول من الغربيين. يقول (وهذا ملخص لكلام الرجل): جاءت بنظرية جديدة إلى الوجود مخالفة للنظرة المسيحية، فحواها أن عالم الطبيعة عالم ميت خالٍ من أي خصائص روحية أو شبه روحية، وأنه ليس من الممكن لذلك أن يكون بيننا وبين الطبيعة أي نوع من الحوار، سواء كان عن طريق الكشف الروحي أو الوحي الإلهي. واتفق جاليلي وديكارت – هذا كلام الرجل – على أن العالم مكوّن من أجزاء مادية هي من الصغر بحيث لا يمكن أن تُرى، وأن الظواهر الكونية كلها هي نتيجة تفاعل بين هذه الأجزاء التي لا إدراك لها ولا هدف، وأن تفاعلها لذلك هو بمثابة التصّادم الذي يحدث بين مجموعة من الكرات. ويقول شخص آخر: ولكن حتى في هذا القرن كان الدين ما تزال له بقايا، وكان العلماء إلى ذلك الوقت يقولون إنهم مهتمون باكتشاف قوانين خلق الله (Laws of God's Creation). ثم أسقطوا بالطبع كلمة الله وصارت "قوانين الطبيعة". ويقول الرجل: هؤلاء الثلاثة ونيوتن الذي جاء بعدهم كانوا رجالا مسيحيين، فالذين وضعوا أسس الإلحاد كانوا مسيحيين. الكلمة المهمة التي يقولها كاتب المقال، وهي النقطة التي أريد أن تتذكروها: لم تكن هذه الفلسفة إذن نتيجة للعلم الجديد، كما قد يتبادر إلى أذهان الكثيرين، وإنما كانت تسليماً مسبقاً بمبدأ ميتافيزيقي. وما أريد أن أوضحه من كلام الرجل هو أن الفلسفة سبقت العلم وهي التي وضع هذا الإطار.

نعود الآن إلى سؤالنا فنقول: ما هي خصائص الإطار العام الذي يشيع عند الغربيين وعندنا تبعاً لهم؟ ألخص الجواب في ما يأتي:

أولاً: إن هذا الإطار فلسفة لا دينية، فحواها أن الكون مكتفٍ سببياً – كما يقولون – أي ليس محتاجاً إلى سبب من خارجه، وأنه لا تؤثر عليه قوى روحية ولا إرادة إلهية ولا عبادة إلخ.

ثانياً: إنه ليس إطاراً دينياً بطريقة سلبية، وإنما هو إطار معاد للدين.

ثالثاً: إنه ليس إطاراً إلحادياً فقط، بل هو أيضاً إطار مادي. لأن الإنسان يمكن أن يكون ملحداً ولا يكون مادياً. المادي هو الذي لا ينكر وجود الخالق، وإنما ينكر حتى وجود النفس البشرية، ولا يقر إلا بوجود هذا الجسد. أذكر لكم أيضاً بعض ما قاله هؤلاء. يقول أحد فلاسفة العلوم في الدليل على أن هذا الإطار كان إطاراً إلحادياً، يقول عن دارون: كان يبحث عن عملية طبيعية صرفة لا يتضمن نموذجها تدخل القدرة الإلهية. أي أنه منذ البداية يريد أن يفسر هذه الحقائق التي شاهدها تفسيراً لا دينياً. ويقول آخر عن تفسير دوركايم الظاهرة الدينية إنه أرجع الظاهرة الدينية إلى فكرة التضامن مع النظام الاجتماعي، ويقول إن هذا مبنيّ على حجة إلحادية فحواها أن الأشياء التي يذكرها المنتمون إلى دين ما يجب أن لا تؤخذ على أنها إخبار عن الله، لأنه من حيث المبدأ لا يمكن أن يكون هنالك إخبار كهذا. وعليه فيجب تفسيرها بطريقة أخرى. والتفسير الذي يقترحه دوركايم هو أنها تعبير عن الإخلاص للنظام الاجتماعي. ثم يأتي كثير من طلابنا ويذكرون هذا النوع من الكلام على أن هذا هو التفسير العلمي للظاهرة الدينية، تفسير علمي في إطار هذه النظرة. لأنه إذا قال ليس هناك إله، فإن الواقع يشهد أن هناك ديناً. فكيف يفسر الإنسان الملحد الذي لا يؤمن بالله هذا الكلام عن الله، وكيف يجد له تفسيراً في إطار فلسفته الإلحادية، في أنها فلسفة معادية للدين؟ يقول أحد كبار الفلكيين المعاصرين، وهو رجل ممتاز في الرياضيات والفلك وله نظرة في تفسير التطور تختلف عن نظرية دارون، إن العلماء لن يقبلوا نظريته هذه، لأن العلماء التقليديين مهتمون بمنع الرجوع إلى الغلو الديني الذي حدث في الماضي أكثر من اهتمامهم بالتطلع إلى الحقيقة، إن النظرة – أنا سميتها الحُطمة – (Nihilistic) التي وصفناها آنفاً – أي وصفها هو – قد سيطرت على التفكير العلمي خلال القرن الماضي كله. وهويل هذا- اسمه – له بعض الحق فيما

يقول، لأنني أذكر أنه حدث جدل طويل حول نظرية أخرى كانت له أيضاً عن أصل الكون، وفحواها أن الذرات تأتي من العدم. فقامت قيامة كثير من الناس وانتقدوه، لا من ناحية علمية مجردة، ولكن قالوا إن هذا كلام ديني، وإن هذا سيفتح أبوباً، أحدهم قال: ((It's going to open the floodgates of religion)). أذكر أني قلت لبعضهم إنكم سائرون في غير معترك، لأننا نحن لا نؤمن بهذا، نحن نقول: لو صحت نظرية هويل لبطل الدين، لأنه إذا كانت الذرات تأتي من العدم المحض، لا لزوم إذن لوجود الخالق. فهي ليست دينية. لكن ما كانوا أبداً يستنكرون على أنفسهم أن يعترضوا على نظرية علمية بأسباب من هذا النوع.

هذا الإطار العام. ثم هنالك – كما قلت – أطر داخل هذا الإطار العام. وأيضا يعترف العلماء الغربيون أيضاً بأن كثيراً من النظريات العلمية تأثرت بهذه الأطر الخاصة. والإطار الخاص أغلبه هو الفكر الرأسمالي، أعني أغلب ما وجدت من أمثلة فيه. مثلاً: قالوا إن نظرية مالثوس التي تقول إن عدد السكان يزداد بمتواليات هندسية بينما موارد الغذاء تزداد بمتواليات حسابية، فلذلك لابد أن يكون هناك جوع وفقر وموت، قالوا إن هذه النظرية كانت في الحقيقة اعتراضاً على بعض القوانين التي صدرت في صالح الفقراء، فكان ممن يسمون بالرجعيين الذين يريدون أن لا يعطى للفقراء. ثم جاء سبنسر فحوّل هذه النظرية إلى نظرية أشمل من هذه، وقال – هذه عبارة سبنسر -: إنْ كانوا كاملين بحيث يصلحون للحياة، - يعني الناس – فإنهم سيحيون ومن الخير لهم أن يحيوا. وإذا لم يكونوا كاملين بحيث يصلحون للحياة فسيموتون ومن الخير لهم أن يموتوا. يقصد لا تتعبوا أنفسكم وتضعوا قوانين للفقراء وما إلى ذلك. لابد أن كثيرين منكم ذكر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧]. هو لا يريد أن يطعمهم، لكنه يريد شيئاً يستند إليه، فعندما كانت النظرة الدينية هي الشائعة قال هذه هي ارادة الله، لماذا نتدخل في إرادة الله؟ وعندما صارت النظرة الطبيعية هي الشائعة قال هذا قانون طبيعي، لماذا نتدخل في القانون الطبيعي؟ ثم قالوا إن سبنسر هذا هو الذي أتى بكلمة "الانتخاب الطبيعي"، فجاء دارون واستفاد من كلام مالثوس ومن كلام

سبنسر وهو يبحث عن تفسير – كما ذكرنا – للتطور لا دخل للقوة الإلهية فيه، فأخذ هذا وهذا وصنع منه نظريته. وفي هذا قال أحد مؤسسي الفكر الماركسي كلاماً جميلاً جداً. وبالمناسبة كثيراً ما نجد في كلام الماركسيين نقداً جيداً للنظام الرأسمالي، نحن دائماً نقرأ انتقاد الرأسماليين للشيوعيين، لكن ينبغي أيضاً أن نستفيد من نقد الشيوعيين للرأسماليين. قال إنجلز: «إن كل ما فعله دارون في قوله بالصراع من أجل البقاء هو أن حوّل (نقل) من المجتمع إلى الطبيعة المبدأ البرجوازي الاقتصادي في التنافس، ونظرية مالثوس في السكان. ثم لما اكتمل أداء هذه العملية السحرية حُوِّلت النظريات نفسها مرة أخرى من الطبيعة إلى التاريخ، وادّعي الآن أن البرهان قد قام على صدقها بكونها قوانين خالدة للمجتمعات الإنسانية». فحتى نظرية دارون كان فيها رائحة لتأييد التفكير الرأسمالي. فهذا يبين لإخواننا المهتمين بالدراسات الإنسانية أن المسألة ليست كما يقال دائماً أن أصحاب الدراسات الإنسانية هم الذين يأخذون من أصحاب الدراسات الطبيعية، بل العكس أحياناً يحدث. وكثيراً ما يحدث أن صاحب الدراسة الطبيعية يأخذ الفكرة من صاحب الدراسة الإنسانية، ثم يأتي ذاك وتسره عندما تتحول إلى نظرية طبيعية فيأخذها مرة أخرى. كما حدث هذا بالنسبة لسبنسر بعد أن قال دارون بهذا، فجاء السبنسريون بعد سبنسر وسموا نظريتهم "الدارونية الاجتماعية". وهي بضاعتهم ردت إليهم.

هذا – إذن – هو الإطار العام، وهذه بعض الأطر الخاصة التي تأثرت بها العلوم، ثم هنالك أطر أخص من هذا. كل العلوم الإنسانية – كما يقولون – مبنية على تصور معين للإنسان، سواء ذُكِرُ هذا في العلم أو لم يذكر. ما هو هذا القصور؟ لا يأتي به العلم نفسه، وإنما يأتي به الإنسان. كنت قد كتبت مقالا طويلاً قبل ذاك في مسألة مفهوم الإنسان، لكن ألخصه لكم في أن الفكرة الشائعة في الغرب عن الإنسان هي في حقيقتها مأخوذة من الدين المسيحي، ثم أخَذَتْ أشكالا لا دينية. الفكرة المسيحية هي أن الإنسان يولد ومعه الخطيئة. فرويد – نقلتُ عنه كلاماً في ذلك المقال – يقول: «إن الإنسان فيه عنصر من الشر هو جزء من طبيعته، بحيث إنك إذا أستأصلته لا يصبح إنساناً». إذا كان هذا تصوره، تفهمون إذن مسألة الجنس والتفسيرات التي لا تستغربونها. ماركس الإنسان عاش مغترباً طول حياته ولن يكون إنساناً إلا في المجتمع

الاشتراكي. إذن ماله حيلة، يولد في المجتمعات الطبقية هذه ولا يكون إنساناً حقيقياً إلى أن يأتي المجتمع الاشتراكي، وهكذا. فأيضاً من الأشياء التي نتنبه إليها، مثلاً في الاقتصاد، نظرية كينز مبنية على تصور معين للإنسان. وهكذا قل في غير علم النفس. نظريات سكنر في علم النفس مبنية أيضاً على تصور بين للإنسان. بل حتى بعض الدراسات التي يُظن أنها دراسات بريئة جداً، مثل قولهم قمنا بدراسة مثلاً في المجتمع الأمريكي، وقام العلماء الاجتماعيون دراسة وأظهرت أن استجابة الرجال المتزوجين كذا واستجابة النساء كذا والمطلقات كذا، دائماً أسأل نفسك: أين هذا؟ من هؤلاء الرجال؟ إذا ما سألت نفسك هذا السؤال ستعمم هذا وتقول البشر من حيث هم، لكن هذا ليس بالضرورة، نعم ربما هذا ينطبق على كل البشر، لكن ليس دائماً. بل قال كثير من العلماء إن كثيراً من نظريات فرويد مبنية على مشاهداته في البلد التي كان فيها، وإن معظم الناس في تلك البلد ما كانوا طبيعيين. ما الذي نستنتجه من هذا؟ ماذا يكون موقفنا؟ اختلف الناس عندنا في العالم الإسلامي وفي العالم العربي إزاء هذا الموضوع إلى مواقف مختلفة. منهم التي سيطرت على ذهنه تلك الفكرة التي قلنا إنها الفكرة الشائعة، ولذلك اعتقد أن كل كلام عن إسلامية العلوم ما هو إلا محاولة لتحريف العلم.ويقفز إلى أذهان هؤلاء شيء فعله أحد العلماء الروس اسمه لا يسنكو، ظن في بعض النظريات في الوراثة لا تتناسب مع الفكر الماركسي، وكانت له قوة ادارية فمنع هذا النوع من الدراسة وأراد أن يرجع علماء الأحياء. هذا شيء مشهور جداً عند المؤرخين للعلوم. هذا موقف. موقف ثان هو موقف الذين عرفوا أن هناك أطراً فعلاً، وأن الناس يختلفون بحسب هذه الأطر، لكنهم عظّموا الأطر الغربية حتى جعلوها كأنها هي الأطر المعرفة بالألف واللام. ومن أمثلة هؤلاء – وأقولها وأنا متأسف جداً – رجل مصري مفكر كبير يعرف الفلسفة الغربية معرفة جيدة ويشرحها شرحاً جيداً هو الدكتور زكي نجيب محمود. كثيراً ما آسف عندما أقرأ له. نظرية لإنسان معين أو فكرة تسود في الغرب فيصورها لقارئه العربي كأنها فكرة العصر. تأملوا كلمة العصر كلمة مخيفة. فهو كأنه يقول لي إذا أردت أن تعيش في عصرك فهذا هو الذي ينبغي أن تفعله، وذكر بعض هذه الأطر التي ضربت لكم أمثلة عليها، ذكر بعضها واستنتج منها أن هذا هو الإطار المناسب للعلم،

فإذا نحن أردنا العلم فلا بد لنا من أخذ هذا الإطار. موقف ثالث هو موقف إخواننا الذين يدعون إلى تأصيل العلوم، وأيضا هؤلاء ما تزال الفكرة من ناحية التنظير ليست واضحة كل الوضوح في أذهانهم. بعضهم سرّهم هذا الكلام عن عدم الموضوعية، وقالوا: انتهى الأمر، أنتم بإطاركم ونحن بإطارنا. أي المسألة لم تعد علماً، أنتم تنظرون من هنا ونحن ننظر من هنا. طبعاً هذه حجة قد تكون مفحمة للغربي، قل له أنت لك نظرة وأنا لي نظرة. لكن هذه معناها أولا: أنه ليس هناك في الحقيقة علم، وإنما هي مجرد آراء وتحيّزات وما إليها. أو أنه إذا كانت هناك حقيقة فمن المتعذر على الناس أن يعرفوا هذه الحقيقة. بعض إخواننا قالوا لا، - وربما تابع بعضكم الجدل الذي كان دائراً في جريدة "الشرق الأوسط" عن الاقتصاد وغيره – إن الاقتصاد الذي نريده هو أن هناك علم اقتصاد، واقتصاداً يمكن أن نسميه توجيهياً أو معيارياً. فيقول من ناحية علم الاقتصاد نحن متفقون ولكن مختلفون في المعيار. إذن من ناحية العلم ليس لدينا علم اقتصاد، لكن أين علم الاقتصاد؟ الذي يدرَّس للطلاب في كل جامعات البلاد الإسلامية هو طبعاً الاقتصاد الغربي الرأسمالي، والذي يقول بعض الغربيين أنفسهم عنه إنه هو نفسه جزء من الدعاية الرأسمالية. فهذا الذي يسمى علم الاقتصاد ثم الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد الاشتراكي، هذه تحيزات. أما علم الاقتصاد فهو هذا. فهل نقول مثل هذا الكلام؟ هل نحن فعلاً لا نختلف مع الغربيين في النظرة إلى الواقع وفي تفسير الواقع؟ هذا أيضاً ليس بصحيح. إذا قلنا نحن نريد أن نستبدل بذلك الإطار المادي الإلحادي إطاراً إسلامياً، ما معنى هذا؟ هل معناه – كما قلت – أننا نريد أن نستبدل بتحيز تحيزاً آخر؟ في القرآن الكريم ما يدل على أن الإنسان فعلاً إذا وضع نفسه في إطار معين تخفي عليه بعض الحقائق. لكن الذي نستفيده من القرآن أنه حتى حين يضل الإنسان يمكن أن لا تخفي عليه كل الحقائق. فإذن هذا الإطار الذي ننتقده عرف بعض الحقائق، فلا نستطيع أن نقول إنه نظرة ذاتية بحتة لأنه حتى تلك النظرة التي قلنا إنها إلحادية اعترفت بحقائق، أن هنالك مادة وأن هنالك جزئيات وأن هذه تؤثر. فالذي يعترف بهذه الحقيقة يمكن أن يصل إلى نتيجة. لكن لو قال إنسان لا يوجد شيء اسمه مادة وإنها كلها مجرد آراء، وإن السحر هو الشيء الأساسي لا يصل إلى ما وصل إليه هذا التفكير الغربي. ففي القرآن – كما قلت – ما يدل على هذا.

مثلاً، الله سبحانه وتعالى يقول عن الكفار ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، فإذن هم يعلمون. وضعوا هذه الآية مع آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]، كانوا يرون ماذا؟ قال: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ كانوا يرونها، لكن كانوا يرون (ظاهراً)، ما استنتجوا منها النتيجة التي ينبغي أن تستنتج، ما فسروها التفسير الذي ينبغي أن يفسر. هنا تدخّل الإطار ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

جاءوا وهم معتقدون ومصرون على أنه ليس هناك آخرة، فإذا لا يمكن أن نفسر الذي رأيناه تفسيراً. ضع هذه الآية مع آية ثالثة: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، فكأن عدم الإيمان بالآخرة – أي الخلل في الإطار – يكون أيضاً خللاً في العقل، في بعض العقل، أي لا يكون مجنوناً مرة واحدة، لكن يمنعه. فإذن ما الذي نريده نحن؟ نحن نريد نظرة أشمل من هذه النظرة الإلحادية، ستتضمن كل ما اعترفوا به من حق. ولذلك تصل إلى كل ما وصلوا إليه من حقائق أو تعترف بكل ما وصلوا إليه من حقائق. لأن هذه الحقائق هي مما يعترف به هذا الإطار الجديد. لكنه يكون إطاراً صاحبه مفتوح الذهن لأن يجد مؤثرات غير التي يقولها صاحب النظرة المادية، إطاراً يؤمن بالنفس وبأن هناك إرادة. سيختلف هذا الإطار عن الإطار الذي صرعه المنهج العلمي الحديث في أنه لا يتصور الدين كما يتصوره ذلك الإطار. ذلك الإطار كان يعتبر الدين القوى الإلهية كأنها إحدى القوى. هناك قوى إلهية وقوى طبيعية وقوى جنّية وقوى سحرية، وظل هذا في تفكير كثير من المتدينين، حتى كان الآخرون يضحكون منهم، لأنه كانوا دائماً – وهذا أرى أن بعض إخواننا يفعلونه الآن – يسرهم جداً إذا عجز العلم عن تفسير ظاهرة من الظواهر، يقولون هذه إرادة الله، وبعد قليل ينجح العلم في تفسير الظاهرة، فسموه (The God of gaps). نحن طبعاً لا نقول هذا، نحن نقول هذا السبب هو من خلق الله، الله هو الذي خلق الأسباب وهو الذي جعلها أسباباً، فالشيء أو الظاهرة وسببها أو القانون الذي يحكمها، هذا

كله بإرادة الله سبحانه وتعالى. وعندما نتكلم عن الجن أو الملائكة أو القوى الأخرى نتكلم فيها كلاماً منضبطاً، ليس متروكاً لكل عالم أو شخص يقول لنا أنا بحثت في الظاهرة الفلانية واكتشفت أن الملائكة هي التي عملت كذا وكذا، لا، هات الدليل إما من الدين أو من الواقع. سيكون أيضاً الفرق بيننا وبينهم أن ديننا دين يعترف بالواقع المحسوس ويعتبر أن الذي يماري فيه مكابر لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، فهذه وسائل المعرفة، سواء كانت معرفة دينية أو معرفة دنيوية.

فإذن كل علم جاءنا عن طريق الحس أو عن طريق العقل الصريح – كما تعرفون كتاب ابن تيمية "موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول" – كل هذا يعتبر علماً. بالنسبة للدين أيضاً الكلام عندنا ليس كلاماً منضبطاً، الدين ليس هو ما يقوله البابا وليس هو ما يقوله الشيخ الفلاني وليس هو ما يقوله الولي الفلاني، وإنما الدين له مصادر معروفة، وله منهج. وهذه مسألة تحتاج إلى محاضرة أخرى. لنا منهج علمي في كيف نصل إلى حقائق الدين. فبهذا سيكون إطارنا مختلفاً عن الإطار الإلحادي من ناحية، ومختلفاً عن الإطار الديني الذي صرعه الإطار الإلحادي.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

س: هل يوجد في مدارسنا -قبل التخصص وبعده- تنافس بين العلوم التجريبية والعلوم النظرية، وإن وجد فما هي نتيجة ذلك؟

ج: الظاهر في كل العالم الإسلامي أن معظم الطلاب يفضلون الذهاب إلى العلوم الطبيعية، أليس كذلك؟ فهناك تنافس بين الناس، وليس بين العلوم. وأظن أن معظم الطلاب يفضلون الذهاب إلى الخط الذي يسمى بالعلم الطبيعي.

س: ما التعريف الإجمالي للعلوم الإنسانية بالتحديد؟

ج: أنا فكرت في هذا، فقلت لعل الفرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية أن العلوم الطبيعية تدرس الكائنات وهي ميتة، تدرسها كائنات طبيعية لا إرادة لها ولا حس وما إلى ذلك. أما العلوم الاجتماعية فهي تدرس كائناً حياً. حتى العلوم الطبيعية عندما تدرس الكائن الحي تدرسه من جانبه الذي لا حياة فيه. هذا على العموم. لكن العلوم

الاجتماعية تدرس كائناً ذا وعي وإرادة، وتحاول أن تترسم خطى العلوم الطبيعية في أن تكتشف ظواهر معينة يمكن أن توصف بأوصاف اطرادية، في كل كذا يحدث كذا، كلما حدث كذا حدث كذا، أي أوصاف كأنها قوانين. ثم تحاول أن تكتشف فعلاً إن كان هناك قوانين اجتماعية، سواء إذا كان في علم النفس قوانين نفسية، أو إذا كان علم الاجتماع قوانين اجتماعية، أو إذا كان في علم الاقتصاد قوانين اقتصادية، ثم تحاول أن تفسر هذه الظواهر وهذه القوانين كما يفعل الناس في العلوم الاجتماعية. ولعل بعض إخواننا المختصين من الحضور يأتوننا بالتعريف الجامع المانع.

س: إذا كانت العلوم الإنسانية والطبيعية الموجودة مبنية على الإطار الإلحادي، فتعليمها في البلاد الإسلامية كما هي يجلب مضاراً ووبالا على الأمة الإسلامية. أليس كذلك؟ وما سبيل الخروج من ذلك؟

ج: نعم. هذه مشكلة كبيرة. نحن لا نستطيع أن نقول الآن لا ينبغي أن تُعلّم، لكن فلنقلل من ذلك. خطرها الحقيقي في أنها تنقل هذه الروح الإلحادية إلى ذهن الطالب، بدون أن تقول له هذا، تسري هذه الروح إلى ذهن الطالب. فلعله مما يساعد على هذا أن نقول كلاماً كالذي قلته اليوم. أنا كنت بحكم التخصص مهتماً بهذه القضايا، لكني كنت أظن في بداية الأمر أنه لا علاقة لها بمشكلات العالم الإسلامي، فأهملتها مدة طويلة. ثم التفتّ فإذا هي من أهم المشكلات. ولذلك أرى الآن أنه على كثير من إخواننا المهتمين، خصوصاً بتأصيل العلوم، أن يقرأوا بعض الشيء في ما يسمى بالفلسفة العلمية، لأن كثيراً من الكلام الذي يقولونه قد قاله كثير من الغربيين وناقشوه، فلا تبدأ من حيث بدأوا وإنما أنظر فيما انتهوا إليه. وهذا يساعدنا كثيراً. فلو أننا قدمنا بمقدمات مثل هذه في الكتب العلمية وفي كليات التربية، الأساتذة الذين يتخرجون ويدرّسون الطلاب، لو أننا نبهناهم إلى هذا. طبعاً كثيراً من الحقائق التي تقال للطلاب ليس فيها إلحاد، كما قلنا إن النظرية وإن كانت إلحادية يمكن أن تعترف بواقع وتصل إلى حقيقة، لكن الخوف هو من نقل الروح. لا زلت أذكر تجربة لا أنساها أبداً، عندما جئت إلى جامعة الرياض- في ذاك الوقت – كنت في قسم الثقافة الإسلامية فكنت أدرّس طلاب العلوم الثقافة الإسلامية، فكنّا دائماً

نتناقش في مسألة المادة لا تستحدث ولا تفنى، أقول لهم إذا قلتم المادة لا تستحدث ولا تفنى فأين يذهب قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]؟ وأقول لهم: ((لا تستحدث)) هذه ترجمة لطيفة، أما في الكلمة الإنجليزية (لا تُخلق) Not created nor destroyed لا تُخلق ولا تفنى. فإذا كانت لا تفنى ولا تُخلق فكيف الله خالق كل شيء؟ فوجدت عجباً. كل طالب متدين فسرها تفسيراً من عنده. المهم يريدها أن تكون متمشية مع الدين، لكنه يفسرها من عنده. أحدهم يقول معناها أن الإنسان لا يستطيع أن يخلقها. الإنسان لا يستطيع أن يخلق جبلاً ولا ناراً ولا بحراً ولا شجرة. فنظرية داروين – عندي كلام عنها نقلته عن بعض العلماء – يقولون إنه كانت لها آثار ضارة من الناحية الخلقية، من الناحية السلوكية. قال هويل إن من أضر ما نتج عن نظرية داروين أنها جعلت الناس يتصورون أن البقاء هو أهم قيمة. وإذا قلت إن مجرد البقاء أهم قيمة فتصوروا كل أنواع الاتجاهات الانتهازية، أي يحق كل شيء إذا صار البقاء أهم قيمة. فبعض النظريات العلمية لها جوانب في خلق الناس وفي قيمهم توثر فيهم. فهذا هو الذي ينبغي أن نلتفت إليه. وبالمناسبة فإن نظرية داروين هذه، أظن أننا إلى الآن لم نقل فيها كلاماً محترماً جداً، وأنا ألوم إخواننا أساتذة علوم الأحياء. وما يزال كثير من الناس في أنفسهم يصدقونها، حتى من المتدينين، أو يرى أن الحجة فيها قوية جداً أقوى من الكلام الذي يقوله الإنسان المتدين. فلا بد من كلام واضح في هذا. وفي رأي أن من أهم ما ينبغي أن يوضَّح هو الفرق بين التطور والنظرية في التطور. كثيراً ما يخلط الناس بينهما. التطور من حيث هو أن هذا يقود إلى هذا وأن هذا كان كذا ثم صار كذا هذا في خلق الله واضح، ربنا ما خلقني بهذه اللحية البيضاء، كنت كذا ثم صرت كذا وكذا. فإن أردت أن تسمي هذا تطوراً سمّه. فالذي حدث للمخلوق الواحد لا يمنع أن يحدث لجنس المخلوقات. فالتطور من حيث هو حقائق لا شيء فيه. لكن كيف حدث التطور؟ ماهي القوة التي كانت وراء التطور؟ هذه هي نظرية داروين. مشكلة نظرية داروين ليست هي إثبات أن هناك تطوراً، وإنما تفسير التطور بأنه انتخاب طبيعي لا علاقة له بالقدرة الإلهية وانتخاب أعمى... إلخ. حتى هويل هذا الذي قلت لكم إن له نظرية في التطور يقول إن داروين أخذ نظرية التطور من

مسألة التنافس كما قال إنجلز. قال: بعد الثورة الصناعية نشأت الشركات فكانت كل شركة لا تبقى إلا إذا جوّدت منتجاتها. فأصبحت الجودة هي البقاء، أنت تصنع صابوناً وأنا أصنع صابوناً وهذا يصنع صابوناً، فلكي أبقى في السوق لابد أن يكون صابوني أحسن من صابونك، أو على الأقل مثله. فقال هويل: حتى هذه الفكرة الرأسمالية التي أخذها ما أوفاها حقها، لأن الجودة هنا وراءها عقل بشري، هو الذي يفكر ويقول كيف أُجوِّد. أما في نظرية داروين تحولت إلى عبث وإلى شيء لا هدف له. فهذا الجانب – في رأيي – الذي ينبغي أن يذكر للطلاب، وهو جانب تربوي مهم جداً. إذا صارت العلوم على حساب هذا التفكير وهذه القيم يكون ضررها أكثر من نفعها. لكن من الممكن أن نحتفظ بكل منافعها. ومنافعها كثيرة ونحن محتاجون إليها. ونتقي هذ الشرور المصاحبة لها فلسفياً.

س: ألا تعتقدون أن نظرية النظم المتفتحة الآن في الغرب في منهجية العلوم الاجتماعية منسجمة كثيراً مع التصورات الإسلامية، أم أن هذا ما أخذه الاجتماعيون عن نظريات علوم الفيزياء والأحياء وغيرها؟ شاكراً لكم إلقاء بعض الضوء على ذلك.

ج: أنا أعرف نظرية النظم المتفتحة، لكني لست مختصاً. العلم الوحيد الذي أعرف عنه بعض الشيء لأنني درسته مع الفلسفة هو علم الاقتصاد. أما المنهج هذا فأعرفه بحكم الاهتمام بالمناهج. كثير من المناهج، وليس هذا وحده، مفيدة إذا وضعت في الإطار. عندما تقول "نظام" فأنت تفترض أشياء فاعلة كثيرة، وتريد أن تعترف بها كلها. الإطار هو الذي يحدد لك ما هي هذه الأشياء الفاعلة. فأنت، إذن قبل أن تتبنى المنهج محتاج إلى هذا الإطار. فهذا الذي كنت أركز عليه. أما بعد أن نحدد الإطار لا أقول إننا جميعاً سنتفق، في داخل هذا الإطار العام أظن أننا سيكون لنا أيضاً – كما كان لغيرنا – أطر صغيرة، في داخل الإطار الإسلامي سنختلف. وأنا اليوم بعد أن حضرّت هذه المسائل خطر ببالي أن الذي حدث بالنسبة للعلوم الدنيوية حدث أيضاً في الدين. بعض الناس وضعوا أنفسهم في أطر ثم جاءوا إلى القرآن بهذه الأطر، وهذه الأطر منعتهم من أن يروا بعض الحقائق. أليس كذلك؟ الجهمي الذي أتعب أهل السنة، هذا الذي يأتي للقرآن وهو يعتقد أنه من المستحيل عقلاً أن الله سبحانه وتعالى يوصف

حقيقة بأنه عالم أو أنه يرى أو ما إلى ذلك، هذا وضع نفسه في هذا الإطار. لذلك كنت أقرأ قريباً لبعض أهل السنة في الرد قالوا كلاماً جميلاً أنه في الحقيقة ليس هناك فرق بين الجهمية والدهريين، أي الماديين، لأن الجهمي هو في الحقيقة لا يعترف إلا بهذا الواقع. فمشكلته أين يضع الله، إذا كان العلم والعين واليد والسمع والبصر لا توصف بها إلا هذه الموجودات، إذن أين الله؟ فهو يأتي إلى القرآن بهذا التصور، فهما رأى من آيات ومهما رأى من أحاديث سيفسرها في ضوء هذا التصور الذي جاء به. ولذلك يقول ابن تيمية إن بعض هؤلاء لا يصلح معهم النقاش بالنصوص، لأنه قامت في ذهنه شبهة أن هذا مستحيل على الله، أي مستحيل أن الله سبحانه وتعالى يكون هكذا أو أن الرسول ﷺ يقول هذا الكلام. فأنت مهما أعطيته من نصوص لن يقتنع، فيقول لابد أن تبدأ بأن تزيل هذا المرض من ذهنه، تقنعه بحجة عقلية أن هذا الكلام الذي ظنه عقلاً هو ليس بعقل. فأتصور أنه في الإطار الإسلامي سيكون لنا أطر داخل هذا الإطار، سيختلف مثلاً علماء الاقتصاد في مثل هذا النقاش اليسير الذي كان في جريدة "الشرق الأوسط"، مثلاً أحد إخواننا قال – والغريب أنه نفس الأخ الذي قال إنه من ناحية علمية فالناس متفقون على ما هو كائن وأنه لا اختلاف فيه ثم بعد قليل قال – نحن لا نوافق الاقتصاديين الغربيين في أن المشكلة الاقتصادية سببها الندرة. أنا مثلاً لست اقتصادياً، لكنني أختلف معه في هذا. ففي رأيي السبب هو الندرة. وهم عندما يقولون إن سببها الندرة لا يتحدثون عن الإنسان المتدين الذي يأخذ ما يكفيه، لأن الناس مطامعها لا تنتهي وموارد الأرض محدودة. أي إن لم تكن هناك ندرة لما كان هناك بيع ولا شراء. لا أحد الآن يشتري الأوكسجين، لأن كل ما نريده منه ربنا أعطانا إياه، فلا يصبح سلعة. وبعض إخواننا يخلطون بين ما ينبغي أن يكون في القرآن والسنة وبين ما هو كائن. بل يخلطون بين ما هو كائن في مجتمع متديِّن وما هو كائن في المجتمع غير المتدين. بل بعضهم يظن أن علم الاجتماع أو علم الاقتصاد الإسلامي هو للمجتمعات الإسلامية. نحن لا نريد هذا. نحن نريد أن يكون لنا علم اجتماع وعلم اقتصاد يفسر ظواهر، سواء كانت في المجتمعات الإسلامية أو في المجتمعات الغربية، بل نريد أن ننظر إلى تاريخهم من وجهة نظرنا نحن ونفسره بتفسيرنا نحن. ما يحدث

الآن هو العكس، أننا ننظر إلى تاريخنا من وجهة نظرهم هم. المهم أننا سنختلف، خصوصاً في البداية، لكن لا بد من الصبر ولا بد من النقاش والتوضيح لهذه المسائل المعضلة خصوصاً ونحن في بداية الطريق.

س: يقال إن للدين تأثيراً كبيراً جداً في العلم في حياة الغرب. فما هي وجهة نظرك بالنسبة لتأثير الدين على العلم في حياة المسلمين؟

ج: في الحقيقة النقطة الأولى أنا غير موافق عليها. فلا أرى للدين تأثيراً كبيراً. أما بالنسبة لحياة المسلمين الآن لا أظن أن الدافع للدراسات العلمية كان دافعاً دينياً، وإنما الواقع أن الناس اكتشفوا أنهم متخلفون اقتصادياً وحربياً ومادياً ويريدون أن يلحقوا بالغرب. فهي دوافع بشرية عادية. كما أن اليابان حاولت ودول العالم الثالث حاولت، فكذلك المسلمين حاولوا. أما في الماضي فكان الدين هو الدافع، وهذا موضوع آخر، ولكن الآن لا أظن أن الدافع ديني.

مدير الحوار: أود أن أذكّر – أيها الإخوة – خاصة أولئك الذين درسوا في أوروبا والولايات المتحدة أنهم يُسقَون فكرة فصل الدين عن العلم ليس مباشرة، وإنما يقوم المنهج نفسه على هذا الفصل، ونبه لهذا موريس بوكاي في كتابه المشهور في ما يحضرني في الصفحة ١١١ عن هذه القضية، قضية وقوع الطلبة المسلمين في هذا المنهج دون أن يشعروا، ثم بعد أن يعودوا متخرجين يحاولون تطبيق هذا المنهج لأنهم استقوا هذا الشيء.

د. جعفر شيخ إدريس: أذكر في آخر زيارة لي إلى الولايات المتحدة الأمريكية، في اجتماع رابطة الطلاب المسلمين العرب، طلبوا مني أن أتحدث عن أسباب تخلف المسلمين. قلت لهم من ضمن الأسباب ((أنتم)) وأعني بـ((أنتم)) الطلاب المتدينين الملتحين أصحاب الثبات القصيرة الذين يصلون ويصومون. أنتم، لماذا؟ لأن الواحد منكم يأتي هنا ويدرس أربع وخمس أو حتى تسع وعشر سنوات في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد... إلخ، وما فكر أن يعرف الجانب المتصل بعلمه هذا في الدين، لا في القرآن ولا في السنة. نعم، تصلي وتصوم، فأنت في صلاتك وصيامك ودعوتك العامة مسلم، لكن في العلم الذي ستذهب وتطبقه في العالم الإسلامي أنت دوركايم أو فرويد لكن

بلحية وما إلى ذلك. فأنت تخدعني. ستأتيني في العالم الإسلامي وأراك مُلتحياً وتكلمني، خصوصاً إذا كنت بارعاً وأعطيتني آية من هنا وحديثاً من هناك. كلامك سيكون كلام دوركايم لكن فيه آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأبياتاً من الشعر العربي، فتنطلي عليّ الخدعة، وأنا الآن أصبحت فعلاً خائفاً جداً من هذه الفكرة. أرى أن هذا جانب من العلمانية كنا غافلين عنه. نحن نعلم بالعلمانية في السياسة وغيرها، ولكن هناك الآن علمانية ستأتينا عن طريق العلوم الإنسانية وسيكون من دعاتها أناس من بني جلدتنا يتحدثون لغتنا ويصلون في مساجدنا وهم منا. فقلت لهم لا تخدعنّكم صلاتكم وصيامكم، لأن الإنسان يمكن أن يكون متديناً في شخصه أما من الناحية العلمية فسيكون في وادٍ آخر.

س: إن تحدد الحقائق التي عند الغرب هو نفسه يحتاج إلى ميزان علمي أو منهج علمي وهو محكوم أيضاً بإطار. فكيف يمكن تحديد الحقائق التي يجب أن نبني عليها المنهج الديني الإسلامي؟

ج: تحديد الحقائق موضوع يحتاج إلى تفصيل، ناقشناه في كثير من الندوات التي كانت عن أسلمة العلوم. لكن المسألة في أصلها واضحة. نحن نعترف بكل ما يأتينا عن طريق الحس وبكل ما يقوم عليه دليل عقلي وبكل ما يثبت نقلاً. فلدينا مصدران للمعرفة: الكون المحسوس والوحي الذي أتانا به الله سبحانه وتعالى. فكل ما ثبت من الناحية النقلية فهو حق، وكل ما ثبت من ناحية حسية وعقلية فهو حق، والذي يثبت هنا لا نحتاج إلى أن نؤيده بشواهد من هنا، والذي يثبت من هنا لا يحتاج أن نؤيده بشواهد من هنا، ولكن إن وجدنا الشواهد تؤيد هذا والشواهد تؤيد هذا فهذا من زيادة الخير ومن تظاهر الأدلة. لكن هذه أيضا من الأخطاء التي يقع فيها بعض إخواننا الذين يريدون ما يسمى بأسلمة العلوم أن رأيت أحدهم كتب كتاباً في علم النفس كأنه كتاب في الفقه. كأنه ظن أنه لكي يكون الكتاب علم نفس إسلامي لابد أن كل حقيقة نفسية يأتي عليها بشاهد من الكتاب والسنة. وإذا كان الأمر كذلك، فماذا نفعل في الفيزياء والكيمياء؟ لا المهم أن نقول لأنفسنا إن الله سبحانه وتعالى أقر الطريق الذي نسلكه لمعرفة هذه الحقائق. إذن يكفي هذا. ما دام الله قال لنا إن

السمع والبصر والفؤاد هي وسائل للعلوم فيكفي هذا. بل إن الله ذمّ الذين يكابرون في شيء يلمسونه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ..﴾ [الأنعام: ٧]، إذن هذه مكابرة. كتاب نزل من السماء لمسوه بأيديهم، معنى هذا أنه أعظم من أن يأتيه رسول ويكلمه وينكر. كتاب نزل من السماء تلمسه بيدك فتقول لا أصدق؟! فالشيء الملموس المحسوس من الحقائق، نعترف بها من أي مكان جاءت.

د. أحمد التويجري: في البداية أتوجه بالشكر الجزيل لأستاذنا وشيخنا على الجهد الكبير الذي بذله في إعداد هذه المحاضرة. ونسأل الله أن يجعل ما ينتج عنها في ميزان حسناته إن شاء الله. لي تعليق بسيط في ما يتعلق بالقضية الأصلية في محاضرة الليلة وهو يتلخص في الآتي: أعتقد أن المشكلة التي تواجهنا دائماً في ما يتعلق بمسائل المعرفة هو الخلط العجيب بين الحقيقة والتصور الإنساني للحقيقة. فالحقيقة شيء مطلق يمثل الواقع كما هو. التصور الإنساني لهذا الواقع قد يوافق الواقع كما هو وقد يتأثر بأداة التصور. وأداة التصور غالباً ما يقع فيها – ما تفضلتم به – من الأطر الصغيرة والكبيرة. والذي أريد أن أضيفه هو أن هناك إطاراً كبيراً آخر غير الدين أسميه "الواقع الحضاري". فالغلبة الحضارية في زمن من الأزمان تتدخل أيضاً إلى جانب الدين. وهذا ما نعاني منه في هذا الزمان وينطبق بالذات على آخر الكلام الذي تحدثتم حوله في ما يتعلق بالمتدينين. هو في دينه ملتزم بالإسلام ومتفاعل معه إلى درجة كبيرة، لكنه في واقعه الحضاري مغلوب بواقع آخر أو بحضارة أخرى. والمشكلة الكبيرة عندما يختلط على هذا الإنسان تأثير الواقع الحضاري وتأثير الدين الذاتي. ونعتقد أن جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية مقصرة تقصيراً كبيراً في مواجهة الأمرين. مقصرة في مواجهة تحديد نظرتنا من خلال تصورنا الخاص، ومقصرة في تبيان تأثير الواقع الحضاري في زمن من الأزمان.

د. جعفر إدريس: أنا موافق معك. لكن استفدت من كلامك أنه يمكن أن نقول إنه كما أن هناك واقعاً ثم تصوراً إنسانياً يقترب منه أو يبتعد، فكذلك هناك دين يقترب منه التصور الإنساني ويبتعد. ليس معنى أننا مسلمون أن كل تصوراتنا تصورات إسلامية. فيمكن أن ننتمي إلى الإسلام ويكون كثير من تصوراتنا جاهلية، **(إنك امرؤ فيك جاهلية)**. فالجاهلية أحياناً تعظم وأحياناً تضعف بسبب المؤثرات الخارجية.

د. عبدالله زرّوق: في الحقيقة هذه المحاضرة فيها أفكار كثيرة خصبة. وهذا المجال إذا لم يكن من تخصص الشخص ولكن لأنه متصل بالمناهج فيمكن أن نعلق على بعض الأشياء ونستفسر عنها. المحاضرة في أساسها عن الموضوعية في العلوم الإنسانية. وبدأ الحديث بشيء عن المقارنة بين محدودية العلم في العلوم الطبيعية بذكر قانون عدم الحتمية هذا وعدم اليقين. فطبعاً هذا القانون خاص بالأجسام الصغيرة جداً، ولكن الإنسان يمكن أن نعتبره جسماً كبيراً، فيجب أن تعدل الحجة أو تصاغ بحيث إن محاولة معرفة سلوك الإنسان يؤثر في السلوك ويجعله غير محدد. وتوجد بعض الملاحظات لسلوك الإنسان، أي يغيِّر الإنسان سلوكه بأمر الملاحظة نفسها. ولكن توجد طرق للتغلب على هذه الصعوبة. ولكن الذي أراه أنه يجوز أن يكون في محدودية المعرفة أساساً – أشار إليه المتحدث والأخ التويجري – أداة التصور نفسها. فمن المعلوم أن الإنسان كعالم للأشياء يود أن يدرك حقيقتها أو حتى حقيقتها المطلقة، وتوجد من الحجج ما يسند القول أن علمه في النهاية محدود ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. أما الحديث عن الأطر، فمن بعض قراءاتي للدكتور جعفر في مقالاته وفهمي لهذه القضية عند قراءة بعض الأجزاء عند الإمام ابن تيمية، قد يجد الإنسان تصوراً آخر لها. أي أن الصورة التي فهمها الآن من المحاضرة قد تكون مختلفة عما كان عنده من تصور، وهو أن المنهج أو الإطار يحدد ما يعترف به الإنسان من موجود أو خلافه. ولكن الغريب أنني أرى أنه يوجد نوع من التوافق الأساسي بين المنهج الغربي والمنهج الإسلامي على حسب فهمي. فإذا قلنا إن الإطار الأساسي هو العقل والتجربة وإن الدين نفسه تبدأ مسلماته الأساسية من هذا المنطلق، لكن بعد ذلك يعترف الإنسان بأشياء لا توصله إليها التجربة ولا العقل. فيمكن أن نعرِّف العلم عموماً، وقد يعترف بعض الغربيين بذلك، بأنه الذي ينفعنا. فالشيء الذي يعتقده الشخص إذا كان واضحاً بالنسبة له يكون علماً، وإذا احتاج إلى دليل يكون له دليل على هذا الاعتقاد، وإذا طعن في هذا الاعتقاد وشُكِك فيه يثبت عند التشكيك. فمن هذا قال ابن تيمية إن الإطار الجهمي له شبهة، فهذه الشبهة أو التصور نعتبره تصوراً خاطئاً، ويمكننا القول إنه الجهل عند الشخص، فيكون نقطة لبدء المحاورة بيننا وبين هذا الشخص. لهذا

وجدت أن الدكتور جعفر استفاد من بعض الأشياء التي أقحم الغربيون أنفسهم فيها. فإذا التزم الشخص بالمنهج التجريبي العقلي وتجرد، وبعض الناس يفعل ذلك، يمكن لنقاط الخلاف الأساسية بيننا وبينهم أن يكون فيها شيء من التقارب. أي مثلاً لا يوجد هدف للكون يمكن أن يفسَّر أنه مكتفٍ بذاته أي في أن وحدة المادة هي الأصل. وطبعاً الدكتور جعفر في مقالته التي كتبها عن أسس المادية حاول أن يذكر أن الغربيين أنفسهم أُحرجوا في النهاية وحاولوا أن يغيِّروا مفاهيمهم بالنسبة للمادة نفسها، وهذا التغيير ربما يقود في النهاية إلى شيء. فمثلاً مسألة الفطرة في تصورنا للإنسان من الأشياء التي يمكن أن تكون من نقاط الخلاف، كالقول إن الإنسان أصله شرير. مع أننا نجد أن بعض الغربيين أنفسهم لديهم شيء قريب من هذه الفكرة. فأقول في النهاية إن نتائج الإطار قد تكون مختلفة. إن الشخص لا يسلِّم بأشياء من المفروض عليه إلا يسلِّم بها. فنحن في البداية نسلِّم بالنص الذي هو مصدر المعرفة، مصدرنا لسلوك الإنسان وللقضايا الكبرى عن الكون. فمن النص يمكن أن نستنبط أشياء أخرى لو توصلوا إلى هذه النتيجة. و شكراً.

د. جعفر إدريس: بالنسبة لهايزنبرج، أنا ذكرتها لا لأدلل به على عدم الموضوعية في العلوم الإنسانية، ولكن ذكرتها على أنها من الأسباب التي دعت الغربيين إلى أن يقولوا بأن الموضوعية الخالصة لا توجد. ودائماً إذا قيل الشيء أنه صعبٌ في العلوم الطبيعية فيكون من باب أولى في العلوم الإنسانية كذلك. أما بالنسبة للكلام الذي قلته أرجو أن أستفيد منه في تعديل كلامي بعض الشيء نعم، إذا أخذنا المنهج باعتبار أن الإنسان يعترف بالواقع المحسوس وبالعقل وبم يستنتجه من هذا الواقع المحسوس، بهذا الكلام المجرد لا خلاف بيننا وبينهم، على الأقل في ما يكتبون. لكن نريد أن نقول الآن إنهم وضعوا هذا في إطار معين. قال: نعم أنا اعترف بالمحسوس وأعترف بالعقل لكن في حدود موجودات ليس فيها الله ولا فيها ملائكة ولا وحي، في هذه الحدود أنا مستعد. حتى يُذْكَر أن أندر هكسلي كان يسخر من بعض العلماء، كان يقول إن العلم يقوم على المشاهدة. ولكن بعض العلماء الطبيعيين إذا رأوا شيئاً يخالف الأسس التي أقروها أداروا وجوههم إلى الجهة الأخرى. ويذكرون شيئاً يُذْكَر عندنا

أيضاً في السودان – ولا أدري إذا ذكر عندكم في السعودية أم لا – يسميه المسيحيون Levitation، أي أن بعض الناس عندما يكون في حالة عبادة أو غضب يرتفع عن الأرض. فقال إن القس فلان الفلاني تحدى كل قوانين الجاذبية، لأنه حسب قوانين الجاذبية لا يفترض أن يرتفع عن الأرض. وذلك لي بعض إخواننا المتخصصين في الفيزياء – أظنه الدكتور محجوب عبيد – أنه جاء أيضاً شاب يهودي لديه قوة سحرية أو ما شابهها في بريطانيا وأزعج العلماء جداً، لأنه كانت لديه قوة يؤثر بها ي المعادن. فمثلاً إذا كان هناك مفتاح في جيبك، يمسك هو بالمفتاح فتجد أن المفتاح قد أعوَّج وهو جالس في مكانه. بل فعل هذا عن طريق التلفزيون، يقول للناس أحضروا الشُوَك والملاعق، وفجأة تجد أن الملاعق والشوك قد اعوجت. إذن، أين الفيزياء؟ لا يوجد. فقال محدثي إن أحد العلماء اهتم بهذه الظاهرة وبدأ يجمع كلاماً من هذا النوع، ثم كتب لزملائه العلماء يطلب منهم أن يدرسوا معه الموضوع، إلا أنهم رفضوا وقالوا: هذا سيهدم كل البناء الذي أعمل في داخله فلا أحب أن أرى هذا. ولذلك أقول لهم دائماً: أنتم تظنون دائماً أن التعصب يكون في الدين فقط، أبداً. أنا عشت معكم فرأيت علماء متعصبين وفلاسفة متعصبين، لا فرق بينهم أبداً وبين رجال بعض الطرق الصوفية لدينا في السودان. غير أن هذا تعصب في الدين أو على ما أعتقد أنه دين وهذا تعصب في مسائل فلسفية يثور فيها الجدل والخصام والتحزبات. نرجع إلى موضوعنا. إن مما يشجعنا أن المنهج الذي ذكره الأخ زروق هو نفسه بدأ يضيق بهذا الإطار. أي أنه هو نفسه أوصل الغربيين إلى حقائق لا تتناسب مع الإطار. لذلك كتب أحدهم فقال إن المادية تتخطى نفسها. المادية كانت تفترض أن المادة هي الأساس، والشيء الأساس لا يحتاج إلى تفسير. أما الآن فهناك نظريات تحاول أن تفسر المادة نفسها. فبمجرد أن تقول ما هي المادة تكون قد خرجت من الأساس وأصبحت ليست الأساس. فالمادة تتخطى نفسها. هناك جدل كبير – يعرفه إخواننا الذين يدرسون علم النفس الآن – عند الأمريكان ويعقدون الندوات من أجلها، وهو أنه طال الوقت الذي أهملوا فيه مسألة النفس، ويذكرون أن السبب هو الإطار الذي وضعه القرن السابع عشر، هو الذي منع من الاعتراف بالنفس، وقالوا الآن هناك دراسات كثيرة نحن نحتاج فيها إلى أن نعترف

بالنفس بكل نواحيها: الإنسان حين يكون مع نفسه وكيف يتصور نفسه.... إلخ. وفي الفترة التي كنت أدرس فيها كان يُعْتَبر الكلام عن الدين كأنه نوع من قلة الأدب. وأذكر أن أحد الأساتذة الإنجليز قال: لدي نظرية أريد أن أشرحها لبعض إخواننا في المحاضرة، وأفضل طريقة هي أن أشرحها بلغة دينية. لغة فقط، لكنني لا أستطيع أن أستعملها لأنني أخاف أن يقولوا إنني جننت. فحتى اللغة ممنوعة. وكان يقال لنا إن السؤال حتى السؤال: كيف جاء الكون؟ ومن الذي خلق الكون؟ هذا السؤال – دعك من الإجابة عليه صحيحة أو خطأ – هو نفسه سؤال غير علمي. سؤال لا معنى له. هذه هي الفلسفة التي تأثر بها أخونا زكي نجيب محمود والتي يسمونها الوضعية المنطقية. الآن تُكْتَب في هذا الموضوع. في السنوات الأخيرة قرأت كتاباً بعنوان ((الفيزياء الحديثة والخالق)) وكتاباً آخر بنفس العنوان، وكتاباً ثالثاً ((علم الأحياء الحديثة والخالق)). لماذا؟ لأنه حصل تطور في هذه العلوم جعل هذا السؤال سؤالا طبيعياً: من أين جاءت هذه المادة؟ هذا السؤال أصبح الآن سؤالا – على الأقل – مشروعاً، سواء أجابوا عليه أو لم يجيبوا. فإذا قلنا إن المنهج بهذا التجرد الذي قاله الأخ زروق فنحن نتفق معهم. ولكنهم وضعوا هذا في هذا الإطار وبدأ هذا المنهج يوصلهم الآن إلى حقائق يضيق بها هذا الإطار.

د. يوسف العالم: أشكر الأخ جعفر على هذه المحاضرة الطيبة. وبمناسبة الحديث عن العلوم الإنسانية ومناهجه وما ذكره الأخ الدكتور جعفر عن مسألة الإطار، في اعتقادي أن المشكلة كلها تتلخص في الاعتقاد الذي يعطي التصور. ونتيجة لهذا التصور تأتي المعلومات والحقائق وقد يرتبط تصرف الإنسان وسلوكه بذلك التصور. ومنهج العلوم – كما ذكر الأخ الدكتور جعفر – محدود في إطار المادية، لأنه لا يؤمن بما وراء المادة من حقائق. وبالتالي لا يصلح أن يكون منهجاً إسلامياً، لأن المنهج الإسلامي بالنسبة للمسلم يعتقد يقيناً أن الله سبحانه وتعالى وهبه دائرة للمعرفة هي دائرة الحس، ودائرة أخرى هي دائرة العقل، ودائرة أعم هي دائرة الوحي. وبالتالي فإن كل ما يكتسبه من معلومات تتجانس، سواء كانت مصدرها الحواس أو العقل أو الوحي. وفي هذه الحالة يمكن أن نقول إن علم الاقتصاد – مثلاً – لو نظرنا إلى الجانب

المادي العقلي أو التجريبي فيه فهذا يمكن أن يكون معترفٌ به في الإسلام كاعترافهم به في الدراسات الغربية، كاقتصاد قانوني أو طبيعي. لكن الإسلام يختلف في منهجه في الاقتصاد كمذهب وكنظرة لمفهوم المال ومفهوم الطريق الموصل إلى المال ومفهوم تملك المال والتصرف في المال أو الإنفاق أو تنمية المال. هذه المفاهيم مرتبطة بالتصور، وهذا التصور مرتبط بحقيقة الإنسان هذا الإنسان كما بينه الله سبحانه وتعالى فيه عنصر مادي وعنصر معنوي، فكيف يتوازن العنصران؟ أوجد الله سبحانه وتعالى منهجاً لهذا الإنسان، إن سلك هذا المنهج فهو في استقامة وإن خرج عن هذا المنهج فإنه في انحراف، مهما نجح في إطار العلم التجريبي أو العلم المرتبط بالمادة. ولذلك لو أردنا أن نضع منهجاً لهذه العلوم لابد لذلك المنهج أن يكون مرتبطاً بذلك التصور الذي ينبثق من العقيدة بالنسبة للمسلم. ولذلك – كما ذكر الدكتور جعفر- إذا أريد علم اجتماع إسلامي حتى لغير المسلمين فذلك لا يصلح لهم لأن ذلك العلم في حقائقه مرتبط بعقيدة، وهو ذكر أن مفهوم الآخرة يوسع دائرة الإطار، وبالتالي إذا كان هناك علم يفصل بين الدنيا والآخرة بحاجز فلا يصلح أن يكون علماً إسلامياً بالمعنى الصحيح. فكل علم في مفهوم الإسلام، حتى العلم التجريبي، ينتقل في تصور المسلم إلى عبادة. عمارة الأرض أمر من الله موجه إلى الإنسان، كيف يعمر الأرض؟ وهبه الله الحواس والعقل ليعمر هذه الأرض عن طريق استنباط القوانين وتسخيرها، وبالتالي لا ينفصل المنهج عن الاعتقاد يعطي التصور. وفي هذه الحالة نجد أن القرآن يبين لنا ذلك بالنسبة إلى اكتساب المعارف ويقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨]. إذن، العلم يراد به ما جاء عن طريق معطيات الحواس والهدى، العلم النظري المكتسب عن طريق العقل والكتاب المنير هو الوحي الذي يرسم المنهج الصحيح بالنسبة لتصور المسلم. ولذلك – في آية أخرى – يبين أن الإنسان الذي جحد تلك الدائرة، دائرة الوحي، لن يتقدم قيد أنملة نحو مكانة الإنسانية المكرمة المفضلة، ولذلك يقول: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ

بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]. إذن لا بد لأي منهج إسلامي أن يرتبط بالعقيدة وبالتصور. عندئذ لا فرق بين العلم المكتسب في جانب المادة أو في جانب الخبر الصادق. وشكراً.

س: قلت إن أصل العلم في الوقت الحاضر هو من الأوروبيين. فما دور المسلمين مع أنكم تعلمون أن العلم يتطور وأصل العلوم من المسلمين والعرب. وهل تأخُر المسلمين الآن يجردهم من العلم الحاضر.

ج: أنا قلت – مع الاعتراف بما قدمه المسلمون – إن العلم في صورته التي عندنا الآن هو علم أوروبي بغض النظر عمّن أخذوه.

س: هناك شيء إلهامي يعترف به بعض الغربيين يسمونه أحياناً بالحاسة السادسة، وهو شبيه بالذي حدث لمكتشف الجاذبية إسحاق نيوتن عندما تأمل التفاحة الساقطة وتوصل إلى الجاذبية. ونجد مثيل ذلك في قول سليمان – عليه وعلى رسولنا الصلاة السلام – في شأن بلقيس: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١]، وأيضاً: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٤٣]. إلا ترى أن في هذا بعض التأكيد على أن نظرية الإطار الإسلامي تكون مدعومة بهذا المعنى: الإلهام؟

ج: لم أفهم العلاقة بين نيوتن وتفاحته والكلام الباقي. على كل حال، مسألة نيوتن لم تكن فيها حاسة سادسة ولا شيء من هذا القبيل. بل هكذا تحدث المكتشفات والنظريات: أن الإنسان يفكر في شيء، وفجأة ترى شيئاً كنت تراه مئة مرة قبل ذلك بل وألف مرة، فتراه رؤية جديدة لأنك مشغول في فكرة معينة. يحدث هذا حتى في قراءة القرآن. تقرأ الآية ألف مرة ثم في مرة من المرات – مثل الآية التي قرأتها لكم لأنني أفكر الآن في الإطار – استنتجت منها الاستنتاج. وإلا فأنا قرأتها من قبل عدة مرات ولم أفكر فيها هذا التفكير.

س: مما دار من بيان العلوم الإنسانية يبدو لنا جبروت العقل الإنساني، وعليه ننظر للعمل الناتج من العقل بأنه جبروت قد يسيطر على عقول الأجيال التي واكبت عصر التكنولوجيا. فما رأي الدين من موقف العقل؟

ج: العقل الصحيح من الدين. ولذلك لم يرض علماء أهل السنة المقابلة بين العقل والنقل. العقل الصحيح من الدين لأن العقل هو مناط التكليف، لا يكون التكليف إلا بعقل، ولا يُفهمُ الدين إلا بالعقل، والعقل باعتباره قوانين أساسية مما فطر الله سبحانه وتعالى عليه الناس. ولكن يخطر أحياناً ببال بعض الناس مثل الفلاسفة أشياء يظنونها عقلية وهي ليست عقلية، أو كما يقول أهل السنة زعموها عقليات وهي جهليات. لذلك لم يكونوا يسمون المنحرفين عقلانيين كما نفعل الآن. فهم يسرهم هذا الآن، هم عقلانيون ومعناه أنك لا تملك عقلاً. فكان أهل السنة يسمونهم أهل الأهواء أو الفرقة الضالة. لا توجد مقابلة بين العقل والدين. فنحن اعترضنا الآن ليس على ما أوصلته إليه عقولهم ولكن اعتراضنا على أنهم حبسوا هذه العقول في دائرة ضيقة. ونحن نريد أن نوسع هذه الدائرة. والعقل معنا في هذا. وأنا لا أحب كلمة (رأي الدين) لأن الرأي شيء قابل للخطأ والصواب. هو حكم الدين. أما إذا كان رأي جعفر أو فلان فلا بأس.

س: هل تتفق معي بأن مناهج العلوم الإنسانية في الغرب أساسها ليس بصحيح؛ لأنها لا تخضع لمعايير ثابتة؟

ج: بعض أسسها غير صحيح، أو الأساس الذي تحدثت عنه ليس بصحيح. لكن هذا لا يعني أن كل ما فيها ليس بصحيح. كما قلت –ولابد أن نتذكرها يا إخوان – بعض الناس يريدون أن يستنتجوا، وهذا ما سبّب فتنة كبيرة في الغرب وجعلت الملحدين يظنون أن العلم معهم. اعتبروا الأساس صحيحاً ما دام هذا العلم كان قائماً على هذا الأساس وأتى بكل هذه المنجزات. فنحن الآن نريد ان نغير الأساس، فسيقول لنا كثير من الحادبين على العلم أنتم الآن دخلتم في السياسة فقلنا لا بأس، ودخلتم في كذا، والآن تريدون أن تعبثوا بالعلم الذي نريد أن نبني عليه حياتنا. العلم قائم على هذا الأساس، فنحن لابد أن نحل هذا الإشكال. وأنا قلت لكم، إن الحل في القرآن. إن هذا الأساس على الرغم من كونه في عمومه باطلاً إلا أن فيه حقاً. والمنجزات التي حدثت هي ثمرة ذلك الحق الذي فيه ولا تعني أن كل ما فيه حق، وذلك الحق الذي فيه سيكون جزءاً من الإطار الإسلامي.

صالح الصالح: كنت أود من الأستاذ المحاضر أن يعتبر القرآن الكريم مركز العلم كله، وأن يعتبر ما أسماه بالعلوم الدينية أو النظريات أو الإطار مظاهر، وهذه

المظاهر ليس لها كيان قوي. فدوران الأرض أخذ عن القرآن الكريم، اختراق الأجواء العالية، سرعة الضوء الذي يسبق الصوت، كلها مأخوذة من القرآن الكريم. فالقرآن الكريم هو مركز العلوم. ومن أخذ منه سواء كان مسلماً أو غير مسلم فهو إنسان يستفيد من علم الله. والله سبحانه وتعالى توجه للإنسان بشكل عام، فقد ذكر في القرآن خلق الإنسان وبيَّن ذلك وكيف خلقه من نطفة ثم من مضغة ثم من علقة وما إلى ذلك، فهذا كله أساس علمي. حتى بالنسبة للعسل والتمر وفوائدهما -مثلاً ظهرت هذه العلوم عند الغربيين، ولكنها مأخوذة من القرآن الكريم وهي على حق. فوضع الإطار للعلوم بهذا الشكل – في اعتقادي – فيه شيء من التجاوز على الأصل. علينا أن نتحدث عن القرآن الكريم ونظهر العلوم التي تأسست من القرآن وأخذت عنه. حتى علم الإنسان، ونظرية داروين لا تتفق مع العلوم الإنسانية، لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤-٥]. فهذا الرد ليس تطوراً وإنما هو انحداراً.

د. جعفر إدريس: هذه أيضاً من المشكلات التي ستواجهنا في مسألة أسلمة العلوم. يتصور بعض الإخوان العلوم مثل هذا التصور. معناه أن العلوم كلها فقه. وعلماؤنا لم يقولوا هذا، بل قالوا إن العلوم نوعان: علم تكفل الله ببيانه لأن البشر لا يستطيعون معرفته بعقولهم المستقلة ولا بحواسهم، فبينه ربنا: كيف نصلي وكيف نصوم... إلخ. وعِلْمٌ دعانا الله سبحانه وتعالى لمعرفته وأعطانا القدرة على أن نعرفه، فلا يشترط أن نعرفه من القرآن الكريم. فالعلوم كلها ليست مأخوذة من القرآن الكريم – يا أخي –، فلو كان كل العلوم تؤخذ من القرآن الكريم فلماذا – إذن – ندرس الطب والهندسة؟ لندرس فقط القرآن الكريم ونستخرج منه كل هذا. وإذا قلت هذا سيقول الكثيرون: لماذا أنتم المسلمون ظللتم طوال هذه المدة لم تعرفوا هذا الذي في القرآن الكريم إلى أن جاء هذا الكافر وعرفه؟ والقرآن لدينا منذ قرون ولم يقل أحد ما قلته يا أخي. الحياة الدنيا تعرف ما فيها من دون قرآن، مثل طلوع الشمس في مواعيدها وما إلى ذلك. بل هناك بعض الأشياء الدينية التي يعتمد عليها الدين لابد أن تعرف بالحس. نحن مأمورون بأن نتجه إلى القبلة، فكيف نتجه إليها؟ هل نعرف الاتجاه من المصحف؟ طبعاً لا. فالله

تعالى أعطانا وسائل إدراك، فلا نعتمد في هذه الأشياء على القرآن أو على السنة. ولعلك تذكر حديث الرسول ﷺ: **(أنتم أعلم بأمر دنياكم)**، أي أنتم أعلم من الرسول ﷺ بالأمور الدنيوية لأن هذه ليست من شأنه. فالرسول ﷺ لم يأت ليعلمنا كيف نربي البهائم وكيف نسمنها وكيف نزرع وكيف نحصد، فقد لا يعرف هذا. الأعرابي العادي كان يعرف هذا أحسن من الرسول ﷺ، لأن الله سبحانه وتعالى شرّفه بأحسن العلوم وهو العلم بالله سبحانه وتعالى. أما العلوم الأخرى فقال أنتم أعلم بها. مثلاً النحل أبّر أو لم يُؤبَّر فهذه مسألة بالنسبة له غير مهمة أبداً.

(تعليق): ذكر الأخ الدكتور جعفر أشياء يمكن أن تكون بداية لأن ننظر نظرية جدية في مناهج كل العلوم التي تدرَّس، سواء في المدارس أو في الجامعات. والحقيقة أن المواد التي تدرَّس في الجامعات، سواء كانت المواد الطبيعية أو العلوم الاجتماعية أو العلوم الإنسانية، هي في الغالب الأعم قائمة على أصول إلحادية، ليس في ذلك شك. ولابد لنا، إن كنا نريد أن نرجع إلى الحق، أن نقيم هذه المناهج كلها على العقيدة الصحيحة. هذا هو الأساس الذي يجب أن ننطلق منه. نحن - مثلاً - عندما ندرس التاريخ، سواء في المدارس الثانوية أو في الجامعات، ندرسه كمادة ونتلذذ من بعض الأخبار أو نأخذها كإضافة إلى علمنا الذي سبق. ولكن التاريخ ما كان كذلك أبداً في الدين. إنما التاريخ في الدين عظات وعبر، وليست هناك جامعة إسلامية أعرفها في البلاد الإسلامية تدرّس التاريخ من هذا المنطلق. عندما ذهب الرسول ﷺ غزوة تبوك مر بمكان كان فيه من قبل قوم قضى الله عليهم وهم قوم صالح، فلم يذكر لهم قصة طويلة عن هذا الأمر. إنما ذكَّرهم فقط بأن هذه أرض قوم عُذبوا من قبل وأن الذين معه أو الذين يأتون من بعده إن دخلوا هذه الأرض لا يدخلوها إلا باكين. هذا هو التاريخ. فلنأخذ مثالا آخر من علم الأحياء. أنا من الذين درسوا علم الأحياء في الجامعة وعلِّمت أن الإنسان هو الذي يفهم وله العقل وأن الأشياء الأخرى لا تعقل. فكيف بنا والله عز وجل يقول لنا في كتابه العزيز عن النملة التي كانت تخاطب إخوتها ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨]. إذن كانت تعرف هذه النملة سليمان وأن له جنوداً. وأدهى من ذلك وأمرّ أن الهدهد كان في

طلعة أو سفرة فسأل عنه سليمان عليه السلام فلما أتى قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] إلى قوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤]. هذا طائر في علم الأحياء، إذا قلت في جامعة أوروبية إن الطائر الموصوف بشكله المعروف الهدهد يعرف أشياء كهذه ويخاطب بشراً أو يتكلم بكلام يعقله بعض البشر اعتبروك مجنوناً. وهذا الهدهد في تقديري كان أكثر فهماً من كثير من المسلمين الذين يعيشون اليوم. هذه حقيقة.....

د. **جعفر إدريس:** الهدهد عرف أشياء لم يعرفها سليمان، فدعك من المسلمين العاديين!

... فيمكن أن نقيس على هذا أمثلة كثيرة جداً. خلاصة قولنا إننا إن أردنا أن نرجع إلى الحق فلابد أن نقيم هذه المناهج كلها على عقيدة إسلامية صحيحة وهي عقيدة التوحيد التي ترد على ثلاثة أشياء لا يرد عليها أي شيء آخر. هذه الأشياء الثلاثة هي التي تهمنا: كيف أتينا إلى هذا العالم؟ ولم أتينا؟ وما هو مآلنا في آخر الأمر؟ نحن نعلم أن الله تعالى خلق آدم من طين، وأتينا لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ونعلم يقيناً أننا مسؤولون يوم القيامة. لذلك قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

(تعليق) نشكر شيخنا الجليل جعفر، ولكن نريد أن نزيد إلى الموضوع، ربما لم يُتطرق إليها. فالدكتور جعفر ذكر الأطر وهي شيء أساسي في دراسة تاريخ العلوم، وأن الأطر في حد ذاتها من ناحية علمية هي ليست بعلمية لأنها تحدد ما لا يجب أن لا يحدد اصلاً. لأنه من المنطق العلمي في الغرب – كما يدَّعون – أن موقف العالم يجب أن يكون غير محدد أصلاً، إنما هو استنتاجي بحت. وهذه يجب أن توضح. فما يدعى بالعلم المحض في الغرب هو ليس علما بمعايير علمهم كما وضعوها أنفسهم.

المسألة الثانية هي أن الخطأ ليس أصلاً في الانطلاقة فقط، وإنما في انسيابهم لكيفية الوصول إلى الاستنتاجات، إلا وهي الـ Methodology أي علم الطريقة – ليست الصوفية طبعاً –، فعلم الطريقة – كما يظنونها خاصة في علوم الأحياء – هي ما يدعى بالإنجليزية Empirical Process، أي العلم أو الطريقة التجريبية التي تقبل

الخطأ والصواب. فإذن، من خلالها هي غير مطلقة أساساً. وهذا شيء آخر يجب أن ينوه له بأن لا تُجعل تلك النظريات مقدسة. وكم من النظريات في علوم الفيزياء والكيمياء وحتى الرياضيات أفنت بعضها بعضاً. إذن هي ليست بمقياس يُنظر له على إطلاقه، إنما هي – ونظرة المسلم العادل غير الجاحد لها – ما أسميه Cyclical Knowledge إلا وهو العلم المرحلي. هو علم مرحلي يجب أن يُمر فيه ولو كان عرضه للصواب والخطأ.

أما النقطة الثالثة فهي الاختلاف الأساسي بين نظرة المسلمين للعلم المطلق النقلي – لأنه صادر عن مطلق هو الله عز وجل الحي الذي لا يموت – والنظرة النسبية للعلوم عند البشر، إلا وهي العلوم التجريبية أو ما يعتمد بها على الحواس. ويجب أن يُربط ذلك بميزان العلم النقلي والعلم المحسوس إذا تطرق اليه. لأن في العلم المحسوس ما كل ما يُرى قد يكون حقاً. فإذن ليس هو معياراً. يكفي أن نقول إننا نُسلّم بالعلم المحسوس فقط لأنه ليس أصلاً معياراً مطلقاً، وإلا فكثير من الأشياء التي كان مطلقة في وقتها أتت نظريات أخرى فدحضتها، فلم تعد مطلقة ومُسلّماً بها. فلابد من أن نراها بميزانها الحقيقي. المحسوس صادر عن إنسان والإنسان محدود في خلقه وإلا لما كان هناك وجود لله عز وجل الخالق، مصدر كل شيء غير نسبي، بينما كل البشر والمخلوقات أشياء نسبية تتدارج فيما بينها ولذلك لا نجعل العلم الغربي في الاجتماع أو العلوم التطبيقية لا نجعله مقياس لاريب فيه بحيث نقيس علومنا فيه فقط يؤخذ لا يجحد ولكن ليس بقدسيته كما كثير بعض الناس ينبهر به.

د. جعفر إدريس: العلماء المسلمون في الماضي فكروا في هذا الأمر وكيف يُوفّق بين ما نعتقد أنه حقائق في الدين ونعتقد أنه حقائق عقلية أو علمية، ووضعوا قواعد وقوانين مختلفة. وقد كتبت مرة عن القانون الذي وضعه شيخ الإسلام ابن تيمية، وفي نظري هي أقربها إلى الصواب. فهو يقول مادام أن القرآن هو كلام الله والكون هو خلق الله، إذن لا يمكن أن يكون هناك – من حيث المبدأ – تضاد بين ما يُذْكَر في القرآن الكريم وما يوجد في الواقع. وطبعاً ما نعرفه في الواقع نعرفه بالحس، فليس لدينا طريقة غيرها. إذن، إذا اختلفا فلابد أن ما ظننا انه نقل ليس بنقل صحيح، مثلاً الحديث ضعيف أو موضوع. أو كان النقل صحيحاً لكن فهمنا ليس بصحيح. فهنا تكون القاعدة موجودة، فالخطأ هنا منا. ظنناه نقلاً وهو ليس بنقل، فهمناه فهماً ليس بصحيح، أو ظنناه عقلاً وهو ليس بعقل، ظنناه موجوداً وهو ليس بموجود. لكن إذا

سلمنا من هذا لا يمكن أن يكون هناك خلاف. لكن قال بعد هذا إن ما كل ما نعرفه من الدين نعرفه معرفة يقينية، وليس كل ما نعرفه من الواقع نعرفه معرفة يقينية. لكن أحياناً يكون لدينا يقين هنا وأحياناً يكون لدينا يقين هناك. فإذا كان بعض العلم ظنياً وبعضه قطعياً أيهما نقدم؟ قال: نقدم القطعي أيا كان، سواء كان في الدين أو في الدنيا. أضرب مثلاً بكروية الأرض. عندي آيات يمكن أن يفهم منها بعض الناس أن الأرض مسطحة، وهذه الحقيقة قطعية أقدمها. فإذا قيل إذا كان ظنيين ماذا نفعل؟ قال نقدم أرجحهما دليلاً. فالمقارنة هنا ليست بعلم الله وإنما هي مقارنة علمنا بالواقع وعلمنا بما قال الله تعالى. فالمشكلة التي تحدث لنا هنا قد تحدث لنا هناك. ليس لأن هذا كلام الله فيكون فهمنا له كما أراد الله سبحانه وتعالى. كما أن ليس لأن هذا خلق الله يكون فهمنا له دائماً كما خلقه الله سبحانه وتعالى. وأريد أن أقرر فقط اعتراضا على ما قاله الأخ يوسف العالم. أنا من الذين يعتقدون أن علومنا ينبغي أن تكون علوماً لكي تفسر الحقائق في العالم كله، سواء كانت الحقائق الطبيعية أو الاجتماعية، علم الاجتماع الإسلامي ليس علماً للمجتمعات الإسلامية فقط، والقرآن الكريم وما فيه من السنن ليست خاصة بالمسلمين فقط، بل ربما يكون أغلبها عن غير المسلمين. عندما يقول القرآن: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، من هم هؤلاء؟ ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ من هم هؤلاء؟ المصلون؟ لأنه قال في النهاية: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢١، ٢٢].

فإذن، القرآن يصف لنا الواقع، واقع المسلمين وواقع غير المسلمين. ويعطينا السنن. بعضها طبيعي في الكون الطبيعي كله، وبعضها إجتماعي يحدث لكل الناس سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين وبعضها يحدث للكفار. مثلاً ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣]. أي ما حدث لأولئك يحدث لكم أنتم. أو ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ لماذا؟ ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]، وهذا تفسير نفسي. وهكذا، في القرآن سنن كثيرة، بعضها تفسر لنا واقع المجتمعات غير المسلمة وبعضها يفسر لنا واقع المجتمعات المسلمة، و بعضها يفسر لنا واقع المجتمع من حيث هو

سواء كان مسلما أو غير مسلم وهذا هو الذي ينبغي أن يكون لأننا ماذا نستفيد من علومنا هذه إذا ما استطعنا أن نحلل بها واقع الحضارة الغربية وواقع الكفار ونقول ماذا ستكون نتيجتهم وكيف نواجههم. هل نذهب إليهم ونأخذ منهم نظريات يفسرون بها واقعهم ونقول هذه هي النظريات التي نفسر نحن بها واقعهم لأن واقعهم مختلف عن واقعنا، ولذلك نظرياتهم تتناسب معهم ونظرياتنا تتناسب معنا؟ هذه نسبية لا نريدها أبداً. نحن نعتقد أن هناك طريقة لمعرفة الواقع كما هو. أي أن الموضوعية ممكنه، وأن الإنسان كلما اقترب من الدين الصحيح كلما أعطاه الله سبحانه وتعالى فرقاناً يرى به الواقع ويفرق التفرقة الصحيحة بين ما هو موجود في هذا الكون ويفسره تفسيراً صحيحاً. فنحن نعتقد أن التفسير الخطأ والنظرة الغالطة كل هذا سببه انحراف عن الفطرة الأساسية التي فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليها، والتي جاء القرآن الكريم ليكون امتداداً وتقوية له. وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الشيخ محمد الراوي: ما أقوله ليس تعقيباً على محاضرة أخي الدكتور جعفر، وإنما هو في الحقيقة اقتراح نشأ عن المحاضرة. ذلك أننا نحتاج إلى مزيد من الحديث عن الأطر، عن الإطار الديني والإطار الإلحادي لنبصر النتائج في الحالين. لأن القرآن الكريم في الآية التي استشهد بها الأخ الدكتور جعفر ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، أثبت لهم علماً، ولكنه في السورة نفسها نفي عنهم العلم فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾، وغفلتهم عن الحياة الآخرة تجعل النتائج مدمرة. والنظرة الشاملة الكاملة في الإطار الديني تجعلنا نبصر النتائج على حقيقتها ونقوِّم الأمور كلها على حقيقتها. لذلك أقترح أن تدعو هذه المحاضرة إلى محاضرات يتضح فيها الإطار الديني، لا لنتكلم به أنفسنا بل لنطرحه على غيرنا. لأننا نحن لا نعادي العلوم بحال من الأحوال، بل ديننا يدعونا إلى النظر والتدبر، ولكن لمصلحة الإنسان ولغاية عليا هي معرفة من خَلَق ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٩] وشكراً

* * * * *

ثالثاً: كتب ودراسات

التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية

بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٢ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ – الموافق ٢ أبريل ١٩٧٧ م ثم نُشر في مجلة المسلم المعاصر العدد ١٢.صفحة ٦١ – ٨٠.

مقدمة:

من الحقائق التي عرفها وقال بها كثير من المفكرين المعاصرين أن كل نظرية سياسية أو اقتصادية أو تربوية، بل كل رأي في تنظيم جانب من حياة الإنسان يكمن وراءه تصور معين للإنسان قد يعيه صاحب الرأي أو النظرية فيقول به وقد يفترضه ولا يشعر به.

ولذلك فإن النظر في الإنسان ومحاولة الوصول إلى تصور له يطابق حقيقته ينبغي – من الناحية المنطقية- أن يسبق كل محاولة للنظر في المبادئ الاقتصادية أو النظم السياسية أو المناهج التربوية؛ لأن معيار هذه المبادئ والنظم والمناهج هو مدى صلاحيتها للإنسان. ولا يمكن أن نعرف مدى صلاحيتها له إلا إذا عرفنا أولاً من هو؟.

إننا إذاً لم نتبين هذا الأمر ونكون على وعي به فقد نضع مناهج تعليمية ونعتمد طرقًا تربوية نحسبها إسلامية وما هي بإسلامية؛ لأن الإنسان الذي نفترضه ليس هو الإنسان الذي بين لنا خالقه حقيقته، وقد ننقل عن غيرنا مناهج وطرقًا لا نرى بأسًا في نقلها مع أن النظر إليها من خلال هذا التصور قد يكشف عن خللها وقصورها، ظانين أن كل ما قالوا به فهو غير صالح لنا مع أن وزنه بمعيار التصور الصحيح للإنسان قد يثبت صلاحيته.

هذه بالطبع ليست دعوة إلى إيقاف كل جهد لإصلاح التعليم وتقريبه من هدي الإسلام حتى يتم الاتفاق على هذا الأمر، ولكنها مجرد تذكير بأهمية الموضوع ودعوة للمهتمين بشئون التعليم على أن يولوه عنايتهم ويحاولوا اكتشاف الصلة بينه وبين فروع المسائل التي تشغل بالهم.

ثلاث نظريات في طبيعة الإنسان..

من هو الإنسان؟

أهنالك شيء اسمه الإنسان بهذا الإطلاق الذي لا يؤثر فيه أو يغيره زمان ولا مكان ولا جنس ولا لون ولا لغة ولا بيئة ولا ثقافة؟.

انقسم المجيبون على هذا السؤال إلى ثلاث فرق كبرى.

١- فمنهم من أثار وجود إنسان بهذا الإطلاق ورأى أن الإنسان حين يولد يولد محايدًا كالصفحة البيضاء أو الطينة غير المشكلة، وأن البيئة هي التي تكتب عليه ما تريد وتشكله كيف تريد.

٢- ومنهم من قال بلى إن للإنسان حقيقة، وحقيقته: أنه مخلوق شرير يولد الشر معه مفروضًا في طبعه والبيئة هي التي تحاول أن تهذبه.

٣- وفريق ثالث وافق الفريق الثاني على أن للإنسان حقيقة ثابتة، ولكنه قال إن حقيقته أنه مخلوق خير يولد حين يولد على الخير، ثم قد يطرأ عليه التغيير بعد ذلك، وقد يستمر خيرًا وينمي الخير الكامن في نفسه.

وبكل نظرية من هذه النظريات قال مفكرون كبار وعلى كل منها قامت مذاهب حياة جذبت إليها عددا هائلا من البشر، وكان لكل منها آثاره البعيدة والخطيرة في السياسة والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية والفلسفات التربوية.

فأي نظرة منها هي النظرة الصائبة المطابقة لواقع الإنسان وكيف نعرف ذلك؟

هذا ما سنحاوله في الجزء الأول من هذا البحث وفي الجزء الثاني منه نثبت أن النظرة التي قلنا إنها صائبة هي النظرة الإسلامية وفي الجزء الثالث نحاول بيان شيء من آثار هذه النظرة على فلسفتنا التربوية.

مناقشة هذه النظريات:

يحسن قبل الدخول في مناقشة هذه الإجابات على سؤالنا أن نبين بشيء من التفصيل ما المقصود بالسؤال نفسه؟

من هو الإنسان؟

هذا سؤال عن طبيعة الإنسان عن الخصائص التي تشكل في مجموعها هذا الكائن المتميز الذي نسميه الإنسان.

والسؤال عن طبيعة الإنسان سؤال:

١- عن طبيعته الجسدية: ما هو التركيب الجسدي للإنسان؟ وما هي القوانين التي تحكم هذا التركيب، وما الذي يناسب هذا التركيب من أنواع المآكل والمشارب والبيئات والعلاقات؟

٢- وعن طبيعته النفسية: ما هو التركيب النفسي للإنسان وما الذي يناسب هذا التركيب من القيم والأفكار والأحوال.

٣- وعن الصلة بين الطبيعتين: والذي يهمنا بشكل أساسي في هذا البحث هو الطبيعة النفسية فهل للإنسان تركيب نفسي معين كما أن له تركيباً جسدياً معيناً، حيث إن أي خلل فيه يسبب له أمراضًا نفسية، كما أن الخلل في تركيبه الجسدي يؤدي إلى علل جسمانية؟

وإن كان له تركيب فما هو؟

نظرية الحياد:

فالنظرة الحيادية لا تنكر أن للإنسان تركيباً جسدياً معيناً، وإنما هي خاصة بتركيبه النفسي وهي إما أن تقول:

أولاً: أن الإنسان لا تركيب نفسي له حين يولد وإنما البيئة الثقافية والبيئة الحسية هي التي تضع نفسه وتبني من لا شيء شخصيته.

وإذا صحت هذه النظرة فإن مثل الإنسان يكون كمثل الطين الذي يضع منه الأطفال أشكالاً مختلفة من الناس والحيوانات والطيور والمنازل.

ولكن إذا لم يكن في طبيعة الطين ما يحدد نوع الأشكال التي تصنع منه كذلك ينبغي أن لا يكون في طبيعة الإنسان ما يحدد الصورة النفسية المناسبة له أي أن طبيعة الإنسان لا تصلح معياراً نقيس به صلاح البيئة أو فسادها وأن هذه البيئة بيئة المناهج التربوية والنظم السياسية والأوضاع الاقتصادية هي التي تضع هذه الطبيعة الإنسانية وتشكلها وهذا يعني أنه بمقياس الطبيعة الإنسانية فإن أي منهج وأي نظام وأي وضع هو مماثل لأي منهج أو نظام أو وضع آخر.

ولكن إذا لم تكن طبيعة الإنسان هي المعيار الذي نقيس به صلاح هذه النظم أو فسادها فبماذا نقيسها؟

لست أعرف أحداً من القائلين بفكرة الحياد هذه يقبل هذه النتيجة التي تستلزمها نظريته فإنك لا تكاد تجد واحدًا منهم إلا وهو ينتقد بعض النظم الاقتصادية أو

العلاقات الإنسانية أو النظم السياسية... إلخ. عن أساس أنها تمسخ الإنسان وتشوهه أو أنها لا تناسب طبيعته... إلخ.

فكارل ماركس مثلاً يقول في مكان إنه ليس للإنسان طبيعة ثابتة وما الإنسان إلا مجموعة علاقاته الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية متغيرة، ولكنه في مكان آخر يتهم الرأسمالية بأنها شوهت حقيقة الإنسان وجعلته شبيهاً بالحيوان. ولعله لم يفطن إلى أن هذا القول الأخير يناقض الأول؛ لأن القول الأول ينكر أن تكون للإنسان طبيعة ثابتة، والقول الثاني يفترض وجود هذه الطبيعة ونعتبرها طبيعة خيرة.

وإما أن تقول:

ثانيًا: أن للإنسان تركيباً نفسياً معيناً ولكنه تركيب محايد بالنسبة للخير والشر، وإنه يميل إلى هذا أو ذاك بعد أن يولد إما بإرادته الخاصة أو بسبب عوامل خارجية، ولكن هذا معناه أنه ليس في تركيبه النفسي ما يجعل الخير ملائمًا له أو الشر مناقضاً له. وهذا معناه أن ما نسميه خيراً كالصدق والإخلاص والشكر وحب الحقيقة ليس خيراً بالنسبة لنفسه وكذلك ما نسميه شراً ليس كذلك بالنسبة لها. فكيف إذن يقنع نفسه بأن ذاك خير ينبغي أن يفعل وهذا شر ينبغي أن يترك؟ ما هو المعيار؟

إن الحياد بهذا المعنى يجعل النفس الإنسانية كالآلة فالسكين مثلا لا يؤثر فيها فواكه قطعت بها أو أحشاء بريء مزقت بها. إنها معدة لأن تقطع فحسب. وكذلك النفس الإنسانية معدة لأن يفعل بها الخير أو يفعل بها الشر ولا تأثير لأحد الفعلين عليها هي. فهل هذا هو الواقع؟

كلا: فإن نفس الإنسان يشقيها ويعذبها الكذب والنفاق والاستكبار والبخل والهوان ويسعدها الصدق والإخلاص والتواضع والجودة والعزة.

ثم لو كانت نفس الإنسان محايدة لم يكن هنالك معنى لعبارات الأمراض النفسية والصحة النفسية.

نظرية أصالة الشر:

وأما النظرة التي تقول بأصالة الشر في النفس الإنسانية فإن الإشكالات عليها أعظم وانفصالها عنها أعسر إن لم نقل أنه مستحيل.

ما معنى أن نقول إن الإنسان في أصله شرير؟

إما أن نقول إن للنفس الإنسانية تركيباً معيناً، وأن الشر هو مادة هذا التركيب ولحمته وسداه.

ولكن يلزم عن هذا أن يرتاح الإنسان نفسياً حين يفعل الشر ويشقى حين يفعل الخير لأن الراحة النفسية إنما هي أن تكون أقوال الإنسان وأفعاله مناسبة لطبيعته.

أو نقول إن معناه أن الإنسان يولد حين يولد والشر لاصق بنفسه لصوق الدرن بجسم الإنسان وأنه إن ترك من غير تهذيب بقي هذا الدرن في نفسه وازداد. ولكن إذا تعهدناه وتعهد نفسه بالتربية والتزكية، انجلى عن نفسه هذا الشر الذي صاحبها منذ ميلادها.

ولكن هذا المعنى يفترض أن الإنسان في أصله خير وأن الشر أمر طارئ عليه ولاصق بنفسه من الخارج، وكل الذي يقوله إن هذا الشر لا يطرأ على النفس بعد الميلاد ولكن قبله وهو قول لا داعي له ولا دليل عليه.

لا داعي له: لأن الفرض الأقرب أن نقول إن الأمر الطارئ يحدث بعد الميلاد، فكما أن العلل الجسمية تحدث في الغالب الأعم بعد خروج الإنسان إلى الحياة. فكذلك العلل النفسية.

ولا دليل عليه: لأنه لو كان الإنسان يولد والشر لاصق به لكانت أيام الصبا من أشقى أيام الإنسان وأتعسها وأكثرها أمراضا نفسية، ولكن الواقع غير ذلك.

والقول بأصالة الشر هو قول المسيحية التي تعتقد أن كل إنسان يولد وارثاً لخطيئة آدم.

ولكن هذه العقيدة المسيحية شأن كثير من العقائد المسيحية الأخرى أخذت أشكالا غير دينية وتزينت بزي العلم والأدب والفن، فصارت أكثر خطراً على المسلمين. فأنت تجدها في صورة نظرية فرويد التي ترى أن الجنس هو الدافع الرئيس لكل أفعال الإنسان بما في ذلك حبه لوالديه وعبادته لربه.

وصورة نظرية ماركس التي ترى أن البحث عن الطعام هو الذي يسير تاريخ الإنسان عن طريق تحسين وسائل الإنتاج وصورة القصص والشعر والفن الذي يجعل الإنسان الشرير هو الإنسان الطبيعي والإنسان الخير إنسان منافق غير ما يبطن أو متكلف يحاول السير ضد تيار طبيعته.

نظرية أصالة الخير:

١- نخلص من كل هذا إلى أن الرأي الصواب هو الرأي الثالث القائل بأن الإنسان ذو فطرة خيرة، وأن الشر أمر طارئ عليه ومجاف لفطرته. هذا هو الرأي الموافق للواقع الذي نعرفه، والمؤدي إلى نتائج مقبولة، وهو الأمر الذي يقول به الدين الحق كما سنبين بعد.

أن يولد الإنسان خيراً هو الأمر الذي تقتضيه رحمة الله تعالى وفضله وحكمته. تقتضيه رحمته لأن الرحمن هو الذي يعطي الخير ابتداء كرماً منه وفضلاً ثم يجازي على الإحسان فبفضل الله ورحمته خلق الإنسان في أحسن تقويم وخلق له كل ما يناسب طبيعته ويفي بحاجاته من أرض وسماء وليل ونهار وأنهار وحيوان ونبات.

إن الذي خلق الجسم الإنساني حين خلقه سوياً معتدلاً وخلق له كل ما يناسبه من غذاء وكساء وهواء وضياء، لحري بأن يخلق النفس البشرية سوية، ويسهل لها كل ما يناسب استواءها الفطري هذا ويكمله من آيات كونية وحجج عقلية وهداية سماوية.

وهو الأمر الذي يناسب حكمته لأن الحكيم لا يصنع شيئا لغاية ما ثم يجعل طبعه غير ملائم لتلك الغاية أو غير مهيأ لبلوغها. والله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليعبده "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" فكيف يخلق له نفساً شريرة لا تناسبها العبادة، أو نفساً محايدة بين الخير والشر لا يضيرها أطريق عبادته سلكت، أو سلكت طريق التمرد عليه، كلا. من حكمة الله تعالى في خلقه كله أن يخلقه سوياً، وأن يهدي كل مخلوق إلى ما قدر له أن يخلقه "الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى".

الفطرة في القرآن وفي السنة:

في القرآن الكريم وفي السنة النبوية نصوص تدل على هذا المعنى دلالة صريحة وأخرى تدل عليه بطريق اللزوم وفيما يلي نذكر جانباً من النوعين مع تعليقات موجزة:

إن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الناس لعبادته وأرسل لهم رسلاً منهم ليبينوا لهم الطريق المستقيم إلى هذه الغاية، ولكن هذا الدين الذي جاء به الرسل من عند الله: ليس شيئاً غريباً، على الإنسان بل إن أصله مغروس في نفسه.

هذا الأصل هو المشار إليه بالفطرة في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

فالإنسان حين يسدد وجهه للدين الذي شرعه الله ويستمر عليه كما يأمره ربه تعالى إنما يلزم فطرته السليمة التي فطر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره فالدين الإسلامي هو إذن الدين الطبيعي الذي لا يولد إنسان إلا به، ولذلك قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ ومعناه: أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك. ولهذا قال ابن عباس وجماعة من السلف ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾: (أي لدين الله).

وهو المشار إليه بالنور في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

قال ابن القيم «قال أبي بن كعب: مثل نوره في قلب المسلم. وهذا هو النور الذي أودعه الله في قلب عبده من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به في الناس وأصله في قلوبهم»[1].

وقال: «قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ولكن لا مادة له من نفسه فجاءت مادة الوحي فباشرت قلبه وخالطت بشاشته فازداد نوراً بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة نور على نور، فيكاد ينطق بالحق، وإن لم يسمع فيه أثراً، ثم يسمع الأثر مطابقاً لما شهدت به فطرته فيكون نوراً على نور»[2].

- وهو المشار إليه بالتسوية في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس ٧- ١٠].

---

(١) التفسير القيم، طبعة بيروت، ص٣٧٢.

(٢) نفس المصدر، ص٣٧٣.

قال ابن كثير في تفسيره: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾: «أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]».

٤- ولعل هذا الأصل هو المصرح به في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤- ٢٦].

فالكلمة الطيبة كما جاء في تفسير السلف هي كلمة التوحيد فهي كشجرة طيبة أصلها ثابت في قلب المؤمن وأكلها هو الأعمال الصالحة الناتجة عنها الصاعدة على السماء المقبولة عند الله تعالى.

وأما الكلمة الخبيثة المضادة لكلمة التوحيد فلا أصل لها ولا قرار ولا ثمرة زاكية.

٥- وهو المشار إليه بالإشهاد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ – ١٧٤].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: "ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف إن الرأي بهذا المراد قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾، ولم يقل: من آدم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل: من ظهره ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن. ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً ومقالاً. فدل على أنه على الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ولهذا قال: ﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ أي لئلا يقولوا يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا﴾أي التوحيد ﴿غَـٰفِلِينَ﴾.

وفي السنة المطهرة عدة أحاديث فيها مزيد بيان لما قرره القرآن من فطر الإنسان على الخير.

٦- ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(كل مولود يولد على الفطرة -وفي رواية على هذه الملة- فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها جدعاء)؟.**

ففي هذا الحديث دلالة على أن الفطرة التي يولد عليها الإنسان هي السلامة من الشرور كما أن الحال التي تولد عليها البهيمة هي السلامة من العيوب الجسمانية من قطع أنف أو أذن أو شفة وغيرها فكذلك الحال التي يولد عليها الطفل هي السلامة من العيوب النفسية والاعتقادية من يهودية ونصرانية ومجوسية وكما أن تلك العيوب تطرأ على البهيمة بعد ميلادها فكذلك هذه العيوب تطرأ على الإنسان بعد ميلاده.

والدليل على أن الفطرة المقصودة في هذا الحديث ليست السلامة بمعنى الحياد بل بمعنى وجود الخير في النفس أنه صلى الله عليه وسلم قال فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ولم يقل ويجعلانه مسلماً لأن الإسلام هو الأمر الطبيعي، وكل هذه العقائد انحرافات عنه وهذا المعنى جاء مصرحاً به في الرواية الأخرى للحديث: **(كل مولود يولد على هذه الملة).**

٧- ويزيد هذا المعنى تأييداً وقوة ما جاء في صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم).**

٨- وكذلك ما جاء في جزء من حديث رواه الإمام أحمد، وأخرجه النسائي في سننه عن الأسود من سريع من بني سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إلا أنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها).**

وأما الآيات والأحاديث التي تدل بطريق اللزوم على أن الإنسان مفطور على الخير فأكثر من أن تحصى في بحث كهذا.

إن الكلمات المعبر بها عن الشر تدل كلها تقريباً على أن الشر ليس شيئاً أصيلاً وإنما هو انحراف عن الخير وتبديل له مع أن الكلمات المعبر بها عن الخير ليس فيها ما يدل على أنه نقيض الشر وإنما في الكثير منها ما يدل على الزيادة والإنماء والمحافظة على خير أصيل.

من ذلك قوله تعالى في الآيات التي ذكرناها سابقاً: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس ٧- ١٠].

فبالإضافة إلى كلمة (سواها) التي تدل دلالة صريحة على أصالة الخير في الإنسان فإن الكلمات"الفجور" و"التقوى" و"التزكية" و"الدس" أيضا تستلزم هذه النتيجة.

فالفجور هو الإفساد والعدول والميل عن الأمر الطبيعي، والتقوى من الوقاية والتزكية تعني النمو كما تعني التنظيف والتنقية، والدس يعني الإخفاء والدفن فالذي يفجر ويفسد، والذي يحمي ويحافظ عليه، والذي يزكو وينمو، والذي يدس فيمنع من النمو، إنما هو الشيء الصالح السوي المستقيم[1].

وهذا هو الذي تستلزمه كلمات الفساد، والفسق، والكفر، والإلحاد، والزيغ والظلم والضلال وكثير من الكلمات الدالة على الشر. وكثير من كلمات الإيمان، والذكر والشكر واليقين، والطمأنينة والاستقامة وكثير من الكلمات الدالة على الخير.

فالذي يفسد هو الأمر السليم والفسق خروج عن شيء سابق، والكفر تغطية وإخفاء لشيء موجود، والإلحاد والزيغ، انحراف، والظلم وضع الشيء في غير موضعه. والضلال عدم الاهتداء إلى الغاية المرجوة.

والإيمان تصديق بحق يضفي على النفس أمنا، والذكر إنما يكون لأمر كان في الأصل معروفاً، والشكر اعتراف بفضل أسدي.

إن في الكلمات الدالة على الخير معاني الثبوت والاستقرار والأصالة والإيجابية. وأما الكلمات الدالة على الشر ففيها معاني النفي، والتغيير، والسلبية وما ذلك إلى لأن الخير هو الأساس وأن الشر إنما هو نفي الخير.

هذا الذي يبدو لي على وجه العموم ولست أزعم أنني استقصيت كل الكلمات فوجدتها مندرجة تحت هذا القاعدة.

لقد وجدت في بعض الكلمات الدالة على الخير معنى السلبية ثم تأملتها فإذا هي لا تخرج على القاعدة بل تؤكدها فالإصلاح إنما يكون للشيء الفاسد، والتوبة والأوبة

(١) من مقال للكاتب بمجلة الغرباء (لندن) العدد الثالث، نوفمبر – ديسمبر ١٩٧٣م.

رجوع عن شر، فهل يعني هذا أن الفساد والشر هما الأصل؟ كلا: فالإصلاح إزالة للفساد وعود إلى الأمر الطبيعي والتوبة والأوبة رجوع من طريق الشر إلى الطريق الطبيعي.

إن في القرآن الكريم والسنة المطهرة -إلى جانب تلك الكلمات- ما يدل بطريق اللزوم على أن نفس الإنسان كجسمه حالها الطبيعية أن تكون سليمة معافاة وأن يطرأ عليها مما ينافي تلك الفطرة الأولى هو الأمراض كالأمراض التي تصيب الأبدان. وكما أن الصحة البدنية تكون في المحافظة على الحال الطبيعي وفي وقايته من أسباب الأمراض وفي معالجة البدن حين يصيبه المرض فكذلك صحة القلوب وسلامتها. ومهمة الدين هي المحافظة على هذه السلامة ووقايتها من الأمراض وعلاجها حين تمرض.

حين أراد منكرو الرسالة المحمدية أن يعتذروا عن إنكارهم بأن قلوبهم في أكنة وأنها مغلفة غلافا فطريا يحول دون نفاذ كلامه ﷺ إليها رد عليهم القرآن: بأن الغلاف ليس سببا في الكفر وإنما هو نتيجة له: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]. ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

والقرآن الكريم يسمي الشر مرضا يطرأ على القلوب. ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣].

وبعض هذا المرض مما يمكن علاجه وأحسن علاج له آيات القرآن الكريم وبعضه يستحكم بحيث يمنع وصول هذه الآيات إلى القلب فما يزيده العلاج إلا مرضاً. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

والنبي ﷺ يشبه ما يطرأ على القلوب مما ينافي فطرتها بالصدأ الذي يصيب الحديد، والدرن الذي يعلق بالأبدان، والدنس الذي يلصق ببيض الثياب. كما أن القرآن يسمي الذنوب (ران) يتراكم على القلوب فيحجبها عن رؤية الحقيقة.

الخير الذي فطر عليه الإنسان:

ما هو هذا الخير الذي فطر عليه الإنسان؟

يؤخذ من مجموعة النصوص التي أوردناها سابقاً أن جوهر هذا الخير يتمثل في:

١- السلامة من العيوب (كما تولد البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء).

٢- الاعتراف بعبودية الإنسان لخالق واحد ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] **(كل مولود يولد على هذه الملة)**. ولكن هذا الجوهر ترتبط به أنواع أخرى من الخير الفطري تدل عليها نصوص أخرى دلالة صريحة تارة وضمنية تارة أخرى.

٣- أصول القيم الأخلاقية: فالله تعالى فطر الإنسان على أن الشكر خير وهو محمود، الجحود شر مذموم، وكذلك قل في العدل والجور، والأمانة والخيانة والاعتراف بالحق وإنكاره.

قال رسول الله ﷺ: **(إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ومن السنة)**. فهذا دليل صريح على أن الناس مفطورون على الأمانة.

ويقول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. ويقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

فهاتان الآيتان لا تعلمان الإنسان أن جزاء الإنسان ينبغي أن يكون إحساناً، أو أن مصير المحسن ينبغي أن لا يكون كمصير المسيء. وإنما هما تفترضان أن الإنسان يعلم هذا، ولهذا تستنكران عليه أن يحكم بغير هذا الذي يعرفه.

٤- ما يسمى بالقوانين العقلية كالعلم بأن الأشياء لا تأتي من العدم وأن الشيء لا يخلق نفسه، وأن الكلام المتناقض باطل. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. ويقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٥- القيم الجمالية كحب الجمال والنظافة والنظام.. الخ. إلى جانب هذا الخير المحض الذي فطر الله تعالى عليه الإنسان فإنه منحه القوى وهي في ذاتها خير لكننا يمكننا أن ننحرف بها فنجلعها شرا. من ذلك:

١- القدرة على العمل.

٢- القدرة على التفكير.

وإشارة إلى هذين يقول الرسول ﷺ: **(أصدق الأسماء حارث وهمام)** أي أن هذه أسماء تدل دلالة صادقة على حقيقة الإنسان فهو حارث عامل وهو همام مفكر.

٣- القدرة على الاختيار. ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

٤- السعي لحفظ النفس والنوع بالأكل والشرب والسكن واللباس والنكاح.

إذا كان الإنسان مفطورا على الخير فلماذا إذن يفعل الشر؟

هذه إحدى الشبهات بل لعلها أقوى الشبهات التي يشغب بها على القول بأصالة الخير في النفس البشرية وهي شبهة تشد كثيرا من الناس وتدعوهم إلى الأخذ بنظرية الحياد.

ولعل أساس هذه الشبهة هو التصور الخاطئ لمفهوم الفطرة. فعبارة الإنسان مفطور على الخير تعني عند هؤلاء: أنه مطبوع على إرادته وفعله طبعا لا ينفك عنه. ولكن الواقع أنه ينفك عنه وإذن فهو ليس مفطورا عليه، بل إنما يولد محايدا: إن شاء فعل الخير وإن شاء تركه وفعل الشر.

ولكن الفطرة لا تدل على هذا المعنى الذي يجعلها متناقضة مع المشيئة الإنسانية، والذي يسوي بين فعل الخير وحركات النباتات والجمادات التي لا إرادة لها.

فطر الإنسان على الخير معناه كما قلنا سابقا

(أ) إن الله تعالى صاغ الإنسان وكونه وركبه بحيث لا يصلح له إلا الخير.

(ب) وأنه تعالى تفضل فجعل المعرفة بهذه الحقيقة أمراً مستقراً في نفس الإنسان لا يحتاج لأن يتعلمه من الخارج. وإن كان العلم الخارجي يزيده قوة.

ولكن الله تعالى جعل الإنسان مخلوقاً ذا إرادة إن شاء سار في طريق الخير الذي تدل عليه فطرته، وإن شاء تمرد على فطرته كما يتمرد على الدلائل العقلية والآيات الكونية والرسالات السماوية.

إن الله تعالى يتفضل فيعرف الإنسان بالخير ويبينه له ويدعوه إليه دعوة تأتيه من داخل نفسه ومن دلائل عقله ومن الآيات الكونية ومن الرسالات السماوية ولكنه يتركه بعد ذلك حراً إن شاء قبل هذه الدعوة وإن شاء ردها كافراً.

وفي معنى هذا البيان الفطري يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

فلسفة التربية الإسلامية:

الأهداف: من هذا التصور للإنسان يمكن أن نستخرج أهداف التعليم والقواعد العامة التي تحكم وسائله وأساليبه ومناهجه.

فغاية التربية والتعليم هي تمكين الإنسان من أن يكون إنساناً حقيقياً أو تمكينه من أن يكون عبداً صالحاً لأن العبودية هي جوهر الإنسانية، والإنسان كلما ارتقى في سلم العبودية، ارتقى في سلم الإنسانية. ولهذا فإن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله ﷺ بالعبودية في أشرف أحواله. كما تنبه إلى ذلك كثير من العلماء: من ذلك قوله تعالى بمناسبة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]. وقوله تعالى بمناسبة الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

فوصف الإنسان بالعبودية هو الوصف الجوهري العام الذي يحتم كل أوصافه. وإذن فكل فهم لصفة من صفات الإنسان أو خاصة من خواصه يجعلها متناقضة لصفة العبودية فهو فهم خاطئ.

وهو الوصف الأساسي وكل الأوصاف الأخرى بالنسبة له ثانوية، ولذلك فينبغي أن لا يقدم واحد منها عليه.

وبهذه المناسبة: أحب أن أشير إلى صفتين تفهمان أحياناً فهماً يخرج على هذه القاعدة:

الأولى: وصف الإنسان بأنه مخلوق روحي، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩]، فالوصف صحيح والاستدلال صحيح ولكن فهم الروحية هذه: بأنها

عنصر إلهي حل في الإنسان: هو الفهم الخاطئ خطأ شنيعاً ينافي العبودية والتوحيد ويجعل الإسلام -كما تنبه إلى ذلك بعض العلماء- أسوأ من المسيحية فالمسيحية قصرت الألوهية -بعد الله تعالى- على بشر واحد وهذا الفهم يعممها فيجعل في كل إنسان عنصراً إلهيا. أن قول الله تعالى: ﴿مِن رُّوحِي﴾ لا يعني أن شيئاً من ذاته تعالى خرج فحل في الإنسان. فالله تعالى لا يخرج من ذاته شيء وهو أحد ليس كمثله شيء وهو مفارق وعالٍ على كل شيء. إن إضافة الروح إلى الله تعالى ليست إضافة بعضٍ إلى كل كما تقول (يد الله) و (وجه الله) وإنما هي إضافة مملوك إلى مالكه كما تقول أرض الله وسماؤه وكما أن الإنسان ليس روحاً إلهية بهذا المعنى، فإن المسيح عيسى ابن مريم ليس كلمة الله بمعنى أنه خلق وصيغ من الكلمة إن الكلمة ليست عنصره، وإنما هي سببه كما أنها سبب كل مخلوق سواه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وكما يقول الإمام أحمد: فإن عيسى ليس هو الـ (كن) ولكن بالـ (كن) كان.

وأما الصفة الأخرى فهي صفة الخلافة استدلالاً بقوله تعالى:"إني جاعل في الأرض خليفة" ولا شك أن الإنسان خليفة ولكن من الخطأ أن تقدم صفة الخلافة على صفة العبودية كما يميل إلى ذلك كثير من فضلاء كتابنا المعاصرين.

ومن الخطأ: أن يظن بأن تفسير الخلافة: بأنها خلافة عن الله في تعمير الأرض، هو التفسير الوحيد أو المتفق عليه بين العلماء إذ الواقع أن بعضهم أنكر هذه العبارة، وحجتهم في إنكارها قوية قالوا أن عبارة (خليفة الله) لم ترد في قرآن ولا سنة، بل روى أن أبا بكر أنكر على من وصفه بخليفة الله، وقال إنه خليفة رسول الله وقالوا إن الخليفة في اللغة هو الذي يخلف غيره إذا غاب والله تعالى لا يغيب وقالوا: إنه مما يؤيد هذا أنه جاء في بعض الأدعية النبوية وصف الله تعالى بالخليفة فهو الذي يخلف المسافر في أهله وولده كما يصحبه في سفره.

وعلى كل فإن الأمر لا يكون خطيراً إذا فسرت الخلافة بمعنى الحكم أو بمعنى أن كثيراً من المخلوقات مسخرة للإنسان ولكن بعض الكتاب يغلو في تفسير الخلافة حتى ليكاد يشرك بأن الله تعالى قد تخلى عن تصريف جزء من الكون وترك أمره للإنسان.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

* * *

الفيزياء ووجود الخالق

هذا الكتاب ألّفه الشيخ من أجل أن يبين أن القول بالاستغناء عن الخالق لم يكن له ما يسوغه حتى في فيزياء نيوتن، ثم فصل القول في مناقشة الحجج التي يتعلل بها بعض الفيزيائيين المعاصرين في إنكارهم لوجود الخالق رغم قولهم بنظرية الانفجار العظيم.

وقد طبع هذا الكتاب الطبعة الأولى عام ١٤١٧الموافق ١٩٧٩م وقد طبعه معهد العلوم الإسلامية والعربية في أمريكا، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. وأما الطبعة الثانية ففي عام١٤٢٢الموافق ٢٠٠٢طبعه المنتدى الإسلامي.

وقد تكون الكتاب من:

مقدمة: بين فيها لماذا كتب هذا البحث؟

الفصل الأول: عن الإلحاد في العصر الحديث.

الفصل الثاني: عن أدلة وجود الخالق.

الفصل الثالث: الفيزياء وأصل الكون.

الفصل الرابع: الإلحاد ونظرية الانفجار العظيم.

الفصل الخامس: رد اعتراضات وتبديد شبهات.

الفصل السادس: مَن الخالق؟

الفصل السابع: ماذا بعد الإيمان بوجود الخالق؟

* * * * *



منهج التفكير



أولاً: مقالات

فائدة الالتزام بالمنهج العلمي الصحيح

كلمة للشيخ جعفر بمناسبة تكريمه في مجلة البيان يوم الخميس ١٤٣٣/٤/١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

«فإن من أشق الأشياء على الإنسان أن يتحدث بين أناس يمدحونه وهو جالس، ما كنت أظن أنني سأمدح هذا المدح بين أخوين جالسين بجنبي.. هذا ما قدر الله وما شاء الله كان.. بالنسبة لي أرى أن تفرقوا بين إنتاجي الفكري وبين سلوكي.. قد تسمعون كلام عني في سلوكي أو في كذا أو في كذا وهذا لا علاقة له بفكري، الإنسان قد يخطئ أخطاء وينحرف.. لكن هذا لا يطعن في منهجه الفكري». حاول الشيخ الاستدلال بآية من القرآن على كلامه لكنه توقف قليلا ثم أكمل قائلا: «أنا مريض ومن آثار المرض النسيان ربنا سبحانه وتعالى ذكر يمكن أن يجمع بين الخير والشر... يمكن أن يجمع بين ما هو سلوك حسن وما هو قول باطل.. الإنسان معرض لهذا ولذاك.. بالنسبة لكتاباتي أظن أنني حرصت جداً على أن تكون كلها على منهج أهل السنة... لكن الإنسان إذا التزم بمنهج هذا لا يعني أنه لا يخطئ.. كثيراً ما أقول إن الالتزام بالمنهج العلمي التجريبي لا يعصم من الخطأ.. لا يوجد منهج يعصم الإنسان من الخطأ.. الإنسان بطبعه يخطئ، إذاً ما فائدة الالتزام بالمنهج الصحيح.. إذاً الإنسان التزم بمنهج صحيح وأخطأ يمكن أن أناقشه.. كذلك بالنسبة للعوم الطبيعة، إذا قال إنسان عن شيء ما أنه خطأ يمكن مناقشته.. هذا هو فائدة الالتزام بالمنهج العلمي الصحيح».

ثم أنهى الشيخ جعفر شيخ إدريس كلمته بالدعاء قائلاً: "أسال الله أن يعينني وإياكم على الالتزام بالمنهج الصحيح.. لا في أقوالنا فقط، بل في سلوكنا وأن يعيننا على الالتزام بالحق ودخول الجنة بإذن الله سبحانه وتعالى..

* * *

ارتكاب أخف الضررين

موقع الشيخ جعفر ١٤١٨الموافق ١٩٩٨م

لقد فطر الله سبحانه وتعالى الناس على مبادئ عقلية يبدهها كل واحد منهم بغض النظر عن زمانه ومكانه ومعتقده وعلمه وثقافته، بل إن بعضها ليبدهه حتى الأطفال منهم. ثم أنزل الله سبحانه وتعالى دينه الهادي للناس موافقاً لتلك المبادئ العقلية التي فطرهم عليها. ومن هنا كان قول العلماء بموافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، وقولهم بأن الدين لا يأتي بمحالات العقول، وإن أتى بمحاراتها. وإذن فوضع الدين في مقابل العقل، أو القول بأن إنساناً ضل لأنه اتبع عقله، كل هذا شيء مخالف لما هو مقرر في هذا الدين. ولهذا لم يكن أسلافنا يسمون المخالفين لمنهج أهل السنة والجماعة بالعقلانيين كما نسمي نحن بعضهم اليوم. بل كانوا يسمونهم بأهل الأهواء، لأنهم لم يجدوا في كتاب الله ذماً لإنسان لاتباعه عقله، وإنما كان الذم للذين لا يعقلون .أما أصحاب العقول فهم أهل الدين الصحيح، وأهل الدين هم أصحاب العقول . انظر كيف جمع الله تعالى بين هذين الأمرين في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]. وانظر في مقابل ذلك كيف جعل الله تعالى عقاب عدم العقل كعقاب عدم الإيمان. فقال تعالى في سورة يونس: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]. وقال في سورة الأنعام: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. لكن القرآن الكريم لا يقرر هذه القواعد العقلية كما يقررها المناطقة والأصوليون - أعني علماء أصول الفقه -، وإنما يفترضها، ويطبقها، ويذم من خالفها، لعلم الله تعالى بأنه فطر العقول عليها، فالناس ليسوا في حاجة إلى من يعلمهم إياها . تأمل قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. تجد أن الله تعالى أنكر على هؤلاء أمراً لا يفعله عاقل، وهو أن يرشد غيره إلى ما يراه خيراً ثم لا يستفيد هو من هذا الخير . وتأمل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٦]. فإذا رأيت العلماء

يقررون قاعدة من هذه القواعد بألفاظهم فلا تقل كما يقول بعض الجهلاء مستنكرين: من أين أتى الفقهاء بهذه القاعدة التي ليست في كتاب الله؟ .إنها ليست في كتاب الله بهذا النص الذي ذكروه، لكنها في كتاب الله لأنها متضمنة في كثير من الأحكام التي جاءت فيه.

من هذه القواعد قاعدة ارتكاب أخف الضررين، والقواعد المكملة لها والتي تدور كلها حول فعل ما فيه زيادة للخير أو تقليل للشر، كقاعدة تحقيق أكبر المصلحتين، وقاعدة أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .وذلك أن الهدف العام لهذا الدين في هذه الحياة إنما هو زيادة الخير وتثبيته، وتقليل الشر وقمعه.

إذا خُير الإنسان بين خير واضح وشر واضح فعليه أن يختار الخير .هذا أمرٌ لا شك فيه .لكن الحياة ليست دائماً اختياراً بين خير خالص وشر خالص، بل إن الإنسان كثيراً ما يجد نفسه مخيراً بين خير وخير، أو شر وشر .أو بين شيء فيه بعض الخير وبعض الشر فماذا يفعل؟ بل إن الإنسان قد يجد نفسه في ظرف غير عادي تكون عاقبة فعل ما هو- في العادة -خير، شراً .فماذا يفعل؟ البديهة العقلية تقول إن عليه أن يختار أقل الأمرين شراً، لأنه إذا كان غرضه الخير، فإن أقل الأمرين شراً هو أقربهما إلى الخير .قلت مرة كلاماً مثل هذا الأخ زعيم لجماعة ظننت أنه مقْدِم على أمر فيه ضرر به وبالمسلمين، فكان جوابه"أنا لا أتعامل مع الشر إطلاقاً" .ولكن هذا الأخ نسي أنه إذا أصر على فعل ما هو في العادة خيراً رغم أن الظرف الذي هو فيه يجعل عاقبته شراً، يكون قد تعامل مع الشر من حيث لا يشعر، بل يكون قد فعل ما هو أبعد عن الخير وأقرب إلى الشر.

من أين جاء الأصوليون بهذه القاعدة؟

لقد وجدوها مطبقة ومضمنة في عشرات من آيات القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة .من ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. فتحريمهما إذن لم يكن لخلوهما من أي نفع، وإنما كان من أجل أن ما فيهما من شر أكبر مما فيهما من خير . فإذا طبق الإنسان هذه القاعدة على الدخان مثلاً، فلا يملك إلا أن يقول إنه حرام، لأنه قد ثبت أن فيه ضرراً كبيراً ولم يثبت له أدنى نفع. وقال تعالى للمسلمين وهم بمكة:

﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]. لماذا؟ يقول ابن كثير: «وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدة عدوهم...». أمر الله تعالى هؤلاء المؤمنين الصادقين بعدم مقاتلة الكفار مع أنهم كانوا معتدين عليهم وظالمين لهم، ومع أن قتال هؤلاء في الأحوال الطبيعية هو الفرض وهو الخير، لكن لما كانوا في حال لا يأتي معها القتال إلا بضرر أكبر أُمروا بكف أيديهم. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. قال ابن كثير معلقاً على هذه الآية في تفسيره: «يقول الله تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين».

وقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

أباح الله تعالى في هذه الآية الكريمة للمؤمن أن يتفوه بكلمة الكفر إذا هُدد بالقتل أو بغيره من أمور يصعب عليه تحملها، فهو هنا يختار أخف الضررين بالنسبة له. ويمكن أن نلمح هذه القاعدة في صلاة الخوف، وقصر الصلاة في السفر، والفطر للمريض والمسافر، وفرضه على الحائض؛ لأن الله تعالى يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر، فإذا كان الإنسان في ظرف يجعل ما فرض الله تعالى عليه في الظروف العادية ذا عاقبة فيها ضرر عليه، تغير الحكم.

ما الدليل على أن هذه القاعدة الشرعية هي أيضاً قاعدة عقلية؟

الدليل هو أن كل الناس يلجؤون إليها في حياتهم اليومية حين يحتاجون إليها، وإن لم يسموها باسم معين، بل وإن لم يكونوا على وعي باستعمالهم لها .إن كل إنسان عاقل إذا خيره لص أو إنسان ظالم بأن يعطيه ماله، وإلا قتله، أو قتل أحد أولاده، أو فعل بهم شيء آخر فظيع، فإنه لا يتردد في التضحية بماله إبقاءً على نفسه أو نفوس أولاده، إذا لم يجد مخرجاً آخر .وهو بهذ التصرف يكون عاقلاً لاختياره أخف الضررين. بل إن الأطفال ليتصرفون وفق هذه القاعدة، ولولا ذلك لما أمكن تأديبهم .

إنك حين تقول لطفلك لئن فعلت كذا وكذا لأحرمنك من كذا وكذا ، فإنه ينتهي عن فعل الأمر الأول – مع حبه له- حفاظاً على عدم فقدان الأمر الثاني، أو تفادياً لعقاب تهدده به .وهو في كل هذا يتصرف وفق هذه القاعدة العقلية .والدليل أيضاً أنها قاعدة معروفة -حتى بألفاظها- لأناس من ثقافات وأديان مختلفة .فالمتكلمون بالإنجليزية مثلاً يعبرون عنها بقولهمThe lesser of two evils لكن المشكلة أن كثيراً من المتدينين الذين يتصرفون كغيرهم من الناس وفق هذه القاعدة في حياتهم الشخصية، يخالفونها في بعض تصرفاتهم الدينية ظانين أنه من علامات شدة الاستمساك بالدين أن لا يلقي الإنسان بإلا لعواقب أعماله .فإذا قلت للواحد منهم لا تفعل هذا الأمر في هذا الظرف، أجابك محتقراً إياك بأنه ينفذ أمر الله تعالى وليكن ما يكون .لكنه في الحقيقة لا ينفذ أمر الله تعالى إذ يتصرف تصرفاً تكون عاقبته شراً على المسلمين .وذلك أن الله تعالى الذي أمره بجهاد الكفار مثلاً، أمره أيضاً أن يُقدر العواقب ويحسب الحسابات، ولا يُقْدم على محاربة الكفار إقداماً تكون عاقبته مزيداً من التمكين لهم، أو تكون عاقبته زيادة إضعاف للمسلمين .إن الله تعالى لم يجعل كل أمر أو نهي من أوامره ونواهيه شيئاً مطلقاً ومستقلاً عن بقية الأوامر والنواهي والقواعد العامة .فالذي يطبق أمراً أو نهياً من هذه الأوامر والنواهي من غير نظر إلى العواقب يكون في الحقيقة قد أخذ بعض الدين وترك بعضه .لكن مما ينبغي التنبيه عليه أن هذه ليست دعوة إلى التساهل وترك الأمر الشرعي لأدنى أمر يحسبه الإنسان ضرراً عليه .إن الأوامر والنواهي الشرعية امتحان للإنسان في هذه الحياة ينال عليه أجره في الدار الآخرة .ولا بد أن يكون في الامتحان بعض المشقة خصوصاً في بعض الظروف، فإذا فهم الإنسان من هذه القاعدة أنه يترك الأمر مما أمر الله به أو نهى عنه لأدنى عارض يعرض له، لا يكون عد تصرف تصرفاً عقلياً، بل يكون متبعاً لهواه .فكما أن الإنسان لا يعطي ماله لكل من يهدده أدنى تهديد ، فكذلك لا يترك الامتثال لأمر الله تعالى لأدنى مشقة، أو أدنى حرج. إن قاعدة ارتكاب أخف الضررين قاعدة مهمة ومفيدة غاية الفائدة في كل مجالات العمل، ولا سيما العمل السياسي والاجتماعي، لكن المصالح والمفاسد يجب أن توزن بالموازين الشرعية العلمية وتقدر بها.

* * *

النقد الشامل مستحيل

الاثنين ٢٣ ذو القعدة ١٤٢٥هـ/ ٣ يناير ٢٠٠٥م شبكة المشكاة الإسلامية

قال الفتى لشيخه: كتب أحدهم مقالاً في جريدة مشهورة يدعو فيه إلى نقد شامل لا يستثنى منه شيء حتى النصوص الدينية، فما تقول فيه؟

قال الشيخ: أقول إنه إنسان لا عقل له.

الفتى: لم تقول هذا يا شيخ؟

الشيخ: لأن النقد إنما يكون على أساس حقائق يسلم بها الناقد فلا ينتقدها .فإذا لم يكن هنالك أمر غير منتقد صار النقد مستحيلاً.

الفتى: أظنه سيقول إنه العقل هو وحده الحكم، فهو إذاً مقدم على كل شيء بما في ذلك النصوص الدينية.

الشيخ: هو إذا يسلم بأن القوانين العقلية ليست قابلة للنقد؛ لأنها هي التي على أساسها يكون النقد. ثم إذا كان عاقلاً فيجب أن يسلم أيضًا بالحقائق الحسية فلا ينكر شيئًا قام عليه دليل من سمع أو بصر أو لمس أو شم .وإذا سلم بكل هذا يكون قد نقض قوله الأول بأن كل شيء قابل للنقد.

الفتى: هب أنه سلم بهذا .لكنه ظل يقول إن النصوص الدينية قابلة للنقد على هذه الأسس التي ذكرتها .فماذا تقول له.

الشيخ: أقول له: نعم هكذا يبدأ كل إنسان عاقل مع كل دعوى سواء كانت في أمر الدين أو العلوم الطبيعية أو الاجتماعية أو غيرها .إنك لا تسلم بكل دعوى لمجرد أن صاحبها بزعم أنها نص ديني أو حقيقة علمية.

الفتى: ماذا لو قال لك: فأنت إذا توافقني على أن العقل مقدم على النص.

الشيخ: ليس على كل نص ولا على كل دعوى .ما معنى أن تقدم العقل على أمر شهد العقل نفسه بأنه حق سواء كان نصًا دينيًا أو نصًا تجريبيًا؟ أليس من التناقض الذي ينكره العقل أن تشهد بأن القول قول الله العالِم بكل شيء والذي لا يقول إلا حقًا، ثم تقول لكنني أريد رغم ذلك أن أنظر إذا ما كان حقًا أو باطلاً؟

الفتى: ماذا لو قال لك: إنك تريد إذن أن تعطل النظر العقلي؟

الشيخ: أذكره أولاً بأن النقد ليس غاية في ذاته .إن العقلاء ينظرون وينتقدون لأنهم يبحثون عن الحقيقة، فإذا ما أداهم النظر العقلي إليها توقفوا عن نقد ما أيقنوا أنه حق . أليس هذا ما يفعله العلماء الطبيعيون؟ هل رأيتهم يبدؤون النظر ويعيدونه في كل شيء مهما تضافرت الأدلة العلمية على كونه حقًا؟

الفتى: كلا .لأنهم لو فعلوا ذلك لما تقدم العلم خطوة وإنما يتقدم العلم لأننا نبني بحوثنا الجديدة على التسليم بالحقائق السابقة.

الشيخ: أجل .ونذكره ثانيًا بأن مهمة العقل ليست محصورة في النقد، وإن كان النقد من أخطر مهامه .إن العقل ينظر فيما ثبت أنه حق، ولا سيما النصوص الدينية، لا لينتقدهاه، ولكن ليزداد فقهًا بها، وليفسر بعضها ببعض وليستنتج منها النتائج، ولينزله.

المقالات عن منهج التفكير الإسلامي
التي نشرت في مجلة البيان حسب تاريخ نشرها

- ليسوا عقلانيين ... وإنما هم أهل أهواء

مجلة البيان ١٤١ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ سبتمبر ١٩٩٩م

يبين الشيخ في هذا المقال أن ما شاع في عصرنا من أن اصطلاح (العقلانيين) وصفاً لأصحاب المناهج المنحرفة عن المنهج الصحيح لفهم الدين وتفسير نصوصه واستخلاص النتائج منها أنه مصطلح غير سديد ثم شرع الشيخ في تفصيل ذلك.

- مفهوم العقل:

مجلة البيان ١٥٨ شوال ١٤٢١هـ يناير ٢٠٠١م

ذكر الشيخ في هذه المقالة أن العقل جزء من الشرع ؛ فكما أنه لا عقل كاملاً بلا شرع فكذلك لا شرع كاملاً بلا عقل، والشرع هو كل ما ورد في كتاب الله وسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم بين الشيخ- حفظه الله- معنى العقل فذكر أن السلف يقولون: إن العقل عقلان: غريزي، ومكتسب، فالغريزي هو ما نسميه بالمقدرات العقلية من فَهمْ، وإدراك، وفقه، واتساق في الكلام، وحسن تصرف إلى آخر، والعقل الغريزي هذا هو مناط التكليف؛ فمن لا عقل له لا يكلف، ومن فقد بعض مقدراته العقلية؛ فإنما يُكلف بحسب ما بقي له منها. والذي أعطي عقلاً ثم ألغاه فلم يستعمله الاستعمال الصحيح، ولم يلتزم بمبادئه لا يفقه الدين، فلا يؤمن به، لكنه يحاسب على عدم فقهه؛ لأنه كان نتيجة لتعطيله الاختياري لعقله ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٠٠]. فلا غرو أن جعل الله عقاب الذين لا يعقلون هذا هو نفسه عقاب الذين لا يؤمنون: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، الرجس في أصله اللغوي هو النتن، فكأن الآيتين الكريمتين تدلان على أن نقاء القلب لا يتأتى إلا بنور العقل ونور الشرع ثم ختم الشيخ مقاله بمعاني العقل في القرآن الكريم.

- معايير العقلاء (١):

مجلة البيان ٢١٦ شعبان ١٤٢٦هـ سبتمبر ٢٠٠٥م

بين الشيخ -حفظه الله- في هذا المقال وفي المقالات التي بعده معايير مشتركة بين جميع العقلاء من البشر فذكر في هذه المقالة القوانين المنطقية مثل قانون الاتساق أو عدم التناقض.

- معايير العقلاء (٢):

مجلة البيان ٢١٧ رمضان ١٤٢٦هـ اكتوبر ٢٠٠٥م

وفي هذه المقالة ذكر الشيخ -حفظه الله- من معايير العقلاء شهادة الحس.

- معايير العقلاء (٣):

مجلة البيان ٢١٨ شوال ١٤٢٦هـ نوفمبر ٢٠٠٥م

وفي هذه المقالة ذكر الشيخ -حفظه الله - من معايير العقلاء السنن الكونية

- معايير العقلاء: (٤)

مجلة البيان ٢١٩ ذي القعدة ١٤٢٦هـ ديسمبر ٢٠٠٥م

وفي هذه المقالة ذكر الشيخ -حفظه الله- من معايير العقلاء النفع والضر.

- السلفيون هم العقلانيون

مجلة البيان ٢٤٨ ربيع الآخر ١٤٢٩هـ ابريل ٢٠٠٨م

في هذه المقالة يقرر الشيخ -حفظه الله- أن السلفيين هم أجدر من غيرهم بوصفهم بأنهم عقلانيون إذا كان المقصود بالعقلانية قبول مقتضيات العقل، بأن تقبل النتائج التي تؤدي إليها الحجة العقلية الصحيحة، وبأن لا يقبل التناقض وأن لا تقبل دعوى إلا بدليل، وأن يكون المقصود بالعقلانية إعمال العقل والتفكر، وقد بين الشيخ حفظه الله ذلك من خلال حوار بين عالم سلفي وصاحبه.

* * * * *

ثانياً المحاضرات

الحجج العقلية

محاضرة ألقاها الدكتور في البوسنة والهرسك..

العقل له مفهوم واسع في التصور الإسلامي، ومفهوم أوسع مما يقال في التصورات الأخرى، وقد بنينا هذا التصور على ما جاء في القرآن الكريم، والإنسان الذي يعرف الحق ولا يعمل به لا يعتبر عاقلاً الآن عندنا ثلاثة أشياء حتى الآن.

أولاً: أن الإنسان بالعقل يعرف إذا الكلام متناقض أو غير متناقض، إذا كان متناقضاً لا يعمل به.

ثانياً: أن الإنسان عقله يقول له ابحث عن الحق.

ثالثاً: أن عقله يقول له إذا عرفت الحق اعمل بمقتضاه، مثلاً في القرآن الكريم مثل أن مفهوم العقل يدخل في حتى المبادئ الأخلاقية عكس ما يقال في الفلسفة الغربية تماماً مثل قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، فإذا هذا الكلام معناه أن الذي يرى أن شيئاً فيه مصلحة فيه فائدة، ويكلم الناس ويقول لهم افعلوه وهو لا يفعله فليس بعاقل، فإذا يدخل بالعقل المسائل الأخلاقية، ضربنا مثلا أيضاً بالمسائل الأخلاقية قلنا بأن ما فطر الله عليه الناس بأن يشكر من يحسن إليه، فالذي إذا أحسن إليه أحد لم يشكره نقول إن في عقله خللاً، أيضاً أن الإنسان يختار الشيء الأجمل عن الشيء القبيح، فالذي يختار القبيح سواء كان من المناظر أو من الروائح الذي يختار القبيح عقله فيه خلل كل هذا الذي ذكرناه أشياء منحها الله تعالى لكل الناس كل الناس يعرفون أن الذي لا يقبل الأشياء المتناقضة عاقل، وأن الذي يبحث عن الحق عاقل، وأن الذي يعمل بما يعرف أنه الحق هذا عاقل وأن الذي يختار الشيء الجميل على القبيح أحسن من الذي يفعل العكس، وأن الذي يشكر من يحسن إليه عاقل الناس كلهم يعرفون ذلك، هذا العقل الذي قلنا إن الله أعطاه الناس هو جزء من الدين الإسلامي، وهذا يقودنا إلى شيء مهم جداً هو أهم ما في هذه المحاضرة وأرجو أن تتذكروه لأن العقل جزء من الدين الإسلامي، نحن يمكن أن يكون بيننا وبين غير المسلم العاقل تفاهم، فهنالك

جسر دائما يمكن أن نمده من عندنا إلى الشخص الآخر حتى يأتي إلينا ونذهب إليه يكون بيننا وبينه اتصال.

بعض الأديان وبعض الفلسفات العلمانية لا تعتمد على العقل، ولذلك لا يكون بينها وبين الآخرين جسر، ولذلك إذا اقتنع بها الإنسان لا يأتي إليها بطريق طبيعي هو طريق العقل هذا الجسر وإنما يقع فيها وقوع، يعني لكي يؤمن بها لابد أن يترك عقله، مثلاً العقيدة التي تقوم عليها النصرانية هي أن الله ثلاثة، فإذا دعوا إنساناً وقالوا له آمن بالنصرانية وآمن بأن الله ثالث ثلاثة قال كيف ؟ هذا وهم الذين جعلوا بأن دينهم لا يقبل العقل هم الذين أشاعوا بين الناس أن الإيمان شيء والعقل شيء آخر، وأما في القرآن الكريم فهنالك تلازم بين العقل والإيمان، فالعاقل يؤمن والمؤمن عاقل، مثلاً نحن ما أهم العقيدة الأساسية التي يقوم عليها الإسلام ؟ لا إله إلا الله هل عندنا أدلة من العقل على لا إله إلا الله ؟ أم أننا نقول للإنسان نأتي مثلاً لواحد شيوعي لا يؤمن بالله إذا قلنا له آمن بأنه لا إله إلا الله يقول أنا غير مقتنع نقول له الرسول محمد ﷺ يقول: **(قولوا لا إله إلا الله)** أنا لا أؤمن بأن محمداً رسول الله إذا قلنا والقرآن يقول قولوا لا إله إلا الله والقرآن كلام الله أنا غير مقتنع بأن القرآن كلام الله، لذلك لا بد أن نقنعه بشيء مشترك بيننا وبينه وهو العقل، بعد أن نقنعه بأنه لا إله إلا الله وأن القرآن كلام الله وأن محمداً رسول الله، بعد ذلك نطلب منه أن يؤمن بكل ما بُني على هذه الأصول، مثلاً إذا آمن بأن محمداً رسول الله وأن القرآن كلام الله وقلنا له بأن الله قال صلوا في اليوم خمس مرات، يقول من غير العقل أن يقول أعطوني دليلاً عقلياً على أن الصلاة لابد أن تكون خمس مرات، أو يقول أعطوني دليلاً عقلياً على أنني لا ينبغي أن آكل لحم الخنزير، أو يقول أعطوني دليلاً عقلياً على أنه يجوز للإنسان أن يتزوج بأكثر من واحدة، إذا قال هذا نقول ما عندك عقل، لأنك أنت تقول عن هذا كلام الله وتؤمن بأن الله يعلم كل شيء وأن الله لا يأمرنا إلا بالحق وإلا بما فيه خير والآن تقول لماذا يأمرنا وهذا هو الذي نفعله في كل العلوم بعد أن نضع الأساس ونبرهن عليه ما يبنى على هذا الأساس لا نبحث عن حجج عقلية، مثلاً في الرياضيات إذا برهنا على نظرية رياضية، بعد ذلك نبني بعض الحجج الرياضية على أن هذه

النظرية صحيحة، ولا نطلب في كل مرة أن ما بني عليها يعطي حججاً منفصلة عنها، وكذلك في الفيزياء كل هذه العلوم، بعد ما أن يعرف الإنسان الأساس دائما يفترض أن الأساس صحيح ويبني عليه، الآن أريد أن أعطيكم أمثلة من الحجج العقلية لكن قبل ذلك أريد أن أقف قليلاً إذا كان هذا الذي قلته عندهم فيه شيء غير واضح أو غير مقنع، نحن قلنا الإسلام كله يقوم على لا إله إلا الله طيب هذا الكلام أن هناك خالقاً وأن هذا الخالق واحد، وأن هذا الخالق الواحد ينبغي أن يعبد، وأن هذا الخالق الواحد الذي يعبد ينبغي إلا يعبد غيره.

بعض الناس لا يؤمن بهذا؛ أي أنه خالق القرآن عنده حجة عقلية بينة صادقة يقول القرآن ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. القرآن إذا سأل سؤال استنكاري معناه ينبغي أن تعرفوه بعقولكم، معنى هذه الحجة القرآنية أن شيء بهذا إما أن تقول إنه جاء من العدم ما خلقه شيء ولا ثبته شيء كان قبله عدم وفجأة جاء هل يقول هذا عاقل ؟ الآن من المبادئ التي يبنى عليها تبنى عليها العلوم الطبيعية أنهم يقولون لا يأتي شيء من لا شيء، هذه الحجة وهذا الكلام كلام صحيح، وهو مقتضى العقل وتبنى عليه العلوم فهو الذي يبنى عليه الدين فإذاً نقول هذا لا بد منه أم هم الخالقون هو الذي خلق نفسه مثلاً أنا أقول ما جئت من العدم أنا خلقت نفسي لكي أخلق نفسي لا بد من أن أكون موجوداً، إذا كنت موجوداً لا أحتاج أن أخلق نفسي، فالذي يقول إن الشيء خلق نفسه يفترضه موجوداً ويفترضه معدوماً في الوقت نفسه هذه الدعوى التي الآن أنتم ضحكتم بأنها غير معقوله قال بها بعض كبار المفكرين أعني بذلك ماركس، وأنا سأقول لكم كلام ماركس بشيء من التفصيل ماركس قال عنده كتاب اسمه المخطوطات الفلسفية والاقتصادية لعام ١٨٨٤م بهذا الكتاب ماركس يقول الإنسان خلق نفسه، ثم يلعب بالألفاظ، كيف خلق نفسه؟! يقول الإنسان أوجده إنسانان حتى نفرض أنه خلقه إنسانان هل هو خلق نفسه كأنه يقول خلقه إنسانان غيره ولكنه يلعب بالألفاظ؛ قال: لا تسألني من أين جاء الإنسان الأول؟! لماذا لا نسألك؟ قال: لأنك إذا قلت من أين جاء هذا فأنت تفترضه غير موجود، وإذا كان هو غير موجود فأنت غير موجود، وإذا أنت كنت غير موجود لا تستطيع أن

تسأل، فأنا قلت للطلاب هذا كإنسان مثلاً حدث له حادث ووجد نفسه في غرفة العملية بالمستشفى، ووجد الأطباء حوله، فقال للأطباء: كيف جئت أنا؟ فقال له الطبيب لا تسأل هذا السؤال لأنك إذا قلت من أين جئت هنا تفترض أنك لست هنا، وإذا لم تكن هنا لا تستطيع أن تسأل، هذه حجة ماركس في إلحاده وأنتم تعرفون أن إلحاد ماركس انتشر في أوروبا وفي العالم هذه هي الحجة التي أبني عليها، وهي حجة ذكرها القرآن الكريم السؤال الواحد وتكلم عنها كثير من العلماء المسلمين، وقال مستحيل عقلاً الآن القرآن الكريم كأنه يقول إذا كان لا يمكن أن يأتي من العدم وإذا كان لا يمكن أن يخلق نفسه فلا بد أنه خلقه غيره، وهذا الذي خلقه لا يمكن أن يكون مثله؛ لأنه إذا كان مثله يحتاج أيضاً لمن يخلقه، ولذلك قال الله تعالى أن الله ليس كمثله شيء، والله سبحانه وتعالى هو الأول والآخر الأزلي الذي لا بداية له والأبدي الذي لا نهاية له، هذا دليل عقلي من القرآن، يأتي واحد يقول اقتنعنا أنه خالق فلماذا يكون واحداً، هذا الخالق لماذا لا يكون خالقان؟ هناك في القرآن الكريم آية فيها دليل على هذا بنصه، ولكننا نركز على هذا الجانب، يعني السموات والأرض لو كان يعبد فيهما إله غير الله لفسدتا، فنحن نركز الآن على أن الخالق لابد أن يكون واحداً لنفرض أن هذا هو الكون العظيم وهذا خلقه هذا الجهاز وهذا خلقه، هذا الجهاز يعني مثلاً الشمس خلقها رب والأرض خلقها رب، هذا يقول أنا أريد اليوم أن تشرق، إذا اختلفوا فسد الكون، إذا اتفقوا قال العلماء معناها أن كل واحد منهم ما أصبحت له السيطرة الكاملة على مخلوقاته إلا بموافقة الآخر، فأصبح هذا ناقص وهذا ناقص، ولذلك لابد أن يكون إلهاً حقيقيًا، هذه الحجج حجج منطقية.

الآن نأتي إلى حجة عقلية خُلقية، إذاً ماهي العبادة؟ العبادة شكر من الذي يشكر الذي قلنا أحسن إليك إذا اعتبرنا أن الله هو الذي أحسن إليك فإذاً نشكره إذا كان هو المحسن الوحيد فهو الذي يعبد، أما إذا كنت أنا أعبد غيره ولا أعبده فكأنك مثلاً أنا أعطيتك هدية بدل ما تقول لي شكراً قلت لهذا شكراً أنا أقول أنا أعطيتك هذه الهدية هذا حال الذي يعبدون غير الله ما عندهم عقل، والذي يقول والبعض يقولون شكراً لله وشكراً لهذا، فالذي يعبد الله ويعبد شيئاً آخر مع الله كأنه شكر الله

على ما أعطاه وشكر هذا على ما لم يعطه، فلذلك لا يشكر أحد غير الله شكراً أصليًا، وإنما إذا شكر الناس يشكرون شكراً فرعيًا أن هذه النعمة من الله، ولكن جعل هذا وسيلة إليه هذا بالنسبة للشكر، لكن قالوا في تعريف العبادة أنها غاية الحب مع غاية الخوف، عندنا أدلة كثيرة على أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالقرآن، وهذا القرآن كلام أوحاه الله إليه ليهدي به الناس. هل تتذكرون أن المسلمين هم الأمة الوحيدة بالعالم التي تقول كتابها هو كلام الله علماء اليهود وعلماء النصارى يعرفون متى كتبت كتبهم، ويعرفون أنه كتبها بشر إذاً علماؤهم لا يقولون إنها كلام الله، عند المسلمين العالم والجاهل والصغير والكبير يقولون إن القرآن كلام الله، وكلما ازداد الإنسان علماً بالقرآن، ومعرفة بالرسول ازداد يقيناً بأن القرآن كلام الله، وهم كلما ازدادت معرفتهم بكتبهم ودرسوها دراسة عميقة وعرفوا تاريخها كلما ازداد شكهم بأن هذا كلام الله، فالعلم عندهم يزيد الشك والعلم عندنا يزيد اليقين، نرجع الآن دليلنا أن القرآن هو كلام الله إذا آمنا بأن الله تعالى هو الخالق وهو الذي أنعم علينا بهذه النعم التي نحتاج إليها في أبداننا ونحن نعلم أننا لسنا أبداناً فقط وإنما نحن أيضاً روح وعقول ونحن كما أننا نحتاج للأكل والشراب نحتاج كيف نتعامل مع بعضنا كيف ننظم حياتنا الاجتماعية، كيف نحدد العلاقة بين النساء والرجال، كيف يكون تنظيمنا في الجانب السياسي، فالإله الذي أعطانا كل ما نحتاج إليه من الناحية المادية لا يعطينا ما نحتاج إليه من الناحية الروحية؟ إذاً بالعقل فقط نقول إن هذا الإله لا بد أن يرسل لنا رسولاً، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، يعني الذي يقول ما أوحى الله إلى بشر أبداً ما قدر الله هذا معناه أن الإنسان إذا عرف الله فبعقله أن هذا الإله لابد أن يرسل رُسلاً، ولا بد أن يرسل رسالة لنفرض الآن إنسان جلس وفكر وعرف أن للكون خالقاً واحداً وأن هذا الخالق الواحد هو الذي ينبغي أن يعبد وقال أنا أريد أن أعيش نهاية الحياة بطريقة ترضي هذا الإله فأين أجد هذا الإله يذهب إلى النصارى ويقولون له هذا كتاب مقدس يقول لهم هل هو كلام الرسول؟ يقولون لا. هل هو كلام الله؟ يقولون: هو كلام كتبه بعض المؤمنين بعيسى فيقول إذاً

أنتم لستم متأكدين أنه هو كلام الله ويذهب إلى اليهود ويقولون له نفس الكلام، ويذهب إلى البوذيين ويقولون نفس الكلام، ويذهب إلى المسلمين ويقولون نعم هذا القرآن كلام الله إذا كان عاقلاً حتى قبل أن ينظر إلى القرآن يقول في نفسه ما دمت أنا اقتنعت أن الله لا بد أن يرسل رسالة، وما دام أنه ليس هناك أحد بالدنيا ادعى أن ما عنده هو رسالة الله إلا هؤلاء المسلمين إذاً هذا لا بد أن يكون حقًا، لكن بعد هذا يأتي ويقرأ القرآن ويجد في القرآن أدلة على أنه لا يمكن أن يكون كلام البشر، مثلاً القرآن نفسه يعطينا مقاييس عقلية يقول قيسوني بها لكي تعرفوا أني كلام الله وإلا بأني لست كلام الله، هذا القرآن كلام الله أم ليس كلام الله، فلو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً. تذكرون نحن قلنا الاختلاف والتناقض يناقض العقل، وأن الكلام المتناقض كلام باطل، فالله هنا يقول لنا لا يمكن لأي مخلوق بشر ولا غير البشر أن يكتب كتاباً أو يقول كلاماً بحجم هذا القرآن ولا يقع فيه اختلاف، فعدم وجود الاختلاف فيه يدل على أنه من عند الله، الآن أريد أن أفصل لكم بعض الشيء، الإنسان إذا قال كلاماً قليلاً في وقت قصير يمكن أن لا يقع فيه خطأ كلما كثر الكلام زاد احتمال التناقض كلما طالت المدة زاد احتمال التناقض، مثلاً لو أن إنساناً يكتب عموداً في صحيفة، يكتب هذا العمود ويراجعه وقد لا يكون فيه تناقض ربما، لكن يكتبه اليوم ويراجعه لمدة أسبوع ويستمر إلى عشر سنوات هو نفسه إذا جاء وراجع ما كتبه يضحك على نفسه يقول كيف أنا قلت هذا وقلت هذا فيه تناقض، وإذا كان الموضوع واحداً قد يقل التناقض إذا تعددت الموضوعات زاد احتمال التناقض والأخطاء إذا كان يكتب في السياسة فقط يقل احتمال الاختلاف، إذا كان يكتب في السياسة، ومرة يكتب هذا العمود في الاقتصاد، ومرة في علم النفس، ومرة في الأخلاق، ومرة في العبادات عاد احتمال الاختلاف يزداد، ونحن نجد هذا في كتابات وفلسفة ماركس هدفه السياسي أن يحرر الناس لكن نظامه الاقتصادي جعل الناس عبيداً؛ فالشخص أحياناً تكون له أهداف سياسية واعتقاداته الاقتصادية تتناقض مع أهدافه السياسية وتصرفه في السياسة، تتناقض مع مبادئه الخُلقية، والقرآن فيه كل هذه الأشياء؛ فيه السياسة والدين والأخلاق والعبادات، ثم

إن القرآن نزل على النبي ﷺ في ٢٣عاماً آية أو آيات بعد أن اكتمل كل هذا ما وجدنا فيه اختلافاً هذا مستحيل أن يحدث في كتاب من صنع البشر، والدليل على أن القرآن كلام الله أنه منذ أن نزل القرآن إلى الآن منذ ١٤٠٠ سنة وتطور العلوم تطور هائلاً وما وجدنا في كل ما اكتشفناه يناقض ما قاله القرآن، وهذا لا ينطبق على أي كتاب بالدنيا غير القرآن؛ كل الكتب التي كُتبت مما قبل القرآن أو في زمن القرآن أو بعد القرآن بل إلى ما قبل ١٠٠ عام أو ٥٠ عاماً سواءً في السياسة أو في غيرها كل ما تطور العلم نجد فيها أخطاء، هذه بعض الحجج العقلية، وهنالك في العقيدة لا بد أن اقتنع أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن القرآن كلام الله بهذه الحجج بعد أن اقتنعت نقول له أنت عرفت أن هذا كلام الله إذاً هو حق إذاً تلتزم به تستمسك به ولا تقل لماذا قال القرآن كذا، لماذا قال الرسول كذا إلا على سبيل الفهم، لكن لا تسأل سؤال اعتراض، ولا تقل أنا ما أفعل هذا ولا أصدقه إلا من بعد أن يعطوني حجة، تكفيك الحجة الأساسية أنك اقتنعت بأن هذا كلام الله وأن الله لا يقول إلا بحق ولا يأمرنا إلا بما هو خير ولا ينهانا إلا بما هو شر، فتروض نفسك بعد هذا على أن تقبل هذا الحق ولا تقدم عليه أي كلام آخر، لا تقدم عليه كلام البشر، ولا تقدم عليه العادات التي تأصلت في بلدك، ولا تقدم عليه الموضات والمسائل الفكرية، وأرجع مرة أخرى إلى المثال إذا كان كل الناس بسبب الحضارة الغربية يعتقدون أن الزواج بامرأتين أسوأ من الزنا فلا ينبغي للمرأة المسلمة أن تعتقد هذا، يمكن للمرأة المسلمة أن لا تريد أن تتزوج مرة أخرى هذا من حقها، لكن إذا قالت أنا من رأيي أن الرجل لا يتزوج إلا واحدة تكون قد ناقضت كلام الله، ويكون هذا كفر، فلا بد أن نفرق بين آرائنا وبين أن نكون مشرعين شرعاً مخالفاً شرع الله، قلنا إذا كان الإنسان لا يؤمن بالإسلام ؟ وقلت إننا نستطيع أن نتفاهم مع كل إنسان عاقل سواءً كان شيوعيًّا أو غيره وضربنا أمثله على هذا قلنا وجود الخالق أن القرآن فيه دليل على وجود الخالق هل يمكن أن يقول لي باختصار ما الدليل على وجود الخالق ؟ أنا لم أقل لا تتحدث عن الخالق، أنا أقول إذا قال الإنسان أنا لا أؤمن بالخالق كيف تعطيه دليلاً؟ وأنا شرحت لكم هذا ما الدليل على أن الإله خالق لا يمكن الشخص أن يخلق نفسه ولا يمكن

الشيء أن يخلق نفسه؛ لأن ثلاثة أشياء إما أن تأتي من العدم أو تخلق نفسها أو لها خالق هذا هو ثم بعد هذا أن الخالق لابد أن يكون هذا الخالق متصفاً بصفات الخاق، مرة ثانية كل شيء من نبات أو إنسان أو جماد إما أن يوجد من العدم وهذا مستحيل، أو يخلق نفسه أو يخلقه شيء آخر، إذا كان الأول مستحيلاً والثاني مستحيلاً ما بقي إلا الثالث فهذا واضح ، وأما ما يقال في المصادفة فدائماً تكون من أشياء موجودة نقول مثلاً أنا خرجت من هنا وواحد جاء من هنا بالمصادفة تقابلنا، لكن المصادفات لا تخلق، وإذا خلقت من شيئين موجودين. الأصل سؤالنا الآن عن وجود الأشياء كيف جاءت ؟ فما وجدت هكذا، لا يمكن أن تخلق نفسها لابد لها من خالق، هذا الخالق من هو؟ لنفرض أن الجواب الطبيعة الرياح والأنهار والأشجار، إذا قلنا الطبيعة خلقت هذه من أوجدها الآن في العلوم في علم الفيزياء، وكذا هذه النظرية تقول إن مادة الكون كلها كانت مجموعة واحدة وشكلاً واحداً، السؤال الآن من أين جاءت هذه المادة الأولى؟ إذا قلت من الطبيعة تكون أنت ما أجبتني إلا أن تقول هذه جاءت من العدم أو تقول هناك شيء آخر أوجدها. العقلاء يفهمون هذا، وكثير من الفيزيائيين يبحثون عن الإجابة على هذا السؤال سؤالاً معقولاً، الآن إذا قلنا من العدم مستحيل تخلقها مستحيل قلنا الإجابة إنه خلقها شيء آخر، الآن الاختلاف سيكون في نوع هذا الشيء الذي خلقه إذا قلت هذا خلقه هذا، وهذا خلقه هذا، وهذا خلقه هذا، إذا كان هذا مثل هذا سيحتاج إلى خالق إذاً الخالق لابد أن يكون مختلفاً عنهم حتى لا يحتاج إلى خالق أهم ما يتبع الإنسان للدين أن قدرات مثل هذه ما كان موجوداً فوجد مثلاً كل واحد فينا ما كان موجوداً إذا قلت من الأب فنقول من أين جاء الأب، وإذا قلت من آدم نقول من أين جاء آدم؟ إذا قلت من الزهر ومن الحيوانات نقول من أين جاءت؟ وإذا قلت بداية من الماء نقول ومن أين جاء الماء؟ إذاً لماذا نسأل هذا السؤال؛ لأن كل هذه الأشياء ما كانت موجودة فوجدت إذاً هذه لها كلها لابد أن يكون لها بداية إذا لم تكن لها بداية لا نفهم من أين جاءت، ولذلك الذي يقول من خلق الله؟ سؤال ما فيه عقل لماذا؟! لأنه كأنه يقول ما الشيء الذي كان قبل الشيء الذي لا شيء قبله، إذا قلت فلان أول من خرج من هذا الباب فهل تقول من الذي خرج قبله هو أول واحد، إذا

قلت إن الله أزلي إذاً لا شيء قبله، وإذا سألت من الذي خلقه كأنك تقول هناك شيء قبله لذلك السؤال عن مسألة من خلق الله سؤال ما له معنى، فإذاً أول صفة من صفات هذا الخالق أنه أزلي، وما دام أنه أزلي فلابد أن يكون الأول لأن الذي لا أوله لا يمكن أن يكون له نهاية، ننتقل إلى مثال آخر الدار إذا قال إنسان ما الدليل على هناك دار بعد البعث بعد الموت نقول له أولاً هل تؤمن بوجود الله إذا قال نعم نقول إذا نبدأ معك بهذا، ونقول نعطيك دليلاً عقليًا من القرآن يعني كأن القرآن يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]. هل يصح من الخالق الحكيم العادل أن يجعل مصير الذين يعملون السيئات مثل مصير الذين يعملون الحسنات لا يمكن إذا لم تكن هناك دار الآخرة كانت الدنيا هذه كلها مبنية على لا عقلانية لأن الدنيا لا تصلح إلا ببعض أعمال الخير ولكن ما كل الذين يعملون الخير يجدون جزاءهم في الدنيا إذاً لابد من دار آخرة غير هذه الدار يجد فيها المحسن جزاء الإحسان ولا بد من أن يكون هناك دار آخرة بعض الناس سيقولون نعم لا بد لكن كيف يبعث الناس بعد أن يموتوا وكان العرب يأتون إلى النبي ﷺ بعظام لأموات يفتتونها أمامه ويقولون كيف هذا يُبعث هل تعرفون الإجابة على هذا السؤال من القرآن إذا كان هو خلقها وما كانت موجودة لا يستطيع أن يخلقها الذي يخلق أول مرة هل ما يستطيع أن يخلق ثاني مرة، إذا الدليل من القرآن أن البعث ممكن وليس مستحيلاً عقلاً، وأنه مقدور الله يقدر على ذلك، وأن صفات الله ورحمته وعدله يقتضي أن يكون هناك بعث إذاً لابد من بعث، وفي القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يحيي الأرض بعد موتها فالذي يحيي الأرض بعد موتها يستطيع أن يحيي البشر بعد موتهم، الآن نرجع إلى موضوع العقل نضرب بعض أمثلة تصرفات عقلية وتصرفات غير عقلية في مبادئ وكلها تقريباً من القرآن الكريم مثلاً إذا قال الإنسان كلاماً ولكن قاله بدوافع سيئة أو أن هذا الكلام يقوله بعصبية، فهل نقول إن هذا الكلام خطأ أو نقول صواباً يعني كونه خطأ أو صواب لا علاقة له بدوافع الشخص الذي قاله، وإنما خطؤه وصوابه بالكلام الذي يقوله كثير من الناس يسلكون في هذا سلوكاً غير عقلي، يقول إنه إذا بين

الدوافع السيئة فقد أقام الدليل على أن الكلام خطأ، مثلا يقول هذا الكلام كلام تقوله الصهيونية أو الماسونية أو الرأسمالية أو الشيوعية، إذاً هذا خطأ. القرآن يعلمنا أولاً أن الكلام خطأ إذا كان خطأ ثم يبين أن دوافع الشخص سيئة، أو نقول إن الكلام هذا صحيح، ولكن هذا الذي قاله ما قاله لأنه صحيح، فلابد من الأمرين معاً، أحياناً من عدم العقل أن بعض الناس يكرهون الحق؛ لأنه جاء من شخص يكرهونه، هذا مختلف عن الأول أو يكرهون الحق إذا كان في مصلحة من يكرهونه، مثلاً إذا قلت هذا الكلام الحق سيستفيد منه العدو فأنا أغيره، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: ٨] هذا شيء يقتضيه العقل لكن كما قلنا ما كُل شيء يقتضيه العقل يستطيعه كل الناس فالإيمان يعطينا قوة على أن نقبل مقتضيات العقل، أحياناً أيضاً من الأخطاء التي يقع فيها الإنسان أنه يجد في بعض المذاهب، أو عند بعض الناس كلام حق يعجبه هذا الكلام فيؤمن ببقية الكلام كله.

وهذا كان من أكثر الأسباب التي انتشرت به الشيوعية في العالم يأتي الشيوعي مثلاً يقول نحن ندعو إلى إنقاذ العمال، وهو يرى أن هذا الكلام معقول، ولكنه بسبب هذا الذي أقتنع به يقبل النظرية الشيوعية كلها، أذكر أني قلت لأحد زملائي كان شيوعياً، قلت له إن كارل ماركس ألحد قبل أن يضع النظرية الماركسية فقلت له إنه ألحد وعمره سبع عشرة سنة، وقلت له إن إلحاده لا علاقة له بالاشتراكية، فقال كنت أقول في نفسي إذا قلت ننصف العمال أقول ليس هناك إله ولكنني قبلت هذا ثمناً لهذا، أو إنسان يسمع الخميني يقول كلاماً إن أمريكا ظالمة وعلينا نصرة المظلومين بالعالم، ولابد من نصر الثورة هذا الكلام يعجبه ويقبل المذهب الشيعي مع أن المذهب الشيعي فيه أشياء باطلة، وأن الإنسان سلك هذا السلوك لأنه ما من مذهب مهما كان ضالاً إلا وبه بعض الحقائق هل كل ما تقوله الكاثوليكية باطل لا هل ما يقوله الماركسية باطل لا فالإنسان لا يقبل المذهب كله لأنه أعجبه أحياناً، أيضاً من عدم العقل الإنسان إذا رأى إنساناً شريراً أو معادياً للدين ينسب إليه كلاماً لا يقوله هذا الشرير، ويظن إن هذا من الدفاع على الدين هذا قريب من المثل الذي قلناه أن

اعدلوا ولو كان ذا قربى فينبغي للإنسان العاقل لاسيما إذا كان مسلماً أن لا ينسب إلى الناس حتى ولو كانوا أعداء للدين لا ينسب إليهم كلاماً لا يقولونه، المثل الأخير من عدم للعقل أن تنسب إلى الدين كلاماً لا دليل عليه من الدين، نحن قلنا من عدم العقل أن تنسب إلى الإنسان حتى لو كان عدواً كلاماً لا يقوله، ثم تنسب إلى الله وإلى الرسول كلاماً لم يقله، ولكن كثيراً من الناس فعلوا هذا من المنتسبين إلى الدين، أنت إذاً كنت مسلماً تقول أنا مؤمن بالله، وأن القرآن كلام الله وأن محمداً رسول الله، فإذاً كأنك أنت تقول إن هذا الدين ما له مصدر إلا القرآن والسنة النبوية، وما بني عليهما استنتج منهما، يعني أي شيء تقول هذا من الدين لابد أن تقول إنه في آية قرآنية من القرآن أو حديث نبوي يدل عليه، أو يمكن أن يستنتج بالعقل من القرآن أو السنة أو أن المسلمين كلهم قالوا إن هذا من الدين هذا يدل على أنه من الدين، الأصول التي نأخذ منها الدين هي فقط القرآن والسنة، عندما نقول القياس، القياس هو في الحقيقة معناه ما نستنتجه بالعقل من الكتاب والسنة، هو مبني على الكتاب والسنة والإجماع معناه هو دليل على أن هذا الكلام هو من الكتاب و السنة، غير هذا كل كلام ينسب إلى الدين بغير هذه الأدلة كلام بدون دليل، تعرفون أن المسلمين الآن يسمون يقولون هذا سنة، وهذا شيعة كيف نعرف من الذي على الحق ومن الذي الباطل نقول إن الذي على الحق هو الذي أقواله من الكتاب والسنة، والذي على الباطل هو الذي يقول كلاماً ليس عنده دليل من الكتاب والسنة، أو أن في الكتاب والسنة ما يدل على أنه باطل، هذه مسألة بالنسبة للشيعة وبالنسبة لغيرنا لابد أن تأخذوها مأخذ الجد ولا تتهاونوا في دينكم، الآن أريد أن نأخذ بعض الأمثلة من عقائد الشيعة، ونرى هل لها دليل من الكتاب والسنة أم لا؟ هل تعرفون بعض العقائد التي عليها الشيعة؟ يقولون إن الأئمة معصومون، ما معنى العصمة أن كل كلام يقوله الواحد من هؤلاء لابد أن يكون صحيحاً، وإذا قلنا إن هذا كلامه صحيح أن هؤلاء الأئمة صاروا مثل الرسول ﷺ لأن الإنسان إذا كان معصوماً فكلامه صحيح دائماً والرسول دائماً كلامه صحيح، فأصبح ليس هناك فرق بين الرسول وبين الأئمة، صاروا من الناحية العملية بدلاً من أن يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله كأنهم يقولون لا إله إلا الله وأن محمداً وعلياً وكذا وكذا رسول الله، ونحن عندنا دليل على

أن المعصوم هو النبي ﷺ فقط مثلاً قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، ما قال هذا عن أحد غير الرسول، وقال تعالى عن الرسول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣]، والله قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، يعني لا تجعلوا أي كلام غير كلام الله والرسول مقدماً على كلام الله و كلام الرسول والمسلمين الصحابة أجمعوا أن كل إنسان بعد الرسول يخطئ ويصيب، عندنا أدلة كثيرة على أن المعصوم هو الرسول ﷺ إذا قال الإنسان أن هناك يوجد من هو معصوم غير الرسول فلابد من دليل ثم إذا كان هؤلاء جميعاً معصومين فلابد أن يكون كلامهم جميعاً صحيحاً وإذا كان كله صحيحا فلا يمكن أن يكون فيه تناقض، لكننا نجد فيما ينسبونه إلى الأئمة كلاماً متناقضاً هذا يقول كلاماً وهذا يقول كلاماً مخالفاً بل أحياناً ينسبون إلى الإمام الواحد كلاماً متناقضاً، التقية أنا في رأيي من السهل أن أناقش شيوعياً ولا أناقش شيعياً لأن الشيوعي عنده كتب يعترف بأن هذه كتب الشيوعية، وإذا قلت له كارل ماركس كان يقول كذا ويقول انجلز كذا يقول نعم، الشيعي بسبب هذا المبدأ الذي عنده (التقية) إذا رأى الناس أغلبهم من أهل السنة يقول أنا موافق؛ يُقر، الشيعي بسبب التقية ينكر ما يعتقده، فإذاً صعب أناقشه أمام الناس تقول له فلان وفلان يقولون كذا يقول لا أنا لا أقول، وإذا كان الجو مناسباً معه نقول له أنتم تقولون كذا يقول نعم نقول، وهذا معناه أن المذهب كله مبني على إباحة الكذب، والكذب هو أبعد ما يكون عن الدين الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]،

وأن المؤمن ممكن أن يزني وممكن أن يشرب الخمر، ولكنه لا يمكن أن يكون كذاباً يعتاد الكذب؛ لأن صفة الكذب تتناقض مع الدين، فهذا هو أيضا مبدأ ما له علاقة بالدين، مثلا من الأشياء المتعة عند الشيعة هي أسوأ من اتخاذ الخليلات بنظام الخليلات، الإنسان يكون له صديقة واحده دائماً، ولكن في نظام المتعة يمكن أن

يذهب إلى امرأة، ويقول أنا أتزوجك ثلاثة أيام، ويعطيها شيئاً يسيراً من المال ولا يكون لها حق عليه أبداً غير هذا الذي أعطاها حتى إذا ولدت منه ولداً فلا يرثه، فالشيعي ينام اليوم مع هذه المرأة واليوم الثاني مع امرأة ثانية واليوم الذي بعده مع ثالثة وهكذا حتى قالوا ولو مع الأب كله جائز، لو كان المسلمون يفعلون هذا لانتشر الإيدز بين المسلمين من عشرة قرون، لكن الله سلم. لو كان كل دين الشيعة صحيحاً إلا هذا الذي قلناه فصحة ذلك لا تسوغ قبول هذا الباطل، وهم أنفسهم لا يعدونك شيعياً إذا ما قبلت هذا الباطل، ومثل ما قلت حتى الماركسية والكاثوليكية فيها أشياء صحيحة، إيران الآن لا يقولون هذا فقط بل يفعلونه أن أعرف بعض البنات المسلمات اللاتي يدرسن في أمريكا وكنَّ من أهل السنة وبعد الثورة صرن من الشيعية فصرن يمارسن المتعة. وافرض أن دوافعي سيئة فهل هذا الكلام الذي قلته عن الشيعة صحيح أم لا ؟ إذا كنت لا تصدقني لا تقول إن كلامنا خطأ قول ربما يكون خطأ وربما يكون صحيح وأذهب وأبحث في كتبهم، إن من عقائدهم أنهم يقولون إن كل الصحابة ارتدوا وكفر ماعدا أربعة ،أكثر من يكرهون من الصحابة أبوبكر وعمر رضي الله عنهما وأبو بكر وعمر كانا أقرب صحابيين إلى رسول الله ﷺ ويتحدثون عن عائشة وهي زوجة الرسول ﷺ، أنا لا أرضى أن أحداً يتحدث عن زوجتي، ولا أحد منكم يرضى أن أتحدث عن زوجته، وهل يرضى الرسول ﷺ أن يتحدث أحد عن زوجته ويتهمها؟! الرسول ﷺ مات بين يدي عائشة فهل هذه تكون امرأة فاسدة، الذي يطعن في عائشة ويطعن في أصدقاء الرسول كأنه يطعن في الرسول ﷺ، إذا كان لي أصدقاء وصادقتهم لمدة عشر سنوات وجاء إنسان وقال لي أنت رجل طيب وكذا وأصدقاؤك كلهم فاسدون وهذا يتهمني بأحد أمرين إما أنه يقول إنني أعرفهم ولا أقول بهذا، أو أنني مغفل وأجلس معهم عشر سنوات وأعاشرهم ولا أعرفهم، هل يمكن الرسول ﷺ يكون كذلك؟ ولذلك بعض العلماء يقول إن الذي يطعن في أبي بكر وعمر أو أنه يطعن في عائشة فهو كافر؛ لأن القرآن برأها والذي يتهمها يكذب القرآن، وأما بالنسبة لأبي بكر وعمر لأن هؤلاء كانا أحب الناس إلى الرسول الله ﷺ من أصحابه، فالذي يقول إن هؤلاء مجرمون ينبغي أن يُضربوا، وكان الرسول ﷺ يحبهم فهذا طعن في الرسول ﷺ وإذا كان كل الصحابة ضالين إلا أربعة،

فمن أين عرفنا هذا الدين؟ بعض الشيعة قالوا إن هذا القرآن غير صحيح من الذي نقله إليك هؤلاء الأربعة فقط؟ ولذلك بعض الشيعة قالوا هذا القرآن ليس بصحيح قالوها أو ما قالوا سوف ينتج عن كلامه يعني إذا كان الصحابة كذابين ويفترون على الرسول ﷺ يقولون إن الرسول قال علي هو الخليفة ويعارضونه ويتآمرون ويجعلون أبا بكر الخليفة الذي يفعل هذا لا يؤتمن على نقل القرآن، فينتج من اعتقاد الشيعة هذا أن الإسلام انتهى منذ وفاة الرسول ﷺ، ولذلك اخترعوا ديناً من عندهم لا على كتاب الله ولا على سنة نبيه لكن مع الأسف في الواقع يسمون أنفسهم مسلمين ويفعلون بعض الأشياء الإسلامية ويفعلون بعض الأشياء الإسلامية، ويضعون بعض العبارات الإسلامية ويسمون أنفسهم جميعاً من مسلمين، بل بعض الناس -مع الأسف- يقول إنهم مثل أهل السنة أو أحسن، والحركة الإسلامية والصحوة الإسلامية بدأت أولاً عند أهل السنة مثل حركة الإخوان المسلمين والذي انتقلت إلى البلاد العربية الأخرى بما فيها السودان ونحن كنا ندعو إلى العودة إلى الإسلام ولا نعرف شيئاً عن الشيعة، وكذلك في باكستان الجماعة الإسلامية بقيادة الأستاذ المودودي، بل إن حركة الشيعة اعتمدت على كثير من كتب الحركة الإسلامية، وبعد أن قامت الثورة الإيرانية ولكن كان لها أثر سيئ على الصحوة الإسلامية في كثير من بلاد العالم وإنها شقت صف الحركة الإسلامية كان واحداً، كان كل الشباب بالصحوة الإسلامية من أهل السنة فجاءت الحركة الشيعية وشقت هذا الصف صار بعضهم شيعياً وبعضهم سنة، ولكن لنفترض أن فعلا الثورة الإيرانية حركت المسلمين لنفرض هذا سنقول إن هذا ولكنه لا يسوغ الجوانب السيئة بل إن هذا شيء عرضي، والأصل هو الفساد، لأنه أحياناً الناس يتحركون حتى بسبب بعض الآراء والحركات الباطلة، فهل نقول إن هذه حركت المسلمين معناها أنها صحيحة، لا تقيسوا الشيعة بمجرد الشعارات الشيعية مذهب له عقائد وله كتب وله رجال ينشرون هذا المذهب في العالم، ولا نقول لأن هؤلاء يتكلمون ضد أمريكا معناه أن كلامهم صحيح أكثر من كان يتكلمون ضد أمريكا ويخرج في مظاهرات ويقف حاجزاً دون سيطرتها على بعض البلاد كانت الشيوعية في أسوأ حالاتها، ولذلك كثير من الناس في العالم ما رضوا سقوط الشيوعية، قالوا هذا سيخلق جواً لأمريكا، فهل نقول إن الشيوعية حسنة لأنها تعادي أمريكا ؟

من هم الذين تأثرت بهم وماهي جهودكم في الدعوة إلى الإسلام ؟

أكثر من تأثرت بهم بعض أقاربي كانوا يدعون إلى إحياء السنة في السودان، لأنه في السودان كما عندكم هنا كان أبي وأمي والناس من حولي كلهم ينتمون إلى طرق صوفية، في زمن الإنجليز كنا مستعمرين، وما كنا نعرف كثيراً عن سنة الرسول ﷺ، وهؤلاء الأقارب كلموني وأنا صغير، يمكن عمري خمس عشرة سنة، ولذلك بدأت أهتم بسنة الرسول ﷺ وبعد ذلك عملت في حركات أخرى مثل حركة الإخوان المسلمين، وعملت في السياسة في السودان، وبعدها ذهبت إلى السعودية استفدت كثيراً جداً من الشيخ عبدالعزيز بن باز، وكان عمري خمسين سنة، كنت أذهب وأجلس مع الشيخ عبدالعزيز في درسه مع التلاميذ بعضهم من أبنائي لأنه في رأيي هو أعلم الناس في العالم بسنة رسول الله ﷺ، ومن الأشياء التي كانت سيئة وأثرت علينا تأثيراً حسناً أنه لما كنت طالباً كانت هناك الحركة الشيوعية أيام ستالين، وبدأت بالاصطدام مع الحركات الشيوعية، وكانوا يدعون إلى الإلحاد علناً، وهذا أعطانا حماساً بأن ندعو الناس للسنة، ونقف ضد الشيوعية، وبدأنا نقرأ عن الشيوعية، وبدأت أقرأ عن كارل ماركس وأنا في سن العشرين.

س: هل حصلت لك مواقف مع بعض الملحدين ؟

ج: نعم؛ لأن بعض الناس عندنا كانوا ملحدين، وكان عندنا رجل بالسودان مفكر من أكبر الناس الضالين في العالم اسمه محمود محمد طه، كنا نتجادل معه، وقد قتل مرتداً، وعندما دخلت الجامعة كان الطلاب الشيوعيون يسيطرون على اتحاد الطلاب، وكنا الطلاب الإسلاميين أكبر مجموعة، وكنت في فترة من الفترات رئيس الاتحاد.

س: ما هو موقف حكومة السودان من تطبيق الشريعة؟

ج: نعم الذين كانوا في السودان كان بعضهم من الرجال العساكر من ناحية سلوكهم الشخصي وتدينهم أحسن حكام مروا على السودان، ويحاولون تطبيق الشريعة فقط بعض الأشياء القليلة، ولكن الأمر يحتاج إلى مجهود أكبر، والحكومة تقف ضدهم وهي تقول ليس لأنهم مسلمون ولكن لأنهم حكم عسكري، نحن أيضاً لا نريد أن يكون البديل للحكم الإسلام حكماً عسكرياً، وبعد قليل يصير حكماً إسلامياً ومدنياً، والحكم العام تسيطر عليه جماعة من الجماعات الإسلامية، ولكن

نرجو في المستقبل أن تتسع الدائرة لكل الجماعات الإسلامية وكل الأفراد المتدينين؛ حتى يشعر الناس أن هذه الحكومة لهم جميعاً وليست لجماعة واحدة، وإن شاء الله إذا حدث هذا سوف يتوطد الحكم الإسلامي أكثر، وإذا الدولة صارت قوية تتعامل الدول العالمية معها.

س: ما رأيك في انتشار الإسلام في أوروبا والعالم؟

الإسلام لا يشكو من قلة العدد عددهم كبير ولكن النوع هو المهم؛ لأن بعض المسلمين في إندونيسيا هؤلاء مائة مليون حكمهم الهولنديون، فيما بعد حكمهم اليابانيون، المسلمون ليسوا قليل، لذلك نحن نتحدث عن الشيعة لأننا نريد أن نسير بالإسلام إلى الطريق الصحيح لو كان المسلمون أقل من ربع هذا العدد مستمسكين بالدين في عقائدهم وفي عباداتهم وفي أخلاقهم وفي جهادهم، كان يسيطرون على العالم، الآن كثير من الناس يدخلون في الإسلام ولكن عندنا مشكلة وهي أن العلماء قليلون، وكثير من الناس يصيرون مسلمين ولكن حالهم يكونون قريبين من المسلمين في بقية العالم الإسلامي، فلا يكون همكم دائماً أن العدد يكون كثيراً، نريد أن نسعى دائماً وأن تقولوا نحن نريد من أنفسنا بقدر الإمكان أن نكون كما كان عليه أصحاب الرسول ﷺ، طبعاً لن نكون مثلهم تماماً لكن إذا جعلناهم هم القدوة تحسنت أحوالنا.

س: ماهي انطباعاتكم عن أحوال المسلمين في البوسنة؟

ج: الحقيقة أن الإسلام هنا ضعيف، ونحن طبعاً نعلم أن نعرف أنه كانت حروب والحمد لله أن بقي هذا بعد كل ذلك الاستعمار والتجارب المريرة، ونحن لا ندري لو حصل لنا ما حصل لكم، هل يبقى لنا الإسلام ونحمد الله أن سلمنا مما ابتلاكم به ونحمد الله سبحان وتعالى على أن ظللتم مسلمين لأنه أكبر نعمة ينعم الله بها على العبادة هي أن يسيروا إلى الطريق المستقيم، ويكون حمدكم لله وشكركم له أن تعودوا إلى هذا الدين وتستمسكون به استمساكاً حقيقيًا، لا يكون مجرد تعصب أو مجرد مسألة قومية، نريد أن تكونوا مسلمين بمعنى مستسلمين لله تعالى، وثقوا بأنكم إذا نصرتم هذا الدين فإن الله سينصركم، ويمكّن لكم في الأرض. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي

(محاضرة ألقاها الدكتور جعفر في روسيا).

١. مقدمة:

إن الحمد لله نحمده نستعنيه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل الله فلا هادي له، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد المبعوث بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين، وبعد فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ونحمد الله تعالى حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه على هذا اللقاء الذي لم يكن يدور بخلد أحد منا ولا في منامه قبل بضع سنين أنه يمكن أن يكون.

نحمد الله تعالى الذي أنجانا وأنجى البشرية من ظلام الشيوعية وظلمها. ونسأله أن يديم علينا نعمة الإسلام والحرية والأمن والسلام. وإن من تمام شكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة أن نتعاون على استئناف السير – بعزم أكيد – على صراط الله المستقيم، وتجنب كل السبل التي أدت في الماضي إلى ضعفنا وبعدنا عن ديننا وهواننا على غيرنا. ولما كان ديننا هذا قائماً على العلم، فإن أول ما ينبغي على ما يريد أن يهتدي بهداه أن يعرف الطريق المؤدية إلى ذلك الهدى. ومن هنا تجيء أهمية الموضوع الذي أتشرف بالحديث إليكم فيه في هذه المناسبة السعيدة.

أيها الإخوة الكرام:

إن المنهج العلمي الموصل إلى الحقائق المتعلقة بأمر ما له ركنان:

أولهما: التماس تلك الحقائق في مصدرها الصحيح

وثانيهما: سلوك الطرق المناسبة للبحث عن الحقائق التي يتضمنها ذلك المصدر.

والدليل الدال على وجود حقيقة ما يتكون من مجموع هذين الأمرين. فالذي يدعي وجود حقيقة ما عليه أن يثبت أنه وجدها في المصدر المناسب لها، وسلك إلى معرفتها الطريق المناسب لها، فإذا لم يكن لها سند لا من هذا ولا ذاك كانت دعواه باطلة. والحقائق كلها مهما كانت أنواعها مصدران لا ثالث لهما. الكون والوحي، أو قل خلق الله، ووحي الله، فإذا ادعى إنسان دعوى ليس عليها دليل من هذين المصدرين أحدهما أو كليهما، كانت دعواه باطلة. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ

عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر:٤٠]، وقال تعالى في المعنى نفسه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٤]، فعبادة هؤلاء لما عبدوه من دون الله تتضمن الدعوى بأنهم أرباب والرب لابد أن يكون خالقاً، والعلم بأنه خالق يكون إما بمشاهدة ما خلقه في الكون، أو بوحي من الإله الذي ثبت أنه خالق، فإذا لم يكن لهذه الدعوى سند لا من خلق الكون المشهود ولا من كلام الإله الخالق، كانت – بالضرورة – باطلة، وبما أن المنهج العلمي قائم على هذين الركنين لا غير، فإنه يستبعد الدعاوى القائمة على أشياء مثل التخيلات، والظنون، والأهواء والأماني، والآراء المجردة، والتقليد. ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]، ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف:٢٠]، ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم:٢٨]، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣]، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨]، ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٢-٧٤].

والحقائق منها ما يمكن أن يوجد في ذينك المصدرين كليهما – أعني الكون والوحي – ومنها ما لا يوجد إلا في أحدهما، فإذا ادعى مدع وجود حقيقة في غير المصدر المناسب لها لم تقبل منه، بل إن الحقائق المعلقة بالمصدر الكوني متنوعة، ولكل منها مصادر متميزة في داخل ذلك المصدر الكبير. فحقائق الفيزياء مثلاً لا تلتمس في السلوك الحيواني، ولا في الأحوال النفسية، وحقائق علم الأحياء لا تلتمس في الجمادات ولا في تقاليد المجتمعات، وهكذا، والمناهج تختلف باختلاف المصادر.

فالحقائق الكونية سواء منها ما كان متعلقاً بالطبيعة أو بالمجتمعات البشرية إنما تعرف أساساً بالمشاهدة والتجربة، ثم بالاستنتاج العقلي مما شوهد وجرب، ثم بكلام الثقات الذين شاهدوا وجربوا أو استنتجوا، وهذا الطريق الأخير مع أنه آخر في الرتبة إلا أنه أول في انتشار المعرفة، فقلة من الناس هم الذين يطلعون على الحقائق اطلاعاً مباشراً، وإنما يعرفها معظم الناس عن طريق ما يقول هؤلاء، كما يعرفون بعضها عن طريق وحي الله. وأما الحقائق الدينية فإن مصدرها الأساس هو وحي الله إلى عباده. والوحي يعرف بطريقين. طريق خاص بالأنبياء الموحى إليهم، وطريق عام ما ينقله لنا أولئك الأنبياء عن ربهم.

وبينما الصفة المميزة للحقائق الكونية هي كونها موجودات، أو صفات أو أحوال أو علاقات لتلك الموجودات كان المنهج الأساس الموصل إليها المشاهدة. وبما أن الحقائق الدينية تأتينا في صورة كلام، كلام الله تعالى، أو كلام أنبيائه، فإن المنهج الموصل إليها إنما هو اللغة التي تؤدى بها... قرآناً عربياً لعلكم تعقلون". فالعقل – بمعنى الفهم – لما يقال هنا، هو بمثابة المشاهدة للتجربة هناك. ولكن كما أن عالم الطبيعة يستنتج بالطرق العقلية مما شاهد ما لم يكن قد شاهد، فإن عالم الدين أيضاً يستنتج من الحقائق التي دلت عليها النصوص دلالة مباشرة حقائق أخرى لازمة عنها وإن لم تكن مذكورة صراحة فيها. وكما أن النقل عن الثقات هنالك هو الطريق الأول لنشر العلم فإنه هو الطريق لذلك النشر هنا أيضاً. وكما أن بعض الحقائق الدينية توجد في المصادر الدينية فإن بعض الحقائق الدينية الأساسية تستنتج من الحقائق الكونية:

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١]، ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم:٨]، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

أقول بعد هذه المقدمة الموجزة في بيان المصادر والمناهج في كل من العلوم الطبيعية والعلوم النقلية، إن غرضنا هنا إنما هو المنهج العلمي المتعلق بمعرفة الحقائق التي جاء بها الإسلام. نريد أن نعرف:

ما مصادر الحقائق الدينية الإسلامية وما المنهج المؤدي إلى معرفتها؟ إن المتأمل لما أصاب المسلمين من فرقة واختلاف، وما حدث في دين الكثيرين منهم من انحراف، لا يجد له سبباً إلا عدم الالتزام بمصادر الدين التي هي مصادره، أو عدم سلوك المنهج الصحيح لمعرفة ما تضمنته تلك المصادر من حقائق.

مصادر حقائق الدين الإسلامي:

إن الإسلام هو الدين الذي جاء به محمد ﷺ، فمصادره عند من يؤمن بأنه رسول الله، هي تلك التي قرر هو ﷺ أنه مصادره، ولا يحق لأحد غيره أن يضيف إليها، ولا أن يحذف منها. بل كل أمر أخذ من غيرها فليس من دين الله في شيء، وكل أمر ترك منها فهو ترك لبعض هذا الدين، وقد حدد ﷺ تلك المصادر بقوله: **(فانه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة)**[1]. والقرآن الذي أنبانا الرسول ﷺ بأنه مصدر للدين يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١]، ويقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧]، ويقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران:١٠٣].

هذان هما مصدرا الدين الأساسيان. فكل حقيقة لا تؤخذ منهما أخذاً مباشراً، أو لا يكون فيهما دليل عليها، فليست من دون الله في شيء، لكن بعض المنتسبين إلى الإسلام أنكر بعض هذين المصدرين، وبعضهم أضاف إليهما مصادر أخرى.

---

(١) رواه أبو داوود والترمذي من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

فالخوارج - وهم أول طائفة تنحرف عن جادة الطريق الإسلامي - أنكرت سنة رسول الله ﷺ. وما زال في الناس من ينكر هذه السنة كلها أو بعضها، وما زال فيهم من يؤمن بها إيماناً نظرياً لكنه يعطلها واقعياً. وبعض الغلاة من أهل الفرق الضالة زعموا أن القرآن الذي بين أيدينا حدث فيه تحريف بالنقص والزيادة. وآمنوا بأن أئمتهم معصومون فنزلوا ما نسبوه إليهم من كلام المنزلة التي لا تجوز إلا لكلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

وغلاة المتصوفة زعم بعضهم - كابن عربي - أن كتابه الذي كتبه وحي من الله، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ، وعد بعضهم رؤاه وكشوفه مصادر مستقلة يعتمد عليها فيما يعد من الدين وما لا يعد. والفلاسفة والمتكلمون سلموا بقواعد حسبوها عقليات - وإنما هي جهليات - وجعلوها ميزانا يقيسون به ما يقبلون وما يرفضون مما في الكتاب والسنة، وبعض الناس في زماننا جعل ما تواضع عليه الغرب من قيم هو ذلك الميزان، وبعضهم جعل أهواءه الذاتية وثقافته العصرية، هي المعيار الذي يعيد به تفسير النصوص القرآنية والسنية، وظن أنه بذلك إنما يتبع حكم العقل، ويجعل الإسلام متمشياً مع العصر. والمتعصبون، دعاة التقليد من أهل المذاهب قدموا ما يجدونه في كتبهم المذهبية على ما يجدونه في كتاب الله تعالى، وفي دواوين السنة النبوية، واعتلوا لذلك بحجج هي نفسها مخالفة لما قرره الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، والغريب أن كثيراً من هؤلاء الذين يدعون إلى وجوب التقيد بمذهب معين من المذاهب الأربعة إنما يتقيدون بها في مسائل الفقه الفرعية التي اختلف فيها أولئك الأئمة، ثم يخالفونهم مسائل أصول الدين التي اجتمعت كلمتهم عليها، فتجد أحدهم يصف نفسه بالمالكي - أو الشافعي أو الحنفي أو الحنبلي - مذهباً والأشعري عقيدة، والقادري أو التيجاني أو النقشبندي طريقة، هذا والأئمة الأربعة - مع اختلافهم في المسائل الفقهية الفرعية - كانوا متفقين اتفاقاً كاملاً في المسائل الاعتقادية، وفي تحريهم لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في الأمور التعبدية. فهؤلاء يقلدونهم في المسائل التي اختلفوا فيها ويجمعون على خلافهم في المسائل المهمة التي أجمعوا عليها، فإذا أردنا أن نكون هداة مهتدين، ورثة لرسول رب العالمين، نحمل مشعل النور الذي جاء به إلى عصرنا ليهتدي بها في حل مشكلاته النفسية والعقلية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وإذا أردنا

للأمة التي تنتسب إلى الإسلام أن تكون أمة مسلمة حقاً، تقود البشرية وتهديها، وتنال من العزة والعلو ما نال أسلافها، فلا بد من أن تعقد جماعة منا العزم على الرجوع المباشر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتقديمها على ما سواهما مما يدعي أنه مصادر للدين، لكن الرجوع إلى الكتاب والسنة لا يعني إهمال أقوال الأئمة وجهودهم، وإنما يعني أن تكون تلك الأقوال – كما أراد لها قائلوها – وسائل تعين على فهم ما في ذينك المصدرين لا بديلا عنهما.

فهل هذا ممكن؟

يشكك بعض دعاة التقليد في إمكانية ذلك بحجج منها:

(أ) أن فهم القرآن يحتاج إلى مهارة في اللغة العربية، لم تعد متيسرة للناس في عصرنا.

(ب) وأنه يحتاج مع ذلك إلى معرفة بالناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، .... وهي أمور لا يستطيع المتأخر معرفتها معرفة مباشرة من قراءته للقرآن الكريم.

(ت) وأن الأحاديث النبوية من الكثرة بحيث لا يمكن للمتأخرين أن يحيطوا بها، مع أن الإحاطة بها مهمة لمعرفة الأحكام المتعلقة بأي أمر من أمور الدين كالصلاة أو الزكاة أو الجهاد، وإلا تصور الإنسان لهذه الأمور قاصراً، وقد تمكن العلماء الأئمة المتبوعون من مثل هذه الإحاطة، فما علينا إلا أن نكتفي بأقوالهم.

(ث) أن الأحاديث النبوية فيها – كما في القرآن الكريم – ناسخ ومنسوخ، وعام وخاص، وفيها ما هو حوادث عين، وما هو أحكام عامة، وغير ذلك. فإذا هجم إنسان لا علم له بهذا كله على كتب الحديث وبدأ يقرأ فيها ويستدل بكل حديث يصادفه فيها على تخطئه هذا الإمام أو ذلك، أن الإفتاء في هذه المسألة أو تلك، كان حرياً أن يضل ويضل.

(جـ) أن الأخذ المباشر من ذينك المصدرين الأساسيين يؤدي إلى اختلاف أكثر مما هو موجود الآن، وذلك أنه إذا كان أهل السنة الآن مختلفين في الفقه إلى مذاهب أربعة فقط، فإن عدد المذاهب آنذاك سيكون بعدد الآخذين من الكتاب والسنة. نبدأ ردنا على هذه الحجج بملاحظة عامة عليها قبل الدخول في الرد الخاص على كل منهما فنقول:

أولاً: إن هذه الحجج كلها قائمة على افتراض أن من يدعو إلى الأخذ من الكتاب والسنة يدعو إلى أن نكون جميعاً مجتهدين اجتهاداً مطلقاً، وهذا ليس بصحيح. إن كثيراً من الناس يظنون أن المرء إما أن يكون مقلداً تقليداً أعمى، لا يعرف نصاً ولا يفهمه، ولا يستطيع الاستدلال به، بل إنما يفعل ما يأمره به علماً مذهبه، وإما أن يكون قد بلغ درجة من الاجتهاد تمكنه من النظر المستقل في النصوص واستخراج الأحكام منها في كل أمر من الأمور. لكن الواقع أن بين هاتين الدرجتين درجات أخرى يستطيع الوصول إليها الألوف من الناس.

ثانياً: أن هذه الحجج تفترض كذلك أن الدعوة إلى الأخذ المباشر من الكتاب والسنة، معناها الاستغناء الكامل عن كل ما كتب العلماء لا يبدأ مجتهداً، وإنما يتعلم تلاوة القرآن من القراء، ويتعلم تفسيره من المفسرين الأحياء والأموات، وقل مثل ذلك عن تعلمه للسنة، واللغة العربية، وغير ذلك من العلوم، بل إنه حتى بعد أن يبلغ درجة الاجتهاد لا يسعه الاستغناء عن النظر في أقوال غيره من العلماء، ولا سيما صحابة رسول الله ﷺ. فالدعوة إذن إنما هي إلى أن لا يعد التقليد هو الأصل الذي يلزم به كل الناس. إن الأصل هو أن يحاول كل إنسان أن ينال من العلم ما يجعله الله به قادراً على فهم أوّلي لآيات القرآن الكريم إذا تليت عليه، ولأحاديث الرسول ﷺ إذا رويت له. ثم يتدرج بعد ذلك في سلم العلم، فيزيد علمه بالقرآن وبأحاديث الرسول ﷺ. امتثالا لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ولقوله ﷺ: **(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)**. وفقه الدين إنما هو فقه كتاب الله تعالى، وفقه أحاديث رسوله ﷺ. إن التقليد هو الدرجة الدنيا التي لا يلجأ إليها المرء إلا مضطراً، ولذلك أجاز العلماء للجاهل أن يقلد قياساً على الأعمى الذي لا بد له من تقليد غيره في التوجه نحو القبلة، إذ أنه يستحيل عليه أن يعرفها استقلالاً. فكيف تجعل هذه الحال هي الحال التي يجب أن يكون عليها كل الناس؟

ثالثاً: إن التقليد الذي تدعو إليه هذه الحجج يلزم عنه أمر شنيع ما أظن أحداً من القائلين به يمكن أن يوافق عليه، إن الذي يلزم عنها هو الاستغناء الكامل عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأقوال صحابته رضوان الله عليهم، بل وأقوال الأئمة

المتبوعين أنفسهم، بوصفها مصادر للعلم بالدين، والاستعاضة عن ذلك كله بما كتبه المتأخرون من رجال المذاهب، وعزوه إلى الأئمة المتبوعين، وهذا اللازم كما قلت أمر شنيع، لا يمكن أن يقول به إنسان في قلبه إيماناً، لأن الله تعالى أرسل محمداً ﷺ خاتماً للأنبياء، وتكلف بحفظ النور الذي جاء به، ليكون هادياً للناس إلى يوم القيامة. فكيف يسوغ للناس في أي عصر من العصور، مهما بعد عن عصره النبوة، أن يستغنوا بأقوال العلماء - مهما كانوا - عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهدى أصحابه رضوان الله عليهم. وما أحسن ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الصدد: ولو فتح هذا الباب لوجب أن يعرض نقله عن أمر الله ورسوله ويبقى كل إمام في اتباعه بمنزلة النبي ﷺ في أمته، وهذا تبديل للدين يشبه ما عاب الله به النصارى في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

رابعاً: إن هذه الدعوة الحارة الملحة إلى التقليد دعوة متناقضة؛ لأنها هي نفسها اجتهاد، وهي بعد اجتهاد مخالف لإجماع أولئك الأئمة الذين تدعو إلى تقليدهم، والتقيد بمذهب واحد منهم وعدم مخالفته. وذلك أن كل واحد من هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم وأجزل ثوابهم حذروا الناس من مثل هذا التقليد، وعدّه انحرافاً عن الدين.

نأتي بعد ذلك إلى الرد الخاص بكل حجة من تلك الحجج:

(أ) إن كل المقصود بها أن إتقان اللغة العربية إتقاناً يجعل الإنسان مجتهداً لم يعد سهلاً فنعم. وأما أنه متعذر فلا؛ لأن الله تعالى الذي تكلف بحفظ نصوص هذا الدين قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، لا يمكن أن يكون قد عنى حفظ هذه النصوص حفظاً متحفياً كما تحفظ النصوص المكتوبة بلغات مصر القديمة مثلاً. وإنما عنى بحفظها حفظ الفاظها ومعانيها. هذا يستلزم حفظ اللغة التي صيغت بها. يؤكد هذا حديث الرسول ﷺ المشهور: **(لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك)**[1]. ترى

---

(١) البخاري، من حديث معاوية رضي الله عنه.

هؤلاء الظاهرين على الحق في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة هم ظاهرون به بمجرد حفظهم للنصوص القرآنية والحديثية من غير فقه لها؟ كلا! فإن الله تعالى ذم أقواماً مضوا ما كان حفظهم من العلم بكتابهم إلا تلاثه، فقال: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

فكيف يمدح رسوله ﷺ أقواماً من أمته لا يكون لهم من علم القرآن والسنة إلا حفظهما. ذلك إذا كان المقصود أن يكون الإنسان مجتهداً أما إذا كان قصده أن يفهم الآيات والأحاديث فهماً أولياً يمكنه من معرفة وجه استدلال العلماء بها، ويمكنه كذلك من الأخذ بها وترك ما خالفها من أقوال، فإن الأمر في غاية اليسر بحمد الله تعالى. كما يدل عليه حال الآلاف المؤلفة من العلماء وطلاب العلم المعاصرين، حتى من دعاة التقليد. ثم إنه قيل إنه لا يمكن للناس في هذه العصور المتأخرة أن يعرفوا اللغة العربية معرفة تمكنهم من فهم كتاب الله تعالى، فليقل أيضاً إنها لا تمكنهم من فهم كتب الفقه، خصوصاً وأن المتأخر منها – والذي هو الشائع بين طلاب العلم اليوم – مكتوب بلغة يجد الطالب من الصعوبة في فهمها أكثر مما يجد في فهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

(ب) هذه الحجة مبنية على افتراض أن من يدعو إلى الارتفاع عن طور التقليد إنما يدعو كل من هب ودب إلى قراءة نصوص الكتاب والسنة، و استخراج الأحكام منها من غير استعانة بالكتب التي تفسرها، وبدون الرجوع إلى العلماء العارفين بها. وإنما الذي ندعو إليه هو أن تدرس نصوص الكتاب والسنة كما تدرس كتب الفقه المذهبي، بالقراءة على العلماء، وبالاستعانة بالشروح التي تفسرها. فإذا سلك الطالب هذا الطريق عن الناسخ والمنسوخ، لأن العلماء جزاهم الله خيراً اعتنوا بهذا الأمر عناية فائقة، فهم لا يذكرون في تفاسيرهم للقرآن وشروحهم لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم نصاً إلا بيّنوا أناسخ هو أم منسوخ؟، وإذا كانت مسألة الناسخ والمنسوخ عقبة في فهم النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، فإنها لعقبة أشد بالنسبة لأقوال أئمة المذاهب. فما منهم إلا وقد حذر من أن الرأي الذي يراه اليوم قد يغيره غداً إذا بدا له أنه خطأ. قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ويحك يا يعقوب، لا تكتب كل ما تسمعه مني فإني

قد أرى الرأي اليوم وأتركه غداً، وأرى الرأي غداً وأتركه بعد غد»[١]. بل إن أصحابه قد يكتشفون بعض أخطائه بعد موته، إذا اطلعوا على أحاديث لم يتيسر له الاطلاع عليها. ولهذا، لما اجتمع أبو يوسف - وهو أفضل أصحاب الإمام أبي حنيفة - بالإمام مالك فسأله عن مسألة الصاع، وصدقة الخضروات، ومسألة الأجناس، فأخبره مالك بما تدل عليه السنة في ذلك فقال: «رجعت إلى قولك يا أبا عبدالله، ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع إلى قولك كما رجعت»[٢].

(جـ) ما من شك في أن علماءنا الأوائل كانوا جبالا في العلم، وقد هيأ الله تعالى لعدد كبير منهم معرفة واسعة بالأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة! لكن لا أحد من الناس - ولا حتى من الصحابة - بلغ درجة الإحاطة بكل أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. قال الإمام الشافعي: " لا نعلم أحداً جمع السنن فلم يذهب عليه منها شيء. فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها، أتى على السنن. وإذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشيء منها، ثم كان ما ذهب عليه منها موجوداً عند غيره[٣]، وقد كان للجهود الكبيرة التي بذلها أولئك الأوائل في جمع الأحاديث وتبوييبها وبيان درجتها الفضل الكبير في تيسير العلم بها لمن جاء بعدهم، فنحن بفضل الله تعالى - ثم بفضل تلك الجهود - لا نحتاج اليوم إلى كبير عناء في دراسة الآثار النبوية. لذلك لم يخل عصر - بما في ذلك عصرنا - من علماء وفروا أنفسهم لدراسة السنة الشريفة، وبلغوا في ذلك درجات عالية، حتى إنك لا تكاد تسأل أحدهم عن حديث إلا استطاع أن يبين لك مصدره وراوية، ودرجته، ولو أننا أصلحنا نظامنا التعليمي، فأعطينا هذا النوع من الدراسة عناية أكبر، لتضاعف عدد أمثال هؤلاء العلماء الأفذاذ لكننا نكرر بأن الإنسان لكي يرتفع عن حضيض التقليد إلى الاتباع للسنة، وطريق الصحابة لا يحتاج إلى هذا التبحر في العلم، بل يكفيه أن لا يتقيد بقول إمام واحد، وأن يقدم القول الذي يسنده الدليل الصحيح على القول الذي لا دليل عليه، أو ما عليه إلا دليل ضعيف.

---

(١) الألباني، الصلاة: ص٤٧.

(٢) الفتاوى، جـ٢٠/ ص٢١١.

(٣) الرسالة، ص٤٣.

(د) إن العلم بكل هذا متيسر لمن أراده في الكتب التي تشرح الأحاديث النبوية، والتي لابد من قراءتها لمن يريد فهم الأحاديث، أو الاستدلال بها.

(هـ) هذه من أغراب الحجج التي سمعتها – وقد سمعتها فعلاً من أحد إخواننا – هدانا الله وإياهُ إلى سواء السبيل..

إن الاختلاف بين أفراد المسلمين في بعض القضايا ليس أمراً مستغرباً، ولا مضراً فالاختلاف كما قال العلماء هو نتيجة العلم الناقص. وبما أن نقصان العلم أمر لازم لكل مخلوق، فإنه حتى الملائكة يختلفون كما جاء في القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص:٦٩]، لذلك وقع الخلاف حتى بين أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وأئمة الهدى من بعدهم، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، دليل على إمكانية وقوع الخلاف بين المسلمين، لكن الخلاف إن كان راجعاً إلى مجرد نقصان في العلم فإن ضرره قليل، وعلاجه ممكن، كما تبين الآية الكريمة. وإنما يكون الخلاف فتنة، وشراً ما حقاً ونزاعاً يسبب الفشل، ويذهب بريح المختلفين، إذا كان مبناه على الهوى. وشر أنواع الخلاف المبني على الهوى هو الخلاف الجماعي. أعني الخلاف الذي يكون سببه التعصب لحزب، أو طائفة، أو جماعة، أو بلد، أو شيخ، أو مذهب. إن الأفراد المتعصبين لشيء من هذا لا يسألون عما يتلقونه من هذه الجهات: أحق هو فيتّبع؟ أم باطل فيطرح؟ وإنما يقبلونه، ويقولون به، ويدافعون عنه، لمجرد خروجه من تلك الجهات التي نصبوها مصادر يأخذون منها الحقائق. وهذا يقودهم إلى أن يخالفوا كل من لا يوافقهم على تقديس تلك المصادر التي قدسوها. وبذلك يتحول الخلاف بينهم وبين غيرهم إلى خلاف جماعي يشترك فيه كل من ينتمي إلى حزبهم أو جماعتهم أو مذهبهم، عالماً كان أو جاهلاً. أما الخلاف الفردي – ولا سيما العلمي منه – ولا ينتج عنه مثل هذا الضرر، لأن الفرد من الناس سيخالف فرداً آخر في قضية، ويوافق ثانياً في القضية نفسها. ثم قد يوافق – في قضية ثانية – من كان خالفه في القضية الأولى، وقد يخالف فيها من كان وافقه في تلك. ولهذا لا يكون الاختلاف العلمي الفردي سبباً في تقسيم أفراد الأمة إلى فرق أو مذاهب ثابتة متناحرة.

منهج اكتشاف حقائق الدين الاسلام:

أما وقد أيقنا بأنه لا مصدر لحقائق الدين الإسلامي إلا كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فقد آن لنا أن نعرف الطريقة المناسبة التي نتوصل بها إلى إكتشاف الحقائق المتضمنة في تلك المصادر، كما يكتشف عالم الطبيعة حقائقها من الكون الذي هو مصدرها.

هنالك مسلكان لمعرفة الطريقة المناسبة لاكتشاف الحقائق. سواء كانت كونية أو شرعية. فإما أن تعرف العلماء الذين نجحوا في معرفة هذه الحقائق، واشتهروا بذلك، فتقول لنفسك مادام هؤلاء قد نجحوا في معرفة هذه الحقائق فلا بد أن يكون منهجهم هو المنهج المناسب لمعرفتها، فتسلك سبيلهم. وإما أن تنظر في نوع المصدر الذي تريد اكتشاف الحقائق المتضمنة فيه لتعرف من طبيعته مبادئ الطريقة المناسبة لمعرفة حقائقه، فإذا كان المصدر حقائق طبيعية ثابتة كان أول الطريق إليها هو المشاهدة، وإذا كانت حقائق غائبة كان الطريق إليها الاستنتاج من الحقائق القائمة، وإذا كان كلاماً كانت بداية الطرق إلى حقائقه معرفة لغته. وهكذا.

إن سلوك أي من هذين المسلكين يؤدي بصاحبه إلى معرفة الطريقة المناسبة لاكتشاف الحقائق من مصدرها، لأنهما مسلكان متلازمان، فمعرفة الطريق الذي سلكه العلماء تؤدي إلى معرفة المنهج الصحيح، ومعرفة المنهج الصحيح تؤدي إلى معرفة الطريق الذي سلكه العلماء. هذان المسلكان هما اللذان يسلكهما فعلاً دارسو مناهج العلوم الكونية. كما يسلكها دارسو مناهج العلوم الشرعية، ففي عصرنا اليوم علم يسمى "فلسفة العلوم" يهتم المختصون بدراسة القضايا الفلسفية والفكرية التي تثيرها العلوم التجريبية، ولا سيما الطبيعية. ومن أهم ما يدرسونه مناهج هذه العلوم. فهم يبدؤون بملاحظة الطريقة التي يسلكها العلماء فعلاً للوصول إلى حقائق علومهم، ثم يدرسون هذه المناهج نفسها ليعرفوا لماذا أدت تلك الحقائق.

وكذلك كان دارسو مناهج العلوم النقلية عندنا يفعلون. فما المنهج العلمي المناسب لإدراك حقائق الدين الإسلامي الذي يدل على صحته هذان المسلكان؟ إنه منهج يجعل اللغة والعقل شرطين لمعرفة معاني النصوص، ويدعو إلى تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بالسنة، وتفسير السنة نفسها بالسنة، وتفسير القرآن والسنة بأقوال الصحابة،

وباعتبار الإجماع دليلاً قطعياً على وجود الحقيقة المجمع عليها في الكتاب والسنة، وبأن القياس الصحيح طريق إلى استنباط الحقائق من النصوص.

وفيما يلي نقدم شرحاً موجزاً لكل عنصر من هذه العناصر المكونة للمنهج، وللأدلة الدالة على ضرورة الالتزام به، لمن أراد معرفة الحقائق الدينية المتضمنة في نصوص الكتاب والسنة. وسنرى: أن من الأدلة على صحة هذا المنهج أنه يقوم شاهداً عندنا على صدق الحقائق التي انتهى إليها كبار أئمة أهل السنة والجماعة منذ عهد الصحابة فيما بعدهم رضي الله عنه.

كما سنرى أنه ما من طائفة وصمها أولئك الأئمة بالضلال والانحراف، إلا كان في منهجها خروج عن هذه القواعد المنهجية، التي سنقيم الأدلة على أنها هي التي يمكن أن تؤدي إلى الوصول إلى الحقائق المعبر عنها في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد كان السبب الغالب لخروج من خرج عن هذه القواعد – ولا يزال – هو اعتقادهم في أصول باطلة، لزم عنها إنكار حقائق دينية تدل عليها نصوص الكتاب والسنة، فاضطروا إلى الحياد عن المنهج الصحيح حتى يجعلوا النصوص موافقة لتلك المعتقدات. وهكذا فإن الباطل الذي اعتقدوه قادهم إلى باطل آخر في المنهج الذي انهجوه.

اللغة:

إذا كان المصدر الأساس للعلوم الطبيعية موجودات محسوسة، فإن المصدر الأساس للعلوم الشرعية النقلية نصوص مقروءة. ومن البديهي أن أول شرط لمعرفة ما يتضمنه النص المقروء – أن نص كان – هو معرفة اللغة التي كتب بها. وأول حقيقة يبديها الناظر في القرآن الكريم – إذا كان على علم بشيء من العربية – أنه مصوغ بلسان عربي فإذا ما بدأ يقرأ فيه وجد في الكتاب نفسه آيات تؤكد على هذه الحقيقة. من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣]، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت:٣].

لكن اللغات يحدث فيها على مر الزمان تغيير قد يكون كبيراً وقد يكون قليلاً. فالبون شاسع بين اللغة اليونانية التي كتبت بها نصوص فلاسفة اليونان المشهورين، وبين اللغة التي يتحدثها اليونانيون اليوم، بل إن هنالك اختلافاً غير قليل بين اللغة الإنجليزية التي كتب بها شكسبير شعره في القرن السادس عشر الميلادي وبين اللغة التي يتحدثها الإنجليز في القرن العشرين. لا يكفي إذن لمن يريد معرفة المعنى الحقيقي لنص ما أن يعلم نوع اللغة التي كتب بها، بل لابد أن يكون على علم بهذه اللغة كما كانت تفهم في الزمان والمكان الذي كتب فيه النص. وإلا فهو قمين أن يفهمه على غير مراد من تكلم به، إذا أعطى بعض كلماته أو بعض تعبيراته معاني طرأت عليها بعد العصر الذي كتبت فيه.

إن الالتزام بهذه القاعدة المنهجية يستدعي:

(أ) إعطاء المفردات الواردة في القرآن والسنة المعاني التي كانت تعرفها العرب منها في زمن الرسالة. هذا كما قلنا هو تطبيق للقاعدة البديهية التي يلتزم بها كل من يريد فهم نص من النصوص، أياً كانت لغته، وأياً كان قائله. لكن أصحاب المعتقدات الباطلة وجدوها قيداً مانعاً لهم عن تحريف كلام الله وكلام رسوله، فاطّرحوها جانباً حتى يفتروا على الله ما شاءوا فمن أمثلة ذلك:

أن الذين جعلوا دينهم بغض أصحاب رسول الله ﷺ، وأقرب الناس إليه، قالوا في قوله تعالى: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾** [البقرة: ٦٧]، أي عائشة. وفي قوله تعالى: **﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾** [الكهف: ٩٤] أي أبابكر وعمر.

والذين اعتقدوا في وحدة الوجود، فلم يفرقوا بين خالق ومخلوق، قالوا: «صح قول فرعون: **﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾** [النازعات: ٢٤]»[1]. وقرؤوا قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾** [الأحقاف:٢٤-٢٥]، فقالوا في تفسيره: قالوا هذا عارض ممطرنا "أحسنوا الظن بالله. ريح هي الراحة عذاب أليم هو

(١) ابن عربي، الفصوص.

عين النعيم. تدمر كل شيء من الذنوب. إلا مساكنهم: قلوبهم. (المرجع السابق)، والفلاسفة ترجموا كلمة فيلوسوفوس اليونانية بعبارة – حب الحكمة ثم استدلوا بقوله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، على أن القرآن يمدح الفلسفة، والذين جعلوا الله تعالى شيئاً مجرداً كالعقل، فأنكروا لذلك أن يوصف بأي صفة توصف بها الموجودات، راحوا يؤولون كل صفات الله الدالة على كونه موجوداً وجوداً حقيقياً خارجاً عن الأذهان، بأن يعطوا اللفظ معنى تدل عليه اللغة أصلاً، أو معنى تدل عليه في غير السياق الذي وردت فيه الآية، أو بشروط لم تتوفر في السياق. فقالوا في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] أي استولى. وفي قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] «أي جرح قلبه بالحكم والمعارف تجريحاً»[1]، وفي قوله لما خلقت بيدي أي بقدرتي، وهكذا.

(ب) وما يقال عن الألفاظ المفردة يقال أيضاً عن الجمل المركبة. فهذه أيضاً ينبغي أن تفهم بالطريقة التي كانت معهودة عند العرب.

العقل:

إن العقل لا يستقل بمعرفة الحقائق الواقعية سواء كانت حقائق كونية طبيعية أو حقائق وأحكامٌ دينية. وإنما يستمد العقل مادته العلمية مما يأتيه عن طريق الحواس، ولا سيما السمع والبصر. لكن ما تأتي به الحواس إنما هو بمثابة إعادة الخام. فالعقل هو الذي يحولها إلى معان. ولذلك مثّل الله تعالى حال الذين يسمعون القرآن ولا يعقلونه بحال البهائم التي لا تسمع من الراعي معاني وإنما تسمع منه مجرد أصوات، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، فالعقل إذن شرط في فهم كلام الله وكلام رسوله، كما أنه شرط في فهم كل كلام، وفي فهم كل واقع. لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣].

---

(١) ابن القيم، الصواعق، ج١، ص٢١٧.

فلو أنزله للعرب بغير العربية لكان بالنسبة لهم مجرد أصوات لا معنى لها، ولو لم تكن لهم قلوب يفقهون بها لكان أيضاً بالنسبة لهم أصواتاً لا معنى لها. وبالعقل يربط الإنسان بين المعاني التي تأتي بها لغة المتكلم، ويدرك نسبة بعضها إلى بعض، ويحكم عليها بالبطلان إذا كانت متناقضة في نفسها، أو كانت مخالفة لحقائق أخرى كان قد عرفها، وبالعقل يستطيع الإنسان أن يستنبط من الحقائق التي عرفها معرفة مباشرة، حقائق أخرى تتضمنها تلك الحقائق وتلزم عنها.

والعقل يفعل كل هذا بالمبادئ التي ركزها الله فيه وجعلها بمثابة الميزان الذي يزن به ما تأتي به الحواس. فالله تعالى الذي خلق في قلوب الناس هذا الإدراك العقلي، هو الذي أنزل إليه الكتاب الهادي، فيّسر معرفته على العقول التي خلقها، وجعله موافقاً لموازينها، فليس فيه ما يحيله العقل أبداً، بل فيه كل ما يجعله العقل ويخضع لعظمته:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

لكن العقل كما أنه يدرك هذا الإدراك النظري فهو أيضاً يحكم لما عرف أنه حق بانه يجب أن يقر به ولما علم أنه باطل بأنه يجب أن ينكر. لكن القوى العقلية تنازعها هنا الأهواء والشهوات والإنسان مخير بين أن يستجيب لحكم عقله أو يخضع لأهوائه وشهوته، فإذا ما خضع لها، كان غير عاقل لا بمعنى أن الله تعالى لم يخلق في قلبه القدرة العقلية ولكن بمعنى أنه لم يستجيب لحكم العقل، بل قدّم عليه الأهواء والشهوات.

لذلك نجد القرآن يصف الكفار تارة بأنهم عقلوا ما قيل لهم، مع وصفه لهم دائماً بأنهم لا يعقلون. ولا تناقض بين الأمرين. فهم قد عقلوا العقل النظري، لكنهم خالفوا ما حكم العقل بأنه حق فبهذا وصفوا بأنهم لا يعقلون، لأن العاقل لا يخالف حكم العقل. قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال عن أمثال هؤلاء: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:٥٨]، ولولا أن الذين ذمهم الله تعالى في الآية الثانية بأنهم لا يعلمون كانوا قد عقلوا ما سمعوا بالمعنى الذي قررته الآية الأولى لما كان لذمهم وجه، لأن الإنسان إنما يذم على منكر فعله عن قصد وهو يعلم أنه منكر.

نخلص من هذا إلى أن معارضة الشرع بالعقل سواء قال بها المدافعون عن الشرع او قال بها المدافعون عن العقل، هي خلط لا مسوغ له، لأن العقل جزء من الشرع فلا يصح أن يجعل أحدهما في مقابل الآخر. وما أحسن ما قال الإمام ابن القيم: "إن العقلاء هم الذين يرون الحق حقاً فيصدقون به ويتبعونه، ويرون الباطل باطلاً فينكرونه. والمؤمنون يزدادون بالإيمان قوة في عقولهم النظرية والعملية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر:١٨].

وأنظر كيف جعل الله عقاب الذين لا يؤمنون مماثلاً لعقاب الذين لا يعقلون فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٠٠].

فالعقل إذن طريق إلى معرفة الشرع، لا بمعنى أنه يستقل بمعرفة كل ما جاء به الشرع، بل بمعنى أنه يعقل ما جاء به الشرع، ويعتبر بعضه ببعض، ويستنبط منه، ويحكم به على الوقائع ويشهد لصحة بعض ما جاء به خصوصاً في مسائل أصول الدين، كوجود الخالق سبحانه، وقدرته، ووحدانيته، وعظمته، وعلوه على خلقه، وعلى أن القرآن كلامه، وأن البعث لابد منه، وهكذا.

والعقل مهم أيضاً للدفاع عن الدين والرد على المنكرين والمنحرفين، لكل هذا ينبغي لقارئ القرآن والسنة أن لا يكتفي بمجرد التلاوة لهما، بل يحرص على فهم ما يقرأ ويتدبره، ويعتبر بعضه ببعض، ويعتبره بما يشاهد في الواقع، ويجعله حكماً على غيره مما يقرأ أو يسمع. وهو إذ يفعل هذا يكون ممتثلاً لقوله تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص:٢٩].

القرآن:

ترى الذين يؤلفون الكتب في عرض آراء المفكرين وشرحها يحرصون على جمع ما استطاعوا من مؤلفاتهم وأقوالهم حتى يستطيعوا أن يخرجوا منها بتصور متكامل لما كان يعتقده المفكر. وتراهم يستعينون على بيان ما قاله في موضع بما قاله في موضع

آخر ومناسبة أخرى. وهذا منهج سديد. إذا كان هذا هو مقتضى العدل والإنصاف في كلام بشر يخطئون ويتناقضون، فالأولى أن يكون هو المنهج الذي يتبع في كتاب: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، كتاب قال عنه منزله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، كتاب متسق المعاني، محكم التركيب، لا يشذ معنى فيه عن بقية المعاني، بل يشبه كل معنى فيه سائر معانيه ويمت إليها بسبب. ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

لهذا كان من شرط التفسير الكاشف عن مضمون آيات القرآن الكريم، أن لا يعطي آية منها معنى يتناقض مع آية أو آيات أخرى، وأن لا يؤخذ المنسوخ ويترك الناسخ. بل كان من شرطه أن يفسر القرآن بالقرآن، فإن من طريقة هذا الكتاب العزيز أن يجعل في مكان ما قد يفسره في موضع آخر، وأن يختصر في مكان ما قد يبسطه في موضع آخر. خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

من هم الذين أنعم الله عليهم؟ إن المعنى اللغوي العام لمن أنعم الله عليهم مفهوم. لكن سياق الآية يحدد أن المقصود بالإنعام هنا الإنعام الروحي لا المادي. بدليل مقابلة من أنعم الله عليهم بالمغضوب عليهم وبالضالين، هذا المعنى العام الذي فهمناه من اللغة ومن السياق، تفصله لنا آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨]، ففي آية النساء بيان للشرط الذي يجعل الإنسان في زمرة من أنعم الله عليهم؟ إنه طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ. وفي الآية الثانية بيان

لبعض الصفات السابقة التي امتاز بها السابقون ممن أنعم الله عليهم. وفي الآيتين تفصيل لأنواع الناس الذين يشملهم وصف من أنعم الله عليهم، ليس هذا فحسب، بل إن المعتبر لآيات القرآن بعضها ببعض يستطيع أن يدرك الروابط بينها، فيدرك أن المعنى الذي قررته هذ الآية يلزم عنه لزوماً عقلياً المعنى الذي قررته تلك الآية، وأن القاعدة العامة التي قررتها آية كذا، يدخل تحتها الحقائق والأحكام التفصيلية التي قررتها آيات كذا وكذا، وكل هذا يعطي الدارس دربه على أن يدرج تحت هذه القاعدة العامة حقائق وأحكاماً أخرى لم ترد بنصها في الكتاب العزيز، أو في السيرة النبوية.

فالقرآن إذن أنه هو المصدر الأساس للحقائق الدينية، فهو أيضاً – بما أن بعضه يفسر بعضاً ويبينه – الوسيلة المعنية على اكتشاف حقائق ذلك المصدر.

السنة:

والسنة المطهرة هي الأخرى مصدر ووسيلة إنها وسيلة للكشف عن حقائق القرآن الكريم، وبما أن بعضها يفسر بعضاً فهي أيضاً وسيلة لكشف المعاني التي تضمنها هذا المصدر السني. إن بيان السنة للقرآن هو في الحقيقة من بيان القرآن؛ لأن القرآن هو الذي أحالنا على السنة النبوية فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، وهو الذي جعل التسليم لحكم الرسول ﷺ شرطاً لا يكون بغيره إيمانا. فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]، إلى غير ذلك من عشرات الآيات الآمرة بالاستمساك بسنة الرسول ﷺ، والمخرجة لمن أنكرها عن زمرة المؤمنين، وقد امتثل الرسول ﷺ لأمر ربه فبين كتابه أوضح بيان، وترك الناس على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، لذلك قال العلماء إن منزلة السنة من القرآن أنها مبينة وشارحة له تفصل مجملة وتوضح مشكلة وتقيد مطلقة، وتخصص عامة، وتبسط ما فيه من إيجاز[1].

---

(١) أبو شهبة، دفاع، ١٠.

من أمثلة هذا البيان النبوي:

(أ) بيانه للمقصود الشرعي الذي لا يدل عليه مجرد المعنى اللغوي لبعض الألفاظ، من ذلك بيانه أن المقصود بالظلم هو الشرك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، وتفسيره للحساب اليسير – بالعرض – في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:٧-٩].

وتفسيره للبر والإثم بقوله: البر حسن الخلق. والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس. رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، وتفسيره للخمر تفسيراً عاماً – لا يجعلها محصورة فيما يصنع من شيء معين بقوله: **(كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام)**[١]، وتفسيره للسبيل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٥]، بقوله: **(خذوا عني. خذوا عني. خذوا عني. قد جعل الله لهن سبيلا. البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)**[٢].

(ب) وكشفه عن معاني شرعية لبعض الآيات لا تتبادر إلى ذهن القارئ وإن كان عربياً قحاً. من أمثلة ذلك أن أم المؤمنين عائشة لما قرأت قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، قالت: يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: **(لا يا ابنة الصديق. ولكنهم الذين يصلّون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يتقبل منهم)**[٣]، التفسير وعزاه على الترمذي وابن أبي حاتم من حديث مالك بن مغول.

---

(١) مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) مسلم.

(٣) تفسير ابن كثير.

(جـ) ومن بيانه لما أجمل القرآن بيانه لتفاصيل الصلاة، وأوقاتها، وعدد ركعاتها، وكيفياتها، وما هو فرض منها، وما هو نفل، وهكذا. كذلك بيانه لتفاصيل الصيام والزكاة والحج. وقد بين ﷺ كل ذلك بالوصف القولي المفصّل أحياناً كما في وصفه الصلاة للأعرابي الذي أساء أداءها ولفعله أحياناً. فقد كان الناس يشهدون كيف يصلي وكيف يحج، وكيف يقرأ، فيفعلون كما يفعل ثم يصفون ما رأوا، لأنه ﷺ كان يقول: **(صلوا كما رأيتموني أصلي)**[١]. ويقول: **(خذوا عني مناسككم)**[٢]، بل حتى في مسائل الإيمان وأحوال الآخرة جاء صلى الله عليه وسلم بتفاصيل تعين المؤمن على فهم ما ورد من ذلك في القرآن الكريم، وتصوره تصوراً صحيحاً، ويدخل في تفسير السنة للقرآن وكشف حقائقه معرفة سيرة الرسول ﷺ وخلقه وشمائله، لأنه ﷺ كان المثل الأعلى للمؤمن الملتزم بما في كتاب الله تعالى. فقد كان خلقه القرآن كما قالت عنه زوجه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ولا شك أن رؤية المثل العملي الواقعي أمر ضروري لمعرفة ما ورد في القرآن الكريم من وصف لأحوال المؤمنين الباطلة والظاهرة وبيان لما ينبغي لهم فعله ويجدر تركه من الأقوال والأفعال.

كما أن القرآن يفسر القرآن فكذلك تفسر السنة. ففي الحديث الذي ذكرناه آنفاً قال ﷺ كل مسكر حرام، ثم زاد هذا بياناً في حديث آخر. فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(ما أسكر كثيره فقليلة حرام)**[٣]. ثم بيّن ﷺ أنه إذا كان الخمر ينبذ فما كل ما ينبذ حرام. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ ينبذ له الزبيب في السقاء، فيشركه يومه، والغد وبعد الغد وإذا كان مساء الثالثة شربه وسقاه فإن فضل شيء أهراقه)[٤]. (مسلم)

الإجماع:

يعد علماء الأصول الإجماع والقياس من مصادر التشريع الإسلامي. لكنهم يقررون أنهما مصدران ثانويان؛ لأنهما يعتمدان على المصدرين الأساسين: الكتاب والسنة. فلا

---

(١) البخاري.

(٢) مسلم.

(٣) بلوغ المرام. وقال المصنف رحمه الله: «أخرجه الأربعة وصححه ابن حبان».

(٤) مسلم.

بأس إذن من أن نعدهما وسيلتين للوصول إلى ما في ذينك المصدرين من حقائق وأحكام.

الحقائق والأحكام التي يجمع عليها نوعان:

(أ) حقائق وأحكام منصوص عليها في الكتاب أو السنة (أو فيهما جمعياً. الإجماع على أركان الإيمان، وأركان الإسلام وكثير غيرها من تفاصيل الأحكام، وكالإجماع على معاني كثير من آيات القرآن الكريم.

يستغرب بعض الناس من جدوى الاستدلال بالإجماع على أمر ورد في الكتاب والسنة، وينسون أن الإجماع يزيد الأمر المجمع عليه قوة ويعطيه حكماً لا يعطى لما لم يجمع عليه وإن كان وارداً في الكتاب والسنة. والذي ينكر أمراً دل عليه حديث صحيح قد يعذر بالجهل. لكن الذي ينكر أمراً أجمع عليه المسلمون كالصلاة أو الصيام أو الرجم أو إباحة الزواج بأكثر من امرأة، لا عذر له بل هو كافر خارج من الملة.

(ب) حقائق وأحكام لا نجد بنصها في ذينك المصدرين. لكن الإجماع عليها يدل على أنها حق، وأن عليها دليلاً منهما، وإن لم نهتد إليه، لأن العلماء ولا سيما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتصور أن يجمعوا على أن أمراً ما مباح في دين الله أو حلال أو حرام أم بمجدر آرائهم بل لا بد أن يكون لما أجمعوا عليه أصلاً في الدين.

الصحابة:

أقوال الصحابة نوعان:

(أ) أقوال أجمعوا عليها فهي داخلة في باب الإجماع الذي ذكرناه آنفاً، بل إن الإجماع المعتبر بالمعنى الثاني هو إجماعهم لا غير؛ لأنه بعد ازدياد عدد المسلمين وتفرق علمائهم في البلد لم يعد من الممكن التحقق مما هو موضع إجماع بينهم.

(ب) وأقوال اختلفوا فيها، فيختار العالم منها ما يراه أقوى دليلاً، ولا يستحدث رأياً جديداً.

لماذا هذه المكانة الخاصة لأقوال أصحاب رسول الله ﷺ؟ لم يعطهم العلماء هذا الوضع، لأنهم يعتقدون في عصمتهم فالمعصوم هو الرسول ﷺ وحده، ولم يعطوهم

هذه المكانة لمجرد أمر عاطفي، وإنما أعطوهم إياها، وأجمع الأئمة الأربعة على إعطاؤهم إياها لأسباب علمية موضوعية. فأصحاب رسول الله ﷺ هم أعلم الناس باللغة التي نزل بها القرآن وتكلم بها الرسول ﷺ. فقد كانت هذه اللغة لغتهم التي يتحدثونها في حياتهم اليومية. وهم أعلم الناس بالمناسبات التي نزلت فيها الآيات القرآنية وقيلت فيها الأحاديث وحدثت فيها الأفعال النبوية. وهم أفقه الناس بدين الله بشهادة رسول الله ﷺ. فقد قال عنهم: (**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**)[(١)].

وقد سمعت البعض لا يقدر هؤلاء الأصحاب حق قدرهم، يقول للناس إن هذ الخيرية إنما هي خيرية صحبتهم للرسول وليس فيها ما يدل على علمهم، أو كلاماً قريباً من هذا، لكن هذا القائل نسي أن الرسول ﷺ ربط بين الخيرية والعلم في حديث آخر، إذ قال ﷺ: (**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**)[(٢)]. ومن الأدلة على سعة علمهم وحسن فقههم وجودة عقولهم ما روى الإمام أحمد في مسنده عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: (عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل). هذا وقد قال الله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ**﴾ [العنكبوت:٤٣].

وذلك لأن رؤية الرسول ﷺ ليست مجرد رؤية حسية، وإلا لاستوى فيها المؤمن والكافر. ولكنها رؤية معها إيمان، ورؤية الرسول ﷺ مع الإيمان به تثمر اهتماماً بأمره، وسيرته وأحواله. وكل هذا يثمر حباً له قلّ أن يتأتى لمن يره. هذا لأن الذي يراه معها ما يشع منها من دلائل صدقه، وتقواه، وقربه من الله تعالى، فيزداد إيماناً وله حباً. ألم يقل عبدالله بن سلام إنه لما رأى النبي ﷺ عرف أن وجهه ليس بوجه كذاب؟ ومن كان هذا حاله من رسول الله ﷺ، فحري به أن يصغي لكلامه، ويحرص على مراقبة أحواله وينفعل بهذا كله. فأين يكون العلم بدين الله إن لم يكن مع هؤلاء.

---

(١) البخاري.

(٢) البخاري ومسلم.

القياس:

القياس أيضاً مما يعده الأصوليون من مصادر التشريع لكنهم يؤكدون أنه مصدر تابع لأن القياس لا يكون إلا على أصل ورد في الكتاب أو السنة أو الإجماع يجد العالم في هذه المصادر أمراً أعطاه الله تعالى حكماً معيناً، كالتحريم مثلاً ثم يجد شيئاً مشابهاً له في العلة التي من أجلها كان ذلك الحكم، فيستنتج من هذا أن حكم الفرع الذي لم يذكره بعينه في الشرع لابد أن يكون كحكم ذلك الأصل المذكور في الشرع، فيفتي بأنه حرام.

والقياس بهذا المعنى مبني على قاعدة: أن حكم الشيء حكم مثله وهي من القواعد والموازين العقلية التي فطر الله عليها عباده، ولذلك يمارسه حتى الأطفال منهم. فإذا اكتشف تلميذ أن إجابته عن سؤال كانت مثل إجابة زميل له اعطي درجة أكبر من درجته، ذهب إلى أستاذه مستفسراً وشاكياً، ولا حجة له يعتمد عليها في احتجاجه وشكواه إلا ما فطره الله عليه من أن الأمرين المتماثلين لا يعطيان حكمين مختلفين هذه القاعدة العقلية الفطرية هي من الدعائم التي يقوم عليها كل علم من العلوم بما في ذلك العلوم الطبيعية. فمما يفترضه علماء الطبيعة في علومهم قاعدة تسمى: اتساق الطبيعة؛ أي – أنه إذا وجد لشيء طبيعي صفة ما فإن كل الأشياء المماثلة له يجب أن تكون لها نفس الصفة، إذا تشابهت الظروف. مثلاً: إذا اكتشفنا أن سائلاً ما في بلد ما ووقت ما يغلي في درجة ما قلنا إن كل سائل مثله يجب أن يغلي في تلك الدرجة، بغض النظر عن زمانه ومكانه فإذا وجدنا سائلاً يماثله لكنه يغلي في درجة أقل أو أكثر من درجته: جزمنا بأن هناك اختلافاً في ظرفيهما. كأن يكون أحدهما في درجة ضغط أقل أو أكثر من الآخر.

وما القياس الشرعي إلا تطبيق لهذه القاعدة في مجال الوحي، الذي هو مصدر العلوم الدينية، كما طبقها عالم الطبيعة في مجال الكون الذي هو مصدر العلوم الطبيعية.

وإن المرء ليعجب لذلك من قول بعضهم: بأن علماء أصول الفقه تأثروا بالمنطق اليوناني، ليصل من ذلك إلى نتيجة مدمرة للدين، فحواها أنه وإن كان القرآن والسنة لا يتجددان: إلا أن أصول فهمهما تتجدد، وأنه إذا كان علماء أصول الفقه التقليدي قد

بنوا فهمهم على المنطق اليوناني، لأنه هو المنطق الذي كان سائداً آنذاك فعلينا نحن أن نأخذ بالمنطق الجديد الذي سائد في عصرنا.

وإن المرء ليعجب مرة أخرى: أين هو هذا المنطق الجديد الذي يقوم على قواعد للفهم مختلفة عن المنطق القديم، والذي نحن مدعوون للأخذ به، لنجدد من فهمنا لكتاب ربنا. إن ما صح من علم المنطق الذي وضعه أرسطو قائم على قواعد فكرية لم يخترعها أرسطو وإنما هي من الموازين العقلية التي فطر الله فيها عبادة قبل أن يخلق اليونان وفطرهم عليها بعد أن ذهب اليونان، فأرسطو لم يأت بقواعد للفهم أو التفكير جديدة، وإنما وصفها واستحدث أسماء لها وجمع ما استطاع جمعه من أنواع الحجج القائمة عليها، لذلك تجد علماءنا يمثلون ما فعله الشافعي بالنسبة لأصول الفقه بما فعله أرسطو بالنسبة للمنطق، أو ما فعله سيبويه بالنسبة لنحو اللغة العربية. فلا أحداً من هؤلاء أتى بعلم لم يكن يعرفه الناس، وإنما كان فضلهم في جمعه وتصنفيه وتيسير تعلمه. ومؤرخو علم المنطق من الغربيين قد لا يرون هذا التمثيل مناسباً لأنهم يقولون أن أرسطو كان مسبوقاً في وضع هذا العلم بمؤلفين من اليونان، بل ومن الصين والهند. وقد كان الفيلسوف البريطاني "روجر بيكون" يسخر ممن يظن أن القواعد المنطقية هي من اختراع أرسطو، فيقول: نعم إن كثيراً من علمائنا الذين كتبوا في أصول الفقه درسوا المنطق اليوناني، لكن تأثرهم به لم يعد التأثر بالمصطلحات التقسيمات خصوصاً فيما يتعلق بالمسائل اللغوية أما جوهر القياس فلم يكن للمنطق فيه من تأثير. وهذا الغزالي ولعله أكثر من درس المنطق، وأكثر من تأثر بالفلسفة من علماء الشريعة. ينتقد حتى تعريف الفلاسفة للقياس في أول كتابه المستصفى.

عصرنا أيضاً لم يأت بقواعد منطقية جديدة لم يكن يعرفها الناس في العصور الخالية كما قد يتبادر إلى ذهن من يسمع عبارة المنطق الحديث، وإنما توسع في تلك القواعد الفطرية فأضاف إليها ما كان أرسطو قد أهمله كما توسع في أنواع الحجج المبنية عليها ووضع لها رمزاً حتى صار المنطق علماً صورياً قائماً بذاته، كعلم الرياضيات.

وبعد كيف يخطر ببال إنسان يقدر الله تعالى قدره أن يعتقد أنه يمكن أن ينزل كتاباً ويرسل رسولاً إلى الناس كافة، ثم يجعل فهم ما في كتابه وما يقوله رسوله معتمداً على علم يأتي به اليونان، أو يأتي به الأوربيون بعد مدة من الزمان؟

كيف يخطر ببال من يقدر الله تعالى حق قدره أن يعتقد أنه يمكن أن يرسل رسالة هي خاتمة الرسالات، ثم لا يجعل لها مضموناً واحداً، بل يجعل معانيها خاضعة لتقلبات الزمان والمكان ولا يخترعه الناس من علوم ولما يسنح لهم من أفكار؟

إن الله تعالى ما كان ليجعل من شرط لفهم رسالته الموجهة للعالمين أجمعين إلا المقدرة العقلية المشتركة بينهم، وإلا معرفة اللغة التي اختارها سبحانه لتكون وعاء لحمل تلك الرسالة، والقياس واحد من أهم هذه القدرات العقلية التي ركزها الله تعالى في الفطر البشرية. فهو وسيلة للوصول إلى الحقائق، كما أنه وسيلة للوصول إلى الأحكام وهو من أكثر الموازين العقلية التي يلجأ إليها الناس في حياتهم اليومية، وفي فنونهم العلمية. قال ابن تيمية في كتاب المسودة في أصول الفقه راداً من حصر القياس في الأحكام لا في إثبات الحقائق هذا كلام لا طائل تحته. بل القياس – قياس التأصيل والتعليل والتمثيل يجري في كل شيء وعمدة الطب ومبناه على القياس وإنما هو لإثبات صفات الأجسام. وكذلك عامة أمور الناس في عرفهم مبناها على القياس في الأعيان والصفات والأفعال. ومتى ثبت أن الأمر الفلاني معلل بكذا، ثبت وجوده حيث وجدت العلة، سواء كان عيناً، أو صفةً، أو حكماً، أو فعلاً. وكذلك إذا ثبت أن لا فارق بين هذين إلا كذا، ولا تأثير له في الأمر الفلاني.

الكون:

إن الحقائق الدينية لا توجد مقررة إلا في المصدرين الوحيدين. لكن في الكون دلائل على صد تلك الحقائق:

(أ) ففي الكون الخارجي كما في داخل العقل البشري ودلائل على أن للكون خالقاً موصوفاً بصفات الكمال. كما فيه دلائل على أن البعث أمر ممكن بل أنه أمر لا محالة كائن: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ

كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد٢-٣].

(ب) رتب الله سبحانه وتعالى كثيراً من الأحكام الشرعية على مظاهر طبيعية، وحقائق واقعية. فلا يمكن أن تمتثل تلك الأحكام إلا بمعرفة هذه المظاهر والحقائق. إن الشرع يحدد لنا أوقات الصلاة والصوم والحج لكننا لا نستطيع معرفة تلك الأوقات إلا بالنظر في الكون. فبالشرع نعرف وصف الأوقات، وبالكون نعرف حقيقتها المطابقة لتلك الأوصاف.

(جـ) وفي الكون أيضاً نجد تصديق ما يخبرنا الله تعالى به من وقائع المستقبل، فنزداد إيماناً بالله تعالى وثقة به سبحانه، كما نزداد معرفة بما أخبرنا به حين نراه قائماً أمامنا نشهده بحواسنا! فإنه ليس من رأى كمن سمع: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢]. ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم:١-٥]. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، وإذن، فكما أنه من الخطأ والجهل أن يقابل الإنسان بين الوحي والعقل، فكذلك من الخطأ والجهل أن يقابل بين ما هو مقرر في الوحي وما هو ماثل في الكون.

فيقول مثلاً: أنا أؤمن بما قال الله تعالى، وإن كان مخالفاً لما أثبته الحس. أو أنا أقدم ما أثبته العلم التجريبي على ما قررته النصوص الصحيحة. كل هذا خطأ وجهل، لأنه يقوم على افتراض باطل هو، إمكانية التعارض بين كلام الله والواقع الذي خلقه الله، مع أن التعارض بينهما يستحيل أن يكون تعارضاً حقيقياً في أي أمر من الأمور، طباً كان، أو زراعة أو فلكاً، أو غير ذلك، مما هو داخل في مجال العلوم الطبيعية

التجريبية، إذ ما كان الله تعالى ليجعل الخلق على هيئة ثم بصفة تخالف تلك الهيئة.
﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ألف شيخ الإسلام ابن تيمية كتاباً كبيراً عظيماً في الرد على الذين ادعوا إمكانية معارضة العقل للنقل، وقرر فيه.: أن صحيح العقول موافق لصريح المعقول. ووضع في أوله قانوناً مقابلاً للقانون الذي وضعه علماء الكلام الذين قالوا بتقديم العقل على الشرع. والقانون الذي قرره هو القانون الصحيح، وما قاله عن العقل يدخل فيه ما يشهد به الحس. قال رحمه الله: إذا تعارض دليلان – سواء كانا سمعيين أو عقليين، أو أحدهما سمعياً والآخر عقلياً – فالواجب أن يقال: لا يخلو إما أن يكونا قطعيين، أو يكونا ظنيين؟ وإما أن يكونا أحدهما قطعياً والآخر ظنيا، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما، سواء كانا عقلين أو سمعيين، أو أحدهما عقلياً والآخر سمعياً. وهذا متفق عليه بين العقلاء، لأن الدليل القطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله، ولا يمكن أن تكون دلالته باطلة، وحينئذ فلو تعارض دليلان قطعيان، وأحدهما يناقض مدلول الآخر، للزم الجمع بين النقيضين، وهو محال، بل كل ما يعتقد تعارضه من الدلائل التي يعتقد أنها قطعية، فلابد من أن يكون الدليلان أو أحدهما غير قطعي، أو أن لا يكون مدلولاهما متناقضين. فأما مع تناقض المدلولين المعلومين فيمتنع تعارض الدليلين. وإن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعياً دون الآخر، فإنه يجب تقديمه، لاتفاق العقلاء سواء كان هو السمعي أو العقلي، فإن الظن لا يرفع اليقين، وأما إن كانا جميعاً ظنيين فإنه يصار إلى طلب ترجيح أحدهما، فأيهما ترجح كان هو المقدم، سواء كان سمعياً أو عقلياً[١].

الاستعداد الروحي:

إن اكتساب العلم – أياً كان نوع العلم – لابد من نظر عقلي ومن استعداد نفسي. وكل ما ذكرناه – حتى الآن – داخل فيما يساعد طالب العلم على صحة النظر الفكري والتأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. أما الاستعداد النفسي والروحي فإنه إن كان لازماً لكل العلوم، وألزم ما يكون في العلوم المراد اكتسابها من الوحي الإلهي. فلابد لطالب هذا العلم إذن من الإقبال عليه بحالة نفسية تناسب مع جلال قدره.

---

(١) الدرء، ج١، ص٧٩.

لكن هذه الحال إن كانت مختلفة عن الحال التي يقبل بها طالب العلم الطبيعي على الكون، فإن هناك تشابهاً عجيباً بينهما. إن طالب العلوم الطبيعي يقبل على الطبيعة معتقداً أن الحق ما تدله هي عليه، لا ما يتخيله هو، أو يتصوره قبل استنطاقها. وكذلك طالب العلم الشرعي يقبل على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في تواضع وخشوع ليتعلم منهما، معتقداً أنه لا مصدر لهذا العلم إلا فيهما. وطالب العلم الطبيعي لا يخطر بباله أبداً أن هناك أمراً عقلياً مخالفاً لما يجده في الطبيعة، ولا ينشأن عنده أبداً سؤال عن تقديم العقل على الطبيعة، أو تقديم الطبيعة على العقل، لأنه يعلم أن عقله لا يستقل بمعرفة حقيقة من حقائق الطبيعة، لا تأتيه منها عن طريق الحس، ويعلم أنه ما كان ليفهم ما يأتيه منها من مادة ويحولها إلى علم، إلا بوساطة العقل. كذلك الحال بالنسبة لطالب العلم الشرعي، إنه يعلم أنه لو كان ما جاء به الرسول ﷺ مما يمكن أن تعمله العقول استقلالاً، لما كان لإرسال الرسل من داع. ولترك الله سبحانه وتعالى هذا العلم للناس يكتسبونه بحواسهم وعقولهم، كما يكتسبون العلم بأمور الحياة الدنيوية. لكن الله تعالى يقول - حتى لرسوله صلى الله عليه وسلم وقد كان أذكى الناس عقلاً، وأشدهم بحثاً عن الهدى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وكما أن عالم الطبيعة يجد فيها ما يحير العقل ولا يجد فيها ما ينكره، فكذلك كان علماؤنا يقولون عن الشريعة: تأتي لمحارات العقول ولا تأتي بمحالات العقول. وعالم الطبيعة يقبل على دراستها موقناً بأنه لا تناقض في حقائقها. فإذا أداه بحثه إلى شيء من التناقض أيقن أن الخطأ منه لا من الطبيعة، وذهب يراجع ما توصل إليه، راجياً أن يكتشف موضع خطئه. وهذا الفصل بين إمكانية خطئه واستحالة وجود تناقض في الطبيعة نفسها، يجعل مشكلته دائماً مشكلة فكرية نظرية، لا مشكلة نفسية كما كانت ستكون لو أنه بدأ يشك في أن الطبيعة نفسها متناقضة، وأنه لا أمل لذلك من سلك حقائقها عليهما وهو موقن بأن القرآن تنزيل من حكيم حميد، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وأن من دلائل إعجازه أنه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ

ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، وموقن كذلك بأن الرسول ﷺ معصوم لا ينطق عن الهوى، وأنه ما خرج من فيه ﷺ إلا الحق الذي لا ريب فيه.

لذلك يعتقد أن كل ما قد يبدو له من تناقض بين آية وآية، أو بين حديث وحديث، أو بين آية وحديث، إنما تناقض ظاهري راجع إلى نقص في علمه هو لا إلى تناقض حقيقي في ذينك المصدرين. ولذلك فإنه لا يسبب له حرجاً ولا يدخل في قلبه شكاً، بل يبحث المسألة بحثاً علمياً مجرداً، سائلاً الله تعالى أن يهديه إلى سواء السبيل. لكن يبقى هنالك فارق كبير بين العلم الذي يكتسبه الإنسان من مصدر دنيوي، والعلم الذي يكتسب من مصدر إلهي. إن الله تعالى يعطي العلم بالدنيا – كما يعطي الدنيا نفسها – للبر والفاجر أعني أنه يعطيه منها علماً حقيقياً، يفيد منه ويستفيد في هذه الحياة. أما علم الدين الحقيقي. أعني العلم الذي هو ميراث النبوة. العلم الذي يداخل القلوب ويصلحها ويصلح العمل والسلوك، ويكون حاملة سراجاً هادياً للناس فإنه لا يحل إلا قلباً قد تهيأ بنور الإيمان ليتقبل نور القرآن، نوراً على نور. وكلما ازداد الفرد إيماناً، وازداد قلبه صفاء، وزاده الله تعالى بدارسة القرآن والسنة انتفاعاً، وفتح له من أسرار علميهما الحقيقي ما لا ينال بمجرد الدراسة والنظر. إن تقوى الله تعالى تحبب لمن وهبه الله إياها حب كلامه وكلام رسوله، وتجعله شغوفاً بهما، وتمنحه من القوة والصبر على دراستهما ما لا ينال بمجرد الاجتهاد الذي لا تصاحبه تقوى. بل إن تقوى الله تعالى لتقوي من حدة النظر العقلي نفسه، وتعينه على الوصول إلى مراقي منه لا يوصل إليها بمجرد الذكاء الفطري الذي لا يعينه توفيق إليهي. إنك إذا تأملت في حال من تستطيع تأمل حالة من علمائنا الكبار. أئمة أهل السنة والجماعة، من لدن عهد رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا لم يخالجك شك في أنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه دون آفاق علمية سامقة بمجرد النظر والاجتهاد – مع ما كان لهم منهما من النصيب الأوفى – وإنما وصلنا إلى تلك الدرجات العلى من العلم بدين الله بما وقر في قلوبهم من إيمان بالله ورسوله، وحب خالص لهما، وتوقير لهما لا يدانيه توقير. اللهم ارزقنا من الإيمان بك وبكتابك الذي أنزلت ورسولك الذي أرسلت ما نزداد به على مر الأيام علماً نافعاً وهدىً وتوفيقاً.

* * *

علاقة العقل بالشرع

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، ثم أما بعد:

آيتنا في هذه الحلقة هي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

والقضية هي علاقة العقل بالشرع هذه آية واحدة من آيات كثيرة في هذا الموضوع ما العلاقة بين العقل والشرع، قلنا إن هذا الدين هو دين الفطر ومن أهم ما فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليه هو العقل، فإذا كان الدين دين فطرة فلا بد أن يكون موافقا للعقل الذي فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليه العقل مهم جداً للبشر فبالعقل يفهم الناس معنى الكلام حتى كلام الله سبحانه وتعالى.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

هذا الكلام عن الكفار فربنا سبحانه وتعالى شهد بأنهم عقلوه يعني فهموه لأنه إذا لم يفهمه لا يحاسب ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يرسل رسولاً إلا بلسان قومه فإذا أرسله بلسان قومه عقلوا ما يقوله يعني فهموه وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

الكلام هنا موجه إلى العرب فهو أنزله قرآناً عربياً ليعقله هؤلاء العرب المخاطبون وغير العرب من الذين جاءوا بعدهم يعقلون الترجمة التي ترجم إليها كتاب الله سبحانه وتعالى لا يستطيعون أن يعقلوه في لغته الأصلية وبالعقل يميز الإنسان بين من يستحق العبادة ومن لا يستحق العبادة.

قلنا أولاً بالعقل يفهم.

وثانياً وهذا الأهم بالعقل يميز بين من يستحق العبادة ومن لا يستحق العبادة.

سيدنا إبراهيم في مجادلته لقومه وسيدنا إبراهيم كان كثيراً ما يستعمل هذه الحجج العقلية قال: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧]، يعني لو كنتم عقلاء لو كنتم تستعملون عقولكم ما عبدتم شيئاً لا ينفعكم ولا يضركم فهذا دليل على أنه بالعقل بعرف الإنسان من الذي يستحق العبادة ومن الذي لا يستحق أن يعبد، وبالعقل يحكم الإنسان على الأشياء والتصرفات أهي حسنة أم قبيحة أم مناسبة أم غير مناسبة.

وكذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، ليس هناك إنسان عاقل يفعل هذا إنسان يستعمل عقله يأمر الناس بالبر وينسى نفسه؛ لأنه إذا كان يعتقد أن هذا البر شيء حسن فأولى به أن يأمر به نفسه ولا ينسى هذه النفس.

من أكثر العلماء الذين اهتموا بقضية العلاقة بين العقل والشرع أو بين السمع والعقل شيخ الإسلام ابن تيمية كتب في هذا كتب ورسائل كثيرة، وكتب منها كتابه المشهور "درء تعارض العقل والنقل" أو "موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول".

وأنا أنقل لكم هنا كلاماً نفيساً لبعض الرسائل وأركز عليه لأن بعضه قد يحتاج إلى شرح قال: «وأما أئمة أهل السنة كالصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن سلك سبيلهم من أئمة المسلمين فهؤلاء أتوا بخلاصة المعقول والمنقول إذ كانوا عالمين بأن كل أدلة السمعية والعقلية حق»، هذا كلام يعني قليل من الناس ما يقولوه حتى من المتدينين أن كلاً من الأدلة السمعية والعقلية هي حق الأدلة السمعية معناها التي في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ والعقلية هي التي يدل عليها كما يقول صحيح العقل ليست الآراء والأمزجة وكذا وكذا لكن التي يدل عليها صحيح العقل وأنها متلازمة أن السمعية والعقلية متلازمان يعني أن السمعي يؤدي إلى العقلي والعقلي يؤدي إلى السمعي فهما متلازمان، فمن أعطى الأدلة اليقينية حقها من النظر التام علم أنها موافقة لما جاءت به الرسل ودلته على وجوب تصديق الرسل فيما أخبروا به ومن أعطى

الأدلة السمعية حقها من الفهم علم أن الله أرشد عباده في كتابه إلى الأدلة العقلية اليقينية التي بها يُعلم وجود الخالق وثبوت صفات الكمال له، وهكذا يعني أن الله سبحانه وتعالى ذكر لنا في القرآن الكريم أدلة عقلية على أمهات مسائل الدين منها وجود الخالق سبحانه وتعالى، وكثيراً ما يذكر هذا الشيخ في كتبه يقول إن كثيراً من الناس -مع الأسف- يظنون أن القرآن لا يخاطب إلا من كان مؤمناً به، وأنه وحي من عند الله سبحانه وتعالى ولكن الحقيقة أن القرآن في كثير من آياته يخاطب الناس العُقلاء حتى قبل أن يؤمنوا، وبهذه الأدلة العقلية يدعوهم إلى الدين.. ما زال هذا كلام ابن تيمية: «وقد أخبر الله في كتابه بما دل به على أن كلاً من العقل والسمع يوجب النجاة فقال تعالى عن أهل النار ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾، يعني السمع هنا مقصود به ما جاءت به الرسل: ﴿أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، لكن ما حصل هذا ولا ذلك ولذلك كنا من أصحاب السعير. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، فدل على أن مجرد العقل يوجب النجاة وكذلك مجرد السمع ومعلوم أن هذا أيضاً أن السمع لا يفيد دون العقل الذي هو الدين الذي جاء به الرسل لا يفيد دون العقل فإن مجرد إخبار المخبر لا يدل إن لم يُعلم صدقه وإنما يعلم صدق الأنبياء بالعقل ولولا ذلك لولا استعمال الناس لعقولهم لما عرفوا الذي يدعي النبوة وهو كاذب والذي يدعي النبوة وهو صادق فهذا من أهم الأدلة على التلازم بين العقل والشرع ولذلك أختم بأن من الخاطأ جداً التسمية الشائعة عند بعض الناس يصفون الذي يزيغ في بعض مسائل الدين يسمونه بالعقلاني هؤلاء ليسوا عقلانيين وإنما هم أصحاب هوى كما قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]»، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم.

* * *

منهج التفكير الإسلامي

من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه

المنهج هو: الطريق الذي يفكر به المسلم.

مادة التفكير: شيئان: حقائق وأحكام:

١- الحقائق: ما عليه الواقع وما توجد فيه.

٢- والأحكام: ما يراد كونه أو فعله. وهي ما تسمى حديثاً تقويم الشيء. قال تعالى: " وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً " حقيقة + حكم ومنها القيم وهي:

قيم أخلاقية – قيم جمالية – وغير ذلك.

-من أين يأتي الإنسان بهذه المادة (الحقائق والأحكام) يأتي بالحقائق من الواقع فهو مصدر من مصادر الحقائق.

-مصادر المعرفة: (مصادر الحقائق أو المعرفة):

١- الكون المادي والاجتماعي.

٢- الوحي وقد يسميه بعضهم الخبر. ومصار الخبر: الوحي، البشر، الجن.

لهذا كان علماء المسلمين إذا فصَّلوا لا يجعلون الوحي قسماً بل داخل ضمن الخبر.

مع أن هناك مبادئ فطر الله الناس عليها ولا يحتاج فيها الإنسان إلى أدلة عليها، بل يعرفها بحكم ما وهبه الله من عقل مثل: الجزء أقل من الكل، فالإنسان يدرك بعقله ولو كان صغيراً.

وسائل المعرفة:

وهو الطريق الذي نحصل به تلك الحقائق:

١- الحواس.

٢- العقل.

ما هي الطرق التي نحصل بها على المعرفة؟ (الحقائق والأحكام):

لأبد لنا من تقسيم المعارف إلى أنواع لنتمكن من دراسة ومعرفة كل نوع على حدة.

١-الحقائق الطبيعية:

وتدرس الحقائق الطبيعية عن طريق الحواس والعقل من غير عكس ومنهج المسلم في الحقائق الطبيعية هو المنهج العلمي التجريبي.

٢-حقائق الوحي وأحكامه في القرآن:

منهجنا فيه هو المنهج العلمي.

وقد اختلفوا في ذلك لأنهم اختلفوا في الطريق الموصل إلى تلك الحقائق.

والإنسان عندما يفكر لابد أن يكون عنده حقائق وأحكام.

الغرض من دراسة هذه المادة:

(الغرض من دراسة منهج التفكير والفائدة العملية منه):

١- مدى ما وصل إليه الإسلام، وكذا القصور الذي حصل الآن.

٢- أننا نواجه مشاكل فكرية وعملية في عصرنا الحاضر وكثير من هذه المشاكل تحل وتعالج بطرق غير إسلامية؛ لأن الطريقة المهيمنة على العالم هي الطريقة الغربية في منهج الفكر الغربي.

ونحن متأثرون بهذا الفكر الغربي، فنريد أن نعرف ما هي خصائص منهج التفكير الإسلامي. وما الذي يميزه عن المناهج الأخرى.

وكلمة المنهج معناها المسلك والطريق، إذا أردنا أن نعرف التصور الإسلامي للتفكير لابد أن نعرف التفكير: ما معناه في اللغة وما المقصود به. ثم بعد ذلك نوضح مدى ما حصل الآن من اختلاف الاستعمال الشائع لهذا المعنى.

ما هو المنهج الذي نتبعه لكي نعرف التصور الإسلامي للتفكير؟

نعرف ذلك من مراجع اللغة وقبلها ورودها في القرآن.

أما إذا استعملنا المعاني الشائعة للفكر فقد نفسر القرآن بغير لغته وهذا من أخطر شيء.

٣-للرد على الشبهات التي يذكرها بعض اليهود والنصارى وغيره بأن المنهج الإسلامي ليس منهجاً علميًّا.

٤-بيان خصائص منهج التفكير الإسلامي للتفكير.

مادة الفكر في القرآن:

قال تعالى "قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد " سبأ.

قال الطبري في تفسير: مثنى: يقوم الرجل منكم مع آخر ويتصادقان على المناظرة، هل علمتم بمحمد ﷺ جنوناً قط. ثم ينفرد كل واحد منكم فيتفكر ويعتبر، هل كان ذلك به؟ فتعلموا حينئذ أنه نذير لكم. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٤]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الروم: ٨]. وقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ..فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ... إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨]. فأتى بالفكر..

ما هي طبيعة التفكير:

عملية عقلية (عملي – عقلي).

مادته: في الآيات الكونية – النفس الإنسانية– الأحوال – الكون – الدنيا والآخرة.

فمادته: حقائق وهذه الحقائق نحولها إلى أشياء ذهنية ثم نفكر فيها

غايته: الغاية حقائق أخرى نتوصل إليها من الحقائق الأولى. ولولا هذا النظر لما وصلنا إلى هذه الحقائق.

والحقائق الأولى هي التي تدلنا على الحقائق الثابتة.

ما هي الحقيقة التي بدأنا بها. وما هي الغاية التي نتوصل إليها.

تذكر الآيات ".. يسألونك عن الخمر والميسر.. تتفكرون في الدنيا والآخرة كذلك نبين الآيات لعلكم تتفكرون ".

فالآيات تدعونا إلى أن نتفكر في الدنيا والآخرة حتى نصل إلى نتيجة والفكر الصحيح يؤدي إلى عاطفة سليمة وهذه العاطفة تؤدي إلى عمل صحيح والتفكر يؤدي إلى نتيجة وهي الإقلاع والابتعاد عما نهانا الله عنه وأن ما نهانا الله عنه ينبغي أن نبتعد

عنه. وما أمرنا به ينبغي أن نأتمر به ولهذا مدح الله يعلمون تفكيرهم عكس من لم يفكروا لم يعمل فكرة الذي أعطاه الله.

ما هي الحقائق التي دعانا القرآن إلى التفكر بها:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الروم: ٨]

كأن الآية تقول: فكروا في الحقائق التي في أنفسكم، قال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ فيعلموا فحذف فيعلموا للدلالة عليها، ومعنى إلا بالحق: إلا للحق. وقال تعالى: ﴿أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]. فإذا فكرتم: علمتم أنكم ما خلقتم عبثاً. والعبث هو الباطل. ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

من مجموع الآيات الماضية نستخلص عناصر التفكير:

إذاً مفهوم التفكير في الآيات السابقة:

١-الموضوع: مثل السماوات والأرض، النفس، الدنيا، الآخرة، الرسول ﷺ.

٢-المشكلة: كقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، والمثال أنه جنة.

٣-التأمل والاعتبار: حينما أفكر في الموضوع، أنظر ما هي أحواله، وما علاقته بالموضوعات الأخرى، وما هي الصفات التي توصلني إلى النتيجة؟

٤-النتيجة: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، وهذا ممكن أن يكون لأي فكر.

بعض خصائص الفكر الإسلامي:

١- الغاية الوصول إلى الحق. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فربنا أعطانا شيئاً يساعدنا على التفكير.

٢-التنبيه على الأمور التي تعيق عن التفكر: فالقرآن يتكلم عن كثير من الناس فإنهم يرون الأشياء ولا يعقلونها.

٣-إطار للتفكر (يساعد الإنسان على التفكر).

مثال على التفكير وليس فيه كلمة تفكر. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ..﴾ [الأنعام: ٧٤]... ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ..﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٤، و٧٦، و٧٨].

هنا أراد أن يعلم قومه كيف يفكرون.

قال ابن كثير: «لم يكن ناظراً وإنما كان مناظراً، فهو أراد أن يعلم قومه كيف يصلون إلى الحق. ففي البداية قال: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾: قال هذا لأن قومه كانوا يعبدون الكواكب، فهو بدأ معهم كما يقولون. ثم قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾: أي لا أحب أن يكون الآفل إلهاً لي. والآفل هو الذي يغيب».

بعض علماء الكلام الذين تأثروا بالفكر اليوناني قال الأفول معناه الحركة فكل متحرك محدث وأرادوا أن يطبقوا هذا على قصة إبراهيم فما دام الكوكب متحركاً فهو حادث، وما دام حادثاً لا يصلح إلهاً.

ورد عليهم العلماء: أن إبراهيم رأى القمر بازغاً ولو كان متحركاً لقال لا أحب البازغين لكنه قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

وفي النصارى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ١٨]، والغني لا يحتاج إلى ولد، لأن الولد يدل على النقص.

فموضوع التفكير قوله: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤]، حيث قال في آية أخرى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، والله خالق كل شيء، فكيف تقولون: إن له ولداً. فموضوع التفكير ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

المفهوم الشائع للفكر:

الفكر في المفهوم الشائع له معنى واسع جداً. أما في القرآن فمعناه محدد. فالفكر نتيجة التفكر .

والقرآن ليس فكراً وإنما هو وحي، ففيه فرق بين النصوص الشرعية وبين الفكر الإسلامي: والقرآن والسنة وحي ولكن ما نصل إليه نحن المسلمون من نتائج مستعينين بالقرآن والسنة يسمى فكراً.

نظرية المعرفة:

قلنا: إن منهج التفكير الإسلامي المقصود به الطريق الذي يسلكه المسلم للوصول إلى الحقائق والأحكام، ولكن الحديث عن منهج التفكير أو المنهج العلمي يسبقه في العادة حديث عما يسمى بنظرية المعرفة.

والمقصود بها: البحث والرأي في مسائل تتعلق بالمعرفة كإمكانية المعرفة ومدى المعرفة البشرية.

ويسمونها نظرية: لأنهم يرون أن الاختلاف فيها اختلاف في الرأي.

فمن الغربين مثلاً من يقول:

١-إن الوسيلة الأساسية للمعرفة هي الحواس والتجربة القائمة على هذه الحواس؛ ولذلك يسمون بالتجريبين.

٢-ومنهم من يرى أن وسيلة المعرفة الوحيدة هي العقل؛ ولذلك يسمون بالعقلانيين.

وسائل المعرفة:

يخلط بعض الناس بين وسائل المعرفة ومصادر المعرفة فيقولون: مثلاً: إن وسائل المعرفة بالنسبة للإنسان المسلم هي الحواس والعقل والوحي، مع أن الوحي ليس وسيلة من وسائل المعرفة، وإنما هو مصدر من مصادرها، والمقصود بوسيلة المعرفة هي ما زودنا الله بها من الآلات لنصل بها إلى المعرفة، وأما المصادر فهي الجهة التي تأخذ منها هذه الوسائل المعرفة.

فهنالك إذاً وسائل معرفة، ومصادر معرفة، وأنواع معارف.

والمقصود بأنواع المعارف: حقائق وقيم أو حقائق وأحكام.

والحقائق تقسم إلى حسية ومعنوية وغيبية ومشهودة.

وسائل المعرفة في الإسلام: (في القرآن والسنة).

١- قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

والوسائل المشتملة في هذه الآيات هي:

١- السمع " الأذن ".

٢- البصر "العين".

٣- القلب.

٤- الفؤاد.

٥- اللب

ما يستنتج من الآيات الماضية:

١- أن الإنسان يولد جاهلاً: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

٢- حقائق المعرفة التي ذكرت في هذه الآيات:

- الآذان للسمع.
- والأعين للبصر.
- والقلوب والأفئدة: للعقل والفقه.

وهذا بحسب القرآن. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾.

٣- الملاحظة الثالثة: هناك بعض وسائل المعرفة لم تذكر في هذه الآيات: كاللمس والشم والذوق، ولعل الحكمة في ذلك أن الوسائل المذكورة هي المهمة. وكل ما ذكر القرآن من وسائل المعرفة يذكر هذه الثلاث المتقدمة.

٤- الرابعة: أن الحاستين اللتين ذكرهما القرآن – السمع – البصر لم يعين بها المعرفة التي تأتينا مجردة عن القلب.

وإنما المقصود بالسمع والبصر في الآيات القرآنية هو السمع والبصر المتعلقان بالقلب والمرتبطان به.

وإذا وقفنا على حدود المعرفة الحسية كالسمع فلا يكون هناك معنى ونحن إذا تحدثنا عن الوسائل لا نتحدث عنها مجردة وإنما يترجمها القلب إلى معان.

دليل ذلك من القرآن "مثلهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء" فهو مثله كمثل الراعي لا تسمع منه إلا دعاء ونداءً، وقد يتكلم الراعي مع البهائم فتجده يناديها، ولكنها لا تسمع إلا صوتًا ولا تميزه.

وكلمة العقل في القرآن لم ترد إلا فعل (عقل) وهذا هو أساسها في الحقيقة وهي مصدر عقل يعقل عقلاً: وهي تسمية للشيء بفعله أو بمصدره.

لكن العرب تتجاوز ذلك فتسمي المكان باسم الفعل، فسميت الأذن سمع من سمع يسمع سمعاً. وفي القرآن لا يوجد هذا.

الآيات التي تتحدث عن البصر:

١- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: ٧٧].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

٣- قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، والمعنى رآه كما هو بدون زياده أو نقصان وما طغى: وما زاد.

٤- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

٥- وقال تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣].

٦- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ..﴾ [الملك: ٤].

٧- وقال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٧-٩].

الآيات التي تتحدث عن السمع:

١- قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

٢- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

٣- وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

٤- وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾[الملك:٢٣].

في القرآن الكريم نوعان من الآيات المتعلقة بوسائل المعرفة:

١- نوع عن الآلات والآلات نوعان: أ-الآذان ب-الأعين. فالأذن محل السمع، والعين محل النظر. وهذه لا إشكال فيها.

٢- هناك آيات مسماها محل الإدراك وهو: القلب – الفؤاد – اللب – الصدر . وهذه الآلات محال وقد تكون شيئاً واحداً عبر عنه بتعابير مختلفة.

والفقه، والفهم، والعلم، والمعرفة، والشعور، والوعي، وما تخفي الصدور، والنظر، والتفكر، هذه أفعال الآلات.

أما العقل: في لغة القرآن ليس محلاً وليس آلة، وإنما هو فعل ويدل على هذا أن كلمة (عقل) لم ترد في القرآن إلا فعلاً ولم ترد مصدراً ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦].

أما في الاستعمال الحديث: فيستعمل مكاناً ومحلاً للإدراك. إما بمعنى حسى ويكون مطابقاً للمخ، أو بمعنى غير حسي، إذا في الاستعمال الحديث: العقل هو الآلة التي ندرك بها.

أما في القرآن فالآلة التي ندرك بها هي القلب، والعقل هو فعل هذا القلب. فالقلب هو الذي يعقل ويفهم ويشعر ويحب ويبغض، وهذا ظاهر في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]. فتكون لهم قلوب يفقهون بها.

أما في الاستعمال الشائع يفرقون بين العقل والقلب..

يجعلون القلب محل العواطف من الحب والبغض.. الخ ويجعلون العقل محل التفكير.

ولكننا لا نجد هذه الازدواجية في استعمال القرآن الكريم فالقلب هو الذي يحب ويبغض، كما أنه هو الذي يتفكر وينظر وأما في الاستعمال العلمي الحديث فإنه يجعل المحل واحداً كما في القرآن الكريم. لكن هذا المحل هو المخ.

وأحياناً يجعلون العقل مرادفاً للمخ. وأحياناً يجعلونه شيئاً منفصلاً عنه (أي شيئاً غير حي).

وهناك جدل طويل بين العلماء الغربيين المختصين بالعلاقة بين العقل والمخ.

إذا فالمحل واحد في القرآن هو القلب، وفي الاستعمال العلمي الحديث هو أيضاً واحد وهو العقل أو المخ.

أما في الاستعمال الشائع فليس محلاً واحداً.

والعلم الحديث – الطبي – يستعمل كلمة المخ أو الدماغ بدل كلمة القلب (في القرآن).

يقول ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل: «وتلك الألفاظ تكون موجودة مستعملة في الكتاب والسنة وكلام الناس لكن بمعان أخرى»، فيحصل الاشتباه كلفظ العقل.

لفظة العقل في لغة المسلمين:

التصريف: عقل – عاقل – معقول.

فإن لفظ العقل في لغة المسلمين إنما يدل على عرض. أما مسمى مصدر عقل يعقل عقلاً، وإما قوة يكون منها العقل وهي الغريزة وهم المتكلمون والفلاسفة "يريدون بذلك جوهراً قائماً بذاته".

إذاً: العقل في لغة القرآن والسنة عرض وليس جوهراً.

أما المخ فهو جوهر.

الجوهر: ما يقوم بذاته، العرض: ما لا يقوم إلا بالجوهر.

الطريقة التي نصل بها إلى الحقائق:

كل معرفة تأتينا عن طريق السمع أو البصر أو القلب فهي معرفة معتبره شرعاً وما دام القرآن اعتبر الحس وسيلة للمعرفة فنتائج العلوم الطبيعية التي تعتمد على الحواس مع العقل فهي ثابتة شرعاً، إذاً: العلم الشرعي يدخل فيه العلم التجريبي.

يقول ابن تيمية: «وأما كونه شرعياً فلا يقابل بكونه عقلياً وإنما يقابل بكونه بدعياً»، إذاً: فما ثبت بالحس لا يمكن أن يناقض ما ثبت بالشرع.

ولكن كما قلنا: القرآن الكريم لا يستعمل السمع والبصر لإدراك المحسوسات فقط بل يدخل فيها إدراك المعقولات.

عن أي طريق يأتينا الشرع "الوحي ؟".

يأتي عن طريق السمع. فما يأتينا عن طريق حاسة السمع هو العلوم الشرعية.

لكن القلب ينفرد بعلوم لا تأتينا عن طريق الحس وهي علوم فطرية غير مكتسبة وهي:

١- التوحيد والدليل على أنه فطري: (**كل مولود يولد على الفطرة...**)، وفي الحديث القدسي: (**إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين**)، وقوله تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا**﴾ [الشمس: ٧] ، وقوله تعالى: ﴿**فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ [الروم: ٣٠].

٢- أصول العلوم العقلية كأصول المنطق. وأهم شيء في المنطق أن الكلام المتناقض غير مقبول (باطل) مثل: نصف الشيء لا يمكن أن يكون أكبر منه.

٣- أصول الأخلاق: كالشكر على نعم الله. فهذا فطرى حيث لا يعلم الدين أصل الأخلاق وإنما يعلم الناس الالتزام بها.

النتائج لوسائل المعرفة:

قلنا في نظرية المعرفة: إن وسائل المعرفة:

الحس: السمع – البصر.

العقل: القلب.

نخرج من هذا بنتيجة:

١- بما أن الإسلام يعتبر الحس وسيلة من وسائل المعرفة. فهو إذاً يعتبر كل ما يأتينا عن طريق الحس علماً، إذاً فالإسلام يعتبر ما نسميه العلوم الطبيعية التي مبناها على الحس علوماً شرعية. وذلك أن العلوم الشرعية نوعان: كما يقول ابن تيمية:

٢- نوع بينه الكتاب والسنة وفصلاه، فلا تحتاج لأن نكتسبه بجهدنا.

٣- ونوع أرشدنا الدين إلى دراسته ومعرفته.

والنوع الأول مثل الحلال والحرام ومسائل العقيدة، وبعضها نعرفها، والنوع الثاني مثل علوم التاريخ والفلك والعلوم العسكرية، وكل ما يحتاج المسلمون إلى دراسته يعتبر نوعاً كفائياً.

وكذلك الأمر بالنسبة لما يسمى بالعلوم العقلية:

١- وأيضاً بما أن الإسلام يعتبر العقل وسيلة من وسائل المعرفة إذاً فكل ما يأتينا عن طريق العقل الصريح فهو علم مقبول شرعاً، فالعلوم العقلية جزء من العلوم الشرعية، ولذلك لا يصح أن يقابل العقلي بالشرعي، فإنه إذا صح عقلاً فهو صحيح شرعاً وإذا صح شرعاً فلا يكون في العقل ما يناقضه (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول).

٢- العقل المقصود هنا هو العقل الصريح كما ذكرنا، لاكما يدعى أنه عقل، ككثير من أصول المعتزلة والجهمية من الفرق الإسلامية أو أصول الماركسية والفلسفات الغربية التي يظن أصحابها أنها عقلية فإذا وجدوا خلافاً بينها وبين النصوص الدينية أولوا هذه النصوص بما يوافق أسسهم وإن كانوا من الفرق الإسلامية. واستدلوا بهذه المخالفة على أن ما ذكره الدين دعاوى مخالفة للعقل إن كانوا من أصحاب المذاهب الفلسفية.

٣- ما هي العلوم التي تأتينا عن طريق العقل ؟

أو ما هي العلوم العقلية التي فطرنا الله سبحانه وتعالى على معرفتها ؟

للإجابة عن هذا: الإنسان أول ما يولد جاهلاً ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، فالفطرة ليست علماً، فالإنسان يولد وكأن في قلبه بذرة لهذه العلوم، فإذا ما نما فإن هذه البذرة تنمو بنمو العقل ما لم تصادف شيئاً يضادها.

فكأن الإنسان إذا ترك وفطرته ينمو عقله بطريقة توحي إليه أن له خالقاً واحداً هو الله سبحانه وأنه المستحق للعبادة.

لماذا يتعلم الإنسان اللغة بينما لا يتعلمها الحيوان ؟

لأن الإنسان عنده استعداداً من البداية، وإذا استغل هذا الاستعداد تعلمها. أما الحيوان فليس لديه استعداد لذلك.

إذاً الفطرة ليست علماً، وإنما هي للخير فقط. أي أنها شيء إيجابي، ولكن مع هذا فالإنسان لديه استعداد للخير والشر، فأوضح تعبير لها أنها بذرة إذا حصلت الجو الصالح لها فإنها تنمو "ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها".

مصدر الحقائق والقيم هو الوحي:

والوحي هو القرآن والسنة، وهذا لا يحتاج إلى دليل وإنما لما قامت هناك دعوى أنه يوحي إليه، وأنه يستطيع أن ينزل عليه فلابد من إقامة دليل على أن القرآن وحي من الله.

ما هو الدليل على أن القرآن وحي من الله ؟

١- إعجاز القرآن البياني.

٢- أنواع أخرى من الإعجاز منها:

(أ) التناسق وعدم التناقض.

(ب) قوله تعالى: "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً".

٣- حفظه من الزيادة والنقصان والتغيير والتبديل.

٤- المعجزات التاريخية (الإخبار بما يقع في المستقبل).

٥- المدة لنزول القرآن على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، فكلما كثرت المدة كان الكلام متناقضاً، وكلما قصرت كان خالياً من ذلك.

٦- القدر (الكمية كبيرة).

٧- تنوع المواضيع.

والتناسق نوعان:

١. تناسق داخلي.

٢. تناسق خارجي وهو مدى انطباق المواضيع على الواقع. إذا كان القدر كبيراً فيكون احتمال التناقض مع الزمن أكبر وأهم من ذلك إذا طالت المدة، هل نجد

الواقع كما قال، فلو أن إنساناً كتب كتاباً عن الأمراض فهل يكون مستمراً صالحاً للتطبيق نحن لا نرى كتاباً صالحاً للتطبيق على مدى الأزمان غير القرآن.

فهل القرآن الذي جمع في مصحف واحد منذ أكثر من ١٤٠٠ عام هل يوجد فيه تناقض. ليس هذا فحسب، بل نجد أن هناك ما لم يعرف في الواقع واكتشفوه في القرآن. فكيف إذاً كان القائل أمياً معزولاً عن الأمة اليونانية، أو الرومية، ولم يكن يقرأ ولا يكتب، ولا يوجد فلاسفة، فالكفار ينبهرون لذلك مثل موريس بوكاي وغيره.

ومن العجائب أن الإنسان ينكره أو يطعن فيه في حالة الشباب والطيش، فإذا زاد عقله وكبر سنه رجع إلى الإسلام، وما سمعنا أن إنساناً رجع إلى المسيحية بعد ٤٠ سنة بل العكس فهذه النوعيات للعقول تدل أن القرآن وحي من الله.

- الشريعة (الأحكام) فيها دليل على أن القرآن من الله.

- الإعجاز العلمي.

- كلام القرآن عن الله يختلف عن كلام أهل الأديان والفلاسفة فيما يقولونه عن الله فتجد التناقض عندهم ولا يصفون الله بما وصفه به القرآن، فالفلاسفة يجعلونه شيئاً مجرداً.

والنصارى بالغوا في بعض الرسل، واليهود ذموا الرسل حتى جعلوهم أدنى من الناس والقرآن جعلهم مثاليون وقدوة للبشر.

٦-خلق الرسول أي سيرته: كيف يدل خلق الرسول على أن القرآن وحي من الله ؟

(أ) أن الرسول ﷺ عرف بالصدق والأمانة قبل أن يبعث يقول هرقل: «ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله». وقد لبث ٤٠ سنة قبل البعثة، فكيف يكذب بعد هذه المدة، وهذه حجة عقلية على أن صدق الرسول ﷺ يدل على أن القرآن وحي من الله، ولهذا كان الرسول يعرف ذلك عن نفسه ويعرف بين العرب بالصادق والأمين .

(ب) وأيضاً الرسول ﷺ قد عاش في القرن السابع الميلادي وهو أمي لم يدخل مدرسة ولا تعلم. وفجأة يأتي بكتاب الله الذي فيه أخبار الأمم السابقة وما حدث لها مع أنبيائها وكيف كانت النتيجة بالنسبة لهم.

(جـ) فكل من يدرس سيرة الرسول ﷺ والظروف التي عاش فيها يعرف أنه لا يمكن له أن يأتي بكتاب مثل هذا من عند نفسه، وهو القائد والمنتصر في المعارك والموجه للأمة، ولم يتعرض لطلب الدنيا، وإنما همه القيام بواجب الدعوة إلى الله، فسيرته قبل البعثة وبعدها تدل على أنه صادق.

(د) وأيضاً انتصاره على قريش في معركة الفتح حيث دخل مكة متواضعاً شاكراً لله على نصره له.

فسيرته تتمثل في:

- صدقه.
- الأمية.
- الانتصار.

٨-مفهوم الألوهية والنبوة: فجميع الكتب التي تنتسب للأديان الأخرى لا تجد فيها تصوراً كاملاً عن الخالق مثل ما تجده في القرآن، أما القرآن فقد وصف الله بصفات تليق به ونزهه عن كل نقص لا يليق به.

أما النبوة: فاليهود فرطوا في حديثهم عن الأنبياء حتى نسبوا إليهم أشياء يترفع عنها الكفار فقالوا: نوح شرب الخمر، ولوط زنا بابنتيه، ونحو ذلك من الاتهامات التي يتنزه عنها أضعف البشر.

والنصارى رفعوا الرسول إلى درجة الربوبية .

والقرآن وصف الرسول بأرقى المقامات (بأنه عبد)، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، لكن في الناحية الأخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فكل ما يتصف به البشر من صفات الكمال يتصف به الرسول ﷺ وهذا لا يوجد في الكتب التي تنتسب إلى الأديان الأخرى.

٩-الشريعة: إذا قورنت بالشرائع التي قبلها، والشرائع المعاصرة للرسول ﷺ فإن الشريعة الإسلامية ترتفع عليها، ومن ذلك العدالة.

المنهج الذي نسلكه مع إنسان ملحد لا يؤمن بالله (برهان وجود الخالق):

١-التنظيم المحكم: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ويسمى دليل العناية.

٢-دليل الخلق: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

هذه الآية موجهة للإنسان الذي لا يؤمن بوجود الخالق. فالله يقول له: وجودك يمكن أن يفسر بأحد ثلاثة أمور:

(أ) إما أن نقول:إنك جئت من العدم ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ فالعقل لا يقبل هذا.

(ب) وإما أن نقول: إنك خلقت نفسك ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾. وهذا لا يقبله العقل لأنه مستحيل لأنه إذا أراد أن يخلق لابد أن يكون موجوداً.

(جـ) وهذا لم يذكره القرآن. فالأشياء البديهية التي يعرفها الإنسان يسأل عنها القرآن سؤال استنكار فلابد من خالق، فالآية تريد أن تثبت أن الشيء الحادث كالإنسان لابد له من خالق.

ومنه عالم فلكي من علماء الغرب اسمه (فريد هويل) له نظرية (الكون المتسع) وملخصها: أن الكون الذي نشاهده تتباعد أجزاؤه فلا نراها بعد ملايين السنين.

لكن التجارب التي أجروها دلت على أن هذا لا يحدث فأصبح فيه إشكال فهو قال: هنالك خلق مستمر كلما انتهت مادة جاء بدلها مادة أخرى وقال إنها تأتي من العدم. ولم يوافقه العلماء على هذا، وكثير منهم ظنوا أن نظريته هذه موافقة للدين لأنهم يظنون أن الذين يؤمنون بالله يقولون إن الأشياء تأتي من العدم، بل نحن نقول الله خلقها هذا مجرد مثال لقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾.

أما المثال لقوله: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ فهو ما قاله كارل: إن الإنسان يخلق نفسه، لأن الإنسان نتيجة إنسانين فكان إنساناً أتى بإنسان ثم كل واحد من الإنسانين جاء نتيجة إنسانين أيضاً، ويقول أيضاً: لا أحد يسألني عن الإنسان الأول فهو أيضاً أتى بمغالطة لأنك حين تسال عن الأول تفترض أنه لم يكن موجوداً، فإذا افترضته غير موجود فأنت غير موجود، لأنك جئت من الإنسان الأول على حد زعمه.

فنحن نقول: ما دام لا يأتي من العدم ولا يخلق نفسه، فلابد أن له خالقاً غير نفسه.

وبعض الملحدين يقولون: نسلم بهذا الكون، ولكن لماذا تقولون إن الخالق هذا الموجود الموصوف بالصفات الموجودة في القرآن الكريم.

فالماديون يقولون: الطبيعة والمادة والمصادفة.

فنرد عليهم بأن نقول:

١- الطبيعة والمادة ماذا تقولون فيها، ومن أين أتيا؟ للأسف لم يبق في العالم من يدافع عن الألوهية والدين إلا أهل الإسلام فقط.

٢- ما المقصود بالطبيعة: فإذا فسرها وعرفنا قصده، رددنا عليه بالأشياء السابقة وهي أن كل شيء لابد له من خالق.

٣- ما المقصود بالمصادفة: تقول المصادقة لا تخلق، وإنما هي أن يتقابل شيء بآخر من غير ميعاد.

٤- ما المقصود بالمادة: يقولون: إن الكون خلقنا منها، فليست منفصلة عنه، فكأنهم يقولون إن هناك كمية ثابتة من المادة أزلية لم تخلق منها، فتكون الأشياء كالإنسان والحيوان ثم يفنى ويرجع إلى أصله مره أخرى، .فنقول: ما الذي حدث عن طريق المصادفة، فقد حدث أن التقى الأكسجين بالهيدروجين إلا يدل هذا على أنهما قد صمما إذا التقيا وجد ماء. فالمصادفة وحدها لا تفيد شيئاً إذا لم يكن هذان الشيئان قد صمما من قبل.

الرد على كون المادة أزلية:

أن الشيء إذا كان أزلياً لا بداية له، فلابد أن يكون أبدياً لا نهاية له ومعنى كونه أبدياً: أن يبقي على حاله لا ينقسم إلى أقسام فيحتفظ بصفاته ويبقى بذاته، فالأزلي لا يحدث في صفاته ولا ذاته تغيير، ونقول لهم: ما هي المادة التي لا يحدث لها تغيير في ذاتها ولا صفاتها؟

قالوا: هي الأجرام السماوية.

فنقول: إنه بفضل ما أعطانا الله من العلوم الحديثة كالفلك والفيزياء نعلم أن هذا ليس صحيحاً فالأجرام السماوية تتغير لأنها تنقص. ثم هذه الأجرام السماوية تصير مادة أقل منها وهي العناصر مثل:الأكسجين والنيتروجين والذهب والفضة، فهي الأشياء التي ليست مركبة فالذهب شيء خالص وهكذا، وقد ظنوا أن الأشياء المادية الأخرى

تتكون من هذه العناصر كالماء فهو مكون من الهيدروجين والأكسجين، والهواء والخشب والأرض، فهذه ليست عناصر لأنها مركبة.

ومعنى كلمة عنصر: المكونات الأساسية للمادة.

ثم بعد هذا: حدث أن اكتشفنا أن هذه العناصر مركبة من جزيئات يعني إذا فتتنا الذهب واستمرينا في ذلك في النهاية نصل إلى جزيء هو ذهب، والظن أنه آخر شيء. ثم اكتشفنا أن هذه الجزيئات مركبة من ذرات. فالذهب يمكن أن يكون من ذرات.

فوجدوا أن الفرق بين عنصر وعنصر أحياناً يكون في عدد الذرات أو في طريقة تركيبه، لكن عددها وطريقة تركيبها تجعل الشيء المكون منها مختلفاً.

فكل الفلسفات المادية الحديثة مبنية على أساس أن الذرة هي المادة الأزلية، وكل الأشياء الأخرى مكونة لها.

فإذا قيل لهم: كيف تكون هذا العالم؟

قالوا: هناك ذرات أزلية سابحة في فراغ يلتقي بعضها ببعض بالمصادفة ليس عن تدبير، فإذا التقت تكونت فيها جزئيات ثم جزيئات أخرى، ثم يتكون من هذه الجزئيات عنصراً بالمصادفة ثم آخر ثم يتكون من العنصر مركب ثم مركب آخر وهكذا.

والرد عليهم: أن الذرة تنقسم وقد وصل العدد إلى أكثر من مائة (مكونات الذرة) وقد يقول إنسان: إن مكونات الذرة هي المادة الأزلية.

١- يقول العلماء: ليس عندنا دليل على هذا؛ لأنه ربما نكتشف أنها مركبة فالعالم الطبيعي يقول: أنا لا أقول إنها أزلية لأني ما زلت أبحث فقد تكون مركبة.

٢- أن هذه المكونات تفقد شرط الأزلية وهو أن لا تفقد ذاتها ولا تتغير صفاتها، ومعلوم أنه لا فاصل بين المادة والطاقة أي القوة فكل منها يتحول إلى الآخر.

فبفضل ما أتانا الله من العلوم تيقنا أنه لا توجد مادة مشاهدة يقال إنها أزلية، لكن بعض الناس يشتبه عليهم الأمر فيقولون الأشياء تتغير لكن المادة ثابتة، فالإنسان لا يبقى إنساناً لكنه يتحول إلى أملاح وهكذا، ولكن هناك فرق بين المادة باعتبارها مجرد مفهوم ذهني والمادة الواقعية ففي واقع الحياة ليس هناك مادة يمكن أن تشير إليها بأنها أزلية أما بالمعنى الذهني فتوجد مادة.

ونحن نتحدث عن الأزلية الموجودة في الخارج لا في الذهن، والشيوعيون لهم رأيان ينقض بعضهما بعضاً. فبعض مؤسسي الفكرة الشيوعية يقولون: إن المادة تنقسم إلى ما لا نهاية لها.

فإذا كان الأمر كذلك فليس هناك مادة أزلية.

وماركس يقول: المادة التي لا صفات لها ولا خصائص أي المجردة هي من اختراع الفلاسفة (شيء ذهني)، وهذا صحيح، فإذا جمعنا كلام كل منهما إلى الآخر فيخرج لنا أنه ليس هناك مادة أزلية فكلام كارل ماركس صحيح؛ لأن الذي في الذهن ليس شيئاً موجوداً في الأعيان.

هذا برهان موجز على أن المادة ليست أزلية فلابد لها من وجود خالق أزلي له صفات نريد أن نعرفها، ومعرفتها مهمة في ذاتها، وهي تبرهن على أن المادة لا يمكن أن تكون هي الخالق.

فإذا كان خالقاً فهو أزلي وأبدي وليس كمثله شيء، ولكن كيف وصلنا إلى هل هذا الخالق يخلق بإرادة، أم أن المخلوقات تأتي عنه كما تأتي من الآثار الطبيعية؟، فالزرع ينبت من المطر لا بإرادته. وما الدليل على أن هذا الخالق لا يلد وإنما يخلق بإرادة لأنه أزلي غني قيوم لا يحتاج إلى غيره، وإن الابن يكون من جنس أبيه، فلو كان يلد لصرنا من جنسه والسبب الطبيعي يحتاج إلى أسباب أخرى، كالجنين سببه الأب، لكن هل الأب يستقل به أو الأم ؟الجواب لا فلابد من سبب آخر، فإذا جعلناه سبحانه سبباً ظنياً فلابد أن نقول إنه محتاج إلى غيره تعالى عن ذلك، فلابد أن يكون صدور المخلوقات عنه صدور إرادة لا صدور ولادة.

فإذا كان مريداً أي خلق عن إرادة فلابد أن يكون عالماً لأن الإرادة تقتضي العلم، فإذا كان مريداً وعالماً فيكون حياً، فنستنتج كثيراً من الصفات، وبعض الصفات يمكن أن تعرف بالعقل وإن كان قد ورد بها الشرع كصفة العلو.

توجيهات قرآنية ومن السنة تتعلق بالمنهج العلمي:

١- الحث على طلب العلم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

٢- قلة العلم البشرى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

٣- فضل العلم والعلماء (**فضل العالم على العابد..**)، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ...﴾ [فاطر: ٢٨].

٤- الدعوة إلى التفكر. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٥]، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

٥- ارتباط العلم بالإيمان والعمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ..﴾ [الصف: ٢].

٦- النهي عن القول بغير علم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ..﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ..﴾ [الحج: ٣].

٧- التثبت في الرواية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ..﴾ [الحجرات: ٦].

٨- وسائل اكتساب المعرفة: ﴿﴾ [] " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً... ".

٩- الإنسان يولد جاهلاً، وقد يعود جاهلاً: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

١٠- الجهل يشمل عدم العمل بالعمل: (**اللهم إني أعوذ بك أن اجهل أو يجهل علي**)، ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ..﴾ [النساء: ١٨].

١١- النهي عن التقليد: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

المنهج العلمي عند المحدثين: (منهج المحدثين في إثبات دعواهم):

ما هي دعوى المحدث ؟

دعواه: قال رسول الله ﷺ أو فعل رسول الله وهو دليله على أن الرسول أو كان رسول الله (قوله – فعله – إقراره – وصفه).

ما هو دليل الدعوى ؟ (منهجه أو دليله):

١-منهج.

٢-الدليل. ولا يمكن أن يكون مشاهداً أو تجربة.

فمنهجه: الرواية. ومنهجه في الرواية: التثبت من صدق الرواية، ويشترط في الرواة الضبط والعدالة. والسبب في اشتراط الضبط والعدالة التأكد من أن هذا الكلام الذي نقل إلينا صحيحاً.

وهذه الشروط علمية ليست اعتباطاً. والضبط والعدالة يجمعان كل الشروط، ولكن قد يختلفون في تطبيق هذه الشروط، يختلفون في مدى تصعيد هذه الشروط، وشرطا العدالة والضبط عقليان ينبعان من الدليل.

كيف يتأكد من الضبط والعدالة ؟ هل لدينا مقاييس لذلك؟

نحن في الإسلام لدينا ضوابط أكثر من الآخرين، لأن الآخر قد يختلف (ما جربنا عليه كذباً) ولكن الإنسان قد يكون ما جرب عليه كذب لكن يمكن هناك أشياء أخرى تطعن في عدالة:

فإذا تأكدنا من تلك الأشياء واشتهر عنه تقصير في العبادات فهذا قد يقع فيه بعض الناس.

ولكن العدالة لا تعني أن الإنسان لا يأتي بمعصية في حياته قط. وإذا كان الإنسان ورعه شديد جداً، فورعه هذا يجعله لا يقول على الرسول إلا الحق.

ونحن لا نقول إن الصحابي معصوم، ولكن نقول: إنه لا يكذب على الرسول ﷺ، وبعض الناس قد يسكر أو يأتي ببعض المحرمات ولكن لا يكذب على الرسول ﷺ، فالصحابي من باب أولى.

وهناك شروط أخرى غير الضبط والعدالة منها:

٣-اتصال السند: ونحن لا نشترط أن يتصل به، وإنما نشترط إمكانية الاتصال (اللقاء به) وهذا الشرط شرطه البخاري، ونحن نشترط أن يعاصر، وهذا ما دعاهم إلى دراسة التاريخ والشخصيات.

أما البخاري فيشترط اللقاء.

ومسلم ينتقد هذا الشرط (اللقاء) فيقول هل تشترطه في كل حديث ؟

فإذا لم تشترط ذلك فلم يكن بينك فرق وبين الذين يشترطون المعاصرة دون اللقاء.

٤-عدم الشذوذ والعلة: الشذوذ: مخالفة الثقة من هو أوثق منه. والعلة: الشيء الذي ليس له ضابط.

لعل هذا دليل علمي ؟

نعم هو دليل علمي مناسب للدعوى، وإذا صح صحت الدعوى.

***

وحدة الموضوعات العامة

من محاضرات الدكتور جعفر في مادة منهج التفكير الإسلامي لطلاب المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمرحلة الماجستير والدكتوراه.

أولاً: مدارك العلوم:

عندما جئت إلى هذه الحياة مولوداً جديداً لم تكن تعرف شيئاً ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، ولكنك الآن تعرف أشياء كثيرة فهل سألت نفسك ذات يوم كيف حصلت على هذه العلوم؟ هل سألت نفسك قائلاً: ما الخصائص التي تجعل البشر يعلمون ويزدادون علماً بينما الجمادات والحيوانات لا تزداد علماً؟

إذا كنت قد قرأت القرآن الكريم فلابد أنك وجدت الجواب في بقية الآية التي مرت بك الآن هذه البقية هي: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، إذن فالعلوم تأتينا عن طريق هذه الأجهزة التي منحنا الله تعالى إياها، وهي السمع والبصر والعقل، ولذلك فإنه سبحانه أمرنا بحسن استخدامها وجعلنا مسؤولين عن ذلك ومحاسبين عليه فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ما هو العلم؟

العلم هو أن يكون التصور الذي في أذهاننا مطابقاً للواقع، أو أن يكون تعبيرنا عن هذا التصور مطابقاً للواقع، فالعلم أصله في العقل، واللسان والقلم يعبران عما في العقل.

لكن كيف تنتقل صورة الواقع إلى أذهاننا فتكون علماً؟

لقد أشرنا إلى أنها تنتقل إلينا عن طريق الحواس من سمع وبصر ولمس وشم وذوق فإذا قلت إنني أرى أمامي شجرة خضراء مورقة وارفة الظل وكان أمامك في الواقع شجرة بالوصف الذي ذكرت كان ما تصورته وعبرت عنه علماً، وإذا لم تكن هناك شجرة كما وصفت لم يكن علما بل وهماً. والحواس إذن هي التي تنقل إلى أذهاننا صورة الواقع الخارجي، ولكن الحواس لا تستطيع أن تفعل لك إلا بمساعدة الدماغ والعقل، وسيشرح لك أستاذ العلوم أن العين مثلاً لا تنقل لك صورة الشجرة كماهي

وأن الأذن لا تنقل لك كلاماً وإنما تنقل موجات صوتية، وأن عقلك هو الذي يجعلك ترى شجرة وتسمع كلاماً.

نزيد ما ذكرنا لك شرحاً وتفصيلاً فنقول إن العلوم ثلاثة أنواع:

١- صورة حسية تنقل إلينا عن طريق الحواس الخمس بمساعدة الدماغ.

٢- مبادئ عقلية فطرنا الله تعالى عليها وركبها في عقولنا وجعلها تنمو معنا حتى تبلغ تمامها، من هذه المبادئ علمنا بأن القول ونقيضه لا يجتمعان، فإذا قلت لك – بل إذا قلت لطفل تعلم الكلام – (الشمس طالعة وليست طالعة) أو (أنا جوعان وشبعان) علمت وعلم أن هذا مستحيل. كذلك إذا قلت لك (إن نصف الشيء أكبر منه) كأن نقول مثلاً (إن نصف التفاحة أكبر من التفاحة) أو أن شيئاً وجد من العدم بغير سبب أوجده فستقول هذا مستحيل. فمن أين عرفت هذه الاستحالة؟ عرفتها لما ركز الله في عقلك من مبادئ، ولم تعرفها عن طريق الحواس ولا تحتاج أن تتعلمها من غيرك بل أن الإنسان الذي لا يعرف مثل هذه المبادئ لا يمكن أن يتعلم شيئاً ونقول إن بعقله خللاً.

٣- أخبار يعلمها غيرنا مباشرة وينقلها إلينا أقوالاً. فوسيلتنا لإدراكها هي السمع إذن. ولكن الأذن كما ذكرنا لا تنتقل إلينا إلا موجات هوائية، لا تنقل لنا إلا أصواتاً والأصوات وحدها لا تكون كلاماً إذا كانت بلغة لا يفهمها السامع فإنه يسمع صوتك ولكنه لا يعي ما تقول. كذلك إذا حدثته بلغة يفهمها لكنه كان غافلاً عنك أو لم تكن له رغبة في معرفة ما تقول فإنه يسمع صوتك، ولكن لا يدرك قولك. ولذلك قال تعالى عن المشركين المعرضين عن القرآن الكريم: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، يقول تعالى إن مثل الكفار حين يتلو عليهم النبي ﷺ القرآن كمثل بهائم يتكلم معها راعيها، فكما أن البهائم لا تفهم كلام الراعي، وإنما الذي يصلها منه دعاء ونداء أي أصوات بلا معنى، فكذلك هؤلاء الكفار لا يسمعون القرآن سماعاً حقيقياً ولا يرون آيات الله رؤيا حقيقية، فهم كمن انسدت فيه كل نوافذ المعرفة فلا يسمع ولا يبصر ولا يعقل ولا يتكلم.

والأخبار نوعان:

(أ) أخبار بشرية: وهي التي تأتينا من بشر أمثالنا فهذه ينبغي الا نتسرع في قبولها بل ينبغي أن نزنها بموازين الحس والعقل التي زودنا الله تعالى بها، فإذا قال لنا إنسان

كلاماً يخالف ما علمناه واستقيناه لم نصدقه، وإذا قال كلاماً مناقضاً لم نقبله، وإذا قال كلاماً معقولاً لكنه لم يكن رجلاً ثقة لم نتسرع في قبول كلامه، بل تريثنا حتى تتجمع لنا أدلة أخرى تثبت صدقه أو ترجحه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]، وأما إذا كان المتكلم ثقة والكلام معقولا قبلناه.

(ب) أخبار إلهية: وهي ما يوحيه الله تعالى إلى رسله ويوصله هؤلاء الرسل إلينا وهي تشمل بالنسبة لنا نحن المسلمين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وبما أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء، وعلمه محيط بكل شيء، وبما أنه سبحانه منزه عن صفات النقص من كذب وغش ونسيان وغفلة فإن كل ما يقوله في كتابه، أو على لسان رسوله هو الحق الذي لا ريب فيه وهو العلم اليقيني الذي لا يحتاج إلى مراجعة وتثبت، لكن الذي يحتاج إلى مراجعة وتثبت أمران:

أولهما: نسبة القول إلى الرسول ﷺ وقد كفانا علماؤنا الأقدمون هذه المئونة فشيدوا صرحاً قوياً لعلم الحديث وميزوا بين ما صحت نسبته إلى الرسول ﷺ وما لم تصح نسبته أو ضعفت.

وثانيهما: الفهم الصحيح للنصوص فنحن مثلاً لا نشك في أن الله تعالى قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:٣٠]، ولكننا قد نشك في تفسير أحد المفسرين لهذه الآية فنحتاج لمراجعته والتثبت من صحته، وكذلك الأمر بالنسبة لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لا نرتاب في أن ما ثبتت نسبته إليه قول صحيح، ولكننا قد نحتاج لأن نراجع فهمنا لما قال الرسول صلى الله عليه وسلم.

العلم البشري والوحي الإلهي:

١. **العلم البشري** ونعني به العلم الذي يمكن أن نحصل عليه بمداركنا البشرية (الحواس والعقل) مستقلة عن الوحي والإلهي.

وهذا العلم نوعان:

(أ) نوع – وهو أكثره – يتعلق بحياتنا الدنيوية وهو علم هام جداً لأننا نستطيع بواسطته أن نتصرف في حياتنا الدنيوية فنعرف كيف نزرع النبات وكيف نبني

المنازل، وكيف نصنع الثياب، وكيف تخترع الآلات التي تسهل لنا الحياة، وكيف نتقي ما يضرنا من جوع وظمأ وبرد وحر ووحوش وهوام الخ... وكيف نجلب ما ينفعنا من أكل وشرب ولبس ودور ومواصلات... الخ.

وقد ظل هذا العلم ينمو باطراد تقريباً مع تقدم الأيام، فما كان يعرفه الناس قديما عن التربة والمياه والبحار والنباتات والمعادن والعناصر لا يكاد يساوي شيئاً بالنسبة لمعارف القرن الحالي في هذه المجالات، وعليه فإن ما صنعه الناس في هذا القرن من آلات وشيده ومبان ومصانع وما أنتجوه من طاقة وما استهلكوه من خيرات هو أضعاف أضعاف ما فعل الناس في القرون الماضية.

(ب) أما النوع الثاني من أنواع العلم البشري وهو أهم من النوع الأول فهو المتعلق بالخالق سبحانه وتعالى. وذلك أن الله تعالى فطر العباد على معرفته وتوحيده، وجعل لهذا التوحيد شواهد وأدلة في عالمنا الذي نعيش فيه. فنحن نستطيع إذن - حتى قبل مجيء الوحي أن نعرف أن لنا خالقاً واحداً ينبغي أن نفرده بالعبادة، ونستطيع أن نعرف بعض صفات هذا الخالق بما نشاهد هذا من آثار صنعه.

٢-**الوحي الإلهي**: وبما أننا لا نستطيع أن نعرف كل ما ينبغي أن نعرفه عن هذا الخالق سبحانه فلا نستطيع بعقولنا وحدها أن نعرف كل صفاته، ولا نستطيع أن نعرف كيف نعبده ونشكره، ولا نستطيع أن نعرف كيف نتصرف في حياتنا بطريقة تسعدنا وترضيه سبحانه، فإنه تفضل فأرسل إلينا رسلاً يبلغونا علماً بهذه الأمور لا نستطيع أن نستقل بمعرفته فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم يأتوننا بعلم مفصل عن الله تعالى، وعن مكارم الأخلاق ومحاسن السلوك، وعن العبادات كيفياتها وأوقاتها وشروطها، وعن الطريقة الصحيحة التي ينبغي أن ننظم بها حياتنا: ماذا نأكل وماذا نشرب وماذا ندع من ذلك، كيف تكون صلة الرجال منا بالنساء، وما هي حقوق الأقارب والجيران، وكيف ننظم حياتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وإلى غير ذلك من علوم نحن في أشد الحاجة إليها لسعادتنا الدنيوية والأخروية، فالوحي الإلهي إذن مكمل لعلومنا البشرية ومتمم لنقصها وهو أهم العلوم وأشرفها؛ لأن العلم البشري متعلق أكثره كما رأينا بشؤون الدنيا، فغايته أن يصلح حياتنا الجسدية، ولكن الوحي الإلهي هو الذي يصلح حياتنا القلبية والروحية والإنسان إنما يكون إنساناً، وإنما يسعد بسلامة قلبه ورقي روحه. ولذلك قال تعالى ذاماً أولئك الذين يكرسون كل

جهدهم لمعرفة الدنيا ويجهلون الآخرة ومذكراً لهم بأن هذه المعرفة ما ينبى عليها من تطور عمراني تكون في النهاية وبالاً على أصحابها. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٦-٩].

المنهج العلمي:

أننا لا نستطيع أن نحصل على شيء من العلوم إلا بحواسنا وعقولنا ولكن هل تكفي هذه للحصول على العلوم؟ كلا بل لابد من اتباع نهج أو طريق يوصل إلى العلم الذي نريد الحصول عليه، هذا الطريق الموصل إلى العلم هو ما يسمى بالمنهج العلمي. وبما أن العلوم مختلفة فإن مناهجها مختلفة كذلك والمنهج الذي يوصلنا إلى العلم هو أيضاً دليلنا وشاهدنا على ذلك العلم، ولذلك فإن الذي يميز العلم عن الافتراء والظن والخرص هو أن العالم بالشيء يستطيع أن يقدم الدليل الذي يشهد بصدق ما يقول، أما الذي يكذب أو يظن أو يخوض فلا يستطيع أن يقدم مثل هذا الدليل والبرهان، والعلوم مختلفة وهي تختلف باختلاف المعلومات والمدركات.

❖ فمن الأشياء ما يدرك إدراكاً مباشراً كالمحسوسات من جبال وأنهار وأشجار وشمس وقمر وغيرها، ومنها ما نستنتج بعقولنا وجوده من وجود هذه المحسوسات. مثلا أنت ترى القمر، وتراه بحجم معين فهذه معرفة مباشرة ولكنك تقول لنفسك إنني لاحظت أن الشيء كلما يعد كلما صغر حجمه في عيني فحجم الطائرة وهي في الهواء يبدو أصغر من حجمها عندما نراها راسية في المطار إذن فيما أن القمر بعيد عنا فلابد أن يكون أكبر مما يبدو. هذا شيء يمكن أن يستنتجه كل شخص عادي لكن إذا تطور عملك وعرفت مسافة بعد المقر عنا، وحجمه البادي لنا فإنك تستطيع أن تستنتج حجمه الحقيقي من غير أن تضطر إلى السفر إليه في مركبة فضائية.

❖ ومنها ما يدركه غيرك مباشرة أو استنتاجاً، ولكنك لا تستطيع لظروف وخاصة بك أن تدركه مثل هذا الإدراك فسبيلك إلى معرفته هو الخبر الذي ينقله إليك من أدركه مثلاً إذا حدث حادث وشهده بعض أصدقائك ولم تشهده أنت فسبيك الوحيد لمعرفته هو وصف أصدقائك له. كذلك إذا حدث شيء في الماضي فلا سبيل لنا نحن أبناء هذا القرن إلا نعرفه من الأخبار التي تركها لنا من شاهدوه (وقد نستطيع استنتاج ما حدث إذا كانت له آثار باقية).

ولكن هناك أموراً لا يستطيع البشر إدراكها وهي أمور الغيب من جنة ونار وملائكة فلا بد أن يعتمدوا في معرفتها على الأخبار الإلهية.

مناهج الحصول على المعلومات:

وإذا كانت المعلومات مختلفة فإن مناهج الحصول عليها والأدلة والبراهيم الدالة عليها تختلف باختلافها.

❖ فإذا كان الشيء مما يمكن أن نحسه فالطريق إلى معرفته هو الحس المباشر والدليل الوحيد الذي نقبله على صدقة هو هذا الحس مثلاً إذا قال لنا إنسان أن بالمكان الفلاني شجرة غريبة ساقها أسود وأوراقها حمراء وثمارها زرقاء، فلما ذهبنا إلى المكان الذي وصفه لم نجد شجرة بالوصف الذي ذكر، ولما سألنا عن دليله على وجودها قال إنه رآها في المنام، إننا لن نقبل مثل هذا الكلام دليلاً عليه ينبغي أن يكون المشاهدة المباشرة.

❖ وإذا كان الشيء مما يمكن أن يستنتج نظرنا في طريقة الاستنتاج فإن كانت صحيحة قبلنا النتيجة و اعتبرناها علماً وإلا لم نقبلها.

❖ وأما إذا كان الشيء مما تعتمد معرفتنا له على إخبار غيرنا فالمنهج الصحيح أن نتثبت من نوع الخبر والمخبرين ومن معقولية الخبر.

العلوم التجريبية:

العلوم التجريبية علوم بشرية وسميت تجريبية؛ لأن الطريق الأساسي لحصولنا عليها هو التجربة الحسية، وإن كان كثير منها يأتينا عن طريق الاستنتاج العقلي مما عرفناه بالتجربة والعلوم التجريبية كثيرة لكن أساسها علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء وسائرها بمثابة الفروع لهذه العلوم الأساسية:

وكل علم من العلوم التجريبية – يشمل ثلاثة أشياء:

(أ) حقائق عينية عرفناها بالمشاهدة أو بالاستنتاج اليقيني كالقول بأن الأرض كروية، وأن القمر لا يصلح للحياة التي ألفناها وأن الشمس غاز ملتهب، وأن الأسماك تتنفس داخل الماء، كل حقيقة بهذه المثابة دل عليها الحس المباشر، أو البرهان القاطع، فلا يمكن أن تخالف نصاً قرآنياً أو حديثاً صحيحاً، وإذا توهمنا الخلاف فإنما يكون ذلك بسبب سوء فهمنا للنص وعدم مخالفة أي من هذه الحقائق التي اكتشفها العلم لأي نص قرآني أو حديث صحيح، بل موافقة كثير منها لما قررته نصوص الكتاب العزيز هو من دلائل إعجاز القرآن الكريم، وأنه كتاب من عند الله تعالى وكذلك السنة المطهرة، ذلك لأن هذا الأمر لا يصدق على أي كتاب غيره سواء في ذلك الكتب التي زعم أصحابها أنها كتب مقدسة كالتوراة والإنجيل التي بين أيدي اليهود والنصارى اليوم أو كتب من تأليف البشر.

إن الحقائق التي تكتشفها لنا العلوم التجريبية تتضاعف كل مدة من الزمان، ولذلك فما من إنسان كتب كتاباً في أي علم من العلوم البشرية مضى عليه مائة عام إلا وأظهرت التقدم العلمي بعد ذلك أن بعض ما قرره مؤلفه فيه لم يكن صحيحاً. لكن القرآن الكريم مضى على نزوله أربعة عشر قرناً وتعرض لشتى أنواع العلوم وقد تطور العلم التجريبي منذ نزول القرآن حتى الآن مئات المرات ومع ذلك فلم يكتشف العلماء حقيقة واحدة تعارضه، وتعجبوا كيف قرر القرآن هذه الحقائق في ذلك الوقت والناس لم يعرفوها إلا في هذا العصر، وفي ذلك يقول الطبيب الفرنسي موريس بوكاي راداً على من زعموا أن القرآن من تأليف محمد ﷺ "كيف يستطيع أي الرسول ﷺ إعلان حقائق علمية ما كان بإمكان إنسان غيره أن يكتشفها في ذلك الوقت ويفعل ذلك من غير أن يخطئ أدنى خطأ، ثم يقول عن دراساته العلمية للقرآن الكريم: «أن النتيجة التي تؤدي إليها هي أنه لا يعقل أن يستطيع بشر يعيش في القرن السابع الميلادي تقرير حقائق في القرآن في موضوعات شتى لا تمت بصلة إلى عصره، وتكون مع ذلك موافقة لما لم يُعلم إلا بعد قرون متأخرة، الذي أراه أن القرآن لا يمكن أن يفسر بأنه من صنع البشر»[1].

---

(١) موريس بوكاي عن الترجمة الإنجليزية لكتابه الكتاب المقدس والقرآن والعلم.

(ب) قوانين طبيعية: وهي القوانين التي تحكم سير الكون الطبيعي، فالله سبحانه وتعالى له نوعان من السنة والأوامر النوع الأول ما نسميه بالأوامر أو السنن الشرعية وهي التي يأمرنا الله تعالى بفعلها ويترك للناس الحرية إن شاءوا ونفذوا أمره ونالوا ثوابه وإن شاءوا عصوا فعوقبوا على ذلك، وذلك كالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتطبيق الحدود الشرعية:

أما أوامر الله تعالى الكونية فهي أمره للشيء بأن يكون، وإذا أمر الله شيئاً بأن يكون كان ولا خيار له في ذلك ولا رأي. قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فكل شيء يحدث في هذا الكون يحدث بإرادة الله وقدرته وأمره ولكن الله تعالى جعل لحوادث الكون طرقاً مطردة تحصل بها والمقصود باطرادها أن الأشياء المتماثلة تكون لها نتائج متماثلة، فإذا حدث شيء في حال معين ثم تكرر ذلك الحال حدث شيء مماثل لما حدث في الحال الأول. مثلا إذا وضعت ماء في إناء ثم وضعته على النار فغلى الماء بعد خمس دقائق ثم كررت هذه التجربة بعد يومين أو عامين فوضعت المقدار نفسه من الماء في إناء مماثل للإناء الأول وعلى نار مماثلة للأولى وفي ظروف مماثلة فإن هذا الماء سيغلي بعد خمس دقائق كما فعل الأول، فمن أهم ما يسعى العلماء التجريبيون لاكتشافه معرفة السنين الكونية الأساسية التي تحتم سير الأشياء المادية من هذه القوانين أو السنن، فمثلا القانون الذي يسمى قانون الجاذبية، والجاذبية قوة جذب تكون بين الأشياء المادية تزداد قوتها بزيادة الكثافة العادية للشيء وبزيادة قربه من الشيء الآخر.

هل فكرت يوماً في ظاهرة سقوط الأشياء على الأرض بدلاً من ارتفاعها إلى السماء؟ أعني هل سألت نفسك يوماً ما لماذا لا تظل الكرة تصعد إلى فوق إذا ضربها اللاعب إلى أعلى بدلاً من أن تعود إلى الأرض؟ لماذا يقع الكوب على الأرض إذا فلت من يدك بدلا من أن يصعد إلى السماء أو يظل معلقاً في الهواء؟

السبب في ذلك أن هناك قوة تجاذب بين هذه الأشياء وبين الأرض، ولكن بما أن كتلة الأرض أكبر من كتلة هذه الأشياء فإنها تجذبها إليها كما أنه إذا أخذ رجل قوي طرف حبل وأخذ طفل ضعيف طرفه الآخر وحاول كل منهما أن يجذب الآخر فإن الرجل سيجذب الطفل إليه؛ لأن قوة جذبه أكبر من جذب الطفل.

بقانون الجاذبية هذا نستطيع أن نفسر ظواهر كونية كثيرة غير سقوط الأشياء على الأرض، فيه نفسر مثلاً دوران القمر حول الأرض ودوران الكواكب حول الشمس.

وجود هذه القوانين أو السنن الإلهية يدل على وحدانية الخالق وحكمته وعظيم قدرته وإتقانه، ولذلك فإن دراسة العلوم إذا أحسن الإنسان الاستفادة منها تكون دراسة في التوحيد وطريقاً لمعرفة صفات الله تعالى، ولذلك أرشدنا الله تعالى إلى التأمل في مخلوقاته والاعتبار بها؛ لأن وجودها آية على وجوده وتصرفاتها وحركاتها شواهد على صفاته ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

نظريات علمية:

النظرية رأي يراه عالم أو فكرة تخطر بباله يحاول أن يفسر بها الحقائق الغيبية أو القوانين الطبيعية، والفرق بين الحقائق العينية والقوانين الطبيعية من ناحية وبين النظريات من ناحية أخرى أن الأولى شيء موجود في الواقع، وأما النظرية فهي شيء يخترعه العالم نفسه ليفسر به هذه الحقائق الواقعية.

فالنظريات إذن ليست حقائق ولكن هذا لا يعني أنه لا فائدة فيها، بل هي مفيدة كما قلنا في تفسير الظواهر الكونية، وربما ساعدتنا على اكتشاف حقائق جديدة، لكن النظريات كلما أفلحت في تأكيد الحقائق المراد تفسيرها كانت أقرب إلى الصواب، بل إن صحتها قد تثبت بالتجربة والمشاهد، فلا تكون عندئذ نظرية بل تصبح قانوناً، وكلما ازداد عدد الحقائق التي تعجز عن تفسيرها كلما كانت النظرية أبعد عن الصواب، وربما ثبت بطلانها باكتشاف حقائق مناقضة لها.

لقد أخطأ كثير من الناس إذ خلطوا بين النظريات العلمية والحقائق العلمية فاحذر من هذا الخلط، سيما في حديثك عن علاقة العلم التجريبي بالدين الإسلامي، إن حقائق العلم التجريبي كما أوضحنا لا يمكن أن تصادم حقائق الدين بل إنها تخدمها وتجاريها؛ لأن منزل الدين هو خالق الكون، ولذلك فإن من المفيد أن تعتبر أحدهما بالأخرى، أما النظريات فقد تكون باطلة وتكون لذلك مخالفة لما قرره الشرع، وقد تكون ظنية الثبوت فينبغي أن لا نتسرع في التماس التأييد لها من نصوص الكتاب

والسنة، وقد وضع شيخ الإسلام ابن تيمية قاعدة جليلة في العلاقة بين نصوص الشرع ونتائج العقل، أو بين الأدلة السمعية والأدلة العقلية فقال: «إذا قيل تعارض دليلان، سواء كانا سمعيين أو عقليين أو أحدهما سمعياً والآخر عقلياً، فالواجب أن يقال لا يخلو إما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين، وإما أن يكون أحدهما قطعيًا والآخر ظنيًا، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء كانا عقليين أو سمعيين، أو كان أحدهما عقليًّا والآخر سمعيًّا»، وهذا متفق عليه بين العقلاء، ثم قال: «وإن كان أحد الدليلين المتعارضين قطعيًّا دون الآخر فإنه يجب تقديمه باتفاق العقلاء، سواء كان هو السمعي أو العقلي فإن الظن لا يرفع اليقين، وأما إن كانا جميعاً ظنيين فإنه يصار إلى طلب ترجيح أحدهما، فأيهما ترجح كان هو المقدم سواء كان سمعيًّا أو عقليًّا».

نستفيد من هذا الكلام النفيس عدة أمور منها:

(أ) أن الحقائق الدينية القاطعة لا تختلف فيما بينها.

(ب) أن الحقائق العلمية القاطعة لا تختلف فيما بينها.

(جـ) أن الحقائق الدينية القاطعة لا تخالف الحقائق العلمية القاطعة.

(د) أنه قد يحدث خلاف بين مسألة دينية ظنية وحقيقة علمية قاطعة، ففي هذه الحالة نقدم الحقيقة العلمية ونشرح بها المسألة الدينية.

(هـ) أنه قد يحدث خلاف بين مسألتين ظنية وحقيقة دينية قاطعة، ففي هذه الحالة نقدم الحقيقة الدينية.

(و) أنه قد يحدث خلاف بين مسألة علمية ظنية ومسألة دينية، ففي هذه الحالة نقدم ما كان من المسألتين أرجح.

العلوم التجريبية:

ليس للعلوم التجريبية - كما يظن كثير من الناس - منهج واحد متميز يمكن تطبيقه على كل المجالات التي تبحث فيها؛ لأن هذه المجالات مختلفة فمنها ما يشاهد بالحواس مباشرة ومنها ما يشاهد بوساطة الآلات ومنها ما لا يمكن مشاهدته ولكن يستدل على وجوده وصفاته بآثاره، ولكل من هذه المجالات طريقة تناسبها أما الأشياء المشاهدة مباشرة أو بواسطة فنوعان إن أردت أن أعرف أثر الحرارة على قطعة من

الحديد أو أثر التبريد على الماء فبإمكاني أن أسخن قطعة من الحديد أو أبرد قدراً من الماء ثم انظر ماذا يحدث وبإمكاني أن أعيد هذه التجربة مرات كلما دعا الأمر لذلك.

لكن إذا أردت أن أعرف كيف يحدث الكسوف أو الخسوف فكل ما أستطيع فعله هو مشاهدة هذه الظواهر عند حدوثها؛ لأنني لا أستطيع أن أحدث كسوفاً أو خسوفاً.

ومما يميز العلوم التجريبية في هذه المجالات أمران متداخلان:

أولهما: أن العالم بها لا يكتفي بالتقدير العام للأشياء المعتمدة على الحواس الإنسانية العادية، بل يحاول أن يصف الأشياء وصفاً رياضاً دقيقاً فأنت وكل إنسان يستطيع أن يفرق بين الماء البارد والماء الحار، ولكن العالم يريد أن يعرف الفروق الدقيقة بين درجات الحرارة أو البرودة، وقل مثل ذلك عن سائر المقيسات والموزونات وعن النسب بين الأشياء. لذلك يقولون إن الرياضيات هي لغة العلوم، وقد ظل علم الرياضيات يتطور مع تطور هذه العلوم التجريبية.

ثانيهما: أن العالم يحاول دائماً استعمال الآلات الدقيقة ليستعين بها على قياس أو وزن ما لا تقيسه الحواس البشرية، ولمشاهدة ما لا تشاهده هذه الحواس، بل ولإجراء كثيراً من العمليات، وأداء كثير من الأعمال التي يصعب أداؤها بالأعضاء البشرية، أما الأشياء التي يستدل عليها بآثارها فإن العالم التجريبي يحاول أن يكون استدلاله دقيقاً ومضبوطاً، ولذلك فإنه يلجأ هنا أيضا إلى الآلات وإلى لغة الرياضيات.

خطوات المنهج:

الخطوة الأولى: في العلم التجريبي هي تحديد السؤال أو الشكل تحديداً دقيقاً.

الخطوة الثانية: هي مشاهدة الواقع الخاص بالمشكلة التي يراد حلها أو إجراء التجارب إن أمكن إجراؤها.

الخطوة الثالثة: هي وصف نتائج التجربة والمشاهدة وصفاً دقيقاً.

الخطوة الرابعة: محاولة تفسير هذه النتيجة.

إما في ضوء القوانين والنظريات العلمية التجريبية وهو الغالب.

* * * * *

ثالثاً: كتب ودراسات

مناهج التفكير الموصلة للحقائق الشرعية والكونية

وهذا الكتاب قام بإصداره مركز البيان وهو عبارة عن مجموع مقالات في مجلة البيان وموضوعات أخرى سبق أن نشر بعضها في مجلات عربية وإسلامية، وقد قسمت هذه المقالات والموضوعات في الكتاب إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي:

ويحوي الموضوعات التالية:

١- الأجوبة الإسلامية عن الأسئلة الفلسفية

وهي في الأصل مقالة نشرت في صحيفة منار السبيل العدد ٨ رمضان ١٤١٤الموافق فبراير – مارس ١٩٩٣م.

تحدث الشيخ في هذه المقالة عن بعض الأسئلة الفلسفية والأجوبة الإسلامية عليها، من هذه الأسئلة: أسئلة حول نظرية المعرفة ما تعريف العلم؟ هل العلم ممكن؟ هل هنالك علم سابق للميلاد؟ أم أن المولود يلد صفحة بيضاء؟ كيف نعلم؟ ثم أجاب الشيخ علن هذه الأسئلة من منظور إسلامي.

٢- مقدمة عن المنهج العلمي والمناهج المخالفة

تحدث الشيخ في هذه المقدمة عن معنى المنهج العلمي، وتطرق إلى الشبهات في فهم النصوص، وانتقد أصحاب المنهج الذاتي الذين يرتبون نتائج خاطئة عند قولهم بأن النصوص هي كلام الله والفهم فهم البشر، كما يرد على المنهج النسبي، وذلك أن ثقافة الناس هي التي تحكم فهمهم للنصوص فبالتالي يكون فهمنا للنصوص الشرعية مختلفاً بالنسبة عن فهم السلف، ثم ناقش هذه النسبية الخرافية، وأخيراً ختم المقالة بضرورة الالتزام بالمنهج العلمي المرتكز على القواعد الموضوعية التي تكون هي المعايير التي يميز بها بين صحيح الفهم وسقيمه.

٣- النسبية

وهي مقالة نشرت في مجلة البيان العدد١٦٠ ذو الحجة ١٤٢١ مارس ٢٠٠١م وقد أشرنا إليها في قسم المقالات.

المنهج العلمي الموصل إلى حقائق الدين الإسلامي

وهذه محاضرة ألقاها الشيخ في روسيا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي.

وتحدث فيها عن مصادر الدين الإسلامي وما المنهج المؤدي إلى معرفتها كما أشار الشيخ إلى شبهة دعاة التقليد والرد عليها، وتحدث عن الخلاف وما كان سببه قلة العلم أو الخلاف الذي كان سببه الهوى، كما تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن منهج اكتشاف حقائق الدين الإسلامية وعناصر المنهج العلمي لإدراك حقائق الدين الإسلامية.

ثم تحدث عن اللغة وأنها أساس للعلوم الشرعية النقلية وكذلك العقل وأنه شرط في فهم كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ثم تحدث عن مصادر التشريع وهي القرآن والسنة والإجماع وأقوال الصحابة والقياس، ثم تحدث عن الكون كمصدر من مصادر المعرفة ومعرفة الأحكام الشرعية، ثم ختم المحاضرة عن الاستعداد الروحي وأثره في اكتساب العلم.

القسم الثاني: الفطرة ومعايير العقلاء:

ويحوي الموضوعات التالية:

١-التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية

وهو بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي، مكة المكرمة ١٢ربيع الثاني ١٣٩٧هـ الموافق ٢ أبريل ١٩٧٧ وقد نشر في مجلة المسلم المعاصر العدد ١٢ وفي هذا البحث تحدث الشيخ عن ثلاث نظريات في طبيعة الإنسان وهي:

(أ) نظرية الحياد.

(ب) ونظرية أصالة الشر.

(جـ) ونظرية أصالة الخير.

ثم ناقش هذه النظريات، ثم تحدث عن الفطرة في القرآن والسنة وفي السنة كما تحدث عن الخير الذي فطر عليه الإنسان، وناقش أن الإنسان مادام مفطوراً على الخير فلماذا يفعل الشر ثم ختم بحثه عن فلسفة التربية الإسلامية.

٢-مفهوم العقل

وهي مقالة نشرت في مجلة البيان العدد ١٥٨ شوال ١٤٢١يناير ٢٠٠١م وقد أشرنا إليها في قسم المقالات.

٣-معايير العقلاء

وهي خمس مقالات نشرت في مجلة البيان في الأعداد ٢١٦ شعبان ١٤٢٦الموافق سبتمبر ٢٠٠٥م، ٢١٧رمضان ١٤٢٦ الموافق أكتوبر ٢٠٠٥م، ٢١٨شوال الموافق نوفمبر ٢٠٠٥م، ٢١٩ذو القعدة ١٤٢٦الموافق ديسمبر ٢٠٠٥م، ٢٢٠ذو الحجة ١٤٢٦الموافق يناير ٢٠٠٦م تحدث في المقال الأول من المعايير عن القوانين المنطقية، وفي الثاني عن شهادة الحس، وفي الثالث عن السنن الكونية، وفي الرابع عن النفع والضر، وفي الأخير عن القيم الخلقية.

القسم الثالث: -نظرية المعرفة واسلامية العلوم:

ويحوي الموضوعات التالية:

١-مشكلة الموضوعية في العلوم

وهي محاضرة بعنوان مناهج العلوم الإنسانية ومشكلاتها ألقاها الدكتور في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في ٢٥ رجب ١٤٠٧الموافق ٢٥مارس ١٩٨٧م تحدث فيها الشيخ عن الموضوعية، وهل هي منهج علمي متفق عليه أم أن ذلك دعوى ليست صحيحة.

ثم تحدث عن الأطر لمناهج البحث، وتحدث عن خصائص الإطار العام الذي يشيع عند الغربيين وعندنا تبع لهم، ثم تحدث عن الأطر الخاصة، ثم ختم بحثه بماذا يكون موقفنا؟ وما الذي نريده؟

٢-إسلامية العلوم وموضعيتها

وهو بحث نشر في مجلة المسلم المعاصر العدد ٥٠ ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الآخرة ١٤٠٨الموافق ديسمبر ١٩٨٧م يناير، فبراير ١٩٨٨م.

وتحدث الشيخ في هذا البحث عن قضية المنهج العلمي، وأنه قد بت فيه وأن هذه القضية لم تعد تحتاج إلى نظر جديد، وناقش الشيخ هذه الدعوى وأجاب عنها.

ثم تكلم عن أطر العلم الأيدلوجية، وما هو الإطار الفلسفي العام الشائع في عصرنا الآن والذي يعمل في داخله علماء الطبيعة والإنسان.

ثم ختم الشيخ بحثه بالحديث عن مسوغات إسلامية العلوم، وأن هذا يؤدي إلى تأكيد الموضوعية وليس التخلي عنها.

٣- قضايا في فلسفة العلوم بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي:

وهي محاضرة نظمتها الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض.

تحدث الشيخ في هذه المحاضرة عن مجالات الفلسفة العلمية، وذكر أن هناك مجالين؛ المجال المعرفي والمجال الميتافيزيقي.

ثم تحدث الشيخ عن وحدة العقل البشري، وكذلك مجالات مباحث فلسفة العلوم أو أصول العلوم، كما تحدث عن إسلامية العلوم، ومفهوم السببية وفاعلية الأسباب، وهل الأسباب متعددة؟

ثم ختم بحثه بذكر قضايا متشابهة في الفلسفة الغربية الحديثة لآراء أهل السنة أقرب منها آراء الفلاسفة.

القسم الرابع: علوم الدين والعلوم التجريبية:

ويحوي الموضوعات التالية:

١- علاقة العلم بالدين

وهي مقالة نشرت في مجلة البيان العدد ٢٣٨جمادى الآخرة ١٤٢٨يوليو٢٠٠٧م وقد أشرنا إليها في قسم المقالات.

٢- حقائق العلوم التجريبية. حقائق شرعية

وهي مقالة نشرت في مجلة البيان العدد ١٤٩ محرم ١٤٢١ أبريل ٢٠٠٠م

٣- علوم الدين والعلوم التجريبية

وهي محاضرة ألقاها الدكتور بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

وقد بدأ الحديث عن العلاقة بين العلوم التجريبية والحسية والعقلية من ناحية، والدين من ناحية أخرى، والرد على شبهة من قالوا إننا بالعلم التجريبي نجحنا نجاحاً باهراً من غير الحاجة والاعتماد على الوحي.

ثم ذكر حفظه كيفية حدوث هذا الانحراف عند الإنسان، وما هو الخطأ الذي وقع فيه الغربيون ومن شايعهم ممن تأثر بهم؟

ثم ذكر أمثلة على ذلك، ثم ختم محاضرته بماذا نقول لهم؟ وكيف نصل إلى وجود الخالق، وأخيراً ذكر الشيخ ميزة الإسلام على غيره من الأديان في مواجهة الملحدين والماديين.

* * * * *


موضوعات متنوعة

أولاً: المقالات

الصحفيون وتحريف الكلام

جريدة المسلمون السعودية العدد ٤٤٣

يُطلب منك أن تُلقي كلمة أو محاضرة أو تعد بحثاً، فتجلس تفكر في عناصر موضوعك، وفي كيفية ترتيبها، وفي أسلوب كتابتها، وفي المراجع المُعينة عليها. فتنظر في كتاب بعد كتاب.

وتتأمل ما فيها، ثم تجلس لتعاين كتابة موضوعك؛ فتنتقي له الألفاظ والعبارات التي تراها مناسبة، ثم تنظر فيما كتبت، فتضيف كلمة أو جملة هنا، وتحذف كلمة أو جملة من هنالك، وتستبدل بهذه الكلمة أخرى غيرها، وتنقل هذه الفقرة إلى مكان غير مكانها الحالي. ثم تريد أن تتأكد من صواب ما كتبت فتدفع به إلى بعض الأصدقاء لمراجعته، حتى إذا غلب على ظنك أن ما أعددته هو أقرب ما استطعت إلى الصواب شكلاً ومحتوىً، توكلت على الله فنشرت ما كتبت أو قرأته حيث دعيت لقراءته. ثم تقرأ في إحدى الصحف العربية ما نُسب إليك من كلام زعم أنه تلخيص لما ذكرت، فتكاد تُصعق.

الأفكار ليست أفكارك، والكلام ليس كلامك، والأسلوب ليس أسلوبك. وتجلس حزيناً أسفاً أن مئات الناس سيقرؤون هذا الكلام المنشور فينسبون إليك أفكاراً تنكرها، وأسلوباً تستهجنه، وكلاماً لا تشك في بطلانه. فماذا تفعل؟ عبثاً تحاول أن تصلح الصحيفة ما أفسدت، لأن سمعتها أهم عندها من سمعتك، وثقة قرائها بها أهم عندها من ثقة الناس بك.

ألقيت مرة كلمة عن التعليم في مؤتمر علمي بموسكو، ثم أُنبئت بعد مدى أن إحدى صحفنا العربية حولت ما قلت إلى كلام سياسي في نقد حكومة ومهاجمة وزير بعينه، وهو رجل بيني وبينه نوع من الود، جاءني شقيقه يبلغني عتبه علي، فأكدت له أن ما كان يُنشر إنما هو محض افتراء، وأنني حاولت أن أكذبه فلم أفلح.

وألقيت محاضرة باللغة الإنجليزية عن دعوة الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب استغرق مني إعدادها أسابيع، ثم ألقيتها على جماعة من الأمريكان من غير المسلمين،

وخرجت مسروراً لما وجدت من شدة إصغائهم، وجودة أسئلتهم، وما بدا من حرصهم على معرفة حقائق الإسلام. وبعد مدة من إلقاء المحاضرة التي كانت مكتوبة، جاءتني منشورة في إحدى الإصدارات وعليها اسمي، ولكن ما بدأت ألقي عليها نظرة حتى تحول السرور إلى غضبٍ شديد، وأسى عميق.

لقد عبث بالمقال عابث جاهل فأضاف إليه أشياء منكرة، وحذف منه أشياء مهمة، ووضع بعض فقراته في غير موضعها. وبينما كنت مشغولاً بكتابة خطاب إلى الجهة المسؤولة عن ذلك الإصدار، إذا بي أفاجأ بفاجعة أخرى، أرسل لي أحد الأصدقاء قصاصة من جريدة عربية فيها كلام زعم كاتبه أنه تلخيص للبحث الذي قدمته، فإذا هو كلام من اختراع كاتبه لا علاقة له بموضوع المحاضرة، وإذا هو من نوع الكلام الذي يمكن أن يكتبه الإنسان من غير بحث ولا جهد ولا عناء، وإذا به يتضمن عبارات لا يجوز لمؤمن أن يتفوه بها.

لكن الكاتب بعد كل هذا الافتراء كان كريماً معي، فزعم أنني أعمل في جامعتين اثنتين في وقت واحد، ونسبني إلى قسم علمي في هاتين الجامعتين، وهو قسم لا وجود له في أية جامعة من جامعات البلد الذي ذكره، ولا أظن أن له وجود في أي بلد عربي، بل ولا غير عربي. لست أدري لماذا يستهين كثير من الصحفيين العرب هكذا بقضايا الفكر؟ أهو شيء يُدربون عليه؟ أهو مرض خاص بهم، أم هو بلوى عامة في صحافة العالم كله؟ وما الحكمة فيه؟ ماذا يستفيد الصحفي أو تستفيد الصحيفة من نسبتها لإنسان كلاماً لم يقله حسناً كان أو سيئاً؟ ألا يعلم هؤلاء الصحفيون أن بعض الناس يحنو على إنتاجه الفكري حنوه على إنتاجه العضوي، فيؤلمه أن يشوه ويؤلمه أن يجعله بعض الناس سبباً في الإضرار به، والله تعالى يقول: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، كما يسوؤهم أن يُنسب إليهم ما لم ينتجوا حسنا كان ما نُسب أم سيئاً، فالله تعالى يقول: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

لكن الشكوى إلى الله.

* * *

بهدوء عن الدستور

جريدة الوفاق صفحة. الاربعاء ١٧محرم ١٤١٩هـ الموافق ١٣مايو ١٩٩٨م

الدين النصيحة كما علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم فهذه نصيحة لولاة الأمر أولاً ثم لبقية إخواننا المواطنين الذين يستفتون الآن في الدستور، إن هذا الدستور ليس من الإسلامية في شيء.

هل أقول هذا لأنني مثالي يتغافل عن الواقع ولا يضع اعتباراً للظروف؟ كلا، فإنني أعلم أن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأنه أمرنا أن نتقيه سبحانه ما استطعنا. لكنني أعلم كذلك أنه أمرنا بالاستمساك بالدين كله من حيث الاعتقاد، وحذرنا من تحريفه وتبديله ففرق بين أن يقول الإنسان هذا دين الله، لكنني لا أستطيع في هذا الظرف الذي أنا فيه أن أعمل به كله، فسأعمل لذلك بكذا وكذا مما أستطيع العمل به منه. فرْقٌ بين هذا وبين أن يُغير الدين ويبدله ليناسب أهواءه الطارئة، ثم يقول للناس هذا دين الله، فاقبلوه واعملوا به ودافعوا عنه.. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. ثم إنني أعلم أن المشكلة الكبرى التي تجعل من العسير على الدولة الالتزام بأحكام الإسلام كاملة هي وجود عدد كبير من غير المسلمين في جزء مهم من أجزاء البلاد، لكن بدلاً من أن يعترف كاتبوا الدستور بهذه المشكلة ويجتهدوا في إيجاد حل دستوري أصيل لها يكون مرضياً للمسلمين وغير المسلمين تغافلوا عنها فوقعوا في تناقض شديد، فهم يفترضون تارة أن الناس جميعاً مسلمون، فيضعون مادة يرضى عنها المسلمون، ثم يتذكرون غير المسلمين فيضعون مادة أخرى يعتقدون أنها ترضيهم وهم واضعون إلى جانب ذلك اعتباراً كبيراً لِعين الغرب التي تراقبهم لترضى عن الدستور بقدر قربه من أهواء حضارتها، أو تسخط عليه بقدر بعده عنها. ففي الدستور مواد لا مسوغ لوجودها إلا هذا، أعني أنها لم تكتب إرضاءً للمسلمين أوغير المسلمين من السودانيين، وإنما كتبت إرضاءً للغربيين وللمؤمنين بقيمهم من بعض المسلمين. أكتب إذن لأقول ما هذا بالدستور الذي يرضى

عنه المسلم، لا لأقول أكرهوا إخواننا في الجنوب على الخضوع لأحكام الإسلام، فأنا مؤمن بأنه بإمكاننا أن نضع دستوراً يحفظ للأغلبية المسلمة حقها في أن تحكم بتعاليم دينها ما استطاعت من غير تحريف ولا تبديل، ويمنح الأقلية غير المسلمة في الجنوب فرصة لأن يكون حكمها وفق أعرافها. وقد تكلمت عن ذلك في مناسبات سابقة بعد صدور نص الاتفاقية وقبل ظهور مشروع الدستور اقترحت في أن أقدم فيه اقتراحاً وصفته بأنه محض رأي قابل للأخذ والرد والتعديل والتقويم، أعيد نشره في بداية هذا المقال بعد أن أجريت عليه تعديلات اقتضاها مشروع الدستور.

اقتراح دستوري لحل قضية العلاقة بين الدين والدولة في السودان:

القضية التي يسعى هذا الاقتراح لحلها هي أن المسلمين يريدون دستوراً لا يفرض عليهم علمانية تجبرهم على التخلي عن جزء من دينهم بينما يريد غير المسلمين دستوراً لا يفرض عليهم أحكام دين لا يؤمنون به.

فكيف نحل هذا الإشكال؟:

التصور الشائع الذي أقره هذا الدستور يقضي بأن يكون هنالك مجلس تشريعي واحد يجمع المسلمين وغير المسلمين ونظام قضائي واحد يختار القضاة فيه باعتبارهم مواطنين وبغض النظر عن دينهم، وأن تكون الشريعة الإسلامية وما أسماه الدستور بإجماع الأمة استفتاءً ودستوراً وعرفاً هما مصدرا التشريع.

يَرِد على هذا التصور ما يلي:

أولاً: إذا اشترطنا العرف أن يكون عرفاً موافقاً للشريعة فلا نكون قد حللنا الإشكال، لأن العرف الموافق للشريعة هو جزء منها ذكرناه أم لم نذكره. فنكون كأننا فرضنا على غير المسلمين أحكام دين لا يؤمنون به.

ثانياً: وإذا اشترطنا كما يبدو من ظاهر نص المادة أن يكون عرفاً ارتضته أغلبية الشعب من مسلمين وغير مسلمين فما أظن أن هنالك عرفاً كهذا. وإن وجد فلن يحل الإشكال.

ثالثاً: وأما إذا قلنا إنه العرف الذي يرتضيه غير المسلمين فسيكون لا محالة متناقضاً مع الشريعة. فكيف يكون لنظام قانوني واحد مصدران متناقضان؟

قد يُقال إن حل الإشكال هو أن تكون الشريعة هي المصدر الأول للقوانين المتعلقة بالمسلمين ويكون العرف هو المصدر الأول للقوانين المتعلقة بغير المسلمين.

هذه بلا شك خطوة أحسن نحو الحل، وهو الذي فهمه معظم الذين يدافعون عن الدستور من غير أن يتمعنوا في نصوصه أو يأخذوها مأخذ الجد ليكتشفوا أنه ليس فيها هذا الذي يظنون. ولكن حتى لو صرح الدستور بما قالوا فسيَرِد عليه.

رابعاً: أنه ما دام المجلس واحداً فسيكون من حق المسلمين أن يشاركوا غير المسلمين في مناقشة القوانين المستندة إلى أعرافهم وفي التصويت على إجازتها. والحق نفسه سيكون لغير المسلمين بالنسبة للقوانين الإسلامية، وكلا الأمرين غير مُرضٍ من وجهة النظر الإسلامية كما أن أولهما قد لا يكون مرضياً من وجهة نظر أصحاب الأعراف.

خامساً: أما عدم اعتبار الدين في اختيار القضاة فسينتج عنه أن يحكم قاضٍ غير مسلم بين خصمين مسلمين بقوانين إسلامية! أو يحكم قاضٍ مسلم بين خصمين غير مسلمين بقوانين عرفية لا تقرها الشريعة الإسلامية. هذا مع أنه لا يجوز لمسلم أن يحتكم -في الظروف العادية- إلى قاضٍ غير مسلم، كما لا يجوز للقاضي المسلم أن يحكم بغير ما أنزل الله وإن كان الخصمان غير مسلمين. هذه مسألة فصل فيها الله عز وجل بقوله مخاطباً رسوله ﷺ والمسلمين من ورائه ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾: يعني غير المسلمين ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، والقسط إنما هو الحكم بما أنزل الله، وهل يحب ربنا سبحانه من لا يحكم بما أنزل؟ وهو الذي يقول ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ما الحل إذن؟

الذي أراه وأعرضه للمناقشة والنقد والتقويم.

أن ينص الدستور على أن السودان يتكون من ولايات إسلامية وولايات غير إسلامية (أو عُرفية أو غير ذلك لكن لا أرى أن يُقال جنوبية).

كل ولاية تكون غالبيتها من المسلمين فهي ولاية إسلامية، وكل ولاية تكون غالبيتها من غير المسلمين فهي مُخيرة بين أن تكون إسلامية أو غير إسلامية.

وعليه تكون للبلاد ثلاثة مجالس تشريعية، مجلس للولايات الإسلامية، وآخر للولايات غير الإسلامية، وثالث اتحادي يتكون من المجلسين بنسبة الولايات التي يُمثلانها.

ينص الدستور على أن القرآن والسنة هما المصدران الأساسيان للتشريع في الولايات الإسلامية، وأن الأعراف (أو ما شاء أن يختار أصحابها) هي مصادر التشريع في الولايات غير الإسلامية، ولا يحدد للقوانين الفدرالية مصادر معينة لكن يشترط فيها بالطبع أن لا تكون مخالفة للمبادئ العامة التي حددها الدستور باتفاق الطرفين.

تسري قوانين كل مجلس على كل المواطنين الموجودين في الولايات التابعة له بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية. لكن يستثنى من ذلك قوانين الأحوال الشخصية حيث تكون لها محاكم خاصة يتولى فيها قضاة ينتمون إلى الدين أو العرف الذي ينتمي إليه صاحب القضية. ويكون حكمهم بحسب قوانين المجلس التشريعي المناسب (أعني أن المسلمين يحكمون في الأحوال الشخصية بقوانين مجلس الولايات الإسلامية وإن كانوا موجودين في ولايات غير إسلامية، وكذلك الأمر بالنسبة لغير المسلمين في الولايات الإسلامية).

وعلى ذلك فإن الدستور العام يكون بمثابة وثيقة اتفاق وصلح وتعاون بين المسلمين وغير المسلمين باعتبارهم مواطنين في دولة واحدة، يريد كل فريق فيها أن ينظم حياته وفق معتقداته.

الأدلة على أن الدستور ليس إسلامياً:

أعود لقولي إن هذا الدستور الذي يعرض علينا ليس بالدستور الذي يرضى عنه المسلم، وعندي على ذلك أدلة سأذكرها، لكنني لا أريد أن أكتفي بمجرد النقد، بل سأقدم في آخر المقال اقتراحات لتعديل الدستور حتى يكون إسلامياً. أكرر أنني أعني بالدستور الذي أريده أن يكون إسلامياً صرفاً الدستور المناسب لحكم الولايات الإسلامية لا الدستور العام الذي أرى أن يكون بمثابة الصلح بين المواطنين في جُزأي البلاد كما قدمت.

إن من أدل الأدلة على تناقض هذا الدستور وعدم وضوح هويته، تناقض أقوال كبار المسؤولين المدافعين عنه في وصفهم له. فبينما يصفه بعضهم بالإسلامية مستدلاً بنصه

على حاكمية الله وعلى جعل الشريعة الإسلامية مصدراً تشريعياً، يقول عنه رئيس المجلس الذي أجازه والذي هو من أكثر المادحين له، يقول في مقابلة مع جريدة الشاهد الدولي اللندنية السودانية "إن الدستور أرسى دعائم الوحدة الوطنية بالتأكيد على سلطة الدين وليس الإسلام فحسب" -العدد ٢٣ بتاريخ ٤ أبريل ١٩٩٨- وهو ذا نائبه يرد بنفي الإسلامية عن الدستور رداً على الذين اتهموه بها من المفاوضين الجنوبيين، لست أدري ماذا سيقول له الذين غلوا وازبدوا عندما ذكرنا وذكر غيرنا لهم هذه الحقيقة؟

يقال لرئيس المجلس إنه من المعروف لكل من له أثارة من علم بالإسلام أنه دين لا يقبل الشركة، فإذا لم تكن السلطة التشريعية العليا له بل شركه فيها دين غيره، لم يكن ذلك التشريع إسلامياً فلا يكون الدستور الذي أقر هذا الشرك إسلامياً.

على أن ما قاله هذا الرجل ليس بصحيح فالسلطة العليا في هذا الدستور ليست لأي دين من الأديان المعروفة، وإنما هي لبعض المبادئ العلمانية بل لأسوأ تلك المبادئ.

دعنا إذن من كلامه ولنعد إلى ما كنا بصدده من بيان عدم إسلامية هذا الدستور، فنقول إن هذا الدستور الملفق المتناقض لا يمكن أن يكون إسلامياً.

أولاً: لأنه بينما يتحدث عن الشريعة يماشي عرف الدساتير العلمانية السائدة في العالم فيعد الدستور هو القانون الأعلى للبلاد الذي يحكم كل قوانينها وتصرفات حكامها، والذي ينبغي لذلك على المواطنين أن يحترموه ويلتزموا به.

ثانياً: لأنه يساوي بين المبادئ الإسلامية وبعض المبادئ العلمانية، وهي مساواة تتناقض مع الإسلام ومع العلمانية كليهما.

ثالثاً: لأن بعض مواده تجعل لأسوأ مبادئ العلمانية الهيمنة على أقدس المبادئ الإسلامية.

رابعاً: لأن فيه نصوصاً تتناقض تناقضاً صريحاً مع بعض النصوص الإسلامية القطعية الثبوت والدلالة.

خامساً: لأن فيه تحريفاً لبعض المبادئ الإسلامية بتفسيرها تفسيراً يتناسب مع المبادئ العلمانية.

سادساً: لأن فيه نصوصاً تتعارض مع مقاصد الإسلام العامة وتتنافى مع الأهداف التي تتحراها السياسة الشرعية الإسلامية.

وإليكم الآن بعض تفاصيل ما أجملنا.

أولاً: الدستور باعتباره القانون الأعلى:

سار واضعو هذه الوثيقة على السنة السائدة في الدساتير العلمانية باعتبار الدستور هو القانون الأعلى للبلاد الذي يجب على الناس احترامه ولا يجوز مخالفته. فكما بدأ الدستور الأمريكي بعبارة "نحن شعب الولايات المتحدة، رغبة منا في أن نرسم ونضع هذا الدستور للولايات المتحدة" يبدأ مشروع دستورنا بقوله "بسم الله خالق البشر.. نحن شعب السودان قد وضعنا لأنفسنا هذا الدستور نظاماً للحياة العامة نتعهد باحترامه وحمايته" هذا مع أنه من المقتضيات الأولية للإيمان بالله وبرسول الله ﷺ أن لا يعترف المسلم لأي قانون سواهما بأنه مساوٍ لهما أو أعلى منهما سلطة في تنظيم الحياة.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات: ١]، ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠]، وعليه فإن المسلم لا يلتزم التزاماً مطلقاً بكل كلام يقوله بشر ما غير الرسول ﷺ مهما كانت منزلة ذلك البشر من العلم والفضل. ولذلك قال الإمام مالك: (كل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر)، ويشير إلى قبر النبي ﷺ. فالدستور بمعنى القانون الأعلى إنما هو نصوص الكتاب والسنة. هل معنى ذلك ألا نكتب دستوراً؟ كلا، ولكن معناه أن نعترف في دستورنا الذي نكتبه بأنه هو نفسه محكوم بنصوص الكتاب والسنة. إننا كثيراً ما نتحدث عن التأصيل، فأنّى يكون تأصيل إذا بُني دستور البلاد على التقليد؟ وإذا تزاحمت فيه المبادئ العلمانية مع المبادئ الإسلامية بل إذا كانت فيه الغلبة للأولى على الثانية؟

ثانياً: حاكمية الله وسيادة الشعب:

في هذا الدستور مادتان (الرابعة والخامسة والستون) يحسب المتحمسون له أنه يكون بهما إسلامياً خالصاً، أعنى المادة المتعلقة بحاكمية الله وتلك المتعلقة باعتبار الشريعة مصدراً من مصادر القانون، لكن نظرة دقيقة إلى صياغتها تكشف أنه ذكر مع كل منهما مبدأ آخر علماني يفسره أو ينقضه أو يقلل فاعليته.

أما المادة الرابعة فتنص على أن (الحاكمية في الدولة لله خالق البشر والسيادة فيها لشعب السودان المستخلف يمارسها عبادة لله وحملاً للأمانة وعمارة للوطن وبسطاً للعدل والحرية والشورى وينظمها القانون).

أول ما يلاحظ على هذه المادة التي طار فرحاً بها من لم يتأملوا الدستور أنها جاءت من باب المبادئ التي لا أثر قانوني لها. ويلاحظ عليها ثانياً أنها لم تكتف بإقرار حاكمية الله تعالى بل ذهبت لتُفسر هذه الحاكمية تفسيراً علمانياً وإن كانت الألفاظ المستخدمة فيه ألفاظاً إسلامية، وإليكم بيان ذلك:

إن عبارة الحاكمية لله تعني عند المسلمين أن ما حكم به الله في كتابه أو في سنة نبيه ﷺ هو الحكم الذي لا يجوز لأحد أن يخالفه أو أن يشعر بحرج منه حتى في دخيلة نفسه قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، لكن الله تعالى لا يأتي ليحكم بين الناس بذاته سبحانه، والرسول ﷺ توفي، فلم يعد بيننا، فصار المعنى العملي لقاعدة حاكمية الله تعالى هو أن تكون الكلمة العليا لنصوص الكتاب والسنة. وهذا أمر من الخطورة بمكان يجعله جديراً بأن يحتل المكان الصدارة في المواد الملزمة وأن يكون أثبت ثوابت الدستور التي لا تقبل تبديلاً ولا تعديلاً.

لكن الذي حدث هو أن المادة ذكرت ضمن المبادئ المواجهة ثم أضيف إليها ما يُفسد معناها ويخرجها عن مقتضاها.

بدأت المادة بعبارة (الحاكمية لله خالق البشر) فقلنا هذا حق. وتوقعنا أن يذكر بعد ذلك عبارة مثل: (فالكلمة العليا الحاكمة على هذا الدستور وعلى سائر القوانين إنما هي لنصوص الكتاب والسنة) ولكن المادة مضت مع الأسف لتقول: (والسيادة لشعب السودان المستخلف يمارسها...) لماذا تذكر سيادة المخلوقين هكذا في نفس واحد مع حاكمية الخالق سبحانه؟ ثم ما المقصود بالسيادة هنا؟

لقد كان من الممكن أن يفصل بين حاكمية الله وسيادة البشر وأن تعطى السيادة معنى لا يتنافى مع حاكمية الخالق سبحانه، لكن الذي حدث أنها ذكرت مع

حاكمية الله وأعطيت معنى يتنافى معها، إن سياق الكلام ونصوص الدستور الأخرى تدل على أن المقصود بالسيادة هنا السلطة التشريعية، فكأن المادة تقول لنا إن الحاكمية لله ديناً واعتقاداً أما في الواقع السياسي فالحاكمية للشعب. وسنرى دليل ذلك في المادة الخامسة والستين التي تجعل حكم ما يسمى بالشعب أصلاً مساوياً لحكم الله والمادة ١٣٩ التي تجعل حكمه فوق حاكمية الله. لكن مبدأ حاكمية البشر الذي يسمى أحياناً بسيادته مبدأ علماني بل هو ركيزة العقيدة العلمانية؛ لأنه أهم لوازم القول بإقصاء الدين عن الدولة لأن الدولة إذا لم تلتزم بحكم الله تعالى لم يبق لها إلا أن تلتزم بحكم البشر. ولذلك تجد هذا المبدأ منصوصاً عليه صراحة أو ضمناً في كل دستور علماني. فالفقرة الثانية من المادة الثانية من الدستور السوري مثلاً تنص على أن السيادة للشعب ويمارسها على الوجه المُبيّن في الدستور. فالسيادة هنا بمعنى الحكم أو الحاكمية، أما السيادة بمعنى استقلال البلد وعدم تبعيته لغيره فشأن آخر ولذلك ذُكرت في الدستور السوري في مادة أخرى هي المادة الأولى التي تنص على أن الجمهورية العربية السورية دولة ديمقراطية شعبية واشتراكية ذات سيادة.

حاكمية البشر هي إذن كما قلنا لازم من لوازم العلمانية أياً كان نوعها، فالعلمانية الدكتاتورية وعلمانية ما يسمى بنظام الوصاية تجعلان هذا الحق لفرد أو لبضعة أفراد، والعلمانية الديمقراطية تجعله للشعب كله وهنالك علمانية ثالثة واسعة الانتشار في العالم الثالث لا سيما العربي منه علمانية نفاقية لا تؤمن بمبدأ حكم الشعب لكنها لا تجرؤ على إنكاره بعد أن أصبح من العقائد الراسخة الواسعة الانتشار، فتلجأ لذلك إلى منافقته فتعترف به شفاهاً وتخالفه عملاً، تجري انتخابات لتقول إن الشعب هو الذي اختار لكنها تزيفها لتأتي باسم الشعب بمن تريد، تجري استفتاءات لتقول إن الشعب هو الذي أفتى لكنها تزيف فتواه لتفتي بما تريد.

ولكن إذا كانت حاكمية الشعب أو دعوى حاكمية الشعب أصلاً لازماً لمبدأ إقصاء الدين عن الدولة فما بالها يُعترف بها في دستور يقرر بأن الحاكمية لله؟.

* * *

دارفور

الاثنين ٢٨ ذو الحجة ١٤٢٥هـ/ ٧ فبراير ٢٠٠٥م شبكة المشكاة الإسلامية

دارفور منطقة شاسعة من مناطق السودان تقع في الجزء الغربي منه المجاور لدولة تشاد تقدر مساحتها بمساحة فرنسا. تسكنها قبائل متعددة كلهم مسلمون يتحدثون العربية لكن بعضهم أكثر عربية من بعض من حيث اللسان وبعض العادات. ظلت بينهم بين الحين والحين خصومات ومعارك محدودة لكن الأمر تفاقم أخيراً حين تمرد بعضهم على الحكومة باسم حركة سياسية كان أساسها من قيادات خارج السودان حتى وصل الأمر بالمتمردين إلى أن اعتدوا على بعض المراكز الحكومية، وأحرقوا بعض الطائرات الواقفة بالمطار. وكانت حجتهم في هذا أنهم مظلومون وأن الحكومة مسؤولة عن تخلف منطقتهم. يبدو أن الحكومة استعانت بالقبائل الأكثر عربية واستغلت خصومتهم القديمة ضد إخوانهم هؤلاء؛ فهجموا عليهم وأحرقوا كثيرًا من قراهم واضطروهم للنزوح إلى المدن التي كانت أكثر أمنًا وإلى بلدة تشاد التي يوجد بها أيضًا النوعان من هذه القبائل.

تعترف الحكومة بأن المنطقة من أكثر مناطق السودان تخلفاً لكنها تقول إن التمرد لا مسوغ له، لأن هذا وضع ورثته الحكومة وأنها عملت أكثر مما عملت الحكومات السابقة. فالرئيس يقول إنه كان بالمنطقة سبع مدارس فقط يوم جاء هو إلى السلطة وإنه بها الآن مئتا مدرسة، ولم يكن بها جامعة وبها الآن ثلاث جامعات، وإنها بدأت في مشاريع لحل مشكلة المياه.

ماذا تفعل الحكومة؟ كثير من الدول الغربية تطالبها بأن تجرد تلك القبائل العربية (المسماة بالجانجويد) من السلاح، وتقول إن وراء الحرب محاولة لما يسمى بالتطهير العرقي، وتهدد الحكومة بأنها ستتدخل إذا لم تستجب لطلبها. لكن الحكومة تعلم أن مواجهتها للقبائل هذه بالسلاح لن تحل المشكلة بل ربما جعلتها تتفاقم، وربما فتحت الباب لتدخل دولة أجنبية وزيادة الفتنة كما حدث في حرب جنوب السودان. لذلك فإنها تفضل اللجوء إلى المفاوضات والصلح. أما الكلام عن التطهير العرقي فكلام فارغ يعلم كل زائر للخرطوم زيفه؛ فالعاصمة الآن سودان مصغر فيها كل قبائل السودان وكل أطياف سمرته. وإذا كان الناس في السودان حكومة وشعبًا رضوا بمصالحة مواطنيهم في الجنوب، بل رضوا بأن يكون أحدهم النائب الأول لرئيس الجمهورية، فكيف يسعون لتطهير البلاد من إخوان لهم يتفقون معهم في الدين واللسان؟

طالب يذكر طرائف من مناقب شيخه العلامة عبد الله الطيب

المختار الإسلامي
١٦ شعبان ١٤٣٧هـ الموافق ٢٣ مايو ٢٠١٦

هذه ذكريات عن شيخنا الراحل الأستاذ عبد الله الطيب غفر الله له وأحسن مثواه، أضيفها إلى ذكريات غيري من طلابه الكثر المحبين المعجبين؛ عسى أن تكون كلها مادة يرجع إليها من يكتب سيرته وينشر بين الناس فضله، وهي ذكريات في أمور شتى لا تخلو من طرافة أرسلها بغير تكلف كأنها (ونسة) في أحد مجالسه العامرة، وغني عن القول بأنني إذا ما رويت عنه كلاماً فلا أذكره بألفاظه نفسها كلها - أنَّى لي ذلك وقد طال العهد؟ - وإنما أذكر فحواه وبعض ألفاظه.

أول ما يخطر بالبال تعليق الدكتور طه حسين على ديوانه أصداء النيل، ذلك الثناء العاطر من عميد الأدب العربي على ديوان شاب سوداني غير مشهور ثناء قرأه مئات الأدباء في العالم العربي وعجبوا له، أثنى الدكتور طه على الديوان لكنه أخذ على صاحبه استعماله لبعض الكلمات الغريبة بل الوحشية، لكن السودانيين ضحكوا كثيراً عندما رأوا قائمتها كانت كلمات معروفة في العامية السودانية أذكر منها الآن كلمة (الطخا) بمعنى السحاب التي ينطقها أهلنا: (التخا) على عادتهم في استثقال الطاء في بعض الكلمات وتحويلها إلى تاء كقولهم: (بتيخ) بدلا عن بطيخ. كما قال ود الماحي في سيرة الرسول ﷺ، ضلتو؛ أي أظلته التخايي.

لست أدري لماذا شاعت في عاميتنا أمثال هذه الكلمات التي كانت تعد فعلاً من الألفاظ الوحشية حتى قال الشاعر:

إنما الحيزبون والدردبيس ... والطخا والنقاخ والعلطبيسُ
لغة تنفر المسامع منها ... حين تروى وتشمئز النفوسُ

لكن لعل الذي أغرى شيخنا باستعمال هذه الألفاظ أنه كان له اهتمام عجيب بالعامية السودانية ومعرفة مفرداتها وتراكيبها، وكان يرى أن لغة القرى أثرى وأفصح من اللغة التي اعتادها أهل المدن، وكان يضرب لذلك مثلاً بقول الناس في القرى: «سمح وزين»، وقولهم في المدن: «كويس» لا يزيدون عليها.

وقد ظهر إتقانه للعامية السودانية في تفسيره المشهور للقرآن الكريم الذي كان المواطنون في شتى أنحاء القطر يلتفون حول المذياع للاستمتاع بالسماع إليه.

أما العربية الفصيحة فقد كان ابن بجدتها ومالك ناصيتها، لا تكاد تخفى عن علمه مفردة من مفرداتها، ولا عن حفظه قصيدة ولا نظم من نظمها، ولا عن اطلاعه أو دراسته كتاب مهم من كتبها.

حدثني الصديق الدكتور مالك بدري أن شيخنا ألقى محاضرة في بيروت فاستشهد فيها بالعشرات من أبيات الشعر من ذاكرته حتى إن أحد أساتذة اللغة بالجامعة الأمريكية- أظنه قال: إنه الدكتور إحسان عباس -قال مازحاً: ما ذا نقول لطلابنا غداً؟ هل نقول لهم إننا مثله أساتذة لغة عربية؟

تحولت العربية الفصيحة عنده إلى ما يشبه السليقة فكان إذا حاضر بها في القاعة يتكلمها كلاماً لا تكلف فيه، حتى إنك لتظن أنه إنما كان يتكلم بالعامية إلى أن ترجع إلى ما كتبته عنه لتجده عربياً فصيحاً. وكان إذا ألقى القصيدة من الشعر العربي - حتى الجاهلي منه العصي الفهم - ألقاها بطريقة يطرب لها المستمعون، وكان طلاب الجامعة كثيرًا ما يعبرون عن إعجابهم بالتصفيق الشديد حين يستمعون إليه ينشد بعضها في المناسبات العامة.

درسنا عليه في السنة الثانية من كلية الآداب عدة قصائد من كتاب المفضليات، ولا زلت أذكر شرحه الممتع لإحدى القصائد الصعبة التي أشار إليها الصديق الدكتور الحبر نور الدايم في مقاله الماتع عن شيخه الذي كانت صلته الأدبية به أوثق من صلتنا؛ لما يجمعه وإياه من حب العربية وإتقانها وبراعته في شعرها . تلك هي قصيدة المرار بن منقذ في وصف فرسه .التي من أبياتها:

ببعيــــــد قـــــدره ذي عـــــذر	صـــلتانٍ مـــن بنـــات المنكـــدر
ســـائل شمراخـــه ذي جبـــب	ســلط الـــسنبك في رســغ عجــر
قـــارح قـــد فـــر عنـــه جانـــب	وربـــاع جانـــب لم يتغـــر
فهـــو ورد اللـــون في ازبئـــراره	وكميـــت اللـــون مـــا لم يزبئـــر
شـــندف أشـــدف مـــا ورعتـــه	فـــإذا طـــؤطئ طيـــار طمـــر

استعنت على تذكر مفرداتها- من باب الطرفة - برسمة أسميتها حصان المرار، تشير الأسهم فيها إلى أوصاف الحصان بتلك الكلمات الواردة في القصيدة، فكانت كأنها درس في علم الأحياء، وكان بعض الأصدقاء يستعيرها للمذاكرة، والغريب أن أستاذنا العلامة لم يكن يعرف معاني هذه الكلمات النادرة بالعربية فحسب، بل كان يعرف ترجماتها الإنجليزية، تلك اللغة التي كان متقنًا لها مطلعًا على آدابها، والتي كانت له فيها نظرات ومقارنات بينها وبين العربية.

منها ملاحظته لكثرة ما في قصائد شكسبير من تشبيهات وتعبيرات يقول: إنها شديدة الشبه بما في الأدب العربي، وأنه لا مثيل لها أصلاً في الأدب الإنجليزي .لم يكن شيخنا بالطبع من مؤيدي نظرية شيخ الزبير التي تقول إنه الاسم الحقيقي لشكسبير.

كان شيخنا علامة النحو العربي الذي لا يشق له غبار، كان مفتوناً بالكتاب لسيبويه يقرؤه كالورد اليومي كلما ختمه بدأه، حتى رأيته يحمله معه ويقرؤه في المسجد الحرام؛ تبركاً به ! أذكر أنه كان يقرأ في طبعة قديمة، فقلت له: هنالك طبعة جديدة بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون - كنت قد اطلعت عليها لأمر يتعلق بالفلسفة -، لكنه أعرض عن كلامي، وقال: إنه يفضل الطبعات القديمة ويراها مباركة، وكان هذا ديدنه فعلاً مع كل الكتب العربية، فكان لا يقرأ من تفسير الإمام الطبري مثلا إلا طبعة بولاق، ويراها مباركة.

شهد لبراعة شيخنا في فهم الكتاب لسيبويه علماء كثر من خارج السودان، حدثني صديق سعودي هو الدكتور تركي العتيبي أستاذ علم النحو بجامعة الإمام، فقال: إن شيخنا جاءهم أستاذا زائراً، وقال: كنت أعمل في رسالتي الماجستير عن أحد نحويي الكوفة المتقدمين، ومن خلال الدراسة اعترضتني نصوص مشكلة في الكتاب لسيبويه راجعتها في الشروح فلم أظفر بطائل ...فلما جاء د .عبد الله الطيب - رحمه الله تعالى- عرضت عليه هذه النصوص، فأفادني في بعضها إفادات رائعة دونتها في نسختي، وعرضت قوله على شيخي عظيمة فاستحسنه وسر به . وكان د . عبد الله الطيب أقرأ المعاصرين لكتاب سيبويه.

وكما كان شيخنا محبًا للعربية وعلومها كان أيضا محبًا لأهلها من الأحياء والأموات. من ذلك أنه كان شديد الإعجاب بتلميذه صديقنا الدكتور جعفر ميرغني .. جاء ذكر جعفر في أحد اجتماعات مجلس الكلية- لست أذكر الآن مناسبته-، فقال

عنه شيخه: إنه لولا التقيد باللوائح لعينته الآن محاضراً- وهو الذي يسمى في اصطلاح الجامعات العربية أستاذا مساعداً -ثم قال عنه كلمة أحرجت بعض أساتذة اللغة العربية، قال: إنه الآن- وكان قد تخرج لتوه - أعلم من بعض الأساتذة.!

وكان الأستاذ يضيق فعلاً بشكليات اللوائح، كان هنالك عالم قراءات مصري نال إعجابه، فعينه أستاذا مساعداً بالجامعة رغم أنه لم تكن له شهادة دكتوراه.

قال لي: إن كل كتاب من كتب هذا الرجل يساوي دكتوراه، وتعيين الدكتور عبد الله للرجل حلٌّ له مشكلة كبيرة، فقد بدأت الجامعات الأخرى- حتى المصرية منها - تقبله أستاذا بناءً على أنه كان كذلك بجامعة الخرطوم حسب ما يقتضي الاتفاق بين الجامعات العربية، وحدثني ذات مرة أنه ذهب إلى مصر فوجد العلماء الحقيقيين هم الذين لا يحملون هذه الألقاب العلمية من دكتور وأستاذ وغيرها ! وقد وجدت مثل هذا الموقف من الألقاب عند غير شيخنا من كثير من العلماء الراسخين في علومهم على اختلافها . فما الدكتوراه عندهم إلا شهادة كالشهادات الابتدائية أو الثانوية أو الجامعية ينالها المرء ثم يتخطاها فلا يفخر بها ولا على التسمي بها . إنما يفعل ذلك بعض الضعفاء الذين يحاولون التزيي بها حتى لو لم يكونوا قد نالوها حقيقة باعتبارها حلية اجتماعية، وما مثلهم في ذلك إلا كما قال الرسول ﷺ: **(المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور)** [1].

قرأت -وأنا بالقاهرة سنة أربع وخمسين ميلادية - مقالاً للأستاذ العقاد، يرد فيه على نقدٍ انتقده إياه شيخنا، وكان رداً فيه بعض الحدة، لكنني سررت عندما لمست من أستاذنا بعد سنين عدة أن ذلك لم يفسد العلاقة بينهما، بل عبر لي عن إعجابه الشديد بثقافة العقاد الموسوعية، قال إنهم استمعوا في مجمع اللغة إلى محاضرة لأحد المختصين بعلم الجيولوجيا ذكر فيها عن بعض الصخور أنها تكون كذا وكذا من الألوان، فسأله العقاد: وحكى دكتور عبد الله صوته في إعجاب (إلا تكون كذا أيضا) وذكر لوناً نسيته الآن. فأجابه المختص بأنها لا تكون كذلك، لكن العقاد جاء إلى جلسة المساء وهو يتأبط مرجعه الذي يثبت صحة ما قال!

(١) رواه البخاري.

ولم تكن العربية عند علامتها عبد الله الطيب مجرد فن يتذوقه، أو لسان يعبر به، بل كانت كالمرجع الذي يهتدي به في كثير من شؤون حياته، لعلَّ صديقنا الدكتور إبراهيم الحاردلو يذكر كيف أنه أمتعنا في يوم قضيناه معه في تجوال في مدينة برايتون الإنجليزية، كيف أنه كان كلما ذكر زعيمًا سودانيًا أو أمرًا سياسيًّا قال فيه رأياً، ثم أتبعه مستشهدًا بما يعرف من شعر العرب ونثرها وأخبارها، وكانت استشهادات في غاية الطرافة لولا الحياء لذكرت بعضها.

وكم كان يحزنه زهد الناس في العناية بالعربية، وكان كثيرًا ما يقول آسفًا إن بعض المثقفين عندنا يودون أن لو كان لسانهم إنجليزيا لا عربياً، وإنني لأذكر هذا التعليق كلما زرت الخرطوم فوجدت ازدياداً حتى في الأحياء الشعبية - في نسبة اللافتات المكتوبة بالإنجليزية أو المكتوبة كلماتها الأجنبية بحروف عربية لا يفهم المواطنون منها شيئاً.

كان شيخنا معنيًا في دراسته بالجودة لا الكثرة، كان ينتقي من كل علم في غير اختصاصه كتابًا يقرؤه عدة مرات ويجيد فهمه، من ذلك أنه كان يكرر قراءة كتاب برتراند رسل في تاريخ الفلسفة الغربية، وكتاب توينبي المسمى دراسة للتاريخ، وهكذا . وكان كثير القراءة لتفسير الجلالين حتى إنه ليكاد يحفظه.. وقد وجدت هذا أيضا منهج شيخنا الشيخ عبد العزير بن باز علامة عصرنا في علوم الشرع.

قال لي تلاميذه إنه قرأ صحيح مسلم بشرح النووي ستين مرة ! وإنه قرأ البداية والنهاية ست مرات، وهكذا . وحسبك بمرة من مرات ابن باز؛ إنها تساوي مرارًا من مرات غيره.

كان يعرف عن نفسه أن العربية طبعه حتى قال لي ذات يوم -ونحن نتكلم عن الفلسفة- إنه درس بعض مقرراتها أثناء عهد الطلب ببريطانيا، وإنه جودها لدرجة أن الأستاذ اقترح عليه أن يختص بها .قال لكنني قلت لنفسي: الطبع ولا التطبع.

وعلى ذكر الفلسفة، دخل عليَّ الأستاذ ذات يوم في مكتبي- وهو عميد لكلية الآداب-؛ ليسألني: أليس لك الآن محاضرة في القاعة الفلانية؟ استنكرت أن يأتي عميد الكلية ليحاسبني في مكتبي على عدم الذهاب لمحاضرة، فما هكذا يعامل الأساتذة

بجامعة الخرطوم، قلت- ولا بد أنه رأى آثار الإنكار على وجهي-: «بلى ولكنني نسيت بسبب انشغالي بهذا البحث»، فابتسم وقال: «الآن صرت أستاذاً»، فانطلقت أسارير وجهي وابتسمت، وقلت: «لماذا؟» قال: «لأن الأستاذ الحق هو الذي تشغله بحوثه عن أموره الأخرى»، ثم شرح لي أنه إنما جاء ليستشيرني في مسألة فلسفية أشكلت عليه هو وطلابه، كان هذا من تواضعه الجمِّ الذي لم يكن يتكلفه أبدًا . وكان من تواضعه وكرمه أنه كثيرًا ما يدعو طلابه إلى منزله ثم يطلب من الشعراء منهم أن يباروه في تأليف قصيدة في موضوع يختاره، أذكر أن هذا حدث مع الصديقين عمر عباس عجبنا زعيم الطلاب وخطيبهم المفوه أكرم الله نزله، والدكتور ناصر السيد شاعرهم المطبوع أطال الله عمره في طاعته.

وإذا كان مثل غفلتي تلك عن المحاضرة من السمات اللازمة للأستاذية، فقد كان هو صاحبها الذي لا يبارى .كان يقطع التذكرة من تذاكر قطار لندن الذي يسير تحت الأرض ليذهب إلى إحدى المحطات فيغفل عن النزول بها ويتجاوزها بمحطاط كثيرة لانشغاله بشيء يقرؤه أو يفكر فيه.

دخلت عليه في مكتبه ذات يوم وكان قد فرغ لتوه من اجتماع مع رؤساء الأقسام فيما أظن، فوجدتهم جميعاً يضحكون، فلما سألت أخبرني أحدهم بأنه حدث بين العميد وأحد الأعضاء خلاف، وأن العميد غضب وانتهر العضو قائلاً:" ياجرزلدا ".. فانفجر الناس ضاحكين وضحك هو وانتهت المشكلة بفضل ذكر اسم الزوجة الحبيبة.!

زلت منه مرة كلمة عن محمود محمد طه حاسبه عليها بعض إخواننا حساباً عسيراً، لكنني أشهد أن الرجل لم يكن محبًا لمحمود، ولم يكن من أنصاره، لكنه قال ما قال بسبب السياسة التي لم يكن ذا باع فيها، قال لي ذات مرة إنه لا يحب محموداً؛ لأنه لا يحب الرسول ﷺ. وكان يقول لنا تشجيعاً على نقدنا لمحمود أنتم وحدكم الذين تستطيعون نقده، ويعني بـ(أنتم) نحن أصحاب التوجه السني .قلت: لماذا؟ قال: لأن هؤلاء الشيوخ الذين يهاجمهم ينسبون إلى بعض شيوخ الصوفية ما يدعي محمود لنفسه، فهم لا ينكرون أن يصل الإنسان مثلا وصولا يرفع عنه أحكام العبادات والحلال والحرام، لكنهم ينكرون أن يكون محمود قد وصل إلى هذه الدرجة .وعلى ذكر محمود،

دخلت عليه ذات يوم في مكتبه فحكى لي قصة طريفة ، قال: إنه كان معه قبل قليل أحد القساوسة- ذكر لي بلده الأوروبي لكنني نسيته -وأنه أخبره أنه جاء ليتشرف بزيارته ويتحدث إليه .قال الدكتور عبد الله فقلت له: لست أنا الذي تريد .إنك تريد رجلاً آخر اسمه محمود محمد طه وعرفته من هو . قال فاعترف بأن محمودًا كان من طلبته، لا عبد الله الطيب، قلت لشيخنا : لكن كيف عرفت أنه إنما يريد محموداً ، ولا يريدك أنت؟ قال: ما ذا يبتغي قس أوروبي عند رجل همه اللغة العربية وهم لا يحبونها ولا أهلها ، إنه يريد هذا الذي يقول ما يرضيهم.!

وتصديقا لكلام شيخنا التقيت أنا في الرياض بقس كبير من علمائهم كنت قد قرأت بعض أجزاء من كتاب له عن وجود الخالق مترجماً إلى الإنجليزية ، سُرَّ لما أخبرته بذلك، فلما عرف أنني سوداني كان أول ما سألني عن محمود محمد طه، فأجبته بكلمة صعق لها . قلت: هذا ليس مسلماً!

كان مما أعجب له في شيخنا أنه مع معرفته الواسعة بالعربية وعلومها والتفسير والتاريخ إلا أنه كان في باب الفقه مالكيًا مقلدًا تقليد العوام، بل كانت حججه لتسويغ هذا التقليد هي حجج العوام، لكنني عرفت السر في ذلك بكلام قاله لي هو عن نفسه في إحدى زياراته للرياض .كان يقرأ في كتاب المسند للإمام أحمد فاعترف بأنه كان مقصرًا في اهتمامه بعلم الحديث ، وأنه بدأ الآن يتدارك ذلك، فسررت لذلك أيما سرور.

لقد كان شيخنا فخر السودانيين يعتز به شبابهم ويحتفلون به ويكرمونه حيثما حل في بلد يسكنونه .رأيناهم يكرمونه في المدن البريطانية ، والأمريكية ، والبلاد العربية وسمعنا عن تكريمهم له في غيرها.

هذا بعض ما جادت به عن شيخه ذاكرة طالب تجاوز السبعين، أرجو ممن يطلع عليها ممن يعرف ما لا أعرف عن بعض ما ذكرت أن لا يتردد في تصويبها . فمعاذ الله أن نظن بأنفسنا عدم الخطأ أو أن نستنكف عن التصويب .تلك جوانب من حسنات الفقيد غفر الله لنا وله ذنوبنا وتقصيرنا وإساءتنا ، ورحمنا وإياه رحمة واسعة، وجزاه الله خيراً كثيرًا على اهتمامه بلغة الكتاب العزيز والرسول الكريم، وعمله على نشرها والانتصار لها.

* * *

عدو العدو أصديق دائماً هو؟

الجمعة ٢٩ شعبان ١٤٢٤هـ/ ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣م شبكة المشكاة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وبعد:

من القواعد الباطلة التي تتحكم أحياناً في سلوكنا البشري ما يكون مضمراً لا يفصح عنه الإنسان حتى لنفسه، لأنه ربما لا يكون هو واعياً به، بل ربما أنكره إذا ما رآه مصرحاً به، لذلك كان كشف هذه القواعد السلوكية المضمرة والإفصاح عنها ومناقشتها من أحسن وسائل التقليل من شرها، وإقناع الناس بعدم الخضوع لها.

من هذه القواعد الباطلة أن عدو العدو هو دائماً صديق، أو أن صديق العدو هو دائماً عدو .كل منا يعرف بعقله ومن تجربته أن هذا ليس بصحيح .لأنه يعرف أن العدوين قد يشتركان في أمر يجعل كلاً منهما عدواً له، ولأنه يعرف أن الأمر الذي يتعاديان بسببه قد لا يكون له علاقة بذلك الأمر الذي جعل كلاً منهما عدواً له، ولأنه يعرف أن من يصادق عدواً لنا قد يصادقه لأمر لا علاقة له بالأمر الذي جعله لنا عدواً . لكننا في حياتنا الواقعية كثيراً ما نسير على هذه القاعدة التي نعلم بطلانها من الناحية العقلية والتجريبية.

من أضرار هذه القاعدة الباطلة أنها تفقد الفرد أو الجماعة أو الدولة الاستقلال في اتخاذ المواقف، بل تجعل عدوها- من حيث لا تشعر -هو الذي يقرر لها مواقفها، لأن موقفها سيكون دائماً هو الموقف المضاد لمن تراه عدواً لها، فثناء إعلامه على جهة ما يدعو للارتياب في أمره وهجومه عليها يدعو للثقة بها والثناء عليها.

من أضرارها أن العدو إذا عرف هذا الضعف في من تُسيِّره هذه القاعدة الباطلة، أمكنه أن يستغلها أسوأ استغلال .فما عليه ليجعله يعادي جهة ما إلا أن يُظهر الود نحوها ولو كان في الباطن خصماً لها، بل قد يكون هذا العداء الظاهر بترتيب معها، وما عليه لكي يجعلها ترتاب في أمر فرد أو جماعة أو دولة إلا أن يظهر الود نحوها والثناء عليها ولو كان في الباطن عدواً لَها.

إنَّ العقلاء الجديرين بالنجاح في عملهم هم الذين يتخذون مواقفهم بمقياس مبادئهم وبمراعاة لمصالحهم، ولا يجعلون غيرهم يقرر لهم ذلك سلباً أو إيجاباً .إن ديننا يحذرنا من أن يحملنا بغضنا لعدو على الاعتداء الظالم عليه، فكيف لا يمنعنا من أن نجور في حكمنا على غيره فنعاديه وهو يستحق الموالاة أو المناصرة، أو نواليه أو نناصره وهو يستحق المعاداة والمواجهة. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

فليكن اجتماعكم القادم بالمكسيك

الشبكة العنكبوتية

انعقد مجلس الأمن - في شأن قضية دارفور - بنيروبي، وكانت هذه إحدى المرات النادرة التي يجتمع فيها خارج مقره بنيويورك.

انعقد ليكون قريبًا من السودان، وليضغط على حكومته والمتمردين عليها لكي يصلوا إلى حل وفاق!

وبما أن في العالم مشكلة أظلم بكثير من مشكلة الخلاف بين حكومة السودان والمتمردين سواء بدارفور أو بجنوب السودان.

فنقترح على مجلس الأمن الموقر أن يكون اجتماعه القادم بالمكسيك ليكون قريبًا من الدولة التي هي سبب تلك المشكلة.

ونقترح على الرئيس عنان أن يلقي في بداية ذلك الاجتماع كلمة قصيرة يقول فيها بعد إلقاء التحية على الأعضاء:

يشرفنا أن نجتمع اليوم بجوار الدولة التي كنا نجتمع دائمًا بداخلها لأن الاجتماع بداخلها حجب عنا فيما يبدو رؤية المشكلات التي هي سبب فيها، نجتمع لا لنضغط عليها فالضغط بالأصابع على الحديد يؤثر على الأصابع الضاغطة لا الحديد المضغوط عليه لا سيما إذا كان الحديد ساخنًا.

إننا نجتمع لنناقش مشكلة فريدة من نوعها، تبين لي الآن أنها أكبر بكثير من مشكلة دارفور التي وصفناها بأنها أكبر كارثة عالمية. إن أجل المشكلة الدار فورية يوشك أن ينتهي قبل بلوغها العام.

لكن مشكلتنا هذه مزمنة وستبقى آثارها لأعوام. مشكلة السودان مشكلة داخلية بين مواطنين ينتمون إلى أرض واحدة كل منهم حريص على خيرها وعلى نصيبه من خيراتها.

لكن مشكلتنا هذه بين دولة واحدة ودول أخرى لا تجمعها وإياها أرض ولا لغة ولا دين ولا حضارة ولا تاريخ.

لكنها تقول رغم ذلك إنها خطر على مصلحتها الوطنية، وهي في سبيل درء هذا الخطر المزعوم.

لا تبالي باستعمال أقوى ما عندها وعند حلفائها من أسلحة الدمار غير الشامل لتخرب تلك البلاد، وتقتل رجالها ونساءها وأطفالها.

ولا تفرق بين مدني وعسكري، ولا مسجد ولا مطار ولا مكتبة ولا قلعة. ولا متحف ولا ترسانة.

ثم إنها تقول إنها إنما تفعل كل هذا لتضفي على تلك البلاد نعمة الديمقراطية والاستمتاع برؤية صناديق الاقتراع.

هل سمعتم بديمقراطية تفرض على الناس بالقوة؟ أليست الديمقراطية هي حكم الشعب؟

أوليس المقصود بالشعب المواطنين في أرض معينة؟ كيف إذن تأتي حكومة شعب آخر لتفرض على شعب غير شعبها نظامًا سياسيًا تقول إنه اختاره. وحكامًا تختارهم هي ليختارهم هو؟

إنني أخشى من هذا السلوك إذا استمر من غير احتجاج قوي من مجلسكم هذا أن يكون داء ينخر في الأسس التي قامت عليه فكرة هيئة الأمم وسائر المؤسسات الدولية.

مندوب الصين:

لكن ماذا نفعل يا سيدي الرئيس إذا كانت هذه الدولة تعتقد أنها هي روح العالم. وأن ما كان في مصلحتها فهو في مصلحته، وما لم يكن فهو في ضرره.

وأن كل نظام ترتضيه في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو حتى الترويح فهو وحده النظام الي يتناسب مع الجنس البشري.

وعليه فإن كل محاولة لإحداث نظام مخالف لنظامها هي حرب على ذلك الجنس لا عليها وحدها. وأنها حينما تحاربه إنما تعمل ذلك لمصلحة.

* * *

لهذا كان اهتمامنا بفكر الشيخ

مجلة منار السبيل شعبان ١٤١٤ يناير ١٩٩٣

ميزة الشيخ أنه سلط ما حباه الله به من أنوار الرسالة المحمدية، وما منحه من مواهب فطرية، وما حلاه به من فضائل خُلقية على مشكلات عصره الواقعية والعلمية.

فكان قوله في معظمها هو القول الفصل الذي يشهد له صحيح الأدلة النقلية، وصريح الحجج العقلية، وضوح الصياغة البيانية وجمال القيم الخلقية العلمية.

من المفكرين الإسلاميين الذين سبقوا شيخ الإسلام ابن تيمية أو عاصروه من كان ذا معرفة واسعة بالفكر الفلسفي وما اتصل به آنذاك من علوم رياضية وطبيعية وكيماوية وفلكية ومنطقية وغير ذلك، لكن بضاعتهم في العلوم الشرعية كانت مزجاة، لذلك تأثروا بكثير من نواحي الفكر اليوناني المخالفة للإسلام، بل إن منهم من جعل هذا الفكر أساساً له، وحاول أن يفسر الإسلام في نطاقه، فجره هذا إلى إنكار بعض أصول الدين أو تأويلها تأويلاً تعطيلياً. ومنهم من كان ذا معرفة جيدة بالعلوم الشرعية من لغة وتفسير وحديث وفقه وأصول فقه، لكنه يجهل العلوم الفلسفية والكلامية وما اتصل بها جهلاً كاملاً، لذلك لم يستطع أن ينقدها، أو يبين زيفها ويقي الناس شرها .بل إن من هؤلاء العلماء الأفاضل من كان سبب فتنة لبعض الناس لأنه لم يميز بين ما في الفكر اليوناني من حقائق يؤيدها الدليل العقلي أو الحسي، وما فيه من عقائد فاسدة، وآراء باطلة ولا سيما في مسائل الإلهيات، فحكموا على الجميع بالبطلان ومخالفة الإسلام.

وفي أمثال هؤلاء العلماء يقول أبو حامد الغزالي: «ومن ظن أن المناظرة في إبطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره، فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية، لا يبقى معها ريبة، فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها... إذا قيل له إن هذا على خلاف الشرع، لم يسترب فيها وإنما يسترب في الشرع».

وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه، وهو كما قيل: (عدو عاقل خير من صديق جاهل).

ومنهم من جمع بين الاطلاع الواسع على هذه العلوم وكان مع ذلك من علماء الشريعة المرموقين، لكن علمه بسنة الرسول ﷺ وبأقوال السلف كان قليلاً. بل لم يميز بين صحيح الأحاديث والآثار وضعيفها. ولم يكن فهمه لمسائل العقيدة هو الفهم السلفي الصحيح الذي تدل عليه النصوص والآثار. ومنهم من تفرغ للعبادة والذكر والاهتمام بأحوال القلوب ومقومات السلوك، ولم يُرد أن يشغل نفسه بالأمور العامة، ولا سيما مجادلة أهل الباطل.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد أعطاه الله تعالى نصيباً وافراً من كل خير أعطاه لهؤلاء المفكرين والعلماء، فقد كان رحمه الله رجلاً حاد الذكاء، سريع القراءة والكتابة والفهم. وكان بحراً في علوم القرآن والسنة، ذا اطلاع واسع على آثار الصحابة وما جاء بعدهم من الأئمة، متضلعاً في العلوم العربية حتى قيل إنه استدرك عدة مسائل على سيبويه، مطلعاً على أصول الفقه وفروعه وأقوال المذاهب اطلاع العالم المختص.

وكان ذا معرفة دقيقة بالمذاهب الكلامية وأقوال الفرق، حتى لقد قال هو عن نفسه إنه جادل الفلاسفة وعمره أربعة عشر عاماً! وكان عالماً بعقائد اليهود والنصارى ومذاهبهم، غواصاً في علوم عصره الرياضية والطبيعية والفلكية والتاريخية.

وكان إلى جانب هذا العلم الواسع وذاك الذكاء الخارق، رجل عبادة وزهد، وكان مع عبادته وزهده ذا اهتمام كبير بقضايا عصره العلمية والعملية، السياسية والاستراتيجية والاقتصادية والاجتماعية والاعتقادية والتربوية وما شئت من قضايا. وكان مع جهاده بالقلم واللسان مجاهداً بالسيف والسنان.

ميزة ابن تيمية أنه سلط ما حباه الله به من أنوار الرسالة المحمدية، وما منحه من مواهب فطرية، وما حلاه به من فضائل خلقية، سلط كل هذا على مشكلات عصره الواقعية والعلمية، فكان قوله في معظمها هو القول الفصل الذي يشهد له صحيح الأدلة النقلية، وصريح الحجج العقلية، ووضوح الصياغة البيانية، وجمال القيم الخلقية العلمية.

* * *

نذر الشر تقترب

الأحد ٠٩ ذو القعدة ١٤٢٥ هـ/ ١٩ ديسمبر ٢٠٠٠م
شبكة المشكاة الإسلامية

في الثلاثين من شهر أغسطس من هذه السنة كتبت صحفية اسمها "جولي فلنت" مقالاً بجريدة الإندبندنت البريطانية قالت فيه إنه على مجلس الأمن أن يقرر أن حكومة السودان لم تف بمتطلبات قراره بشأن دارفور، ويجب عليه أن يسمي المجرمين بأسمائهم وهم:

نائب الرئيس علي عثمان محمد طه.

ووزير الحكم الفدرالي نافع علي نافع.

ووزير الدفاع بكري حسن.

ورئيس المخابرات صلاح جوش.

يجب أن يمنعوا هم وأسرهم من السفر الدولي، وأن تجمد أرصدتهم، وأن تكون لجنة عالمية للتحقيق في جرائم الحرب.

يجب أن تفرض عقوبات على صناعة النفط السوداني، وعلى كل ممتلكات الحزب الحاكم. والمقاطعة التي كانت موجهة ضد الجنجويد يجب أن يعلن توجيهها إلى الحكومة. ثم تقول إنه إذا لم تفعل الأمم المتحدة شيئاً من هذا فلا بد من عمل فردي للضغط على حكومة الخرطوم. بقي أن يعلم القارئ أن كاتبة هذا المقال هي كاتبة تقرير منظمة Human Watch عن دارفور.

وفي مجلة أمريكية مختصة بعرض الكتب اسمها:

The New York Review of Books

كتب جون رايل مقالاً طويلاً بعنوان مأساة دارفور. ومع أن هذا الكاتب يعترف في مقاله بأن السبب الأساس لتخلف دارفور هو إهمال الحكم البريطاني لها لمدة خمسين عاماً.

ومع أنه يعترف بأنه لا يمكن التفريق بين العرب والأفارقة باللون، ومع أنه يعترف بأن الأفارقة و العرب يتزاوجون، ومع أنه يقول إن الحكومة الحالية لم تعد إسلامية، إلا أنه في النهاية يمضي إلى أكثر مما ذهبت إليه الصحفية البريطانية.

إنه يرى أنه لا حل للمشكلة إلا بأن تهدد الحكومة بغزو خارجي.

والمفهوم من كلامه أنه غزو يجب أن يكون أمريكياً أوروبياً لأن الصين ودولاً أخرى تقف مع السودان فلا يمكن أن توافق على غزو باسم الأمم المتحدة.

إنه يقول: «إنه ليس من المعقول أن تحصر مسؤولية الاستراتيجية العسكرية المطبقة بدارفور أو الجنوب في موظفين معينين في الأجهزة الأمنية السرية الداخلية، أو في المخابرات العسكرية. إذا كان هنالك من مذنب فيجب أن يكون السلطة العليا، القائد العام، رئيس الجمهورية».

ثم يجيء قرار باول بتصنيف ما يحدث في السودان بأنه يرقى إلى الإبادة الجماعية، وأن المسؤول عن هذه الإبادة هو حكومة السودان. وتسأل قناة الجزيرة الزعيم السوداني الصادق المهدي عن قول باول؛ فيجيب بأنهم كانوا قد نصحوا الحكومة فلم تستجب لهم.

يسأل عما يمكن أن يعمل فيجيب بأن المجتمع الدولي قد تولى المبادرة الآن. فهذا الزعيم السوداني يجعل قول باول هو مبادرة المجتمع الدولي. ويسأل زعيم سوداني آخر هو جون قرنق فيقول إنه يوافق باول على قوله.

ماذا بقي؟

لم يبق إلا أن تعد العدة لإزالة الحكومة السودانية بقوة قوامها الأمريكان والإنجليز كما حدث في أفغانستان والعراق.

وبمساعدة من قوى سودانية داخلية كما حدث في تلك البلاد. وإذا حدث هذا فلن يكون الحاكم الجديد السيد الصادق ولا السيد محمد عثمان بل ولا السيد قرنق كما لم يكن في أفغانستان أمثال رباني وسياف. سيكون الجديد - أجارنا الله- كرازاي سوداني.

* * *

نظرات فكرية في السياسة السودانية

جريدة الميثاق الإسلامي. الأحد ٤ أبريل ١٩٦٥م

لماذا نطالب بأن تكون للأحزاب فلسفة تسير عليها؟

لأن الحزب الذي ليس له فلسفة ليس حزباً، ولأن مهمة الحزب هي توضيح المبادئ التي يسير عليها والطريقة العملية التي تنفذ بها هذه المبادئ، كما أن الحزب الذي لا يملك فلسفة قد يكون مصدر خطر على الأمة؛ لأن عضويته تكون وسيلة لتحقيق المطامع والوصول إلى الحكم فقط وهذا النوع خطره على الأمة جد عظيم.

لماذا نحب أن نفرق بين الفلسفات والبرامج؟

إننا ينبغي أن نفرق بين الفلسفات والبرامج. فالفلسفات ليست تجميع بين مطالب وشعارات الناس وجعلها في قائمة واحدة ثم نقول إنها فلسفتنا فهذا ليس صحيحاً، كما أن البرامج ليست هي الفلسفة. فالفلسفة هي توضيح وجهة نظر في الحياة تكون ديناً للإنسان، لهذا كان يقول الرسول ﷺ كما في القرآن الكريم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. إذن الفلسفة هي تحديد وجهة نظر كاملة للحياة بصرف النظر عن نوعها، وتحديد وجهة النظر في الحياة تحدد السلوك العملي في الحياة. فالإجابة على أسئلةٍ كهل لهذا الكون إله؟ هل هذه الحياة نهاية النهايات... إلخ تحدد مبادئ أساسية في الحياة تؤثر على التطبيق العملي في الدنيا. لذلك مجرد تجميع المطالب والشعارات لا يغني، لأن فيصل التفرقة ليس المطالبة فقط بالشعارات ولكن الإيمان بها والعمل لها.

كثيراً من الناس وخصوصاً المثقفين يعتقدون أن هذه الشعارات التي تمثل واقعنا ليست موجودة في الدين. فهم يقولون لماذا لا ندع الدين وننظر إلى مشاكلنا الواقعية ونحملها عن طريق فلسفة الخطأ والصواب. ولكن -كما يقول الميثاق المصري إن تجربة الخطأ والصواب لا تجدي إلا في إطار نظرية. علينا أن نحدد الهدف ثم نسير عليه وترينا التجربة العملية صحة أو خطأ هذه الأشياء. أما البدء من لا شيء فغير ممكن وأي إ نسان ليست له وجهة نظر إما أن يكون خطراً على الحياة أو يكون ريشة في مهب الفلسفات التي تمر عليه لأنه لا يستطيع تكوين رأي. أما الذي له وجهة نظر وفلسفة في الحياة فيملك مقياساً يستطيع على ضوئه تبيان الأشياء. والمجتمع السوداني يرينا أن الاتجاهات الإسلامية والماركسية هي التي تملك فلسفات في هذا البلد. أما

مسألة الروح الإسلامية والتسامح... إلخ فهي أشياء لا تجدي إذا أُخذت مجزأة. ومن مميزات جبهة الميثاق الإسلامي أنها تعتبر الإسلام أساساً تبني عليه بنياناً، فكل رأي وكل عمل نريده أن ينبع من الإسلام وعلى هذا يكون مقياس الحزب الإسلامي. ومن تجربة الجمهورية العربية التي يجب أن يطلع عليها المثقفون في هذا البلد من ضمن اطلاعهم على تجارب البلدان الأخرى نرى أن مسألة تجميع الشعارات ومحاولة تجميعها في فلسفة قد فشلت ثم محاولة الجمع بين النظرية الماركسية والاتجاه الإسلامي في فلسفة اشتراكية متميزة عن الإسلام وعن الفلسفة الماركسية قد فشلت أيضاً. كل هذا دليل على أهمية الإيمان بفكرة واحدة متكاملة.

محنة المثقفين في هذا البلد: أما المثقفون في هذا البلد فيعيشون في محنة لأنهم لا يؤمنون بشيء. فهم لا يريدون الإيمان بالشيوعية، كما أنهم لا يؤمنون بالإسلام عن جهل به، ويحاولون الإيمان بقيم غربية غريبة عن مجتمعنا. ونحن نرى أن من يريد أن يكون جاداً لا بد أن يؤمن بفكرة ويعمل لها.

ماذا نريد؟ ما هي برامجنا العملية؟ هذا ما يسألنا عنه الناس:

أهم شيء نريده ونظن أننا قد نجحنا فيه أن نحدد الاتجاه الذي تسير عليه البلاد، وهذا من أهم الأشياء في فترات الانتقال، كما أن الحديث في التفاصيل في هذه الآونة لا يجدي كثيراً والمهم هو أولاً تبيان الاتجاه، واتجاهنا هو الإسلام ونحن نريد أن نبني حياتنا في كل جوانبها عليه..

نقول إننا قد نجحنا في تحديد الاتجاه إلى الآن ودليلنا على ذلك أن كل الليالي السياسية الآن تتكلم عن الإسلام بينما كان الحديث عن الإسلام في الماضي يثير الضحك ويوصف بالرجعية، ولكنه أصبح الآن بضاعة رائجة لحديث كل الناس.

ومع تحديدنا للاتجاه الإسلامي العام حاولنا أن نحدد اتجاهات جوانب الحياة الإسلامية في السياسة والاقتصاد والاجتماع ... إلخ ففي السياسة أوضحنا الشكل الدستوري الذي نريده من جمهورية برلمانية رئاسية تقوم على الحرية والشورى إلخ. أما الناحية الاقتصادية فقد تحدثنا عنها ولعلها من المسائل التي تريد كثيراً من الحديث بشكل عام وقبل أن نتحدث عنها نريد أن نوضح مهمة ومفهوم الدولة في الإسلام. فالحديث عن هذا يلقي بعض الضوء على كثير من المشاكل.

* * *

يوميات الميثاق: عن الصحافة والصحفيين

جريدة الميثاق الإسلامي، العدد
٩٠٩، شعبان ١٣٨٥ هـ الموافق ٢ ديسمبر ١٩٦٥

ليس من حق إنسان حزبياً كان أو غير حزبي أن يطلب من الصحافة أو يتوقع إلا تنشر إلا الخبر الذي يرضيه وأن لا يعبر محرروها إلا عن الرأي الذي يراه.

ولكن من حق كل إنسان على الصحافة كلها وعلى المستقلة منها بالذات أن تكون عادلة و أمينة، والعدالة تقتضي وضع الأمور أماكنها الصحيحة. والأمانة تقتضي كشف الحقائق من غير تحيز.

وبعد هذا، بعد أن توضع الأمور في أماكنها، وبعد أن تكشف الحقائق من غير تحيز، بعد هذا للمحرر أن يرى في كلمته ما شاء من آراء فآراؤه لا تعدو أن تكون آراء فرد من سائر الناس.

ولكن بعض صحفنا المستقلة لا تفهم مهمتها هذا الفهم المستقيم. إنها تخلط بين واجبها الأساسي كأداة عادلة أمينة لاطلاع المواطنين على الحقائق التي يبنون عليها آراءهم، وبين مهمتها الثانوية كوسيلة للترويج لآراء المحررين واتجاهاتهم.

ومن ثم فأنت ترى معظم الأخبار مسوقة بطريقة تؤيد وجهة النظر التي تعبر عنها كلمة المحرر.

خبر عن هيئة أساتذة الجامعة يبرز بالعناوين الكبيرة وخبر آخر عن مجموعة أخرى تمثل الأساتذة الحقيقيين تمثيلاً أصدق يوضع في ركن قصي لا يكاد يُرى.

لماذا؟ لأن المحرر كان يود أن لو لم يظهر هذا الخبر.

إنني مؤمن بحرية الصحافة، لكنني مشفق على صحافتنا المستقلة، مشفق عليها لأنني أعلم أن كل أمر يقوم على الظلم والافتراء فلن يحيا طويلاً في أمة مفطورة على كراهية الظلم والخيانة. مشفق عليها لأنني أعلم أنها بهذا

السلوك الظالم تعطي المتضررين منها سلاحاً لهدمها. يومذاك سيقل عدد العاطفين عليها.

❖ إنني أكاد احتقر كل إنسان منَّ الله عليه بشيء من وعي وأعطاه نعمة القراءة إذا كان لا يزال يتساءل:

هل الشيوعية إلحاد أم ليست إلحاداً؟

لا أحتقره لجهله ولكن لكسله وانحطاط همته..

لأنني أتوقع من كل إنسان تعلم القراءة وأعطي شيئاً من علو الهمة أن لا يبقى حائراً مرتاباً في أمر من السهل عليه أن يجد جوابه في أقرب لمكتبات.

ويبلغ الأمر حد الطامة الكبرى حين يأتي التساؤل من وكالة للأنباء لا من فرد عادي.

قالت: وكالة أخبار الخرطوم للسكرتير العام للحزب الشيوعي إن عدداً لا يستهان به من السودانيين تساورهم الشكوك حول العلاقة بين الإسلام والشيوعية.

ولم تناقشه حين قال لها: «إن السبب في ذلك هو الاستعمار الذي ألقى في روع الشعوب المسلمة أن الاشتراكية والشيوعية ضد الأديان!!».

لم تقل له إننا نعلم إن الشيوعية ضد الأديان وأن ما جاء في كتابكم الفلاني وعبر عنه الفيلسوف العلاني.

وذهب بي الخيال إلى صحفيين ومعلقين آخرين في بلد بعيد عن بلدي الكريم إلى صحفيين بريطانيين رأيتهم يناقشون القادة والوزراء نقاش العالم الخبير الذي لا يقبل الإجابة إلا بعد تمحيص وأخذ ورد يحرج القادة والوزراء.

وقلت لماذا يعجز محررونا عن أن يكونوا كأولئك.

❊ ❊ ❊

المقالات متنوعة التى نشرت في مجلة البيان حسب تاريخ نشرها

١) أخرجوهم فإنهم مسلمون:

مجلة البيان ١٣٩ ربيع الأول ١٤٢٠ يوليو ١٩٩٩م

يتحدث الشيخ في هذه المقالة عن سبب إخراج المسلمين من كوسوفا، وأن هذا هو كان هدف الطائفة الحاقدة من الصرب ممثلةً في رئيسها الدكتاتور المغرور المستكبر الكذاب ميلوسيفتش ومن معه هو إخراج المسلمين جميعاً من كوسوفا، بل ومن أوروبا كلها إن أمكن، بل ومحوهم من على ظهر الأرض إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

٢) تم......تم......تم أسلوب جديد ركيك:

مجلة البيان ١٩٩ ربيع الأول ١٤٢٥ أبريل / مايو ٢٠٠٤م

تحدث الشيخ في هذا المقال عن أسلوب تم...تم...تم، وأنه اسلوب ركيك وأن نصحح هذا الخطأ الذي رسخ في أذهاننا سنين عدة، إن أول خطوة هي أن نكون مقتنعين بخطئه وقبحه، ثم إذا كان الواحد منا كاتباً فعليه أن يراجع ما كتب ليحذف منه كل ورود لكلمة تم بهذا المعنى الغالط، وإذا كان مصححاً في صحيفة أو دار نشر فعليه أن يفعل مثل ذلك. ثم على الأساتذة ولا سيما مدرسي اللغة العربية أن ينبهوا طلابهم إلى هذا حتى لو كانوا هم أنفسهم من الذين يرتكبون هذا الخطأ.

٣) عبر من فتنة دارفور:

مجلة البيان ٢٠٤ شعبان ١٤٢٥ سبتمبر أكتوبر ٢٠٠٤م

وفي هذه المقالة تحدث الشيخ عن بعض العبر والدروس من الفتنة التي حصلت في دارفور في السودان.

٤) المواطنة والهوية:

مجلة البيان ٢١١ ربيع الاول ١٤٢٦ مايو ٢٠٠٥م

في هذا المقال يبين الشيخ العلاقة بين المواطنة والهوية فيذكر أن المواطنة انتساب جغرافي، والهوية انتساب ثقافي والمواطنة انتساب إلى أرض معينة، والهوية انتساب إلى معتقدات وقيم ومعايير معينة، ثم يذكر العلاقة بينهما فيقول حفظه الله: الهوية لازمة للمواطنة؛ لأن المواطنين لا بد لهم من نظام سياسي، وعلاقات اقتصادية واجتماعية، وقوانين تضبط هذه العلاقات، وكل هذا إنما يبنى على معتقدات وقيم ومعايير؛ أي على هوية معينة.

٥) وانفصل الجنوب:

مجلة البيان ٢٥٨ جمادى الأولى ١٤٣٢ أبريل ٢٠١١م

تحدث الشيخ عن انفصال جنوب السودان عن شماله، وذكر -حفظه الله- أن هذا من أقوى الشواهد على أضرار حال التمزق الذي تعيشه الأمة العربية؛ ذلك لو أنها كانت أمة واحدة، بل لو كان بينها من الائتلاف ما بين الدول الأوروبية لما تجرأ أحد على اقتطاع جزء منها.

ثانياً: كتب ودراسات

صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي

وهذا الكتاب قام بإصداره مركز البيان، وهو عبارة عن مجموع مقالات في مجلة البيان وموضوعات أخرى سبق أن نشر بعضها في كتب وبعضها في مجلات عربية وإسلامية، وقد قسمت هذه المقالات والموضوعات إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: الحضارات...صراع أم تعايش؟

ويحوي الموضوعات التالية:

١- العولمة وصراع الحضارات:

وهو عبارة عن مقال نشر في مجلة البيان العدد١٦٩، رمضان ١٤٢٢الموافق نوفمبر ديسمبر ٢٠٠١م وأشرنا إليه في قسم المقالات.

٢- موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى:

وهي عبارة عن محاضرة ألقاها الدكتور جعفر شيخ إدريس في مهرجان الجنادرية الحادي عشر عام ١٤١٦بعنوان موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى رؤية شرعية، وقد قامت الإدارة العامة للحرس الوطني بطباعة هذه المحاضرة مع مجموعة من المحاضرات ضمن إصدرات المهرجان الوطني للتراث في كتاب عام ١٤١٧-١٩٩٧م بإشراف الدكتور عبد الرحمن السبيت.

وقد صدر الدكتور محاضرته بسؤال والاجابة عنه وهو: هل صدام الحضارات أمر لازم؟ وذكر الاختلاف في ذلك، ثم تحدث عن طبيعة العصبيات الثقافية والموقف الإسلامي من الحضارات من حيث المبدأ:

١-الموقف من المعتقدات.

٢-الموقف من المعتقدين.

(أ) من المسلمين.

(ب) من غير المسلمين.

ثم ختم الدكتور المحاضرة بالموقف في الظروف الراهنة لخصها في أربعة واجبات:

١-الدعوة إلى الحق.

٢-إعداد القوة الرادعة.

٣-الجنوح للسلم وحل المشكلات بالتفاهم والعدل والقسط.

٤-تبادل المنافع.

٣- صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية:

وهو عبارة عن بحث قدم لمؤتمر عقد في قاعة الصداقة بالخرطوم في ١٧رجب ١٤٢٣الموافق ٢٤سبتمبر ٢٠٠٢م.

بدأ الشيخ بحثه بسؤال ما الحضارات التي يقال إنها تتصارع الآن؟ وخلص الشيخ إلى أنه ليس هناك في واقع الأمر صراع بين حضارة غربية وأخرى إسلامية؛ لأنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية بالمعنى الذي توجد به حضارة غربية، أو بالمعنى الذي توجد به حضارة إسلامية. ثم يسأل الشيخ فما مشكلتنا مع الحضارة الغربية إذن؟ والاجابة هي أن مشكلتنا أن الحضارة الغربية ليست راضية حتى بهذا القليل الذي تبقى لنا من الحضارة الإسلامية، بل تريد لنا ولغيرنا ألا نكون عقبة في طريق مصالحها القيمية أو المادية، بل أن نكون تابعين في كل ذلك لها. فهم يخشون على حضارتهم من كل بادرة إحياء للحضارة الإسلامية التي كانت سائدة، ومما يزيدهم خوفاً قول المختصين منهم في التاريخ الإسلامي إن للإسلام مقدرة عجيبة على العودة كلما هزم. ثم يورد الشيخ سؤالاً: ما الإجراءات التي يجب أن تتخذ لضمان عدم عودته؟

من الضمانات: الدعوة إلى الانفرادية وضرورة الاستمرار في العمل ضمن الأطر العالمية السائدة.

ثم تحدث الدكتور عن كيفية تعامل الغرب مع المسلمين ولاسيما العرب منهم؟ ثم ذكر المواقف التي ينبغي أن تتخذ لدرء الخطر الإسلامي منها:

١- محاربة ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام.

٢- معالجة الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى معاداة المسلمين للغرب. ثم أشار الدكتور إلى القضية الفلسطينية وأثرها في عداوة الشعوب الإسلامية ولا سيما العربية للولايات المتحدة الأمريكية، كما أشار إلى الفكر الأمريكي المعارض وأثرها

المحدود في أمريكا الواسعة، ثم ختم البحث بالبعث الإسلامي الحضاري وأن المسلمين ما زالوا بحمد الله قادرين إلى العودة والاستمساك الصحيح بدينهم.

٤- علاقة الغرب الاستعمارية بالعالم:

وهو بحث مقدم إلى مؤتمر العلاقات الدولية بين الإسلام والحضارة المعاصرة والتي نظمته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ٢٠٠٣م.

تحدث الدكتور في هذا البحث عن علاقة الغرب الاستعماري بالعالم وقسم الدكتور الاستعمار لقسمين:

الاستعمار الغربي القديم وذكر مسوغات الاعتداء على الشعوب وأراضيها والتي منها:

أولاً: العنصرية. ثانياً: نشر المسيحية. ثالثاً: التنافس والتكاثر بين الدول الغربية. ورابعاً: الضرورات الاستراتيجية التي أدى إليها ذلك التنافس بين الدول المستعمرة وخامساً: الطمع المادي. وذكر الدكتور أن هذه المسوغات كلها غير مقبولة خلقاً وغير قائمة على أسس علمية.

الاستعمار الغربي الجديد وذكر الدكتور أبرز منظري الاستعمار الجديد. وهما البريطاني روبرت كوبر والأمريكي هنري كسنجر .

ويرى كوبر أن الدول في العالم ثلاثة أنواع أرقاها ما أسماه بالدولة فوق الحديثة، ثم الحديثة، ثم قبل الحديثة. ويلخص كوبر الدولة فوق الحديثة في المسائل التالية: إزالة الفوارق بين الشؤون الداخلية والشؤون الخارجية، التدخل المتبادل فيما كان يعد شؤوناً محلية لكل دولة، رفض العنف وسيلة لحل المشكلات، اعتماد الأمن على الشفافية والانفتاح، عدم أهمية الحدود.

ثم يختم الدكتور بحثه بالسؤال: ماذا نفعل نحن المسلمين والعرب بخاصة إزاء هذه الأفكار الجديدة التي بدأت تكون واقعاً جديداً؟

وذكر الدكتور أن هناك سبباً أساسياً يتعلق بالدين، وأسباب أخرى تتعلق بالتقدم المادي.

٥) ودوا لو تكفرون كما كفروا:

وهو مقال ذكروا في الكتاب أنه نشر في مجلة البيان العدد١٧١ذو القعدة ١٤٢٢ ولم أعثر عليه في إصدارات مجلة البيان، وإنما نشر في موقع الشيخ جعفر شيخ إدريس على الشبكة العنكبوتية بتاريخ ٢٩شعبان ١٤٢٤الموافق ٢٠٠٣م.

يقول الدكتور في هذا المقال يتساءل كثيرٌ من المسلمين اليوم عمّا إذا كانت الحرب الأمريكية الغربية على ما يسمونه بالإرهاب حرباً دينية؟ الإجابة تعتمد فيما أرى على المقصود بالحرب الدينية. فإذا كان المعني بها أن الغرب يريد أن يحارب الإسلام باسم المسيحية، أو أنه يريد نشر المسيحية؛ فإن حربه ليست دينية؛ لأن الواقع أن إيمان الغربيين بالمسيحية أو اليهودية صار أضعف بكثير مما كان عليه في الماضي، بل إن جمهرة كبيرة من قادتهم ومسؤوليهم لم تعد تؤمن بها ولا بأمثالها من الأديان. بَيْدَ أنهم -وحتى الملحدين منهم- لهم نوع من الانتماء إلى هاتين الديانتين باعتبارهما جزءاً من تاريخهم ومكوناً مهمّاً من مكونات حضارتهم التي يفاخرون بها ويعُدُّونها خيرَ حضارةٍ عرفتها البشرية. ثم يقول الدكتور إذاً ماذا يريدون منا؟

قادة الحضارة الغربية يريدون منا معاشر المسلمين أن نلبي لهم ثلاثة مطالب:

أولها: أن تكون العلمانية منهج حياتنا كما هي منهج حياتهم، وأن لا يحتلّ الإسلامَ إلا مكاناً ضيقاً في إطارها.

ثانياً: لكن هذه العلمانية يجب أن تكون ليبرالية ديمقراطية في السياسة، رأسمالية حرة في الاقتصاد، إباحية في القيم.

ثالثاً: أن تكون هذه العلمانية العربية أو (الإسلامية) خادمة لمصالح الدول الغربية ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية؛ وذلك لأن الدولة قد تحقق ذينك الشرطين السابقين، لكنها تكون مع ذلك دولة قوية مستقلة منافسة للدول الغربية.

٦- تصور إسلامي للتعايش السلمي:

وهي مقالة نشرت في ٢٦يونيو ٢٠٠٧م ولم يذكر مصدرها.

وذكر الشيخ في هذه المقالة أن التعايش السلمي مع الأديان غير الإسلامية مبدأ إسلامي أصيل دلت عليه النصوص، وطبقه المسلمون طوال تاريخهم، ثم ذكر الشيخ

الحقائق والمبادئ الإسلامية التي قام عليها هذا المبدأ، ثم ذكر الشيخ -حفظه الله- تاريخ التسامح عند المسلمين، وأسباب الحروب الإسلامية، وأشكال الظلم الذي دعا الإسلام لمحاربته.

ثم ختم مقالته بالحاجة إلى التعايش السلمي في عصرنا.

٧- أصول إسلامية للعلاقات الدولية:

وهو بحث مقدم لندوة الإسلام في شرق آسيا حضارة ومعاصرة، تايبيه بتايوان ١٤٢٥ الموافق ٢٠٠٤م.

وهذه الورقة كما أشار الدكتور هي في الأصول الإسلامية التي تؤسس عليها العلاقات الدولية، فهي أشبه ما تكون الآن بما يسمى بفلسفة العلاقات الدولية، ثم تحدث الشيخ عن التصور الإسلامي للإنسان، وذكر شيئاً من الآثار السياسية لهذا التصور الإسلامي للإنسان، ثم ختم هذه الورقة بمسوغات الإذن بالقتال في الإسلام.

القسم الثاني: -أسس الفكر الغربي ونقدها:

ويحوي الموضوعات التالية:

١- نقد الفكر الغربي بمنهج علمي:

وهو بحث نشر في التقرير الاستراتيجي للبيان ١٤٣١الموافق ٢٠١٠م وقد ذكر الشيخ في هذا البحث مميزات المنهج العلمي في نقد الفكر الغربي، ثم تحدث عن الفكر الغربي، والحركة التنويرية، ولماذا وقف التنويريون من الدين ذلك الموقف شبه العدائي، ثم تحدث الشيخ عن القيم الغربية، ثم عن الديمقراطية، وضرورة العلم والأمانة، وأنهما شرطان لا يمكن أن يكون الحكم محققاً للغاية منه إلا بهما، ثم تحدث عن الرأسمالية وعلاقة الديمقراطية بالرأسمالية والليبرالية، ثم ختم بحثه بالحديث عن الفكر العلمي عند الغربيين.

٢- عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القيم الغربية:

وهي ورقة كتبت لمؤتمر تعظيم حرمات الإسلام الذي عقد في الكويت من ٢٢-٢٤ يناير ٢٠٠٧م ذكر الشيخ في مقدمة بحثه أن القادة السياسيين في الغرب يعتقدون أن

الإسلام هو الآن العدو الأكبر على الحضارة الغربية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، ثم يذكر الشيخ أن هناك عناصر مشتركة تمثل القيم بينهم، وذكر أنها عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القول والسلوك، ثم تحدث الشيخ عن الفكر اليوناني، والديانة اليهودية والديانة النصرانية والحضارة الرومانية وحركتا الإصلاح والبعث وحركة التنوير والليبرالية والديمقراطية والعلوم الطبيعية، ثم تحدث الشيخ عن طبيعة القيم الغربية، وختم بحثه بالعمل الذي ينبغي على المسلمين فعله.

٣-الدعوة الإسلامية والغزو الفكري:

وهو بحث قدم هذا البحث في المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية الذي عقد في الخرطوم ٢٢-٢٦جمادى الأولى عام ١٤٠١الموافق ٢٨مارس -١أبريل ١٩٨١م بمناسبة القرن الخامس الهجري، وقد نشر قبل ذلك في مجلة هذه سبيلي العدد الخامس ١٤٠٣/١٩٨٣م التي تصدر في المعهد العالي للدعوة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ثم طبعته رابطة الشباب المسلم العربي (اللجنة الثقافية) سلسلة البحوث والدراسات عام ١٩٨٧م في كتيب صغير، وقد أشرنا إليه من قبل.

القسم الثالث: البعث الإسلامي:

ويحوي الموضوعات التالية:

١- وحدة لصد الحرب الغربية على الإسلام:

وهو بحث قدم لمؤتمر وحدة الأمة الإسلامية الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي عام ٢٠٠٥م.

في هذا البحث بدأ الشيخ حديثه عن الوحدة الكاملة المثالية للمسلمين، وهي أن يكونوا كما كانوا في عهد النبي ﷺ أمة واحدة ذات عقيدة لا يخالطها شرك وعبادة خالية من كل بدعة وخلق حسن وعمل صالح، ثم ذكر الشيخ مشروع لمحاربة الإسلام اسمه "Muslim World Outreach" وأشار الشيخ إلى تكتيك السي آي إي الأمريكية، ثم تحدث الشيخ عن مسؤولية العلماء ومسؤولية الحكومات ومسؤولية المنظمات الإسلامية الرسمية ومسؤولية المنظمات الإسلامية الشعبية ومسؤولية الإعلام.

٢- حوار حول صراع الحضارات:

وهو مقابلة أجرتها مجلة الفيصل مع الدكتور جعفر شيخ إدريس العدد ٢٥٧ والحوار مع الشيخ حول الحضارة الغربية، وكيف ستكون العلاقة بين الإسلام والغرب.

* * * * *

حوار حول الفكر الإسلامي والفكر الغربي

مقابلة مع مجلة البيان العدد ٥٥ ربيع الأول ١٤١٣الموافق١٩٩٢م والعدد ٥٦ ربيع الآخر ١٤١٣الموافق أكتوبر ١٩٩٢م.

وهي حوارات كما هو عنوانها حول الفكر الإسلامي والفكر الغربي .

٢- ما فرص نجاح الإمبريالية الجديدة؟

وهو بحث قدم لمؤتمر الإسلام والغرب في عالم متغير الذي نظمته وزارة الإرشاد والأوقاف بالسودان في الخرطوم عام ٢٠٠٣م.

وفي هذه المقالة يتحدث الشيخ -وفقه الله- عن قوى الحضارة الغربية.

١-القوة الصلبة.

٢-القوة اللينة.

٢- المستقبل لنا:

مقالة في مجلة البيان العدد٢٣٩ رجب ١٤٢٨ الموافق يوليو٢٠٠٧م، وقد أشرنا لها في قسم المقالات.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * * * *